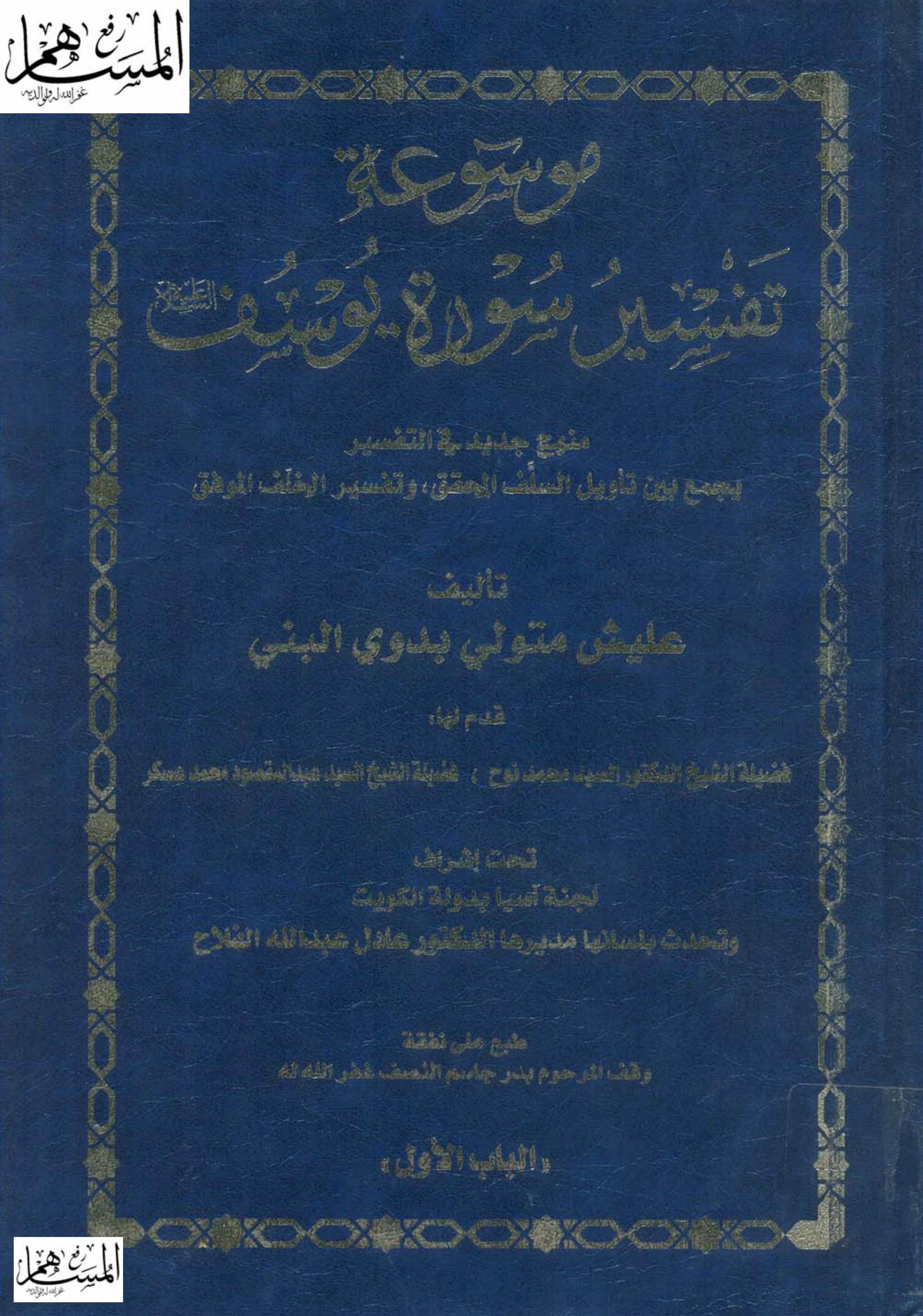

رفع
المسـ هم
غفر الله له ولوالديه
موسوعة
تفسير سورة يوسف عليه السلام
منهج جديد في التفسير
يجمع بين تأويل السلف المحقق، وتفسير الخلف الموفق
تأليف
عليش متولي بدوي البني
قدم لها:
فضيلة الشيخ الدكتور السيد محمد نوح ، فضيلة الشيخ السيد عبدالمقصود محمد عسكر
تحت إشراف
لجنة آسيا بدولة الكويت
وتحدث بلسانها مديرها الدكتور عادل عبدالله الفلاح
طبع على نفقة
وقف المرحوم بدر جاسم النصف غفر الله له
«الباب الأول»
رفع
المسـ هم
غفر الله له ولوالديه



2010-06-27
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

موسوعة
تفسير سورة يوسف (عليه السلام)

منهج جديد في التفسير

يجمع بين تأويل السَّلف المحقق، وتفسير الخلف الموفق

تأليف

عليش متولي بدوي البني

قدم لها: **فضيلة الشيخ الدكتور سيد محمد نوح،**
الأستاذ بكلية الشريعة - جامعة الكويت -

وفضيلة الشيخ السيد عبد المقصود محمد عسكر
الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - سابقاً

تحت إشراف

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - لجنة آسيا بدولة الكويت -
وتحدث بلسانها مديرها الدكتور عادل عبدالله الفلاح،
وكيل وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت

طبع على نفقة
وقف المرحوم بدر جاسم النصف غفر الله له

« الجز الأول » (بعد المقدمة)

« الباب الأول »

من أول السورة الكريمة (يوسف)
إلى الآية الثالثة والعشرين



«الإهــداء»

إلى من أوصانا المولى عز وجل بالإحسان إليهما ،

إلى الوالدين أمي وأبي ، قال تعالى :

«وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »

(الإسراء / ٢٣)

رفع المسـاهم

رفع
المساهم

كلمات من نور...
(عن يوسف - عليه السلام - وقصته)

أولا - من كتاب الله الكريم.

(أ) قال الله تعالى في حق يوسف - عليه السلام -

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» (يوسف / ٤)

وقال عز ذكره: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» (يوسف ٢١ - ٢٢)

وقال تعالى جده «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (يوسف / ٢٤)

وقال تباركت أسماؤه: «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (يوسف / ٣٤)

وقال الرحمن المنان: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف / ٥٦)

(ب) وقال أبوه يعقوب - عليه السلام - في حقه: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (يوسف / ٦)

وقال: «إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» (يوسف / ١٣)

وقال: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» (يوسف / ٨٤)

وقال: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» (يوسف / ٩٤)



(جـ) وقال العزيز في حقه: «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» (يوسف ٢١)

وقال: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» (يوسف / ٢٩)

(د) وقالت عنه امرأة العزيز: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ» (يوسف / ٣٢)

وقالت: «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (يوسف / ٥١)

(هـ) وقالت عنه النسوة: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ» (يوسف / ٣١)

وقلن: «حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ» (يوسف / ٥١)

(و) وقال عنه الفتيان «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف / ٣٦)

وقال عنه الناجي منهما: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» (يوسف ٤٦)

(ز) وقال عنه الملك: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ» (يوسف / ٥٠)

وقال: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ» (يوسف / ٥٤)

(حـ) وقال إخوته في حقه: «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف / ٧٨)

وقالوا: «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» (يوسف / ٨٨)

وقالوا: «تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» (يوسف / ٩١)

(ط) وقال مؤمن آل فرعون عنه: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً» (غافر / ٣٤)

(ي) وقال يوسف عليه السلام - عن نفسه «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف / ١٠١)

رفع المسيَّب هما

ثانيا - من سنة رسول رب العالمين محمد :

قال رسول الله ﷺ :

«إن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» - عليهم الصلاة والسلام -

أخرجه البخاري / ٦ / ٤١٩

وقال خاتم النبيين - ﷺ -

«لو لبثت في ا لسجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»

رواه البخاري (٤٦٩٤) ومسلم (١٥١ / ٢٣٨)

وقال رحمة الله للعالمين - ﷺ - لما فتح مكة يخاطب قريشاً : ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف (لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ)

(أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة)

ثالثاً - من كلام العلماء المكرمين:

إن قصة يوسف - عليه السلام - هي القصة الوحيدة في القرآن الكريم التي سُبِقَت بوصف أحسن القصص : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» (يوسف / ٣)

وبُدئت بوصفها آيات للسائلين : «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ» (يوسف / ٧) . . .

وخُتمت سورتها ببيان ما في قصص الأنبياء والمرسلين من عبر وهدايات : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (يوسف / ١١١)

وهي القصة الوحيدة التي استغرقت سورة طويلة من القرآن الكريم ولم تتكرر في سورة أخرى، وها هي بعض أقوال العلماء عنها :



• إن قصة يوسف - عليه السلام - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً، ومع أن القرآن الكريم واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء (سيد قطب / في ظلال القرآن ١ / ٤ / ١٩٥١)

• إن قصة يوسف الصديق - عليه السلام - جمّة الفائدة، وجليلة العائدة، تحدوا بكل امرئ أبيّ إلى الاقتداء بها، فإن من أطلق سوام الفكر في حياة يوسف - عليه السلام - رآها رغيدة وألفاها هنيئة، وما ذلك إلا لطيب سيرته وحميد سريرته، وتمسكه بعري التقوى والفضيلة، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة، والتي ترفع قدر صاحبها وتنزله المنزلة السامية، فعلى المرء أن يقتفي أثر هذه الفضيلة الجليلة كيوسف - عليه السلام - فيتسم ذروة المجد في هذه الدنيا، وينال السعادة الدائمة في الآخرة، فأول ما نذكر من هذه السورة أنها مشتملة من آداب الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومن آداب الأخلاق، والتمسك بالصبر والحلم، وتوقع الفرج بعد حين، والتشدد في الصبر على المعاصي، واحتمال المكاره، على مالو تأمله القارئ وتمسك بكله أو بعضه، لعظم ذلك في دينه ودنياه. (عماد الدين أبوالحسن عبدالجبار / تنزيه القران عن المطاعن / ١٨٧)

• لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح (ابن عطاء)

• سورة يوسف ومريم مما يتفكّه به أهل الجنة في الجنة (خالد بن معدان)

إن لسورة يوسف موقعاً خاصاً في النفوس، فلطالما اشتاقت إلى سماعها مرة بعد مرة، ولطالما تفتحت القلوب لها، والآذان لنغماتها الحلوة، وإن لها نغماً علوياً خاصا بها، وإنك لتحس فيها بيد القدر الإلهي تحرك الحوادث، ولترى الإنسان يريد ويقدّر، ومن فوقه عناية إلهية غالبة، تبلغ من هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عواقبها ونهاياتها المرسومة المقدرة، ولطالما هزت هذه السورة المشاعر والعواطف



وحركت الضمائر، وهي تجول بنا في عالم الحياة الإنسانية بحوادثها ووقائعها ومشاعرها وعواطفها وأفكارها وعقائدها..

إنها تفتح أمامنا أفق القدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفذة لقضائه منسجمة مع غايات قدره التي هي الخير المحض، فنجمع بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل، ذلك هو السبب الذي يجعل لسورة يوسف هوى خاصاً في نفوسنا، وهي تأخذ بعقولنا وقلوبنا نحو الله (محمد بن المبارك).

› إن سورة يوسف - عليه السلام - أسلوب فذ فريد في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد. (صفوة التفاسير)

› إن سورة يوسف - عليه السلام - وقصته، قد حظيت بالكثير من الكتابات والدراسات، منها ماتناول الجانب القصصي والفني، ومنها ما ركز على الجانب البلاغي والبياني، ومنها ما اهتم بالجانب النفسي، ومنها ما اقتصر على جانب التربية والعبرة، ومنها ما عبر عن القصة كلها شعراً، ومهما كتب الكتاب وسطر العلماء في فيض نور سورة يوسف - عليه السلام - وقصته، فلن يبلغوا من أسرارها إلا كما يبلغ الباحث عن أسرار المحيط وعجائبه، قليلاً من العلم عن أمواجه وشواطئه، فتبارك من قصها فأحسنها وبينها وجعلها منارة عالية للمهتدين.. تبارك الله رب العالمين.

رفع المسهم

«كلمة لجنة آسيا»

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، وبعد

فهذا هو اللقاء الخامس للجنة آسيا مع الأخ فضيلة الشيخ عليش متولي، بعد أن التقينا معه في كتبه: (الضمير الديني وأثره في زيادة العمل والانتاج) و(حقيقة الجنس في الإسلام) و(عجائب الصدقات) و(موسوعة تفسير سورة يوسف - الميسرة -) وها نحن أولاء نلتقي معه في كتابه القيّم (موسوعة تفسير سورة يوسف) - الأم - في ثلاث مجلدات، وقد اعتكف على تأليفها أكثر من ثمان سنوات...

ونسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، كما نسأله جل ثناؤه أن يتقبل من الأخ المتبرع بقبول مبارك، وأن يخلف عليه في الدارين، إنه سميع مجيب.

وإن لجنة آسيا بدولة الكويت، ليشرفها أن تتقدم بهذا العمل الكبير الى الأمة الاسلامية في المشارق والمغارب، وإنا لنحمد الله تعالى ونشكره أن من بفضله على دولة الكويت، فجعلها مصدرا للخير والبر والرحمة والعون لسائر المسلمين، وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

د/ عادل عبدالله الفلاح

مدير لجنة آسيا (دولة الكويت)



تقديم بقلم الدكتور سيد نوح

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة، والسَّلام على رسول الله محمد - ﷺ - وعلى آله، وأصحابه، والسالكين سبيله، والداعين بدعوته إلى يوم الدين، وبعد

ففي جوِّ المحنة، والشدة التي عاشها المسلمون في مكة أول مرة من: سجن إلى تعذيب إلى تجويع، إلى قتل، وتشريد، في هذا الجو سمع نفر من المسلمين عن قصة يوسف مع إخوته، ووالدهم من أهل الكتاب فطلبوا من النبي - ﷺ - أن يعرفهم بحقيقة هذه القصة، فنزلتْ سورة يوسف كاملة وهي تحمل في طياتها: المواساة، والتسلية لما نزل بهم من المحن والشدائد، وكأنها تقول لهم: لستم أول من امتحن، وابتلي، إذ هذا موكب طويل سار فيه الأنبياء والمرسلون من لدن آدم إلى محمد - ﷺ - ويوسف واخوته، ووالدهم ممن ساروا في هذا الموكب، وعليكم أن تصبروا وأن تتقوا إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً، تأسيا بما صنع يوسف - عليه السلام - ووالده، متمثلين مقولته: «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف: ٩٠).

كما أنها تحمل في طياتها: التبشير بالنصر، والتمكن، ولكنها تضعهم أمام مسئولية إدارة النصر. كأنها تقول لهم: ليس المهم تحقق النصر فإن ذلك سهل، وميسور، وإنما المهم الحفاظ على النصر إذا جاء وإدارته بصورة ترضي الله والرسول من الحفاظ على حرمة الدين، والدم، والعقل، والعرض، والمال...

وقد لفت ربُّ العزة النظر إلى ذلك حين ذكر في كتابه مقولة موسى لقومه: «عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» (الأعراف: ١٢٩).

كما لفت النبي - ﷺ - النظر إليه حين قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟» قال عبد الرحمن بن عوف تقول كما أمرنا الله، قال رسول الله - ﷺ -:



«أو غير ذلك تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك،ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»(١).

تضمنت سورة يوسف هذه الحقائق، وفسَّرها المفسرون والدعاة إلى الله كما فسَّروا غيرها من سور القرآن الكريم، وجاء تفسيرهم تفسيراً تحليليا لا موضوعيا حيث يعرضون سبب النزول، ومعاني المفردات والكلمات، والاعراب، والبلاغة، والمعنى الكلي مع الكشف عن المشكلات.

إما بالتأليف والتوفيق، وإما بالقول بالنسخ، وإما بالترجيح أو التوقف وكان الأمر بحاجة إلى دراسة موضوعية تبني على الدراسة التحليلية وتضع اليد على موطن العظمة، والعبرة، فيبقى القرآن الكريم كتاب الحياة في عصر نزوله، وبعد عصر نزوله إلى اليوم، وسيظل كذلك إلى يوم الدين.

وقد انبرى فضيلة الشيخ الجليل: عليش البنّي، فحقق للناس هذه الحاجة بعمل هذه الموسوعة المباركة: «موسوعة تفسير سورة يوسف - عليه السلام -» متوخيا فيها: التفسير التحليلي المتمثل في:

١ - النص القرآني للآية أو الآيات.

٢ - القراءات، وتوجيهها بما يفسر النص، ويشرحه، ويحليه، ويظهره، إذ القراءات من بين ما يستعان به في تفسير القرآن.

٣ - اللغة فقها، ودلالة، بما يبرز الجانب الأساسي في الإعجاز القرآني ألا وهو الإعجاز اللفظي والبلاغي.

٤ - الإعراب بما يكشف عن المعنى المراد، ويغلق الطريق على الاجتهادات المنحرفة، والباطلة.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه ٤ / ٢٢٧٤-٢٢٧٥ رقم ٢٩٦٥ / ٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا بهذا اللفظ.



٥ – درء التعارض بين الآيات تارة بالتأليف، والتوفيق، وتارة بالنسخ، وتارة بالترجيح، وتارة بالتوقف، وهو بهذا إنما يفتح الباب أمام مَنْ يأتون بعده، فيدخلون على هذا التعارض ولعل الله يوفقهم إلى مخرج يرضاه لهم، كما يرضاه الرسول، والمؤمنون.

٦ – الشرح والبيان في أسلوب سهل ميسر جامع بين العلمي، والأدبي.

ثم يشفع ذلك كله بالتفسير الموضوعي، الذي يقدم القرآن كأنه وحدة موضوعية مترابطة تأخذ بعضها يحجز بعض، ثم يستخرج ما في طيات الآيات من دروس، وعظات، وعبر، وهذا هو المقصود الأسمى من تفسير سورة يوسف – عليه السلام –.

وإن ينس فلم ينس أن يلقى الضوء على القصص القرآني، مضمونه، خصائصه، أثره على الفرد، والجماعة ونصيب سورة يوسف من هذا القصص. وحسبه من ذلك: لفتُ النظر إلى أن القصص القرآني، لاسيما قصة يوسف – عليه السلام – خير دليل على صدق الرسول – ﷺ – في دعوى النبوة والرسالة.

قال تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» (يوسف: ١٠٢).

وقد حلا له أن يقسمها إلى ثلاثة مشاهد:

الأول: من بيت يعقوب في فلسطين إلى بيت العزيز في مصر.

الثاني: من شماته النسوة بامرأة العزيز لكونها راودتْ فتاها عن نفسه إلى دخول إخوته مصر للمرة الثانية، ومعهم شقيق يوسف «بنامين» عليهما السلام.

الثالث: من دخول إخوته مصر للمرة الثانية إلى نهاية القصة والسورة

وقد اعتمد في كل ما قدّم التحقيق العلمي النزيه مع الاسترشاد بما كتبه المفسرون من قبل، مستخلصاً من الدروس والعبر ما يجعل السورة وكأنها تتنزل الآن، وهذا لعمري لا يستطيعه إلا عالم حبس نفسه على هذا الأمر، مستعينا بالله العزيز الحكيم



في عزيمة الشيخ عليش وصبره، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم، وبارك على المبعوث رحمة للعالمين محمد - ﷺ - وعلى آله وأصحابه ومَنْ سار على دربه، ونهج نهجه، واستنّ بسنته إلى يوم الدين اللهم آمين.

وكتب

أ.د/السيد نوح

أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة الكويت

فجر الخميس ١١ / ٢ / ١٤٢٥هـ

١ / ٤ / ٢٠٠٤م

رفع المسـاهم

كلمة فضيلة الشيخ السيد عبد المقصود محمد عسكر

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله وصفوته من خلقه وحبيبه، ختم الله به الرسل وأتم به النعمة وأكمل الدين وجعله حجة على الخلق أجمعين، من آمن به نجا ومن كذّب به هلك مصداقاً لما رواه أبو هريرة من قول رسول الله - ﷺ -: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» (رواه مسلم وأحمد وغيرهما).

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أئمة الهدى، ومن بهم اقتدى فاهتدى

وأما بعد، فإن القرآن الكريم مأدبة الله عز وجل، فيه الخير كله، وفيه النور كله، وفيه الهدى كله، حظي بصفات لم يحظ بها كتاب غيره فاستحق أن يكون المرجع والمهيمن على كل ما عداه من كتب. يقول الله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...» (المائدة: ٤٨).

وإذا كان الهدف الرئيسي من نزول القرآن الكريم على محمد - ﷺ - هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، فإن وسيلة القرآن الجامعة لتحقيق هذا الهدف هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومناقشة الباحثين عن الحق بالتي هي أحسن. فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.

وللدعوة إلى الله أساليب شتى وطرائق متعددة حفل بها القرآن الكريم، والقصة من أبرز هذه الأساليب وأهم تلك الطرائق، ولذا فقد خطيت بأكبر مساحة من القرآن الكريم لما هو معلوم من شدة تأثير القصة على عقل ووجدان القارئ والسامع فيستجيب لما تتضمنه من دروس وعبر، ويقتنع بما ترمي إليه من عقائد وأخلاق.



وكذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يستجيب للتوجيه مقتديا بمن أحبه ويقلده في عمله وأن ينفر من سلوك طريق سلكه شخص يبغضه.

ولما كانت القصة من أقوى الوسائل التي يمكن بواسطتها تصوير المثل الأعلى المحبوب في صورة شخص يقتدى به في خلقه وعمله، أو تجسيد المثل المذموم في صورة شخص كريه يسلك سبيل الشر ويمضي في طريق الضلال حتى يصل إلى النهاية المحتومة، وهي البوار والهلاك.

لما كان هذا شأن الإنسان، وكان هذا شأن القصة بشخصياتها وأحداثها فإن القرآن الكريم - انطلاقاً من عنايته بشأن الإنسان هداية وإرشاداً وتوجيهاً - قد ركز على القصة تركيزاً كبيراً وعنى بها عناية فائقة.

ولقصص القرآن أغراض شتى عني بتفصيلها الباحثون. ومن أهمها ما يلي:

- إثبات صدق الرسول محمد - ﷺ - وأن ما جاء به هو الحق. وتثبيت قلبه - ﷺ - على الحق الذي أوحي إليه، وبيان أن العاقبة للمتقين، وذلك من خلال العرض الدقيق لما عاناة الأنبياء والسابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب، وكيف أنهم صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله الموعود.
- التعريف الصادق بأئمة الهدى من رسل الله، والتأكيد على وحدة الرسالة التي بعثوا بها وقد بلغوها لأقوامهم وهي رسالة التوحيد، وبيان أن الشرك بكل صورة قد تبرأ منه وحاربه كل الأنبياء والمرسلين.
- تعليم المسملين وترغيبهم في فضائل الأخلاق عن طريق القدوة العملية الماثلة أماهم مصورة في قصص القرآن. وكذلك زجر المسلمين وتنفيرهم من الأخلاق الذميمة وتحذيرهم من فعلها، وحضّ المسيئين على التوبة والإنابة إلى الله. وذلك عن طريق عرض المثل الحية لشخصيات حقيقية مرت في التاريخ.

ومن إعجاز القرآن في هذا المجال أنه لم يجنح إلى الخيال في عرضه لأي قصةولم يذهب إلى اختراع شخصيات وهمية يستكمل بها المشهد أو يجمل بها الصورة.



وإنما التزم الصدق والدقة وفي الوقت نفسه كان في القمة التي لا تدانيها قمة أداء وتعبيراً، وروعة وتأثيراً، ودقة وتصويراً.

وأيضاً فإن للقصة في القرآن خصائص عدة ومميزات شتى. من أهمها ما يلي:

- البعد عن الحشو والزيادة.
- العمل على سمو الذوق الإنساني.
- الاهتمام بوضوح الأهداف والتركيز عليها - رغم تعددها - وصولا إلى الأغراض التي يريدها من القصة.

«والقصة - عموما - تكون حسنة بمقدار ما تجمع من خصائص ومزايا فنية وأدبية، وبمقدار ما تحتوي عليه من أهداف تربوية وتوجيهية، وبمقدار ما تحسن من عرض هذه الأهداف وتعمل على تحقيقها في حياة الناس وتطبيقها في المجتمع.

وقد يقول البعض: إن تحقيق ذلك يستعدى - بالضرورة - مزج الحقيقة بالخيال وخلط الواقع بالمثال، وإنه بدون ذلك لا يمكن أن تكون القصة شيقة مرغوبة، ومؤثرة وهادفة في آن واحد، وإنه من المستحيل أن تجمع قصة ما كل الخصائص والمزايا الفنية والجمالية في الوقت الذي تلتزم فيه بعرض الوقائع مجردة عن الإضافات المخترعة، وفي الوقت الذي تلتزم فيه بعرض الأشخاص كما هم بكل تصرفاتهم وأقوالهم وأحاسيسهم ومشاعرهم دون زيادة أو نقصان.

قد يقول البعض ذلك، وقد يكون محقا في قوله عندما يكون الأمر متعلقا بنا، وعندما يكون الحديث عن قدرتنا ومواهبنا، أما عندما يكون الأمر متعلقا بذات الله تعالى وقدرته وكانت القصة من كلام العليم الحكيم فهنا يكون الإعجاز، حيث تحوي القصة جميع الخصائص الفنية، وتجمع كل المزايا الجمالية. وتضم العديد من الأهداف الواضحة المحددة مع الالتزام الكامل بعرض الوقائع دون تزيد أو اختراع والحديث عن الأشخاص كما كانوا وذكر ما قالوا دون تقول أو ابتداع.



ولهذا كان القصص القرآني أحسن القصص،

وإذا كان باستطاعة الموهوبين من عباد الله أن يصنعوا قصصا حسنا فليس باستطاعة غير الله أن يصنع ذلك القصص الأحسن بتلك المواصفات التي ذكرنا بعضها آنفا «صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» (النمل: ٨٨).

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فنزلت «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين»(١) (يوسف: ٣).

وعلى هدى القرآن الكريم واتساقاً مع أهدافه وغاياته اتجه كثيرون من علماء الإسلام إلى تأليف المؤلفات وتدبيج المقالات. وتدوين المدونات حول القصة في القرآن الكريم.

وبعضهم أبى إلا أن يعطى القصة القرآنية حقها من الشرح والبيان. فلم يكتفوا بالكتب والمقالات فنهجوا نهج كتابة الموسوعات وأمهات الكتب.

ومن هؤلاء فضيلة الأخ العالم المحقق فضيلة الشيخ عليش متولي البنّي الذي اختار الله له أن يصاحب الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فيتأمل قصته كما جاءت في القرآن الكريم، ويقرأ بتمعن معظم ما كتبه العلماء حولها ويستخلص منها الدروس والعبر، ولا ينسى أن يقارن بين ما جاء من هذه القصة في القرآن الكريم، وبين ما جاء عنها في التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى ليظهر الفرق بين الثريا والثرى، بين الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبين كتاب تلاعبت به أيدي أصحابه فحرفوه وبدلوه كي يتفق مع أهوائهم.

وبعد هذه المقارنة الشاملة التي ذكرها المؤلف في البند الأول من الخاتمة، وما بعدها علق بما يلي: هذا ومن المقارنة السابقة بين آيات قصة يوسف - عليه السلام - في القرآن

---

(١) من كتابنا: القصص القرآني إقناع وإبداع ص: ١٤.



وبين ما جاء في التوراة يظهر الفرق واضحا بينهما، سواء في المدخل إلى هذه القصة أو في أسلوب عرض الأحداث، أو في الأحداث نفسها، وأهم هذه الفروق هي أن القرآن الكريم يضع القصة في إطار ديني ينفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله تعالى القصة.

أما التوراة فقد وضعت القصة في إطار عائلي يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير كالقرآن الكريم إلى ماوراء الأحداث من عظات بالغة، إضافة إلى التناقض الصريح بين ما جاد في القرآن الكريم وما جاء في التوراة في مواضع متعددة. ويبقى الحكم الأخير والفاصل في تلك القصة اليوسفية المباركة للقرآن العظيم فهو المهيمن والحاكم على كل ما سبقه من الكتب، لأنه محفوظ من كل تغيير أو تبديل أو تحريف، كما قال عز وجل «إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون» (الحجر: ٩).

وقد شرح الأخ المحقق الشيخ عليش أسباب اختياره لقصة يوسف - عليه السلام - لتكون موضوعا لهذه الدراسة الشاملة المباركة فذكر الأسباب الآتية.

أنها القصة الوحيدة في القرآن الكريم التي سبقت بوصف أحسن القصص «نحن نقص عليك أحسن القصص..» (يوسف: ٣).

وبُدِئَت بوصفها آيات للسائلين «لقد كان في سوف وإخوته آيات للسائلين» (يوسف: ٧) وختمت سورتها ببيان ما في قصص الأنبياء والمرسلين من عبر وهدايات. «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (يوسف: ١١١).

واستند الأخ المحقق في بيان تلك الأسباب إلى أقوال العديد من العلماء. وكان من هؤلاء الشهيد سيد قطب الذي يقول رحمه الله «إن قصة يوسف عليه السلام تمثل النموج الكامل المنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي العقيدي والتربوي والحركي أيضا. ومع أن القرآن الكريم



واحد في موضوعه وفي أدائه إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء». (في ظلال القرآن تفسير سورة يوسف).

وبما أن الأخ المحقق الشيخ عليش قد اختار الله له أن يقوم بهذا العمل الجليل حول قصة هذا النبي الكريم فقد اختط لنفسه منهجا علميا دقيقاً، والتزم به منذ البداية وحتى النهاية.

ومن مزايا هذا المنهج أنه جمع بين ما هو محقق من تأويل السلف وبين ما هو موفق من تفسير الخلف في أسلوب سهل أخاذ، مع الالتزام الكامل بالمنهج الأقوم الذي ارتضاه الأئمة الأعلام الراسخون في العلم والتأويل.

وقد سجل الأخ المحقق هذا المنهج الأقوم - كوثيقة ينبغي التحاكم إليها - حتى يمكن للقارئ اللبيب أن يطمئن إلى أن الشيخ قد التزم بهذا المنهج التزاما كاملا.

أولاً: البدء بتفسير القرآن بالقرآن.

ثانياً: طلب التفسير من السنة الصحيحة.

ثالثاً: الرجوع إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

رابعاً: الرجوع إلى أقوال التابعين رحمهم الله تعالى.

خامساً: الأخذ بمطلق اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - نقلا عن أهل العلم بها من غير تكلف ولا تعسف.

سادساً: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع.

ثم إن فضيلة الشيخ عليش التزم في تفسير كل آية بعدد من الخطوات المتتابعة ورتبها بشكل علمي وموضوعي يحقق الغاية المنشودة بوضوح وجلاء، وبكل سهولة ويسر.

وقد حدد هذه الخطوات على الوجه الآتي:

أولاً: النص القرآني للآية.



ثانياً : بيان وجوه القراءات المتواترة في الآية، فإن كان المعنى على كل القراءات المذكورة واحداً اكتفى بما ذكر هنا، وإلا فيذكر من القراءات ما يلزم فقط لشرح الآية في خطوة التفسير والبيان، وهي الخطوة السادسة.

ثالثاً : اللغة. وذلك من حيث بيان أصل الكلمة وما اشتقت منه ومعناها العام، والمراد بها في الآية خاصة، وذلك بشيء من التفصيل.

رابعاً : الإعراب التفصيلي لكل آية.

خامساً : الموقف من المتعارضات، والقصد منه تصفية أوجه الخلاف في الآية بين أهل التفسير - إن وجد - والاقتصار في الشرح على بيان ثمرة الخلاف وما انتهى إليه، بعد عرض أقوال أهل العلم في المسألة محل الخلاف. فإن أمكن الجمع والتوفيق بين الآراء فذلك هو المقدم المطلوب. وإلا فإن إعمال الاجتهاد بناء على قاعدة الترجيح في الرأي للوصول إلى القول الأحق بالأخذ من غيره هو الواجب حينئذ.

سادساً : التفسير والبيان. ويشتمل على وضع عنوان مناسب للآية. ثم كتابة نصها مرة أخرى لأجل الشرح. ويتبع ذلك بيان وجه المناسبة للآية ممتزجا بأقوال أهل العلم سلفاً وخلفاً في تأويل الآية. ثم تختم هذه الخطوة بذكر المضمون العام للآية.

سابعاً : من فيض نور الآية الكريمة. ويقصد من هذه الخطوة ذكر ما يؤخذ ويستفاد من الآية من العبر والعظات، والنصائح والتوجيهات الهادية لمسيرة الحياة الإسلامية الطيبة الكريمة.

وقد وفق الله عز وجل أخانا الشيخ عليش أيما توفيق في القيام بتأليف هذا السفر الجليل حيث دونه بشكل علمي رصين فجاء في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة. وضمن المقدمة عدداً من الأبحاث الهامة وكذلك الخاتمة، كما قسم كل باب إلى فصول إضافية ووافية.



ومهما كان وصفي لهذا العمل الجليل فإنه لا يغني عن قراءته واستيعابه حتى يعظم النفع به.

وإن كان لابد لي من وقفة فإني أتوقف مليا عند الفصل الأول من الباب الثاني وفيه تعرض المؤلف لشرح الآيات من ٢٤ إلى ٥٧ وهي تبدأ بقول الله تعالى: «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» (يوسف: ٢٤).

وما كتبه الشيخ حول هذه الآية الكريمة من أنفس ما جاء في هذا السفر الجليل.

وعلى الرغم من خطر القضية وما يحيط بها من ملابسات وما تردد حولها من أقوال زلت بها أقدام كثيرين فإن المؤلف أقدم على خوض هذه اللجة مستعينا بالله فرزقه الله التوفيق وهداه إلى الصواب جزاء تواضعه الجم الذي يليق بأمثاله من العلماء.

وأمارة ذلك قوله في البداية «إعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها. وإن هاتين الجزئيتين من الآية «ولقد همت به وهم بها لولا أن رآى برهان ربه» مما يتهيب فطاحل العلماء الخوض فيه خوف الزلل.

والعبد الفقير يسأل المولى تعالى العون والتوفيق دائماً، خاصة فيما هو مقبل عليه من التعرض لهذا الأمر الجلل. وهو موضوع الهم هذا. وقد كتب فيه العلماء من قديم الزمان ما كتبوا وما توقفوا، وقالوا فيه ما قالوا وما فرغوا. ومنهم من كتب في هذا الموضوع أكثر من مائة صفحة».

ثم إنه عدد أقوال المفسرين في المراد من الهم إجمالا. وهل وقع من يوسف - عليه السلام - أم لا. وذلك على سبعة أقوال.

الأول: أن الهم مطلقاً لم يقع منه - عليه السلام - لوجود البرهان السابق على الهم.

الثاني: أن هم يوسف - عليه السلام - كان من جنس همها، فقصد الفاحشة وأتى ببعض مقدماتها:



الثالث : أن هم يوسف - عليه السلام - هم فطري .

الرابع : أن همه هم نفسي .

الخامس : أن هم المرأة كان بالفاحشة ، وهم يوسف كان للدفع والصد .

السادس : أنها همت أن يفترشها ، ويوسف - عليه السلام - تمناها زوجة .

السابع : أن الهم كان من جانب المرأة للضرب والانتقام ، ومن جانب يوسف - عليه السلام - للدفاع والتأديب .

وبعد هذا الإجمال لأقوال المفسرين انتقل المؤلف إلى التفصيل فتعرض لكل قول من هذه الأقوال ونسبه إلى من قال به من العلماء وذكر أدلتهم وما رد به مخالفوهم. وما اطمأن إليه المؤلف بخصوص كل قول من هذه الأقوال حتى وصل في نهاية المطاف إلى القول السابع وأعطاه ما يستحق من الشرح والبيان مع نسبته إلى القائلين به من فطاحل العلماء كالإمام ابن حزم والشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ مصطفى المراغي ، والشيخ محمد أحمد جاد المولى ، والشيخ عبد الجليل عيسى ، والدكتور محمد الطيب النجار ، والشيخ عبد الله العلمي ، والشيخ أبو بكر الجزائري ، والدكتور محمد عبد الوهاب البحيري ، والأستاذ أحمد عز الدين خلف الله ولم ينس أن يمهد لذلك ببيان ما وقع من تحامل من جمهور المفسرين بالمأثور على المجتهدين في التفسير في موضوع الهم. وقد رد على الأولين ردوداً علمية قوية كشفت عن وجه الحق في المسألة .

وبعد هذا التفصيل الوافي الذي استغرق ما يقرب من خمسين صفحة انتقل لإبداء رأيه وأكد اطمئنانه إلى هذا القول السابع وأيده بأدلة عديدة ساقها تحت عنوان : البراهين الدالة على أن الهم كان من جانب المرأة للضرب والانتقام. ومن جانب يوسف - عليه السلام - للدفاع والتأديب .

واستغرقت هذه الأدلة القوية ما يقرب من عشر صفحات .

ثم عقب بذكر الأخطاء المترتبة على تعليق الهم بالفاحشة . وبعد ما ذكر هذه



الأخطاء بشى من التفصيل وصل إلى مسك الختام في هذه القضية فقال تحت عنوان:
الترجيح «إن الاتجاه القائل إن هم المرأة بيوسف - عليه السلام - كان للضرب والتأديب. وأن هم يوسف - عليه السلام - كان للدفاع والتأديب هو القول الراجح المختار والذي ترتاح إليه النفس ويطمئن إليه القلب. فبراهينه الواضحة، وحججه القوية، وأدلته المتعددة التي تتفق مع قواعد اللغة والمنطق والنص والسياق قد درأت عنه كل شبهة توجه إليه، في الوقت الذي أعطى النبوة حقها وقداستها. دون أن يلجأ إلى روايات منكرة، أو تأويلات يرفضها السياق ويرفضها النص كما يرفضها الإعجاز القرآني. ثم قال:

ولقد كان الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله موفقاً بحمد الله تعالى في تحقيق هذا الاتجاه غاية التوفيق بما لم يكتب أحد مثله على حسب اطلاعي المتواضع والله أعلم.

وبالجملة فقد كان فيض نور القرآن الكريم على الأخ الشيخ عليش واضح الأثر في هذه الدراسة المباركة الشاملة.

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل قارئه كما نفع به كاتبه، وأن يتقبل الله منه هذا الجهد المبارك وأن يزيده من فضله علما وعملا وجهاداً، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته وحسنات كل من ساعد في نشره. إنه سبحانه واهب الفضل وصاحب المنة. والموفق لكل طاعة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه في الأولين والآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.

السيد عبد المقصود محمد عسكر

الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - سابقا



« مقدمة المؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يقص الحق وهو خير الفاصلين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أشرف المرسلين وخاتم النبيين والمرسلين ورحمة الله للعالمين، قص عليه ربه في الكتاب الكريم قصص إخوانه من النبيين والمرسلين ليثبت به فؤاده، وأمره أن يقتدي بهداهم، ويصبر كما صبر أولوا العزم منهم، فامتثل لأمر الله الواحد، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتم الله عليه النعمة، وجاءه نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، اللهم صل وسلم على هذا النبي الأمي، الذي أكرمته بأكرم كتاب، وشرفته بأتم رسالة، وختمت به قصص الأنبياء والمرسلين، فأصبح المثال الأعظم الجامع لكل الرسالات، والنموذج الأكمل لكل الانبياء، وصارت قصته الكبرى حياة للحياة، ونوراً للهداة وأسوة حسنة لمن كان يرجوا الله، اللهم وصل وسلم على آله الأطهار وأصحابه الأخيار، وأتباعه الأبرار إلى يوم لقاء الله العزيز الغفار.

أما بعد / فإن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، ووحيه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وقد ارتضاه الله تعالى ليكون منهاجاً لهذه الأمة الخاتمة، ودستوراً لها، تهتدي بهديه، وتحتكم إليه في كل شئونها، فتجد فيه الهداية والرشاد، وتستروح في ظله الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية، والقرآن الكريم هو الزاد الروحي للمؤمنين، والفيض الذي لا ينقطع مدده للدعاة والمصلحين، حيث يمدهم بالطاقات



التي تؤهلهم لحمل الرسالة ونشر الدعوة، ويزودهم بالحجج والبراهين التي تمكنهم من محاجة المعاندين والمكابرين، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة المعاندين هي السفلى، ولما كان القرآن الكريم هو المرجع الذي يأوي إليه المؤمن لينهل من معينه الصافي ما يثبت به قلبه من اليقين، ويطمئن نفسه من الهدى، ويثلج صدره من البراهين، كان لابدأن يكون هذا الكتاب حاوياً لكل ما يورث النفس البشرية ما تحتاج اليه في هذه المجالات، وكان لابد كذلك ان يتناول كل ذلك بأساليب متباينة حتى يتحقق تأثيره في النفوس على اختلاف مشاربها ونزعاتها؛[١] لهذا فإننا نرى في القرآن الكريم ألواناً شتى من الأساليب التي توصل إلى الغاية التي جاء من أجلها، فهناك أسلوب المناظرة والاستدلال، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وغير ذلك من الأساليب المتنوعة، والقصص القرآني الكريم من أبرز أساليب الدعوة الى الله تعالى، فقد امتاز بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه؛ اشتمل على فصول في الاخلاق مما يهذب النفوس، ويجمل الطباع، وينشر الحكمة والآداب، وطرق في التربية والتهذيب شتى، تساق أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار، كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم في الأرض، وأقوام ضلوا فساءت حالهم، وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال يضرب بسيرهم المثل، ويدعو الناس إلى العظة والتدبر، كل هذا قصه الله في قول بيّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب، ليدل الناس على الخلق الكريم، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، بأحسن بيان، وأقوم سبيل، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد[٢] وكانت القصة القرآنية من أبرز أساليب الدعوة إلى الله تعالى، لأنها

---

(١) نظرات في أحسن القصص /١/ ٥-٦ (٢) قصص القرآن (جاد المولى) ٣

أسلوب أخاذ، يستحوذ على القلوب، ويسيطر على النفوس، ويهيئ العقول لحسن التلقي، فتذعن له في يقين، وتسلم له بالنتائج في رضا وثقة، فمن المعلوم أن الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها المستمع، فإذا تخللتها العبرة في أخبار الماضين، كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها، ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات[١] وذلك لأن القصة تجسد الأشخاص تجسيداً واقعياً، وتخوض في خبايا النفوس البشرية، لتكشف ما فيها من إيمان أو كفر، أو حب أو كره، أو رضا أو غضب، أو حقد أو كيد، أو مكر أو حسد، أو شهوة أو نيل مأرب، فالقصة القرآنية تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد تصويراً واضحاً كأنك ترى كل ذلك وتشاهده، ولو أن مصوراً متحركاً يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر - مثلا - ما كان أكثر تصويراً من الألفاظ القرآنية والأساليب في تصويرها[٢] حتى إنك وأنت تقرأ القصة أو تستمع إليها يخيل إليك أنها تعالج واقعاً تعيش فيه، ويعيش معك فيه المجتمع الذي أنت جزء منه، ذلك لأن مشكلات العالم مهما تباينت الأزمنة، ومهما اختلفت البيئات، ومهما تغيرت الظروف، تكاد تكون واحدة، غير أنها تتكرر في صور شتى، لتعطي المشكلة حجمها الطبيعي في البيئة والظروف التي تتكرر فيها، ومن هنا كان القصص القرآني للعبرة لا للتسلية، عبرة تنفذ إلى القلوب فتهزها هزاً يردها إلى الصواب، ويعيدها إلى الحق، وهكذا تكون القصة في القرآن الكريم بأسلوبها الرائع الذي تذعن له النفوس، وتطأطئ له الرؤوس، تكون القصة ذات تأثير عظيم، وتكون كذلك أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل[٣] وإن العبرة في القصة إنما تؤخذ من ثنايا أحداثها التي تقصها

---

(١) مباحث في علوم القرآن (القطان) / ٣٠٥ (٢) المعجزة الكبرى القرآن/ ١٤٩ (٣) نظرات في أحسن القصص/ ١ /٨-١١

رفع المسابهم

علينا، فهذه أمة أهلكت بالطوفان، وهذه أمة دمِّرت بالصيحة، وتلك خُسِفَ بها، وأخرى أرسل الله عليها حاصباً، وكل هذه الأمم على اختلاف أزمانها وأماكنها، وعلى تباين بيئتها وعاداتها، إلا أنها كانت جميعا تشترك في سبب هلاكها، ولم يكن السبب إلا عنادها وتكذيب الرسل الذين بعثوا إليهم، فحق عليهم بذلك ألوان من العذاب أدت إلى تدمير بلادهم، وإهلاكهم دون أن تبكي عليهم السماء والأرض، وقد ذكر الله – عز وجل – ذلك كله وقصه في القرآن الكريم ليكون عبرة لأولي الألباب، يقول الله – جل شأنه – : «فكلاًّ أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[١]،[٢]

فالقصة القرآنية تربط حاضر البشرية بماضيها ومستقبلها، وتربط الخلف بالسلف، والأجيال الحاضرة بالأجيال الغابرة، والحضارات القائمة بالبائدة، وتفصّل أسباب التقدم والتخلف، الكمال والانحطاط، النعيم والشقاء، العمران والخراب، الاستقامة والانحراف، كما تبين المنهج الضروري لصلاح الحياة واستقامتها واللازم لتوفير أسباب السعادة للأمم والأفراد والجماعات... كما تعمل القصة القرآنية على تشريح الصروح الدنيوية القاطعة عن الله تعالي، المانعة دون سلوك سبيل الكمال، مما يجعل المنتمين إلى هذه الصروح لا يسلكون سوى السبل المرتبطة بالتعاسة والشقاء، كما تقوم القصة بتفصيل مقومات الحياة النقية الطاهرة المفضية الى سعادة الدارين، والتي توفر للإنسان أسباب الفوز والنجاة من مهاوي السقوط، والتي توجه دائماً نحو الكمال الأعلى بربط الإنسان في جميع شئونه بخالقه عز وجل، عن طريق اهتدائه بهدي النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، كما تعلن القصة عن المسئولية الكاملة التي تتحملها البشرية من حيث تبليغ الأمانة للأجيال الحاضرة والمستقبلية كاملة غير منقوصة،

---

(١) العنكبوت/ ٤٠ (٢) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ١٠

رفع المسيَّهما

كما تشهدنا في جلاء ووضوح أحوال المؤمنين المخلصين لله تعالى المتبعين لهدي المرسلين، ومقابلة ذلك بأحوال الذين ضيعوا الأمانة والذين لم يرعوها حق رعايتها(١)

كما تنبئنا القصة بأن مرتبة النبوة والرسالة هي أعلى مراتب الكمالات الإنسانية، والأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم قمة الكمال الإنساني وذروته، والمثل العليا الهادية للبشرية إلى النجاة من ظلمات الانقطاع عن الله تعالى، وقد صفت أرواحهم بإشراق أنوار الوحي الإلهي عليهم، وبما أشهدهم الله تعالى من بديع آياته الكبرى، ووهبهم من خزائن العلوم الاصطفائية ما جعلهم أهلا للسفارة بينه تعالى وبين خلقه، لتبليغ الهدي لمن أمروا بتبليغهم، فضلا من الله ورحمة، وكفاهم شرفا ما وصفهم به الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم، من أنهم صالحون، وأنهم صديقون، وأنهم هداة «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين»(٢)

ومن كانت هذه علاماتهم وتلك صفاتهم ومميزاتهم وخصائصهم، فقد صانهم المولى القدير من كل ما يتنافى مع مرتبة الرسالة التي اختارهم سبحانه لها، فلا يجوز لأحدهم أن يلحق بقصصهم ما لا يليق بمرتبتهم أو أن ينحرف به عن موضعه ابتغاء عرض الدنيا وهم الذين جاءوا لإنقاذ البشرية من فتنتها، وطغيان حبها، والتدله في عشقها، ولا يفعل ذلك إلا ذو عقل قاصر، أو جهل مركب، أو نفس مريضة، والناس بعيداً عن الهدي القرآني لم يتورعوا عن قياس النبوة والرسالة بمقاييس الحياة التي اعتادها الناس، فلم يترددوا في أن يسندوا إليهم كل ما ينكره العقل السليم، وتعافه النفوس الطاهرة، وليت شعري، كيف يسندون النبوة والرسالة إلى من يرتكب من الجرائم ما تترفع عنه نفوس المجرمين...

ولولا ما جاء في الذكر الحكيم عن الأنبياء والمرسلين، ولولا ما جاء فيه عن حقيقة النبوات والرسالات ما عرفنا عن هداة الإنسانية شيئاً مذكوراً.

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٣-٤ (٢) الأنبياء/ ٧٣



«ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»(١) ودراسة ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والمرسلين فيه من الدروس والعبر والآيات ووجوه الإعجاز ما لا يقع تحت حصر، كيف لا وهم هداة البشرية الذين بدونهم لا تصح هداية، ولا يصح كمال إنساني، ولا تصح عبودية لله تعالى(٢).

ولهذا فإن المؤرخين لم يهملوا هذا الموضوع بل أفرد له بعضهم كتباً مستقلة، وأول هؤلاء محمد بن اسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥٠هـ، فقد ألف كتابه «المبدأ وقصص الأنبياء»، ثم كتب بعده أبورفاعة الفارسي المتوفى سنة ٢٨٩ هـ، كتابه «بدء الخلق وقصص الأنبياء»، ثم المؤرخون بعد ذلك كالطبري، وابن الأثير، وابن كثير، فجعلوا قصص الأنبياء مبدءاً لكتبهم منذ بدء الخليقة إلى عصورهم التي عاشوا فيها، وكان من الطبيعي ألا تخلوا كتاباتهم من الأخطاء، وعلى الأخص حينما يتعرضون لنواح تفصيلية وجزئيات لم تتعرض لها الكتب السماوية ولا الحديث النبوي الشريف، وممن خصوا تاريخ الأنبياء بكتابة مستقلة، أبوإسحاق النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ ولقد أخذ فيه عمّن سبقوه في كثير من الأحيان، ولقد ذاعت شهرة هذا الكتاب في سائر الأنحاء وفي مختلف الأوساط، والواقع أن قراءة هذا الكتاب تحتاج إلى عقلية تاريخية تميز الغث والثمين، وتفرق بين الزائف في رواياته والصحيح،...

وهناك المراجع الحديثة في هذا الموضوع منها: كتاب (قصص الأنبياء) للمرحوم الشيخ عبدالوهاب النجار، وكتاب (دعوة الرسل إلى الله) للمرحوم الشيخ محمد أحمد العدوي، وكتاب (الرسالات الكبرى) للأستاذة سنية قراعة، وكتاب (القصص القرآني)، للأستاذ عبدالكريم الخطيب، وكتاب (قصص القرآن) للأستاذ محمد أبوالفضل وآخرين، وكتاب قصص القرآن (للأستاذ محمد أحمد جاد المولى،

---

(١) غافر / ٧٨   (٢) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤-٧

رفع المسا هم

وكتاب (تاريخ الأنبياء) للأستاذ محمد الطيب النجار، وكتاب (نظرات في أحسن القصص) للدكتور محمد السيد الوكيل، وكتاب (قصص الأنبياء) للشيخ محمد متولي الشعراوي، وغيرها، وهي كتب قيمة أنارت السبيل أمام الباحثين، وكانت جديرة بالتفضيل والثناء الجميل[1]

• قصة يوسف - عليه السلام -:

وأما عن قصة يوسف - عليه السلام - خاصة، وهي موضوع هذا الكتاب، فقد كتب فيها الكثيرون وأفردوا لها كتباً خاصة ومن هؤلاء:

١- أحمد عزالدين خلف الله (يوسف بن يعقوب - عليهما السلام -)

٢- أحمد نوفل (سورة يوسف - دراسة تحليلية)

٣- حسن محمد باجودة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف)

٤- زاهية الدجاني (يوسف في القرآن والتوراة)

٥- عبدالله العلمي الغزيّ الدمشقي (مؤتمر تفسير سورة يوسف)

٦- عبدالعزيز كامل (دروس من سورة يوسف)

٧- محمد طه الباليساني (القول المنصف في تفسير سورة يوسف)

٨- محمد بكر اسماعيل (لطائف البيان في سورة يوسف)

٩- محمد البهي (تفسير سورة يوسف)

١٠- محمود شلبي (حياة يوسف) وغيرهم

هذا وإني أسأل الله العلي الأعلى والولي المولى، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، أن يلهمني الهدي والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يتقبل عملي المتواضع هذا خالصاً لوجهه الكريم. فلا أرجو ثواباً عليه من أحد سواه، . . .

---

(١) انظر: تاريخ الأنبياء/ ٦-١٠

رفع المسيهم

اللهم إني أبرأ إليك من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا ذا الجلال والجمال والكمال، اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم إني أعوذ بجلال وجهك وعظيم سلطانك أن أقول في قرآنك العظيم ما ليس لي بحق أن أقوله، إنك أنت وحدك العليم الحكيم.

ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، رب زدني علماً.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

اللهم وصل وسلم وبارك وأنعم على سيدنا محمد عبدك سيد الخلق، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وأتباعه الأبرار إلى يوم لقائك يا حليم يا ستار يا غفار.

المؤلف

عليش متولي بدوي البِنّي



« ما تشتمل عليه الموسوعة »

- **مقدمة تمهيدية: وتتضمن ثلاثة مباحث:**

(المبحث الأول): المنهج الأقوم في التفسير.

(المبحث الثاني): أضواء على القصص القرآني.

(المبحث الثالث): معالم خاصة بسورة يوسف - عليه السلام - وقصته.

(الباب الأول - الجزء الأول -)

من بيت يعقوب - عليه السلام - في أرض كنعان بفلسطين، إلى بيت العزيز في مصر حتى حادثة المراودة.

من الآية رقم (١) أول السورة الكريمة، إلى الآية رقم (٢٣)

(الفصل الأول)

افتتاح السورة الكريمة والمقدمة الأولى للقصة.

من الآية رقم (١) إلى الآية رقم (٣)

(الفصل الثاني)

المقدمة الثانية للقصة (رؤيا يوسف - عليه السلام - وتأويلها)

من الآية رقم (٤) إلى الآية رقم (٦)

(الفصل الثالث)

بداية القصة وتدبير المؤامرة.

من الآية رقم (٧) إلى الآية رقم (١٠)

(الفصل الرابع)

تنفيذ المؤامرة

من الآية رقم (١١) إلى الآية رقم (١٨)

رفع
المسيهم

(الفصل الخامس)

من الجب إلى القصر حتى حادثة المراودة.

من الآية رقم (١٩)   إلى الآية رقم (٢٣)

(الباب الثاني - الجزء الثاني -)

من موضوع (الهم) إلى تمكين الله تعالى ليوسف في الأرض، وجعله أمينا على خزائن مصر.

من الآية رقم (٢٤)   إلى الآية رقم (٥٧)

(الفصل الأول)

«ألْهَمّ»

الآية رقم (٢٤)

(الفصل الثاني)

الاستباق والتحكيم.

من الآية رقم (٢٥)   إلى الآية رقم (٢٩)

(الفصل الثالث)

من القصر إلى السجن.

من الآية رقم (٣٠)   إلى الآية رقم (٣٥)

(الفصل الرابع)

يوسف - عليه السلام - يبدأ مرحلة جديدة من حياته داخل السجن.

من الآية رقم (٣٦)   إلى الآية رقم (٤٢)

(الفصل الخامس)

رؤيا الملك وتأويلها وجعل يوسف على خزائن الأرض.

من الآية رقم (٤٣)   إلى الآية رقم (٥٧)

رفع المسبهم

(الباب الثالث - الجزء الثالث -)

من لقاء الإخوة بيوسف - عليه السلام - عند دخولهم مصر أول مرة، إلى آخر السورة الكريمة.

(الفصل الأول)

من لقاء الإخوة بيوسف في مصر أول مرة، إلى وصية أبيهم لهم عند دخولهم مصر للمرة الثانية.

من الآية رقم (٥٨) إلى الآية رقم (٦٨)

(الفصل الثاني)

من دخول الإخوة مصر للمرة الثانية ومعهم (بنيامين) إلى أن أمرهم أبوهم بالذهاب إلى مصر للمرة الثالثة للبحث عن يوسف وأخيه.

من الآية رقم (٦٩) إلى الآية رقم (٨٧)

(الفصل الثالث)

من الرحلة الثالثة إلى مصر إلى نهاية القصة.

من الآية رقم (٨٨) إلى الآية رقم (١٠١)

(الفصل الرابع)

التعقيب على القصة.

من الآية رقم (١٠٢) إلى الآية رقم (١١١)

- **خاتمة، وتتضمن ثلاثة أمور:**

(الأول) مقارنة بين آيات قصة يوسف - عليه السلام - في القرآن الكريم وفي التوراة.

(الثاني) تأملات في قصة يوسف - عليه السلام -

(الثالث) قصة يوسف عليه السلام - درس عظيم لكل أسرة ولكل أمة.



رموز الهامش:

- ا لقرآن الكريم: يذكر اسم السورة ثم رقم الآية أو الآيات،

مثال: يوسف / ١١١، يوسف / ٩٦ - ٩٨.

- يذكر اسم المصدر أو المرجع، ثم رقم المجلد، ثم رقم الجزء، إن كان ا لمجلد يشتمل على أكثر من جزء وكل جزء مسلسل على حدة، ثم رقم الصفحة،

مثال: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٤٩.

- وفي حالة عدم تقسيم المجلد إلى أجزاء يذكر اسم المصدر أو المرجع ثم رقم المجلد، ثم رقم الصفحة،

مثال تفسير البحر/ ٥/ ٢٧٦.

- وفي حالة كون رقم المجلد هو رقم الجزء، يذكر اسم المصدر أو المرجع ثم الرقم الذي هو للمجلد وللجزء معاً،

مثال: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٠.

- وفي حالة تقسيم المصدر إلى أجزاء خاصة وليست على حسب أجزاء القرآن،

فيذكر رقم المجلد، ثم رقم الجزء - بالنسبة للمصدر وليس للقرآن - ثم رقم الصفحة،

مثال: تفسير الفخر الرازي ١ / ٢ / ٥٠ -٥٩

- وفي حالة كون المرجع في مجلد واحد فقط، يذكر اسم المرجع ثم رقم الصفحة.

مثال: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١١٥

- وإن كان اسم الكتاب متشابه يذكر بعده اسم مؤلفه،

مثال: قصص الأنبياء (ابن كثير) / ١٦٠

- وحين يذكر اسم المصدر أو المرجع مباشرة علم أن المنقول منه نصًا،

أما إذا تقدم على الاسم كلمة (انظر) فالمنقول منه مختصر أو مستفاد منه أو متصرف فيه.

- وفي حالة عدم ذكر أي مرجع / فالكلام حينئذ للعبد الفقير.



مقدمة تمهيدية: وتشتمل على ثلاثة مباحث:

«المبحث الأول»

المنهج الأقوم في التفسير:

وللوقوف على هذا المنهج - بإيجاز - نستعرض النقاط التالية:

أولاً: القرآن الكريم يتحدى

القرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل، المنزَّل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلفظه ومعناه، المنقول إلينا بالتواتر المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من سورة (الفاتحة) إلى آخر سورة (الناس)(١)

وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين(٢) وزاد بعضهم في التعريف: المتعبَّد بتلاوته والمتحدَّى بأقصر سورة منه، وقد وقع التحدي بالقرآن الكريم على مرات متعددة،

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله فعجزوا، قال الله تعالى: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»(٣)

ثم تحداهم ثانيا أن يأتوا بعشر سور مثله فما قدروا، قال الله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»(٤)

ثم تحداهم ثالثاً أن يأتوا بأي سورة منه مهما قصرت، كسورة (الكوثر) فما

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم/ ٧ (٢) التبيان في علوم القرآن/ ٦ (٣) الإسراء/ ٨٨ (٤) هود/ ١٣



نطقوا، قال الله تعالى: «أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»(١)

ثم تحداهم أخيراً أن يأتوا بسورة ما - من مثله - فما فعلوا، ولن يفعلوا قال الله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»(٢)

وبذلك ثبت إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده، وإذا ثبت عجز العرب فغيرهم بالعجز أحرى وأولى(٣)

ثانيا: الحاجة إلى علم التفسير:

القرآن الكريم هو دستور الأمة الإسلامية وسبيل هدايتها، ومن الضروري أن تكون الأمة على بينة مما يريد لها الله تعالى منها في كتابه، كي تُحسن العمل به والاهتداء بهداه(٤) ولا يتم ذلك إلا عن طريق تفسيره...، والقرآن الكريم إنما أنزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر، كسؤالهم لما نزل قوله تعالى: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»(٥) فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسره النبي ﷺ بالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم»(٦)،(٧) وكسؤال عائشة - رضي الله عنها - عن الحساب اليسير، فقال ﷺ: «ذلك العرْض»(٨) وكقصة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود(٩) وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه؛ ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك ممَّا لم يحتاجوا إليه من أحكام

---

(١) يونس/ ٣٨ (٢) البقرة/ ٢٣ (٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم/ ٧-٩

(٤) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة/ ٢٤ (٥) الأنعام/ ٨٢ (٦) لقمان/ ١٣

(٧) رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان. (٨) رواه البخاري في كتاب العلم، ومسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٩) رواه البخاري ومسلم في كتاب الصوم



الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير[١] لأننا نحتاج في الاطلاع على الشرائع والأحكام إلى معرفة معاني القرآن الكريم التي لا يُطّلع عليها على ما ينبغي إلا بهذا العلم الشريف[٢] ثم إن نهضة الأمة الإسلامية لا يمكن بلوغها إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن الكريم ونظمه الحكيمة، وبديهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن الكريم وتدبره والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن الكريم، وتوافدوا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها[٣].

ثالثاً: شرف علم التفسير وفضله:

أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات، وأجلّ العلوم الثلاثة الشرعية، وهي علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الفقه، لأن باقي العلوم أداة لها، وقد حاز علم التفسير الشرف من حيث الموضوع، والغرض، والحاجة، أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، واما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، وأما من جهة شدة الحاجة إليه، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجليّ أو آجليّ، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى...

فشرف علم التفسير لا يخفى، قال الله تعالى: «يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً»[٤]، أخرج ابن ابي حاتم وغيره من طريق ابن أبي طلحة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١١٩٢-١١٩٣ (٢) التيسير في قواعد علم التفسير / ١٥٦

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن / ١ / ٤٧٤-٤٧٥

(٤) البقرة / ٢٦٩.



عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: «يؤتي الحكمة» قال: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، وأخرج أبوعبيد عن الحسن قال: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم أنزلت، وما أراد بها، ولهذا قال الله تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب»(١) وقال عز ذكره:

«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»(٢) وقد كان الشغل الأكبر للصحابة - رضي الله عنهم - القرآن الكريم حفظاً وفهماً وتدبراً وهداية وعملاً(٣)

رابعاً: معنى التفسير:

التفسير في اللغة: مأخوذ من الْفَسْر، وهو الكشف والإظهار(٤) وكل اشتقاقات وتصريفات مادة (فسْر) تدل على معناه الأصلي الذي لا يخرج عن البيان والكشف والتوضيح والإظهار(٥)

فالتفسير في اللغة هو الإيضاح والتبيين، قال تعالى: «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً»(٦) فتفسير الكلام هو بيان معناه، وإظهاره وتوضيحه، وإزالة إشكاله، والكشف عن المراد منه(٧)

والتفسير في الاصطلاح: قد اختلفت فيه أقوال العلماء(٨)

والمختار ما عرفه به الإمام الزركشي قال: هو علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة

---

(١) سورة ص/ ٢٩. (٢) محمد/ ٢٤.

(٣) انظر في (شرف علم التفسير) الإتقان/ ٢/ ١١٩٢-١١٩٦ وزاد المسير/ ١/ ٤، والتيسير في علم التفسير/ ١٥٨-١٥٩، وكتاب فضائل القرآن/ ٩٧، ومقدمات شمس الدين الأصفهاني المقدمة/ ١٦ ومقدمة الراغب/ ١٩.

(٤) التيسير في قواعد التفسير/ ١٢٣. (٥) التبيان في علوم القرآن/ ٦١.

(٦) الفرقان/ ٣٣. (٧) التفسير والتأويل في القرآن/ ٢٤.

(٨) انظر: الإتقان في علوم القرآن/ ٢/ ١١٨٩ وما بعدها، والتفسير والمفسرون للذهبي/ ٣-١٥.



أسباب النزول والناسخ والمنسوخ[١] وقال الشيخ العلامة محمد أبو شهبة عن هذا التعريف، بعد أن استعرض عدة تعريفات للتفسير في الاصطلاح: وهذا التعريف أوضح وأيسر، وأدلّ على الغرضين الأهمين، ويعني بهما: (أ) كون القرآن الكريم كتاب الهداية البينة التي هي أوضح الهدايات وأقومها، والتي لو اتبعها البشر لحققت، لهم السعادتين، الدنيوية والأخروية، (ب) وكون القرآن الكريم هو الكتاب السماوي المعجز، فهو المعجزة العظمى، والآية الكبرى الباقية على وجه الدهر لنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه[٢]

خامساً: معنى التأويل:

التأويل في اللغة: يدل على معنى الرجوع والانتهاء والعاقبة، وكل تصريفات واشتقاقات الكلمة يظهر فيها هذا المعنى، وهذا هو الاشتقاق الأصغر لمادة (أوْل) التي تدل على معنى الرجوع والانتهاء، أما الاشتقاق الأكبر لهذه الحروف الثلاثة، الهمزة، والواو، واللام، فهو يقوم على هذا المعنى[٣]

والتأويل في الاصطلاح قد اختلف فيه العلماء، والمختار ما عرَّفه به الراغب الأصفهاني حيث قال: التأويل ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، عِلماً كان أو فعلا، ففي العلم نحو «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»[٤] وفي الفعل نحو «هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله»[٥] أي: بيانه الذي هو غاية المقصود منه[٦] وهذا التعريف من أدق التعاريف للتأويل في الاصطلاح وأكثرها ضبطا[٧]

---

(١) انظر: البُرهان في علوم القرآن / ٢ / ١٦٤-١٦٥، والإتقان / ٢ / ١١٩١.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / ٢٦.

(٣) انظر: المفردات كتاب الألف / ٣١، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ / ٤ / ٣١٨، والتفسير والتأويل في القرآن / ٢٩-٣٢، والإتقان / ٢ / ١١٩٠، والتيسير في قواعد علم التفسير / ٢٥، ولسان العرب / ١١ / ٣٢-٤٠.

(٤) آل عمران / ٧. (٥) الأعراف / ٥٣.

(٦) المفردات / كتاب الألف / ٣١. (٧) التفسير والتأويل في القرآن / ٣٣.



التأويل عند السلف:

التأويل عند السلف له معنيان: أحدهما، تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التفسير والتأويل عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً[1] وهذا ما عناه مجاهد بقوله: إن العلماء يعلمون تأويله، يعني القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره «القول في تأويل قوله تعالى، كذا، وكذا، وبقوله: «اختلف أهل التأويل» في هذه الآية، ونحو ذلك، فإن مراده التفسير، والثاني - من معاني التفسير عند السلف - هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً، كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان الكلام خبراً، كان تأويله نفس الشيء المخبر به[2]

الفرق بين المعنيين:

فعلى المعنى الأول، يكون التأويل من باب العلم، فتأويل الكلام هو العلم بمعناه، وهو كالتفسير والشرح والإيضاح، ووجود التأويل يكون في القلب، ودور اللسان في التأويل هو في التلفظ والنطق.

وعلى المعنى الثاني، يكون التأويل هو نفس الأمور الموجودة في الوجود والواقع، سواء كانت ماضية أو مستقبلية، فعندما تقول: طلعت الشمس، يكون تأويل قولك هذا هو نفس طلوعها، وهذان النوعان داخلان في قول الراغب السابق عن التأويل، وهو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً[3]

الفرق بين التفسير والتأويل:[4]

الصحيح أن التفسير يغاير التأويل، قال صاحب البرهان: قيل: التفسير والتأويل واحد بحسب عرف الاستعمال، والصحيح تغايرهما، وهذه خلاصة نافعة للفرق بين التفسير والتأويل للدكتور أحمد حسن فرحات:

---

(١) الإكليل في المتشابه والتأويل/ ٢٦-٣٢. (٢) التفسير والمفسرون/ ١/ ١٧. (٣) التفسير والتأويل في القرآن/ ٣٥.

(٤) انظر: في ذلك البرهان/ ٢/ ١٦٤-١٦٥، والإتقان/ ٢/ ١١٩٠، ومناهل العرفان/ ١/ ٤٧٣، والتيسير في قواعد علم التفسير/ ١٢٣-١٤٤.



قال : الكلام إذا وقف به عند المعنى الظاهر ، كانت الغاية منه هذا المعنى الظاهر ، ويكون المراد بالتأويل هو التفسير ، وإذا كان المراد به تحققه في عالم الواقع إن كان خبراً ، أو تحقيقه إن كان طلبا ، كانت هذه هي الغاية المرادة منه ، وهذا غير التفسير ، وإذا تجاوزنا المعنى الظاهر إلى المعنى غير الظاهر ، كانت الغاية المرادة من الكلام ، المعنى غير الظاهر لدلالة القرينة على ذلك ، وكان هذا حسب اصطلاح أهل السلف ، وكما يجرى التأويل في العلم والقول ، كذلك يجرى في العمل ، كما ورد في قصة موسى عليه السلام - حيث ردّ الرجل الصالح - الخضر - الأعمال الثلاثة التي قام بها - خرق السفينة ، وقتل الغلام وإقامة الجدار ،- إلى الغاية المرادة منها ، وقال لموسى :

«ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا»(١)، (٢)

سادساً: أقسام التفسير:

التفسير المعتد به عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : التفسير بالمأثور:

والمأثور : اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً من باب قتل ، نقلته ، والأثر بفتحتين اسم منه ، وحديث مأثور ، أي : منقول(٣)

فالتفسير بالمأثور ، أي : المنقول ، سواء كان متوتراً أو غير متواتر .(٤) وعلى هذا ، يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى ، والمنقول عن النبي ﷺ ، والمنقول عن الصحابة - رضي الله عنهم - والمنقول عن التابعين ، رحمهم الله - وبعض العلماء يخرج من التفسير بالمأثور ، ما نقل عن التابعين فيقول في تعريفه : التفسير بالمأثور هو ما جاء في القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو كلام الصحابة الأخيار بياناً لمراد الله تعالى ، وهذا النوع من التفسير لا خلاف فيه بين العلماء .

---

(١) الكهف / ٨٢ . (٢) التفسير والتأويل (للخالدي) ٣٦ . (٣) لسان العرب / ١ / ٢٥ ، ترتيب القاموس / ١ / ١١٢ .

(٤) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / ٤٣ .



أقسام التفسير بالمأثور:

١ - تفسير القرآن الكريم بالقرآن:

وهو أصح الطرق في التفسير، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فسر في مكان آخر، ولأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه عن غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[١] ومن أهم الكتب في تفسير القرآن الكريم بالقرآن كتاب [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن][٢]

٢ - تفسير القرآن الكريم بالسنة المطهرة:

وهو المرتبة الثانية في التفسير، وذلك لأن السنة شارحة للقرآن الكريم وموضحة له، بل لقد قال الإمام الشافعي - رحمه الله - كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى:

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً»[٣] وقال تعالى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[٤] ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتا ب ومثله معه»[٥] - يعني السنة - والسنة أيضاً تتنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يُتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي على ذلك بأدلة كثيرة[٦] وعلى هذا، فما جاء عنه ﷺ من شرح أو بيان لكتاب الله تعالى بسند صحيح ثابت فهو حق يجب اعتماده[٧]

---

(١) التبيان في علوم القرآن / ٦٥.

(٢) تأليف محمد الأمين الشنقيطي، ويقع في عشر مجلدات، ط (عالم الكتب) بيروت.

(٣) النساء / ١٠٥. (٤) النحل / ٦٤.

(٥) رواه أحمد وأبو داود عن المقدام بن معدي كرب كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٦٤٣).

(٦) انظر: تفسير بن كثير / ١ / ١٢-١٣ (٧) التبيان في علوم القرآن / ٦٥.



٣ - تفسير القرآن الكريم بأقوال الصحابة - رضي الله عنهم -:

وهو المرتبة الثالثة من التفسير المعتمد المقبول، فإذا لم نجد التفسير في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، قال الحاكم - رحمه الله - إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع، ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رُفع إلى النبي ﷺ، فهو إذاً من المأثور، وقد صوَّب الإمام الزركشي - رحمه الله - في (البرهان) هذا الاتجاه[١]

والإمام ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - يرى أن أقوال الصحابة في التفسير لها حكم المرفوع بشرطين:

الأول: أن يكون مما لا مجال للرأي فيه، كأسباب النزول، وأحوال القيامة، واليوم الآخر، ونحوها.

الثاني: ألا يكون الصحابي معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا، أي: غير معروف برواية الإسرائيليات[٢]

٤ - تفسير القرآن الكريم بأقوال التابعين - رحمهم الله -:

وقد اختلف العلماء في تفسير التابعين للقرآن الكريم، فمنهم من قال: إنه من التفسير بالمأثور، لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، وقد رجع كثير من الأئمة إلى أقوال التابعين في التفسير، كمجاهد بن جبير، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والحسن البصري، ومسروق، وغيرهم.

ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، أي: له حكم بقية المفسرين، وعلى هذا،

---

(١) انظر: البرهان/ ٢/ ١٧٤، والإتقان/ ٢/ ١٢٠٥، ومناهل العرفان/ ١/ ٤٨١.

(٢) انظر: مقدمة تفسير البحر، تحقيق الشيخ عادل عبدالموجود وآخرين/ ١/ ١٦.



فأقوال التابعين ليست حجة في التفسير إلا إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة(١)

أشهر المفسرين من الصحابة والتابعين:

(أ) المفسرون من الصحابة:

وقد عدّ السيوطي - رحمه الله في الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وأبوموسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير - رضي الله عنهم أجمعين -(٢) وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء، كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعائشة - رضي الله عنهم - غير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما ان العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبوبكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك الى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف الى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسراره، وقد كثرت الرواية عن علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، لحاجة الناس إليهم، أما باقي العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبوموسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلت عنهم الرواية ولم يصلوا في التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون(٣)

---

(١) انظر: دقائق التفسير (ابن تيمية) ١ / ١١٣-١١٤.   (٢) الإتقان في علوم القرآن / ٢ / ١٢٢٧.

(٣) انظر: التفسير والمفسرون / ١ / ٦٧-١٠٦.



(ب) المفسرون من التابعين:

لما فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم في حياة الرسول - ﷺ - وفي عهود الخلفاء من بعده، أدى ذلك إلى تفرق علماء الصحابة في الأقطار المختلفة، فقام في تلك الأقطار مدارس علمية أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون، وأشهر هذه المدارس هي:

١- مدرسة التفسير بمكة:

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - وأشهر رجالها هم:

سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى بن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وهؤلاء كلهم كانوا من الموالي.

٢- مدرسة التفسير بالمدينة:

وقامت هذه المدرسة على أبي بن كعب - رضي الله عنه - وأشهر رجالها هم:

زيد بن أسلم، وأبوالعالية، ومحمد بن كعب القرظي.

٣- مدرسة التفسير بالعراق:

وقامت هذه المدرسة علي عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - وأشهر رجالها هم:

علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي، ثم حمل اتباع التابعين هذا التراث العلمي الذي خلفه التابعون، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من الغموض وما جد من اختلاف في الرأي، وعن هؤلاء أخذ من جاء بعدهم.. وهكذا... تناقل الخلف علم السلف، وحمل علماء كل جيل علم من سبقهم وزادوا عليه، سنة الله في تدرج العلوم، تبدأ ضيقة الدائرة، محدودة المسائل، ثم لا تلبث أن تتسع وتتضخم إلى أن تبلغ النهاية وتصل إلى الكمال (١)

---

(١) انظر: شرح مقدمة التفسير / ١٣٩، والإتقان في علوم القرآن / ٢ / ١٢٣٣-١٢٣٥، والتفسير والمفسرون / ١ / ١٠٦-١٣٠.

رفع المسيرهم

القسم الثاني: التفسير بالرأي:

يُطلق الرأي على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد[١] بعد المعرفة بالأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وليس المراد بالتفسير بالرأي مجرد الرأي، أو مجرد الهوى، أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، أو بحسب ما شاء[٢] فقد قال القرطبي - رحمه الله - من قال في القرآن بما سنح في وهمه أو خطر بباله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، وإن استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح[٣].

وعلى هذا، فالتفسير بالرأي قسمان: الأول: ممدوح، وهو ما كان موافقا لغرض الشارع، والثاني مذموم: وهو ما كان مخالفاً لغرض الشارع.

موقف العلماء من التفسير بالرأي الممدوح

وللعلماء في ذلك موقفين متعارضين:

ففريق يرى أنه لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وان كان عالماً أديباً متسعا في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وليس له أن ينتهي إلا إلى ما روى عن النبي ﷺ، أو إلى صحابته الأخذين عنه، ومن أخذ منهم من التابعين.

وذهب الأكثرون من السلف الصالح والعلماء إلى جواز تفسير القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد، ولكل فريق وجهته وأدلته،

فالقائلون بعدم جواز التفسير بالرأي والاجتهاد استدلوا بالآتي:

١) ما روي عن النبي ﷺ انه قال: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٤]

وقوله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[٥]

---

(١) التفسير والمفسرون / ١ / ٢٥٦. (٢) انظر: التبيان في علوم القرآن / ١٥٣-١٥٤.

(٣) تفسير القرطبي / ١ / ٣٣. (٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث بن جندب.

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسّنه، وصححه شاكر.



٢) ما روي عن السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم من التحرّج من الكلام في تفسير القرآن، فمن ذلك ما رواه ابن ابي مليكة قال: سُئِل أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - عن تفسير حرف من القرآن فقال: (أي سماء تُظِلُّني، وأي أرض تُقِلُّني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف - كلمة - من كتاب الله بغير ما أراد الله) وفي رواية (إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم) ورُوي مثل ذلك عن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - (١)

وقد أجيب عما استدل به القائلون بعدم جواز التفسير بالرأي والاجتهاد بما يلي:

فأما عن الحديث الأول - (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)، فقد قال فيه الإمام البيهقي - رحمه الله - هذا إن صح (٢) فإنما أراد - والله أعلم - الرأي الذي يُغَلَّبُ من غير دليل، وأما الذي بسنده برهان فالقول به جائز، هذا ما قاله في (شعب الإيمان) وقال في (المدخل): في هذا الحديث نظر، وإن صح فإنما أراد - والله أعلم - فقد أخطأ الطريق، فسبيله أن يرجع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة، وفي معرفة ناسخه ومنسوخه وما يحتاج منه إلى أخبار الصحابة، ثم قال: فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن ذكره من بعده، وما لم يرد عنه بيان ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد، ثم قال: وقد يكون المراد به من قال فيه برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه، فتكون موافقته للصواب - وإن وافقه من حيث لا يعرفه - غير محمودة،

وقال الإمام البيهقي في الحديث الثاني:

(من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) - له معنيان: أحدهما، من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل - من الصحابة والتابعين - فهو متعرض لسخط الله تعالى، والآخر، وهو الاصح، من قال في القرآن قولا يعلم ان الحق

---

(١) انظر: دقائق التفسير / ١ / ١١٥-١١٧ - تحت عنوان «توقف السلف عن التفسير بالرأي.

(٢) لأن في صحة هذا الحديث وثبوته نظر، لأن أحد رواته وهو سهيل بن أبي حزم القطيعي تُكلّم فيه.



غيره فليتبوأ مقعده من النار، والإمام ابوالحسن الماوردي - رحمه الله - قد أجاب عن الحديث الأول - ايضاً - في نكته فقال: قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهرة وامتنع من ان يستنبط معاني القرآن باجتهاده ولو صحبتها الشواهد، ولم يعارض شواهدها نص صريح، وهذا عدول عما تَعَبَّدَنَا الله من معرفته بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، كما قال تعالى: لَعَلِمَهُ الذين يستنبطون منهم»[1] ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء بالاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئاً، وان صح الحديث فتأويله، أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه، ولم يعرج على ما سوى لفظه، وأصاب الحق فقد أخطأ الطريق، وإصابته اتفاق، إذ الغرض أنه مجرد رأي لا شاهد له، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «القرآن ذلول ذو وجوه محتملة، فاحملوه على أحسن وجوهه» وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد[2]

وأما عن إحجام بعض علماء السلف عن تفسير القرآن الكريم، فقد أجاب العلماء عن ذلك بإجابات شافية، منها، قول الإمام الطبري - رحمه الله - إن من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من علماء السلف، إنما كان إحجامه عنه حذار ألا يبلغ أداء ما كلف به من إصابة صواب القول فيه، لا على أن ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم[3] والإمام ابن كثير - رحمه الله - قال - بعد أن ذكر أقوال أهل السلف في التفسير بالرأي - : فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، أما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه، ولهذا رُوي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل

---

(١) النساء/ ٨٣.

(٢) أنظر أقوال العلماء في التفسير بالرأي، في (البرهان) ٢/ ١٧٨-١٨١، و(الإتقان) ٢/ ١٢٠٦-١٢٠٩، و(مناهل العرفان) ١/ ٥١٧-٥١٨، والتيسير في قواعد علم التفسير/ ١٣٥-١٤٤، والتفسير والمفسرون/ ١/ ٢٥٦-٢٦٦.

(٣) انظر: تفسير القرطبي/ ١/ ٣٩، و(المعجزة الكبرى القرآن) ٤٠٤-٤٠٩.



أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: «لتبيننه للناس ولا تكتمونه»(١) ولما جاء في الحديث المروي من طرق «من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»(٢)

ويقول الإمام الطاهر بن عاشور: وهل اتسعت التفاسير وتفنَّنَت معاني القرآن إلا بما رُزِقَه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله، وهل يتحقق قول علمائنا: إن القران لا تنقضي عجائبه إلا بازدياد المعاني واتساع التفسير، ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصراً في ورقات قليلة، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - «ما كان رسول الله ﷺ يفسر من القرآن إلا آيات محدودة علمه جبريل إياهن» ثم يقول ابن عاشور: وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن من خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يُسبق تفسيرها به قبل ذلك؟ وهذا الإمام الشافعي - رحمه الله - يقول: «تطلبت دليلا على حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً»(٣) (٤)

ويقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - : إن النهي عن التفسير بالرأي لون من ألوان المحاصرة لامتداد القرآن وخلوده، وإن شئون الحياة المتطورة تقتضي النظر والتدبر في القرآن للاغتراف منه على مدى الزمن بكل إنجازاته، لأن ذلك مقتضى الخلود(٥) هذا، ومن المعلوم أن التفسير بالرأي لم يتوقف، بل قد طغى على التفسير بالأثر، وأصبح له ألوان شتى، فمنه اللغوي، ومنه الكلامي، ومنه الفقهي، ومنه البياني، ومنه العلمي، إلى غير ذلك.

---

(١) آل عمران/ ١٨٧. (٢) تفسير ابن كثير/ ١/ ١٨.

(٣) النساء/ ١١٥. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ١/ ٢٨-٢٩.

(٥) كيف نتعامل مع القرآن/ ١٩٥.



سابعاً: العلوم التي يحتاج إليها المفسر:

العلوم التي يحتاج إليها المفسر على سبيل الإجمال هي:

١- علم اللغة، ٢- علم النحو ٣- علم الصرف ٤- الاشتقاق، ٥، ٦، ٧ علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) ٨ - علم القراءات، ٩- علم أصول الدين (وهو علم الكلام) ١٠- علم أصول الفقه ١١- علم أسباب النزول، ١٢- علم القصص ١٣- علم الناسخ والمنسوخ ١٤- الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، لتوضيح ما يشكل عليه ١٥ - علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «واتقوا الله ويعلمكم الله»[١] [٢]

ثامناً: الأمور التي يجب على المفسر أن يلتزم بها، وهي:

١- مطابقة التفسير للمفسَّر من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التفسير فيه زيغ عن المعنى وعدول عن المراد.

٢- مراعاة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، فلعل المراد من اللفظ المعنى المجازي، فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس.

٣- مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام والمؤاخات بين المفردات.

٤- مراعاة التناسب بين الآيات، فيبين وجه المناسبة ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن، حتى يوضح أن القرآن الكريم لا تفكك فيه، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض.

٥- ملاحظة أسباب النزول، فكل آية نزلت على سبب فلابد من ذكره بعد بيان المناسبة وقبل الدخول في شرح الآية.

---

(١) البقرة/ ٢٨٢.

(٢) راجع هذه العلوم بالتفصيل في (الإتقان) ٢/ ١٢٠٩-١٢١٢، ومقدمة تفسير القرطبي/ ١/ ٣١-٣٥، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهاني/ ٤٢٢/ ٤٢٥، ومقدمة ابن تيمية في أصول التفسير/ ٢٩-٣٢.



٦- بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول يبدأ بما يتعلق بالألفاظ المفردة من حيث اللغة والصرف والاشتقاق، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب، ثم ما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه في حدود القوانين الشرعية[١]

تاسعاً: الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها:

١- أن يتجنب ادعاء التكرار في القرآن الكريم ماأمكن.

٢- أن يتجنب أصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل مسائل أصول الدين، فإن كل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه.

٣- أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب النزول وأحاديث الفضائل والقصص الموضوع والأخبار الإسرائيلية، فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار.

٤- أن يتجنب التهجم على مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يحصل العلوم التي يجوز معها التفسير.

٥- أن يتجنب الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فليس للمفسر أن يتجنى على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسراره وحجبه عن عباده.

٦- أن يتجنب السير مع الهوى والاستحسان.

٧- أن يتجنب التفسير المقرر للمذهب الفاسد.

٨- أن يتجنب التفسير مع القطع بأن مراد الله تعالى كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهي عنه شرعاً لقوله تعالى: «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»[٢]

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون/ ١/ ٢٧٧ وما بعدها. (٢) البقرة/ ١٦٩.

٩- على المفسر - بعد كل ما سبق - أن يكون يقظاً فطناً عليماً بقانون الترجيح، حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يرجع ويختار.

وهذا هو قانون الترجيح في الرأي:

قال الزركشي - رحمه الله - : كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً هو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي.

فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو - المعنى - الخفي.

وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ»(١) فالمراد: ادع لهم.

ولو كان في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى، وان اتفقا في ذلك ايضاً، فإن تنافا اجتماعهما ولم يمكن ارادتهما باللفظ الواحد، كالقرء، للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه، وإن لم يظهر له شيء، فهل يتخير في الحمل على أيهما شاء؟ أو يأخذ بالأغلظ حكما؟ أو بالأخف؟ أقوال وإن لم يتنافيا وحب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما(٢).

عاشراً: المنهج الأقوم في التفسير

إن أقوم المناهج في التفسير هو ما مَزَجَ بين الرواية والدراية، وجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وألَّف بين تراث السَّلف ومعارف الخلف، فالتفسير بالمأثور إذا اجمتع إليه حُسنُ الاستنباط وسعة الثقافة والمقدرة على الترجيح هو أولى التفاسير

---

(١) التوبة/١٠٣. (٢) انظر: البرهان٢/١٨٣-١٨٤، والتفسير والمفسرون/١/٢٨٠.



بالاعتبار، وهذا ما سار عليه كثير من أئمة المفسرين[1] وهذه هي الطريقة العملية للمنهج الأقوم في التفسير:

١ - البدء بتفسير القرآن الكريم بالقرآن العظيم:

وذلك بالنظر في القرآن الكريم نظرة فاحصة مدققة، وجمع الآيات التي من موضوع واحد، ثم مقارنة بعضها ببعض، فإن من الآيات ما أُجمل في مكان وفسر في مكان آخر، ومنها ما أوجِزَ في موضع وبسط في موضع آخر، فيحمل المجمل على المفسر، ويشرح ما جاء موجزاً بما جاء مسهباً، مفصلا[2].

٢ - طلب التفسير من السنة الصحيحة:

فإذا لم يجد التفسير في القرآن الكريم طلبه فيما صح عن رسول الله ﷺ، لأنه مؤيد من ربه وموكول إليه أن يبين للناس ما نزل إليهم، ولأن السنة شارحة للقرآن وموضحة له.

٣ - الرجوع إلى أقوال الصحابة - رضي الله عنهم -

فإذا لم يجد التفسير لا في القران ولا في السنة رجع الى أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - لأنهم أعلم بكتاب الله تعالى وأدرى بأسرار التنزيل.

٤ - الرجوع إلى أقوال التابعين - رحمهم الله - وهي الأقوال التي أجمعوا فيها على الشيء لأنه يكون حجة، أما إذا اختلفوا فلا حجة لبعضهم على بعض ولا على من بعدهم.

٥ - الأخذ بمطلق اللغة:

لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، روى البيهقي - رحمه الله - عن مالك - رحمه الله - أنه قال:

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن (د. صبحي الصالح) ٢٩٨، والمرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة/ ٤١.

(٢) انظر: كتاب الإمام ابن الجوزي فيما أجمل في القرآن في موضع وفُسِّرَ في موضع آخر منه.



لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً.

٦ - التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع:

وهو الذي دعا به النبي - ﷺ - لابن عباس - رضي عنهما - حيث قال: «اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل»(١)، (٢).

المنهج المختار لتفسير السورة الكريمة:

ويتمثل هذا المنهج في الجمع بين تأويل السّلف المحقّق، وتفسير الخلف الموفّق، والمزْج بينهما في إطار من التناسق والترابط والتآلف، مع بذل غاية الوسع في التقريب والتيسير والبعد عن التعقيد، مع الالتزام بالمنهج الأقوم الذي ارتضاه أئمتنا المكرمون من أهل العلم والتأويل، السالف الذكر.

طريقة التفسير المتبعة في كل آية كريمة:

وتتمثل هذه الطريقة في ترتيب خطوات متتابعة لشرح كل آية كما يلي:

أولاً - النص القرآني الكريم للآية.

ثانياً - بيان وجوه القراءات المتواترة في الآية: فإن كان المعنى على كل القراءات المذكورة في الآية واحد، اكتفى بما ذُكِر هنا، وإلا، فيذكر من القراءات ما يلزم فقط لشرح الآية في خطوة «التفسير والبيان» وهي الخطوة السادسة.

ثالثاً - اللغة: وذلك من حيث بيان أصل الكلمة وما اشتقّت منه، ومعناها العام والمراد بها في الآية خاصة، وذلك بشيء من التفصيل، أما في خطوة «التفسير والبيان» فيكتفي بذكر المراد من الكلمة في الآية فقط. وقد تضاف لقطات لغوية لتمام إيضاح المعنى.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده/ ١/ ٢٦٦.

(٢) انظر فيما تقدم، الإتقان/ ٢/ ١٢٠٤-١٢٠٦، والتفسير والمفسرون/ ٢/ ٢٧٣-٢٧٥، والمرجعية العليا في الإسلام/ ٤٤-٥٩.



رابعاً - الإعراب التفصيلي لكل آية: وأما في خطوة «التفسير والبيان» فلا يذكر من الإعراب إلا ما يلزم لإقامة المعنى في كل جملة، ويمكن إضافة لقطات إعرابية لزيادة المعنى جلاء ووضوحا.

خامساً - الموقف من المتعارضات: والقصد منه تصفية أوجه الخلاف في الآية بين أهل التفسير، إن وُجد، والاقتصار في الشرح على بيان ثمرة الخلاف وما انتهى إليه، بعد عرض أقوال أهل العلم، في المسألة محل الخلاف، فإن أمكن الجمع والتوفيق بين الآراء، فذلك هو المقدم المطلوب، وإلا فإعمال الاجتهاد بناء على قاعدة الترجيح في الرأي، للوصول إلى القول الأحق بالأخذ من غيره، هو الواجب حينئذ.

سادساً - التفسير والبيان: ويشتمل على وضع عنوان مناسب للآية، ثم كتابة نصها مرة أخرى لأجل الشرح، يتبع ذلك بيان وجه المناسبة للآية، ثم ما يلزم ذكره فقط من القراءات واللغة والإعراب، مما يتطلبه التفسير للآية، ممتزجا بأقوال أهل العلم سلفا وخلفا في تأويل الآية، ثم يختم التفسير والبيان بذكر المضمون العام للآية.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة: ويقصد من هذه الخطوة، ذكر ما يؤخذ ويستفاد من الآية الكريمة من العبر والعظات، والنصائح، والتوجيهات، الهادية لمسيرة الحياة الإسلامية الطيبة الكريمة.

هذا، والقصد من تقديم الخطوات الخمس على خطوة «التفسير والبيان» هو تخفيف العبء على هذه الخطوة، ليسير الأمر فيها بسلاسة ويسر وسهولة، والله وحده الموفق والميسر والهادي إلى سواء السبيل.



«المبحث الثاني»

أضواء على القصص القرآني

أولا - معنى القصص القرآني

القصص القرآني مشتق من قص أثره إذا اتَّبَعه، لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، فأصله في اللغة: المتابعة، وفي القاموس: قصّ الشّيء تَتَبَّعَ أثره، ويقال: قصَّ أثره قَصّاً وَقَصَصًا، وقص القصة: رواها، ويقال: قص عليه الرؤيا: أخبره بها، وقص عليه خبره: أورده على وجهه، وهو مصدر، قال الله تعالى: «فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا»[١] أي: رجعا يقصّان الأثر الذي جاءا به، وقال تعالى على لسان أم موسى: «وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه»[٢] أي: تتبّعي أثره حتى تنظري من يأخذه، والقصص كذلك: الأخبار المتتبَّعَة، قال الله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ»[٣] وقال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ»[٤].. والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال... وحين ننظر في المعنى اللغوي للقصة، نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني، والقصة في القرآن إنما تَتَبَّعُ أحداثا ماضية واقعة، وتَعْرِض منها ما ترى عرضه، ومن هنا كانت (خبر) أو (نبأ)[٥] فقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوّات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من حوادث الماضي وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبّع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه[٦].

---

(١) الكهف/ ٦٤. (٢) القصص/ ١١. (٣) آل عمران/ ٦٢. (٤) يوسف/ ١١١.

(٥) مباحث في علوم القرآن (القطان) ٣٠٥-٣٠٦.

(٦) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٤٤-٤٥.



ثانيا: القصص القرآني والحكاية

إن الحكاية هي أقرب شيء إلى موضوع القصص القرآني، حيث إنه إعادة للماضي وتشخيصا ومحاكاة له، فَلِمَ لَمْ يُطلق على القصص القرآني اسم (الحكاية)؟

والجواب على هذا - والله أعلم - أن عَرْض القرآن لِقِطَعٍ من الحياة الماضية وما جرى من أحداث، ليس محاكاة لها، ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها، ولا تخيُّلاً لها، إنما هو بَعْث لها وإعادة لوجودها في صورة معجزة، تنقُل إلينا الماضي فنطالع فيه الحياة كأنها ماثله حقاً أمام أعيننا وبصائرنا، وعلى هذا، فالقصص القرآني حقيقة متماثلة متكاملة(١) لأنّ القرآن الكريم عندما يقص، إنما ينفخ الحياة في القرون الهامِدَة فإذا هي حيَّة تسعى، نسمع فيها ضجيج العراك بين المحقّين والمبْطِلين، إن شريط الأحداث يتحرّك ليعيد علينا مراحل مضت من تاريخ الدنيا، نحن الآن نثير الأرض ونملأ اليوم الحاضر بما نشاء، هل يتلاشى ذلك كله بمرور زمنه؟ كلا، إنه محفوظ يستطيع رب العالمين أن يعيده كما يشاء(٢).

وقال معظم أئمتنا - رحمهم الله - لا يقال: كلام الله محكي، ولا يقال: حَكَى الله، لأن الحكاية: الإتيان بمثل الشيء، وليس لكلامه تعالى مثل.

ثالثا - أنواع القصص القرآني:

والقصص في القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمّن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله تعالى بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

---

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/٤٨-٤٩ (٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم/١٠٤.



النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوّتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت، وجالوت، وابْنَىْ آدم، وأهل الكهف، وذي القرنيْن، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخْدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ، كغزوة (بدر) و(أحُد) في سورة (آل عمران) وغزوة (حُنين) و(تبوك) في التوبة، وغزوة (الأحزاب) في سورة (الأحزاب) و(الهجرة) و(الإسراء) ونحو ذلك(١).

رابعاً - أهم خصائص القصص القرآني:

١ - أنه جزء لا يتجزأ من الرسالة

القصص القرآني جزء لا يتجزأ من الرسالة الإسلامية، وهو من أبرز أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى ومعالجة المشكلات الإنسانية، شأنه في ذلك شأن مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله تعالى، وشأن الشرائع التي يفصّلها والأمثال التي يضربها، إلى آخر ماجاء في القرآن الكريم من موضوعات(٢).

٢ - أنه أوسع المحاور التي اشتمل عليها القرآن

فقد اشتمل القرآن الكريم على خمسة محاور هي:

المحور الأول: الله الواحد الذي لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه، والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

المحور الثاني: الكون الدال على وحدانية وقدرة وجلال وعظمة خالقه جل وعلا.

المحور الثالث: القصص القرآني الكريم، وهو أوسع المحاور كلها.

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن (القطان) ٣٠٦. (٢) التصوير الفني في القرآن/ ١١٩.



المحور الرابع: البعث والجزاء.

المحور الخامس: كون القرآن الكريم ميدانا ربانيا عظيما للتربية والتشريع(١).

٣ - **أنه كلام الله تعالى الذي لا يشبه كلام المخلوقين**، ولا يدنو من مثل كلامه كلام إنس أو جن، وكفي بهذا شرفا اختص به القصص القرآني.

٤ - **أنه هو الصدق ذاته، والحقيقة نفسها كاملة**، «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا»(٢)

٥ - **أنه منزّه عن كل مالا يليق بكماله وقدسيته**، من كل ما يطلبه أهل الدنيا وأتباع الشيطان، وعبيد الهوى وعشاق التسلية العابثة، فأمثال هؤلاء قد حرموا من نور القرآن وجماله وهديه.

٦ - **أنه لم يأت لملء فراغ الوقت وطلب الاستمتاع**، تعالى القرآن العظيم عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وإنما جاء لأهداف عليا وفوائد سامية، وكما قال الله تعالى «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ... الآية»(٣) فالقصة القرآنية إنما أخذت منزلتها بين آيات القرآن العظيم، لما توحيه من العِبْرَة التي تحملها بين أهدافها، ولقوة تأثيرها على العقول حتى تخضعها لما تحمله من هذه العِبرة(٤).

٧ - **أنه أحسن القصص على الإطلاق**

لأن الذي قصه هو الله العليم الحكيم الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين، والقائل جل شأنه يخاطب رسوله محمدا - ﷺ - «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»(٥).

فالآية الكريمة تُبَيّن أن القصص القرآني كله أحسن بيانا وعرضا مما في غير القرآن، ككتب التاريخ، وما كتبه أهل الكتاب، أو وجدوه في التوراة وغيرها من الكتب السماوية، فإن بيان القرآن أحسن منها وإن كانت غير محرّفة، لأن أسلوب القرآن

---

(١) انظر: كتاب (المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي.

(٢) النساء/ ٨٧. (٣) يوسف/ ١١١.

(٤) انظر: نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٨. (٥) يوسف/ ٣.



معجز ، وغيره من الكتب ليس فيه إعجاز[1] كما أنه أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه ، وبما يتضمنه من العبر والحكم والهداية والرحمة وتفصيل كل شيء .

٨ - **أن القصص القرآنيّ حينما ينبئنا بخبر الأمم السابقة،** فكأنما ينفخ فيها الروح ليشهدنا إياها ، حية تسعى كأنما بعثت من جديد ، لأن الذي يقصه هو الله تعالى الذي يحي ويميت ، والذي يقول للشيء كن فيكون ، فالماضي والحاضر والمستقبل أمام علمه وأمره وقدرته سواء بسواء .

فالقصص القرآني يجئ إلينا بسير الأولين، ويعرضها أمامنا حية بكل سماتها وشخوصها وأحوالها ، لم يغيّر الزمن منها شيئاً أبداً ، وليس ذلك في غير القصص القرآني .

٩ - **أن القصص القرآني بعيد كل البعد عن الحشو أو الزيادة أو ذكر ما لا فائدة فيه،** فهو يهتم كل الاهتمام بمواطن العبرة والتركيز على استخراج الدرس والعبرة .

١٠ - **أنه يعمل على سمّو الذّوق الإنساني والترفع الخلقي** باختيار أدقّ العبارات وأروعها ، دون الوقوع في الإسفاف أو الإثارة، مع الالتزام الكامل بالصدق والواقعية[2] .

١١ - أنه يهتم بوضوح الأهداف والتركيز عليها وصولاً إلى الأغراض التي يريدها من ذكر القصّة، والقرآن في هذه الناحية - كما في غيرها - يصل إلى ذروة دونها كل ذروة[3] .

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٢١ .

(٢) انظر : القصص القرآني إقناع وإبداع / ٢٩ .

(٣) المرجع السابق / ٣٢ .



خامساً - أهم الخصائص الفنية للقصص القرآني:

١ - تنوع طريقة العرض:

ففي قصص القرآن الكريم أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة،

(الأولى) ذكر ملخص للقصة يسبقها، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصة أهل الكهف، فقد ذكرها أولا ملخصة من قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»(٩) إلى قوله: «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا(١٢)»[١] أي في أربع آيات فقط،

ثم ذكرها مفصّلة من قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...(١٣)»

إلى قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...(٢٦)»[٢] في أربعة عشر آية.

(الثانية) ذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصة موسى عليه السلام - في سورة القصص، فقد بدأت السورة الكريمة بذكر عاقبة القصة ومغزاها من قوله تعالى: «نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» إلى قوله تعالى: «وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ»[٣] ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى - عليه السلام - مولده، ونشأته، ورضاعه، وكبره، وقتله المصري، وخروجه.. الخ، من قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ... الآية»(٧) إلى آخر ما جاء عنه في السورة الكريمة إلى الآية(٤٤)[٤].

(الثالثة) ذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجأتها الخاصة ما يغني، وذلك مثل قصة مريم - عليها السلام - عند مولد عيسى - عليه السلام - من قوله تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا»(١٦) إلي قوله تعالي: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ»[٥].

---

(١) الكهف/ ٩-١٢. (٢) الكهف/ ١٣-٢٦. (٣) القصص/ ٣-٦.

(٤) انظر: القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ١٦٣-١٦٤. (٥) مريم/ ١٦-٣٦.



(الرابعة) إحالة القصة إلى تمثيلية، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبّه إلى ابتداء العرض، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها، وذلك كالمشهد التالي من قصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قال تعالى: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...» إلى نهاية المشهد الطويل، ولهذا نظائره كثيرة من قصص القرآن(١).

٢ - تنوع طريقة المفاجأة:

(أ) فمرة يكتُم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة، حتى يكشف لهم معا عنه في آن واحد، مثال ذلك قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح في سورة الكهف، من قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا»(٦٠) إلى قوله تعالى: «... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً»(٧٨)(٢).

وإلى هنا كان موسى - عليه السلام - ونحن معه، لا نعلم سر تلك المفاجآت المتوالية على يد الخضر - عليه السلام...

ثم يأخذ السر في التجلّي فيعْلَمُه المتابعون للسياق القرآني حين يعلمه موسى - عليه السلام -، وذلك من قوله تعالى: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا...»(٧٩) إلى قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً»(٨٢)(٣).

(ب) ومرة يكشف السرّ للنظارة، ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في موضع السّخرية، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين، ومن أمثله ذلك، هذا المشهد من قصة أصحاب الجنة،

---

(١) البقرة/ ١٢٧. (٢) الكهف/ ٦٠-٧٨. (٢) انظر: القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ١٦٥-١٧١.
(٣) الكهف/ ٧٩-٨٢.



من قوله تعالى: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ»[١].

وبينما نحن نعلم ذلك، كان أصحاب الجنة يجهلونه، فتأتي الآيات بعد ذلك من قوله تعالى: «فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ» إلى قوله تعالى: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ»[٢] حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبعنا تهكما وسخرية[٣]

(جـ) ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع، وخاف عن النظارة وعن البطل في موضع آخر، في القصة الواحدة، مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جئ به في غمْضة، وعرفنا نحن أنه بين يديْ سليمان - عليه السلام - في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم، قال تعالى: «فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ... الآيه»[٤] فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفا، ولكن مفاجأة الصرح الممرّد من قوارير، ظلّت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرها معها حينما «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[٥].

(د) ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت ذاته، وذلك كمفاجآت قصة مريم - عليها السلام - حين تتخذ من دون أهلها حجابا فتفاجأ هنا بالروح الأمين جبريل - عليه السلام - في هيئة رجل فتقول: «إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا»[٦]، نعم إننا قد عرفنا قبلها بلحظة أنه (الروح) ولكن الموقف لم يطل، فقد أخبرها قائلاً: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا» وقد فوجئنا كذلك معها إذ أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، «قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا»[٧].

---

(١) القلم/١٧-٢٠. (٢) القلم/٢١-٢٧. (٣) انظر: المرجع السابق/١٧١-١٧٥.
(٤) النمل/٤٢. (٥) النمل/٤٤. (٦) مريم/١٨-١٩. (٧) مريم/٢٣/٢٤.



٣ - **تقسيم القصة إلى حلقات أو مشاهد** مع ترك فجوات بين كل حلقة وحلقة، أو مشهد ومشهد، فيقوم الخيال بتصور ما جرى بين الحلقتين أو المشهدين، وهذه الطريقة متبعة في كل قصص القرآن - على وجه التقريب -، ونرى مثالا لهذا في قوله تعالى في سورة يوسف على لسان الملك: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ»(١).

إننا هنا نرى الملك يقص رؤيا رآها طالبا ممن حوله أن يُعَبِّروها له فلا يعرفون لها تعبيرا، عندئذ يأتي ذلك الرجل - الناجي صاحب يوسف في السجن - ويتذكر يوسف - عليه السلام - ويقول للملك: «إنه يستطيع أن يخبرهم بتعبير الرؤيا إذا أرسلوه إلى يوسف في السجن،...

وينتهي المشهد حتى دون أن نسمع من الرجل بقية الكلام الذي يفهم منه - طبعا - أنه: يطلب إرساله إلى يوسف في السجن فهو قادر على تعبير أي رؤيا، وكأنّ قطع الكلام بهذا الشكل ليفيد إظهار العجلة والسرعة، دليلا على شدة لهفته على لقاء يوسف أو تألّمه بسبب نسيانه،...

ويبدأ مشهد آخر، وفيه نرى جمالا آخر يضاف إلى ما نحن بصدده، في هذا المشهد الجديد نرى الرجل في السجن وجها لوجه مع يوسف - عليه السلام - يتحدث إليه ويعرض عليه رؤيا الملك، وقد تركت فجوة واضحة بين المشهدين، فلم تحدثنا القصة عن موافقة الملك على العرض الذي طرحه الرجل، كما لم تحدثنا عن مسيرة الرجل إلى السجن.. إلخ، وهذه الفجوة المقصودة يمكن أن يقوم خيال المتابع للقصة بملئها مستمتعا بذلك، وهنا - كذلك - جمال جديد يضاف إلى ما سبق، وهو

---

(١) يوسف/٤٣-٤٥.

رفع المسيّهما

أننا – هنا – لا نسمع كلمة (قال) التي تأتي عادة مع الحكاية، إنما نجد النص القرآني هكذا: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ...»[1]

وبحذْف هذا الكلمة «قال» نَقَلَ القرآن المسألة من حكاية تُحكي إلى واقعة تشاهد، ومن رواية تُرْوى إلى شخوص حية تتحرك، وتُحوّل القارئ إلى مشاهد يرى ما يدور أمامه، ولا يخفى ما لهذه الطريقة من تأثير، وتلك خصيصة من خصائص القرآن الفريدة التي لا تنتهي، والتي تعد بحق من دلائل إعجازه[2].

٤ - التصوير الفني:

وهو من أبرز الخصائص التي يتميز بها القصص القرآني عن غيره من القصص، والقرآن الكريم وهو يتناول القصة، إنما يعالجها (بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرفها، فتستحيل القصة حادثا يقع، ومشهدا يجري لا قصة تُرْوى ولا حادثا قد مضى)...

والتصوير الفني يجعل الشخصية شاخصة حية معبّرة، والطبيعة البشرية مجسدة أمامنا تروح وتجئ، تمتلئ بالحركة وتتدافع بالصراع، وتتواجد بالحوار الحي الخلاق...

وليس ذلك فقط، بل ثمة تناسق معنوي نفسي بين القصص التي يعرضها القرآن الكريم، والسياق الذي يعرضها فيه وانسجام عرضها في هذا السياق، مع الغرض الديني، والمظهر الفني[3].

---

(١) يوسف/ ٤٦. (٢) القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٣٨/ ٤٠.
(٣) القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ١٧٩-١٨٠.



«ختام القصة»

بعد ذكر بعض الخصائص الهامة التي تتميز بها القصة القرآنية، يحسن الإشارة إلى تلك الروعة البالغة، والدقة الفائقة، والجمال المعجز، الذي يبدو بوضوح في ختام كل قصة من قصص القرآن الكريم، حيث يأتي الختام وقد تحققت الأهداف واكتملت العناصر، فيشعر القارئ أو السامع أن هذا الختام هو أجمل ختام، وأن أي زيادة بعد ذلك لا معنى لها،...

وفي الختام دائما يتأكد ذلك الإعجاز، حيث يتوافق الغرض الديني مع الجمال الفني، خاصة إذا ما لاحظنا تسلسل القصة في العديد من السور التي وردت فيها مُرَتّبة حسب النزول، وذلك فضلا عن روعة الختام لكل حلقة من حلقاتها على حدة، ونضرب مثالا لذلك، قصة يوسف - عليه السلام- كما جاءت في القرآن الكريم..

نستمع إلى يوسف - عليه السلام - وهو يقص على أبيه رؤيا رآها في منامه، ثم تمضي بعد ذلك وقائع القصة حتى وصلنا إلى نهايتها في تلك الآية الكريمة التي تروي لنا أن الرؤيا قد تحققت، حيث يقول الله تعالى: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»(١)، وكنا قد رأينا - ونحن نتابع أحداث القصة - كيف كان لطف الله تعالى بنبيه يوسف - عليه السلام - ورعايته له، وعندما آن الأوان لختام القصة، لم يكن هناك ختام أروع ولا أبدع من ذلك الختام القرآني للقصة، حيث نرى يوسف - عليه السلام - يمد يديه إلى الله تعالى بالدعاء، معترفا بفضله وشاكرا لنعمه وسائلاً إياه حسن الختام، يقول الله تعالى على لسانه - عليه السلام -: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»(٢)،(٣).

---

(١) يوسف/ ١١٠. (٢) يوسف/ ١٠١.

(٣) القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٤١-٤٥.



سادساً - عناصر القصة في القرآن الكريم:

وتشتمل القصة القرآنية على العناصر التالية:

١ - الأسلوب:

وأسلوب القصص القرآني يختص بخصائص عدة من أهمها:

اشتماله على صُوَر بيانية في ألفاظه،

فكل لفظ فيه يعطى صورة بيانية تتناسب والمقام الذي ذكرت فيه، ويتجمع من الأسلوب صورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها، وإن كان لها صفة الاستقلال، ومن المجموع تتكون صُور تُصَوِّرُ المعاني ويكون لها أطياف في اجتماعها وانفرادها، وذلك ثابت في أسلوب القصص، كما هو ثابت في كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا إليها، فكل لفظ له إشعاع نوراني يشع منه، وكل جملة ينبثق منها النور الإلهي الذي تنطفئ بجواره كل الأنوار، ومع هذا فالقصص القرآني باعتباره قصصا فيه أخبار عن أمم ووقائع، وأنبياء يجادلون أممهم، وأشخاص يعاندونهم، وأن القصص يمتاز مع الصور البيانية التي تنبعث من الكلام مجرداً؛ بصُوَر أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد، فإذا ذكرت حال شخص، صوّر تصويرا واضحا كأنك تراه وتشاهده، والعبارات تصور حاله من خوف أو حنان، أو انزعاج أو جحود، وكأن المعاني صورا واضحة في الشخص المتحدث عنه، ولو أن مصوراً متحركاً يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر، ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية والأساليب في تصويرها، ولعلنا نرى ذلك واضحاً في قصة موسى - عليه السلام - بعد ولادته، يقول الله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا



أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»(١).

إن القصة ترينا صورة أم مضطربة منزعجة خائفة، لما أثْقَلت ألقت حملها، فإذا أثقال جديدة، إنها تريد نجاته، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع، وإذا الإلهام يجيئها بإلقائه باليم مع إثلاج قلبها بألا تخاف، وألا تحزن، ومنّ الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود إليها، وهكذا يكون الاطمئنان في موطن الخوف، والقرار في موطن الاضطراب، والسكون في موطن الهلع، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبها، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهي تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان إلى أن وعد الله تعالى بالاطمئنان، ويصطرع الأمران في نفسها، يغلُب الإلهام فتطمئن، ويغلب الفزع القلبي فتكاد تبدي أمرها، وتظهر سرها ولو علم به أعداؤه وأعداؤها أعداء الله تعالى، ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر، وهي تصبر ولكنها لا تسكن بل تتحرك بعمل، فترسل أخته لتتقصّى أخباره، وتتعرف أحواله، فترى المعجزة الكبرى، إذ يمتنع عن المراضع، حتى يعود إلى أمه وتأخذه أخته إلى الأم التي تضطرب بين اليأس والرجاء، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم،..

اقرأ النص القرآني، وتراه مصوراً لحال تلك الأم الرءوم، فهل تجد مصورا متحركا أو واقفا يستطيع تصوير هذه الحال، ولكنه القصص القرآني المصور الذي نزل من عند الله تعالى(٢).

---

(١) القصص / ٧-١٢ (٢) المعجزة الكبرى القرآن / ١٤٨-١٥٠

٢ - **الشخصية:**

اشتملت القصة القرآنية على عدد كبير من الشخصيات المنتمي بعضها إلى عالم الغيب، وبعضها الآخر ينتمي إلى عالم الشهادة، هذا بالإضافة إلى الحضور الإلهي الذي يتجلى في حوار الله عز وجل مع بعض عباده، ويبدو في قصص آدم - عليه السلام -، وإبراهيم، وطلب إبراهيم - عليه السلام - من ربه أن يريه كيف يحي الموتى، وأيضا في تكليم الله تعالى لموسى - عليه السلام - ..

ونجد من شخصيات عالم الغيب الملائكة، فلهم حضور ومشاركة في قصة آدم - عليه السلام - وبعض مشاهد قصة مريم وزكريا - عليهما السلام - ويتجسّدون في صورة بشرية تخفي على من يراهم فيظنهم بشراً، كما حدث في قصة إبراهيم - عليه السلام - مع ضيفه من الملائكة، وهذا التنوع الواضح في الشخصيات في القصص القرآني، يمكن اعتبار كل شخصية منها نموذجا في مجاله الفردي أو الجماعي[١].

٣ - **الحدث**

الحدث في القصة القرآنية يرتبط بالشخصية ارتباطا وثيقا، فما الحدث إلا حركة الشخصية في إطار الزمان والمكان، أو في إطار الفكر والوجدان[٢].

والقصص القرآني وهو يَعْرِضُ للأحداث والشخصيات الماضية، لا يُغَلِّبُ الشخصية على الحدث، كما هو الحال في القصص التاريخي البشري، ولكنه يوزّع المشاهد توزيعا محكما بين الحدث والشخصية، فلا تستأثر الشخصية وحدها بالموقف، بل يلتقى كل من الشخصية والحدث التقاءاً معجزاً يتولد منهما معا مضمون مقصود، هو الذي يكون بطل الموقف، وتكون شخصية المضمون هذا المأخوذة من ارتباط الشخصية بالحدث أبرز شخوص القصة القرآنية، فالشخصية تؤدي دورها كشاهد من الشواهد الإنسانية في أحوالها المختلفة، من إيمان أو كُفْر، أو هدى أو ضلال، أو استقامة

(١) القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ٧٨-٨٠. (٢) المرجع السابق/ ٨٤.



أو انحراف، أو رُشْد أو غيّ، أو علم أو جهل، أو حكْمَة أو سفاهة، أو قوة أو ضعف، إلى غير ذلك من الأحوال، . .

والحدث كذلك يقوم بدوره في القصة كَمَحَك اختبار تظهر فيه حقيقة الشخصيات ودرجات الناس، وقرْبهم من نور الهداية أو بُعْدهم عنها، وقوة إيمانهم وصمودهم أو ضعف يقينهم وخوارهم، إلى غير ذلك من الأمور، ومن الشخصية والحدث معاً، نخلص إلى المضمون المراد من كل موقف على حدة، أو من المواقف المتصلة المترابطة معا(١).

٤ - الحوار والمناظرة

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية، الحوار، والمحاورة بين الأنبياء وأقوامهم ضرب من إيضاح الفكرة وسبيل لعرض الموضوع، ووسيلة لبلورة الهدف الذي من أجله سيقت القصة، وهو في الحقيقة يكشف عن طبيعة الشخوص ويوضح اتجاهاتهم، وما تنطوي عليه نفوسهم، والجملة في الحوار وضعت أصلا لتقال، ولينطق بها الشخوص، وليست كالمحاكاة أو الوصف أو السرد، وإنما إيقاعها من نوع مخالف يتراوح بين الطول والقصر، والإيجاز والإطناب، لملاءمة الموقف الذي تقال فيه، فالمقولة تبرز الفكرة، والفكرة تبرز المقولة، وطبيعة الشخصية التي تنطق بهذه الفكرة المصوغة في المقولة يتحتم أن تكون موائمة لما تنطق به، متسقة نفسيا واجتماعيا وخلقيا مع كل جملة ولفظة تخرج من الملقي إلى المتلقّي، إذ الحوار فعل من الأفعال، به يزداد المدى النفسي عمقا، ويحتدم الصراع ويتأزّم الموقف، الأمر الذي يبعث الحركة والحيوية في فنّية القصة، وعلى قدر واقعية الشخوص يكون إحكام الحوار، ولا يؤتي ثماره إلا إذا ارتبط بحوادث الجو العام والمجتمع الكائن زمنا وعادة وسلوكا، وفي القصص القرآني، كثير من المحاورات التي وقعت بين الأنبياء وأقوامهم، كتلك التي وقعت بين نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٢).

---

(١) القصص القرآني منطوقة ومفهومة/ ٤٠-٤١.   (٢) انظر: القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ٨٨/ ٨٩.

٥ - الزمان

القصص القرآني لا يحدد زمن وقوع الأحداث، فليس فيه ذكر للزمن الذي خلق فيه آدم - عليه السلام - والذي أنزل فيه إلى الأرض، ولا بيان العصر الذي بعث فيه نوح - عليه السلام - ومن تلاه من الأنبياء، . .

ذلك لأن تحديد الزمن لا يزيد في تأثير تلك القصص التي سيقت للعبرة والذكرى، وإذا كنا لا نجد في القصة القرآنية تحديدا لموقعها في مسار التاريخ، فإننا نرى فيها صورا أخرى للزمن، وهو الزمن الداخلي الدال على المدة التي استغرقها وقوع الحدث، وذلك لارتباطه بالغاية من القصة وكشفه عن موطن من مواطن العبرة فيها[١].

فمثلا. . ورد في قصة صالح وقومه بيان للمدة التي أعطيت لهم بعد أن عقروا الناقة «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ»[٢].

وذكر الزمن هنا يدعو إلى التفكر والتدبّر، فإن لكل أمة أجلا، وقد بقى لقوم صالح ثلاثة أيام قبل أن يحيق بهم العذاب، وهذه الأيام الثلاثة فرصة لصالح ومن معه لينجوا بأنفسهم من العذاب الذي سيلحق بالكفرة[٣].

٦ - المكان

والمكان في القصة القرآنية يظهر في صورتين،

(أولاهما) مكان محدد جغرافيا ويمكن تحديده على الخارطة.

(ثانيهما) مكان قصص هو مسرح الأحداث من غير تحديد جغرافي له، وهو أكثر وروداً، . . .

ومن الأمثلة المحددة جغرافيا مصر، وقد ورد ذكرها في قصة يوسف وفي قصة موسى عليهما السلام . . .

وذكرت أماكن أخرى كان العرب يعرفونها حين نزول القرآن الكريم، منها،

---

(١) انظر: خصائص القصة القرآنية/ ٨. (٢) هود/ ٦٥.

(٣) القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ٩٣-٩٤.



الأحقاف(١) موطن عادٍ قوم هود، والحِجْر(٢) بلاد ثمود قوم صالح، ومدْين(٣) قوم شعيب، وبهم سميت الديار، وإن ورد اسمهم في أكثر من موضع منسوبا إلى الأيكة(٤)..

وفي ذكر هذه المواضع زيادة اعتبار وتذكر، فهم يمرون بتلك الديار ويعرفونها، ويرونها خالية من أهلها(٥).

(١) الأحقاف / ٤٦ (٢) الحجر / ٨٠ (٣) الأعراف / ٨٥، والقصص / ٢٢-٢٣

(٤) الحجر / ٧٨، والشعراء / ١٧٦ (٥) القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ٩٩-١٠٠



سابعاً - أهم أغراض القصة القرآنية والقيم التي تضمّنتها:

القصة في القرآن الكريم ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة الطليقة، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، ولما كان القرآن الكريم كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، فإن القصة القرآنية هي إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، ولذا فقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وطريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية، . . .

وإذاً فأغراض القصة في القرآن الكريم تكاد أن تكون هي بذاتها جميع أغراض القرآن الكريم (١) وأهم هذه الأغراض هي:

١ - إثبات صدق الرسول ﷺ في دعوى الرسالة، باعتبار أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم طول حياته، فكيف علم بهذه الأخبار الدقيقة عن قصص الأولين؟

إذاً فورود هذا القصص في القرآن الكريم يعتبر دليلاً على أن محمدا ﷺ رسول الله حقاً، وأنه يبلّغ ذلك عن الله عز وجل، . . .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بوضوح في مقدمة بعض من هذا القصص، وفي التعقيب على بعض آخر، وفي ثنايا العرض أحيانا، . .

من ذلك قوله تعالى في أول قصة يوسف - عليه السلام - من سورة يوسف: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»(٢) أي ما كنت تعلم شيئاً عن هذا القصص قبل أن نوحي إليك به ومن ذلك قوله تعالى في نهاية القصة نفسها: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ»(٣)، (٤).

---

(١) التصوير الفني في القرآن/ ١١٧-١١٨

(٢) يوسف/٣ (٣) يوسف/ ١٠٢ (٤) القصص القرآني إقناع وإبداع/ ١٩



٢ - بيان أن الدين كله واحد في أساسه وأنه من عند إله واحد، من عهد آدم - عليه السلام - إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع، وهذا واضح من طريقة العرض التي سلكها القرآن الكريم وهو يعرض علينا العديد من قصص الأنبياء متشابهة الحلقات، تتكرر فيها العقيدة الأساسية ربما بذات الألفاظ على لسان كل الرسل، . . .

جاء في سورة الأعراف عن نوح - عليه السلام -: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»(١).

وجاء بعد ذلك في نفس السورة عن هود - عليه السلام -: «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ»(٢)

وبعد ذلك يجئ الحديث عن صالح - عليه السلام -: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ. . .»(٣).

ثم يكون الحديث عن شعيب - عليه السلام -: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ»(٤)(٥).

وهكذا نرى أن الدين واحد في جميع الشرائع التي بعث بها كل نبي، وهذا مصداق قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. . .»(٦) وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ»(٧).

٣ - بيان كيفية تأييد الله لأوليائه ونصرته لهم، وبيان كيفية إهلاك أعدائه وإنزال العقوبة بهم.

وذلك تثبيتا لرسول الله ﷺ ومن آمن معه، وتهديدا لأهل مكة ومن على شاكلتهم، . . .

---

(١) الأعراف/ ٥٩. (٢) الأعراف/ ٦٥. (٣) الأعراف/ ٧٣.
(٤) الأعراف/ ٨٥. (٥) القصص القرآني إبداع وإقناع/ ٢٠-٢١.
(٦) الشورى/ ١٣. (٧) الأنبياء/ ٢٥.



وقد صرح القرآن الكريم بهذا الغرض في قول الله تعالى: «وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»(١).

ولتحقيق هذا الغرض فإن قصص الأنبياء تأتي - غالباً - مختومة بذكر مصارع المكذبين، مثال ذلك ما جاء في سورة العنكبوت، بعدما تم ذكر جانب من قصص أنبياء الله، نوح وإبراهيم، ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى - عليهم السلام - جاء الختام بقول الله تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»(٢)(٣).

وإذا كان في أنباء أولئك الرسل ما يثبت فؤاد النبي ﷺ - فإنه لجدير أن يثبت كل من كان له في رسول الله أسوة حسنة «لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً»(٤) فإنهم يزدادون - كلما أوغل المجرمون في تحدّيهم والعدوان عليهم - إيمانا وتسليما، ولقد كان من آثار هذه اللفتات العظيمة في رفع المستوى الإنساني بين أصحاب هذا النبي، أنهم صمدوا للحوادث، وسيطروا على جميع صنوف الكوارث، وارتفعوا فوق الابتلاءات والمعاناة، فانتصروا في المعارك وخلص أمامهم الطريق، وخلا لهم جو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٥).

٤ - معرفة الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - وأحوالهم مع أممهم.

فلولا القصص القرآني الكريم، ما علمنا شيئا عن أنبياء الله تعالى ورسله، ولا عن دعوتهم، ولا عن أقوامهم الذين أرسلوا إليهم، ولكن الله تعالى أشهدنا إياهم وعرّفنا عليهم معرفة تامة، عن طريق قصصهم العظيم، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ»(٦).

---

(١) هود/ ١٢٠ (٢) العنكبوت/ ٤٠

(٣) القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٢١-٢٢ (٤) الأحزاب/ ٢١

(٥) القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ١١٨

(٦) غافر/ ٧٨.



٥ - ليتأسى رسول الله ﷺ بالأنبياء من قبله ويهتدي بهداهم.

وفي ذلك يقول الله تعالى لرسوله - ﷺ - في سورة الأنعام، بعد ذكر ثمانية عشر نبيا من أنبياء الله تعالى ورسله - عليهم السلام -: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ»(١) كما أمره ﷺ أن يتخلّق بأخلاق الصفوة منهم وهم أولوا العزم، قال الله تعالى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ»(٢).

٦ - بيان نعمة الله تعالى على أنبيائه ورسله - عليهم السلام.

وذلك كقصص داود وسليمان وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى - عليهم السلام - فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضا(٣).

وانظر مثالا لذلك ما حكاه القرآن الكريم عن عطاء الله تعالى لسليمان - عليه السلام - في سورة (النمل) وذلك من قوله تعالى: « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»(١٥).

إلى قوله تعالى: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(٤٤)(٤).

فنشهده عليه السلام - يخاطب الناس قائلا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ»(٥) ثم نشهد نعمة تسخير الجن والإنس والطير له واجتماع الكل جنداً تحت قيادته، ثم نشهد نعمة الله عليه بتعليمه لغة النمل وسماع مخاطبة النملة القائدة لقومها وأمرها لهم بدخول المساكن كي لا يَحْطِمنّهم سليمان وجنوده، هنالك نسمعه يقول: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ»(٦)

---

(١) الأنعام/ ٩٠. (٢) الأحقاف/ ٣٥.

(٣) التصوير الفني في القرآن/ ١٥٤ (٤) النمل/ ١٥-٤٤. (٥) النمل/ ١٦. (٦) النمل/ ١٩.



ثم ما حدث بينه وبين الهدهد الغائب، وما كان بينه وبين ملكة بلقيس، ومنّة الله عليه بنقل عرشها في غمضة عين، هنالك قال: «هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»(١).

٧ - مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما افتروا به على أنبياء الله ورسله - عليهم السلام -:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»(٢).

٨ - بيان أسباب هلاك الأمم والجماعات.

وقد جاء ذلك مفصلا في القصص القرآني تفصيلا عجيبا، وهو يتحدث عن الترف، والطغيان، والبطر، والظلم، والاستعباد الفكري، والإرهاب، والسخرية، والرضا بالذل، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة المبثوثة في هذا القصص(٣)...

من ذلك قول تعالى: «أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ»(٤)، وقوله سبحانه: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ»(٥). وقوله جل شأنه: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»(٦). وقوله عز ذكره: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»(٧) وقوله جل ثناؤه: « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء

---

(١) النمل/ ٤٠. (٢) التوبة/ ٣٠-٣٢. (٣) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته/ ١١.
(٤) الأنعام/ ٦. (٥) الأنعام/ ٣٤. (٦) الأنعام/ ١٠. (٧) الإسراء/ ١٦.



وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ»(١) وقوله تعالى: «ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»(٢).

٩ - تنبيه بني آدم إلى غواية الشيطان وعداوته للإنسان.

وذلك عن طريق إبراز هذه العداوة المتأصلة والدائمة بينه وبين الإنسان منذ آدم - عليه السلام - وإلى أن تقوم الساعة، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصص أروع وأقوى، وأشد تأثيرا في النفس، ليكون الإنسان دائما على حذر من الشيطان الرجيم، والاعتصام منه بالله الرحمن الرحيم، وقد تكررت قصة آدم - عليه السلام - مع الشيطان وغوايته، مرات عديدة، ولهذا قال الله تعالي: «يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ»(٣).

١٠ - ترغيب الناس في قبول الدعوة إلى الله وطاعة الرسل عليهم السلام.

فالقصة القرآنية تكون دائما مواتية لما هو مغروس في النفس من استرواحها بالقصة وميلها إليها، فتمس وجدان البشر وانطباعاتهم النفسية(٤) وعواطفهم، فالقصة القرآنية كانت ولا زالت مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات والهداة والقادة إلى الناس وقلوبهم وعقولهم ليلتقوا فيها بما يريدونه(٥).

١١ - الحث على العدل والبعد عن الهوى

فكثيراً ما أبْرزت القصة القرآنية أهمية العدل في سياسة الأمم والناس، وأكدت على أن المقياس الحقيقي للحكم العادل هو إدراك الحق، وألا يكون للهوى سلطان في الحكم، وحين تورد القصة القرآنية أمثله لمجريات التقاضي والمحاكمة، فلا شك أن تأثيرها في العقل والنفس يبلغ مداه(٦).

---

(١) الأعراف/٩٦. (٢) الأنعام/١٣١-١٣٢. (٣) الأعراف/٢٧.

(٤) انظر: المنهج القويم/٦. (٥) انظر: القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/٧.

(٦) انظر: القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل) ١٣٣-١٣٤



وفي قصة داود - عليه السلام - نموذج لهذا الغرض(١).

١٢ - تقويم المشاعر الإنسانية

فقد عالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها، وضربت لذلك نماذج للنفس الخيّرة الكريمة، التي تعلو على مفاسد الدنيا وأهواء الذات البشرية، فتعلو ويعلو معها الخير...

كما عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة، حتى تضرب للبشر العبرة، وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر، وهما قوّتان تتصارعان منذ أن همس إبليس لآدم - عليه السلام - أن يعصي ربه...

ومن خلال هذا الضرب من القصص القرآني، تأتي الأحكام التشريعية لتعديل السلوك وتقويمه، وضبط العاطفة وكبح الانفعال(٢).

١٣ - بيان قدرة الله تعالى على إحداث الخوارق والمعجزات، وأنه سبحانه خلق الخلق من عدم، توصلا من ذلك إلى إثبات قدرته سبحانه على بعث الناس بعد موتهم، تلك العقيدة التي تعد إحدى ركائز الإيمان الأساسية،...

كان الكون عدمًا، فصار بكلمة الله كونا، وكانت الأرض عدمًا فصارت بكلمة الله أرضا، ومن طين الأرض خلق آدم(٣) ومنه خلق الله حواء، ومنهما معا خرجت الذرية البشرية.. تتواصل إلى يوم الدين،... إن الذي خلق من عدم قادر على أن يعيد ما خلق مرة أخرى، قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»(٤).

١٤ - التعرُّف على سُنَنِ الله الكونيّة، فإن مجيء القصص القرآني ليس لمجرد أن يكون القرآن الكريم كتاب تاريخ من باب الإعجاز القرآني، بل الأمر أعمَقْ من ذلك،

---

(١) وردت قصته في سورة ص / ٢١-٢٦

(٢) انظر: نظرات في قصص القرآن (محمد عبدالعال) / ٩٠

(٣) القصص القرآني إقناع وإبداع / ٢٢-٢٣ (٤) يس / ٧٧-٧٩



فالمقْصد الأسْمَى أن يفهم المسلمون سُنَنَ الله الكونية والاجتماعية وألا يُحاولوا القفْزَ من فوق سنن الله تعالى، وأن يَعُوا أنَّهم لن يُمَكَّنُوا في الأرض إلا إذا تفاعلوا التفاعل الصحيح مع هذه السُّنن، ويفهموا أيضا أن التاريخ ذاكرة ضروريّة للحاضر والمستقبل، وهو (الكمبيوتر) الذي يُغَذّي الحاضر بالمعلومات الصحيحة، فيمكن الوصول إلى القرار المستقبلي الصحيح(١).

١٥ - القصص القرآني أداة للتربية والتشريع، فهو يقف إلى ما جاء في القرآن العظيم من أساليب الاستدلال والمناظرة، والتحَيُّز، والوعْد والوعيد، وغير ذلك، ليؤدي دوْره في تبْليغ رسالة الله تعالى، وتربية النفس على الفضائل الإلهية والمثل العليا(٢).

١٦ - القصص القرآني نوع من أنواع الإعجاز القرآني

فإن العرب أصحاب الفصاحة والبلاغة، لم يقدروا على الإتيان في كلامهم بمثل هذا التنوع العجيب، مع تناسب الألفاظ وتعانقها، وقوة الربط بين المعاني المختلفة، وعدم الاختلاف والتناقض، فإذا ما تأملت سورة من سور القرآن الكريم قد اشتملت على قصص وأحكام ووعد ووعيد، ودعوة إلى أصول العقيدة وأمهات الأخلاق، ثم تأملت حسن التخلص من مقطع إلى مقطع، وبراعة الانتقال من مقصد إلى مقصد، وجدت الربط قد بلغ الغاية، والتعانق قد وصل إلى النهاية، والإحكام والتناسب قد ظهر لكل دارس، وتجلى لكل متأهل وباحث، فإن ذهبت تتحرى ذلك في كلام البشر فلن تجد المطلوب ولن تحظى بالمرغوب(٣).

١٦ - القصص القرآني عبرة لأولي الألباب

قال الله تعالى: « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(٤) فإن في قصص القرآن الكريم عبرة تنفذ إلى القلوب فتهزّها هزّا يردها إلى الصواب ويعيدها إلى الحق، وقد تكون نتيجة ذلك الإيمان والإذعان إلى الحق(٥).

---

(١) د. عبدالحليم عويس في مقدمته لكتاب (المحاور الخمسة) /٧. (٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم/ ١٠٤.
(٣) بديع البيان في علوم القرآن/ ١٦٩-١٧٠. (٤) يوسف/ ١١١. (٥) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٩.



ثامناً - القصص القرآني والتكرار

تنقسم قصص القرآن الكريم من حيث التكرار وعدمه إلى قسمين:

١ - قسم تكرر وتفرق في أكثر من موضع وسورة، وهذا قصصه كثيرة، مثل قصة آدم، ونوح، وإبراهيم ولوط، وموسى، وعيسى، عليهم السلام.

٢ - وقسم لم يكرر ولم يذكر إلا مرة واحدة، وهذا قصصه قليلة، ومثاله، قصة يوسف، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، وسبأ، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل.

هذا، ولكل من القسمين، المكرر - ظاهرا - وغير المكرر سره وحكمته.

حكمة تكرار القصص القرآني

إنّ تكْرار القصة في القرآن لوثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو - وبصورة عامة - يخْدم غرضين في آن واحد، غرضاً فنيّاً، يتمثّل في تجدُّد أسلوبها إيرادا وتصويراً، والتَّفَنُّن في عرضها إيجازاً وإطْنَاباً، والتنوع في أدائها لفظا ومعنى، وغرضاً نفسياً، بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مُقرّر في علم النفس[١] يقول علماء النفس: إنه متى كثر تكرار أمر تولّد تيّار فكريّ وعاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات، وهو العدْوى، إذ لا يكفي لتحوّل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرّة واحدة، ولكن لابد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه، فالتكرار هو السبيل الوحيد لربْط الانفعال به وتركّزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة، وإن عاطفة قوية لَكافية لتحديد نشاط الفرد واتجاهه في الحياة[٢] ولاشك أن تكرار القول لا يقل تأثيرا في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعْل، بل إن التكرار في القول مما يدفع إلى الفعل[٣].

وهذا التكرار من لطائف القرآن الكريم، حيث إن القصة الواحدة للنَّبي تُذْكر في

(١) سيكولوجية القصة في القرآن/ ١١٦. (٢) الدوافع النفسية (مصطفى فهمي)/ ٩٧/ ١٠١.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن/ ١١٦.



سور متعدّدة، ولكنها تختلف في سورة عن الأخرى، بل في كل آية عن الأخرى، حتى إن المؤرّخ إذا أراد أن يستَمدّ من الكتاب العزيز قصة نبي من الأنبياء، فإنه يَتحتَّمُ عليه أن يَتَتبَّعَها في جميع السُّوَر آيَةً آية، وأن يتعمَّق في فهم الآيات المتقاربة في ألفاظها، لأنها على تقاربها تشير إلى معان مختلفة وأغراض متنوِّعة[1] حيث إن كل مرة تُعْرَض فيها القصة تكشف عن جانب - جديد - من جوانبها، أو تُجَسِّمُ صورة من صورها، أو تكمّلَ حدثاً من أحداثها، ففي كل تَكْرار للقصة، تختلف فيه الصُّوَر للحدث الواحد، وهذه الصور المتكررة يكمِّل بعضُها بعضا، وهي في مجموعها تعطى صورة واضحة كاملة مُجَسَّمة أو شبه مجسّمة للحدث، وأن ما يبْدُو من أنه اختلاف بين المقولات في الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعا لمتناثر الأقوال عن هذه الواقعة أو ذلك الحدث، أو ليس إلا الْتِقَاطا لظاهر القول، ثم لما يكمُن وراءه من خواطر وخلجات[2] ولنضرب لذلك مثالاً، فنأخذ ثلاث صور لقصة موسى - عليه السلام - في الموقف الخاص بمناجاته في (الطُّور) وتلقِّيه الدعوة السماوية هناك،

الصورة الأولى، جاءت في سورة (طه) قال الله تعالى: «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَآى نَاراً فَقَالَ لأَهْله امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي»[3].

والصورة الثانية، جاءت في سورة (النمل) حيث يقول الله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[4].

والصورة الثالثة، جاءت في سورة (القصص) حيث يقول الله تعالى: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً

---

(١) تاريخ الأنبياء/ ٢٧. (٢) القصص القرآني منطوقة ومفهومة/ ٢٣٤.

(٣) طه/ ٩-١٤. (٤) النمل/ ٨-٩.



لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»(١).

وفي الموازنة بين هذه الصور الثلاث لقصة موسى - عليه السلام - في موقف المناجاة، نرى أن مجموع ما في الصور الثلاث التي جاءت في سورة (طه) و(النمل) و(القصص) يعطى صورة واحدة مكتملة لما حدث، وأن كل واحدة منها يمكن أن تستقلَّ بنفسها في الكشف عن مضمون هذا الحدث، فنرى أن كلمات الله تعالى لموسى - عليه السلام - في السُّوَر أو الصُّوَر الثلاث، هي مجموع ما سمعه موسى - عليه السلام - من الحق سبحانه وتعالى في هذا الموقف، الذي كان مفاجأة مذْهلة لموسى، فكانت كلمات الله هذه في تتابعها وتلاحقها تتنزَّل برداً وسلاما على قلبه، الذي كاد يتطاير شعاعا: «يا موسى... «إني أنا ربك... «إنه أنا الله العزيز الحكيم... «إني أنا الله رب العالمين»... إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري».

أما اختلاف مقولات موسى - عليه السلام - عن النار في السُّوَرِ الثلاث وهي قوله: «لعلي آتيكم منها بقَبَس أو أجد على النّار هدى».. وقوله «لعلي آتيكم منها بخبر أو جذْوةٍ من النار لعلكم تصطلون» فهذه المقولات تجمع بين ما قال موسى لأهله، وما كان يجري في خاطره من مشاعر وإحساسات، وتقديرات لما يتكشَّف عنه الواقع من مُدَانَاتِه للنَّار التي رآها، واتّصاله بمن عندها...

هذه جزئيات من جزئيات القصة... ولو ذهبنا نصنع صنيعنا هذا في جميع المواقف التي ورد فيها ذكر لموسى - عليه السلام - في القرآن الكريم - مائة وعشرون موضعاً - لو ذهبْنا نفعل ذلك لرأينا أن مجموع هذه المواضيع يُعطى الصورة الكاملة البارزة لقصة موسى كلها، وما تَلَبَّسَ بمواقفها من مختلف المشاعر والعواطف والآراء(١).

---

(١) القصص/ ٢٩-٣٠.　(١) انظر: القصص القراني في منطوقة ومفهومة/ ٢٣٤-٢٣٥.



فليس في القصص القرآني تكرار، وإنما لقطات مختلفة لحدث متجمع[1].
فالقصص القرآني لم يكرر نفسه، إنما هي حلقات وجوانب وأجزاء لجسم واحد تندرج تحت هيكله ومسماه، وما من حلقة من هذه الحلقات إلا وتشير إشارات سريعة، قريبة أو بعيدة لفكرة جديدة، أو تتمة لفكرة سابقة، أو توضيح لهدف عام أو خاص، أو سلوك معين، أو نموذج نفسي أو خلقي أو اجتماعي، أو تحبيب في قدوة حسنة، أو تجنب لعادة سيئة.[2]

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي/ تفسير سورة غافر/ شرائط مسجلة.
(٢) الوحدة الفنية في القصة/ ١١٩.

رفع المسهم

حكمة تكرار القصص القرآني:

وهذه الحكم كثيرة ومتنوعة، وأهمها ما يلي:

١ - تدعيم المعاني وتأكيدها في القلوب،

فالغافل الذي لا يستيقظ إذا دُعي مرَّة، ربَّمَا استيقظ إذا دُعي أكثر من مرَّة، والعاقل قد تَمرُّ به صورة من الصُّوَر فلا يعي كل شيء فيها، بل يغْفل عن بعض الجوانب، فإذا تكرَّر عرْضها عليه من زواياها المختلفة ونواحيها المتعدِّدة ازداد يقظة وانتباها، وأحاط بها من كل الجوانب، والمصِّورُ الحاذق الذي يريدُ إعطاء الصورة الكاملة لأي كائن من الكائنات، لا يكتفي بلقطة واحدة، بل يصوِّر في اتجاهات مختلفة ومن زوايا متعددة، فتارة تكون الصورة نصفيَّة، وأحيانا تكون جانبية، ومرَّة أخرى تشْمَل الجسْم كله من الأمام أو من الخلْف، وهكذا يتابع الصُّوَر لأجزاء هذا الجسم حتى تنكشف حقيقته ويكتمل وضوحه(١).

يقول العقاد - رحمه الله -: إن الصور تختلف للمكان الواحد عندما يتمُّ التقاطها من زوايا مختلفة، فصورة القاهرة من الجو غير صورتها من «المقَطَّم» - جبل بالقاهرة - غير صورتها من «النيل» غير صورتها من «الأهرام»، وما يراد إبرازه هنا غير ما يراد إبرازه هناك(٢).

٢ - تناسب التكرار مع تعدُّد العِبَر:

فالتكرار في القصص القرآني الكريم إنما كان بسبب تعدُّد العِبر التي هي المقصود الأول من القصص(٣) «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...»(٤).

٣ - التكرار القِصَصِي في القرآن الكريم وجْهٌ من وجوه إعجازه:

إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن الكريم هو إعجاز من إعجاز القرآن تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها بحيث لا يرى لها وجه في أيّ لغةٍ وفي أي صورة من صور

---

(١) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية/ ١١٨. (٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم/ ٩٧.

(٣) القرآن المعجزة الكبرى/ ١٦٣. (٤) يوسف/ ١١١.



البيان يقارب هذا الوجه في جلاله وروعَتِه وسَطْوَته، إنه وجْه جديد من وجوه البلاغة لم ينطق به قبل القرآن لسان.

٤ - بيان بلاغة القرآن في أعلى صورها:

فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة تَرِدُ في كل موْضع بأسلوب يتمايَزُ عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يملُّ الإنسان من تكرارها، بل تتجدَّدُ في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

٥ - إظهار التحدِّي لفُصحاء العرب وبلغائهم:

فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدى.

٦ - الاهتمام بشأن القصة:

فتكرار القصة القرآنية يؤدي إلى تمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام.

٧ - اختلاف الغاية التي تُساق من أجلها القصة:

فتُذكَرُ بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتُبْرَزُ معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقْتضيات الأحوال(١).

٨ - في التكرار تتابُع الزيادة في القصة:

فالقرآن الكريم إذا كرَّر القصة زاد فيها شيئا، ومثال ذلك أنه ذَكَرَ الحيَّة في عصا موسى - عليه السلام - وذكرها في موضع آخر ثُعبَاناً.

٩ - في التكرار تعْمِيمُ الْفَائدة:

فإن الرجل في صدْر الإسلام وقبل أن يكمل القرآن الكريم، كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجِرُ بعده آخرون يحكون عنه - أي القرآن - ما نزل بعد

---

(١) مباحث علوم القرآن (القطان) / ٣١٨-٣١٩



صدْر الأوَّلين، وكان أكثر من آمن بالقرآن مهاجرياً، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى - عليه السلام - إلى قوم وقصة عيسى - عليه السلام - إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون في التكرار إفادة لقوْم، وزيادة تأكِيد وتبصير للآخرين، وهم الحاضرون - المقيمون بالمدينة.

١٠ - إثبات صحة نبوَّة محمد ﷺ:

فإن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وإنّ عجْز القَومِ عَنِ الإيتان بمثْل آية منه إثبات لِصِحَّة نبوَّة محمد - ﷺ - لأنه لو كان من عنده لأتوا بمثله، ثم بيَّنَ وأوضَحَ الأمْرَ في عجزهم بأن كرَّرَ القِصَّة في أكثر من موضع، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بأيّ نظم جاءوا، وبأيّ عِبارة عبَّرُوا.

١١ - إتمَامُ دائرة وجوه التحدِّي:

ذلك أن القرآن الكريم لما تحداهم قال: «فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ»(١) فلو ذُكرت القصة في موضع واحد واكتفى بها لقال العَرَبِيُّ: ائتونا أنتم بسُورة من مثله، فأنزلها الله تعالى في تعْداد السور، فعالجَتْهُم من كل وجْه(٢).

(١) البقرة/ ٢٣. (٢) البرهان في علوم القرآن/ ٣/ ٢٧.

رفع المسابهم

أعداء الإسلام والتكرار في القرآن:

ومع كل ما اشتمل عليه التكرار في القرآن الكريم من حكم بليغة، وأسرار عظيمة، وكونه وجه من وجوه إعجازه، ووجه جديد من وجوه البلاغة لم ينطق به لسان قبل القرآن، إلا أن أعداء الإسلام قد وجدوا في هذا التكرار مَدْخلا مُلْتوِياً يدخلون منه على هذا الدين للطَّعْنِ في القرآن الكريم والنّيْل من بلاغته وإعجازه، وليقولوا إن هذا التكرار قد أدْخَلَ الاضطراب على أسلُوبه، وجعله ثقيلا على اللسان وفي السمع معا... ثم يخلصون من هذا إلى القول بأن أسلوب القرآن الكريم ليس على المستوى البلاغي الرفيع!!

ثم يَتمَادوْن في هذا الضلال فيقولون: إن هذا الخلْطَ الَّذي وَقع فيه إنما هو أثر من آثار الأحوال النَّفْسيَّة التي كانت تنتاب محمدا فتخرج به عن وعْيه، وتجئ الكلمات التي ينطق بها في تلك الحال مُردَّدَة مقطّعَة، كما يقع هذا للمحمومين والمصروعين،

والردّ عليهم هو:

إن الذين يقولون هذا القوْل، أو يحكونه عن غيرهم، هم أعاجم أو أشباه أعاجم، لم يذوقوا البلاغة العربيّة، ولم يتَّصلوا بأسرارها، ولو أنهم رزقوا شيئا من هذا لما طاوعتْهم ألسنتُهم أن ينطقوا بهذا البُهْتَان العظيم، ولردَّهُم الحياءُ ان يقولوا قولا لم يقَعْ في حساب (قريْش) وهي تتصيَّدُ التُّهَمَ والمفْتَريات على القرآن الكريم، لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجَدَتْ زوراً من القوْل لَقَالَتْهُ فيه ورَمتْهُ به، ولكن الزُّورَ نفسه أعياها أن تمسك به في وجه هذا الحق المشرق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا لَمْ يكن لقريْش أن تقول مثل هذا القوْل، وهي مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما، فكيف يُسَاغُ هذا القول من أعاجم؟ إن ذلك هو الضلالُ البعيد(١).

إن للتكرار معْنى دقيق في التحدّى، ما نَظُنُّ العَربَ إلا وقد بلغوا منه عجباً..،

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٢٣٠-٢٣١.



وهو - أي التكرار - مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم، وهذا مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة، وقد خفي هذا المعنى - التكرار - على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نَفَاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتَّأتيّ بالسِّياسَة البيانيَّة إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة - كما سبق - وأحالوه إلى النَّقص والوهن وقالوا إن هذا التكرار ضَعْف وضِيق من قُوَّة وسعة، وهو - التكرار - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرِّفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عَيْباً(١).

إن ما تكرر من قصص القرآن الكريم ليس من التكرار الآلي المُمِلّ الذي يخلّ بالفن ويعيبه النقّاد، لأن الحقيقة الواحدة يطالعنا بها القرآن في مواطن مختلفة، ولكن في أثواب جديدة، مع تصرُّفٍ بارع في صيغ التّعْبير وطُرُق الأداء، وإعادة الكلام في الموضوع الواحد مع التّنويع والطَّرَافة والتَّجْديد من بلاغة القرآن وإعجازه(٢).

إن بيان أسرار التكرار وحكمه وأغراضه السابقة، هي الرد الحاسم على المستشرقين وخصوم الإسلام ومن لف لفهم وسلك مسلكهم، أولئك الذين اتخذوا من التكرار البديع والعجيب في القصص القرآني، منفذا ينفثون منه سمومهم وحقدهم الدفين على الإسلام ودستوره العظيم، القرآن الكريم، يريدون النيل منه بكل سبيل، ولكن هيهات هيهات لهم، فلن يظفروا أبداً بمرادهم، ولن ينالوا شيئا بكيدهم، فإن الله العظيم هو الحافظ لكتابه الكريم «يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»(٣) «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»(٤).

---

(١) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ ١٩٤. (٢) سيكولوجية القصة في القرآن/ ١٣٨.
(٣) التوبة/ ٣٢-٣٣. (٤) المجادلة/ ٢٠-٢١.



تاسعاً - القصص القرآني حقيقة تاريخية واقعة

القصص القرآني قصص حقيقيّ واقعي مصفّى من كل شائبة من شائبات الخيال، وهو عرْض لأحداث تاريخية مضى بها الزمان، فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخيّة من أوْثق ما بين يدي التاريخ من وثائق، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث، جاء بها كما وقعَتْ دون أن يدخل عليها شيئاً من التّحْوير أو التّبْديل، أو الزّيادة والحذف، بحيث يغيّرُ من وجوهها، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها، فهو ينقل الحدث التاريخيّ بأشخاصه ومُشَخَّصاته نقْلاً تَعْجَزَ أدوات التّسْجيل والمحاكاة كلها عنْ تحقيق بعضه، بله كله، فالقصة القرآنية قد بنيت بناءا محكما من لَبِنَات الحقيقة المطلقة، التي لا يطوف بحماها طائف من خيال، ولا يطرقها طارق منه[1].

فالقصص القرآني ليس إلا الحقائق التاريخية تصاغُ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة والأساليب الرائعة[2] التي يَعْجَزُ كل بليغ أن يأتي بمثلها أو يدنو من جلالها، قال تعالى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ»[3] وقال سبحانه: « يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ»[4] وقال جل شأنه: «نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ»[5] وقال عز ذكره: « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»[6]...

ومع هذه الحقيقة الثابتة يقينا، إلا أن أعداء الإسلام؛ منهم من يدعى أن القصص القرآني خيال فنّي لا حقيقة تاريخية، ومنهم من يزعم أن القصص القرآني مصدره التوراة والإنجيل، ومنهم من يقول إن القصص القرآني ما هو إلا أساطير الأولين، وسنقوم بالرد على هذا الافتراءات المنكرة على القصص القرآني فيما يلي:

---

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٣٧ وما بعدها.

(٢) مباحث في علوم القرآن (القطان)/ ٣٠٩. (٣) آل عمران/ ٦٢.

(٤) الأنعام/ ٣٧. (٥) القصص/ ٣. (٦) يوسف/ ١١١.



(أ) الردّ على من زعم بأن القصص القرآني خيالٌ لا حقيقة:

إن من أصحاب الفنّ القصصي، ومن أولئك الذين وقعوا تحت تأثير الدراسة الفنّيّة للأدب العربي؛ من دخل إلى ساحة القرآن الكريم وتناول قصصه الحق تناول القصص الأدبيّ بكل أسسه وعناصره، حتى انتهى به الأمر إلى القول بأن القصص القرآنيّ خيالٌ فَنّيّ لا حقيقة تاريخية واقعية، ومن أولئك الدكتور (محمد أحمد خلف الله) في رسالته لنيل الدكتوراة، والتي أعدَّها وقدّمها تحت مظلّة ومساندة ودفاع أستاذه (أمين الخولى) ولقد أثارت هذه الرسالة جَدَلاً طويلا سنة ١٣٦٧هـ، ومن الجدير بالذكر أن أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة تلك الرسالة وهو الأستاذ (أحمد أمين) قد كتب عنها تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب ونُشِرَ في مجلة (الرسالة) وقد تضمَّن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه، وَصَدّر الأستاذ (أحمد أمين) تقريره بالعبارة التالية: «وقد وجدتُها رسالة ليست عاديّة، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عملٌ فنّيٌّ خاضع لما يخضع له الفَنّ من خَلْق وابتكار، من غير التزام لصِدْق التاريخ، والواقِع أن محمداً فنّان بهذا المعنى»... ثم قال: وعلى هذا الأساس كَتَبَ كل الرسالة من أوّلها إلى آخرها، وإني أرى من الواجب أن أسُوقَ بعض أمثله، توضّحُ مرامى كاتب هذه الرسالة وكيْفيّة بنائها، ثم أورد الأستاذ (أحمد أمين) أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة[١] كادّعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن الكريم لا تلتزم الصّدْق التاريخي، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنّياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص، وأن الأقدمين أخطأوا في عدِّ القصص القرآني تاريخا يعتمد عليه[٢].

ومن الغريب أن الأستاذ (أمين الخولى) المشرف على تلك الرسالة يقول في التقديم لها وفي الدفاع عن الآراء التي تضمّنتها:

---

(١) بلاغة القرآن/ ٩٤. (٢) مباحث في علوم القرآن (القطان)/ ٣٠٨-٣٠٩.



وبهذا التفريق بين العَرْضَيْن - الفني والتاريخي - للحادثة والواقعة تبيّن في وضوح قريب أن عرْض القرآن لأحداث الماضين ووقائع حياتهم، والحديث عن تلك الأحداث والأشخاص ليس إلاّ العرْض الفنّي الأدبيّ، لا العرْض التاريخي التحقيقي.

ويشرح الأستاذ عبد الكريم الخطيب ما ذكره الأستاذ أمين الخولى فيقول: ومعنى هذا القول أن القرآن الكريم - لِكَيْ يؤثّر ولكَيْ يَجِد أفئدة تصْغى إليه - يصطنع هذا الأسلوب الفنّي في عرْض الأحداث والوقائع التي تضمَّنَها قَصَصه، وأن القرآن لتحقيق هذه الغاية لا يلتزم الحقيقة التاريخية ولا يقف عندها في تصويره للحدث أو الواقعة، بل إن له مطلق الحرية في عرْضها بالوجه الذي يراه، وصَبْغِها باللون أو الألوان التي يقتضيها الفنّ، أما التزام الحقيقة والخضوع لها، فذلك حَجْر على الفنّ، وتقييد لحرّيّة الفنّان الخالق[1] ثم يردُّ الأستاذ عبدالكريم الخطيب على ما قاله الأستاذ أمين الخولى فكان مما قال:

نحن لا ننكر على القرآن ولا على قصص القرآن أن يلبس ثوْب الفَنّ، فما الفَنُّ إلا الجمال والبهاء والجلال، والقرآن هو مصدر كل جمال وبهاء وجلال، ولكن الذي نُنْكره هو أن يكون نسيج هذا الثَّوْب من أيّة مادة غير مادة الحق، والحق الخالص المصفّى من كل شائبة من شوائب التَّخْيِيل، أو التَّمْوية، أو الفَرْض...

وهل بعد جمال الحقّ جمال؟ وهل بعد جلال الحق وروْعته جلال أو روْعة؟ ثم يقول:

وكيف؟ وبأي شعور يلتقي الإنسان بالقرآن وبقصَص القرآن وهو يحدّثه عن أحداث تاريخية، وشخصيات تاريخية، ثم يذهب بها في واد، والتاريخ المحقّقُ أو المظنُون في وَادٍ آخر؟ إن الذي يعصم القرآن ويحمي حقائقه من أن تنالها يد السفهاء والمتطاولين، هو أن تظل حقائقه محتفظة هكذا بوجودها الذي تحمله دلالات لُغَته، وأن تواجه الناس

---

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٢٧٧.



والحياة كما نطق بها القرآن، غير مُتَسَتِّرَة وراء الفنّ وخيالات الفنّ، وأن تظل هكذا تتحدّى الوجود كله بأنها الحق، وما خَالَفَهَا أو خرج عليها فهو الباطل...

وستكشف الأمور - إن عاجلا أو آجلا - على مقُولات القرآن الكريم أنها الحق كل الحق، وأن التاريخ الذي يخالفها سيقف يوما بيْن يديْها مُسْتَخْزِياً مُسْتَسْلما، إن لم يكن اليوم فغدا.. وهذا الذي يقوله صاحب الرسالة «خلف الله» قول خطير:

وهو رأي لم يكن من مبتكرات الدكتور خلف الله، وإنما هو يتابع في هذا آراء بعض المستشرقين الذين لا يدخل في تصوراتهم أن القرآن الكريم كلام الله تلقاه محمد ﷺ وحيا نزل به الروح الأمين على قلبه(١).

---

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة / ٢٨٦.

رفع المسيّاهم

(ب) الرد على من ادعى أن القصص القرآني مجموع من التوراة والإنجيل

من المغالطات المكشوفة والمزاعم المفضوحة، ما ورد على لسان أعداء الإسلام، من أن محمد - ﷺ - قد جمع القصص الذي جاء بالقرآن الكريم من قصص التوراة والإنجيل(١)..

يقول (جولد تسهير): إن ما كان يبشر به محمد مما يختص بالدار الآخرة، ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير، ثم يقول: أفاد - أي محمد - من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء(٢).

ويقول (فيليب متى): وتكاد كل القصص التاريخية في القرآن أن يكون لها نظير في التوراة، باستثناء بعض قصص قلائل عربية خالصة تشير إلى عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل،...

أما المستشرق اليهودي «جوبتن» فيبالغ في الافتراء ويقول:

ولقد أتى محمد بقصص تكاد تطابق ماجاء في التوراة مع بعض التشويه لبعض الحقائق عن الأنبياء(٣)...

وممن سار على طريق هذه الافتراءات الدكتور محمد خلف الله، حيث إن من تقديره إلزام القرآن أن يكون مطابقا في قصصه وأخباره لما عند أهل الكتاب(٤).

ويكفي للرد على كل هذه الأباطيل أن يطلع القارئ - مجرد اطلاع على ما جاء في التوراة أو الإنجيل، ويطلع على ماجاء في القرآن الكريم، ليكتشف زيف هذه الادعاءات، ويظهر وجه الحق ناصعا كشمس الضحى،...

فإن من يطلع على قصص الأنبياء في القرآن الكريم، يجد أن الله تبارك وتعالى قد رفع ذكرهم وأعلى قدرهم، فهم أئمة الهدى وأولوا الفضل والنهى، وهم الذين صنعهم

---

(١) انظر: القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٦٠. (٢) انظر: القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٢٨٦.
(٣) انظر: القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٦١. (٤) انظر: القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٢٨٦.



الله تعالى على عينه، ورعاهم برعايته، واصطفاهم من بين خلقه، وعصمهم بعصمته، وجعلهم هداة لخلقه،...

ولأنهم بهذه المنزلة فقد جعلهم الله تعالى أسوة لمحمد ﷺ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: «أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ»(١)...

وهذه بعض آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن بعض الأنبياء، والمرسلين: يقول الله تعالى عن نوح - عليه السلام -: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ»(٢)

ويقول سبحانه عن إبراهيم - عليه السلام -: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ»(٣).

ويوجه الله تعالى محمدا - ﷺ - للاقتداء بأبيه إبراهيم - عليه السلام - فيقول: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(٤).

ويقول الله تعالى عن إسماعيل - عليه السلام -: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»(٥).

ويقول جل شأنه عن يوسف - عليه السلام -: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(٦).

ويقول جل ثناؤه عن موسى - عليه السلام -: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي»(٧)...

وهكذا فكل حديث القرآن الكريم عن أنبياء الله تعالى ورسله - عليهم السلام - هو حديث الاجتباء والاصطفاء والثناء والعصمة والتكريم... فأين هذا مما ذكر عنهم في التوراة والأناجيل التي بأيدي اليهود والنصارى الآن؟... لقد افتروا على أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - بأشد أنواع الافتراءات، مما لا يليق حتى بالمؤمن العادي،

---

(١) الأنعام/ ٩٠. (٢) هود/ ٤٨. (٣) الأنباء/ ٥١. (٤) النحل/ ١٢٣.
(٥) مريم/ ٥٤-٥٥. (٦) يوسف/ ٢٢. (٧) طه/ ٣٩.



والتوراة والإنجيل المنزلان من عند الله تعالى مبرّءان من هذا الإفك المفترى بكل يقين، والقرآن الكريم يقول عن التوراة المنزلة على موسى - عليه السلام - : «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...»[١] ويقول عن الإنجيل المنزل على عيسى - عليه السلام - : «وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ...»[٢]

فأين هذا من نسبة المعاصي وكبار الفواحش إلى الأنبياء - عليهم السلام - وبدلا من أن يكون الأنبياء قادة للناس في الهداية وفعل الخيرات، كما هو الحق الذي أنزل من عند الله تعالى، صيّروهم بالافتراء عليهم قادة للضلالة وفعل القبائح والمنكرات[٣]... وهذه بعض الأمثلة:

- جاء في سفر التكوين أن ابنتي سيدنا لوط - عليه السلام - قدمتا لأبيهما النبي الكريم خمراً فشربه وسكر وزنا بهما واحدة بعد الأخرى في ليلتيْن متتاليتين، ويذكر هذا النص أنهما حملتا منه بالزنا، وأن الكبرى ولدت ولداً ودعَت اسمه «موآب» وهو أبو الموابين إلى اليوم، وأن الصغرى ولدت ولداً ودعت اسمه «عمان» وهو أبو العمانيين إلى اليوم[٤].
- جاء في سفر الملوك الثاني أن داود - عليه السلام - تآمر على واحد من قادة جيشة الصالحين وقتله بالحيلة بعد أن زنا بزوجته ثم ضمها إلى باقي زوجاته[٥] ومن العجيب أنهم يزعمون أن هذا السّفر قد كتب بإلهام من الله، وهو واجب التسليم، وكل ما فيه صدق، مع أنه يَنْسِب إلى هذا النبي الكريم تلك الموبقات.
- جاء في سفر الملوك الثالث، أن نبي الله سليمان - عليه السلام - ارتدّ في آخر عمره وعبد الأصنام ولم يكن قلبه كاملا مع الرب كقلب أبيه داود فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تَراءَى له مرتين، وأوصاه ألا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصاه الرب[٦].

---

(١) المائدة/ ٤٤. (٢) المائدة/ ٤٦. (٣) انظر: القصص القرآني إقناع وإبداع/ ٦٠-٦١.

(٤) سفر التكوين الفصل/ ١٩/ ٣٠-٣٨. (٥) سفر الملوك الثاني/ الفصل/ ١١/ ٢-١٧.

(٦) سفر الملوك الثالث الفصل/ ١١/ ٤-١٣.



● جاء في سفر التكوين أن يهوذا ابن يعقوب - عليه السلام - وهو من الأسباط - زنا بزوجة ابنه وحملت منه بالزنا، وأنجبت توأمين هما فارص، وزارح[1].

● جاء في سفر العدد أن موسى وهارون - عليهما السلام - لم يكونا مؤمنين بالله، والذي لا يكون مؤمنا يكون كافرا، وهذا هو النص: «فقال الرب لموسى وهارون: إنكما لم تؤمنا بي ولم تقدساني على عيون بني إسرائيل، لذلك لا تُدْخِلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيتها لهم[2].

● جاء في سفر هوشع أن الله - تبارك وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً - أمر هوشع أن يزني، مع أنه معدود عندهم من الأنبياء، يقول النص: «بَدَاءة كلام الرب بلسان هوشع: قال الرب لهوشع، انطلق فاتخذ لك امرأة زنا وأولاد زنا، فإن الأرض تزْني زنا عن الرب، فانطلَقَ واتخذ «جومر» بنت «دبلائيم» فحملت وولدت له ابنا...[3].

وقد سارت الأناجيل التي بأيديهم الآن على نهج أسفار العهد القديم، وهذه بعض الأمثلة:

● جاء في إنجيل «متّى» أن عيسى من نسل سليمان داود، وأن جدهم الأكبر هو فارص المولود من الزنا من يهوذا ابن يعقوب الذي زنا بـ«ثامار»[4].

● جاء في إنجيل يوحنا أنّ «يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل هم سرّاق ولصوص»[5].

● وجاء في الإنجيل نفسه أن «يسوع أهان أمه في وسط جمع الناس»[6].

علماً بأن العهد القديم جاء فيه الأمر بإكرام الأب والأم، وجعل جزاء من يلعن أباه أو أمه القتل، وهذا ما جاء في هذا الصدد في سفر الخروج «أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك»[7] «ومن لعن أباه أو أمه فليقتل قتلا»[8]...

---

(١) سفر التكوين/ ٣٨/ ١٢-٣٠. (٢) سفر العدد/ ٢٠-١٢. (٣) هوشع ١/ ٢-٤.
(٤) متى/ ١-١٠. (٥) يوحنا/ ١٠-٤٨. (٦) يوحنا/ ٢-٤.
(٧) سفر الخروج/ ٢١-١٢ (٨) سفر الخروج/ ٢١-١٧.



وبعد ما تقدم، فإنه من الواضح الجليّ أن بضاعة التوراة التي بأيدهم فاسدة وقد سَرَتْ منها العدوى إلى الأناجيل، وأمّا ماجاء في القرآن الكريم فهو واضح الصلاح والصدق والاتّساق مع العقل والمنطق،... فكيف يصدق العقلاء قول من يقول: إن محمداً نقل قصص الأنبياء وسرقها من التوراة والإنجيل، وبينها وبين القرآن الكريم هذا التناقض الواضح عن الأنبياء وقصصهم(١) وإذا كان الرسول - ﷺ - يحدّث اليهود والنصارى بما يعلمونه هم من أمر دينهم، فكيف ينكر على اليهود قولهم: «عزير بن الله»؟ ثم ينكر على النصارى قولهم: «المسيح عيسى بن الله»(٢) ثم كيف لا يقبل من اليهود والنصارى قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه»، وكيف يرد عليهم هذا الادعاء بقول الله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ»(٣)...

هذا بعض صنيع القرآن في مواقف الحق مع اليهود، وهي كثيرة، إنه يرمي في وجوههم بكل فاضحة مخزية،... فكيف يلقاهم بالباطل في مجال الأخبار والأحداث التي نظّم منها قصصه الذي جعله عبرة وعظة خالدة على الدهر(٤)...

إنه لا جدال في أن القصص القرآني سبيله الوحي الصادق المنزل على رسوله - ﷺ - كما قال تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»(٥).

وإن المؤمن لَعَلَىٰ يقين ثابت بأن ما نطق به القرآن الكريم في قصصه وما عرضه من أحداث وأشخاص هو الحق كل الحق، وهو الصدق كل الصدق.

---

(١) انظر: القصص القرآني إقناع وإبداع / ٦٧-٧٠.

(٢) جاء هذا الإنكار على اليهود والنصارى في الآية رقم(٣٠) من سورة (التوبة).

(٣) المائدة / ١٨. (٤) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة / ٢٧٥ - وما بعدها. (٥) يوسف / ٣.

(جـ) الردّ على من زعم أن القصص القرآني ما هو إلا أساطير الأولين:

ومن أعداء الإسلام من سار على طريق مشركي مكة الذين قالوا عن القرآن العظيم الذي جاءهم به محمد - ﷺ - من عند ربه، أنه أساطير الأولين، وقد ورد ذكر هذا الافتراء في تسع مواضع من كتاب الله الكريم[١] منها قوله تعالى في سورة (الأنعام): «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ»[٢] وقوله تعالى في سورة (الأنفال): «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ»[٣]، وقوله تعالى في سورة (النحل): «وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ»[٤]...

ولم يقل مشركوا مكة عن القرآن العظيم أنه أساطير الأولين فقط، بل قالوا عن القرآن كذلك: «إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»[٥] وقالوا فيه أيضاً: «إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ»[٦]. وقالوا فيه كذلك: «أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ»[٧] وقالوا في النبي ﷺ: «شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ»[٨] وقالوا فيه كذلك: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»[٩] وهذه المقولات كلها وأشباهها من واد واحد، وتنزع عن موقف واحد إزاء القرآن الكريم كله، لا القصص القرآني وحده، وأتباع المشركين في مقولاتهم عن القرآن وعن النبي ﷺ - اختصوا القرآن العظيم بأنه أساطير الأولين، ودلّلوا على ذلك بأنكر وأخبث الأدلة، ومنها ما قاله الدكتور محمد خلف الله، حيث قال: إنّ هذه العقيدة - عقيدة مشركي مكة - قولهم: «أَسَاطِيْرُ الأوّلِيْن» كانت عندهم قوية، وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن، لأنهم لا يستطيعون هذا القول، إلا إذا كان هناك ما يبرر هذا القول فعلا في تقديرهم ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / ٣٥٠.

(٢) الأنعام/ ٢٥. (٣) الأنفال / ٣١. (٤) النحل / ٢٤. (٥) الفرقان / ٤.

(٦) المدّثر / ٢٤. (٧) الأنبياء / ٥. (٨) الطور / ٣٠. (٩) النحل/ ١٠٣.

رفع المسـاهم

ونقول: سبحان الله! ما أعجب هذا الدليل وما أنكره! أفيكون قول المشركين على مدى تاريخ الأمم والرسالات السماوية، في شأن الرسل والرسالات، هو العقيدة الحقة والقرار الأكبر، ويكون ما يأتيهم به الرسل من عند ربهم هو أساطير الأولين؟...

والحق كل الحق أن ما قاله المشركون في شأن النبي ﷺ، والقرآن العظيم الذي أنزل عليه، لم يكن يمثل عندهم عقيدة، ولا قراراً أكيداً، بل هو التشويش والبُهتان والظلم والزور،... ولقد كان المشركون يعلمون من القرآن العظيم مالا يعلم غيرهم من فصاحته وبلاغته، وما منعهم عن التصديق بما جاء فيه إلا الكبر والعناد، ولقد وردت أخبار متواترة تؤكد هذه الحقيقة، ويقول القرآن الكريم عنهم في ذلك: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ»[١].

ويقول سبحانه مواسيا النبي ﷺ فيما يسمع منهم هذه المقولات المنكرة: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ»[٢]، بل إنهم قد أقروا بأن ما جاءهم به محمد ﷺ من عند ربه هو الهدى إلا أنهم يخافون إن دخلوا في دينه أن يتخطفهم العرب من أرضهم، كما يقول الله تعالى: «وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا»[٣]...

وها هو ردّ القرآن العظيم الحاسم على من زعم بأن القرآن العظيم أساطير الأولين - ومنه قصصه الكريم -، قال الله تعالى في سورة الفرقان: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا»[٤].

فهذا هو رد القرآن العظيم على تلك المقولة الآثمة، وهو أن الذي يقولون عنه أساطير الأولين، إنما هو منزّل ممّن يعلم السرّ في السماوات والأرض، وهل من يعلم

---

(١) النمل/ ١٤. (٢) الأنعام/ ٣٣ (٣) القصص/ ٧٥ (٤) الفرقان/ ٥-٦

السر في السماوات والأرض يَنْزِلُ على حكم الأساطير ويتعامل بها؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً(١).

إنه لمن أغرب الغرائب أن يُصَدِّق أتباع المشركين قولهم عن القرآن وحامله ﷺ، ولا يصدقوا القرآن الكريم في حكمه على مثل هذه الأقوال،...

ونقول لهم ولأمثالهم تحدّيا جهاراً نهاراً أمام الخلق أجمعين:

إن كان ما تقولونه عن القصص القرآني بأنه أساطير الأولين حقاً، فأتوا بسورة من مثل سورة يوسف وقصته، أو حتى بمثل سورة نوح أو سورة الفيل، ولن تستطيعوا ذلك أبداً ولو استعنتم بكل الجن والإنس، وكما قال تعالى: «وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»(٢)(٣).

---

(٥) انظر: طه حسين في الميزان/ ٦٣٦-٦٤٣.　(١) البقرة/ ٢٣-٢٤.

(٢) راجع هذا الموضوع بتوسع في: القصص القرآني الكريم في منطوقة ومفهومة/ ٢٧٥ وما بعدها، وفي: القصة في القرآن الكريم (د. أحمد الجمل)/ ٣٦-٦٣.



عاشراً - الرد على من زعم أن يوسف - عليه السلام - لم يكن في مصر هذه:

يقول الشيخ السيد عبدالمقصود عسكر:

بعض الباحثين ينفي أن موسى - عليه السلام - قد ولد في مصر ويؤكد أنه لم يعش بها، بل ولم يذهب إليها على الإطلاق، كما وأن يوسف - عليه السلام - لم يكن في مصر هذه، ونحن لا ندري حقيقة الهدف الذي جعل هؤلاء يتبنّون هذه المزاعم التي تتعارض مع ماجاء في القرآن الكريم، نقول ذلك بمناسبة ما كتبه السيد / عبدالصمد الخطيب من دمشق في صحيفة الهدف الأسبوعية التي تصدر في الكويت في عددها رقم ١٤٩٨ بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٩٧م، وهو يستنكر ما سبق نشرة في الصحيفة بقلم السيد / أسامة السعداوي من أن موسى - عليه السلام - قد ولد بمصر وعاش فيها، وزعم السيد عبدالصمد الخطيب أن كل ما يدور حول ولادة موسى - عليه السلام - ونشأته في مصر، وكذلك ما قيل عن فترة زمنية قضاها يوسف - عليه السلام - في مصر وما جرى في تلك الفترة إنما يمثل إسقاطات توراتية وتزويرا للتاريخ، واعتمد السيد / عبدالصمد الخطيب في هذا الادعاء على أقوال نسبها إلى الدكتور أحمد داود كما جاءت في برنامج له على القناة الفضائية السورية وباطلاعنا على المقال المذكور نحب أن نقول ما يأتي:

١ - يقول الكاتب: إن مصر سميت بهذا الاسم في عهد عمرو بن العاص، ويبنى على هذا الزعم الذي لا يستند إلى دليل، أن قول الله تعالى في سورة يوسف - عليه السلام - وهو يخاطب أبويه وأهله: «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين» لا يشير إلى البلد المعروف بهذا الاسم في عصرنا، وإنما هي عشيرة عربية، تعيش في شبه الجزيرة العربية.

وهذا كلام ساقط لا يرقى إلى مستوى المعقولية، لأنه ليس من المعروف في التعبير الشائع أن يقال للناس: ادخلوا في العشيرة، إنما يقال للقادمين من سفر حين يتم



الترحيب بهم في البلد الذي وصلوا إليه، ادخلوا هذا البلد بأمن وسلام على الرحب والسّعَة، وهذا ما حدث مع إخوة يوسف وأبويه لأنهم قدموا من سفر ونزلوا على يوسف - عليه السلام - بعد أن مكن الله له في أرض مصر وجعله عزيزاً لها، وهو لقب يلقب به رئيس وزراء مصر في ذلك الزمان، يقول الله تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»(١) وذلك حين اختاره ملك مصر ليكون وزيراً له يتولى أمور الاقتصاد وجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم.

ثم إنه عندما حضر إخوته للقائه بأمر أبيهم للبحث عن مصير أخيهم قالوا له كما جاء في كتاب الله تعالى: «يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ»(٢).

ومن بداية القصة يظهر بوضوح أن قافلة التجارة التي انتشلت يوسف من الجب الذي ألقاه فيه إخوته، سافروا به إلى وجهتهم وباعوه لعزيز مصر في ذلك الزمان، يقول الله تعالى: «وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا...»(٣).

ثم إنه لو كانت مصر المشار إليها في الآيات المتعدة من سورة يوسف هي غير مصر التي نعرفها لكان من اللازم أن يبينها الله تبارك وتعالى، أو يبينها رسوله - ﷺ - حتى لا يختلف الأمر على السامعين لو كانت هناك مصر أخرى.

٢ - يقول الكاتب: إن قول إخوة يوسف لأبيهم: «واسأل القرية التي كنا فيها» أكبر دليل على أنهم كانوا في قرية مجاورة لأن سيدنا يعقوب كان قادراً على أن يسأل بسهولة (أي أنها ليست في مصر).

---

(١) يوسف/٥٦ (٢) يوسف/٨٨ (٣) يوسف/١٩-٢١.



وهذا كلام لا يمت إلى العلم بصلة، لأننا إذا تأملنا الآيات القرآنية سنجد أنها تشير بوضوح إلى قرية من قرى مصر حدثت عندها حكاية ظهور صواع الملك في رحل أخي يوسف، وهو الأمر الذي اعتمد عليه يوسف في استبقاء أخيه معه، وانتزاعه من إخوته، يقول الله تعالى: «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»(١).

والعطف بـ(ثم) يدل على أنهم قطعوا مسافة ما في طريق العودة إلى ديارهم حتى كانوا عند هذه القرية وهي من قرى مصر.

ولنتأمل أيضا هذه الآية «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»(٢) لنجد أن المعنى واسأل أهل القرية التي انكشف عندها ظهور حادث السرقة، واسأل أيضا رفقاءنا في رحلة السفر من هناك إلى هنا، ولو فرض أن يعقوب - عليه السلام - يتعذر عليه الذهاب إلى القرية، فلن يتعذر عليه سؤال الرفقاء، ثم إن قول الله تعالى: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»(٣) يشير بوضوح إلى العاصمة التي يسكنها عزيز مصر الذي نشأ يوسف في بيته وابتلى بفتنة النساء التي نجاه الله منها، كل ما سبق يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن يوسف - عليه السلام - بيع في مصر، وتعرض للفتنة في بيت عزيز مصر، ودخل السجن مظلوما في مصر، وفسّر الرؤيا التي رآها ملك مصر تفسيرا صحيحا، وأنه بعد ذلك خرج من السجن بعد أن ثبتت براءته وطهارته، ومكن الله له في الأرض وجعله على خزائنها، وأنه صار بعد ذلك كبير وزراء مصر، واستقدم أهله إليها وعاشوا بها وبقوا فيها، إلى أن كانت ولادة موسى - عليه السلام - ونشأته في مصر، وكان بينه وبين فرعون مصر ما كان مما سجله القرآن الكريم، ثم كانت هجرته مع قومه من مصر، حيث عبر بهم البحر الذي انفلق بأمر الله فكان كل فرق كالجبل الشامخ الأشم،...

---

(١) يوسف/ ٧٠ (٢) يوسف/ ٨٢ (٣) يوسف/ ٣٠.

كل هذه الوقائع والحوادث جرت على أرض مصر كما يؤكد ذلك القرآن الكريم، ولا شأن لنا بما جاء في التوراة، فنحن لا نقبلها كمصدر لقصص الأنبياء لأسباب كثيرة تجعلها غير موثوق بها، كما لا يعنينا إن كان التاريخ قد سجل هذا أو لم يسجله، فلدينا المصدر الموثوق به وهو القرآن الكريم، ولن نحيد عما جاء به حتى لا نضل مع الضالين(١).

هذا، ويضيف العبد الفقير إلى ما قاله الشيخ السيد عسكر ما يلي:

١ - إن قولهم: بأن كل ما يدور حول ولادة موسى - عليه السلام - ونشأته في مصر، وكذلك ما قيل عن فترة زمنية قضاها يوسف - عليه السلام - في مصر وما جرى في تلك الفترة إنما يمثل إسقاطات توراتية وتزويرا للتاريخ. قولهم هذا نفسه هو الذي يمثل بحق وصدق اسقاطات خطيرة للتوراة وتزويرا فاضحا للتاريخ، فالتوراة قد تحدثت عن قصة يوسف - عليه السلام - في مصر وما جرى له فيها بالتفصيل، وجاء فيها ذكر مصر المعروفة بعينها مرات عديدة، وكذا فرعون مصر، من ذلك:

● (فأخذ يوسفَ سيدُه ووضعه في بيت السجن، وحدث بعد هذه الأمور أنَّ ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر، فسخط فرعون على خِصْيَيْه، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرطة في بيت السجن، المكان الذي كان يوسف محبوسا فيه - (سفرا لتكوين ٣٩، ٤٠).

● (وخلع فرعون خاتمة من يده وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا، وجعله على كل أرض مصر، وقال فرعون ليوسف: أنا فرعون، فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر - ٤٣، ٤٤، ٤٥ - (الاصحاح الحادي والأربعون، التكوين)

● (ونظر يوسف أخاه ابن أمه وقال: هذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه، ثم قال: الله ينعم عليك يا ابني، واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنّت إلى أخيه وطلب

(١) بستان الدعاة/ ٢/ ١٤٩-١٥٤.

رفع المسيّمهم

مكانا ليبكي، فدخل المخدع وبكى هناك، ٣٠، ٣١ - الاصحاح الثالث والأربعون، التكوين).

ثم خرج بعد أن تجلد وأمر المسئولين بتقديم الطعام، فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين ٣٢ الاصحاح الثالث والأربعون. التكوين.

● كلم الله يعقوب فقال: أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر، لأني أجعلك أمة عظيمة هناك، أنا أنزل معك إلى مصر، وأنا أصعدك أيضا، ويضع يوسف يده على عينيك - ٤، ٥ - الاصحاح السادس والأربعون، التكوين.

فهذه النصوص التوراتية تثبت بكل وضوح ما جرى بين فرعون مصر ويوسف - عليه السلام - الذي عاش فيها وامتحن وسجن ثم خرج من السجن وتبوأ المكانة العالية على كل أرض مصر، مصر هذه التي قال فرعون موسى فيها يخاطب قومه «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ»(١) فهل سمع أحد أن إحدى العشائر العربية كان يلقب شيخها أو كبيرها أو رئيسها بلقب فرعون، وهل قال أحد، بأن أحد رؤساء العشائر في الجزيرة العربية كانت تجري تحته وفي ملكه أنهار مثل التي تجري في مصر أمام كل عين وفي كل زمان، وهل قرأ أحد في تاريخ الجزيرة العربية قديما أو حديثا أن يوسف - عليه السلام - عاش حياته فيها، وأنه صار آخر حياته عزيزا على إحدى عشائرها بعد أن ولاه ملكها على خزائن أرضها يتبوأ منها حيث يشاء؟ «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ»(٢).

وهل كان من شيمة العشائر العربية إذا أتوا بعبد غريب مشتري أن يوصوا زوجاتهم بالقيام على شئونه ويخلّوا بينهن وبينه؟ «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ»(٣) وهل؟... وهل؟... وهل؟... الخ، كل ذلك لم يسمعه سامع ولم يقرأه قارئ،

---

(١) الزخرف/ ٥١. (٢) يوسف/ ٥٦. (٣) يوسف/ ٢١.



ويقولون إن مصر سميت بهذا الاسم في عهد عمرو بن العاص، وهذا قول يخالف الواقع بتمامه، فمصر معروفة بهذا الاسم من قديم الزمان، وقد سجل القرآن الكريم اسم مصر هذه المعروفة بعينها مرات كثيرة في سورة يوسف وفي غيرها، كذلك جاءت السنة الصحية باسم مصر هذه قبل أن يفتحها عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحما»[1] وقال ﷺ: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[2] والداعي هو ساقي الملك المصري آنذاك الذي أمر بإحضار يوسف.

وأما عن موسى - عليه السلام - فعشرات الآيات في الكتاب الكريم تؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أنه ولد بمصر، وأن آسية امرأة فرعون هي التي حالت بين فرعون وبين قتل موسى وهو رضيع وأنه تربي في بيت فرعون الذي قال له بعد أن جاءه برسالة ربه يطلب منه أن يرسل معه بني اسرائيل: «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ»[3] ثم خرج موسى ببني إسرائيل من مصر إلى أرض سيناء بعد أن نجاهم الله من فرعون وجنده الذين أغرقوا جميعا، وقد بلغ عددهم آنذاك ستمائة ألف وسبعين ألفا، وأصحاب الشأن وهم اليهود، أنفسهم دائما أكدوا في توراتهم وتاريخهم القديم والحديث على نشأتهم وتناسلهم في مصر بعد أن قدم يعقوب - عليه السلام - وأهله أجمعين إليها بطلب من يوسف - عليه السلام - حتى وصل بهم الأمر في العصر الحديث أن ادّعوا أنهم هم الذين بنوا الأهرامات للمصريين أيام أن كانوا تحت حكم الفراعنة، بل إن اليهود أنتجوا في العصر الحديث أواخر الألفيه الثانية فيلما سينمائيا ضخما على طريقة الصور المتحركة، أظهروا فيه أن الإسرائيليين هم الذين بنوا الأهرامات تحت القهر والتعذيب من جانب المصريين، وهذا بالطبع تزوير فاضح للحقيقة وللتاريخ، فقد أثبت العلم الحديث وكذلك الاكتشافات المتلاحقة،

---

(1) صحيح: فيض القدير / ٤٠٨. (2) متفق عليه. (3) الشعراء / ١٨.

رفع المسابهم

والسجلات المسطرة من آلاف السنين أن الأهرامات المصرية قد تم بناؤها قبل قدوم آل يعقوب إلى مصر بعشرات المئات من السنين، وكان عددهم ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة، جاءوا من البدو، لا يملكون حضارة ولا فنا ولا إبداعا، ولا صلة لهم بهندسة البناء ولا غيرها،..

وفي العام الأول من الألفية الثالثة اكتشفت مقابر المهندسين والعمال المهرة الذين بنو الأهرامات قريبا جدا منها، وبالبحث والكشف العلمي الدقيق ثبت أن بناة الأهرام هم من المصريين وأحفادهم بكل صفاتهم هم الذين يقيمون حتى الآن بجانب الأهرامات،..

وقد أعيد اكتشاف الهرم الأكبر مرات ومرات، آخرها في شهر سبتمبر عام ٢٠٠٢م، وعلى مرآي ومشهد من العالم كله، وعلى أكثر من مائة وأربعين قناة تلفزيونية عربية وعالمية، أعلن علماء الآثار من المصريين وغيرهم أن المصريين هم بناة الأهرامات، بنوها رغبة وحبا وتقديسا واحتراما لملوكهم، فيالها من خيبة وحسرة وندامة للكذبة المفترين.

رفع المسيهما

حادي عشر: الردّ على من أنكر أن سورة يوسف - عليه السلام - من القرآن:

كان قوم يُسمّون (العَجَاردة) ينسبون إلى عبدالكريم بن عجرد، كانوا في أواخر المائة الأولى من الهجرة، أنكروا أن سورة يوسف التي تشتمل على قصته من القرآن الكريم،

قالوا: لأنها قصة حُبّ وغرام، ولأنها من السُّورِ الطويلة التي الشأن فيها نزولا نجوما، هذا هو التعبير الذي عَبَّرَ به بعض المفَسّرين، وهو تعبيريوهم أن بَعْض العجاردة فِرقة من الفرق الإسلامية، وأن إنكار بعض سور القرآن كان مذهبا من مذاهب الإسلام، مع أن كلمة (عجاردة) عبارة عن (حمّاد بن عجرد) واثنَيْن آخَرين معه، وكانوا معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام، قال الشيخ عبدالله العلمي: وجوابنا عن هذه الشبهة الواهية،

أن الشِّق الأول من هذا الانتقاد منظور فيه لبداية حادثة الحب والغرام دون العاقبة والنتيجة، ودون ما تخَلَّلَها من الحِكَم والعِبَر والعظات، وأما من نظر لمجموع ما وقع لامرأة العزيز والنِّسْوَة المصريات وما وقع على رءوسهن، أي مَنْ أحاط خُبْراً بمقدّمات ذلك الحب ونتائجه علم أن الحب والغرام شؤم على صاحبه، وأن الأفضل التباعد عن أسبابه،

وأما الجواب عن الشِّق الثاني، فإن سورة (الأنعام) هي من السور الطويلة، وإنها (١٦٥) آية، وهي مكيّة، ونزلت على النبي ﷺ جملة واحدة على الصحيح، وكذا سورة (الكهف) هي نظير سورة (يوسف) في أنها مكية و(١١١) آية ونازلة مرّة واحدة، وثالثا سورة (التوبة) هي (١٣٠) آية، نزلت كاملة مرّة واحدة بالمدينة، وهؤلاء العجاردة الجهلاء لم يقولوا في هذه السور الثلاث: إنها ليست من القرآن، وأيضا فسبب نزولها يقتضي أن تنزل على النبي ﷺ مرة واحدة[١].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٣١

(تنبيه: مؤتمر تفسير سورة يوسف مؤتمر مفترض وليس على الحقيقة، ومؤلفه واحد فقط هو الشيخ عبدالله العلمي الغزّي الدمشقي في مجلدين ويقع في ١٥٠٠).



« المبحث الثالث »

معالم اختصّت بها سورة يوسف - عليه السلام - وقصته

المَعْلَم الأول

الإطار التاريخي لسورة يوسف - عليه السلام:

وللوقوف على ذلك يجْدرُ بنا أن نستعيد أبْرَز الأحداث التي مرّت بها الدعوة الإسلامية - بإيجاز شديد - حتى نزول هذه السورة الكريمة،

● فقد كان مبعثه ﷺ في شهر رمضان سنة ٦١٠م وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يوما[١]

وبعد ثلاث سنوات من الدعوة إلى الله تعالى سرّاً، أخذ رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة، فانفجَرَتْ مكة بمشاعر الغضب واشتدّت في اضطهاد المسلمين.

● أشار رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة بسبب اشتداد إيذاء المسلمين، فكانت الهجرة الأولى إليها ثم الثانية.

● في السنة السابعة من البَعْثة النبوية فرَضت قريش المقاطعة العامة والحصار الاقتصادي والاجتماعي على بني هاشم وبني المطلب ولجأوا إلى شعب أبي طالب، فكان الحرمان والعزلة والشدة.

● وفي المحرم سنة عشرة من النبوّة حدث نقض الصحيفة بلطف من الله تعالى ورحمة، فخرج رسول الله صلى الله عليه ومن معه من الشعب.

● وما أن انفَرجت الأزمة الخانقة بالحصار حتى أصيب الرسول ﷺ بمصيبتين كبيرتين

---

(١) انظر: الرحيق المختوم / ٧٦.



في العام العاشر من بعثته، الأولى، وفاة عمه أبي طالب، وقد كان الحصن الذي تحتمي به الدعوة الاسلامية، الثانية، وفاة زوجه خديجة أم المؤمنين الكبرى - رضي الله عنها - وكانت من نعم الله الجليلة على الرسول ﷺ، لقد بقيَتْ ربع قرْن تحترم قبْل الرسالة تأمَّله وعزلته وشمائله، وتَحْمِل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة(١).

فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتهما، وسمّى العام الذي تُوُفّيا فيه بعام الحزن،

● أخذ الرسول ﷺ يبحث عن قاعدة يفتح بها للإسلام صفحة جديدة، وينطلق منها بعد أن اشتدّ بَطْش قريش واتجهت أذهان قادتها إلى قتل المصطفى ﷺ(٢) فاتجه إلى الطائف حيث تَقْطُن (ثقيف) فلما كلم زعماءها ودعاهم إلى الإسلام ردُّوا عليه رداً منكراً وأغلظوا له الجواب، وأبوا أن يكتموا أمره عن أهل مكة، وسلطوا عليه سفهاءهم وغلمانهم يرمونه ومولاه زيد بالحجارة، ولم يدخل رسول الله ﷺ مكة إلا في جوار المطعم بن عدي، لأن أخبار ثقيف قد سبقته إلى مكة.

وقبل الهجرة المباركة بستة عشر شهرا، أو بسنة وشهرين، أو بسنة، كان الإسراء والمعراج مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب محمد ﷺ من أتْرَاح وآلام وأحزان(٣).

● ونزلت سورة يوسف في آخر العهد المكي أيام الشدّة التي لاقاها رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب ووفاة خديجة - رضي الله عنها(٤) بين عام الحزن وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيها لرسول الله وللعُصْبَة المسلمة معه، وللدعوة الإسلامية فرجاً ومخْرجا بالهجرة إلى المدينة المنورة(٥).

---

(١) فقه السيرة (محمد الغزالي)/ ١٢٨ (٢) دروس من سورة يوسف/ ١٤

(٣) هذا الحبيب محمد صلى الله عليه يا محب/ ١٣٥ (٤) يوسف بن يعقوب عليهما السلام/ ١١-١٢

(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٤٩.



المعلم الثاني

الفترة التاريخية التي جرت فيها أحداث قصة يوسف - عليه السلام:

إن قصة يوسف - عليه السلام - في سورته، تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة، وتتحرّك فيها شخصياتها الكثيرة، وتُسجّل سِمَاتِها العامة[1]

على أنه لابد أن نقرّر أن البحث في تاريخ الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - قبل البعثة المحمدية تعترضه صعوبات منها ما هو عامّ، ومنها ما هو خاص بالقوم أو البلد الذي عاش فيه النبي المرسل[2].

وإن الذين حاولوا بعيداً عن الهدْي القرآني تحقيق سيرة نبي مرسل قبل البعثة المحمدية قد عجزوا عجزاً تاما عن إدراك مقصدهم، بالرغم من تكاتفهم وتجْنيدهم لجميع إمكانيات البحث العلمي الحديث لخدمة هذا الغرض، ولقد فات هؤلاء أمران بَدهِيّان:

الأول: أنه لم تُدَوّن من سيرة هداة البشرية سيرة كاملة قط؛ سوى سيرة خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، فقد سَجّلَتْ سيرته الخالدة أدق تفاصيل شئونه ﷺ، مُنْبِئَة عن أنه فخر البشرية وقمّة الكمالات الإنسانية، والمثل الإنساني الأعلى الذي يبحث عنه كل محب لله تعالى.

والثاني: أن المصْدَر الحق الوحيد لقصص هداة البشر من النّبيّين والمرسلين هو القرآن العظيم الذي خلّد قصصهم، وَصَانه من التحريف والتبديل، ولولا الذكر القرآني الحكيم، ما عَرَفت البشرية عن حقائق رسالاتهم شيئاً، بعد أن شَوّه المشوّهون معالمها وحرّفوها عن مواضعها[3].

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٥٩ (٢) يوسف بن يعقوب / ٤٦٦.

(٣) المرجع السابق / ٤٨٠.



إن مصر في تلك الفترة التي جرت فيها أحداث قصة يوسف - عليه السلام - لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصريّة، إنما كان يحكمها (الرعاة) الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - قريبا منهم، فعرفوا شيئا عن دين الله منهم، نأخُذُ هذا من ذكر القرآن الكريم للملك بلقب (الملك) في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بَعْدُ بلقبه المعروف (فرْعوْن)..

ومن هذا يتحدّد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر، فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشر، والأسرة السابعة عشر، وهي أسر (الرُّعَاة) الذين سمّاهم المصريون «الهكسوس» كراهية لهم، إذ يقال: إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة «الخنازير» أو «رعاة الخنازير» وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف(1).

ولم تكن مصر كلها تخضع لحكم (الهكسوس) إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقى لها حكم في مصر العليا، المعروفة اليوم بـ«الصعيد» وكانت مدينتها (ثيبة) أو (طيبة) وكانت مصر العليا أيا مئذ مُسْتَضْعفة لغلبة الكنعانيين على معظم القطر المصري وأجوده في مصر السُّفلى، وكانت مدينة (مَنْفِيس) ويقال: (منف) هي قاعدة مصر السُّفلى التي يحكمها الهكسوس(2).

وهناك وثيقة هامة تؤرّخ مَوْجة آسيويّة اجْتاحَت شرق الدلتا عام ١٧٣٠ق.م، وأسّس المغيرون مدينة «حت وعرت» أو (أواريس) لتكون عاصمة لهم، وهذه الوثيقة هي اللوحة رقم (٤٠٠) التي عثر عليها (ماربيت) عام ١٨٦٣م في تانيس (صَالْحَجَر) وقد أقيمت في عهد رمسيس الثاني تخليداً لذكرى زيارة أبيه وجدّه سنة ١٣٣٠ق.م لهذه المدينة بعد مضى ٤٠٠ سنة على إعلان عبادة (ست) فيها، ولو رجعنا إلى الوراء ٤٠٠ سنة لحَمَلَنا ذلك إلى عام ١٧٣٠ق.م، ولَوَافق إعلان هذه العبادة سيطرة

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٦٠ (٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٥ و٢٨٠.



الهكسوس على مصر، يقول الدكتور أحمد فخري: الرأي المتفق عليه نهائيا بين المؤرخين أن بدْء حكم الهكسوس لابد وأن يقع بين عامي ١٧٣٠، ١٧٢٥ق.م[1]

وذكر شيخ مؤرّخي مصر القديمة بلا منازع سليم حسن، قائلاً: إن شواهد الأحوال تدل على أن يوسف - عليه السلام - كان وزيراً لأحد فراعنة الهكسوس في مصر، ولم يحدّد اسما معينا[2].

ويذهب الكثير من شرّاح العهد القديم والمعلقين عليه إلى أن قصة يوسف - عليه السلام - حدثت في عهد الهكسوس، ومنهم مؤلّفوا كتاب (العهد القديم والدراسة الحديثة) وهم نخبة من الأساتذة المتخصّصين في دراسة العهد القديم، وعلى هذا الرأي (جوزيف أنجوس) و(هستنجز) في قاموسه الإنجيل، ويجعل المعلّق التوراني (لوثر كلارك) عصر الآباء العِبْريين في كنعان مابين ١٩٠٠ إلى ١٧٠٠ق.م وابتداء وجود آل يعقوب - عليه السلام - في مصر عام ١٧٠٠ق.م، بل إن مؤلف كتاب (الفُصُول الإنسانية في التواريخ القدسية) يحدّد عام إلقاء يوسف - عليه السلام - في الجب بسنة ١٧٢٨ق.م وأنه - عليه السلام - سجن عام ١٧١٨ق.م.

وهذه هي القرائن التي يُسْتند إليها في أن قصة يوسف - عليه السلام - حدثت في عصر الهكسوس.

أولاً: سجّل المصريون شعورهم العدائي تجاه الهكسوس على آثارهم، بينما تدلّ الشواهد على العلاقات الوديّة مابين الهكسوس والعبرانيين، ولعلّ ذلك كان من أهم أسباب اضطهاد الإسرائيليين بعد طرد الهكسوس، لاتهامهم بالتواطؤ معهم، ولأنهم أصبحوا موضع ريبة وشك، إذ لا يَبْعُدُ أن يعيدوا الكرّة فيتّصلوا بأعداء مصر إذا ما سنحت الفرصة.

---

(١) مصر الفرعونية (عن كتاب يوسف بن يعقوب، هامش ٤٧٧)

(٢) سليم حسن - مصر القديمة/ ٤/ ١٩٧ (هامش) عن المرجع السابق ٤٧٩ (هامش).



ثانياً: استبعاد وصول غير مصري إلى منصب وزير مصر الأول في حكم فرعون مصري، ويسهل ذلك في عهد حكم أجنبي.

ثالثاً: يلاحظ أن ثورة (التوحيد) حدثت في عهد الأسرة (١٨) التي تولّت الحكم بعد طرْد الهكسوس مباشرة، وهذا يرجع إلى دعوة يوسف - عليه السلام - ويؤيّد ذلك أن اخناتون (١٣٧٠-١٣٥٢ق.م) كان يَمتُّ بصلة نسب أو قرابة للآسيويين.

رابعاً: حدوث مجاعة في عصر الهكسوس في عهد ملكهم (أبوفيس) بالذات، ورتّبُوا على ذلك أنه المعاصر ليوسف - عليه السلام - هذا، وهناك آراء أخرى غير ذلك[١].

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٤٧٩، وما بعدها.

رفع المسيّهمار

المعلم الثالث

ملامح المجتمعات في عصر يوسف - عليه السلام -:

إن القرآن الكريم لم يحدثنا حديثا مباشرا عن هذا الموضوع، ولكنه في ثنايا عرضه للقصة الكريمة قد بث من الإشارات ما يجلي طبيعة هذا المجتمع الذي حدث على أرضه فصول هذه القصة.

(أ) المجتمع الشامي:

ويقصد به في سورة يوسف، يعقوب - عليه السلام - وآله، وقد سكنوا أرض (كنعان) وهي القسم الأوسط من فلسطين الحالية، وبالطبع فإن هذا المجتمع، ومن خلال السورة الكريمة لا يمثل إلا صورة واحدة واضحة، هي صورة آل يعقوب، إضافة إلى ما يجري حولها من أمور ثانوية في القرى التي حولهم، ولابد وأن يكون ليعقوب - عليه السلام - وهو النبي الكريم المرسل من ربه إلى قومه، الأثر الطيّب على هذا المجتمع، وبخاصة أبنائه الذين كانوا مثالا طيبا للصلاح والتقوى باستثناء موقفهم مع (يوسف) و(بنيامين) بسبب ما أثاره الشيطان في نفوسهم من غيرة وحسد عليهما دفعتهم لتدبير المؤامرة ليوسف - عليه السلام -، ثم اعترفوا بجريمتهم وتابوا وأنابوا إلى الله تعالى،...

وهذا المستوى من الصلاح والتديُّن في المجتمع الشامي من حول يعقوب - عليه السلام - لم يكن موجوداً آنذاك في المجتمع المصري، إذ أن القصة لا تشير إلا إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية، والتي عرف الرعاة (الهكسوس) عنها شيئاً قبل غَزْوهم مصر والاستيلاء عليها، أما المصريون فقد اتخذوا لهم أربابا يعبدونهم من دون الله «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»(١).

ولعل هذا كان السبب في بقاء يوسف - عليه السلام - في مصر من بَعْدُ، فقد

---

(١) يوسف/ ٣٩.



كانت الحاجة ماسّة إليه ليقوم فيها بما قام أبوه يعقوب - عليه السلام - في الشام، وكانت المنطقة التي يسكنها آل يعقوب منطقة آبار وليست منطقة زراعية كوادي النيل - مثلا -، وهي تبدو شاسعة تتحرك فيها القوافل بالتجارة من مكان إلى مكان، من بلاد فلسطين إلى غيرها من بلاد الشام، وإلى مصر أيضا، وبالطبع فإن منطقة تلك صفاتها لابد وأن يكون لها أثر معين على السكان، فالأرض حينما لا تكون زراعية، فمن الجائز أن تطبع السكان بطابع الارتحال والتنقل، كما أن الحياة فيها تكون أقل مستوى بكثير من الذين يعيشون في المدن، خاصة المدن العظيمة ذات الحضارة العريقة كمصر آنذاك.

(ب) المجتمع المصري:

إن قصة يوسف - عليه السلام - في سورته الكريمة، تتعرض لشخصيات عديدة في المجتمع المصري، هذه الشخصيات تنتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة، تُظْهِرَ صورة المجتمع المصري في صورة دولة متكاملة متحضرة، على عكس المجتمع الذي كان يعيش فيه يعقوب - عليه السلام - وآله، فالسورة الكريمة تعرض لرأس البلاد (الملك) صاحب الكلمة العليا في البلاد، وصاحب الملك العظيم في أرض مصر، وبعد الملك تأتي مباشرة طبقة (العزيز) ومن يمثلون عِلّيّة القوم وأشراف المجتمع، كملأ الملك، والوزراء والأمراء، وعائلاتهم والمنتمون إليهم.

ثم تأتي بعد ذلك طبقة المسئولين في الدولة ذوي الشأن، كالمؤذن الذي يظهر من قوله: «وَأَنَابِهِ زعيم» أن له مكانة معتبرة، وكمأمور السجن، ومن على شاكلتهم ممن يقومون بأمور الدولة العامة ورعاية مصالحها،

ثم تأتي مرتبة الموظفين الأقل شأنا كالساقي والخباز، والعاملون في شتى المجالات، خاصة الزراعة التي تستوعب الجزء الأكبر من العمالة المصرية، حيث يقوم الفلاحون بإعداد الأرض للزراعة وحرثها وبذر البذور فيها والعناية بها حتى الحصاد، وإلى



جانبهم يوجد البناءون الذين يقيمون الأبنية المختلفة، ومنها إقامة المخازن الكبرى لحفظ الغلال، ويوجد كذلك الصناع الذين يعملون في الصناعات المختلفة.

(جـ) الملامح المشتركة بين المجتمع الشامي والمجتمع المصري:

من ملامح العصر الذي عاش فيه يوسف - عليه السلام -، الرؤي، ومايتعلّق بها، وكان لعِلْمِ التّعْبير آنذاك علماء وكهنة ومتخصّصون، وشاءت إرادة الله تعالى أن يُعلّم عبده ورسوله يوسف - عليه السلام - علم التّعْبير، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ»(١) ليتحدّى بما آتاه الله من هذا العلم الرباني سائر المعبّرين في عَصْرِه على اختلاف مستوياتهم وقدراتهم، ليكون ذلك معجزة واضحة له، فقد أوّلَ رؤيا (الفتيَيْن) في السجن، ووقعتا كما أوّل، وأوّل رؤيا (الملك) وكانت كما أخبر - عليه السلام-، فكانت معْجزته عليه السلام - من جنْس ما تفوّق فيه أهل عصره، وهي التعبير وتأويل الأحاديث، كما جعل الله تعالى معجزة موسى - عليه السلام - من جنس ما تفوق به قوم مصر السّحْر، وكانت معجزة عيسى - عليه السلام - من جنس ما برع فيه قومه من الطِّب، ومعجزة محمد ﷺ كانت من جنس ما نبغ فيه قومه من الفصاحة والبلاغة، وهي القرآن العظيم.

ومن الملامح المشتركة بين المجتمع الشامي والمصري في ذلك العصر، تلك الحركة التجارية الدائبة، والمتمثلة في تلك القوافل المتجهة في كل صوْب، وَمَا اتجاه السيّارة من الشام إلى مصر إلا رمزاً لقوافل أخرى تسير في كل جهة،

ومن الملامح المشتركة - أيضا - بين المجتمعين الشامي والمصري في ذلك الوقت، وجود الرقيق والتجارة فيه، أياً كان لوْن بشرته. وبالطّبع فمن ملامح المجتمعين في هذا العصر وفي كل العصور، وجود الفئة الصّالحة، والفئة غير الصالحة، وهذه ظاهرة عامة في كل مجتمع، وفي كل عصر(٢).

---

(١) يوسف/ ٦. (٢) انظر فيما تقدم - بتوسع - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٩٦-٥٠٩



المعلم الرابع

ملامح الشخصيات والدروس النفسية للقصة:

إن قصة يوسف - عليه السلام - والتي جاءت كاملة في سورته، تبيّنُ أن شخوصها تمثّل نماذج للخير والشر في الحياة العامة...

بحيث أن السّورة تصوير لأهم مشكلات الحياة، وتعريف بالمنهج الذي يجب أن يسلكه المؤمن إذا أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا[1] والشخصيات في قصة يوسف - عليه السلام - متنوعة، وتختلف مدّة ظهورها حسب الأدوار التي تقوم بها،...

فهناك الشخصيات التي تستمر أدوارها من بداية القصة حتى نهايتها، كيوسف - عليه السلام - محور القصة، ويعقوب - عليه السلام -، والإخوة، وإن غاب يعقوب والإخوة في كثير من المشاهد،

وهناك بعض الشخصيات ذات الأدوار الفَعّالة في القصة، والتي تلي مباشرة في الأهمية الشخصيات الرئيسية، وتختلف مدة ظهور هذه الشخصيات ومرّاته، كالوارد، والسيّارة، والعزيز، وامرأته، والشاهد، ونسوة المدينة، والفَتَيَيْن في السّجن، والملك،

وهناك بعض الشخصيات التي لها أدوار خاطفة، أو التي اكْتُفِيَ بمجرّد الإشارة إليها، كالذين بَدَا لهم إدخال يوسف السّجن حتى تهدأ الأمور، والرسول في قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ»[2] والفِتْيَان في قوله تعالى: «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[3].

والمؤذّن في قوله تعالى: «ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»[4] والفِتْيان أيضا الذين يعود إليهم ضمير (قالوا) في قوله تعالى: «قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ»[5] وأهل القرية والمسافرون في قوله تعالى على لسان

---

(١) دروس من قصة يوسف/ ١٢. (٢) يوسف/ ٥٠.

(٣) يوسف/ ٦٢. (٤) يوسف/ ٧٠. (٥) يوسف/ ٧٢.



كبير الإخوة: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»(١) وأهل يعقوب الذين يعود إليهم الضمير في قوله تعالى: «قَالُواْ تَاللَّه إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ»(٢)(٣).

والدارس للنفس الإنسانية يجد في قصة يوسف - عليه السلام - أنماطاً من النُفُوس الإنسانية، يقدمها القرآن الكريم على حقيقتها في أحوالها المختلفة، ويكشف عنها كشْفاً لا لَبْسَ فيه ولا خَفَاء، وتحتاج في دراستها إلى مؤلفات متعدّدة، والحقّ أن الدّارس للنفوس على اختلاف مشاربها ودرجاتها وأحوَالها، يجد في القرآن الكريم مَعِينا لا ينْضَب من الحقائق النفسية التي تكونُ مِحْوَر دراسته.

---

(١) يوسف/ ٨٢. (٢) يوسف/ ٩٥.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٧٥-٧٦.

رفع المسهم

المعلم الخامس

قصة يوسف - عليه السلام - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء القصصي:

إن قصة يوسف - عليه السلام - كما جاءت في سورته، تمثّل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء الفني[1] والعقيدي والتربوي والحركي أيضا... ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنّيّة للأداء، هذا المنهج الذي لا يهمل خلجَة بشريّة واقعيّة واحدة، وفي الوقت ذاته لا يُنشئ مُستَنْقَعاً من الوحل يسميه «الواقعية» كالمستنقع الذي أنشأته «الواقعية»... ذلك المستنقع المقزّز للفطر السليمة، والذي يسمُّونه أخيراً «الطبِيعة» وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل، الواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السّليمة وفي الوقت نفسه، لا تقف القصة عِند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوى الرائع، ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسَّرْد والعرْض، وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابساتها، فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجئ في أوانها، وتجئ في الصورة المتوقعة لها، وتجئ في مكانها من مسْرَح العرْض، مُتَرَاوِحة بين منْطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها...

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة، في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان في غير تزوير ولا نقْص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدْقها وتكاملها.

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة، عرضا كاملا في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل

---

(١) الفني: الحاذق في حرفته، والفنان: صاحب الموهبة الفنية، كالشاعر والكاتب.



استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب، وفي تلك المجالات، وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدّة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشّهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات،.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيّاً خالصا متجرّداً في وقفته الأخيرة، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»(١)

وإلى جانب الشخصية الرئيسية في القصة، تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال(٢).

---

(١) يوسف / ١٠١.

(٢) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ١٩٥١-١٩٥٩.

رفع المسابهمة

المعلم السادس

في قصة يوسف - عليه السلام - المثل الأعلى للشباب المسلم في الطهر والعفاف:

إن قصة يوسف - عليه السلام - قصة خالدة على وجه الدهر، تُتْلى في صحائف الكون بُكرة وَعَشيّا، تفسر طيب طهارة يوسف - عليه السلام - وعفته في شبابه، وقوّته في دينه، وإيثاره لآخرته على دنياه، فبتلاوتها يشعر القارئ بما للشهوة الخسيسة على النفس من سلطان، ويسمع بأذنه تغلُّبَ الفضيلة في المؤمن على كل رذيلة، ولا يتم ذلك لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله تعالى، ومراقبته له جل شأنه في السر والعلن،[1] واللجوء إليه والاعتصام به من كل مكروه،

إن يوسف - عليه السلام - وهو الوحيد الغريب المملوك لسيدة قد تعرّض لكل أنواع الإغراء والابتلاءات بالشهوة من طريق امرأة العزيز صاحبة السلطان عليه والمتحكّمة في أمره بعد سيّدة، فلم يلتفت إليها أبداً، وسَمَا بخلقه الكريم إلى أعلى عليّين، كما تَعَرّضَ - عليه السلام - لإغراءات النسوة في قصر العزيز، فلم يعبأ بهن مطلقا، بل اعتصم بربه ولجأ إليه لا يبغي إلا مرْضاته عزّو جل، ولما هدّدته امرأة العزيز بالسّجْن والصّغار إن لم يستجب لها، كان دعاؤه إلى مولاه: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[2].

ويحدّثنا الدكتور عبدالعزيز كامل - رحمه الله - عنْ واقع الشباب المسلم في الغربة فيقول: هناك في البلد - النازح - يجدون حياة غير ما تعوّدوا، وقيما غير ما ما ألِفُوا، وتضرب نفوسهم بين سلوك عاشوا به بيْن أسرهم، وسُلُوك يشعرهم بالاغتراب... ما موقفهم؟ كيف يحافظون على أصالتهم وذواتهم؟ كيف يأخذون العلم صافياً دون أن يمتصوا مشكلات هي جزء هناك من نسيج الحياة اليومية؟ مَا مَعَايير الخيْر والشَّر، والصَّواب والخطأ؟ ومنْ حولهم تقدُّم علميّ وتقنِي، وحياة مائجة بكل جديد من

---

(١) انظر تفسير المراغي/ ١٠٦. (٢) يوسف/ ٣٣/ ٣٤.

رفع المسلم

المخترعات، وتسابُق وكفاح وصراع، وفرْديّة في التعامل يبحث فيها الفرد أول ما يبحث عن مصلحته الذاتية ولو تخطّى رقاب الآخرين، أوداس مصالحهم في سعْيه،...

هناك يحتاج الشاب أو الفتاة إلى نور يهديه، نور لا تطفئه عواصف الحياة، ولا تحجبه غيوم الصّراعات والأهواء والشهوات...

ثم يقول: ومن فضل الله تعالى أن نفراً غير قليل من أبنائنا ذهبوا إلى تلك الدّيار واستقرّوا فيها، أو عادوا بعد إكمال دراستهم، وهم يحافظون على أغلى ما حملوه في سفرهم، وهو إيمانهم بالله تعالى هاديا ونصيراً، عادوا وقد صَقَلَتْهم التجربة، فازْدادوا علما وإيمانا، وأخذوا يردّون إلى أوطانهم بعض جميلها عليهم، إذ رعَتْهُم صغاراً، وأنفقت عليهم شبابا،...

والبعض قد جرفه التيار، واكتفى هناك بأصْدَاف الحياة دون جَوْهرها، وفي الأعمال أصداف وجوهر، عادوا أشكالا قد تَشَوَّه مَضْمونها، تحتمي بدرجات علميّة وشهادات، يعلم الذين منحوها حقيقة مستواها، شهادات كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا،...

وقد يعود البعض - إن عاد - وقد حَطّمَتِ الشهوات جسومهم، ودمَّرَت آمالهم، وأصبحوا في حاجة إلى ترميم وتكوين جديد[1] فعلى الشباب المسلم أن يتأسى بيوسف - عليه السلام - الطاهر العفيف، وأن يَحْذَرَ الإغراء والفتنة بالشّهْوة المحرمة، سواء كان في بلده أو في الغربة، وليعلم أنه لن تكون له مكانة كريمة عند الله ثم عند الناس، إلا بالاستقامة على منهج ربه وبُعده عما حرَّم الله تعالى، وإنه لولا طُهر يوسف - عليه السلام - وَصَبْره وطاعته لمولاه، لما بلغ ما بلغ من تمام النعمة والاصطفاء بالرسالة، ولكان مجرد إنسان عادي متّبع لهواه، عاش ومات ولم يدْر أحد عنه شيئا، ألا فليتذكر أولوا الألباب.

---

(١) دروس من سورة يوسف (المقدمة) / ٤-٥.

رفع المسيهما

المعلم السابع

قصة يوسف - عليه السلام - قصة عائلة وقِصّة رسول ودعوة؟

إن المتتبّع لقصص الأنبياء - عليهم السلام - في القرآن الكريم، يجد أنه يتّجه إلى بيان دعوة النبي الذي يذكُر خبرَة بالتوجيه ومنْع الإشراك بالله تعالى، والإصلاح ودفع الفساد، وكيف قابل قومُه دعوته، وما احتج به من أدلة وما ساق لهم من براهين، وأنواع المعجزات المختلفة التي أمدّ الله بها هذا النبي الذي يقص خبره، وما آل إليْه أمر الأقوام الذين دعاهم إلى الهدى وإلى طريق مستقيم فأبوا واستكبروا،...

هذا شأن القصص القرآني الذي يسوقه الله تعالى في كتابه عن أنبيائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - ولكنّا نجد ذلك يختلف في قصة نبي الله يوسف - عليه السلام - حتى يتوهَّمَ القارئ لها أن نبيّ الله يوسف ما كانت له دعوة يدعو إليها، ولا قوم يخاطبهم، حتى تَهَجَّمَ المنحرفونَ يقولون زوراً من القوْل، ولكن الدارس للسورة الكريمة وقصتها يعلم أن يوسف - عليه السلام - كانت له دعوة إلى الله تعالى، هي صورة واضحة للإسلام كما جاء بها رسل الله جميعا، ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - نعم! كانت له دعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، ومعرفته تعالى بصفاته الحسنى، والإيمان باليوم الآخر وما بعده، وقد بذل غاية جهده لغرس فكرة التوحيد في النفوس ونزع ما ينافيها من معتقدات أخرى، وتقديم الحجة والبرهان على دعواه، بدلائل عقلية منطقية لا يجد العقل مَنَاصاً دون التسليم، وما جاء على لسانه - عليه السلام - في وعظ صاحبيه في السجن، إنما يمثل النموذج لهذا(١).

ولقد كان ليوسف - عليه السلام - قوم يبلغهم رسالة ربه، إنهم قوم مصر سيدة العالم المتحضر آنذاك، دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وجاءهم بالبينات من عند

---

(١) في سورة يوسف/ ٣٧-٤٠.



ربهم، ويؤكد ذلك ما جاء على لسان مؤمن آل فرعون وهو يدافع عن موسى - عليه السلام - ودعوته: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»(١).

فيوسف - عليه السلام - مع اشتراكه في كل ماجاء الأنبياء والرسل إلى أقوامهم من الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده وعبادته دون سواه، إلا أن قصته جاءت من طراز آخر، وفي إطار جديد، فهي بيان للأسرة في علاقاتها بعضها ببعض، مع علاقة الآباء بالأبناء، وعلاقة الأبناء بعضهم مع بعض، وعلاقة أبناء العلات - الإخوة لأب - كيف يختصمون؟ وكيف يجتمعون، وكيف يكون الحسد بينهم وما يؤدي إليه من خروج على تعاليم الله تعالى...

ومع استمرار القصة في الإطار العائلي إلا أنها تتّسِعُ لتشْمل أناساً كثيرين في مجتمعات متعددة، في أرض كنعان بفلسطين، وفي مصر، ثم بعد الخروج من السجن يمكّن الله ليوسف - عليه السلام - في أرض مصر، ويوليه المُلْكَ على خزائنها، ويتعرف على المجتمع المصري كله... ويتابع دعوته هناك إلى توحيد الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام حتى أتم الله عليه النعمة، وجمع بينه وبين أبويه وإخوته وأهله أجمعين في مصر،...

فالقصة إذا؛ إضافة جديدة لقصص الأنبياء والمرسلين، وإبداع قرآني عظيم(٢).

---

(١) غافر / ٣٤.

(٢) انظر: يوسف في القرآن والتوراة / ٥-٦.



المعلم الثامن

موقع يوسف - عليه السلام - من شجرة النبوّة المباركة

أنعم الله تعالى على يوسف - عليه السلام - بموقع كريم من شجرة النبوة المباركة، فهو النبيّ الذي تناسل من ثلاثة أنبياء، والغُصْنُ النضير لشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء(١).

والواقع أننا إذا نظرنا إلى أنْسَاب الناس، لم نجد أكرم ولا أشرف نَسَبًا من أن يكون الإنسان نبيّا، وعدد الأنبياء في سلسلة آبائه أوْفَرُ من غير انقطاع، وعلى هذا لا نجد في الواقع الإنساني أكرم من يوسف - عليه السلام - فهو وأبوه وجدُّه وأبو جدِّه، أربَعتُهُم أنبياء(٢) قال ﷺ: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»(٣) وقال ﷺ: «فيوسف نبيّ الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله»(٤) وقال ﷺ: «أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»(٥) وهذه الأحاديث تدل على فضيلة خاصة وقعت ليوسف - عليه السلام - لَمْ يشاركه فيها أحد، ومعنى قوله «أكرم الناس» أي من جهة النَّسَب، ولا يلزم من ذلك أن يكون أفضل من غيره مطلقا(٦).

فأشرف الأنبياء والمرسلين على الإطلاق هو محمد ﷺ، ويعتبر إبراهيم الخليل - عليه السلام - أب لكل الأنبياء من بعده، فما من نبيٍّ ولا رسول بعده إلا وينتهي نسبه إليه، وهو الجد الأكبر لبني إسرائيل وللعرب أيضا،

أما بالنسبة لإسرائيل، فهو جد يعقوب - عليه السلام - الذي ينتسب إليه اليهود، وأما بالنسبة للعرب، فهو أبُ إسماعيل الذبيح - عليه السلام - الذي ينتهي إليه نسب سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وأول من ولد لإبراهيم - عليه السلام - اسماعيل

---

(١) تاريخ الأنبياء/ ١٢٥ (٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها/ ١/ ١٨٣.

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري وغيرهما. (٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٥) رواه البخاري ومسلم، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (١٢١٧).

(٦) فتح الباري/ ٨/ ٢١٢ برقم (٤٦٨٨).



- عليه السلام - من هَاجَر القبْطيّة المصرية - عليها السلام - ثم ولد له إسحاق - عليه السلام - من زوجه وابْنَة عمّه سارة - عليها السلام - ، ولإسحاق - عليه السلام وُلد يعقوب - عليه السلام - الذي ينتسب إليه الإسرائيليون، والذي سُمّيَ فيما بعد بـ«إسرائيل» إثْرَ رُؤية رآها، واسم أمّه (رفقا) أو (رفقه) بنت بتويل[1].

وقد سُمّيَ الإسرائيليون فيما بعد بـ«اليهود» أيضا، زمن موسى - عليه السلام - لَمَّا هادوا[2]، أي: تابوا إلى الله تعالى من المعاصي، قال الله تعالى على لسان موسى - عليه السلام -: «وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»[3].

وقد سكن يعقوب - عليه السلام - أرْض «كنْعَان» ونقع غَرْب الأرْدُن، وهي القسم الأوسط من فلسطين الحَاليّة، وقد وُلد ليعقوب - عليه السلام - اثنا عشر ولداً ذكراً من أربع نسوة، ثِنْتان حُرّتَان هما (ليئة) و(راحيل) ابنتا خاله (لابان) وثنتان أَمَتَان هما (بَلْهَة) و(زُلْفَة).

(١) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٢٤٧.

(٢) يقال: هاد يهود، إذا رجع وتاب.

(٣) الأعراف/ ١٥٦.



وهذا الجدول الآتي يبين كل واحدة منهن وأولادها من يعقوب - عليه السلام -

	اسم الزوجة أو الأمة	أولادها		صفة الزوجة
١	ليْئة	١ - رأوبين ٢ - شمعون ٣ - لاوي ٤ - يهوذا ٥ - بساكر ٦ - زبولون	أشقاء	الزوجة الأولى (حُرّة) ابنة خاله لأَبَان
٢	زلفة	١ - جاد ٢ - أشير	شقيقان	جارية (ليْئة) التي وهبتها ليعقوب - عليه السلام
٣	راحيل	١ - يوسف - عليه السلام ٢ - بنيامين	شقيقان	الزوجة الثانية (حرَّة) ابنة خاله لأَبَان وكان الجمع بين الأختين جائزاً في الشريعة الإبراهيمية، وهناك قول بأنه - عليه السلام - تزوّجها بعد وفاة أختها (ليْئة)
٤	بَلْهَة	١ - دان ٢ - نفتالي	شقيقان	جارية (راحيل) التي وهبتها ليعقوب - عليه السلام

وجميع أولاد يعقوب ولدوا في (فدا آرام) ماعدا ابنه (بنيامين) فإنه ولد في أرض (كنعان) لما قضى يعقوب الأجَل لخاله في رعْي غنمه نظير تزويجه ابنتيه (ليئة) و(راحيل) وقبل (بنيامين) وُلد يوسف - عليه السلام - قبل عودته من (فدا آرام) وأصغر أولاده جميعا (بنيامين) ويليه يوسف، وإلى أولاد يعقوب - عليه السلام - تُنْسَبُ أسباط بني إسرائيل، وأجلهم وأشرفهم يوسف - عليه السلام -.

رفع المساهم

المعلم التاسع

أهمُّ وجُوه المناسبة بين نبينا محمد ﷺ مع قريش وبين يوسف الصدّيق مع إخوته:

م	يوسف - عليه السلام	محمد صلى الله عليه وسلم
١	كريم بن كريم ابن كريم... كما في الصحيح	خيار من خيار من خيار كما في الصحيح
٢	ماتت أمه وهو صغير فحضنته جاريتها «بلْهة»	ماتت أمه وهو صغير، فحضنته جاريتها «بركة الحبشيّة (أم أيمن)
٣	أول ما بدئ به من الوحْي الرؤيا الصالحة التي جاءت كفلق الصبح وكما ثبت من القرآن الكريم.	أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح كما في الصحيح.
٤	حسده إخوته وتألبوا عليه.	حسده أقرباؤه من قريش وتألبوا عليه.
٥	بُشّر بمستقبل باهر بلسان أبيه	بشّر بمستقبل باهر بلسان (ورقة بن نوفل)
٦	تآمر إخوته على قتله أو طرحه أرضا ليخرج من فلسطين وكنعان.	تآمر عليه أقرباؤه من قريش فمن مشير بقتله، ومن قائل بإثباته، ومن قائل بإخراجه.
٧	أشاع إخوته أنه قتل بافتراس الذئب إياه ثم تبيّن كذب ذلك.	أشاع أعداؤه أنه قتل في غزوة (أُحد) ثم تبيّن كذب ذلك.
٨	كان عاقبة أمره الانتصار الباهر، والعزة بعد الذل، والقوة عقب الضعف.	حاز في عقباه إكليل النصر، وخلق الله له من ضعفه قوة، ووَلّدَ له من ذُلّه عزاً
٩	اضطهد وشرّد عن وطنه فلسطين لمصر ومات بها.	اضطهد وهاجر عن وطنه مكة إلى المدينة، ثم عاد إلى مكة فاتحا منتصرا، ثم عاد إلى المدينة وتوفي بها.
١٠	اعترف له إخوته بالخطأ فغفر لهم.	اعترفت قريش أمامه بالخطأ - بلسان الحال - فعفا عنهم(١).

(١) أنظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٢-٤٠.



وهكذا رأينا خطوطا كثيرة من التشابه بين قصة يوسف - عليه السلام - وبين سيرة محمد ﷺ، فهناك وحدة في النشأة الصالحة، وحب من الأهل والأقرباء المخلصين، وهناك أيضا حسد وأحقاد ومؤامرات تحمّلاها بالصبر الجميل[1] ومع هذا التشابه بين سيرة محمد صلى الله عليه وبين قصة يوسف - عليه السلام - نرى فروقا أساسية بين القصّتيْن[2].

فيوسف - عليه السلام - أرسله الله تعالى إلى قوم مصر خاصّة بالبيّنات من عند ربه، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، في زمن محدود، فلما هلك أخذت دعوته تتلاشي شيئا فشيئا حتى اندثرت ولولا القرآن العظيم لما أمكن معرفة رسالته الحقيقية، التي حرّفتها التوراة.

أما محمد ﷺ فقد بعثه الله تعالى بالرسالة الخاتمة الباقية إلى يوم الدين إلى الناس كافة، وكتابه وهو القرآن العظيم محفوظ بحفظ الله رب العالمين، وهو المهيمن على كل الكتب وسيرته - ﷺ - بكل دقائقها وتفاصيلها محفوظة في كتاب الله المبين وفي سنته ﷺ، وفي أقوال الصحابة المكرمين - رضي الله عنهم أجمعين - وفي تحقيق أهل السير مِمّا صحَّ نقله عن حياته - ﷺ - التي هي حياة الأمة الإسلامية كلها.

---

(١) دروس من سورة يوسف / ١٦ (٢) المرجع السابق / ١٩.

المعلم العاشر

سورة يوسف - عليه السلام - اشتملت على قصة كاملة لم تتكرّر في القرآن الكريم:

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرّر في غير موضع، وقد سبق الكلام عن التكرار القصصي في القرآن الكريم وحكمته.

وقد انفردت سورة يوسف - عليه السلام - بقصته كاملة، وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء، وهذه خلاصة أقوال العلماء في حكمة عدم تكرار هذه القصة:

١ - إن الله تعالى ذكر أقاصيص الأنبياء في القرآن الكريم وكرّرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة وبألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وأما قصة يوسف - عليه السلام - فقد ذكرها الله تعالى في سورة واحدة ولم يكرّرها، فلم يقدر أحد على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر(١).

٢ - عدم تكرار القصة يتناسب مع طبيعتها، ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف - عليه السلام - وتنتهي بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة، وتكون بقيتها في سورة أخرى.

٣ - إن القصة جاءت لتعالج ناحية اجتماعية، فناسب أن تكون مستقلة بذاتها.

٤ - اشتملت القصة على حال امرأة العزيز التي افْتُتِنَتْ بيوسف وكذلك حال النِّسْوة اللائي افتُتِنّ به، فناسب عدم تكرارها لما فيه من الإغضاء والسّتر عن ذلك.

٥ - القصة اختصت بحصول الفَرج بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص، فإن مآلها إلى الوبال، كقصة «قوم نوح» و«قوم هود» وغيرهم.

ويُضيفُ: صاحب كتاب «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» إلى ما سبق فيقول: إن الله تعالى أورد قصة يوسف مرة واحدة ولم يوجزها ولا كرّرها لنكتتَيْن، ترجع إحداهما لعلم الأصول، والثانية إلى علم البلاغة،

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١١٨.



أما الأولى فإن هذه القصة نزلت بسبب سؤال وقع، «لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ»(١) وذلك يقتضي أن تذكر كلها في هذا الموضع، ولو أخر شيء منها إلى سورة أخرى كان الجواب غير واف بالسؤال، وذلك غير جائز، لأن المقرّر في علم الأصول أن تأخير البيان عن وقْت الحاجة لا يجوز،

وأما الثانية: فإنّ القصة ذكرت مجملة في قول يوسف لأبيه: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»(٢) فكان من مقْتَضَيات البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، تفصيل القصة بعد هذا الإجمال وتفسير الرؤيا بعد ذلك الإيهام، ولا شك أن العرض الممتد الجامع لقصة يوسف، من شأنه أن يلفِتَنا إلى الإعجاز المبين في النظم القرآني، ذلك الإعجاز الذي تتجلى آياته فيما يستولي على قارئ القصة أو المستمع إليها، من روعة الجلال وسطْوته، ومن يقظة الوجدان ونشْوَته، على امتداد العرْض وتعدد المشاهد، دون أن يفقد الشعور وحدته، ودون أن يجد المتلقى لأحداث القصة مجالا للتحرّك خَارج مسارها.

---

(١) يوسف/٧. (٢) يوسف/٤.

رفع المستهم

المعلم الحادي عشر

سورة يوسف - عليه السلام - من السور القرآنية التي افتتِحَتْ بالحروف المقطعة:

قال أهل البيان: من البلاغة حُسْنُ الابتداء، وهو أن يُتَأنّقَ في أوّل الكلام، لأنه أول ما يقرع السَّمْع، فإن كان محرّراً، أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتي فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقّه وأسْلسه وأحسنه نظْما وسبْكا، وأصَحّه معْنىً، وأوضحه وأخلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير المُلْبس، أو الذي لا يناسب، قَالوا: وَقد أتت جميع فواتح سور القرآن العظيم المائة والأربعة عشر سورة، على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها(١).

وقد ألف ابن أبي الأصبع كتابا في فواتح السور وسماه: «الخواطر السّوانح(٢) في أسرار الفواتح» وجاء في كتاب «المرشد الوجيز في علوم تتعلّقُ بالقرآن العزيز» لأبي شامة، أن الله تعالى افتتح سور القرآن الكريم بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السُّور عنها، وهي بإيجاز كما يلي:

(النوع الأول) الثَّنَاء عليه تعالى جل ثناؤه، في اثْنَتيْ عَشْرة سورة

(الثاني) حروف التّهَجّي، في تسع وعشرين سورة

(الثالث) النداء، في عشر سور

(الرابع) الجُمَل الخبرية، في ثلاث وعشرين سورة

(الخامس) الْقَسَم، في خمس عشرة سورة

(السادس) الشَّرْط، في سبْع سور

(السابع) الأمر، في ست سور

(الثامن) الاستفهام في ست سور

(التاسع) الدُّعاء، في ثلاث سور

(العاشر) التَّعْليل، في سورة واحدة(٣)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن / ٢ / ٩٦٩. (٢) الخواطر السوانح، ما جاء بها الخاطر وسَمِحَ، ومفردها سَنَح.

(٣) أنظر هذا الموضوع بالتفصيل في: البرهان في علوم القرآن / ١ / ٢١٣-٢١٤، والإتقان في علوم القرآن / ٢ / ٩٦٧-٩٦٩.



هذا، ولما كانت سورة يوسف - عليه السلام - من السور الكريمة التسع والعشرين التي افتتحت بالحروف المقطعة، كان من المناسب ذكر نبذة[1] عن أقوال أهل العلم والتأويل فيما يتعلق بهذا الأمر، وذلك على الترتيب التالي:

---

(١) النبذة: القطعة من الشيء، يقال نبذة من كتاب، أو نبذة من قصة.

رفع عبد الرحمن الهجري

أوّلاً: أقوال العلماء عن حكمة اقتصار القرآن الكريم على ذكر عدد تلك الحروف أوائل بعض السور:

لقد أسهب أهل العلم والتأويل قديما وحديثا في الكلام عن الحروف المقطعة، وكل واحد منهم تكلم عنها على قدر صفاء نفسه وملكة بيانه وما فتح الله به عليه، ومن ذلك كلامهم عن حكمة اقتصار القرآن الكريم على ذكر عدد تلك الحروف المقطعة أوائل السور التسع والعشرين، وبتلك الصورة الموجودة عليها، وها هي بعض أقوالهم في ذلك:

قال الإمام الفخر الرازي - رحمه الله -:

إن في ذكر الحروف المقطعة أوائل بعض سور القرآن التسع والعشرين أموراً تدل على أنها غير خالية من الحكمة، ولكن عِلْم الإنسان لا يصل إليها بعينها، ولا يَعْرِف الكلّيَّ من الحكمة فيها، . . .

أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة، فهو أن الله تعالى قد ذكر فيها من الحروف الأبجدية نصفها، وهي أربعة عشر حرفا، ثم إنه تعالى قسّم الحروف ثلاثة أقسام، تسعة أحرف من الألف إلى الذال، وتسعة أحرف في آخر الحروف، من الفا إلى الياء، وعشرة من الْوَسط، من الراء إلى الغيْن، وذكر من القسم الأول [أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ] حَرْفَيْن هما، الألف، والحاء، وترك سبعة [ب، ت، ث، ج، خ، د، ذ] وترك من القسم الآخر [ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي] حرفيْن هما، الفاء، والواو، وذكر سبعة [ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي] ولم يترك من القسم الأول من حروف الحَلْق والصَّدْر إلا واحداً لم يذْكُره، وهو، الخاء، ولم يذكر من القسم الآخِر من حروف الشَّفَه إلا واحداً لم يتركه، وهو، الميم، والعشر الأواسط ذكر منها حرْفاً وترك حرفاً، فذكر الرّاء، وترك الزّاي، وذكر السين، وترك الشين، وذكر الصّاد، وترك الضّاد، وذكر الطّاء، وترك الظّاء، وذكر العين، وترك الغيْن،





وليس هذا أمراً يقع اتفاقا، بل هو مقصود لحكمة، وأما أنّ عيْنها غير معلومة فظاهر، فلا يعلم السّرّ إلا الله ومن أعْلَمَهُ الله به، ثم قال: إن من العبادات اللّسانيّة مالا يفهم معناه - أي له معنى ولكنه لا يُدْرَك - حتى إذا تكلم به العبد علم منه - أي من القول اللساني المتعبد به - أنه لا يقصد منه غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي، فإذا قال: (حمٓ)، (يسٓ)، (المٓ)، (طسٓ) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه، وإنما يتلَفّظُ به إقامة لما أمِرَ به[1].

وقال الإمام الزركشي - رحمه الله -:

واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرْفاً، فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد، والعيْن والياء والهاء والقاف كل واحد في مكانين، والصاد في ثلاثة والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة، والحاء في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم سبعة عشر، وقد جمع بعضهم ذلك في بيْتيْن وهما:

كُنْ واحدٌ عَيْهَقُ اثنان ثلاثة صا ... دُالطاءُ أربعةٌ والسّينُ خَمْسٌ عَلاَ

والرَّاءُ سِتٌّ وسبعُ الحاءُ آلُ وَدَج ... وميمها سبعُ عشرٍ تَمَّ واكْتَمَلا

وهي في القرآن في تسعة وعشرين سورة، وجملتها من غير تكرار أربعة عشر حرفا يجمعها قولك «على صراط حقّ يمسكه»

ثم بنْيَتها ثلاثة حروف موحدة: صٓ قٓ نٓ، وعشرة مثنى: طه، طسٓ، يسٓ، حمٓ، واثنا عشر مثلثة الحروف: المٓ، الرٓ، طسٓم، واثنان حروفها أربعة: المٓصٓ، المٓرٓ، واثنان حروفها خمسة: كهيعٓصٓ، حمٓ عسٓقٓ.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبدأ الخلق، ونهايته، وتوسطه، مشتملة على خَلْق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر،

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٢ / ٣٩ - وما بعدها.



فتأمل ذلك في البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم.

ثم يتحدث الإمام الزركشي عن افتتاح السور بالحروف المقطعة واختصاص كل واحدة بما بُدِئت به حتى لم يكن لترد (الٓمٓ) في موضع (الٓرٓ) ولا (حمٓ) في موضع (طسٓ) فيقول: إن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (قٓ) موضع (نٓ) لَعُدِم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى[1]، ومن ذلك (قٓ والقرآن المجيد) فإن السورة مبنيّة على الكلمات القافيّة، من ذكْر القرآن، ومن ذكْر الخلْق، وتكرار القول ومراجعته مراراً، والقُرب من ابن آدم، وتلَقّي الملكيْن، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق، والقرين، والإلقاء في جهنّم، والتقدّم بالوعد، وذكر المتّقين، وذكر القلب، والقَرْن، والتنقيب في البلاد، وذكر القَتْل مرّتين، وتشقُّق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبُسُوق النّخل، والرزق، وذكر القوْم، وخوف الوعيد، وغير ذلك، وسرّ آخر، وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدّة، والجهر، والقَلْقَلَة، والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشْتَمَلَتْ عليه سورة (صٓ) من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفّار مع النبي - ﷺ - وقولهم: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً...» إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخِصْمَيْن عند داود - عليه السلام - ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم؛ وهو الدرجات، والكفّارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه وَحَلِفِه ليغويهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، وكذلك سورة «نٓ وَالْقَلَمِ»[2] فإن فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ما تَضَمَّنَتْ من الألفاظ النُّونيّة.

---

(١) تعليق السيوطي على ما ذكره الزركشي في البرهان (الإتقان / ٢ / ٩٨٩ - وما بعدها).

(٢) سورة القلم / ١.



وتأمل سورة (الأعراف) زَادَ فيها (صٓ) لأجل قوله: «فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ»[1] وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من الأنبياء[2].

وقد تكرر في سورة (يونس) من الكلم الواقع فيها (الراء) مائتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتُتِحَتْ بـ(الرٓ)[3].

ويقول الدكتور صبحي الصالح:

إن في القرآن الكريم صيَغاً مختلفة من هذه الفواتح في أوائل بعض السُّوَر، فمنْها البسيط المؤلف من حرف واحد، وذلك في ثلاث سور: (صٓ)، (قٓ) (نٓ)،

ومن هذه الفواتح عشرة مؤلفة من حرفين، سبع منها متماثلة تُسَمّى (الحواميم) لأن أوائل السور المفتتحة بها هي (حمٓ) وذلك ابتداء من سورة(٤٠) حتى (٤٦) [وهي: غافر، وفصِّلتْ، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف] والسورة الثانية والأربعون منها خاصة مضموم إلى (حمٓ) فيها (عٓسٓقٓ) وتَتمّة العشر (طه) في السورة العشرين، و(طسٓ) في السورة السابعة والعشرين، و(يسٓ) في السورة الثامنة والثلاثين،...

أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف، فيجدها القارئ في ثلاث عشرة سورة، ستٌ منها على هذا التركيب (الٓمٓ) وهي السّور: ٢، ٣، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢ (البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والرّوم، ولقْمان، والسجدة) وخمس منها بلفظ (الرٓ) في مُسْتَهَلّ كلّ من سور (يونس) و(هود) و(يوسف) و(إبراهيم) و(الحجر) وهي سور رقم: ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، واثنتان منها تألِيفُها هكذ (طسٓمٓ) في السورتين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين (الشُّعراء، والقصَص) بقي أن ثمة سورتين مفتَتَحَتَيْنِ بأربعة أحرف، إحداهما سورة (الأعراف) التي أولها (المٓصٓ) والأخرى سورة (الرّعْد) التي في مستهلها (المٓرٓ) وتكون سورة (مريَم) أخيراً، السورة الوحيدة المفتتحة بخمْسة حروف مقطعة (كٓهيٓعٓصٓ)،

---

(١) الأعراف/٢. (٢) البرهان في علوم القرآن/١/٢١٥-٢١٩. (٣) الإتقان في علوم القرآن/٢/٩٩٠.



ويتّضح من هذا العرض المفَصّل، أن مجموع الفواتح القرآنية تسع وعشرون، وأنها على ثلاثة عشر شكلا، وأن أكثر الحروف ورد فيها الألف واللام، ثم الميم، ثم الحاء، ثم الراء، ثم السين، ثم الطاء، ثم الصاد، ثم الهاء والياء والعيْن والقاف، وأخيراً الكاف والنون[١].

وهذه الحروف المقطعة أوائل بعض السور، تارة تكون آية مستقلة، مثل (الٓمٓ) البقرة، وتارة تكون جزء آية مثل (الٓر) يوسف، ثم إن هذه السور المفتتحة بتلك الحروف مكيّة إلا سورتي البقرة وآل عمران[٢].

ونسأل أوّلاً: لِماذا لم تأت الحروف المقطعة على وتيرة واحدة؟

ويجيبنا العلامة الزمخشري قائلاً: هذا على عادة افتنان العرب في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طُرُقٍ شتّى ومذاهب متنوّعة.

ونسأل ثانياً: لماذا أتت الحروف المقطعة في أوائل بعض السر على صورة حرْف، وحرْفين، وثلاثة، وأربعة، وخمسة، ولم تتجاوز ذلك؟

ويجيبنا الزمخشري أيضا فيقول: كانت أبنية كلامهم على حَرْفٍ وحرْفين إلى خمسة أحرف لم يتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك.

ثم نسأل ثالثاً: هل استخدام القرآن الكريم للحروف المقطعة أوائل بعض السور، كان يناقض واقعا عند العرب حين بدء الدعوة؟

ويجيبنا الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - فيقول:

إن عدم استخدام الكفار لفواتح السور - أي الإتيان ببعض الحروف المقطعة أوائل كلامهم - مع عدم سؤالهم عنها؛ دليل على أنها لم تكن تناقض واقعا عندهم، وإلا لسألوا النبي - ﷺ - يريدون أن يقيموا الحجة ضدّه وضد القرآن الكريم، وكذلك لم نجد صحابياً يسأل رسول الله - ﷺ - عن شيء غير التكليف، فمثلا لم يسأله أحد عن (الٓمٓ) ولا عن (حمٓ) والرسول - ﷺ - يبيّن للناس أحكام التكليف في القرآن الكريم، وهي أسس العبادة، بيانا واضحا[٤].

---

(١) مباحث في علوم القرآن (د. صبحي الصالح) / ٢٤٣ وما بعدها. (٢) انظر: البرهان في علوم القرآن / ١ / ٢٢٠.
(٣) تفسير الكشاف / ١ / ١٠٤-١٠٥. (٣) تفسير أول سورة البقرة للشيخ محمد متولي الشعراوي / شرائط مسجلة.



ثانيا: أقوال العلماء في المعنى المقصود من الحروف المقطعة:

اتفق أهل العلم والتأويل على مايلي:

أولاً: المعنى الموضوع له تلك الحروف.

ثانياً: على أن لهذه الحروف معنى، خلافا لمن قال بأن في القرآن الكريم ما هو تعبُّديّ لا معنى له بالكلّية، وهو خطأ مرفوض(١).

ولكنهم اختلفوا في المعنى المقصود من الإتيان بهذه الحروف في أوائل بعض سور القرآن الكريم،

(أ) **فضريق منهم** يرى أنه لا يجوز تأويل هذه الحروف لأنها من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله(٢).

وقالوا: إن هذا علم مستور وسرّ محجوب استأثر الله تبارك وتعالى به، وهؤلاء هم غالبيّة السلف الصالح - رضوان الله عليهم.

قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين:

إن الآيات المتشابهات - ومنها الحروف المقطعة أوائل بعض السور - سِرّ الله تعالى في القرآن، ولله تعالى في كل كتاب من كتُبه سرّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن يتَكَلّم فيها، ولكنّا نؤمن بها ونقرأُ كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنه -

كما ذكر أبوالليث السمر قندي عن عمر وعثمان وابن مسعود - رضي الله عنهم - أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكْتُوم الذي لا يُفَسّر، وقال علي بن أبي طالب

---

(١) أنظر: تيسير العلى القدير ١ / ٢١.

(٢) القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، منه آيات محكمات وأخرُ متشابهات، فالمحكمات من آي القرآن الكريم: ما عُرِف تأويله وفُهِمَ معناه وتفسيره، والمتشابهات من أي القرآن الكريم: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثرَ الله تعالى بعلمه، وذلك كالحروف المقطعة أوائل السور، والآيات المحكمات تناولَتْ عزائم الرسالة ومعاقد التشْريع ومناهج التربية والتوجيه، ولذلك سُمّيَتْ (أم الكتاب)، أما المتشابهات فآيات قلائل لا تتصل بالحلال ولا بالحرام، أو الواجب والنافلة، بل هي حديث عن الذات الأقدس عن كتاب (المحاور الخمسة للقرآن الكريم/ ١٧).



- رضي الله عنه - إن لكل كتاب صفْوة، وصفوة هذا الكتابِ حروف التَّهَجّي، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة إلا في أوائل السّوَر، ولا ندري ما أراد الله بها عزو جل، وسُئِل الشعبي عن هذه الحروف فقال: سِرُّ الله فلا تطلبوه، ورَوى ابن ظبْيان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: عَجَزَتِ العلماء عن إدراكها، وقال الحسين بن الفضل: هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله.

وقد استدل المانعون لتأويل هذه الحروف بالآيات الكريمة والخبر والمعقول، أما الآيات فمنها قوله تعالى: «هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ»(١) فعندهم يلزم الوقف على الجلالة (وما يعلم تأويله إلا الله) وهو يفيد أنه لا يعلم تأويل المتشابه من آيات الله الكريمة إلا الله تعالى.

وأما الخبر، فمنه قوله ﷺ، فيما رواه الإمام مسلم - رحمه الله - عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قرأ الآية السابقة «هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ... الآية» ثم قال: إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه - أي القرآن - فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم.

وأما المعْقول، فقالوا إن الأفعال التي كلفنا الله تعالى بها قسمان:

منها ما نعْرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا، كالصلاة والزكاة والصوم، فإن الصلاة تواضع محض وتضرّع للخالِق، والزكاة سعْيٌ في دفْع حاجة الفقير، والصوم سعْيٌ في كسْر الشهوة،

ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه، كأفعال الحج، فإننا لا نعرف الحكمة في رَمْي الجمرات، والسّعي بين الصَّفا والمرْوة، والرّمل، والاضطباع، ثم اتفق المحققون على أنه

---

(١) آل عمران / ٧.



كما يَحْسُنُ من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذا يَحْسُن الأمر منه بالنوع الثاني، لأنّ الطاعة في النوع الأول لا تدلّ على كمال الانقياد، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لِما عَرَف بعقْله من وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم[١] فإنك لو جئت لإنسان وقلت له: الخمر ستتلف كبدك، ثم أرَيْتَهُ ذلك عملياً، وشاهد أثر الخمر السّيء بواسطة جهاز خاص فراعه الأمر فقال لك: لن أشْرَبَ الخمْر أبداً، فهل هذا مؤمنٌ تركها لله؟ طبعا، لا، لكن الذي قال له ربه: لا تشرب، فقال: سمْعاً وطاعة وانتهى، فهذا هو المؤمن، وإلا كُنّا نؤجّل تحريم المحرّمات إلى أن تبدو معاطِبَها في الكون، إذا فَعِلّة المتشابه، الإيمان به، والرسول -ﷺ- قد حلّ لنا إشكال المتشابه كله فقال: «ما علمتم مِنْ مُحْكَمِه - أي القرآن - فاعملوا به، وما علمتم من مُتشَابهه فآمنوا به[٢].

وأما الفريق الذي يُجَوِّزُ تأويل الحروف المقطعة في أوائل بعض السّور، وهم الخَلَف وبعض أهل السلف، فقد قالوا:

لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلْق، ولِذا فإنه يجب التكلّم في المتشابهات وتلمُّس الفوائد التي تحْتها والمعاني التي تخرّج منها، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بأربعة عشر آية، منها هذه الآية التي استدل بها المانعون للتأويل، وهي قوله تعالى: «هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ... الآية» فإنهم يقفون على لفظ (العلم) في قوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تأويْلَهُ إلاّ اللّه وَالرَّاسِخُوْن فِي الْعِلْم» فالآية عندهم تفيد بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويلها أيضا، وأن الله تعالى لم يَذُمَّ الذين يتّبعون تأويلها مطلقا، بل ذمَّ الذين يتّبعون تأويلها إلى ما يفتنون به الناس ويضلونهم عن دينهم، فيُؤوّلونها حسب أهوائهم ومذاهبهم الباطلة، وبمعان لا

(١) تفسير الفخر الرازي١ / ٢ / ٤-٦.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره لأول سورة البقرة، حلقات مسجلة إذاعيا.



تتفق مع الآيات المحْكمات التي هُنّ أم الكتاب، أي: هُنّ أصل الكتاب والمرجع الذي يجب أن تردّ الآيات المتشابهات من كتاب الله تعالى إلى مدْلولاتها ومقتضياتها،

كما استدَلوا على ما ذهبوا إليه بالخبر الصحيح أيضا، وهو قوله - عليه الصلاة والسلام -: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب اللّه وسنتي»[1].

وقالوا: كيف يمكن التّمَسُّك به وهو غير معلوم؟

ثم استدلوا بالمعقول من وجوه:

أحدها: أنه لوْ وَرَدَ شيء لا سبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجري مجري مخاطبة العربي باللغة الزنْجيّة، ولَمّا لم يَجُز ذلك فكذا هذا.

ثانيها: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المخاطبة به عبثا وسفها وإنه لا يليق بالحكيم.

وثالثها: أن التحدّى وقع بالقرآن، وما لا يكون معْلوماً لا يجوز التحدّي به[2].

أقوالُ المجَوزين للتأويل في معْنى الحُروف المقطعة:

إن أكثر المحققين من أهل العلم من الخلف وبعض السّلف الذين يروْن أن هذه الحروف كغيرها من الكلام الوارد في القرآن الكريم، علينا أن نتكلّم بها ونتبيّن حقيقتها وسرّها والأفعال المندرجة في مطاويها عملا بقوله تعالى: «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»[3]

ومن هؤلاء، الإمام الزمخشري، والإمام البيضاوي والإمام ابن تيمية، وتلميذه الحافظ المِزّي وغيرهم[4] هؤلاء جميعا قد اختلفوا في المراد بهذه الحروف المقطعة على ما يزيد على عشرين وجها[5] وأهم هذه الوجوه مايلي:

١ - فمنهم من قال بأنها أسماء للسُّور المفتتحة بها، أي هذه سورة (الم) وهذه سورة (الر) وهكذا، وقد نسب ذلك إلى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

(١) صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٧)، المشكاة (١٨٦)، والصحيحة (١٧٦١).
(٢) تفسير الفخر الرازي ١ / ٢ / ٤-٥ (٣) محمد / ٢٤. (٤) البرهان في علوم القرآن / ١ / ٢٢٢.
(٥) انظر: مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح / ٢٣٥.



٢ - ومنهم من قال بأنها أسماء لله تعالى أقسم بها لتأكيد صحّة وصِدق ما يأتي بعدها، وقد نسب ذلك إلى ابن عباس - رضي الله عنهما -.

٣ - ومنهم من قال بأنها أسماء للقرآن جئ بها للقسم على صدق ما بعدها من الخَبر، وقد نسب ذلك إلى قتادة - رضي الله عنه -.

والوجوه الثلاثة السّابقة بعيدة؛ لأن أسماء الله تعالى، وأسماء السُّوَر، وأسماء القرآن، توقيفيّة، أي: يتوقَّفُ إطلاقها على سماع من الشارع ولم يُسْمع.

٤ - وقيل إنها اختصارٌ لأسْمَاءٍ، فكل حرف يشير إلى اسم، ففي (الٓمٓ) مثلا يقولون: الألف (أنا) واللام (الله) والميم (أعلم) وقد نسب ذلك إلى ابن عباس وسعيد بن جبير، وهذا أبْعَدُ من السّوابق، لأن الاختصار لابد منه من أن تكون معه قرينة على تعْيين المختصر منه، مثل قول الشاعر:

الخَيْر خيرات وإن شرّافا *** ولا أريد الشَّرّ إلا أن تا

فكلمة (إن شراً) تدل على المعنى (فشراً) وكلمة (لا أريد الشرّ) تدل على أن المعنى إلا أن تريد، وإن لم تكن قرينة وجوز الاختصار بدونها فيذهب المرء كل مذهب لتقدير المختصر حتى يكون هناك مجال للمشْرك أن يقول: الألف (أنا) واللام (اللات) والميم (أعلم) فيكون أنا اللات أعلم، وهذا باطل، فالاختصار بِدون قرينة باطل.

٥ - وقيل أوتي بها لأن الافتتاح بها أمر عجيب، فيجلب آذان السامعين إلى استماع ما بعدها، روى ذلك عن مجاهد، وهذا ضعيف، لأن الأمر لو كان كذلك لجئ بها في كل سورة ولم يحدث.

٦ - وقيل: إنها للفصل بين السُّور، وهذا ضعيف أيضا؛ لأنه لو كان كذلك للزم أن يؤتَى بها في كل سورة، ثم إن الفصل حاصل بالبسملة فلا حاجة لتلك الحروف للفصْل بين السور.

٧ - وقيل: إنها للتنبيه، أي تنبيه الرسول - ﷺ - إلى استماع ما يوحى إليه، وهذا



قول بعيد، لأنه خارج عن مدلول اللغة أو الاصطلاح بين المتخاطبيْن، ثم إن الرسول - ﷺ - كان على أعلى درجة من الاستعداد لتلقى كلمات الله تعالى.

٨ - قال قطرب والفراء وغيرهما: إنها إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله تعالى بها العرب حين تحداهم بالقرآن، وأنه مؤلف من حروف كلام هي هذه التي منها بِنَاءُ كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم[١]

(١) انظر فيما سبق (أقوال المجوزين للتأويل في معنى الحروف المقطعة) تفسير الطبري / ١ / ٨٦-٨٨، وتفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢٠٩٨، وتفسير الماوردي / ١ / ٦١-٦٢، والدر المنثور / ١ / ٥٤-٥٦، وتفسير الفخر الرازي١ / ٢ / ٦-١٢، وتفسير القرطبي / ١ / ١٥٤-١٥٦، والبرهان في علوم القرآن / ١ / ٢٢٢-٢٢٤ - والقول المنْصف في تفسير سورة يوسف / ١٣-١٤، مباحث في علوم القرآن (د. صبحي الصالح) ٢٢٤ وما بعدها.



ثالثاً: الرأي المختار في المقصود من مجئ الحروف المقطعة في فواتح بعض السُّور:

والرأي المختار في أقرب المعاني المقصودة من مجئ الحروف المقطعة أوائل بعض سور القرآن الكريم التسع والعشرين، هو ما ذهب إليه قطرب والفراء وغيرهما، من أنّها إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله تعالى بها العرب حين تحداهم بالقرآن، وأنه مؤلف من حروف كلام هي هذه التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم،

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: المختار في فواتح السُّوَر أن المقصود من تعدادها، التحدي بالإعجاز(١).

والسبب في اختيار هذا الوجه في الحروف المقطعة، أن عادة القرآن الكريم أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن الكريم، إما مباشرة كقوله تعالى في أول سورة البقرة: «الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)» وإما في ثنايا السُّور، كسُورَتي (العنكبوت، والروم).

وقد جاء الحديث عن القرآن الكريم مباشرة وصراحة في خمس وعشرين سورة، بعد الحروف المقطعة، وبالإشارة في سورة واحدة هي سورة (الشورى) قال تعالى: «حمٓ (١) عٓسٓقٓ»(٢) كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم(٣). وضِمْناً في سورة واحدة هي سورة «القلم» قال تعالى: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ»(١).

فالقرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، وهو أعظم ما يسطرون، بِدَلالة قوله تعالى في سورة الطور «وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ»(٢) وهو قَسَمٌ من الله تعالى بكتبه المنزلة على أنبيائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - بالهدى والحق، ولاشك أن أتم هذه الكتب وأعلاها على الإطلاق والمهيمن عليها جميعا هو القرآن الكريم، أما سورتيْ (العنكبوت) و(الروم) الباقيتيْن من التسّع والعشرين، فلم يرِد حديث عن القرآن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١١ / ٨١.



الكريم بعد افتتاحهما بالحروف المقطعة، ولابد لذلك من حكمة يعلمها الله تعالى، كما قال الإمام الزركشي: وقد جاء بخلاف ذلك في (العنكبوت) و(الروم) فيُسْأل عن حكمة ذلك[1].

والسورتين الكريمتين وإن لم يذكر ما يتعلق بالقرآن بعد افتتاحهما بالحروف المقطعة مباشرة، إلا أنه ورد ذكر ما يتعلق بالقرآن في ثناياهما،

فسورة العنكبوت ورد في ثناياها حديث عن القرآن الكريم، من الآية ٤٦-٤٩، من قوله تعالى: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ» وسورة الروم ورد فيها حديث عن القرآن الكريم في الآية (٥٨) وهي قوله تعالى: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ».

ومعنى هذا الوجه المختار في المراد من مجئ الحروف المقطعة أوائل بعض السور، من أنها للدلالة على صدق محمد ﷺ وأن ما أنزل عليه إنما هو وحي من الله تعالى، فكأن الله تعالى يقول لكفار مكة: إن هذا القرآن مؤلف من نفس الحروف التي تتكلمون بها وتؤلّفون منها خطبكم وأشعاركم، وليس من حروف أعجميّة أو غريبة عنكم، فإذا كنتم تدَّعون بأنه ليس من عند الله تعالى، فلماذا عجزتم عن الإتيان بأقصر سورة من مِّثله من نفس الحروف، وأنتم بلغاء العرب وفصحاؤهم وشعراؤهم وخطباؤهم، فعجزُكم دليل على أن القرآن من عند الله تعالى، ولا قدرة للبشر على صوغ الكلام مثل

(١) البرهان في علوم القرآن / ١ / ٢١٩.



صياغة الله تعالى، ثم إن محمدا - ﷺ - أمّيٌّ لا يعرف أسماء الحروف وإن تلفظ بها، فحينما يتكلم بأسماء هذه الحروف دون أن يتعلم القراءة والكتابة، دَلَّ ذلك على أنه من عند الله تعالى، وأنه رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»(١).

يقول الشيخ سيد قطب: عن سبب اختياره الوجه السابق: ومثل هذه الأحرف يجئ في مقدمة بعض السُّور القرآنية، وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة، نختار منها وجها، إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله، الكتاب الذي يتحدّاهم مرّة ومرّة ومرّة أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدى جوابا!

والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعا، وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس... إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرّات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لَبِنةٌ، أو آجرة، أو آنية، أو اسطوانة، أو هيكل، أو جِهازاً كائنا في دقته ما يكون ولكن الله المبْدع يجعل من تلك الذرات حياة... نابضة خافقة... تنطوي على ذلك السّرّ الإلهي المعجز... سر الحياة... ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرفُ سّره بشر، وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزاناً، ويجعل منها الله قرآناً وفرقانا، والفرق بين صنع البشر وصنع الله تعالى من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض... هو الفرق مابين صورة الحياة وحقيقة الحياة(٢). إن هذه الحروف وما

---

(١) البقرة/ ٢٣-٢٤. (٢) تفسير الظلال/ ١/ ٣٨.

من جنسها، وهي قريبة للناس متداولة بينهم، هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية، إن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً، فلا بد عقلا أن يكون القرآن وحْياً[1].

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي:

إن هذه الحروف في أوائل بعض السور تُعْلِمُنَا نحن البشر أنه لا معلم لمحمد - ﷺ - إلا الله سبحانه وتعالى، وأن القرآن المعجز جاء من عند الله تعالى وحْياً هو أرقى من مواهب كل العرب وفوق طاقتهم البلاغية[2].

ويقول الأستاذ سعيد حوي: إن هذا القرآن الكريم من أين أخذته دلَّكَ على ذاته، على شرط أن تأخذه بعلم، وتطلب الحق فيه بصدق، فالعالم بأي علم له علاقة بالقرآن الكريم، يستطيع أن يرى في القرآن الكريم الحق الذي يعلو أن يكون مصدره بشر[3].

ويقول الدكتور محمد عبدالله دراز:

إن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه[4].

---

(١) المرجع السابق/ ٤/ ١٩٧٠.

(٢) محمد متولي الشعراوي في تفسيره لأول سورة البقرة - شرائط مسجلة.

(٣) الرسول صلى الله عليه وسلم (سعيد حوي) ٢٥١. (٤) النبأ العظيم/ ٧٧-٧٨.



• عطاءات الحروف المقطعة أوائل بعض السور مستمر إلى أن تقوم الساعة:

إذا كان الاختيار في مجئ تلك الحروف المقطعة أوائل بعض سور القرآن الكريم هو أنها تحدّ وإعجاز للعرب وإقامة للحجة عليهم، فإنه لا يمكن أن ننكر بأن مجئ هذه الحروف له مدلولات أخرى، كالتنبيه وزيادة الاهتمام والحث على التعليم ونحو ذلك، وهذه الدلالات التي توصل إليها العقل البشري أثناء تأمله لهذه الحروف ليست نهاية المطاف، فعطاءات هذا الحروف من معاني وأسرار سوف تتواصل مع الأجيال إلى قيام الساعة، وسيظل لله تعالى فيها أسرار، يقول الإمام الطبري:

والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السُّور التي هي حروف المعجم، أن الله جل ثناؤه جعلها حروفا مقطعة ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف، لأنه عزَّ ذكره أراد بلفظه الدلالة بكل حرْف منه على معان كثيرة لا على معنى واحد[١].

رابعاً: متى يكون للحروف المقطعة محل من الإعراب ومتى لا يكون؟

إن قيل: إن الحروف المقطعة في أوائل بعض السور أسماء حروف التّهجّي، بمعنى أن الميم اسم (لِمَهْ)، والعين اسْمٌ (لِعَهْ)، وإن فائدتها إعلامهم بأن هذا القرآن منتظم من جنس ما تنظمون منه كلامكم ولكن عجزتم عنه، فلا محل لها حينئذ من الإعراب، وإنما جئ بها لهذه الفائدة فألْقِيَتْ كأسماء الأعداد نحو: واحد، اثنان، وهذا أصح الأقوال الثلاثة، الواردة فيها، أحدها: ما تقدّم، والثاني: أنها معْرَبة، بمعنى أنها صالحة للإعراب وإنما فات شرط وهو التّركيب، وإليه مال الزمخشري[٢] والثالث: أنها موقوفة لا معربة ولا مبْنيّة،

وإن قيل: إنها أسماء السُّور المفتتحة بها، أو إنها بعض أسماء الله تعالى حُذف بعضُها وبقى منها هذه الحروف دالة عليها، وهو رأي ابن عباس، كقوله: الميم من

---

(١) تفسير الطبري/ ١/ ٩٣. تفسير الكشاف/ ١/ ٨٠.



عليم، والصّاد من صادق، فلها حينئذ محل إعراب، ويُحْتَمَل الرَّفعُ والجرُّ، فالرفع على أحد وجهين: إما بكونها مبتدأ، وإما بكونها خبراً، والنّصْبُ على أحد وجهين أيضاً، إما بإضمار فعل لائق تقديره: اقرؤا: المٓ، أو الرٓ، وإما بإسقاط حرف القسم كقول الشاعر:

إذا ما الخبزُ تأدِمُه بلحْمٍ *** فذاك أمانَةَ الله الثريدُ

يريد، وأمانة الله، وكذلك هذه الحروف أقسم الله بها، وقد ردّ الزمخشري هذا الوجه(١)

فتلخَّص مما تقدّم أن في (الرٓ) ونحوها ستة أوجه وهي: أنها لا مَحَلّ لها من الإعراب،

أولَهَا مَحَلّ، وهو الرفع بالابتداء أو الخبر، والنّصب بإضمار فِعْلٍ أو حذْف حرْف القسم، والجر بإضمار حرْف القسم(٢).

رفع
المسَاهِم

المعلم الثاني عشر

سورة يوسف - عليه السلام - كلها مكية

سورة يوسف - عليه السلام - هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف الشريف،

ومعنى السورة في الاصطلاح: قرآن يشتمل على آي، ذو فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات - سورة الكوثر - قاله الجعبري، وقال غيره: السورة: الطائفة المتَرْجمة توقيفا، أي المسمّاة باسم خاص من النبي ﷺ.

وقد ثبَت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار(١) والاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة (يوسف) ووجه تسميتها ظاهر، لأنها قصّت قصة يوسف كلها ولم تُذْكر قصته في غيرها. والصحيح أن «يوسف» اسم عَبْرَاني، لأنه لو كان عربيا كما قيل، لا نصرف لخلوة عن سبب آخر سوى التعريف(٢).

وقد ذكر اسم (يوسف) - عليه السلام - في ست وعشرين آية من كتاب الله الكريم، أربع وعشرون منها في سورة «يوسف» وآية واحدة في سورة (الأنعام/ ٨٤) وآية واحدة في سورة (غافر/ ٣٤).

وهذه السُّورة كلّها مكّية، لأنها نزلت في مكة المكرمة على رسول الله - ﷺ - دفعة واحدة كأكثر السُّوَر المكية:

قال الإمام ابن عاشور: وهي - أي سورة يوسف - مكيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات لغيره(٣).

وقال الإمام الألوسي: وما اعتمدناه - أي أن السورة كلها مكية - كغيرنا، هو الثابت عن الحبر - عبدالله بن عباس - وقد أخرجه النحاس، وأبو الشيخ، وابن مرْدَوَيه عنه، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه الحاكم وصَحّحَه عن رفاعة بن رافع من حديث طويل يحكي فيه قدوم رافع مكة وإسلامه وتعليم رسول الله - ﷺ - إياه هذه السُّورة، و(اقرأ باسم ربك الذي خلق)(٤).

---

(١) البرهان/ ١/ ٣٣٣. (٢) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠١.
(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ١٩٧. (٤) روح المعاني/ ٦/ ٣٦٢.



وقال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله -: وما قيل من أن الثلاث الأولى منها مدنيّة، فلا تصح روايته، ولا يظهر له وجه، وهو يخلّ بالكلام، ثم يقول: وقد راجعت (الإتقان) فإذا هو ينقله - أي الرأي القائل بأن الآيات الثلاث الأول مدنية - ويقول: وهو واه جداً فلا يُلْتَفَت إليه(١).

والشيخ سيد قطب - رحمه الله - يؤيد هذا الاتجاه ويقول: إن هذه الآيات - الثلاث الأول - مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف - عليه السلام -(٢).

والدكتور حسن محمد باجودة يؤيد هذا الاتجاه أيضا ويقول: الراجح أن السورة مكية بتمامها(٣).

ويسأل الأستاذ على نصوح الطاهر القائلين بأن الآيات الثلاث الأول من السورة مدنية فيقول: إذا اعتبرنا الآيات المشار إليها مدنية، فكيف كانت تُقْرَأ السورة في العهد المكّي قبل نزول هذه الآيات الثلاث؟

سنجد أن السورة كانت تبدأ: بسم الله الرحمن الرحيم. «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ...» وليست هذه بداية لسورة، وليس في القرآن الكريم كله سورة بُدئت بـ(إذ) أبداً(٤).

ويقول الشيخ سيد قطب عن الآية السابعة، والتي قيل: إنها مدنية: إن السياق لا يستقيم بدونها أصلا، ذلك أن في الآية الثامنة والتالية لها ضمير يعود على يوسف وإخوته في الآية السابعة، ثم يقول: والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحا في موضوعها، وفي جوّها، وفي ظلالها، وفي إيحاءاتها(٥).

وعدد آيات السورة الكريمة مائة وإحدى عشر بلا خلاف، وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون، وما فيها آية مختلف فيها، ومجموع فواصل آياتها يجمعها قولك (لم نر) منها آية واحدة على اللام: «قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» آية ٦٦ (٦).

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٠، وانظر: الإتقان/ ١/ ١٥٠.

(٢) تفسير الظلال/ ١٩٤٩.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦١.

(٤) سورة يوسف دراسة تحليلية/ ٢٧-٢٨.

(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٥٠.

(٦) بصائر ذوي التمييز/ ١/ ٢٥٧.



المعلم الثالث عشر

مناسبة سورة يوسف - عليه السلام - لما قبلها (هود)

إن آيات القرآن الكريم وسوره تَتّسِقُ في تناسق عجيب، وترتبط بعضها مع بعض في تآلف محكم بديع، بحيث لو وُضعت آية مكان غيرها أو سورة في غير موضعها؛ لا اخْتلّ التّناسق والاتساق، وتفكّك الارتباط والتآلف، وهذا ممّا اختصّ به القرآن العظيم وكان وجها من وجوه إعجازه المتعدّدة.. وكما أن معرفة سبب النزول لها أثر في فهم المعنى وتفسير الآية، فإن معرفة المناسبة بين الآيات والسُّور تساعد كذلك على حُسن التأويل ودِقّة الفهم فَعِلْم مُناسَبَات القرآن هو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جُمَلها والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مَسْتَقِلّة، ثم المستقلة، ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جَمّ، وهكذا في السّور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سِيقت له(١).

وأهم أوجه المناسبة بين سورتيْ (هود) و(يوسف) مايلي:

١ - السورتيْن الكريمتين قَصَصِيَّتَيْن مكّيَّتيْن متواليتيْن ترتيباً ونزولا، وقريبتين في عدد الآيات - سورة (هود) تزيد عن سورة يوسف ١٢ آية، روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن (يونس) أنزلت، ثم (هود) ثم (يوسف) وهذا وجه بارز من أوْجُه المناسبة.

٢ - سورة (هود) ذكرت قصة إبراهيم - عليه السلام - وبُشّر فيها بيعقوب الذي تدور قصة يوسف حوله وحول ابنه الكريم يوسف.

٣ - في سورة (هود) قصة نبيّ هو نوح - عليه السلام - مع ابنه وسورة (يوسف) ذكرت قصة نبي هو يعقوب - عليه السلام - مع ابنه، لكن شتّان ما بينهما، فابن نوح من الكافرين، وابن يعقوب من المصطفين.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن / ١ / ٦١-٦٦، ومباحث في علوم القرآن (القطان) / ٩٦، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور / ١ / ٥-٩



٤ - في سورة (هود) قال تعالى: «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ»(١) وفي سورة يوسف ذكر حال يعقوب مع أولاده وما صارت إليه عاقبة أمرهم بما هو أقوى شاهد على الرحمة.

٥ - في سورة (هود) ذكر أهل البيت، قال تعالى: «رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ»(٢) على سبيل الإجمال، فذكر في سورة (يوسف) حال يعقوب مع أولاده وحال ولده يوسف الذي هو من أهل البيت مع إخوته كالشَّرْح لذلك الإجمال.

٦ - ذكر في سورة (هود) ما لَقِيَ الأنبياء من قومهم، وذكر في سورة (يوسف) ما لقي يوسف من إخوته، ليعلم ما قاسوه من أذى الأجانب والأقارب، فبينهما أتم المناسبة، والمقصود تسلية النبي - ﷺ - بما لاقاه من أذى الأقارب والأباعد.

٧ - سورة (يوسف) تتميم للقصص الذي اشتملت عليه سورة (هود) إذ سورة (يوسف) اشتملت على أطول قصص في القرآن الكريم، أوّله: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ» الآية الرابعة، وآخره: «... وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينْ» الآية الواحدة بعد المائة.

٨ - جاء على لسان الرسل في سورة (هود) أن كل نبيّ منهم على بيِّنَة من ربّه، كما قال نوح - عليه السلام - لقومه: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ»(٣).

وقال الله تعالى في سورة (يوسف) خطابا للنبي - ﷺ - «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي»(٤).

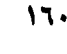
٩ - في سورة (هود) و(يوسف) نفس هذه السّنَّة «وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»(٥) وفي سورة (يوسف) «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»(٦).

١٠ - في سورة (يوسف) ورد هذا الناموس «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا...»(٧) وما أجمله وأصدقه وأجمعه قانونا يلخّص كل قصص

---

(١) هود/٧١. (٢) هود/٧٣. (٣) هود/٢٨. (٤) يوسف/١٠٨.

(٥) هود/١١٥. (٦) يوسف/٩٠. (٧) يوسف/١١٠.



سورة (هود) فكأن القصَّتيْن لحمة واحدة، جاء التعقيب قريبا من أن يكون تلخيصا لقصص سورة (هود) أكثر من كونه تلخيصا لسورة (يوسف).

١١ - الاستدلال في كل من السورتين على كونها وحْياً من الله تعالى دالا على رسالة محمد - ﷺ - قد جاء بآيتيْن متشابهتين، ففي سورة (هود) قال تعالى بعد أن ذكر قصة نوح - عليه السلام - : «تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»[١] وجاء في آخر قصة (يوسف): «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ»[٢].

١٢ - في خاتمة سورة (هود) وصف لقصص السورة بأنه «الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»[٣] وفي ختام سورة (يوسف) وصف للقصص القرآني الذي تضمنته، وكذا ما جاء في غيرها بأنه «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»[٤].

١٣ - في سورة (هود) ذكر (المكْيال) مرات، مثل قوله تعالى على لسان شعيب - عليه السلام - : «أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ»[٥] وفي سورة (يوسف) ذكر (المكْيال) مرات كذلك، قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - : «أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ»[٦].

١٤ - في آخر كل من سورة (هود) وسورة (يوسف) ذكر للآخرة، وفي ختام كل من السورتين ذكر السماوات والأرض.

١٥ - كثير من قصص سورة (هود) يجري بين فلسطين ومصر، وكذلك قصة يوسف[٧].

---

(١) هود/ ٤٩. (٢) يوسف/ ١٠٢. (٣) هود/ ١٢٠. (٤) يوسف/ ١١١. (٥) هود/ ٨٥ (٦) يوسف/ ٥٩.

(٧) انظر في المناسبة بين سورتي هود ويوسف تناسق الدرر في تناسب السور/ ٩٤، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ ٤/ ٣-٤ وجواهر البيان في تناسب سور القرآن/ ٤٠، وتفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤١، وكتاب (سورة يوسف) دراسة تحليلية/ ٨٧-٩١.



المعلم الرابع عشر

سبب نزول هذه السورة الكريمة

سبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدّثة عنه، أو مبيّنة لحكْمه أيام وقوعه، ولا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح(١).

جاء في كتاب (أسباب النزول) للإمام الواحدي النيسابوري - رحمه الله - عن سبب نزول هذه السورة الكريمة قال:

عن عمرو بن مُرّة عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في قوله عزو جل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» قال: أنزل القرآن على رسول الله - ﷺ - فتلاه عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْت علينا، فأنزل الله تعالى: «الر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِيْن» إلى قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ».

فتلاه عليهم زمانا فقالوا: يا رسول الله، لو حدّثتنا، فأنزل الله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا»(٢).

قال: كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن(٣).

وجاء في كتاب «الصحيح المسند من أسباب النزول» لأبي عبدالرحمن الوادعي قال: قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» ابن راهويه كما في المطالب العالية (ص٤٤) حدثنا عمرو بن محمد، حدّثنا خلاّد الصّفّار، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عمرو بن مُرّة عن مصعب بن سعد، في قول الله عزو جل «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وذكر الحديث السابق بطوله إلى قوله: فأنزل الله تعالى «اللّه نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً...» الآيه(٤).

---

(١) المدخل الدراسة القرآن الكريم/ ١٢٢-١٢٣. (٢) الزُمَر/ ٢٣.

(٣) رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن أبي بكر العنبري، عن محمد بن عبدالسلام، عن إسحاق بن إبراهيم.

(٤) في المطالب العالية المطبوع ج٣ ص٣٤٣ قال: كل ذلك يؤثرون بالقرآن، وفي المستدْرك، كل ذلك يؤمر بالقرآن، وفي مورد الظمآن، كل ذلك يؤمرون بالقرآن.



قال صاحب الكتاب الشيخ عبدالرحمن الوادعي: الحديث رجاله رجال الصحيح إلا خلاّداً الصّفّار، وهو ثقة، وقد تركت بقية الحديث لأنه ليس متّصلا، والحديث أخرجه ابن حِبّان في صحيحه، كما في الزوائد (ص٤٣٢)، وابن جرير (ج١٢ ص٢٠٥)، والحاكم في المستدرك (ج٢ ص٣٤٥)، وقال: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي[١].

وقال عون بن عبدالله:

مَلّ أصحاب رسول الله - ﷺ - مَلّة فقالوا: يا رسوال الله حدّثنا، فأنزل الله تعالى: «اللّه نَزَّلَ أحْسَنَ الحَدِيْث كتَاباً مُتَشَابِهاً...» الآية.

قال: ثم إنهم ملُّو ملّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله، فوق الحديث ودون القرآن - يُعنُونَ القصص - فدلّهم على أحسن القصص، وهذا أصح ما ورد في أسباب النزول، والله أعلم[٢].

وهناك روايات أخرى في أسباب النزول:

فقيل: هذه السورة تسلية للنبي - ﷺ - عما يفعل به قومه بما فعلت إخوة يوسف به،

وقيل: إن اليهود سألوه ﷺ أن يحدّثهم بأمر يعقوب وولده، وشأن يوسف وما انتهى إليه فنزلت.

وقيل: إن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله - ﷺ - عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر، وهذه الروايات لم تصح[٣].

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول/ ١٣٦.

(٢) أسباب النزول (النّيسابوري)/ ٢٢٠.

(٣) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٢٧٨، وروح المعاني/ ٦/ ٣٦٢.



سورة يوسف - عليه السلام

«الباب الأول»

من بيت يعقوب - عليه السلام - في أرض كنعان بفلسطين،
إلى بيت العزيز في أرض الفراعنة بمصر حتى المراودة.

من أول السورة الكريمة
إلى الآية رقم (٢٣)



«الفصل الأول»
(من الباب الأول)

إفتتاح السورة الكريمة - سورة يوسف - عليه السلام - والمقدمة الأولى للقصة

من الآية رقم (١)

إلى الآية رقم (٣)



رفع
المسهم

آيات الفصل الأول

(من الباب الأول)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾



«القولُ في الاستعاذة»

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

قال الله تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١)

وقال جل شأنه: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»(٢)

وروي الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ، إذا قام من الليل فاسْتفتح صلاته وكبَّرَ قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتَبَاركَ اسْمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك، ثم يقول: لا إله إلا الله (ثلاثا) ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همْزه، ونفْخه، ونَفْثه»(٣).

وفي «سنن أبي داود» عن جبير بن مطعم، أنه رأى رسول الله - ﷺ - يصلي صلاة؛ قال: «الله أكبر كبيرا، والحمدُ لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا (ثلاثا) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفْخه، ونفْثه، وهمزه»(٤)

و(الْهَمْزَة): الموتة، وهي الخنق، و(النَّفخ): الكِبْر، و(النَّفث) شبيه بالنَّفْخ، وقيل هو النفخ مع ريق، وقيل: الهمز: الجنون، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن أول ما نزل جبريل على النبي - ﷺ - علّمه الاستعاذة(٥)، و(الْعَوْذُ): الالتجاءُ إلى الشيء والانحيازُ له والاستجارةُ به، والاستعانَةُ أيضا، يقال: عَاذَ فلانٌ بفُلانٍ، ومنه قوله تعالى: «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»(٦).

---

(١) النحل/ ٩٨. (٢) فصّلت/ ٣٦.

(٣) رواه أهل السُّنَن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن الرفاعي اليشكري، قال الترمذي: وهو أشهر شيء في هذا الباب، وصحَّحه محمد نسيب الرفاعي في (تيسير العلي القدير) / ١ / ٩.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٦٤) وابن ماجة (٨٠٧) وأحمد (٤ / ٨٠، ٩٥) والحاكم(١ / ٢٣٥) والبغوي في (شرح السنة) قال سليم الهلالي: وهو صحيح بشواهده (انظر: صحيح الوابل الصّيب ص١٨٥).

(٥) تفسير الطبري/ ١ / ٥٠. (٦) البقرة/ ٦٧.



وقوله جل شأنه: «وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ»(١).

وقوله عز ذكره: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن منكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا»(٢).

وقوله جل جلاله: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»(٣) وأعَذْتُه بالله أعيذُه، قال تعالى: «وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٤) وقوله الكريم: «قَالَ مَعَاذَ اللَّه»(٥).

و(العُوذَةُ): ما يُعَاذ به من الشّيْء، ومنه قيل للتّميمة والرُّقْية: عُوذَة، وعَوَّذَه إذا وقاه، وكل أنثى وضَعَتْ فهي عائذة إلى سبعة أيام(٦).

ويقال: عَاذَ يَعُوذُ عوذاً وَعِيَاذاً ومَعَاذاً؛ فهو عائِذٌ ومَعُوذٌ، ومنه قال الشاعر:

أَلحِقْ عَذَابَكَ بالقومِ الذينَ طَغَوْا
وَعَائِذاً بك أن يَعْلُوا فيطغُوني

قيل: (عَائِذٌ) هنا، أصله اسم فاعل، ولكنه وقع موقع المصدر، كأنه قال: وَعِيَاذاً بك، . . .

و(أعوذ) فعل مضارع، وأصله (أَعْوُذُ) بِضَمِّ الواو، مثل: أَقْتُلُ وأَخْرُجُ أنا، وإنّما نَقلوا حركة الواو لأن الضمة ثقيلة عليها إلى الساكن قبلها.

وهكذا كل مضارع مِنْ (فَعَلَ) عينُه واوٌ، نحو أَقُومُ وَتَقُوم وأَجُول وَتَجُول وفاعله ضمير المتكلم، وهذا الفاعل لا يجوز بُرُوزه، بل هو من المواضع السبعة التي يجب فيها استتار الضمير على خلاف في السابع؟؟.

و(بالله) جار ومجرور، وكذلك «من الشيطان» وهما مُتَعَلِّقَانِ بـ«أعوذ» ومعنى «الباء» للاستعانة، وَ(مِنْ) للتَّعْليل، أي: أعوذ مستعينا بالله من أجل الشيطان، ويجوز أن تكون (مِن) لابتداء الغاية، ولها معان أُخر(٧) وأما الكلام على الجلالة فَسَيأتي في البسملة.

---

(١) الدخان/ ٢٠. (٢) مريم/ ١٨. (٣) الفلق/ ١

(٤) آل عمران/ ٣٦. (٥) يوسف/ ٢٣.

(٦) انظر: المفردات كتاب العين/ ٣٥٢، واللسان ٣/ ٤٩٨-٥٠٠ (عوذ).

(٧) الدر المصون/ ١/ ٧-٨.



و«الشيطان» في كلام العرب، كل مُتَمَرِّدٍ من الجنّ وَالإنْس والدواب، وكل شيء، وكذلك قال ربنا جل ثناؤه: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ»(١) فجعل من الإِنْس شياطين، مثل الذي جعل من الجنّ(٢).

و«الشيطان» إما مشتقّ من «شَطَنَ» أي: تَبَاعَدَ، سُمّيَ به إبليس لأنه تباعد عن الحق وعن أمْر الله تعالى، أوْ مشْتَقٌ من (شاط يشيط) أي: هَلَكَ، فكل مَنِ ابْتَعَدَ عن الحقّ أو هَلَكَ بسبب الأخذ بالباطل فهو شيْطان.

وشيطان الإنس أضَرُّ من شيطان الجنّ، لأن شَيْطان الجنّ لا يستطيع إلا إدخال الوسوسة في الْقَلْب، ويَخْنَسُ عنْد ذكر الله تعالى، كما قال تعالى على لسان إبليس اللعين: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»(٣) ولكنّ شيطان الإنس يُوَاجِهُك بالدعوة إلى المعصية ويُدْخِلُها ويُزَيِّنُها في قلبك ويُحَضِّرُ لك أسبابَها، ولا يَخْنَسُ عند ذكر الله تعالى، ولذلك قَدَّمَهُ الله تعالى في الذِّكْر في هذه الآية فقال: «شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ»(٤).

وإنّما أخَّرَه في سورة (الناس) لأَنَّ التَرَقّي هناك من الأدْنى إلى الأعلى، كما يستفاد من قوله تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)»(٥) فإن الإله أعلى من الملك، والملك أعلى من الرب كما لايخفى ذلك(٦).

و(الرجيم) نعتٌ له - للشيطان - على الذَّمِّ، فعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كفٌّ خَضِيبٌ، وَلِحْيَةٌ دهينٌ، ورَجُلٌ لَعين، يُريد بذلك: مخْضُوبة، ومدْهُونة، وملعُون، وأصل الرّجْم: الرَّمْيُ بقَوْل كان أو فعل، ومن الرَّجْمِ بالْقَوْل، قول أبي إبراهيم لإبراهيم - عليه السلام - (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ»(٧) ويجوز أن يكون قيل للشيطان رجيم، لأن الله جل ثناؤه طرده من سماواته، ورجمه بالشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ.

---

(١) الأنعام/ ١١٢. (٢) تفسير الطبري/ ١/ ٤٩ (٣) إبراهيم/ ٢٢.
(٤) الأنعام/ ١١٢ (٥) الناس/ ١-٣.
(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٦-٧ (٧) مريم/ ٤٦.



ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أي «أستجير بالله دون غيره، من سائر خلقه، من الشيطان، أن يَضُرَّني في ديني، أو يصدَّني عن حقّ يَلْزَمُني لربّي»[١].

والاستعاذة ليست من القرآن إجماعا[٢] وجمهور العلماء: أن الاستعاذة مستحبة وَلَيْسَت بمُتَحَتّمَةٍ يأثم تاركها[٣] وعند البعض أن الاستعاذة واجبة لِظَاهِر الأمْر بها في الآية الكريمة، «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[٤] والأمر للوجوب إلا أنْ تصرفه قرينة إلى غير الوجوب، والأصح قول الجمهور لوجُودِ دَلائل دَلّتْ على أن الأمر هنا ليس للوجوب، وليس هنا مجال لذكر تلك الأدلة[٥].

متى تكون الاستعاذة؟

وقت الاستعاذة يكون قبل الشروع في القراءة، وهو قول الجمهور وعند البعض بعد الفراغ منها، وهذا بعيد جداً، لأن المرْء يتعَوّذُ من الشيطان لكي يمنعه من أن يفسد عليه قراءته وتلاوته بما يلقى في قلبه من الوساوس وأحاديث النفس، وذلك يليق بِقَبْلِ القراءة لا بعدها، فمعنى قوله: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» أي: إذا أردت القراءة فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، كقوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ... الآية»[٦] أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة... والمرْءُ مُخَيّرٌ بين الجهْر بالاستعاذة والإسرار بها إلا في الصلاة السِّرّيّةِ فيخفيها كما يخفي القراءة،

والأرجح استحباب الاستعاذة في الصلاة في الركعة الأولى فقط، لأن كل ما في الصلاة تعتبر قراءة واحدة تكْفيهَا اسْتعَاذة واحدة[٧].

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة لِلْفَم مما كان يتعاطاه من اللغو والرَّفَث وتَطْييبٌ له، وهي لتلاوة كتاب الله، وهي استعاذة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبْد بالضّعف

---

(١) تفسير الطبري/ ١/ ٤٩-٥٠ (٢) الدر المصون/ ١/ ٧.

(٣) تيسير العلي القدير/ ١/ ١٠ (٤) النحل/ ٩٨.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٦ (٦) المائدة/ ٦.

(٧) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٦.



والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه(١)، لذلك أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان، وتقديم الاستعاذة على التّسْمية للدلالة على وجوب تقديم التخلّي عن الرذائل على التّحلّي بالفضائل، ولذلك أيضا قدّم النّفْيَ على الإثبات في كلمة التوحيد، وقدّم الوضوء على الصلاة.

---

(١) تيسير العلي القدير / ١ / ١٠.

رفع
المسيّهما

«القول في البسملة»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

إن البدء باسم الله تعالى، هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه محمد ﷺ، في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»(١)

وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى، من أن الله «هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»(٢).

فهو سبحانه الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجُود وجودَه، فباسمه إذاً، يكون كل ابتداء، وباسمه إذاً تكون كل حركَة وكل اتجاه(٣).

إنه أدب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله، وتقدم إليه في وصفه بها قَبْل جميع مهماته، وجعل ما أدّبه من ذلك وعلّمه إياه منه لجميع خلْقه. سنّة يَسْتنّون بها، وسبيلا يتبعونه عليها، في افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم، وكتبهم وحاجاتهم، حتّى أغْنَتْ دلالة ما ظهر من قول القائل: بسم الله، على مَا بَطَنَ من مراده الذي هو محذوف،(٤) وذلك أن الباءَ مُقْتضيةٌ فِعْلاً يكون لها جالبا، فإذا كان محذوفا يُقدّر بما جُعِلَت التّسميةُ مَبْدءً له، والاسم هنا، بمعنى التّسمية، كالكلام بمعنى التكليم، والعطاء بمعنى الإعطاء، والمعنى: أقرأ بتسمية الله وذكره، وأفتتح القراءة بتمسية الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا(٥)،

و(بسم): جار ومجرور، والباء هنا للاستعانة، كَعَمِلْتُ بالقدوم، لأنّ المعنى: أقرأ مستعيناً بالله،

---

(١) العلق/ ١ (٢) الحديد/ ٣ (٣) تفسير الظلال/ ١/ ٢١.

(٤) تفسير الطبري/ ١/ ٥٠ (٥) تفسير القاسمي/ ١/ ٢٢٠.



و(الله) في «بسم الله» مضاف إليه، والعامل فيه حرف الجر المقدّر، و(الرحمن الرحيم) صفتان وقد تبعا موصوفهما[1]،

وجملة البسملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب[2]

و(الله) عَلَمٌ لذات الواجب الوجود، لم يُطْلَق على غَيْره، وأصله (إله) حُذفت الهمزة وعُوِّضت عنها أداةُ التعريف فلزمت، وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحقّ أو باطل، ثم غُلّبَ على المعبود بحق، كالنّجم والصّعق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، وبعده من الأعلام المختصة[3].

و(الله) هو أعظم أسماء الله الحسنى - عند المحقّقين - فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه، فيقال: الرحمن، الرحيم، العزيز، الغفّار، القهار، من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن[4].

و(الرحمن) فَعلان، من الرحمة، وأصل بنائه من اللاّزِم للمبالغة، وشذّ من المُتَعدِّي، و(أل) فيه للغَلَبة، كما في الصعق، فهو وصفٌ لم يستعمل في غير الله تعالى، كما لم يستعمل اسمه في غيره وسمعنا مناقبه، قالوا رحمن الدنيا والآخرة، وَوَصْفُ غَيْرُ الله به من تَعَنُّتِ المُلْحِدين، وإذا قلت: الله رحمن، ففي صَرفه قولان ليسند أحدهما إلى أصل عام، وهو أن أصل الاسم الصَّرْف، والآخر إلى أصل خاص، وهو أصل (فَعْلان) المنْع لَغَلَبيته فيه.

و(الرحيم) فَعِيْلٌ مَحَوَّلٌ من (فاعل) للمبالغَة، وهو أحد الأمثلة الخمسة وهي (فَعَّال) و(فَعُول) و(مِفْعَال) و(فَعيل) و(فَعِل)[5] وقال أبو علي الفارسي: (الرحمن) اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، و(الرحيم) إنما هو في جهة المؤمنين، قال تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»[6].

---

(١) انظر: الدر المصون / ١ / ١٣ - وما بعدها. (٢) إعراب القرآن وبيانه / ١ / ٨ (٣) فتح القدير / ١ / ٦٦.
(٤) طريق الهجرتين / ٦٨ (٥) تفسير البحر / ١ / ١٢٥ (٦) الأحزاب / ٤٣.



والرحمة: إرادة الخير والإحسان لأهله،

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: وهما اسمان رقيقان أحدهما أرَقُّ من الآخر، أي: أكثر رحمة، قال الخطابيّ: وهو مُشْكل؛ لأن الرقّةَ لا مدْخل لها في صفاته، وقال الحسين بن الفضل: هذا وهم من الراوي، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفاته، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله رفيق يحب الرِّفْقَ، ويُعطى عليه ما لا يعطى على العُنف»[١] ويؤيده الحديث الآخر، وأما الرَّحِيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة[٢].

وَجِئَ بهما - (الرحمن الرحيم) - معا للدلالة على أن إحسانه وإنعامه تعالى على العبد بإمداده على العمل وغير ذلك من الإنعامات، ناشئٌ عن إحسانه تعالى الذاتي، والذي هو صفة له، أي: أنه يُحسن ويُنعم لأنه محسن لا حاجة منه إلى الإحسان، ولا إلى المُحْسن عليه، ولا لضرورة تلجئه إلى ذلك، وَلاَ لإيجَاب عليه، بل هو مخَيَّرٌ في خلقه يعمل ما يشاء ولمن يشاء، ويحسن إلى من يشاء لمجرد الإفضال والإحسان والإنعام، لا لأيّ أمر آخر[٣] وقد اختلف أهل العلم في (الرحمن الرحيم) بالنسبة إلى كونهما بمعنى واحد أو مختلفين على وجوه شتّى[٤].

ومن القواعد المتّفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وأحكام الصّفات، فيؤمنون مثلا، بأنه تعالى (رحمن رحيم) أي: ذو الرحمة التي اتّصف بها المتعلّقة بالمرحوم، فالنّعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، فيقال في (العليم) إنه عليم ذو علم يعلم به كل شيء، ويقال في (قدير) ذو قدرة يقدر على كل شيء[٥].

---

(١) رواه البخاري «فتح الباري» الاستتابة / ١٢ / ٢٨٠، ومسلم، البر٤ / ٢٠٠٤

(٢) الدر المصون / ١ / ٣١-٣٢ (٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨

(٤) انظر: تفصيل ذلك في تفسير الطبري / ١ / ٥٥-٥٩، والدر المصون، / ١ / ٣٢-٣٥، وغيرهما من التفاسير عند القول على (البسملة)

(٥) تيسير الكريم الرحمن / ١ / ٣٢



اختلاف العلماء في آية (البسملة):

اختلف العلماء في آية (البسملة)

فذهب قراء المدينة، والبصرة، وفقهاء الكوفة، إلى أنّها ليست من فاتحة الكتاب ولا من غيرها من السور، والافتتاح بها للتّيمّن والتّبَرُّك.

وذهب قرّاء مكة، والكوفة، وأكثر فقهاء، الحجاز إلى أنها من الفاتحة وليست من سائر السور، وأنها كتبت للفصل، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التّوبة، وهو قول الثوري، وابن المبارك، والشافعي، لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن،[1].

والراجح أنها للفَصْل بين السور، لما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (أن رسول ﷺ - كان لا يعرف فصل السورة حتى ينْزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم)[2] ومن قال إنها آية من الفاتحة، فقد رأى الجَهْرَ بها في الصلاة، والذين لم يروا ذلك فقد أسَرُّوا بها، ولكل من أصحاب القولين جماعة من الصحابة رَأواْ مَا رَأواْ...

والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسِرُّون بالبسملة، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخَلَف، وهو أيضا مذهب أبي حنيفة، والثوري، وابن حنْبَل، وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ بالبسملة لا جهراً ولا سِرًّا، وخلاصة القول: رُوي عن رسول ﷺ - والأئمة أجمعوا على صِحّةِ من جَهَرَ وَمن أسَرَّ[3] وفي الصلاة السّرِية لابد من الاسرار بها.

المعنى الضّمْني في البسملة:

إن المعنى الضِّمني في البسملة هو أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه ﷺ: إقرأ يا نَبيّي هذه

---

(١) تفسير البغوي / ١ / ٥١.

(٢) أبو داود في الصلاة (٧٨٨) وصححه الحاكم / ١ / ٢٣١, ٢٣٢، على شرط الشيخين، وقال الذهبي: أما هذا فثابت.

(٣) تيسير العلي القدير ١ / ١٠, ١١، وقد استوفي الإمام الشوكاني موضوع (البسملة) والخلاف فيها في شرحه للمنتقى، فانظره إن شئت، وهو أيضاً مُفصّل في معظم كتب التفسير المطولة، مثل تفسير القرطبي، وتفسير الفخر الرازي....



السورة على عبادي باسمي، أي: إِقْرَأَهَا عَلَى إِنَّهَا مِنِّي، لا مِنْك، فإني برحمتي بهم أنزلها عليك، لتعلم أنت مضمونها، وتهدي قومك بها إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

والنّبي - ﷺ - كان يقصد من متعلق البسملة: «إنّني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي، وعلى أنّها منه لا منّي، فإنما أنا مبلِّغٌ عنه عز وجل، قال تعالى: «وَأمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمين وَأنْ أتْلُو القُرآن»(١).

وهكذا الواحد منا اليوم إذا قرأ السورة يقصد أنه لا يقرؤها باسمه، أي: باسم نفسه، بل باسم ربه سبحانه وتعالى، ومثل هذا التّعبير بنحو هذا المعنى مألوف عند جميع الأمم، ومنهم العرب، إذا أراد الواحد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم يعلن أنه متجرّدٌ عن نسبة هذا العمل إليه، وَمُنْسَلِخٌ عنه، فيقول: أعمله باسم فُلان، ويذكر اسم ذلك الأمير، أو الحاكم، أو الملك، أو الرئيس،...

على أن كل شيء إنما يُقْرأ أو يُقَال أو يُعْمَل، بالاستناد إلى اسمه تعالى وحده، أي: بالارتكاز على إقْداره تعالى وحده وقُوّته، لأن العبد من دون الله ضعيف وعاجزٌ جداً(٢).

(١) النمل/ ٩١-٩٢.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٧٥-٧٦.



«سورة يوسف - عليه السلام-»

«الآية الأولى»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «الر» بتفخيم الراء المفتوحة، وهو الأصل، وأمال أبو عمرو وبعض القراء، إجراءً لألف الراء مجرى الألف المنقلبة عن الياء، فإنهم يميلونها تنبيها على أصلها، وفي الإمالة هنا دفع توهّم أن (را) حرف ك (ما) و(لا) فقد صرحوا أن الحروف يمتنع فيها الإمالة، وقرأ (وَرْش) بيْن بيْن[١].

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «الرٓ» من الألفاظ التي يُتَهجّي بها، وهي أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، والتهجّي: تعداد الحروف بأساميها، وحروف التهجي: ما تتركب منها الألفاظ العربية، وهي الألف والياء وما بينهما[٢].

«تِلْكَ»: اسم إشارة إلى البعيد المحسوس.

(آيات): جمع آية، وتطلق على:

(أ) جُملة أو جُمل أُثِر الوقْفُ في نهايتها غالبا،

(ب) علامات ومعجزات ودلائل وعِبَر[٣]

«الكتاب»: هو الصحف المجموعة، والجمع: كُتُب، والمراد به هنا، القرآن الكريم[٤].

---

(١) روح المعاني/٦/٥٧ (٢) انظر: تفسير الكشاف/١/٧٦. (٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم/١/١٠٨.

(٤) انظر: المفردات/كتاب الكاف/٤٢٣-٤٢٥ واللسان/١/٦٩٨-٧٠١.



«المبين» : مشتقٌ من (أبَان) بمعنى (بان) أي: ظهر، فهو لازم، يقال: بان الشيءُ بيانا: ظهر واتّضح، أو بمعنى (بَيَّن) بمعنى أظهر، فهو مُتَعدّ، والمفعول مُقَدَّر، يقال: أبَانَ الشّيء: أظْهَرَهُ وأوْضَحَه(١).

رابعاً - الإعراب:

قوله (آلر) كلمة أريد لفظُها دُون معناها، في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه (آلر)

و(تلك) مبتدأ، و(آيات) خبر، و(الكتاب) مضاف إليه،

و(المبين) صفة للكتاب(٢)

البلاغة: «تلك آيات» أشار إلى القرآن الكريم بالبعيد لبيان علوّ منزلته وبُعْد مرتبته في الكمال(٣)

خامساً - الموقف من المتعارضات: □ (٤)

(١) انظر: روح المعاني / ٦ / ٣٦٣ (٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٤٩

(٣) انظر: التفسير المنير / ١٢ / ٢٠٢.

(٤) هذه العلامة: □ تعني أن موضوع هذا الرقم غير موجود.



سادساً - التفسير والبيان:

الإشارة إلى آيات الكتاب المبين المؤلفة من الحروف الهجائية المعروفة لدى العرب.

قال الله تعالى: الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾

وجه المناسبة: (بين آخر سورة «هود» وأول هذه السورة)

لما أخبر الله تعالى في آخر سورة «هود» بتمام علمه وشمول قدرته بقوله: «وَلله غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالأرْض وَإلَيهِ يَرْجِعُ الأمر كُلّه... الآية»(١).

دَلّ على ذلك أهل السبق من الفصاحة والفوْت في البلاغة في أول هذه -«يوسف»- بما فعل في كلامه من أنه تعالى يقدر على أن يأتي بما تَذْهب الأفهام والعقول - على كرّ الأزمان وتعاقب الدهور وتوالى الأيام وتمادي الليالي - في معناه كل مذهب وتطير كل مطار مع توفّر الدواعي واستجماع القوى، ولا تقف من ذلك على أمر محقّق ولا مراد معلوم، وعلى أن يأتي بما يُفْهَم بأوائل النظر أدنى معناه فهما يوثق بأنه مراد، ثم لا يزال يبرز منه من دقائق المعاني كلما تكرّر التأمّل وتغلغل الفهم إلى حدّ يعلم أنه معجوز عن كل ما فيه من جليل معانيه ولطيف مبانيه فقال تعالى:

«الَر ج»(٢): هذه من حروف المعجم المقطعة، تكتب «الَر» وتُقرأ هكذا: ألِفْ، لام، رَا. والألفاظ التي يُعبّر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور الكريمة - في تسع وعشرين سورة، أولها «البقرة» وآخرها «القلم» -

أسماء لهذه الحروف، لا ندراجها تحت حدّ الاسم، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير، والجمع والتصغير، وغير ذلك من خصائص الاسم، وقد نَصّ على ذلك أساطين أئمة العربية، وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيّتها محمول على المسامحة، وأما ما روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - من أنه - ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولا أقول (الَم) حرف، ولكن:

---

(١) هود/ ١٢٣. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٤.



ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(١) فلا تعلّق له بما نحن فيه قطعا، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عُرْف جديد، اخترعه أئمة الصناعة، وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة، وربما يطلق على الكلمة أيضاً تجوّزاً، فأريد بالحديث الشريف دفْع توهّم التجوّز، وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقي، ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف(٢).

فالقول المختار في «آلر» أنها أسماء حروف التهجّي المكونة منها، والأصح في إعرابها أنه لا محل لها من الإعراب حيث ألقيت كأسماء العدد، نحو: واحد، اثنان(٣) وقد أجمع القراء على عدم مد الحروف را. ها. يا. طا. حا. التي في أوائل السور، وإن كانت تلك الأسماء ممدودة في استعمال اللغة(٤).

وسورة يوسف - عليه السلام - من السور التسع والعشرين من سور القرآن الكريم المائة والأربعة عشر سورة التي افتتحت بالحروف المقطعة، وتقديم مثل هذه الحروف المقطعة أوائل بعض سور القرآن الكريم، وبتلك الطريقة الفريدة التي لم يعهدها العرب من قبل، قد حيّر أهل العلم والتأويل في التعرف على المراد منها، إذ أن هذه الحروف بصورتها المذكورة لا تعني عند العرب شيئا سوى أنها أسماء لبعض الحروف الهجائية، قد ضمّت إلى بعضها البعض في صور مختلفة، دون أن يكون لهذا الضم معنى عندهم، ولم يثبت عن الرسول - ﷺ - أنه تكلم في شيء من معاني هذه الحروف المقطعة، بل غاية ما ثبت عنه هو ذكر عدد من أسماء هذه الحروف، فعن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول ﷺ-: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة سبق ذكرها(٥).

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٢٩١٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٣٤٥) كما صححه الحاكم (١/ ٥٦٦). (٢) تفسير أبي السعود/ ١/ ٢٠

(٣) انظر: تفسير الكشاف/ ١/ ٨٠، والدر المصون ١/ ٧٩-٨١، وإعراب القرآن المجيد/ ١/ ١٨١-١٨٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٣/ ٨٠. (٥) انظر: المقدمة (المبحث الثالث) المعلم الحادي عشر (الحروف المقطعة).



وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبيه العرب إلى أن القرآن الكريم إنما ألّفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم، أي: من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم، والتي تتلقّنها الصّبية منذ نعومة أظفارهم وصغرهم، فلم ينزل القرآن الكريم بكلمات خارقة للعادة في حروفها، ولا مباينة للمألوف في مواد تركيبها، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان[1] ولو بأقصر سورة من مثله كسورة (الكوثر) مثلاً، مع أنهم أصحاب البلاغة والفصاحة وأهل الشعر والبيان، وإنّ في عجزهم المطلق هذا، لدليل أكيد على أن القرآن الكريم وحْي من عند الله تعالى أنزله على رسوله محمد - ﷺ - ليبلغه للناس كافّة،.

وسوف تظل عطاءات الحروف المقطعة من مدلولات تتواصل مع الأجيال إلى أن تقوم الساعة، وسيبقى سرها الأعظم عند العليم الحكيم الذي يعلم وحده السر وأخفى.

والملاحظ أن هذه الحروف المقطعة التي ابتدئت بها السورة الكريمة (آلر) هي نصف حروف (الرؤيا) التي هي مدار قصة يوسف - عليه السلام - وكذلك الرؤي التي ذكرت في القصة وتحقّقت، وكان لها أثر كبير في أحداث القصة.

وفي قوله تعالى: «تلك» اسم إشارة إلى المفْرد المؤنّث البعيد المحسوس، كقوله تعالى في سورة (مريم): «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا»[2] والجنة وإن لم تكن محْسُوسة، إلا أنها بعد ذكر أوصافها السابقة على الآية أصبحت كالمحْسُوسة، ويشار بها أيضا إلى الجمع؛ باعتبار كونه جماعة، فهو مفْرد مؤنث، سواء كان جمعا للمؤنث كقوله تعالى في سورة (البقرة): «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ»[3] أو جمعا لمذكّر كقوله تعالى في سورة البقرة أيضاً: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»[4] والآيات والرسل في الآيتيْن وإن كانتا غير محسوستَيْن؛ إلا أنهما حيث سبق ذكرُهما قبْل، أصْبَحَتا كالمحسوس في العلم، فأشير إليهما بما يشار به

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٧٧-٧٨.

(٢) مريم/ ٦٣. (٣) البقرة/ ٢٥٢. (٤) البقرة/ ٢٥٣.



إلى المحْسوس، وَقِسْ على ذلك كل مالم يكن محسوسا وأشير إليه بما وضع للمحسوس في أنه أصبح كالمحسوس لما ذُكر مِنْ وصْفِه وأحواله سابقا، وكذلك يشار بها إلى مَعْنَى أو مَعَانٍ، لأنّ المعنى مِنْ حيث كونه غير محسوس يُعتَبَرُ بعيدا، كما في قوله تعالى «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ»(١) وكما في هنا، فإنه أشير بها إلى الآيات التي توحَىٰ إلى الرسول ﷺ في هذه السورة وفي غيرها من القرآن الكريم(٢).

وأشير إلى آيات الكتاب بما يشار به إلى البعيد (تلك) للدلالة على بعد المشار إليه، فإن ما في الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو مكانته وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف، وكذلك القرآن المجيد بعيد في شرفه ومكانته، قريب في تبصرته وهدايته، فالإشارة بـ(تلك) دالة على التعظيم(٣).

وأشيرَ بـ(تلك) إلى آيات تلك السورة مع أنها لم تذكر بعدُ لتنزيلها منزلة المتَقدّم، أو لجَعْلِ حُضورها في الذهن بمنزلة الوجود الخارجي(٤).

قوله تعالى (آيات)

الآيات، جمع آية، والآية جاءت في القرآن الكريم بمعنى (العلامة) كقوله تعالى في سورة (مريم) حكاية عن سيدنا زكريّا - عليه السلام - حينما بُشّرَ بولَد «قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً»(٥) ومن ذلك العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكمالِ تنزيهه.

وجاءت (آية) بمعنى المعجزة، والأمر الخارق للعادة، كقوله تعالى في سورة (البقرة): «وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ»(٦) أي: لولا يأتينا أمرٌ خارقٌ للعادة.

---

(١) الجاثية/ ٦. (٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٥.

(٣) حديث القرآن عن القرآن/ ١٩.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ١٧٠. (٥) مريم/ ١٠. (٦) البقرة/ ١١٨.



وجاءت (آية) بمعنى (الحكم) كقوله تعالى في سورة (البقرة): «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا»(١) أي ما ننْسخ من حكم أو نُنْسِه نأت بحكْم آخر خيْرٍ مِّنْه أو مثله في الحكم والمصْلحة فيه،

وجاءت (آية) بمعنى الدليل والبرهان، كقوله تعالى في سورة (يس): «وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ»(٢) أي: دليل واضح وبرهان ساطع على وجود الله تعالى وقدرته ووحْدانيّته، وعلى إمكانِ الإحياء بعد الموت،

وجاءت (آية) اسما لجملة من كتاب الله تعالى مفصولة عن سابقتها ولاحقتها بفصْل، مثل قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»(٣) فالمراد بالآيات هنا، فقَرات وجُمَل من كتاب الله تعالى(٤) وقد وردت كلمة (آية) و(آيات) في الكتاب الكريم عشرات المرات.

قوله تعالى: «الكتاب»

الكتاب: مصدر كتَب كالكَتْب. وأصل الكتْب ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة؛ واستعمل عُرفاً في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأريد به هنا المنظومُ عبارةً قبل أن تنظم حروفه التي يتألف منها في الخط؛ تسمية للشيء باسم ما يئول إليه(٥) وتسمية القرآن الكريم بالكتاب هكذا بالتعريف، فيه تنويه بمكانته وأنه الجدير بأن يخص بإطلاق هذا الاسم عليه من بين الكتب المنزلة، لأنه المهيمن الحافظ لمقاصدها وهدايتها، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، وبه ينقطع كل ادّعاء على الكتب المنزلة قبله، ويبطُل كل باطل يُنْسَبُ زورا إليها، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ»(٦)،(٧).

---

(١) البقرة/١٠٦. (٢) يس/٣٣. (٣) آل عمران/٧.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/١٥.

(٥) صفوة البيان/٤. (٦) المائدة/٤٨.

(٧) حديث القرآن عن القرآن/٢٠.



وللقرآن الكريم أسماء كثيرة، أشهرها أربعة، القرآن، والكتاب، والفرقان والذّكر. وقد عد الفخر الرازي من أسمائه ثنتين وثلاثين اسما[1] وأوصلها غيره إلى تسعين اسما. وجاء لفظ (الكتاب) في القرآن الكريم ثلاثين ومِئَتَيْ مرة[2] فالمراد بالكتاب هنا: القرآن الكريم، وهو الظاهر فالتعريف فيه للعهد، ويجوز جعل التعريف دالاً على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنت الرجل[3].

ولّما تقدّم أول سورتيْ يونس وهود وصفه بالحكمة والإحكام والتفصيل، وُصِف هنا بأخص من ذلك فقال:

«المبين»

قال الزجاج: بانَ الشيءُ وأبان بمعنى واحد. ويقال: بانَ الشيء وأبنتُه، فمعنى مُبين، أنّ القرآن مُبينٌ خيرَه وبركتَه، أو مبين الحقّ من الباطل، والحلال من الحرام، ومبين أن نبوّة سيدنا رسولِ الله ﷺ حقّ، ومبين قِصَصَ الأنبياء[4] والبيان: إظهار المعنى للنفس بما يفصله عن غيره، وهو غرض كل حكيم في كلامه، ويزيد عليه البرهان بأنه إظهار صحة المعنى بما يشهد به[5].

و(المبين) إما أن يكون من (أبان) بمعنى ظهر فهو لازم، أي: الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، وفي إعجازه، أو الواضح معانيه للعرب، بحيث لا تشتبه عليهم حقائقه، ولا تلتبس عليهم دقائقه، وكأنه على المعنيَيْن حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فارتفع واستتر، ولا يعدّ هذا من حذف الفاعل المحظور، فلا حاجة إلى القول بأن الإسناد مجازي فراراً منه،

أو بمعنى (أظهر) فهو متعد، والمفعول مقدّر، أي: المظْهر ما فيه هدى ورشد، أو ما سألت عنه اليهود[6]، أو ما أمرت أن تسأل عنه من السبب الذي أحلّ بني إسرائيل

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ١/ ٢/ ١٥-٢٠ (٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم/ ٥٩٢

(٨) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٢٧٨ (٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١١/ ٨٢

(٤) اللسان/ ١٣/ ٦٨ «بين» (٥) نظم الدرر/ ٤/ ٥

(٦) وفي الكلام على هذا براعة استهلال



بمصر، أو الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت، وأسرار النشأتيْن، وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص(١).

وقد ذكر أهل التفسير في معنى «مبين خمسة أقوال»

أحدها: البيّن حلاله وحرامه، قاله ابن عباس، ومجاهد.

الثاني: المُبين للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم، قاله معاذ بن جبل، وهذه الحروف هي: الطاء، والظاء، والصّاد، والضّاد، والعين، والحاء، المهملتيْن، وهذا مبني على الشائع الغالب، وإلا فبعض هذه الأحرف موجود في بعض كلماتهم، كما لا يخفى على المتتبع.

الثالث: البيّن هداه ورشده، قاله قتادة.

الرابع: المبيّن للحق من الباطل.

الخامس: البيّن إعجازه فلا يعارض(٢).

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون مبيّنا لنبوة محمد - ﷺ - بإعجازه(٣).

القول الصواب في معنى «مبين»

قال الإمام الطبري: والصواب عندي أن يقال: معناه: هذه آيات الكتاب المبين لمن تلاه، وتدبّر ما فيه من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، وسائر ما حواه من صنوف معانيه، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه «مبين» ولم يخص إبانته عن بعض ما فيه دون بعض، فدل ذلك على جميعه إذ كان جميعه مُبيّنا عما فيه(٤) فهو جامع معجز، موضّح لجميع ما حوى، مشتمل على جميع المرادات لمن أمعن التدبّر(٥).

وقد جاء وصف الكتاب بـ«المبين» في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، منها خمس مواضع أوائل خمس سور، غير سورة يوسف، وهي:

---

(١) روح المعاني/٦/٣٦٣. (٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) انظر: زاد المسير/٤/١٧٧. (٣) تفسير ابن عطية/٩/٢٤٦.

(٤) تفسير الطبري/٧/١٢/١٤٩. (٥) نظم الدرر/٤/٥.



أول سورة (الشعراء) قال الله تعالى: «طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»

وأول سورة (النمل)، قال الله تعالى: «طسٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ»

وأول سورة (القصص)، قال الله تعالى: «طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»

وأول سورة (الزخرف)، قال الله تعالى: «حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ»

وأول سورة (الدخان)، قال الله تعالى: «حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ»

الحكمة في وصف القرآن الكريم بـ(المبين) في سورة (يوسف) عليه السلام - ووصفه بـ(الحكيم) في سورة (يونس) - عليه السلام-:

إن فاتحة هذه السورة، سورة يوسف - عليه السلام - هي فاتحة سورة (يونس) - عليه السلام - إلا وصف القرآن بـ(المبين) هنا، وبـ(الحكيم) هنالك، وهما في أعلى ذِرْوَةٍ من البيان، وأقصى مَدَى من الحكْمة والإحكام، اخْتِير في كل من السورتين ما يناسبها،...

فسُورة (يونس) موضوعها أصل الدين، وهو توحيد الألوهية والربوبية، وإثبات الْوَحْيِ والرسالة بإعجاز القرآن، والبعث والجزاء وهي من الحكمة،...

وهذه - أي سورة يوسف، قصة نبيّ كريم تَقَلَّبَ في أطوار كثيرة، كان قدْوة خيْر وأسوة حسنة فيها كلها، فالبيان أخصّ[١] حيث إن القصة التي تضمَّنتْها هذه السُّورة مفصّلَة مبيّنَةً لأهم ما جرى في مدّة يوسف - عليه السلام - بمصر، فقصة يوسف لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن لا إجمالا ولا تفصيلا، فكان الوصف بالإِبَانَة هُنا أنْسَبُ، بخلاف قصص الأنبياء، هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، - عليهم السلام - إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبيّناً إيّاها - أي قصة يوسف - عليه السلام - ومُفصّلاً[٢].

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥١ وانظر تفسير المراغي/ ٤/ ١٢/ ١١١-١١٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٠.



ثم إن وصف الكتاب في سورة يوسف بأنه (مبين) توكيد لوصْفِهِ بأنه (الحكيم) في سورة (يونس) وبأنه «كتابٌ أحكمت آياته كما في سورة (هود) إذ أن الحكمة لا تكون حكمة، والحكيمُ لا تَتِمُّ حكمتُه حتى تخرج تلك الحكمة على صورة بيّنة واضحة مشرقة، يرى الناس على وجهها أضواء العِلْمِ والمعرفة، وإلا كانت حكمة مضمرة لا ينْتفع بها أحد، أشبه باللآلئ في أصدافها في البحر، فَ(المبين) مُبَيِّنٌ وحكيم مَعاً، و(الحكيم) حكيم ومبين كذلك[١].

المضمون العام للآية الكريمة:

يخبر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ، أن تلك الآيات التي توحي إليه، ومنها آيات هذه السورة الكريمة، هي آيات الكتاب البيّن الظاهر بنفسه، والمظهر لما شاء الله تعالى من حقائق الدين وأحكام التشريع، وخفايا الملك والملكوت، وأسرار النشأتين، والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة[٢].

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تقرير إعجاز القرآن الكريم، حيث أنزل الله تعالى كتابه المبين مكوّنا من الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب المخاطبون بالقرآن، مثل: الألف، واللام، والراء، «آلر» وتحداهم أن يأتوا ولو بأقصر سورة من مثله فعجزوا، وفي عجزهم دليل على أنه وحي الله أنزله على رسوله محمد ﷺ.

٢ - أنزل الله تعالى كتابه المبين بالحروف الهجائية العربية، فصارت في القرآن الكريم خلقا آخر، لا يقدر على محاكاته، إنس ولا جن، ولو اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

٣ - الكتاب الكريم واضح الدلالة ميسّر لكل من أقبل عليه وتدبره.

---

(١) القصص القرآني منطوقة ومفهومة/ ٤٠٣.

(٢) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥١، وتفسير المراغي/ ٤/ ١١٢.



٤ - الكتاب الكريم فيه بيان كل ما يحتاجه الإنسان في مسيرة الحياة، من أمور الدنيا والآخرة.

٥ - الكتاب الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ما بقي من وحي في هذه الدنيا غيره، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف أو التبديل إلى أن تقوم الساعة، «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(١).

٦ - في الآية الكريمة دعوة إلى تعلم القراءة والكتابة والاهتمام بالعلم والتعلم.

٧ - في الآية الكريمة دعوة إلى تعلم القرآن وتعليمه وحفظه وتدبره.

(١) الحجر / ٩.

رفع المسائهم

«الآية الثانية»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «إنَّا أنْزَلْنَاهُ»

نزل: النزول في الأصل هو انحطاط من عُلُوّ، يقال: نَزَل عن دابته، ونزل في مكان كذا: حَطّ رحْلَه فيه، ويقال: أنْزَلَ الشيء: جعله ينزل، وأنزل الله كلامه إلى أنبيائه: أوحي به، ويقال: تَنزَّل: أي نَزَل في مهلة(١)

قوله تعالى: «قُرْآناً»

القرآن في الأصل مصدر، نحو كُفْران، ورجحان، قال تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»(٢)

وقد خُصّ بالكتاب المنزّل على محمد - ﷺ - فصار له كالْعَلَم، كما أنّ التوراة لما أنْزِل على موسى، والإنجيل لما أنزل على عيسى - عليه السلام(٣).

قوله تعالى: «عَرَبِياً»

العربي: منسوب للعرب، لأنه نزل بلغتهم، وواحد العرب، عربِيّ، والعربيّ: المُفْصِح، والإعراب: البيان، والعربيّ - أيضاً -: الفصيح البيّن من الكلام، والعرب: ولد اسماعيل - عليه السلام - والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسما لسكان البادية، قال تعالى: «قَالَتِ الأعْرَاب آمَنّا»(٤)، (٥).

---

(١) انظر: المفردات/ كتاب النون/ ٤٨٨-٤٨٩، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠١.

(٢) القيامة/ ١٧-١٨ (٣) أنظر: المفردات/ كتاب القاف/ ٤٠٢ (٤) الحجرات/ ١٤.

(٥) انظر: المفردات/ كتاب العين/ ٣٢٩، والدر المصون/ ٦/ ٤٣٠.



قوله تعالى: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْن»

لَعَلّ: طمع وإشفاق، وذكر بعض المفسرين أن (لعّل) من الله تعالى واجب، وفُسِّر في كثير من المواضع بـ«كي» وقالوا: إن الطمع والإشفاق لا يصح على الله تعالى[١]

يعقلون: العقل: الحِجْر والنّهي ضدُّ الحُمُق، والجمع: عقول، ويقال: عقَلَ يعْقِل عقْلا ومعْقولا، وهو مصدر، قال سيبويه: هو صفة، والعقل هو التمييز الذي يتميّز به الإنسان من سائر الحيوان[٢].

رابعاً - الإعراب:

«إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

(إِنَّا أَنْزَلْنَاه): إن واسمها، وجملة أنزلناه خبرها.

(قرآنا): يجوز فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون بدلا من ضمير أنزلناه، الثاني: أن يكون حالاً موطّئة منه، والضمير في أنزلناه على هذين القولَيْن يعود على الكتاب، الثالث: قيل: قرآنا مفعول به، والضمير في أنزلناه ضمير المصدر، و(عربيا) نعت للقرآن، وجوّز أبو البقاء أن يكون حالاً من الضمير في قرآنا إذا تحمَّل ضميراً، يعني إذا جعلناه حالاً مؤوّلا بمشتق، أي: أنزلناه مجتمعا في حال كونه عربيا.

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون): لعل واسمها، وجملة تعقلون خبرها[٣].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) انظر: المفردات/ كتاب اللام/ ٤٥١ (٢) انظر: اللسان/ ١١/ ٤٥٨-٤٥٩.

(٣) انظر: الدر المصون/ ٦/ ٤٢٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٤٩.



سادساً - التفسير والبيان:

إنزال القرآن الكريم باللسان العربي المبين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾

وجه المناسبة: ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتي، عقّب ذلك بما يدل على الشرف الإضافي فقال:

«إنّا أنزلناهُ...»(٣)

التأكيد بـ(إن متوجه إلى خبرها) وهو فعل «أنزلناه» ردًّا على الذين أنكروا أن يكون منزّلا من عند الله(٢) ولهذا علّل المبين بقوله معبّراً بالإنزال لأنه في سياق تكذيبهم، بخلاف ما عبّر فيه بالجعْل كما سورة الزخرف حيث قال: «حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»(٣)(٤) وقال تعالى: «أَنْزَلْنَاهُ» بنون العظمة أي الكتاب المفسَّر بهذه السورة أو القرآن كله، ولم يقل «أنزلته» تعظيما لشأنه جل جلاله، إذ المعظّم يعبّر عنه بصيغة الجمع، فالرؤساء والأمراء يقول الواحد منهم: قرّرنا كذا، وهذا أسلوب شائع عند العرب وغيرهم وقت نزول القرآن الكريم.

معنى «أنزل»

هناك فرق بين (أَنْزَل) و(نزَّل) و(نَزَل) فيما يتعلق بالقرآن الكريم، فـ(أنزل) لله تعالى، حيث أنزل سبحانه القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، لأربع وعشرين خلَت من رمضان(٥) و(نَزَّل) وبعد ذلك نزّل القرآن نجوما - متفرقا - على حسب الحوادث ومقتضى الحال، و(نَزَّل) هذه تكون لله تعالى، ولجبريل - عليه السلام - وللملائكة الكرام، وبعد ذلك يؤول الأمر إلى أن القرآن الكريم نَزَلَ، أو نزل به، كما قال تعالى: «وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ»(٦) وفي معنى (نَزَلَ)؛ (تَنَزَّل)، وبعد أن أنزل الله تعالى القرآن الكريم جملة واحدة

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠١. (٣) الزخرف/ ١-٣. (٤) نظم الدرر/ ٤/ ٥.

(٥) مسند الإمام أحمد (٤/ ١٠٧). (٦) الإسراء/ ١٠٥.



إلى السماء الدنيا، أنزله سبحانه على نبيه محمد ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، ولم يجمع في مصحف بل كان في صحف مفرقة كتبها كُتّاب الوحي، وفي صدور الحفاظ من الصحابة - رضي الله عنهم.

وفي عهد أبي بكر - رضي الله عنه - أمر بجمع القرآن، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسُوَرِه، وكتب معها ما كان في صُدُور الرجال، وأودِعَت عند أبي بكر - رضي الله عنه - وقد تولى جمعه هذا زيد بن ثابت، ثم انتقلت الصحف من أبي بكر إلى عمر ثم إلى حفصة بنت عمر - رضي الله عنهم - حتى إذا تولى عثمان - رضي الله عنه - أخذ الصحف من حَفْصة وعهد إلى جمع من الصحابة منهم زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص - رضي الله عنهم - بجمعها في مصحف واحد، وَكُتِبَ منه نُسَخٌ كثيرة وُزِّعَتْ على الأمصار وسُمّيَ هذا المصحف بالمصحف الإمام، فلا يُرْجَع إلى سواه، ولا يُعْتَمدُ على غيره، وحُرِّقَ ما سِواه(١).

قوله تعالى: «قرآناً»

كلمة (القرآن) في الأصل مصدر بمعنى الجمع، ثم اكْتَسَبَ معنى الإظهار والبيان، ثم تخصَّصَ بمعنى التّلاوة والتّرتيل؛ لما فيهما من إظهار وتبْيين، كما في قوله تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»(٢) ثم سُمِّيَ به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، ثم صار علما على الكلام المنزّل على الرسول ﷺ للبيان والإعجاز، والمنْقول إلَيْنا نقلاً متواتراً، واللفظ (القرآن) عَرَبيٌّ محْض، وليس معرَّباً عن (الآراميّة) كما يَدَّعي بعض المستشرقين، فأصول الجاهلية، وَصِلَتُه الاشْتقَاقيَّة تقطع بذلك،

وقد سُمِّيَ هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله تعالى المنزّل على رُسله، لكونه جامعاً لثَمَرَةِ كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: «وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ»(٣)(٤).

---

(١) أنظر: المعجزة الكبرى القرآن/ ٢١-٣٤. (٢) القيامة/ ١٧.
(٣) يوسف/ ١١١. (٤) المفردات/ كتاب القاف/ ٤٠٢.



قوله تعالى: «عَرَبِياً»

وصف له باعتبار الشرف الإضافي، فـ(عربي) صفته، ومعنى كونه عربيا أنه منسوب إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم، وضمير الغائب للكتاب السابق ذكره، فإن كان المراد به القرآن كله كما هو الظاهر المناسب للحال فذاك، وإن كان المراد به هذه السورة فتسميته (قرآنا) لأنه اسم جنس يقع على الكثير والقليل، فكما يطلق على الكل يطلق على البعض[1].

وكونه (قرآنا) يدل على إبانة المعاني، لأنه ما جعل مقروءاً إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ، وكونه (عربيا) يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبينون شيئا من الأمم التي حولهم، لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية[2] ونزول القرآن الكريم باللسان العربي على العرب المخاطبين به، يبطل أي حجة لهم بأنهم لا يفهمونه، وأن كفرهم به كفر عناد وتعنّت، كما قال عزو جل: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ»[3] لأنه ليس بلغتهم، وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنّت والعناد: «لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ»[4] أي: لقالوا هلاّ أنزل مفصّلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك فقالوا أعجمي وعربي، أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه، هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس وغيره[5].

عربية إسماعيل - عليه السلام-

ومن شرف اللغة العربية أن الله تعالى قد ألهمها إلهاماً لنبي كريم من أنبيائه، وهو اسماعيل - عليه السلام - فعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - تلا هذه الآية «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» ثم قال: أُلْهِم اسماعيل - عليه السلام -

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٦٣-٣٦٤. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠١.
(٣) الشعراء/ ١٩٨-١٩٩. (٤) فصلت/ ٤٤. (٥) تيسير العلي القدير/ ٤/ ١٠٥.

هذا اللسان العربي إلهاما»(١). وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن أول من فُتِقَ لسانه بالعربية المبيّنة اسماعيل - عليه السلام - وهو ابن أربع عشرة سنة، والمراد بها كما قال الحفّاظ، عربية (قريش) التي نزل بها القرآن الكريم، وإلا فاللغة العربية مطلقا كانت قبل اسماعيل - عليه السلام - فكانت لغة (حِمْيَرْ) ولغة (قَحْطَان) وعن ابن عباس قال: قال رسول ﷺ: أحِبُّوا العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي(٢) وأخرج أبو الشيخ وابن مرْدويُه عن أبي هريرة ما يُعَضّدُه.

ولا يخفى على الخبير بمزايا الكلام أن في الكلام العربي من لطائف المعاني ودقائق الأسرار ما لا يستقل بأدائه لسان،(٢) فاللغة العربية أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس(٣) فهي تتضمّن من المعاني والأسرار ما لا تتضمنها ولا تحتملها غيرها من اللغات(٤) وقد قسم لنبينا محمد ﷺ من هذا اللسان العربي ما لم يقسم لأحد من فصحاء العرب، فقد سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رسول ﷺ فقال: يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟

قال: «كانت لغة إسماعيل - عليه السلام - قد درست، فجاء جبريل - عليه السلام - بها فحَفّظنيها»(٥)(٦).

وقد ورد وصف القرآن الكريم وصفا مباشرا لفظا ومعنى بأنه عربي، في ستّ مرات في كتاب الله الكريم.

(الأولى) في قوله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»(٧)

(الثانية) في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ»(٨)

(الثالثة) في قوله تعالى: «قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»(٩)

(الرابعة) في قوله الكريم: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»(١٠)

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك. (٢) روح المعاني / ٦ / ٣٦٦.
(٣) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٦٦. (٤) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٤٢.
(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخه. (٦) روح المعاني / ٦ / ٣٦٦.
(٧) يوسف / ٢. (٨) طه / ١٣. (٩) الزمر / ٢٨. (١٠) فصلت / ٣.



(الخامسة) في قوله العزيز: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»[1]

(السادسة) في قوله المجيد: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»[2]

وجاء بمعنى ذلك في آيات كثيرة،

منها قوله تعالى: «وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ»[3]

وقوله سبحانه: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»[4]

وقوله تبارك اسمه: «وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا»[5].

مادام القرآن قد أرسل للناس كافة، فلماذا كان بالعربية والأمم تختلف ألسنتها؟

نزل القرآن عربيًا لأن القصد الأول فيه إثبات التحدّى لمن ينْزل فيهم الرسول -ﷺ- بلسان قومه الذين يستقبلون دعْوَته أول استقبال، وبعد ذلك حين يؤمنون به ينساحون في الدنيا ليحملوا معجزة من نوع آخر، هذه المعجزة هي تحدّى الحضارات فيما وَضَعَت مِنَ التّقنين الذي يُسيّر حركة الحياة في الإنسان، مع أنهم أمة أمّيّة لا حَظَّ لهم من معرفة ولا من ثقافة، ومع ذلك تحدّوا حضارتيْن، الحضارة الشرقية في (فارس) والحضارة الغربية في (روما) وأيضا ليَتحدُّوا بِخبَر الله تعالى، يتحدُّوا بالاسْتنْبَاءات التي جاء بها القرآن الكريم من قبل أن تحدُث في الكون ويُنْبِئُ القرآن بها، فإذا ما انتهت إليها عقول البشر في العصور المتأخرَة قلنا: إن القرآن سبق ولَمّح إليها وأشار إليها، وذلك دليل على أن الذي نَزَلَ عليه القرآن قد استقْبله من ربِّه تعالى الذي يعلم ما تكون عليه الأحداث في الكون، ذلك هو الإعجاز[6] وصدق الله العظيم القائل: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»[7].

---

(١) الشورى/٧. (٢) الزخرف/٣. (٣) النحل/١٠٣.

(٤) الشعراء/١٩٥. (٥) الرعد/٣٧.

(٦) الشيخ محمد متولي الشعراوي - تفسير سورة يوسف - شرائط مسجّلة.

(٧) فصّلت/٥٣.



- **معجزة القرآن الكريم ومعجزات الرسل السابقين:**

إن القرآن الكريم يتميز عن معجزات سائر الرسل السابقين وعن سائر كتب أحكامهم بأنه جمع المعجزة والمنهج في شيء واحد، وكان الرسل السابقون مناهجهم منْفَصِلة عن معجزاتهم، فلهم معجزة يتحدَّوْن بها ليُثْبِتوا صدق بلاغهم عن الله، ولهم كتاب منهج من الله، . . .

أما القرآن الكريم فقد جاء المنهج هو المعجزة، لأنه جاء للدُّنيا كلّها، في كل أزمنتها وفي كل أمكنتها، فلا بد أن تبقى المعجزة مع المنهج ليقول كل واحد آمن بمحمد ﷺ قبل قيام الساعة: محمد - ﷺ - رسول بمنْهَجٍ وهذا معجزته[١] فكل معجزات الأنْبياء السابقين كانت من النّوْع الذي يُحسُّ بالرؤية، وكانت حوادث تقع ولا تبقى، ولا يبقى منها إلا الإخبار بها، فلا يعرفها على اليقين إلا من عاينها، ولا يُعْلَمُ وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن الكريم، ولكن معجزة محمد - ﷺ - كانت من نوع آخر، لم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال، ويقرؤها الناس في كل عصر، ونقول: إنها مُنَاسِبَة لرسالة النبي محمد - ﷺ - لعمومها في الأجيال، ولمكانته بين الرسل، ومقامه في هذا الوجود الإنسانيّ إلى يوم القيامة، ولقد روي أنه - ﷺ - قال: «ما منْ نبي إلا أوتيَ ما مثله آمن به البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحِيَ به إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٢]

ومن هذا يتبيّن جواب ذلك السؤال، وهذا لأن رسالة النبي ﷺ خالدة لأنه خاتم النّبيّين، ولا نبيَّ بعده، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التي لا يحدّها زمان في المستقبل، بل تبقى إلى يوم القيامة، ولا تكون معجزته واقِعَةً تنقضي وتنتهي بانتهاء الزمن الذي وُجِدَت فيه، بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة، وذلك مُحَقَّقٌ في القرآن الكريم، فَهو حجّة قائمة على العرب والعجم إلى يوم الدين،

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي - تفسير سورة يوسف شرائط مسجلة.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم/ ٥٦٨١.

المسهم

وهو معجزة لكلّ الخلائق[١] من إنس أو جنّ، ولهذا تولى الله تعالى حفظه فقال جل شأنه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[٢] أي: حافظون له من الشياطين، وفي كل وقت تكفّل الله تعالى بحفظه، فلا يعتريه زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، بخلاف غيره من الكتب السابقة، فإنه تعالى لم يتكفّل بحفظها، بل قال تعالى: إن الربانيين والأحبار استحفظوها، ولذلك وقع فيها الاختلاف، وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى، إذ لو كان من قول البشر لتطرّق إليه ما تطرّق لكلام البشر[٣].

• هل في القرآن الكريم غير اللسان العربي؟

اختلف العلماء هل يمكن أن يُقَال في القرآن شيء غير عربي؟

قال بعضهم ومنهم الشافعي:

من قال فيه شيء غير عربيّ فقد أعظم على الله القوْل، واحْتجّ بهذه الآية، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً» ورُوي عن عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن فيه من غير العَرَبي، مثل (سِجّيل) و(المشكاة) و(الْيَم) و(اسْتَبْرَق) ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار، لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب، وكلام القوْليْن صواب - إن شاء الله - ووجه الجمع بَيْنَهما، أن هذه الألفاظ - غير العربية - لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة، وإن كانت غير عربية في الأصل، فإنهم لما تكلموا بها نُسبت إليهم وصارت لهم لغة، فظهر بهذا البيان صحّةُ القولين وأمكن الجمْع بنهما[٤] وقد احتج المستشرقون بما جاء في القرآن الكريم (أنه عربيٌّ) مع أن فيه ألفاظاً من المؤكّد أنها غير عربية، منها الْفَارسي، والرومي، والحبشي، حتى (آمين) حبشية، والمستشرقون يظنون أن كلمة (عربي) يعني كل عربي نطق بها من أوّل ما نشأت لغة العرب، ونقول لهم: لا، لأن العربيّ استقبل ألفاظا باختلاطه بالأمم، ثم دارت هذه الألفاظ على لسانه، فأصبح حين يتكلم بها يفهمها العربي، فصارت عربية،

(١) القرآن الكريم المعجزة الكبرى/ ١٠-١١.
(٢) الحجْر/ ٩ (٣) تفسير البحر/ ٥/ ٤٣٥.
(٤) الفتوحات الإلهية/ ٢/ ٤٣٢، وانظر تفسير فتح البيان/ ٦/ ٢٨٥.



ولذلك فنحن الآن حينما يجدّ شيء، نأتي باللفظ ونترجمه ونُعرّبُه وندخله في لغتنا، وبعد ما يدور على ألسنتنا ونتفاهم به يصير عربيا(١)...

وهكذا نزل القرآن الكريم باللغة العربية أشرف اللغات، على أشرف الرسل محمد ﷺ، بسفارة أشرف الملائمة جبريل - عليه السلام - وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض مكة المكرمة، وابتدى إنزاله في أشرف شهور السنة رمضان، وفي أشرف الليالي على الإطلاق ليلة القدر، فكمل بذلك من كل الوجوه(٢)...

ثم علّل إنزاله كذلك بقوله:

«لعلكم تعقلون»(٣)

فهذه الجملة قد أفصحت عن التعليل المقصود، أي: رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه، لأنكم عرب، فنزوله بلغتكم مشتملا على ما فيه نفعكم هو سبب لعقلكم ما يحتوي عليه،

وعبّر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حدّ أن يُنزّل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء، وحذف مفعول «تعقلون» للإشارة إلى أن إنزاله كذلك باللسان العربي هو سبب لحصول تعقلٍ لأشياء كثيرة من العلوم من إعجازه وغيره(٤).

ومنها: لكي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممّن لم يتعلق القصص، معجزة لا يُتَصوّر إلا بالايحاء(٥) وتحيطوا بما فيه من البدائع، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارج عن طوْق البشر مشتمل على ما يشهد له أنه منزّل من عند الله تعالى(٦).

ومنها: لكي تعلموا معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من مطالب الروح ومدارك

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي/ تفسير سورة يوسف/ شرائط مسجلة.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٦٦. (٣) نظم الدرر/ ٤/ ٥.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٢. (٥) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٧٥.

(٦) روح المعاني/ ٦/ ٣٦٧.



العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحسّ، وإصلاح الاجتماع العام المراد به صلاح الحال وسعادة المآل[1].

ومنها: استنهاض همة العقل ليتفكر في الأمر، والمنْصف بالحق يهمّه أن يستقبل الناس بالعقل، إنما المدلّس يهمّه أن يستر العقل جانبا ليَنْفَذَ بمراده من وراء العقل، فالذي يقدّم لك شيئاً يثق في جودته يقول لك: فتّش فيه وفكّر بعقلك، أما الذي يقدم لك شيئاً غير جيّد، فإنه يبذل جهده ليبعدك عن التروّي والتعقّل في النظر إليه حتى لا تكشف النقص الذي يخفيه عنك[2].

• **إنزال القرآن الكريم باللسان العربي تشريف عظيم للعَرَب وللعربية:**

ممّا لاشك فيه أن إنزال القرآن الكريم باللغة العربية تشريف لها لا يُدَانيه تشريف، تشريف لا يقدّره حق قدره إلا العالمون، وهو في نفس الوقت تشريف للأمة العربية التي اختارها الله سبحانه وتعالى من بين أمم الأرض قاطبة لتكون حاملة لكتابه العظيم، وتابعةً نبيه الخاتم ﷺ، وحاملة رسالة الإسلام إلى العالَمين، وما كان لِلْعرب شأن يذكر قبل نزول القرآن وبعثة خير الأنام ﷺ، بل كانوا مجرّد قبائل متفرّقة متناحِرَة لا وزن لهم ولا ثِقَل، ولا يحسب لهم على مستوى أمم الأرض حساب، وما أن حَمَلت الأمة العربية كتاب ربها يقودها خير الخلق وأعظم الرسل ﷺ، ومن بعده الخلفاء الرّاشدون والأمراء المصلحون، حتى تفتَّحَتْ لهم أبواب المشارق والمغارب، ودانت لهم شعوب الأرض، فصار العرب بهذا القرآن أشرف الأمم وأعز الشعوب، ولكنهم لما أعرضوا عن قيادة القرآن واتباع سنة نبيّهم ﷺ صاروا نهْبا لأذل الأمم وأقذر الشعوب جزاء تخلُّفهم عن مهماتهم العظمى في العالمين، فلَعَلَّهم يفقهون من جديد كتاب ربهم ويتخذونه إماما لهم مقتدين بسنة نبيهم الذي أنزل الله عليه في القرآن العظيم. ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[3] فتعود إليهم عزتهم ويرجع إليهم شرفهم ويمتلكون قيادة الدنيا كما كانوا من قبل وما ذلك على الله بعزيز.

---

(1) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥١-٢٥٢.

(2) الشيخ محمد متولي الشعراوي / تفسير سورة يوسف/ شرائط مسجلة.

(3) الأنبياء/ ١٠.



• **لماذا جاء في الآية الأولى «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» - لفظ (كتاب) وجاء في تلك الآية لفظ (قرآن)؟**

فـ«كتاب» يعني مسْطور، و«قرآن» يعني مقروء، والإجابة، هذا من ضمن إعجازات التّسْميَة، لأن هناك وسيلتان لتناول القرآن الكريم، وسيلة في السطور، نَقْرَؤه، ووسيلة في الصدور نحفظه ونُردّدُه(١)

• **لماذا جاء قوله تعالى هنا «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» وجاء في سورة (الزُّخْرُف) «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُم تَعْقِلُونَ»؟**

والجواب عنه، والله أعلم، أن آية سورة (يوسف) لما كانت توطئة لذكر قصصه، عليه السلام – ولم تتضَمَّن السورة غير ذلك إلا ما أعْقبت به في آخرها مما يُعرَف بعَجيب ما تَضَمَّنتْه مما كان غيْباً عند قُرَيش والعرب، مستوفياً ما كان أهل الكتاب يظنون أنَّهم انفردوا بعلمه، فأنزل الله هذه السورة موفيةً من ذلك أتَّمه، ومعرّفةً من قصصه العجيب، ومُؤدِّيةً أكمَلهُ وأعَمَّه، ولا أنسب عبارة هنا من قوله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» ليعلم العرب وأهل الكتاب أن ذلك منزل من عند الله لموافقته ما عند أهل الكتاب، ولقطع العرب والجميع أن نبينا محمدا ﷺ لم يتلَّقَّ ذلك القصص من أحد من العرب إذ لم يكن عندهم منه نبأ، ولاَ رَحل في تعرُّفه إلى أحد، فكان قصَصاً وآيَةً مُعْلماً بصِحَّة رسالته ﷺ، وعظيم تلك العنَاية، فالتّعبير بالإنزال هنا (بيِّن)،

وأما آية الزخرف فَلَمْ تُبْنَ على أخْبار، بل أُعْقبَت بآي الاعتبار وَالتَّلطُّف في التّنْبيهِ والتّذْكار، قال تعالى: «أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ»(٢) وهذا أعظم التلطُّف، وقال تعالى بعد: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»(٢) ثم مضت أكثر آي السورة على نحو هذا الاعتبار وما يناسبه، . . .

---

(١) مقتبس من كلام طويل للشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره لسورة يوسف – شرائط مسجلة.

(٢) الزخرف / ٥.



وقد ذكر سيبويه - رحمه الله - في أقسام (جعل) كونها بمعنى صَيَّرَ ملحقا لها بظننت وأخواتها، ومنه قولهم: جعل الطّين خَزَفاً، وذلك انتقال وتصْيير، فالمراد بالآية جَعْلُ الكتاب معتبراً هدى ونوراً، وَالُمنَبَّهُونَ به وَالمعْتبرون بآياته المخاطبون به مخلوقون تَقَدّمهم العدم، وإنما صَحَّ خطابهم به مشاهدة بعد وجودهم، فصح انْتِقَالُ حالهم التّصْيير، وجَلَّ عن التغْييرَ والحدوث كلام الحكيم الخبير، فكلامه سبحانه قديم ليس بمخلوق فَيَبيد، ولا صفة لمخلوق فينْفد، فقد وضح معنى الجَعْل هنا - الزخرف - ومسوغه، وأنه لا يُناسِب هُنا غير ذلك، ولا يناسب الآية الأخْرى - يوسف - غير (أنزل) فجاء كلٌّ على ما يجب، والله أعلم(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن الكريم باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها، وكل هذا الإيضاح والتبيين لعلكم تعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه، فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثْمَر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، وتزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فَتُنْقَلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل(٢).

---

(١) ملاك التأويل / ٢ / ٦٧٤-٦٧٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤١٣، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٧

رفع المسامير

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - بيان الحكمة في إنزال القرآن الكريم باللسان العربي المبين، وهي أن يعقله العرب المخاطبون به، ويفهموا أسراره ومعانيه ويؤمنوا به ويصدقوه، ويسيحوا به في أرض الله تعالى هداة للخلق أجمعين.

٢ - للسان العربي الذي أنزل الله تعالى به كتابه المبين حق كبير علينا، فيجب أن نحافظ عليه وأن نصونه من أي شائبة، وأن نحييه بيننا في كل مجالات الحياة.

٣ - إن هذا اللسان العربي ليس مجرد لغة فحسب، وإنما هو دين لنا وحضارة ووجود واستمرار، ويجب علينا أن نعلمه أولادنا منذ الصغر ليحيا معهم طول العمر.

٤ - إن هذا اللسان العربي هو الذي يربط بين العرب وبين المسلمين من غير العرب.

٥ - إن هذا اللسان العربي صورة صادقة لنظام الحياة في الإسلام.

٦ - إن أعداء الإسلام حاولوا وما زالوا يحاولون أن يُحِلّوا اللهجات العامية في الأقطار العربية محل اللسان العربي، فلابد من مواجهتهم بكل حزم وقوة.

٧ - على الأمة العربية والإسلامية مواصلة الجهود المكثفة لتعريب المواد المكتوبة بغير العربية ليتلقاها أبناء الإسلام بالعربية، إضافة إلى تعلمهم لغات الأمم لمعرفة أحوالهم ونشر الإسلام بينهم.



« الآية الثالثة »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«نَحْنُ» نحن عبارة عن المتكلم إذا أخبر عن نفسه مع غيره، وما ورد في الإخبار الكريم من إخبار الله تعالى عن نفسه كقوله: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» فقد قيل: هو إخبار عن نفسه وحده لكن يُخرّج ذلك مخْرج الإخبار الملوكي(١)

«نَقُصُّ» يقال: قَصّ عليه الخبر: أعلمه إياه، واقتصّ الحديث: رواه على وجهه، وأصله من قولهم: قَصّ الأثَرَ قَصّاً وقَصَصاً: تتبّعه(٢)

«أوْحَيْنَا»

الوحي: إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده بما يريد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرّيّة خفيّة وغير معتادة للبشر.

«الْغَافِلِيْن»

الغفلة: انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم، والغفلة: سهْو يعتري الإنسان من قلة التحفّظ والتيقّظ، يقال: غفل فهو غافل(٣).

رابعاً - الإعراب:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(٣)»

---

(١) المفردات/ كتاب النون/ ٤٨٥. (٢) صفوة البيان لمعاني القرآن/ ٣٠٢.

(٣) المفردات/ كتاب الغين/ ٣٦٢.



«نَحْنُ» مبتدأ، وجملة (نقص عليك) في موضع الخبر، والفاعل مُسْتَتِر تقديره (نحن) و(عليك) متعلقان بـ(نقص) و(أحسن) مفعول به إذا كان القصص مصدرا بمعنى المفعول، ومفعول مطلق إذا كان القصص مصدرا غير مرادٍ به المفعول، و(القصص) مضافٌ إليه، و(الباء) للسَّبَبِيَّة، و(ما) مصدرية، وهي مع ما في حَيِّزها مجرورة بالباء، والجار والمجرور متعلقان بـ(نقص) أيضاً، أي: بسبب إيحائنا، و(إليك) متعلقان بـ(أوحينا)، و(هذا) مفعول به، و(القرآن) بدل من اسم الإشارة، أوْ نَعْتٌ له، أو عَطْف بيان، «وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (الواو) للحال، و(إن) مخفَّفة من الثقيلة، وكان واسمها، و(من قبله) حال، و(اللام) الفارقة، و(من الغافلين) خبر (كُنْتَ)[1].

البلاغة:

براعة التَخلُص:

قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» فإنه سبحانه وتعالى وطّأ بهذا الفصل إلى ما يأتي بعده من سرْد قصة يوسف - عليه السلام - فتخلّص به إلى ذكر القصّة تخلُّصاً بارعا[2].

قال الإمام الزركشي: واعلم أنه حيث قصد التخلُّص فلابد من التوطئة له، ومن بديعه قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» يشير إلى قصة يوسف - عليه السلام - توطئة بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكْتَة من باب الوحْي والرمز[3].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٤٩، وانظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٣-٢٤، وإعراب القرآن (النحاس) ٢ / ٣٠١.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤٥٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن (الزركشي) ١ / ٧٢



سادساً - التفسير والبيان

القصص القرآني أحسن القصص على الإطلاق.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾

وجه المناسبة:

ولما بين أنه يقص عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده - أواخر سورة هود[١]، قال مثبتا ومعلّلا بأنه الكتاب بعلة أخرى مشاهدة هي أخص من الأول:

«**نَحْنُ نقصُّ عليْكَ...**»[٢]

وهذه الجملة تتنزّل من جملة «إِنّا أنزَلْناهُ قُرآناً عَربِياً» منزلة بدل الاشتمال، لأن أحسن القصص مما يشتمل عليه إنزال القرآن، وكون القصص من عند الله يتنزّل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله، وافتتاح الجملة بضمير العظمة «نحن» للتّنويه بالخبر، كما يقول كتّاب الديوان: أمير المؤمنين يأمر بكذا، وتقديم الضمير على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص، أي: نحن نقص لا غيرنا، ردّاً على من يطعن من المشركين في القرآن بقولهم: «إِنّمَا يَعْلمهُ بشر»[٣] وقولهم: «أسَاطِيْرُ الأوَّلِيْن اكتَتَبهَا»[٤] وقولهم: يُعَلّمه رجل من أهل اليمامة اسمه الرحمن، وفي هذا الاختصاص توافق بين جملة البدل والجملة المبدل منها في تأكيد كون القرآن من عند الله المفاد بقوله: «إِنّا أنْزَلْناه»[٥]، وتعدّى (نَقُصَّ) بـ(على) لأنه بمعنى العرْض وهو يتعدى بـ(على).

● التزام الأدب مع الذات الأقدس:

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن فِعْلٍ يأتي بضمير الجمع، لأن كل فِعْلٍ يتطلب وجود صفاتٍ متعدّدة، يتطلّبُ علْما، يتطلّب حكمة، يتطلب قدرة، فحين يقول الله تعالى (نحن) فذلك عنْد تعدّد الصِّفات التي تقوم بكل مطلُوب ومقدَّر، لكن إن

---

(١) هود/ ١٢٠ (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٥. (٣) النحل/ ١٠٣.

(٤) الفرقان/ ٥. (٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٢-٢٠٣



تكَلَّم الحقُّ تعالى عن الذَّات لا بُدّ أن يُوَحِّد، كما قال تعالى: «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي»(١).

فإذا وجد فِعْلٌ لله تعالى من أوصاف الذات الأقدس اسم من أسمائه الحسنى، فَأطْلِقِ الاسم كما أطلقه الله تعالى، فإن قال: «نَحْنُ نَقُصُّ»، تقول: (الله يقُصُّ) واحْذرْ أن تقول: (الله قاص)، وإن قال: (الرَّحْمن. عَلَّمَ القُرْآن) تقول: (الله عَلَّمَ) واحذرْ أن تقول: «الله مُعَلِّم) وإن قال: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللّهُ يُفْتِيكُم» تقول: (اللّه يُفْتِيكُم» واحذرْ أن تقول: (اللّهُ مُفْتٍ) فيجب الاقتصار على الفعل في كل ما يتعلّقُ به جَلَّ شأنه ذَاتاً وَصفاتٍ وأفْعَالاً، لأننا لا نعرف من ذلك إلا ما أخبرنا الله عنه، لكن إذا كان الفعل له صِفَة من صفاته التي عَلَّمَنا في أسمائه الحسنى، (الله خَلَق) فيكون منه (خالق)، (الله وهب) فيكون منه (واهب)، اللهُ (أعزَّ) فمنه (مُعِزّ)، الله (أذَلّ)، فمنه (مُذِلٌ)، وإذا جاء الحق بفِعْل في مقابل فِعْل، فلا بد أن تأتي بالمقابل مع الفعْل، كما قال تعالى: «وَيَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ الله»(٢) وكما قال: «يُخَادِعُونَ اللّهَ وهوَ خَادِعُهُم»(٣) فلا بد من الالتزام بالأدب مع الذات الأقْدَس، فالذي أطلقه اسْماً نطلِقُهُ اسماً، والذي أطلقه صِفَةً نطلقه صفة، والذي أطلقه فعْلاً نُطْلِقُه فعْلاً(٤).

هذا، وفي افتتاح الآية الكريمة كذلك بقوله عزو جلّ (نحن) استِدْعاء للرسول - ﷺ - ومداناةً له من ربه عزّو جلّ، وتكريم لذاته - صلوات الله وسلامه عليه - لهذا الحديث الذي تلقّاه من ربه سبحانه بغير واسطة «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ»، وهذا على خلاف النظم القرآني هكذا (اللّه يَقُصُّ عَلَيْكَ) فإن هذا يُشْعِرُ بأنّ مخْبِراً ما قد جاء الرسول ﷺ بهذا الذي يقُصُّه عليه من ربه عزّو جلّ، أما (نحن نقصُّ عليك) فإن الله تعالى هو الذي يقُصُّ على النبي - ﷺ - وشتّان ما بين الحالين(٥)، واشتقاق القصص من قصَّ أثره

(١) طه/ ١٤. (٢) الأنفال/ ٣٠. (٣) النساء/ ١٤٢.

(٤) مستفاد من كلام الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره لسورة يوسف - شرائط مسجلة.

(٥) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٤٠٥.



إذا اتبعه، لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئاً، كما يقال: تَلاَ القرآن إذا قرأه لأنه يَتْلُو: أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية[1] وَقَصُّ الأخْبار: تتبُّعها والكشف عَنْهَا وعرْضها، يعني أن القوْل يتْبَعُ ما حدَث بالفعل، كما يقصُّ الإنسان أثر الإنسان، قال الله تعالى: «فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا »[2] فالكلام الذي يتحدّث عن القصة يتْبَعُ القصَّة بلا تَزَيُّد أو نقْص، فالقصّة تظلُّ للعِبْرَة، وهذا على خلاف ما يحدث في القصص البشريّ الفَنِّيّ الحديث، حيث تزداد أحداث أو لقطات، أو تحذف بعض المواقف من القصّةِ من أجل الحبْكة أو الإثارة والتشويق.

قوله تعالى: «أَحْسَنَ الْقَصَصِ»

جعل بعض المفسّرين (القصص) هنا، مصدراً بمعنى المفعول، وجعل (أحسن القصص) مفعولاً به لـ(نقُصُّ) فالمعنى: نحن نقص عليك أحسن الأنباء والْقِصَصِ -بكسْر القاف- من حيث الأسلوب والعرْض والبيان وما يؤخذ منه من العبر والعظات، وهو قصة يوسف - عليه السلام -، ولكنَّ الحكم على قصة سيدنا يوسف بأنها أحسن من كل القصص القرآني لم يَقُم عليه دليل، لأن قَصَص القرآن كلها في منتهى الحسن من حيث الصياغة والأسلوب والعبر والعظات،

وجعل بعضهم القصص مصدراً مؤكداً لِنَقُصّ بمعنى البيان والعرْض، فيكون مفعولا مطلقا لنقصّ، والمفعول به محذوف هو قصة يوسف - عليه السلام - وهذا كما لا يخفى لا يتلاءم إلا مع رواية أن سبب نزول هذه السورة هو السؤال عن سيدنا يوسف وما جرى عليه، لأنه على الروايات الأخرى يبقى حذف المفعول بدون قرينة، والحذف بدون قرينة لا يجوز، فالذي يرتاح له البال هو أن (القصص) مفعول مطلق، والمفعول به محذوف، وهو أمر عام يفهم من كلمة (نقصُّ) فالتقدير، نحن نقُصُّ، أي: نبيّن لك أخبار الأمم والأنبياء السابقن أحسن البيان والعرض، من حيث الأسلوب والعرض

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠١. (٢) الكهف/ ٦٤.



والموافقة للواقع والحقيقة، فيفيد أن القصص الواردة في القرآن كلها أحسن بيانا وعرضاً ممّا في غير القرآن، ككُتب التاريخ وما كتبه أهل الكتاب، أوْ وَجَدوه في التوراة وغيرها من الكتب السَّماوية، فإن بيان القرآن أحْسن منها وإن كانت غير مُحَرَّفَة، لأن أسلوب القرآن معجز، وغيره من الكتب لَيْس فيه إعجاز[1] فالتفضيل في قوله تعالى (أحسن القصص) على حقيقته، وهذا التفْضيل لا يقع بيْن قصص القرآن الكريم، فالقرآن كله على مستوى واحد من الكمال المطلق الذي ليْس بعده كمال، سواء في ذلك قصصه وآدابه وأحكامه، وإنما المفاضلة هنا بين قصص القرآن وغيره من القصص، وهذا يعني أنه إذا كان القصص القرآني هو الغاية في الحسْن والكمال، فإن ذلك لا يمنع أن يكون في القصص غير القرآني ما هو حسنٌ يُتأدّب به، ويؤخذ منه العبرة والعظة، وليس ذلك بالذي يزْحم القصص القرآني في منزلته العالية التي انفرد بها فكان أحْسَنَ الحْسَن[2] فقصص القرآن الكريم أحسن من قصص غيره من جهة نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يَتضمَّنه من العِبَرِ والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصّه القاصّ في غير القرآن، وليس المرادُ أحسن قصص القرآن حتى تكون قصة يوسف - عليه السلام - أحْسَنَ من بقيّة قصص القرآن، كما دل عليه قوله: «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»[3].

هذا، ومن الأسباب التي تجعل القصص القرآني أحسن القصص، أن غيره من القصص، إما واقعي، وإما خيالي، فإن كان خياليا فإنه لا يصلح أن يكون هادياً ولا موجّها، ولا يصلح أن يكون ميزانا يوضع فيه كل شيء في محله من عواطف وَعَقْلانيّات، وغير ذلك، وإن كان واقِعيّاً، فقد يغيب بعضُه أو يزاد عليه، أو لا يكون مُغَطّياً للموضوع بما يشمل الزمان والمكان، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، أما

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢١، وانظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٠، والفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٢٣، والدر المصون/ ٦/ ٤٣٠.

(٢) القصص القرآني منطوقة ومفهومة/ ٤٠٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٣-٢٠٤.



القصة القرآنيَّة، فنجدها قد استكملت ما لم يستكمل في غيرها، هذا مع كونها جاءت بأبلغ عبارة وأعظم أسلوب وأوجز عرْض، هذا مع أنك تجد في كل آية من المعاني والتوجيهات والهداية ما لا يحيط به إلا الله الذي أنزله(١).

الحكمة من سرْد بعض الوقائع التاريخية في القرآن الكريم:

ليس في القرآن الكريم شيءٌ من التّاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقَصَص، وإنَّما هي الآيات والعِبَرُ تجلَّت في سياق الوقائع، ولذلك لم تُذْكر قصَّة بترتيبها وتفاصيلها في القرآن سوى قصة يوسف، فإنها نزلَتْ مرَّة واحدة مرتَّبَةً مفصَّلة(٢) فنحن لا نجد في أخبار الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - سرداً متّصلا لسيرة أيّ منهم كاملة، ولا نجد تفاصيل مِمّا يُعْرَض في حياة الإنسان عادة، وهذا ما نجده في التوراة مثلاً - وهو مِمّا أُلحق بها بعد موسى - عليه السلام - بقرون - وإنما نجد في القصص القرآنيّ مضمون رسالاتهم وجوهرها وبعض المواقف والظروف والأحداث الكبيرة في حياتهم وفي أداء رسالتهم، وذلك لكي يعلمها قارئ القرآن وحْياً حقيقياً ويستخلص منها الآراء والعظة والاعتبار، فالقرآن لا يقص لمجرَّد التاريخ، لأنه لا يريد أن يُثْقِل على القارئ بتفاصيل تُشوِّشُ حول الحقائق الأساسية، وكل كلامه بأسلوب موجز ومحكم، ويمكن الاجتهاد في ترتيب الوقائع والأحداث كما فعل بعض المفسّرين، لكن ليس الأمر في الحقيقة دائما مسألة أحداث، بل تقرير عقائد وذكر حقائق وآراء ومَسَائل مستقلة في ذاتها عن الزمان والمكان(٣).

عن قتادة في قوله: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» قال: أي: من الكتب الماضية، وأمور الله السّابقة في الأمم(٤).

قوله تعالى: «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»

الباء للسّببية متعلقة بـ«نقص» أي: نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب إيحائنا

---

(١) الأساس في التفسير (سعيد حوى)/ ٥. (٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ١١٩.
(٣) قاموس القرآن الكريم/ ١٥٦. (٤) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٠.



إليك، ولما كان إنزال القرآن مجمع الخيرات، عيّن المراد باسم الإشارة واسم العَلم فقال:

«هذا القرآن» الذي قالوا فيه إنه مفترى، فنحن نتابع فيه القصص قصة بعد قصة، والحُكْمَ حِكْمَةً في أثر حِكْمَه، حتى لا يشك شاك، ولا يمتري ممتر في أنه من عندنا وبإذننا، ويكون أمره في البعد من اللَّبْس أظهر من الشمس[1] وجاء اسم الإشارة قبل اسم العلم لزيادة التمييز، فقد تكرر ذكر القرآن بالتصريح والإضمار واسم الإشارة ست مرات، وجمع له طرق التعريف كلها، وهي اللام، والإضمار، والعلمية، والإشارة، والإضافة[2].

معنى الوحي:

يرتبط لفظ الوحي في اللغة بمعاني الإشارة، والإلهام، والكلام الخفيّ، والإعلام السريع الخاص بمن يُوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره، وقد لوحظ في المعنى الشرعي للوحي من المعنى اللغوي ما يدل عليه من خفاء وسرعة، ولذا قيل في تعريفه: الوحي إعلام الله تعالى من اصطفاه من عبادة بما يريد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرّيّة خفيّة وغير معتادة للبشر. وبهذا يتبين أن معنى الوحي في الشرع أخص من معناه في اللغة، من جهة مصدره وهو الله تعالى، ومن جهة الموحَى إليهم وهم الرسل - عليهم السلام -.

صُوَرُ الوَحْي:

قد يقع الوحي إلى الرسول بواسطة أو بغير واسطة،

أما النوع الأول - بواسطة -، فيكون بواسطة جبريل - عليه السلام - وهو أشهر النّوعين، وبه تَمَّ وحيُ القرآن الكريم كله، قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»[1] وقد أخذ هذا النوع من الوَحْي أربع صور،

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٦ (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٤. (١) الشعراء/ ١٩٢-١٩٥.



الأولى، مجئ جبريل - عليه السلام - إلى الرسول - ﷺ - في صورته الحقيقية، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ»(١) وقوله جل شأنه: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»(٢).

الثانية: مجئ جبريل - عليه السلام - إلى الرسول - ﷺ - في صورة رجل فيخاطبُه حتى يَعِي عنه ما يقول، وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يرونْه أحيانا عندما يأتي في هذه الكيفيّة، ويسمعون منه ما يقول للرسول - ﷺ - ويفهمونه، كما في حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: بينما نحن جلوس عند رسول ﷺ «ذات يوم إذ طَلَعَ علينْا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعْر، لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد... الحديث».

وكان هذا الرجل هو جبريل - عليه السلام - الذي سأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وعن السّاعة، ولما انصرف قال الرسول ﷺ -: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلِّمكم أمر دينكم»(٣).

الثالثة: أنْ يَهْبط جبريل - عليه السلام - على الرسول ﷺ - خفية فلا يراه أحد، ولكن يظهر على الرسول ﷺ - أثر ذلك من التغيير كثقل جسمه ﷺ - وتصَبُّب العرق منه، كما قد يصحبْه صوْت يسمعه الرسول ﷺ - دون غيره ممَّن حضره، كصلصلة الجَرَس، أوْدَوِيِّ النَّحل. وهو أشدّ صور الوحي على نفس الرسول ﷺ.

الرابعة: أن يُلقى جبريل في رَوْع النبي ﷺ وقلبِه الكلام المراد الإيحاء به.

وأما النوع الثاني: وهو الوحْي بغير واسِطة - فقد أخذ ثلاث صورهي:

الأولى الرؤيا الصادقة وقد كانت هي مبدأ الوحْي إلى الرسول - ﷺ - فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: الإلهام الذي يقذفه الله تعالى في قلب المصطفى على وجْه من العلم الضَّرُوري الذي لا يستطيع له دفعا، ولا يجد فيه شكاً،

---

(١) التكوير/ ٢٣. (٢) النجم/ ١٣.

(٣) رواه مسلم برقم (٨) وأخرجه الترمذي (٢٦١٣) وأبو داود (٤٦٩٥) والنسائي (٨/ ٩٧).



الثالثة: تكليم الله رسله وراء حجاب وبغير واسطة(١) وقد حدث هذا لموسى - عليه السلام - في الطور -بسيناء- وللرسول -ﷺ- ليلة الإسراء والمعراج، قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»(٢).

أصناف الخلق الذين توجَّه الوحي إليهم:

باستقراء القرآن الكريم نجدُ أن الله تعالى قد أوحي إلى أصناف من خلقه وهم:

١ - الملائكة، قال الله تعالى: « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ »(٣)

٢ - الرسل، قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ»(٤).

٣ - الصَّفوَة من أتباع الرسل - عليهم السلام - قال الله تعالى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي»(٥).

٤ - بعض المصطفين من خلْقه: قال الله تعالى في شأن مريم - عليها السلام - «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا»(٦) والمراد به جبريل أمين الوحْي - عليه السلام - وقال جلَّ شأنه في حقّ أم موسى - عليهما السلام - «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ»(٧).

كما أوحي الله تعالى إلى النّحل، قال الله تعالى: « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ»(٨) وأوحي الله تعالى إلى الأرض، قال تعالى: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا»(٩).

الفرق بين الوحْي والإلهام:

وحْيُ الله تعالى إلى أنبيائه هو ما يُلْقيه إليهم من العلم الضروري، الذي يُخْفيه عن

---

(١) قاموس القرآن الكريم/ ٣٣-٣٤. (٢) الشورى/ ٥١. (٣) الأنفال/ ١٢.
(٤) الأنبياء/ ٢٥. (٥) المائدة/ ١١١. (٦) مريم/ ١٧.
(٧) القصص/ ٧. (٨) النحل/ ٦٨. (٩) الزلزلة/ ٤-٥.

رفع المسابهمم

غيرهم بعد أن يكون أعدَّ أرواحهم لتلقّيه بواسطةٍ كالْمَلَك، أو بغير واسطة، كما سبق،

وأما الإلهام: فهو وُجدانٌ تستيْقِنُه النّفْس وتَنْساق إلى ما يَطلُب على غير شُعُور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

ولما كانوا مع معرفتهم به ﷺ - عارفين بأنه كان مباعداً للعلم والعلماء، وكان فِعْلهم في التكذيب فعل من ينكر ذلك قال: «وإن كنت من قبله لمن الغافلين»(١).

«وإن كنت من قبله» أي: قبْل إيحائنا إليك ذلك (لمن الغافلين) عنه، لمْ يخطر ببالك ولم يقْرَع سمعك، وهذا تعليل لكوْنه مُوحَى، كما ذكره بعض المحقّقين، والأكثر في مثله ترك الواو، والتّعبير عن عدم العلم بـ(الغفلة) لإجْلاَل شأن النبي-ﷺ- وكذا العدول عن (لَغَافِلاً) إلى ما في النَّظْم الجميل عند بعض(٢) والغافل لا يُتَّهَم، لأن المسألة هذه ليست في باله، لا يعلمها، لا جهلا ولا تصوّراً، فَغفْلَةُ النبي ﷺ لَيْسَتْ عَيْباً يُذَمُّ به، لأن الغَفْلَةَ المذمومة هي حينما يبْلُغُ الإنسان شيئا ويَعْلَمُه ثم يغفَل عنه، وهذه لا يُعْذَر فيها الإنسان، أما إذا كان الإنسان غافلا عن شيءٍ لمْ يبلُغه ولَمْ يُعَلَّمْهُ فهو معذور في ذلك، لأنه لا علم له بما لم يعلَم أو تُعُلِّم، فقول الله تعالى: «وَإِنْ كُنْتَ مِنَ قَبْلِه لَمِنَ الغَافِلِيْن» لا يقصد منه الذمُّ ولا العتاب ولكن يقصد بيان الواقع الذي كان عليه الرسول ﷺ قبل نزول الوحْي عليه(٣) وفي قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتَ مِنَ قَبْلِه لَمِنَ الغَافِلِيْن» رَدٌّ على أولئك السُّفَهَاءِ من المشركين الذين حين أعْيَاهم القَوْلُ في القرآن الكريم وأعْجَزَهُم النّيْل منه قالوا إنْ هذَا إلاّ أساطيرُ الأوّلين، كما يقول سبحانه وتعالى على لسانهم: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»(٤) وأن هذا القصص الذي يقصه النبي ﷺ على الناس إنما هو من عند الله تعالى، وأن النبي ﷺ لم يكن قبل أن يصطفيه الله تعالى لرسالته مُلْتَفِتاً إلى شيءٍ من هذا، أوْ طَالِباً له،

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٧. (٢) روح المعاني/ ٦/ ٣٦٩.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي/ تفسير سورة يوسف/ شرائط مسجلة.

(٤) الفرقان/ ٥.



بل كان غافلا عن هذا الأمر كله، وأنه لم يتوقَّعْ أن يكون رسول الله إلى الناس حتى فَجَأهُ وَحْيُ السماء على رأس الأربعين من عمره(١).

هذا، ونُكتَة جَعْلِهِ (من الغافلين) دون أن يوصف ﷺ وحده بالغفلة، للإشارة إلى تَفْضيله بالقرآن على كل من لم يَنْتَفع بالقرآن، فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم، وهذه الآية الكريمة «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ... الآية» يُشير بها تعالى إلى قصة يوسف - عليه السلام - توطئة بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحْي والرمز، وهذا من براعة التخلّص والتّوْطئة له(٢) وقد أكَّدَت الآية الكريمة أنّ القرآن الكريم ليس من عند محمد ولا من عند بَشر وإنما هو من عند الله تعالى وحده(٣) فالقرآن صريح في أنه لا صنْعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من خلْقه، وإنما هو منَزَّلٌ من عند الله تعالى بلفظه ومعناه.

مسألة: ربما قيل في قوله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم -

«وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» كيف يقول ذلك ولم يكن موصوفاً بذلك؟

وجوابنا أن المراد؛ من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها، وإلاّ فمعلوم من حاله ﷺ التَّيَقُّظ لكل ما يتعلّقُ بالدين(٤).

المضمون العام للآية الكريمة:

يقول الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: نحن نقص عليك يا محمد - ﷺ - أحسن القصص، وذلك لصدقه، وسلامة عبارته، ورونق معانيه، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة، والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية، وقد كنت من قبل ذلك في زمرة الغافلين عنه من قومك الأمّيّين، الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم(٥).

---

(١) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٤٠٦.
(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ١/ ٤٥٢، والبرهان في علوم القرآن (الزركشي)/ ١/ ٧٢.
(٣) انظر في هذا المعنى بتوسع قاموس القرآن الكريم (المدْخل)/ ٣٤-٣٦.
(٤) تنزيه القرآن عن المطاعن/ ١٨٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٠، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٢، وتفسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤١٤.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تكريم الله تعالى لرسول محمد - ﷺ - وتشريفه له بالرسالة والإيحاء إليه.

٢ - القصص القرآني الكريم فائق الحسن عن كل قصص سواه، ولو كان في الكتب السالفة التي أنزلها الله تعالى على رسله.

٣ - القصص القرآني معجز في كل ما اشتمل عليه.

٤ - الحث على الاهتمام بالقصص القرآني والقصص المحمدي وسيرة الإسلام العظيم.

٥ - التحذير الشديد من القصص الخيالي والشيطاني المدمر لعقول الشباب المسلم.

٦ - القصص القرآني جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام.

٧ - القصص القرآني من أهم أساليب الدعوة إلى الله تعالى.

«فائدة»

موقع الآيات الثلاث الأولى من السورة الكريمة،

هو موقع «المقدمة الأولى للقصة»

إن من يدقِّق في سورة يوسف - عليه السلام - التي تعد مائة وإحدى عشرة آية، يجد أن الآيات الثلاث الأولى هي بمثابة مقدمة للشيء المقْصود الذي انعقدت له السورة(١) فهي بمثابة المقدمة الأولى للقصة، وقد اشتملت على صفة القرآن الكريم وكونه تَنْزِيلا من الله تعالى دَالاً على رسالة من أنْزِل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه، وكون النبي - ﷺ - كان من قبله غافلا عما جاءه فيه لا يدري منه شيئاً، ونتيجة هاتيْن القَضِيَّتَيْنِ تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ»(٢)(٣).

وهذا هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصّة، والمتناسِقُ مع التعقيب عليها في نهايتها كما جاء في الآية السابقة(٤).

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٧٧. (٢) يوسف/ ١٠٢.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٧. (٤) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٤٩.



رفع
المسهم

«الفصل الثاني»

(من الباب الأول)

المقدّمة الثانية للقصة

رؤيا يوسف - عليه السلام - وتأويلها

من الآية رقم (٤)

إلى الآية رقم (٦)



آيات الفصل الثاني

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾



«الآية الرابعة»

أولاً - النّصُّ القرآني الكريم:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله (يَاأبَتَ) بفتح التاء في كل القرآن، قرأها ابن عامر وحْدَه[١]،

والوجه أنَّ أصله يَا أبَتَا بألفٍ هي بدلٌ عن ياء الإضافة، فحذفت الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة تدل على الألف، كما تبقى الكسرة تدلُّ على الياء عند حذف الياء،

ويجوز أن يكون على نِيَّةِ التَّرْخيم، أراد يَا أبَةُ بالضَّمِّ، فَنَوى التَّرْخيم ففتح التّاء، كما قالوا يَا طَلْحَةَ بفتْح التَّاء أرادُوا يا طلحة بالتَّرْخيم، ثم رَدُّوا التَّاء التي حُذِفَتْ للتَّرخيم وتركوا آخر الكلمة على ما كان عليه في حال التَّرْخيم من الفتحة، وجعلوا التّاء غير معْتَدٍّ بها، ومن هذا قولُ النابغة: كِليني لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ، بفتح التّاء من أميمة، أراد يا أمَيْمَ بالتَّرْخيم.

وقرأ الباقون (يَا أبَتِ) بكَسْرِ التاء في جميع القرآن،

والوجه أن أصله يَا أبَتِي فحُذِفَت الياء تخفيفاً واكْتفاءً بالكسرة؛ لأنَّ باب النّداء بَابُ حَذْفٍ، وذلك نحو قوله تعالى «يَا عِبَادِ فَاتَّقُون»[٢].

ووقف ابن كثير (وابن عامر) ويعقوب على يَا أبَةِ بالهاء،

---

(١) جاء «يا أبت» في القرآن الكريم في مواضع ثمانية: آية ٤، ١٠٠ / يوسف، وآية ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥ / مريم، وآية ٢٦ / القصص، وآية ١٠٢ / الصافات.

(٢) الزمر / ١٦.



والوجه فيه أنَّ التّاء للتّأنيث وهي مفردة عن الياء ؛ لأن الياء محذوفة فينبغي أن يُبْدَل منها في الوقف هاء ، كما وقفوا على غير المضاف بالهاء فقالوا يا طَلْحَهْ.

ووقف الباقون عليه بالتّاء(١)

والوجه أنَّ الكلمة مضافة إلى الياء ، والياء المضاف إليها في نيَّةِ الثَّباتِ وإن كانت محذوفة ، ألا تَرى أن الحركة الباقية في حال الْوَصْل دالَّة عليها ، ثُمَّ إن الياء التي أضيف إليها هذا الاسم حرفٌ واحد ، فلا يَجُوز تقدير الانْفصَال فيه ، لأنَّ الحرْفَ الواحِدَ لا ينْفَصِل.

وهذه التّاء تَاءُ التّأنيث عند الأكثرين زِيدَتْ على الأب في حال النِّدَاء. وذكر بعضُهم أن الأبَ والأبة لغتان.

وقيل : التّاء بدل من لام الكلمة المحذوفة وهي واو ، بِدَلالة الأبوين(٢).

ثالثاً - اللغة:

«إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا»

(الكوكب) :- في علم الفلك - جُرْم سماويٌّ يدور حول الشمس ويستضئ بضوئها.

«وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ»

الشمس هي النجم الرئيسي الذي تدور حوله الأرض وسائر كواكب المجموعة الشمسية ، وهو المشاهد المعروف ، وأشهر الكواكب مرتّبة على حسب قربها من الشمس هي : عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشتري ، زحل ، يورانس ، نِبْتون ، بلوتون.

والقمر : جرم سماوي صغير يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعاً له ، ومنه القمر التابع للأرض ، وهو المعلوم للناس.

---

(١) للرسم ، والوقوف بالهاء خلاف الرسم.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٦٦-٦٦٧ ، وانظر : تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠١-٣٠٢ ، وروح المعاني / ٦ / ٣٧٠-٣٧١ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع / ٢ / ٤ ، والحجة في القراءات السبع (عبدالعال) / ١٩١-١٩٢ ، والحجة للقراءات السبع (ابن خالويه) / ٦٦-١٦٧ ، والمغني في القراءات العشر المتواترة / ٢٦٤-٢٦٥.



«رَأيْتُهُمْ لِيْ سَاجِدِيْن»

السجود: الخضُوع والتّطامن ، يقال: سَجَدَ سُجُوداً: خَضَعَ وتطامن، ووضع جبهته على الأرض فهو ساجد(ج) سُجَّد، وسجود[1].

رابعاً - الإعراب:

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»

«إِذْ قَالَ» بدل اشتمال أو بعْض من «أحسن القصص» على أن يكون أحسن القصص بمعنى المفعول، فإن أحسن القصص يشتمل على قصص كثيرة منه قصص زمان قول يوسف - عليه السلام - لأبيه «إنّي رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً» وما عقب قوله من الحوادث، فإذا حمل (أحسن القصص) على المصْدَر فالأحسن أن يكون (إذ) منصوبا بفعل محذوف يدل عليه المقام، والتقدير:

اذكر إذ قال يوسف: وهو الأصح[2] وجملة (قال يوسف) مضافٌ إليها الظرف، و(لأبيه) متعلقان بـ(قال) و(يا) حرف نداء، و(أبت) منادي مضاف إلى ياء المتكلّم التي حُذِفت وعُوِّضتْ عنها التّاء المكسورة أو المفتوحة، وكُسِرَت همزة (إنَّ) بعد الْقَول، و(الياء) اسم (إنَّ) وجملة (رَأيْتُ) خبرها، و(أحَدَ عَشَرَ) جزءان عدَديّان مَبْنيّان على الفتْح في محل نصب مفعول به لـ(رَأيْتُ)، و(كَوْكَباً) تَمْييز، و(رَأيْتُ) من الرُّؤيَا، أي المناميَّة، وهي تنْصِبُ مفعولَيْن،

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»

(الواو) حرف عطف، و(الشمس والقمر) معطوفان على (أحد عشر كوكبا) و(رأيتهم) و(لي) متعلقان بـ(ساجدين) و(ساجدين) مفعول به ثان لـ(رأيتهم)[3]

---

(١) انظر: المفردات/ كتاب السين/ ٢٢١-٢٢٢.

(٢) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠١، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٥، والدرّ المصون/ ٦/ ٤٣١، والفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٢٤.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٥٠.



البلاغة:

١ - في قوله تعالى: «رَأَيْتُهُمْ» تكرار يظنه الناظر أنّه تأكيد لأول وهلة، وليس هو بالتأكيد، وإنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، ويجوز أن تكون للتوكيد باعتبار أن طول الفصل بالمفاعيل استدْعى ذلك فجئ بـ(رأيتهم) تَطْرِيَةً وتنْويعا للحديث.

٢ - في قوله تعالى: «ساجدين»

أجري الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر مجري العقلاء، وهو الذي يُسَمّيه النُّحَاةُ تغْليباً، وهذا الوصف صناعِيّ، أما السِّرُّ البيانيُّ فأمْرٌ كامِنٌ وراء هذا الوصف، ذلك لأنه لّما وَصَفَ الكواكب والشمس والقمر بما هو خاص بالعقلاء وهو السّجود، أجري عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم[١].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المرجع السابق / ٤٥١.



سادساً - التفسير والبيان:

المقدمة الثانية للقصة

مضت المقدمة الأولى للقصة في الآيات الثلاث الأولى من السورة الكريمة، وهي الآيات المتعلقة بصفة القرآن الكريم وكونه تنزيلا من الله تعالى دَالاً على رسالة من أُنزل عليه، وكونه عربياً تقوم به الحجة على العرب الَّذِينَ يعقلونه، وكون النبي - ﷺ - كان من قبله غَافلاً عَمَّا جاء فيه لا يدري منه شيئاً، ونتيجة هاتَيْن القضيتَيْن تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ... الآية»(١)

وهذه هي المقدمة الثانية رؤيا يوسف - عليه السلام - وما فهمه منها أبوه فَهْماً إجْماليّاً كُلِّيّاً وَبَنَى عليه أنْ حَذَّرَه وأنْذَره ما يُستَهْدَفُ له قِبَلِه من كيد إخوته، وَبَشَّرَهُ بحسن عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتَيْن ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه في مصْرَ وَسُجودهم له: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» الخ(٢)، (٣).

فَذِكْرُ هذه الرؤيا في صدر القصة، كالمقدّمة والتمهيد للقصة المَقْصُودَة(٤).

«رؤيا يوسف - عليه السلام -»

قال الله تعالى:

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

وجه المناسبة:

إن أحسن القصص الوارد في الآية السابقة يشتمل على قصص كثير منه قصص زمان يوسف - عليه السلام - فالشروع في قصة يوسف إنما هو إنجاز للوعد بأحسن الاقتصاص(٥) المذكور في الآية السّابقة، وبداية قصة يوسف - عليه السلام - بالرؤيا

---

(١) يوسف/١٠٢. (٢) يوسف/١٠٠. (٣) تفسير المنار/١٢/٢٥٧-٢٥٨.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/٦/١٢/٢٥٧.

(٥) تفسير أبي السعود/٤/٢٥١.



بداية مثيرة... تجتذب ذهن القارئ والسامع ليعرف ما هو المصير، وكيف يتم حَلُّ اللُّغز المبهم والمبعدوء بقص يوسف رؤياه الغريبة على أبيه وهو صغير، وما أجابه أبوه - عليه السلام - من نَهيه أولاً عن قص رؤياه على إخوته حتى لا يحسدوه ويكيدوا له، ثم إعلامه عن طريق رؤياه باختيار الله له واصطفائه للنبوة والرسالة... إنَّ هذه الرؤيا وتأويلها تمثل مجمل حلقات وفصول قصة يوسف - عليه السلام - المطوَّلة.

وهذا الأسلوب يَحْتَذيه الآن واضعوا القصص، إذ يبدؤون القصة بلغز أو نبأ مثير، ثم يتدرَّجون في حل اللُّغز وبيان أبعاد النبأ وحقيقته[١]. وقد سبقهم القرآن العظيم بهذا التَّرْتيب الإبداعي الذي اختصَّ به، فصاروا من بعده يستعملون هذا الترتيب[٢].

---

(١) انظر: التفسير المنير / ١٢ / ٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير المنار / ١٢ / ٢٥٨.

رفع المستهم

«هذه الرُّؤيا، ومبحث هامٌ عن الرُّؤيا»

إن رؤيا يوسف - عليه السلام - قد اختصّت من بين سائر الرؤى التي تحدَّث عنها القرآن الكريم أنها كانت مِحْور قصَّته وركيزة حياته كُلِّهَا، كما اشتملت على دائرة الأحداث الكثيرة التي أحاطتْ به، ولقد ظلَّت هذه الرؤيا تدور معه طوال عمره في أيّامه ولياله حتّى خُتِمَتْ من قِبَلِ الله العليم الخبير.

ومن أجل هذا كان لا بد لنا من وقفة مع (الرؤيا) بصفة عامة قَبْلَ، الخَوض في الحديث عن تلك الرؤيا وتأويلها من قِبَل يعقوب - عليه السلام - تأسِّياً بأئمة التفسير - رحمهم الله - وذلك على النهج التالي:

١ - الرؤيا واهتمام القرآن بها:

إن القرآن الكريم في معرض الاهتمام بالرؤيا، إنّما يُعالِج جُزْئيَّةً من كينونة النَّفس الإنسانيّة، جزئيّة يعيشها كل إنسان في كل يوم، عنْدما يخلد إلى النّوم ويستسْلم إلى الرّقاد، وينتقل من حياة إلى حياة، ينتقل من حياة كاملة حافلة بالوعْي والحركة والعطاء، إلى حياة يَخْمُدُ فيها الجسم ثم تشُبُّ فيها النّفس عن طوْق الجسد إلى آفاق لا يعرفها هو أوْلاَ يُحِسُّها أو لا يُبَاشرها، ماضيّاً وواقِعيّاً ومستقبليّاً[١].

٢ - معنى الرؤيا:

الرؤيا: هي الحلم الذي يراه النائم في منامه، جاء في القاموس:

رآهُ رُؤْيَةً: أبصره بحاسَّة البَصَر، ورآه رؤيا: حَلَم، وهي مصدر رآى في المنام، كالبُشْرى، وهي بمعنى الرؤية إلاّ أنها تختَصُّ بالمنام، أما الرؤية فتختصّ باليَقظة، والفرْق بينهُما حَرْفَي التّأنيث، فهو (الألف) في (الرؤيا) و(التاء) في (الرؤية).

---

(١) دليل الحيران في في تفسير الأحلام (علي محمد قطب) / ٩-١٠.



فاللغة العربية من دِقَّتِهَا تجْعل (رأى) واحدة، لكن يختلف المصدر فيها باختلاف من يرى، أرأيت وأنت (يقْظان) أم رأيت وأنت (نائم)، تقول: رآى رؤية، إن كان يقظان، وإن كان وهو نائم تقول: رآى رُؤيا، الأولى (بالْتَاءِ) رؤية، والثانية (بالألف) رؤيا، وهذا هو الفرْق بينْهما، فَفيه الْتِقَاءٌ في (رأى) ولكن فيه اخْتلاف في حالة الرائي، أهو يقظان أم هو نائم، فلا بد أنَّ المَصْدَرَيْن يكون فيهما الاتّفاق، وفيهما الاختلاف، الاتّفاق على أن كُلاًّ منهما مؤنث، لأنَّ عَلاَّمَة التأنيث إما (تاء) كـ(فاطمة) وإما (ألف) مقْصُورة كـ(سلمى)، وإما (ألف) ممدودة، كـ(حسناء) فالرؤيا الحقيقية التي في اليقظة وبحاسة البصر أخذت (التّاء) - أي علامة للتأنيث - التي هي عُمْدَةَ التأنيث، والرؤيا المناميّة التي في المنام أخذت (الألف) المقْصُورة[١].

ولا يقْدح في كونها (أي الرؤيا) مناميّة إلا آية واحدة في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى في سورة (الإسراء): «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ»[٢] وهذه شبْهَة من قال: إن المسْألة - أي حادثة الإسراء والمعراج - كانت في المنام، لأن الله تعالى قال: «رؤيا» «وما جعلنا الرؤيا» ولو كانت في الحقيقة لأتى بها بالتّاء «رؤية»

نقُول له: أنت لم تَفْهَم عن الله تعالى، هو سبحانه يريد أن يقول كما نقول نحن عن شيء عظيم مثلاً، لا نراه ولا في الأحلام، فكأنّها عجيبةٌ أولى بها أن تكون في الأحْلام، لكنها ليْسَتْ في الأحلام بدليل قوله تعالى: «... فِتْنَةً لِّلنَّاسِ» على أنه لا بد أن تكون حقيقيّة، وإلا لما كانت فتنة[٣].

ويحتمل - كما قال الإمام ابن حجر العسقلاني في الفتح: - أن تكون الحكمة في تَسْمِيَةِ ذلك - حدث الإسراء والمعراج - (رؤيا) لكَوْنِ أُمور الغيب مخالفة لرؤيا الشهادة فأشبَهَت المنام.

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي/ تفسير سورة يوسف/ شرائط مسجّلة.

(٢) الإسراء/ ٦٠.

(٣) الشيخ محمو متولي الشعراوي/ تفسير سورة يوسف - شرائط مسجلة.



أو على التشبيه بالرؤيا لما فيها من العجائب، أو لوقوعها ليلاً، أو لسرعته، والرؤيا عند كثير بمعنى الرؤية مطلقا، وهما مصدر (رآى) مثل القربى والقرابة، والصحيح الذي عليه الجمهور أن المراد من (الرؤيا) في الآية ما عاينَهُ ﷺ ليلة أسْرِيَ به من العجائب السماوية والأرضية، كما أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس(١).

٣ - دليل الرؤيا:

الرؤيا حقّ ثابت، وقد دلّ عليها الكتاب والسُّنّةُ، ولا ينكرها إلا أهل الغفلة والباطل، وهم أهل الإلحاد وشِرْذِمَةٌ من المعتزلة(٢).

ولقد جاء ذكر الرؤيا في مواضع عدَّة من كتاب الله الكريم، وفي عِدَّة سُوَر منه، وأكثر هذه الرؤى يتعلَّقُ بطائفة كريمة من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فجدُّ الأنبياء إبراهيم الخليل - عليه السلام - يقول لابنه اسماعيل - عليه السلام - بلسان القرآن العظيم في سورة الصّافات: «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»(٣) وقال له ربه عزّ ذكره: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(٤) وفي سورة (الأنفال) يقول الله تعالى لرسوله وخليله محمد ﷺ: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»(٥) ويقول سبحانه وتعالى في سورة الفتح: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»(٦)...

كما جاء ذكر الرؤيا في القرآن الكريم لغير الأنبياء ولغير المؤمنين، فجاءت عن صاحبي السجن في سورة (يوسف) - عليه السلام - قال الله تعالى: «وَدَخَلَ مَعَهُ

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٥٢، وروح المعاني/ ٨/ ١٠٠، وتفسير أبي السعود/ ٥/ ١٨٠.
(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٢٣ (٣) الصّافات/ ١٠٢.
(٤) الصافات/ ١٠٥ (٥) الأنفال/ ٤٣ (٦) الفتح/ ٢٧.



السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[1] كما جاءت عن ملك مصر في زمن يوسف - عليه السلام - قال الله تعالى: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ»[2].

وأما في السنة المطهرة الصحيحة:

فقد جاء الحديث عن الرؤيا في أحاديث كثيرة ذكرها أهل الحديث في كتاب «التّعْبير» وأول ما بُدِئَ به رسُول الله - ﷺ - من الوحْي الرؤيا الصّادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصّبْح، كما جاء في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها[3] وفلق الصُّبح: ضياؤه.

٤ - رؤيا الأنبياء:

رؤيا الأنبياء حقٌ ووحْي، ولا يتعلّقُ بها حكْمٌ شرْعِيٌ إلاّ لَهُم ويجب عليهم العمل بمقتضاها، ولذلك عزم إبراهيم - عليه السلام - على ذبح اسماعيل - عليه السلام - تطبيقاً وعملاً بما رآى في المنام من أنه يذْبح ابْنه، قال الله تعالى: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»[4]

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كانت رؤيا الأنبياء وَحْياً[5].

٥ - رؤيا غير الأنبياء:

أما رؤيا غير الأنبياء فلا تكون حجة شرعية ولا يجوز العمل بها، والرؤيا الصّادقة بالنسبة لصلحاء أمّة الإسلام تُعْتَبَرُ حالة شريفة ومنزلة رفيعة يُكرم الله بها عباده

---

(١) يوسف / ٣٦. (٢) يوسف / ٤٣. (٣) فتح الباري / ١ / ٣٠ (كتاب بدء الوحي).
(٤) الصافات / ١٠٢. (٥) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ١٥١.



الصالحين، الذين زكت نفوسهم وَصَفَتْ قلوبهم وصَدَق حديثهم، فيكشف الله تعالى لهم بعض الأمور المستقبليّة بالزّمان قبل وقوعها عن طريق الرؤيا الصالحة.

٦ - الرؤيا الصالحة من المبشرات:

لقد اعتبر الشارع الحكيم الرؤيا الصالحة من المبشّرات بعد النبوّة، وجاء في تفسير قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»[١] أنّها الرؤيا الصالحة، وروي البخاري - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلاَّ المُبَشِّرَات» قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة يَراها الرَّجُلُ الصّالح أو تُرى له»[٢].

وكون الرؤيا الصالحة من المبشرات، فهذا هو الأغلب كما ذكر العلماء، ولكنها أيضاً قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تَسُرُّ رائيها، وإنما يريها الحق جلَّ شأنه لعبْده المؤمن رفْقاً به ولُطْفاً فيما قدَّره عليه، ليستعدَّ لنُزُول البلاء بقوة الاعتماد على الله تعالى واللُّجوءِ إليه سبحانه قبل وقوعه، ورسولنا - محمد ﷺ - وقبل غزوة أحد، رآى رؤيا فيها ما يَسُرُّ وفيها ما لا يَسُرُّ، فقد روي الإمام البيهقيُّ عن أنس - رضي الله عنه - مرْفوعا قال: قال رسول الله - ﷺ: «رأيْتُ فِيمَا يرى النائم كأنّي مُرْدِفٌ كَبْشاً خَلْفِي - أي جاعله خلفي على الراحلة - وكأنّ ضُبَّةَ سيفي انكَسَرتْ، فأوّلْت - هذه الرؤيا - أنّي أقْتُلُ كبْش القوم، وأوّلْتُ كَسْرَ ضبَّةِ سيفي قَتْل رَجُل من عِتْرَتي - من أهلي وعشيرتي - فَقُتِلَ حمزة - رضي الله عنه - في غزوة أحد، وقَتَلَ رسول الله - ﷺ - طلحة، وكان صاحب اللواء للكفار يوم أحُد،...

ورآى الإمام الشافعيُّ - رحمه الله - رؤيا للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-

---

(١) يونس/ ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في ٩١ - كتاب التعبير - باب المبشرات - حديث رقم ٢٥٤١.



وهو ببغداد تَدُلُّ على مِحْنَتِهِ، فكتب إليه بذلك ليَسْتَعِدَّ بكثرة التوكُّل والاستعانة بالله تعالى(١).

٧ - الرؤيا السّارّة، والرؤيا غير السّارّة:

ومن رحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين، أن الرؤيا المشتملة على ما يَسُرُّ الرّائي، يُريها الله تعالى له قبل حدوثها بوقْت كثير، ليحيا مع بشراها متفائلا بها داعيا المولى جلَّ وعلا أن يُحَقِّقَ له ما أشارَتْ إليه مِمّا يُحِبّ ويرْغَبُ في مرْضاة الله تعالى، أما الرؤيا التي فيها ما لا يَسُرُّ العبْد المؤمن، فإن الله الرحيم الودود يريها له قبل حدوثها على أرض الواقع بقليل، حتى لا تطول فترة انتظارها وثِقَل تَوَقُّعِهَا.

ولهذا يقول الحكماء: إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيِّدَة إنما يظهر تعبيرها بعد حين، قالوا: والسبب في ذلك أن رحمة الله تعالى تَقْتضي ألا يحْصُلَ الإعلام بوصول الشَّرِّ إلا عنْد قُرْب وصوله، حتى يكون الحزنُ والغمُّ أقلّ، وأما الإعلام بالخيْر فإنه يحْصُل مُتَقَدِّماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقّع حصول ذلك الخير أكثر وأتَمّ(٢).

٨ - مراتب الرؤيا:

الرؤيا مراتب، فمِنْها أن ترى صُوَرَ أفْعَالٍ تتحَقَّقُ أمثالها في الوجود، مثل رؤيا النبي - ﷺ - أنه يُهاجر من مكَّةَ إلى أرض ذات نَخْل.

ومنها أن ترى صوراً تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، ومنه رؤيا النبي - ﷺ - أنه شربَ من قدح لَبَنٍ حتّى رآى الرِّيَّ في أظفاره، ثم أعطى فضله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وتعبيرُه ذلك أنه العلم(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١٢٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ٨٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١١.



٩ - أقسام الرؤيا:

الرؤيا ثلاث: فقد أخرج البخاري - رحمه الله عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان»(١)...

وهذا التَّفْصيلُ الوارد في الحديث مطابقٌ لما ذكرْناه، فالجَلِيُّ، من الله تعالى، والمحاكاة الداعية إلى التعبير، مِنَ المَلَك، وأضغاث الأحلام، مِنَ الشيطان، لأنها كلها باطل، والشيطان الرجيم ينبوع الباطل(٢)، هذا، ويوجد تقسيم آخر للرؤيا ورد في الصحيح الذي أخْرجه الشيخان والترمذي - رحمهم الله - حيث يقول ﷺ - «الرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بُشْرَى من الله، والرؤيا من تَحْزِين الشيطان - أي يكدِّرُ الشيطان على الرَّائي وقْته فيريه في النوم ما يُزعجه ويُرْعُبه - والرؤيا مِمَّا يُحَدِّث بها الرجل نفسه»، كمن يكون في أمر أو حِرْفَةٍ يرى نفسه في ذلك الأمر، ولا خلاف بين التقسيم الوارد في الحديثين السابقين، فالحديث الأول قَسَّمَ الرؤيا إلى رؤيا من الله تعالى، ورؤيا من المَلَك، وكلاهما من الله تعالى وبأمْرِه للملك، ثم رؤيا من الشيطان، والحديث الثاني قسَّم الرؤيا إلى رؤيا من الله، وهي تشتمل أيضاً على الرؤيا التي من الملك، لأنها بأمر الله تعالى، ورؤيا من الشيطان، أما الرؤيا التي هي مِمَّا يُحَدِّث بها نفسه فهي في حقيقة الأمر ليست بمعنى الرؤيا الحقيقية، لأنها تكرار للواقع، وعلى هذا فلا تناقض بين الحديثين الشريفَيْن، والله أعلم.

١٠ - الفرق بين الرؤيا الصالحة والرؤيا الفاسدة:

الرؤيا الصالحة، هي المضافة إلى الله تعالى، وهي التي خَلصَتْ من الأضْغَاث والأوهام وكان تأويلها موافقا لِمَا في اللَّوْح المحفوظ.

---

(١) البخاري في ٩١ - كتاب التعبير - ٢٦ باب القيد في المنام - حديث ٢٥٣٩.

(٢) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٧.



أما الرؤيا الفاسدة، فهي المضافة إلى الشيطان، وهي من الأضغاث والأوْهام، وهي الحلم، وإنّما سُمّيَتْ ضِغْثاً لأنّ فيها أشياء تُرَى مُتَضَادَّة ومتعارضة وغيْر مفهومة، قال ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»(١)

١١ - كيف تكون الرؤيا:؟

قال الإمام ابن خلدون: حقيقة الرؤيا: مطالعة النفس النّاطقة في ذاتها الرُوحَانيّة لمحة من صور الواقعات(٢) وقال الإمام أبو السعود: حقيقة الرؤيا: ارتِسَامُ الصورة المنْحَدِرة من أُفُق المتخيّلة إلى الحِسِّ المشترك، وَالصّادقة منها إنما تكون باتّصَال النَّفْسِ بالملكوت، لِمَا بينهما من التَّناسب عند فراغها من تدبير البدن أدْنى فراغ، فتتصور بما فيها ممّا يليق من المعَاني الحاصلة هناك، ثم إنَّ المُتَخيّلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحِسِّ المشترك فتصير مشاهدة، ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التَّفَاوُتُ إلا بالكلّيّة أوِ الجُزئيّة، اسْتَغْنت الرؤيا عن التعبير وَإلاّ احْتَاجَت إليه(٣).

وقال آخرون: إنَّ لِلّه تَعَالَى مَلَكاً يعْرِضُ المرئيّات على المحلّ المدْرِك من النّائم فيُمَثّلُ له صُوَراً محسوسة، وهذه الصور المحسوسة، إما أن تكون أمثلة موافقة لما يقع في الوجود الحِسّيِّ المشاهد، أو تكون صوراً لمعاني معقولة وغير محسوسة،

قال ابن العربي:

ولا يُرى في المنام إلا ما يَصِحُّ إدْرَاكُهُ في اليقظة، ولذلك لا يُرَى في المنام شخْصا قائما قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات.

١٢ - الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوّة:

أخبر الرسول ﷺ أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كما جاء في الصحيح المتفق عليه، ورُوِي «من سبعين جزءاً من النبوّة» وروي من حديث

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير / ١٢ / ٣٧٣ ومسلم في أول كتاب الرؤيا / ٢٢٦١.
(٢) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٤٦.
(٣) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٥٢.



ابن عباس - رضي الله عنهما - «جزء من أربعين جزءاً من النبوَّة» ومن حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - «جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوَّة» ومن حديث العباس - رضي الله عنه - «جزء من خمسين جزءاً من النبوة» قال علماء الحديث: والصحيح منْها الأول، «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة» ويتلوه في الصحة حديث «من سبعين جزءاً...» ولم يُخَرّج مسلم - رحمه الله - في صحيحه غير هذين الحديثين،

«الجمع بين هذه الأحاديث»: لقد جمع العلماء بين شتات الأحاديث السابقة، وقالَ الإمَامُ الطبري عن ذلك بأنه هو الصواب، ووافقه ابن عبد البَرِّ وقال: إن الاختلاف بين عدد أجزاء الرؤيا ليْس اخْتلافاً مُتَضَادًّا، وذلك راجع إلى من يراها، فكُلَّما كان الرائي أقرب إلى الله تعالى إخلاصاً ويقيناً وحُسْنَ اتّباع وصِدْق حديث، كُلَّمَا كان أقرب إلى الأربعين، أو السِّتَّة والأربعين جزءاً، وكانت رؤياه أصدق، وإلى النُّبُوَّة أقْرب، وكلّما نَزَل عن هذه الدرجة كلما اقترب من السَّبْعين جزءاً لا ينقُصُ عنها بحال، ثم استدلَّ على ذلك بأن الأنبياء يتفاضلون، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ»(١).

قال الإمام القرطبي تعليقا على ما قاله الإمام الطبري وابن عبدالله البرّ، قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفْسير بعضها دون بعض وطرْحه(٢).

«معنى كون الرؤيا جزءاً من النبوّة»:

إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوة لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران وقلْب الأعيان والاطلاع على شيء من علم الغيب، قاله القرطبي(٣).

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد اسْتُشكل كون الرؤيا جزء من النبوة مع أن النبوة انقطعت بموت النبي ﷺ، وبعد أن ذَكَر عدَّةَ أجوبة قال: والجواب أنَّهُ لم يُرِدْ أنها

(١) الإسراء/ ٥٥.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٢٣-١٢٤.

(٣) المرجع السابق الصفحة ١٢٤.



نُبُوَّةٌ باقية، وَإِنَّمَا أراد أنَّها لَمَّا أَشْبَهَتْ النّبوّة من جهة الاطلاع على بعض الغيب لا ينبغي أن يُتكَلَّمَ فيها بغير علم، وقال صاحب مجمع البحار: ولا حرج في الأخذ بظاهره، فإِنَّ أَجزَاء النبوَّة لا تكونُ نُبُوَّة(١).

١٢ - أمور هَامَّة تتعلَّقُ بالرؤيا:

(أ) كيف يكون الكافر محلاً للرؤيا الصادقة، وهي جزء من النبوَّة؟

الرؤيا الصادقة وقعت من بعض الكفار وغيرهم، كمنام رؤيا الملك في سورة يوسف - عليه السلام - ومنام الفَتَيَيْنِ في السِّجْن، ومنام عَاتِكَة عمة رسول الله ﷺ في أمْره وهي كافرة، وهذه الرؤى ليست من الوحْي ولا مِنَ النُّبوّة، وَلا يجوزُ أن تُضَاف إلى النبوّة إضافة رؤية المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويلٌ من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوة، علما بأن هذه الرؤى نادرة وقليلة.

(ب) ماذا يفعَلُ من رآى رؤيا حسنة أو غير حسنة؟:

روي البخاري - رحمه الله - عن أبي سلمة - رضي الله عنه - قال: كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة - رضي الله عنه - يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رآى أحدكم ما يُحِبُّ فلا يُحَدِّثْ به إلا من يحب وإذا رآى ما يكره، فليتعوَّذْ بالله من شَرِّها وليَتْفُلْ ثلاث مرات، ولا يُحَدِّث بها أحداً فإنها لا تضُرُّه» وزاد مسلم - رحمه الله - من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إذا رآى أحدكم الرؤيا فليبصُق عن يساره ثلاثاً، وليَتَعَوَّذْ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّل عن جنْبِه الذي كان عليه»، وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «إذا رآى أحدكم ما يكره فَلْيَقُمْ فلْيُصَلِّ» قال علماؤنا:

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي/ ٦/ ٥٤٩.



وهذا كله لَيْسَ بمتعَارَض، وإنَّمَا هذا الأمر بالتَّحَوُّل والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع، لأنه إذا صلّى تضَمَّنَ فعله للصلاة جميع تلك الأمور، لأنه إذا قام إلى الصلاة تَحوَّل عن جنْبه، وإذا تمضْمَضَ تَفَلَ وَبَصَقَ، وإذا قام إلى الصلاة تَعَوَّذَ ودعا وتَضرَّع لله تعالى في أن يكفيه شرَّها في حالٍ هي أقْرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السَّحَر من الليل(١)

(جـ) هل لِرُؤْيَا الصغير نفس حكم رؤيا الكبير؟:

إن يوسف - عليه السلام - كان صغيراً وقْت رؤياه - ابن ثِنْتَيْ عشرة سنة - والصغير لا حُكْمَ لِفِعْله، فكيف تكون له رؤيا لها حُكْمٌ حَتّى يقول له أبوه يعقوب - عليه السلام - «لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتك»؟

والجواب - كما جاء في تفسير القرطبي -

أن الرؤيا إدراك حقيقة، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقيُّ في اليقظة، وإذا أخبر عما رآى صُدِّقَ، فكذلك إذا أخبر عمّا يَرَى في المنام، وقد أخبر الله سبحانه عن رؤيا يوسف - عليه السلام - وأنها وُجدَتْ كما رآى فلا اعْتِرَاض(٢).

(د) الرؤيا لا تقصُّ إلا على شفيق أو ناصح يُحْسِنُ التأويل:

لقد وصّى رسول الله - ﷺ - ألا يقص المسلم رؤياه إلا على عاقلٍ أو مُحِبّ أو ناصح، فقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي - رحمه الله - عن أبي رزين العُقَيْلي - لقيط بن عامر - أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوَّة، والرؤيا مُعَلَّقَةٌ بِرِجْلِ طائر ما لم يحدِّث بها صاحبها، فإذا حَدَّث بها وقعت، فلا تُحَدِّثوا بها إلا عاقلا أو مُحِبّاً أو ناصحاً» قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال مالك - رحمه الله - لا يُعبِّرُ الرُّؤيا إلا من يُحْسِنُهَا، فإن رآى خيراً أخْبَرَ به،

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٢٨. (٢) المرجع السابق/ ٩/ ١٢٦.



وإن رآى مكروهاً فليقل خيراً أو ليَصْمُت، قيل: فهل يُعَبِّرُها على الخير وهي عِنْدَه على المكروه؛ لقول من قال: إنها ما تأوَّلَتْ عليه؟ فقال: لا!

ثم قال: الرؤيا جُزْءٌ من النبوَّة فلا يُتَلاعَبُ بالنّبوَّة(١).

(هـ) حكم من رآى الرسول ﷺ في المنام فأمره بشيءٍ أو نهاه؟

إن من رآى الرسول ﷺ فأمره بشيء أو نهاه عنه، فعليه أن يعْرِض ذلك على الشّرْع، فإن وافق حكمه عمل به بحجَّةِ الشّرْع لا بحجَّة الرؤيا، وإن خالف تُرِك خضوعاً للشّرْع الشّريف، وذلك لأن الشريعة قد تَمَّتْ في حياة الرسول ﷺ، ولم يَبْقَ نَسْخٌ لحكم من أحكامه بعْد وفاته، فلو خُولف حكم الشرع بالمنام فقد حكم بالنَّسْخ بعد وفاة الرسول ﷺ، وذلك باطِلٌ بالإجماع، وأيضا لو حكم بالمنامات لَفُتِحَ باب لخروج كثير من الفسَقَة عن الشَّرْع، إذْ يُمْكِنُ لكل أحَدٍ أن يتْركَ واجباً أو يرتكبَ محرَّماً ويقول: أمرني بذلك رسول الله في المنام، فيتلاعب الناس بالدين حسب أهوائهم(٢).

وأيضاً، فإن الرسول ﷺ قال: «تركت فيكم شيئين لن تضِلُّوا بعدهما، كتاب الله وسنَّتِي»(٣) وليست رؤيا المنام من ذلك، فمصدر التشريع وطريقه الوحيد هُوَ الوحْي إلى رسول الله ﷺ في حياته، وقد انقطع الوحْي بوفاته، وعلى هذا فلا حجة للرؤيا بحال فيما يتعلّقُ بأمر الشرع الشريف، وهذا أمر مجمع عليه بين علماء الأمة.

(و) هل كل من رآى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام فقد رآه حقاً؟

قد يَحْتجُّ البعض بما صحَّ عن رسول الله ﷺ حيث قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقّاً، فإن الشيطانَ لا يتمَثَّلُ بي»(٤) ويقول: إن من رآى الرسول ﷺ في المنام فكأنه رآه حقا، وعلى ذلك، فإذا أمره الرسول بشيء أو نهاه عنه، يجب عليه أو يُسَنُّ أن يعمل

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة. (٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٣٤-٣٥.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٧) الصحيحة (١٧٦١) المشكاة (١٨٦).

(٤) البخاري/ ١٢ / ٣٣٨، ومسلم (٢٢٦٦).



حَسْبَمَا أمره به في المنام أو نهاه عنه، ونقول لهذا القائل: إن معنى الحديث، من رآني على صورتي الحقيقية فقد رآني حقّاً، فإنّ الشيطان لا يتمثَّلُ بصورتي الحقيقية، وهذا حَقٌّ، ولكن الشيطان يستطيع أن يتمثَّل بصورة مُعْجَبَةٍ ويوهمك أنه الرسول ويأمُرُك وينهاك كما يُريدُ وَبِما لمْ يُنَزِّل الله به من سلطان، وبذلك يَهدمُ مِن دينِكَ كثيراً، أو يهدمه كله، وكان ابْنُ سيرين إذا قصَّ عليه رجل أنه رآى النبي ﷺ قال: صِفْ لي الذي رأيته، فإن وَصَفَ له صفة لا يعرفها قال: لَم تَرَه، رواه عنه اسماعيل القاضي بسند صحيح(١).

فإن قيلَ: إن تشريع الأذان للصلاة كان عن طريق الرؤيا،

قلنا: هذا التشريع جاء من تقرير الرسول ﷺ حيث قال للصحابي الذي رآى الرؤيا: - وهو عبدالله بن زيد الأنْصَاري - «عَلّمْهُ بلالاً فإنهُ أنْدَى مِنْك صوْتاً» أو «لَقِّنْ ذلك بلالاً فإنه أنْدَى صوْتا منك»(٢).

(ز) حكمُ إلهام الأولياء:

حكم إلهام الأولياء كحكم الرؤيا والمنامات فلا يُحْتَجُّ به، ولا يجوزُ الاعتماد عليه.

(حـ) جزاء من تحلَّمَ كاذباً:

روي الترمذيُّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال تعالى: «من تَحلَّمَ كاذِباً كُلِّفَ يوم القيامة أن يعقد بيْنَ شعيرتين، ولَنْ يَعْقِدَ بَيْنَهُما» قال أبو عيسى الترمذي - رحمه الله - هذا حديث حسن صحيح، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من كذب في حِلْمِه كُلِّفَ يوم القيامة عقدُ شَعيْرَة، قال الترمذي: حديث حسن.

---

(١) رياض الصالحين هامش ص ٣٧١ تحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٣٤.



عود إلى الآية الكريمة - بعد الكلام على الرؤيا

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

هذا شروع في بيان أحسن القصص، فهو بدل منه يشتمل عليه، والأكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقا بإضمار (اذكر)، والمعنى: اذكر يا محمد - ﷺ - وقت قول يوسف لأبيه.. الخ، وهو الأصح، قوله تعالى:

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ» و(يوسف) فيه ست لغات: ضَمُّ السّين وكسْرها وفتحها من غير همزة فيهن، وبالهمزة فيهنّ، ومثله (يونس) عن الفرّاء[١]

قال الإمام الزمخشري: و(يوسف) اسم عِبْرانيّ، وقيل عربي وليس بصحيح، لأنه لو كان عربيا لا نصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف، فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ (يوسِف) بكسر السين، أو (يوسَف) بفتحها، هل يجوز أن يقال على قراءته أنه عربي؟ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من آسف وإنما منع من الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت: لا، لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أن الكلمة أعجميّة، فلا تكون عربية تارة وأعجميّة أخرى[٢]، وأجاز غير الزمخشري أن يكون (يوسف) عربيا فِيمَنْ كسَرَ السّين وفتحَها، والمانع من الصرف التعريف والوزن، وأما على قول من ضَمَّ السين فهو أعجميٌّ بلا خلاف، إذ ليس في كلام القوم ما هو على وزن الفعل... فاعرفه[٣].

قال الإمام الألوسي: والظاهر أن أعجميَّته متحقَّقة عندهم، ولذا التزموا منعه

(١) انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٤، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٢٣.
(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠١.
(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٤.



من الصرف لها وللعلميّة، ولا التفات لذلك الاحتمال - أي بأنه عربي -(1) و(يوسف) - عليه السلام - هو صاحب هذه القصة العجيبة في تلك السورة الكريمة المسماة باسمه - عليه السلام(2).

وأبو يوسف هو النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -، والذي ذكر في السلسلة المباركة المصطفاة في قوله تعالى: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ»(3).

قوله تعالى: «يَا أَبَتِ» التّاء بدل من ياء المتكلم، وهو مسموع من العربي في نداء الأب والأم، والفصيح كسْرُها، وَسُمِعَ فتحُها وضَمُّها أيضا(4) والنداء في (يا أبت) مع كوْن المنادي حاضراً؛ مقصود به الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المُخَاطب، فيُنَزَّل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام(5) وتضمين حديث يوسف - عليه السلام - قوله (يا أبت) الذي كان بإمكانه أن يَسْتغْني عنه، يُوحي بالودّ والجو الروحي اللذان لم يكونا ليسمحا بالاستغناء عن هذا القول،

قوله تعالى: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»

«إنَّ» التي تفيد التأكيد، جاءت لتدلَّ على تأكّد يوسف الغلام الصغير من صحة ما يقول عن رؤياه ودقَّته(6) و(رآى) هنا من الرؤية الحلميَّة، لا من الرؤية البصريَّة، لأن يوسف -عليه السلام- لو رآى الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر في اليقظة، لكان ذلك آيةً عظيمة له يشهدها كل الناس، ولما كان هناك من داع ليقول له أبوه

---

(1) روح المعاني / ٦ / ٣٧٠.

(2) سبق الكلام في المقدمة / المبحث الثالث / المعلم الثامن / عن موقع يوسف - عليه السلام - من شجرة النبوة.

(3) ص / ٤٥-٤٧.

(4) تفسير المنار / ١٢ / ٢٥٣، وانظر في ذلك بتوسع في تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠١، والدر المصون / ٦ / ٤٣١-٤٣٦، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٥-٢٨.

(5) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٠٧.

(6) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٥١-٣٥٢.



بعد ذلك: «يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ» وقد اتفق أهل التفسير على أن المراد بالكواكب الأحد عشر إخوته، **واختلفوا بالنسبة للمراد من (الشمس والقمر):**

فأكثر المفسرين على أن المراد بـ(الشمس والقمر) أبوه يعقوب - عليه السلام - وأمه الحقيقية (راحيل).

فقد روي الإمام الطبري وغيره عن قتادة، وابن جريج، والسدّي، والضّحاك، وسفيان، وابن زيد، أن الأحد عشر كوكباً إخوته، والشمس والقمر أبواه[1] والأصح أن يكون المراد بالشمس أمه، وبالقمر أبوه، وهذا القول اعتبار للتأنيث والتذكير، فوقعت الشمس عبارة عن الأم لأنها مؤنثة، ووقع القمر عن الأب لأنه مذكر[2] وهذا هو المناسب.

وقد استدل القائلون بأن المراد بالشمس والقمر أمه الحقيقية وأبوه، بقوله تعالى أواخر القصة: «آوى إليه أبويه»[3] وبقوله سبحانه «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ»[4].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالشمس خالته (ليئة) شقيقة أمه، فقد أجمع أهل التاريخ على وفاة أمه (راحيل) قبل أن يرى يوسف رؤياه، ومن أصحاب هذا الاتجاه الإمام ابن كثير حيث قال: ثم حَمَلت (راحيل) فولدت غلاما هو (بنيامين) إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب في (أفراث) وهي (بيت لحم) وصنع يعقوب على بيتها حجرا، وهي الحجارة المعروفة بقبر (راحيل) إلى اليوم[5].

قال الإمام الطبري:

وأولى القولين بالصواب ما قاله ابن إسحاق - أي: أن المراد أمه الحقيقية - لأن ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٢، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٠١، والدر المنثور/ ٤/ ٦، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٢٥، وزاد المسير/ ٤/ ١٨٠.

(٢) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٣٧٢، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٤.

(٣) يوسف/ ٩٩. (٤) يوسف/ ١٠٠.

(٥) قصص الأنبياء (ابن كثير)/ ١٩٦.



هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في الأبوين، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها فيسلّم حينئذ لها(١).

حكم تأخير الشمس والقمر بعد الكواكب:

أخَّر الشمس والقمر في الذكر ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بياناً لفَضْلهما واستبْدادهما بالمزيَّة على غيرهما من الطوالع، ولأن سجودهما أبلغ وأعلى كعْباً، كما أخَّر جبريل وميكائيل عن الملائكة في قوله تعالى: «من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن اللّهَ عدوٌّ للكافرين»(٢).

فهذا من باب الإخْبار عما فيه الشرف والتكريم حيث يكون التَّنقُّل من الأدْنى إلى الأعلى، كما هو الأسلوب الحسن، فإنه لا حُسْنَ ولا حلاوة في أن تقول: أكرمني الوزير والمدير والكاتب، بل يقال: أكرمني الكاتب والمدير والوزير، فَهنا لو قال: رأيْت الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا لم يَحْلُ بقدْر ما يحلُو قوله «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ».

وأيضاً فمن حكمة تأخير الشمس والقمر أنه لو قال: رأيت الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا لي ساجدين، لتُوُهِّمَ أن الضَّمير في (رأيتهم) يعود إلى أحد عشر كوكباً فقط، فلم يُفِدْ سجود الشمس والقمر له، وقد خص الشمس والقمر بالذكر ولم يُدْرَجَا في عموم الكواكب فيقال مثلا: رأيت ثلاثة عشر كوكبا، لاختصاصها بالشّرَف(٣).

قال الدكتور زغلول النجار(٤): ثبت الآن أن الكواكب التي تدور حول الشمس أحد عشر كوكبا، بعدد إخوة يوسف - عليه السلام - وهذا إعجاز علمي لم يدركه العالم إلا قريبا جدا.

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٢/ ٦٧. (٢) البقرة/ ٩٨.

(٣) انظر تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٢، وروح المعاني/ ٦/ ٣٧١، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٤.

(٤) هو رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بوزارة الأوقاف بمصر، ومن القلائل المبرّزين في العلوم الكونية.



- **حديث اليهودي وكواكب يوسف - عليه السلام -:**

أخرج سعيد بن منصور والبزَّار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي وابن حبَّان في الضُّعفاء، وأبو الشيخ والحاكم وصحَّحه، وابن مرْدويْه وأبو نعيم والبيهقيُّ مَعاً في دلائل النبوَّة، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: جاء بُستاني يهودي إلى النبي - ﷺ - فقال يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف - عليه السلام - ساجدة له، ما أسماؤها؟

فسكت النبي - ﷺ - فلم يجبْه بشيء، فنزل جبريل - عليه السلام - فأخبره بأسمائها، فبعث رسول الله - ﷺ - إلى البستاني اليهودي، فقال: هل أنت مؤمنٌ إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: جرْثَان والطَّارق والذيال وذو الكفتان وقابس ودثان وهودان والفيلق المصبح والضروح والفريخ والضّياء والنور، رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مشَتَّتٌ يجمعه الله من بعد، فقال اليهوديّ: أي والله إنَّها لأسماؤها[1] وفي رواية قال: صدقْت يا محمَّد، ولم يُسْلِم.

والوضع ظاهر على هذا الحديث، قال ابن الجوزي: - رحمه الله - هو موضوع[2]، وقال الدكتور محمد محمد أبو شهبه: - رحمه الله - والذي يظهر لي: أنه من الإسرائيليات وأُلْصِقَتْ بالنّبي - ﷺ - زوراً، ثم إن يوسف - عليه السلام - رآى كواكب بصورتها لا بأسمائها، ثُمَّ مَا دَخْلُ الاسم فيما تَرْمُزُ إليه الرؤيا؟، ومدار هذه الرواية على الحْكَم بن ظهير، وقد ضعَّفَهُ الأئمة، وتركَه الأكثرون، وقال الجوزجاني: «ساقط» وهو صاحب حديث حُسْن يوسف، وقال الإمام الذهبي في «ميزان الاعتدال» قال ابن معين: ليس بثقة، وقالَ مرّة: ليس بشيء، وقال البخاري: مُنْكر الحديث،

---

(١) الدر المنثور/ ٤ / ٦.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤ / ٤٥٥.



وقالَ مرَّة: تركوه، وهو راوي حديث: «إذا رأيتُم معاوية على منبري فاقتلوه» فهل مثل هذا تعتبر روايته في مثل هذا، وبحسبه سقوطامقالة البخاري فيه «منكر الحديث» و(تركوه)(١).

حكمة تكرار (رأيت) في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: (رأيتهم) تكرار (رأيت)، وليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له، كأن يعقوب - عليه السلام - قال ليوسف - عليه السلام - عِنْد قوله (إنّي رَأَيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوكَباً)، كيف رأيْتَها؟ سائلا عن حال رؤيتها، فقال (رأيْتُهُم لِي سَاجِدِين)(٢) ويجوز أن تكون (رأيت) الثانية هذه للتوكيد باعتبار أن طول الفصل بالمفاعيل استدعى ذلك فجئ بـ(رأيتهم) تَطْرِيَةً وَتَنْويعاً للحديث(٣).

ويمكن أن يكون مجيئها أيضا لبيان حقيقة ثانية للرؤيا، فقد كان يمكن أن يقول: رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين، لكنه قال: (رأيتُ أحدَ عشرَ كَوكَباً وَالشّمس والقَمرَ رأيتُهم لي سَاجِدِين) لقد رآهم أوّلا غير ساجدين، ثم رآهم ثانية يَسْجُدون له، لأنه لو كان رآهم ساجدين من أول الأمر لكان يمكن أن يقال: إن وضْعهم هكذا ساجدين من أول الأمْر، فهذه حالهم، لكنه رآهم على الحقيقة أوّلا بدون سجود، ثمَّ رآى المنظر الثاني (رأيتهم لي ساجدين).

ولذلك تكررت كلمة (رأى) فرأى الأولى للحقيقة قبْل أن تسْجد، و(رأى) الثانية للحقيقة ساجدة، فليس في القرآن الكريم تكرار(٤).

والجار والمجرور (لي) لتأكيد الرؤيا وَالسُّجُود، وأن السجود كان له عليه السلام،

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / ٢١٩ / ٢٢٠.

(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٢.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٥١.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي / تفسير سورة يوسف / شرائط مسجلة.



وتقديم المجرور على عامله في قوله (لي ساجدين) للاهتمام، عبَّر به عن معنى تضمنه كلام يوسف - عليه السلام - بلغته يدل على حالة في الكواكب من التعظيم له تقْتضي الاهتمام بذكره فأفاده تقديم المجرور في اللغة العربية[1].

معنى السجود والمراد به هنا:

«ساجدين»: السجود: خضوع، وتذلُّلٌ، وطاعة، واحترام، وللسُّجُود في اللُّغَة أكثر من صورة، أقربها إلى أذْهَانِنَا صورة السجود في الصلاة، بعظامنا السَّبْع: الوجه والكفين والركبتَيْن والقدمين، خضوعاً لله تعالى، وهذا سجود باختيار، وهناك السجود الكَوْني الذي نَقْرَؤُه في قول الله تعالى: «وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ»[2].

ويأتي السجود في القرآن أيضاً بمعنى الحركة الدالة على الخضوع والتَّواضع وذلك -كمثال- في أمر الله تعالى لبني إسرائيل «وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً»[3] فالدخُولُ حَرَكَة، وَسُجَّداً: في تواضع لله تعالى، والسجود هنا مصاحب للحركة، بينما سجود العبادة والصلاة استِقْرَار[4]...

كيف سجدت الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ليوسف - عليه السلام -؟

من أهل التفسير من يرى أن حقيقة السجود هي المراد من قوله: «رَأَيْتُهُم لِي سَاجِدِين» فهو سجود يشبه السجود في الصلاة، لأنه الذي يتناسب مع ما وقع في آخر القصة حين حضر الجميع إلى مصر، واستقبلهم يوسف - عليه السلام - «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً» وكان ذلك جائزاً في شريعة يعقوب - عليه السلام - وجارٍ مجرى التحية والتكرمة ولم يكن سجود عبادة.

ويرى آخرون بأن المراد من السجود هنا هو التواضع والخضوع لا سجود العبادة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٨

(٢) الرعد/ ١٥. (٣) البقرة/ ٥٨.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ٢٥-٢٦.



في الصلاة، قال الإمام الفخر الرازي: كلاهما محتمل، ثم مال إلى الاتجاه الأول فقال: والأصل في الكلام حمله على حقيقته، ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له[1]، وقال الإمام أبو الطيب القنوجي البخاري: وَالأوَّلَ أوْلى[2].
أقول: وهو كذلك فعلا لأنه الموافق للظاهر، والله قادر على أن يريه الكواكب في أي صورة وفي أي هيئة. وعن هيئة السجود يقول المهايمي: ولم أر من تَعرَّض لهيئة السجود، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل، مستديرة ظهرت أو مستطيلة[3].

أقول: ولا داعي لهذا التقييد، فليبق اللفظ على إطلاقه وعلى ما يدل عليه حقيقة، والله أعلم.

لماذا أجْريت الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر مجري العقلاء في الضمير المختص بهم؟:

قال الإمام الزمخشري: فإن قلت: فلم أُجريت مجري العقلاء؟ في - (رَأيتُهُمْ لِي سَاجِدِين) -؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء، وهو السجود أجري عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يُلاَبِسَ الشيء، الشيءَ من بعض الوجوه فيعطى حكما من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة[4] وبطريق العكس، مَن عمل عَمَلَ غير العقلاء يعطى له حكمهم وإن كان عاقلا، ولذلك يُسَمّى العاصي جاهلا لأن المعصية لا تصْدُر من العاقل، قال الله تعالى حكاية عن قوْل يوسف لإخوته: «هَلْ عَلِمتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»[5].

• الإعجاز في رؤيا يوسف - عليه السلام:

إن العظمة في رؤيا يوسف - عليه السلام - أن الشمس والقمر جُمِعاً مَعاً، هذا

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٨٩.
(٢) تفسير فتح البيان/ ٦/ ٢٨٨.
(٣) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٣.
(٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٢.
(٥) القول المنصف في تفسير سورة/ ٢٥.



شيء عجيب، لأن الشمس إذا ظهرت تواري القمر، كما معلوم مشاهد، فلا يكون له نُورٌ وإن بدا، وهذه النجوم التي لا حَصْرَ لَها في السَّماء، خرج منها أحَدَ عَشَرَ كَوكَباً فقط، تَمَيَّزوا ليوسف - عليه السلام - في موقف، وَعَدُّهم، ومعنى ذلك أنَّهم كانوا في غاية الوضوح، فالإعجاز الأول، هو اجتماع الشمس والقمر، والإعجاز الثاني، بروز أحد عشر كوكباً فقط مِن بين الكواكب العديدة ثم، وأعتقد أنّه الإعجاز الثالث، أنه رآى لهم حركة خاصة ليست لهم في الحقيقة[١].

الرمزية في رؤيا يوسف - عليه السلام:

إن رؤيا يوسف - عليه السلام - لم تكن مَشْهَداً كونيّاً، بل كانت مشهدا رَمْزياً[٢].

إنَّ الَّذي يَنْظُرُ إلى الرَّمْز الذي رُمِزَ به في رؤيا يوسف - عليه السلام - لإخوته، ولأبيه، ولأُمّه بالأحد عشر كوكبا والشمس والقمر، يرى الصلة واضحة بين هؤلاء الصَّفوَة من الناس، وبَيْن الكواكب والشمس والقمر، في هذا العلُوّ..

وكما أن الكواكب والشمس والقمر منارات هُدًى للناس، فكذلك الشأن فيمن ترمُزُ إليهم هذه الأجْرَام العلوية، وأنَّهم هداية ونور يسعى بيْن الناس بالحق والعدْل والخير...

إن الرَّمزَ هو عُنْوَانُ الحقيقة، وهو الصَّدَف الذي يضم جوهرها، وَالكتاب - كما يقولون - يُقْرَأُ من عنوانه، وَالصَّدَفُ يَدُل على الجوْهر الذي بداخله[٣].

وبالنسبة ليوسف - عليه السلام - فإن رؤياه تخصه برمز فريد عن أبويه وإخوته، حيث كان الكل في حالة سجود له، هذا السجود هو رمز واضح جَلِيّ على علو مكانة يوسف - عليه السلام - فإن الساجد معظِّمٌ محتَرِمٌ للمسجود له، والمسجود له معظّم

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي / تفسير سورة يوسف / شرائط مسجلة.

(٢) دروس من سورة يوسف / ٢٥.

(٣) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة (الخطيب) / ٤٠٩.



محترم، فدل ذلك على أن يوسف - عليه السلام - يكون معظما محترما عند أبويه وإخوته، ولازم ذلك أن يكونُ مُجْتَبًا مفضّلا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال أبوه - عليه السلام - في تأويله لرؤياه «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ... الخ»(١) وقد أصبح - عليه السلام - آخر تأويل الرؤيا أمينا على خزائن الأرض، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا.

متى رأى يوسف - عليه السلام - هذه الرؤيا؟

لا شك أن يوسف - عليه السلام - قد رآى رؤياه هذه وهو صغير، والراجح أنه كان ابن ثِنْتَيْ عشرة سنة حين رآها، روي ذلك عن وهب، وعليه أكثر المفسرين، قال وهب: رآى يوسف وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثَبَتْ عليها حتى ابتلعتها، وفي رواية حتى اقتلعتها فغلبتها، ولعلها الأصدق، فذكر ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رآى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال: لا تذكرها لهم فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً(٢).

● كَمْ كان بَيْنَ الرؤية وَبَيْنَ تأولها؟:

اختلف أهل التفسير في المدة التي كانت بين الرؤيا وتمام تأويلها حين رَفَعَ يوسف - عليه السلام - أبويه على العرش - وهو سَرِيرُه - وإخوته بَيْن يديْه، وقَد خرُّوا له جميعا سجَّداً، وَالرَّاجِحُ أنها كانت أرْبَعين عاماً، وقد جاء في فتح الباري ما يؤيد ذلك حيث قال:

أخرج الطبري والحاكم والبيهقيُّ في الشّعب بسند صحيح عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال «كان بيْن رؤيا يوسف وعبارتها أربعون عاما» وذكر البيهقيُّ له

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٥٣.
(٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ٨٩.



شاهداً عن عَبْد الله بن شدَّاد وزاد «وَإليها ينتهي أمَدُ الرؤيا»(١) وهذا الزمن هو المناسب لاحتواء أحداث القصة ومدلُولاَتها، والله أعلم.

لماذا لم يَرَ يوسف - عليه السلام - رؤيا تدلُّ على ما سَيُصيبُه من شَرّ؟

كانت قد قُدِّرَتْ أشياء على يوسف - عليه السلام - لا بدّ منها، وذلك مثل امتحانه بمراودة امرأة العزيز إياه، ثم نِسْبَة المراودة إليه زوراً، ثم اختباره ثانيا بالنِّسوة المصريات، ثم سجنه ظلما، ولم يُنْذَرْ بشيء من هذه الأشياء، ولم ير عنها في منامه، ولكنه قُدِّرَتْ له أشياء أخرى، وذلك مثل سجود إخوته له، واجتباء ربه إياه، وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، وهذا النوع قد بُشِّرَ ببعضه مناما، وبُشِّرَ ببعضه الآخر بلسان أبيه يقظة، ولماذا هذه التفرقة يا ترى؟ أعني أنه لم يُنْذَر بما سَيُصَبُّ عليه، ولكنه بُشِّرَ بما سيصير له، وجوابنا على ذلك أنه من رحمة الله تعالى، أنَّ ما كان من قبل الخير يُبَشَّرُ به الإنسان ويوعد به قبل حصوله له بالفِعْل، وذلك لكي يتلذّذَ بالأمل بحصوله قبل أن يحصُل له بالفعل، وأما ما كان من قبيل الشَّرِّ فإنه لا يُخْبَرُ به إلا قبل وقوعه بقليل لئلا يتنغَّصَ به قبل وقوعه(٢).

رؤيا يوسف - عليه السلام - رؤيا إلهام:

إن هذه الرؤيا التي رآها يوسف - عليه السلام - ليْسَتْ مِنْ رُؤى الصِّبية ولاَ الغِلْمَان، وأقرب ما يراه غلام حين تكون رؤياه صبيا نيَّة، أو صَدًى لما يحلم به، أنْ يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حِجْره أو بيْن يَدَيه يَطُولُها، لكن يوسف - عليه السلام - رآها سَاجدة له متمثِّلة في صورة العقلاء الذين يُحْنُونَ رؤوسهم بالسجود تعظيما(٣) فهذه الرؤيا رؤيا إلهام، ولا يمكن أنْ تُعَدَّ من أضْغاث الأحلام،

---

(١) فتح الباري / ١٢ / ٣٩٣.

(٢) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ١٩٦-١٩٧.

(٣) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧١.



ولا سِيَّمَا خواطر غلام صغير كيوسف - عليه السلام -[1] إنه إذاً لم تكن من الرؤى المعتادة التي تَتَيَسَّرُ لكثير من الناس، ولكنها كانت رؤيا تَسْتَعْلِي على طبيعة البشر، وبالتالي فقد كانت إرْهَاصاً لأمْر عظيم، يتحقَّقُ على يَدَيْ ذلك الابن البار، لقد كانت الرؤيا بحق مُدْهِشة ليوسف - عليه السلام - فهي ليست من النوع الذي قد يَلُمّ بخاطر الإنسان فَتُخَزَّن في عقله الباطن، وتُفْرَزُ في النَّوْم على هيئة ما يتَخَيَّلُهُ الإنسان، ولم يكن يوسف قد بلغ العمر الذي يجعله يفكر في الرئاسة والجاه حتى يحلم بها، فَهِي إذاً بعيدة كل البعْد عن خَيال يوسف - عليه السلام - ومِنْ هنا كانت مدْهشة ليوسف استرْعت انتباهه ومَلكت عليه تفكيره[2] حتى أسرع يقصها على أبيه.

الرؤيا توطئة لأمر عظيم:

وهكذا إذا أراد الله تعالى أمراً من الأصول العظام، قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه.

---

(1) تفسير المنار / ١٢ / ٢٥٤.

(2) نظرات في أحسن القصص / ١ / ٣٠٥-٣٠٦.

رفع المسيهم

المضمون العام للآية الكريمة:

إنه في ليلة مباركة من ليالي الزمان، ليلة قال عنها العلماء إنها ليلة الجمعة في ليلة القدر - وهي لكل أمم الأنْبياء، والخصوصيّة فيها لهذه الأمة تضعيف ثواب العمل فيها(١) - شاءت رحمة الله تعالى وعنايته بعبده يوسف المصطفى من لدنه جل شأنه، أن يريه رؤيا تبشره بما قدَّره الله تعالى له من علُوٍّ ورفْعَةٍ وتمام نعمة، وهو لا يزالُ ابن الثانية عشرة.

وكان يوسف - عليه السلام - قد رآى وهو ابن سَبْع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حَتّى اقتلعتها فغلبتها، فَوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك فَيَكيدُوا لَكَ كَيْداً.

وفي رؤيا يوسف الأخيرة، رأى كأن الشمس والقمر وأحد عشر كَوكَباً، من كواكب السماء، تَتَنزَّلُ من عَلْيَائها إلى مستوى الأرْض وتَذِلُّ بيْن يديْه وتخضع له في صورة حركة تشبه السجود، وكان السجود من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما، كان سجود تكريم لا سجود عبادة.

وما أن طلع صبح تلك الليلة المباركة التي رأى فيها يوسف - عليه السلام - تلك الرؤيا العجيبة، حتى هبَّ من نومه وهو يذكر رؤياه بكل دقائقها وتفاصيلها، كأنه ما يزال يراها رأى العيْن، وَأَقْبَل على أبيه يعقوب - عليه السلام - يناديه ويقص عليه رؤياه، ويناجيه بها لاعتقاده كمال علمه وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوءُه لأمكنه صرْفها عنه(٢) ولأنه عَلِمَ بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أنَّ للرؤيا تعبيراً(٣).

وكانت الرؤيا ترمُزُ إلى علو مكانة يوسف - عليه السلام -، على أبويه وعلى إخوته جميعاً، فسبحان من أرى يوسف - عليه السلام - الشمس والقمر والأحد عشر

---

(١) انظر: روح المعاني/ ٦/ ١٢/ ٣٧٢.

(٢) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٢.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٠٨.



كوكباً مجتمعين، وسبحان السميع العليم الذي يصطفى من عباده من يشاء، ويهدي إليه من ينيب.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - للطفل استعداد يظهر على ملامحه وأقواله وأفعاله ورؤياه.

٢ - رحمة الوالد وشفقته الدائمة على ولده.

٣ - الودّ والاحترام والرحمة بالوالدين أمر واجب على الأولاد.

٤ - على من رآى رؤيا لا يعلم تأويلها ألا يقصها إلا على من يرى فيه العلم والصلاح والحب، حتى يكون تعبيرها له صادقا.

٥ - إن كان الرائي يعرف تأويل رؤياه، فإن كانت خيراً قصّها على من يحبّ، وإن كانت شرّاً استعاذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره.

٦ - الشمس والقمر والكواكب من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته تعالى وتمام قدرته وجلال عظمته.

٧ - السجود هو أعظم رمز للخضوع والتذلّل والطاعة، ولهذا فأقرب ما يكون العبد من ربه تعالى وهو ساجد، فليدعوه جل شأنه بما شاء.

٨ - كل مخلوقات الله تعالى في ملكه وملكوته اللامحدود، تسجد له طوعا أو كرها، كما قال تعالى: «وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا»(١).

٩ - الساجد خاضِع محترِم معظّم للمسجود له، والمسجود له معظَّم محترَم من الساجد.

١٠ - ثبوت الرؤيا شرعا بالكتاب والسنة والإجماع، ومشروعية تعبيرها لمعرفة ما تؤول إليه في الواقع.

١١ - الرؤيا الصادقة من بشائر النبوة والوحْي، وهي لغير الأنبياء جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

---

(١) الرعد/ ١٥.



«الآية الخامسة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «يَا بُنَيَّ» بفتح الياء قرأ حفص هنا وفي لقمان، والصَّافَّات، وابن كثير في لقمان (يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِك) وقنبل (يَا بُنَيْ أقِم) بإسكانها، وباقي السبعة بالكسر.

قوله تعالى: «لاَ تَقْصُصْ» قرأ العامة بفك الصّاديْن، وهي لغة الحجاز، وقرأ زيد بن علي بصاد واحدة مشددة، والإدغام لغة تميم[1]

قوله تعالى «رُؤيَاكَ» الجمهور على همزة (رُؤيَاكَ) على الأصل، وقرئ (رُويَاك) بقلب الهمزة واوا لانضمام ماقبلها، وقرئ (رَيَّاك) بالإدغام وضمّ الراء وكسرها ليناسب الياء، والإدغام ضعيف لأن القلب عارض[2].

وقرأ أبو عمرو والكسائي بإمالة ألف (رؤياك) والوجه أنها على (فُعْلَى) فهي مؤنثة، والألف للتأنيث، وألف التأنيث يجوز فيها الإمالة لأنها تجري مجرى المنقلب عن الياء، وقرأ الباقون بالفتح إلا أن نافعا يُضْجعها قليلاً، والوجه في الفتح أنه الأصل، والإمالة من الأحكام غير الواجبة، وأما إضجاع نافع فإنه إمالة إلا أنها غير مشبعة، وإنما فعل ذلك لئلا يعود إلى الياء التي يهربون منها حين يقلبون الياءَات ألِفَات[3].

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٢٨٠.

(٢) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٩.

(٣) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٦٨.



ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: فَيَكِيْدُوا لَكَ كَيْداً»

جاء في معنى الكَيْد لغة ما يلي: الكيد: الخَبْثُ والمكر، والكيد: الاحتيال والاجتهاد. والكيد: التَّدْبير بباطل أو حقّ. والكيد: الحرب. وتأتي كَادَ بمعنى طَلَبَ وأراد، وغير ذلك من معان. تقول: كاده يكيده كيْداً ومَكيدَة، وكذلك المُكَايَدَة، وكل شيء تُعَالجه فأنت تكيده(١).

قوله تعالى: «عَدُوٌّ»

من المعاداة، يقال: رجُلٌ عَدُوٌّ، وقوم عَدُوٌّ، قال الله تعالى: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»(٢)، (٣)، أيْ: إبليس وذريته عدوٌّ لآدم - عليه السلام - وذريته. وجمع عدوّ، أعداء، وكان سبيله أن يجمع على فعول فاستُثْقِلَ ذلك فيه(٤).

قوله تعالى: «مُبِيْنٌ»: ظاهر العداوة.

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ يَا بنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ»

(يا بُنَيّ) (يا) حرف نداء، و(بُنَيَّ) منادى مضاف لياء المتكلم، و(لاَ) ناهية؛ و(تقصص) فعل مضارع مجزوم بـ(لا) و(رُؤيَاك) مفعول به، و(على إخْوَتِكَ) جار ومجرور متعلقان بـ(تقص)

«فيكيدوا لكَ كَيداً إنَّ الشّيطَانَ للإنْسَانِ عدوٌّ مُبين»

(الفاء) سببية، و(يكيدوا) منصوب بأن مضمرة لأنه وقع جواباً للنَّهْي، و(الواو) فاعل، و(لك) متعلقان بـ(يكيدوا) و(كيْداً) يحتمل أن يكون مفعولاً مطلقاً مُؤكِّداً،

---

(١) انظر: اللسان / ٣ / ٣٨٣-٣٨٥.

(٢) البقرة / ٣٦.

(٣) المفردات / كتاب العين / ٣٢٦.

(٤) إعراب القرآن (للنَّحَّاس) / ٢ / ٣١٤.



ويحتمل أن يكون مفعولاً به، أي: يَصْنَعُوا لك كَيْداً، و(إنَّ الشّيْطان) إنَّ واسْمُها، و(للإنسان) حال، و(عدوّ) خبر إنَّ، و(مبين) صفة[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات. □

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٥٠.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

يعقوب - عليه السلام - يأمر ابنه يوسف - عليه السلام - بكتمان الرؤيا.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

وجه المناسبة:

لما قص يوسف – عليه السلام – رؤياه على أبيه يعقوب – عليه السلام – علم أن هذه رؤيا إلهام، وأن يوسف – عليه السلام – سيبلغه الله مبلغا عاليا، من النبوة والملك، وكان يعلم كراهة إخوته العشرة له، فخاف عليه حسدهم وبغْيهم فلذلك نصحه قائلاً: «قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ...»(١).

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ١١، وتفسير أبي السعود/ ٤ / ٢٥٢.

رفع المسهم

«يعقوب - عليه السلام - بين فرح وخوف»

لقد أصبح حال يعقوب - عليه السلام - بعد سماعه لرؤيا ابنه يوسف - عليه السلام - بين فرح وخوف.

أما الفرح: فبفضل الله تعالى ومنته الكبرى على ابنه يوسف - عليه السلام - بما بشر به في هذه الرؤيا المباركة التي كشفت له عن تحقيق الأمل الأكبر الذي طالما رجاه من مولاه عزو جل، وهو أن يحمل أحد أبنائه رسالة النبوة من بعده، كي تتواصل في ذريته، وكان ابنه يوسف - عليه السلام - هو رجاؤه من ذلك، فقد رآى فيه منذ صغره ونعومة أظفاره أمارات الخير والبِشر، ودلائل الاصطفاء والنجابَة، وكان النور الإلهي يتلألأ في وجهه الملائكي مُوحيا أنه سيكون له شأن عظيم، وما كان حاله هذا ليخفي على أبيه النبي والرسول - عليه السلام - ولهذا فقد كان إخبار يوسف له برؤياه تحقيقا لما كان يتوسمه فيه من جمال الطلعة وبهاء الحُسْن ووداعة النفس وصفاء القلب والطبع على الخلق الكريم.

وأما الخوف، فقد كان خوفيْن معاً.

(أولهما) الخوف على يوسف - عليه السلام - من إيذاء إخوته له، لأنهم حين يعلمون بأمر هذه الرؤيا ويستشعرون ما تَحْمِلُه من خيْر عظيم لا يُطال، ينتظر أخاهم يوسف الصغير غير الشقيق، فسوف يحسدونه ويكيدون له، فالأخ لا يحبُّ أن يكون أخوه خيرا منه، بعكس الأب الذي يُفرحه ويُسعده أن يكون ابنه خيراً منه مكانة وأعظم شأناً، لأن الابن قطعة حبيبة من كيان الأب كله ومدد له وذكرى، فالأمر كما قال الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله -: «لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ» أنا «يعقوب - عليه السلام - مأمون عليك، إخوتُكَ غير مأمونين عليك، إنهم الآن في ضيقٍ من مركزه وهو طفل لشدَّة حُبِّ أبيه له، فما بال الأمر إذا اشتدَّ وبلغ وتعدى مركزُه الإخوة والأب جميعا[1].

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي تفسير سورة يوسف شرائط مسجّلة.



ذلك أن النعمة التي بُشِّر بها يوسف في رؤياه، تقتضي السيادة على الجميع، ومن فطرة الإنسان وطبيعته أنه لا يحب أن يخضع لأحد؛ خاصّة إذا كان ذلك الخضوع من إخوة كبار لأخ صغير وغير شقيق، فقد جرت العادة أن يطيع الأخ الصغير أخاه الكبير ويخضع له، فكيف إذا حدث العكس، لاشك أن الحسد سيزداد، وأنَّ ناره سَتَتَأجَّجُ في الصدور غَلاًّ وحِقْدا وكيداً، لهذا كانت الحكمة من نَّهيه عن أن يَقُصَّ رؤياه على إخوته.

(ثانيهما) الخوف على إخوة يوسف من كيْد الشيطان وعداوته، فيتَّخِذَ من حديث الرؤيا ذريعة له ليدخل إلى قلوبهم فيملؤها بالحقد والحسد على أخيهم يوسف، فيكيدون له ويعملون على إهلاكه، فيصيبهم غضب الله وعقابه، وهذا بالطبع ما لا يرضاه أب عاقل لأبنائه، فكيف بيعقوب - عليه السلام -، وهو الأب الرحيم والرسول الكريم، لهذا فقد رآى في كتمان الرؤيا عن إخوته خير وسيلة لغلق أبواب الشرّ والحسد أمامهم، ويكون يوسف - عليه السلام - بهذا الكتمان قد أعان إخوته على السلامة ممّا يمكن أن يقعوا فيه إذا هم علموا برؤياه، وقد جاء في الحديث: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»(١)...

وهذا الموقف من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة أكيدة على أن يعقوب - عليه السلام - قد أخذ الرؤيا على أنها قضية مسلمة، واستنتج منها استنتاجات بعيدة الغوْر، عميقة المغزى، وبني عليها أحكاما(٢).

وهذه الجملة «قالَ يا بُنيّ» استئناف مبني على سؤال كأنه قد قيل: فماذا قال الأب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة من ابنه يوسف فقيل: «قال يا بُنيّ»(٣)...

وهذا التصغير (يا بني) للترحّم والشفقة وخطاب التّحنين والقُرْب من القلب، ولعذوبة المصغّر، ويسمّى النحاة هذا التصغير تصغير التّحبيب، وما ألطف قول بعض المتأخرين:

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقيّ وغيرهما عن عمر بن الخطاب.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٥٤.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٣٧٣.



قد صغَّرَ الجوهر في ثَغْرِه *** لكنـه تصغـير تحبيـب[1]

وهذا التصغير أيضاً لصغر يوسف - عليه السلام - أي أنه ما زال غلاماً صغيراً يحتاج إلى الرعاية، فلم يبلغ الثانية عشر عاماً...

والنداء بـ(يا بني) مع حضور المخاطَب مستعمل في طلب إحضار الذّهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه[2].

«لا تقصُصْ رُؤْيَاكَ عَلى إخْوَتِكَ»

والقصص في قوله: «لاَ تَقْصُصْ»: حكاية الرؤيا، يقال: قص الرؤيا، إذا حكاها وأخبرها، والرؤيا - بألف التأنيث - هي رؤية الصور في النوم، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث، وهي بوزن البُشْرى والبُقْيا، وقد سبق الكلام عنها بالتفصيل في (مبحث الرؤيا).

والمراد بإخوة يوسف، العشرة غير الأشقاء، أما أخُوه (بنيامين) الشقيق وهو أصغر منه، فلا يدخل معهم، وهو الأخ الحادي عشر ليوسف.

سبب النهي عن قص الرؤيا:

ثم سبب عن النهي قوله: «فيَكِيدُوا لكَ كَيْداً»[3]

معنى الكَيد: ورد لفظ (الكَيْد) في مواضع كثيرة من كتاب الله عزّو جل، مثل قوله تعالى: «وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»[4] وقوله سبحانه: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا»[5] وجاء في هذه السورة الكريمة، في هذه الآية، وفي قوله تعالى بعد منتصف القصة: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»[6].

والكيد: التدبير بباطل أو حق، والكيد: الحرب، سمّيت كيدا لما فيها من الخَتْل

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٢٨١، وروح المعاني/ ٦/ ٣٧٣، وتفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٢. (٣) نظم الدرر/ ٤/ ١١.

(٤) القلم/ ٤٥. (٥) الطارق/ ١٥-١٦. (٦) يوسف/ ٧٦.



والخديعة، وتأتي (كاد) بمعنى طلب، وأراد، وغير ذلك[1] يقال: كاده، إذا وجّه إليه الكيد مباشرة، وكاد له، إذا دبّر الكيد لأجله، سواء كان لمضرّته، وهو المراد هنا، أو لمنفعته، ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف - عليه السلام - لإبقاء أخيه عنده «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»[2].

والكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته، فلا يكيد إلا الضعيف، أما القوي فلا يكيد لأنه يُواجِهُ من يريد النيْل منه، الله تعالى يقول عن النساء. «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ»[3] لأن ضعفهنّ أعظم، فلا يكيد إلا الضعيف، القويّ يفعل بعدوّه ما يشاء، وقد يتركه ويقول له: في أي وقت أستطيع أن آتى بك وأفعل بك ما أشاء أما الضعيف فحينَما يتمكَّن من خصمه فيقول: هذه فرصة قد لا تتكرر، أقْضِ عليه، أقْتُلْه، كما قال الشاعر:

وضعيفَةٍ فإذا أصابت فُرْصَةً قَتَلَتْ

كذلك قدرة الضُّعَفَاء[4]

وقد اختلف أهل العربية في دخول اللام في قوله (فَيَكِيْدُوا لَكَ كَيْداً»

فقال بعض نحويّ البصرة: معناه: فيتخذوا لك كيداً، وليست مثل (إِنْ كُنْتُم للرُّؤيَا تَعْبُرُون) تلك أرادوا أن يوصل الفعل إليها باللام، كما يوصل بالباء، كما تقول: قدَّمت له طعاما: تريد قدَّمت إليه، وقال: (يأكُلْنَ ما قدمْتُم لهنّ) ومثله قوله: (قُل اللّهُ يَهْدِي للحَقِّ) قال: وإن شئت كان: فيكيدوا لَكَ كَيْداً، في معنى: فيكيدوك، وتجعل اللام مِثْل (لربهم يرهبون).

وقال بعضهم: أُدْخِلَت اللام في ذلك، كما تدخل في قولهم: حَمَدَّتُ لَكَ، وشكرْتُ لكَ، وحمدتُّك، وشكرتُك، وقال: هذه لام عليها الفعل، فكذلك قوله (فيكيدوا لك

(١) التّدبّر الأمثل لكتاب الله عزوجل/ ٤٥٦.

(٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٤. (٣) يوسف/ ٢٨.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي / تفسير سورة يوسف / شرائط مسجّلة.

كيداً) تقول: فيكيدوك، ويكيدوا لك فيقصدوك، ويقصدوا لك، قال: وكيداً: توكيد(١).

لماذا قال الله تعالى: «فيكِيْدُوا لكَ» ولم يقل «فيكيدُوك»؟

لأن (يكيدُني): يفعل بي شرًّا مستوراً، لكن (يكيدوا لك) سيفعلونه على أنه شرٌّ من جهتهم، إنما سيكون خيرا لك أنت، فيكون كيدهم لمصلحتك(٢).

(مسألة)

ربما قيل: كيف قص يوسف - عليه السلام - رؤيا على أبيه يعقوب - عليه السلام - كأنه مصدّق بها، وكيف أمره أبوه بكتمان ذلك بقوله: «لا تقصص رُؤيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ»، كأنه عالم بصدق الرؤيا، مع أنها قد تخطئ وتصيب، وكيف قال: «فَيَكيدُوا لَكَ كَيْداً» فأخبر عن أمر مستقبل لا يعرفه؟

وجوابنا أن مثل ذلك قد يعمل فيه بالظن فلا ينبغي ألا يُفْعَل إلا باليقين، ويحتمل أنه عرف من إخوته من قبل ما يوجب أن يأمره بالكتمان وما يعلم عنده أنهم لو وقفوا على هذه الرؤيا لكادوا له، ولو كان مثل ذلك لا يصح إلا مع العلم لقلنا إنه تعالى قد أوحي إليه إما جملة وإما تفصيلا(٣).

ولما كانت العادة جارية بأن شفقة الإخوة تمنع ذلك علّله تقريبا له بقوله:

«إنَّ الشَّيْطانَ للإنسَانِ عَدُوٌّمُبِين»(٤)

فهذه الجملة تعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته(٥) وهي كذلك بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد(٦) كأن يوسف - عليه السلام - قال: كيف يقع ذلك منهم؟ فنبّهه أبوه - عليه السلام - بأن الشيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدوّ للإنسان

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٣. (٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن/ ١٨٩. (٤) نظم الدرر/ ٤/ ١١.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٤.
(٦) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٤.



مظهر للعداوة مجاهر بها[1] ومعنى الجملة: إن الشيطان لآدم وبنيه عدوّ، وقد أبان لهم عداوته وأظهرها، فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك فيحسدوك إن أنت قصصت عليهم رؤياك[2].

فقد برأ - عليه السلام - بنيه من الكيد وأسنده إلى الشيطان كي ينزع من قلب يوسف أي أثر قد يتركه سلوكهم المنحرف معه في المسْتقبل، وهذا هو اللائق بمن كان في مرتبته التي اختصه الله تعالى بها، والتي لا تعرف سوى سلامة الصَّدْر، وصفاء القلْب، ونقاء الباطن، وحُبّ الخير للناس جميعا، ومن لم يكن كذلك لم يصلح لهداية البشر[3].

إذا فقول يعقوب ليوسف: ﴿إنّ الشيطَانَ للإنسَانَ عدومُّبين﴾ ارتفاع بيوسف النبي المرتقب إلى أخلاق النبوة العالية، حتى لا تكون هناك سحابات مظلمة، أو شُبَهٌ مَضَلِّلَةٌ تطرأ على قلب يوسف الصافي الوديع، بسبب ما قد يقع من إخوته بعد ذلك، ليظلّ يوسف على صفاء قلبه وسلامة صدره ونقاء سريرته، وحُبِّه الخير لإخوته مهما فعلوا، ولقد حدث ذلك فعلا حينما التقي بهم في نهاية القصة إذ قال لهم: ﴿لا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[4].

إنه الأدب العالي من سماء النبوّة إذاً، ذلك الذي دعا يعقوب - عليه السلام - ابنه يوسف إلى إخفاء الرؤيا عن إخوته، رحمة بيوسف وبإخوته، فذلك طريق السلامة ودوام الألفة والمودّة.

ولقد أخفى يوسف - عليه السلام - الرؤيا عن إخوته ولم يقصها عليهم، امتثالا لأمر أبيه له، وهذا المعنى هو المتبادر من الآية الكريمة، وهو المناسب لكماله - عليه السلام - الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه[5].

---

(١) فتح البيان / ٦ / ٢٨٩ (٢) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ١٥٢.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٣٩ (٤) يوسف / ٩٢.

(٥) أنظر: تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢١٤-٢١٥.



«درس لكل أب»

إن يعقوب - عليه السلام - لم يسند الكيد مباشرة إلى إخوة يوسف، وإنما علل ذلك الكيد بأنه راجع إلى الشيطان، ولا شك أن في هذا دلالة أكيدة على حرصه - عليه السلام - على تجميع قلوب بنيه على المحبّة والمودّة والتآزر، إذ بين لابنه يوسف - عليه السلام - أن هذا الكيد من الأمور الطبيعية التي يمر بها البشر، لأنه من عمل الشيطان، إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وبهذا برّأ يعقوب بنيه من الكيد وأسنده إلى الشيطان، كي ينزع من قلب ابنه يوسف أي أثر قد يتركه إساءتهم إليه في المستقبل.

رفع المسا هم

«عداوة الشيطان للإنسان»

لا شك أن العداوة الأبديّة بين آدم - عليه السلام - وإبليس اللعين، لها مدخل بالغ الأثر في مسيرة قصة يوسف - عليه السلام - والدَّفْع بإخوته ليكيدوا له ويمكروا به، ويقول يعقوب - عليه السلام - ليوسف: «يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»، فمن هو إبليس؟ وما قصة هذه العداوة الأبديَّة؟ وكيف تبدأ مع كل إنسان من المهد وتَسْتَمرُّ إلى اللَّحد؟ وما الفرق بين عداوة الشيطان للإنسان وعداوة الإنسان للإنسان؟ وما هي غواية الشيطان وإضلاله؟

(أ) من هو إبليس؟

يطلق على إبليس وذريّته وأعوانه اسم (الشيطان)، وهو الاسم العلم الذي عُرِف به عدوّ الله، وهو اسم يدل على العُتُوّ والتمرّد، مأخوذ من شَطَنَ إذا بعد عن الخير، أو من شاط يشيط إذا هلك، أو شاط إذا احترق، وكل عات متمرّد من إنس أو جنّ أو دابة، شَيْطان، قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ»(١).

وقد اختلف أهل العلم في أصل الشيطان، هل هو أصل الجنّ أو واحد منهم؟

فبعضهم يرى أن الشيطان واحد من الجنّ لقوله تعالى: «إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»(٢).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن الشيطان أصل الجنّ كما أن آدم - عليه السلام - أصل الإنس(٣) يريد بالشيطان إبليس هذا،

وقال آخرون: إذا أريد الجن خاصة قيل: جِنِّيٌّ، فإن أريد من بسكن مع الناس قيل: عَامِر، فإن كان ممَّن يتعرَّض للصِّبْيَان قيل: أرْوَاح، فإن خبث وتعزَّم قيل: شيطان،

(١) الأنعام/ ١١٢. (٢) الكهف/ ٥٠.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية/ ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.



فإذا زاد على ذلك قيل: مَارد، فإن قوي على نقْل الصّخور وتَفرْعَنَ قيل: عفْريت، كما جاء في قوله تعالى: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ»(١)،(٢).

أصناف الجن:

والجنُّ ثلاثة أصناف، فَقَدْ أخرج الحاكم في مستدْركه وقال صحيح الإسناد، عن أبي ثعْلَبة الخُشَنِيِّ قال: قال رسول الله - ﷺ -: الجنُّ ثلاثة أصناف، صنْف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حَيَّاتٌ وكلاب، وصنْفٌ يحلُّونَ وَيظعنون - أي يرتحلون. والجنُّ يتصورون ويتشكَّلون في صور الإنس والبهائم والحيَّات والعقارب والإبل والبقر والغنم والخيْل والبغال والحمير والطير.

وقد ورد ذكْر كلمة (الشيطان) في القرآن ثمان وستّين مرّة، ووردت كلمة (الشياطين) سبع عشرة مرة، ووردت كلمة (شيطانا) مرّتان، ووردت كلمة (شياطينهم) مرّة واحدة، ووردت كلمة (الجنّ) ثنْتيْن وعشرين مرّة، وهذا يدلّ على عظيم اهتمام القرآن العظيم ببيَان حقيقة الشيطان وعداوته الأبدية للإنسان، والإفصاح عن طرقه ووسائله الخبيثة لإضلال الإنسان وغوايته، والتّحْذير الشديد من فتنته وكيْده.

(ب) قصة العداوة الأبديّة بين الشيطان والإنسان:

إن إبليس الملعون قد خُلق قبل آدم - عليه السلام -، قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ»(٣) وأخرج الحاكم في المستدرك وصحّحَهُ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال الله تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا... الآية»(٤)، وقد كان فيها قبل أن يخلق آدم بألْفَيْ عام، الجنّ بنو الجانّ، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدّماء، فبعث الله عليهم جنودا من الملائكة فضربوهم حتى ألقُوهم بجزائر البحور، فلما قال الله تعالى:

---

(١) النمل/ ٣٩. (٢) فتح الحق المبين/ ٢٩. (٣) الحجر/ ٢٦-٢٧ (٤) البقرة/ ٣٠.



«إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء، أي كما فعل أولئك الجان.

والجان أصله من نار وآدم من طين، قال الله تعالى حكاية عن إبليس اللعين: «قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ»(١) وفي الحديث الذي أخرجه مسلم -رحمه الله- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال النبي - ﷺ -: خُلقَت الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم» ولقد أضاف الله تعالى آدم، إلى التراب والطِّين والفَخَّار، والمراد به في حقِّه أن أصله الطِّين وليس طينا حقيقة كما هو واقع مشاهد، وكذلك الجان، فقد أضافه الله تعالى إلى النار، والمراد به في حقِّه أن أصله النار وليس ناراً حقيقة، والدليل على ذلك قوله - ﷺ - «عُرِضَ لي الشيطان في صلاتي فَخَنَقْتُه فوجدت بَرْد ريقه على يدي» رواه البخاري وأحمد، وهذا يدل على أنَّه ليس نَاراً حقيقة، كما أن آدم - عليه السلام - ليس طيناً حقيقة، إذ لو كان الشيطان ناراً لما كان له ريق بارد، بل لم يكن له ريق أصلا، كما أن الله تعالى يسلِّطُ عليهم الشُّهُب النّارية فتحرقهم، قال الله تعالى على لسانهم: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا»(٢) فالشُّهب تضرُّهم وتحرقُهُم.

ولقد قص علينا القرآن الكريم أن الله تعالى لما خلق آدم - عليه السلام - أمر الملائكة المكرمين بالسجود له فسجدوا جميعا، ولكن كان هناك مخلوق يتعبَّدُ معهم وليس من جنسهم، إذ أنهم خُلِقُوا من نور وهو قد خلق من نار - كما ثبت في الصحيح - فخانه أصله ساعة الابتلاء فأبى أن يسجد لآدم متعلِّلاً بأنه أشرف منه، فقارن بيْن أصله وأصل آدم على غير حق، ولم يلتَفتْ إلى الآمر بالسجود وهو الله عزو جل، قال الله تعالى: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ»(٣)، (٤).

والمعنى: هل استكبرْت عن السجود الآن أم لم تَزَلْ من القوْم الذين يتكبرون

---

(١) الأعراف/١٢. (٢) الجنّ/٩. (٣) صٓ/٧٥.

(٤) الْعَالين: جمع عال، والمراد: المتطاول المستبدّ.



عن ذلك، فأجاب اللعين بقوله: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ»(١) هنالك صدر الأمر الإلهي بطرْدِ إبليس ولَعْنه، قال الله تعالى: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»(٢).

من هنا بدأت العداوة من إبليس اللعين، لآدم - عليه السلام - وذرّيته، فقد ربط الملعون لعْنَةَ الله له بآدم ولم يرْبطها بعصيانه هُوَ لأمْرِ الله تعالى بالسجود لآدم، وفكر في الانتقام والتَّشفّي من آدم وذريته وخطَّط لذلك ونطق على عجل قائلاً: «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»(٣) لقد طلب من الله تعالى النَّظْرة إلى يوم البعْث لا لِيَتُوب إلى الله تعالى من ذنبه وعصيانه لربه ويكفِّر عن جُرمه العظيم، ولكن لينتقم من آدم وذرّيته بلا ذنب منهم تجاهه، وأجابه العزيز الجبَّار بقوله: «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ»(٤)، ولما اطمأن الملعون لبقائه إلى يوم البعث أعلن عن خطَّته الشيطانية بكل صفاقة وتبجُّج قائلاً: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»(٥) إن الملعون قد أخذ العهد على نفسه أن يَشُنَّ حرْباً شرسة لا هوادة فيها ولا رحمة ولا توقّف، على آدم وذريَّته إلى يوم الدين، حرب ضَلال وإضلال وغواية وصدّ عن سبيل الله تعالى، وأول ما بدأ به هو إغواء آدم وزوجه حواء عليهما السلام حتى أكلا من الشجرة التي حرَّمها الله تعالى عليهما، وقد ورد ذلك في كتاب الله الكريم في أكثر من موضع وفي أكثر من سورة، من ذلك قوله تعالى: «فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»(٦) ومن رحمة الله تعالى أنه قد تاب على آدم وحواء وجعل التوبة إلى الله تعالى في ذريتهما من بعدهما، قال تعالى: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»(٧).

---

(١) ص/ ٧٦ (٢) ص/ ٧٧/ ٧٨. (٣) ص/ ٧٩ (٤) ص/ ٨٠-٨١.
(٥) ص/ ٨٢-٨٣. (٦) الأعراف/ ٢٢-٢٣. (٧) طه/ ١٢١/ ١٢٢.

رفع المسابهم

وبعد حادثة الإغواء والأكل من الشجرة أمر الله الجميع بالهبوط من الجنة إلى الأرض لتَسْتَمِرَّ العداوة الأبدية بين إبليس وذريته وبين آدم وذريته، قال تعالى: «قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»(١).

(جـ) العداوة الشيطانية للإنسان من المهد إلى اللَّحد؟

تبدأ الحرْب الشيطانية ضد الإنسان منذ اللحظة الأولى لولادته، حين يهجُم عليه الشيطان الهجمة الأولى فيطعنهُ في جنبيْه بأصْبُعَيْه، ودليل هذا ما رواه البخاري - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ بني آدم يُطْعَنُ في جنبيْه بأصْبُعيه حين يولد، غير عيسى بن مريم، ذهب يَطْعَنُ - أي الشيطان - فطعَنَ في الحجاب» ولذلك يستهلُّ المولود صارخاً من طعنة الشيطان، وعن أبي هريرة - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال: «مَا من مولودٍ إلا نَخَسَهُ الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمّه»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم: «وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٢) وتستمر العداوة الشيطانية للإنسان وتدوم طول عمره كله حتى يسأل في القبْر ويجتهد الشيطان أن يفتن الإنسان للمرَّة الأخيرة، ولكن الله برحمته يثبت المؤمنين ويلهمهم الجواب الحق، قال الله تعالى: «يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ... الآية»(٣).

(د) الفرق بيْن عداوة الشيطان للإنسان وعداوة الإنسان للإنسان:

إن عداوة الشيطان للإنسان عداوة أبديّة مدى الحياة، لا تنفكُّ أبداً ولا تنقطع في لحظة من لحظات حياة الإنسان، ولقد قال رجل للحسن البَصْرى: أينَامُ إبليس؟ قال؟ لو نام لوجدْنا راحة، وهذه العداوة الشيطانية تختلف عن عداوة الإنسان للإنسان، والله العليم الحكيم قد أمر بمصانعة العدوّ الإنْسِيِّ والإحسان إليه ومعاملته بالحسنى وعدم ردّ السَّيِّئة بالسّيِّئة، ولكن بالعفو والإحسان والقول الجميل، وذلك قصْداً لِردّ العدُوِّ

(١) الأعراف/ ٢٤. (٢) آل عمران/ ٣٦. (٣) إبراهيم/ ٢٧.



الإِنْسِيِّ إلى الحب والموالاة والمصافاة، قال الله تعالى: «وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»(١).

أما الشيطان فإنه لا يقبل من الإنسان مصانعة ولا إحسانا ولا شيئا مطلقا، ولا هدف له إلا الإضلال والغواية والتكفير والعياذ بالله تعالى. والقرآن الكريم قد أفصح عن عداوة الشيطان الأبديه للإنسان في عشرات الآيات من كتاب الله الكريم، من ذلك قوله تعالى: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ»(٢).

وكذلك جاءت السنة بأحاديث شريفة صحيحة تؤكد عداوة الشيطان الأبدية وتحذِّر من إضلاله وغوايته، من ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه التِّرمذي - رحمه الله - وحسَّنه عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الشيطان يَلْتَقِمُ قَلْبَ ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى خَنِسَ عنده، وإذا نَسِيَ الله الْتَقَمَ قَلْبَه» وهكذا يداوم الشيطان الملعون حرْبه الشرسة الملعونه ضد الإنسان ولا يتركه حتى وهو نائم، بل يُرِيه الأهاويل ليحزنه ويرْعبه كما سبق في بحث الرؤيا.

(هـ) طرق غواية الشيطان وإضلاله:

للشيطان مراتب في إغواء الإنسان، جمعها ابن القيم - رحمه الله في ستّ مراتب، تبدأ من محاولة تكفير الإنسان وإشراكه بالله تعالى ومعاداة رسوله محمد ﷺ، فإذا لم يستطع ذلك انتقل إلى المرتبة التي بعدها حتى السّادسة، وهي أن يشغله بالعمل المفضُول عن الفاضل، وللشيطان طرق أيضاً في إضلال الإنسان، وأهمها:

١ - تزيين الباطل. ٢ - تسمية المعاصي بأسماء محبَّبة.

٣ - تسمية الطاعات بأسماء منفِّرة. ٤ - الدخول إلى النفس من أحب الأبواب إليها.

---

(١) فصّلت/ ٣٤-٣٥. (٢) فاطر/ ٦.



٥ - التدرّج في الإضلال. ٦ - الصَّدّ عن الحق.

٧ - إظهار النّصح. ٨ - الاستعانة بشياطين الإنس والجن لإحكام قبضته على الإنسان، وذلك خاص بالقَرين، ومن المعلوم أن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم كما جاء في الصحيح، وأنه يمارس مهمَّته النّارية عن طريق الوسوسة بغير صوت، ولا يقدر المؤمن على دفع الشيطان وشرِّه إلا باللجوء إلى الله تعالى والاستعانة به جل شأنه: قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١) ومن رحمة الله تعالى وسنّته أنّه لم يجعل للشيطان سلطانا على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(٢).

المضمون العام للآية الكريمة:

لما قص يوسف - عليه السلام - رؤياه لأبيه يعقوب - عليه السلام - علم منها أن الله تعالى سيهب يوسف مكانة عالية عظيمة، وينعم عليه بشرفي الدنيا والآخرة، وأنه سيسود أهله جميعاً حتى يسجد له أبواه وإخوته، وتوقع - عليه السلام - أن إخوة يوسف لو سمعوا بهذه الرؤيا وما فيها من بشريات جليلة ليوسف تجعله الرئيس الأعلى عليهم، لوقع الحسد منهم ليوسف فيكيدون له كيداً عظيماً للتخلص منه، لهذا نهاه أبوه - عليه السلام - أن يقص رؤياه عليهم، حتى لا يتخذها الشيطان ذريعة لإثارة إخوته ضده، فإن الشيطان للإنسان عدو مبين، يتربّص الشّر بالإنسان ويستغلّ كل حدث للوقيعة بين الناس وإثارة العداوات والخصومات بينهم، ولقد أراد يعقوب -عليه السلام- من النهي عن إفشاء الرؤيا، الرحمة بأبنائه جميعاً وحب الخير لهم، والخوف من أن يقع بينهم عداوة أو خصومات، والمؤكد أن يوسف -عليه السلام- التزم بهذا النهي الصادر له من أبيه، فلم يقصص رؤياه على أحد.

---

(١) فصّلت/ ٣٦. (٢) الإسراء/ ٦٥.

رفع المسيهما

سابعاً: من فيض نور الآية الكريمة:

١ - في الآية الكريمة ما يؤكد معرفة يعقوب - عليه السلام - بتأويل هذه الرؤيا، وأنه قد أخذها من فم ابنه يوسف - عليه السلام - كقضية مسلمة.

٢ - في الآية الكريمة دليل على أنه لا نهي عن الغيبة للنصيحة، وأنه يباح أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه عليه ولا يكون ذلك داخلاً في الغيبة.

٣ - يطلب كتمان النعمة أمام من تخشى غائلته حسداً وكيداً حتى توجد وتظهر على أرض الواقع.

٤ - ألا نفصح عما في نفوسنا إلا بقدر الضرورة، وأن نحافظ على إخفاء بعض الحقائق التي يترتب على البوح بها موقفاً عدائياً من الناس.

٥ - عداوة الشيطان للإنسان عداوة أبدية دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٦ - من كيد الشيطان للإنسان إيقاع العداوة بين الأقرباء وخاصة أفراد الأسرة الواحدة، لينفرط عقدهم ويقضوا عمرهم في الشحناء والبغضاء فيكون الخسران للجميع.

٧ - على المسلم أن ينسب ما يصدر من أخيه المسلم من أمور سيئة للشيطان، ليسهل عليه دائماً يعفو ويصفح حتى لا تدوم القطيعة التي يريدها الشيطان.

٨ - على رب الأسرة الاستمرار في مراقبة أحوال أسرته وبذل كل مستطاع للحفاظ على ترابطها ووحدتها وتعاونها.

٩ - على كل مسلم الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وطلب الاستعانة منه جل شأنه، كلما زين له الشيطان قبيحاً أو وسوس له بالشر.



«الآية السادسة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «يَجْتَبِيْكَ» الاجتباء: الاصطفاء، افتعال من جبيْتُ الشَّيءَ إذا حصَّلْتَهُ لنفسك، ومنه، جبيْت الماء في الحوْض إذا جمعته فيه(١).

والاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء، قال الله عزّو جل: «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ»(٢).

قوله: تَأوِيلُ الأحَادِيث»

التأويل: إرجاع الشيْء إلى حقيقته ودليله، والأحاديث اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة، والمراد بها الرؤيا، وتأويلها: عبارتها وتفسيرها(٣).

رابعاً - الإعراب:

«وكَذَلكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ»

(كذلك) نعت لمصدر محذوف، أي: كما اجتباك واختارك لهذه الرؤيا العظيمة يجتبيك لأمور عظام، و(الكاف) مفعول يجتبيك، و(ربك) فاعل، و(يعلمك) ليس عطفا على يجتبيك ولكنه كلام مستأنفٌ كأنه قيل: وهو يعلّمك ويتم نعمته، و(من تأويل) جار ومجرور متعلقان بـ(يعلمك)، و(الأحاديث) مضاف إليه.

---

(١) تفسير الكشاف/٢/٣٠٣.

(٢) المفردات (كتاب الجيم)/ ٨٩.

(٣) انظر: تفسير الكشاف/٢/٣٠٣.



﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ عطف على (يعلمك) و(نعمته) مفعول به، و(عليك) جار ومجرور متعلقان بـ(نعمته) أو بـ(يتم) و(على آل يعقوب) عطف عليه.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(كما أتمها) نعت لمصدر محذوف، أي: إتماما مثل إتمامها على أبويك، و(على أبويك) متعلقان بـ(أتمَّها) و(من قبل) حال، و(إبراهيم) بدل من (أبويك) أو عطف بيان، و(إسحاق) عطف على (إبراهيم) و(إن) واسمها وَخَبَرَاها.[1]

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

---

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه، وانظر: الدرر المصون / ٦ / ٤٤٠-٤٤١، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٣٠، وإعراب القرآن للنحاس / ٢ / ٣١٤.



سادساً - التفسير والبيان:

«تأويل رؤيا يوسف - عليه السلام -»

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

وجه المناسبة: ولما نبهه - عليه السلام - على أن لرؤياه شأنا عظيما وحذّره مما حذره، شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال[١]:

«وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» (البشارة الأولى)

والإشارة في قوله: «وكذلك» إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية[٢] ومعنى الجملة: أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر، يجتبيك ربك ويحقق فيك تأويل الرؤيا، فيجعلك نبيا، ويصطفيك على سائر العباد، ويسخّر لك كما تَسَخَّرَتْ لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك، فصارت ساجدة لك[٣].

عن ابن عباس في قوله: «وَكَذَلكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» قال: يصطفيك، وروي عن عكرمة وقتادة مثله[٤] وقال الإمام الماوردي: قوله عزو جل: «وَكَذَلكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» فيه ثلاثة أقاويل: (أحدها) بحسن الخَلْق والخلق. (الثاني) بترك الانتقام. (الثالث) بالنبوة، قاله الحسن[٥] وروي عن مقاتل، للسجود لك، وقال الزمخشري: لأمور عظام[٦].

قال الإمام الألوسي - بعد أن ذكر بعض أقوال العلماء:

فيشمل ما تقدّم، وكذا يشمل إغناء أهله ودفع القحط عنهم ببركته وغير ذلك[٧]

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٧٦-٣٧٧. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٥.

(٣) فتح القدير/ ٣/ ٧.

(٤) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٣، والدر المنثور/ ٤/ ٧.

(٥) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٤٦. (٦) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٣.

(٧) روح المعاني/ ٦/ ٣٧٧.



ولعل هذا هو الصواب، فإن لفظ (الاجتباء) قد جاء عاما بلا تخصيص، فيجب أن يظل على عمومه، وكل خير يندرج تحته، والله أعلم.

وقد خص الاجتباء بالتقديم على ما بعده اهتماما بشأنه، لأنه يدل على اختيار الله تعالى ليوسف - عليه السلام - واصطفائه على الناس وصلته بالملإ الأعلى، فلقد اختاره ربه، وأدناه منه، وجمعه إليه، وناداه إلى حضرته، ورفعه على إخوته وسائر أهله وكل عصره، لأنه أصفاهم جوهرا، وأروضهم نفسا، وأطيبهم قلبا.

مجئ الاجتباء بصيغة المضارع:

وقد جاء لفظ الاجتباء بصيغة المضارع «يجتبيك» باعتبار ما سيكون ليوسف آنذاك في القريب العاجل، وكل آت قريب،...

فيوسف - عليه السلام - اجْتُبِيَ كآدم - عليه السلام - الذي بعد توبته «اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»(١) وكجده إبراهيم - عليه السلام - الذي «اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»(٢) وكعموم الخمسة وعشرين نبيا الذين قال الله عنهم: «وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»(٣).

نعم، قال الله تعالى في كل العالم الإسلامي: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ»(٤) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتباءين، فاجتباء الله لأهل الإسلام هو بمعنى أعم وأقل بكثير من اجتبائه تعالى ليوسف - عليه السلام - وسائر إخوانه الأنبياء - عليهم السلام - فهو أخص وأعلى من الأول(٥).

قوله: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» (البشارة الثانية)

عطف على ما سبق.

عن قتادة قال: (ويعلمك من تأويل الأحاديث) يقول: ويعلمك ربك من علم ما يئول إليه أحاديث النّاس عما يرونه في منامهم، وذلك تعبير الرؤيا، ورُوِي

---

(١) طه/١٢٢. (٢) النحل/١٢١. (٣) الأنعام/٨٧. (٤) الحج/٧٨.

(٥) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/١/٢٤٥.



عن مجاهد مثله، وقال ابن زيد: تأويل الكلام: العلم والحكمة، وكان يوسف أعبر الناس، وقرأ (ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكما وعلما) وذكر الماوردي قولا ثالثا وهو أن المراد بتأويل الأحاديث: معرفة عواقب الأمور. قال: ومنه قول الشاعر:

وللأحبّه أيام تذكّرها *** وللنَّوى قبل يوم البيْن تأويل[1]

قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - في قوله تعالى: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ»: زعم الزمخشري وتبعه مقلّدوه أن هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك[2]، وبنى هذا على ما فهمه من دلالة الرؤيا على الاجتباء فقط، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو، والذي نجْزم به أن يعقوب - عليه السلام - فهم من هذه الرؤيا فهما مجملا كل ما بَشَّرَ به ابنه رَائيَها، وأما كيْد إخوته له إذا قصها عليهم فَقَدِ استنبطه استنباطا من طبع الإنسان وعداوة الشيطان، فلما حذَّره من الاستهداف لذلك بإثارة حسدهم، قَفَى عليه ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه الخاص به، ومن تأويل الأحاديث، وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس إلى رفعة قدره وعلو مقامه، فهو معطوف على الاجتباء مشترك معه في البشارة[3].

والأحاديث، يصح أن يكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلي عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعنى بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله تعالى وحكمته، ويصح أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به، فالتأويل تعبير الرؤيا، سُمِّيَتْ أحاديث لأن المرَائي يَتحدَّث بها الراؤون، وعلى هذا حملها بعض المفسرين، واستدلوا بقوله - عليه السلام - آخر القصة: (وقال يا أبت هذا تأويل رؤيا من قبل) ولعل كِلاَ المعنيين مراد بناء على صحة استعمال المشترك في معنيَيْه وهو الأصح[4].

---

(١) انظر: تفسير الطبري/٧/١٢/١٥٣-١٥٤، والدر المنثور/٤/٧، وتفسير الماوردي/٢/٢٤٦.

(٢) انظر: الكشاف/٢/٣٠٣، وتفسير أبي السعود/٤/٢٥٣-٢٥٤.

(٣) تفسير المنار/١٢/٢٥٦. (٤) تفسير التحرير والتنوير/٦/٢١٦.



هذا، وأكثر المفسرين على أن المراد بتأويل الأحاديث: تعبير الرؤيا، قال الإمام القرطبي: وأجمعو أن ذلك - تأويل الأحاديث - في تأويل الرؤيا(١).

وقال الإمام أبو السعود - كما قال الزمخشري وغيره -: المراد بتأويل الأحاديث: تعبير الرؤيا، إذ هي أحاديث الملَك إن كانت صادقة، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك(٢).

وتأويل الرؤيا على الوجه الصحيح يقتضي كلا من العلم والحكمة، ومعرفة عواقب الأمور، ولعله بهذا يمكن الجمع بين الأقوال الثلاثة في معنى (تأويل الأحاديث) والله أعلم، ولفظ (منْ) في قوله: (ويعلمك من تأويل الأحاديث) للتّبْعيض، أي: ويعلمك تأويل بعض الأحاديث، لا كل الأحاديث التي لا يحيط بها إلا الله تعالى وحده(٣) وتعبير الرؤيا: الإخبار بما تؤول إليه في الوجود، وتعليم يوسف - عليه السلام - التأويل؛ إيتاؤه إلهاما وكشْفاً للمراد منها، أو فِراسَةً خاصّة، أو علْماً أعم منها، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن: «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»(٤)(٥) فقد أوتي - عليه السلام - علما من ربه تعالى فوق علم تعبير الرؤيا، فقد قال من بعد في تأويله لرؤيا الملك: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»(٦) ولم يكن ذلك مما تدلّ عليه الرؤيا.

فكأن يعقوب - عليه السلام - أشار بقوله: (ويعملك من تأويل الأحاديث) إلى ما سيقع من يوسف - عليه السلام - من تعبيره لرؤيا صاحِبَي السجن، ورؤيا الملك، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبَّرَ عنها بإتمام النعمة، وإنما عرف يعقوب ذلك عن طريق الوحْي، أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره - عليه السلام - على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته لذلك

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٢٩. (٢) تفسير أبو السعود/ ٤/ ٢٥٤.

(٣) القصص القرآني في منطوقة ومفهومة/ ٤٠٩. (٤) يوسف/ ٣٧.

(٥) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٦. (٦) يوسف/ ٤٩.



بطريق الفِراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل بأن من وفَّقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقيٌّ منها وما هو أنْفُسِيّ، كيف لا؛ وهي تدل على كمال تمكن نفسه - عليه السلام - في عالم المثال وقوة تصرّفاتها فيه فيكون أقْبَل لفَيضَان المعارف المتعلّقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة، وأقوى وقوفاً على النِّسَب الواقعة بين الصور المُعَايَنة في أحد ذيْنك العالمَيْن وبين الكائنات الظاهرة على وفْقها في العالم الآخر، وأن هذا الشأن البديع لا بد أن يكون أنموذجا لظهور أمر من اتصف به ومداراً لجريان أحكامه، فإن لكل نبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معجزة تُظْهِر آثاره وتُجْرِي أحكامه[1] وكانت معجزته - عليه السلام - من جنس ما تفوّق فيه أهل عصره، وهي التعبير وتأويل الأحاديث، كما جعل الله تعالى معجزة موسى - عليه السلام - من جنس ما تفوق به قوم مصر من السِّحْر، ومعجزة عيسى - عليه السلام - من جنس ما برع فيه قومه من الطّبّ، ومعجزة محمد - ﷺ - كانت من جنس ما نبغ فيه قومه من الفصاحة والبلاغة، وهي القرآن العظيم.

ألا وإن أهم خاصية من الخَصَائص التي أنعم الله تعالى بها على يوسف - عليه السلام - هي «تأويل الأحاديث» وهي آية التَّحَدِّي المبيَّنة لاجتبائه على أهل عصره بالرسالة والنبوة، ولذا نراه، - عليه السلام - في آخر القصة يقول عِنْدَ تَعْدَاده لنعم الله تعالى عليه: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ... الآية»[2][3].

قوله: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» (البشارة الثالثة)

عطف على ما سبق، أي: يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، أو بأن يضم إلى النبوَّة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمته لها، أو بأن يضُمَّ إلى التعليم الخلاص من المحن

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٣-٢٥٤. (٢) يوسف/ ١٠١.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٤٠.



والشدائد، وتوسيط ذكر التعليم لكونه من لوازم النبوة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي، ولأن التعليم وسيلة إلى إتمام النعمة، فإن تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك صار ذريعة إلى الخلاص من السجن والاتصال بالرئاسة العظمى(١).

وهذا الاتجاه في تفسير معنى (ويتم نعمته عليك) هو الأوْفق، فالبشارة الأولى (الاجتباء) بالنبوة والرسالة، كما قال تعالى: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ»(٢).

قال العلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي: (الله يجتبي إليه من يشاء) أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاحتباء لرسالته وولايته(٣) وهو الاجتباء الأسمى الذي حققه عزو جل ليوسف - عليه السلام - والبشارة الثانية، تعليم الله له تأويل الأحاديث، وهو ما يتطلبه ويقتضيه الاجتباء بالنبوة والرسالة، والبشارة الثالثة، تمام النعمة، بالنبوة والملك في الدنيا، ووصلها بنعمة الآخرة بالفوز بأعلى الدرجات في الجنة مع عباد الله المصطفين وخواصه الصالحين، وقد قال - عليه السلام - آخر القصة ما يشير إلى ذلك بوضوح: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»(٤) والله أعلم.

قوله تعالى: «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» وهم أبواه وإخوته وذرّيّتهم، وأصل (الآل) أَهْل، بدليل تصغيره على (أُهَيْل) وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطَر في (الناس) كآل النبي محمد - ﷺ - وآل المَلِك، ويقال لغيرهم: أهل،.. وإتمام النعمة عليهم يكون بإخراجهم من البدْو، وتبوّئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوّة في أسباطهم إلى أجل معلوم(٥).

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٧٨. (٢) الشورى/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٤/ ٣٨٩.
(٤) يوسف/ ١٠١. (٥) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٦.



قوله تعالى: «كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ...» نُصب على المصدرية، أي ويتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويْك، وهي نعمة الرسالة والنبوة[1] والتشبيه في قوله «كما أتمها...» تذكير له - يوسف - بنعم سابقة وليس مما دلَّت عليه الرؤيا[2] وهو مبنيٌّ على ما كان يعلمه يعقوب - عليه السلام - من وعد الله تعالى لإبراهيم - عليه السلام - باصطفاء آله وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وإنما علم من رؤيا يوسف - عليه السلام - أنه حلقة السلسلة الاصطفائية بعده من أبنائه، ولهذا علل البشارة بقوله: (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيْم)[3].

«مِنْ قَبْلُ» أي: من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه أو من قبلك.

«إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْحق» عطف بيان لأبويْك أو بدل منه أو على إضمار (أعْنِي) وعبر عنهما بالأبوين مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام[4] وَلأنهما في عمود النَّسَب[5] وقدَّم الأشرف منهما - إبراهيم - عليه السلام، وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم، وكانوا يقولون للنبي - ﷺ - يابن عبدالمطّلب، بل قالها هو أيضاً، قال: أنا النبيّ لا كَذِبْ، أنا ابن عبد المطّلب[6].

والنعمة التي أتمها الله تَعَالى على إبراهيم - عليه السلام - أنه جعله نبيّاً ورسولا وخليلاً للرحمن، وجعل الله له لسان صدق في الآخرين، فلا يذكر عند اليهود والنصارى والمسلمين إلا ويُشْكَر، وأكثر الأنبياء من نسله، فهو أبٌ لجميع الأنبياء من بعده، والمسلمون في صلاتهم في التشهد يكررون الصلاة الإبراهيميه (اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، كَمَا صَلّيْت عَلَى إبرَاهيْم وَآلِ إبرَاهيْمَ، وبَارِكْ عَلَى مُحَمّد وَآلِ مَحَمّد، كَما بَارَكْتَ عَلَى إبرَاهِيمَ وَآلِ إبرَاهِيم) يكررونها في كل يوم وليلة مع صلواتهم.

---

(١) تفسير السعود/ ٤ / ٢٥٤. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢ / ٢١٧.

(٣) تفسير المنار/ ١٢ / ٢٥٦-٢٥٧. (٤) فتح البيان/ ٦/ ٢٩١.

(٥) تفسير البحر/ ٥ / ٢٨٢.

(٦) قال ذلك في غزوة حنين، انظر: الرحيق المختوم/ ٤ / ٤٩.



والنعمة التي أتمها الله سبحانه وتعالى على إسحق - عليه السلام - بكونه ابن سارة أو ساراى، السيدة المكرمة والمبشرة من الله تعالى بالرضا والرضوان، وكونه نبيا ورسولا[١]، وبإخراج يعقوب والأسباط من صُلبه[٢]، ومن قال بأن من نعمة الله تعالى على إسحاق إنجائه من الذبح - كما روي عن عكرمة - فقد وقع فيما وقع فيه بعض المفسرين من ذكر هذه الإسرائيليات، إذ الصحيح الذي عليه إجماع الأمة أن الذبيح هو اسماعيل - عليه السلام -[٣].

كما يدل عليه قوله تعالى بعد ذكْر قصته في سورة الصافات (وبشرناه بإسحق)[٤] وكون القصة وقعتٍ في الحجاز وهي الأصل في أضَاحي مُنَى هناك، وإنما الذي نشأ في الحجاز إسماعيل لا إسحاق - عليهما السلام - كما هو معلوم بالتواتر[٥].

قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، هذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له، أي: فعل ذلك لأنه عليم حكيم، إشارة إلى قوله تعالى: «اللّه أعلمُ حيثُ يجعل رسالته، وأنه لا يضع النبوّةَ إلا في نفس قدسيّة[٦] فهذا التذييل للآية الكريمة تمجيد لهذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل، لأنه خلقها لقبول ذلك، فعلمه بها سابق، وحكمته وضْع النّعم في مواضعها المناسبة، وتصدير هذه الجملة (إنّ رَبّكَ عَلِيمٌ حَكيم) بـإنَّ للاهتمام لا للتّأكيد، إذ لا يشك يوسف - عليه السلام - في علم الله تعالى وحكمته، والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل، والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف - عليه السلام - وتأهله لمثل تلك الفضائل[٧].

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير يوسف/ ١/ ٢٦٣

(٢) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٤

(٣) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في التفسير/ ٣٥٦

(٤) إقرأ القصة في الصافات من آية رقم: ١٠٠ إلى آية رقم: ١١٣

(٥) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٧

(٦) فتح البيان/ ٦/ ٢٩١

(٧) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٧

رفع المسألة

وختمت الآية الكريمة بأسماء الله الحسنى «ربك» و«عليم»، و«حكيم» (ربك) الضمير المتصل، ربك الذي رباك ورعاك في كل أمرك، (عليم) بكل أمرك (حكيم) يلهمك الحكمة والتصرّف السديد في الموقف ذلك لأن العلم وحده لا يكفي ولا يفيد بغير الحكمة، فما مرّ على يوسف - عليه السلام - من بعد، كانت مواقف لا تقتضي مجرد العلم، وإنما الاختيار بين بدائل متعددة، وهذه هي الحكمة، ومن هنا يأتي الترابط الوثيق في تلك الآية الكريمة «وَكَذلكَ يَجْتَبِيْكَ رَبُّكَ... الآية».

العلاقة بين العلم والحكمة:

لقد عاش المصطفى ﷺ ثلاثة عشر عاما في مكة بعد البعثة وأصنام الكعبة أمامه منصوبة، ما حطّم منها صنَماً، فمن جهة الْعِلمِ وجودها حرام وإزالتها فريضة، ومن جهة الحكمة، لم يإِنْ أوان تحطيمها، لأن الرسول ﷺ - لو قام بتحطيمها لقوبل بثورة المشركين وقسوتهم، ثُمَّ أعادوها أحسن مما كانت عليه - ولذا فقد تركها المصطفى ﷺ حتى كان عام الفتح وسَقَطَت وتحطَّمت ولم تعُد إلى الكعبة، وبقيت الكعبة في حراسة المجتمع المؤمن القادر على إقامة الإسلام والدفاع عن طهارة الكعبة، وهذه الحكمة كان لها مظهر آخر في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عندما حطّم الأصنام ودار حوار بينه وبين عبدة الأصنام وأقام عليهم الحجة، ثم ألقوه في النار، وأنْجاه الله تعالى بمعجزة وهاجر من الديار وبقيت الأصنام، وفي قصة يوسف - عليه السلام - وفي صَبْره مرحلة وسط بين المنطق الإبراهيمي - في الحكمة - والمنطق المحمدي، ولكل منهما وقته، أرأيت العلاقة بين العلم والحكمة؟(1).

والمسألة الهامة التي نودّ التنويه بها من المشهد السابق، وهذا الحوار بين يوسف وأبيه، هي أن الكلام الذي صدر من يعقوب - عليه السلام - في حق ابنه يوسف - عليه السلام - قد رفع من شأن هذا الابن عالِياً، حتى لنكاد نَشْعُرُ بأن منزلته ليست

---

(1) دروس من سورة يوسف / ٢٧-٢٩

رفع المسألة

بعيدة جداً من منزلة والده نبي الله يعقوب، وبالتالي فإن يعقوب ويوسف - عليهما السلام - يشكلان منزلة ليست لواحدٍ من أبناء يعقوب الأحد عشر الذين أشارت إليهم الرؤيا[1].

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلا ذا شأن، وكان على بيّنة من أنه سيرتقي رقياً محسوسا باهراً، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصّديق ولآل يعقوب ذكرا حسنا كريما، كما سجّل ذلك لإبراهيم وإسحق، وأن اسمه سيكون جليلا وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة[2].

نعم - علم ذلك يعقوب عن طريق (الرؤيا) ولكنه عَلِمَهُ إجْماليا لا تفْصيلياً[3] علمه من طريق الوحْي، أو عرفه بطريق الفِراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية[4].

(مسألة) وربما قيل في قوله تعالى (وَكَذلكَ يجْتَبيكَ رَبُّكَ وَيُعَلّمُكَ... الآية) أهو من قوْل يعقوب - عليه السلام - أو هو من قول الله تعالى، فإن كان من قول يعقوب فكيف عرف ذلك؟.

وجوابنا أنه قوْل يعقوب وقد كان الله أعلمه ذلك، يُبَيّنُ ما قُلناه قولُه أخيراً (إنّ ربكَ عليمٌ حكيمٌ). فإن قيل: فإذا عرف ذلك فكيف يجوز أن يَغْتَمَّ على ما ذكره الله تعالى في الكتاب ويخفى عليه حال يوسف بعد أن غاب عنه؟.

وجوابنا أنه قد عرف ذلك من جهة الله تعالى على شرط أن يبقى، فلذلك كان خائفا[5].

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٥٨

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٢٦٣

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٢٥٧ (٤) فتح البيان / ٦ / ٢٩١

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن / ١٨٩



المضمون العام للآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تتحدث عن تأويل رؤيا يوسف - عليه السلام - وقد حملت له بشريات ثلاث، جاءت على لسان يعقوب عليه السلام.

(البشرى الأولى) اجتباؤه - عليه السلام - من قبل ربه عزّو جل، وأنه سيجعله نبياً ورسولاً ومصطفى على سائر العباد في زمانه.

(البشرى الثانية) أن الله سبحانه وتعالى سيعلمه تأويل الأحاديث، أي تعبير الرؤيا، وهي من أهم الخصائص التي أنعم الله بها عليه، فهي معجزته المناسبة لعصره والمبيّنة لاجتبائه.

(البشرى الثالثة) إتمام النعمة عليه من ربه سبحانه وتعالى، بأن يضم إلى النبوة الملك ويجعله تتمة لها، ويصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - نعمة اجتباء الله تعالى للعبد بالرسالة والنبوة نعمة عظمى، يختص الله بها عبادة المقربين.

٢ - الله سبحانه وتعالى عليم بمن يصطفيهم من عباده، حكيم باصطفائه إياهم، حيث خلقهم وأعدهم إعداداً خاصاً يتناسب مع ما قدره لهم.

٣ - علم تأويل الرؤيا من أبرز النعم التي أنعم الله بها على عبده يوسف - عليه السلام - ليواجه بها الناس في عصره ويثبت صدق رسالته.

٤ - تمام النعمة من الله تعالى لعبده لا يكون إلا بعد جهاد طويل، وصبر جميل، وتأييد من الله العزيز العليم.

٥ - فضل الله تعالى على آل إبراهيم وآل إسحق، حيث جعلهم أنبياء، آباء، وأبناء وأحفاداً.



٦ - في الآية الكريمة أصل لتعبير الرؤيا التي تبنى على المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة.

٧ - الطريق إلى الله تعالى يكون إما بالاصطفاء من أول الأمر، وهذا خاص بعباد الله المخلَصين، من أنبيائه ورسله - عليه السلام - وإما بالإنابة والإقبال على طاعة الله تعالى، وهذا خاص بعباد الله المخلِصين - بكسر اللام - قال تعالى: «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ»(١).

(١) الشورى/ ١٣.

رفع المسلم

«الفصل الثالث»

(من الباب الأول)

بداية القصة وتدبير المؤامرة

من الآية رقم (٧)

إلى الآية رقم (١٠)



رفع
المسهم

« آيات الفصل الثالث »

قال الله تعالى :

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾



«الآية السابعة»

أولاً - النّصُّ القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «آيات للسّائلين» قرأها ابن كثير وحده على التوحيد، والوجه أنه جعل قصة يوسف وأحواله كلها آية واحدة، كما قال الله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً»(١) ودليله أيضا قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ»(٢) ولم يقُل عِبَراً، فقد جعل أمر يوسف كله عِبْرَةً وآية، ويجوز إنما وَحَّدَ لأنه قد ناب بالواحد عن الجميع كقوله تعالى: «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ»(٣).

وكقول الشاعر: .... في حَلْقِكُمْ عظمٌ وقد شجِيْنَا

وقرأ الباقون (آيات) بالجمع، والوجه أنه جعل كل واحد من أفعاله آية، فاختير الجمع لذلك، وهو الاختيار، لأن الجماعة عليه(٤).

والذي هو أوْلى القراءتَيْن بالصواب قراءة من قرأ ذلك على الجمع، لإجماع الحجَّة من القراء عليه(٥).

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «للسَّائليْن» تسأل: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤَالاً وَسَآلَةً وَمَسْأَلَةً وتَسْآلاً وَسَأَلَةً؛ قال أبو ذؤيب:

أَسَاءَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ، أَمْ لَمْ تُسَائِل * عَنِ السَّكْنِ، أَمْ عن عهده بالأوائل؟

---

(١) المؤمنون/ ٥٠. (٢) يوسف/ ١١١. (٣) النور/ ٣١.

(٤) انظر: الحجة في القراءات السبع ج٢/ ٥ (للقَيْسي) والحجة في القراءات السبع/ ١٦٨ (لابن خالويه) والموضح في وجوه القراءات وعللها/ ٢/ ٢٢٨-٦٦٩.

(٥) تفسير الطبري/ ٧/ ١٥٤.



وَسَأَلْتُ أَسْأَلُ وَسَلْتُ أَسَلُ، والرجلان يتساءلان وَيَتَسَايَلاَن، وجمع المسْأَلة مسائل بالهمز، فإذا حذفوا الهمزة قالوا مَسَلَةٌ، وَتَسَاءَلوا: سَأَل بعضُهم بَعْضاً، ويقال: سأله عن كذا، وبكذا سؤالاً وَتَسَاؤلا ومسألة: استخبره عنه، وفي التنزيل العزيز: «فَاسْأَل بَهِ خَبِيْراً»(١)(٢) والمراد بقوله: «للسَّائِلين» أي: لمن سأل عن قصتهم وعرفها(٣).

رابعاً - الإعراب:

«لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ»

اللام جواب قسم محذوف، تقديره هنا: قسما بذاتي، وأينما وُجدت اللام ووقعت في أوّل جملة اسميّة أو فِعْليّة ولم يكن قبلها قَسَم مذكور أو شرْط يُجَاب عنه، فهي اللام الواقعة جَوَاباً لقَسَم محذوف(٤).

و(قد) حرْف تحقيق، و(كان) فعل ماض ناقص، و(في يوسف) خبر مقدَّم، و(إخوته) عطف على يوسف، و(آيات) اسم كان المؤخر، و(للسائلين) صفة لآيات(٥).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الفرقان/ ٥٩. (٢) انظر: اللسان/ ١١/ ٣١٨-٣١٩.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٤.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٣٧.

(٥) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش)/ ٤/ ٤٥٦-٤٥٧.

سادساً - التفسير والبيان:

«بداية القصة»

الحِكَمُ والعبر في قصة يوسف - عليه السلام - وإخوته:

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

بعد ذكر قصة يوسف - عليه السلام - إجْمالاً، في الرؤيا والتحذير من إفشائها للإخوة، ثم ما تَحْمِلُه من بشريات عالية، يبدأ القرآن العظيم في تفصيلها تفصيلاً هو من أبدع بلاغة القرآن، ومن هذه الآية الكريمة، يبدأ القصص المقصود، إذ كان ما قبله كالمقدمة له، المنْبئة بنباهة شأن القصة، فليس هو من الحوادث التي لحقت يوسف - عليه السلام - ولهذا كان أسلوب هذه الجملة كأسلوب القصص، وهو قوله: في الآية التالية لهذه الآية «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفَ وأَخُوهُ أَحَبّ إِلى أبيْنَا منّا» نظير قوله تعالى: «إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاّ أَنَّمَا أَنَا نَذيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً من طِين»[١] إلى آخر القصة[٢]. فقوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِه... الآية».

شروع في قصة يوسف - عليه السلام -

بعد مقدّمتين - كما سبق - أولاهما في صفة القرآن الكريم وكونه تنْزيلاً من اللّه تعالى دَالاًّ على رسالة من أُنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه، وكون النبي - ﷺ - كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه لا يدري منه شيئاً، ونتيجة هاتين المقدمتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ... الآية»[٣] والمقدمة الثانية، رؤيا يوسف - عليه السلام - وما فهمه منها أبوه فهما إجمالياً - كما سبق ذكره - وبَنَى عليه أن حذَّره وأنذره ما يُسْتَهدف له قبله من كيد إخوته وبشره بحُسْن عاقبته، ونتيجة هاتين القَضِيَّتَيْنِ يأتي فيما قاله لأبيه - عليه السلام - بعد دخولهم عليه في مصر وسجودهم له: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا... الخ»[٤].

---

(١) ص/ ٧٠-٧١. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٨.
(٣) يوسف/ ١٠٢. (٤) يوسف/ ١٠٠.



فمثل هذا الترتيب المنطقيّ العقليّ البديع، يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة، وتتبّع حوادثها والإحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب يُنَسَّقُ عليه الكلام، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي أُلِّفَت القصة لأجلها، فتجعل الأولى براعة مطلع، والآخرة براعة مقطع، فقل لمن جهل سيرة محمد - ﷺ - وتاريخه: إن محمداً لم يكن قارئاً ولا كاتبا، ولا خطيبا، ولا شاعراً، ولا مؤرِّخاً، ولا راوياً، ولا حافظاً للشّعر ولا ناثراً، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ما جاء في القرآن... فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنَّسَق لها ولا من موضوعها شيئاً قبل وَحْيِهَا، ولا يحيط به إلا أن يكمُلَ له تلقّيها عن الروح الأمين - عليه السلام - فالسورة بنظْمِهَا وبلاغتها دالَّةٌ على إعجاز القرآن اللفظيّ، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب دالة على إعجاز القرآن المعنويّ، وبالإعْجَازيْن كليهما دالة على نبوة محمد - ﷺ - ورسالته(١).

وجه المناسبة:

ولما كان ذلك؛ من قص يوسف رؤياه على أبيه - عليهما السلام - ونهْيه عن قصها على إخوته وتحذيره من ذلك، وتبشيره بما جاء في رؤياه، من الاجتباء والتعليم وتمام النعمة، توقَّع السامع ما يكون بينه وبين إخوته،... فقال تعالى جوابا لمن كأنه قال: ماكان من أمرهم؟ مفتَتِحاً له بحرف التّوقّع والتّحقيق بعد لام القسم تأكيداً للأمْرِ وإعلاما بأنه على أتقن وجه «لقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وَإخوَتُه آيَات للسّائلين»(٢).

قوله تعالى: «لقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وَإخوَتُه آيَات...»، جملة ابتدائية، واللام في قوله «لَقَدْ» وقعت جوابا لِقَسَمٍ محذوف تقديره هنا، قَسَمًا بذاتي «لقد كان في يوسف... الآية» والظرفيَّة المستفادة من (في) ظرفيَّة مجازيَّة بتشبيه مقارنة الدليل للمدلول بمقَارَنة المظروف للظرف، أي: لقد كان شأن يوسف - عليه السلام - وإخوته مقارنا لدلائل عظيمة من العِبَر والمواعظ، والتعريف بعظيم صنع الله تعالى وتقديره،

---

(١) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ١٢.



والآيات: الدلائل على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفيَّة، وهي حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المَفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثمَّ أُطلقت على حُجَج الصِّدْق، وجمْع الآيات هنا مراعي فيه تعدّدها وتعدّد أنواعها، وفيها من الدلائل على صدق النبي - ﷺ -، وأن القرآن وحْيٌ من الله تعالى، إذ جاء في هذه السورة مالا يعلمه إلا أَحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب، وذلك من المعجزات[١].

ومع أن الآيات كانت في يوسف وإخوته، أي: في قِصَّتِهم وحديثهم[٢]، فقد كانت أيضاً في كثير من الشخوص والأحداث في القصة، ولكنه سبحانه وتعالى اقتصر على يوسف وإخوته لأنهم موضوع القصة ومحور السيرة وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرْض فقط، فقصة يوسف - عليه السلام كتاب مفتوح ذو أبواب، وفصول، وحواشٍ، ولكنّ أهم ما في هذا الكتاب «يوسف وإخوته»[٣].

قوله تعالى: «للسّائلين»

مراد منهم من يتوقع منه السؤال عن المواعظ والحكم، إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن هذا القصص، إذ هي مقرّ العبر والاتعاظ[٤] ومثل هذا الأسلوب يستعمل في كلام العرب للتشويق، والحث على تطلّب الخبر والقصة، قال طرفة:

سَائلوا عنَّا الذي يَعْرفُنا *** بقُوَانا يوم تحلاق اللمم

وقال السَّمَوْءَل أو عبد الملك الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنَّا وعنهم *** فليس سواءً عالِمٌ وجهول

وقال عامر بن الطفيل:

طُلِّقْت إن لَّم تسْأَلي أي فارس *** حليلك إذ لاَقَى صُداءً وَخثْعَما

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢١٨. (٢) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٨.

(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٦٥.

(٤) انظر: تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٥٢.



وقال أنيف بن زبان النبهاني:

فلما التقيْنَا بين السّيف بيننا *** لسائلة عنا حَفيّ سؤالها[1]

و«السائلون» هم الذين يهمهم الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ويعنون بغرائب الأعمال ونتائجها.

و«السائلون» هم الذين يستحثون الأخبار، ويستطلعون الوقائع، ويتطلبون الوقوف على الحوادث.

و«السائلون» هم الذين يسألون الرواة، وأهل الذكر، ويسألون التاريخ الذي سجّل سيرتهم، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم.

و«السائلون» هم الذين يهمهم الوقوف على العبر والعظات، وتهمهم الاستفادة من القصص والمَثُلات.

و«السائلون» هم الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها، والوقوف على القواعد الاجتماعية، والفوائد التاريخية،

و«السائلون» هم الذين يحرصون على العلم والتعلم، ويبحثون عما يجهلونه حُباً منهم في العلم والمعرفة، فهم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها،...

وأما الذين لا يسألون عما يجهلون، ولا يجتهدون أن يقفوا على ما يجب الوقوف عليه؛ بل يستوي عندهم العلم بالشيء وجهله؛ فهؤلاء الكسالى لا يعتبرون بما يسمعون من الحوادث، ولا يحفلون بالآيات التي يجب أن يستفيدوها من التاريخ وحوادث الدهر،...

فلهذا كله خصّ استفادة الآيات بـ«السائلين» عنها دون سواهم[2] ومع ما في قصة يوسف - عليه السلام - من حكم وعبر وعظات لكل من يسأل ويريد التعرف عليها،

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢١٩.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٢٧٦-٢٧٧.



إلا أن الله تعالى إنما أنزل هذه السورة الكريمة على نبيه محمد - ﷺ - يعلمه فيها ما لقي يوسف - عليه السلام - من إخوته من إيذاء مع تكرمة الله إياه، تسلية له بذلك، مما يَلْقَى من الأذى من أقاربه من مشركي قريش[1]، كما ذكر ابن إسحاق، وكما قال الله تعالى: «وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ»[2].

فكأن الحق عزّو جل يقول لنبيه محمد - ﷺ -: هؤلاءهم إخوة يوسف، وقد فعلوا به كذا وكذا... الخ، وفي النهاية عاشوا جميعا في كنفه وقد خضعوا له، لا تقل: قومي وأهلي وقد فعلوا بي كذا... كذّبوني وقاطعوني وعزلوني في الشِّعْب...

لا تيأس فإن النصر آت، ولا تستبطئ النصر[3] فإن رؤيا يوسف لم تبلغ أجل تحقيقها إلا بعد قرابة أربعين عاما على أرجح الآراء.

وقيل: إنَّ المراد بـ«السائلين» جماعة من اليهود جاؤا إلى مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبيّ كان بالشام أُخْرِج ابنُه إلى مصر فبكى عليه حتى عَمِي؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة.

وروي أنّ بعضهم لَقَّنُوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف، وروي أن بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فَلَقَّنَهُ إيّاها فجاءت موافقة لما في التّوراة، وذكروا هذه الأسماء في تفاسيرهم، فيكون المراد بالآيات على هذا دلائل نبوَّة محمد ﷺ.

ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الإسرائيليات، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب، وقصة يوسف - عليه السلام - في القرآن الكريم موافقة لجملة ما في سفْر التكوين، ومخالفة له في بعض دقائقها[4].

فإن قيل: لم خصَّ السائلين ولغيرهم فيها آيات أيضاً؟

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٤. (٢) هود/ ١٢٠.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٠، وانظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير/ ٢١٩-٢٢٠.



ففيه جوابان:

(أحدهما) أن المعنى للسائلين وغيرهم فاكتفى بذكر السائلين من غيرهم كما اكتفى بذكرِ الحَرِّ مَن البرْد في قوله: «تقيكُمُ الحَرَّ»(١).

(ثانيهما) أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية، كان لغيرهم آية أيضاً، وإنما خصّ سؤالهم لأن سؤالهم نَتَجَ الأعجوبة وكشف الخبر(٢).

كيف يجئ القرآن الكريم بهذا الحكم «آيات للسائلين» ولم يكن قد ذكر شيئا قبل عن يوسف وإخوته حتى يكون فيما ذكره آيات للسائلين؟

أفليس من المنطق إذاً، أن يكون هذا الحكم في أعقاب القصة تعقيباً عليها ولفتاً إلى مواقع العبرة منها لا حكما مُسَبَّقاً عليها؟

نعم! إنه المنطق، ولكنه منطق البشر الذين لا يحكمون على أفعالهم إلا بعد أن تقع وتأخذ مَكَانها في الحياة وينكشف وجْه الحُسْن أو القبْح منها؛ أما الله سبحانه وتعالى فعلمه محيطٌ بكل شيء، فَمَالَمْ يَقَع مِمّا سيقع هو واقع أزَلا في علم الله تعالى،...

فقصة يوسف - عليه السلام - قبل أن تقع وقبل أن يعرضها القرآن الكريم، هي واقعة في علم الله القديم على الصورة التي وقعت عليها، وعلى ما ذكره القرآن الكريم عنها، فكان حكم الله تعالى عليها بأن فيها آيات للسائلين، حكما واقعا على أمْر وقع في علمه جل شأنه...

وفي هذا النظم شَهادة من شهادات كثيرة تشهد بأن منزل القرآن هو الله تعالى عالم الغيب والشهادة، وأنه ما كان لبشر أن يجد الشعور الذي يملي عليه هذا الحكم الذي يسبق الحدث قبْل أن يحدِّث به، ويستوفي عَرْضَه، ويضبط آثاره في الناس وفي الحياة، فسبحان من هذا كلامه(٣)

(١) النحل / ٨.

(٢) تفسير زاد المسير / ٤ / ١٨٢.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤١١.



غايات الآيات الظاهرة لا تعرف حقائقها إلا منها:

فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانَتِه وصدْقه لما أمِنَه على بيْته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويَسْتَعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تَخِبْ في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما أُلْقِي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به ولما جعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوَّأ هذا المنْصِب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجْده، بل لما تمَّ قول أبيه له: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ»... فما من حلقه من هذه السلسلة إلا - وهي مترتبة على ما قبلها - وكان ظاهرُها محْرِقاً وباطنها مشرقاً، وبدايتها شرّاً وخُسْراً، وعاقبتُها خيراً وفوزاً، وصدق الله عزو جل (وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقِيْن»[1]...

فهذه أنواع من آيات الله تعالى في القصة للسائلين عن وقائعها الحسِّيَّة الظاهرة، وما هو أعلى منها من علومها وَحِكَمِها الباطنة، كعلم يعقوب - عليه السلام - بتأويل رؤيا يوسف، وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ.. الآيه»[2] ومن شَمِّهِ لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان، ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن رؤيته لبرهان ربه، ومن كيْد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ثم مِنْ عِلْمِه بأن إلقاء القميص على وجه أبيه يعيده بصيرا بعد أن عَمِيَ سنين كثيرة في القصة إذاً، مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني، من العلم الروحاني، وهي أخفي مما قبلها وأحق بالسؤال عنها[3].

---

(١) الأعراف/١٢٨. (٢) يوسف/٦٨.

(٣) تفسير المنار/١٢/٢٥٩-٢٦٠.

رفع
المسيَّهم

المضمون العام للآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تقرر وتبين أنه قد كان في يوسف وإخوته أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله تعالى وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربية لهم وحُسن عناية بهم، للسائلين عنها من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم منه، ليعلمه ويأخذ العبرة منه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - اشتمال قصة يوسف - عليه السلام - وإخوته على كثير من الحكم والعبر.

٢ - الاستفادة بالآيات والدلائل مقصورة على من يسأل ويهتم طلباً لِلْعِبْرة والحكمة والعظة.

٣ - الذين يستوي عندهم العلم بالآيات والدلائل، والجهل بها، هم المحرومون من الاستفادة بالآيات والاهتداء بحكمتها.

٤ - في الآية الكريمة دعوة إلى العلم والتعلم والبحث عن أخبار السابقين وأحوالهم خاصة في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة.

٥ - قيادة الناس قيادة حكيمة في الحاضر وفي المستقبل المتوقع، لا تتم إلا على أساس معرفة أخبار الأمم السابقة وأخذ العبرة مما حدث لها.



«الآية الثامنة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«مُبِينٍ اقتلوا» بضم التنوين «مبينٌ اقتلوا» قرأها ابن كثير ونافع والكسائي.

والوجه أن التنوين من (مبين) إنما ضُمَّ اتّباعا لحركة التاء في «اقْتُلُوا»؛ لأنهم لو كسروه لخرجوا من كسْرٍ إلى ضَمٍّ، وهذا ليس في كلامهم، ألا ترى أنه لم يجئ في الكلام فِعُل بِكَسْر الفاء وضَمِّ العَيْن، وأما الحرْف الذي بيْن التّنْوينِ المكسور وبيْن التّاء المضمُوم وهو القاف من (اقْتُلُوا)، فإنه ساكن، والسّاكن ليس بحاجز حَصِين فلا يُعْتَدُّ به، فكَأنَّ الكسرة تلي الضَّمَّة.

وقرأ الباقون (مُبِينٍ اقْتُلُوا) بكسر التّنوين، والوجه أن التّنْوين كان ساكنا، والقاف من (اقتلوا) ساكنان، فالْتَقَى ساكنا، فَحُرِّكَ التنوين بالكسر لالتقاء السّاكِنَيْن[1].

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «أحَبُّ إلى أبِيْنَا مِنَّا» (أحَبُّ) أفْعل تفضيل، وهو مبْنِيٌّ من (حُبَّ) المبني للمفعول وهو شاذ، وإذا بنيْتَ أفعل التفضيل من مادة الحُبّ والبُغض تعدَّى إلى الفاعل المعنوي بـ(إلى) وإلى المفعول المعنوي بـ(اللام) أو بـ(في)، فإذا قلت: زيْدٌ أحَبُّ إلَيَّ من بَكْر، يعني أنك تحب زيدا أكثر من بكر، فالمتكَلِّم هو الفاعل، وكذلك: هو

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٦٩.



أبْغَضُ إلَيَّ منه، أنْتَ المبْغِض، وإذا قلت: زيْدٌ أَحَبُّ لِي مَن عَمْرو، أو أحَبُّ فِيَّ مَنْهُ، أي: إن زيداً يحبُّني أكثر من عمرو، وقال امرؤ القيس:

لَعَمْري لسَعْدٌ حيْثُ حُلَّتْ دياره * * * أحبُّ إلَيْنا مِنْكَ فافْرَسٍ حَمِرْ

وعلى هذا جاءت الآية الكريمة، فإن الأب هو فاعل المحبّة(١).

قوله تعالى: «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ»

العُصْبَةُ: ما زاد على العشرة، عن ابن عباس، وعنه أيضا، ما بيْنَ عشْرَةَ إلى أربعين، وقيل: الثلاثة (نَفَر) فإذا زاد على ذلك إلى تسعة فهم (رهط) فإذا بلغوا العشر فصاعداً فـ(عصبة) وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: ستة، وقيل: سبعة، والمادة تَدُلّ على الإحاطة من العصابة لإحاطتها بالرأس(٢).

قوله تعالى: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَال»

ضَلَّ: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضادُّ الهداية، قال تعالى: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا»، ويُقَالُ (الضّلاَلُ) لكلّ عدول عن المنهج عمداً كان أو سهوا، يسيراً كان أو كثيراً، وإذا كان الضلالُ ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهوا، قليلاً كان أو كثيراً، صحَّ أن يُسْتعمل لفظ (الضّلال) ممَّنْ يكون منه خطأ مَّا، ولذلك نُسب الضلال إلى الأنْبياء وإلى الكفَّار، وإن كان بيْن الضلالَيْن بَوْنٌ بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي - ﷺ - «وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى» أي غير مهتد لما سيقَ إليك من النبوّة، وقال في يعقوب: «إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلكَ القَدِيم» وقال أولاده: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين» إشارةً إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه، وكذلك «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ»(٣).

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٤٤١-٤٤٢.

(٢) المرجع السابق/ ٦/ ٤٤٣.

(٣) المفردات (كتاب الضاد)/ ٢٩٧-٢٩٨.



رابعاً - الإعراب:

«إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا»

(إِذْ) ظرف لما مضى من الزمن متعلّق بمحذوف تقديره اذكر، وقيل: الظرف متعلّق بـ(كان) - لقد كان في يوسف - وجملة (قالوا) مضاف إليها الظرف، واللام للابتداء، وفيهما تأكيد لتحقيق مضمون الجملة، و(أخوه) عطف على يوسف، و(أحبُّ) خبر، و(إلى أبينا) جار ومجرور متعلّقان بـ(أحب) و(منّا) متعلّقان بـ(أحب) كذلك، ولم يطابق (أحب) في الاثنين لأن أفعل التّفضيل يلزم الإفراد والتذكير إذا كان معه (من) ولا بد من الفرْق مع (أل) وإذا أُضيف جاز الأمران.

«وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ»، (الواو) للحال، و(نحن) مبتدأ، و(عصبة) خبر، وإن واسمها «إن أبانا» - واللام المزحلقة (ل) و(في ضلال) خبرها، و(مبين) صفة[1].

خامساً: الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن وبيانه / ٤ / ٤٥٧، وانظر: الدر المصون / ٦ / ٤٤١-٤٤٢، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٣١.



سادساً - الشرح والبيان:

«بداية المؤامرة»

قال الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما تقرر ذلك - من كون قصة يوسف وإخوته فيها آيات للسائلين - ؛ ابتدأ بذكْر الآيات الواقعة في ظرف هذا الكوْن فقال «إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ...»(١).

عُقدَةَ الحُبّ ليوسف وأخيه عند الإخوة:

قال الإمام الماوردي - رحمه الله: «إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا منَّا...»، وأخوه هو (بنْيَامين) - أصغر منه - وهما أخوان شقيقان لأبٍ وأُمٍّ، وكان يعقوب - عليه السلام - قد كَلِفَ - اشتد اهتمامه - بهما لموْت أمهما وزاد في المراعاة لهما، فذلك سبب حسدهم لهما، وكان شديد الحب ليوسف - عليه السلام - فكان الحسد له أكثر(٢).

تفصيل ذلك:

(أ) - كان يعقوب - عليه السلام - يحبُّ كل أبنائه:

إنه ما من ريب في أن يعقوب - عليه السلام - كان يحب كل أبنائه بلا استثناء، وكان يعدل بينهم في الحب على حسب ما يليق بكل واحد منهم في هذا الجانب، بل إن أبناءه العشرة قد شهدوا له بحبّه إياهم بدليل قولهم: «لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا منَّا» أي: هو أكثر حبا لهما من حبّه إيّانا،... ولقد اختص يعقوب - عليه السلام - يوسف وأخيه بِنْيَامين بمزيد من الحب والرّحمة والشّفقة لسبب بيّن واضح، وهو أنهما صغيران وقد فقدا حنان الأم ورحمتها بوفاة أمهما (راحيل) في نفاس بنيامين، فأراد -عليه السلام- أن يعوّضهما عن حنان أمهما حنانا، وليَستبْدِلاَ بعطفها عطْفاً

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٣. (٢) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٤٧.



زائداً منه، وما فعله يعقوب - عليه السلام - مع يوسف وبنيامين الصغيرين، هو ما عليه حال الناس جميعا، إذ يخصون الأولاد الصغار بمزيد من الحُب والاهتمام وحسن الرعاية، فحب الصغير في فطرة البشر، خاصة إذا كان الوالد شيخا كبيراً كيعقوب - عليه السلام - وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحبُّ إليْك؟

قالت: الصغير حتى يكْبُر، والغائب حتى يَقْدُم، والمريض حتى يشفي[1] فالصغير والمريض يكونان في حالة ضعف تستدْعى مزيداً من الاعتناء والرحمة، وأما الغائب فالدافع للمزيد من الحب له هو الشّوقُ للقائه الناشيء عن طول غيابه.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: انظروا إلى أحد الصِّغار تكون أمه ماتت وله إخوة كبار، فنرى الأب دائما يحرص على الصغير ويرحمه لحرمانه من أمه، فهذا أمر ضروري، وهذه مسألة إلهية قد أودعها الله تعالى في القلوب بدون اختيار، ثم يقول الشيخ: إذاً فالحنان يتوجّه إلى الضعيف، ونحن نرى ذلك في الواقع، امرأة مثلا يكون لها ولَدان، أحدهما وسَّع الله عليه النّعمة فهو يقوم بكل شيء لَهَا مع تكريمها وبِرّها، والآخر ضَيّقَ الله عليه فهو فقير محتاج، وقد يكفي نفسه فقط بالضرورات ولا يأتي أمه بشيء لعدم استطاعته، بل قد تكون معيشته من مال أخيه، فنجد أن الأم قلْبُها دائما مع الابن المحتاج هذا، لأنه المحتاج إلى الحنان والعطف، ولذا يقولون: الحب هذا مسألة عاطفيّة لا تَقْنين لها ولا تكليف بها... المهم أنه كان يجب على الإخوة أن يتنبّهوا إلى أن هذا الحب من أبيهم ليوسف وأخيه طبيعي، وظروف الْوَلَدَين تقتضي ذلك[2].

هذا، ولقد كان الرسول ﷺ يخصُّ الصِّغار بمزيد من الشّفقة والرحمة، حتى أنه كان يكنّي الصبيان لِيَسْتَلِينَ به قلوبهم، ففي الصحيحين من حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - كان يقول لأخٍ أنَس الصغير: «يا أبا عمير ما فَعَل النُّغَيْر» والنغير: العصفور الصغير، كما كان ﷺ يؤثر الحسن والحسين - رضوان الله عليهما - ويُظهر

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٢.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



من محبّته لهما والحنوّ عليهما والرحمة بهما الشيء الكثير، ومن ذلك ما رواه الإمام الترمذي - رحمه الله - عن البراء - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ وآله، أبْصَر حسَناً وحُسيْناً فقال: «اللهمَّ إنّي أحِبُّهُمَا فَأحِبَّهُمَا»(١) وما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - عن زيد بن الحباب - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إذ جاءه الحسن والحسيْن وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل - ﷺ وآله - عن المنْبر فحملهما فوضعهما بيْن يديْه ثم قال: صدق الله: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ»(٢)(٣).

ونحن جميعا في بيوتنا نخُصُّ الصغار من الأولاد بمزيد من التَّحَبُّب والتودُّد والملاطفة، فهذه سنة الرسول ﷺ المتناسبة مع الفطرة السليمة التي أوجد الله تعالى الناس عليها، بل إن الأصدقاء والأقرباء لنا يخصون أوْلادنا الصغار بالملاطفة والممازحة والهدايا، وحتى الإخوة الكبار والأخوات، يخصون إخوانهم وإخوتهم الصغار بمزيد من العطف والحب، ويأتون بالهدايا لهم ولو من مصروفهم الخاص، إذا فاختصاص يوسف وبنيامين الصغيرين بمزيد من الرحمة والرعاية والحب من جانب أبيهم يعقوب - عليه السلام - ليس عجبا ولا بدْعا ولا ضلالاً أبداً في أدنى صورة منه، بل كان تمشّياً مع الفطرة والمنطق والخلق الكريم.

(ب) - يعقوب - عليه السلام - يضاعف محبته ليوسف - عليه السلام - خاصة:

من الواضح البّين أن حب يعقوب - عليه السلام - المُضَاعَف ليوسف - عليه السلام - لم يكن لأنه صغير فحسب، وإلا لكان حبه لأخيه (بُنْيَامين) أكثر من يوسف لأنه أصغر منه، ولكنه - عليه السلام - كان يخص يوسف بالحب الأعظم لشيء آخر يُفْصح عنه الإمام الألوسي فيقول: «إنما أحَبَّهُ أكثر منهم - يعني يوسف - لما رأى فيه من مخايل

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. (٢) التغابن / ١٥.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد وأهل السنن الأربعة من حديث الحسين بن واقد عن بريدة عن أبيه.



الخيْر ما لم يَرَ فيهم - أي في إخوته جميعا - وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها لتلك الأمارات عنده، ولا لوْم في تفْضيله بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك(١).

إذاً فقد كان حب يعقوب الكثير ليوسف حُبّاً للّه الذي اختار يوسف عن سائر إخوته واصطفاه من بينهم وخصه بالرؤيا العظيمة التي تحمل له ولآل يعقوب جميعا أسمى البشريات، إن يعقوب - عليه السلام - قدم يوسف على إخوته جميعا لأن الله تعالى أحبه وقدمه واصطفاه عليهم أجمعين، فالأنبياء يحبون بحب الله لا يتعدَّون ذلك أبداً، هذا شأنهم دائما مع أولادهم وزوجاتهم ومن اتبعهم(٢)، ومن المعلوم أن لمحبة الولد طَوْرَان: (الأول) طَوْرُ الصِّغَر، وهو حبٌّ ذاتيٌّ لا عِلّةَ له ولا فكْرَة فيه ولا تدبير، بل هو أمر طبيعيٌّ فطريٌّ داخل في عموم الرحمة الربانية العامة. لجميع الحيوانات، لا فرْق فيها بيْن الإنسان والهرَّة. (الثاني) حبٌّ معلول مَعهُ فِكْر، وهو حبُّ الأمل والرجاء بالولد، ودرجات هذا النوع من الحب على قدْر درجات الأمل؛ إذا تقرَّر هذا، فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول، لأنه كان إذ ذاك، ابن سبع سنين، وأما حبُّه الزائد لولده يوسف، فكان تقريباً من قبيل النوعيْن، لأنه كان صغيراً ابن ثنتا عشر سنة وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيمان، لما كانَ يَتَفرّسُ فيه من أمارات النّجابة ولِما سَمِعَه من رؤيَيْهِ المناسبتيْن، ولما أُوحي إليه فيهما من الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة، ووجوه المحبَّة إذا تَعَدَّدَت غَذَّى بعضُها بَعْضاً، وعلى هذا فيعقوب - عليه السلام - معذور طبْعاً وشرْعاً على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غيْر محلّه(٣).

(جـ) هل كان الحب ذاته سببا للتآمر على يوسف - عليه السلام:

لم يكن الحب ذاته سببا للتآمر على يوسف من جانب إخوته، ولكن ما وراء هذا الحب وما يترتّب عليه من أمور أخرى قد يحظى بها يوسف من أبيه - عليهما السلام -

---

(١) روح المعاني / ٦ / ١٩٠.   (٢) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٨.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٢٨٩-٢٩٠.



نتيجة هذا الحب، فإن مجرد حب الوالدين شيء يرغب فيه الأولاد ويتنافسون فيه، ولكن ليس إلى درجة أن يعزم على قتل أخيه، فالذي نعتقده أنه كان لهذه الأسرة رئاسة دنيويّة، فخاف الإخوة من حب أبيه ليوسف أن يجعله ولي عهده ويوصى بالرئاسة له بعد وفاته، فأرادوا أن يحولوا دون ذلك بإبعاد يوسف عن أبيه بالقتل أو النَّفْي قبل أن يقوم أبوهم بما يخافون منه، بدليل قوله تعالى على لسان الإخوة: «قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا»[١] حيث فُسِّرَ الشيخ بالطّاعن في السنّ، والكبير برئيس القبيلة أو كبير القوم[٢] ويجوز أنهم قد أحَسُّوا وقد نبَّهَهُم إلى هذا الإحساس شدَّة حب أبيهم ليوسف بأنه سيكون وارث النبوة والرسالة، فازدادت غيرتهم وكيْدهم له[٣].

(د) كيف لاحظ إخوة يوسف هذا التفضيل في الحب؟:

إن إخوة يوسف قد لاحظوا تفضيل الصغيرَيْن عليهم جميعا ليس من اختلاف معاملة أبيهم لَهُم، إنما مِنْ بعض القرائن الدالة على هذا الحب... فليس من المعقول ألاَّ يساوي يعقوب - عليه السلام - في المعاملة بين أبنائه وهو نبيٌّ من أنبياء الله تعالى ويعلم أن هذا الأمر لا يجوز[٤]. فهو - عليه السلام - لم يكن يؤثر يوسف وأخيه عليهم في المعاملات والأمور الظاهريّة، فأبناؤه قد علموا فرط مَحَبَّة أبيهم إياهما من التَّوَسُّم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة، فلا يكون يعقوب - عليه السلام - مؤاخَذاً بشيْء يُفْضِي إلى التَّباغض بيْن الإخوة[٥] ولكنه الميل القلبي الذي لا يملكه الإنسان ولا يؤاخذ عليه لاستحالة تصرفه فيه، فالقسمة في الأشياء أمر سهل، أما القسمة في الميل القلبي، فهذا ما لا سبيل لأحد عليه[٦].

(هـ) - لا يغني حَذَرٌ عن قدر:

سبحان الله الذي سبب الأسباب ورتَّبَ الأمور وأجري الأحداث على وفْقِ علمه

---

(١) يوسف / ٧٨. (٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٣٨-٣٩.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٤٦. (٤) القصص القرآني (زهير) / ١٥٣.

(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٢١. (٦) القصص القرآني (زهير) / ١٥٣.



تعالى وإرادته وحكمته، ومهما أخذ الناس أنفسهم بالحذر وشدَّة الحيطة والتَّوقِّي، وهذا أمر محمود في الإسلام ولا غبار عليه، غير أن ذلك كله لا يمنع وقوع قدر ولا يرفعُ نُزُول قضاء،...

لقد أمر يعقوب ابنه يوسف - عليهما السلام - بكتمان الرؤيا عن إخوته حتى لا يتعرض لكيدهم ومكرهم، وقد أسرَّها يوسف المطيع لوالده ولم يُبْدها لهم، وهذا هو اللائق بخُلق من وقع عليه الاختيار في التَّرَقِّي والاصطفاء، ولا دليل يصح أن يُرْجع إليه لمن قال بأن يوسف نَسِيَ فأخبرهم، أو سمعوا عن الرؤيا من خالته التي سمعته وهو يقصها على أبيه على حسب زعمهم، أو من أي طريق آخر، يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله -: «تُرَى! أحَدّثُهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب «العهد القديم»؟.

إن السّيَاق هنا يفيد أن لاَ، فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم، أخيه الشقيق، ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم، ولكانت أدعي إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقْد عليه...

ثم يقول: فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له، ولم يكن بُدّ أن يتمَّ لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة، لِتَصِلَ بيوسف إلى النهاية المرسومة[١] ولو كان يعقوب - عليه السلام - يعلم أن في إظهار حبه القوى ليوسف سيثير إخوته لدرجة الكيد له والمكر به للخلاص منه، لحاول جاهداً إخفاء حبه هذا عنهم، بدليل أنه أمر ابنه يوسف بإخفاء الرؤيا عنهم خوفا عليه من كيدهم، بل كان الواجب عليه كما قال الشيخ محمد رشيد رضا: اتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، ومنه اجتنَاب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضُول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى،... وَمَا كَانَ يعقوب - عليه السلام - بالذي يخفى عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٣.



إلا من علمه بما يجب فيه، ولكن ماذا يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا،

دلائل العشق لا تخفى على أحد *** كحامل المسك لا يخلو من العبق

والعبق: بقاء الرائحة(١) يقول الشيخ عبدالله العلمي:

واحذر الناس أن يروك مُحبّاً *** أو حبيباً واذْكُرْ بَني يعقُوبا

ضَلَّلُوا من أَحَبَّ وهو أبوهم *** ثم ظُلْماً قد شرَّدُوا المحبوبا(٢)

قالت عائشة - رضي الله عنها - كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل - أي بين نسائه - ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» قال أبو داود: يعني القلب. (رواه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة). إن يعقوب - عليه السلام - لم يكن يملك قلبه وهو يميل كل الميل بحبه ليوسف، ولم تكن له قدرة على مدافعة هذا الحب، ولعل الله عزو جل قد أودع قلبه هذا الحب لولده يوسف لأنه سيمتحن بفقده، وحينئذ تكون المحنة على قدر النبوّة، ولو أن حبه له كان حُباً عاديّاً لما ظهر فَضْل يعقوب في هذه المحنة من جانب، ومن جانب آخر لما وقعت هذه المحنة، ولما تعلّمَ الناس منها هذا الدرس العظيم، وهو عدم الإفراط في حبّ أحد الأبناء، لئلا يكون الحسد والحقد الناتج عن ذلك سببا في تمزيق الأسرة وقطع أواصر المودّة بين أفرادها(٣)

قوله تعالى: «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ...»

(إذ) ظرف متعلق بـ(كان) - من قوله (لَقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وَإِخْوَتِهُ آيَات للسّائلين» - فإن ذلك الزمان موقع من مواقع الآيات(٤). فكأن الله تعالى ذكره يقول: لقد كان في يوسف وإخوته آيات لمن سأل عن شأنهم حين قال إخوة يوسف: «ليوسف وأخوه...»(٥) أي، حلفوا فيما يظنون، والله ليوسف وأخوه، يعنون (بنْيامين) وكان شقيقه لأمه(٦). والقائلون هم إخوة يوسف العشرة غير الأشقاء، فالضمير عائد

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦١. (٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٢٩٥.
(٣) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٣١٢. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٠.
(٥) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٤. (٦) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٦٩.



عليهم، ولم يذكروه باسمه إشعاراً بأن محبة يعقوب - عليه السلام - له لأجل شقيقه يوسف، ولذا لم يتعرضوه بشيءٍ مِمّا أُوقع بيوسف(١) وافتتاح المقول بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقَصْد تحقيق الخبر، والمراد توكيد لازم الخبر، إذ لم يكن فيهم من يَشُكُّ في أن يوسف وأخاه أحبّ إلى أبيهم من بقيتهم، ولكنهم لم يكونوا سواء في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إياهما على بقيّتهم، فأراد بعضهم إقناع بعْضٍ بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف وأخيه(٢).

وقوله «أحب إلى أبينا منا» خبر ومتعلّقٌ به، وهو أفعل تفضيل من المبني للمفعول شذوذاً، ولذا عُدّى بـ(إلى) حيثما ذكروا من أن أفعل من الحُبِّ والبُغْض يُعَدَّىٰ إلى الفاعل معنى بـ(إلى) وإلى المفعول بـ(اللام) و(في)، تقول: زيد أحبّ إليّ من بكر، إذا كنت تكثر محبته؛ و(لي) و(في) إذا كان يحبُّكَ أكثر مِنْ غيره، ولم يُثَنَّ مع أن الخبر عنه به اثنان، لأن أفعل من كذا لا يُفرَّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر وما يقابله، بخلاف أخويه، فإن الفرْق واجب في المحَلّى جائزٌ في المضاف إذا أريد تفضيله على المضاف إليه، وإذا أريد تفضيله مطلقا فَالْفَرْقُ لازم، وجئ بلام الابتداء لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده، أي كثرة حُبّه لهما أمر ثابت لا شبهة فيه(٣) فهما أحَبُّ إلى أبينا منا كلِّنا.

قوله تعالى: «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ»

هذه الجملة في موضع الحال من (أحب) والمقصود من الحال التعجّب والعصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل أسماء الجماعات، ويقال: العصابة(٤) قال الزجاج: العصبة في اللغة الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعْضُهم بعضا في الفعل ويتعصّب بعضهم لبعض، وَذِكْرها ليس لإفادة العدد فقط، بل للإشعار بالقوة ليكون أدخل في الإنكار، لأنهم قادرون على خدمته والجدّ في منفعته، فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٣٨١. (٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٢٠.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٣٨١. (٤) تفسير التحرير والتنوير ج١٢ / ٢٢١.

رفع المسيَّهم

على ذلك[1] والمقصود من قولهم (ونحن عصبة) أي: يُفَضِّلُهُمَا علينا في المحبة، وهما ابنان صغيران، لا كفاية فيهما ولا منفعة، والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال كُفَاة نقوم بِمَرَافِقِه، فنحن أحق بالمحبّة منهما[2].

وللمفسّرين في معنى (العصبة) ستة أقوال:

أحدها: أنها ما كان أكثر من عشرة، رواه الضحّاك عن ابن عباس.

الثاني: أنها ما بين العشرة إلى الأربعين، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة.

الثالث: أنها ستة أو سبعة، قاله سعيد بن جبير.

الرابع: أنها عشرة إلى خمسة عشر، قاله مجاهد.

الخامس: العصبة: الجماعة، قاله ابن قتيبة وابن زيد والزجاج.

السادس: عشرة، قاله مقاتل، وقال الفراء: العصبة عشرة فما زاد[3] وجمهور اللغويين على أن العصبة تطلق على الجماعة من عشرة إلى أربعين.

طرح قضية الحب وجهة نظر الإخوة:

لقد طرح إخوة يوسف قضية إيثار أبيهم وحبه ليوسف وأخيه من وجهة نظرهم بناءً على قاعدة مادّية نفعيَّة بحْتة، إذ رأو أن نفع الجماعة لأبيهم أكثر من نفع الواحد والإثنين - يوسف وبنيامين مع كونهما صغيرين لا يقومان بعمل - بناء على ما هو الشائع عند عامة البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب - عليه السلام - مساوية لمدارك الدّهماء[4]، والعقولُ قَلَّما تدْرك مَرَاقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غيرما ينظره مَن دونهم، فيعقوب - عليه السلام - ما فضل يوسف - عليه السلام - للمادة ولا للقوة الجسدية، فهو صغير ضعيف

---

(١) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٤٩. (٢) تفسير البحر/ ٥/ ٢٨٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٥، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٠٥، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٤٧، والدر المنثور/ ٤/ ٧، وتفسير زاد المسير/ ٤/ ١٨٣.

(٤) الدهماء: عامّة الناس وسوادهم.



لا يقدر إلا على عمل القليل، ولكنه فضله عليهم جميعا للكمال الروحي المهيَّأ له الدّال عليه رؤياه، وهذا ما غاب عنهم[١].

لقد كان الواجب عليهم يقتضي عدم إغفالهم لوجهة نظر أبيهم، وأن لا يتعجلوا الحكم عليه في هذا الأمر، وذلك لسببين:

الأول: أن أباهم يعقوب - عليه السلام - نبي مرسل، ومرتبة النبوَّة والرسالة لا يصْدُرُ عنها شيْء إلا لله عزّو جلّ.

الثاني: أن الإيمان يقْتضي الاهتداء به - عليه السلام - واتباعه لا الاعتراض عليه[٢]. فلقد أخطأوا حينما قاسوا مرتبة النبوة التي اصطفى الله تعالى بها أبيهم يعقوب - عليه السلام - بمقياس أحوال الناس الدنيويين العاديين، فالأنبياء عليهم السلام - لا يُقدِّمون إلا ما قدَّمه الله تعالى وبأمره وهدايته وتثبيته إياهم على ذلك، ولا يؤخرون إلا ما أخره الله تعالى، فهم لا يجاوزون حدود الله تعالى قيْدَ أُنْمُلَة، أما أصحاب الدنيا فلا يقدّمون ولا يؤخرون أحدا إلا تبعاً للهوى والأغراض الدّنيوية البحتة، ولو نظر إخوة يوسف إلى قضية الإيثار بمنظار الشرع جاعلين مكانة أبيهم المصطفاة نُصْبَ أعينهم لما ضلُّوا الحكم في هذه القضية، ولكنهم قاسوا ما عندهم من علم على ما عند أبيهم، واعتبروا أنهم على حق، فأعماهم عن رؤية حقيقة الأمر مما جعلهم يطرحون القضيَّة طرحا غير صحيح، فظنُّوا أنه حُبٌّ إيثار وظُلم، وهو منهيٌّ عنه، ولذا لاموا أباهم ولم يترَدَّدُوا في هذا اللوم معبّرين عن صدْق وجهة نظرهم[٣] فقالوا:

«**إنَّ أبَانا لفِي ضَلالٍ مُّبين**» هذه الجملة تعليل للتَّعَجُّب - من حال أبيهم نحو يوسف وأخيه - وتفريع عليه.

---

(١) انظر: أيسر التفاسير ٢/هامش ٥٩٦، وتفسير التحرير والتنوير/٦/١٢/٢٢١

(٢) يوسف يعقوب/٤٧.

(٣) يوسف يعقوب/٥٠..



ما هو الضلال الذي يقصده إخوة يوسف؟

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله : قوله تعالى : «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِين» فيه ثلاثة أقوال : أحدها : لفي خطأ من رأيه، قاله ابن زيد. الثاني : في شقاء، قاله مقاتل، الثالث : لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة فيما بيننا، لأنَّ نَفْعَنا له أعم، وقال السدي : في ضلال من أمرنا(١).

فَالظّاهِرُ أن مراد أولاد يعقوب - عليه السلام - بهذا الضلال الذي وصفوا أباهم به، إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي، ويدلُّ لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن الكريم وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم : «قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ»(٢) وقوله تعالى في نبينا محمد - ﷺ - «وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى»(٣) أي لست عالما بهذه العلوم التي تُعْرَفُ إلا بالوَحْي، فهداك إليها وعلَّمَكَهَا بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر :

وتظُنُّ سَلْمَى أنِّي أبْغِي بها *** بَدَلاً أراها في الضَّلال تهيمُ

يعني أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بَدَلاً، وَهُوَ لا يبغي بها بدلاً.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقَيْن آخرَين :

أحدهما : الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن، ومنه بهذا المعْنى «غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ» وقوله : «وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ»(٤) وقوله : «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً»(٥) إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني : إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، ومنه قوله تعالى : «وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ»(٦) وقوله : «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ»(٧) أي : غاب واضمحلّ.

---

(١) زاد المسير / ٤ / ٨٨٣ وانظر : تفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢١٠٥.

(٢) يوسف / ٩٥. (٣) الضحى / ٧. (٤) الصافات / ٧١.

(٥) يس / ٦٢ (٦) السجدة / ١٠. (٧) الأنعام / ٢٤.



إذاً فإخوة يوسف - عليه السلام - لم يقصدوا بالضلال الذي وصفوا أباهم به، ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً، ولكنهم أرادوا به الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب[1].

وعلى هذا فمعْنى قوله تعالى: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» يُعْنُون أن أباهم لفي خطأ من فعله في إيثاره يوسف وأخاه من أمّه علينا ويعني بالمبين، أنه خطأ يُبِينُ عن نفسه أنه خطأ لمن تأمله ونظر إليه[2].

كيف كان هذا التقدير منهم وهذا الظن؟:

ظن إخوة يوسف العشرة أن ما كان من أبيهم - عليه السلام - من حُبّ الصغيرين - إنّما كان عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطئ ويصيب وإن كان نبيا، وبهذا ينحَلُّ ما قيل: إنهم إن كانوا قد آمنوا بكون أبيهم رسولا حقا من عند الله تعالى؛ فكيف اعترضوا؟ وكيف زيَّفُوا طريقته وطعنوا فيما هو عليه؟ وإن كانوا مكذبين بذلك، فهو يوجب كفرهُم - والعياذ بالله تعالى - وهو ممّا لم يقُلْ به أحد، ووجه الانحلال - لما قيل - ظاهر[3].

نتيجة خاطئة: إن النتيجة التي توصلوا إليها بقولهم «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» نتيجة خاطئة، لأنها نشأت عن مقدمات خاطئة، فالمقدّمة الأولى «أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا» لها مبررات، والمقدمة الثانية «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» وما دمتم عصبة فأنتم لا تحتاجون إلى مثل رعاية الصغيرَيْن - يوسف وأخيه - فأنتم كبار أقوياء، ولهذا فإن النتائج الضالة لا تنشأ إلا من مقدّمات باطلة[4].

---

(1) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٢/ ٩٦، وتفسير القرطبي/ ٩/ ١٣١.

(2) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٥.

(3) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٣.

(4) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

رفع المسابهم

من وجوه الإعجاز في الآية الكريمة:

توزيع الضمائر توزيعا يفضح شعورهم تجاه أخويهما - يوسف وبنيامين - فالضمير العائد على شقيق يوسف - بنيامين - أضافوه إلى يوسف وكأنه ليس بأخيهم فقالوا (ليوسف وأخوه) وضمير الجماعة العائد عليهم مضاف إلى يعقوب - عليه السلام - من دون يوسف وأخيه، في قولهم: «أبِيْنَا» و«أبَانَا» وكأنه - عليه السلام - أبوهم وحدهم ولا نصيب ليوسف وأخيه في هذه الأبوة.

- إن الانتقال من ضمير المفرد الغائب إلى ضمير جماعة المتكلمين يشد الانتباه إلى أن حب يعقوب ليوسف وأخِيه يتنافي مع العدالة في نظرهم.
- يحمل قولهم «ونحن عصبة» أنه لا يصح في التصرفات الحكيمة العادلة السليمة أن يُرَجَّحَ حب صغيرين في الأسرة على عصبة قوامها عشرة أفراد، هم عصب الأسرة وعمادها المتحملين لأعبائها وأثقالها، أما هذان الصغيران فإنهما لا يقومان بشيء من هذا، بل هما كَلٌّ على الأسرة، وهما في حاجة إلى من يرعى شئونهما ويعنى بهما ويحميهما، فكيف يكونان بعد ذلك أحب إلى أبيهم منهم؟ يريدون أن يدخلوا من وجهة نظرهم الخاصة إلى الحكم على أبيهم في هذه الواقعة بأنه ضلال مبين...

وهكذا أثار الإخوة بذكاء قضية تفضيل أحد الأبناء على إخوته في الحُب الأبويّ[1].

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٤٦.



المضمون العام للآية الكريمة:

بعيدا عن الرقباء، اجتمع إخوة يوسف لأبيه - العشرة - وحلفوا بالله قائلين ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، وهذا أمر ثابت لا شبهة فيه، وكيف يكون منه ذلك ونحن الأحق بحبه منهما، فرعاية المصالح تقوم علينا نحن لا عليهما، فهما ضعيفان صغيران كلّ علينا، إن أبانا لفي خطأ واضح في موقفه هذا، ضل فيه طريق العدالة والمساواة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الشفقة والمحبة في الأخ الشقيق أكبر منها في الأخ لأب.

٢ - وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، واجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة ومحاباة لأخيه بالهوى.

٣ - وجوب سلوك الحكمة في تفضيل من فضله الله تعالى.

٤ - كان يعقوب - عليه السلام - مثالا عاليا في العدل بين أولاده.

٥ - طرح القضايا طرحا انفعاليا غير قائم على أساس سليم من العلم والمنطق يؤدي حتما إلى إصدار أحكام جائزة، فإن المقدمات الباطلة تؤدي إلى نتائج خاطئة.

٦ - وجوب التزام حدود الأدب واللياقة مع الوالد خاصة إذا كان نبيا ورسولا مصطفى.

٧ - علينا ان نبني مواقفنا في الحياة على الحقائق الثابتة، لا على الأوهام والتهيّئات المضللة.



«الآية التاسعة»

أولاً - النّص القرآنيّ الكريم:

قال الله تعالى ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «اقْتُلُواْ يُوسُفَ»

قتل: أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد كالموْت، لكن إذا اعْتُبِرَ بفِعْل المُتولّي لذلك يقال: قتْل، وإذا اعتبر بَفَوْت الحياة يقال: موْت، قال تعالى: «أفَإِن مَّاتَ أو قُتِلَ»(١)(٢)

قوله تعالى: «اطْرَحُوهُ أَرْضًا»

طرح: الطَّرْح: إلقاء الشيءِ وإبعاده، والطَّروح: المكان البعيد، ورأيته من طرح: أي بُعْد، والطِّرْح: المطروح لقلة الاعْتِدَادِ به، قال تعالى: «اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا»(٣)، والطّرح: الرَّمْي، ويُعَبَّرُ به عن الاقْتِحَام في المخاوِفْ، قال عروة بن الورد:

ومن يَكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِراً ** من المال يطرح نفسه كل مطْرَحٍ(٤)

قوله تعالى «يَخلُ لكم وجه أبيكم» يقال: خلال المكان يخلو خلُواً وخلاءً: فرغ، ومكان خلاء: ليس به أحد، ومعنى (يخل لكم وجه أبيكم): تخلص لكم محبَّة أبيكم دون أن يشارِكَكُم فيها أحد فيقبل عليكم بكُلِّيّتِه(٥).

رابعاً: الإعراب:

قوله تعالى «اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ»

---

(١) آل عمران / ١٤٤. (٢) المفردات (كتاب القاف) / ٣٩٣.

(٣) المفردات كتاب الطاء / ٣٠٢. (٤) الدر المصون / ٦ / ٤٤٥.

(٥) صفوة البيان لمعاني القرآن / ٣٠٣.



(اقتلوا) فعل أمر، و(الواو) فاعل، و(يوسف) مفعول به، (أو اطرحوه) عطف على (اقتلوا) و(أرضا) نصبتْ نصب الظروف المبهمة، أي: أرضا منكرة مجهولة بعيدة عن العمران. قاله الزمخشري[1] وقال ابن عطيه: وَذلك خطأ، لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهما، وهذه ليست كذلك، بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك فزال بذلك إبهاما، ومعلوم أن يوسف لم يخل من الكون في أرض فتبيّنَ أنهم أرادوا أرضا بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه[2] وصحح أبو حيان هذا الرد[3] ويجوز أن تنصب بنزع الخافض، أي: في أرض، وهو بمعنى الظرف، وقيل: مفعول ثان لـ(اطرحوه) المتضمّنَة معنى انزلوه، و(يَخْلُ) جواب الأمر، و(لكم) متعلقان بيخْلُ، و(وجه) فاعل، و(أبيكم) مضاف إليه.

قوله تعالى: «وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ»

و(تكونوا) عطف على (يخْل) و(الواو) اسم كان، و(من بعده) حال، و(قوماً) خبر، و(صالحين) صفة[4].

البلاغة: المجاز في قوله تعالى: «يخل لكم وجه أبيكم» وإنما ذَكر الوجه لأن الرجل إذَا أقْبلَ على الشيء أقبل عليه بوجهه، لأن أول ما يستقبل الإنسان الوجه فعَبَّر به عن إقباله عليهم وعدم الالتفات إلى غيرهم وانتفاء المشارك لهم في حبّ والدهم[5].

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٥

(٢) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٥٣

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٨٤، وانظر الدر المصون/ ٦/ ٤٤٣-٤٤٤

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٥٧-٤٥٨

(٥) المرجع السابق / ٤/ ٤٥٩



سادساً - التفسير والبيان:

اقتراح بالقتل أو الإبعاد المهلك.

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما قرر إخوة يوسف فيما بينهم أن أباهم يعقوب - عليه السلام - قد خص يوسف وأخاه الشقيق بحبه العظيم، وأن هذا أمر ثابت لا شبهة فيه، تساءلوا فيما بينهم، فما أنتم صانعون؟ فقالوا، أو من شاء الله منهم: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا...»(١).

حسد وحقد ونار تتأجج في صدور إخوة يوسف:

وهكذا سرى الحسد البغيض إلى نفوس إخوة يوسف، وقعد الشيطان اللعين يثيرهم ويدفعهم دفعا للشر حتى أعلنوا عن خطتهم البشعة قائلين: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا...».

وهذا يدل على أن حسدهم لأخيهم يوسف قد بلغ النهاية، فقرروا أنه لا بد من إبعاد يوسف عن أبيه، إما بالقتل وإزهاق روحه، أو إلقائه في أرض بعيدة منكورة، فلا يتمكن من العودة إلى أبيه، لأنه إما أن يهلك وإما أن يجده أحد فيسترقه(٢).

موقف عجيب مروّع:

وموقف إخوة يوسف هذا من أخيهم يوسف الصغير - عليه السلام - يدل على أن العواطف السيئة المتولدة عن الحسد قد بلغت ذروتها، عندما يتشبع الحاسد بكراهية المحسود إلى درجة وضع وجوده مع وجود الضَّحية في الميزان، فلا يمكن أن يجتمع الوجودان معا؛ وجود الحاسد والمحسود(٣) فقد اختلّ تقدير إخوة يوسف للواقع بسبب

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١٣.

(١) انظر: تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٣، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٠.

(٢) يوسف بن يعقوب/ ٤٥.



غليان الحقد الناشيء عن الحسد الذي في قلوبهم وتدَخُّلِ الشيطان ليثيرها نارا حامية على أخيهم يوسف، حتى تضخَّمَتْ في حِسِّهِم أشياء صغيرة وهانت عليهم أحداث ضخام، هانت الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح، روح غلام بريء لا يملك دفعا عن نفسه، وهو لهم أخ، وهم أبناء نَبِيّ...، وتضخَّم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب، حتى تُوَازى القتل، أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى[1].

هذا، ولما كان الحسد هو الدافع الحقيقي والأوّل لإخوة يوسف على التخلص منه، كان من المناسب هنا الكلام على الحسد وشروره بشيْءٍ من التفصيل.

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٣.



الحسد أشَرُّ الأخلاق الذميمة:

إن الحسد هو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، يقول الإمام الفخر الرازي: إعلم أن المداخل التي يأتي الشيطان من قبلها في الأصل ثلاثة: الشهوة، والغضب، والهوى، فالشهوة بهيمية، والغضب سبعية، والهوى شيطانية، فالشهوة آفة لكن الغضب أعظم منه، والغضب آفة، لكن الهوى أعظم منه، فقوله تعالى: «إنَّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاء» المراد آثار الشهوة، وقوله: (والمنكر) المراد منه آثار الغضب، وقوله: «والبغي) المراد منه آثار الهوى، فبالشهوة يصير الإنسان ظالما لنفسه، وبالغضب يصير ظالما لغيره، وبالهوى يتعدى ظلمه إلى حضرة جلال الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «الظلم ثلاثة: «فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم عسى الله أن يتركه»، فالظلم الذي لا يغفر هو الشرك بالله تعالى، والظلم الذي لا يترك هو ظلم العباد بعضهم بعضا، والظلم الذي عسى الله أن يتركه هو ظلم الإنسان نفسه، فمنشأ الظلم الذي لا يغفر هو الهوى، ومنشأة الظلم الذي لا يترك هو الغضب، ومنشأ الظلم الذي عسى الله أن يتركه هو الشهوة، ثم لها نتائج:

فالحرص والبخل نتيجة الشهوة،

والعجب والكبر نتيجة الغضب،

والكفر والبدْعة نتيجة الهوى،

فإذا اجتمعت هذه الستة في بني آدم تولد منها سابع - وهو الحسد، وهو نهاية الأخلاق الذميمة كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، ولهذا السبب ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، وهو قوله تعالى: «وَمِنْ شرٍّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد»(١).

كما ختم مجمع الخبائث الشيطانية بالوسوسة وهو قوله تعالى: «الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ(٥) مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاس»(٢) فليس في بني آدم أشر من الحسد، كما انه

---

(١) الفلق/ ٥. (٢) الناس/ ٥-٦.



ليس في الشياطين أشر من الوسواس، بل قيل: الحاسد أشر من إبليس، لأن إبليس روي أنه أتى باب فرعون وقرع الباب فقال فرعون من هذا؟

فقال إبليس: لو كنت إلها لما جهلتني، فلما دخل قال فرعون: أتعرف في الأرض شراً مني ومنك؟

قال: (نعم، الحاسد، وبالحسد وقعتُ في هذه المحنة)(١)

ما هو الحسد؟:

أما في اللغة فيقال: حسده حسدا: تمنى أن تتحول إليه نعمته أو أن يُسلَبَهَا، ويقال حسده النعمة وحسده عليها.

وأما الحسد في الشرع فهو أيضا تمنى الشخص زوال النعمة عن غيره، وهذا التمني قلبي، فإن سعى في ذلك كان باغيا، وإن لم يسع في ذلك ولا أظهره، ولا تسبب في تأكيد أسباب الكراهة التي نُهيَ المسلم عنها في حق المسلم فهنا ينظر إلى المانع، فإن كان المانع له من ذلك العجز، بحيث لو تمكن لفعل، فهذا مأزور، وإن كان المانع له من ذلك التقوى، فقد يعذر لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسية في مجاهدتها ألا يعمل بها(٢)، يقول الإمام ابن الجوزي: إن الناس يذمون الحاسد ويبالغون، ويقولون: لا يحسد إلا شرير يعادي نعمة الله، ولا يرضى بقضائه ويبخل على أخيه المسلم، فنظرت في هذا فما رأيته كما يقولون، وذلك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يحب أن يرتفع عليه، وود لو لم ينل صديقه ما نال، أو أن ينال هو ما نال ذاك، لئلا يرتفع عليه وهذا معجون في الطين ولا لوم على ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل، وقال الحسن البصري: «إنه ما من آدمي إلا وفيه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء»(٣).

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) الحسد والحاسدون (مجدي فتحي) /٨.

(٣) صيد الخاطر/ ٥٣٥-٥٣٦.



ثبوت الحسد بالكتاب والسنة والإجماع:

الحسد ثابت في القرآن الكريم وقد أشار الله تعالى إليه في مواضع عدة، فذكره بالكناية في قوله تعالى: «وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ»(١) قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: - رضي الله عنهم - (ليُزْلِقونك) لينفذونك (بأبصارهم) أي يُعينوك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبُغضهم إيّاك.

وذكر الله الحسد باللفظ الصريح في خمسة مواضع من القرآن الكريم وهي:

١ - قال الله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدَاً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم»(٢).

٢ - وقال تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه»(٣).

٣ - وقال تعالى: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً»(٤).

٤ - وقال تعالى: «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ»(٥).

والحسد ثابت في السنة الصحيحة المطهرة:

ولقد ثبت في السنة ما يؤكد وجود الحسد وتأثير العين، من ذلك قوله ﷺ: «العين تُدخل الرجل القبر وتُدخل الجمل القِدر»(٦) وقال صلى الله عليه وسلم: «العين حقّ، ونهى عن الوشم»(٧) وقال صلى الله عليه وسلم: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلتُم فاغسلوا»(٨) وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالأنفس» قال البزار: يعني بالعين(٩)

---

(١) القلم/ ١٥. (٢) البقرة/ ١٠٩. (٣) النساء/ ٥٤.
(٤) الفتح/ ١٥. (٥) الفلق/ ٥.
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية(٧/ ٩٠) والخطيب في تاريخه (٩ / ٢٤٤) عن جابر بن عبدالله.
(٧) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، باب العين حق، رقم ٧٥٤٠ (١٠ / ٢١٣).
(٨) رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس، باب الطب والمرض والرقى برقم: ٢١٨٨ (٤ / ١٧١٩).
(٩) رواه البزار عن جابر، وحسّنه الحافظ في الفتح (١٠ / ٢١٤).



وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يأمر أن نسترقي من العين»(١)...

هذا، وقد أجمعت الأمة على أن الحسد حق ثابت بالكتاب والسنة.

حكم الحسد القبيح:

الحد القبيح مُحرّم شرعا، لأن الحاسد عدوّ لنعمة الله تعالى، مُتَسَخِّطٌ لقضائه جل شأنه، غير راض بما قسم الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق ومقدر الرزق.

قال الشاعر:

ألا قُل لمن كان حاسداً ✱✱ أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله ✱✱ لأنك لم ترضى لي ما وهب

فجازاك عنه بأن زادني ✱✱ وسد عليك وجوه الطلب

والحسد مرض خبيث من أمراض القلوب:

ولقد ذم الله تعالى الحسد وأمرنا بالإستعاذة منه فقال جل شأنه: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)»(٢).

ولطالما حذر الرسول ﷺ أمته من الحسد، فقد ورد في الصحيحين عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدو ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا... الحديث(٣) وكذلك فإن أهل العلم والحكمة كثيراً ما أظهروا للناس حقيقة الحسد ونفّروهم منه ومن شَره المستطير، ومما قاله أهل الحكمة في ذلك: إنّ الحسد داء مُنصف، يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، حتى إنه قد يقضي على صاحبه الذي ابتُلي به قبل أن يقضي على المحسود.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وهو في صحيح الجامع (٤٨٨٤). (٢) سورة الفلق.

(٣) البخاري/ ١٠ / ٤٠٤ ومسلم/ ٢٥٦٣.



وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود.

الأولى: غمٌّ دائم لا ينقطع، والثانية: معصية يعاقب عليها ولا يؤجر والثالثة: مذمة لا يحمد عليها والرابعة: سخط الرب عليه والخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

قيل للحسن - رضي الله عنه - أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك بني يعقوب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك، وقال: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد، وقال علي - رضي الله عنه - الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له.

الحسد هو المعصية الأولى التي ارتكبت في السماء:

علمنا عن طريق كتاب الله المبين أن الحسد هو المعصية الأولى التي ارتكبت في السماء حين حسد إبليس اللعين آدم - عليه السلام - على تكريم الله تعالى له، حتى علمه الأسماء كلها وأمر ملائكته الكرام بالسجود له، فأبى إبليس أن يسجد لآدم حسدا واستكبارا قال الله تعالى: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)»[١]،

وهكذا كان الحسد من إبليس اللعين لآدم - عليه السلام - سببا في اللعن والطرد والوعيد بالعذاب المهين، ولقد فعل الحسد الكريه فعلته بين قابيل وهابيل، حين تقبل الله تعالى قربان هابيل لإخلاصه وتقواه، ولم يتقبل قربان قابيل لخبث نفسه وفجوره، ودخل الشيطان إلى قلبه من مدخل الحسد، فأثار حقده وغضبه على أخيه حتى سولت له نفسه بقتل أخيه هابيل فخسر القاتل نفسه في الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران

---

(١) ص/٧٥-٧٨.



المبين، قال تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)»[١].

ولقد حسد كفار مكة رسول الله ﷺ أن أنزل عليه الوحي من دونهم بل واستعظموا أن ينزل القرآن الكريم على محمد ﷺ وهو في زعمهم دون عظمائهم جاهاً ومالاً فقالوا بلسان القرآن العظيم: «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»[٢] يريدون الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من الطائف، فجهَّلهم الله تعالى بقوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ»[٣]. وذكر ابن اسحاق قال: أتى الاخنس بن شريق أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسَيْ رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع له أبدا ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شريق، إذا فالأمر أمر حسد وخوف شديد أن يتفوق عبد مناف في الشّرف عليهم[٤].

كل ذي نعمة محسود:

يقول الأستاذ عبدالرحمن حبنّكه:

وما من ذي نعمة إلا كان له حاسدون، وكان له من حاسديه ظالمون آثمون، دبروا له

---

(١) المائدة/ ٢٧-٣٠. (٢) الزخرف/ ٣١. (٣) الزخرف/ ٣٢. (٤) ابن هشام/ ١/ ٣١٦.

رفع المستهام

المكائد وافتروا عليه الفرى، ومكروا به أيما مكر، فذو نعمة في عقله وعلمه، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين ذي سلطان بالكذب والبهتان فناله من حسدهم بلاء وهمٌّ حزن وغم، وذو نعمة في سلطانه ومجده كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين أقرانه، أو بينه وبين رعيته بالكذب والبهتان والظلم والعدوان فناله من حسدهم هم وغم وحزن وبلاء، وذو نعمة في ماله وتجارته، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين زبائنه وشركائه، أو بينه وبين ذي سلطانه بالكذب والبهتان والظلم والعدوان فناله من حسدهم بلاء وهم، وحزن وغم، وذو نعمة في دعوته إلى الله تعالى وجهاد في سبيل الله وإخلاصه في نصحه وصدقه في عمله، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين إخوانه وأحبابه وتلامذته وأصحابه بالكذب والبهتان والظلم والعدوان فناله من حسدهم بلاء وهم وحزن وغم، وكم من زوجين حبيبين يظللهما سرادق السعادة والهناء، ويُمَتِّعُهُما نعيم المودة والصفاء، ويمدهما العطاء الكريم بالصحة والرخاء، كان لهما حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهما بالكذب والبهتان والظلم والعدوان، فنالهما من حسدهما بلاء وهم، وحزن وغم، وربما مُنيا بمُرِّ الفراق وشر الطلاق، وكم من أصحاب متآخين في الله، متصافين متحابين، يجتمعون على الله ويفترقون عليه، قد ائتلفوا بينهم ائتلاف حبات عقد اللؤلؤ النظيم لا يمر النسيم بينهم إلا بعطر، ولا تطلع الشمس عليهم إلا بزهو، ولا يُسبلُ الليل عليهم ستره إلا بصفاء، ولا يمر الزمان على أحدهم إلا بوفاء قد دخل بينهم حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهم بالغيبة والنميمة كذبا وبهتاناً وظلما وعدوانا فنالهم من حسد حاسديهم هم وبلاء وعداوة وبغضاء ثم تفرقوا تفرق الأعداء، وكم من والد أفسده مكر الحاسدين على ولده فَبات غاضبا عليه بعد أن كان راضيا عنه، وكم من ولد أفسده الحاسدون على أبيه فبات عَاقاً بعد أن كان بَارّاً به، كل هذا له شواهد وأمثلة كثيرة في أحداث التاريخ، وما يزال التاريخ يسجل منها أحداثا وأمثلة كثيرة في كل حقبة من الزمن وفي كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية(١).

---

(١) الأخلاق الإسلامية / ١ / ٨٠٢ وما بعدها.

رفع المسيهم

كثرة الحسد بين الأقارب:

يكثر الحسد بين الأقارب لأنهم يتزاحمون على المقاصد، وأصل العداوة تأتي من التزاحم على غرض واحد والغرض الواحد لا يجتمع بين متباعدين بل بين متقاربين فلذلك يكثر الحسد بينهم وأكثر المحاسدات تقع بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب.

ولقد حسد إخوة يوسف أخاهم يوسف - عليه السلام - لأن الغرض الذي يطلبه ويتمناه كل واحد منهم في أن يرث زعامة الأسرة ورئاستها من بعد أبيه أو أن يكون له نصيب في ميراث النبوة من بعد يعقوب - عليه السلام - هذا الغرض قد بدا أنهم على وشك أن يفقدوه بسبب هذا الحب الكثير من يعقوب ليوسف - عليه السلام - ولذلك حسدوا أخاهم يوسف على شدة حب أبيه له، خوفا من أن يورّثه أبوه يعقوب زعامة الأسرة ورئاستها أو أن يؤثره بميزان النبوة عنهم.

أمور يندفع بها الحسد - بإذن الله تعالى:

وجّه يعقوب ابنه يوسف - عليهما السلام - إلى أمور يدفع بها عن نفسه بإذن الله تعالى غائلة حسد إخوته وذلك بكتمان أمر الرؤيا عنهم، وإذا كان كل ذي نعمة محسود فقد وجه الله تعالى عباده في كتابه الكريم إلى الاعتصام به والالتجاء إليه والتعوذ به من شر حاسد إذا حسد،...

وقد جمع الإمام ابن القيم - رحمه الله - أمورا يندفع بها شر الحسد بإذن الله في تفسير سورة (الفلق) نذكر منها هنا ما تتم به الفائدة إن شاء الله تعالى وهي كالتالي:

١ - الاستعاذة بالله تعالى من شر الحاسد، والتحصن بالله سبحانه واللجوء إليه فهو سبحانه قادر على دفع شر كل ذي شر.

٢ - تقوى الله عزو جل، وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تعالى تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال - ﷺ - لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -



«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»(١) فمن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ وممن يحذر؟

٣ - الصبر على عدوه، وألا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا، فما نصر أحد على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغي الحاسد كان بغيه جُنْداً وقوة للمبغي عليه (المحسود) يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسر ببغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا البغي، دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: «وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ»(٢).

٤ - التوكل على الله تعالى، فمن يتوكل على فهو حسبه، قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته للعبد، قال تعالى: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»(٣).

ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل سبحانه وتعالى نفسه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، ثم كادت له السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجا من ذلك، وكفاه ونصره، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش.

٥ - السبب الخامس من أسباب دفع أذى الحاسد، هو فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه، ومما يقوي العبد على ذلك السبب التالي:

٦ - السادس: الإخلاص لله والإقبال عليه وحده، وجعل محبته ورضاه والإنابة

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح برقم (٢٥١٨).
(٢) الحج/ ٦٠. (٣) الطلاق/ ٣.



في محل خواطر نفسه، حتى تملأ عليه نفسه وتغمرها، فإن الله تعالى يصرف السوء والفحشاء عن عباده المخلصين، فما أعظم سعادة من دخل في هذا الحصن.

٧ - تجديد التوبة، فإن الذنوب سبب في تسليط الأعداء، وقد يكون منها مالا يعلمه الإنسان.

٨ - الصدقة والإحسان فإنهما يدفعان البلاء.

٩ - السبب التاسع، وهو من أصعب الأسباب على النفس ولا يوفق إلا ذو حظ عظيم، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرا وحسدا، ازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة.

١٠ - والسبب العاشر، وهو الجامع لذلك كله، وعليه مداراة هذه الأسباب، وهو تجديد التوحيد والترحّل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها، وبادئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فإذا جرَّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يُفرِدُ الله سبحانه، وقد أمَّنه منه، ونستعيذ بالله لنا وللمسلمين من شر كل حاسد إذا حسد، وإلى الله نبرأ، وعلى الله نتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عجيبة: لم يُسنِدِ الله تعالى الحسد لجماعة مُعَيَّنين إلا لليهود:

إن ما قاله إخوة يوسف، وما سيفعلونه بعد، ناشئ عن الحسد الذي ملأ صدورهم، وإن تعجبوا فَعَجَبٌ أن الله تعالى لم يُسْند الحسد لجماعة مُعَيَّنين إلا لليهود، وذلك في موضعين:

الأول: قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِه»(١).

الثاني: قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم»(٢).

---

(١) النساء/ ٥٤. (٢) البقرة/ ١٠٩.



عود إلى قول الله تعالى على لسان إخوة يوسف:

«اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا...» جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الكلام المتقدم يثير سؤالا في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه، فهذا المقصود للقائلين، وإنما جعلوا له الكلام السابق «ليوسف وأخوه.... الخ» كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين، فإذا ألقى إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه، وهذا فنّ من صناعة الخطابة، أن يفتتح الخطيب كلامه بتهيئة نفوس السامعين لتتأثر بالغرض المطلوب، فإن حالة تأثر النفوس تغني عن الخطيب غناء جمل كثيرة من بيان العلل والفوائد[1].

والظاهر أن هذا القول: «اقتلوا يوسف... الخ» من جملة ما حكى بعد قوله سبحانه: «إذ قالوا»، وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين وكانوا راضين بذلك إلا من قال «لا تقتلوا» الخ، ويحتمل أنه قاله كل منهم مخاطبا للبقية، والاستثناء هو الاستثناء، وزعم بعضهم أن القائل رجل غيرهم شاوروه في ذلك، وهو خلاف الظاهر ولا مثبت له، والظاهر أن القائل خيرهم بين الأمرين، القتل أو الطرح، وجوّز أن يكون المراد قال بعض: «اقتلوا يوسف» وبعض «اطرحوه»[2].

ومعنى الجملة «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا»: أي: اقتلوه قتلاً لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه، أو اطرحوه، أي: انبذوه كالشيء الملقى الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا، أو عن العمران، بحيث لا يهتدي إلى العودة لأبيه سبيلا إن هو سلم من الهلاك[3].

وواضح أن القتل أو الطرح في أرض بعيدة منكورة؛ قريب من قريب، فطرحه في أرض نائية مقطوعة مفْض في الغالب إلى الموت[4]، والملاحظ أن إخوة يوسف قد أظهروا الحسد والبغض للأخوين الشقيقين يوسف وبنيامين في الآية السابقة «ليوسف

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) روح المعاني / ٦ / ٣٨٣. (٣) تفسير المنار / ١٢ / ٢٦١.

(٤) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٣.



وأخوه...»، ولكنهم في هذه الآية لم يُدْخِلُوا في المؤامرة إلا يوسف - عليه السلام -، والسبب في ذلك أنه هو المقصود بالذات، ولأنه صاحب الحب الأكبر لأبيهم، وأيضا فإن حب يعقوب لبنيامين أقرب إلى الحب الفطري الطبيعي لأنه أصغر من يوسف، فالدواعي للتعرض له غير متوفرة.

هذا، ولما كان التقدير: إن تفعلوا ذلك - القتل أو الطرح - أجابه بقوله:

«**يخل لكم وجه أبيكم**»[1] فـ(يَخْلُ) مجزوم في جواب الأمر، أي: إن فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم[2] يُعْنون يخل لكم وجه أبيكم مِنْ شغله بيوسف فإنه قد شغله عنا وصرف وجهه عنّا إليه[3] فإن أبْعَدتُّم يوسف عنه يُقْبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم[4] والخلو: حقيقة الفراغ، وهو مستعمل هنا مجازاً في عدم التوجه لمن لا يرغبون، فكأن الوجه خَلاَ من أشياء كانت حَالَّةً فيه، واللام في قوله (لكم) لام العلّة، أي: يخل وجه أبيكم لأجلكم، بمعنى أنه يخلو مِمَّن عداكم فينفردُ لكم، وهذا المعنى كناية عن تلويح خلوص محبته لهم دون مشارك[5].

لأن المراد سلامة محبته لهم ممّن يشاركهم فيها وينازعهم إيَّاها، فكان ذكْر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأن الرجل إذا أقْبَل على الشيْء أقبل عليه بوجهه[6] فالوجه هو الذي به المواجهة والابتسام والحنان، وكل انفعال يظهر عليه، هنالك لا يكون حائل بينكم وبين أبيكم[7] وهذه الجملة «يخل لكم وجه أبيكم» من فرائدِ دُرَرِ الكلام البليغ بتصويرها حصْر الحُبّ وتوجُّه الإقبال والعطف بصورة الضرُوريّات التي لا اخْتيار للرأي ولا للإرادة فيها، لا من ظاهر الحسّ ولا من وجدان النفس، بعد وقوع هذه الجناية - الكبرى - التي تقتضي إعْرَاضَ الوجه وأعْرَاض الكراهة والمقْت[8].

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٤.　(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٣.
(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٥٥.　(٤) الكشاف/ ٢/ ٣٠٥.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٣.　(٦) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٥.
(٧) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجّلة.
(٨) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦١-٢٦٢.



ولكنّ ضلال الحَسَد والحقْد وتَسْويل الشيطان الذي احتواهم بخبثه وكيده، خَيَّل لهم أن وجه أبيهم يعقوب - عليه السلام - وكأنه أشبه بمرآة عاكسة للصورة، لا أكثر ولا أقل، فهو لَنْ يؤثر بحبه من أبنائه إلا من يراهم ويَحْيَوْن بجانبه، أما من قتله الإخوة أو أبعدوه فَسَيَنْسَاه بعد فترة من الزمان، وهكذا يصفو لهم الجو ويخلص لهم وجه أبيهم، هكذا تصوروا، وهكذا ظنوا وهكذا سوّل الشيطان لهم فَغَابت عنهم الحقيقة بين تلك الظلمات التي أعَمَّتْهم فأعْمَتْهم عنها، وما دروا أن يوسف - عليه السلام - هو من أبيه بمثابة نفسه الكبرى، الممتدّة منه والباقية بعده، النفس الكريمة الطاهرة المصطفاة التي اختارها الله تعالى من بين كل أبناء يعقوب، لتظل النبوة الكريمة ممتدّة في آل يعقوب، متصلة بنبوة إبراهيم وإسحق - عليهما السلام - فهم إن غيبوا يوسف عن أبيه أو أبعدوه عنه، فلن يغيب عن بال أبيه أبدا، وَسَتُثْبِتَ الوقائع القادمة في القصة صحة ذلك، فإنه بعد غياب طويل ليوسف عن أبيه، وبعد استبقاء يوسف لأخيه الشقيق (بنْيَامين) في مصر، لم يكن موقف يعقوب - عليه السلام - من أبنائه إلا كما قال القرآن العظيم على لسانه: «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»(١) لقد تولى وأعرض عنهم بوجهه وبكلّيّته وكأنّهم غير موجودين معه، ثم فجَّرَ في وجوههم نار حبه لابنه الغائب البعيد، الأقرب إليه منهم جميعا حتى وهو غائب لا يراه، فقال: «يا أسفى على يوسف...» فقولهم: «يخل لكم وجه أبيكم» أي إن غيبتم عنه يوسف أمنية بَالِغَةُ الضّلال.

أمنية ضالة أخرى:

«وتكونوا مِن بَعدِه قوماً صَالحِين»

ولما كان أهل الدين لا يهملون إصلاح دينهم لأنه محط أمرهم قالوا: «وتكونوا من بعده...»(٢)

(١) يوسف/ ٨٤. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ١٤



«وَتَكُونُوا» بالجزم عطفا على جواب الأمر، وبالنصب بعد الواو بإضمار (أن) أي: يجتمع لكم خُلُوُّ وجْهه والكون، «من بعده» أي: بعد يوسف، على معنى بعد الفراغ من أمره، أو من بعد قتله أو طرحه، فالضمير إما ليوسف، أو لأحد المصدَرَيْن المفهومَيْن من الفِعْلَيْن[1]. وإقْحَام لفظ (قوماً) بين كان وخبرها للإشارة أن صلاح الحال صفة متمكّنَة فيهم كأنه من مقومات قوميتهم[2] وإيثار الخطاب في (لكم) وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل[3].

ومعنى الجملة: وتكونوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه قوما صالحين.

المراد بالصلاح في قوله: «قوماً صالحين»:

اختلف أهل التفسير في المراد بالصلاح هنا، فذهب أكثرهم وهم الجمهور: إلى أن المراد بالصلاح صلاح الدين، روي هذا عن ابن عباس والسدي والكلبي، فهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تُبْنَا إلى الله من هذه الجريمة ونصير من القوم الصالحين، وهذا فيما بينهم وبين الله تعالى، وأما بينهم وبين أبيهم فيكون بالعذر.

وهذا الرأي هو الأظهر، قال الإمام ابن عطية: وقال الجمهور: «صالحين» معناه بالتوبة، وهو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضا تعطيه لأنهم مؤمنون بثّوا على عظيمة وعلَّلُوا أنفسهم بالتوبة[4] وقال: الإمام أبو حيان عن هذا القول: وهذا أظهر[5].

وذهب آخرون إلى أن المراد من الصلاح، صلاح الدنيا، روي ذلك عن مقاتل والحسن، والمعنى على هذا، وتكونوا من بعد يوسف، أو من بعد قتله أو طرحه قوما صالحين يصلُحُ شأنكم عند أبيكم.

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٣ (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٤

(٣) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٤. (٤) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٥٤. (٥) تفسير البحر/ ٥/ ٢٨٤.



وذهب غيرهم إلى أن المراد من الصلاح، صلاح الأحوال بتسوية أبيهم بينهم من غير أثرة ولا تفضيل(١).

والقول الأول هو الأظهر - كما سبق، قال الإمام الطبري مقتصراً عليه: «وتكونوا من بعده قوما صالحين» يعنون أنهم يتوبون مِنْ قتلهم يوسف - عليه السلام - وذنبهم الذي يركبونه فيه، فيكونون بتوبتهم من قتله بعد هلاك يوسف قوما صالحين(٢).

ظن الجاهلين: لقد ظن إخوةُ يُوسُفَ أنهم بتَغْييب يُوسف عن أبيه سيتحقق لهم هدفان:

الأول: زوال الحجاب الحائل دون تمتّعهم بالحب الأبوي الكامل، وهو الحب الذي يتصورون - جَهْلاً - أن يوسف - عليه السلام - هو المانع دون تحقيقه، فأبوهم - في تصورهم - بعد تخلّصهم من يوسف سيخصُّهم بجميع الحب الذي كان يُفيضُه على يوسف - عليه السلام.

الثاني: تحقّق صلاحهم المتوقف على التخلص من يوسف، وكأن وجوده - عليه السلام - يطاردُ وجودَهم، ويقُضُّ مضاجعهم، ويحول بينهم وبين الصلاح، بحيث أن تفكيرهم في علاقتهم به وعلاقته بأبيهم وعلاقة أبيهم به قد استغرق جُلَّ وقْتهم، فظنوا أنهم لو فرغوا منه لم يعد هناك ما يشغلهم عن الصلاح.

وهكذا... وتحت تأثير الحسد يُجْرى الحاسد المقارنات بينه وبين المحسود، وَكُلُّها مقارنات متحيّزة تعطي للحاسد بلا حق، وتسْلُب من المحسود دون وجه حق، فهي عمليَّات تسكين وتهدئة نفسيّة يقوم بها الحاسد ليشفي بها غِلَّه، وينفّس بها عن براكين الحقد المُسْتَعِرة في جوفه، كما أنها عمليات انتقام يجريها خياليا ثم ينفّذُها عمليا، ولا يزول ما عنده إلاّ إذا سَلَبَ من الفريسَةِ جميع ما فيها من مميزات يتمنّى في الواقع زاولها..

---

(٣) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٤٨.   (٤) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٥.



هذه التصورات العمياء الموغلة في الانحراف تحجب الرؤية الحقيقية مهما كانت درجتها من الوضوح، وتزيد من قدرة الكراهية والحقْد حتى تصل المشاعر إلى درجة لا بد من التعبير عنها عمليا، ويزداد عنف هذا التعبير السلوكي كلما كانت الطاقة الفاسدة المولدة له أقوى(١).

وهكذا ينزغ الشيطان... وهكذا يسوِّل للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث...، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد بَرَزَ الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تصلح مافات، وليست التوبة هكذا، إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفعُ إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر، حتى إذا تذكر نَدم وجاشت نفسه بالتوجه، أما التوبة الجاهزة؛ التوبة التي تعدُّ سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة؛ إنما هي تبرير يزكّيه الشيطان(٢).

وما أدراهم أنهم سيكونون صالحين بعد هذه الفعلة البشعة، وما يدريهم أنهم سَيَتَمادَوْن في سفك الدماء ومحاربة الله تعالى ورسوله... وكيف يطلبون أن يُقْبِل عليهم أبوهم ويغمرهم بحبه وهو نبي مرسل بعد أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء مع المبَشَّر بالنبوة والرسالة من بينهم جميعا(٣) حَقّاً؛ لقد أعماهم الحسد والحقد والغيرة عن كل صواب، وَزين لهم الشيطان عملهم وهو عمل في قمة الإجْرَام، فهكذا يزيّنُ الشيطان اللعين للمؤمن المتديّن معصية الله تعالى، ولا يزال ينْزِغُ له ويُسَوِّلُ حتى يُرَجّحَ داعي الإيمان، أو يجيب داعي الشيطان، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله تعالى(٤).

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٤٥-٥١. (٢) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٣.
(٣) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٥١. (٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٢.

رفع المسابهم

المضمون العام للآية الكريمة:

لقد رأينا من خلال الآية الكريمة كيف أن الشيطان الرجيم، وعن طريق الحسد البغيض والحقد الأسود والغيرة المهيجة للنفوس والمشاعر، قد دخل إلى قلوب إخوة يوسف فأثارها بزوبعته الشّريرة المفتعلة، حتى غلت كالقِدْر فوق النار، فأراهم ظاهرة حب أبيهم لأخيهم يوسف وكأنها أمر خطير وحدث ضخم للغاية، لا بد من موقف حاسم ضده، ووسوس لهم الشيطان وزين أنه لا سبيل لصلاح حالهم وهدوء بالهم وإقبال أبيهم بوجهه عليهم بكليته إلا بالخلاص من حبيبه الأول يوسف - عليه السلام - وظنوا ظن الجاهلين أن أباهم حين لا يرى ابنه يوسف بعد خلاصهم منه سوف ينساه كلية، ويخلو قلبه منه ومن حبه، وحينئذ لا يجد مفرا من قصر حبه وإقباله بوجهه عليهم وحدهم، وكأنَّ الحب في تصورهم المجنون يشبه شيئا آلياً يمكن أن يعمل حين يوضع في أي مكان، فإذا فقد مكانا ما، انتقل ليعمل في مكان آخر، وذلك هراء وتخريف وكان الأولى بهم لو أرادوا حبا أوفر من أبيهم أن يطيعوا الله فيه، ويطيعوه ويتقبلوا كل ما يرونه منه بلا أدنى اعتراض، لأنه رسول من الله تعالى لهم ولمن حولهم، ولكن الشيطان هيأ لهم الشر وجمّله فاتبعوه إلا واحدا منهم هو الذي قال في الاية التالية: (لا تقتلوا يوسف).

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الجريمة دائما لا تفيد، وإنما تؤدي إلى ردود عكسية، فبعد تنفيذ الإخوة لمؤامرتهم ضد أخيهم يوسف وضد أبيهم يعقوب لم يجدوا منه إلا التولي والإعراض عنهم.

٢ - الحسد البغيض يثير الحقد في النفس ويحجب نور الحق حتى يرتكب صاحبه ما حرم الله.



٣ - صلاح الحال والمآل وسعادة الدارين لا يكون إلا بالعمل الصالح وليس بارتكاب الجرائم.

٤ - التوبة الجاهزة المعدة سلفا لا تقبل، وهي تبرير شيطاني ماكر.

٥ - طلب محبة الغير تكون بِفِعْل ما يحب لا بفعل ما يضره ويحزنه ويبكيه.

٦ - الحب الخالص لله في القلب لا يحجبه بعد مكان ولا طول زمان.

٧ - التوبة في الإسلام العظيم باب واسع من رحمة الله تعالى جعلها رب العزة لمن يستحق قبولها.



«الآية العاشرة»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «فِي غَيَابَةِ الجُبِّ» (١٠، ١٥) على الجمع:

قرأها نافع وحده في الحرْفيْن،

والوجه أنه جَمْعُ غيابة، فكأنه كان في تِلْك الجُبّ غيابات عِدّة، ويجوز أن يكون جعل كل جزء من تلك الغيابة التي كانت في الجب غيابة، فلهذا جمع، كما يقال: شابت مَفَارِقُه، قال الشَّمَّاخ:

وَلَوْ أني أشاء كَنَنْتُ نَفْسِي *** إِلى كبَّاتِ هَيْكَلَةٍ شَمُوعِ

فجمع اللّبّة بما حولها.

وقرأ الباقو (غيابة) على الوحدة.

والوجه أنه لا يخلو أن يكون لتلك الجبّ غيابة واحدة أو غيابات، فإن كانت واحدة فلا نظر في صحّة الوحدة، وإن كانت غيابات عِدَّة، كانت هذه واحدة وقَعَتْ موْقع جمْع، وأريد بها الجمع(١).

قوله تعالى: «يلتقطه» قرأ العامة «يَلْتَقِطْهُ» بالياء من تحت وهو الأصل، وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة بالتّاء من فَوْق لتأنيث المعنى، ولإضافته إلى مؤنث وقالوا: «قطعت بعض أصابعه» وقال الشاعر:

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٦٩- ٦٧٠ وانظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها / ٢ / ٥.



إِذَا بَعْضُ السِّنِينَ تَعَرَّقَتْنا * * كفى الأيتامَ فقْد أبي اليتيمِ(١).

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وألقُوه» الإلقاء: طرح الشيْء حيث تَلْقَاه، أي تراه، ثم صار في التعارف اسْمًا لكُلِّ طرْح، قال: «فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ»(٢) وقال: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ»(٣)(٤).

«غَيَابَةِ الجُبِّ» الغَيَابة: كل شيء غَيَّبَ عَنْك شيئاً فهو غَيَابة، وكل موضع سَتَرَ عنْكَ الشيء وغيَّبَه، قال الهروي: الغَيَابة: سدٌّ أو طاق في البئر قريب من الماء يغيب ما فيه عن العيون، وقال الكلبي: الْغَيَابة تكون في قعْر الجبّ لأن أسفله واسع ورأسه ضيّق، فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه، وقال الزمخشري: الغيابة: غوْرُه وما غاب منه عن عيْن الناظر وأظْلَمُ من أسفله، والمعاني متقاربة(٥) وقيل للقبْر: غَيابة، قال المنخّل:

فإن أنا يوما غَيَّبَتْني غَيَابَتِي = فَسِيروا بِسَيْرِي في العشيرة والأهل، أراد غَيابة حُفْرته التي دفن فيها(٦).

والجبّ البئر التي لم تُطْوَ - أي لم تبْنَ بالحجارة، ويقال لها قبل الطّي: ركيّة وتسمى (قليباً) والجب مذكر، والبئر مؤنثة، وجمع الجب: أَجْبَابٌ، وجِبَابٌ، وجِبَبَه.

وسميت البئر التي لم تُطْوجُبّاً، لأن الأرض تُجَبُّ لاغير.

أما البئر المطويّة، فهي التي بُنِيَ أسفَلُها وأعلاها بالحجارة، وتُسَمّى طَوِيّاً، فإن طُوي أسفلها بالحجارة وأعلاها بالخَشَبِ قيل لها: بئر مَعْرُوشة، أما إذا بُنِيَ بعْضُ جدارها الاسطوانيّ وتُرك بعضُه قيل لها: الجفر.

فمعنى غيابة الجب: ما يغيب عن رؤية البصر من قَعْرِ الجب، أو حفرة بجانبه تكون

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٤٤٧. (٢) طه/ ٨٧. (٣) طه/ ٣٩.
(٤) المفردات (كتاب اللام)/ ٤٥٣.
(٥) فتح البيان/ ٦/ ٢٩٥.
(٦) الكشاف/ ٢/ ٣٠٥ وانظر الدر المصون/ ٦/ ٤٤٦.



فوق سطح الماء يَدْخلها من يُدلّى فيه لإخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خَلَلٍ عَرض له[١].

قال الأعشى:

لئن كنتُ في جُبٍّ ثمانين قامة *** ورُقّيتَ أسباب السماء بِسُلَّمِ

قال الإمام الماوردي: وفي تسميته (غيابة الجب) وجهان: أحدهما) لأنه يغيب فيه خبره، (الثاني) لأنه يغيب فيه أثره: قال ابن أحمر - عمرو بن أحمر الباهلي -:

ألا فَالْبثَا شهريْن أو نِصْف ثالث ** إلى ذاك ما قد غَيَّبتي غيابيا[٢]

قوله تعالى: «يَلتَقِطهُ»: أصل الالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستُعير لأخذ شيء مضاع، وفي مجمع البيان: هو أن يجد الشيء ويأخذه من غير أن يحسبه، فمعنى «يلتقطه»: يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإن الالتقاط أخذ شيء مُشْرفٍ على الضياع، ومنهُ: «الّلقَطة» و«الَّلقيط» قال الشاعر: وَمَنْهَلٍ وَرَدتُّهُ الْتِقَاطا[٣].

قوله تعالى: «السيارة» السّيارة: جمع سيّار، وهو المبالغ في السَّيْر، والسيارة: الجماعة الوصوفة بَحالَة السّيْر وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير، مثل: الفَلاَّحَة، وَالبَحَّارة والتعريف فيه تعريف العهد الذهني، لأنهم علموا أن الطريق لا يخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة والميرة[٤].

رابعاً - الإعراب:

قال تعالى: «قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ» «قال قائل» فعل وفاعل، و(منهم) صفة، و(لا) ناهية، و(تَقْتلُوا) فعل مضارع مجزوم بـ(لا)، و(الواو) فاعل، و(يوسف) مفعول به، و(ألقوه) فِعْل أمر وفاعل ومفعول به، و(في غيابة الجب) متعلّقان بـ(أَلْقُوه).

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٢.

(٢) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر اللسان/ ٧/ ٣٩٢-٣٩٤ (لقط).

(٤) انظر اللسان/ ٤/ ٣٨٩ (سير).



«يَلْتَقِطْه بَعض السَّيَّارَة إنْ كُنْتُم فَاعِلين» (يلتقطه) جُزِمَ لوقوعه جَوَاباً للأمر، و(بعض السيارة) فاعل، و(إن) شرطيّة، و(كنتم فاعلين) كان واسمها وخبرُها، وجواب (إن) محذوف، أي إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به الغرض فهذا هو الرأي الصواب[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٥٨.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

الانتقال إلى حكم آخر غير القتل أو الطرح:

قال الله تعالى : ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

وجه المناسبة:

لما أشار إخوة يوسف - إلا واحدا - بقتل يوسف، أو طرحه أرضا منكورة لا يعود منها، فكأنه قيل: إن هذا لمن أعجب العجب من مطلق الأقارب فضلاً عن الإخوة، فماذا قالوا عند سماعه؟ فقيل:

«قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ»(١).

وما كان لهم أن يقتلوا يوسف - عليه السلام -:

ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريدُ مِنْه أمْرا لا بُدّ من إمضائه، وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوّة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقاله أخيهم الأكبر(٢) الذي ارتعش لِهَوْل ما هم مقدمون عليه، فيقترح حلاً يريحهم من يوسف ويُخلِي له وجه أبيهم - كما يظنون - ولكنه لا يقتل يوسف ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك، إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل حيث يرجّح أن تعثر عليه إحدى القوافل فَتُنْقِذُه وتَذْهَبُ به بعيدا(٣)، وهذا عطف منهم على أخيهم لما أراد الله تعالى من إنْفاذ قضائه، وإبقاء على نفسه، وسببا لنجاتهم من الوقوع في هذه الكبيرة(٤) وهذه الخطة التي توصلوا إليها والتي تخلِّصُهم من أخيهم وتَبرُّؤهم في نفس الوقت من دمه، قد أنتجتها المناقشات التي دارت بينهم حول الإجراءات التي يتخذونها في سبيل التخلص منه، والتي أفادت في هزّ ضمائرهم شيئا حين ظهر لهم

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١٤. (٢) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٠.
(٣) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٤. (٤) تفسير البحر/ ٥/ ٢٨٤.



من ثَنَايا الحوارِ هَوْل الجريمة البشعة التي يخططون لتنفيذها، وكلّما أو غلوا في بحْث تدابيرها كلما ازداد أمرها بشاعة، مما زَعْزَعَهُم أو زَعْزع بعْضهم عن ارتكاب جريمة القتل وأعدَّهم للموافقة على أي اتجاه مخفّف، . . .

وإذا كان المقصود هو التخلص من وجود أخيهم، فما بالهم يحصرون تفكيرهم في سفْك دَمِه، وَمَا انْقَدَحَتِ الفكرة عند أخيهم الأكبر حتى بادر بإعلانها كحلّ للموقف[1].

وقوله: «قَالَ قَائل مِّنْهُم لاَ تَقْتُلُوا يوسف» جملة مستأنفة استئنافا بيانياً، كأن سائلا سأل: أَتّفقوا على ما عرض عليهم من خَصْلَتَي الصنيع أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف... الخ»، والإتيان بيوسف دون ضميره لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظام قتله وهو هو[2] وهذا القول: «قال قائل... الخ» جار على طريقة المقاولات والمحاورات، كما قال تعالى: «قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا... الآية»[3][4] وجاءت كلمة (منهم) كي لا يُظَنَّ أنه دخل في مؤامرتهم هذه غيرهم، لأنه لو قيل: (قال قائل) لا احتمل أن يكون القائل منهم أو من غيرهم، فهذا القائل أحد الإخوة ولذلك وُصف بأنه منهم، فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: قال أحدهم، أو واحد منهم، أو قال قائلُهم؟ قلنا: لأنه يقال: قال أحدهم أو واحد منهم، إذا كان القائل يُعْتَنَى بكلامه أوْلا، ويقال: قال قائلهم، فيما إذا كان قول القائل هُوَ القوْل ولا يُخَالَف، ويقال: قال قائل منهم، إذا كان القائل يُعْتَنَى بقوله إلا أنه ليس مُلْزِماً ومحتّما، وهنا كان القائل كبير الإخوة، فكان لكلامه وزْن واعتناء[5] إلا أنه غير لازم أو محتم عليهم أن يقبلوه.

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٥٢. (٢) روح المعاني / ٦ / ٣٨٤.
(٣) البقرة / ٣٠. (٤) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٢٤.
(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٤٢.

من القائل: «لا تقتلوا يوسف... الخ»؟

اختلف في قائل هذا منهم على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه (روبيل) وهو أكبر إخوة يوسف وابن خالته، قاله قتادة وابن إسحاق.

الثاني: أنه (شمعون) قاله مجاهد.

الثالث: أنه (يهوذا) قاله السدي، ونسب أيضا إلى ابن عباس كما في القرطبي، وعنه قال: قال كبيرهم الذي تخلف.

والأكثرون على أن القائل هو (يهوذا)

قال الإمام الزمخشري: «قال قائل منهم...» هو (يهوذا) وهو أحسنهم فيه رأيا، وهو الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي... الآية»[1][2] أي أنه هو الذي تخلّف كما قال ابن عباس.

وقال الإمام القرطبي: «قال قائل منهم...» القائل هو (يهوذا) وهو أكبر ولد يعقوب، قاله ابن عباس[3].

وقال الإمام الألوسي: ولعل الأصح أنه (يهوذا)[4].

والإمام أبو الطيب صديق البخاري اعتبر بأن القول بأن القائل هو (يهوذا) هو الأولى بالصواب[5]، وبهذا القول أخذ صاحب كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف[6].

وكذلك ذهب معظم كتاب القصص القرآني إلى أن القائل هو (يهوذا) يقول الدكتور محمد السيد الوكيل: وبعد حوار ونقاش أخذ عليهم (يهوذا) وهو أعْقل الإخوة وأفضلهم العهد ألا يقتلوا يوسف، واقترح أن يلقوه في الجب[7].

لماذا لم يُعَيَّن القائل من إخوة يوسف؟

لَمْ يذكُر القرآن الكريم هذا القائل، وهو أحد الإخوة، كما لم يذكر اسْمَ أي واحد منهم في القصة، لأن قصص القرآن الكريم للعبرة والعظة، وهي حَاصِلة بدون ذكر

---

(١) يوسف/ ٨٠. (٢) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٥. (٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٣٢.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٤. (٥) فتح البيان/ ٦/ ٢٩٤.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٢٦. (٧) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٣٠٩.



الأسماء والأعلام... وعادة القرآن ألا يذكر إلا الاسم المقصود من القصة دون أسماء الذين شملتهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾(١)(٢) وأيضاً، لم يذكر هذا القائل لأجل أن يكون كل واحد منهم محتملا أن يكون هو قائل هذا القول، كما أنه في صَدَدِ المؤامرة بالْقَتْل أو الطّرح أرضا لم يصرّح باسم المؤامر الأول رئيس الحركة سَتْراً عليه(٣) فالقرآن الكريم لا يريد أن تتّجهَ قلوبنا على باقي الإخوة منهم بِشَرّ، ليظل هذا الواحد منهم يدور عليهم جميعا فيعصمهم جميعا من سوء الظنّ(٤).

هذا، والآية الكريمة تبيّنُ أن هذا القول - «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف - كان صريحا من أخيهم الكبير وَرَضى به الباقون(٥)، والظاهر أنه لم يكن راغباً من أول الأمر في إيذاء أخيه يوسف - عليه السلام - بأي لوْن من ألوان الإيذاء بدليل قوله في موقف آخر وهو في مصر حين أبْقى يوسف - عليه السلام - أخاه بنيامين معه في دين الملك: (قال كبيرهم ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتّم في يوسف(٦) فلم يكن التَّفْريط منه؛ لكن موقف إخوته وتعصبهم للخلاص من يوسف مع عدم استطاعته بمفرده أن يواجه الكل بحقيقة ما في نفْسه، وربُّما خَشِيَ لوْ صارحهم برغْبته لتخلَّصوا منه أيضا؛ لم يجد بُدّاً من أن يصارحهم أوَّلا بقوله: «لا تقتلوا يوسف» ولَمَّا وَجَدَ عدم رضاً لما واجههم به أوَّلاً، كان جاهزاً بالبديل فقال: (وألقوه في غيابة الجب) ويدل لهذا أنه قال لهم: «لا تقتلوا يوسف» ولم يقل: «لا نَقْتُلْ يوسف» فقد أخْرَجَ نفسه من بينهم فيما أرادوا من قتْل أخيهم.

لماذا نهَى عن قتله ولمْ ينْه عن طرْحِهِ أيْضاً؟:

روي أنه قال لهم: لا تقتلوا فإن القتل عظيم، ولَمْ يُصَرِّحْ بِنَهْيِهِمْ عنِ الخصلة

---

(١) غافر/ ٢٨. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٢٩.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجّلة.

(٥) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٠. (٦) يوسف/ ٨٠.



الأخرى «أو اطرحوه أرْضاً» وأحاله إلى أولويّة مَا عَرَضه عليهم[1] - القاؤه في الجب - لأنَّ النَّهْيَ عن أحد المقارنَيْن نهيٌ عن الآخر، فكأنه قال: لا تفعلوا ما بدا لكم بل افعلوا ما أقول لكم، إن كنتم فاعلين، أوْ لأنَّ الطَّرْح كان قَتْلاً أيضاً، لأنه كان يؤدي إلى الموت، فإذا نهى عن القتْل فقد نَهَى عنه[2].

قوله تعالى: «وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ» قرأ نافع في - (غيَا بات) - الموضعين، كأن لتلك الجب غيابات، ففيه إشارة إلى سعتها، أو أراد بالجب الجنْس، أي في بعض غيابات الجب، وقرأ ابن هرمز - غيَّابات - بتشديد الياء التَّحْتِيَّة، وهو صيغة مبالغة، ووزنه على ما نقل صاحب اللوامح يجوز أن يكون فَعَّالات، كحَمَّامَات، ويجوز أن يكون فَيْعَالاَت كَشَيْطَانات في جمع شيطانة، وقرأ الحسن غَيَبَة بفتحات على أنه في الأصل مصدر كالْغَلَبَة، ويحتمل أن يكون جمع غائب كصَانِع وصنعة، وفي حَرْفِ - قراءة - أُبَيّ غَيْبَة بسكون الياء التَّحْتِيَّة على أنه مصدر أريد به الغائب[3].

وقراءَتَيْ الجمع والإفراد، (غيابة) أو(غيابات) محتملتان، فإن البئر غير المطويّ معرَّضٌ للتآكل من سائر جوانبه حيث أنه لا توجد له حماية مبنيَّة، فالماء يأتي من أحد جوانبه فيعمل فيه فَجْوة قليلة، ثم تتّسع بمرور الوقت، ويأتي الماء من الجانب الآخر فَيعمل في الجب فجوة أخرى، وهكذا، فتكثر فيه الفجوات، وكل فجوة تُسَمّى (غَيَابة) فمن قرأ «غيابات» نظر إلى مجموع الفجوات في (الجب) ومن قرأ (غَيَابة) نظر إلى جنس الفجوة، والله أعلم[4].

هل المراد بـ(الجبّ) جبّ معروف أم لا؟:

عُرِّف الجب بـ(أل) فإن أريد بها (أل) الذهنية أي في غيابة جُبّ من الجباب، مثل قولهم: ادخل السوق، وهو في المعنى كالنكرة[5] فمعنى هذا أن إخوة يوسف كانوا قد

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٦. (٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٣.
(٣) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٤.
(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجّلة.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٥.



عهدوا جِبَاباً كائنة على أبعاد متناسبة في طُرُق أسفارهم يتجهون إليها لِسَقْي رَوَاحلهم وشرْبهم، وإن أريد بها (أل) العهدية، فمعنى هذا أن إخوة يوسف يقصدون جُبّاً معيّناً معهوداً لديهم قريب من القوافل المتجهة إلى مصر والمقبلة منها، وارتياد هذا الجب مألوف لدى المسافرين طلبا للماء كلما احتاجوه، قال الشيخ عبدالله العلمي: ويبدو أنهم أرادوا جُبّاً معيّناً معهوداً معروفاً لهم في (دُوثَان)، وإنّمَا عُيِّنَ ذلك الجب للعلة المذكورة «يَلْتَقِطه بعض السيارة[1].

مكان الجب:

اختلف أهل التفسير في مكان الجب، فقال ابن عباس: الجب: بئر بالشام، وقال وهب: إنه بئر بالأردن، وقال قتاة: إنه بئر بيت المقدس، وقال مقاتل: إنه بئر على مسيرة ثلاثة فراسخ من بيت يعقوب، وقال ابن زيد: الجب الذي وُضِعَ فيه يوسف بحذاء طبرية بينها وبينه أميال[2]، وقال الشيخ عبدالله العلمي: إنه جُبّ في (دوثان) وكانوا يردون عليه كثيرا[3]، وقيل غير ذلك والله أعلم.

لماذا جمع بن الـ(غيابة) والـ(جب)؟:

جمع بينهما مبالغة في أن يلقوه في مكان أسفل من الجبّ شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين، فالجب غير ظاهر بالنسبة لسطح الأرض، والغيابة خافية بالنسبة للجُبّ وفي هذا من الاحتياط ما فيه حتى لا يراه أحد.

التحقيق في تفسير الغيابة:

سبق تعريف الغيابة عند أهل التفسير[4] وتفسير «الغَيَابَة» بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله بعيد، والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي: شبه كهف أو طاق في البئر، ودليلنا على ذلك قراءة «غيابات» بالجمْع، لأن الأسفل واحد، وأما الكهوف

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٣٣. (٢) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٦-١٥٧.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٣٣. (٤) عند بيان معنى الكلمة.



والطاقات التي في الجباب فيُمْكِنُ أن تتعدَّد، والمراد «ألقوه في إحدى غيابات الجب»، ويدل على ذلك أيضا قول الشاعر:

فإنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْني غيابتي * * فسِيروا بسيري في العشيرة وَالأهْل

أراد بغَيَابته لَحْدَه، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبْر عند أسفله[1] قال الهرَوي: الغَيَابة في الجبّ: شبه لَجْف[2] أو طاق في البئر فُوَيْقَ الماء، يغيب ما فيه عن العيون. قال الدكتور حسن محمد باجودة: والذي نعتمد أن غَيابة الجب يجب أن يكون من مقوماتها عدم الظهور الكامل لمن يوضع فيها، كالغلام يوسف مثلا، وأن يكون من يوضع فيها بمَأْمَنٍ مَنَ الْغَرَق، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يشرب من الماء حينما يحتاج إليه، وبناء على كل ذلك لا نرى مانعا من قبول تعريف الهروى للغَيابة من أنها شبه لَجْفٍ أو طاق في البئر فُوَيْق الماء يغيب ما فيه عن العيون، وبما أن يوسف - عليه السلام - قد وضع في غيابَته - بعْدَ - دون أن يتعرَّض من هذه الناحية لأي تعَب، فمعنى ذلك أنه يمكن استنتاج أن ذلك الجب كان مَحْدُودَ الغوْر، وفي ضوء هذه المعلومات عن الغَيَابة والجب ووصول يوسف في الغيابة سالما، نستطيع أن نفهم يقيناً أن الأخ القائل «وألقوه في غيابة الجب» يريد في أعماقه «واجعلوه»[3].

قوله تعالى: «يَلْتَقِطْه بَعْضَ السَّيَّارة» «يلتقطه» قريُ بالتحتية «يَلتقطه»، والفوقية (تلْتقطه) - كما سبق -. وجملة «يلْتقطه» جواب الأمر في قوله «وألقوه» والتقدير: إن تُلْقُوه يَلْتَقِطْه، والمقصود من التَّسبُّبِ الذي يفيده جواب الأمر إظهار أن ما أشار به القائل من إلقاء يوسف - عليه السلام - في غيابة جُبّ هو أمثل ممّا أشار به الآخرون من قتله أو ترْكه بفيفاء مهلكة، لأنه يحصل به إبْعَادُ يوسف عن أبيه إبعاداً لا يُرجي بعده تلاقيهما دون إلحاق ضُرِّ الإعدام بيوسف، فإن التقاط السيارة إياه أبْقى له وأدْخل في الغَرض من المقصود لهم، وهو إبعاده، لأنه إذا التقطته السيارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بُعداً على بُعد، . . .

---

(1) مؤتمر تفسير سورة يوسف / 1 / 334. (2) اللّحف بالكسر: أصل الجبل.

(3) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / 145-146.



والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستُعير لأخذ شيء مضاع[1] ومعنى «يلتقطه» أي يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتّلف، فإن الالتقاط أخذ شيء مشرفٍ على الضياع، وفي مجمع البيان: هو أن يجد الشيء ويَأْخذه من غير أن يحتسبه[2]، «بعض السّيّارة»، أي: بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه[3] فالسيّارة هم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الأرض من مكان إلى آخر لأجل التجارة، وتأنيث (السيارة) لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاّحة، والبَحّارَة.

وهذه اللفظة «يلتقطه بعض السيارة» ذات دلالة بعيدة المدى، فهي من ناحية، تدل على أن هناك بالقرب من ذلك الجب، طريقا تسلكها السيارة تباعا وباستمرار، لو فرض أن سيّارة واحدة لم تحْتج الماء، وهذا أمْرٌ نادر الحُدوث، فإن السيارة التي تليها أو الثالثة، يجب أن تحتاج للماء، وبالتالي سوف تلتقط الغلام يوسف، الذي لن يطول مكثه في الجب في أسوأ الأحوال عن الوقْت المحتمل[4].

ومن ناحية ثانية: فإنها تدل على الرحمة التي أودعها الله قلب الأخ الكبير ليوسف - عليه السلام - ثم على باقي الإخوة الذين رضوا باقتراحه.

هذا، وقد كان اختيارهم للجب اختياراً ذكياً: حيث أنه تتوافر فيه الشروط المتمَشّية مع مقصودهم وأهمها:

١ - مواراة أخيهم فيه عن الأنظار، فلا يراه أحد من أهل الناحية لو فرض وأن أحدهم مر قريبا من المكان، وهذه الميزة لا تتوافر إلا في الجبّ، إذ يتعرَّضُ أي مكان آخر لانكشاف أمرهم بما يوجه إليهم الاتهام باختطافه.

٢ - إن الجب مطروق من رجال القوافل، وهي ميزة توفّر عليهم الكثير من المشاق التي تؤدّي إلى افتضاحهم، وخاصة لو طال عليه الأمد في الجب.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٤. (٣) تفسير البغوي/ ٤/ ٢١٨.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٤٧.



٣ - إن الجبّ المطروق يكون عادة خَالياً من الآفات بعكس ما إذا كان مهجوراً، فالقصْد إذاً هو التخلُّص منه حيّاً كما يدلُّ عليه قوله: «يلتقطه بعض السيارة».

٤ - إن جميع الظروف تضْمن عدم انكشاف أمرهم في تخلُّصهم من أخيهم، إذ لا يخلو الأمر من وارد يطلب الماء من البئر، ومن ثَمَّ يتمُّ العثور عليه فتصحبه السيارة إلى وجهتها حيث يبادر رجالها إلى التخلّص منه بِبَيْعه وتقاسم ثمنه، ولا يبعُدُ أنّهم قد وضعوا الجب تحت مراقبتهم حتى عثر عليه رجال إحدى القوافل(١).

قوله تعالى: «إن كنتم فاعلين» هذا الجملة «إن كنتُم فاعلين» شرط حُذف جوابه لدلالة (وألقوه) أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه، وفيه تعريض بزيادة التّرَيُّث فيما أضمروه لعلهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه، ولذلك جاء في شرْطه بحرْف الشرط وهو (إن) إيماء إلى أنه لا يَنْبَغي الجزْم به(٢) لأن (إنْ) للتَّرْدِيد في الفعْل، فأشار إلى أن الفعْل مما يُتَردَّد فيه، وأن الأَوْلَى تركه بقاعدة دَعْ ما يريبك إلا ما لا يريبُك(٣). فالإشارة واضحة فيه أن الأوْلى ألا تفعلوا شيئاً من ذلك، وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدْر، ونظيره قوله تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ»(٤) يُعَيّن أنّ الأوْلى ألا تفعلوا(٥) إذاً فهي روح التشكيك والتّثْبيط، كأنه يشكّكُهُم في أنهم مصرّون على إيقاع الأذى بيوسف، وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتّنْفيذ(٦).

فكأنه يقول لهم: أظن أنكم لا ترضوْن أن تفعلوا بأخيكم هذا، إنه ما زال يحاول تصفية الموضوع، فالذي يريد أن يصفي مسألة عليه ألا يرُدَّ بعُنْف على الطّرَف المُوَاجه، لكن عليه أن يحاول نقله شيئاً فشيئاً بعد درجته التي كان عليها، حتى يَسْتطيع أن يستَلَّ منه ثورة الغضب، لكن لو واجهه بعنف لتعقَّدَت الأمور(٧).

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٥٤. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٦.
(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٣.
(٤) النحل/ ١٢٦. (٥) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٦.
(٦) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٤.
(٧) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

رفع المسهم

ولهذا فإنه لم يبتّ القوْل عليهم، بل إنما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلوبهم وتوجيها لهم إلى رأيه، وحذراً من نِّسْبَهِم له إلى التحكُّم والافْتِيَات(١) لكن كان إلقاؤه في الجب للتخلص منه وإبعاده عن أبيه هو أقل ما يشفي صدورهم من الحسد والحقد والغل على يوسف، فلم يكونوا على استعداد للتراجع عما اعْتَزَمُوا عيه وأرادوا تنفيذه.

وهنا نقطة هامةُ نُحبُّ تأكيدها، وهي أن الأخ القائل «لا تقتلوا يوسف...» يعتبر حجر الزاوية في قصة يوسف، فَبِسَبَبِ اقتراحه الذي ألهمه الله تعالى إياه، سادت القصّة هذه السيرة التي أرادها الله تعالى(٢).

الموافقة الجماعية على الاقتراح الأخير:

لقد استجاب الإخوة للاقتراح الذي عرضه عليهم أخوهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة، خاصة وأن هذا الرأي يحقّق لهم مقصودهم في إبعاد يوسف عن أبيه يعقوبا، فلا يراه بعد ذلك، ولأنه يبعدهم عن ارتكاب جريمة القتل البغيضة، ولذلك لم يخالفه أحد، وانفضّوا من اجتماعهم البغيض عازمين على تنفيذ خطتهم في إبعاد يوسف - عليه السلام -.

قال محمد بن اسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وبالكبير الْفَاني ذي الحقّ والحُرمَة والفَضْل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ليفرّ قُوابيْنَهُ وَبَيْنَ أبيه وحبيبه على كبر سنّه ورقّة عظمه مع مكانه منَ الله فيمن أحبّهُ طفلاً صغيراً، وبَيْن ابنه على ضعف قوّته وصغر سنّه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما، رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل(٣).

مؤامرة إخوة يوسف - عليه السلام - ومؤامرة كفار قريش على قتل محمد ﷺ:

هذه المؤامرة الآثمة لإخوة يوسف في حق أخيهم وأبيهم - عليهما السلام - تذكّرنا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٥٧.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٤٨.

(٣) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٠.



بمؤامرة كفار مكة على قتل الرسول ﷺ - قال الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»(١).

لقد اجتمع رؤساء قريش وقادتهم في دار الندوة، وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقْضى أمرا إلا فيها، يتشاورون ما يصنعون في أمر محمد - ﷺ - حين خافوه، فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كي نستريح منه، فَرُفِض هذا الرأي لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه، وقال آخر: نُوثقه ونحْبِسُه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموْت، فرُفض هذا الرأي كسَابِقهِ لأنهم قالوا: إن الخبر لا يَلْبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدري الناس بمن دخل في دينه حيث يفضّلونه على الآباء وَالأبناء، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه، وربّما جَرَّ هذا من الحَرْب علينا ما نحن في غِنَى عنه، وقال لهم طاغيتهم أبو جهل: بل نقْتُلْه، ولنمْنَع بني أميّة من الأخذ بثأره، نأخذ كل من قبيلة شابا جلْداً يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضرْبة رجل واحد، فيتفرَّق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، بل يرْضوْن بالدِّية، فأقروا هذا الرأي، هذا مكرهم، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة، وكما قال الله تعالى: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»(٢)، فَأعْلَمَ الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بما دبَّرَه الأعداء في سِرِّهم، وأمره باللحاق بدار هجرته، المدينة المنورة، بدار ينشر فيها الإسلام، ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزَّةَ والمنعَة.

يقول الدكتور عبدالعزيز كامل - رحمه الله -:

- ما الفرقُ بيْنَ تآمر قريش على الرسول ﷺ في دار الندوة، وتآمر إخوة يوسف - عليه السلام؟
- ما الفرقُ بيْنَ حِرْمانِ يوسف من أهله وداره، وحرمان المصطفى ﷺ من مكة وهي داره وهي أحب أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إليْه؟

---

(١) الأنفال / ٣٠.   (٢) الأنفال / ٣٠.

● ما الفرق بيْنَ عُصبة تتآمر على يوسف - عليه السلام - وقبائل تتآمَر على محمد ﷺ . . . ؟

ويعد هذا طريق طويل، الجبّ فيه يقابل الغار، المدينة تقابل مصر، تآمر القصر على يوسف، يقابل تآمر المنافقين واليهود على النبي ﷺ، ثم يقول الدكتور عبدالعزيز كامل: أرأيْتَ أن نزول سورة يوسف في أواخر العهد المكّي كان من آيات رحمة الله تعالى للمصطفى والذين معه، وكانت بشريات عهد جديد في وطن جديد ونصر من الله وفتْح قريب[1].

المضمون العام للآية الكريمة:

لما اقترح بعض إخوة يوسف - عليه السلام - لكي يخلو لهم وجه أبيهم وينصلح حالهم كما يزعمون -، قتل أخيهم يوسف أو طرْحه في أرض بعيدة منكورة يهلك فيها غالباً، شاءت إرادة الله تعالى ولطفه بعبده يوسف أن يتقدم أحد الإخوة باقتراح جديد، فنهاهم أولاً عن القتل لأنه جريمة بشعة نكراء (لا تقتلوا يوسف) ودلّهم على طريقة تُحقِّقُ لهم غرضهم، وفي نفس الوقت يُبقي على حياة يوسف الصغير الذي لا ذنب له (وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) فتجده عند أخذ الماء من البئر فتلتقطه وتسترقُّه وتذهب به إلى غير البلاد فيمنعُهُ الرقّ والعبودية من العودة إلى أبيه، (إن كنتم فاعلين) إن كنتم مصمّمين على إبعاد يوسف عن أبيه، وقد أشار الأخ بهذه الجملة الأخيرة إلى نصيحتهم وعدم التعرض ليوسف بشيء، وإن كان لابد منه فافعلوا ما اقترحت عليكم فإنه أهون شرّاً بكثير من القتل أو الطرح، وهو كاف لحصول الغرض الذي تقصدونه، فوافق الجميع ورضوا بهذا الإقتراح.

---

(١) دروس من سورة يوسف / ٣٣.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - قد يجتمع الجماعة الغفيرة ولو أقارب على إلحاق الضرر والكيد لذي قرباهم ولو أخا صغيراً.

٢ - القتل جريمة بشعة نكراء، وهي من أكبر الكبائر، قال الله تعالى: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا»(١). وقال تعالى: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»(٢).

٣ - الله سبحانه وتعالى ينجي من يشاء بما يشاء.

٤ - إن من أراد الله به خيراً لم يكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله تعالى لم يكن لأحد رميه بسوء أو قصده بشرّ.

٥ - على العاقل أن يتقبل النصح وأن يتريّث قبل إصدار الأحكام.

٦ - الإنسان لا يحقّر نفسه في بذل النصح على أي حال كان.

٧ - ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون، وهو أولى من ارتكاب أعظمهما.

٨ - يؤخذ من اقتراح الأخ بعدم قتل يوسف... الخ، العبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض.

٩ - إخوة يوسف ليسوا شراً محضاً بل هم من الصالحين لولا غلبة الحسد والحقد وتهويل الشيطان الذي سيطر على نفوسهم.

---

(١) المائدة/ ٣٢. (٢) النساء/ ٩٣.



«الفصل الرابع»

(من الباب الأول)

تنفيذ المؤامرة

من الآية رقم (١١)

إلى الآية رقم (١٨)



«آيات الفصل الرابع»

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾



رفع
المساهم
غفر الله له ولوالديه

«الآية الحادية عشرة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: لاَ تَأْمَنَّا» اتَّفقَ القراء الثمانية على فتح الميم وإدْغام النُّون الأولى في الثانية، وإشمام الضَّمَّةَ في النون الأولى، وهو إشارة إلى الضَّمَّة من غيْرِ إمْحَاض[1].

ووجه ذلك أن أصله لا تأمنُنَا بنو نيْن على تفعَلُنَا، فأدغمت النون الأولى في الثانية، فبقي تأمَنَّا بنون مدْغمة، ثمَّ أُشمَّت النون الأولى المدغمة الضمة التي كان لها قبل الإدْغام، كما يُشَمُّ الحرْفُ الموقوف عليه الحركة في حال الوقف، نحو قولك: هذا فَرَج بإشمام الجيم الضَّمَّة.

وإنما فعلوا ذلك لحرصهم على إبانة ما للحرف من الحركة، وليس هذا الإشْمَام بصوْتٍ، إنما هو تهيئة العضو لإخراج ذلك الصوْت ليُعْلم أن الذي يُتَهَيَّأُ له مراد، وروي عن نافع أنه ترك الإشمام، والوجه أنه هو الأصل، لأنه إذا أدغم أحد الحرفَيْن في الآخر أُسكن الأوّلُ لا محالة، وليس الإشمام بواجب، إنما هو زيادة في التَّبيِين، فهو دلالة على الحركة[2].

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «لاَ تأمَنَّا» أمن: أصْل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمان في الأصل مصادر[3] ومعنى (لا تأمنَا على يوسف): لِمَ تخافنا عليه.

---

(١) أي من غير إخلاص للضَّمَّة بل إشارة إليها.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧١.

(٣) المفردات (كتاب الألف) / ٢٥.



قوله تعالى: «لَنَاصِحُون» نصح: النّصح تحرّى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، قال: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ»(١) وهو من قولهم: نصحْت له الودّ، أي أخلصته، وناصح العسل خالصه، أو من قولهم: نصحْت الجلْد: خطْته، والناصح: الخيَّاط، والنِّصَاحُ: الخيط، وقوله: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا»(٢).

فَمِنْ أحَدِ هذين: إمّا الإخلاص، وإمّا الإحكام، ويقال: نَصُوحٌ ونَصَاحٌ، نحو ذَهُوب وذَهاب، قال: أحْبَبْتُ حُبّاً خَالَطَتْهُ نَصَاحَةٌ(٣).

رابعاً - الإعراب:

قال تعالى: «قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ»

(قالوا) فِعْل وفاعل، و(يا أبانا) منادى مضاف، و(ما) اسم استفهام مبتدأ، و(لك) خبر (ما) و(لا) نافية، و(تأمَنّا) فعل مضارع وفاعله مستَتِر تقديره (أنت) و(نا) مفعول به، وقد أدْغمت نون (تأمن) بـ(نا)، و(على يوسف) متعلّقان بـ(تأمنا) وجملة (لا تأمنّا) حال، وجملة (مالك لا تأمَنّا) مقول القول، والتقدير، أي شيْء ثبت لك منا، والواو للحال، وإن واسمها، و(له) متعلّقان بـ(ناصحون) واللام المزَحْلَقة، و(ناصحون) خبر (إنا) والجملة حال من (نا) فيكون حالا من حال(٤).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الأعراف/ ٧٩. (٢) التحريم/ ٨.

(٣) المفردات (كتاب النون)/ ٩٩٤.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٥٨.



سادساً - الشرح والبيان:

استعمال الحيلة لتنفيذ المؤامرة:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾

وجه المناسبة: إنّ ما جاء في هذه الآية الكريمة مرتبط بما قبله مُبَيِّن عزم إخوة يوسف على إتمام المكيدة له، فإن أخاهم لما قال لهم: «لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَألقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبّ يَلتَقِطهُ بَعض السيّارَة إنْ كُنتُم فَاعِلين» ولم يبتّ القول لهم، بل عرض عليهم ذلك تأليفا لقلوبهم وتوجيها إلى رأيه وحذراً من سوء ظنهم به؛ ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول: فما فعلوا بعد ذلك؛ هل قبلوا رأيه أم لا؟ فأجيب على سبيل الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما سيجئ إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: «وَأجمَعُوا أن يَجعَلُوهُ في غيَابَةِ الجُبّ» فقيل:

«**قالوا يا أبانا**»[١] بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد ائتمارهم بيوسف، ليرسله معهم[٢] والقائل واحد منهم، ونسب القول إلى الجميع لأن الخطاب كان بموافقة الكل[٣] فالقاعدة أنك حين تسمع جماعة ويقال: قالوا، والمقول يكون واحداً، فاعلم أن الجميع لم يتكلموا بالكلام الواحد، ولكن واحداً تكلم، والباقون وافقوا بالسكوت أو بالإشارة، ومثال ذلك قوله تعالى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ»[٤].

فأجاب الله تعالى موسى - عليه السلام - بقوله العزيز: «قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ»[٥] أي أن الله تعالى قال: قَد أجيبت دعوتكما» لموسى وهارون، أخيه النبي، مع أن القائل هو موسى وحده، وعلى هذا فقوله تعالى: «قالوا يا أبانا» واحد منهم قال، والباقي أمَّنَ ووافق[٦].

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٥. (٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٣.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٤.

(٤) يونس/ ٨٨. (٥) يونس/ ٨٩.

(٦) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



«يَا أَبَانَا» خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النَّسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف - عليه السلام - ليتَسَبَّبُوا بذلك إلى استنزاله - عليه السلام - عن رأيه[1] ويرسل معهم يوسف.

قوله تعالى: «مَالَكَ لا تأمَنَّا عَلَى يُوسُفَ...» (مَالَكَ) الاستفهام بـ(مالك) فيه معنى التعجّب[2]، أي أيُّ شيء لك، (لا تأمنا) لا تجعلنا أمناء على يوسف مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا. فقولهم: (مالك لاَ تأمَنّا على يُوسُف) سؤال فيه عُتْبٌ وفيه استنكارٌ خَفِيٌّ، وفيه استجاشة لِنَفْي مدْلوله من أبيهم والتسليم لهم بعكْسِه وهو تسليمهم يوسف، فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم مقصود بها اسْتِجَاشَتِه لِنَفْي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف، فهي مبادرة منهم خبيثة[3] وهي توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك[4].

وقولهم (لاَ تَأمَنَّا) يدل على أن يعقوب - عليه السلام - كان يخافهم على يوسف، ولو لا ذلك لما قال هذا القول[5]، ودليل أيضا على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبي يعقوب - عليه السلام -[6] فالذي يظهر من هذا الكلام أن يوسف - عليه السلام - طلب مرارا أن يذهب مع إخوته لِلَّعب بحكم رغبته الشبابية فلم يأذن له أبوهم، أو أن الإخوة طلبوا من أبيهم أن يخرج معهم يوسف فلم يقبل[7].

ونستطيع أن نفهم أيضا من قولهم: «مَالَكَ لاَ تَأمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» الذي يعتبر أوَّل كلام مباشر مع يعقوب عن يوسف بعد اتفاقهم على الرأي الثالث (الإلقاء في الجب)، أن هذه هي نظرة يعقوب إليهم بشأن يوسف، وأن هذا الاستفهام التَّعَجُّبِيَّ منهم ليس سوى امتداد طبيعي لموقف يعقوب - عليه السلام - غير المؤتمن دائما للإخوة

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٧. (٢) روح المعاني/ ٦/ ٣٨٥.
(٣) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٤. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٠.
(٥) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٩٨. (٦) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٣٨.
(٧) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٤.



على يوسف، ذلك الموقف الذي كان لا يقع منهم موقع الرضا، مع يقينهم بأن ذلك من حق يعقوب؛ لأنهم خير من يعلم بحقيقة حسدهم وبُغْضهم ليوسف[1] ومن مكرهم أنهم في خطابهم لأبيهم صدَّروا طلبهم بالتعجب أولا من شعور أبيهم نحوهم فيما يختص بيوسف، وَصَرَّحوا بأنهم يعلمون أنه لا يأمنهم عليه، ويشك في نواياهم تُجاهه، وأبدو تعجّب من خلا ذهنه من كلّ شَرّ مبيّت، والذي لا يحمل في قرارة نفسه سوى الخير حيث يُظَنّ فيه الشرّ، ومادام الأمر كذلك فلا داعي إذاً لوضْعهم موضع الاتهام بدون مبرر، بل إنّ هذا الموقف قد يسري من أبيهم إلى أخيهم فَتَخْتَزِنُ نَفْسُه نحوهم انطباعات خاطئة هم بريئون منها، وكأني بيعقوب - عليه السلام - قد فوجئ بهذه الصراحة وبهذه الجرأة غير المتوقعة من الإخوة في إثارة مسألة عدم الائتمان لأول مرّة...

ويلاحظ أن الإخوة لا يقولون (مَالَكَ لَمْ تَأْمَنَّا) كي يقال: إنَّ عدم الائتمان كان خاصّا بالماضي، وإنما يقولون: (مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا) فدلّ هذا على أن عدم الائتمان شامل للماضي والحاضر، وربّما انسحَب على المستقبل أيضاً...

لقد لمس الإخوة ببراعةٍ مسألةَ عدم الائتمان، وأظهروا أن ذلك لا مبرّر له، وقد اتخذوا من كل ذلك توطئة لطلبهم الصريح بأخذ يوسف كيْ يرتعْ ويَلْعَب فإنهم له حافظون[2].

هذا، واتَّفقَ القرَّاء على قراءة (لاَ تَأْمَنَّا) بنون مشدَّدة مدغمة من نون (أمن) ونون (جماعة المتكلمين) وهي مرسومة في المصحف بنون واحدة، واختلفوا في كيفية النطق بهذه النون بيْنَ إدغامٍ محْضٍ، وإدغامٍ بإشمام، وإخفاء بلا إدغام، وهذا الوجه الأخير مرجوح، وأرجح الوجهين الآخرَيْن الإدغام بإشمام، وهما طريقتان للكل وليْسا مذهبَيْن[3].

---

(١) انظر الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٥١-١٥٢.

(٢) يوسف بن يعقوب/ ٥٤-٥٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٧.



قوله تعالى: «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون»: هذه الجملة في موضع الحال مثل «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» والتأكيد فيهما للتحقيق تنزيلا لأبيهم منزلة الشّاكّ في أنهم يحفظونه وينصحونه، كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث إنه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه، وتقديم (له) في «له لناصحون» و(له لحافظون) يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف - عليه السلام - في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الادّعائي؛ جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره، ولا ينصح غيره[1].

وهذا القول «وإنّا له لنَاصحُون» من: نصحْتُ له الود: أخلصته، وناصح العسل: خالصه، ومنه قوله تعالى: «إِذَا نَصَحُوا اللَّه وَرَسُولَهُ[2] و(نَصَحْتُ لَكُم)[3] و(وهم له ناصحون)[4] ونظيره في السنة المباركة قوله - ﷺ: «الدين النصحية»[5] ومن الشعر قول أبي العلاء المعرّى: إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده: بنُصْحٍ فإنا منهم برءاء، فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلوص الفعل والقول من شائبة الفساد، ففرْق في المعنى بيْن نصَحتُه ونصَحْتُ له، لأن معنى (نَصَحْتُه): تَحَرَّيْتُ أنْ أقول له ما فيه صلاحه، ومعنى (نَصَحْتُ له): أخلصت له العمل أو القول، ونَصَحَهُ ضدّ غَشَّه[6].

فمعنى قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون»: أي: أنت تفعل بنا ذلك وتمنع أخانا يوسف من محبتنا، والحال أنّا له ناصحون ومخلصون، نَحوطُه ونَكْلَؤُه، نريد له الخير ونُشْفِق عليه، قائمون بمصلحته، ليس فينا من يخل بذلك، فقلوبنا له صافية لا يخالطها سوء، وكاد المريب أن يقول: خذوني، فذكْرُ النُّصْح هنا وهو الصفاء والإخلاص؛ يَشِي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدَّغل الغريب، لأنهم كانوا غير صادقين في قولهم، والكاذب من عادته أن يؤكدّ كلامه لأنه يتوهَّمُ أن المخاطب يَعْلَمُ بكذبه، فإنَّ الخائن خائف، ولولا شعورهم بارتيابه فيهم لما احتاجوا إلى كل هذا التأكيد[7].

---

(١) المرجع السابق/ ٦/ ١٢/ ٢٢٩. (٢) التوبة/ ٩١.
(٣) الأعراف/ ٧٩. (٤) القصص/ ١٢. (٥) رواه مسلم عن أبي رقية برقم: (٥٥) كما أخرجه غيره.
(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٤٠.
(٧) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٥٨، وروح المعاني/ ٦/ ١٩٣، وفتح البيان/ ٦/ ٢٩٦، وتفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٤، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٤٤، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٣.



المضمون العام للآية الكريمة:

لقد اتفق الإخوة من قبل على المؤامرة، وجاء الآن دور تدبير الحيلة لتنفيذها، فدخلوا على أبيهم يعقوب - عليه السلام - مدخلا عجيباً، ظاهره الودّ والرحمة، وباطنه الخبث والمكر والخديعة، فلما أرادوا البدء بالكلام مع أبيهم في شأن يوسف، صدَّروا كلامهم بالتعجب من شعور أبيهم نحوهم فيما يتعلق بيوسف، وصرَّحُوا له بأنه لا يأتمنهم عليه، وهذا في زعمهم شيء غريب، لأنهم جميعاً إخوة، وهو أب لهم جميعاً بلا استثناء، وإن موقفهم من أخيهم يوسف دائماً، هو الشفقة والرحمة والودّ، وهم ناصحون قائمون على مصلحته والإخلاص له.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - للماكرين والكائدين حيل عجيبة وأساليب غريبة يستعملونها دائماً لتحقيق مكرهم وكيدهم.

٢ - في هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم، عبرة من تواطئ أهل الغرض الواحد على التَّحيُّل لنصْب الأحاييل لتحصيل غرض دنيء.

٣ - على المؤمن ألا يأخذ الناس بظواهر كلامهم وصورهم، وأن يتحرّى بدقَّة تامة الدوافع وراء سلوكهم وأفعالهم.

٤ - صِدْق المؤمن في قوله وفعله يحمله على تصديق من يحلف له ويؤكد كلامه.

٥ - المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، وسيظهر ذلك من خلال الأحداث القادمة في القصة.



«الآية الثانية عشرة»

أولاً - النّصُّ القرآني الكريم:

قال الله تعالى على لسان إخوة يوسف - عليه السلام - ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنون فيهما، وبإسكان العين من (نَرْتَعْ)، قرأهما أبو عمرو وابن عامر. وابن كثير يوافقهما في النون فيهما إلاّ أنه يكسر العيْن من (نَرْتَع) وقنبل يلحق به ياء، والبزّي لا يلحقُها.

والوجه أن (نَرْتَعْ) بسكون العين مضارع رَتَعْنَا، وهو جزم؛ لأنه جواب الأمر وهو (أرسله) وأما (نَرْتَعِ) بكسر العين، فإنه نفْتعل من الرّعي، وهو مضارع ارْتَعَيْنَا، وهو جزم أيضا؛ لأنه جواب الأمر، فلهذا حَذَفَ منْه الياءَ مَنْ حَذَفَ، وكان الأصل نرتعي، والمعنى في نرتَعْ ونرْتَعِ: تَرْتَعْ إبلُنا أو تَرْتَعِ إبلُنا، فحذف المضاف وأسند الفعل إلى المضاف إليه.

والمراد بقوله (نَلْعَبْ) بالنون هو تشاغُلٌ منهم بإجمام النفس من الجدّ بمباح يحصل به تنفيسٌ وقوة على العلم والعبادة، وليس هو كاللعب في قوله «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ»(١).

وقرأ نافع (يَرْتَعِ ويلعب) بالياء فيهما، وكسْرِ العيْن من (يَرْتعِ) وقرأ الكوفيون ويعقوب (يَرْتَعْ ويَلْعَبْ) بالياء فيهما، وإسكان العيْن من (يرتَعْ).

والوجه أن الرَّتع أو الارتعاء في هذه القراءة إنما هما مسندان إلى يوسف،

---

(١) التوبة/ ٦٥.



والمعنى ينال ما يحتاج إليه من رعْي المواشي ويلعب كما يلعب الصبيان، لأن يوسف كان صغيراً، يدل على صغره حينئذ قول أبيه «وَأخَافُ أن يأكُلَهُ الذّئب» وقول إخوته «وإنّا له لحَافِظُون» وروي اسماعيل المكي عن ابن كثير (نرْتَعِ) بالنون وكسر العين، و(يلعب) بالياء[1].

ثالثاً - اللغة:

«نرتع» رَتَعَ: الرَّتْعُ أصله أكل البهائم، يقال: رتع يرْتع رُتُوعاً وَرِتاعاً وَرَتْعاً، قال تعالى: (نرتعْ ونلعبْ) ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير، وعلى طريق التَّشْبيه قال الشاعر: وَإذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ. ويقال: راتع ورتاع في البهائم، وراتعون في الإنسان[2].

وأصل الرَّتعَة: الخِصْب والسعة، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها[3] قال في القاموس: رَتَعَ: أكل وشرب ما شاء في خِصْبٍ وسعَة، أو هو الأكل والشرب رغداً في الرّيف، أو بِشَرَه[4] (ونعلب) من اللعب أي بالاستباق والانْتِضَال ونحوهما.

رابعاً: الإعراب:

قال الله تعالى: «أرسله مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإنّا لَهُ لَحَافِظُون» (أرسله) فعل أمر وفاعل مستتر ومفعوله، و(معنا) ظرف مكان متعلّق بـ(أرسله)، و(نا) مضاف إليه، و(غداً) ظرف زمان متعلق بـ(أرسله) أيضاً، و(يرتعْ) مجزوم لأنه جواب الأمر، و(يلعب) عطف عليه، وجملة (إنا له لحافظون) حالية[5].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(1) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧١-٦٧٣، وانظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها / ٢ / ٥-٧.

(2) المفردات كتاب الراء / ١٧٨. (3) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٥.

(4) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٣٤٣.

(5) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٥٨، وانظر: إعراب القرآن للنحاس / ٢ / ٣١٧، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٣٤-٣٥.



سادساً - التفسير والبيان:

الهدف الظاهر من إرسال يوسف مع إخوته:

قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾

وجه المناسبة:

ولما كان هذا موضع أن يقال: لأي غرض يكون ذلك؟ قالوا في جوابه: «**أرسله مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**»(١).

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الكلام المتقدم يثير ترقّب يعقوب - عليه السلام - لمعرفة ما يريدون منه ليوسف(٢) وفي لفظة «أرسله» دليل على أنه - عليه السلام - كان يمسك يوسف - عليه السلام - ويصحبه معه دائما ولا يتركه لأحد منهم(٣) وهم يشيرون بهذه الجملة من طرف خفيّ إلى أمرين في صالحهم:

(الأول) أنهم عصبة يرعون يوسف وهو غير قادر على حماية أحد.

(الثاني) أنه لا يصلح إلا للعب، أما شئون الأسرة فلا يقدر عليها سواهم، فكيف بعد ذلك يفضله عليهم؟(٤).

إنهم يطلبون من أبيهم إرسال يوسف معهم غدا إلى الصحراء، والغد يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل مطلقا، ونستشعر هنا من توقيت الطلب بالغد أنهم يستعجلون الأمر الذي دبروه، ويخافون إذا تطاول الزمن به أن تنحلّ عزيمتهم، أو يقع الخلاف بينهم فيما أجمعوا عليه...، وفي قولهم «يرتع ويلعب» إغراء لأبيهم بهذا الأمر، ذلك أن أحب شيء إلى الصبيان أن يرتعوا ويلعبوا، وإن يعقوب - عليه السلام - ليسعده أن ابنه يوسف آخذا بأوفر نصيب مما يحبه الصغار،

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٢٨.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٢٨٦.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٥٥.



فقولهم: «يرتع ويلعب» زيادة في التوكيد وتصويرا لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرّة والرياضة مما ينشّط والده لإرساله معهم[١] فهم يضربون على الوتر الحسّاس الذي يحبه أبوهم ليوسف في هذه السن[٢] كي يستجيب لرجائهم، وكأنهم يقولون له: إن إلزامك إياه أن يكون بمكانك موجب لِملاَله القاطع لنشاطه على العبادة واكتساب الكمالات[٣] فإن حبسه عن الرياضة أمر غير طبيعي، وهو أمر يؤثر على صحته، وفي صحبته لنا وخروجه معنا راحة نفسيّة له، ورياضة مفيدة لجسمه تحفظ صحته[٤]...

وإن كان هذا هو الهدف الذي أعلنوه لأبيهم، إلا أنهم بالطبع لا يريدون أخد يوسف معهم إلا لتنفيذ مكيدتهم ومؤامرتهم ضده،... إنهم كانوا يذهبون عادة للرّعي والعمل، ولكنهم أتوا بعلّة في الظاهر من أجل يوسف بقولهم «يرتع ويلعب»، و(يرتع) أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها، وهو حقيقة في أكل البهائم، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير، وذلك أن الناس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسّبق، تَقْوَي شهوة الأكل فيهم، فيأكلون أكلا ذريعاً، فلذلك شبّه أكلهم بأكل الأنعام[٥] واللعب هو شغل بمباح لقصد انشراح النفس، كتعليم السباحة والرمي ونحو ذلك من فنون القتال الحديثة، وهو شغل لا يلهي عن واجب، بخلاف اللهو فإنه شغل يلهي عن الواجب[٦] ولذلك فإن يعقوب - عليه السلام - لم ينكر اللعب لأنهم عَنُوا به ما كان مباحاً[٧] وقد أمر رسول الله - ﷺ - بتعليم الأولاد السباحة والرمي وركوب

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٤.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٣٤٢.

(٣) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٥٠.

(٤) يوسف بن يعقوب / ٥٥.

(٥) انظر: المفردات (كتاب الراء)٨٧.

(٦) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٧) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٤٩.

رفع المسيهما

الخيل، ويدخل مع ذلك ما جدّ من فنون الحرب الحديثة، على أن يكون ذلك بنية الاستعداد للجهاد في سبيل الله تعالى، قال - ﷺ : «من عُلِّم الرّمْي ثم تركه فليس منا» أو «فقد عصى»(١) وقال - ﷺ - : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوّة، ألا إن القوة الرّمْي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(٢) ثلاث مرات، وهذا إعجاز محمدي، فإن القوة الكبرى الضاربة في عالم اليوم تعتمد على الرمي، الصواريخ ونحوها، وقد ثبت في الصحيح أن الأحباش كانوا يلعبون بالحراب والسيوف في مسجد رسول الله - ﷺ - وهو ينظر إليهم، وعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- من ورائه تنظر إليهم.

وأخّروا لفظ اللعب على الرتع، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح بعد تناول لقيْمات يسيرة، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون الإنسان قد تناول طعام الغداء بمدة مناسبة.

وعن عائشة - رضي الله عنها قالت: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه - وأنا جارية - صغيرة - لم أحمل اللحم ولم أبْدُن، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال: «تعال حتى أسابقك» فسابقْتُه فسبقْتُه، فسَكَت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس «تقدموا» فتقدموا، فقال لي: «تعال حتى أسابقك» فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: «هذه بتلك(٣).

قوله: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»: أي من أن يناله مكروه، والجملة في موضع الحال، والعامل فيها فعل الأمر، أو الجواب، ولا يكون ذلك من باب الإعمال، لأن الحال لا تضمر، لأنها لا تكون إلا نكرة أو مؤوَّلة بها، وبأن الإعمال لا بد فيه من الإضمار إذا أعمل الأول(٤) وقد أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة اسميّة، وتحليتها

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر، وهو في مختصر مسلم (١١٠٤) وفي صحيح الجامع (٦٣٩٥)..

(٢) رواه مسلم في صحيحه / ١٣ / ٥٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى / ١٠ / ١٨، والإمام أحمد في المسند / ٦ / ٢٦٤.

(٤) تفسير البحر / ٥ / ٢٨٦.



بإنّ واللام، وإسناد الحفظ إلى كلهم، وتقديم (له) على الخبر احْتيالا في تحقيق مقصدهم(١).

وهذا القول منهم (وإنا له لحافظون) دفع لمعذرة، لعلّ أباهم يعتذر بها من أنه يخاف أن يصيبه شيء في الصحراء، فقالوا قبل أن يعتذر بذلك (وإنا له لحافظون) مما تخاف، كأن يلحقه أذى أو يصيبه شيء...، وَعَدُوا أباهم بذلك بالتأكيد، ثم أصبح كما يقال: حاميها حراميها، وقد صدَقُوا في وعدهم فإنهم وعدوا بحفظه عن غيرهم لا عن أنفسهم(٢).

إن إخوة يوسف - عليه السلام - لَمْ يَفُتْهُم أهم شيء يساور أباهم وهو خوفه منهم على يوسف، فأكدوا له - عليه السلام - أنهم - على عكس ما يظن فيهم، جد حريصين أشد الحرص على المحافظة على أخيهم، وهذا التأكيد من الحيل النَّفْسِيَّة البارعة التي يلجأ إليها من يريد ارتكاب شيء ليحصل على غفلة صاحبه، فيعطيه مزيدا من الأمان والاطمئنان، كمن يريد قتل صاحبه فيستدرجه إلى نزهة خلويّة، وهو يقصد في الواقع مكانا معيَّناً صالحاً لارتكاب الجريمة من نهر أو هوّة أو جُبّ.. الخ(٣)، وهكذا فقد بذل إخوة يوسف كل ما في وسعهم لينالوا بغيتهم في اصطحاب يوسف معهم، فبماذا يجيبهم أبوهم يعقوب - عليه السلام - هذا ما سنراه في الآية التالية بحوله تعالى.

(١) روح المعاني / ٦ / ٣٨٦، والدر المصون / ٦ / ٤٥١.
(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٤٤.
(٣) يوسف بن يعقوب / ٥٥.



مضمون العام للآية الكريمة:

يقول إخوة يوسف لأبيهم، يا أبانا إنا نلتمس منك هذه المرة، أن ترسل يوسف معنا غدا إلى الصحراء، فإن ترسله معنا يرتع، فيأكل من الفواكه والبقول الموجودة في الصحراء ما شاء، ويتدرب على رعي المواشي، ويتَنزَّه وَيَترَيَّض، حتى يصح جسمه وَيَشُبَّ قويا، فإن حَبْسَه عن الرياضة يضعف جسده ويؤثر على نفسه، ولا تخف عليه أن يصيبه شيء يسوؤه وهو معنا، فإنا له لحافظون نحفظه من السباع أو التيه أو غير ذلك.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - استعمال المؤثرات النفسية المؤكدة من الحيل البارعة التي يلجأ إليها أهل الكيْد والمكر السيء حتى يأمن المكيد به فيأخذونه على غرّة وينفذون كيدهم فيه.

٢ - على المرء ألا يغتر بنُصح من يتشكك فيه ويرتاب في أمره، فلربما كان الهدف من النصح الظاهري تخطيط لأمر يضرّه.

٣ - اللعب المباح لا شيء فيه، وقد دعا الإسلام إلى الألعاب الحسنة المفيدة كالمسابقة في الرمي، والسباحة والفروسية، والتدريب على أنواع الأسلحة المختلفة.

٤ - الرياضة البدنية مفيدة لصحة الإنسان وقوته، والمؤمن القوي مادة وروحا وعلماً وعملاً، خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

٥ - لا بد من شغل وقت الصبية والشباب بما يعود عليهم بالنفع عِلْميّاً وصحيّا، من تعلم كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ وما يندرج تحتهما، وكذا سائر العلوم الأخرى، حتى لا يشغلوا وقتهم بما يضرهم دِيناً وَدُنْيا، فإن الشباب والفراغ والجدة، مفسدة للمرء أي مفسدة.

٦ - جواز اللعب المشروع والنظر إليه من الرجال النساء، ولكن في إطار الحشمة والحجاب وعدم الاختلاط.



«الآية الثالثة عشر»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «الذئب» بالهمز: قرأها ابن كثير، ونافع - يل[١] - وأبو عمرو إذا لم يُدْرِج، وعاصم، وابن عامر، وحمزة إذا لم يَقِف.

وقرأها الكسائي، و - ياش[٢] - عن عاصم و - ش[٣] - عن نافع، وأبو عرو في الدَّرْج، وحمزة في الوقف (الذيب) بترك الهمزة.

والوجه في الهمز أنه هو الأصل؛ لأنه من قولهم تذأَّبت الريح إذا جاءت من كل وجه، ويجمع الذئب أذْؤُباً بالهمز وذئاباً، ومنه المثل: استذْأب النَّقد[٤]، أي صار ذئباً، يضرب للذّليل يصير عزيزاً. فهذا كله يدل على أن أصل الذئب الهمز، والوجه في ترك الهمز أن الهمزة خُفِّفَتْ فقلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، وكل همزة سكِّنت وتحرّك ما قبلَها فَتَخْفيفُها أن تُقْلَبَ حَرْفاً من جنس حركة ما قبلها[٥].

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «إِنِّي لَيَحزنَني» حزن: الحُزْن والحَزَن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم، ويضادّه الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خَشَنَتْ

---

(١) يل، رمز لإسماعيل بن جعفر أحد رواة نافع.

(٢) ياش، رمز لأبي بكر بن عياش أحد رواة عاصم.

(٣) ش، رمز لورش أحد رواة نافع.

(٤) يضرب مثلا للذُّلأن إذا علوا الأعزّة، والنَّقد: السَّفُلُ من الناس.

(٥) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٤.



بصدره إذا حَزَنتْه، يقال: حَزَن يحزن وحَزَنتْه وأَحْزنته، قال عزو جل: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثّي وَحُزْنِي إِلَى الله»[1]

«الذئب»: حيوان مفترس معروف.

«غافلون» (غفل» الغفلة سهو يعتري الإنسان من قِلَّة التحفّظ والتَّيَقُّط، يقال: غفل فهو فافل قال تعالى: «لَقَد كنت فِي غَفلَةٍ مِن هَذَا» والمعنى: مشتغلون بالرعي أو غير مهتمين بحفظه.

رابعاً - الإعراب:

قال تعالى: «قَالَ إِنّي لَيَحْزُنَني أن تَذهَبُوا بِه» إن واسمها واللام المزحلقة، وجملة (يحزنني) خبر إن والياء مفعول به، و(أن) وما في حيزها في تأويل مصدر فاعل يحزنني، و(به) جار ومجرور متعلقان بـ(تذهبوا). (وأخاف أن يأكله الذئب) أن وما في حيزها مفعول أخاف، و(الذئب فاعل يأكله. (وأنتم غافلون) (الواو) للحال، و(أنتم) مبتدأ، و(غافلون) خبره و(عنه) متعلقان بـ(غافلون)[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

(١) المفردات كتاب الحاء/ ١١٣/ ١١٤.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٥٨-٤٥٩.



سادساً - التفسير والبيان:

يعقوب - عليه السلام - يعلن حزنه وخوفه لو ذهب أبناؤه بيوسف.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

وجه المناسبة:

لما طلبوا من أبيهم إرسال يوسف معهم فكأنه قيل: فبماذا أجابهم؟ قيل: أجابهم بما زاد صدورهم حقدا وكرها ليوسف فقال:

«قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ...»[١] وإنما ذكر يعقوب - عليه السلام - ذلك ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به، لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه، وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أن حزنه لفراقه ثابت، تنزيلا لهم منزلة من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم[٢] فأكد لهم أن حزنه واقع بمجرد ذهابهم بيوسف[٣] فيشقّ عليه مفارقته مدة ذهابهم به حتى يرجع، وذلك لفرط محبته لما يتوسّم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة، والكمال في الخَلْق والخُلُق[٤] ولا بد أن هذه «ليحزنني» أهاجت أحقادهم وضاعفتها أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما يقولون للنشاط والمسرّة[٥].

قوله تعالى: «وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ...» هذا هو الشيء الثاني الذي اعتذر إليهم أبوهم به، أي: ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب، لأن الأرض كانت مَذْأبة، تكثر فيها الذئاب الضارية.

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١٥، وتفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٣١-٢٣٢.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٤.

(٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٠.

(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٥.



قوله تعالى: «وأنتم عنه غافلون» لاشتغالكم بالرَّتْع واللعب، أو لقلّة اهتمامكم بحفظه، والفرق بين الحزن والخوْف أن الحزن: ألم القلوب بفوت المحبوب، والخوف: انزعاج النفس لنزول المكروه، ولذلك أسند الأول - الحزن - إلى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف، والثاني - الخوف - إلى ما يتوقّع نزوله من أكل الذئب[1] والذئب حيوان من الفصيلة الكلبيَّة، وهو كلب برّيّ وحشيّ من خُلقه الاحتيال والافتراس والنفور[2].

وفي علة تخصيص الذئب بالذكر ثلاثة أقوال: (أحدها) أنه رآى في منامه أن الذئب شد على يوسف، قاله الكلبي، ورواه أبو صالح عن ابن عباس، وهذا القول مردود، لأن رؤيا الأنبياء حق، والذئب لَمْ يتعرض ليوسف - عليه السلام قط. (الثاني) أن أرضهم كانت كثيرة الذئاب، قاله مقاتل، وهذا القول موافق لظاهر النص، (الثالث) أنه قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب، وخوفه إنما كان من قتلهم له، فكنَّى عنهم بالذئب مسايرة لهم، قال ابن عباس فسماهم ذئابا، وهذا القول الأخير محتمل[3]، وفي جوابه - عليه السلام - لهم «وَأخَافُ أن يأكُلَهُ الذّئب...» إتهام غير مباشر لهم، إذ كيف يأكله الذئب وهم عصبة من الرجال وَعَدُوا بالمحافظة عليه، ومن المعروف أن الذئب يخشى من مهاجمة اثنين، فما بالك بعصبة، فيعقوب - عليه السلام - لا يخاف على يوسف في الواقع إلا منهم، وهو جوابٌ كذلك لا يصدر إلا عن أدب النبوة، فإنه لم ينوّه بشكّه فيهم وهو أدري بما يبيّتون، بل إنه يسند قلقة إلى خوفه من أن يأكله الذئب وينزّههم عن تركه عمدا للذئب كي يفترسه، ويحترز عن هذا المفهوم بقوله: «وأنتُم عَنهُ غَافلُون»[4].

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٢٥٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦ / ١٢ / ٢٣٢.

(٣) انظر: تفسير الماوردي/ ٢ / ٢٥٠، وتفسير زاد المسير/ ٤ / ١٨٨.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٥٦.



هذا، ولا بد أنهم التقطوا العذْر الذي كانوا يبحثون عنه من فم أبيهم - عليه السلام - حين قال لهم: «وَأَخَافُ أن يَأْكُلَهُ الذِّئب» فوجدوا في هذا القول عذْراً لهم يرجعون به إليه بعد إتمام مؤامرتهم، أو كأنّ الحقْد الهائج في صدورهم أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب[١]. والمعنى الذي تضمنه جوابه - عليه السلام - «إنّي ليحزنني أن تذهبوا به... الآية» أي كيف بكم إذا تخلصتم من يوسف ثم رجعتم بدونه وقلتم: يَا أبَانَا إنَّ يُوسُفَ قَدْ أكَلَهُ الذِّئب؟ إني أحملكم مسئولية أي مكروه يقع ليوسف، فإذا وقع فهو باتّفاق منكم، وقد مكر بهم - عليه السلام - مكْر النبوة؛ إذ أنَّ الرَّدَّ عليه يستلزم منهم إصدار ميثاق بأنهم لن يغفلوا عنه، ولن يحتجُّوا بافتراس الذئب له، وهذا هو ما يريد أن يستدْرجهم للتصريح به أمامه[٢].

(١) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٥.

(٢) انظر: يوسف بن يعقوب / ٥٦.

رفع المسأهمل

المضمون العام للآية الكريمة:

لما طلب الإخوة من أبيهم يعقوب - عليه السلام - بإلحاح أن يرسل معهم يوسف - عليه السلام - إلى الصحراء للرعي واللّعب معهم اعتذر إليهم بعذرين فقال: إني ليحزنني ذهابكم به حيث يصعب علي فراقه، وأخاف أن يأكله الذئب في وقت وحال تغفلون عنه بسبب السباق واللعب وغير ذلك مما تشتغلون به.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الحزن على مفارقة الأحباب لا يعتبر إثما، ولا يؤاخذ الإنسان عليه لأنه ليس أمراً اختيارياً، وإنما يؤاخذ المرء على ما يفعله من الأمور عند الحزن كالجزع والفزع والنياحة وشق الجيوب والاعتراض على الله تعالى، قال ﷺ عند موت ابنه إبراهيم - عليه السلام - إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

٢ - الاعتماد على الأسباب جائز مع التوكل على الله والخوف من المحذور عند فوت الأسباب لا حرج فيه، وذلك لأن الأسباب وربط المسببات بها من تقدير الله تعالى وقضائه.

٣ - من اعتمد على الأسباب وحدها ونسى الله تعالى مسبب الأسباب، ورأى أن الأسباب هي المؤثرة أو هي الكافية دون الحاجة إلى خَلْق الله تعالى للمُسَبَّب، أو أن الأسباب تجبر الله تعالى على الخلق فقد كفر.

٤ - الحزْن والخوف مما يعْترى الإنسان بسبب ما يتعرض له في الحياة من مواقف صَعْبة، وهما شيء لا إرادي لا يستطيع الإنسان رَدَّه.

٥ - للمرء أن يعتذر عن فعل شيء أو تركه مع بيان سبب اعتِذاره.



«الآية الرابعة عشر»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ» (خسر): الخُسْرُ والخُسْرَانُ: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته[1].

والمراد بالخسران هنا: انتفاء النّفع المرجو من الرجال، اسْتَعَارُوا له انتفاء نفع التّاجر من تجارته، وهو خيبة مذمومة[2].

رابعاً - الإعراب:

«قالوا لئِن أكَلَهُ الذّئبُ وَنَحنُ عُصْبَة إنّا إذاً لخَاسِرُون» اللام موطئة للقسم، و(إن) شرطية، و(أكله الذئب) فعل ومفعول به وفاعل، والواو حاليّة، و(نحن) مبتدأ، و(عصْبة) خبر، والجملة حالية، وإن واسمها، وإذا، حرف جواب وجزاء مُهْمَل، و(خاسرون) خبر إنا، والجملة جواب القسم، وجملة جواب الشرط محذوفة، لأن الجواب يعطي للمتقدم.

البلاغة: في قوله «لخَاسِرُون» مجاز عن الضّعف والعجز، والعلاقة هي السَّبَبِيَّة[3].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب الخاء) / ١٤٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٣٢.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٥٩.



سادساً - التفسير والبيان:

الإخوة يؤكدون على حماية يوسف وحفظه.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝١٤﴾

وجه المناسبة: لما اعتذر أبوهم بالحزن والخوف على يوسف إذا ذهب معهم، فكأنه قيل: إنّ تلقّيهم لمثل هذا لَعَجَب، فماذا قالوا؟ فقيل:

«قالوا لئن أكله الذئب... الآية»[1]

اللام لام التوطئة للقسم، والقسم محذوف، أي: والله لئن أكله الذئب[2] أرادوا تأكيد الجواب باللام، وإنّ، ولام الابتداء، وإذاً الجوابية تحقيقا لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشرط[3] فحلفوا له لئن كان ما خافه من خطفه الذئب أخاهم من بينهم، وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصّب الأمور وتكفي الخطوب، إنهم إذاً لقوم خاسرون، أي: هالكون ضعْفاً وخوْراً وعجْزاً، أو مستحقون أن يهلكوا، لأنهم لا غِنَى فيهم، ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون بأن يُدْعَى عليهم بالخسارة والدّمار وأن يقال: خسّرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون[4].

لماذا أجاب الإخوة أباهم - عليه السلام - عن السبب الثاني في المنع ولم يجيبوه عن السبب الأول؟

إن يعقوب - عليه السلام - اعتذر إليهم بشيين: (أحدهما) أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عليه ساعة (الثاني) خوفه عليه من عَدْوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قَلَّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم[5] ولكنهم

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ١٥.

(٢) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣ / ٣٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦ / ١٢ / ٢٣٢.

(٤) تفسير البحر/ ٥ / ٢٨٧.

(٥) تفسير الكشاف/ ٢ / ٣٠٦.



اقتصروا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب فقط، لأنه السبب القوى في المنع دون الحزن، لقصر مدته على أنهم يأتون به عما قريب[1] أو لأن حزنه في حد ذاته لا بد منه وليس في استطاعتهم منعه[2] أو لأن جواب الأول - «ليحزنني» - لا يكون إلا بما يوغر صدره ويعرف منه أنهم من تقديمه في الحب على غاية من الحسد لا توصف، وأقلّه أن يقولوا: ما وجه الشحّ بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم، وذلك مما يحول بينهم وبين المراد[3] أو لأن العذر من أنه لا يطيق فراقه ويحزن بسبب ذلك كان يغيظهم ويذيقهم الأمرَيْن، فأعاروه آذاناً صُمّاً ولم يعبأوا به[4]

فقد كان هذا بمثابة الطعنة غير المقصودة الموجهة إلى قلوب الإخوة المصَمّمين على الغدْر بيوسف، والذين أغلقوا وبمهارة فائقة كل المنافذ التي يمكن للذئب منها أن يفتك بيوسف، ويطمئنون أباهم - عليه السلام - أنهم لن يغفلوا أبداً عن أخيهم يوسف، ولن يتركوه وحيداً، وإن كل هذه الافتراضات شملها القول الذي جاء على لسانهم: «لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ»[5] قالوا هذا وهم يعلمون أن الأمر كله كذب وتآمر....

قالوه وهم يعلمون أن أباهم نبي ورسول من عند الله تعالى، وأن الله قد يوحى إليه بكذبهم وإجرامهم[6] ولكن الطمس الذي ران على قلوبهم بسبب حسدهم وحقدهم على أخيهم يوسف ومكرهم به وبأبيهم، قد أعماهم وأصمهم عن كل شيء.

وقد كان جواب أبيهم عليهم حكيما، إذ أرجع قلقَه وخوفه على يوسف - عليه السلام - إلى أمر بعيد عنهم، مع علمه - عليه السلام - بما يضمرون لأخيهم

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٨.

(٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٥.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ١٦.

(٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٦.

(٥) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٥٥.

(٦) دروس من سورة يوسف/ ٣٤-٣٥.



من شَرّ، ولو على وجهِ العموم، وهو جواب لا يصدُر إلا عن أدَب النبوة، فإنه لم يُنَوِّه بشكِّه فيهم، بل أسند قلقه إلى خوفه من أن يأكه الذئب، وينزِّهُهُمْ عن تركه عمداً للذئب كَيْ يفْترسه، ويحترزُ عن هذا المفهوم بقوله: «وأنتُم عَنْهُ غَافلُون» أمّا هم فقد أكدوا قولهم لأبيهم بعدم الخوف على يوسف من الذئب أن يأكله، بإصدار حكم أدبي على أنفسهم، ولم يصدروا حكما قَضَائيا إذا وَقع منهم ذلك، مما يدل علي ما يُبيِّتُونه، ولكنهم حكموا على أنفسهم بالحكم الذي يريد أن يحكم عليهم أبوهم به دون شعور منهم، وهو الخسران المبين(١).

فإن قيل: كيف خاف يعقوب - عليه السلام - على يوسف - عليه السلام - أن يأكله الذئب قبل أن يتحقق ما بشّرَه به في الرؤيا؟

ألم يكن يعقوب - عليه السلام - مقتنِعاً بما قال؟ وإذا لمْ يَقتنِعْ، كيف قاله وبَشّرَ بهِ وَهو نبيّ معصوم من الكذب والقوْل بدُون التّثبُّتِ والتّيَقن؟.

قلنا: إن الإيمان والاقْتِناع بالشيء شيء، والاطمئنان به شيء آخر، فالإنسان يؤمِنُ بشيء وَيقْتَنِعُ به ولكن لا يَزالُ قلبهُ بحاجَة إلى الطمأنينة وزوال الأوهَام، فانظر إلى قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(٢).

وانظر إلى سيدنا زكريا - عليه السلام - ناداه ربه بقوله: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا» فلَمْ يطمَئن بل قال: «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» فقال الله تعالى: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» فلم يطمئن وقال: «قَالَ رَبِّ

(١) يوسف بن يعقوب/ ٥٦.
(٢) البقرة/ ٢٦٠.



اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا» فأتت الآية وانْحبس لسانُه عن الكلام كما قال تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»(١) ثم اطْمأنّ بعد ذلك وَجَاءَه الولد كما وعد ربُّه فكذلك كان سيدنا يعقوب - عليه السلام - كان مقتنعا بما بشّر به يوسف - عليه السلام - ولكن يداخل قلبه الأوهام حسب الطبيعة البشرية، ويخاف بِسَببِ تلك الأوهام أن يأكل الذئب يوسف - عليه السلام - فالإنسان مهما بلغ من علو الدرجة لا يخرج عن أن يعتريه ما يعتري الإنسان «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»(٢).

أو نقول في الإجابة: إن بشارة يعقوب ليوسف - عليهما السلام - كان عن اجتهاد وظن ناشيء عن تلك الرؤيا، والظنّ قد يتخلف، لا عن وَحْيٍ فلا يتخلف، فلذلك لم يكن مطمئنّاً(٣). فإن الخوف من شيء ما هو إلا أمر طبيعي يطرأ على الإنسان قَسْراً مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه وعدم حصول ما يخافه، فقد خافت أم موسى على ولدها موسى - عليه السلام - بعد أن ألْقَتْه في اليم حسبما نفهم من قوله تعالى: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»(٤)، كان هذا منها بعد أن طَمْأنَها الله تعالى وقال لها: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»(٥) ثم قال تعالى بعد ذلك: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ»(٦) فترى أن أم موسى بعدما نهاها الله تعالى عن الخوف والحزن وطمأنها بكلامه الكريم، خافت وحزنت، لأن كلا من الخوف والحزن أمر طبيعي من حيث لا يشعر الإنسان، ولا يكون له فيه اختيار(٧).

---

(١) مريم/٧:١١. (٢) يس/٣٨.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/٤٧.

(٤) القصص/١٠. (٥) القصص/٧. (٦) القصص/١٣.

(٧) مؤتمر تفسير سورة يوسف/١/٣٩٩.

يعقوب - عليه السلام - في موقف حرج للغاية:

لقد بذل إخوة يوسف كل ما في وسعهم ليأذن لهم أبوهم يعقوب - عليه السلام - باصْطِحاب يوسف معهم، وكانت صياغة الاستئذان في صورة تضع أباهم بحيث لا يختار إلا ما هو في مصلحة يوسف - عليه السلام - كما يزعمون - فقد كان بين أمرين، إما أن يرفض طلبهم، وفي هذه الحالة يكون الرفض ذريعة لإعلان الحرب على أخيهم يوسف علنا، لما يوحي به الرفض إلى أخيهم من أنهم غير مُؤْتَمنين عليه، وهو موْقف يُشعر بالعداء السّافر بينهم وبينه بلا مبرر، ويكون هذا الرفض - أيضا - بمثابة حرمانهم من أية فرصة لإزالة ما يظنه فيهم، ويكون هو الملام فيما يقع بينهم وبينه، وإما أن يعطيهم الفرصة لإثبات براءتهم من كل ريبة، وفي هذه الحالة يتمكنون من تنفيذ ما اتفقُوا عليه،...

ولم يجد يعقوب - عليه السلام - أمام هذا الموقف المتصاعد من أبنائه إلا أن يوافق على مضض وكره منه، ولعل موافقته هذه لم تكن إلا بمجرد أنه سكت، حيث لم يذكر القرآن الكريم جوابه عليهم بالموافقة، ففهموا من سكوته أنه قد وافق على مرادهم، أو أنه اكتفى بالإشارة بالإذن لهم باصطحاب أخيهم يوسف. فقد يكون في ذلك ما يمنحهم الفرصة لإثبات محبتهم ليوسف، وأنهم لا يرون له إلا الخير كما يدَّعون، وهو يودّ أن يكون ما في نفوسهم خير ما يكنُّه الأخ لأخيه، ورآى - عليه السلام - أن الأولى هو الأخذ بظاهر قولهم، وأما السرائر فمردُّها إلى الله تعالى، فتلك سنة المرسلين الذين يفوِّضون ربهم عزّو جلّ في كل شئونهم،...

لقد أذن لهم - عليه السلام - بصحبة أخيهم يوسف - عليه السلام - وهو لا يدري أنه قد أعطاهم فرصتهم لتنفيذ مؤامرتهم المنكرة وإن كان يشعر في أعماق نفسه بالخوف من شيء يمكن أن يحدث ليوسف على أيدي إخوته، ولعلّه أَحَسّ في أعماقه أن الواقعة توشك أن تقع عندما واجه إجماع بنيه على أمر يسأل الله تعالى السلامة

رفع المسابهم

من عاقبته والنجاة من شرِّه، وهذا هو السبب في تقديمه - عليه السلام - للحُزْن في جوابه «قَالَ إِنّي لَيَحْزُنُني أن تَذْهَبُوا بِهِ» ولم يصرّح لهم بذلك إلا لشعوره بأنه سيفارق ابنه فراقا سيطول ويطول جدّاً[1].

وهكذا تم الإذن لهم باصطحاب يوسف - عليه السلام - معهم ليتحقَّقَ قدَرُ الله الأعلى، وتتم مشيئته سبحانه وتعالى فيما قدّر وقضى على عبده يوسف-عليه السلام من محن وابتلاءات، وما كتب على أبيه يعقوب - عليه السلام - من صبر جميل، طويل... وطويل جدّاً، ومعلوم أن الابتلاءات والمحن والشدائد هي طريق عباد الله الصالحين، وأن الأنبياء والمرسلين هم أشدّ الناس ابتلاء واختباراً كما ثبت في الصحيح «أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الناس على قدر إيمانهم... الحديث»[2] ولقد بلغ الأمر بأنبياء الله تعالى أن قتلوا وهم يدعون أقوامهم إلى عبادة الله تعالى، كما قال عزّو جلّ في شأن بني اسرائيل: «وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ»[3]، والابتلاءات ألوانٌ وأصناف، فمنها ما هو ظاهر السبب واضح الصلة بين المقدمة والنتيجة، ومنها ما هو خَفيٌّ السبب تحرّكه النفوس الشيطانية الأمارة بالسوء وقد حكم الله تعالى بِعَدْلِه وحكمته أن العاقبة للمقتين[4].

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٥٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير عن فاطمة بنت النعمان، وهو في صحيح الجامع برقم: ٩٩٣، وفي الصحيحه: ١٤٥ المحاملي..

(٣) النساء / ١٥٥.

(٤) انظر: دروس من سورة يوسف / ٣٥.

رفع المسهم

المضمون العام للآية الكريمة:

لّما اعتذر لهم أبوهم بأنه يخاف على يوسف أن يأكله الذئب وقت ما يغفلون عنه، أجابوه بقولهم: والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء تُعَصَّب بنا الأمور وتُكْفَى بنا الخطوب، إنا إذا لخاسرون، أي لا يكُون ولا يصح أن نعَدُّ من الأحياء فنحن حينئذ لا خَير فينا ولا نفع منا، ولا ينبغي أن يُعْتَدَّ بنا ويركن إلينا.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إجابة الإخوة على أبيهم تبين مدى إصرارهم على أخذ يوسف من أبيه لإتمام جريمتهم البشعة، فقد أغلقوا كل النوافذ التي يخشى منها أبوهم على يوسف.

٢ - القوة وحدها لا تحمي، ولكن لا بد معها من الحب والعطف والشفقة.

٣ - الكائد المريب يستعمل كل أسلحته وبمهارة لينال مبْتغاه.

٤ - إن الفاضل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء، كما جرى على يعقوب - عليه السلام - من أولاده.

٥ - جعل الله من كيدهم ومكرهم بيوسف سببا إلهيّاً ليرفعه عليهم جيمعاً ويتمَّ عليه نعمته.

٦ - لو يعلم إخوة يوسف أن تدبيرهم ومكرهم بيوسف سيؤدي إلى ما سيؤدي إليه بعد ذلك من رفعة مكانة وعظم شأن لما دبروا ولما مكروا.



«الآية الخامسة عشر»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثانياً - القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وأجمعوا» الجمع ضدّ التفرّق، وهو ضمّ شيء إلى شيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع، قال الله تعالى: «وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ»(١)(٢) ويقال: أجمعوا الأمر وأجمعوا عليه، أي: عزموا عليه عزماً مصمّماً(٣) والإجماع: الإحكام والعزيمة على الشيء(٤) والإجماع على أمر: الاتفاق عليه، يقال: أجمع القوم على كذا: اتفقوا عليه(٥). قوله تعالى: «لَتُنَبِّئَنَّهُم» النّبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل (نبأ) حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه (نبأ) أن يتعَرَّى عن الكذب، كالتّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي - ﷺ -(٦).

قوله تعالى: «لا يَشْعُرُون» المشاعر: الحواس، ومعنى «وهم لا يشعرون» أي: بك حال الإنباء أنك يوسف لعلوّ شأنك وبعده عن أوهامهم(٧).

---

(١) القيامة / ٩. (٢) المفردات (كتاب الجيم) / ٩٦.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٦٠.

(٤) اللسان / ٨ / ٥٧.

(٥) المعجم الوسيط / ١ / ١٣٥.

(٦) المفردات (كتاب النون) / ٤٨١.

(٧) انظر: تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٥٨-٢٥٩.



رابعاً - الإعراب:

قوله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ» الفاء عاطفة، والجملة معطوفة على محذوف يفهم من سياق القصة تقديره، فَأَرْسَلَهُ معهم، و(لمّا)، حينيَّة، أو رَابطة، و(ذهبوا)، فعل وفاعل، و(به)، جار ومجرور متعلقان بذهبوا، و(أجمعوا)، عطف على ذهبوا، أو الواو للحال، والجملة حالية بتقدير: قَدْ، وإن وما في حيّزها مفعول أجمعوا، أو منصوب بنزع الخافض، و(في غيابة الجبّ)، متعلقان بـ(يجعلوه)، وجواب لمّا محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوه من الأذى.

قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» اختلف في هذه الواو، فقيل: عاطفة، وأن الإيحاء إلى يوسف كان في الجب وله سبع عشرة سنة أو دونها تطمينا لقلبه ولم يكن إيحاء نبوَّة، وقيل: زائدة وأنها جواب لو، أي جملة أوحينا، وهو قول جيد لو ساعدت اللغة على زيادة الواو، و(إليه)، متعلقان بأوحينا، واللام موطئة للقسم، و(تنبّئنّهم)، فعل مضارع مبني على الفتح، و(الهاء) مفعول به، و(بأمرهم)، متعلقان بـ(تنبئهم)، و(هذا)، صفة لأمرهم، والواو للحال، و(هم) مبتدأ، وجملة (لا يشعرون) خبر، والجملة حالية[1].

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٦١.

رفع المسيا هما

خامساً - الموقف من المتعارضات:

ما المراد بالوحي في قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» هل هو وحي نبوة، أو وحيُ بشارة وإلهام؟

الوحي بمعنى كلام الله تعالى إلى عباده قسمان:

(الأول) وحْيُ النبوة والرسالة، مثل قوله تعالى: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ»[١].

(والثاني) وحْيُ البشارة - عن طريق الإلهام - كما في قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»[٢]

وقد اختلف العلماء في المراد بالوحْي هنا،

قال الإمام الماوردي: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» فيه وجهان:

(أحدهما) يعني وألهمناه، كما قال تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أن أرضعيه» (الثاني) أن الله تعالى أوحي إليه وهو في الجبّ، قاله مجاهد وقتادة[٣] وكذلك قال الإمام ابن الجوزي: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» فيه قولان: أحدهما أنه إلهام، قاله صالح عن ابن عباس - الثاني، أنه وحي حقيقي.

فأمّا الذين ذهبُوا إلى القول بأنّ المراد بالوحي هنا، هو وَحْيُ النّبوّة، وهم أكثر المفسرين، فقد أخذُوا بظاهر الآية وقالوا: إن يوسف - عليه السلام - أوحِيَ إليه وهُو صغير كما أوحي إلى يحى وعيسى عليهما السلام - قال الإمام الفخر الرازي: والأوّل - أن المراد منه الوحي والرسالة - أولى، لأن الظاهر من الوَحْي ذلك[٤].

وقال الإمام القرطبي: والأول: وَحْي النّبوّة - أظهر، والله أعلم[٥].

---

(١) النجم/٣-٤. (٢) القصص/٧/. (٣) تفسير الماوردي/٢/٢٥٠.
(٤) تفسير الفخر الرازي/٩/١٨/١٠١. (٥) تفسير القرطبي/٩/١٤٢.



وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: وهو - وحي النبوة - ظاهر (أوْحَيْنا)(١).

والإمام البيضاوي اقتصر عليه، وقال أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى - عليهما السلام -(٢).

والإمام أبو السعود أخذ بذلك - ايضا - في صغر يوسف - عليه السلام - أو بعد بلوغه كما قال الحسن، من أن سنه إذا ذاك سبعة عشر عاما(٣) قال العلماء: وهو بعيد جداً، لأن من بلغ مبلغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب، ولا يتفق مع قول الوارد: (هذَا غُلام) والإمام الشوكاني يؤيد هذا الاتجاه ويقول: وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً أو يعطيه النبوّة حينئذ(٤). وكذا قال غيرهم.

وأما الذين قالوا بأن المراد بالوحي هنا هو وحي البشارة عن طريق الإلهام، - وهم أقل من الفريق الأول - فقد أوَّلوا الآيات التي تدل على خلاف قولهم وقالوا إنّه لا يوجد نصٌّ قطعيّ الدّلالة على نبوة يوسف وعيسى ويحيى - عليهم السلام - قبْلَ الأربعين، وليس هناك إجماع على ذلك، ثم استدلوا على وجهتهم بالدليل العقلي فقالوا: إن النبوة قيادة الناس في الدين والدنيا، فكيف يقود الناس طفل أو صبيّ، أو من لم يبْلغ مبلغ الرجال وتسلم إليه القيادة،...

والإمام الألوسي، قدّم القول بأنه وحي إلهام على ما عداه وقال: «وَأوحَيْنَا إليه» الضمير ليوسف، أي أعلمناه ذلك تبشيراً له بمايؤول إليه أمرُه وإزالَةً لوحشته وتسْليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام، ثم قال، وقيل: بالإلقاء في مبشرات المنام، ثم ذكر قول الضحاك وقتادة بإرسال جبريل - عليه السلام - إليه - وإرسال جبريل لا يدل على تنبُّؤ يوسف، لأن جبريل جاء يؤنسه ويطمئنه(٥).

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٢٨٨. (٢) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٧٨.

(٣) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٥٨. (٤) تفسير فتح القدير / ٣ / ١٢.

(٥) روح المعاني / ٦ / ٣٨٩.



والإمام القاسمي يرى أنه وحْي بشارة ويقول: ﴿وَأَوحَينَا إليهِ﴾ أي أعلمناه بإلقاءٍ في رُوعه أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له[1].

والشيخ سيد قطب، يرى أنه وَحْي إلهام ويقول: والله سبحانه وتعالى يلقى في رُوع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش ويذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو[2].

والدكتور وهبه الزحيلي يقول: أوحي الله إلى يوسف وحْي إلهام على الأظهر[3].

والأستاذ عبدالكريم الخطيب يؤيد القول أنه وحي إلهام ويقول: وأوحي الله سبحانه وتعالى إليه، أي ألهمه وأوقع في نفسه شعوراً قوياً بأنه سيلتقي بإخْوته يوما... الخ[4].

والشيخ محمد متولي الشعراوي مع هذا الاتجاه ويقول قوله «وأوحينا إليه» ألْهِمَ يوسف - عليه السلام - لم يكن قد نُبّئَ بعد[5] وقال الشيخ عبدالله العلمي: وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام[6].

والشيخ محمد طه الباليساني، قد أشبع هذه المسألة - المراد بالوحي هنا - عَرْضاً وَبَحْثاً ثم قال: والحق أن القول بأن الوحي هنا بمعنى الإلهام أوْ وَحْي البشارة لا النّبوة هو الجدير بالقبول، ثم أيَّدَ قوله هذا مستدلاً بأن يوسف - عليه السلام - بعدما أُخْرِجَ من الجُبّ ودخل بيت العزيز في مصر يقول الله تعالى في حقّه: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»[7] فتفيد هذه الآية الكريمة أنه في الجب لم يبلغ الأشدّ، ومن لم يبلغ الأشدّ والكمال لا يصير نبيّا باتفاق، فلم يكن يوسف - عليه السلام - في الجب نبيا يوحى إليه وحْي نبوّة، بل بعدما دخل بيت العزيز وبلغ الأشدّ لم يَصِرْ نبيّا، لأن إيتاء الحكم

---

(١) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥١. (٢) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٥.

(٣) التفسير المنير/ ١٢/ ٢٢٢.

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤١٦.

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٨٦.

(٧) يوسف/ ٢٢.



والعلم ليس عبارة عن النبوة، بدليل أن الله تعالى قال في حق موسى - عليه السلام - حينما كان في مصر وفي بيت فرعون «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»(١) مع الإجماع أن موسى - عليه السلام - لم يصر نبيًا إلا بعد الهجرة بمفرده من مصر والبقاء مدّة طويلة في (مَدْين) قرابة عشر حجج - عشر سنين - وفي طريق رجوعه إلى مصر مع أهله أوحي الله إليه(٢).

هذا، والذي يرتاح إليه القلب من القولين السابقين، هو القول بأن المراد من الوحي في قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِليه لَتُنَبِّئَنَّهُم... الآية» هو وحي الإلهام أو البشارة إن كان عن طريق الملك لأنه الذي يتفق مع ما سيأتي من الآيات البينات، والتي سَنَعْلَمُ من ثنايا أنوارها أنه عليه السلام لم ينبأ إلاّ وهو في السجن، والله أعلى وأعلم.

---

(١) القصص / ١٤.

(٢) أنظر: القول المنصف تفسير سورة يوسف / ٥١-٥٦.

رفع المسا همل

سادساً - الشرح والبيان:

« من قلب الأب إلى قلب الجب »

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وجه المناسبة:

لم يزل إخوة يوسف - عليه السلام - يراجعون أباهم، ويبذلون غاية جهدهم لاستنزاله على إرادتهم لتنفيذ مؤامرتهم.

فكأنه قيل: إن هذا لكيد عظيم وخطْب جسيم، فما فعل أبوهم؟ فقيل: أجابهم إلى سؤالهم فأرسله معهم(١).

قال الله تعالى: « فلما ذهبوا به » ففي الكلام متروك حُذِف ذكره اكتفاء بما ظهر عمّا تُرِك، وهو، فأرْسَلَهُ معهم فلما ذهبوا به(٢) وهذا القول تفريع حكاية الذهاب به والعزم عَلَى إلقائه في الجب، على حكاية المحاورة بين يعقوب - عليه السلام - وبنيه في محاولة الخروج بيوسف يُؤذِن بِجُمَلٍ مَحْذُوفة فيها، ذُكِرَ أنهم ألحُّوا على يعقوب حتى أقنعوه فأذن ليوسف بالخروج معهم، وهو إيجاز(٣).

وجواب (لَمَّا) في قوله: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِه» محذوف، وتقديره، فجعلوه فيها - في الجب - وَحَذْف الجواب في القرآن الكريم كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه، وههنا كذلك، فقد دَلَّ عليه قوله (أن يَجعَلُوهُ في غيَابةِ الجُبّ)(٤) وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن، فهو تَقْليل في اللّفظ لظهور المعنى.

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ١٦.

(٢) تفسير الطبري/ ٧ / ١٢ / ١٦٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦ / ١٢ / ٢٣٣.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩ / ١٨ / ١٠١.



ومنه قوله تعالى: «وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ»(١).

وقوله تعالى: «أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا»(٢).

وقوله تعالى: «قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم»(٣).

ولم يذكر القرآن الكريم الجواب استعظاما له، بل استبشاعا له، فهو أمر يثقل قوله وسماعه، بل وتصوره من أبناء نبيّ وإخوة نبي، يمارسون ظلما لا مبرّر له إلا الحسد وفساد النفوس(٤)، فكأنه قال: فلما ذهبوا به فعلوا به ما فعلوا أي: ممّا لا تحيط به العبارة، ولا تكفي فيه الإشارة، فعلوا به ما فعلوا مما لو لُفِظَ به لثقل على السّامعين واضطربت له قلوبهم، فعلوا ما فعلوا، مما لا يليق ذكره بنَسَب هؤلاء المحترمين آباء الأسباط، فعلوا ما فعلوا ممّا يُذْرِف العيون ويُدْمي القلوب، ويسيء نبأه السامع والقارئ، ولذلك حسن منا ألا نصرح له به، بل وَكَلْنَاه لفهمه، وذوقه الخ(٥).

قوله تعالى: «وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ» فعل (أجمع) يتعدى إلى المفعول بنفسه، ومعناه: صَمَّمَ على الفعْل، فقوله (أن يجعلوه) هو مفعول (وَأَجْمَعُو)، لأنَّ أصل معْنى الإجماع: العزم المصمّم(٦) فمعنى (وأجمعوا) عزموا واتفقوا رأيهم عليه، ومنه قول النبي ﷺ - في المسافر: «مَا لَم يجمَع مكثا»(٧).

والمعنى: أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه - عليه السلام - في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه، فيما يظهرون له إكراما له وبَسْطاً وشرْحا لصدره وإدخالا للسرور عليه(٨) والراجح أنهم ذهبوا به في الصباح الباكر لأنهم مقدمون على رحلة ينبغي أن يَسْتعدّوا لها.

---

(١) النور/ ١٠. (٢) فاطر/ ٨. (٣) يس/ ١٩.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ٤٣.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٣٧٥.

(٦) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٣٣.

(٧) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٦٠.

(٨) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧١.



التَنَزّل في أمر الشَرّ من صفات المؤمنين:

إن إخوة يوسف - عليه السلام - قد طالبوا أولا بقَتْل أخيهم يوسف أو طرْحه في أرض بعيدة منكورة يغلُب فيها هلاكه، ثم تنازلوا عن هذين الأمرين إلى أمر ثالث وهو الإلقاء في الجب، ثم تنازلوا عن هذا الأمر الثالث وهو الإلقاء في الجب إلى الجَعْل في الجُبّ، وهو تعديل من العُنْف والقسْوَة إلى شيء من الرحمة، وفيه سلامة أخيهم يوسف، تاركين أمره بعد ذلك لمن يأتي إلى الجب من السيارة ويلتقطه، فالمفهوم من قوله تعالى: «أن يجعلوه في غيابة الجب، أن الإخوة قد بَرَدَ غضبهم شيئا ما على أخيهم يوسف، فبدّلوا الإلقاء المأمور به في قوله (وألقوهُ في غيابة الجب) بالجْعْلِ، لأن الجعل ينبئ عن وضع شيء في شيء بلطف، بخلاف الإلقاء، فإنه عبارة عن رَمْي شيء في شيء بشدّة، قال الله تعالى: «وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ»(١) ولعل ذلك أيضا كان نصيحة القائل: «لا تَقْتُلوا يوسف... الخ» فإنه كان يريد الرأفة بيوسف والدفاع عنه قدر الإمكان، وعلى طريقة التّدرُّج ليكون قوله أقرب إلى القبول، أو لأنَّ أصحاب القرابة والرحم مهما اشتدّ غضبهم على قريبهم فإن الرّحم تدعوهم إلى الرأفة واللّين، وفي المَثل (قريبك وإن أكل لحمك فإنه لا يكسر عظمك، وهذا في الغالب، ولكن قد يحدث أن يشتد الحسد والحقد والغضب حتى يكون القتل من الأخ لأخيه كما قتل قابيل أخاه هابيل(٢).

التحقيق فيما جاء في بعض التفاسير مما روي في قصة ذهاب الإخوة بيوسف إلى الجب:

ورد في بعض كتب التفسير روايات عن السدي ووهب وغيرهما أن إخوته لما أخذوه إلى الصحراء أخذوا يشتمونه ويضربونه ويسخرون منه إلى أن ألقوه في الجب(٣)

---

(١) الملك/ ٦-٧.

(٢) جاء ذكر حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل في سورة المائدة/ ٢٧-٣١.

(٣) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٦٠، وتفسير البغوي/ ٤/ ٢٢١، وتفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٠١، وغيرهم.



وهذا الذي ذكروهُ لا يليق برعاع الناس، فضلا عن أبناء الأنبياء وأهل الشرف وأصحاب البيوتات الطيبة العريقة، ولكن الإسرائليات شوّهتْ علينا كثيراً من الحقائق، وَيَرْوِيها بَعضُ العَلَمَاء لحسن الظن وصفاء النيّة في كتبهم(١).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: وقد نقلوا عن السدِّي أن إخوة يوسف طغوا في القَسْوَة عليه والتّنكيل به، فقالوا وفعلوا ما لا يصدُر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الإسرائيليات المنَفّرَة من الإسلام والمسلمين(٢).

ويقول الإمام الألوسي عن هذه الروايات بعد عرضها: وقد تضمّنت - الروايات - ما يَلين له الصّخر، لكن ليس فيها ماله سَند يُعَوّل عليه، والله أعلم(٣).

إن إخوة يوسف لم يكن يهمّهم، إلا تنفيذ المؤامرة في خفاء دون أن يلحظهم أحد، ولو أنهم آذوه - كما تقول الروايات - لكان من الممكن أن يسمع صراخه أحد من المارة، أو يستغيث هو بأحد ممن يصادفهم في طريقهم، فكان الأولى بهم ألا يفعلوا شيئا يمكن أن يفضح أمرهم أو يكشف سِتْرَهم.

ويمكن تصوير حادث جعل يوسف في الجبّ تقريبا كما يلي:

بعد خروجهم به من عند أبيهم يعقوب - عليه السلام - ساروا معه في صورة عادية، وكأنه لا شيء قد دُبِّرَ له من قِبَلِهم، فلما بلغوا البئر المعهود لديهم لجأوا إلى استعمال الحيلة، فأظهروا الحاجة الملحّة للماء وطلبوا من يوسف - عليه السلام - أن ينزل إلى البئر من أجل ذلك، فيوسف هو أصغرهم والأخفّ وزنا وأيسر عليهم أن يدلوه إلى البئر ليرى ما فيه، وزيادة في الاهتمام به وأنهم لا ينوون به شرّاً سألوه أن يخلع قميصه حتى لا يبتلّ بالماء، وبالطبع ما كان أمام يوسف الصغير الطاهر القلب الوديع إلا أنْ يلَبِّي على الفور، فلما أدلوه إلى البئر ووقف على مكان في أسفل

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٥٠.

(٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٢٦.

(٣) روح المعاني/ ٦/ ١٩٨.



جانب منه، واطمأنوا لوصوله إلى غَيابته، سرعان ما طَوَوُا الحبْل وسحبوه إلى أعلى وتركوه في غيابة الجبّ.

وغيابة الجب ما غاب من أسفله من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه، وقد تتجمع بقيّة من الماء في الجَوْرَةِ المتوسطة في قَعْره، فَصُورَة الجب: قاع غير مُسْتَو، فيه أجزاء مرتفعة قليلاً، غائبة عن النظر، يمكن أن يجلس عليها يوسف، وأمامه بقيه من ماء، قد تقصدها قافلة مارَّة، ويستطيع هو أن يرتوي منها إلى حين(١).

ماذنب يوسف - عليه السلام -؟

ما ذنب يوسف لكيْ يناله هذا الأذى من أقْرَب الناس إليه؛ إخوته، والمفروض فيهم الحماية والحب، وهو الصغير، وألا يجعلوه طرفا في خصومة لا يَدَله فيها، ثم يحدِّدون موقفهم منه ومن الوالد، ويصدرون الحكم غيابياً ويحتالون على تنفيذه ثم ينفذونه بأسلوب ماكر، فلا هُمْ قتلوا يوسف، ولا هم تركوه قادراً على حماية نفسه، أو قادراً حتى على الحركة من المكان الذي ألقوه فيه(٢).

(١) انظر: يوسف ابن يعقوب/ ٥٨، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٧٤-١٧٥.

(٢) دروس من سورة يوسف/ ٣١.

رفع المستهم

المحنة الأولى ليوسف - عليه السلام

ها هو يوسف – عليه السلام – منذ البداية يواجه صَدْمَةً تُدَكْدِكُ الجِبَال ، إذ يُفَاجَأُ بأعزّ الناس لديه بعد والديه ، إخوته ، وهم بهذه الكثرة وفي ريعان الشباب وقوَّتهم ، يستأذنون أباهم ليسمح لهم باصطحابه معهم ليشاركهم في نزهتهم وَيَعِدُونه بالمحافظة عليه ، وإذ بهم يخلفون وعْدَهم ويُصْبِحُونَ وَلاَ هَمَّ لهم سوى التخلّص منه ، وها هم يطرحونه في الجبّ لا يدري ما هو مصيره !

وأخرى لا تقل عنها هَوْلاً وَعُنْفاً وقَسْوَة ، يشعر بها الإبن الحبيب ولا يشعر بها إخوته ، ألا وهي تذكره لحال والديه ، وهو شعور لا يدريه إلا من امتلأت نفسه الكبيرة حُبّاً وحنانا لهما وبِراً بوالديه ، وخاصة والده – عليه السلام – فإن عذاب هذه الذكرى على يوسف أشدّ عليه من المحنة التي هو فيها(١) تلك هي محنة يوسف – عليه السلام – الأولى ، والله يمتحن عباده المخلصين بأنواع البلاء والمحن ، ويفتنهم بألوان الآلام ليكونوا أقدر احتمالا على ما يلقى عليهم من مهمّات الأمور وعظيماتها ، ولم تكن محنة أنكى في الداء وأبلغ في الألم وأبعث على الجزع من هذه المحنة التي ابْتُلِيَ بها يوسف ، وربما كانت أخفَّ وقْعاً وأهْوَن شأناً لو أنها وقعت على رجل خَبَرَ أساليب الحياة وعرف أسرارها ، إذاً لَعَرف كيف يحتال لنفسه ، أو يتدبّرُ في أمره ، ولكن يوسف – عليه السلام – لا يزال غلاما صغيراً لم يدخل معترك الحياة بعد ، وربما كانت هذه المحنة أخفّ احتمالاً لو أن يوسف – عليه السلام – كان قد اقترف خطيئة ، إذاً لَكان خليقا بهذه المحنة ، جديرا بهذا العذاب ، ولكنه – عليه السلام – كان مبرءاً من العيْب ، بعيدا عن التهمة ، قصِياً عن مواطن الرِّيَبْ ، وهو بعيد في زكاء الطفولة وغرارة الفتوة ، وأمرُه في رقَّة الحاشية وخفْض الجناح كان معروفاً مألوفاً ، ولو أنّ رَمْيَةَ يوسف كانت من غير

(١) يوسف بن يعقوب / ٦٠-٦١.

إخوته، ومحنته جاءتْ من غيْر قرابته لاحتملها قلبه، واتَّسعت لها جوانب صدره، ولم يتشَعَّب فيها همّه وَأسَفُه، ولكنه سهم إخوته ورمْيَةُ بني أبيه!

إنّ البلاءَ يُطاقُ غيْر مُضَاعف * * فإذا تضاعف صار غير مطاق(١)

نورُ الوَحْي في غَيابة الجبّ:

قال الله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»

لما انطلق الإخوة بيوسف – عليه السلام – وعزموا عزما جازما أن يجعلوه في الجبّ فعلوا ذلك من غير مانع، ولكن لَمّا كان هذا الجواب في غاية الوضوح لدلالة الحال عليه تُرِك، لأنهم إذا أجمعوا عليه عُلِمَ أنهم لا مانع لهم منه؛ ثم عُطِفَ على هذا الجواب المحذوف لكوْنه في قوة الملْفُوظ قوله: «وَأَوْحَيْنا» أي بما لنا من العظمة (إليه) أي إلى يوسف – عليه السلام –(٢) وهو الأصح، وقيل يعقوب، وهو بعيد، هذا وقد سبق التعرض لأقوال العلماء في المراد بالوحي في قوله «وأوحينا إليه» وتَصْويبِ أنَّ المراد به وَحْي الإلهام، أو وحْي البشارة إن كان عن طريق المَلَك، وأن وحي النبوة لن يأتيه إلا وهو في السجن، كما سيأتي – إن شاء الله –.

إن يوسف – عليه السلام – لما جعله إخوته في الجُبِّ كانت عناية الله تعالى معه، فحفظه الله من الشرِّ الذي دفعوه إليه، ثم صحبته عناية الله وحَفَّتْ به ألْطَافُه، وأوحي الله سبحانه وتعالى إليه، أي: ألهمه وأوقع في نفسه شعوراً قويّاً، بأنه سيلتقي بإخوته يوما في المستقبل، وأنه سَيُخْبِرهم بهذا الذي كان منهم له دون أن يعرفوه، وهذا ما تحقَّقَ حين ملك يوسف خزائن الأرض، وجاء إخوته يمتارون من خيرات مصر... فيقول لهم حينئذ دون أن يعرفوه: «هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»(٣)(٤).

---

(١) قصص القرآن (محمد جاد المولى) / ٧٧-٧٨.

(٢) نظم الدرر/ ٤ / ١٦. (٣) يوسف/ ٨٩.

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤١٦-٤١٧.



وقوله: «وهم لا يشعرون» إما متعلق بـ(أوحينا) أي: أوحينا إليك ذلك وهم لا يشعرون بهذا الوحي إيناساً له وإزالة للوحشة، كما روي عن مجاهد وقتادة وابن عباس في رواية، أو حال من الهاء في (لتنبئنّهم) أي: لتحدّثنّهم بذلك وهم لا يشعرون أنك يوسف لعلوّ شأنك[١] كما روي عن ابن جريح وابن عباس - على ما نقله الرماني، وهو الظاهر، والضمير في (أوحينا إليه) ليوسف، أي: أعلمناه عند ذلك تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، والموحي إليه ما تَضمّنه قوله (لتنبئنهم بأمرهم هذا) وهو بشارة له بالخلاص أيضا، أي لتخلّصَنَّ مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتخبرَنّ إخوتك بما فعلوا بك، ويدل على أن الضمير عائد على يوسف قوله لهم أخيراً «قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»[٢].

وقوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُون» أي: غير عالمين أنك يوسف وقت التّنْبِئة، وذلك لعلو شأنك وعظمة سلطانك وبُعْد حالك عن أذْهانهم، ولطول العهد المبدِّل للهيئات والأشكال، وقرأ الجمهور (لتُنبئنّهم) بتاء الخطاب، وابن عمر بيا الغيبة (لينبئنهم) وكذا في بعض مصاحف البصرة، وقرأ سلام بالنون (لننبئنهم)[٣].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحي إلي يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أنه سَيُنَبِّئُ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون، ثم صرَّح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا أنْجَزَ ذلك الوعد في قوله تعالى: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»[٤]، وصرَّح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله تعالى: «وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ»[٥].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥١. (٢) يوسف/ ٨٩.
(٣) انظر تفسير البحر ٥/ ٢٨٨، وروح المعاني/ ٦/ ٣٨٩.
(٤) يوسف/ ٨٩. (٥) يوسف/ ٥٨.



ثم قال: وهذا الذي ذكرْنا أن العامل في الجملة الحالية هو قوله: «لتنبِّئَنَّهم» أي لتخبرنهم (بأمرهم هذا) في حال كونهم لا يشعرون بأنك يوسف، هو الظاهر(١).

وقال «لا يشعرون» ولم يقل (لا يعلمون) إشارة إلى أن إنْبَاءهم بأمرهم معه يتم وهم لا يشعرون بحقيقة أمره - عليه السلام - حتى يعطيهم الإشارة الدالة على أنه أخوهم، وهذا ما يعطيه لفظ (لا يشعرون) ولا يعطيه لفظ (لا يعلمون) لأنهم على علم بأمرهم، وليسوا على علم بأمره - عليه السلام - بل كان الذهن خاليا من وجوده على قيد الحياة(٢).

آية ظاهرة على صدْق الرؤيا وصدْق التأويل:

قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» في هذا الجزء المبارك من الآية الكريمة آية ظاهرة من الله تعالى على صدْق الرؤيا وصدق تأويلها، فقد أوحي الله تعالى إلى يوسف - عليه السلام - وحْياً إلهامياً تَبْشيراً له بالخلاص مما هو فيه... وبما يؤول إليه أمره في المستقبل من علو شأنه وعظيم سلطانه وإتمام النعمة عليه، حتى يأتيه إخوته وقد أظهره الله عليهم، وأذلَّهم له، فيخبرهم بأمرهم هذا الذي فعلوه به، وهم لا يدْرون أنه يوسف - عليه السلام -.

فكأن الله تعالى يذكّره - عليه السلام - بالرؤيا التي رآها، وأنها ستحقّق، وسيبلغه الله تعالى مكانة عالية تمكنه من إخوته حتى يخضعون له جميعا، كما يعلمه ربه عزو جل أن مدَّة الانقطاع عن أهله ستطول وتطول إلى درجة أنه سيخاطب إخوته وهم لا يعرفونه لطول العهد بهم وتغيُّر الهيئات وتبدّل الأحوال، بعد أن مكن الله له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. يقول الدكتور حسن محمد باجودة:

إن هذا الوحي الإلهامي في هذه اللحظة الحرجة بالذات يعني أن هناك خطّيْن:

---

(١) أضواء البيان / ٣ / ٥٤.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٦٢.



(أحدهما) سار فيه الإخوة الغاوون، (الثاني) سار فيه يوسف الغلام المحسن، وسيُفْضي الخط الأول في النهاية بالإخوة إلى القول: «تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ»(١)...

بينما يُفضي الخط الثاني بيوسف - عليه السلام - بعد المعاناة التي كابدها في رضاء الله عزو جل إلى النبوّة التي اصطفاه بها أرحم الراحمين. ثم إن هذا الإيحاء وفي تلك اللحظة الحرجة بالذات يعني أن الله تعالى دائما مع عبده المصطفى يوسف - عليه السلام - وأنه وإن كان غلاما صغيراً واحداً، إلا أنه كثير بالله عزو جل، وأن الإخوة وإن كانوا كثيرين في العدد، إلا أنهم في الحقيقة قليلون، لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا أداة طيّعَة للشيطان الرجيم عليه لعنة الله، كما يعني الإيحاء كذلك في تلك اللحظة أن الله تعالى سيكون مع عبده المصطفى يوسف دائماً حينما تبلغ الشدّة ذرْوتها، وأن يوسف سيصطفى بإتما النعمة عليه وعلى آل يعقوب بالنبوّة دون إخوته، وأن هؤلاء الإخوة وإن أرادوا الشر بيوسف إلا أن الله تعالى أراد الخير في النهاية له»(٢).

وهكذا أكرم الله تعالى عبده يوسف - عليه السلام - بهذا الوحي الإلهامي الذي هو المرتبة الأولى من مراتب التكليم الإلهي للأنبياء - عليهم السلام - بعد أن أكرمه بالرؤيا الصادقة التي كانت أولى المبشرات بنبوته، ألا فسبحان الله الكريم المنان الذي يصطفي من عباده من يشاء ويختار.

---

(١) يوسف/ ٩١.

(٢) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٦١-٢٦٢.

رفع المسهم

« مِحْنَةٌ وَمِنَّةٌ »

كانت المحنة التي ألَمَّتْ بيوسف - عليه السلام - شديدة ومفاجئة ومزلزلة، فقد اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال أشداء، هم - للأسف الشديد - إخوته الكبار من أبيه يعقوب - عليه السلام - اجتمعوا على سلبه من قلب أبيه الرحيم الودود الشفوق، وجَعْلِه في الجب المظلم الموحش الكئيب، اجتمعوا عليه بقلوب غليظة قاسية نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرأفه ودخل في أعماقها كيد الشيطان اللعين، وتم لهم ما عزموا عليه، فها هو يوسف - عليه السلام - في الجب فريداً وحيداً حزينا لا يدري سببا ظاهرا لما فعله به إخوته، أما هم، فقد ذهبوا عنه بعيدا، لعلهم يراقبون الجب حتى تقدم سيارة فتحمله معها إلى حيث لا رجعة له ولا عودة.

ويشاء الله الرحمن الرحيم بلطفه ورحمته فيلهم عبده يوسف - عليه السلام - وهو في الجب وحْياً إلهامياً جليلا هو مِنْحَة وَفَضْلٌ من الله العظيم، حتى يؤنسَة به في هذا البعد الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وعن أُنْسِه بأخيه الشقيق الصغير (بنيامين) وعن أهله وبلده التي نشأ فيها... وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول ليوسف - عليه السلام - إن ما حدث لك من إخوتك، وتركهم لك وحيداً في هذا الجب ليس لهوانك علينا، ولا لجفوتنا بك، بل هو قدر عليك وإعداد لك لأمر أعظم من الذي كنت فيه، وإني مقدّر لك نجاتك وخلاصك مما أنت فيه، فلا تحزن وأبشر فإني مقدر لك النجاة والخير العظيم والنعمة التامة، وإخوتك الذين فعلوا بك فعلتهم سوْف أضطرهم إلى المجئ إليك وأنت في سلطان عظيم وشأن كريم، وهم ضعفاء أذلاء يطلبون منك العون والقوت ويسألونك أن تتصدق عليهم، وستعرفهم وهم حينئذ لا يعرفونك، هنالك ذهب عن يوسف - عليه السلام - الرهبة والخوف والحزن، وعادت إليه الطمأنينة والسكينة، وأنس بجوار ربه، وفرح بما بُشِّر به.. وأسلم وجهه ونفسه لمولاه الرحيم الودود، وانتظر فرج الله القريب... وهكذا كانت مِحْنَة الجعْل في الجبّ مصيبة في الظاهر نِعْمَة في الباطن.

رفع المستهام

مكان الجب الذي ألقي فيه يوسف - عليه السلام -:

وهذا الجب الذي أُلْقِي فيه يوسف – عليه السلام – وقع في التّوراة أنه في أرض (دوثان) ودوثان كانت مدينة حصينة وصارت خرابا، والمراد أنه كانت حوله صحراء هي مرعي ومربع، ووصف الجب يقتضي أنه على طريق القوافل، واتّفَق وَاصِفُوا الجب على أنه بين (بانياس) و(طبرية) وأنه على اثنيْ عشر ميْلا من طبرية مما يلي دمشق، وأنه قُرْب قرْية يقال لها (سنْجل أو سنْجيل)، قال قدامة: هي طريق البريد بين بعلبك وطبرية، ووصفها المتأخرون بالضّبْط المأخوذ من الأوصاف التاريخية القديمة، أنه الطريق الكبرى بين الشام ومصر، وكانت تجتاز الأردن تحت بحيرة طبرية وتمر على (دوثان) وكانت تسلكها قوافل العرب، التي تحمل الأطياب إلى المشرق، وفي هذه الطريق جباب كثيرة في (دوثان) وجبّ يوسف معروف بين طبرية وصفد، بنيت عليه قُبَّة في زمن الدولة الأيوبيّة بحسب التَّوسُّم وهي قائمة إلى الآن(١).

خيبة آمال إخوة يوسف - عليه السلام - في المستقبل:

١ – إن إخوة يوسف أقدموا على فعلتهم المنكرة بأخيهم يوسف – عليه السلام – ولم يلاحظوا العواقب البعيدة المترتبة على فعلتهم هذه.

٢ – فقد ظنوا أنهم بإبعاد يوسف – عليه السلام – عن أبيه يعقوب –عليه السلام– سوف يخلو لهم وجه أبيهم وتكون لهم المنزلة الأولى في قلبه، ولكن ذلك لن يحدث في المستقبل ولن ينسىٰ أبوهم يوسف، بل لن يستطيع أحد من أبنائه على طول غيابه أن يَدْنُو مِنْ مَنْزلته الحميمة عنده.

٣ – وبعد غياب يوسف – عليه السلام – حصر يعقوب محبته وعنايته في أخيه (بنيامين) الذي كان فيه بعض العزاء عن يوسف، أما باقي الإخوة فقد ازدادوا بعداً من قلبه لما فعلوا، ولقد قال لهم بعد في شأن (بنيامين) «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٣٥.



عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ»[١] وقال لهم: « لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ»[٢] وقالهم: «يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ»[٣] وقد طلب منهم هذا التحفظ عند سفرتهم الثانية، حين كان (بنيامين) معهم، ولكن عند سفْرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء.

ثم قال لهم من بعد: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ»[٤] يريد بأخيه (بنيامين) طبْعاً، مع أن أخاهم الأكبر كان متخلّفاً بمصر ولكنه لم يشر إليه بشيء، ولم يأت حتى لسانه أنه أذن له بالعودة إليه، فقد قال الأخ الكبير لإخوته «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي... الآيه»[٥] فيستفاد من هذه الآيات الكريمة وما إليها أنّهم لم يَفُوزوا بوجه أبيهم بَعْد إبعاد يوسف كما كانوا يتوهمون، بل ازدادَ تحوّلا بوجهه عنهم إلى (بنيامين) أما يوسف فهو المَكَّنُ في قلبه كل التمكين ولن ينساه أبداً مهما بعدت المسافات وطالت السنون، والأمل في وجه الله الكريم في أن يجمع الشمل ويتم النعمة، هو الرجاء الذي لا ينقطع أبدا[٦].

هذا ولو علم إخوة يوسف أنهم بما فعلوا مع أخيهم يوسف، إنما كان المحطة الأولى والسّلّم الأول لرُقيّة إلى السّلطان والنعمة والمجد حالاً بَعْد حال حتى يتم الله له نِعْمَتَي الأولى والآخرة؛ لَمَا أقدموا أبداً على ما فعلوا، ولكن هكذا شاء الله تعالى، الذي لا ترد له مشيئة، ولا يقف أمام إرادته واقف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) يوسف/٦٤. (٢) يوسف/٦٦. (٣) يوسف/٦٧.

(٤) يوسف/٨٧. (٥) يوسف/٨٠.

(٦) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/١/٣٧٩-٣٨٠.



الجُبُّ والغار:

إن حادثة جعل يوسف - عليه السلام - في الجب وحيداً فريداً، بعيداً عن أبيه وأهله وبيته، يذكّرنا بالحبيب المصطفى ﷺ حين كان بالغار مع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - غير أن يوسف - عليه السلام - كان في الغار متروكا، أما محمد - ﷺ - فكان في غار ثوْر مطلوبا، لكفّار قريش بأي ثمن، حَيّاً أو مَيّتاً، ولكن بعد الخروج من الجب تنطلق القافلة بيوسف - عليه السلام - إلى أرض مصر، وبعد الخروج من غار ثور الذي أقام فيه الرسول - ﷺ - وصاحبه أبو بكر ثلاث ليال، سوف يكون الطريق إلى المدينة المنورة، يوسف - عليه السلام - مُهَجَّرٌ رغْما عنه إلى وطن آخر، وذلك بتقدير الله له وإيحائه إليه بذلك وهو في الجبّ، ومحمد ﷺ يهاجر من مكة إلى المدينة بأمر الله تعالى ووحيه إليه، ولقد حفظ الله تعالى يوسف - عليه السلام - وهو في الجب من أن يمسه أذى من جنّ أو حَيَّاتٍ أو حشرات ونحو ذلك حتى التقطه الوارد، وكذلك حفظ الله تعالى رسوله محمدا ﷺ في الغار من كل أذى، وحجب عنه رؤية المشركين من أهل مكة، أولئك الذين وصلوا الغار ووقفوا عليه بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآى الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، وأبكى ذلك أبا بكر وأثار خوفه وحزنه الشديد على الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا فقال الرسول ﷺ: ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما[١]، وفي هذا نزل قوله تعالى: «إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[٢] وأنى لكفار مكة أن يبصروا رسول الله ﷺ وقد حفظه مولاه، وظهرت على الغار آية من آيات النبوة، فقد نسجت العنكبوت على الغار، وعشعشت الحمامة وباضت، تعْميَةً على الطالبين من المشركين، حتى جعل الله أعدى الأعداء لرسول الله ﷺ وهو أميّة بن خلف يُبَعِّدُ للمشركين ممّن حضروا معه اختفاءَ المطلوبين في هذا الغار، ولما مضت ثلاثة أيام خرج الرسول ﷺ وصاحبه من الغار وانطلقا تَحْتَ حفظ الله وعيْن رعايته في طريقهما إلى المدينة المنورة[٣].

---

(١) انظر: السيرة الحلبيّة / ٢ / ٢٠١. (٢) التوبة / ٤٠. (٣) انظر: البداية والنهاية (ابن كثير) / ٢ / ١٨٠.

رفع المسلم

إخوة يوسف - عليه السلام - هل هم أنبياء؟

إن إخوة يوسف - عليه السلام - بارتكابهم جريمة الطرد والإبعاد في حق أخيهم يوسف الصغير الطاهر البرئ، وكذلك في حق أبيهم الشيخ الكبير والنبي الرسول يعقوب - عليه السلام - ، قد ارتكبوا ذنوبا كثيرة، من قطع الرحم، وعقوق الوالد، وافتراء الكذب والتضليل، وقلّة الرأفة بالصغير الضعيف الذي لا ذنب له، والغَدْر بالأمانة، وعدم الوفاء بالعهد،... وقد أجمع المفسرون على أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء حين قاموا بتنفيذ مؤامرتهم ضد أخيهم وأبيهم، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم ارتكاب مثل هذه الجريمة الكبيرة، فهم معصومون من ذلك، وأما بعد توبتهم وعفو يوسف وأبيهم - عليهما السلام - عنهم، فقد اختلف العلماء في ذلك:

فالقائلون بمنع صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة وبعدها قد نفوا نبوَّتهم قطْعاً.

وأما القائلون بجواز صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة، فمنهم من قال بأنهم قد أصبحوا أنبياء فيما بعد، ومنهم من نفى ذلك، فالذي عليه الأكثرون سلفاً، وخلفاً أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء،

أما السلف، فلم ينقل عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - أنه قال بنبوتهم، ولا يحفظ ذلك عن أحد من التابعين أيضاً، وكذا أتباع التابعين إلا (ابن زيد) وتابعه شرْذمة قليلة.

وأما الخلف، فالمفسرون فِرق، فمنهم من قال بقول (ابن زيد) كالبغوي، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح، كابن الجوزي، ومنهم من لم يتعرّض للمسألة ولكن ذَكَرَ ما يشعرُ بعدم كونهم أنبياء، كأبي الليث السمر قندي، والواحدي(١).

---

(١) انظر: روح المعاني / ٦ / ٣٧٥-٣٧٦.



أهم أدلة القائلين بنبوة إخوة يوسف - عليه السلام - والرد عليها:

الدليل الأول: قالوا إن يوسف - عليه السلام - رآهم في المنام في صورة الكواكب، وأن الكواكب يُهتدي بها، قال تعالى: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[1] فيدل ذلك على أنهم سيكونون ممن يهتدي بهم، والمهتدي به نبيٌّ لا محالة.

والرد على هذا الدليل هو: إن رؤيتهم في هذه الصورة تدل على شرفهم، ولا إشكال في ذلك، وأما كونهم أنبياء فلا، لأنه ليس كل من اهتدى به الناس فهو نبيٌّ، لأن العلماء العاملين يهتدي بهم وليسوا بأنبياء، وقد حصل لإخوة يوسف ذلك، لأنهم اهتدوا واهتدى بهم الناس حيث بلّغوا شريعة أخيهم يوسف الذي أوحي إليه كرسول ولم يوح إليهم[2]، ولو دلّت رؤيتهم كواكب على أن مصيرهم للنبوة، لكانت رؤية أمه قمراً أدل على ذلك - أي أن تكون نبية - ولا قائل به على أنه ليس كل الكواكب مضيئة، كما أثبته علماء الهيئة، وعلى أن نور الكواكب مستفاد من نور الشمس، فأنوارهم ليست منهم حقيقة، ولكنها من أبيهم يعقوب - عليه السلام - الذي هو الشمس[3].

الدليل الثاني: استدلّوا بكلمة (الأسباط) في قوله تعالى: «وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[4] قالوا: الأسباط أولاد يعقوب - عليه السلام - والإنزال إليهم يدل على نبوّتهم.

الرد على الدليل الثاني:

هذا الدليل فيه احتمال، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، وذلك لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم (الأسباط) كما يقال للعرب

---

(١) النحل / ١٦.

(٢) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٤١.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤١. (٤) البقرة / ١٣٦.



(قبائل) وللعجم (شعوب) والله سبحانه وتعالى يذكر في الآية - محل الاستدلال - أنه أوحي إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف - عليه السلام - ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء - إخوة يوسف - أنه أوحى إليهم[1]، فلفظ (الأسباط) لا يشمل الأبناء الصلبيين قطعياً، لا لغة ولا شرْعاً ولا عُرفاً، ولا في تعبير من عبارات اليهود والنصارى[2]، والحاصل أن الغلط في دعوى نبوَّتهم أنه إنما جاء من ظن أنهم هم الأسباط، وليس كذلك، إنما الأسباط أمة عظيمة، ولو كان المراد بالأسباط أولاد يعقوب - عليه السلام - لقال سبحانه: «ويعقوب وبنيه» فإنه أبْين وأوجز، لكنه سبحانه عبر بذلك إشارة إلى أن النبوّة حصَلتْ فيهم من حين تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى - عليه السلام - فليحفظ[3].

الدليل الثالث: استدلوا بقوله تعالى: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ»[4].

قالوا: النعمة هي النبوّة التي كانت في إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - وآل يعقوب ها هنا هم أولاده الاثنيْ عشر، وحينئذ فيجب أن يكونوا أنبياء.

الرد على الدليل الثالث: لا نُسلّم أن إتمام النعمة عليهم لا يكون إلا بجعلهم أنبياء، بل يكون بإسعادهم في الدين والدنيا، وقد سعدوا فيها لأنهم صاروا من أمراء مصر وتابوا من عملهم هذا، وعفا عنهم أخوهم وأبوهم واصبحوا رجالاً صالحين وأئمة في الدين، ولا دليل على أن إتمام النعمة هو بالنبوّة خاصة، كما أن التشبيه في قوله: (كما أتمَّهَا... الخ) لا يقتضي أن يكون المعنى الجامع بين طرفَيْ التشبيه هو خصوص النبوّة، فهذا الدليل لا يثبتُ للمدّعي[5].

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٦٩-٤٧٠.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٦.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٣٧٦. (٤) يوسف / ٦.

(٥) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦٢-٦٣.



الدليل الرابع: استدلوا على نبوة إخوة يوسف بقوله تعالى: «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ»(١) وهو استدلال في غاية الضّعْف، إذ لم يقل أحد من المفسّرين أن المقصود من كلمة (بني إسرائيل) هنا أبناء يعقوب الصلبيون الأثني عشر، بل المراد أن الكتاب كان في سلالة يعقوب - إسرائيل -(٢) فثبت أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط بأنهم أنبياء نصّ من قرآن أو من سنة صحيحة أو من إجماع أو من قول أحد الصحابة، وأما يوسف - عليه السلام - فهو رسول بنصّ القرآن الكريم: قال تعالى: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»(٣) وأما أفعال إخوته فتشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم - من الذنوب - فكيف أن يكونوا أنبياء، ولكن الرسولَيْن أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم، وبرهان ما ذكرنا من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء قول الله تعالى حاكياً عن الرسول أخيهم يوسف - عليه السلام - أنه قال لهم: (أنتم شرٌّ مكاناً) ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين، إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس، لأن الصالحين ليْسُوا شرّاً مكاناً(٤)، والإمام ابن تيمية - رحمه الله - قد أثبت بالأدلة الكثيرة التي أوردها في مؤلف خاص عن هذا الموضوع، أن إخوة يوسف - ليسوا بأنبياء - كما ذكر ذلك الألوسي في تفسيره.

وخلاصة ما قاله في ذلك، أنه لم يذكر القرآن الكريم ولا السنة، ولا أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم أنبياء، ودلالة القرآن الكريم واللغة والاعتبار تمنع كونهم أنبياء، ومن احتج لذلك بآيتي البقرة (١٣٦)، (١٤٠) وآية النساء (١٦٣)، والأسباط) وفسر ذلك بأولاد يعقوب، فالصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم (بنو إسرائيل) وكما يقال للناس:

---

(١) غافر / ٥٣.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٦. (٣) غافر / ٣٤.

(٤) الملل والنّحل (ابن حزم) الفصل الرابع «٣» / ٩-١٠.

(بنو آدم) فلا معنى لتسمية الأبناء الإثني عشر أسباطاً، والصواب أنهم إنما سموا أسباطاً من عهد موسى - عليه السلام - ومن حينئذ كانت فيهم النبوة، فإنه لم يعرف فيهم نبي قبله - موسى - إلا يوسف - عليه السلام - ومما يؤيِّد ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(١) فذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر الأسباط، ولو كان إخوة يوسف قد نبِّئوا كما نُبِّئ يوسف، لذكروا، وأيضاً ذكر أهل السيرة أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، ويوسف أيضاً مات بها، لكنه أوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى - عليه السلام - ولو كان منهم نبيٌّ لذكر، قال الإمام الألوسي - تعقيباً - وهذا دون ما قبله في الدلالة كما لا يخفي(٢)، ويقول العلامة البهاري:

المتواتر أنه لم يبعث نبيٌّ قط أشرك بالله طرفة عيْن، ولا من نشأ فحّاشاً سفيهاً، وأما غير الكذب (كذا) من الكبائر والصغائر، فالاتفاق على عصمتهم عن تعمدها سمعاً أو عقلاً - أي قبل النبوة -(٣) وقد ارتكب إخوة يوسف جرائم متعددة، فلا يصح بناء على ما ذكر أن يكونوا أنبياء، ولقد ظلوا على حالهم وكذبهم وخيانتهم واتفاقهم على عدم قول الحق لأبيهم حتى بعد أن أصابه العمي لشدة حزنه على فراق يوسف، يقول الشيخ سيد قطب: ونحن نجدهم هم هم في كل مواقف القصة بعد ذلك، وحين رأوا تدبير يوسف - عليه السلام - لإبقاء أخيه (بنيامين) معه، حيث وضع صواع الملك في رحله، انفجر حقدهم القديم على يوسف «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ»(٤)، كذلك نجدهم، هم هم، بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة، فما إن يروا تجدّد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم دون مراعاة

---

(١) الأنعام/ ٨٤. (٢) روح المعاني/ ٦/ ٣٧٦.

(٣) مسلم الثبوت/ ٢/ ٦٧-٦٨. (٤) يوسف/ ٧٧.

رفع المسابهم

لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»(١)، ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية، بعدما كشف لهم يوسف عن شخصيته، فلما رأو أباهم يستنشق عبير يوسف، غاظهم هذا الاتصال الباطني الدّالَ على عمق ما بينه وبين يوسف، فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنّبوه «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ»(٢)(٣).

ويقول الدكتور حسن محمد باجوده: إن قول يعقوب - عليه السلام - للإخوة لما جاءه البشير «قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٤)، يُعين مستوى العلم الذي لا يمكن أن يصل إليه أبناء يعقوب، والذي هو قصْرٌ عليه وعلى ابنه يوسف، وهذا من الأدلة المتعددة على أن النبوة مقصورة في أبناء يعقوب على يوسف - عليه السلام -(٥).

وأخوهم الكبير الذي قال القرآن الكريم في شأنه (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين) حين أخذ (بنيامين) في دين الملك، حتى هذا الأخ لم يرقّ ولم يرحم أباه يعقوب - عليه السلام - ولم يترأف به بعد فجيعته الثانية في ابنه (بنيامين) ولم يحاول أن يخبره بأن يوسف لم يقتل ولم يأكله الذئب كما ادّعوا وإنما ألقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة، بل لم يحدث من أحد هؤلاء الإخوة خلال مواقف القصة المتعددة أن أبدى ندمه وأسفه على ما فرّط في حق أخيه يوسف وأبيه، ولم يحاولوا كذلك العثور عليه واقتفاء أثره رحمة به وبأبيه المريض القعيد الأعمى، وكأن قلوبهم قدْ قُدَّت من صخْر لا يلين، ومن أعجب العجب أنهم عمدوا دائماً وخلال ما يقارب الأربعين عاماً إلى مسْح جزء من ذاكرة أبيهم يعقوب - عليه السلام - وهو الجزء

(١) يوسف/ ٨٤-٨٥. (٢) يوسف/ ٩٤-٩٥.
(٣) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٥٣. (٤) يوسف/ ٩٦.
(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٤٣.



المتعلق بيوسف وحبّه، فكان يعقوب - عليه السلام - كلما ذكر يوسف أمامهم، مُعْلناً أسفه وحزنه عليه، كلما هيّجهم هذا الذكر فبادروا بالاعتراض عليه وقالوا: «قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»(١)

الموقف الحق بشأن إخوة يوسف - عليه السلام -:

يقول الشيخ محمد طه الباليساني: إن بعض المفسرين قدَّسوا إخوة يوسف - عليه السلام - وعدوهم أنبياء، وأوّلوا لهم الآيات إلى غير مدلولاتها، وفسّروا عملهم هذا في حق يوسف - عليه السلام - بما هو حسن.

وبعض المفسرين، كالوا عليهم من الملامة والذَّمِّ ما كالوا.

فنقول للأولين: لا حاجة إلى التَّعب في جعلهم أنْبياء، فليس في كتاب ولا في سنة ما ينُص على نبوتهم، وليست النبوَّة ملكاً لنا فَنَهَبها لمن نشاء، بل هي منحة من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده، ولا يمكن القول بنبوّة أحد إلا بدليل قطعيّ من الكتاب أو السنة، ولا يوجد شيْء من ذلك.

ونقول للآخرين: مهلا يا سادة، فإن إخوة يوسف - عليه السلام - عفى عنهم يوسف، وعفى عنهم أبوهم، وتابوا من فعلهم هذا، واستغفروا الله تعالى وغفر الله لهم وعفا عنهم، أفلا تعفون أنتم عنهم بعد كل ذلك؟ سيَّمَا وأنهم أصبحوا فيما بعْد، رجالاً صالحين، وقادة في الدين(٢).

---

(١) يوسف / ٨٥.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦٤.

رفع المسابهم

المضمون العام للآية الكريمة:

بعدما سمح يعقوب - عليه السلام - ليوسف أن يذهب مع الإخوة ضمُّوه إليهم، فلما ذهبوا به إلى الصحراء ووصلوا البئر المعهودة لديهم أو بئراً من الآبار، تمّت المؤامرة وجعلوه في قعر البئر وظلمته، فسلّيْنا يوسف وأوحينا إليه وهو في البئر، لا تحزن، فبعزَّتي لتنْجُونّ ولتَعْلُوَنّ عليهم، ولتخبرنَّهم في المستقبل بعملهم هذا وهم لا يشعرون أنك يوسف في ذلك الوقت.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الاجتماع على ضرر الغير ظلم وإثم ونهايته الحسرة والندامة.

٢ - لطف الله تعالى بإخوة يوسف حيث حال بينهم وبين قتل أخيهم فجعلوه في الجب.

٣ - إخفاء الجريمة عن أعين الخلق لا يخفيها عن الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٤ - لطف الله تعالى بيوسف وهو وحيد في الجب حيث أوْحى إليه وآنسة وبشَّره بالخير العظيم والنعمة التامة، وأنه سيجعل له من ضيقه مخرجا ومن همّه فرجاً.

٥ - هذا الوحي في الآية الكريمة تأكيد للرؤيا التي رأها يوسف عليه السلام وتصديق لها.

٦ - عناية الله تعالى للعبد فوق كل عناية وحفظه جل شأنه فوق كل حفظ، قال الشاعر:

وإذا العناية لا حظتك عيونها *** نم فالمخاوف كلُّهن أمان

٧ - على العبد أن يكون دائما مع الله تعالى في نيته وقوله وفعله ولا يبالي بالناس، فكم وكم من الناس يدخلون القصور وهم أعزاء، ولكن يغادرونها وهم أذلاء، وأما يوسف - عليه السلام - فنزل في الجب وهو بحالة الذُّلِّ، ولم يغادره إلا وهو موحي إليه من ربه عزّو جل. وحياً الهامياً.



«الآية السادسة عشرة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«عشاء» العشاء: وقت غيبوبة الشَّفَق البَاقي مِنْ بَقَايَا شعاع الشمس بعد غروبها.

«يبكون» البكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر، وقد أُطْلِق هنا على البكاء المصطنع، وهو «التَّبَاكي».

رابعاً - الإعراب:

الواو، عاطفة، وجاءوا فعل وفاعل، وأباهم، مفعول به، وعشاء، ظرف زمان متعلق بجاء، وجملة (يبكون) حال من الواو، أي: وقت العشاء باكين.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □



سادساً - التفسير والبيان:

عَوْدَةٌ آثمةٌ ووُجُوه باكيةٌ:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾

وجه المناسبة:

ولما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل إلا الاعتذار، عطف على الجواب المقدّر قوله:

«وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ»(١)

وفي الكلام حذف تقديره: وجاءوا أباهم دون يوسف عشاء يبكون(٢) وهذا القول إخبار عن الذي اعتمده إخوة يوسف - عليه السلام - بعدما جعلوه في غيابة الجب ثم رجعوا إلى أبيهم «عشاء» أي في ذلك الوقت، وهو كما قال الراغب: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعشاءان: المغرب، والعتمة، «يبكون» حال من الواو في قوله (وجاءوا) أي وقت العشاء باكين، والبكاء كما هو معلوم: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر، وقد أطلق هنا علي البكاء المصطنع وهو التَبَاكي، لأنهم كانوا مظهرين للبكاء بتكلف ولم يكن عن حُزْنٍ لكنّه يشبهه(٣).

إن إخوة يوسف - عليه السلام - بعد تنفيذ جريمتهم وجعل أخيهم يوسف الصغير في الجبّ وَتَرْكه فيه وحيداً، كان عليهم أن يستعدوا لمواجهة أشدّ ما في الأمر عليهم، ألا وهو الاستعداد لمواجهة أبيهم يعقوب - عليه السلام - حين يسألهم عن حبيبه وصفيّه وقرّة عينه يوسف، واتفقوا جميعا على رأي واحد يخفون به الحقيقة، ويكذبون به على النّبي الوالد الرحيم - عليه السلام - وكان النّبي يعقوب - عليه السلام - ينتظر عودة يوسف مع إخوته على أحرّ من الجمر...

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ١٦-١٧. (٢) تفسير البحر / ٥ / ٢٨٩.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧١، وروح المعاني / ٦ / ١٩٨-١٩٩، وتفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٣٦.

رفع المسلم

لكن الأُذن المتلهفة على سماع صوت يوسف وهو عائد إلى والده، والذي مر عليه يومه من الصباح إلى المساء وكأنه دهر طويل... فوجئت بأصوات عالية باكية تقترب شيئاً فشيئا وها هو يعقوب - عليه السلام - يرى أبناءه العشرة وقد دخلوا عليه بمظاهرة مسرحيّة، حاولوا إتقانَها أشدّ الإتقان، فما البكاء بالنسبة لهؤلاء الشجعان بالأمْرِ الهيّن، وإنما كانت هذه المُظاهرة المفتَعَلة لتغطية ما قد يبدو على وجوههم من أمارات الكذب، فاصطنعوا البكاء تمْويها على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف - عليه السلام - ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وُجْدَان مُوجبه، وفي الناس عجائب من التَّمْويه والكيد، ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيُّل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة، وبعض المتظلّمين بالباطل يفعلون ذلك، أخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: جاءت امرأة إلى شريح القاضي فجعلت تبكي، فقالوا: يا أبا أميَّة! أما تراها تبكي؟ فقال: جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وهم ظَلَمَة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمِرَ أن يقضي به من السُّنة المرضية، وقال الأعمش: لا يصدقُ باكٍ بعد إخوة يوسف(١).

ويرى البعض أن تعبير القرآن الكريم عن (تباكيهم) بقوله (يبكون) لأن الإنسان إذا تباكي انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي، وبيان ذلك أن الأفكار والخواطر التي تمرُّ بأذْهَانِنَا يتأثر بها جسْمُنَا، كما بالعكس، إن عقْلَنَا يتأثَّرُ من جسْمِنَا، فكلُّ عواطفنا تؤثر في أجسامنا، وقد يمكننا استخدام العاطفة بتحريك العُضْو الخاص بها، فإذا تضَاحكنا مثلاً، وليس هناك ما يضحكُنَا، فإن هذا التَّضَاحُك يُحدث سروراً عندنا، وينتهي بنا إلى الضحك الحقيقي، وإذا تباكيْنَا انتهى التباكي المصنوع ببكاء حقيقيّ نَشعر فيه بالحزن، ومعنى هذا أن الجسم يؤثر أيضاً في العقل(٢).

---

(١) أنظر: يوسف بن يعقوب/ ٥٨، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٣٦، وتفسير الألوسي/ ٦/ ١٩٨، وتفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥١.

(٢) مؤتمر سورة يوسف/ ١/ ٣٨٦-٣٨٧.



ولعلهم لما أخذوا يتباكون، توارد إلى عقلهم أنهم فعلوا ذنبا عظيما في حق أخيهم وأبيهم - عليهما السلام - وكان هذا ضروريا في نظرهم لصلاح حالهم ولولا خوفهم على مستقبلهم لما فعلوا ذلك، فَلَمّا رأوا أباهم، وآثار الوقعة الواقعة عليه شديدة... ازداد تأثرهم بما فعلوا... فتحوّل بكاؤهم المصطنع إلى بكاء حقيقي، والله أعلم(١).

لماذا جاءوا «عشاء» ولم يجيئوا نهاراً؟

قوله تعالى: «وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ» بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم لِموْته القاطع عنه مُتَمَنّاه...، وَقَدمُوا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه في الاعتذار الكذب، ومن تفرّسه في وجوههم الكذب، وأوهموا ببكائهم وتفجعهم عليه إفراط محبّتهم له المانعة من الجرْأة عليه(٢).

لقد جاءوا أباهم «عشاء» وتلك أول أمارات الكذب الذي جاءوا به معهم... إنهم جاءوا مُلَفَّفين في ظلام الليل، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار، ويمزّق هذا القناع الزائف المموَّة بتلك الدموع الكاذبة التي بلَّلُوا بها خدودهم...

إن العيْن إذا التقت بالعيْن كشف لها ذلك عن كثير من خَفَايا النفس، وقرأت على صفْحة الوجه مالا يصرح به اللسان، ولا تبُوح به الكلمات، ولهذا يجرؤ الإنسان على أن يقول في الظلام ما لم يكن ليقوله في النور حين تلتقي العين بالعين...(٣).

والعيْن تعرِفُ من محدّثها *** إن كان من حزبها أو من أعاديها

أي عشاء هذا الذي جاء فيه الإخوة؟: يقول الدكتور حسن محمد باجودة: وإنا لنتساءَل أيُّ عشاء هذا الذي جاء فيه الإخوة؟ هل هو عشاء ذلك اليوم أم عشاء يوم آخر؟ الراجح في اعتقادي والله أعلم، أنه عشاء ذلك اليوم...، ومن الأدلة على أن المراد عشاء ذلك اليوم، أن الأخ الأكبر أتى بالجُبّ مُعَرَّفاً في اقتراحه الثالث: «وألقُوهُ في

---

(١) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥١.

(٢) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٥٧.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤١٧.



غيَابة الجبّ» وهذا التعريف دليل على معرفة الأكثرية له إن لم يكن الجميع...، وأنه يمكن قطع المسافة بين مكان يعقوب ومكان الجبّ ذهابا وإيابا، مع تنفيذ الخطة في ذلك اليوم نفسه...

ومن الأدلة على أن المراد عشاء ذلك اليوم أيضا أن الإخوة حينما صرح يعقوب بحزنه على ذهابهم بيوسف تجاهلوا متعمّدين مجرد الإشارة إلى هذه المسألة... وربما أفهموا يعقوب بهذا التجاهل الكلي، بأنه لا داعي لذلك الحزن، لأنه يعرف أن المكان الذي سيذهبون إليه ليس بعيداً، ويفهم ضمْناً أنهم سيعودون عشاء ذلك اليوم، فلا داعي للحزن على يوسف الذي لن يطول غيابه بحال(١).

تحليل لموقف الإخوة:

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله -: إن القرآن الكريم - في هذه الآية الكريمة - أدَّى أداءً دَقيقا للانفعالات التي توجد في النفس البشرية؛ إخوة خدَعوا أخاهم ومكروا بأبيهم، وأخذوا يوسف وصنعوا به ما صنعوا، مع أنهم يعلمون أن أباهم يحبه حبّاً شديداً، وكان ضنيناً أن يأمنهم عليه، فكيف يواجهونه؟ ذلك هو الانفعال النفسي الذي لا تستطيع فِطْرةً أن تكْبته، قالوا: كيف نقابل أبَانَا بعد هذا الذي فعلناه بيوسف؟ فأجابوا أنفسهم بأنفسهم: نؤخر اللقاء معه إلى العشاء، لماذا؟ لأن العشاء محل الظلمة، والظلمة سترٌ للانفعالات التي قد تُوجد على وجوههم، من الاضطراب، ومن مناقضة كذب ألسنتهم، لأنهم يتحدّثون عن الواقع فتفضحهم حركاتهم، ويفضحهم تلَجْلُجُهم، وتفضحهم سماتهم أمام أبيهم، فاختاروا الظرف الزمني الذي يتواروا فيه من أحداثهم...

والتعبير بـ(يبكون) دليل على أنهم كانوا متَصنِّعين وَمُتَقَمِّصين شخصيّة الحزانا، فالبكاء انفعال غريزي لحدث مهاجم لا يملك الإنسان أن يصدَّ البكاء فيه، إنما الذي

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٣.



يكون مفتعلاً هو «التَّبَاكي» لا البكاء، ويعرف هذا بقول من يقول: لَيْسَتِ الباكيَةُ بأجْرٍ كَالثَكْلَى، الثَّكْلَى بكاؤها ملتهب شديد واقِعِيّ مُعَبِّرُ عما في كيانها من شدَّة الحزن والألم، إنما النَّدَّابة فهي كذَّابة في بكائها، لأنه لا يُعَبِّرُ عما في داخلها(١). قال الشاعر:

إذا اشتبكت دموع في خدود *** بيَّنَ من بكى مِمَّنْ تَبَاكى

وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العيْنَيْن، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فَتَتَلَجْلَج في الاعتذار، وقال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون متصنِّعًا، ومن الخَلْقِ من لا يقْدر على ذلك، ومنهم من يقدر، ومن الأمثال «دموع الْفَاجِرِ بيَدَيه» وهذه عبرة في هذه العبرة.

وهكذا تمت التمثيلية الكاذبة من الأبناء لأبيهم المفجوع، الذي أفزعه مشهدهم وهزّه بكاؤهم... فسارع يقول لهم: مالكم يا بني؟(٢) فأجابوه بما سيأتي في الآية التالية بإذن الله تعالى.

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد ما نفّذ إخوة يوسف مؤامرتهم ضدّه وجعلوه في ظلمة البئر وتركوه هناك، جاءوا أباهم عشاء في مظاهرة مفتعلة لتغطية ما قد يبدوا على وجوههم من أمارات الكذب، واصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف، واختاروا لمجيئهم وعودتهم إليه وقت العشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من التفرّس في وجوههم، وكشف مكرهم وكيدهم.

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٢) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ١٧، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦ / ١٢ / ٣٨٦، ومؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١ / ٣٨٨.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - اختيار الليل للاعتذار دون النهار، لأن العين تستحي من العين كما يقال، وكما قيل:

كيف يرجو الحياء منه صديق * * * ومكان الحياء منه خراب

يريد عينيه لا تبصران.

٢ - بكاء المرء لا يدل على صدقه لاحتمال أن يكون تصنّعا.

٣ - البكاء انفعال غريزي، والتباكي بكاء مفتعل.

٤ - على القاضي ألا يتأثر بانفعالات الناس بين يديه، فلربما كان ذلك سلاحا منهم لستر الحق وإظهار الباطن.

٥ - لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق الذي أمر الله به في الكتاب والسنة.



«الآية السابعة عشر»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «نَسْتَبِق» سَبَقَ: أصْل السَّبْق: التقدّم في السير، نحو «والسَّابقَاتِ سبْقا» والاسْتباق: التَّسَابُق قال: إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِق»[١].

و«نَسْتبق» نَفْتَعِلْ، من المسابقة، وقيل: أي نَنْتَضِل، وكذا في قراءة عبدالله بن مسعود «إنّا ذَهَبْنَا ننْتَضِل» وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج، وقال الأزهري: النِّضَال في السهام، والرِّهان في الخيْل، والمسابقة تجمعهما، قال القشَيري أبو نصر: «نَسْتَبق» أي في الرَّمْي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام... وقال السدّي وابن حِبَّان: «نستبق» نشتَدُّ جَرْياً لنرى أيُّنَا أسْبق[٢].

قوله تعالى: «عِندَ مَتَاعِنَا»: كل ما ينتفع به على وجه ما فهو متاع ومُتْعة، وعلى هذا قوله: «ولما فتحوا متاعهم»[٣] والمراد به هنا؛ فضل الثياب وما عون الطعام والشراب ونحوه.

قوله تعالى: «ومَا أنتَ بمُؤمِن» أي: بمصَدِّق لنا، والإيمان يطلق على الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح[٤].

---

(١) المفردات (كتاب السين) / ٢٢٢.

(٢) تفسير القرطبي / ٩ / ١٤٥.

(٣) المفردات (كتاب الميم) / ٤٦١.

(٤) المفردات (كتاب الألف) / ٢٦.



رابعاً: الإعراب:

«قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» جملة إنا ذهبنا مقول القول، وإن واسمها، وجملة ذهبنا خبر إن، وجملة (نستبق) حال، والاستباق يكون بالعدْو والتَّرَامي والتناضل، «وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» و(تركنا يوسف) عطف على ذهبنا، والظرف متعلق بتركْنا، فأكله عطف، و(الهاء) مفعول به، و(الذئب) فاعل.

«وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» الواو عاطفة، و(ما) نافية حجازية، و(أنت) اسمها، والباء حرف جر زائد، و(مؤمن) مجرور لفظا خبر محلاً، و(لنا) متعلقان بـ(مؤمن)، و(وَلَوْ) الواو عاطفة، ولو شرطيّة، و(كنا» كانَ واسمها، و(صادقين) خبرها(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٦١-٤٦٢.



سادساً - التفسير والبيان:

«أقوال كاذبة»

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

وجه المناسبة:

بعد ما نفَّذ إخوة يوسف مؤامرتهم جاءوا أباهم عشاء يبكون، فكأنه قيل: إنهم إذا بكوا حق لهم البكاء خوفاً من الله وشفقة على الأخ، ولكن ماذا يقولون إذا سألهم أبوهم عن سببه؟ فقيل:

«قالوا يا أبانا...»(١)

لقد كان طبيعياً أن يسأل يعقوب - عليه السلام - عن سبب بكاء الإخوة، ولعلّه فرَّ بآماله إلى أن البكاء ليس على يوسف - عليه السلام - وكان الامتحان الأكبر بعلمه بحقيقة النبأ(٢) فقد سألهم - كما روي عن السُّدّي - ما لكم يا بنيَّ؟ هل أصابكم في غنكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما فعل يوسف؟ «قالوا يا أبانا...»(٣) نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم الداعي إلى تكذيبهم(٤) فهم يحاولون تلطيف الجو الممتلئ بالمخاوف بهذا النداء، ثم يقدّمون بين يدي النبأ بالسبب الذي من أجله أكل الذئبُ يوسف، هذا السبب يبدو من قولهم:

«إنّا ذهَبْنَا نستَبِقُ» أي ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى السباق يَتكَلَّفُ كلٌّ منا أن يسبق غيره، فالاستباق تكلّف السَّبْق، وهو الغرَض من المسابقة، والتَّسَابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يُقْصَدُ - التَّسَابق - لذاته أو لَغرضٍ آخر في السبق، ومنه (فاستبقوا الخيرات)(٥) فهذا يُقْصَدُ به السَّبْق لذاته لا للغَلَب، وقوله الآتي في

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٧. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٦٢، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١١١.

(٤) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥١. (٥) البقرة/ ١٤٨.



هذه السورة: (واستبقا الباب) كان يَقْصِدُ به يوسف الخروج من الدار هَرَباً من حيث تقصد امرأة العزيز باتّبَاعِه إرْجاعَهُ، وَصيغة المشاركة لا تؤدِّي هذا المعنى، ولم يفطن الزمخشري عَلاّمة اللغة ومن تبعه لهذا الفرْق الدقيق[1] وقوله «نستبق» في موضع الحال، أي: ذهبنا مستبقين، أي: متسابقين[2].

و(نَسْتَبِق) نَفْتَعِل، من المسابقة، وقيل: أي ننتضل، وكذا في قراءة عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - «إنا ذهَبْنَا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة، قاله الزجاج، وقال الأزهري: النِّضال في السهام، والرهان في الخَيْل، والمسابقة تجمعهما، قال القشيري أبو نصر: (نستبق) أي في الرَّمْيِ، أو على الفرس، أو على الأقدام؛ والغَرض من المسابقة على الأقدام تدْريب النفس على العدْو، لأنه الآلة في قتال العدوّ، ودَفْعِ الذِّئْب عن الأغنام، وقال السدي وابن حبان: «نستبق» نشتَدُّ جَرْياً أيُّنَا أسْبق[3].

وجماع ما ذكر في معنى (نستبق) أربعة أوجه:

(الأول) معناه، ننتضل؛ من المسابقة في الرَّمْي، قاله الزجاج، كما روي عن ابن عباس وابن قتيْبة.

(الثاني) معناه، نشتدّ، أي نستبق على الأقدام، قاله السُّدّي وابن حبان.

(الثالث) معناه، نتصيَّد، أي نتسابق على اقتناص الصيد، قاله مقاتل.

(الرابع) أنهم عنوا به استباقهم في العمل الذي تشاغلوا به من الرّعْيِ والاحتطاب، قاله الماوردي، وهذا الوجه بعيد لأن ذلك ما يشتغلون به عادة، ورُجّع ما قاله الزَّجاج من أن معنى (نستبق) أي ننتضل - نتسابق في الرمي - لقراءة عبدالله بن مسعود: «إنا ذهَبنَا ننتضل، ولا مانع من دخول أي نوع من الثلاثة المتقدمة في معنى «نستبق» لعدم النّص على أي واحد منهم، والله أعلم[4].

---

(1) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٦. (2) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٣٨.

(3) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٤٥. (4) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٠.



المسابقة في الإسلام:

قال ابن العربي: المسابقة شِرْعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعوْن على الحرْب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيْله. قالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - «سابقت رسول الله صلى الله عليه مرَّتيْن، فسبقته في المرة الأولى، فلما بدنتُ سبقني وقال: هذه بتلك»(١) وفي الحديث: «ليس من اللهو ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه فَرَسه، ورمْيه بقوْسه»(٢) وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان للنبي ﷺ ناقة تُسمّى (العضْبَاء) لا تُسْبق، قال حميد: أو لا تكاد تُسْبق - فجاء أعرابيّ على قَعُود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حقٌّ على الله ألا يرْتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»(٣).

وأجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخُفِّ والحافر والنَّصْلِ، قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فقمار(٤)

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا» المتاع: ما يُنتفع به، (وتركنا) حال من نستبق، والمعنى: تركناه عند متاعنا من فضل ثيابنا وطعامنا وشرابنا ونحوه ليحفظه لنا، وقولهم هذا، نَقْضٌ لشرْط يعقوب عليهم لخروج يوسف معهم، فأين فعلهم هذا من قولهم لأبيهم «وَإِنَّا لَه لَنَاصِحُون» «وَإِنّا لَه لَحَافِظُون» هل هم الذين يحفظونه، أم هو الذي سيحفظ لهم المتاع(٥).

وكيف يتسابقون جميعا وهم عشرة دون أن يتركوا واحداً منهم مع أخيهم يوسف - عليه السلام - وقد تعهدوا لأبيهم بالحفظ والصيانة لأخيهم(٦) هذا، ولعلهم قصدوا

(١) أخرجه ابن ماجة / ٩: ٩ - كتاب النكاح، ٥٠ باب حسن معاشرة النساء حديث رقم: ١٩٧٩.

(٢) أخرجه أبو داود من حيث طويل عن عقبة بن عامر / ٢٤ - باب في الرمي، حديث رقم: ٢٤٩٦.

(٣) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه.

(٤) انظر: موضوع المسابقة بتوسع في تفسير القرطبي / ٩ / ١٤٥-١٤٨.

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٦) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤١٧.



بقولهم: «وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا» إيهام أبيهم - عليه السلام - أنهم لم يقصّروا في المحافظة على يوسف ومراقبته، بل تركوه في مأمن حيث لا يكاد يُطرَح المتاع عادة إلا في مكان يؤمن فيه الغوائل، وأنهم تسابقوا قريبا منه، وما فارقوه إلا ساعة يسيرة حدث أثناءها ما لم يتوقّع[١].

قوله تعالى: «فأكلهُ الذئبُ»

أي عقيب تركنا له عند متاعنا من غير مضى زمان يعتاد فيه التَّفقّد والتعهّد. وقد تحقَّقَ فيهم حدس يعقوب - عليه السلام - حينما جاء هذا القوْل على لسانه (فأكله الذئب) وفي هذا دلالة على أن الإخوة قد بلغوا من الوقاحة وصفاقة الوجه للدرجة التي يستعيرون الفعل (أكل) الذي استمد عظيم دلالته على لسان يعقوب من بساطته المعبرة عن وداعة يوسف وخبْث الذئب، إنّهم يستعملون هذا الفعل على الرغم من حاجتهم إلى التفخيم والتهويل، لأن يعقوب ببساطة، سبق أن استعمله، وحينما يستعملونه بالذات يعود يعقوب إلى الأحداث التي تخيَّلها حينما جاء على لسانه «وأخاف أن يأكله الذئب» فتلوح له على أنها ممكنة الحدوث في الواقع، ومع علمهم بأن عذرهم هو ما حذّرهم والدهم منه، وأنه يعتبر طعنه في صميم رُجُولَتهم وَتَبجّحهم السابق بأنهم عصبة، إلا أنهم رضوا به عذراً لأنه ليس هناك عذر آخر مساو له[٢] وهكذا لم يجدوا عذرا يقدمونه لأبيهم خيراً من العذر الذي نبّههم - عليه السلام - إلى الحذر من الالتجاء إليه؛ ونكثوا في ميثاقهم بالمحافظة عليه من الذئب حيث قالوا لأبيهم جوابا لقوله لهم: «وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ» وحكمهم هذا على أنفسهم بالخسران، قد تحقّق فيهم الآن بلا شك، فقد خانوا وكذبوا ولَفَّقوا وارتكبوا جريمة منكرة في حقّ أبيهم فلم يرعوا فيه أبوّة ولا نبوّة، ولا في حق أخيهم قرابة ولا أخوة.

---

(١) أنظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٥٩.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٦.



قوله تعالى: «وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ»

«وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا» أي بمصدّق، «وَلَوْ كُنَّا» أي وإن كُنّا؛ قاله المبرّد وابن اسحاق «صادقين» في قولنا(١). وقال أبو عبيدة التّيمي: (وما أنت بمؤمن لنا) أي وما أنت بمصدّق ولا مقر لنا أنه صدق(٢).

فالمعنى، وما أنت بمصدّق لنا في هذه المقالة ولو كُنّا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لفَرْط محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقوْلنا، قيل: ولا بد من التأويل، إذ لو كان المعنى «ولو كنا صادقين» في نفس الأمر لكان تقديره، فكيف إذا كنا كاذبين فيه، فيلزم اعترافهم بكذبهم فيه، فالمراد في مثل ذلك تحقيق الحكم السابق على كل حال، فكأنه قيل هنا: «وما أنت بمؤمن لنا في حال من الأحوال» فَتذكّرْ وَتأمَّلْ(٣) فَهُم لم يريدوا بـ(لو) في قولهم له: «ولو كنّا صادقين»، معناه الموضوع له، وهو الدلالة على امتناع الجزاء لامتناع الشّرْط، حيث لو أرادوا ذلك لشهدوا على أنفسهم بالكذب، بل أرادوا به معنى آخر يستعمل فيه كثيراً، وهو الدلالة على وجود الجزاء على جميع التَّقادير، أي على تقدير وجود الشرط وعدمه، فالمعنى: وما أنت بمؤمن لنا صَدَقْنَا أم لم نصْدُق، وهذا الاستعمال وارد في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ»(٤).

إذ المعنى، ما نَفِدَتْ كلمات الله تعالى، سواء كانت الأشجار كلها أقلاما والبحر مداداً وانضَمَّ إليه سبعة أبحر فكتب بها كلماته، أو لم يكن ذلك، لأن كلمات الله تعالى، أي معلوماته غير متناهية، وهذا المعنى هنا أصحّ بالإرادة والله أعلم(٥).

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٤٨

(٢) مجاز القرآن (أبو عبيدة التيمي/ ١/ ٣٠٣

(٣) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٣٩١

(٤) لقمان/ ٢٧

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٥٨-٥٩.

رفع المسيَّهمَّا

فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تُصدِّق الصادق؟

قيل: معناه إنك تَتَّهمنا في هذا الأمر لأنك خِفْتَنا في الابتداء واتَّهَمْتَنَا في حَقِّه، وقيل معناه لا تُصدِّقنا لأنه لا دليل لنا على صِدْقِنَا وإن كنّا صادقين عند الله تعالى(١).

وعجيب قولهم: «وما أنت بمؤمن لنا» وكما يقولون: يكاد المريب يقول خذوني، فمن أنبأهم أن أباهم يتهمهم بالكذب في هذا الخبر الذي جاءوا به إليه، مِنْ أن الذئب قد أكل يوسف، حتى ليقولون له تعقيباً على هذا الخبر «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» إنّ هذا اتّهام منهم لأنفسهم قبل أن يتهمهم أحد(٢).

ويلاحظ أن هناك نوعا من التشابه بين قول الإخوة الآن «وما أنت بمؤمن لنا» وقولهم من قبل «ما لك لا تأمنّا على يوسف» ومصدر ذلك التشابه أن نفسيّة الإخوة في الموضعين متشابهة، إذ لم يكونوا صادقين في المناسبتين، إنّهم حينما يقولون «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين» إنما يعبّرون بإخلاص عن حقيقة الموقف الذي يتوقعون أن يتخذه منهم يعقوب، بناء على ما يعرفون من حقيقة عدم صدقهم، على الرغم من محاولة إضْفاء جوّ الصّدق على فعلهم وقولهم(٣).

(١) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٢٢.

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤١٨.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٦-١٦٧.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما عاد الإخوة إلى أبيهم عشاء يبكون قال لهم: ما لكم يا بني؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: يا أبانا إنا ذهبنا نتسابق في العدْو والرّمي والصيد، وتركنا يوسف عند متاعنا لأنه لا يقدر على الاشتراك معنا في التسابق، وما فارقناه إلا ساعة يسيرة، فأكله الذئب عقيب تركنا له عند متاعنا من غير مضى زمن كثير على مفارقتنا له، وما أنت بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا عندك وفي اعتقادك من أهل الصدق والثقة، لفرط محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا، إنك لن تصدقنا على أي حال.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - المبالغة في إخفاء الحقيقة بالأقوال الكاذبة والصور المضللة تجعلها محلا للشك وتدفع إلى بذل الجهد لاكتشافها ورفع الغطاء عن أستارها.

٢ - يكاد المريب يقول: خذوني، فَمَنْ أنْبَأَ الإخوة أن أباهم لن يصدقهم على أي حال، إن ذلك نتيجة لما يشعرون به في قرارة نفوسهم بأنهم جاءوا بالكذب والبهتان.

٣ - تتابع ارتكاب الإخوة للذنوب والآثام، فبعد أن خانوا العهد مع أبيهم ونقضوا الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم بالمحافظة على يوسف، وارتكابهم جريمة الطرد والإبعاد في حق أخيهم يوسف، عادوا الآن يكذبون ويبذلون كل مستطاع لترويج وتصديق هذا الكذب.



«الآية الثامنة عشر»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«بدم كذب»

قرأ الجمهور «كذِب» وصف لـ(دم) على سبيل المبالغة، أو على حذف مضاف، أي: ذي كذب، لَمّا كان دالا على الكذب وصف به، وإن كان الكذب صادراً من غيره، وقرأ زيد بن علي «كذِباً» بالنّصب، فاحتمل أن يكون مصدراً في موضع الحال، وأن يكون مفعولا من أجله.

وقرأت عائشة والحسن - رضي الله عنهما - «كدِب» بالدّال غير معجمة، وفُسِّرَ بالْكدر، وقيل: الطريّ، وقيل: اليابس. وقال صاحب اللوامح: ومعناه ذي كدب، أي: أثر، لأن الكدب هو بياض يخرج في أظافير الشبان، ويؤثر فيها فهو كالنّقش، ويسمّى ذلك البياض: الفوف، فيكون هذا استعارة لتأثيره في القميص كتأثير ذلك في الأظافر(١).

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى «وجاءوا على قميصه بدم كذب» القميص: غلاف رقيق يُرْتَدَى تحت السترة غالبا ولا يكون إلا من قطن، أو هو درع مفاضة، قاله النحاس، وجمعه قُمُصٌ، وأقْمِصَة وقُمْصَانٌ، قال: «إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ...»(٢)(٣) والدم: جسم أحمر

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) يوسف/ ٢٦.

(٣) المفردات (كتاب القاف)/ ٤١٢.



سيّال، وهو معروف، ومن شأنه أن يكون في عروق الحيوان، وله خواصّ تدرك بالعيان من ترجْرُج وتلزّج وسهولة[1] والكذب: نقيض الصدق، كَذَبَ يكْذِبُ كذِباً وكِذْباً وكِذْبة: هاتان عن اللحياني، وكِذَاباً وكِذَّاباً، وأنشد اللحياني:

نادت حليمة بالوداع وآذَنَتْ

أهل الصفاء وودَّعَتْ بِكذَاب[2].

قوله تعالى: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا» سوّلت: زيَّنَتْ، قال تعالى: «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ»[3] أي: زيّن لهم[4] والأمر: الشّأن، وجمعه أمور، ومَصْدَرُ أمَرْتُه إذا كلّفته أن يفعل شيئا، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، والمراد بقوله: بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً» أي ما تأمر به النفس الأمارة بالسوء[5].

قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» الصبر: حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقْتَضِيَان حبْسها عنه، فالصبر لفظ عام، فإن كان حبْس النفس لمصيبة كما هنا، سُمِّيَ صبْراً لا غير، ويضادّه الجزع[6] فمعنى قوله: «فصبر جميل» أي: فصبرى صبر جميل، وهو ما لا شكوى فيه لأحد غير الله تعالى[7].

قوله تعالى: «والله المستعان»، العون: المعاونة والمظاهرة، يقال: فلان عوني، أي: مُعيني وقد أعنته، قال تعالى: «فأعينوني بقوة»[8] والتّعاون: التّظاهر، قال تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[9][10] فمعنى «والله المستعان» أي: أستعينه.

قوله تعالى: «على ما تصفون»، الوصف: ذِكْر الشيء بِحلْيَته، والصفة: الحالة التي عليها الشيء من حِلْيَته ونَعْته، والوصف قد يكون حقا وباطلا، قال الله تعالى:

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٧. (٢) اللسان/ ١/ ٧٠٤. (٣) محمد/ ٢٥.
(٤) تفسير غريب القرآن (السيد أحمد صقر)/ ٢١٣
(٥) المفردات (كتاب الألف)/ ٢٤-٢٥. (٦) المفردات (كتاب الصاد)/ ٢٧٣.
(٧) صفوة البيان لمعاني القرآن/ ٣٠٤. (٨) الكهف/ ٩٥.
(٩) المائدة/ ٢. (١٠) المفردات (كتاب العين)/ ٣٥٤.



﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾[1][2] والوصف هنا وصف كاذب، ومعنى «على ما تصفون» أي: على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف والصبر على الرُّزْء فيه[3].

رابعاً - الإعراب:

﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الواو عاطفة، و(جاءوا) فعل وفاعل، و(على قميصه) محله النصب على الظرفيّة، كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم، وهذا الظرف معمول لحال محذوفة من (دم) والتقدير: وجاءوا بدم كذب حال كونه كائنا فوق قميصه، وقد منع ذلك الزمخشري، و(بدم) متعلقان بـ(جاءوا) و(كذب) صفة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (بل) حرف إضراب، و(سولت لكم أنفسكم) فعل وفاعل، و(أمراً) مفعول به، و(فصبر جميل) خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، وساغ الابتداء بالنكرة لوصفه.

﴿وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ الواو عاطفة، و(الله)، مبتدأ، و(المستعان)، خبر، و(على)، مُتَعَلِّقَانِ بالمستعان، وجملة (تصفون) صلة، والعائد محذوف، أي تصفونه.

(البلاغة): «وصف الدم بالكذب» وَصف الدم بالكذب مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب هو الكذب بعَيْنه، والزور بذاته، والفاعل والمفعول يُسَمَّيَان بالمصدر، كما يقال: مَاءٌ سَكْبٌ، أي: مسكُوب، والفاعل كقوله «إن أصبح ماؤكم غوْراً»[4] أي غائراً، كما سَمُّوا المصدر بهما، قالوا للعَقْل المعقول، وللجلْد المجْلود، ومنه قوله تعالى: «بأيّكُمُ المفْتُون»[5][6].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(1) النحل/ ١١٦. (2) المفردات (كتاب الواو)/ ٥٢٥.
(3) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٨. (4) الملك/ ٣٠. (5) القلم/ ٦.
(6) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٦٢-٤٦٤.



سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما علم إخوة يوسف أن أباهم يعقوب - عليه السلام - لا يصدِّقهم من وجوه، منها ما هو عليه من صحَّة الفِراسة لنور القلب وقوة الحدس، ومنها أن الكذب في نفسه لا يخلو عن دليل على بطلانه، ومنها أن المرتاب يكاد يعرب عن نفسه؛ أعْمَلُوا الحيلة في التأكيد بما يُقَرِّب قولهم، فقال تعالى حاكيا عنهم:

«وَجَآؤوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ»(١)

وجملة (وجاءوا على قميصه) في موضع الحال، ولما كان الدم مُلَطَّخاً به القميص، وكانوا قد جاءوا مصاحبين للقميص، فقد جاءوا بالدم على القميص، وقوله: «على قميصه» حال من (دم) فقُدِّم على صاحب الحال(٢) وإن كان من متعلَّقاته، لأنه لو قال: وجاءوا بدم على قميصه لتوهم أنهم جاءوا بدَم في ظرْفٍ أو إناء، فلم يفهم من أول الأمر أنهم جاءوا بالدّم منتشراً على القميص، فقدم ليفهم ذلك الأمر(٣).

ومعنى «بدَم كذب» قال اللغويون: معناه: بدم مكذوب فيه، والعرَب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولا، فيقولون للكذب مكذوب، وللعقْل معقول، وللْجِلْدِ مجلود، قال الشاعر:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه * * لحماً ولا لفؤاده معقولا(٤)

أراد عقلا، وقال آخر:

قَدْ وَالذي سمك السماء بقدرة * * بُلغ العزاءُ وأُدرِكَ المجْلُودُ،

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ١٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ١٢ / ٢٣٨.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦٠.

(٤) البيت للراعي النميري، ديوانه ١٣٧، وأساس البلاغة: عقل.



يريد: أدرك الجلد،

ويقولون: ليس لفلان عقد رأي، ولا معقود رأي، ويقولون: هذا مَاءٌ سَكْبٌ، يريدون: مسكوبا، وهذا شراب صَب، يريدون مصبُوباً، وماء غور، يُعْنُون: غائراً، ورجل صَوْم، يريدون صائما، وامرأةُ نَوْح، يريدون نائحة، وهذا الكلام مجموع قول الفَراء والأخفش والزجاج وابن قتيبة(١) ووصف الدم بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينِه، والزور بذاته ونحو:

فَهُنَّ به جُودٌ وأنتم به بُخل(٢).

جاءوا على قميص بالدم ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلا على كذبهم:

المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها «وجاءوا على قميصه بدم كذب» أنهم جاءوا بقميصه - عليه السلام - ملَّطخاً ظاهره بدم غير دم يوسف، يدّعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم، فكان دليلا على كذبهم، وَقَالَ: (على قميصه) ليصوّر للقارئ والسَّامع أنه موضوع على ظاهرة وَضْعاً مُتكَلَّفاً، ولو كان من أثر افتراس الذِّئب لكان القميص ممزَّقاً والدم مُتَغَلْغِلاً في كل قطعة منه(٣) ولَكَان المفروض أن يأتي الدم من داخل القميص إلى الخارج، لكن الدم رؤي من الخارج فقط، كما أن أنْياب الذئب لا أثر لها، فكلامهم فضحهم ولهذا لم يصدقهم، وَعَلِمَ أن الدم ليس دم يوسف، بل هو دم كذب، أي دم مكذوب فيه، الدم لا يكذب، ولكن الكذاب هو الذي وضع الدم على القميص(٤).

وذكر مجاهد والسدي وغير واحد أنهم عمدوا إلى سخْلة(٥)، أو جَدْي، فذبحوه ولطخوا ثوب يوسف بدمه موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه

---

(١) زاد المسير / ٤ / ١٩٢-١٩٣.

(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٨، وانظر: تفسير ابن عطية / ٩ / ٢٦٤، وتفسير القرطبي / ٩ / ١٤٩، وتفسير البحر / ٥ / ٢٨٩-٢٩٠، وروح المعاني / ٦ / ٣٩١-٣٩٢.

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٢٦٧.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٥) السخلة: الذَّكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سَخْلٌ، وسِخَال، وسُخْلَان.



من دمه[1] وقال قتادة: دم ظَبْيَة، والقول بأنه دم سخلة أو جدْي، هو الأقْرب لأن ذلك في متناولهم ومن أغنامهم ولم يكن عندهم وقت للتفرغ لصَيْد الظباء، قال علماؤنا -رحمة الله عليهم: لما أرادوا أن يجعلوا الدم دليلا على صِدْقهم، قَرَنَ الله بهذه العلامة علامَةً تُعَارِضُها، وهي سلامة القميص من التَّنْيِيب، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمّل يعقوب - عليه السلام - القميص فلم يجدْ فيه خرْقاً ولا أثَراً، استدل بذلك على كذبهم وقال لهم: لَوْ أكله الذئب لخرق قميصه، قاله ابن عباس، وعن قتادة أنه - عليه السلام - قال: ما أرى أثر سبْع ولا خَرْق، وعن الحسن، لما جئ بقميص يوسف إلى يعقوب - عليهما السلام - جعل يقلبه فيرى أثَرَ الدم، ولا يرى فيه شَقّاً ولا خَرْقاً، فقال يا بَنيّ: والله ما كنت أعهد الذئب حليما إذا أكل ابني وأبقى قميصه، وروي مثله عن الشعبي[2].

لا توجد جريمة كاملة:

وكما يقول علماء الجريمة في العصر الحديث: لا توجد جريمة كاملة، إذْ لَوْ دُقِّقَ في أي جريمة لوُجد دليل مَّا، مهما كان صغيراً يدل على جُرْمِ المجرم الذي ارتكبها، فقد اعتبر الإخوة أن هذا القميص الملوّث بالدّم هو كوثيقة بيدهم يعتمدون عليها في صحة دعواهم، ويمرْكزون عليها في دفْع الشبهة عنهم، ولكنهم كما يقال: حفظوا شيْئاً وغابت عنهم أشياء، إذ لم يمزّقُوا القميص، فَبَعْدَما حسبوه حجّة لهم صار حجة عليهم، وصدق الشاعر إذ يقول:

إذَا لَمْ يكُنْ عَوْنٌ من الله للْفَتَى *** فأوّلُ مَا يَقْضِي عليه اجتهاده[3]

إنهم لم يحسنوا سبك الأكذوبة، وشاء الله تعالى بحكمته أن يجعل في حجتهم دليلاً على بطلانها بطلانا مطلقا، فسقطوا في الفَخّ الذي نصبُوه لأبيهم سُقُوطا مُدَوّياً،

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧١.

(٢) انظر: تفسير الطبري / ٧ / ١٧٣-١٧٥، والدر المنثور / ٤ / ١٦

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤١٢.



لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرَّة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب - عليه السلام - باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا متعجّلين لا يصبرون يخشوْن ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المشكوفة دليلاً على التسرُّع، وقد كان أبوهم يحذّرهم منها أمس وهم يُنْفُونَهَا ويكادون يتهكَّمُون بها، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذَّرهم أبوهم منه أمس! وَبِمِثْل هذا التَّسَرُّع جاءوا على قميصه بدم كذب، لطَّخُوه به في غيْر إتْقَان فكان ظاهِرَ الكذب حتى لَيُوصف بأنه كذب[1].

قصة يوسف كلها في قميصه:

قال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعَرَضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: «إنْ كَانَ قَميصُهُ قُدَّ منْ قُبُلٍ» ولمّا أُتيَ بقميصه إلى يعقوب فأُلْقِيَ على وجهه فارتدَّ بصيراً[2]، ولم يُذْكر القميص في القرآن الكريم إلا في سورة يوسف في ستة مواضع من مواضع القصة المهمة[3]، الأول: «وَجَاءُوا عَلى قَميصه بدَمٍ كَذب» وثلاث مرّات في الشاهد، ومرّة «اذهَبُوا بقَميصِي فألقُوهُ على وَجه أبي» وسادسة بالضمير «فلمّا جاءَ البشيرُ ألقَاه - أي القميص - على وجهه فَارْتَدَّ بَصِيراً.

رَدُّ الوالد المفجوعَ بعد أن تفحَّصَ قميص ابنه:

قال الله تعالى: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أنفسُكم أمْراً...» «قال» استئناف مبني على سؤال، فكأنه قيل: ما قال يعقوب؛ هل صَدَّقهم فيما قالوا أم لا؟ فقيل: قال لم يكن ذلك، «قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً»[4] وهذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره:

---

(1) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٥-١٩٧٦.

(2) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٠٥.

(3) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٢٠.

(4) تفسير أبو السعود/ ٤/ ٢٦٠.



إن الذئب لم يأكله، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً[1] فكان جواب يعقوب - عليه السلام - موافقاً للموقف الذي توقعوا أن يقفه، فابتدأ كلامه بحرف العطف (بل) للإضْراب عن كلامهم المذكور قبْله وجعله في حكم المسكوت عنه، وهو يدلُّ هنا على أنّ مَاجاء قبله كذب صريح في عرف يعقوب - عليه السلام - وأن الصحيح ما جاء بعده[2]...

ومعنى (سَوَّلَت) أي: زيَّنَتْ وَسَهَّلَتْ، قاله ابن عباس، والتسويل: تقدير شيء في النفس مع الطمع في إتمامه، قال الأزهري: كأنّ التَّسْويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها لِتُزَيِّنُ لطالبها الباطل وغيره، وأصله مهموز، غير أن العرب استثقلوا فيه الهمز[3] وقال الزمخشريّ: (سَوَّلَت) سَهَّلَتْ، من السَّوْل وهو الاسترخاء، أي: سَهَّلَتْ[4] وقال القاسمي: التسويل: تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن[5] وقد جاء الفعل (سوّل) أربع مرّات في القرآن الكريم، في مناسبات متشابهة، بمعنى إظهار القبيح في المظهر الحسن، منها ثنتان على لسان يعقوب - عليه السلام - هذه الأولى، والثانية في قوله: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أنفُسُكُم أمْراً فَصَبرٌ جَميلٌ عَسَى اللهُ أن يَأتيَني بِهِم جَميعاً»، والثالثة على لسان السّامِريّ في قوله تعالى: «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي»[6] والرابعة في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ»[7]، وجاء لفظ (أمراً) في صيغة التنكير، إذ لم يكن بإمكانه تعيينه، فهو أمر عظيم منكر اقترفوه في حق يوسف، أمر لا يوصف ولا يعرف.

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٧. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٠٥.

(٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٨.

(٥) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٣.

(٦) طه/ ٩٦. (٧) محمد/ ٢٥.



جواب يعقوب ومقام النبوة الكريم:

وكان هذا الجواب من أبيهم هو الردُّ اللائق بمقام النبوة، فلم يتهمهم بارتكاب جريمة، بل أخبرهم أن أنفسهم سوَّلت لهم أمْراً يخلّصهم من يوسف(١).

وحينما نتأمل هذا القول من يعقوب - عليه السلام - الذي يخاطب أبناءه: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فإنه على الرغم من صدوره من قلب أب محروق الفؤاد، فَإنا نجده أهون كلام، وألين كلام، وأعف كلام يمكن أن ينتظر من شخص في مثل وضع يعقوب، ولكن هل يمكنُنَا أن نَنْسَى أنَّنا بصَدَد نبي من أنبياء الله رب العالمين، إنه قادر على التحكم في نفسه كل القدْرة، ويبدو لنا في اللحظة التي تعتبر أحلك فترات حياته رابط الجأش، حسن التصرف، طيب الحديث يأبى الخلق العظيم الذي فَطره الله تعالى عليه التصريح بتكذيب الذين لا يَشُكُّ في كذبهم، وَمَنْ هؤلاء؟ إنَّهم أبناؤه الذين فَرَّطوا في فِلْذَة كبده، يوسف، إنه لا يصدِّق ما جاء به أبناؤه، ولكنه يُعبِّر عن ذلك في الجزئية التي تخصُّهم في أوجز عبارة، وأطهر عبارة(٢) «قال بلْ سوَّلَت لكم أنفسكم أمراً» وَكانت هذه هي الجملة الأولى منَ الجمل الثلاث في ردّه خاطب بها أبناءه، أما الجملة الثانية، «فصبر جميل» فقد خاطب بها نفسه، و«فَصَبْرٌ جميل» مرفوعان، لأن «جميل» صفة للصبر، ولو كان الصَّبْرُ وحده لَنَصَبُوه كقولك: صَبْراً، لأنه في موضع: اصْبِرْ، وإذا وَصَفُوه رفعوه واسْتَغْنَوْا عن موضع: اصبر، قال الراجز:

يشكو إلَيَّ جَمَلِي طول السُّرَى *** صبرٌ جميل فكلانا مُبْتَلَى(٣)

«فصبر جميل» خبر أو مبتدأ لكونه موصوفا، أي فأمرى صبر جميل، أي فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أُبَيّ (فصبراً جميلاً(٤).

(١) يوسف بن يعقوب / ٦٠.
(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٧٢.
(٣) مجاز القرآن (لأبي عبيدة التيمي) / ١ / ٣٠٣.
(٤) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٨.



معنى الصبر: الصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الرَّوِيَّةِ في دفْعِه ومقاومة ما يُحْدِثُه من الجَزَع، فهو مركَّبٌ من أمرين: الأول: دفع الجزع ومحاولة طرده، الثاني: مقاومة أثره حتى لا يغلُبَ على النفس، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه، فمن لا يُحِسُّ به لا يسمّى صابراً، وإنما هو فاقد للإحساس فيُسَمّى بليداً، وفرْق بين الصبر والبلادة، فالصبر وسط بين الجزَع والبلادَة، والصبر من أهم الفضائل، إذ يجعل الإنسان ثابتا لا يَتَملْمَلُ، فيُسَلّيه عن الهمّ، ويخفّف ألم مصيبته، ويُدْني منه بعيد الأمل، قال تعالى: في وصف أهل البرّ: «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ»(١) وقد ذُكِرَ الصَّبْرُ في القرآن الكريم مائة وأربع مرات ولم تُذْكر في القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد، الأمر الذي يدلنا على عظمة الصبر(٢).

فالصبر قوَّة للنفس على احتمال الآلام، كالمصائب إذ عرضت، والجميل منه ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع، رِضاً بقضاء الله تعالى ووقوفاً مع مقتضى العبوديّة(٣) فهو صبر لا يشوّه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله، ولا الشكوى إلى غير الله(٤) أما الشكوى إلى الله تعالى وحده فلا تخرج الصبر عن جماله، قال تعالى على لسان يعقوب - عليه السلام - في هذه السورة «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّه»(٥) وحْدَه لا إلى أحد سواه، ولم يخرجه ذلك عن الصبر الجميل، وقال تعالى على لسان أيوب - عليه السلام - «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»(٦) مع وصف القرآن له بالصبر المقبول عند الله تعالى وهو الصبر الجميل بقوله: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»(٧) فَفَرْق بين الشكوى

---

(١) البقرة/ ١٧٧.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم/ ٣٩٩-٤٠١.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٣١.

(٣) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٣. (٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٧.

(٥) يوسف/ ٨٦. (٦) الأنبياء/ ٨٣. (٧) ص/ ٤٤.

رفع المسابهم

من الرب، والشكوى من قدرَ الرَّب، فيعقوب - عليه السلام - وكذا أيوب - عليه السلام - كل منهما شكى ما ألم به إلى الله، وليس من الله، ولقد رآى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحم إلى من لا يرحم، ثم أنشد:

وإذَا عَـرَتْك بليَّـةٌ فـاصبـرْ لهـا
صـبـر الكريم فـإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنَّمَـا
تشكو الرحيم، إلى الذي لا يرحم[١]

قال الإمام الماوردي: وفي الصبر الجميل وجهان:

(أحدهما) أنه الصبر الذي لا جزع فيه، قاله مجاهد، (الثاني) أنه الصبر الذي لا شكوى فيه[٢] وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الثّوري عن بعض الصحابة قال: يقال ثلاثة مِنَ الصَّبر، ألاّ تحدِّثَ بما يوجعُك، ولا بمصيبتك، ولا تزكّي نفْسك[٣].

الصبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى:

إن يعقوب - عليه السلام - يعلم أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسية تدعوه إلى إظهار الجزع، وهي قويّة، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفيْن، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة[٤]...

فإن المصيبة أو النازلة التي تعجز أسباب المؤمن أن تجد لها حلاًّ أو دَفْعاً، فإنه يلجأ إلى الله تعالى مسبب الأسباب مستعينا إياه عزو جل على ما نزل به، ولقد كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر، أي: أصابه أمر لا تقوم به أسبابه، قام إلى الصلاة ليقف بين يدي

---

(١) تهذيب مدارج السالكين/ ٢/ ٥٦٦. (٢) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٢.
(٣) تفسير الدر المنثور/ ٤/ ١٧. (٤) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٣٩٣.



المسبب سبحانه وتعالى يطلب منه العون والمدد[1] روي أحمد وأبو داود - رحمهما الله - عن حذيفة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - «كان إذا حزبه أمر صلى» وفي رواية «فزع إلى الصلاة»[2] ومن أجل ما تقدم فإن يعقوب - عليه السلام - أتبع قوله «فصبر جميل» بقوله: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» وهذه هي الجملة الثالثة في ردّه يخاطب بها ربه عزو جل، وهي عطف على جملة «فصبر جميل»، فقوله: والله المستعان» أي: المطلوب منه العوْن، وهو إنشاء منه - عليه السلام - للاستعانة المستمرة، وقوله: «على ما تصفون» أي: على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذبا وإظهار سلامته فإنه عَلَمٌ في الكذب، قال سبحانه: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ»[3] وهو الأليق بما سيجئ من قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا»[4] وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرّزْء فيه يأباه تكذيبه - عليه السلام - لهم في ذلك، ولا تساعده الصيغة، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير[5].

ولهذا فإنّ التعبير عما أصاب يوسف - عليه السلام - بقوله: «عَلَى مَا تَصِفُون» في غاية البلاغة لأنه كان واثقا بأنهم كاذبون في الصفة، وواثقا بأنهم ألحقوا ضرراً بيوسف - عليه السلام - فلما لم يتَعَيَّنْ عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجّها، لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه، ويعقوب - عليه السلام - يريد أن ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذبا[6]...

فقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أن يوسف - عليه السلام - لم يأكله الذئب، وأنهم دبّروا له مكيدة مّا، وأنهم يلفّقون له

---

(١) مستفاد من كلام الشيخ الشعراوي في تفسير لسورة يوسف شرائط مسجلة.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم (٤٧٠٣).

(٣) الصافات / ١٨٠. (٤) يوسف / ٨٣.

(٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٦٠.

(٦) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٠.



قصة لم تقع، ويصفون له حالا لم تكن[1] ولقد شبهت السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - والمبرَّأة بلسان القرآن العظيم، شبّهت حالها في حادث الإفك[2] المفترى بحال يعقوب - عليه السلام - قالت رضي الله عنها: «فو الله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: «فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستَعانُ على مَا تصفون»[3].

موقف الإخوة بعد سماع ردّ أبيهم على افترائهم وكذبهم:

سمع أبناء يقعوب - عليه السلام - رد أبيهم على ما جاءوه به من الكذب والبهتان «قال بل سوت لكم أنفسكم أمراً... الآية» وفهموا ما وراء هذا القول من تكذيبهم فيما ادعوه بشأن يوسف - عليه السلام - فتفرقوا عنه وهم سكوت صامتون... وسمعوا تكذيبه لهم ولم يتبرؤا مما أشار إليه في حقهم، فتحقق أنهم غير صادقين في نبئهم[4].

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٦.

(٢) تحدثت سورة النور عن حادث الأفك في الآيات من ١١-٢٦.

(٣) تفسير العلي القدير / ٣ / ٢٦٤.

(٤) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٢٥.



لماذا لم يَسْعَ يعقوب - عليه السلام - في طلب ابنه يوسف - عليه السلام - بعْد أن علم أنه حتى يُرْزق؟

يقول الإمام الفخر الرازي: وههنا بحث وهو أن الصَّبْر على قضاء الله تعالى واجب، فأمّاَ الصبْر على ظُلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيّما في الضَّرَر العائد إلى الغير، وها هنا إخوة يوسف - عليه السلام - لما ظهر كذبهم وخيانتهم، فَلِمَ صبَر يعقوب - عليه السلام - على ذلك ولم يبالغ في التَّفْتيش والبحْث سعْيا منه في تخليص يوسف - عليه السلام - عن البليَّة والشِّدَّة إن كان في الأحياء، وفي إقامة القصاص إن صَحَّ أنَّهم قتلوه، فثبت أن الصبر في هذا المقَام مذموم... ثم قال الإمام الفخر:

ومِمَّاَ يقوي هذا السؤال أنه - عليه الصلاة والسلام - كان عالماً بأنه حَيٌّ سليم، لأنه قال: «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث» والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحْي، وإذا كان عالما بأنه حَيٌّ سليم فكان من الواجب أن يسْعَى في طلبه، وأيضاً إن يعقوب - عليه السلام - كان رجلا عظيم القدْر في نفسه، وكان من بيْتٍ عظيم شريف، وأهل العِلم كانوا يعرفونه ويعْتقدون فيه ويعظِّمونَه، فلو بالغ في الطلب والتّفَحُّص لظهر ذلك واشتَهر ولَزَالَ وجه التّلْبيس، فما السبب في أنه - عليه السلام - مع شدَّةِ رغبته في حضور يوسف - عليه السلام - ونهاية حبه له، لم يطلُبْه؛ مع أنه كان من الواجبات، فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلا وشرعاً... ثم قال الإمام الفخر: والجواب عنه أن نقول لا جواب عنه إلا أن يقال إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه، وتغليظا للأمر عليه، وأيضاً، لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكّنُونه من الطلب والتّفحُّص، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدمُوا على إيذائه وقتله، وأيضاً، لعله - عليه السلام - علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحْنَة وأن أمره سيعظم بالآخرة - في نهاية

رفع المسا همة

أمره -، ثمَّ لمْ يُرِدْ هتْك أستار سرائر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأن أحد الوَلَديْن إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد، لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم، وإن انتقم فإنه يحترقُ قلبه على الولد الذي ينْتَقِم منه، ونظير ذلك ما أشار إليه الشاعر بقوله:

قومي قتلُوا أمَيْمَ أخي *** فإذا رميْتُ يُصيبُني سَهْمي

ولئن عفوْت لأعفُوَنَّ جَلَلاً *** ولئن سَطَوْتُ لُوهِنٌ عظْمي

فلما وقع يعقوب - عليه السلام - في هذه البليَّة رأى أن الأصْوَبَ الصبر والسكوت وتفْويض الأمْرِ إلى الله تعالى بالكليَّة[1].

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: كان يمكن ليعقوب - عليه السلام - أن يفْضَح أمر أبنائه بعد ما فعلوه بأخيهم يوسف - عليه السلام - لكن يوسف ابنه، وهم أيضا أبناؤه، قالو الرجل: أخوك قتَل ابْنَك، فأنشد يقول:

أقول للنَّفْس تأسَاءً وتعزيةً

إحدىَ يَديَّ أَصَابتْني ولمْ تُرِدِ

كِلاَهُما خُلْفٌ عن فقد صاحبه

هذا أخي أيْن أُوعده وذا ولدي[2]

والشيخ محمد طه الباليساني يضيف سببا آخر لعدم إرسال يعقوب من يبحث عن يوسف - عليهما السلام - فيقول: كان سيدنا يعقوب - عليه السلام - يعلم أن يوسف حيٌّ يُرْزَق، لمْ يُقتَل ولم يؤكل؛ فلماذا لم يرسل ليفتّشَ عنه في الصحراء؟

الجواب: نعم قد علم بذلك ولكن ربما كان يظن أنهم باعوه لقافلة مَرَّتْ بهم فذهبَتْ به حيث ذهبت، حيْث كان هذا الأمْرُ سائداً في زمانهم؛ أنَّ من تغلَّبَ على أحد يَسْتَرِقُّهُ وَيبيعه، وبقى هذا النظام سائداً إلى أن أبطله الإسلام، كما أبطل كل الأنظمة السائدة

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٠٦-١٠٧، وانظر: روح المعاني/ ٦/ ٣٩٣-٣٩٤.
(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



الفاسدة، فكان سيدنا يعقوب يعلم أنه حيّ، ولكنه لا يعلم أين هو، فلا فائدة في التفتيش عنه، ولعلمه هذا كان يتَحَسَّسُ أخباره من هناك ولم يكن مأيُوساً منه(١).

والإمام الطاهر ابن عاشور، يختار ما هو أقرب إلى السبب الثاني الذي ذكره الإمام الفخر فيقول: وإنما فوَّض يعقوب - عليه السلام - الأمر إلى الله تعالى ولم يَسْعَ للكَشْف عن مصير يوسف - عليه السلام - لأنه علم تعذُّرَ ذلك عليه لكبر سنِّه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك، وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف - عليه السلام - فأيس من استطاعته الكشف عن يوسف بدونهم، ألا ترى أنه لما وَجَدَ منهم فُرْصة قال لهم: «اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأَخِيه»(٢).

هذا، وبتدبُّر ما ذكره الإمام الفخر الرازي وغيره - فيما سبق - نجد أن الأسباب التي ذكروها في عدم سعي يعقوب - عليه السلام - للبحث عن يوسف - عليه السلام - تتمثل في الآتي:

(السبب الأول) أن الله تعالى منع يعقوب - عليه السلام - من الطلب تشديداً للمحْنة عليه وتغْليظا للأمْر عليه، وهذا السبب لا دليل يدل عليه من الوحي، فليس له سند قويٌّ يعتمد عليه.

(السبب الثاني) أن يعقوب - عليه السلام - خاف على يوسف - عليه السلام - أن يقتله إخوته لو علموا أنه يسعى في طلبه، وهذا السبب مردود، لأنه - عليه السلام - كان يمكن أن يستعين بمن يبحث عنه سراً من أفراد عشيرته أو غيرهم، حتى إذا وجده منعه منهم،

(السبب الثالث) أن يعقوب - عليه السلام - لم يردْ هتك ستر أولاده، وهذا السبب لا يتناسب وحال يعقوب مع ابنه الحبيب يوسف، وكان يمكن أن يبحث عنه سرّاً بواسطة المقربين منه من أفراد عشيرته فلا يعلم أحد حينئذ بما جرى.

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦١.
(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٠.



(السبب الرابع) أن يعقوب - عليه السلام - ظن أن إخوته باعوه فاسْتُرِقَّ وأخذ بعيداً ولا فائدة في البحث عنه، وهذا السبب الظّنّيُّ لا يمكن أن يمنع يعقوب - عليه السلام - من أن يرسل من يبحث عن حبيبه وصفيه يوسف - عليه السلام - حتى ولو كلفه ذلك ما كلف من بذل مال وطول بحْث.

أما السبب الخامس - وهو من الأسباب التي ذكرها الإمام الفخر الرازي وهو أن يعقوب - عليه السلام - علم أن الله يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم في نهاية أمره، فهذا أوجه الأسباب، لأن هذا السبب له ما يدل عليه من الوحْي، فهو راجع إلى تأويل يعقوب - عليه السلام - لرؤيا يوسف - عليه السلام - وهذا هو اللائق بحال يعقوب النّبي الفَطِنِ والرسول المجْتَبَى، ولذلك فقد ظل ينتظر لقاءه المرتقب بيوسف، ولم ييأس من ذلك لحظة، حتى إننا نجده - عليه السلام - يأمر أبناءه بالبحث عن يوسف - عليه السلام - وأخيه (بنيامين) بعد أن أخذه يوسف معه في دين الملك، فقال لهم: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»(١).

ثم نجده - عليه السلام - في نهاية القصّة يشير إلى ذلك فيُذَكّرُ من عنده من أهله بعد أن جاءه البشير بقميص يوسف - عليه السلام - بأنه على علم من الله تعالى لا يعلمونه في أمر يوسف، قال الله تعالى: «فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٢) يشير - عليه السلام - إلى قوله لهم قبل ذلك «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٣) وهذا العلم من الله تعالى لعبده يعقوب - عليه السلام - لا يكون إلا عن وحْي أو إلهام، فقد علم أن رؤيا يوسف حقّاً، ثم أوّلها وَحْياً، هذا والله أعلى وأعلم.

---

(١) يوسف/٨٧. (٢) يوسف/٩٦.

(٣) يوسف/٨٦.



المضمون العام للآية الكريمة:

حاول الإخوة أن يوهموا أباهم بصدقهم فيما أخبروه عن يوسف فجاءوا على قميصه بدم غير دم يوسف، يدعون كذباً أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلاً على كذبهم، فقد وضع الدم على ظاهر القميص وضعاً متكلفاً ولو كان من أثر افتراس الذئب لكان القميص ممزقاً والدم متغلغلاً فيه، فإنهم لم يحسنوا سبك الأكذوبة، فسقطوا في الفخ الذي نصبوه لأبيهم سقوطاً مدوياً، ولهذا لما نظر يعقوب في القميص وتفحص فيه أيقن كذبهم وأن هذا الدم الذي وضع على قميص يوسف ليس بدمه، ثم وجه كلامه إلى الأبناء فقال:

بل سولت لكم أنفسكم أمراً، أي: زينت لكم أنفسكم أمراً سيئاً فعلتموه بيوسف لتتخلصوا منه، ثم خاطب يعقوب - عليه السلام - نفسه فقال: فصبر جميل، وهو ما لا اعتراض فيه على الله تعالى ولا جزع ولا فزع فيه، ثم اتجه إلى ربه ومولاه قائلاً: (والله المستعان على ما تصفون) أي: على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذباً وإظهار سلامته، فأستعين بالله تعالى لا بغيره.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - لا توجد جريمة كاملة، إذ لو دقق في أي جريمة لوجد دليل يدل على المجرم الذي ارتكبها.

٢ - اجتهاد المرء بنفسه بلا عون من الله تعالى يقضي عليه حتماً.

٣ - الحكم بالقرينة جائز بشرط أن تكون القرينة بحيث لا تبقى مجالاً للشك، وهذا ما فعله يعقوب - عليه السلام - بعد أن تفحص قميص يوسف.

٤ - الأنبياء والمرسلون وأتباعهم المخلصون يُعْلِمون المجرم بجريمته ولكن في إطار يليق بمقام النبوة والرسالة، (بل سولت لكم أنفسكم أمراً).



٥ - الصبر الجميل من صفات الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً»(١).

٦ - المصيبة التي يعجز المؤمن عن دفعها بأسبابه العادية، يلجأ إلى الله تعالى مسبب الأسباب ليعينه عليها ويخلصه منها.

٧ - الكذب مهما كثر تمويهه بالصدق، فلا بد يوماً من تعريته وفضحه، فحبل الكذب قصير، والباطل مفضوح مكذوب.

٨ - لطف الله تعالى في الابتلاء حيث يلقي في قلوب عباده ما يعزيهم، وَتَأمّل يعقوب لو لم يسبق بلواه بيوسف رؤيا يوسف، إذاً لكانت الفاجعة أشد، والمصيبة أوقع.

٩ - الإيمان بالله تعالى له أكبر الأثر في النفس الإنسانية، فهو يمدها بالعزاء عند حلول المصائب، ويهبها الطمأنينة لتصمد أمام ما يصادفها من كوارث وأهوال.

---

(١) المعارج/ ٥.

رفع المسابهم

«الفصل الخامس»

(من الباب الأول)

من الحُبّ إلى القصْر
حتى المراودة

من الآية رقم (١٩)

إلى الآية رقم (٢٣)



« آيات الفصل الخامس »

قال الله تعالى :

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

رفع المسا هم

رفع المسهم

«الآية التاسعة عشر»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)﴾

ثانياً - القراءات:

قوله: «يَا بُشْرَى» بغير ياء على فُعْلَى:

قرأها الكوفيون، وأمال الراء حمزة والكسائيّ، وفتحها عاصم، والوجه في إفرادها عند ياء المتكلم هو أنَّ «بشرى» نكرة هٰهُنَا، فناداها كما تُنَادَى النكرات، نحو قولك: يا رجلاً، ويا راكباً، إذا جعلْت النداء شائعاً، فيكون موضعه نَصْباً مع التنوين، إلا أنّ فُعْلَى لا سبيل إليها للتّنْوين.

ويجوز أن يكون (بُشرى) منادي معرفةً تعرَّفَ بالقَصْد، نحو: يا رجل فيكون (بشرى) في موضع ضم.

والمعنى في نداء البشرى أن هذا أو انك فاقْرُبي.

وأما الإمالة في (بُشرَى) فَحَسَنَة؛ لأن الألف فيها ألف تأْنيث، فيجوز فيه الإمالة، وأما ترْك الإمَالة فهو الأصل، وَحَسَّنَهُ أنّ الرّاء المفتوحة تجري مجري الحرف المستعلى.

وقرأ الباقون (يا بشراي) بالألف، والوجه أن (بشرى) مضافة إلى ياء المتكلم، وهو منادى مضاف، فموضعه نصب[١]

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ» الوارد هو من يتقدم القوم فيسقى لهم[٢]

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٤-٦٧٥، وانظر الدر المصون / ٦ / ٤٥٩-٤٦٠، والحجة في القراءات السبع (لابن خالويه) / ١٩٤ والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها (للقيسي) / ٢ / ٧-٨.

(٢) المفردات (كتاب الواو) / ٥١٩.



قوله تعالى: «فَأَدْلَى دَلْوَهُ» نقل الواحدي عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دَلْوَه، إذا أرسلها في البئر، ودلاَّها، إذا نزعها من البئر، يقال: أدْلَى يُدْلي إدْلاَءً، إذا أرْسَل، وَدَلاَ يَدْلُو دُلُوّاً، إذا جَذَبَ وأخرج(١)، والدّلو: ظرف كبير من جلد مخيط له خرطوم في أسفله يكون مطويّا على ظاهر الظرف بسبب شدِّه بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو، والدلو مؤنثة(٢) وجمعها دِلاء.

قوله تعالى: «قَالَ يَا بُشْرَى» البشرى: الخبر السار، يقال: أبْشَرْت الرجل وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْته، أخبرته بِسَارّ بَسَطَ بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّتْ انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر(٣) وظهر أثر ذلك على بشرته فاستنارت.

قوله تعالى: «هَـذَا غُلاَمٌ» الغلام: الطَّارُّ الشارب، يقال: غلامٌ بَيِّنُ الغُلُومة والغُلُوميّة، والجمع غِلْمَة وغلمان(٤) والغلامة أنثى الغلام.

قوله تعالى «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً» الإسرار خلاف الإعلان، قال تعالى: «سِرًّا وَعَلاَنِيَةً»(٥) ويستعمل في الأعيان والمعاني(٦)

والبضاعة: القطعة الوافرة من المال تُقْتَنَى للتجارة، يقال: أبْضَعَ بضاعة وابْتَضَعَها، والأصل في هذه الكلمة البَضْع، وهو جُمْلَة من اللحم تُبْضَع، أي: تقطع، يقال: بَضَعْتُهُ وَبَضَّعْتُه فابْتَضَعَ وَتَبَضَّعَ، كقولك: قَطَعْتُهُ وقَطَّعْتُهُ فَانْقَطَعَ وَتقطّع(٧).

رابعاً: الإعراب:

قوله تعالى: «وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ» الوار استئنافية، و(جاءت سيارة) فعل وفاعل، (فأرسلوا) عطف على جاءت، والواو فاعل، و(واردهم) مفعول به، (فأدلى) عطف، و(دلوه) مفعول به.

---

(١) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٠٨. (٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤١.
(٣) المفردات (كتاب الباء) / ٤٨.
(٤) المفردات (كتاب الغين) / ٣٦٤. (٥) البقرة / ٢٧٤.
(٦) المفردات (كتاب السين) / ٢٢٨.
(٧) المفردات (كتاب الباء) / ٥٠.



قوله تعالى: «قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ» منادى نكرة مقصودة، نادى البشرى حيث كانت كأنه يقول لها تعالى فهذا وقتك، و(هذا) مبتدأ و(غلام) خبر.

قوله تعالى: «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» (وأسرّوه) فعل وفاعل ومفعول، أي: أخفوه، والضمير يعود للوارد وأصحابه، و(بضاعَةً) نصب على الحال، أي: أخفوه متاعا للتجارة، «والله عليم بما يعملون» (والله عليم) مبتدأ أو خبر، و(بِمَا) متعلّقان بـ(عليم) و(يعملون) فعل وفاعل.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □



سادساً - التفسير والبيان:

الفرج والالتقاط:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾

(لمحة تاريخية): كانت القوافل التي تأتي من الشام إلى مصر قديما تجتاز «الأُرْدُن» جنوب بحيرة «طبرية» فإلى «بيسان» إلى «جنين» إلى «دوثان» إلى «السامرة» وهي سَبْسَطِيَّة، إلى «جَلْجُوليّة» إلى «يافا» إلى «غزّة» وقد لا تأتي إلى «يافا» بل تذهب من «جلجولية» إلى «اللّدّ» إلى «غزّة» إلى «العريش» إلى صحراء «التِّيه» إلى أن تصل لمصر(١).

هذا، ولقد بقي يوسف - عليه السلام - وحيداً في غَيابة الجب مقطوعا عن كل الخلق ينتظر الفرج من الله تعالى الذي لطف به وآنَسه وبشَّرَه بما يؤول إليه حاله في المستقبل، من مكان كريم، ومكانة شريفة عالية.

وجه المناسبة:

ولما تم أمرهم هذا، وشبُّوا على أبيهم نار الحزْن، التَفَتَتِ النفس إلى الخبر عن يوسف - عليه السلام - فيما أشار إليه قوله «لَتُنَبِّئَنَّهُم» فقال تعالى مخبراً عن ذلك في أسبابه:

«**وجاءت سيارة**»(٢) وهذا شروع فيما جرى ليوسف - عليه السلام - في الجب بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه، أي: وجاءت إلى الجب سيارة(٣) وهذه الجملة - «وجاءت سيارة» - عطف على قوله «وجاءوا أباهم عشاء يبكون» عطف قصة على قصة(٤) والتعبير بالمجئ «وجاءت...» وفي إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما،

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٣٣-٣٣٤.
(٢) نظم الدرر/ ٤/ ١٩. (٣) روح المعاني/ ٦/ ٣٩٤.
(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤١.



إيماء إلى كونه - عليه السلام - في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر[١] وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه آية من لطف الله به[٢] وقال «سيارة» ولم يقل (سائر)، أو (سائرون) لأن السائر هو من يفعل السير ولو مرة واحدة، فسيارة مبالغة في السير، يعني أنهم أناس يسيرون دائما بين البلدان البعيدة، وكانوا في طريقهم من جهة «مدين» إلى «مصر» باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى على لسان قائلهم «يلتقطه بعض السيارة»[٣] قال الإمام الألوسي: والظاهر أن الجب كان في طريق سيْرهم المعتاد[٤].

قال تعالى: «فأرسلوا واردهم» فَذَكَّرَ بعد ما أنَّث في - وجاءت - لأن السيارة في المعنى، الرجال، ولو قال: فأرسلتْ واردها لكان على اللفظ مثل (وجاءت)، والوارِدُ هو الذي يرد الماء ليأتي به إلى بقيَّة القوم، وربما يُعيَّنُ في القافلة لتكون هذه مهمته فيها بناء على معرفته بالأماكن التي يوجد فيها الماء. وكان اسمه كما ذكر أكثر المفسرين مالك بن ذعر من العرب العاربة[٥].

قال تعالى: «فأدلى دلوه» يقول: أرسل دلوه في البئر، يقال: دليْتُ الدَّلْو في البئر إذا أرسلتها فيه، فإذا استقيْتَ فيها قلت: دَلَيْتُ أدلُو دُلُواً، وفي الكلام محذوف استغني عنه بدلالة ما ذُكر عليه فتُرِك، وذلك فأدلى دلوه فتعلق به يوسف فخرج[٦].

هذا، ونلحظ من التعبير بفاء السرعة أول الجملتين «فأرسلوا»، «فأدلى» أن الوقت بين مجئ السيارة وبين عثور المدْلي على يوسف - عليه السلام - لم يستغرق إلا زمنا قليلاً، بمعْنى أنهم جاءوا، وَتَوّاً أرسلوا واردهم ولم يتأخَّروا عن إرساله، وهذا لطف من الله تعالى بعبده يوسف - عليه السلام -.

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤١.

(٣) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦١.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٣٩٤. (٥) فتح القدير/ ٣/ ١٤.

(٦) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٦٦-١٦٧.



قوله تعالى: «قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ» «قال» استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال، «يا بشرى هذا غلام» نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه ورفْقته، كأنه نزّلها منزلة شخص فناداه، فهو استعارة مكْنِيَّةٌ وتخييليّة، أي: يا بشرى تعالى فهذا أوان حضورك، وقيل: المنادى محذوف كما في «يا ليت» أي: يا قوم انظروا واسمعوا بشراى، وقيل: إن هذه الكلمة تستعمل للتّبشير من غير قصد إلى النداء[١] قال قتادة: بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً، وقال السدي: نادى رجلا اسمه بشرى، والأول هو قول أكثر المفسرين، قال النحاس: قول قتادة أولى، لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا، وإنما يأتي بالكناية كما قال عزو جل: «وَيَوْمَ يعَضُّ الظالم على يديه» وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده «يا ليتني لم أتَّخذْ فُلاناً خليلاً»[٢].

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: وأبْعَدَ السدي في زعمه أن بشرى اسم رجل[٣].

وقال الإمام الألوسي: وزعم بعضهم أن بشرى اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه، وروي هذا عن السدي، وليس بذاك[٤].

وقال الإمام ابن كثير: وهذا القول من السدي غريب، لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - والله أعلم[٥].

والغلام: الطَّارُّ الشَّارب أي الذي نبت شعر شاربة تَوّاً، والكهل ضد، وقيل: هو من حين يولد إلى أن يَشِبَّ، والجمع أغْلِمَةٌ وغِلْمَةٌ وغِلْمَان، ويقال للأنثى غلامة، والاسم، الغُلُومة والْغَلُومِيَّةُ والغُلَامِيَّةُ، قال تعالى: «أنى يكونِ لي غلام»... وقال في قصة يوسف «هذا غلام»[٦].

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٣٩٤. (٢) تفسير القرطبي / ٩ / ١٥٣-١٥٤، والآيتان من سورة الفرقان / ٢٧-٢٨.

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٢٩١. (٤) روح المعاني / ٦ / ٣٩٤.

(٥) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٢.

(٦) انظر المفردات (كتاب الغين) / ٣٦٤، واللسان / ١٢ / ٤٤٠ (حرف الميم) والقاموس المحيط (فصل الغين) / ١٤٧٥.



كم كان عمر يوسف حين أخرج من الجب؟:

اختلف العلماء في تقدير عمر يوسف - عليه السلام - حين أخرج من الجب ثم اشتراه العزيز، فمنهم من قدره بثلاث عشر سنة، وآخرون بسبع عشرة سنة، وذهب البعض إلى أن عمره كان ثلاث سنوات، وغيرهم إلى أنه كان ابن سبع سنين، وقيل غير ذلك[٦] قال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: ويمكن تقدير عمره - عليه السلام - بعدَّة طرُق منها:

● سرْد رؤياه - عليه السلام - على أبيه - عليه السلام - سرْدَ العارف المتمكّن، وتنبيه والده عليه إلى عدم حكايتها لإخوته.

● كيد إخوته له وغيرتهم منه، فلو كان طفلاً - ابن ثلاث أو سبع سنين مثلا - لما أثار فيهم هذه الغيرة الشديدة التي دفعتهم للتآمر عليه، والكبير البالغ لا يغار مطلقا من حبّ والديه للأطفال الصغار، بل إنه يشاركهم في هذه المحبة الطبيعيّة فضلا عن لوم الوالديْن عليها، وهذا يؤكد أنه كان في سِنّ دون البلوغ، وهذا هو ما أثار حفيظتهم عليه، ولا يعقل أن يثور عصبة من الرجال أولى القوة والبأس لأن والدهم يحبُّ طفْلا أكثر من حبّه لهم.

● إن إخوته طلبوا من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب ويشاركهم رياضَتَهُم وسبْقهم ورمْيَهُم، وهذا لا يدل على أنه كان طفلا أو صَبِيّاً، بل غلاما دون البلوغ.

● إن رائد الماء للقافلة حدَّدَ لنا مرحلة السن بأنها هي المقدرة (للغلام) وهو لا يطلق بحال على من تعدى مرحلة البلوغ، كما لا يطلق على مرحلة الطفولة الأولى.

● إن إخوته حين اجتمعوا به في مصر وكان - عليه السلام - عزيزها، لم يعرفوه، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت مفارقتهم له قد تمَّتْ في سِنّ سابقَة لمرحلة التَّغْيير في الصورة - مرحلة البلوغ - إذ أن التَّعرف على الشخص البالغ سهل مهما غاب الإنسان عنه، وخاصة إذا كانت مدة الغيبة لم تتجاوز مرحلة الشباب، ثم قال: كل ذلك يجعلنَا نرجّح تقدير عمره - عليه السلام - بحوالي ثلاث عشرة سنة حين أخرج من الجب ثم اشتراه العزيز[١].

---

(٦) انظر تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٣، وتفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٦٦، وتفسير البحر/ ٢٩٠.

(١) يوسف بن يعقوب/ ٦٨-٦٩.



وقريبا من هذا التقدير يقول الشيخ سيد قطب: لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته في مصر، أي أنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد، فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمى فتًى فشابّاً فرجلا، وهي السن التي يجوز أن يقول فيها يعقوب - عليه السلام - (وأخاف أن يأكله الذئب)[1]. وقال الحسن: كان سنه ثنتا عشرة سنة، هذا، ومن نظر في الآيات ظهر له أن الراجح كونه - عليه السلام - لم يبلغ الحلم إذ ذاك.

قوله تعالى: «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً» بضاعة: منْصوب على الحال من يوسف، ومعناه مَبْضُوعاً، ومعنى (أسروه) أخفوه، والضمير للسيارة لا محالة، أي: أخفوا يوسف -عليه السلام- أي خبر التقاطه خشية أن يكون من وِلدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردَّى في الجب، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم لأنهم تَوَسَّمُوا منه مخائل أبناء البيوت، وكان الشأن أن يُعَرِّفوا من كان قريبا من ذلك الجب ويعلنوا كما هو الشأن في التعريف باللقطة[2] ولكنهم أخفوه واعتبروه بضاعة سِرِّيَّة من جملة تجارتهم، والبضاعة: ما يقطع من المال ويفرز للاتجار به، مشتَقٌّ من البَضْع وهو الشَّقُّ والقطع، وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة، كما روي عن مجاهد، أو أن الضمير في (أسرُّوه) لإخوة يوسف كما روي عن ابن عباس، فهو خلاف الظاهر[3].

قوله تعالى: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» معترضة، أي: والله عليم بما يعمله هؤلاء السيارة من استرقاق من ليس لهم حق في استرقاقه، ومن كان حقه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم، لأنهم قد علموا خبره، أو كان من حقّهم أن يسألوه لأنه كان مستطيعاً

---

(1) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٩.

(2) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٢-٢٤٣.

(3) تفسير المنار / ١٢ / ٢٧٠، وانظر تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٧، وتفسير القاسمي / ٦ / ٢٠٦، وانظر التفصيل في تفسير الطبري / ٧ / ١٦٨-١٦٩.



أن يخبرهم بخبره[1] والله عليم بما يعمله إخوة يوسف وأمْرهم مع أخيهم يوسف وأبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكله الذئب إياه معلوم، وإنه كيد باطل، وحكمة الله تعالى فوق كل ذلك[2] والله عليم بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه[3] فكل ما فعله الإخوة مع يوسف - عليه السلام - ونيَّة القافلة من استرقاقه وبيعه فيما بعد، يجرى كل ذلك بعلم الله تعالى وإرادته، وذلك ليسير يوسف - عليه السلام - في بحر من الأقدار إلى أن يظهر حكمة الله تعالى فيها، ويمتحنه الله تعالى في السَّرَّاء والضرَّاء ليسْتعدَّ لما يريد منه من حمل الرسالة، فإن الحديد ما لمْ يُحْمَ لم يُعَدَّل ولا يُتَّخَذُ منه الْعَتَاد[4] وفي قوله: «والله عليم بما يعملون» وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عُرْضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبَّرُوا في ذلك من الحيل[5] وفيه كذلك تسلية للنبي - ﷺ -.

قال الإمام الطبري: وقوله: «والله عليم بما يعلمون» يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يعمله باعة يوسف ومشتروه في أمره لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولكنّه ترك تغيير ذلك ليمضي فيه - يوسف - وفيهم حكمه السابق في علمه، ولِيُرِي إخوة يوسف ويوسف وأباه قدرته فيه، وهذا وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره، فإنه تذكير من الله تعالى نبيه محمدا ﷺ، وتسلية منه له عما كان يلقي من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه - في الدعوة إلى الله - يقول له: فاصبر يا محمد على ما نالك في الله فإني قادر على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنت قادراً على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن ترْكي ذلك لهوان يوسف على، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته، فكذلك تركى تغيير ما ينالك

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٣.

(٢) انظر تفسير المنار / ١٢ / ٢٧٠. (٣) فتح البيان / ٦ / ٣٠٣.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦٥. (٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٦١.



به هؤلاء المشركون لغَيْر هَوَ ان بك عليّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصير أمرك وأمرهم إلى عُلوّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسُّؤدُدِ عليهم وعلو يوسف عليهم(١).

هل التقطت السيارة يوسف - عليه السلام - في نفس اليوم الذي ألقي فيه؟:

الظاهر أن السيارة التي أخرج واردها يوسف – عليه السلام – من الجب قد جاءت في نفس اليوم الذي أُلقي فيه لأن الطريق العام لا يخلو عادة من المسافرين في يوم بأكمله، يقول الدكتور حسن محمد باجودة: ألَمْ نفهم قبل من لفظة «بعض» في قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر: «وألقُوهُ في غَيابَةِ الجُبّ يَلتَقِطهُ بَعضُ السيّارة» أن تلك الطريق عامرة بالسيارة، ولو فرض أن واحدة منها لمْ تحتجْ للماء وأخطأت الغلام يوسف، فإن الثانية أو الثالثة، اللّتيْن لن يطول تأخرهما لن تعدم الحاجة إلى الماء، وبالتالي لن تخطئ الغلام يوسف، وهذا ما نعتقد أنه حدث فعلا، وأن السيارة التي أرسلت بِوَارِدِها كانت أول سيارة تَمرّ، ألا يكفي الوقت الذي قام فيه الإخوة بالذهاب إلى الجب، ووضع يوسف في غَيابته، وتركهم يوسف حتى مجئ السيارة أن يكون ذلك الوقت قدْدَنا من وقت القَيْلُولة، وأن على السيارة بالضرورة أن تعرّج على المكان القريب من الجبّ لِلْمَقيل؟ بطبيعة الحال كل ذلك يكفي لأن يكون الوقت على أقل تقدير قدْدنا من القيْلولة، وَعَرَّجَت القافلة، وكانت الحاجة بطبيعة الحال إلى الماء مُلِحَّة، وبمجرّد أن وضعوا الرحال أرسلوا واردهم إلى الجب، ووجد الغلام يوسف وعاد به إلى السيارة(٢).

---

(١) تفسير الطبري/٧/١٢/١٧٠.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/١٧٧.



المضمون العام للآية الكريمة:

بقي يوسف - عليه السلام - وحيدا في غيابة الجب مقطوعا عن كل الخلق ينتظر الفرج من الله تعالى الذي لطف به وآنسه وبشره بمستقبل عال كريم، حتى جاءت قافلة بقدر الله تعالى فنزلوا قرب البئر وأرسلوا واردهم ليجلب الماء لهم من البئر، فلما أدلى دلوه فيه تعلق به يوسف - عليه السلام - فخرج فلما رآه المدْلي فرح به فرحا كثيراً، فلم يملك نفسه فنادى يا قوم بشرى لكم هذا غلام وجدته، فأخذوه وأخفوه عن الناس واتخذوه بضاعة من جملة تجارتهم، والله عليم بما يعلمون بيوسف - عليه السلام - سواء إخوته أو رجال السيارة، كل ذلك يجري بعلم الله تعالى وإرادته، وحكمته ليتم ما قدره الله له في رؤياه - عليه السلام.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إن مجئ السيارة وإنقاذ يوسف من البئر تدبير خفي من الله تعالى ولطف منه جل شأنه بعبده يوسف - عليه السلام -.

٢ - فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا، وهكذا كان الفرج والالتقاط ليوسف - عليه السلام - بعد شدة الكرب في البئر.

٣ - الفرج من الله تعالى قد يحصل من حيث لا يحتسب الإنسان.

٤ - كل شيء يجري بقضاء الله تعالى وقدره وعلمه وحكمته.

٥ - أن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره كما حدث للوارد.

٦ - جواز الفرح بما يسر والإعلان عنه.

٧ - البشرى قد يعقبها الحزن والعزة قد يعقبها الذل.

٨ - قد يكون الأمر ظاهره البلاء والشدة، وباطنه في قدر الله تعالى أنه سبيل إلى إتمام النعمة.



«الآية العشرون»

(وبيع يوسف السيد الحرّ الكريم بن الكرماء كما يباع العبيد)

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وَشَرَوْه» شَرَى بمعنى اشترى، ومنه قول الشاعر:

وَلَوْ أن هذا المَوْتَ يقْبَلُ فِدْيَةً *** شريتُ أبا زيد بما ملكت يدي

وبمعنى باع، ومنه قول الشاعر:

وَشَرَيْتُ بُرْداً ليتني *** من بعد بُرْدٍ كنت هامه

قوله تعالى: «بثَمَنٍ بَخْس» الثمن: ثمن المبيع، والبخس: مصدر بمعنى المبخوس، تسميَة للمفعولية بالمصدر، مبالغة كأنه نفس البخْس وعينه[1].

قوله تعالى: «دَرَاهِم مَعدُودَة» (الدِّرْهَم): قطعة من فضة مضروبة للمعاملة (ج) دراهم[2]. و(معدودة) تعبير عن القلة بكونها معدودة لأنهم كانوا لا يزنون منها إلا ما بلغ الأوقية وهي أربعون درهما ويعدّون ما دونها[3].

رابعاً - الإعراب:

قوله تعالى: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» الواو عاطفة، و(شروه) فعل

(١) انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٤٢-٤٣ والدر المصون / ٦ / ٤٦٠-٤٦١.

(٢) المعجم الوسيط / ١ / ٢٨٢.

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٤٣.



وفاعل ومفعول، أي: باعوه، و(بثمن) متعلقان بشروه، و(بخْس) صفة، و(دراهم) بدل من ثمن، و(معدودة) صفة.

قوله تعالى: «وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» كان واسمها، و(فيه) متعلقان بمحذوف حال، وقال أبو حيان: «متعلقان بأعنى مضمرة، أو بمحذوف يدل عليه من الزاهدين، أو بالزاهدين، لأنه يتسامح في الجار والمجرور والظرف» و(من الزاهدين) خبر كانوا.

وقال ابن هشام: وقول آخر «وكانوا فيه من الزاهدين» إن (في) متعلقة بزاهدين المذكور، وهذا ممتنع إذا قدَّرْت أل موصولة، لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول فيجب حينئذ تعلقها بأعنى محذوفة، أو بزاهدين محذوفاً مدلولا عليه بالمذكور، أو بالكوْن المذكور الذي تعلَّقَ به من الزاهدين، وأمّا إنْ قَدَّرت أل للتعريف فواضح[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات:

عود الضمير في «شروه» والتحقيق عمن باع واشترى يوسف - عليه السلام -:

ذهب كثير من أهل التفسير إلى أن إخوة يوسف هم الذين باعوه بثمن بخْس للسيارة، فعن مجاهد في قوله (وشروه) قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرج المُدْلي دلوه. وقد تعلق به يوسف – أي أن إخوة يوسف كانوا بقرب الجب فلما رأوا الوارد قد أخرجه قالوا هذا عبدنا قد أوثقناه فباعوه للمدلي وأصحابه، وروي مثل هذا عَن ابن عباس – رضي الله عنهما –[2].

والإمام ابن جرير الطبري اعتبر أن هذا الاتجاه هو الأولى، فقال: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويل ذلك، وشروا إخوة يوسف يوسف بثمن بخس، – أي باعوه – وذلك أن الله عزو جل قد أخبرعن الذين اشتروه أنهم أسروا شراء يوسف من أصحابهم خِيفة أن يستشركوهم بادعائهم أنه بضاعة، ولم يقولوا ذلك إلا

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٦٣.

(١) انظر الدر المصون/ ٤/ ١٨، وتفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٧٠-١٧١.



رغبة فيه أن يخلص لهم دونهم، واسْتِرخَاصاً لثمنه الذي باعوه به، لأنهم ابتاعوه، كما قال جل ثناؤه (بثمن بخس) ولو كان مبتاعوه من إخوته فيه من الزاهدين لم يكن لقيلهم لرفقائهم هو بضاعة معنى، ولا كان لشرائهم إياه وهم فيه من الزاهدين وجه، إلا أن يكون مغلوبا على عقولهم، لأنه محال أن يشتري صحيح العقل ما هو فيه زاهد من غير إكراه مكْرِهٍ له عليه، ثم يكذب في أمره الناس بأن يقول: هو بضاعة، لم أشتره مع زهده فيه، بل هذا القول قول من هو بسلعته ضنين، لنفاستها عنده، ولما يرجو من نفيس الثمن لها، وفضل الربح[1].

وذهب **كثير من أهل التفسير** أيضا إلى أن إخوة يوسف لم يبيعوا أخاهم يوسف وإنما الذي باعه هم السيارة، فعن قتادة - رضي الله عنه - في قوله: «وشروه» بثمن بخس» قال: وهم السيارة الذين باعوا يوسف[2].

الردّ على من قال بأن إخوة يوسف هم الذين باعوه للسيارة:

يقول الأستاذ عبدالوهاب النجار: كثير من الناس حتى بعض العلماء يقولون: إن إخوة يوسف هم الذين باعوه للسيارة، وعبارة التوراة لا تساعدهم، ونظم القرآن الكريم لا يساعد على ذلك، لأنه ذكر السيارة وواردهم ولم يَعُدْ إلى ذكر إخوة يوسف في هذا المقام، والذي في التوراة أن إخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب جلسوا للطعام، ورأوا قافلة من الإسماعيليين تقصد مصر ومعهم الكثيراء، والبلسان والطيب، وجاءت قافلة أخرى من المديانيين، فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للإسماعيليين، وأن يهوذا أشار على إخوته ألا يتركوا يوسف في الجب وأن يبيعوه، ولما جاء رأو بين إلى الجب لم يجد يوسف فمزَّق ثيابه وبكى، وهذا كله ينْفي ما اشتهر من أنهم باعوه، والمفسرون يخبطون في هذا كثيراً، ثم تقول التوراة: وباع الإسماعيليون يوسف في مصر[3].

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٧١.

(٢) الدر المنثور/ ٤/ ١٨.

(٣) قصص الأنبياء (عبدالوهاب النجار)/ ١٥٦/ ١٥٧.



ويقول الشيخ عبد الله العلمي:

إن أصل القول بأن إخْوة يوسف باعوه للسيارة هو في سفر التكوين (تك ٣٧ :٣٨) وليس من مصدر آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم[١] ولا يوجد حديث صحيح في هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها، والقول بأن الذين باعوه عائد على السيارة يتبين من ظاهر الآية للآتي:

(أ) إن الضمير في (شروه) عائد على السيارة، لأنها أقرب مذكور، وإنما أعاد الضمير عليها مذكرا لأنها بمعنى الجمع أو القافلة أو الرجال المسافرون، ومما يؤيد رجوع ضمير (شروه) للسيارة، رجوع الضمائر قبله إليها في قوله «فأرسلوا» وقوله «وأسروه» فعود الضمائر مرَّة على السيارة ومرَّة على الإخوة يوجب تعقيداً في التركيب، وبالنتيجة يجب المشْيُ مع الظاهر، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس، والله أعلم.

(ب) إنّ الله تعالى يقول: « شروه، واشتروه» فإذاً الصَّفْقَةُ واحدة لا ثاني لها.

(ج) إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطا تبعاً لتوراة اليهودي، فيقولون: إن الذين شروه هم إخوته: شروه للسيارة، وبالطبع اشترته منهم السيارة وكانت صفقة هذه المقايضة في فلسطين، فلأجل رفْع أو دفْع هذا التَّوهم، أقْحَمَ الله لفظ (من مصر) ليدلنا على أن الحادثة واحدة، لم يُشْرَ ولم يُشْتَرَ إلا مرّةً واحدة، فالشارون هم جماعة السيارة، والمشتري هو عزيز مصر، والحادثة لم تكن في فلسطين، بل في الديار المصرية، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة، بل تُعَيّنْ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون، وإن عزوه لابن عباس[٢].

ويقول الأستاذ محمد طه الباليساني: موافقا لما قاله الشيخ عبدالله العلمي، وأما ما قيل من أنهم - السيارة - حينما وجدوه في البئر عثر عليهم إخوته وباعوه للقافلة

---

(١) لعل هذا من وضعهم الحديث في التوراة إذ أورد عبد الوهاب النجار آنفاً نَصّاً للتوراة ليس فيها ذلك.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٥٠-٤٥١.



وقالوا لهم إنه سارق فراقبوه، وقالوا ذلك حتى يشدِّدُوا عليه الرقابة مخافة الفرار والرجوع إلى أبيه فلذا زهدوا فيه وباعوه بهذا الثمن، فيخالف نظم القرآن، وإنه من اختلاق الاسرائيليات، فلا يجوز الاعتبار به ولا ذكره إلا للتنبيه على كذبه وافترائه(١).

والأستاذ أحمد عز الدين خلف الله يرد على القول بأن إخوة يوسف هم الذين باعوه من وجوه:

(الأول): أن الإخوة بهذا التصرف إنما يعرِّضون أنفسهم للافتضاح، وقد يكون في القوم من يعرفهم فيُعْلن أمام رؤوس الأشهاد أنهم كاذبون وأنهم إنما يبيعون أخاهم، وهذا من أشدِّ العار.

(الثاني): أنهم يحرصون كل الحرص على إخفاء ما فعلوه مع يوسف عن أبيهم، وبنوا تدبيرهم كله على هذا الأساس، فيكف يعلنون أمام رجال القافلة أنَّه عبد ثم يبيعونه للقافلة، ولا يخلو الأمر من بلوغ الخبر لأبيهم ولو بعد عودة القافلة، أو في أي ظرف آخر.

(الثالث): أن الإخوة يريدون التخلُّص من يوسف، وقد حصل المطلوب، ولم يقصدوا بيعه للحصول على دراهم معدودة لا قيمة لها بإزاء ما يترتّب عليها من الفضائح التي يريدون التَّستُّرَ عليها...، والمناسب للسياق ما ذكرناه(٢).

والإمام برهان الدين البقاعي يقول: «وكانوا فيه من الزاهدين» أي كمال الزهد حتى رغبوا عنه فباعوه بما طَفّ، والزُّهْدُ: انصراف الرغبة عن الشيْء إلى ما هو خير منه عند الزاهد، وهذا يُعَيِّنُ أنَّ الضَّمير للسيارة، لأن حال إخوته في أمره فوق الزُّهد بمراحل، فلو كان لهم لقيل: وكانوا له من المُبْعِدين أو المبغضين، ونحو ذلك(٣).

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/٦٧.

(٢) يوسف بن يعقوب هامش ص٦٥.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٢٣.



هذا، وأضيف إلى ما قاله العلماء المؤيدون للاتجاه القائل بأن السيارة هم الذين باعوا يوسف - عليه السلام - وليس إخوته، ما يلي:

١ - إن إخوة يوسف كانوا بين هَمَّين؛ هم إتمام مؤامرتهم في التخلّص من يوسف، وقد كان هذا هو همهم الأكبر، ثم كان الأكبر منه أمامهم هو كيفية إخبار أبيهم عما دبّروه ونفذوه بطريقة لا تكشف سترهم، وبيْن هذين الهمَّيْن العظيمين، لم يكن لإخوة يوسف أي مجال نفسي للتفكير في بيع أخيهم يوسف.

٢ - إن إخوة يوسف ولا شك كانوا يخشون أشد الخشية لو أنهم أقدموا على بيع أخيهم للسيارة أن يكشف أخوهم سرّهم ويقول: إنهم إخوتي فلان وفلان و... إلخ. فتفشل مؤامرتهم ويفتضح أمرهم.

٣ - إن إخوة يوسف أولاد نبي، وكان حالهم دائما هو الصلاح إلا في تلك الفعلة مع أخيهم بفعل الشيطان لحكمة أرادها الله تعالى، ولم تكن أنفسهم وهم كذلك أن تسوّل لهم بيع أخيهم فيكون في ذلك معرّة أبدية لهم.

٤ - كان إخوة يوسف يحيون في سعة من العيش «أرسله معنا غدا يرتع ويلعب» وما كانوا بحاجة إلى دراهم زهيدة لا ينال الواحد منهم إلا القليل منها.

هذا، ومما تقدم يتبين لنا أن الرأي القائل بأن السيارة هم الذين باعوا يوسف هو الأولى بالصواب، لقوة حجته ووضوح أدلته، مع موافقته للنظم القرآني، والله أعلم.

يقول الإمام أبو حيان الأندلسي: والظاهر أن ضمير (وشروه) عائد على السيارة[١] ويقول الإمام الطاهر بن عاشور: وضمائر الجمع كلها «وأسروه» و«شروه» و«يعملون» للسيارة على أصح التفاسير[٢].

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٢٩١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٤.



سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان سرورهم به - مع ما هو عليه من الجمال والهيبة والجلال - مقْتَضِياً لأن ينافسوا في أمره ويغالوا بثمنه؛ أخبر تعالى أنهم لم يفعلوا ذلك ليعلم أن جميع أموره على نَسَقٍ واحد في خرقها للعوائد فقال[1]:

«وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ» و«شروه» اسم البيع والشراء، يطلق على كل واحد من البائع والمشتري، لأن كل واحد منهما بائع لما في يده مشْتَرٍ لما في يد صاحبه[2] يقال: شَرَيت بمعنى اشتريت، وَشريْت بمعنى بعْت، ويقال: شري الشيء يَشْريه: باعه، واشتراه: ابتاعه، فمعنى قوله تعالى: «وشروه» أي: باعوه وهم القافلة، وتنازلوا عنه، وبذلوه، ضدّ «اشتروه» التي تفيد معنى الأخذ، قال تعالى: «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ به أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ»[3] أي: باعوها، وقال تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّه»[4] أي: يبيعها ويبذلها في الجهاد...،

وقال الشاعر العربي:

شريْتُ بُرْداً ولو لا ما تكنَّفني *** من الحوادث ما فارقته أبدا

ومنه تسمية الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه، (الشُّرَاه) أي الذين باعوا أنفسهم - في زعمهم- لله، ويقال في اللغة: جَدَعه وشرَاه، بمعنى شَقَّ أذن عَبْده وباعه[5].

«بثمن بخس»: البخس في اللغة: الناقص والمعيب، قال تعالى: «وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ»[6].

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٢٠. (٢) تفسير الماوردي/ ٢ / ٢٥٣.

(٣) البقرة/ ١٠٢. (٤) البقرة/ ٢٠٧.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١ / ٤٤٩-٤٥٠. (٦) هود/ ٨٥.



و(بخس) من نعْت (ثمن) ومعنى «بثمن بخس» أي: نقص، وهو هنا مصدر وُضِعَ موضع الاسم، أي: باعوه بثمن مبخوس، أي: منقوص.

قال ابن قتيبة: البخس: الخسيس الذي بُخِسَ به البائع، عن ابن عباس وابن مسعود – رضي الله عنهم – «بخس» أي: زيوف، أي فيه غِشّ ورداءة، يقال: زَيَّفَ النقود، أي عملها مغشوشة، وقال قتادة: بخس: ظلم، وقال عكرمة والشعبي: قليل، وقال مقاتل والضحاك والسدي: «بثمن بخيس»: حرام، لأن ثمن الحرّ حرام، وسُمِّيَ الحرام بَخْساً، لأنه مبخوس البركة. وردّ ابن العربي على هذا القول بأنه لا وجه له وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة، ومع ابن العربي يقول ابن كثير: إن كون ثمنه حرام يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد، وإنما المراد بالبخس – أي هنا – الناقص أو الزيوف أو كلاهما[١].

قال الشيخ عبد الله العلمي: ومعنى «ثمن بخس» أي ثمن نزْر، تافه، مألوت ناقص[٢].

قوله تعالى: «دراهم معدودة» (دراهم) على البدل والتفسير لـ(بخس) ويقال: دراهيم على أنه جمع درهام... قال الفرزدق:

تنْفِي يداها الحَصَى في كل هاجرة * * نفى الدراهيم تنقاد الصَّيَاريف[٣]

و(معدودة) نَعْت، عبارة عن قلة الثمن، فهي قليلة تُعَدُّ عَدّاً ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقيّة وهي الأربعون – درهما – ويعُدون ما دونها، وقيل للقليلة معدودة، لأن الكثير يمتنع من عَدِّها لكثرتها[٤]. قال الفراء: إنما قيل «معدودة» ليستدل بها على القلّة، وقال ابن قتيبة: أي: يسيرة، يسهل عدّها لقلتها، فلو كانت كثيرة لثقل عدُّها، وقال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان لا يزنون أقل من أربعين درهما، وفي عدد تلك الدراهم خمسة أقوال:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي/ ٩/ ١٥٥، وتفسير البغوي/ ٤/ ٢٢٤، وتفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٢، وزاد المسير/ ٤/ ١٩٦.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٥١.

(٣) وصف الفرزدق ناقة سريعة السير في الهواجر، فشبّه خروج الحصي من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نُقِدت.

(٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٠٩.



(أحدها): عشرون درهماً، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية وعكرمة في رواية، ونوف الشامي، ووهب بن منبِّه، والشعبي، وعطية، والسدّي، ومقاتل.

والثاني: عشرون درهماً وحُلّة، ونعْلاَن، روي عن ابن عباس أيضا.

والثالث: اثنان وعشرون درهما، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد.

والرابع: أربعون درهماً، قاله عكرمة في رواية، وابن إسحاق.

والخامس: ثلاثون درهما ونعلان، وحُلّة(١).

هذا، وقد أخرج الطبراني والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: إنما اشترى يوسف بعشرين درهما(٢).

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدّ مبلغ ذلك بوزْن ولا عَدّ، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ، ثم قال: وليس في العلم بوزن ذلك فائدة نفْع في دين، ولا في الجهل به دخول ضُرٍّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرْضى، وما عداه فموضوع عنّا تكلُّفُ علمه(٣).

قوله تعالى: «وكانوا فِيهِ منَ الزّاهِدين» «وكانوا» أي السيارة - الواردة ورفقته في السيارة جميعا - و«فيه» أي: في يوسف - عليه السلام - كما هو الظاهر، و«من الزاهدين» أي: الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به، لأنه حُرّ والثمن لم يكن مقصوداً لديهم ولهذا قنعوا بالثمن البخس(٤).

فزهدهم فيه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه لأنه لم يدفع فيه فلْساً واحداً، قال الشاعر:

ومن أخذ البلاد بغير حرْب *** يهون عليه تسليم البلاد(٥)

---

(١) زاد المسير/ ٤/ ١٩٦-١٩٧. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٣٠٤.

(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٧٤. (٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧١.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٥١.



وحيث إنهم لم يدفعوا فيه شيئا بل إنهم قد وجدوه مصادفة، فقد كان همهم محصوراً في التخلص منه بأي ثمن قبل أن يحدث لهم ما لا تُحْمَدُ عقباه[1] وعن الضحاك «وكانوا فيه من الزاهدين» قال: لم يعلموا بِنُبُوَّته وبمنزلته من الله تعالى[2].

إن أصحاب القافلة قد باعوا يوسف - عليه السلام - بثمن قليل تافه، ولو عرفوا قدر هذا الجوهر الكريم الذي في أيديهم لضنوا به على البيع، حيث لا يقدّر بثمن، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة[3].

ماذا عن سكوت يوسف - عليه السلام - عند مجئ السيارة والتقاطه وبيعه؟

قيل: قد كان يوسف - عليه السلام - قريبا من أهله، ومرَّ بالقبائل والعشائر التي تعرفه وتعرف سلالته، فَلِمَ لَمْ يفرّ من القافلة، أو يعرّفهم بنفسه ليتركوه ويرجع إلى أهله؟

فأجيب بأن يوسف - عليه السلام - انكشف له نوايا إخوته السيئة، وكان يتخوف من الهروب لأبيه أن تُلْحِق إخوته ضرراً أعظم وكيدا أشدّ وأن عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية، فاختار السلامة في الغربة على حياة في الوطن يملؤها القلاقل وكيد الأعداء، وإن كانت الغربة مرّة المذاق، ولكن شَرَّ إخوته وكيدهم له أدْهَى وأمرّ، والمثل يقول: سئل واحد: ما الذي أحوجك إلى المرّ؟ فأجاب: الذي هو أمرّ منه، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل:

محبَّتِي تقتضي مقامي *** وحالتي تقتضي الرحيلا[4]

وهذا كقول القائل أيضا:

وإن نبَتْ بكَ أوطان نشأت بها *** فارحل فكل بلاد الله أوطان

وإن جفاك أخ قد كنت تألفه *** فاطلب سواه فكم في الأرض إخوان

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٦٥.

(٢) تفسير الطبري / ٧ / ١٧٤.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومة / ٤٢١.

(٤) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٣٥، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٦٦.



ويقول الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله:

ونحن أمام سكوته - عليه السلام - وعدم تعريفه بنفسه أمام الوجوه التّالية:

(الوجه الأول): أنه - عليه السلام - أراد أن يحْسِمَ الموْقف الذي أثاره إخوته حتى لا يصطدموا بأبيه من أجله، فيكون ذلك سببا في هلاكهم، ولا حلّ لذلك سوى ابتعاده عنهم إلى حين.

(الوجه الثاني): أنه - عليه السلام - علم فيما علمه من الوحي الذي أوحي إليه وهو في الجب أنه سيكون له شأن في مصر، وهذا - الذي حدث له - من الأسباب الموصّلة إليه.

(الوجه الثالث): أنه - عليه السلام - وجد أن الظروف لا تسمح بالتعريف بنفسه، بل لو عرَّفهم بنفسه لما استُبْعد أن يتَّهموه بالجنون أو بالتمرُّد على ما لكي رقبته ليصرف الناس عنه فيجلب على نفسه المتاعب، فيكون السكوت هو الأولى(١).

الوجه المختار فيما يتعلق بسكوته - عليه السلام -:

والعبد الفقير يختار الوجه الثاني من الأوجه الثلاثة التي ذكرها الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله، وهو أن يوسف - عليه السلام - قد علم من الوحْي الذي أوحاه الله إليه وهو في الجب أنه سيكون له شأن في مصر، وهذا أي الذي حدث له من الأسباب الموصلة إليه، لأن هذا الوجه يتفق مع إخباره جل ذكره عن عبده يوسف -عليه السلام- وهو في الجب حيث قال: «وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون» أي: غير عالمين أنك يوسف وقْت التَّنْبِئة، وذلك لعلو شأنك وعظمة سلطانك وبُعْد حالك عن أذهانهم ولطول العمر المبدِّل للهيئات والأشكال -كما سبق في شرح الآية الكريمة- وتحقيق هذا الوحي الإلهامي يتطلّب أنه - عليه السلام - لن يعيش مع أبيه وإخوته حتى ذلك الحين المنتظر عند تمام النعمة عليه ولقائه بإخوته وهم لا يدرون أنه

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٦٥-٦٦.



يوسف، وإلا فكيف لا يعرفه إخوته وهو يحيا معهم، إذاً فلا بد من الذهاب إلى وطن آخر حتى يتحقّق أمر الله تعالى في شأنه، ولهذا فقد استسلم يوسف - عليه السلام - لقضاء الله تعالى وقدره فيه وهو واثق أن الله تعالى لن يضيعه، ولم ينطق بكلمة ولم يقم بأي فعل ضد من أسروه بضاعة ثم باعوه، ولم يخبر من اشتراه في مصر عن أصله وحقيقته، والله أعلم.

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد أن أسرّ رجال القافلة يوسف وجعلوه بضاعة من بضاعتهم تابعوا سيرهم، ثم لم يلبثوا أن التقوا بقافلة أخرى فباعوه لهم بثمن قليل تافه بالنسبة إليه أو بالنسبة لسعر العبيد حينئذ، وكان الثمن دراهم معدودة لقلتها لا موزونة، والسبب في ذلك أنهم كانوا غير راغبين في بقائه عندهم فاستعجلوا في بيعه، ولو صبروا لباعوه بأكثر من ذلك بكثير.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - في الآية الكريمة دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ويكون البيع لازما.

٢ - اللقيط حر، روي عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أنه قضى في اللقيط أنه حرّ.

٣ - أشد الناس عذابا يوم القيامة من باع حُرّاً فأكل ثمنه. كما جاء في الصحيح.

٤ - انتشار الرق واسترقاق الأحرار وبيعهم كان سمة ذلك العصر.

٥ - الإسلام هو أول دين سماوي يفتح الباب على مصراعيه وينتهز كل فرصة لتحرير الأرقاء حتى جعل أحد المصارف الثمانية للزكاة المفروضة من أجل تحرير الرقاب، وَعَامَلَ الرقيق معاملة الإنسان الذي كرمه الله.



«الآية الواحدة والعشرون»

إكرام الله تعالى ليوسف - عليه السلام - في بيت عزيز مصر وبداية حياة جديدة له.

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «أكرمي مثواه» أي: أكرمي منزله ومقامه عندك، من قولك: ثويت بالمكان إذا أقمت به. قال:

أ في كل يَوْمٍ أم مثوى تَسُوسُني ** تُنَفِّضُ أثوابي وتَسْأَلُني مَا اسْمي

قوله تعالى: «أو نتَّخذهُ ولداً» أي نتبناه(١).

«مكنّا له في الأرض» أي: ملكناه في أرض مصر فجعلناه على خزائنها. «والله غالب على أمره» لايُمْنَع عما يشاء ولا يُنَازَعُ فيما يريد(٢)

رابعاً - الإعراب:

«وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» عطف على محذوف، أي: دخلوا مصر وعرضوه للبيع فاشتراه عزيز مصر الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير (وقال) فعل ماض، و(الذي) فاعل، وجملة (اشتراه) صلة، و(من مصر) حال،

(١) تفسير غريب القرآن (السيد أحمد صقر) / ٢١٤.

(٢) تفسير المراغي / ١٢ / ١٢٥.



و(لا امرأته) جار ومجرور متعلقان بقال، وجملة (أكرمي مثواه) مقول القول، وهي فعل وفاعل ومفعول.

«عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» (عسى) من أفعال الرجاء واسمها مستتر، و(أن) وما في حيّزها خبرها، و(أوْ) حرف عطف، و(نتخذه) فعل مضارع معطوف على ينفعنا، و(الهاء) مفعول به أوّل، و(ولَداً) مفعول به ثان.

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ» (وكذلك) نعت لمصدر، أي مثل ذلك التمكين، و(مكّنّا، فعل ماض وفاعل، و(ليوسف) متعلّقان به، فإن فعل مكّنَ يتعدى بنفسه وباللام كما هنا، و(في الأرض) حال.

«وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» (الواو) عاطفة، و(اللام) للتعليل، و(نعلّمه) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و(الهاء) مفعول به، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف، أي ولنعلمه مَكَّنَّاه، و(من تأويل الأحاديث)، متعلقان بنعلّمه، وأعربها الجلال على زيادة الواو فهي متعلقة بمكّنّا المذكورة.

«وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» (والله) مبتدأ، و(غالب) خبر، و(على أمره) جارّ ومجرور متعلقان بغالب، و(الواو) حاليّة، ولكن واسمها، وجملة لا يعلمون خبرها(١).

(البلاغة): «أكرمي مثواه» «استعارة» المثوى: موضع الإقامة، والإكرام لِذِى المثْوى ففي الكلام استعارة.

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤٦٨-٤٦٩.

رفع المسلم

خامساً - الموقف من المتعارضات:

هل باع رجال السيارة يوسف - عليه السلام - لقافلة أخرى أم لعزيز مصر؟

ذهب أكثر أهل التأويل إلى أن الملتقطين ليوسف - عليه السلام - من الجب هم الذين باعوا يوسف لعزيز مصر، كما سبق في شرح الآية السابقة.

وذهب فريق من أهل التأويل إلى أن الملتقطين ليوسف - عليه السلام - باعوه لقافلة أخرى وهي التي باعته لعزيز مصر، وقالوا:

إن السيارة التي التقطته سرعان ما تحركوا في طريقهم إلى الغاية التي يقصدونها، وكان رجال تلك القافلة من (المدينيين) الذين ينتسبون إلى (مدين) بن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - وهو أحد الأبناء الستة الذين أنجبهم الخيل إبراهيم - عليه السلام - من زوجته (قَنطورا) التي تزوجها بعد وفاة زوجته سارة - عليهما السلام -، وبعد مضى فترة من سير القافلة ومجاوزتها للمكان الذي التقطت منه يوسف - عليه السلام - بمسافة غير بعيدة، التقت هذه القافلة بقافلة (الاسماعيليين) الذين ينتسبون إلى اسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليما السلام - وما أن التقت القافلتان في الأرض (شكيم) حتى بادر (المدينيون) بعرض يوسف للبيع على قافلة (الاسماعيليين) يريدون التخلص منه بأي ثمن خشية أن ينكشف أمرهم ويعلم بأنهم باعوا حراً وأكلوا ثمنه، فيقعون تحت طائلة العقاب الشديد، ولهذا فقد زهدوا في يوسف - عليه السلام - ولم يترددوا في قبول أول عرض للثمن من جانب (الاسماعيليين) وباعوه لهم بثمن بخس دراهم معدودة،

وانطلقت قافلة الاسماعيليين إلى مصر وقد حملوا يوسف - عليه السلام - معهم... وما أن وصلت إلى مصر حتى حطت رحالها بالقرب من السوق الكبير لبيع العبيد في العاصمة المصرية (منف) حتى عمدوا بعد وقت قصير إلى إعداد يوسف وتهيئته استعدادا لبيعه....

واغتسل يوسف - عليه السلام - وألبسوه ثيابا جديدة وساقوه إلى السوق، فإذا بوجهه يتلألأ نوراً، وإذ بكل من في السوق يتنافسون على شرائه، حتى قطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها آنذاك...



واشتد التنافس على شراء يوسف، وتزايدوا في ثمنه حتى قال قطفير: أدفع وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، وهنا توقف الجميع عن المزايدة وابتاعه قطفير من الاسماعيليين الذين فرحوا بثمنه الكبير، وكان هذا هو البيع الثاني ليوسف - عليه السلام -(١).

ومع هذا الاتجاه يقول الإمام ابن عطية: روي أن مبتاع يوسف - عليه السلام - من الوارد، ورد به مصر، فعرضه في السوق - وكان أجمل الناس - فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمنا عظيما، فقيل: وزنه من ذهب ومن فضة ومن حرير، فاشتراه العزيز(٢)،

ويقول الإمام الفخر الرازي: اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه من الواردين على الماء، ذهب به إلى مصر وباعه هناك.

وقال الإمام الألوسي: «وقال الذي اشتراه من مصر» فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس، ثم قال: وزعم اتحادهما - أي الشراءين - ضعيف جدا، وإلا لا يبقى لقوله (من مصر) كثير جدوى(٣).

وقال الإمام أبو السعود: «وقال الذي اشتراه من مصر»، وبيان كونه من مصر لتأسيس ما يتفرع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس(٤).

ويعبر الأستاذ عبدالكريم الخطيب عن هذا الاتجاه - أيضا - فيقول: (وقال الذي اشتراه من مصر) وها هو ذا يوسف ينتقل من بلد إلى بلد، ويتحول من يد إلى يد، حتى يقع أخيرا ليد رجل من مصر(٥).

هذا، ويرى العبد الفقير أن الاتجاه القائل بكون الذي اشترى يوسف - عليه السلام - من مصر غير الذي اشتراه من الملتقطين، هو الذي يتوافق وينسجم مع الواقع، إذ لا يعقل أن يعرض يوسف الرائع الحسن والجمال في سوق الرقيق بعاصمة مصر العظيمة آنذاك. وأمام الكثير من التجار ذوي الخبرة، ويأتي عزيز مصر على ما هو عليه من جاه وعز وثراء، ثم يشتري يوسف بدراهم معدودة، والله اعلم.

---

(١) انظر: محمد رسول الله والذين معه / ٣ / ١٨-١٩. (٢) تفسير ابن عطية / ٩ / ٢٧٠-٢٧١.
(٣) روح المعاني / ٦ / ٣٩٧-٣٩٨. (٤) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٦٢.
(٥) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٢١.



سادساً - التفسير والبيان:

عزيز مصر يوصي امرأته بيوسف - عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كانت العادة جارية بأن القِنَّ - العبد الرقيق - يُمْتَهن، أخبر تعالى أنه أكرم عبده يوسف عن هذه العادة فقال منبّها على ذلك مبينا أن شراءه كان بمصر فقال:

«وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ»[١] عطف على محذوف، أي: دخلوا مصر وعرضوه للبيع فاشتراه رجل من مصر[٢].

من الذي اشترى يوسف من مصر؟

إن القرآن الكريم لم يبيّن اسم الذي اشترى يوسف من مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته، لأن القرآن الكريم ليس كتاب حوادث وتواريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعِبَر وتهذيب، ولكنْ وَصَفَه النسوة في المدينة - فيما يأتي - بـ(العزيز) في قولهن: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ»[٣] وهو اللقب الذي صار لقب يوسف - عليه السلام - بعد أن تولى إدارة الملك في مصر، فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء مصر[٤] واسمه (قطفير) عن ابن عباس قال: كان اسم الذي اشتراه قطفير، وعن محمد بن إسحاق أن اسمه (أطفير) بن رَوْحِب، وهو العزيز وكان على خزائن مصر[٥] والمشهور الأول.

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٢٤. (٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤٦٨.

(٣) يوسف/ ٣٠. (٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٢.

(٥) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٧٥.



مَنْ هِي مصر؟

مصر مهبط الأنبياء والأولياء:

مصر هي البلد المعروف بحدوده الجغرافية عالميا، وترجع حضارتها المنبئة عن تاريخها الضارب في أعماق السنين، إلى آلاف السنين، وما زالت آثار تلك الحضارة العظيمة قائمة حتى الآن، والتي تبلغ ثلث آثار العالم كله، بل وما زالت الاكتشافات العجيبة لتلك الحضارة الراقية تتوالى وبشكل مكثف حتى أيامنا هذه عام ٢٠٠٣ للميلاد، والمعلوم أن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى، فإليها قدم الخليل إبراهيم - عليه السلام - وزوجه ساره، في فجر التاريخ، ورزقه الله تعالى من هاجر المصرية ولده إسماعيل - عليه السلام - الذي ينتسب إليه العرب، وفيها بلغ يوسف - عليه السلام - شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد، وإليها هاجر أبوه يعقوب - عليه السلام - فاجتمع فيها نبيين كريمين في وقت واحد، وفيها ولد موسى وهارون - عليهما السلام - وأرسلا إلى فرعون مصر، فاجتمع فيها كذلك نبيين كريمين في زمان واحد، وإليها قدم المسيح عيسى - عليه السلام - في طفولته مع أمه مريم، وزاد الله مصر تشريفا وتكريما بمارية القبطية المصرية التي أهداها المقوقس عظيم القبط بمصر لرسولنا محمد - ﷺ -، فولدت له إبراهيم - عليه السلام - ولهذا فقد أوصى رسول الله - ﷺ - أصحابه المكرمين بمصر وأهلها خيرا فقال: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما»(١) ومن مصر (آسية امرأة فرعون التي جعلها الله تعالى سببا في انقاذ موسى - عليه السلام - حين التقطه آل فرعون وهو رضيع، وقالت: «لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا»(٢).

وقد آمنت بالله تعالى وصدقت رسوله موسى - عليه السلام - وهي تحت عدو الله فرعون، وضرب الله تعالى بها المثل للذين آمنوا: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ

---

(١) صحيح، فيض القدير / ٤٨٠. (٢) القصص / ٩.



فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»(١) ومن مصر الرجل الذي آمن بموسى من قوم فرعون، وكان يُسرُّ إيمانه من فرعون وقومه، وقد تحدث عنه القرآن حديثا رائعا في سورة (غافر) وفي حوالي صفحتين، بداية من قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ» إلى قوله تعالى حكاية عن هذا الرجل المؤمن: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ»(٢).

والعجيب أن مؤمن آل فرعون هذا قد وعظ قومه بما جاء على لسان الأنبياء، من توحيد لله تعالى وعبادته دون سواه، ونبذ الشرك وأهله، كما تحدث عن اليوم الآخر بعثاً وحشراً وجزاء، وكذلك أحوال الأمم السابقة التي كفرت بالله تعالى فغشيها عذاب الله، وفي نهاية الحديث عنه يكتب الله له الوقاية والنجاة من فرعون وقومه، ويحيق العذاب بآل فرعون وجنده، كما هي سنة الله تعالى مع الأنبياء - عليهم السلام -.

ومن مصر (سحرة فرعون) الذين ذكرهم القرآن الكريم في أكثر من موقع، وضرب بهم المثل الأعلى للمؤمنين الصابرين والشهداء الصالحين، وعلمهم ربهم حتى صاروا وُعَّاظاً ودعاة صادقين إلى الله الواحد الأحد رب العالمين، ويكفي أن نذكر تحديهم لفرعون وثباتهم على الإيمان بالله تعالى بعد أن تبين لهم الحق، فلقد قالوا له بعد أن هددهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم حتى الموت إن لم يكفروا بإله موسى ويعبدوه، «قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»(٣). وقد ذكرهم القرآن الكريم في مواضع متعدّدة.

وفي مصر مراقد آل البيت الأطهار - حسب المشهور - وفيها الإمام الليث ابن سعد، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وغيرهما كثير، فأرضها غنية بتلك الذكريات

---

(٣) التحريم/ ١١. (١) غافر/ ٢٨-٤٥. (٢) طه/ ٧٢-٧٣.



الدينية والآثار المقدسة، هذه ظاهرة تاريخية إسلامية تُحَدِّث بأن مصر حقاً (كنانة الله في أرضه) كما ورد في الآثر، وأنها أرض مباركة، تخطو عليها أقدام الأنبياء، وتعطر أجواءها أنفاس الرسل - عليهم السلام - وهذا من شأنه أن يجعل لمصر شأناً أي شأن في دنيا الناس، وأنها موطن خير وأمن وسلام ودار حق وعدل وصدق، تشع منها أضواء الهدى على مدى الأزمان، خاصة من أزهرها المبارك الميمون، الذي حمل لواء العلم والدعوة إلى الإسلام في المشارق والمغارب قروناً طويلة، من النصف الثاني للقرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بمشيئة الله تعالى، ويكفي أن نذكر أن الأزهر الشريف هو أول مؤسسة علمية تحصل على جائزة الملك فيصل العلمية للعام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ ميلادية. لما قام ويقوم به من دور عظيم...

تلك هي حقيقة مصر، التي شرفها الله في كتابه الكريم، فذكرها في أكثر من ثلاثين موضعاً، وشرفها رسول الله - ﷺ - في أحاديثه الشريفة حتى ذكر عنها أشهر مقياس للأرض فيها وهو (القراط) كما جاء في الصحيح، هذه الحقيقة التي ينبغي ألا يحجبها عن العيون ما قد ينعقد في سمائها بين حين وحين من دخان الباطل وضبابه كالشمس يحجبها الغمام، حتى يظن الجاهلون أنها غربت، ثم لا تلبث أن تسفر عن وجهها وتملأ الأرض نوراً وبهاء. هذا، ومن المعلوم أن مصر القاهرة بنيت ووجدت أيام (معز الدين الفاطمي) بيد جوهر الرومي القائد، سنة ٣٥٠هـ.

مصر أيام يوسف - عليه السلام -

وأما مصر أيام يوسف - عليه السلام - فهي مدينة (صوعن) ويقال لها (تانيس) وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلائل الهكسوس الثلاث، وهي في بحرية مصر الحالية، ويسميها اليونان (طانس) وتسمى اليوم (صان) وكانت على فرع النيل الطائي، وإلى شرقيها سهل متسع يسمى بلاد (صوعن) وهذا السهل هو البلاد الشرقية بلاد (جاسان) التي سكنها بنو إسرائيل، فصوْعن هي عاصمة مصر



السفلى أيام الرعاة[1] وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط وكانت مستضعفة أيامئذ لغلبة الكنعانيين (الهكسوس) على معظم القطر وأجوده في مصر السفلى.

امرأة العزيز:

«**لامْرأته**» اللام في «لامرأته» متعلقة بـ«قال» لا بـ«اشتراه»[2] وامرأة العزيز اسمها (راعيل بنت رعائيل) كما ذكر ابن إسحاق[3] والمشهور عند العرب أن اسمها (زليخا) بفتح الزّاي وكسر اللام والمدّ، كما في القاموس، أو بضم الزّاي وفتح اللام على هيئة المصغَّر كما قال الشهاب[4] وامرأته معناه: زوجه، فإن الزوجة يطلق عليها اسم المرأة ويراد منه معنى الزوجة، قال تعالى حكاية عن زوج إبراهيم ساره - عليهما السلام - «وامرأَتُهُ قَائِمَة فَضَحِكت»[5].

«أكْرِمي مَثْواَه» المثوى: موضع الإقامة، يقال: ثوى بالمكان إذا أقام فيه، والإكرام لذي المثوى، ففي الكلام استعارة[6]. وإكرام مثواه يكون بطيب طعامه ولين لباسه وتوطئة مبيته[7] والمعنى اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما، أي: حسنا مرضيّا بدليل قوله بعد: «إِنّهُ رَبّي أحْسَنَ مَثْوَاي»[8] والمراد: تفقّديه بالإحسان وتعهّديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك؟. لمن ينزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده؟، وهل يراعي حق نزولك؟[9] وإكرام مثواه، أي: منزلته كما قال ابن عباس وقتادة، كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمّه، لأنّ مَن أكرم المحلّ بإحسان الأسرّة

---

(1) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤٥. (2) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٠.
(3) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٧٥. (4) فتح البيان/ ٦/ ٣٠٥.
(5) هود/ ٧١. (6) انظر: تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٧١.
(7) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٥. (8) يوسف/ ٢٣.
(9) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٠.



واتخاذ الفراش ونحوه، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به، أو المقام مقحم كما يقال: المجلس العالي والمقام السامي، ومنه قول آزاد:

قلبي الذي يهواك طال نواه *** آت إليك فأكرمي مثواه[1]

فالمقصود بإكرام مثواه إكرامه، ولكن التعبير أعمق، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته، وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثواه في الحب وما حوله من مخاوف وآلام[2].

وصية تكريم وإجلال:

لقد تضمنت وصية العزيز لا امرأته «أَكْرِمِي مَثْوَاه» إكرام يوسف - عليه السلام - وحسنَ معاملته في كل ما يختص بإقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم[3] ولهذا أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه، وفي هذا دلالة على غاية الاهتام والاعتناء بأمر يوسف - عليه السلام - وأن العزيز كان ينظر إليه على سبيل الاجلال والتعظيم لما رأى فيه من بديع صنع الله في خلقه وجماله، ومن كريم خُلُقِهِ وشيمه الرفيعة العالية التي تخرجت من مدرسة النبوية والرسالة على يد أستاذها يعقوب - عليه السلام -.

سر الاهتمام الفائق بيوسف - عليه السلام -:

إن قطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها ونائب مليكها الريان، لم يكتف بمجرد توصية زوجته (زليخا) بيوسف - عليه السلام - توصية مجردة، بل أردف وصيته بأن بيّن لها السبب الدافع له على هذا الأمر فقال:

«عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» و(أَوْ) هنا ليست لمنع الجمع، بل لمنع الخلو، كما في قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي لا يخلو من أحد هذيْن الأمْرَيْن، فلا ينافي

---

(1) فتح البيان / ٦ / ٣٠٦. (2) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٨.

(3) تفسير المنار / ١٢ / ٧٧٢.



أنه يجوز اجتماعهما فيه في آن واحد، فقد ينفهم مع اتخاذهم إياه ولداً[1]. وواضح أن العزيز رجل منطقيّ في رجائه، فهو يقدم النفع بين يدَي اتخاذهما يوسف ولداً في قوله: «عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» فإن الرجاء الثاني مبنيّ على الرجاء الأول، ولا يتحقق الثاني إلا بعد تحقُّقِ الأول[2].

وتقديم فعل الرجاء (عسى) دليل على أن العزيزَ كان يعتقد أنه قد نال الأُمْنيتَيْن اللّتيْن كان ينتظرهما بوجود يوسف - عليه السلام -[3] والمعنى، «عَسَى أَن يَنفَعَنَا» بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة، لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنَّباهة، «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» فيكون قرَّة عين لنا، ووارثا لمجْدنا ومالِنا، إذا تَمَّ رُشده وصدقت فِراسَتِي في نجابته...، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنه كان عقيما، لحكمة أرادها الله تعالى وقدّرها لطفا بعبده يوسف - عليه السلام - إذ لو لم يكن عقيما وكان لديه الكثرة من الأولاد، لما كان اهتمامه بيوسف على هذا المستوى العالي، وكان رجاؤه هذا كرجاء آسية امرأة فرعون في موسى - عليه السلام - حين قالت لفرعون: «لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»[4].

وأما العزيز فكان ذكيّاً صادق الفراسة، فاستدلّ من كمالِ خَلْق يوسف وخُلُقه وذكائه وحسن خلاله أنَّ حُسْن عشرته وكرمَ وِفادته وشرف تربيته، خير مُتَمِّمٍ لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة، وما كان إلا صادق الفراسة[5]، فأراد أن تغمره زوجته بإحسانها وتشمله بعطفها، خاصة وأن يوسف في السّن التي يعتبر فيها صفحة بيضاء نقيّة، وأداة طيّعَة[6].

---

(1) مؤتمر تفسير سورة يوسف / 1 / 478-479.

(2) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف / 79-80.

(3) يوسف بن يعقوب / 67. (4) القصص / 9.

(5) تفسير المنار / 12 / 272.

(6) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / 80.



وهذه العبارة «أو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» ظاهرة في أنّ التّبنّى كان مشروعا عند قدماء المصريين، كما كان عند العرب قبل الإسلام وفي صدر منه، حتى نهى عنه الإسلام وحرَّمه(١).

يوسف - عليه السلام - وفراسة العزيز:

حقيقة الفراسة: الفراسة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده يفرِّق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وغير ذلك، وحقيقتها: أنها خاطر يهجُم على القلب ينفي ما يضاده، وهذه الفراسة على حسب قوَّة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدّ فراسة، قال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حادّ الفراسة لا يخطئ، وكان يقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة، وظاهرَه باتّباع السنّة، وتعوّد أكل الحلال لم تخطئ فراسته، وقال أبو جعفر الحدّاد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس. وقال الهروي: لا يصدق منها إلا فراسة تُجْنَى من غرس الإيمان، وأصل هذا النوع من الفراسة، من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ، قال تعالى: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا»(٢)(٣) وقد جاء في الأثر: اتقوا فراسة المؤمن، فإنه يرى بنور الله.

فراسة العزيز:

أخرج ابن جرير وغيره والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس في يوسف فقال لا امرأته: «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى

---

(١) ورد تحريم التبني في الإسلام في سورة الأحزاب / ٤-٥.

(٢) الأنعام / ١٢٢.

(٣) انظر القصص القرآني (عماد زهير) / ١٧١-١٧٢.



أَن يَنفَعَنَا » والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» وأبو بكر حين استخلف عمر - رضي الله عنهما(١).

وعلّق الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي على ما تقدم فقال : عجبا للمفسّرين في اتّفاقهم على جلْب هذا الخبر ! والفِرَاسة هي علم غريب حدُّه ، وحقيقته : الاستدلال بالخَلْق على الخُلُق فيما لا يتعدّى المتفّطنون إلى غير ذلك من الصيغ والأغراض .

فأما العزيز ، فيمكن أن يجعل فِرَاسة لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة ، وأما بنت شعيب ، فكانت معها العلامة البينة ، أما القوّة فعلامتها رفع الحجر الثقيل الذي لا يستطيع أحد أن يرفعه ، وأما الأمانة ، فقوله لها - وكان يوما ريّاحاً - امشي خلفي لئلا تصفك الريح بضمّ ثوبك لك ، وأنا عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء ، وأما أبو بكر في ولاية عمر - رضي الله عنهما - فبا لتجربة في الأعمال والمواظبة على الصحبة وطولها والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمُنّة ، وليس ذلك من طريق الفراسة(٢) ، فَفِرَاسة العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف لا أنّه تفرَّسَ الذي كان ، كما في المثالَيْن الآخرين(٣) وكانت فراسته أصدق فراسة ، وهي فراسة دالة على ما أوتيه العزيز من خبرة في معرفة الرجال الأكفاء الأخْبار(٤) ، وكيف لا يكون كذلك وقد جعله الملك بمثابة نائبه ورئيس وزرائه ورئيس شرطته ، فقد كان الملوك أهل حذر فلا يولُّون أمورهم غير الأكْفَاء(٥) .

العزيز لم يشتر يوسف - عليه السلام - إلا لمعان تفرّسها فيه:

إن العزيز مع ما هو فيه من الثراء وكثرة الحشم والخدم والعبيد والإماء والجاه والسلطان ، لم يأمن أحَداً على يوسف غير امرأته نفسها ، فهو يضنّ برعايته - عليه السلام - على جميع ما عنده ، ويدفعه إليها لا إلى أي شخص عداها ، يدفع

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٢٠ . (٢) أحكام القرآن (ابن العربي) / ٣ / ٤٤ .
(٣) تفسير ابن عطيه / ٩ / ٢٧٢ . (٤) يوسف بن يعقوب / ٦٦ .
(٥) انظر : تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٦



إليـهـا هذا الغـلام الذي اشتـراه، وحـرْصـا عليـه يأمرهـا أن تكرم مثـواه، فـلا تكلفـه من الأعمال مالا يطيق، ولا الأعمال التي لا تليق إلا بالخدم، ولا تعَرِّضُهُ للإهانة، بل تكرمه في ملبسه ومأكله ومجلسه، وتعامله معاملة توفّر له كرامته، وأن تجتهد الغاية في رعايته كما لو كان ابنهما حقا، وقد نبّه العزيز امرأته إلى وجوب تنفيذ أوامره وبين لها السبب في ذلك، وهو أنه يرجو منه النفع في شئونه الخاصة وفي شئون الدولة ليخفّف عنه أعباءها، أو يتخذه ولداً تقرّبه الأعين ويكون وارثا لهما فيعوِّضهما ما حرماه من إنجاب الأولاد(١). وهذا يدلنا على أن العزيز كان رجلا نبيلا طيب القلْب رحيماً بعيد النظر ألمعيّاً، فقد اشترى يوسف - عليه السلام - بعد أن تبين له أنه من معدن متميز، لهذا خصّه بهذا الإهتمام الفائق، حيث أوصي به من كان يعتقد أنه سيقوم بهذه المهمة وفق رغبته(٢).

حياة يوسف - عليه السلام - الجديدة في قصر العزيز:

انتقل يوسف - عليه السلام - الآن إلى طور آخر من أطوار حياته، ولم يعد ذلك الإنسان المهين المثوى، الإنسان الملقي في الجب، أو المعروض في سوق الرقيق، أو المزْهود فيه، لا... لا... بل صار ذلك الإنسان الكريم المثوى، ذلك الإنسان المقيم في قصر العزيز.. مرغوباً فيه مُحبَّباً مرْجُوّاً(٣) وأحيط بكامل العناية والرعاية والعطف من العزيز وامرأته، وكأن الله تعالى شاء أن يعوّضه بعضا مما فقده من حنان وحب أبيه يعقوب - عليه السلام -...

لقد حل - عليه السلام - في بيت العزيز والعناية الإلهية تحفُّه، وبحُلُوله تَرَادَفَتِ النِّعم وتضاعفت البركات، وتواتَرتِ الخيرات، وتذلّلَت الصعاب، وتيَسَّرَت الأمور، والعزيز يشعر بهذا التَّحوُّل الذي لم يشعر به من قبل، فالقصر قد تحول إلى جنة تغذّيها أنوار يوسف - عليه السلام - وعظمت ثقته فيه، ووجده فوق ما كان ينتظر منه ويرجوه

(١) يوسف بن يعقوب / ٦٧. (٢) انظر الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٧٩.
(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٦٥.



فيه، فما دخل عقده الثالث حتى أسْنَد إليه التصرف في شئونه الهامة، لما لمسه فيه من علم وحكمة، ونظر ثاقب، مع سداد الرأي، وأقامه قيّما على كل ما يملكه، مسنداً إليه ما يسنده الوالد الرحيم إلى ولده الحبيب، ولن يجد خيراً منه - عليه السلام -[١] وهيّأت له الملابسات إظهار مكنون حَزْمه وعقله وأمانته ونزاهته فازدادت ثقة العزيز فيه وبوّأه مكان الأشراف الأحرار، ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار[٢]...

وفي مآل يوسف - عليه السلام - إلى العزيز من الآيات التي كرم الله تعالى بها يوسف - عليه السلام - ما يلي:

(أ) أنه تعالى سخر ليوسف - عليه السلام - أكبر شخصية البلاد بعْد الملك، وهذا منتهى التكريم له - عليه السلام - إذ سخّر الله تعالى له العزيز ليبذل ما في وسعه لغاية كبيرة، وهي رجاء نفعه - عليه السلام - أو اتخاذه ولداً.

(ب) وقاه الله تعالى من معاملة العبيد والمماليك، إذ جعل قلب العزيز متعلّقاً به - عليه السلام - تعلُّقَ الآباء بالأبناء.

(جـ) إن تيسير إقامته في بيت العزيز في أعزّ منزلة وأغلاها قد أعدّ يوسف - عليه السلام - الإعداد الكافي لحكم البلاد - فيما بعد - والتصرف في شئونها بما يحقّق لها الخيْر، فكان حينما تولى حكمها معْقدَ البلاد ورجاءها في محنتها.

(د) كان سببا في مخالطته لكبار رجال الدولة بحكم وجوده في بيت العزيز مِمّا مكّنَه من الاطلاع على عيوب الحكم وطرق علاجها وعرَّفه رجال الدولة على حقيقتهم[٣].

وكان هذا العطف والرحمة والحب من العزيز ليوسف - عليه السلام - بتدبير من الله تعالى، وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض، وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته[٤].

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٧١. (٢) قصص القرآن (محمد أحمد جاد المولى) / ٧٩.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٦٨. (٤) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٨.



« التمكين الأول ليوسف - عليه السلام - في أرض مصر »

قال تعالى: « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ » « وكذلك » الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه - عليه السلام - وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف (مكّنّا) له: أي كما أنجيناه وعطفنا عليه قلب العزيز، كذلك مكّنّا له في أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه[1].

والمراد بالمكان هنا المكانة والمنزلة لا البعد المجرد[2]، أي جعلنا له فيها مكانا، يقال: مكّنَه فيه، أي أثبته فيه ومكّنَ له فيه، أي جعل له فيه مكانا[3] والتمكين في الأرض مراد به هنا، ابتداؤه وتقدير أول أجزائه، فيوسف - عليه السلام - بحلوله محل العناية من عزيز مصر، قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتَمّ، الذي أشير له بقوله تعالى بعد: « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء »[4] فما ذكر هنَالِكَ هو كردّ العجز على الصدر مِمّا هنا، وهو تمامه[5]، فعطف العزيز على يوسف والرجاء فيه مبدأ هذا التمكين، ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التّجَارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول إليه[6] كان هذا التمكين الأول آخر عهد يوسف - عليه السلام - بحياته القديمة، وأول عهده بحياته الجديدة، . . .

ورب سائل يقول: ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبدا في بيت العزيز ثم تلته محنة، ثم تلاه السجن بعد بضع سنين،؟

فالجواب هو، رُبَّ مِحْنة في وسطها مِنْحَة، فلولا هذه العبوديّة لما كان مجال للمحْنة،

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٠.

(٢) روح المعاني / ٦ / ٢٠٧.

(٣) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٦٢. (٤) يوسف / ٥٦.

(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٧.

(٦) تفسير المنار / ١٢ / ٧٧٣.



ولولا هذه المحْنة لما كان هذا السجن، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة، ولولا رئيس السقاة ما عرفه ملك مصر، ولولا ملك مصر ماصار يوسف على خزائن الأرض، ولا صار عزيز مصر ولا وكيلا مطلقا عن مليكها الريان، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكّلت سِلْسِلة نَشأَ عنها تمكين يوسف في الأرض، وهو التمكين الثاني العام في كل المملكة المصرية، ولذلك أتبعه بقوله هناك: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء»(١) لأنه هو بذاته صار العزيز في مصر، فالتمكين الأول المحدود سبب في التمكين الثاني العام، الأول نشأ عن إلقاء الله تعالى محبة يوسف في قلب العزيز، والثاني نشأ عن إلقاء الله تعالى محبته في قلب ملك مصر، فكان الأول هو النواة التي أنبتت وأثمرت التمكين الأخير. وهكذا يجد يوسف - عليه السلام - في مصر أهلا بدل أهله، وأباً وأمّاً في مكان أبيه وأمه، وهكذا صنع الله تعالى ليوسف - عليه السلام - ولطف به، فتبارك الله اللطيف الخبير.

قوله تعالى: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» عطْفٌ على (وكذلك) علّة لمعنى مستفاد من الكلام، وهو الإيتاء، لأن الله تعالى لما قدّر في سابق علمه أن يجعل يوسف - عليه السلام - عالما بتأويل الرؤيا، وأن يجعله نبيا؛ أنجاه من الهلاك ومكّنَ له في الأرض تهيئة لأسْبَاب مراد الله تعالى(٢)، وقد تقدم معنى تأويل الأحاديث عند ذكر قوله تعالى: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» أي تعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين(٣) حتى قال له الملك: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ» وقال للملك: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»(٤).

---

(١) يوسف / ٥٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٤٧.

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٢٧٣.

(٤) يوسف / ٥٤-٥٥.

رفع المسيّهما

وهذا القول: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» تحقيق لتأويل يعقوب - عليه السلام - للبشرى الثانية في رؤياه بعد الاجتباء والاصطفاء، حيث قال له: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ».

تعليم يوسف - عليه السلام:

لا جدال في أن كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة ينابيع، الإرْث، والمحيط، والتجارب، فعلم يعقوب-عليه السلام-قد انتقل شيء منه لولده يوسف-عليه السلام-بطريق الإرث، من أبيه يعقوب - عليه السلام - فأخذ منه نصيبا مفروضا، ووجود يوسف في محيط كمصر أكْسَبَه مبلغا عظيما من الفهم والنُّبْل والثقافة المصرية، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها - وما زالت كذلك حتى الآن - وقد حكى لنا التاريخ أن اليونان تلاميذ مصر وعالة عليها في المدنيّة، والرومان تلاميذ اليونان، ثم صار العرب تلاميذاً للرومان واليونان والفرس، وصارت أوربا تلميذة للعرب، فأساس المدنية والرُّقيّ والمعارف هو مصر، وتجارب يوسف واحتكاكه بذاك المجتمع الراقي زاده فضلا على فضل، وجعله يضمّ إلى التّالد طريفا، فقوله تعالى: «وَلِنُعَلّمه... الخ» معناه: لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع، وغنى عن البيان أن العلم نوعان: كسبي، ووهبيّ.

فالكسبي، يتوسل إليه بما يقرؤه الإنسان في الكتب السماوية، وما يُؤثر عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء، وكذا من علماء الأمصار، وما يستفيده من دقائق اللغة وأساليبها، ومن علوم الكون، وشئون البشر، وسنن الله في الخلق.

وأما العلم الوهبيّ، فيكون بزيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي، وعلوّ المدارك في ينابيع هذا العلم[١].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٨٣-٤٨٦.



قوله تعالى: «وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» هذ الجملة معترضة في آخر الكلام، وتذييل، لأن مفهومها عام يشمل غلب الله إخوة يوسف، بإبطال كيدهم، وضمير «أمره» عائد لاسم الجلالة، وأمر الله تعالى هو ما قدّره وأراده[1] وهذا معنى قول ابن عباس في أن الهاء في قوله تعالى: «على أمره» ترجع إلى الله، وحرف «على» بعد مادة الغلب «غالب» ونحوها يدخل على الشيء الذي يتوقّع فيه النزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء فيكون المعنى: «والله غالب على أمره» على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يُغَالبه عليه غيره من مخلوقاته، «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[2] يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، لا دافع لأمره ولا راد لقضائه، ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير، ما يتعلق بيوسف - عليه السلام - من الأمور التي أرادها الله تعالى في شأنه[3].

ويجوز أن يكون المعنى: والله غالب على أمر يوسف، فهو يدبّره ويُلْهِمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه واتباع هواه[4] وهذا على قول مقاتل: أن الهاء في قوله تعالى: «على أمره» ترجع إلى يوسف[5] والأوّل أولى، لأنه يشمل أمر الله تعالى الذي هو قضاؤه وقدره العام، والخاص بيوسف - عليه السلام - والله أعلم...

ولما كان الله تعالى متمم ما قدره وأراده، عقّب بالاستدراك بقوله:

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده[6] وهذه حقيقة ثابتة شأنها ألا تُجْهَل، لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره[7] ولا يعلمون أيضا أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون،

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤٦

(٢) يس/ ٨٢. (٣) فتح البيان/ ٦/ ٣٧.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٣.

(٥) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٦، وزاد المسير/ ٤/ ١٩٩.

(٦) تفيسر المنار/ ١٢/ ٢٧٣.

(٧) انظر: تفيسر التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤٨.



زعمـا منهم أن لهم من الأمـر شيئـا، وأني لهم ذلك، والأمـر كله بيـد الله عـزو جل[1] وهذا تعريض بإخوة يوسف، فإنهم حينما خافوا أن يُسَوَّد عليهم يوسف، ولـم يفوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأرادوا إبعاده عن أبيـه - عليـه السلام - مخافة أن يكتب صَكّ الوصاية بترْئيسه بعده، وأن يوليه عليهم ويتوجه بتاج العهد[2].

ما المراد بأكثر الناس؟

اختلف أهل التأويل في المراد بـ(أكثر الناس) في قوله تعالى: «وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» فمنهم من قال بأنهم الكفرة، ومنهم من قال بأنهـم الذين زهدوا في يوسف، ومنهم من قال بأن المـراد بـالأكـثر؛ الجمـيـع، لأنـه لا يعلـم الغيْب إلا الله، وقيـل: أهل مصر، وقيل: أهل مكة.

قال الإمام الألوسي: والأولى أن يبقـى علـى مـا يتبـادر منـه ولا يقتصـر فـي تفسيره على مـا تضمَّنتـه الأقوال[3] وقال الشيخ أحمـد مصطفى المراغي: وقولـه: أكثر الناس» إيماء إلى أن الأقل يعلمون ذلك، كـيعقـوب - عليـه السـلام - فإنه يعلم أن الله غـالب على أمره، فها هي أقواله السابقة واللاحقة صـريحة فـي ذلك، ولكـن علمـه إجمـالـي لا تفصيلي، إذ لا يحيط بما تخبئه الأقدار[4].

الإسلام وتحرير الأرقاء:

(وذلك بمناسبة استرقاق يوسف - عليه السلام - وبيعه)

إن الإسـلام العظيم هو أول نظام في الدنيـا عـمل بـكل الوسـائل على تصـفـيـة الرق والقضاء عليه تدريجيا، فقد قُضِيَ على البشر قبل الإسلام أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمـان، فلم تخْل أمة من الاسترقـاق، حـتى في شـريعـة موسى - عليـه السـلام -

---

(1) انظر: تفسير ابن عطية / 9 / 272.

(2) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / 68.

(3) انظر: روح المعاني / 6 / 400.

(4) تفسير المراغي / 12 / 127.



وليس هذا فقط، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضا للتجارة، فكانوا متى التقطوا شخصا غريباً استأسروه واسترقوه، كما فعل رجال القافلة بيوسف - عليه السلام - حيث أسرّوه بضاعة ثم باعوه، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة، تنفطر منها قلوب الإنسانية، وهكذا قضت المسيحيّة البُولَصِيَّة، بإبقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل، إذ لم يرد في المسيحيّة كلمة واحدة عن تحرير الرقيق، إنما الذي ورد فيها، هو أمْرُ الأرقّاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة، كما يطيعون المسيح - عليه السلام - (أ ف ٦ :٥) وأن يبالغوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم تمجيداً لتعاليم المسيح، كما يقول القدّيس بولص في (كو ٣ :٢٢) وفي (تي ٢ :٩) وقد وافق على ذلك بطرس الحواري، حيث أوصي العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشوهم (ابط ٢ :١٨) وهكذا بقي الحال إلى أيام الإسلام [١] فلما جاء الإسلام نظر إلى هؤلاء الأرقاء نظرة عدل ورحمة، وأوضح رغبته الشديدة في فك الرقاب وتحريرها، فسَدَّ الأبواب الكثيرة الواسعة التي كانت مدْخلا للرِّقِّ في العالم، كالاستعباد عن طريق اختطاف الأحرار، أو بيْع الإنسان نفسه أو ولده أو زوجته، أو أخذ المدين رقيقا في ديْنه، أو استرقاق المجرم بجريمته، كما عُرِفَ ذلك في شرائع سابقة، فقد اعتبر الإسلام أن الإنسان خلق ليكون حُراً، ولم يَسْتَثْنِ من ذلك إلا استرقاق الأسير في حرب إسلامية شرعيّة لم يبدأ المسلم فيها بعدوان، وذلك إذا رآى إمام المسلمين وأهل شوراه في ذلك مصلحة، كما إذا كان العدو يستَرِقُّ أسرى المسلمين، فإن المعاملة بالمثل تقتضيها المصلحة، وللإمام العادل أن يطلق سراح الأسري بغير مقابل، أو بمقابل مادّي، أو معنوي، أو إطلاق أسري من المسلمين مقابل أسري المشركين، وهذا ما نصَّ عليه القرآن الكريم صراحة في أسري المحاربين من أهل الكفر، قال الله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء»[٢].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٥٣. (٢) محمد/ ٤.

ومع ما تقدَّم فإن الإسلام الرحيم بالإنسانية كلها قد رغَّبَ في العِتْقِ -تحرير الرقاب- وجعله من أحب القربات إلى الله تعالى، وزاد على ذلك فجعله كفّارَة لكثير من الأخطاء التي يتورَّط فيها المسلم بحكم بَشَرِيَّته، كالحنْث في اليمين، قال الله تعالى: «فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»(١) والقتل الخطأ، قال الله تعالى: «فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»(٢) ومظاهرة الزوج لزوجته، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا...»(٣) وجماع الصائم في نهار رمضان، قال رسول الله ﷺ لمن وقَع على امرأته في رمضان: «هَلْ تجدُ ما تعتقُ رَقبةً»(٤).

كما جعل الإسلام كفّارة ضرْب السّيد عبده بغير حقّ أن يعتقه، فقد ضَرَبَ سيّد عبده بغير حقّ فسأل رسول الله ﷺ عن كفارة ضرْبه له بغير ذنب فقال: «كفّارتُهُ عِتْقُهُ»(٥) كما أمر الإسلام بمكاتبة العبيد، إذا علموا فيهم خيراً، وذلك يكون بتمكينهم من الكسب الحرّ الحلال، مع معونة المجتمع الإسلامي لهم، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ»(٦) ثم زاد الإسلام على ما تقدّم فجعل للعتق وتحرير الرقاب سهما عظيما من سهام الزكاة المفروضة الثمانية، قال الله تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»(٧).

وهذا كله غير ما صنعه الإسلام من رفع المستوى الأدبي والمادّي للرقيق وجَعْله إنسانا محترماً، بل أخاً لمن جعله الله تحت يده، يأكل ممّا يطعم ويلبس مما يلبس، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق، ولا يُضرب ولا يُؤْذي، بل لا يجرح شعوره حتى ولو بكلمة (عبدي

---

(١) المائدة/ ٨٩. (٢) النساء/ ٩٢. (٣) المجادلة/ ٣

(٤) رواه الجماعة. (٥) حديث صحيح.

(٦) النور/ ٣٣. (٧) التوبة/ ٦٠.



أو أمتي) وقد جاء بهذا أحاديث صحيحة كثيرة منها قوله ﷺ: «إخوانكم خَوَلكم - أي خَدَمكُم - جعلهم الله قنْية - أي ملكا - تحت أيديكم - قدرتكم - فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبِسْه من لباسه، ولا يكلِّفه ما يغلِبُه، فإن كَلَّفَهُ ما يغلبه فلْيعنه»(١). وقال ﷺ: «لا يَقُلْ أحدكم: عبدي، أمتي، وليقُل: فَتَايَ، وفَتَاتِي، وغلامي»(٢) كما حكم الإسلام إذا افْتَرَش السّيّد أمته فولدت له كان الأولاد أحرار ويرثون من أبيهم وهي تُعْتَقُ بذلك، وزاد إسلام الرحمة على ما سبق بأن جعل عتْق الرقبة عتق لصاحبها من النار يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة أعْتَقَ الله بكل عُضْو منه عضوا منه من النار حتى فَرْجه بفرجه»(٣) كما جعل الإسلام عتق الرقبة من أهم الأعمال التي تدخل المسلم في أصحاب الميمنة، قال الله تعالى: «فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ» إلى أن قال جل شأنه: «أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ»(٤) وبلغ الإسلام بالرقيق مبلغا كريما حتى جعل له ثواب الصدقة حين يعطى صدقة من مال سيده، فقد قال رسول الله ﷺ للسيد الذي أعطى عبْدُه طعامه صدقة «الأجر بينكما»(٥) إلى غير ذلك مما لا يتّسع له المجال.

وهكذا جاء الإسلام العظيم بالحرية للبشر أجمعين، وفتح الأبواب الكثيرة وانتهز كل فرصة لتحرير الرقاب، ولقد سلك في ذلك الأمر مسلكا حكيما متدرِّجا فيه، حتى لا يواجه بالهجمات الشَّرِسة من الجبهات الكافرة التي كانت تحيا على أكتاف العبيد وتسخيرهم وإذ لالهم والمتاجرة فيهم بكل السبل المنحّطة اللا إنسانية(٦).

فإذا قيل بعد ذلك إن الرق قد وجد في الإسلام، فالجواب أنه لم توجد فضيلة حث

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما. (٤) البلد/ ١١-١٤.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي/ ٧/ ١١٤.

(٦) عجائب الصدقات/ ٢٣٣/ ٢٣٤.

رفع المسلم

عليها الإسلام بصريح القرآن ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق، على أن النصرانية لم تنكر الرق بل أصرَّت على إبقائه في أسفل صورة كما ظهر من كلام بولص الرسول، والحق يقال: إن الإسلام قد أتى في شأن الرقيق بما لم يأت بمثله دين من قبل، وإنّ ما قام به الأوربيون أخيراً من تحرير الرفيق إنما هو نتيجة الإشارات الرمزية التي وردت في القرآن الكريم، وشجرة مكبرة عن النواة التي غرسها القرآن في حقل حياة الإسلام، وإلا فلماذا قضوا القرون العديدة في استعباد الناس على أشنع الأحوال(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

جرت العادة على أن العبد يشتري ليمتهن، ولكن الله تعالى أكرم عبده يوسف - عليه السلام - فاشتراه عزيز مصر ورئيس وزرائها وكان رجلاً نبيلاً طيب القلب رحيماً، بعيد النظر ألمعياً، صادق الفراسة، واستدل من كمال خَلْقِ يوسف وفائق حسنه، وتمام خُلُقِه وحسن خلاله، على أنه سيكون له شأن إن أحسن تربيته وأكرم وفادته، ولهذا فقد أوصي به امرأته ذاتها وصية تكريم وإجلال، وقال لها: (أكرمي مثواه) وهو تعبير عميق يعبر عن غاية الإكرام له - عليه السلام -، فلا تُكلّفه من الأعمال ما لا يطيق، ولا الأعمال التي لا تليق إلا بالخدم، ولا تعرضه للإهانة، بل تكرمه في ملبسه ومأكله ومجلسه، وتعامله معاملة توفر له كرامته وأن تجتهد الغاية في رعايته كما لو كان ابنهما حقاً، وبيّن العزيز لامرأته سبب هذه الوصية بأنه يرجو من يوسف - عليه السلام - النفع في شئونه الخاصة وهي شئون الدولة ليخفف عنه أعباءها، أو أن يتخذه ولداً تقربه الأعين ويكون وارثاً لهما فيعوضهما ما حُرِمَاهُ من إنجاب الأولاد، ومثل ذلك الإنجاء ليوسف - عليه السلام - من الجب، وعطف العزيز عليه، كذلك مكن الله له في أرض مصر إلى أن يصير ملكاً عليها، وهذا بداية التمكين، وليعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على تنفيذ أمره فلا يحول أحد

---

(٥) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف١ / ٤٥٥، ٤٥٧.

دون تنفيذ إرادتـه، فينفـذ مـا أراد ليـوسـف حتى يتم عليه نعمته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون كنه قدرة الله تعالى فيحاولون أن يغيروا المقادير بالأسباب وأنى لهم ذلك، وهو تعريض بإخوة يوسف.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - لطف الله تعالى ورحمته الخاصة بعبده يوسف - عليه السلام - حيث فتح له قلب العزيز وامرأته عطفاً وحناناً وأبوة وأمومة وكرماً وإكراماً.

٢ - بداية تمكين الله تعالى ليوسف في أرض مصر بعد تمكينه في قلب العزيز.

٣ - تعليم الله تعالى يوسف تأويل الأحاديث تصديق لتأويل يعقوب - عليه السلام - لرؤيا يوسف حيث قال له: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تأويلِ الأحَاديث...».

٤ - يُقَدِّرُ العباد ويأخذون بالأسباب، ولكن النتائج وبلوغ المراد لا يكون إلا بأمر الله تعالى وتدبيره وحكمته.

٥ - من غَالَب الله تعالى غُلِب، فالله غالب على أمره.

٦ - أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى.

٧ - بدأ يوسف - عليه السلام - حياة جديدة كريمة في قصر عزيز مصر.



«الآية الثانية والعشرون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً: اللغة:

الأشُدّ: قوة الإنسان وشدّته واشتعال حرارته، من الشِّدّة بمعنى القوة والارتفاع، يقال: شَدَّ النهار إذا ارتفع(١).

«آتيْناهُ حُكْمًا وعِلْمًا» «حُكماً» (حكَمَ): حكَمَ أصله مَنَعَ منْعاً لإصلاح، ومنه سمِّيَت اللّجَام حَكَمَةُ الدابة، فقيل: حَكَمْتُه، وحكَمْتُ الدابة: منعتها بالحكْمَة، وأحْكَمْتُهَا: جَعَلْتُ لها حَكَمة. والحكمُ بالشيء أن تقضيَ بأنه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألْزَمْتَ ذلك غيْرَك أم لم تُلْزِمه، قال تعالى: «وإذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاسِ أنْ تَحكُمُوا بالْعَدل» والحِكْمَةُ: إصابة الحق بالعِلْمِ والعقل، والحكْمُ أعم من الحِكْمَة، فكُلّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ وليس كُلُّ حُكمٍ حِكْمَة(٢).

«وعلماً» العلم إدراك الشيء بحقيقته. وذلك ضربان: (أحدهما) إدراك ذات الشيء، (والثاني) الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجودٌ له أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه، فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو «لاَ تَعْلَمُونَهُم اللّه يَعْلَمُهم» والثاني المتعدي إلى مفعولين نحو قوله «فَإن علمتُمُوهنّ مُؤمِنَات»(٣).

«وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»: الاحسان يقال على وجهَين: (أحدُهما) الإنعام

---

(١) صفوة البيان / ١٩٦.

(٢) المفردات (كتاب الحاء)١٢٦-١٢٧.

(٣) المفردات (كتاب العين) / ٣٤٣.



على الغيْر، يقال: أحسن إلى فلان، (والثاني) - وهو المراد هنا - إحسان في فِعْله، وذلك إذا عَلِمَ عِلْماً حسناً، أو عمل عملا حسناً، ومنه قول أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه -: الناس أبناء ما يحسنون، أي منسوبون إلى ما يَعْلَمُون ويعملون من الأفعال الحسنة[1].

رابعاً - الإعراب:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (لما) حينيّة أو رابطة، و(بلغ أشده) فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، و(آتيناه) فعل وفاعل ومفعول به، و(حكما) مفعول به ثان، و(علما) عطف عليه، «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (وكذلك) نعت لمصدر محذوف، و(نجز المحسنين) فعل مضارع وفاعل ومفعول به[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) المفردات (كتاب الحاء) / ١١٩.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٦٩.



سادساً - الشرح والبيان:

إيتاء الله تعالى يوسف - عليه السلام - الحكم والعلم، وشهادته له بالإحسان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أخبر تعالى عما يريد بيوسف - عليه السلام - بما ختمه - في الآية السابقة - بالإخبار عن قدرته، أتبعه الإعلام بإيجاد ذلك الفعل دلالة على تمام القدرة وشمول العلم فقال:

«**ولمّا بلغَ أشدَّهُ**»(١).

وهكذا يمضي السياق القرآني ليقرّر أن ما شاء الله ليوسف - عليه السلام - وقال عنه: «ولنعلمه من تأويل الأحاديث» قد تحقَّقَ حين بلغ أشدّه(٢) وهذه الآية الكريمة كالتي قبلها، تخلَّلَتْ تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف وثمرات مجاهَداته، وعجائب صنع الله تعالى مراداته، إذ طوى له المِنَح في تلك المحن، وذخر له السيادة في تلك العبودية(٣).

معنى الأشُد: الأشد: استكمال القوة وتناهي الشِّدَّة، قال أبو عبيدة: العرب تقول: بلغ فلان أشدَّه، إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان، وقال صاحب اللسان: الأشد: مبلغ الرجل الحُنكة والمعرفة(٤) وبهذا المعنى قال أهل التأويل: «ولمّا بَلغَ أشُدّه» أي زمان انتهاء اشتداد جسمه وقوّته، وهو سِنّ الوقوف عن النمو المعتدّ به، قاله الألوسي(٥).

قال أبو نخيلة يمدح هشاما:

طُوِّقْتَها مجْتَمِعَ الأشُدِّ *** فانْهَلَّ لما قُمْتَ صَوْبُ الرَّعْد

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٢٦ . (٢) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٩ .

(٣) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٥٥ .

(٤) انظر: اللسان / ٣ / ٢٣٥ ، والمفردات (كتاب الشين) / ٢٥٦ .

(٥) روح المعاني / ٦ / ٤٠٠ .



أي : نلت الخلافة ، وأنت مجتمع القوّة مكتمل ، فانفَتَحَتْ أبواب الخير ، قال الراغب : ففيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوي خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ذلك(١) .

وفي الأشُدّ ثلاثة أقوال:

(أحدها) قول سيبويه : أنه جمع مفرده شِدّة ، نحو نِعْمَة وأنْعُم .

(والثاني) قول الكسائي : أن مفرده شدّ بزنة قفل .

(والثالث) قول أبي عبيدة : أنه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب ، وخالفه الناس في ذلك ، وهو من الشدّ وهو الربط على الشيء والعقد عليه(٢) .

المراد بالأشدّ هاهنا:

اختلف العلماء في المراد بالأشدّ هنا على أقوال كثيرة:

فعن ابن عباس في قوله : «ولما بلغ أشدّه» قال : ثلاثا وثلاثين سنة .

وعن عكرمة قال : خمسا وعشرين سنة .

وعن السُّدّي قال : ثلاثين سنة .

وعن الضحاك قال : عشرين سنة .

وعن جبير قال : عشر سنين .

وعن ربيعة قال : الحلم ، وذكروا أقوالا غير ذلك(٣) .

قال الشيخ عبدالله العلمي : قال علماء اللغة في معنى الأشد أقوال كثيرة ، ولكن لها طرفان ، أدناهما الاحتلام الذي هو مبدأ سِنّ القوة والرشد ، ونهايتها سن الأربعين ، حين تجتمع للمرْء حُنكته وتمام عقله ، فبلوغ الأشدّ ، محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك(٤) .

---

(١) المفردات (كتاب الشين) / ٢٥٦ .

(٢) انظر : إعراب القرآن وبيانه / ٤ / ٤٦٦ ، وفتح البيان / ٦ / ٣٠٨ ، واللسان / ٣ / ٢٣٥-٢٣٦ .

(٣) انظر : الدر المنثور / ٤ / ٢٠ ، وتفسير الطبري / ٧ / ١٧٦-١٧٧ ، وتفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢١١٨-٢١١٩ ، وتفسير الماوردي / ٢ / ٢٥٦-٢٥٧ ، وزاد المسير / ٤ / ٢٠٠ .

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٤٩١ .



وقال الأزهري: الأشد في كتاب الله تعالى في ثلاثة معان يقرب اختلافها، فأما قوله في قصة يوسف - عليه السلام - «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ» فمعناه الإدراك والبلوغ، وحينئذ راودته امرأة العزيز عن نفسه؛ وكذلك قوله تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»(١) قال الزجاج: معناه احفظوا عليه ماله حتى يبلغ أشدّه، فإذا بلغ أشدَّه فادفعوا إليه ماله؛ قال: وبلوغه أشدّه أن يؤنسَ منه الرشد مع أن يكون بالغاً...

وأما قوله تعالى في قصة موسى - عليه السلام - «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى»(٢) فإنه قرن بلوغ الأشدّ بالاستواء، وهو أن يجتمع أمره وقوّته ويكْتمل وينْتهي شبابه، - فهو فوق الإدراك والبلوغ وقبل الأربعين -. وأما قوله تعالى في سورة الأحقاف: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٣) فهو أقصى نهاية بلوغ الأشدّ، وعند تمامها بعث نبينا محمد ﷺ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله(٤).

والشيخ محمد طه الباليساني يحاول الوصول إلى قول يطمئن له البال في معنى الأشد، فيقول بعد أن استعرض أقوال المفسرين في معنى الأشد: إن أحَداً منهم لم ينص على بيان حدّ بلوغ الرشد، وإنما كان مجرّد سرْد أقوال وبيان روايات...، وإذا أردنا أن نصل إلى ذلك - بيان بلوغ حد الرشد - فلا بد أن ننظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من هذه الجملة «بلغ أشدّه» ثم نستْنتج من الكل حداً يطمئن به البال، فنقول: قد ورد في القرآن الكريم هذه الجملة في ثمان آيات:

(١) وردت في سورة الأنعام في قوله تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»(٥).

(٢) وفي سورة يوسف هذه الآية «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ».

---

(١) الإسراء/ ٣٤. (٢) القصص/ ١٤. (٣) الأحقاف/ ١٥.

(٤) اللسان/ ٣/ ٢٣٥-٢٣٦. (٥) الأنعام/ ١٥٢.



(٣) وفي سورة الإسراء في قوله تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»(١).

(٤) وفي سورة الكهف في قوله تعالى: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ»(٢).

(٥) وفي سورة (الحج) في قوله تعالى: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ»(٣).

(٦) وفي سورة (القصص) في قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(٤).

(٧) وفي سورة (الأحقاف) في قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٥).

(٨) وفي سورة (غافر) في قوله تعالى: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا»(٦).

ثم قال الشيخ الباليساني:

هذا ما ورد في القرآن الكريم مما يفيد بلوغ الأشد، وإذا نظرنا إلى آية (القصص) وآية (الأحقاف) نرى أن الدرجات ثلاث: (الأولى) بلوغ الأشد (الثانية) الاستواء (الثالثة) بلوغ الأربعين سنة. فالاستواء أقل من أربعين سنة، لأن موسى -عليه السلام- كما في آية (القصص) بلغ الاستواء في مصر، بدليل أنه بعد قوله: «استوى» يأتي قوله تعالى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ... الآية»(٧)، فتدل هذه الآية على أن موسى - عليه السلام - في ذلك الوقت استوى ولم يبلغ أربعين سنة، لأنه لم يكن نبيا في ذلك الوقت، بل بعد

---

(١) الإسراء/ ٣٤. (٢) الكهف/ ٨٢.
(٣) الحج/ ٥. (٤) القصص/ ١٤.
(٥) الأحقاف/ ١٥. (٦) غافر/ ٦٧.
(٧) القصص/ ١٥.



ذلك بسنين، أي بعد عودته بزوجه من مدين وآنس النار وكلمه ربه تكليما، بعد أن قضى عَشْر حجج في مدين (عشر سنين) ولم يصر نبيا إلا بعد أربعين سنة بالاتفاق، وبلوغ الأشد قبل الاستواء.

وقد فسّر بلوغ الأشد في آية (الأنعام) و(الإسراء) و(الكهف) و(الحج) و(غافر) بالبلوغ، وقد قدّر العلماء ذلك بخمسة عشر عاماً، وبثمانية عشر عند بعض آخر، حيث لا يوقف اليتيم عن التصرف إلى أربعين سنة من عمره، ولا إلى ثلاثين، ولا أكثر من عشرين سنة.

ثم قال الشيخ الباليساني:

فبلوغ الأشدّ يكون بين خمس عشرة وثمان عشرة، والاستواء إلى ثلاثين، وبعده حدُّ الكمال وهو أربعون، وهو حَدُّ الرسالة والتوجّه إلى الله تعالى[1].

وبهذا انتهى الشيخ الباليساني إلى تقرير أن:

(أ) بلوغ الأشدّ، من ١٥، أو ١٨.

(ب) والاستواء، من ١٥، أو ١٨ إلى ٣٠ سنة.

(جـ) وحدّ الكمال، ٤٠ سنة.

هذا، وقد روي عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - في معنى الأشد أنه قال: ثلاثا وثلاثين سنة، وهو أظهر الأقوال وأشدها انطباقا على القوانين الطبيعة، كما ذكر ذلك بعض العلماء.

قال الإمام ابن عطية: عن قول ابن عباس - وهذا هو أظهر الأقوال فيما نحسبه[2]، وقال الإمام الفخر الرازي: هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبيعية[3]، وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي: وقدر الأطباء هذه السِّنّ بخمس وعشرين سنة،

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٧١-٧٢.

(٢) تفسير ابن عطيه / ٩ / ٢٧٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي / ١٨ / ١١٣.



وقد أثبت علماء الاجتماع أن الاستعداد الإنساني يظهر رُوَيْداً رويداً، حتى إذا بلغ المرء خمسا وثلاثين سنة وقف عند هذا الحدّ ولم يظهر فيه شيء جديد غير ما ظهر من بدء سنّ التّمْييز إلى هذه السّن، ولهذا قال ابن عباس: إنها ثلاث وثلاثون سنة(١).

أوْلى الأقوال بالصواب في معنى الأشد عند الإمام الطبري:

قال الإمام الطبري بعد أن ذكر أقوال أهل التأويل في معنى الأشد: إن الله تعالى أخبر أن يوسف - عليه السلام - لما بلغ أشدّه آتاه حكماً وعلماً، والأشد هو انتهاء قوّته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك هو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون أتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة في كتاب الله، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة على أي ذلك كان، وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجْه الذي ذكرْت، فالصواب أن يقال فيه، كما قال عزو جل، حتى تثبت حجّة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حينئذ(٢).

الأشدّ والرُّشْد في القرآن:

يوجد في القرآن الكريم كلمتان، «أشدّ» و«رُشْد» فكلمة «أشدّ» تعني النموّ في الجسم والخروج من سنّ الصّبْوة، وكلمة «رُشد» تعني النموّ في العقل وإصلاح أمور الدين والدنْيا، وهذه تكون من الأولى، وتارة على إثرها، وقد يوجد الأشدّ ولا يوجد الرشد، بسبب عارض، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين، قال تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»(٣) وقال تعالى: «وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ»(٤).

ويمكن أن يكون قوله: «حتى إذا بلغوا النكاح هو سنّ الأشدّ الذي يتقدّم الرشد

(١) تفسير المراغي/ ١٢/ ١٢٧.
(٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٧٧-١٧٨.
(٣) القصص/ ١٤.
(٤) النساء/ ٥.



أو يقارنه، فلا رُشْد إلا بعد تحقُّقِ الأشدّ، وقد يوجد الأشدّ ولا يوجد الرشد إلا بعد مدّة، ولكن يوسف - عليه السلام - من حين أن بلغ الأشد أوتي الرُّشْد بإيتائه الحكم والعلم(١).

قوله تعالى: «**آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**» آتيناه: وهبناه، و«حكما» أصل الحكم: الإلزام والمنع، وسمّيَت حَكَمةُ الدابة بهذا الاسم، لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة، والحكم ملكة في النفس بها يقرر الإنسان أن يحكم نفسه، بحيث يلزمها الطاعات، ويمنعها من المعاصي(٢) وسُمِّيَ الحاكم حاكما، لأنه يمنع من الظُّلم والزَّيْغ(٣) والحُكْم والحكمة مترادفان، وهو علم حقائق الأشياء، والعمل بالصالح، واجتناب ضدّه(٤) والفرق بين الحكيم والعالم أن الحكيم هو العامل بعلمه، والعالم هو المقْتصر على العلم دون العمل(٥).

ولأهل التأويل أقوال في معنى المراد بالحكم هنا:

(أحدها) أنه الفقه والعقل، قاله مجاهد، وروي عنه أيضا في معنى قوله (آتيناه حكما وعلما) قال: هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوة.

(الثاني) أنه النبوة، روي عن السُّدّي وابن السائب.

(الثالث) أنه الحكمة في أفعاله، أي أنه جُعِل حكيما، قاله الزّجاج.

(الرابع) الحكم على الناس، ذكره الماوردي.

(الخامس) أنه الإصابة في القوْل، ذكره الثعلبي(٦).

ولأهل التأويل أقوال أيضا في العلم الذي آتاه الله يوسف - عليه السلام -:

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٩٢.

(٢) موتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٣) زاد المسير/ ٤/ ٢٠٠.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤٨.

(٥) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٧.

(٦) انظر الدر المنثور/ ٤/ ٢٠، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١١٩-٢١٢٠، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٧.



(أحدها) : الفقه، قاله مجاهد.

(الثاني) : العلم بتأويل الرؤيا.

(الثالث) : النبوّة، قاله ابن أبي نجيح.

ولقد أوتي يوسف - عليه السلام - العلْم والعمل معاً بعد البلوغ... أوتي النظرة الصائبة للأمور، والتقدير الصحيح للمواقف، وصحّة الحكم على الأمور، وأوتي علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، كما في قوله تعالى: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»[١] أو بما هو أعم من العلم بالحياة وأحوالها من علم لدُنّي اختصّه الله به، فاللفظ عام ويشمل الكثير[٢] فهو - عليه السلام - ذو بَصَر بالأشياء والأحداث والأشخاص على حقيقتها من غير اختلال في النظر والإدراك، ثم هو ذو حكم صائب ينطق به لسانه مترجما عما في قلبه وحسّه من نور المعرفة[٣] وهذا العطاء الواسع من الله تعالى لعبده يوسف - عليه السلام - إنما يشير إلى استكمال نفس يوسف في قُوَّتها العمليّة والنظريّة[٤]...

والمراد من العلم هو ما دون النبوة، كما هو المفهوم من قول مجاهد، وإن دخل تحته الفقه وعلم تأويل الرؤيا، وغير ذلك، لأنه لو كان المراد بالعلم النبوّة لما كان للعلماء هذا الاختلاف في قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»[٥] فالنبوة عاصمة له من الهم.

فمعنى «آتيناه حكما وعلما» أي وهبناه حكما إلهامياً وعقْليّاً بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقرونا بالحقّ والصواب، وعِلماً لَدُنِّياً وفكرياً بحقائق ما يعنيه من الأمور[٦] فهو الإلهام من الله تعالى ليوسف - عليه السلام - بالحكم والعلم، وليس المراد وحْيُ النبوّة، والظاهر أن إيتاء الله تعالى يوسف الحكم والعلم وهو في بدء سن

---

(١) يوسف / ٢٧.

(٢) انظر احكام القرآن (لابن العربي) / ٣ / ٤٦، وتفسير الظلال / ٤ / ١٩٧٩، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٦٦.

(٣) يوسف وامرأة العزيز (محمد قطب) / ١١.

(٤) التفسير المنير / ١٢ / ٢٣٧. (٥) يوسف / ٢٤.

(٦) تفسير المنار / ١٢ / ٢٧٣-٢٧٤.



الأشُدّ، هو من قبيل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير، فهو بإيتائه (الحكم) يكون قد ملك نفسه وهواه، وبإيتائه (العلم) يكون قد انتقل مِن دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي[1] وبذلك بيّن الله تعالى حال يوسف - عليه السلام - من حين بلوغه، أي إبّان غلبة الشهوة بأنه آتاه العلم وآتاه العمل بما علم، وخبر الله تعالى صادق، ووصفه صحيح، وكلامه حقّ، فقد عمل يوسف بما علَّمه الله، وعصمه الله تعالى بما آتاه من علم وحكمة[2].

تقديم الحكم على العلم:

ورد تقديم الحكم على العلم في القرآن الكريم في أربعة مواطن:

(الأول) في سورة يوسف في هذه الآية «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

(الثاني) في سورة (الأنبياء) في شأن لوط - عليه السلام - «وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»[3].

(الثالث) في سورة (الأنبياء) أيضا في شأن داود وابنه سليمان - عليه السلام - «وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا»[4].

(الرابع) في سورة (القصص) في شأن موسى - عليه السلام «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»[5]، وذلك لأن الحكم بالقسط بين الناس لا ينشأ عن مجرّد العلم، أيّ علم، بل ينشأ عن الدين ومعرفة منهج الله تعالى، والحكم به.

شهادة الله تعالى لعبده يوسف - عليه السلام - بالإحسان:

قال تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أي ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به «نجزي المحسنين» أي العريقين في الإحسان كلهم الذين رأسهم محمد ﷺ الذي أسْرَى به فأعلاه

---

(1) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ 1/ 497.

(2) أحكام القرآن (ابن العربي)/ 3/ 46-47.

(3) الأنبياء/ 74. (4) الأنبياء/ 79. (5) القصص/ 14.



ما لم يَعْلُ غيره؛ وعن الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله[1].

فكما جزيت يوسف فأتيته بطاعته إياي الحكم والعلم، ومكّنتُه في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيتُه عنه من معاصي[2] وفي ذكر «المحسنين» دليل على أنه - عليه السلام - كان محسنا متّقيا في عُنفوان أمره، وأن الله تعالى آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه[3] فإحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة[4] كما قال تعالى: «هَلْ جَزَاءِ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ»[5] وكان إحسانه شاملا للإحسان في الاعتقاد والإحسان في السلوك[6] وتعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلِّيَّة الإحسان[7].

وعد الله الله تعالى في الآية الكريمة عام لكل محسن على قدْر إحسانه:

هذا الوعد من الله تعالى بإيتاء الحكم والعلم يَشْمَل كل محسن على قدر إحسانه في الاعتقاد والسلوك والخلق، فقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»، أي وكذلك شأننا وسنّتنا في جزاء المتحلِّين بصفة الإحسان الثابتين عليه بالأعمال، الذين لم يدنِّسوا فطرتهم، ولم يدنّسوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحقّ والعدْل، والعلم الذي يزيّنُه ويظهر القول الفصل، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدْر إحسانه، وبما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله وجَوْدة فهمه وفقهه، غير ما يستفيده بالكسب من غيره، لا يُؤْتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم[8] فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه وجعل عاقبته

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٢٦.　(٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٧٨.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٠.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٤٨.

(٥) الرحمن/ ٦٠.　(٦) انظر تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٧٩.

(٧) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٤.

(٨) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٤.



الخيـر من جـملة ما يجـزيه به، وهذا عام يـدخل تحتـه جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أوّلياً.

من هم المحسنون؟:

في حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن جبريل سأل رسول الله - ﷺ - فقال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك - الحديث:(١) فالمحسنون هم الذين يحسنون الصلة بالله تعالى في كل أحوالهم وفي جميع حركاتهم وسكناتهم، صافية قلوبهم جليَّة ذواتهم، طاهرة أرواحهم، لم تشُبْها لعاعة الدنيا ولا طينة الأرض(٢) عن ابن عباس قال: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» يقول: المهتدين(٣) وهذا الجزاء المذكور للمحسنين يتناولهم بصفاتهم لا بذواتهم، إنه عطاء وصْفِيّ لا ذاتي، لكل من أحسن من عباد الله تعالى، إنه ليس لأصحاب الأحساب والأنساب، ولكنه لأصحاب النوايا المخلصة لله، والأقوال والأعمال الصالحة التي يقصد بها وجه الله، وعطاء الله للمحسنين وجزاؤه لهم على إحسانه، يشمل الدار الأولى والآخرة، كما تدل عليه الآية الكريمة دلالة قاطعة، فهذا الجزاء الذي أعطاه الله تعالى لعبده يوسف - عليه السلام - كان في الدنْيا، فلكل دار ما يناسبها من الجزاء، كما قال جل شأنه: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ»(٤).

فهذا وعد من ربهم لهم بأنه يحييهم في الدنيا حياة طيبة لا خبث فيها، قناعةً وطيب طعام وشراب ورضا، هذا في الدنيا، وفي الآخرة الجنة والجزاء يكون بحسب

---

(١) رواه مسلم برقم: ٨.

(٢) يوسف وامرأة العزيز / ١١.

(٣) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ١٧٨.

(٤) النحل / ٩٧.



أحسن عمل عملوه من كل نوع.[1] وقد وردت كلمة «محسنين» في القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة.

شهادة الخالق سبحانه والخلق بإحسان يوسف - عليه السلام -:

في هذه الآية الكريمة: يشهد الله تعالى جل ثناؤه لعبده يوسف - عليه السلام - بالإحسان، وفي نفس السورة الكريمة (يوسف) يشهد له الفتيان في السجن بذلك. «... نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[2] ثم يشهد له إخوته أيضا وهم يعرفونه: «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[3] ثم يشهد يوسف بالإحسان لنفسه كذلك «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»[4].

محمد ﷺ سيّد المحسنين:

يقول الإمام الطبري: وهذا - أي قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» - وإن كان مَخْرَج ظاهره على كل محسن، فإن المراد به محمد نبي الله ﷺ، يقول له عزو جلّ: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لَقِيَ من إخوته مَا لقي، وقاسي من البلاء ما قاسي، فمكنته في الأرض، ووطّأت له في البلاد، فكذلك أفعل بك، فأنَجِّيكَ من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكّن لك في الأرض، وأوتيك الحكم والعلم، لأن ذلك جزائي أهل الإحسان في أمْري ونَهيي[5].

---

(١) أيسر التفاسير/٣/١٥٤-١٥٥.

(٢) يوسف/٣٦.   (٣) يوسف/٧٨.

(٤) يوسف/٩٠.

(٥) تفسير الطبري/٧/١٢/١٧٨.



مضمون الآية الكريمة:

ولما بلغ يوسف - عليه السلام - حد الكمال في قوة البدن والعقل والصفاء القلبي، واستعد لإفاضة الفيوضات الإلهية على قلبه، آتاه الله تعالى حكما وعلما، وكذلك، أي مثل ما جازينا يوسف بإيتاء الحكم والعلم، نجزي كل محسن حسب احسانه ونجاحه بالصبر والرضا فيما يبتليه به ربه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إيتاء الله تعالى يوسف - عليه السلام - الحكم والعلم من وقت بلوغه الأشد ليكون في ذلك عصمة له ونورا من الله تعالى يهديه في كل أموره.

٢ - شهادة الله تعالى لعبده يوسف بالإحسان، كما شهد له خلق كثير بعد ذلك في السورة الكريمة.

٣ - الإحسان من الله تعالى لعباده يكون لكل محسن على قدر إحسانه وليس مقصورا على أشخاص بذواتهم.

٤ - الحكم والعلم تَميُّز يُناط بالمحسنين ويكرّمون به من دون الخلق.

٥ - جزاء المحسنين على إحسانهم يكون من الله تعالى لهم في الدنيا أولا ثم في الآخرة كما صرح به القرآن الكريم.



«الآية الثالثة والعشرون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «هَيْتَ لَكَ» قرأ نافع وابن عامر «هِيْتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء، والوجه أنّ «هِيْتَ» بمعنى «هَلُمَّ»، وهو من الأسماء التي سُمِّيَتْ بها الأفعال، وإنما فُتِحَ؛ لأنه التقى ساكنان أولهما ياء ففُتِحَ الآخِرُ كما في كيْفَ لذلك.

وقرأ ابن كثير (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء.

وقرأ الباقون (هَيْتَ) بفتح الهاء والتاء جميعا.

والوجه أنَّ في هذه الكلمات ثلاث لغات:

(هِيتَ) بكسر الهاء وفتح التاء، وقد ذكرناه، و(هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء، و(هَيْتَ) بفتح الهاء والتاء، والكل بمعنى هَلُمَّ.

والكلمة مبنيّة على ما سبق؛ لأنها اسم سُمّيَ به فعل، والحركات الثلاث، كلها جائزة فيها؛ لالتقاء السّاكنيْن، فالفتْح ككيْفَ، والضّمُّ كَحَيْثُ، والكَسْرُ كَجَيْرِ، بمعنى أجل.

وقوله (لك) للتّبيُّن، بمنزلته في قولهم هَلُمَّ لَكَ، يدُل على المقصود بالخطاب.

وقرأ بعضهم (هِئْتُ لك) بكسر الهاء وضمِّ التّاء وهَمْزٍ بينهما على مثال جِئتُ، وهي قراءة شاذة، والوجه أنها فُعِلَتْ من الهيئة، والتاء ضمير الفاعل، ويجوز فيه تخفيف الهمزة كما جاز في جيت، وشيت، وذئب وبئر(١).

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٦-٦٧٧، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها / ٢ / ٨-٩.



ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وَرَاوَدَتْهُ» رَوْد: الرَّود: التَّردّد في طلب الشيء برفق، يقال: رَادَ وارْتادَ،(١)

والرَّوْد: الرفق في الأمور والتّأني فيها، والمراوَدة، المصدر، والرِّيادة: طلب النّكاح، ومَشَى رُوَيدا، أي تَرفّق في مِشْيَته، ورادت المرأة في مَشْيها تَرُودُ رَوَدَاناً من ذلك، والمِرْود: هذه الآلة منه(٢) والإرادة منقولة من رَادَيرُود إذا سعى في طلب حاجته، وتعدّى هنا بـ(عن) - عن نفسه - لأنه ضُمِّنَ معنى خَادَعَت، أي خادعته عن نفسه، والمفاعلة هنا من الواحد نحو، داويت المريض، ويحتمل أن تكون على بابها، فإنّ كُلاًّ منهما كان يطلب من صاحبه شيئاً برفق، هي تطلُب منه الفعل، وهو يطلب منها الترك، ومعنى (وراودته) أي: طالبته برفْق ولين قوْل.

قوله تعالى: «هَيْتَ لَكَ»: اسم للفعل، وفيه ضمير المخاطب، كصَهْ ومَهْ، ومعناه أسْرِعْ أو هَلُمَّ، يقال: هيت، إذا دعاه، قال الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين أخَا *** العراق إذا أَتَيْنَا

أنَّ العراقَ وأهلَه *** سَلَمٌ عليْك فَهيْتَ هَيْتَا

أي أقبل وتعال، يريد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو لازم لا يتعدّى إلى مفْعول، كما أنَّ مسمَّاه كذلك، وقيل (هيت) اسم فعل ماضي بمعنى تهيَّأت(٣).

قوله تعالى: «مَعَاذَ اللّهِ» أي أعوذ بالله معاذاً، يقال: عَاذَ يعوذُ عِياذاً وعِياذَةً ومَعَاذاً وعَوْذاً، قال الشاعر:

مَعَاذَ الإله أن تكون كظَبْيَةٍ *** ولا دُمْيَةٍ ولا عقيلَةَ رَبْرَب(٤)

---

(١) المفردات (كتاب الراء) / ٢٠٧.

(٢) المرود: أداة من المعدن يكتحل بها.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٦٧.

(٤) الدر المصون / ٤ / ٤٦٢-٤٦٣.



رابعاً - الإعراب:

«وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ» (الواو) عاطفة، و(راودته) فعل ومفعول به مقدم، و(التي) فاعل، و(هو) مبتدأ، و(في بيتها)، خبر، والجملة الاسميّة صلة، و(عن نفسه) جار ومجرور متعلقان براودته.

«وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» و(غلقت الأبواب)، فعل وفاعل ومفعول به، و(قالت) فعل وفاعل، و(هيت لك) اسم للفعل وفيه ضمير المخاطب كصه ومه، ومعناه أسرع، وهو لازم لا يتعدى إلى مفعول كما أنّ مسمّاه كذلك.

«قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (معاذ الله) نُصب على المصْدَر، أي أعوذ بالله مَعَاذاً، و(إنه ربّي)، إن واسمها وخبرها، والضمير يجوز أن يعود لقطفير الذي اشتراه، ومعناه سيدي ومالكي يريد قطفير، وجملة (أحسن مثواي) حال، ويجوز أن يعود الضمير إلى الشأن والحديث، وربي مبتدأ، وجملة (أحسن مثواي) خبر، والجملة خبر إن، ويجوز أن تكون الهاء ضمير الله تعالى، وقد استبْعد بعضهم الأوّل وقالوا يبعد جداً أن يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه ولو بمعنى السّيّد، لأنه ليس مملوكا في الحقيقة.

«إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» إن واسمها وجملة (لا يفلح الظالمون) خبرها، والضمير يعود للشّأن(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات:

على من يعود الضمير في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ»؟:

اختلف أهل التفسير في من يعود عليه الضمير في قوله تعالى: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» على قولين:

(القول الأول): وهو قول جمهور المفسرين، ويرى أن الضمير في قوله تعالى:

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤ / ٤٦٩-٤٧٠.



«إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» يعود إلى العزيز زوج المرأة، فيكون الضمير في (إِنَّهُ) ما يسمونه ضمير الشأن والقصة، أي إن الشأن الخطير الذي أنا فيه هو أن ربّي، أي سيدي المالك لِرَقَبَتي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندكم، وأوصاك بإكرام مثواي، فكيف أَجْزيه على إحسانه بشرِّ الإساءة، وهو خيانته في أهله، وهذا التفسير - لعود الضمير على العزيز - تعليل لردّ مراودتها بعد الاستعاذة بالله منها لا تعليل للاستعاذة نفسها(١).

يقول الإمام الطبري: وقوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي، أحسن منزلتي وأكرمني وائتمنني فلا أخونه ويكاد يجمع أهل السلف على هذا الاتجاه...

روي عن السدي في قوله «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» قال سيدي، وروي مثله عن مجاهد وابن إسحاق وأبو بكر بن عياش وغيرهم، وفي رواية عن مجاهد في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» قال: يريد يوسف سيدة زوج المرأة(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلما وصّى به امرأته فقال لها: «أَكْرِمِي مَثْوَاه» قال يوسف: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» والضمير في «إنه» معلوم بينهما، وهو سيِّدُها(٣).

وَيُدَلِّلُ الذكتور حسن محمد باجودة على صحة الاتجاه السابق فيقول: إنّ الاستعمال لهذه اللفظة يجعلنا نَعتقد أن قول يوسف - عليه السلام - «إِنَّهُ رَبِّي» معناه إنه سيدي يعني العزيز، فإننا نلمح نوعا من شَبَهٍ بيْن هذا القول على لسان يوسف - والقول السابق على لسان العزيز «أَكْرِمِي مَثْوَاه» خاصة وأن يوسف نفسه يستعمل في مناسبات أخرى الرب بمعنى السّيِّدُ، فقد جاء على لِسَانه خطاباً للسّاقي «وَقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»(٤) وجاء عنه قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ»(٥)

---

(١) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٨٢، والدر المنثور/ ٤/ ٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٢٢، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٨.

(٣) دقائق التفسير/ ٣/ ٢٥٩. (٤) يوسف/ ٤٢. (٥) يوسف/ ٥٠.



وكذلك يَسْتَعْمِل القرآن الكريم في هذه السورة هذه اللفظة في المعنى نفسه «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ»(١) إذاً فيُوسف - عليه السلام - يقصد بقوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» الشخص الذي أحسن إليه بمنّ الله تعالى وفضله(٢).

(القول الثاني): وهو قولُ بَعْض من المفسرين، ويَرى أنّ الضمير في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» يرجع إلى الله تعالى، أي: إنه تعالى ولي أمري كله، أحسن مقامي عندكم، وسخّرَكم لي بما وفقني له من الأمانة والصيانة، فهو يعيذني ويَعصمني من عصيانه وخيانتكم، وعلى هذا التفسير يكون قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» تعليل للاستعاذة نفسها(٣).

قال الزجاج: إن الضمير في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» لله سبحانه، أي أن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أركب ما حرّمه(٤).

وقال الإمام أبو حيان: والضمير في «إنه» الأصح أنه يعود على الله تعالى، أي: إنّ الله ربي أحسن مثواي، إذ نجاني من الجبّ، وأقامَني في أحسن مقام، واستبعد أبو حيان أن يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد لأنه لم يكن مملوكا له(٥).

وقال الإمام برهان الدين البقاعي: «إنه» أي الله «ربي» أي: مُوجدي ومدبّري والمحسن إلى في كل أمر فأنا أرجو إحسانه في هذا «أحسن مثواي» بأن جعل لي في قلب سيِّدك مكانة عظيمة حتى خوّلني في جميع ما يملك، وائتمَنني على كل ما لديه، فإن خالفْت أمر ربي فخُنْتُ من جعلني موضعا للأمانة كنت ظالما واضعا للشيء في غير موضعه، ثم قال: وهذا التقدير أحسن، لأنه يستلزم نصح العزيز، ولو أعدْنا الضمير على العزيز لم يستلزم التقوى(٦).

---

(١) يوسف/ ٤٢.

(٢) انظر: الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٣٧٠.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٧. (٤) تفسير الشوكاني/ ٣/ ١٩.

(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٤. (٦) نظم الدرر/ ٤/ ٣٠.



والأستاذ أحمد عز الدين خلف الله يدلل على صحة الاتجاه الثاني فيقول: إن الآية الكريمة لَمْ يَجْرِ فيها ذكر للعزيز حتى يعود الضمير في «إنه» إليه، وأقرب الألفاظ التي يمكن أن يعود الضمير إليها هو لفظ الجلالة، إذ أن موْقع الضمير في الآية جاء في اللفظ التالي للفظ الجلالة، والضمير إنما يعود إلى أقرب الألفاظ إليه ما لم تكن هناك قرينة ما نعة من ذلك، ولا قرينة هنا تمنع من تعلق الضّمير بلفظ الجلالة، فالمعنى على هذا يكون، إنه خالقي الذي أحسن إِلَيَّ فلا أعصية، ونعتقد أن الذين أعادوا الضمير على العزيز إنما نظروا إلى امرأة العزيز التي لا تفْهم من قوله «إنه رَبّي» سوى العزيز، كما نظروا إلى لفظ «المثوى» الذي جرى على لسان العزيز في بداية القصة، ولكننا نقول: إن جريان المعنى على مراد يوسف - عليه السلام - وعلى مراد امرأة العزيز من وجوه الإعجاز في الآية الكريمة، ثم قال: وننبّه هنا إلى الفرق الكبير بين ما جاء في هذه الآية الكريمة على لسان يوسف «أحسن مثواي» وما جاء على لسان العزيز في الآية الكريمة «أكرمي مثواه»، فالضمير في الأولى «أحسن مثواي» مُتَعَلّقٌ بالله تعالى، وفي نفس السورة في أواخرها يجئ فعل (أحسن) والذي أحسن هو الحق تبارك وتعالى: «وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ»(١) بَلْ مَا جَاءَ الفعل (أحسن) في القرآن الكريم غير متصل بضمير إلا كان فاعله لفظ الجلالة:

وفي سورة القصص جاء قوله تعالى: «وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»(٢)

وفي سورة الطلاق جاء قوله تعالى: «قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا»(٣)

والخلاصة أن معنى الكلام يكون تاما على مراد يوسف - عليه السلام -، وعلى مراد امرأة العزيز، في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» وفي ذلك من الإعجاز ما فيه في ذلك الموقف الدقيق، فأغنى عن الشرح والتفصيل الذي لا يحتمله الموقف لخطورته(٤).

---

(١) يوسف/ ١٠٠. (٢) القصص/ ٧٧.

(٣) الطلاق/ ١١. (٤) يوسف بن يعقوب/ ٧٦-٧٧.



الترجيح بين الرأيين السابقين:

أما الرأي الأول، وهو القائل بعود الضمير في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» على العزيز فهو الأظهر حسب ظاهر اللفظ.

وأما الرأي الثاني، وهو القائل بعود الضمير على الله تعالى فهو أصحّ لفظاً ومَعْنى.

أما لفظاً، فلأنه من القاعدة أنه إذا دار الضمير بين القريب والبعيد وصلح لهما، فعوْده على القريب أوْلى، ولفظ الجلالة أقرب هنا من لفظ الذي اشتراه.

وأما معنىً، فلأن العارف بالله تعالى لا يُنْسِب النعم إلى غير الله تعالى، بل من آدابهم أنهم ينسبون الخيْر إلى الله تعالى، وينسبون ما هو شرٌّ إلى غيره من أنفسهم أو الشيطان أو غيرهما، ألا يُرَى أن يوسف - عليه السلام - حينما جمع الله تعالى بينه وبين إخوته ووالديه وسجدوا له قال: «يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ»(١) نسب - عليه السلام - إخراجه من السجن إلى الله تعالى وقد أخرجه الملك في ظاهر الحال، وبأمر منه في ظاهر المقال، لأن الكل في الحقيقة لله تعالى، ثم إنه حينما ذكّرهم بِشَرّ وَقع بينهم قال: «مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي»(٢) وذلك لأن العارف يعلم أن الأمور كلها من الله حقيقة، فينْسب الخير إليه تعالى رأسا، ولكن الشرّ له جهتان، جهة أنّ خَلْقَ الله تعالى تعلّقَ به، وأنّ حكمته اقْتضَتْ وجوده، وأنّ نظامه يدعو إلى ذلك، فمن هذه الجهة هو خير أيضا، وينسب إليه تعالى في الحقيقة، ولكن من حيث وجوده لنا وتعلقه بنا شرّ، فلا ينسبه العارف إلى الله تعالى تأدُّباً، ولأن العامة لا يعرفون الحقيقة فيخاف عليهم أن يعتقدوا أن الشَّرَّ من حيث شرِّيَّته منسوب إلى الله تعالى(٣).

---

(١) يوسف / ١٠٠.

(٢) يوسف / ١٠٠.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٧٤-٧٥.

رفع المسيا هم

الوجه المختار:

والمختار هو الجمع بين الرأيَيْن، بناء على أن لكل منهما وجها من الصحة ولا يعارض أحدهما الاخر، وهو ما ذهب إليه الأستاذ أحمد عزالدين خلف الله، من قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» قد جاء على مراد امرأة العزيز التي لا تفهم من قوله: «إنه ربي» سوى العزيز، وجاء على مراد يوسف - عليه السلام - أي: أن الله تعالى ربي أحسن مثواي ومنزلي وقد أنعم عَليَّ، فمقابلة نعمه بالمعصية ومخالفة أمره ظلم، وإنه لا يفوز الظالمون بسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا من الإعجاز القرآني في هذه الآية الكريمة، لأن المتكلم بها هو الله تعالى الذي يعلم حقائق الأمور علما تاما على ما هي عليه، والله أعلم.



سادساً - التفسير والبيان:

المحنة الثانية ليوسف - عليه السلا - «المراوَدة»

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

وجه المناسبة:

ولما أخبر الله تعالى أن سبب النعمة عليه إحسانه، أتبعه دليله، مما تضمنته هذه الآية الكريمة، من استعصامه - عليه السلام - واستعاذته بربه تعالى من هذا المنكر الفاحش الذي تطلبه منه امرأة العزيز(١).

هذا وقبل الشروع في تفسير هذه الآية الكريمة يحسن ذكر هذه التنبيهات:

(أ) - يوسف وبعد عشر سنوات في قصر العزيز:

إن يوسف - عليه السلام - وبعد أن اشتراه العزيز وأوصى به زوجته خيرا، ظل قرابة عشر سنوات في راحة ورضا، يحيا مؤتنسا بربه الأعلى، عاكفا على ذكره، يتلقى منه سبحانه الهداية والعلم والرشاد، وبمرور الأيام والسنين أصبح يوسف في قصر العزيز مسموع الكلمة عزيز الجانب، محبوبا وموقراً من كل المتعاملين معه داخل القصر وخارجه، ورأى فيه عزيز مصر ما رآى من سيرة حميدة، وذكاء نادر، وإخلاص لا نظير له، وقدرة عجيبة على مواجهة المشاكل وحلها بصورة لم تعهد من قبل، فما كان من العزيز إلا أن أسند إلى يوسف - عليه السلام - عظائم الأمور، ووكل إليه التصرف في الكثير من الشئون، فقد صدقت فيه فراسته، بل وفوق ما توقع منه العزيز بكثير وكثير جداً، ولم تلبث المقادير أن تفتح صفحاتها بإذن الله العلي القدير الذي قدرها بعلمه وحكمته، لتشهدنا يوسف - عليه السلام - وهو يواجه محنة ثانية عاتية

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ٢٧.



شديدة، بعد محنة إخوته، جاءته هذه المحنة من ناحية حسنه الفائق، وجماله الساحر للألباب، ودخلت عليه عن طريق فتوته وشبابه وكمال عقله وحكمته... ولكم جرَّ عليه حسنه وجماله البلاء بعد البلاء، وكمال قال الشاعر:

وكم رمت قسمات الحسن صاحبها * * * وأتعبت قصبات السبق حاويها

وزهرة الروض لولا حسن رونقها * * * لما استطالت عليها كف جانيها[1]

وهكذا قدر الله لعبده يوسف - عليه السلام - أن تجيئه المحنة الثانية، محنة المراودة، وهي أشد وأعمق من محنته الأولى مع إخوته، تجيئه وهو يمضي في طريقه المرسوم الذي قدره الله تعالى له لينال ما وعده إياه من تمام النعمة وارتقاء درجة النبوة، ولن يكون ذلك إلا بعد شدة البلاء وكمال التمحيص، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

(ب) - المراودة... ذلك المجهود البعيد المدى من المرأة التي هو في بيتها:

المراودة التي تحدث عنها القرآن الكريم:

لا شك أن هذه المراودة التي تحدث عنها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة لم تكن المراودة الأولى حتماً، فإن هذه الدعوة السافرة الغليظة (وقالت هيت لك) لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة... وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، والتي يعيش معها فتاها، وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد أنه كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة[2]، وأن تكون قد سبقت هذه الصراحة تصريحات وتلميحات.

---

(١) انظر: قصص القرآن (جاد المولى) / ٨١.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٦٨.



تصور العلماء لمراحل ما قبل المراودة الأخيرة:

١ - بداية معرفة امرأة العزيز بيوسف - عليه السلام -:

عرفت امرأة العزيز يوسف - عليه السلام - غلاماً كان موضع عنايتها ومحل عطفها وبرها وموضع نظرها، طبقاً لأمر زوجها (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ثم سارت الأيام بيوسف - عليه السلام - وأظله ربيع العمر فخلع قميص الحداثة ولبس برد الشباب[١] وأصبح مكتمل الرجولة والفتوة، يزينه جمال يخطف الأبصار ويحير الألباب، مع حسن في الشكل وحلاوة في النطق وذكاء في التصرف يعز على كبار الشيوخ[٢]، ورأت فيه عفة حرمها أمثاله من الفتيان، فهو دائماً غاض البصر، قليل الحديث، مع احترام ووفاء لسيده العزيز، وإلى جانب ذلك كله، ورع وتقوى واستعلاء على الرذائل وتنزه عن المعاصي[٣].

٢ - تحول نظر امرأة العزيز إلى يوسف - عليه السلام -

واكتمل شباب يوسف في أروع صورة تهز القلوب وتأسر النفوس وتسحر العقول، فانجذبت امرأة العزيز إلى يوسف انجذاباً شديداً وأخذت نظرتها إليه تتحول إلى مسارٍ جديد، وراحت ترقبه في غدوه ورواحه، وتلحظه في قيامه وقعوده وفي يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وبدت لها محاسنه الخفية وحيويته القوية، وشعرت أن حبه ينبت في قلبها وينبض في عروقها، وشعرت بالعاطفة الجديدة تنمو بين جوانحها بقوة الإعصار، وهي لا تستطيع لها دفعاً ولا منها خلاصاً[٤]، وألح عليها الغرام ونازعتها الميول الجسدية، واستولى عليها سلطان الحب، فأنساها سلطانها وسلطان سيدها عزيز مصر، والحب نافذ الكلمة، ماضي القضاء، غالب على كل سلطان، يستذل الملوك ويحطم السيوف[٥].

---

(١) قصص القرآن (جاد المولى) / ٨١. (٢) يوسف بن يعقوب / ٧١.

(٣) نظرات في أحسن القصص / ١ / ٣١٧-٣١٨.

(٤) قصص القرآن (جاد المولى) / ٨١.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥١٤.



٣ - بين الإقدام والإحجام:

جعلت امرأة العزيز تفكر وتفكر طويلاً . . . فحاولت أول الأمر أن تغلب ميلها وتسحق هواها وتصرف دافع الهوى عن نفسها . . وقاومت ما استطاعت، يدفعها لذلك مراعاة مكانة زوجها وفضله عليها ومكانتها الإجتماعية العالية، ومكانتها كسيدة يجب أن تترفع عن مغازلة فتاها والتَّدَلُّه في حبه وعشقه، إضافة إلى أن هذا الأمر يعتبر ذنباً في شريعتها وخطأ فادحاً تلام عليه أشد اللوم بدلالة قول زوجها لها بعد حادثة المراودة «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِين . . .» ولكن كل هذه المخاوف لم تستطع الصمود طويلاً أمام عاصفة الحب الطاغي ليوسف - عليه السلام - فنسيت كل شيء إلا عشقها وهواها ورغبتها الشديدة في أن تنال مُناها منه .

٤ - واستسلمت لهواها:

وانفلت زمام امرأة العزيز من بين يديها ولم تستطع الصبر عن يوسف ومرادها منه، وتغلبت عواطفها على عقلها واستسلمت لهذا الجمال الفريد، والأنموذج الإنساني الفذ الذي لا يمكن أن تفرط فيه أنثى بحال، وهكذا انقادت لميولها الحيوانية، وآثرت اللذة الفانية على لذة الشرف الباقية، وتربع العشق قوياً في صدرها وأصبح حالها كما قال الشاعر :

وأشد ما لقيت من ألم الجوي
قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس[١] في البيداء يقتلها الظمي
والماء فوق ظهورها محمول

ولما ضاق صدرها وذبل جسمها رأت أن تجيب داعي الهوى وتجاذب ثوب الغرام، ولكن على ألا تذل نفسها أو تهبط عن عرشها[٢] .

---

(١) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

(٢) انظر : قصص القرآن (جاد المولى) / ٨١، ومؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥١٤ .



٥ - المراودة من طرف واحد:

واستجابة لرغبتها الملتهبة أخذت تتنزل شيئاً فشيئاً عن عرش أنَفَتِها وعزّة نفسها، ولمّا لم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة، فكرت أن هذا الأمر يحتاج إلى روية وتمهيد، فابتدأت في مناغمة يوسف بكلامه بصوت منغم بالحسن، ومناغشته بالبسمة الخفيفة، ثم بالكلمة تقطر إغراء، وبالحركة في تَثَنّ وانْعِطاف، وبالنظرة الغارقة في ثنايا جماله المتلألئ. ومضت الأيام تلو الأيام وهي على ذلك الحال.. تنتظر منه ولو حتى إشارة خفيفة، أو نظرة خاطفة معبرة... ولكنه لم يكن يلقي لجمالها بالاً، ولا إلى فتنتها اهتماماً، ولا يسعفها بشيء من قريب أو بعيد يفتح لها بصيصاً للظفر بمرادها منه، بل ما كانت تشيم عنده بغريزة الأنثى سوى الطهارة والصفاء، ومعاملتها كزوجة للرجل الذي أكرم مثواه.

٦ - المراودة الأخيرة:

إنه مع كل قامت به امرأة العزيز من إغراء وفتنة إلا أنَّها لم تجن من وراء ذلك إلا الإعراض من يوسف - عليه السلام - حتى أنه لم يترك لها أي منفذ تنفذ منه إلى مبتغاها، ولكن الإعراض ضاعف هواها، وأثار كوامن غرامها - وهدم جميع التحصينات التي كانت تختفي وراءها رغبتها الجامحة، التي استولت على قلبها استيلاء تجاوز جميع حدود المقاومة، فرأت أن تصل بالتصريح إلى ما لم تنله بالتلويح، وأن تكون أجرأ علي ما تطلب وأشجع فيما تريد، فما بقي في قوس الصبر منزع، وما عادت بعد اليوم تطيق صده وإعراضه، فتنازلت عن كل كبريائها ودعته إلى مخدعها فلبي سريعاً استجابة لأمرها وجرياً على عادته في طاعتها، ثم أسدلت الستائر وغلقت الأبواب وقالت هيت لك[١].

٧ - لم تكن المراودة من امرأة العزيز وحدها

إن امرأة العزيز لم تنفرد بالمراودة، فقد شاركها فيها أخريات، فهذا هو الذي ينتظر

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٧٣.



في مثل هذا البيت المترف في ذلك المجتمع غير الديني، وإن من الأدلة على ذلك قول الملك خطاباً لجماعة النسوة اللاتي يعتبرن صورة من الأخريات كما جاء في السورة «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ»(١) وإن في الإمكان أن نقول إن المحنة التي مر بها يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تعتبر القمة في المضمار وليست الوحيدة، فقد سبقها من نوعها كثير، وتلاها من نوعها كثير، وما دمنا عرفنا أنه قد سبقت هذه المحنة الكبرى محن، فمعنى هذا أن يوسف - عليه السلام - الذي صبر واتقى بعون الله وتوفيقه، قد اكتسب شيئاً كبيراً من الرياضة والدربة والمران على مواقف مختلفة من جنس ذلك النوع، سواء من النساء اللاتي يحضرن في المناسبات المختلفة إلى القصر ويقوم يوسف - عليه السلام - بالإشراف على خدمتهن، أو النساء اللائي يعشن داخل القصر ممن يقمن بالأعمال المختلفة، حتى إذا كانت المحنة الحقيقية كان عنده - عليه السلام - شيء كبير من المناعة، ولم يكن أرحم الراحمين ليبتلي عبده المخلص المحسن يوسف إلا بعد أن آتاه القدرة على اجتياز هذه المحنة بسلام(٢).

(ج) مكانة يوسف - عليه السلام - من ربه - عزوجل - قبل حادثة المراودة:

لقد من الله تعالى على عبده يوسف - عليه السلام - بالاصطفاء والاجتباء، وأراه رؤياه المبشرة بذلك منذ صغره ونعومة أظفاره، وكان له فيها ثلاث بشريات:

(الأولى): اجتباؤه - عليه السلام - وتعليمه تأويل الأحاديث، وهي معجزته المناسبة لعصره الذي كان يعيش فيه.

(الثانية): إتمام النعمة عليه بالنبوة والرسالة، كما أتمها الحق جل وعلا على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

الثالثة: خضوع الكل له حتى يسجد له أبواه وإخوته أجمعين إقراراً بفضله عليهم، واعترافاً بإيثار الله تعالى له عليهم.

---

(١) يوسف/ ٥١. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٦٨.



وكانت هذه البشريات العلوية في الآية السادسة من السورة الكريمة - كما سبق.

وفي الآية الخامسة عشر من السورة الكريمة، يتنزل عليه الوحي الإلهامي من ربه عزو جل وهو في الجب يؤكد له تحقيق رؤياه وإتمام النعمة من الله تعالى عليه في المستقبل، حتى يقدم إليه إخوته في البلد الذي قدر له أن يصير إليه، وهم لا يشعرون أنه يوسف لتغير هيئته وعلو منزلته وقوة سلطانه. وقبل أن تتناول الآيات الكريمات محنة يوسف - عليه السلام -، الشاب التقي النقي الصافي الورع، تنص الآية الواحدة والعشرون من السورة الكريمة على تمكين الله له في الأرض، وهو بعد لا يزال رقيقاً في بيت سيده العزيز، والتعبير بالماضي يؤكد حصول التمكين ووقوعه لا محالة، كذلك تنص على أن الله عز وجل قد سلّح يوسف - عليه السلام - بنوع من العلم، قد يرى في ظاهره غير ذات قيمة كبيرة في موضوع المحنة التي ستواجه يوسف، ولكن الواقع أن هذا السلاح هو الذي سيكون سبباً في تبرئته من تهمته أخيراً عند الملك، كما سيكون سبباً في تمكينه في الأرض «ولنعلمه من تأويل الأحاديث» وحصول هذا التمكين، في المستقبل، يؤكد أن يوسف - عليه السلام - سيجتاز محنة المراودة بنجاح فائق، لأنه لو استجاب للهوى، وخضع لنزعات الشيطان لم يكن أهلاً لهذا التمكين، ولتلك المنزلة الرفيعة(١)، ثم تنص الآية التالية لها(٢٢) على أن يوسف - عليه السلام - لما بلغ أشده واستكمل قوته آتاه الله الحكم والعلم، فأصبح بتلك النعمة العظيمة مالكاً لنفسه وهواه ملكاً تاماً، ومدركاً للحقائق كما هي إدراكاً كاملاً، وكانت تلك المنة من الله لعبده يوسف جزاءً على إحسانه، في شهادة من الله العلي الكبير ليوسف - عليه السلام - بالإحسان في كل ما يأتي وما يذر، وشاءت حكمة الله تعالى أن تتقدم هاتان الآيتان (٢١، ٢٢) على آية المراودة مباشرة ليعلم السامع من أول الأمر، أن ما لقيه - عليه السلام - من الفتن التي ستحكي بتفاصيلها، له غاية جميلة وعاقبة

(١) نظرات في أحسن القصص/ ٣١٦-٣١٧.

رفع المسيهما

حميدة، وأنه - عليه السلام - محسن في جميع أعماله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته، ولإبعاد كل شبهة عنه - عليه السلام - وتنزيهه عن كل ريبة لا تليق بمقام من اختاره الله تعالى واصطفاه للنبوة والرسالة، ولئلا يخطر في النفس شيء بالنسبة له - عليه السلام -، عندما تقص علينا الآيات التالية ما حدث من امرأة العزيز في حقه...

رفع المسّاهم

عود إلى الآية الكريمة

قال الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

«**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ**» هذه الجملة معطوفة على جملة وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه وما عللها به من حسن الرجاء فيه، وما بينه الله تعالى من عنايته به وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض(١)، فهو رجوع إلى شرح ما جرى له - عليه السلام - في منزل العزيز بعدما أمر امرأته بإكرام مثواه، فمن قوله: (وكذلك مكنّا ليوسف... إلى هنا) اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها، له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنه - عليه السلام - محسن في جميع أعماله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته، ولا يخفى أن مدار حسن التخليص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة، إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز(٢).

قوله تعالى: «وراودته»

معنى المراودة: المراودة أن تنازع غيْرك في الإرادة، فتريد غيْرما يريد، أو ترود غيْرمَا يرود(٣).

وهي مشتقَّة من راد يرود، إذا جاء وذهب، شبِّه حال المحاول أحداً على فعل شيء مكرّراً ذلك بحال من يَذهب ويجئ في المعاودَة إلى الشيء المذْهوب عنه، فأطلق (راود) بمعنى (حاول)(٤) وهي مفاعلة من جانب واحد، نحو مطالبة الدائن ومماطلة المدْيون،

(١) تفسير المنار/ ١٢ / ٢٧٥.

(٢) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٢٦٤.

(٣) المفردات (كتاب الراء) / ٢٠٧.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦ / ١٢ / ٢٥٠.



ومداواة الطبيب ونظائرها، مما يكون من أحد الجانبين الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبيْن، لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جُعِلت كأنها صادرة عنهما، وهذا باب لطيف المسلك، مبنيّ على اعتبار دقيق تَحَقُّقُهُ أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: (كما تدينُ تُدَان) أي: كما تَجْزى تُجْزَى، فإن فِعْل البادي وإن لم يكن جزاء، أطلق عليه اسمه لكونه سببا للجزاء، وهذه قاعدة مطَّردة مستمرّة، فكأن يوسف - عليه السلام - لما كان ما أعطيه من كمال الخُلق والزيادة في الحسن والجمال سببا لمراودة امرأة العزيز له اعْتُبِر مُرَاوِداً[1].

فالمفاعلة تقديريّة، بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر عن العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله[2].

ورُوعي جانب الحقيقة بأن أسند الفعل (راود) إلى الفاعل (المرأة) وأوقع على صاحب السبب - يوسف - فتأمَّل، ويجوز أن يراد بصيغة المبالغة مجرَّد المبالغة، وقيل: الصيغة على بابها، بمعنى أنها طلبت منه الفعل، وهو طلب منها التَّرْك، ويجوز أن يكون من الرَّوْد، وهو الرِّفق والتَّجمُّل[3].

وأكثر استعمال هذه اللفظة (المراودة) إنما هو فيما بين الرجال والنساء[4] يقال في الرجل: روادها عن نفسها، وفي المرأة: راودته عن نفسه[5] وقد يخص هذا الفعل (راود) بمحاولة الوقاع، فيقال: راود فلان جاريته عن نفسها، ورادته هي عن نفسه، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع[6].

وقد ذكرت مادة «المراودة» في القرآن الكريم ثلاث مرّات، ثنتان في هذه السورة

---

(1) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٤.

(2) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٠.

(3) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٤.

(4) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٧٤.

(5) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٦٣. (6) فتح القدير/ ٣/ ١٨.

رفع المسيّهما

في قوله تعالى هنا: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ» وفي قوله تعالى: «قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ»(١) وواحدة في سورة القمر) في قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ»(٢) وكلها من نوع التَّحيُّل والاستدراج، وعلى ما سبق يمكن تعريف المراودة بأنها الطلب برفقٍ ولينٍ مع مُخادَعَةٍ ومحايلة، للوصول إلى الغرض المطلوب(٣).

فـ(راوَد) كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى رادَ يرُود إذا جاء وذهب(٤) والمُراوِدَة كما هو ظاهر، امرأةُ العزيز، كما قال قتادة وغيره، والمراوَدُ هو يوسف - عليه السلام - قال ابن زيد: حين بلغ مبلغ الرجال(٥).

الإعجاز في استعمال كلمة (المراوَدَة):

إن المراودة كما يقول اللغويون، هي المطالبة بأمرٍ ما بالرِّفْق واللّين والرجاء، وأن أصلها من راد يرُود، وتطلق غالبا على الأنعام إذا انطلقت تطلب المرعي...، فَذِكْر لفظة (راودته) في الآية القرآنية الكريمة يعتبر في حدّ ذاته إعجازاً مابعده من إعجاز، لأنّها وصفت الطريقة التي تحدثت بها امرأة العزيز مع يوسف - عليه السلام - بأنها طريقة لَيّنَة لطيفة لتستثيرَ اشتهاءه إياها، كما أن اللفظة نفسها تصف هذا المسلك من امرأة العزيز بأنه مسلك حيوانيّ، إذ أنها كانت في رغبتها الجامحة هذه لإشباع شهوتها تشبه الحيوان الذي يَرُودُ المرْعى لكي يملأ بطنه من حشيش الأرض(٦).

قوله تعالى: «الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ»

حكمة العدول عن ذكر اسم المرأة: والعدول عن التصريح باسم المرأة للمحافظة على السِّرِّ والسّتر(٧) حتى لا تُفضح بينَ أهلها وقومها على الملأ(٨) فهو الأدب القرآني في الإشارة إلى امرأة العزيز(٩).

---

(١) يوسف/ ٦١. (٢) القمر/ ٣٧. (٣) يوسف بن يعقوب/ ٧٣.

(٤) نظم الدرر/ ٤/ ٢٧. (٥) انظر: الدر المنثور/ ٤/ ٢١.

(٦) قصص من القرآن الكريم/ ١/ ٣٨-٣٩.

(٧) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٦.

(٨) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٢٥.

(٩) الوحدة الموضوعية سورة يوسف/ ٨١.



الأمور التي رجّحت كون الاسم المسند إليه موصولا:

(الأمر الأول): الإشارة إلى كمال نزاهة يوسف - عليه السلام -: فالتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصوليّة في قوله «التي هو في بيتها» لقَصْد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف - عليه السلام[1] فمن مرجّحات كون الاسم موصولا تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو هنا براءة يوسف - عليه السلام - فلو قيل: راودته امرأة العزيز، أو (زلَيْخا) لم يُفِدْ ما أفاد الموصول باعتبار صلته، فهو أدل على الغرض المسُوق له، وهو النزاهة، لأنه إذا كان في بيتها متمكّناً من إجابة طلبها منه، ومع ذلك عفَّ عنها ولم يفْعل كان ذلك غاية في النّزاهة عن الفحشاء، فكان في الموصول زيادة تقرير للغرض الذي هو النزاهة[2].

(الأمر الثاني): زيادة تقرير المسند - أي المرَاوَدَة - وذلك لما في قوله «التي هو في بيتها» من دلالة على فرْط الاختلاط والألْفة، فلو قال: (زليخا) أو (امرأة العزيز) لم يفد ما أفاده الموصول من ذكر السبب الذي هو قرينة في تقرير المراودة باعتبار كونه في بيتها[3] ومعنى «عن نفسه» أي مراودة لم يكن لها سبب إلا نفسه، لأن المراودة لا يمكن أن تتجاوز نفسه إلا بعد مخالطتها[4] فقد حاولته على نفسه ودعته إليها[5].

قوله تعالى: «وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ»: الأبواب جمع باب، وهذه الجملة وقعت حالا من فاعل (راودته) أي: راودته حال كون الأبواب مغلقة[6] والإغلاق: إطباق الباب بما يعسر معه فتحه[7] قال الواحدي: وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشَبَّثَ في شيء فلزمه، قد غلق، يقال: غلق في الباطل، وغلق في غضبه، ومنه غلق الرهن، ثم يعدّي

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٠.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٧٢-٤٧٣.

(٣) انظر: تفسير القاسمي / ٤ / ٣٥٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٠.

(٥) نظم الدرر / ٤ / ٢٩.

(٦) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١١٥.

(٧) تفسير القرطبي / ٩ / ١٦٣.



بالألف فيقال: أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه[١] وغَلَّقَ للتّكثير، ولا يقال: غلق الباب؛ وأغْلَقَ يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدَق في أبي عمرو بن العلاء:

مَا زِلْتُ أُغْلِقُ أبواباً وَأفْتَحُها *** حتّى أتيْت عَمْرو بن عَمّار[٢]

فقوله: «وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ» هو تضعيف تكثير بالنسبة إلى وقوع الفعل بكل باب باب[٣] لإفادة شدّة الفعل وقوّته، أي أغلقت كل باب إغلاقا محكما[٤] قال الإمام البيضاوي التشديد للتكثير أو للمبالغة في الاستيثاق[٥] والظاهر أن الأمريْن محتملان معا.

والعمنى المفهوم من قوله: «وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ» أي أحكمت إغلاق باب المخْدع الذي كانا فيه، وباب الْبَهْو الذي يكون أمام باب الغرف في بيوت العظماء، وباب الدار الخارجي، وربما كان هناك غيرها أبواب أخرى متداخلة في أمثال هذه القصور، وروي أن الأبواب كانت سبعة، ولا دليل على ذلك، فقد تكون سبعة أو أكثر أو أقل، والمراد أنها قد أحكمت إغلاق كل الأبواب التي يحتمل أن يأتي منها أي قادم، سواء من داخل القصر أو خارجه.

الهدف من تغليق الأبواب وتدبير الخلوة من وجهة امرأة العزيز:

ويرجع ذلك إلى ما يلي:

١) أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة، لاسيّما إذا كان حراما، ومع قيام الخوف الشديد[٦].

٢) الخوف من دخول أحد الخدم أو الجواري الذين اعتادوا الدخول بلا إذْن ليعملوا

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٠.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير المراغي/ ١٢/ ١٢٩.

(٥) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٠

(٦) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١١٥.



عملهم، أو الخوف من أن يبغتهم العزيز نفسه إذا جاء على حين غرَّة وفي غير وقت مجيئه المعتاد.

٣) خوفها أن يتأبّىٰ يوسف عليها ويركن إلي الهروب من بين يديها(١).

٤) إبعاد كل ما من شأنه أن يؤثّر في نفس يوسف ويمنع استجابته لها، فلعل امرأة العزيز قد ظنت أن عدم التفات يوسف - عليه السلام - إليها إنما يرجع إلى أمور تحول دون ظهور ما في نفسه، مثل حيائه منها لمكانة زوجها عنده، أوْ لفضْلها عليه، أو لمكانتها الاجتماعية، أو محافظة على سُمْعَتها أن تلوكها ألسنة الخدم والحشم بسوء، لذا عزمت امرأة العزيز علىٰ إزالة هذه الحواجز بتوفير الخلوة التي لا تنالها العيون(٢).

فأحكمت إغلاق الأبواب حتى لا يستطيع أحد فتحها إلا من جهتها.

الانتقال من دور اللُطف والإيماء إلى دور الصراحة والوضوح:

قوله تعالى: «وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ» «هيت» اسم للفعل وفيه ضمير المخاطب، كصَهْ ومَهْ، ومعناه: أسرع، يقال: هيت إذا دعاه، قال الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين أخا *** العراق إذا أتيتا

أن العراق وأهله *** سَلَمٌ عليك فَهَيْتَ هَيْتَا

يريد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو لازم لا يتعدى إلى مفعول، كما أن مُسَمّاه كذلك، و(لك) من قولك (هيت لك) تبْيينٌ للمخاطب جئ به بعد استغناء الكلام عنه، كما كان كذلك في (سُقْيًا لك) ألا ترى أن (سُقْيا) غير محتاجة إلى (لك) لأن معناه سَقَاكَ الله سُقْيا، وإنما جئ بـ(لك) تأكيداً وزيادة، فهي في (هيت لك) كذلك(٣) وهذه الكلمة (هيت) لا مصدر لها، ولا تَصَرُّفٌ، ولاَ تَثْنيَة، ولا جمع ولا تأنيث، يقال للإثنين: هَيْتَ لكما، وللجميع: هيْتَ لكم، وللنِّسْوَة: هَيْتَ لَكُنَّ(٤).

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٢٢. (٢) يوسف بن يعقوب/ ٧٣.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٦٧. (٤) زاد المسير/ ٤/ ٢٠٣.



و(هيتَ) قُرِئَتْ كـ(لَيْتَ، وَقيلَ، وَحَيْثُ) أي: (هَيْتَ) و(هِيتَ) و(هَيْتُ) وقرئت أيضا بكَسْرِ الهاء وبهمزة ساكنة بعْدَها وفتح التاء وضمّها، أي: (هِئْتَ) و(هِئْتُ)[1] وأولى القراءات فيها قراءة من قرأ (هَيْتَ لك) بفتح الهاء والتّاء وتسكين الياء، وهي أجْوَدُ اللّغات وأكثرها في كلام العرب، قاله الزجاج، ومعناها: هلم لك، أي: أقبل على ما أدعوك إليه[2].

وقال الإمام الطبري عن هذه القراءة، إنها أولى القراءات، لأنها اللغة المعروفة في العرب دون غيرها، وأنها فيما ذُكِرَ قراءة رسول الله ﷺ[3] فيروى عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: أقْرَأني النبي ﷺ (هَيْتَ لك)[4][5] فهذه القراءة أصحّ وأفصح، قال الشاعر:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما *** قال داع من العَشيرة هَيْتَا[6]

واختلفوا في أصل هذه الكلمة على أربعة أقوال:

(أحدها): أنها عربية، قاله مجاهد، وقال ابن الأنباري: وقد قيل إنها من كلام قريش، إلا أنها مِمّا دُرِس وقلَّ في أَفْهَامِهِم أخيراً، فأتى الله به لأن أصله من كلامهم.

(الثاني): أنها بالسريانية، قاله الحسن.

(الثالث): بالحورانية، قاله عكرمة والكسائي، وقال الفراء: يقال إنها لغة لأهل حوران، سقطت إلى أهل مكة فتكلموا بها.

(الرابع): أنها بالقبطية، قاله السُّدّيُّ[7]. قال الإمام أبو حيان بعد ذكر الأقوال السابقة: ولا يبْعُدُ اتّفاق اللغات في لفظ، فقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم[8].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٦. (٢) انظر: زاد المسير/ ٤/ ٢٠٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ١٨١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٤٦٢ على شرط الشَّيْخيْن.

(٥) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٢٧. (٦) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٨.

(٧) زاد المسير/ ٤/ ٢٠٢. (٨) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٤.



امرأة العزيز وقرار السقوط إلى الهاوية:

إنه من شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدَة عن نفسها لا مراوِدة، حتي إن حُماة الأنوف من كبراء الرجال، ليطأطئون الرءوس للفقيرات الحسان ربات الجمال، ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال، بل إن الملوك ليذلُّون أنفسهم لمملوكاتهم وأزواجهم ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيداً لهنّ، كما رُوي عن بعض ملوك الأندلس:

نحن قومٌ تذيبُنَا الأعيُنُ النجـ

ل[1] على أننا نذيب الحديدا

فترانا لدى الكريهة أحْراً

راً وفي السِّلْم للملاح عبيداً

ولكن هذا العبْد العبرانيّ الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله، وفي جلاله وكماله، وفي إبائه وتألّهه، قد عكس القضيّة، وخرقَ نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنّعها، وهبط بالسيدة المالكة من عزّة سيادتها وسلطانها، وَدَهْوَرَ[2] الأميرة (الاستقراطية) من عرش عظمتها وتكبّرها، وأذلّهَا لعبْدها وخادمها[3] وقرّرت أن تهبه نفسها وأن تترامي عليه، عساها أن تتمكن من إرواء ظمئها القاتل، وأن تطفئ لهيب الحب الذي لم تستطع الصبر على اصطلاء نيرانه، وأن تنفّس عن سرِّها ما لم تقْدر على كبحِهِ ولاكتمانه، وكيف يُطْلَب منها أن تصْبر وكل ذرَّةٍ في وجودها تَسْعَى إلى فتاها[4].

الموقف الحرج:

عندما تكون المغازلة بالكلام يمكن حسمها، وعندما يقتصر المغازل على الإثارة

---

(١) الأعين النّجل: الحسان الواسعة، يقال: نَجِلَ نجْلاً: اتَّسعَتْ عينُه وَحَسُنَت.

(٢) دهور: يقال: دَهْوَرَ الشيء: جمعه وقذَف به في مَهْواه.

(٣) تفسير المنار/ ١٢ /٢٧٨.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٧٣.



بالألفاظ، قد يكون من المستطاع كبْحها، ولكن الموقف الحرج حقيقة يكون حينما يتخطى الغزل هذا الدور[1] لتكون الطامة الكبرى...، إن امرأة العزيز، وبعد أن استنفدت انتحال جميع الأسباب التي تمكنها من إبراز مفاتنها وعرْض محاسنها، ومواضع الفتنة من أنوثتها لِيَقَعَ محبوبها في شراكها ويستجيب لها، وهي تفعل ذلك آمنة مطمئنّة لأنها في بيتها، ولَمَّا لم يُجْدِها جميع ذلك نفعا شرعت في تدبير الخلوة التي تمكنها من نيل مرادها، فتخيّرَت يوما غاب فيه زوجها، واحتجّت بما يتطلب صرف خدمها لتأمن الرقيب، وأخذت زخرفها وازيّنت وأحكمت إغلاق الأبواب... ولما استوثقت من قيامها بالتّرتيبات التي تحول دون تعكير صفو خلوتها، أو مفاجأتها، احْتَجَّتْ ببعض الشئون لتدعوه - عليه السلام - إلى مخدعها، فلما حضر إليها أغلقت المخدع وأزالت كل أثر لِلْحَيَاءِ وَرَفَعَت كل كلفة تحول بينه وبينها، ولم تتردّد في التصريح له بما لا تصرّح به الأنثى في هذه الأحوال وقالت: «هيت لك» أي هلم وأقبل عَلَيَّ، فقد وهبت نفسي لك وتهيَّأت لهذه الساعة[2] وَاقْتُصِرَ على هذا «هيت لك» وهو منتهى النّزَاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الإغراء والتّهْييج الذي تقتضيه الحال[3].

وما كانت المسكينة تدري وهي تقول له «هيت لك»... أنها تقف أمام كمالات النبوة وجلالها وقد سيّتها:

ظنت امرأة العزيز، وبعد أن صرّحت بالقول والفعْل عن مقصدها، أن يوسف - عليه السلام - سيسارع إليها لتنال منه وينال منها، وما كانت المسكينة تدري أنها تطلب المستحيل وتبتغي ما لا يطال، وأنها إنما تقف أمام كمالات النبوّة ونورها وجمالها...،

(١) نظرات في أحسن القصص / ١ / ٣١٩.
(٢) يوسف بن يعقوب / ٧٤-٧٥.
(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٢٧٦.



أمام من اصطفاه الله تعالى ليكون نبيا ورسولا...

أمام من آتاه الله الحكم والعلم من وقت بلوغه الأشد واستكمال القوة...

أمام من ملَكَ نفسه وهواه وأعلمه الله الحقائق على ما هي عليه...

أمام من شهد الله له بالإحسان فزاده بإحسانه إحساناً...

أمام من نشأ في بيت النبوة وترعرع في بيت الرسالة...

أمام من تتلمذ على يد نبي ورسول هو أبوه يعقوب - عليه السلام -...

أمام الكريم ابن الكرماء المصطفين الأخيار...

أمام من قلبه موصول بربه آناء الله والنهار...

فهيهات هيهات يا امرأة العزيز...

وَثَبَتَ يوسف - عليه السلام - على قداسته وطهارته واعتصم بالله:

قوله تعالى: «قالَ مَعَاذَ اللهِ» العوذ: التجاء من العبد إلى الله تعالى لأن ينجيه من مكروه ويحفظه من محذور، و«مَعَاذ» مصدر ميمي للعوذ، و«الله» اسم الله الأعظم الذي تتعلّقُ به جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا لله تبارك وتعالى.

وجملة «معاذ الله الخ....» بيان مستأنف لجواب يوسف - عليه السلام - مبنيّ على سؤال تقديره، وماذا قال بعد تسفُّلِ المرأة وهي سيّدته إلى هذه الدركة من التذلُّل له، فقيل: «قال معاذ الله الخ...» وهو كما قالت مريم ابنة عمران - عليهما السلام - للملك الذي تمثَّل لها بشراً سوياً، «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا»[1][2].

و(معاذ) مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله[3] وهو منصوب بفعل محذوف، أي: أعوذ بالله معاذا، والمعنى قال يوسف جوابا للمرأة: أعوذ بالله

---

(١) مريم/١٨.

(٢) تفسير المنار/١٢/٢٧٦-٢٧٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/٦/١٢/٢٥١.



تعالى مَعَاذاً وألتجئ إليه التجاء أن يحفظني من أن أستجيب لهذا المحذور وهذا دعاد من يوسف - عليه السلام - دعا به ربه أن يحفظه من هذا المكروه(١).

وهذا القول (معاذ الله) فيه ما فيه من الإبعاد بنفسه - عليه السلام - غاية البعد عما تطلب، والبغْض الشديد له، واللجوء إلى الله تعالى والاستجارة به، والتحصُّن به مما تدعوه إليه، واجتنابٌ منه على أتَمِّ وجه وأكمل وضع لما تَطْلُب منه، فهو منكر مَمْقُوت يجب أن يُعاذ بالله تعالى ويُسْتَجَار به للخلاص منه، وفي هذا القول أيضا، إعلام بالإباء والترفع عن هذا العمل المنكر، وإعلان بانصرافه التام عنه، فكلمة (معاذ الله) أعطت مفهومَيْن، (الأول)، أنه أبي إباء تاما ولم يوافق، (الثاني) أنه أقبل على الله تعالى يطلب منه العوْن ويستعيذ به من ذلك الأمر الذي تريده(٢).

قوله تعالى: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» تعليل أول للامتناع،

وقد سبق الكلام عن اختلاف العلماء في من يعود عليه الضمير في قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» والاختيار هو عود الضمير على الله تعالى بالنسبة لمراد يوسف - عليه السلام - وعود الضمير على العزيز بالنسبة للمرأة، وهذا من الإعجاز القرآني في هذه الآية الكريمة.

فعلى مراد يوسف - عليه السلام - يكون قوله: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» تعليل للاستعاذة نفسها، أي إنه تعالى وليّ أمري كله، أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفّقني له من الأمانة والصيانة، فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم، وعلى مراد امرأة العزيز، والتي لا تفهم سواه، يكون قوله «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى أن يكون مؤثرا عندها، وَداعيا إلى اعتباره(٣) وكانوا يطلقون (الرب) على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٧٤.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) انظر: تفسير القاسمي / ٤ / ٣٥٦، وتفسير المنار / ١٢ / ٢٧٧.



مثواي، أي منزلي، وأحسن إلَيَّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله[١] وهكذا، فيوسف - عليه السلام - بعد الاستعاذه جاء بإحسانه تعالى إليه، وصرح بأن الله تعالى قد أحسن إيواءه، إذ جاء غريبا ودخل مصر ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولا معين ولا أهل، فآواه الحق تبارك وتعالى إليه، وأحاطه بعنايته الشاملة، وكَلأهُ برعايته التامة، وقد أحسن مثواه، ولن يجعل لأحد سبيلا كي يدنّس هذا المثوى، فلا سبيل إلى الفاحشة مطْلَقاً، فإن «المثوى» الذي تدنِّسُه الفاحشة يكون مَهيناً[٢]. هذا، ومن جملة إحسان الله إليه، إكرام العزيز له على غاية من الإعزاز والاحترام.

قوله تعالى: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» وهذه الجملة تعليل ثان للامتناع وهو خاص بنزاهته - عليه السلام - والضمير المجعول اسما لـ(إنَّ) ضمير الشأن - فقط - يفيد أهمية الجملة المجعولة خبراً عنه، لأنّها موعظة جامعة، وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم، لأن فيها ظلم كليهما بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيِّده الذي آمنة على بيته وآمنَها على نفسها، إذ اتخذها زوجا وأحصنها[٣] قال لها ذلك - إنه لا يفلح الظالمون - لصرفها عن قصدها وتنبيه لها عسى أن تتوب إلى رشدها، وقد نَفَى الفَلاَح نفْيا قاطعا عن الظالمين، ومهما اعتقد الظالم أنه سيكتسب من وراء الظلم من منفعة عاجلة أو لذّة فانية تافهة، فإن مآله هو الخسران المبين، وما أفلح ظالم أبداً في تاريخ البشرية، ويدخل في سلك الظّلمة كل من سلك سبيلهم وسار على منهجهم، وأقبح الظلم هو ظلم الإنسان لمن أحسن إليه، فما بالك لو جازي من أحسن إليه بأسوإ الإساءة[٤].

ترتيب غاية في الحسن:

وهذا الترتيب المذكور في الآية الكريمة «مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٣.

(٢) انظر: يوسف بن يعقوب / ٧٧-٧٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٢.

(٤) يوسف بن يعقوب / ٧٨.



الظَّالِمُونَ» غَاية في الحسن، فَالانْقِيَاد لأمْر الله تعالى وَتكليفه أهم الأشياء، لكثرة إنْعامه تعالى وألطافه في حَقِّ العبْد، فقوله «مَعَاذَ اللّهِ» إشارة إلى أنَّ حَقّ الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضا حقوق الخلْق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقّي، يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضا فإنّ صَوْنَ النَّفْس عن الضَّرَر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة، واللّذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها، فقوله: «إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاث مرتبة على أحسن وجه[1] فياله من دليل على إحسانه وحكمه وعلمه، فإنه لما رآى المقام الدحْض بادر بالاعتصام بمن بيده ملكوت كل شيء، ثم استحضر إحسانه إليه الموجِبَ للشكر عليه، المباعد عن الهفوات ثم مقام الظلم وما يوجب لصاحبه من الحزْن بعدم الفلاح[2].

وكان وقوع هذه الجوابات الثلاث على المرأة أشبه بالصواعق، نعم! كانت هذه الجوابات الثلاث «مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» أشبه بصواعق ثلاث نزلت على أم رأس المرأة فَجْأَةً وبلا هوادة، صواعق أصابتها بصدمة شديدة مروّعة، دوَّت مزلزلة في كل كيانها، ودمَّرَت كل بارقة أمَل في أن تحظى بأي شيء مما تطلب منه،... كانت تَتَمَنّاه عشيقا لها لتروى ظمأها الخسيس، وتطفئ نارها المنْتنة، فهالها وصدمها وحطّمها أن وجدته - عليه السلام - يحيا في سماء عالية سامية طاهرة، بعيدا... بعيدا... بعيدا... عن أرض شهواتها الرخيصة المحرمة، ورأته يقف منها موقف الواعظ المؤدب لها، ينهاها ضِمْناً عن الفحشاء والمنكر، ويأمرها بحفظ عرض زوجها الذي أكرمها وجعلها زوجة له، ويضع أمامها قاعدة إلهية عادلة، وهي «إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» وكانت هذه الجوابات الثلاث - أيضا - بمثابة سدود ثلاثة:

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١١٧.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٣٠.



نعم! كانت بمثابة ثلاثة سدود حصينة أقامها - عليه السلام - في لحظة واحدة بينها وبين ما تطلب منه، سدود أشبه بسدّ يأجوج ومأجوج الذي أقامه ذو القرنْين بينهم وبين القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا «فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا»(١) (أما السد الأول)، فقد أقامه عليه السلام بإحسانه ومراقبته وخوفه من الله تعالى، ولجوئه إليه ليحفظه من هذا المنكر الهائل الذي تدعوه إليه، «قال معاذ الله».

(وأما السدّ الثاني)، فقد أقامه عليه السلام من وجوب مقابلة الإحسان بالإحسان، فكيف يقابل إحسان الله تعالى إليه بمعصيته، وكيف يقابل - في نفس الوقت - إكرام العزيز له بخيانته مع امرأته «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ»

(وأما السدّ الثالث)، فقد أقامه عليه السلام من قاعدة أن الظالم لا يفلح أبَداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فكيف يظلم نفسه بفعل ما حرَّمه الله تعالى في كل الشرائع، ثم كيف يظلم غيره بالاعتداء على حرماته «إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

مَوْقِفَانِ مُتَبَايِنَانِ: فهذان موقفان متباينان غاية التَّبَاين، موقف المرأة بكل ملابساته التي سبقت، والتي تنازلت غاية التنازل من أجل هواها، وموقف يوسف الشّاب المملوك الذي هو في بيتها، وتعرّض لمحاولاتها ولم يطاوعها، واعتصم بالله واستعاذ به ولجأ إليه، فالمرأة أذلها هواها، ويوسف - عليه السلام - أعزه اعتصامه بالله تعالى(٢).

وزلزلت المرأة زلزالا شديداً: ورأت نفسها تسقط فجأة من عرشها العالي لتهوى إلى أعماق الذلّة والمهانة والحقارة، فاقِدَةً لآخر ذَرَّةٍ من عزتها وكرامتها وشرفها، أمام هذا الصمود اليوسفيّ الرائع المؤيد بحفظ الله تعالى وعصمته، وإنها ما كانت تتوقَّعُ أبدا أن يقول لها خادمها وفتاها المطيع، وبعد كل ما صنعت وأعدت وهيأت وطلبَتْ، «مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

---

(١) الكهف / ٩٧.

(٢) وقفات مع القصة في كتاب الله (عبد الرزاق عيد) مجلة التوحيد (السنة ٢٦) العدد ٣٢.



المضمون العام للآية الكريمة:

إن امرأة العزيز التي يقيم يوسف - عليه السلام - في بيتها، لما استنفدت انتحال جميع الأسباب لإبراز مفاتنها وأنوثتها تريد إغراءه - عليه السلام - عمدت إلى تدبير خلوة محصنة تمكنها من نيل مرادها، فتزينت وتصنعت وتهيأت، ودعت يوسف - عليه السلام - إلى مخدعها وغلقت الأبواب وصرحت له بما تريد منه (وقالت هيت لك) أي هلم وأقبل علي فقد وهبت نفسي لك الساعة، فأجابها يوسف-عليه السلام- (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله عز وجل وألتجئ إليه مما تريدين مني، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين، «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ»، إن سيدي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندك وأوصاك بإكرام مثواي، فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه في أهله، (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) إن الله تعالى حكم على الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بعدم الفلاح، لا في الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنّاته.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - المراودة لون من ألوان التحاليل لجعل المراوَد يوافق على ما يطلبه المراوِد منه، وهي على النفس أشد وأخطر.

٢ - وقوع المراوَد تحت سيطرة المراوِد قد ييسر الإيقاع به، وفي نفس الوقت يصعب مدافعته.

٣ - إن الرفث لا يؤتي إلا في الأماكن المستورة، خاصة إذا كان حراماً وخيف كشفه، وإن كان يوجد في هذا الزمان من أسافل الناس من يمارسون الفحشاء بكل ألوانها علناً جهاراً في البلاد غير المسلمة، يفعلونها والعياذ بالله تعالى - أفراداً وجماعات بطرق تستحي منها أخس الحيوانات، وهذا يذكرنا بقول لوط - عليه السلام - لقومه: «وتأتون في ناديكم المنكر»(١).

---

(١) العنكبوت/ ٢٩.



٤ - سيطرة الشهوة على المرأة تدفعها لتكون هي الطالبة لا المطلوبة، فتفرّط في أعز ما تملك لتنال حظها من الرجل الذي تشتهيه.

٥ - الاعتصام بالله تعالى ومراقبته جل شأنه والخوف منه جل جلاله، أقوى سلاح ضد ارتكاب المنكرات التي حرمها الله تعالى.

٦ - من السبعة الذين يظلهم الله تعالى بظله يوم لا ظل إلا ظله، رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال - أي لارتكاب الفاحشة - فقال إني أخاف الله.

٧ - تأثير جمال الشاب وفتوته على المرأة خاصة إذا كان معها في بيت واحد.

٨ - خطورة اتخاذ الخدم من الرجال والنساء في البيوت، واختلاط الرجال منهم بالنساء، واختلاط النساء منهن بالرجال، مما يترتب عليه هتك الأعراض وارتكاب المحرمات، وذهاب الأخلاق، ولولا مخالطة امرأة العزيز لعبدها وخادمها يوسف لما حصل شيء منها تجاهه، قيل لأعرابية وقد زنت بعبدها، لم فعلت ذلك، قالت: طول السواد وقرب الوساد (السواد: شخص الإنسان) فهو أمامها ليل نهار، ومنامه قريب منها. وصدق رسول الله - ﷺ - القائل: «ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» (رواه البخاري في صحيحه) وإنه لو لا عصمة الله تعالى لعبده يوسف المصطفى، لحدث ما لم تحمد عقباه.

٩ - على المرْءِ إذا ما اضطر لجَلْب خادم أو خادمة لبيته، أن يحتاط في ذلك ما أمكنه، فلا يترك خادمه الرجل يختلط بامرأته أو بناته، ولا يترك خادمته المرأة تختلي بأبنائه، ففي ذلك صون كريم لنفسه وأهل بيته واتباع لأمر ربه.

١٠ - خطورة مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله المؤدي إلى الاختلاط، ففي ذلك خطر عظيم، وعلى المرأة المسلمة ألا تخرج للعمل إلا لضرورة، فإن خرجت التزمت بتعاليم ربها، وعلى الدولة المسلمة أن تدبر للنساء المسلمات مكاناً لائقاً يعملن فيه.

١١ - خطورة الاختلاط في التعليم بين الطلبة والطالبات، خاصة في المراحل المتوسطة فما فوقها، وقد حدث بسبب ذلك ومازال، مفاسد ومنكرات لا تطاق.



١٢ - خطورة تعليم النساء للأولاد الذكور البالغين، وتعليم الرجال للبنات البالغات، فلكم جر ذلك على الناس مصائب مهلكة.

١٣ - خطورة استقبال المرأة للرجال في غياب زوجها، ففي ذلك شر مستطير.

١٤ - خطورة انتشار الصور المحرمة والأغاني الفاجرة الداعية إلى الإباحية والرذيلة، وأشدها فتكاً بالرجال والنساء، تلك الصور الملعونة التي تبثها القنوات الشيطانية عن طريق الأقمار الصناعية في المشارق والمغارب.

١٥ - في الالتزام بمنهج الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً وسلوكاً حماية لكل المجتمع من كل شر وخطر.

١٦ - على رب الأسرة أن يبذل كل جهده في حماية أسرته من كل سوء، فهو راعيها والمسئول عنها أمام الله والناس.

١٧ - الزنا يورث الإنسان الفقر والإصابة بأشد الأمراض فتكاً وعذاباً بالإنسان، مثل مرض (الإيدز) وغيره، وفوق ذلك غضب الله تعالى.

١٨ - نفي الفلاح نهائياً عن الظالمين، وما أفلح ظالم أبداً في تاريخ البشرية.

١٩ - أقبح الظلم ظلم الإنسان لمن أحسن إليه.

٢٠ - الكرام الأطهار يورثهم الله تعالى المكانة الكريمة والعز والرفعة في الأولى وفي الآخرة، والمخلصون لله تعالى يدفع عنهم كل شر وينصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم.

٢١ - المخالفون لمنهج الله تعالى والمتعدُّون لحدوده يسارعون بأنفسهم وهم لا يدرون نحو الهلاك والعذاب والحسرة في الدنيا قبل الآخرة.

٢٢ - في وقفة يوسف - عليه السلام - في مواجهة امرأة العزيز وما تريده منه درس بليغ في الوفاء والأمانة وحفظ الفرج، وعلى الشباب المسلم أن يتمثلوا به في كل زمان ومكان.



فهرس الجزء الأول «الباب الأول»

من أول السورة الكريمة - بعد المقدمة - إلى الآية الثالثة والعشرين

الموضوع	رقم الصفحة
كلمات من نور.. عن يوسف - عليه السلام -	٥
كلمة لجنة آسيا «بدولة الكويت» للدكتور عادل عبد الله الفلاح	١١
كلمة فضيلة الشيخ الدكتور سيد محمد نوح	١٣
كلمة فضيلة الشيخ السيد عبد المقصود عسكر	١٧
مقدمة المؤلف	٢٧
ما تشتمل عليه الموسوعة	٣٥
مقدمة تمهيدية وتشتمل على ثلاثة مباحث	٣٩
المبحث الأول	
أولاً - القرآن الكريم يتحدى	٣٩
ثانياً - الحاجة إلى علم التفسير	٤٠
ثالثاً - شرف علم التفسير	٤١
رابعاً - معنى التفسير	٤٢
خامساً - معنى التأويل	٤٣
سادساً - أقسام التفسير	٤٥
سابعاً - العلوم التي يحتاج إليها المفسر	٥٤
ثامناً - الأمور التي يجب على المفسر أن يلتزم بها	٥٤
تاسعاً - الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها	٥٥
عاشراً - المنهج الأقوم في التفسير	٥٦



الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الثاني	
أضواء على القصص القرآني	٦٠
أولاً - معنى القصص القرآني	٦٠
ثانياً - القصص القرآني والحكاية	٦١
ثالثاً - أنواع القصص القرآني	٦١
رابعاً - أهم خصائص القصص القرآني	٦٢
خامساً - أهم الخصائص الفنية للقصص القرآني	٦٥
سادساً - عناصر القصة في القرآن الكريم	٧١
سابعاً - أهم أغراض القصة القرآنية والقيم التي تضمنتها	٧٧
ثامناً - القصص القرآني والتكرار	٨٥
● حكمة تكرار القصص القرآني	٨٩
تاسعاً - القصص القرآني حقيقة تاريخية واقعة	٩٤
(أ) الرد على من زعم بأن القصص القرآني خيال لا حقيقة	٩٥
(ب) الرد على من ادعى أن القصص القرآني مجموع من التوراة والإنجيل	٩٨
(جـ) الرد على من زعم أن القصص القرآني ما هو إلا أساطير الأولين	١٠٣
عاشراً - الرد على من زعم أن يوسف - عليه السلام - لم يكن في مصر هذه	١٠٦
حادي عشر - الرد على من أنكر أن سورة يوسف - عليه السلام - من القرآن	١١٣



الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الثالث	
معالم اختصت بها سورة يوسف - عليه السلام - وقصته	١١٤
المعلم الأول	
الإطار التاريخي لسورة يوسف - عليه السلام -	١١٤
المعلم الثاني	
الفترة التاريخية التي جرت فيها أحداث قصة يوسف - عليه السلام -..	١١٦
المعلم الثالث	
ملامح المجتمعات في عصر يوسف - عليه السلام -	١٢٠
المعلم الرابع	
ملامح الشخصيات والدروس النفسيّة للقصة	١٢٣
المعلم الخامس	
قصة يوسف - عليه السلام - تمثل المنهج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء القصصي	١٢٥
المعلم السادس	
في قصة يوسف - عليه السلام - المثل الأعلى في الطهر والعفاف..........	١٢٧
المعلم السابع	
قصة يوسف - عليه السلام - قصة عائلة وقصة رسول ودعوة	١٢٩
المعلم الثامن	
موقع يوسف - عليه السلام - من شجرة النبوة المباركة	١٣١
المعلم التاسع	
أهم وجوه المناسبة بين نبينا محمد مع قريش وبين النبي يوسف مع إخوته	١٣٤
المعلم العاشر	
سورة يوسف - عليه السلام - اشتملت على قصة كاملة لم تتكرر في	



الموضوع	رقم الصفحة
القـرآن الكريم	١٣٦
المعلم الحادي عشر	
سورة يوسف – عليه السلام – من السورة القرآنية التي اقتتحت بالحروف المقطعـة	١٣٨
أولاً – أقوال العلماء عن حمكمة اقتصار القرآن الكريم على ذكر عدد تلك الحـروف أوائل بعض السـور	١٤٠
ثانياً – أقوال العلماء في المعنى المقصود من الحروف المقطعة	١٤٥
ثالثاً – الرأي المختار في المقصود من مجئ الحروف المقطعة في فواتح بعض السـور	١٥١
رابعاً – متى يكون للحروف المقطعة محل من الإعراب ومتى لا يكون؟	١٥٥
المعلم الثاني عشر	
سورة يوسف – عليه السلام – كلها مكية	١٥٧
المعلم الثالث عشر	
مناسبة سورة يوسف – عليه السلام – لما قبلها (هود)	١٥٩
المعلم الرابع عشر	
سبب نزول هذه السورة الكريمة	١٦٢
(الباب الأول) الفصل الأول	
افتتاح السورة الكريمة – سورة يوسف – عليه السلام – والمقدمة الأولى للقـصـة	١٦٧
القول في الاستعاذة	١٧١
القول في البسملة	١٧٦
الآية الأولى (الٓر تلك آيات الكتاب المبين)	١٨١
الآية الثانية (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)	١٩٣



الموضوع	رقم الصفحة
● مادام القرآن قد أرسل للناس كافة، فلماذا كان بالعربية والأمم مختلف ألسنتها؟	١٩٩
● معجزة القرآن الكريم ومعجزة الرسل السابقين	٢٠٠
● هل في القرآن الكريم غير اللسان العربي؟	٢٠١
● إنزال القرآن الكريم باللسان العربي تشريف عظيم للعرب وللعربية	٢٠٣
الآية الثالثة (نحن نقص عليك أحسن القصص... الآية)	٢٠٧
● الحكمة من سرد بعض الوقائع التاريخية في القرآن الكريم	٢١٣
● معنى الوحي	٢١٤
● صور الوحي	٢١٤
● أصناف الخلق الذين توجّه إليهم الوحي	٢١٦
● الفرق بين الوحي والإلهام	٢١٦
الفصل الثاني	
الآية الرابعة (إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت أحد عشر كوكبا... الآية)	٢٢١
● مبحث هام عن الرؤيا	٢٣١
● عود إلى الآية الكريمة بعد الكلام على الرؤيا	٢٤٤
● حكمة تكرار (رأيت) في الآية الكريمة	٢٤٩
● كيف سجدت الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ليوسف - عليه السلام -	٢٥٠
● الإعجاز في رؤيا يوسف - عليه السلام -	٢٥١
● الرمزيّة في رؤيا يوسف - عليه السلام -	٢٥٢
● كم كان بين الرؤية وبين تأويلها	٢٥٣
● رؤيا يوسف رؤيا إلهام	٢٥٤



الموضوع	رقم الصفحة
● الرؤيا توطئة لأمر عظيم	٢٥٥
الآية الخامسة (قال يا بني لا تقصص رؤياك... الآية)	٢٥٨
● يعقوب - عليه السلام - بين فرح وخوف..................	٢٦٢
● سبب النهي عن قص الرؤيا	٢٦٤
● عداوة الشيطان للإنسان (مبحث)	٢٦٩
(أ) من هو إبليس؟	٢٦٩
(ب) قصة العداوة الأبدية بين الشيطان والإنسان	٢٧٠
(جـ) العداوة الشيطانية للإنسان من المهد إلى اللحد	٢٧٣
(د) الفرق بين عداوة الشيطان للإنسان وعداوة الإنسان للإنسان	٢٧٣
(هـ) طرق غواية الشيطان وإضلاله	٢٧٤
الآية السادسة (وكذلك يجتبيك ربك... الآية)	٢٧٧
(وكذلك يجتبيك ربك) البشارة الأولى	٢٧٩
(ويعلمك من تأويل الأحاديث) البشارة الثانية	٢٨٠
(ويتم نعمة عليك) البشارة الثالثة	٢٨٣
● العلاقة بين العلم والحكمة	٢٨٧
الفصل الثالث	
الآية السابعة (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين)..........	٢٩١
غايات الآيات الظاهرة لا تعرف حقائقها إلا منها..................	٣٠٣
الآية الثامنة (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب... الآية)	٣٠٥
(أ) كان يعقوب - عليه السلام - يحب كل أبنائه	٣٠٨
(ب) يعقوب - عليه السلام - يضاعف محبته ليوسف	٣١٠
(جـ) هل كان الحب ذاته سببا للتآمر على يوسف	٣١١
(د) كيف لاحظ إخوة يوسف هذا التفضيل..................	٣١٢



الموضوع	رقم الصفحة
(هـ) لا يغني حذر عن قدر	٣١٢
طرح قضية الحب من وجهة نظر الإخوة	٣١٦
الآية التاسعة (اقتلوا يوسف أو اطرحوا أرضا... الآية)	٣٢٢
الحسد أشر الأخلاق الذميمة (مبحث)	٣٢٦
كل ذي نعمة محسود. كثرة الحسد بين الأقارب	٣٣١
أمور يندفع بها الحسد	٣٣٣
الآية العاشرة (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف... الآية)	٣٤٤
هل المراد بالجب جب معروف أم لا؟ مكان الجب	٣٥٢
الفصل الرابع	
الآية الحادية عشرة (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا... الآية)	٣٦٥
الآية الثانية عشرة (أرسله معنا غدا يرتع... الآية)	٣٧٢
الآية الثالثة عشر (قال إني ليحزنني... الآية)	٣٧٩
الآية الرابعة عشر (قالوا لئن أكله الذئب... الآية)	٣٨٥
يعقوب - عليه السلام - في موقف حرج	٣٩٠
الآية الخامسة عشر (فلما ذهبوا به... الآية)	٣٩٣
الموقف من المتعارضات ما المراد بالوحي في قوله «وأوحينا إليه»	٣٩٥
● المحنة الأولى ليوسف - عليه السلام -	٤٠٤
● الجب والغار	٤١٢
إخوة يوسف... هل هم أنبياء (مبحث)	٤١٣
● الموقف الحق بشأن إخوة يوسف	٤١٩
الآية السادسة عشر (وجاءوا أباهم عشاء يبكون)	٤٢١
الآية السابعة عشر (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا... الآية)	٤٢٨
الآية الثامنة عشر (وجاءوا على قميصه بدم كذب... الآية)	٤٣٧



الموضوع	رقم الصفحة
الآية التاسعة عشر (وجاءت سيارة)	٤٦١
الآية العشرون (وشروه بثمن بخس... الآية)	٤٧٢
الموقف من المتعارضات: عود الضمير في (شروْه)	٤٧٣
الآية الواحدة والعشرون (وقال الذي اشتراه من مصر... الآية)	٤٨٤
حياة يوسف - عليه السلام - الجديدة في قصر العزيز	٤٩٧
التمكين الأول ليوسف في أرض مصر	٤٩٩
تعليم يوسف - عليه السلام -	٥٠١
الآية الثانية والعشرون (ولما بلغ أشده... الآية)	٥٠٩
المراد بالأشد في الآية الكريمة	٥١٢
الآية الثالثة والعشرون (وراودته التي هو في بيتها... الآية)	٥٢٤
الموقف من المتعارضات: على من يعود الضمير في قوله: «إنه ربي أحسن مثواي»؟	٥٢٦
الفهرس	٥٥٧

طبع بمطابع القبس التجارية



2010-06-27
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

موسوعة
تفسير سورة يوسف (عليه السلام)

منهج جديد في التفسير
يجمع بين تأويل السَّلف المحقق، وتفسير الخلف الموفق

تأليف
عليش متولي بدوي البني

قدم لها: فضيلة الشيخ الدكتور سيد محمد نوح،
الأستاذ بكلية الشريعة - جامعة الكويت -

وفضيلة الشيخ السيد عبد المقصود محمد عسكر
الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - سابقاً

تحت إشراف
الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - لجنة آسيا بدولة الكويت -
وتحدث بلسانها مديرها الدكتور عادل عبدالله الفلاح،
وكيل وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت

طبع على نفقة
وقف المرحوم بدر جاسم النصف غفر الله له

«الجزء الثاني - الباب الثاني»
من الآية الرابعة والعشرين «الهم»
إلى الآية السابعة والخمسين
«بعد تمكين الله تعالى ليوسف في أرض مصر»



«الفصل الأول»
(من الباب الثاني)

«الهم»

الآية الرابعة والعشرون



رفع
المسهم

آية الفصل الأول

(من الباب الثاني)

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾



رفع
المسهم

«الآية الرابعة والعشرون»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «لِنَصْرِفَ» قرأ الأعمش (لِيَصْرِف) بياء الغَيبة عائداً على ربه[١]

قوله تعالى: «الْمُخْلَصِينَ» بكسر اللام في كل القرآن، وقرأها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب، وكذلك في مريم (إِنّه كَانَ مُخْلِصاً) وتابعهم نافع في سورة مريم في قوله (مخْلِصاً) فكسَرها. واتفقوا على كسر اللام فيما فيه الدّين نحو (مخلِصِين لَهُ الدّين) و(مخْلِصاً له ديني) ونحوهما.

والوجه أن المعنى، المخلِصين دينهم، فحُذِف المفعول بدلالة ما ظهر فيه الدّين ممّا قَدَّمْناه، وإنما اتفقوا على كسر اللام فيما فيه الدّين، لأنهم لو فتحوا اللام لبقى الدّين المنصوب بِلا نَاصِب، فكسروا اللام؛ لأن المعنى هم الذين أخلصوا الدين، وما ليس فيه ذكر الدّين فإنه مَحْمُول على ما فيه ذكره. وقرأ الباقون (المخلَصين) و(مُخْلَصاً) بفتح اللام في كل القرآن إذا لم يكن فيه ذكر الدّين.

والوجه أن الفعل فيه مبنيّ للمفعول به، لأن المعنى، أُخْلِصُوا فهم مخلصون، والمراد أخلصهم الله تعالى[٢].

ثالثاً - اللغة:

«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» همَّ: هَمَّ بالأمْر إذا قصده وعزم عليه، قال:

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٢٩٦.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٦-٦٧٧، وانظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها / ٢ / ٩-١٠.



هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدتُ وليَتني *** تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدا ولا هَمّاً: أي ولا أكاد أن أفعله كيداً ولا أهم بفعله هَمّاً، حكاه سيبويه، ومنه الهُمَام، وهو الذي إذا هَمَّ بأمْرٍ أمضاه ولم ينكُل عنه[1].

وبعضُهم يُعَبِّرُ عَنِ الهَمِّ بالإرادة، تقول العرب: هَمَمْتُ بكذا أهُمُّ به - بضَمِّ الهاء -[2] وقد يراد بالْهَمِّ؛ الفكر[3].

«لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه»

البرهان بيان للحجة، وهو فُعْلان، مثل الرُّجْحَان، والثُّنْيَان، والبرهان أوْكَدُ الأدلة وهو الذي يقتضي الصِّدْقَ أبداً لا محالة، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ»[4][5].

«كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء»

السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النّفْسِيّة والبدنيّة والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم،[6].

والفُحْشُ والفحشاء والفاحشة: ما عَظُم قبحه من الأفعال والأقوال، وقال: «إنّ الله لا يَأمُرُ بالفَحشَاء»[7][8].

«إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» خلص: الخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شَوْبُهُ بعد أن كان فيه، والصّافي قد يقال لِمَا لا شَوْبَ فيه، ويقال: خلَّصْتُه فَخَلَص، قال تعالى: «وَنَحنُ لَه مُخلِصُون - إنه من عبادِنَا المُخْلَصِين) فإخلاص المسلمين أنهم قد تبرءوا مما يدّعيه اليهود من التّشْبيه والنصارى من التثليث، قال تعالى: «مُخلصِينَ لَهُ الدّين)[9][10]

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١١. (٢) الدر المصون/ ٣/ ٣٨٢.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٨/ ٢٢٦. (٤) النساء/ ١٧٤.

(٥) المفردات (كتاب الباء)/ ٤٥. (٦) المفردات (كتاب السين)/ ٢٥٢-٢٥٣

(٧) الأعراف/ ٨. (٨) المفردات (كتاب الفاء)/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٩) البيّنة/ ٥. (١٠) المفردات (كتاب الخاء) ١٥٤.



رابعاً: الإعراب:

«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (اللام) جواب للقسم المحذوف، و(قد)، حرف تحقيق، و(هَمَّتْ)، فعل ماض، و(هي)، فاعله، و(به) متعلقان بهمّتْ، وَ(هَمَّ) فعل ماض، وهو، فاعله، و(بها)، متعلّقان بهم، ولو لا حرف امتناع لوجود، وأن وما في حيزها مبتدأ محذوف الخبر، أي لو لا رؤيته برهان ربه ماثل أمامه، وجواب لو لا محذوف، أي لواقعها - وهذا الإعراب على أساس انتفاء الهم منه أصلا لوجود البرهان -

«كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» (كذلك)، نعت لمصدر محذوف، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه، و(اللام)، متعلّقة بذلك المحذوف، ويصح أن تكون في محلّ رفع، والتقدير، الأمرُ مثل ذلك، والنّصْبُ أجْوَد، و(السُّوء)، مفعول به، و(الفحشاء) عطف على السوء.

«إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» إن واسمها، و(من عبادنا)، خبر، و(المخلصين) صفة لعبادنا[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٤٧٠-٤٧٢.



سادساً - التفسير والبيان:

« الهَم وَالبُرْهَان »

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما امتنع يوسف - عليه السلام - تمام الامتناع عن إجابة المرأة واعتصم بالله تعالى ولجأ إليه، بعد أن تنازلت عن كبريائها وكرامتها، همّت بالانتقام منه والتنكيل به لعصيانه أمْرِها وهي سيّدته وهو عبْدها، فقال تعالى:

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ... »

« تنبيه » اعلم أن هذه الآية من المهمّات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها[١] وإن هاتين الجزئيّتيْن من الآية « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أن رَّأى بُرْهَانَ رَبِّه » مما يتهيّب فطاحل العلماء الخوض فيه خوف الزلل[٢]، ...

والعبد الفقير يسأل المولى تعالى العون والتوفيق دائما، خاصة فيما هو مقبل عليه من التعرض لهذا الأمر الجَلَل، وهو موضوع الهَمّ هذا، وقد كتب فيه العلماء من قديم الزمان ما كتبوا وما توقّفوا، وقالوا فيه ما قالوا وما فرغوا، ومنهم من كتب في هذا الموضوع أكثر من مائة صفحة[٣].

خطة السير في شرح هذه الآية الكريمة:

ويكون ذلك على النحو التالي:

(أ) تحقيق معنى (الهمّ)

(ب) تحقيق معنى (البرهان)

---

(١) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١١٧.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٧٦.

(٣) انظر: يوسف بن يعقوب / ٧٨-١٩٢.



(جـ) ذكر أقوال المفسّرين في المراد من الهم إجمالا، وهل وقع من يوسف – عليه السلام – أم لا.

(د) ذكر كل قول على حدة بالتفصيل ودليله والردّ عليه.

وعلى هذا نبدأ فنقول وبالله التوفيق وعليه التكلان:

(أ) تحقيق معنى «الهم»

١ - **الهم في كلام العرب:** الهم مصدر همَمْتُ بالشيء أهُمُّ همّاً إذا أردته، قاله الجوهري[١] وقال ابن منظور: همَّ بالشَّيْء يهم هَمّاً: نواه وأراده وعزم عليه[٢] ونقل الزبيدي في تاج العروس كلام ابن منظور.

وقال الراغب: والهمُّ ما هَمَمْتَ به في نفْسك، وهو الأصل... ولذا قال الشاعر:

وهَمُّكَ ما لم تُمْضِيه لَكَ مُنْصِبٌ[٣] أي أنّك إذا هَمَمْتَ بشيء ولم تفعله، وجال في نفسك فأنت في تعب منه حتى تقضيه[٤] ومنه قول جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بثَيْنَةَ لَوْ بَدَا ** شَفَيْتُ غليلاتِ الهوى من فؤاديا

وقال آخر: هممْتُ ولم أفعل وكدتُّ وليتني

تركت على عثمان تبكي حلائله

فهذا كله حديث نفس من غير عزم[٥] فالهم بالشيء في كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يواقع[٦] قال الإمام الماوردي: فأصله ـ الهم – حديث النفس حتى يظهر فيصير فِعْلا[٧] هذا، وقد أجمع أهل اللغة أن الهم إنما يكون بالأعمال لا بالشخوص والأعيان[٨] قال الإمام الألوسي: الهمُّ سواء استعمل بمعنى القصد والإرادة

(١) تاج اللغة وصحاح العربية/ ٥/ ٢٠٦١. (٢) اللسان/ ١٢/ ٦٢٠.
(٣) المفردات (كتاب الهاء)/ ٥٤٥.
(٤) الدر المصون/ ٣/ ٣٨٢. (٥) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٦٦.
(٦) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٨٣.
(٧) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٩.
(٨) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٤.



مطلقا، أو بمعنى القصد الجازم والعقد الثابت كما هو المراد هنا، لا يتعلّقُ بالأعيان[1].

٢ - الهمُّ عند الفقهاء:

الهم عند الفقهاء هو مقاربة الفعل من غير دخول فيه، أي مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضى فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الأصول في التعارض الأعم[2] وبهذا يرتفع أي إشكال يَرِدُ على الهم[3].

٣ - موقع الهم من مراتب القصد:

الفقهاء يجعلون (الهم) المرتبة الرابعة من مراتب القصد الخمسة، قال الناظم اللغوي:

مراتب القصد خمس: «هاجس» ذكروا
«فخاطر» «فحديث النفس» فاستمعا
يليه «هَمٌّ» «فعزْمٌ» كُلُّها رُفِعَت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

قال الشيخ عبدالله العلمي: هكذا كنت رأيته منذ القديم أو نحوا منه في كلام الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي، وكلام العلامة ابن حزم[4] ومن العلماء من يجعل مراتب القصد أربعة فقط ولا يعدّ الهاجس منها، قال السمين الحلبي: وذلك أن ما يمر بقَلْب الإنسان يسمى «خاطرا»، فإذا قوي سُمِّيَ حديث نفس، فإذا قوي سمي هَمّاً، فإذا قَوي سُمِّيَ عَزْماً، ثم بعده إما قول أو فعل[5] وعلى هذا يكون الهم في المرتبة الثالثة من مَرَاتب القصد الأربعة.

---

(١) تفسير الألوسي / ٦ / ٤٠٤.

(٢) انظر تفسير المنار / ١٢ / ٢٨٤.

(٣) يوسف بن يعقوب / ١٦١.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥٣٨.

(٥) الدر المصون / ٣ / ٥٣٨.



(ب) تحقيق معنى «البرهان»:

«البرهان» الحجة الفاصلة البيّنة، فالبرهان بيانٌ للحجّة، وهو فَعْلان، مثلُ الرّجْحَانِ وَالثُّنيان، يقال: برْهَنَ يُبَرْهِنُ برْهَنَةً، إذا جاء بحجة قاطعة للدَد الخصم، فهو مُبَرْهِن، وجمع البُرهانِ براهِين، وقد بَرْهَنَ عليه: أقام الحجَّة، وفي الحديث: الصدقة برهان.

والبرهان أوكَدُ الأدلة فهو الدليل الذي يحصل عنده اليقين وهو الذي يقتضي الصدق أبداً، لا محالة، وذلك أن الأدلة خمسة أضرب: دلالة تقتضي الصّدْق أبداً، ودلالة تقتضي الكذب أبداً، ودلالة إلى الصّدْق أقرب، ودلالة إلى الكذب أقرب، ودلالة هي إليهما سواء، قال تعالى: «قُل هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُم صَادِقِيْن» «قُل هَاتُوا بُرهَانكُم هذا ذِكْرُ مِن معي» «قَد جَاءَكُم بُرهَان مِن ربّكم»(١).

والبرهان: الحجّة على صحة الدعوى، مصدر بَرَهَ يبْرَه إذا ابْيَضَّ، وسُمّيَتْ به الحجة لنصوع دلالتها على المطلوب، ومنه: أبْرَهَ إذَا أتَى بالبرهان، أو مِنَ البَرْه، وهو القطع، ومنه: البرهة، وهي القطعة من الزمان، وسمّيَتْ به الحجّة لأن بها قَطْع دعوى الخِصْم، أو مِنَ البَرْهَنَةِ بمعنى البيان(٢).

قال السمين الحلبي: واختلف فيه على قوْلَيْن: (أحدهما): أنه مشتَقٌّ من البُرْه، وهو القطع فتكون النون زائدة وذلك أنه دليل يفيد العلم. القطعيّ، ومنه: برهة الزمان، أي القطعة منه، فَوَزْنه فعْلان، (والثاني) أن نونه أصلية لثُبُوتها في بَرْهَنَ يُبَرْنِنُ بَرْهَنَةً، والبرهنَةُ البيان، فبَرْهَنَ فَعْلَلَ لا فعْلَنَ، لأنّ فعْلَنَ غير موجود في أبْنِيتهم، فوزنه فُعْلال، وعلى هذين القوْلَيْن يترتّبُ الخلاف في صرْف «برهان» وعدمه مُسَمّى به(٣).

(جـ) ذكر أقوال المفسرين في المراد من الهم إجمالا، وهل وقع من يوسف - عليه السلام - أم لا، وذلك على سبعة أقوال:

(١) انظر اللسان/ ١٣/ ٥١ (بَرْهَنَ) والمفردات (كتاب الباء)/ ٤٥، وفتح البيان/ ١/ ٢٥٤.

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن/ ٢٨.

(٣) الدر المصون/ ٢/ ٧٢، وانظر: روح المعاني/ ١/ ٣٥٨.



(الأول) : أن الهم مطلقا لم يقع منه - عليه السلام - لوجود البرهان السابق على الهم.

(الثاني) : أن هم يوسف - عليه السلام - كان من جنس همّها، فقصد الفاحشة وأتى ببعض مقدّماتها.

(الثالث) : أن هم يوسف - عليه السلام - همّ فطري.

(الرابع) : أن هَمَّهَ هَمٌّ نفسيّ.

(الخامس) : أن هم المرأة كان بالفاحشة وهم يوسف كان للدفع والصّد.

(السادس) : أنها همت أن يفترشها، ويوسف - عليه السلام - تمناها زوجة.

(السابع) : أن الهم كان من جانب المرأة للضرب والانتقام، ومن جانب يوسف - عليه السلام - للدفاع والتأديب.

رفع المسابهم

(د) ذكر أقوال المفسرين في الهم والبرهان تفصيلا:

أولاً - مناقشة الرأي القائل:

إن يوسف - عليه السلام - لم يقع منه همّ أصلاً لوجود البرهان:

وقد أخذ بهذا الرأي كثير من المفسرين، منهم الإمام الفخر الرازي، والإمام أبو حيّان الأندلسي، والإمام الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والدكتور محمد أبو شهبة، والشيخ محمد متولي الشعراوي، وغيرهم.

ذكر بعض أقوال هذا الاتجاه:

قال الإمام الفخر الرازي: (والقول الثاني) أن يوسف - عليه السلام - كان بريئا عن العمل الباطل والهم المحرم، وهذا قول المحقّقين من المفسّرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نَذُبّ[1].

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» طوَّل المفسّرون في تفسير هذين الهمّيْن، ونَسَبَ بعضهم ليوسف - عليه السلام - ما لا يجوز نسبته لأحد الفسّاق، والذي أختاره أن يوسف - عليه السلام - لم يَقَعْ منه همّ البتَّةَ، بل هو منفيّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول:

لقد فارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب (لولا) متقدّم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختَلَفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيّون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرّد، بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما تَقَوّل جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدّ رونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رآى برهان ربه لَهَمَّ بها، فكان موجدا لِهَمّ

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١١٨.



على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفي الهم، وَلاَ التفات إلى قول الزجّاج، ولو كان الكلام: ولهم بها، كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام، لأنه يوهم أن قوله: «وهمّ بها» هو جواب لولا، ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب، وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب، فاللام ليست بلازمة، لجواز أن ما يأتي جواب (لولا) إذا كان بصيغة الماضي باللام، وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك، ولولا زيد أكرمتك، فمن ذهب إلى أن قوله: «وهمّ بها» هو نفس الجواب لم يبْعُد.

ولا التفات إلى قول ابن عطية: إن قول من قال: إن الكلام قد تَمَّ في قوله: «وَلَقَد هَمّتْ به» وإن جواب (لولا) في قوله «وَهَمَّ بِهَا»، وإن المعنى: لولا أن رآى البرهان لهم بها، فلم يهم يوسف - عليه السلام - قال: وهذا قول يردّه لسان العرب وأقوال السّلف؛ انتهى.

ويردّ الإمام أبو حيان الأندلسي على ما اعترض به الإمام بن عطيه الأندلسي فيقول: أما قوله: يردُّه لسان العرب؛ فليس كما ذَكَر، وقد استدلّ من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: «إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»(١) فقوله: «إنْ كادَت لتبدي به» إما أن يَتَخَرَّجَ على أنه الجواب؛ على ما ذهب إليه القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به(٢).

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: وجملة «ولَقَد هَمّتْ به» مستأنفة استئنافا ابتدائيا، والمقصود أنها كانت جادّة فيما راودته لا مخْتَبِرَة، والمقصود من ذكر همّها به، التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها لبيان الفرْق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم، وجملة «وهَمَّ بها لو لا أن رآى برهان ربه» معطوفة على جملة «ولقد همّت به»

(١) القصص/ ١٠.

(٢) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٤-٢٩٥.



كلها، وليْست معطوفة على جملة «همّت» التي هي جواب القسم المدلول عليه باللام، لأنه لما أردفت جملة «وهمّ بها» بجملة شرط (لولا) المتمحّض لكونه من أحوال يوسف - عليه السلام - وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعيّنَ أنه لا علاقة بين الجملتين، فتعَيَّنَ أنّ الثّانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها، فالتقدير: ولولا أن رآى برهان ربه لهم بها، فقُدِّم الجواب على شرطه للاهتمام به، ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب (لولا) بها أنه ليس لازما، ولأنه لما قُدّم على (لولا) كرُه قرْنه باللام قبل ذكر حرْف الشرط، ليحسُنُ الوقف على قوله: «ولقد همّت به» ليظهر معنى الابتداء بجملة «وهمّ بها» واضحاً، وبذلك يظهر أن يوسف - عليه السلام - لم يُخالطه همّ بامرأة العزيز، لأن الله عصمه من الهم بالمعصية، بما أراه من البرهان،

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة، فلما أتيت على قوله «ولقد همت به وهم بها» الآية، قال أبو عبيدة: هذه على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط، كأنه قال: ولقد همّت به ولولا أن رآى برهان ربه لهمّ بها.

وطعن في هذا التأويل الطبري بأن جواب (لولا) لا يتقدّم عليها، ويدفع هذا الطعن أن أبا عبيدة لما قال ذلك علمنا أنه لا يرى منع تقديم جواب (لولا) على أنه قد يجعل المذكور قبل (لولا) دليلاً للجواب والجواب محذوف لدلالة ما قبل (لولا) عليه، ولا مفرّ من ذلك من كل تقدير، فإن (لولا) وشرطها تقييد لقوله «وهم بها» على جميع التأويلات، فما يُقَدّرُ من الجواب يقدّرُ على جميع التأويلات(١).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

هذا الوجه الذي اختاره أبو حيّان وغيره هو أجري الأقوال على قواعد اللغة العربية، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يُذكر قبله ما يدل عليه، كقوله تعالى: «فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُسلِمِينَ» أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٢-٢٥٣.



فالأول دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب، لأن جواب الشروط وجواب (لولا) لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلا عليه كالآية المذكورة، وكقوله تعالى: «قُل هَاتُوا بُرْهَانكُم إنْ كُنتُم صَادقِين» أي إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وعلى هذا القول فمعنى الآية: «وهمَّ بِهَا لولا أن رآى بُرهَان ربه» أي لولا أن رآه همّ بها، فما قبل (لولا) هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة(١).

ويقول الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة:

والصحيح في تفسير قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» أن الكلام تَمَّ عند قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» وليس من شك في أن همها كان بقصد الفاحشة، «وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه» الكلام من قبيل التقديم والتأخير، والتقدير: ولو لا أن رآى برهان ربه لهم بها. فقوله تعالى: (وهم بها) جواب لولا مقدم عليها، ومعروف في العربية أن (لولا) حرف امتناع لوجود، أي: امتناع الجواب لوجود الشرط، فيكون الهم ممتنعا لوجود البرهان الذي رَكّزَهُ الله تعالى في فطرته، والمقدّم إما الجواب، أو دليله على خلاف في هذا بين النّحْويّين...

ثم يقول: وهذا هو القول الجزل الذي يوافق مادل عليه العقل من عصمة الأنْبياء، ويدعو إليه السّابق واللاّحق، وأمّا كون (لولا) لا يجوز أن يتقدم عليها، فهذا أمر ليس ذا خطر، حتى نَعْدل عنْ هَذا الرأي الصواب إلى التفسيرات الأخرى الباطلة، لِهَمّ يوسف - عليه السلام - والقرآن هو أصل اللغة، فورود أي أسلوب يكفي كونه أسلوبا عربياً فصيحاً، وفي تأصيل أي قاعدة من القواعد النحوية، فلا يجوز لأجل الأخذ بقاعدة نحويّة أن تقع في محظور لا يليق بالأنبياء كهذا(٢).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي:

قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» قال الله في حقّها:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / ٣ / ٦٠.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / ٢٢٧-٢٢٨.



«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» فالمسألة من جهتها منْتَهية وواضحة، أما من ناحية الطرف الثاني - يوسف - عليه السلام - «وهَمَّ بها» لو أنه همَّ بها لكان فيه مساواة، أي هي حدَّثَتْها نفسها بالفعل، وهو حدَّثته نفسه بالفعل، إنما بالنسبة لها قال: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» وانتهى الأمر، لكن بالنّسبة له «وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فالعبارة «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ»، ولولا أن رآى برهان ربه لهم بها، كلمة (لولا) هي حرْف امتناع لوجود، تقول: لولا زيد عندك لأتيتُك، فهل أنا حينئذ أتيتك أم لا؟

لَمْ آتك، لماذا امتنع مجيئ؟ لوجود، امتنع لوجود زيد، «وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فيكون المعنى ولولا أن رآى برهانه ربه لهم بها، على قضيّة (لولا) إذاً هو لَمْ يَهِمّ... ثم يقول الشيخ الشعراوي: كيف غاب عن الذين قالوا: ألْهَمُّ حَدَثَ منْه قضيّة الشَّرط في الإيجاد والامتناع، لولا أن رآى برهان ربه لهمّ، ثم يقول: كان يمكن أن يقول: (ولقد همّت به ولم يهمّ بها) ونخلص من هذه المشكلة، لكن هذا التعبير لا يعطي اللقطة المطلوبة هنا، لجواز أن يكون عدم الهم من جانبه أمْر طبيعيّ أو أمر طارئ، ونحو ذلك، ولكن الله تعالى يريد أن يقول: إن يوسف الذي بلغ أشدّه وبلغ نهاية نضجه، هو كامل الرجولة والفحولة، فلولا أنَّ بُرْهَان ربِّه يعُوقه عن الهَمّ لَهَمّ، فلو قال (وما هم بها) فنفْي الحدث لا يستلزم العصمة والعفَّة لجواز أن يكون عدم الهدم راجعا إلى سبب ما - أي غير العصمة والعفة -(1).

الردّ على الاتجاه السابق والقائل:

إن يوسف - عليه السلام - لم يقع منه هم أصلا لوجود البرهان

قال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله:

إن الاتجاه الذي نفي حصول الهمّ نهائيا قد خرج خروجا تاما على النص القرآني المصرّح بالهم لفظا وتأكيداً، وإن كان من ابتعد عن المتعلق الحقيقي للهم قد تخبّط

---

(1) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



وحاول أن يؤيّد تخبّطه بأدلة تزيده بعدا عن المعنى الأصلي، إلى تأويل لا يتنافي مع عصمة الأنبياء أوقعهم في هذه الورطة فقالوا: إنه لم يقع منه همّ البتّة، بل الهمّ مُنْتَفٍ لوجود البرهان،... ثم أخذ الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله يعدّد أسباب هذا التأويل وبطلانه قائلاً:

١ - هذا التأويل يستند إلى وجه من وجوه القواعد اللغوية مختلف عليه بين علماء اللغة.

٢ - إن الالتجاء إلى هذا الوجه لم يكن عن ضرورة لغويّة، ولكن سببه العجز عن إدراك الوجه الصحيح للمعنى، وليست هذه بطريقة للتأويل.

٣ - إن جواب (لولا) لا يكون تقديره (لَهَمّ) لأن الهمّ قد حدث فعلا بصريح اللفظ القرآني، ولكنّ تقديره يكون: لنفّذ ما هم به، إلا أن رؤيته - عليه السلام - للبرهان منعته من التنفيذ، أما هي فما منعها سوى عدم لحاقها به.

٤ - بمقتضى هذا التأويل يكون الوقف عند قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» مع أنّ الوصْل أوْلا.

٥ - إنَّ الآية الكريمة بدأت بالتأكيد مع التحقيق (ولقد) ويسري ذلك على فِعْلَى الهمّ، فوجود الهم متأكد ومتحقّقٌ عند الطرفين، ولو انتفى عند أحدهما لا نتفي عند الآخر، ولا يجوزُ بَعْد تأكيده، القول بانتفائه استناداً إلى قاعدة يؤول تطبيقها إلى مخالفة النّص الصريح.

٦ - إن أصحاب هذا التأويل قد وقعوا فيما حاولوا اجتناب الوقوع فيه، مع ظنِّهم أنهم قد أحسنوا الخروج من المأزق وأحسنوا التأويل، ذلك أنهم حصروا همّهم في الوصول إلى تأويل يتّفق مع عصمة الأنبياء، وفي نفس الوقت تمسكوا بما يؤول حتما إلى مخالفة هذه العصمة بِجَعْلِهم الهم متعلّقاً بالفاحشة والامتناع عن الهم لم يكن إلا لرؤية البرهان، وأي فضل أثبتموه له - عليه السلام - على امرأة العزيز حينما جعلتم



امتناعه عن الهم لرؤية البرهان؟ وكيف توصف المرأة بأنها من الخاطئينَ ومن الضّالين، مع أنها لو رأت ما رآه - عليه السلام - حسب تأويلهم - لما أقدمت على الهم!...

وكيف يُكَلَّفُ الناس بعدم الاقتراب من الزنا مادام ليس في إمكان أحدهم رؤية برهان يعصمه من الهم كالبرهان الذي رآه يوسف - عليه السلام - ألستُم بهذا إنما تقدّمون العذر للفرْد العادي لوْ همّ بفاحشة، لأنه لم يصل إلى المرْتبة التي تؤهله لرؤية الآيات والبراهين؟.

٧ - إن هؤلاء لم يختلفوا عن الذين أثبتوا الهم بالفاحشة له - عليه السلام -، وكل ما هنالك أنهم صاغوا عبارتهم بطريقة أخرى ليست بأفضل مِمَّنْ أثبت الهمّ بالفاحشة، إذ أنها تؤكد أنه - عليه السلام - قد وصل إلى درجة جعلته في حاجة إلى رؤية برهان يمنعه من الهم بالفاحشة.

٨ - هذا الهم قد كان بصريح القرآن الكريم، ولا يمكن بوجه من الوجوه نفْي حدوث الهم بعد ذلك أبداً.

٩ - هذا التأويل يرتكز على أن البرهان الذي رآه - عليه السلام - كان يدور حَوْلَ قبْح الزنا، وكأنه - عليه السلام - وهو من كرام النبِّيين والمرسلين في حاجة إلى التعريف بهذا الأصل من الأصول الخمسة التي حافظ عليها الإسلام والشرائع، فاحتاج إلى رؤية برهان من ربه يعرِّفه - عليه السلام - بقبْح الزنا، ولم يدْر هؤلاء أن السِّرَّ في الخطأ إنما هو في التَّشبُّثِ بما لا يتمشّى مع صريح القرآن الكريم، ولا مع السياق، ولا مع أصول الدين، بِجَعْلِهم الفاحشة هي متعلق فعل الهم، هذا مع أن الهم بالفاحشة كان من جانبها وفي مرْحلة سابقة على المراودة، ثم جاءت آية المراودة فقَصَّت علينا ما قامت به من إجراءات عملية لتحقيق هدفها، وهذا التّشبُّث من جانبهم قد نَكَّس» المعنى، إذْ جعل الهمّ بعد الشروع في الفعل، مع أنه لا يكون إلا قبله مع مانع يحول دونه(١).

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب/ ١٣٨-١٤٩.



الترجيح:

هذا، وبعد عرض أقوال بعض أئمة التفسير وأهل العلم المؤيدين للاتجاه القائل: إن يوسف – عليه السلام – لم يقع منه همّ أصلا لوجود البرهان، ثم ذكر الردّ عليهم، فالذي يظهر أن هذا الاتجاه غير صحيح لمخالفته صريح القرآن الكريم واللغة والسياق وأصل الدين، كما جاء في الرد عليهم، والله أعلى وأعلم.

رفع المسهم

ثانياً - مناقشة الرأي القائل: إن يوسف - عليه السلام - هم بها وقصد الفاحشة وأتى ببعض مقدماتها ولولا أن رآى برهان ربه لفعل:

ويمثل هذا الاتجاه عامة المفسرين المتقدمين، واختاره من المتأخرين جماعة، منهم ابن جرير الطبري، وابن الانباري، والنحاس والماوردي والبغوي والواحدي وغيرهم(١).

وقد ذكر الطبري في تفسيره ثمان عشرة رواية، تفيد أن همّ المرأة وهمّ يوسف - عليه السلام - كان هَمّاً بالفاحشة، وبلغ بهما الأمر أن استلقت المرأة له كما تستلقي لزوجها حين يريد مضاجعتها، وقد جلس هو بيْن رجْليها ينْزع ثيابه حتّى حَلَّ الهِمْيان(٢) وجلس منها مجلس الخاتن(٣).

ولولا أن رآى برهان ربه لفعَل، ونذكر من هذه الروايات ما يلي:

(أ) حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: أكَبَّتْ عليه المرأة تطمعه مرَّةَ وتخيفُه أخرى، وتدعوه إلى لَذَّةٍ من حاجة الرجال في جمالها وحسنها وملكها، وهو شاب مستقبل يجد من شبق الرجال ما يجد الرجل، حتى رَقَّ لها مما يرى من كَلَفِهَا به، ولم يتخوف منها حتّى هم بها وهمَّت به، حتى خلوا في بعض بيوته.

(ب) حدثنا أبو كريب وابن وكيع، قالا: حدَّثنا ابن عيينة قال: سمع عبدالله بن أبي يزيد ابن عباس في «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» قال: جلس منها مجلس الخَاتِن وحَلَّ الهِمْيان.

(جـ) حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» قال: جلس منها مجلس الرجل من امرأته.

(د) حدَّثني الحرث، قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» قال: أطلق تكَّة سراويلة.

(هـ) كما حدثنا ابن وكيع قال: ثنا عمرو بن محمد، قال: ثنا أسباط، عن السُّدِّي

---

(١) انظر: تفسير القرطبي/ ٩/ ١٦٦.

(٢) الهِمْيان: شداد السروال.

(٣) الختان: موضع القطع من الذكر والأنثى.



«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» قال: قالت له: يا يوسف ما أحسن شَعْرَك، قال هو أوّل ما يَنْتَثِر من جسدي، قالت: يا يوسف ما أحسن وجهك، قال: هو للتُّرَاب يأكله، فلم تَزَلْ حتّى أطمعته، فهَمَّت به وهمَّ بها(١).

وأمّا عن البرهان الذي رآه يوسف - عليه السلام - فقد أورد الطبري في تفسيره خمسة أقوال:

القول الأول - أنه نودي بالنهي عن مواقعة الخطيئة، وذَكَر من قال ذلك في إحدى عشرة رواية، نذكر منها هاتيْن الروايتين:

أحدها: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن عيينة، عن عثمان ابن أبي سليمان، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس (لولا أن رآى برهان ربه) قال: نودي: يا يوسف أتزني، فتكون كالطير وقع ريشه، فذهب يطير، فلا ريش له.

ثانيها: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن طلحة، عن عمرو الحضرميّ، عن ابن أبي مليكة، قال: بلغني أن يوسف لما جلس بين رجْلَي المرأة، فهو يَحلُّ هيمانه نودي: يا يوسف ابن يعقوب لا تزْن، فإن الطّير إذا زنَى تناثَر ريشُه فأعْرَض، ثم نودي فأعرض، فتمثَّل له يقعوب عَاضّاً على أصبعه فقام. وقد صحَّحَ الحاكم مثل هذه الرواية في الدر المنثور(٢).

القول الثاني - أن البرهان الذي رآى يوسف فَكَفَّ عن مُوَاقعة الخطيئة من أجْله: صورة يعقوب - عليهما السلام - يتوعَّده، وذكر الطبري من قال ذلك في إحدى وأربعين رواية، نذكر منها هذه الرواية.

● حدثنا الحسن بن محمد، قال: ثنا عمرو بن محمد العَنَقْزِي، قال: أخبرنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله (لولا أن رآى برهان ربه) قال: مُثِّلَ له يعقوب، فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

---

(١) تفسير الطبري/٧/١٢/١٨٣-١٨٥.

(٢) الدر المنثور/٤/٢٢-٢٣.



القول الثالث – أن البرهان الذي رآى يوسف ما أوعد الله عز وجلّ على الزِّنا أهله، وذكر الطبري من قال ذلك في ست روايات، نذكر منها هذه الرواية، قال: حدثنا بن الحباب عن أبي معشر، عن محمد بن كعب (لولا أن رآى برهان ربه) قال: لولا ما رآى في القرآن من تعظيم الزنا.

القول الرابع – أنه رآى تمثال الملك، وذكر الطبري من قال ذلك في روايتين، نذكر منها هذه الرواية.

● حدثني محمد بن سعد، قال: ثنى أبي، قال: ثنى عمي، قال: ثنى أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، (لولا أن رآى برهان ربه) يقول: آيات ربه أرِيَ تمثال الملك.

القول الخامس – قال الطبري: ويقول بعضهم إنما هو خيال (إطفير) سَيّدة حين دَنا من الباب، وذلك أنه لما هرب منها واتبعته، ألفياه لدى الباب[1].

وقال ابن الجوزي: وفي البرهان ستة أقوال، فذكر هذه الأقوال وزاد الإمام ابن الجوزي قولا سادسا هو.

القول السادس – أن الله بعث إليه ملكا، فكتب في وجه المرأة بالدم «وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّه كَانَ فَاحِشَة وَّسَاءَ سَبِيلاً» قاله الضحاك عن ابن عباس[2].

والإمام الطبري بعد أن ذكر الأقوال في البرهان قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه أخبر عن همّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رآى يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله زجَرَتْه عن ركوب ما هم به يوسف مِنَ الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله تعالى في القرآن على الزِّنا، ولا حجَّة للعذر قاطعة بأيّ ذلك من أي، والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى والإيمان به، وترْك ما عدا ذلك إلى عالمه[3].

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٨٥-١٩١، وانظر الدر المنثور/ ٤/ ٢٢-٢٤.

(٢) زاد المسير/ ٤/ ٢٠٩. (٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٩١.



«ذكر بعض أقوال هذا الاتجاه»:

● الإمام الماوردي يرى أن هذا القول هو قول جمهور المفسرين، جاء في تفسيره: السادس - أنه هم بمواقعتها وعزم عليه، قال ابن عباس: وحلّ الهميان يعني السراويل، وجلس بين رجليْها مجلس الرجل من المرأة، وهو قول جمهور المفسرين(٢).

● والإمام البغوي، أيَّدَ هذا الاتجاه، وقال عن الأقوال الأخرى إنها غَير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم الدين والعلم(٣).

● وقال الإمام ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية: إن كون يوسف في هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك - يعني أنه لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت - فهو مؤمن قد أوتي حُكْما وعلما، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الردئ على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يجوز عندي إلا الهمّ الذي هو خاطر، ولا يصحّ عليه شيء مما ذكر(٤).

وقد رَدَّ عليه الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله، بأنه لا يجوز بناء التأويل على قاعدة قابلة للنقض، إذ يكون التأويل مثلها قابلا للبطلان، فمن بنى التأويل على القول الذي يجيز المعاصي من الأنبياء قبل زمان نبوَّتهم نقضه قول من لا يرى ذلك، لأن الله تعالى يصطفى لرسالاته أهل الكمال الذين أهَّلهم لتلقى وحيه تعالى وتبليغه إلى الناس، كذلك لا يجوز بناء التأويل على أساس عدم افتراض نبوته في ذلك الوقت لأن هناك من يثبتها، ولا يجوز أيضا ترك تأسيس التأويل على ما لا يمكن نقضه تمسكا بما يمكن نقضه(٤).

وقال الإمام الواحدي في البسيط: قال المفسرون الموثوق بعلمهم، المرجوع إلى روايتهم: همُّ يوسف أيضا بهذه المرأة هما صحيحا، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رآى البرهان من ربه زالت عنه كل شهوة... الخ.

---

(١) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٥٩. (٢) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٢٨-٢٣٠.

(٣) تفسير ابن عطيه/ ٩/ ٢٧٨. (٤) يوسف بن يعقوب/ ١١٨.



وقد ردَّ عليه الإمام الفخر بقوله: فنقول للواحدي: ومن الذي يضْمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين، ثم قال: ولما نقل الواحدي هذه الروايات تصلَّفَ وقال: هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمّن شاهد التنزيل، فيقال له: إنك لا تأتينا البتَّة إلا بهذه التصلُّفات التي لا فائدة فيها، فأين هذا من الحجَّة والدليل(٢).

● وجاء في تفسير الجلالين: (وَلقد همَّت به) قصدت منه الجماع (وهمَّ بها) قصد ذلك «لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» قال ابن عباس: مُثِّل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله، وجواب (لولا) لجَامَعَهَا(٣).

● وقال الدكتور محمد البهي: إن الهم من الطرفين كان بالفاحشة، قال: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» ومع هذا الحوار الذي يعبِّرُ عن الوضْع الحَرِج بين زليخا ويوسف، وهو وضع فيه إلحاح الرغبة من جانب المرأة، وإلحاح رفْض الرغبة من جانب آخر - يوسف - فقد تراخي الشَّدّ والجذب، وكاد تحقيق الرغبة أن يتم «لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» ولم يَحُلْ بينَ يوسف ومباشرة الفحشاء مع زليخا سوى أن شاهد بنور قلبه وجود الله معه، سوى أن تذكّر الله جل جلاله، فعاد إلى صلابته في تجنّبه المنكر، «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» وهكذا بِتَذَكُّرِه المولى سبحانه وتعالى انصرف يوسف عن السوء والفحشاء في علاقته مع امرأة العزيز، وهو لم يذْكر المولى في هذه اللحظة التي كانت الفاصلة في مصيره، إلا أنه كان من الأوفياء في عبادته لله وحده.

وقد ردَّ عليه الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله بردود أهمها:

١ - أن هذا التأويل اعتمد على أن يوسف - عليه السلام - لم يحل بينه وبين مباشرة الفحشاء مع زليخا سوى أن شاهد بنور قلبه وجود الله معه، وكيف تغيب المعيَّة

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٢٢.

(٣) تفسير الجلالين/ ٢١٧.



الإلهيـة عن يوسف - عليـه السـلام - «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ»(١) ومن يَتْلُ الآية السابقة لآية المراودة يدْرك مبلغ تهافت مثل هذا التأويل، إذ يقول الله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(٢) والإحسان كما في الحديث «أنْ تَعبُدَ اللّهَ كأنَّكَ تَراهُ، فإن لَم تَكُن تَراهُ فإنَّه يراك»(٣) وهذا هو الحال في كل مؤمن محسن، فما بالك بمن اختصَّهُ تعالى بالنبوة والرسالة؟

فالنّبي المرسل لا يغيب عن الله تعالى طرْفة عين، لا أنه ينسى الله تعالى عند الهم بالزنا، ثم لا يرجع عن همّه إلا حين يرى برهان ربه! والهمُّ بهذا المعنى لا يصدر عن نبيّ مطلقا(٤).

● ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: ولقد اختلف المفسرون في معنى الهمّ الذي همَّ به يوسف... وصريح اللفظ القرآني أنه همَّ بها، وأنها همَّت به، بمعنى أن كلا منهما هم بصاحبه وأقْبل عليه، فلا وجه إذاً للتفرقة بين لَفْظين متساوييْن.

فالذي نطمئن إليه هو أن همّ يوسف - عليه السلام - كان همّ فعل لا همَّ ترْك، وأن برهان ربه هو برهان سيده العزيز، وأن هذا البرهان هو إشارة معروفة، كان يشار بها عند مجئ العزيز إلى بيته، حيث يكون ذلك إعلانا لخدمه وحشمه وحرسه، ليكونوا جميعا في هيئة استعداد لاستقباله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» أي أنه ما كادت امرأة العزيز تُدَاني يوسف، وما كاد يوسف يدانيها حتى رآى حركات في القصر تنبئ عن مقدم العزيز، وأنه ما كاد يَفلت من بين يديها ويتجه نحو باب الخروج حتى كان العزيز بالباب(٥).

هذا، ويمكن الردّ على هذا الذي ذكره الأستاذ عبدالكريم الخطيب بما يلي:

● أنه بنى تأويله على أساس متخيّل ولا دليل عليه، فمن أين استدلَّ على وجود

---

(١) الحديد/ ٤. (٢) يوسف/ ٢٢.

(٣) جزء من حديث سؤال جبريل - عليه السلام - رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان ليتعلم أصحابه أمر دينهم، متفق عليه - اللؤلؤ والمرجان/ ١/ ٢.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ١٢١-١٢٢.

(٥) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٢٧-٤٢٨.



إشارات من الخارج وحركات داخل القصر تنبئ عن مقدم العزيز إلى القصر ليستعدوا لاستقباله وكيف يمكن ليوسف - عليه السلام - أن يرى حركات في القصر تنبئ عن مقدم العزيز ومعلوم أن باب القصر الخارجيّ مُغَلَّق، ومن قبله داخل القصر أبواب (وَغَلَّقَتِ الأبوَابَ).

● على فرض أن يوسف رآى حركات في القصر تنبئ عن مقدم العزيز، فكذلك المرأة رأتها لأنهما في مكان واحد، ولو حدث ذلك لما أسرعت المرأة خلف يوسف تسابقه إلى الباب الخارجي لأنها لم تكن تودّ أبدا أن يراها زوجها وهي على الحالة التي كانت عليها خاصة بعد أن قَدَّت قميص يوسف من دبر.

● هذا التأويل يخالف صريح القرآن الكريم، فاللّه تعالى يقول: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» وقد أجمع أهل التفسير على أن المعنى: أي صادفا بعلها لدى الباب ثمّة قادما، فقد فوجئ الإثنان بوجود العزيز، ولم يكن لدى أي منهما علما بقدومه، لا عن طريق إشارات، ولا عن طريق حركات داخل القصر.

رفع المسيلهم

ذكر ردود بعض أهل العلم والتأويل على القائلين: إن يوسف - عليه السلام - همّ بها وقصد الفاحشة ولو لا أن رآى برهان ربه لفعَل، وما ذكروه من روايات في ذلك:

● قال الإمام الزمخشري:

ولَوْ وُجدت من يوسف - عليه السلام - أدنى زلة لنُعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثْنيَ عليه وسُمِّيَ مخْلصا، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدَّحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولِي القوَّة والعزْم ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحَقَّ من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن العظيم الذي هو حجّة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم - عليه السلام - وليقتد به الصالحون إلى آخر الدهر في العفَّة وطول الإزار والتَّثبُّت في مواقف العَثَار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال اللّه السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين، ليُقْتَدَى بنبيّ من أنْبياء اللّه تعالى في القعود بين شعب الزانية وفي حلّ تكّته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرَّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد(١) غيْر أنثاه وهو جاثم في مرْبضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه، حتى يتداركه اللّه بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدّهم حَدَقَةً وأجْلحهم وجها لقى بأدنى ما لقي به نبي اللّه مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك، فياله من مذهب ما أفحشه وما أضَلَّ مَا أبْيَنَه(٢).

---

(١) (سَفَدَ) ذكر الحيوان أنثاه، وعلى أنْثاه سَفْداً: نزا عليها.

(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٢.



وقال الإمام الفخر ما مؤداه:

● إن هذه المعصية المنكرة التي نسبوها إلى يوسف - عليه السلام - لو نسبت إلى أفسق الخلق لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى هذا الصديق الكريم، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

● إن الله تعالى شهد بكون ماهية السوء والفحشاء مصروفتين عنه، ومع هذه الشهادة كيف يقبل القول بنسبة أعظم السوء والفحشاء إليه.

● لو وقع الهم القبيح منه - عليه السلام - كما زعموا، وكانت الآية متضمّنة له، لكان تعقيب ذلك بقوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ»(١) خارجا عن الحكمة، إذ لا يليق بحكمة اللّه تعالى أن يحكي إقدامه على معصية عظيمة ثم يمدحه ويثني عليه عقبها مباشرة.

● لو صدر منه - عليه السلام - الإقدام على هذه الفاحشة المنكرة لكان من المحال ألا يتبعها بالندم والتوبة والاستغفار كما هي عادة الأنبياء عليهم السلام، ولحكاها عنه القرآن الكريم.

● إن كل من له تعلّق بهذه الواقعة قد شهد له - عليه السلام - بالبراء من الذنب، فيوسف - عليه السلام - قد شهد له ربه تعالى فقال: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»(٢) وهو عليه السلام شهد لنفسه بالبراءة فقال: «هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي»(٣) والمرأة شهدت له مرتين، الأولى أمام النسوة في قصرها حين قالت: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»(٤) والثانية أمام الملك حين قالت: «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ»(٥) والشاهد من أهلها شهد له كذلك «... وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ»(٦) وزوج المرأة

---

(١) يوسف / ٢٤. (٢) يوسف / ٢٤.
(٣) يوسف / ٢٦. (٤) يوسف / ٣٢.
(٥) يوسف / ٥١. (٦) يوسف / ٢٧.



- العزيز - شهد له بالبراءة كذلك حين قال: «إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»(١) والنسوة شهدن له بالبراءة كذلك حين قُلْن في مجلس الملك: «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ»(٢).

وإبليس الملعون أقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف منهم بدلالة قوله تعالى: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»(٣).

وقال الإمام ابن تيمية:

وقد اتفق الناس على أنه - عليه السلام - لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها، مثل ما يذكرون أنه حلّ السّراويل، وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وَغَضِّهِم منهم، كما قالوا في سليمان - عليه السلام - ما قالوا، وفي داود - عليه السلام - ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يردّ نقْلهم لم نصدِّقهم فيما قد دلّ القرآن على خلافه(٥) وما ينقلونه من أنه رآى صورة يعقوب - عليه السلام - عاضا على يده وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله ولا رسوله - صلى الله عليه وسلم - وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبا على الأنبياء وَقَدْحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فَعَنْهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا - ﷺ - حرفا واحداً(٦).

وقال الإمام ابن حزم:

وأما قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فليس كما ظنَّ من لم يُمْعِنِ النظر حتى قال من المتأخرين من قال إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة، ومعاذ

---

(١) يوسف/ ٢٨-٢٩. (٢) يوسف/ ٥١. (٣) يوسف/ ٢٤.

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٢٠-١٢٣.

(٥) دقائق التفسير/ ٣/ ٢٨٠.

(٦) التفسير الكبير/ ٥/ ٧٧.



الله أن يظن هذا برجل من صالح المسلمين أو مستوريهم، فكيف برسول الله يوسف - عليه السلام - فإن قيل: إن هذا روي عن ابن عباس من طريق جيّدَةِ الإسناد، قلنا: نعم، ولا حجّة في قول أحد إلا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط، والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمّن دُون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك، إذ إنما أخذه عمن لا يدري من هو، ولا شك أنه شيء سمعه فذكره، لأنه رضي اللّه عنه - لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول اللّه ﷺ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به، . . . ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف - عليه السلام - هم بالزنا وهو يسمع قول اللّه تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء»(١)(٢).

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي:

وأما أقوال السلف في الهم والبرهان، فنعتقد أنه لا يصحُّ عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقضُ بعضُها بعضا، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة. . . . ثم قال: والبرهان الذي رآه يوسف هو: ما آتاه اللّه تعالى من العلم الدال على تحريم ما حرَّمه اللّه، والذي لا يمكن الهمّ به فضلا عن الوقوع فيه(٣).

وقال الإمام أبو السعود، عن تلك الروايات:

إنْ كُلُّ ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجّها الآذان وتردُّها العقول والأذهان، ويْل لمن لاكها ولفَّقَها أو سمعها وصدَّقَها(٤).

والإمام الألوسي:

نقل كلام الطيبيّ في مسألة الهم والبرهان حيث قال الطيبي في ختام كلامه عنها: وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه - أي إلى الرأي القائل بأن يوسف هم

---

(١) يوسف/ ٢٤.   (٢) الملل والنحل/ ٤/ ١٣-١٤.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٥.

(٤) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٣١٥.



بالفاحشة، كما روي عن السلف - رحمهم الله - ثم قال: على أنّ أساطين النقل المتْقنين لم يروُوا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم، وجُلّ تلك الروايات، بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب، ... ثم علق الألوسي على ما ذكره الطيبي فقال: نعم: قد صحَّح الحاكم بعْضاً من الروايات التي استند إليها من نسب تلك الشَّنِيَعةِ إليه - عليه السلام - لكن تصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار، ...

ثم قال الألوسي أخيراً في تلك المسألة: وبالجملة لا ينبغي التّعويل على ما شاع في الأخبار والعدول عما ذهب إليه المحقّقون الأخيار، وإيّاك والهمّ بنسبة تلك الشنيعة إلى ذلك الجَناب بعد أن كشف الله سبحانه وتعالى عن بَصَرِ بَصِيرَتِكَ فرأيت برهان ربك بلا حجاب(١).

وقال الإمام أبو الطيب صديق البخاري، بعد أن أورد تلك الروايات: وعلى الجملة إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجُّها الآذان وتردُّها العقول والأذهان، ويْل لمن لاكها ولفَّقَها، أو سمعها وصدَّقها، والحاصل أنه رآى شيئا حال بينه وبين ما هم به، والله أعلم(٢).

وقال الإمام القاسمي: وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصوْلحِين، من تلك الأقاصيص المختلفة على يوسف - عليه السلام - في همّه، التي أُطَهِّر تأليفي عن نقلها، بردِّها(٣).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: أفيكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم في وراثته الفطريّة والأدبيَّة ومقام النبوَّة عن آبائه الأكرمين، وما اختصه به ربه، وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء...

---

(١) تفسير الألوسي/ ٦/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) فتح البيان/ ٦/ ٣١٥.

(٣) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٥٩.



ثم يقول: أيكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أمْلك لنفسه من تلك المرأة، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه، وصَوّروه بشَرٍّ ما تصوّروه، أو بمَا صوَّره لهم مُضلُّوهم من زَنادِقَة اليهود ليلبسوا عليهم دينهم، ويشوّهوا به تفسير كلام ربهم، ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلا، والقرآن يتبرأ منه بلغته وأسلوبه وأدبه وهدايته والعِبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، . . . ثم قال:

ولا يغرَّنّك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين، فلو لم يكن لنا من الأدلّة على وضعها عليهم أو تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه، وكونه من علم الغيب في القصة التي لم يعلم رسول اللّه منها غير ما قصه اللّه عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها - لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالِفة للقرآن الكريم في لغته كمخالفتها له في هدايته أيضا(١).

وقال الشيخ عبدالله العلمي:

إن قوما من المفسرين ذكروا في هذا المحل - بأنه هم بمخالطة المرأة - ما يهوي برأس الحقيقة إلى عقبها، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف - عليه السلام - بما هو براء منه، وأرادوا أن يُكْسِبُوا تاريخه لونًا قَاتِماً، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيْد إخوته له، فإن من يسقطك عن درجة الأعفَّاء الأطْياب، يسيئ إليك أكثر ممَّن يلقيك في غياب الجباب، وعندنا أن كلام هؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف - عليه السلام - متَّصِلٌ بالمعمل الذي خرجت منه تلك الأسفار، والتي لا تزال تنال من عفَّة الأنْبياء الأطهار . . . ألاَ وَإنَّ من صدَّق بالآيات الشريفة التي ترفعه إلى عباد الله المحسنين والمخلصين، والذين آتاهم الله الحكم والعلم مع القول بأن يوسف - عليه السلام - هَمَّ بمخالطتها، فقد آمن بشطر دون شطر، أو آمن بالمقدمات دون النَّتيجة، أو بألفاظ الكتاب دون معانيه(٢).

---

(١) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٠-٢٨٦.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٤٠-٥٤١.



وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - عن هذه الروايات المنسوبة إلى السلف -:

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين: قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه، وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك فالظاهر الغالب على الظنّ المزاحم لليقين، أنه إنما تلقّاه عن الإسرائيليات، لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ، . . .

وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف - عليه السلام - بأنه جلس بين رِجْلَيْ كافرة أجنبيَّة يريد أن يزني بها، اعتماداً على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب(١).

وقال العلامة محمد أبو شهبة:

ما هذا الاضطراب الفاحش في الروايات؟ أليس الاضطراب الذي لا يمكن التوفيق بينه كهذا من العلل التي ردَّ المحدِّثون بسببها الكثير من المرْوِيّات؟ لأنه أمارة من أمارات الكذب والاختلاف، والباطل لجلج، وأما الحق فهو أبلج . . .

ثم كيف تتفق هذه الشهادات الناصعة الصادقة ليوسف - عليه السلام - في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وتلك الروايات المزوّرة؟ وقد ذكر الكثير من هذه الروايات ابن جرير الطبري، والثعلبي، والبغوي وابن كثير والسيوطي، وقد مر بها ابن كثير بعد أن نقلها حاكيا من غير أن ينبّه إلى زيفها وهو الناقد البصير!

ومن العجيب حقا: أن الإمام ابن جرير - على جلال قدره - يحاول أن يضعف في تفسيره مذهب الخلف الذين ينفون هذا الزورو البهتان، ويفسرون الآيات على ما تقتضيه اللغة قواعد الشرع وما جاء في القرآن الكريم والسنَّة الصحيحة الثابتة، ويَعْتبر هذه المرويات هي قول جميع أهل العلم بتأويل القرآن الكريم الذين يؤخذ عنهم،

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن/ ٣/ ٦٨.



وكذلك تابعه على مقالته تلك، الثعلبي والبغوي في تفسيريهما، وهذه المرويات الغثّةُ المكذوبة التي يأباها النظم الكريم، ويجزِمُ العقْل والنَّقْل باستحالتها على الأنبياء - عليهم السلام - هي التي اعتبرها الطبري ومن تبعه أقوال السلف...

ثم قال العلامة أبو شهبة: وهذه الأقوال التي أسرف ذكرها هؤلاء المفسرون، إما إسرائيليات وخرافات وضعها زنادقة أهل الكتاب القدماء، الذين أرادوا بها النيل من الأنبياء والمرسلين، ثم حملها معهم أهل الكتاب الذين أسلموا وتلقاها عنهم بعض الصحابة، والتابعين، بحسن نيَّة، أو اعتماداً على ظهور كذبها وزيفها، وإما أن تكون مدسوسة على هؤلاء الأئمة، دسَّهَا عليهم أعداء الأديان، كي ترُوج تحت هذا الستار، وبذلك يصلون إلى ما يريدون من إفساد العقائد، وتعكير صفْو الثقافة الإسلاميّة الصحيحة، وهذا ما أميل إليه(١).

تحامل جمهور المفسرين بالمأثور على المجتهدين في التفسير، في موضوع «الهم»، والردّ عليهم:

تحامل جمهور المفسرين بالمأثور وأنصارهم على من اجتهد في التفسير واعتبروا ذلك قولا بالرأي في كتاب الله تعالى، ومخالفة لأئمة التفسير المعتبرين الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل،...

ومن ذلك قول الإمام الطبري: وأما آخرون ممّن خالف أقوال السلف، وتأولوا القرآن بآرائهم، فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة(٢). وقال الإمام البغوي عن أقوال المتأخرين: وهذا التأويل وأمثاله غير مرض لمخالفته أقاويل القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم العلم والدين(٣).

الرّدُّ على هذا التحامل:

إن تحامل جمهور المفسرين بالمأثور وأنصارهم على من اجتهد في التفسير مردود من وجوه، منها:

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / ٢٢٢-٢٢٥.

(٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٨٥.

(٣) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٣٠.



(الوجه الأول) : إن ما يوجّهه هؤلاء إلى غيرهم يصح أن يوجّه إليهم، إذْ يُقال لهم: إنكم لم تبلغوا درجة تمكنكم من تمييز ما جاء في كتب التفسير بالمأثور، وقد ظهر من تَتَبُّعِهَا أنها تشتمل على روايات تحتاج إلى المراجعة والتّمحيص، إذ زخرت التفاسير بالمأثور بأقوال نسبت إلى الصحابة والتّابعين، بل ورُفعت إلى رسول الله ﷺ، وفيها الصحيح والحسن والضعيف والواهي والموضوع، وبعضها عبارة عن خرافات نقلت عن أهل الكتاب وخرجت على أنها أحاديث وهي ليست من التفسير في شيء، وغَلُبَ الضّعف على التفسير بالمأثور لتهجينه بروايات بثها الزنادقة والملاحدة والفلاسفة وأهل الأهواء ومن تستّر بالإسلام لينال من الإسلام.

هذا إلى تطعيمه بكلام القصّاص ومن جرى على شاكلتهم، وزاد الطين بلّة أن معظم هؤلاء المفسرين قد عُنوا بجمع هذه الروايات مكتفين للخروج من العهدة بذكر إسنادها مع عدم التعرّض لنقْدها، تاركين ذلك لغيرهم من الأئمة، فظنّ الجاهل أن سكوتهم عنها قبول لها، ولا يجوز الاحتجاج بهذه المرْويّات إلا بعد تطبيق منهج علوم الحديث عليها، هذا، وقد انبرى بعض أئمة علم الحديث رواية ودراية لتخريج الأحاديث التي اشتملت عليها بعض أمهات كتب التفسير بالمأثور وقاموا بضبطها إسناداً ومتْناً، فسهّلوا على الفقهاء وعلماء الأصول مهمّة النظر فيها، وإن مواصلة هذه المهمة الجليلة من أوجب الواجبات التي تجابه علماء التفسير اليوم، بحيث لا تطبع هذه الكتب إلا وهي محقّقة مُصحَّحه، مع التَّعقيب على كل رواية بما يثبتها أو ينفيها، وقد ترك لنا الأئمة الأعلام نماذج نسير على ضوئها ونهتدي بهديها.

(الوجه الثاني) : إن الاجتهاد في التفسير لا يعني عدم التقيّد بقواعده، بل هو يعتمد أساسا على نفس المصادر التي يعتمد عليها التفسير بالمأثور، فيرتكز على ما صحّ في الأصول والفروع والعقيدَة والشريعة، مع زيادة أن المجتهد يكون في الواقع أشدّ تمسّكاً بالروايات الصحيحة من مفَسِّرٍ بالمأثور لاهم له إلا جمع الروايات دون

تمحيصها، وإن النتائج الخطيرة المترتِّبة على تخريج روايات يثبت بعد البحْث أنها موضوعة، أو أنها عبارة عن نَقْلٍ جزافيّ عن أهل الكتاب يتعارض مع الكتاب والسنّة هي نتائج أشدّ خطورة من الخطأ في الاجتهاد بمراحل، ومنْعا من اللّبْس نذهب إلى التفرقة بين أمريْن:

أولهما: التفسير بالاجتهاد، وهو المبني على ما ذكره العلماء من الشروط.

ثانيهما: القول بالرأي دون تقيّدٍ بقواعد علم التفسير، ومن يفعل ذلك فليس بمفسّر، بل هو مفتر كذاب قد وقع على أم رأسه في الهاوية، ويكفيه تهجمه على كلام الله تعالى بغير هدي ولا كتاب منير، هذا ولا يصح تفسير باجتهاد ما لم يكن مبنيّاً على الشروط المعتبرة عند أئمة هذا الشأن، ونرى أن المفسّرين بالمأثور لم يقْصدوا بهذا التّضييق إلا غلْق الأبواب أمام أهل الأهواء الذين يريدون أن يضلوا عباد الله، فهو من باب سدّ الذرائع في نظرهم.

(الوجه الثالث): لما كانت علوم القرآن الكريم لا يمكن حصر نهايتها، ولما كانت جميع العلوم اليقينية مفسِّرَة للقرآن العظيم، فقد تطلّبَ ذلك بداهة عدم إخضاع التفسير لزاوية واحدة يمثّلُها العلم أو العلوم التي برع فيها المفَسِّر أو تخصَّصَ فيها، فقد أدَّى ذلك إلى تأثُّرِ كل تفسير بتخصُّص المفسِّر ولوْنه العلميّ.

(الوجه الرابع) أن الفهم في كتاب الله تعالى ليس مردّه فقط إلى كثرة النّقل أو إلى كثرة الاطلاع في جميع العلوم، فقد يصرفُ الإنسانُ عمره في تحصيلها ثم إذابه لا يستطيع أن يأت بشيء في فهم الكتاب العزيز الذي لا تتناهي معانيه(١).

الترجيح:

هذا، وبعد ذِكْر أقوال أهل التفسير بالمأثور والقائلين بأن يوسف - عليه السلام - قد هَمَّ بالمرأة وقصَد الفاحشة وأتى ببعْض مقدّماتها، استناداً إلى الروايات المنسوبة إلى

(١) يوسف بن يعقوب / ١٠٦-١٠٨ (هوامش).



بعض الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - في مسألة (الهم والبرهان) ثم ذِكْر الردّ عليهم من أهل التفسير من المتأخرين، فالذي يظهر واضحا أن هذا الاتجاه مردود لا يعوّل عليه لاعتماده على روايات متخيّلة مكذوبة متناقضة، ومتعارضة مع آيات اللّه الكريم والسنة الصحيحة فجلُّها، بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب ولم يصح منها شيء، حتى إن بعض الروايات التي صحَّحها الحاكم قد حكم عليها أهل الحديث من ذوي الاعتبار بعدم الاعتبار، هذا والله أعلى وأعلم.

رفع
المسلم

ثالثاً - مناقشة الرأي القائل:

إن هَمّ يوسف - عليه السلام - بالمرأة كان هَمّاً فِطريّاً فقط:

ذهب بعض أهل التفسير إلى أن هم يوسف - عليه السلام - بامرأة العزيز كان همّاً فطريّاً فقط، بمعنى أن ذلك الهم كان ميل طبع ومنازعة شهوة من غير تصميم للعقْد على الفعل.

ذكر بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الإمام القرطبي في تفسيره ذاكراً لهذا الاتجاه ومحسِّناً إياه:

قال القشيريّ أبو نصر: وقال قوم جري من يوسف همٌّ، وكان ذلك الهم حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمِّمْ عزمه على الأكل والشُّرْب لا يؤاخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يَصِرْ عزما مصمّما[1].

وقال الإمام البيضاوي: والمراد بهمّه - عليه السلام - ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدْخل تحت التّكليف، بل الحقيق بالمدْح والأجر الجزيل من الله تعالى، من يكفُّ نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم[2].

وقال الإمام أبو السعود: (وهم بها) بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه - أي اشتداده - ميلا جِبِلِّيّاً لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختياريّاً، ألا يُرى إلى ما سبق من اعتصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفْرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين[3].

وقال الإمام الألوسي: (وهم بها) أي مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية، كميل الصائم في اليوم الحار إلى الماء البارد، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف،

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٦٧. (٢) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٠.

(٣) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٦.



لا أنه - عليه السلام - قصدها قصداً اختيارياً، لأن ذلك أمر مذموم تُنَادِى الآيات على عدم اتّصافه - عليه السلام - به، وإنما عبر عنه بالهمّ لمجرّد وقوعه في صحبة هَمِّها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهة به، كما قيل(١).

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، يجعل الهمَّ الفطريَّ منه - عليه السلام - أحد الأمرين في تفسيره للهمّ، قال: وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدّى أحد أمرين:

إما أن يكون لم يقع منه همٌّ بها أصلا، بناء على تعليق همِّه على عدم رؤية البرهان، وقد رآى البرهان.

وإما أن يكون همُّه الميل الطبيعي المزموم بالتّقوى، والعلم عند اللّه تعالى(٢).

وقال الشيخ حسنين مخلوق: إنَّ همه - عليه السلام - كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية، من غير جزْم وعزْم، وذلك لا يدخل تحت التكليف ولا يخل بمقام النبوّة، كالصائم يرى الماء البارد في اليوم الحارّ فتميل نفسه إليه، ولكن يمنعه منه دينه، فلا يؤاخذ بهذا الميل وقوله تعالى: (ولولا أن رآى برهان ربه) أي لولا مشاهدته البرهان الإلهى على شناعة المعصية لجَرَى على موجب ميله الجِبِلّيّ؛ لكنه لمشاهدته البرهان استمرَّ على ما هو عليه من الطهارة وإباء المعصية(٣).

الردّ على أصحاب القول السابق:

إن أصحاب تفسير الهم بالميل الطبيعي، لكأنّهم يتجهون اتجاه مدارس التحليل النفسي المعاصر، مع الفارق؛ إذ أن التحليل يحتاج إلى وجود الشخص القابل لعملية التحليل، في حين أن مرتبة النبوة يستحيل إخضاعها لمثل هذه المعايير الدنيويّة التي يحاولون تطبيقها، ويلاحظ إعجاب هؤلاء بتشبيه ما هم به يوسف - عليه السلام - بما يخطر على قلب الصائم من شرب الماء والأكل، قلت(٤): إنه خطأ في التشبيه، إذ لا

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٠٤-٤٠٥. (٢) أضواء البيان/ ٣/ ٦٨.
(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن/ ٣٠٥-٣٠٦.
(٤) القائل: أحمد عز الدين خلف الله.



علاقة له بالموضوع، فإن التّشْبيه لكي يكون أقرب، يجب أن يكون بمن يهمّ وهو صائم في رمضان بالإفطار عامداً متعمداً، مع معدل الفارق بين الحالتين، إذ الأصل في الطعام الإباحة، وقد حرّمه الصيام، أما الزنا فلا إباحة في الاقتراب منه بأي شيء، فهو محرَّم بالنَّص القطعي، ولا شك في أنهم إنما يحاولون عن طريق التمثيل وغيره إعطاء جرعات فاشلة لتخفيف قبول الهم بالفاحصة...

وزاد آخرون على هذا القول أن التعبير بالهم بالنسبة ليوسف - عليه السلام - إنما جاء لوقوعه في صحبة همها عن طريق المشاكلة لا المشابهة - قول الألوسي -، وهذا قول باطل؛ إذ يوهم أن الأفعال تصدر عن طريق المشاكلة لا عن طريق دلالتها على الحدث المقصود منها، وهو ترخيص لا يجوز مطلقاً في تأويل القرآن الكريم، ثم إن هذا التأويل يستندا أساسا على الهم المتعلق بالمخالطة، وهذا واضح البطلان(١).

الترجيح:

مما سبق يتبين لنا أن القول بأن هم يوسف - عليه السلام - بالمرأة كان همّاً فطريا، قول لا أساس له من الصحة، فهو أقرب إلى التخمين والتحليل من غير دليل، ومن قال بأن همّه إنما عبّر بالهم لمجرّد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكله، فهو يخالف صريح اللفظ القرآني (ولقد همت به وهم بها...) أي أن كلا منهما قد هم بصاحبه، فلا وَجْه إذاً للتفرقة بيْن لفظيْن متساويين لفظا ومعنى وفي مقام واحد، ثم إن هذا التأويل يستند أساساً على الهمّ المتعلق بالمخالطة، وهذا واضح البطلان، - كما سبق - والله أعلم.

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ١٢٣-١٢٥.



رابعاً - مناقشة الرأي القائل:

إن هم يوسف - عليه السلام - بالمرأة كان همّاً نفسيّاً فقط:

ذهب بعض أهل التفسير إلى أن همَّ يوسف – عليه السلام – بالمرأة كان همّاً نفسِيّاً فقط، بمعنى أنه كان مجرد حديث نفس لا أكثر.

ذِكرُ بَعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الإمام الماوردي: وقالوا: إن همَّه – عليه السلام – لم يكن عزما وإرادة، وإنما كان تمثيلا بين الفعل والتَّرْك، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزم ولا فعل(١).

وقال الإمام الفخر الرازي:

الثالث من وجوه تفسير الهم – أن يفسر الهم بحديث النّفس، ثم قال: وذلك أن المرأة الفائقة الحسن والجمال إذا تزيَّنت وتهيَّأت للرّجل الشاب القوي، فلا بد أن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية، وبين النفس والعقل مجاذ بات ومنازعات، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة، وتارة تقوى داعية العقل والحكمة(٢).

والشيخ سيد قطب يختار هذا الاتجاه ويقول: «ولقد همَّت به وهمّ بها لَوْلاَ أن رآى برهان ربه» هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف – عليه السلام – أول الأمر واعتصم... وهو تصوير واقعيٌّ صادق لحالة النفس البشريَّة الصالحة في المقاومة والضعفّ، ثم الاعتصام باللّه في النهاية والنجاة، ثم يقول:

فذكَرَ القرآن – طرفي الموقف بين الاعتصام في أوَّله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضَّعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجوّ النّظيف جميعا،... هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النّصوص ونتصور الظروف، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبويَّة، وما كان يوسف – عليه السلام – سوى بشر، نعم إنه بشر مختار،

---

(١) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٥٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٢١-١٢٢.



ومن ثم لم يتجاوز همّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رآى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه بعد لحظة الضَّعْف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتَّأبّي[1].

الردّ على أصحاب القول السابق:

إن القول بأن همّ يوسف - عليه السلام - بالمرأة كان همّاً نفسيّاً فقط، نَفْيٌ للهَمِّ واستبداله بحديث النفس، وشتّان مَابيْن الأمرين[2].

الترجيح:

هذا القول السابق مردود لأنه ينفي الهم أصلا، فمن المعلوم أن مرتبة الهم في مراتب القصد تأتي بعد الخاطر وحديث النفس، ثم إن أهل اللغة قد أجمعوا على أن الهم إنما يكون بالأعمال لا بالشخوص والأعيان، هذا، والله أعلم.

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨١-١٩٨٢.

(٢) يوسف بن يعقوب / ١٣٥ (هامش).

رفع المسابهم

خامساً - مناقشة الرأي القائل:

إن همّ المرأة كان بالفاحشة، أمّا هم يوسف - عليه السلام - فكان بالدّفع والصدّ:

اتجه بعض المفسرين إلى تأويل يُوهِمُ الاشتراك في متعلّق الهم من الجانبين، ولكنهم غايروا بين متعلق الهم، إذ جعلوه بالنّسبة لامرأة العزيز همّاً بالفاحشة، وبالنّسبة ليوسف - عليه السلام - علَّقُوا همَّه بدفعها عن نفسه ومنعها من ذلك القبيح، لأنه الذي يستدعيه حاله، وقد جاء همَمْتُ بفلان: قصدته ودفعته، ويضمر في الأول - هم المرأة - المخالطة والتمتع، ونحو ذلك، لأنه اللائق بحالها[١].

ذكر بعض أقوال أهل التفسير في هذا الاتجاه:

قال الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي[٢]

إن مطلق اللسان يدل على أحَدِيَّة المعنى - أي أن مطلق اللسان العربي يدل على أن المعنى في كلام الهمَّين واحد - ولكن ذلك أكْثَرِيٌّ لا كُلِّيٌّ، فالحق أنها همَّت به - عليه السلام - لتقهره على ما أرادته منه، وهمّ هو بها ليقهرها في الدفع عما أرادته منه، فالاشتراك في طلب القهر منها ومنه، والحكمُ مختلف، ولهذا قالت: «أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَفْسِه»[٣] وما جاء في السورة أصلا أنه راودها عن نفسها[٤].

وقال الدكتور محمد الطيب النجار: ويرى بعض المفسرين المحقّقين أنها (همَّت به) هم إقْبال، و(هم بها) هم طرْدٍ وإبعاد، (ولولا أن رآى برهان ربه) أي ولولا الإيمان الموجود في قلبه لهم بها همَّ إقْبال، فا الإيمان هو الذي حال بينه وبين الشَّرّ وعصمه من السوء، ثم علق الدكتور النجار على هذا الرأي بقوله: وهو رأي جميل لاغبار عليه[٥].

الردّ على الاتجاه السابق:

قال الأستاذ أحمد عزّ الدين خلف الله: هذا التأويل المتَّجه إلى المغايرة بيْن فعلَى الهم، تأباه قواعد اللغة، كما يأباه سياق القصة، ويعترض عليه من وجوه منها:

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ١٣١.

(٢) المتوفي سنة ١٥٦٣٨ بدمشق، وبعض كتبه قل من يفهمها، كما نسبت إليه عبارات هو برئ منها.

(٣) يوسف / ٥١. (٤) نقلا عن تفسير الألوسي / ٦ / ٤٠٧.



(الأول) إن العطف بين فعْلَى الهم يفيد اتحادهما فيما يتعلقان به، ولا توجد أيّة قرينة صارفة عن هذا الاتحاد، فلا وَجْه إذاً للتَّفْرقَة بيْن متساويَيْن لفظا ومعنى، لأن مطلق اللسان يدل على أحَديّة المعنى.

(الثاني) إن إسناد الهم إليها بقصد المخالطة والفاحشة يتعارض مع سياق الآيات القرآنيَّة التي حكت المراودة، ثم جاءت بالهم استئنَافاً لمقصود آخر غير المراودة، فتعلق الهم بالفاحشة منها قد سبق كل ما اتَّخذته من إجراءات لتدبير الخلوة المطلوبة، ولا يعقل أنها بعد شروعها في التنفيذ وصرْفها لخدمها، وتغليقها للأبواب، وانتهازها فرصة غياب زوجها الخ... لا يعقل ألاّ يسبق ذلك كله هم بالفاحشة منها.

(الثالث) لا يعقل كذلك أن يتعلق الهم بمطاردته وقهره ليرتكب ما تريده منه، فهذا ما لم نسمع به، كما يأباه العقل وطبيعة التكوين البشري وخصائص التركيب البيولوجي للأنثى.

(الرابع) أن الهمّ إذا أطلق دون ذِكْر للفعل المتعلَّق به، فلا يراد به سوى البطش والفتك، والقتل والضرب، وهذا هو المفهوم في لغة العرب، فإذا قلت للرجل العربي: لقد همَّت فلانة بفلان وهمّ بها، فإنه لا يَفْهَم سوي تعلّق الهم بالضرب أو الفتك أو التأديب(١).

الترجيح:

إن الاتجاه السابق والقائل بالمغايرة بين هم المرأة وهم يوسف - عليه السلام - لا دليل عليه ولا حجة له، ويخالف قواعد اللسان العربي - كما سبق في الرد - فلا وجه للتفرقة بين أمرين متساويين لفظا ومعنى، ثم إنه يخالف الواقع والمنطق، فالمرأة لا تستطيع أن تقهر الرجل لتنال منه ما تريد، وإلا فتك بها، إنما تحاول نيل مرادها عن طريق الإغراء والفتنة، والوعد بالوعود البراقة المتمنَّاة، ولذا فهذا الرأي مردود لما ذكر، والله أعلم.

---

(١) تاريخ الأنبياء/ ٣٨.



سادساً - مناقشة الرأي القائل:

إن المرأة همَّت به أن يفترشها، وهم بها، أي تمناها أن تكون له زوجة.

وهذا القول رواه الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وواضح أن هذا القول بعيد كل البعد عما يمكن أن يفهم من همه - عليه السلام - ويمكن أن يقال فيه ما قيل في الرأي السابق، الذي يغاير بين الهمين بلا دليل أو حجة، ويخالف قواعد اللغة، ثم كيف يتصور من يوسف - عليه السلام - الذي آتاه الله الحكم والعلم وشهد له بالإحسان أن يتمنى امرأة هي سيدته وزوج سيده الذي أحسن إليه، وكيف يمدُّ عينيه إلى ما يخص الآخرين، وهو المتأدب بأدب الأنبياء الأصفياء الذين قال اللّه تعالى لخاتمهم ﷺ: «ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجا منهم»[1] وقال تعالى لعباده المؤمنين: «وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ»[2] والظاهر أن هذه الرواية ما خرجت إلا من المعمل الذي خرجت منه الروايات الكاذبة المتناقضة تريد النيل من عفة الأنبياء الأطهار، والله أعلم.

---

(1) طه/ 131. (2) النساء/ 32.



سابعاً - عرض القول المختار في مسألة الهم والبرهان وحججه وأدلته:

وهو الاتجاه القائل: إن هم المرأة بيوسف كان للضرب والانتقام، أما هم يوسف - عليه السلام - فكان للدّفاع والتّأديب.

ذهب جمع غفير من العلماء وأهل التأويل إلى أن هم المرأة بيوسف - عليه السلام - كان للضَّرْب والإذلال، انتقاما منه - عليه السلام - لأنه عصى أمرها وقبَّح رغبتها وأذلها حتى أسقطها من عَلْيَاء عرْشها إلى أسفل أرضها، فأرادت أن تذله بضربه وإهانته وتحقيره، لعله بعد ذلك يستجيب لرغبتها، كما قالت هي بعد ذلك في حضور النِّسْوة: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ»[1]، أما همه - عليه السلام - بالمرأة فكان لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته وتأديبها.

ذِكر بعض أقوال العلماء والمفسرين أصحاب هذا الاتجاه:

قال الإمام ابن حزم:

«ولقد همَّت به وهم بها» همَّتْ به قتْلاً وهم بها كذلك، أي إن يوسف - عليه السلام - هم بالإيقاع بها وضربها كما قال تعالى: «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ»[2] وكما يقول القائل: ولقد همَمْتُ بك، لكنه - عليه السلام - امتنع عن ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجْدي عليه وأظهر لبَرَاءته على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمْر قَدِّ القميص[3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

«ولقد هَمَّت به» أي والله لقد همَّت المرأة بالبطش به - عليه السلام - لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيّدته وهو عبدها، وقد أذلَّت نفسها له بدعوته الصريحة إلى

---

(١) يوسف / ٣٢. (٢) غافر / ٥.

(٣) الملل والنحل (ابن حزم) ف٤ (٣) / ١٤



نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومُرَاوَدَة عن نفسها لا مُراوِدة، ولكن الجمال اليوسفيَّ القاهر قلب سماءها أرضا، وأرضها سماء...

إن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرّد إلا تذْليله بالانتقام، هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال، (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همَّت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها ومِمَّن دونها في كل زمان ومكان، وأكثر ما ترويه لنا قضايا المحاكم وصحف الأخبار، وكاد يوسف - عليه السلام - يَرُدُّ صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى: «وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه» ولكنه رآى من برهان ربه في سريرة نفسه ما هو مصداق قوله تعالى: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ»(١) وهو إما النبوّة التي تلي الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما، وشاهِدُه قوله تعالى: «قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً»(٢) وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى - عليه السلام - في آيتَيْ (العصا) (واليد) «فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ»(٣) وإما مقدّمتها من مقام الصدّيقيَّة العليا، وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجلِّياً له ناظراً إليه، وفاقاً لما قاله أخوه محمد ﷺ في تفسير الإحسان «أن تعبُدَ اللّه كأنَّكَ تَراهُ فإن لَم تَكُن تراهُ فإنّه يَراكَ»(٤) فيوسف - عليه السلام - قد رآى البرهان في نفسه... وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ومقتضى ما وصف الله به يوسف - عليه السلام - في هذا السياق وغيره من السورة(٥).

وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي: «ولقد همَّت به» أي ولقد همَّت بأن تبطش به، إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهي سيدته وهو عبْدها، وقد استذلَّت له بدعوته إلى نفسها بعد أن أحتالت عليه بمراودته عن نفسه، وكلَّما ألحَّتْ عليه ازداد عتُواً

---

(١) يوسف/ ٢١. (٢) النساء/ ١٧٤.

(٣) القصص/ ٣٢. (٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٢٧٧-٢٧٩.



واستكباراً، معْتَزّاً عليها بالديانة والأمانة والترفُّع عن الخيانة وحفظ شرف سيده وهو سيدُها، ولا علاج لهذا إلا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعت في تنفيذه أو كادت بأن همَّت بالتنكيل به «وهمَّ بها» لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته (ولولا أن رآى برهان ربه) أي ولكنه رآى من ربه في سريرة نفسه ما جعله يمتنع من مُصَاوَلتِها واللجوء إلى الفَرار منها(١).

وقال الشيخ محمد أحمد جاد المولى: امرأة العزيز في سطوتها وعزَّتها وجمالها ودلالها، تدعو فتى من فتيانها، بل واحداً من خدَّامها؛ فيأبى ويمتنع، ويستكبر ويستعصم، وهي الآمرة الناهية في قصرها، والسّيدة المطاعة في خدمها وحشمها! إنها لعظيمة لا يحْتملُها كبرياؤها، وكبيرة لا تسيغها نفسها، استطار غضبُها، وهاج هائجُها، فهمَّتْ به بطشا، وأرادت به سوءاً، انتقاما لعزَّتها المضاعة، فَهَمَّ يوسف - عليه السلام - أن يلقي الشَّرَ بالشَّرِّ، ويصدَّ الضرب بالضرب، ولكنه أحس بإشراقة النبوَّة في نفسه، ورآى برهان اللّه في قلبه، وأوحيَ إليه أنَّ الفِرَار خير من القتال، والمسالمةُ خير من المواثبة، فاستجاب لوحْي ربه. وانطلق إلى الباب جَرْياً(٢).

وقال الشيخ عبد الجليل عيسى: وراودته امرأة العزيز فامتنع بدليل اعترافها الآتي في آية (٣٢) وهي قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» وعطفها استعصم بالفاء على المراودة، عند ذلك غلَّقت الأبواب وقالت: تعالى ائت، فقال: معاذ الله أن أقابل نعمة ربي بعصيانه فأكون من الظالمين، فلما رأتْ منه هذا الاحتقار لها امتلأ صدرها بنار الغيظ وصمَّمت على الانتقام من خادم اشترته ويهينها، فهمَّت بالبطش به، وهم هو أيضاً بقتْلها، ولكنه سرعان ما أدركته العناية فأدْرك أن للخلاص طريقا غير القتل وهو الفرار - كهذا التَّثْبيت: نَثَبِّتُ يوسف دائما في المستقبل لنصرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عبادنا المخلصين(٣).

---

(١) تفسير المراغي / ٤ / ١٢ / ١٣٠.

(٢) قصص القرآن (جاد المولى) / ٨٣.

(٣) تيسير القرآن الكريم للقرّاء والفهم المستقيم / ٣٠٦.

وقال الدكتور محمد الطيب النجار: والواقع أننا لو نظرنا إلى سياق الآيات في قصة يوسف - عليه السلام - يتجلَّى لنا معنى (هَمّها به) و(همّه بها)، فالآية التي قبل ذلك تقول: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» وهناك آية أخرى بعد ذلك تسجّل اعتراف امرأة العزيز بقولها: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ»[1] أي أبى وامتنع بشدّة، وقولها بعد ذلك: «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ»[2] فالقرآن يرينا أن امرأة العزيز تعلَّق قلبها بيوسف - عليه السلام - وظنَّت - وبعض الظّنّ إثم - أنه خادم كبقية الخدم، لا يخالف لها أمرا، فراودته عن نفسه وهَيّأتْ له أسباب الفاحشة بأن غَلَّقَتِ الأبواب، وخلَتْ إليه حتى لا يحْتشم من شيء، فلم يطعها في ذلك وأبى واستعصم، وانقلب من فتى وادع وخادم مطيع إلى شخص ثائر يصرخ بملء فيه: «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»....

وبذلك يمكنك أن تفهم المراد من قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» وهو أنها همَّت به لتنْتقم منه لأنها حانقة عليه، إذ لم يجبها إلى هذا الطلب وهي سيدة مطاعة لم تتعوَّدْ أن يعصِيَ لها أمراً، ولا سيَّمَا من خادم كيوسف، ومن ناحية أخرى فإن شغفها بيوسف - عليه السلام - قد وصلَ بها إلى حدّ الجنون، فإذا تأبّى عليها وحال بينها وبيْن ما تشْتهي، فإن ذلك يزعجها ويخرجها عن حدِّها، فإذا همَّت به هم إيذاء، فلأنه أضاع عليها فرْصَةَ هي فرصة العمر في نظرها، أما همُّه - عليه السلام - فهو همّ دفاع عن النّفس وفرار من المعصية وسدٌّ لأبواب الشّرّ والفسق، لأن ذلك هو اللائق بحال يوسف - عليه السلام - من حيث مكانته ومن حيث مستقبله، ومن حيث الواجب عليه في ذلك الظرف العصيب، إلى أن قال: وبهذا ينتفي الحرج عن يوسف - عليه السلام - وتظهر لنا صفحته بيضاء نقيَّة من شوائب الذنب والمعصية[3].

---

(١) يوسف/ ٣٢. (٢) يوسف/ ٥١.

(٣) تاريخ الأنبياء/ ٣٧-٣٨.



وقال الشيخ عبد الله العلمي ما مؤدَّاه: إن امرأة العزيز بعد رفض يوسف وإبائه مع تكريرها الطلب منه بإلحاح وشدَّة، قد صيَّرَها في حالة غير اعتيادية وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل «فهمَّتْ به» أن تقتله أو تبطش به أو تضربه، وأما هو فلم يرد أن يستسلم لها، بل أراد الدفاع فصار في حالة غير اعتيادية «وهم بها» أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها، إذ لم يجد مخلصا له سوى ذلك، وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري، وله شواهد تقع دائماً والعبارة تدل عليه دون غيره، فإن المقام مقام خلاف ومغاضبة، ولا يقال: «هم بالشخص» في هذا المقام إلا إذا أريد بالهم الضرب أو ما ماثله هو فوقه من الإيذاء، وأيضا لا يقال: «إنّ المرأة همَّت بالرجل» بالمعنى الذي جرى عيه المفسرون - أي بالفاحشة - لأن الهم إنما يتعلَّق بالعمل دون الشّخص، وهي في المباشرة موآتيه لا عمل لها...، وجواب «لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه» محذوف تقديره: لولا أن رآى برهان ربه لقتلها أو ضربها أو صفعها، لأن قوله «همَّ بها» يدلُّ عليه، كقولك: «هَمَمْتُ به» أي بقتله، لولا أني خِفْتُ الله، أي لولا أن خفت الله لقتلته(١).

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّه» أي: همَّت بضَرْبه لامتناعه عن إجابتها لطلبها بعد مراودات طالت مدّتها، وهو همَّ بها، أي: بضربها دفعا لها عن نفسه، إلا أنه أراه الله برهانا في نفسه فلم يضربها وآثر الفِرار خارج البيت(٢).

والدكتور/ محمد عبدالوهاب البحيري: تعرَّض لهذا الموضوع في الرسالة التي تقدَّم بها لنيل شهادة العالميّة من درجة أستاذ بعنوان: (الحيل في الشريعة الإسلامية) ص٩٤ - قال: فهمَّت بضربه لتقهره على ما تريد، وهمَّ أن يقابل العدوان بمثله، لولا أن الله تعالى ألهمه أن ذلك ليس من صالحه في عاقبة أمره، فلاذ بالفرار إلى الباب، فأدركته وأمسكته بقميصه فقدَّته، وألفيا سيدها لدى الباب(٣).

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٣٥-٥٣٧.

(٢) أيسر التفاسير/ ٢/ ٦٠٥.

(٣) عن كتاب: يوسف بن يعقوب/ ١٨٢.



وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»، وجدت امرأة العزيز منهُ - عليه السلام - الإعراض الكامل عن شأنها، والانصراف التّام عن رغبتها، كما لمست فيه عدم الاكتراث بها، بل إنها بعد أن عرَضت نفسها صاغرة ذليلة عليه، إذ هو يقف منها موقف المؤدب الذي يذكرها بواجباتها، ويوجهها إلى الاعتصام بالعفَّة والطهارة، وينهاها ضِمْناً عن هذه المحاولات الآثمة، وهالها أن يتجاسر وهو فتاها أن يقف منها هذا الموقف الذي لم يخطر لها على بال، وهي التي اعتادت أن تتلقَّى نظرات الإعجاب بها وحركات الخضوع لها، والإجلال لشخصها والطاعة لأوامرها فاعتبرت ذلك منه صفعة أليمة موجَّهة إليها، وضربة قد أصابتها في صميمها، بل قل: إهانة لا تضاهيها إهانة، وتحقيراً لها لا يماثله أي تحقير، هنالك أعماها الغضب فسلبها كل تدبير، ولم يترك أمامها سوى الانتقام... فاندفعت بكل قوتها تبتغي البطش بمن أذلَّها، لعلها تستردُّ بعض كرامتها، ولما رآها - عليه السلام - مندفعة نحوه وآثار الغدْر تسبقها، ثار غضباً لِلّه تعالى وهمَّ بدوره أن يبطش بها، وفي هذه اللحظة الرهيبة رآى برهان ربه فأضاء له كل شيء؛ إذ علم أن ضربها سيثبت عليه الفاحشة بحيث لا يمكن نفْي ذلك عنه أبداً، فسيجلب صراخها الشهود من كل مكان، وسيكون التفسير الطبيعي لاعتداء رجل بالضرب على امرأة في مخدعها أنه أرادها فامتنعت عليه، فأراد أن ينال بالعنف مالم ينله باللين، ومهما كانت قوَّة البراهين المؤيدة لبراءته فإنها جميعا ستتلاشى أمام ما يوحي به هذا التصرف، وسيتعذَّر بل يستحيل نفي الجريمة،... ثم قال: الحقيقة أن البرهان الذي رآه - عليه السلام - إنما ينهاه عن ضربها ويبيِّنُ له أن النجاة من هذا الموقف الرهيب إنما هي في مبارحة المكان بأقصى سرعة ممكنة، لأن الاشتباك معها سَيُتَّخَذُ برهانا على محاولة ارتكاب الفاحشة، وهذا ما لا يليق بمرتبة النبوة والرسالة التي يجب أن تصان عن إلصاق مثل هذه التُّهْمَة البشعة بها، ولا يصح



لهذه المرتبة أن تكون موضع اتهام بفاحشة أبداً، فكيف يكون سببا في التورّط فيما يلوّث سمعة النبوة والرسالة، من حيث يريد دفع الفاحشة عن نفسه، لقد وضح كل شيء بعد أن رآى - عليه السلام - برهان ربه، فعلم أنَّ ما همَّت به سيكون في صالحها، إذ سيثبت عليه ما تريده هي، ولا سبيل إلى النجاة إلا في سرعة مغادرة المكان، ولم تستغرق رؤية البرهان وقْتاً بدليل استباقهما الباب معا، إذ أدركَتْ أنه سار في الطريق الصحيح، فعدَل عن ضربها، وها هو يشتدُّ يسعى ليتخلص من هذا المأزق، فبادرت لتحول دون خروجه لتنتقم منه لكرامتها(١).

• البراهين الدالة على أن الهم كان من جانب المرأة للضرب والانتقام، ومن جانب يوسف - عليه السلام - للدفاع والتأديب، وأهمها ما يأتي(٢):

أولاً - أن هذا التفسير للهَم ّ من جانب المرأة ومن جانب يوسف - عليه السلام - هو الذي يقتضيه معنى الهم:

فحقيقة معنى الهم هو: مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضى، فلم يقع لرجحان المانع، وبهذا يرتفع أي إشكال على مفهوم الهم، وهذا يعني أن الهم إنما يكون بالأعمال لا بالشخوص والأعيان، كما يعني وجود مانع يحول دون تنفيذ الفعل، وأن هذا المانع قد يكون من صاحب الهمِّ نفسه، وقد يكون من غيره كما سيأتي في البند التالي.

ثانياً - أن هذا التفسير هو الذي يقتضيه استعمال كلمة الهم في كلام العرب والقرآن والحديث:

أما في كلام العرب، فقد قال الشاعر:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكدت وليتني ** تركت على عثمان تبكي حلائله

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٧٨-٨٠.

(٢) تنبيه: إن أكثر هذه البراهين مأخوذة ومستفادة مما ذكره الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله في كتابه (يوسف بن يعقوب) تحت عنوان (التأويل المبين لوجوه الإعجاز في آية الهم والبرهان) من ص١٦١ إلى ص١٩٢، وما كان لغيره أشير إليه في الهامش.



وقال جميل بثينة :

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ❋ ❋ ❋ وهموا بقتلي يا بثين لقوني

فالهم في البيتين السابقين كان همّاً بالقتل كما هو ظاهر، والمانع من تنفيذ الفعل في البيت الأول نَفْسُه، والمانع من تنفيذ الفعل البيت الثاني غيرُه.

وأما في القرآن الكريم، فقد جاء الهم في مواطن ثمانية من كتاب اللّه تعالى بما يفيد الإقدام على فعل المكروه أو القتل، مع وجود مانع يحول دون تنفيذ الفعْل.

١ - ففي سورة (آل عمران) : جاء قوله تعالى: « إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »(١) (أن تفشلا) أي تتركا المضى مع رسول الله ﷺ للقاء يوم أحد اتّباعاً لرأي عبدالله بن أبيّ ومن معه من المنافقين، ولكن غلب عليهما داعي الإيمان فلم تفشلا، والمانع من الفشل هو ولاية الله لهما.

٢ - وفي سورة (النساء) جاء قوله تعالى: «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا »(٢) ففكّروا فيما فكروا فيه وما قاربوا، والمانع هو فضل الله تعالى.

٣ - وفي سورة (المائدة) جاء قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»(٣) فالمانع هنا هو كفّه تعالى أيديهم عن المؤمنين.

٤ - وفي سورة (التوبة) جاء قوله تعالى: «أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ»(٤).

٥ - وفي نفس السورة (التوبة) حكى الله تعالى عن المنافقين أنهم «يَحْلِفُونَ بِاللّهِ

(١) آل عمران/١٢٢. (٢) النساء/١١٣.
(٣) المائدة/١١. (٤) التوبة/١٣.



مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ»(١) وذلك أن نفراً من المنافقين قد تآمروا على اغتياله ﷺ بعد منصرفه من تبوك سنة ٩هـ في الطريق إلى المدينة فلم ينالوا شيئاً، والمانع هو عصمة الله تعالى وحفظه جل جلاله لرسوله ﷺ(٢).

٦، ٧ - ما جاء في هذه السورة الكريمة (يوسف) «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فالمانع من تنفيذ الفعل بالنسبة ليوسف - عليه السلام - بالضرب أو الإيذاء لامرأة العزيز هو رؤيته للبرهان، فالمانع من صاحب الهم نفسه، أما بالنسبة لامرأة العزيز فالمانع من تنفيذ الفعل بالقتل أو الضرب ليوسف - عليه السلام - هو انصرافه عنها نهائيا فلم تتمكن مما أرادت، فالمانع من غيرها.

٨ - وفي سورة (غافر) جاء قوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ»(٣) فالمانع هو نصر الله تعالى رسله والذين آمنوا معهم.

وأما في الحديث: ففي المسند والصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ همَّ أن يأمر رجلا يصلي بالناس، ثم يأمر من يحرِّقُ على المتخلّفين عن صلاة الجمعة بيوتهم - وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي «ثمَّ آتي قَوْماً يصلّون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرِّقها عليهم» يعني ﷺ أنه يستحقون هذا - الفعل - حتى كاد يفعله، ولكنه امتنع ترجيحا للمانع على المقتضى(٤).

وفي البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّ عيَيْنة بن حِصْن قال لعمر بن

---

(١) التوبة / ٧٤.

(٢) انظر حادثة التآمر هذه في (الرحيق المختوم) ١٥٦ تحت عنوان: الرجوع إلى المدينة.

(٣) غافر / ٥.

(٤) تفسير المنار / ١٢ / ٢٨٥.



الخطاب - رضي الله عنه - هيْ[1] يا ابن الخطاب! فوا الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدْل، فغضب عمر - رضي الله عنه - حتى همَّ به، فقال له الحُرّ بن أخي عيينْة: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»[2] وإن هذا من الجاهلين، فو الله ما جاوزها عمر - رضي الله عنه - وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى[3] فقد همَّ عمر - رضي الله عنه - أن يعاقب هذا الجاهل على هذا الاتهام الجائر الكاذب، ولكنه امتنع عن ذلك ترجيحا للمانع - ما جاء في الآية الكريمة - على المقتضى.

وهكذا علِمْنا أنَّ الهَمّ، في كلام العرب، وفي كتاب الله الكريم، وفي السنة المطهرة لا يتعلَّق إلا بالأفعال العدوانية من أذى وطرد وقتل، أو أفعال متصلة بالفشَل والضلال. وأن متعلق الهم لم يرد في القرآن الكريم بالفاحشة (الزنا) مطلقا، وجاء النهى عن الزنا بفعل (قرب) يقول الله تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً»[4] وهذا من الإعجاز القرآني الذي جمع النهي عن كل ما يوصل إلى الزنى كائنا ما كان، فالعين تزني والأذن تزني باشتهاء المرئي أو المسموع، ويدخل في ذلك كل التصورات الخيالية والمثالية المفضية إلى الاقتراب من الزنا، ويقول الله تبارك وتعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[5] ولم يغادرْ هذا الجزء من الآية شيئا من الفواحش إلا وقد نهى عنه، وقال تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا»[6] ومن تأمَّلَ حقيقة معنى (قرب) أدرك بعض ما في هذه الآيات من أسرار الإعجاز.

ثالثاً - أنّ هذا التفسير هو ما يقتضيه تأويل «الهم» في الآية الكريمة:

فعند تأويل «الهم» يقتضي عدم الخروج على المعنى مراعاة ما يأتي:

(أ) عدم تطويع المعنى لفكر مسبق في الذّهن والالتجاء بقصد تبْريره وتعزيزه إلى

---

(1) هيْ: كلمة تهديد، وقيل: هي ضمير لمبتدأ حُذف خبره، أي هي داهية.

(2) الأعراف/ 199. (3) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ 1/ 539.

(4) الإسراء/ 32. (5) سورة الأنعام/ 151.

(6) البقرة/ 187.



وجوه نحوية ضعيفة أو شاذّة، مثل إلغاء وظيفة العطف، أو التَّلبيس في جواب (لولا) أو المغايرة بين متعلق الهمَّين الخ... كذلك الالتجاء إلى الروايات المنكرة أو الواهية، أو الموضوعة في سبيل تبرير وجهة نظر المفسِّر.

(ب) إن اتحاد متعلق الهم من الطرفين مُلْزِمٌ بأنه غير الفاحشة قطعا، لأن مرتبة النبوة والرسالة لا تعطي غير ذلك.

(جـ) يجب عدم انتزاع آية الهم من السورة وتأويلها كأنها آية منفصلة لا ارتباط بينها وبين ماقبلها ومابعدها، ذلك لأن مراعاة ارتباط أي الذكر الحكيم شرط أساسيّ من شروط سلامة التأويل، وضمان ضروري لعدم الانْحراف نحو تأويلات يرفضها السياق، ويرفضها النَّصّ، كما يرفضها الإعْجَاز القرآني.

(د) إن ربط آية (الهمّ) بالآية السّابقة يقتضي عدم تَعَلُّق (الهم) بفِعْلٍ سبق شروعها فيه، وهو الفاحشة، كما يقتضي عدم تعلق (الهم) بالفاحشة لأن ذلك يقتضي المصادرات التالية:

- جعل ترتيب الهمّ بالشيء بعد الفعل، وهذا محال، إذ الهم من درجات القصد السّابقة للفعل قطعا.
- التعارض مع آي الذكر الحكيم، إذ لمَّا كان الهمُّ بالفاحشة يسبق الشروع فيها؛ استلزم ذلك أن تكون آية الهم سابقة لآية المراودَة، وهذا باطل طبعاً لمخالفته النَّصّ.
- لو سبقت آية (الهم والبرهان) آية (المراودة) لألْغَتِ الأخيرة؛ إذ لا مناسبة للمراودة بعد رؤية البرهان.
- يقتضي الربط أن يكون (الهمّ) متعلّقاً بفعل مؤسَّسٍ على الفشَل في المراودة وهو فعل يقع على ذات كل من الجانبيْن لقوله (به) (وبها).
- إن ربط آية (الهم والبرهان) بما بعدها يقتضي:
- تأسيس آية الاستباق نحو الباب على آية الهم والبرهان، إذ جاء الاستباق نتيجة لرؤية البرهان، وكان البرهان مؤسَّساً على (الهم).



● ربط باقي الآيات التي جاءت فيما بعد في السورة الكريمة مشيرة إلى ما حدث من المراودة والهم ربْطا يحول دون الخروج على النص القطعي في سبيل التمسُّك بأدلة ظنّيَّة.

● مراعاة أصول الدين في كل تأويل وعدم الخروج عليها.

رابعاً - أنّ هذا التفسير هو الذي يقتضيه تأسيس آية (الهم والبرهان) على آية المراودة:

إن الهم بالفاحشة والعزم على ارتكابها من جانب امرأة العزيز أمر قد سبق المراودة قطعا، إذ لا يصحُّ أن تصدر المراودة إلا بناء على تفكير وقصد سابق منها، تلته المرحلة التنفيذية التي كانت المراودة أهم أدوارها، ومن المعلوم أن أي إنسان قبل أن يشرع في أي فعل أو عمل يمُرُّ بدرجات القصْد كلها، من خاطر، إلى حديث نفس، إلى هم، إلى عزم، ولا يصح أن يقال بعد شروع الإنسان في العمل أنه يهم به؛ لأن هذا القول إنما يُلغي الفعل بعد الشروع فيه، ويعود القهقري إلى مرحلة ماقبل تنفيذه، أي إلى مرحلة القصْد بدرجاته المعروفة، وهذا محال طبعا، فالهمّ الذي تصوَّروه - وهو المتعلق بالفاحشة - قد تلاه العزم ثم انتقل إلى التنفيذ بقيام المرأة بكل ما يجول بخاطر الأنثى من عمل يحقِّقُ مقصودها، ويؤخذ من ذلك أن الهم المتعلِّق بالفاحشة قد كان من طرف واحد وأنه قد سبق المراودة، ومن المحال أن يكون بعدها، ومما يدلُّ على أن الهم المصرح به في آية (الهم والبرهان) لم يكن متعلقا بالفاحشة مطلقا - إضافة إلى ما سبق قبل - أنه لم يُذْكر في أيَّةِ آية ذكرت فيها المراودة، ولو كان هو الذي تعلَّق به اللَّوْمُ لقال نسوة المدينة «امرأة العزيز تهم بفتاها وفتاها يهم بها» بدلا من «تراودُ فتاها» ولقالت هي عند اعترافها بجرمها «أنا هممتُ به فاستعصم» بينما النص «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»(١)، ولمّا كان الاتهام كله يدور حول المراودة لا الهمّ؛ ثَبت أن الهم لم يكن متعلّقاً بالفاحشة قطعا. يقول الشيخ عبدالله العلمي: لو قال قائل: إن قوله: «وَلَقَد همَّت به» توكيد لما سبق من مراودتها له وتغليقها الأبواب وطلبها إياه.

---

(١) يوسف/ ٣٢.

قلنا : إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد ، كما هو مَعْلُومٌ أنَّ المؤكّد يجب أن يكون من درجة المؤَكَّد حال كون الهم بالمعنى الذي تخيَّلوه ليس هو من درجة المراودة وتغليق الأبواب وطلبها إياه ، بل الهم ليس من درجة العزم الذي هو أعلى من الهم(١) .

خامساً - موقف امرأة العزيز بعد رفض طلبها قد حدَّد متعلق الهم:

فهذا الموقف يوضح لنا بشدَّة ارتباط آية الهم والبرهان بآية المراودة ، وأن المراودة كانت تأسيسها للهم والبرهان ، ذلك أن امرأة العزيز قد خرجت عن طباع الأنثى المألوفة بسبب نار العشق الجارف الذي استولي عليها استيلاء ملك عليها كل مجامعها ، فَهَوَت من عرشها وملكها وكبريائها وتنزَّلت حتي بذلت نفسها لفتاها وصرَّحت قائلة : « هيْت لك » ، لكنه - عليه السلام - قابل رغبتها الجامعة بما لم تكن تتوقعه أبداً «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» وكان رده عليها مفاجأة صاعقة أذهلتها وزلزلتها وأشعلت في قلبها ناراً أخرى من نوع آخر ، نار الانتقام والبطش بفتاها وخادمها الذي تأبى واستعصم ورفض ما تشْتَهي منه بعد أن فعلت ما فعلت . . . ولقد قصدت إلى ذلك لعلها تعوِّض بعْضاً مِمّا فقدته من كرامة وكبرياء ، وقد نبَّهَت الآية الكريمة إلى الانتقال من قصْد إلى قصد جديد ، إذ بدأت بما يفيد الإضراب عن القصد السابق لآية (الهم) واستئناف فعل جديد مغاير له ، وتأكدت هذه المغايرة بتكرار فعل الهم عن طريق العطف ، إذ العطف هنا له فائدتان هامَّتَان :

(الأولى) : دلَّ على الاشتراك في مطلق فِعْلَى الهم ولا تصحّ المغايرة بينهما أبَداً ، إذ العطف يمنع ذلك ويحول دونه . (الثانية) : أفاد عطفُ هَمّه - عليه السلام - على همِّها أن متعلّق فعل الهم لا يكون الفاحشة قطعا ، وبيان ذلك أنه - عليه السلام - لا يهم بالفاحشة بدليل ما سبق من رفضه لكل محاولة قامت بها امرأة العزيز بقصد استجابته لها ، فلا يكون همه بها إلا متعلّقا بضربها وتأديبها ، ولَمَا أنّ الهمَّين يشتركان

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥٣٨ .



في متعلّقهما، فقد رفع ذلك كل لَبْس عمّا تعلَّقَ به همُّها، إذ يكون المعنى أنها قد همت بضربه انتقاما، وهمَّ بضربها تأديبا، والانتقام في نظرها إنما هو تأديب، أي أن متعلق الهمَّين من كل منهما كان للتأديب في نظر كل منهما، فاشتركا (أي الهمَّين) في المتعلَّق والغرَض منه.

سادساً - تهديدات امرأة العزيز له - عليه السلام - حَدَّدَتْ متعلق الهم.

فقد هدَّدته - عليه السلام - عندما فوجئت بالعزيز واقْترحتْ له السِّجن أو العذاب الأليم، وهدَّدته أمام النِّسوَة إن لم يفْعل «وَلَئِن لَّمْ يفْعَل ما آمُرُه لَيُسْجنَنَّ وليكوناً من الصاغيرن»، كل ذلك يحدِّدُ لنا بوضوح متعلَّق همّها كلما فشَلَتْ في محاولتها، وأنه كان همّاً بالانتقام لا هَمّاً بالفاحشة لعدم تمكينها من رغبتها.

سابعاً - إن موقفه - عليه السلام - قد حدَّدَ متعلّق الهم:

فلا نَنْسى في غمرة الأحداث حقّ امرأة العزيز، فقد كانت امرأة الرجل الذي أكرم مثواه - عليه السلام - وهي سيِّدة القصر الذي يعيش فيه، وهي التي لم يبد من جانبها أي تقصير في تنفيذ أمر زوجها بالنسبة إليه - عليه السلام -، ولا يفوتنا الإشارة إلى إطلاق متعلّق (الهم) هنا مع توضيحه حيثُما ورد في القرآن الكريم، ذلك لأنه هنا متعلِّقٌ بكل مادار في خلَد المرأة من تأديب وانتقام وإلحاق الصَّغَار والإذلال والإهانة، كما أنه متعلق بكل ما دار في نفسه - عليه السلام - من تأديبها... كل ذلك يُفْهَمُ من الإطلاق لا من التَّقييد، وما يَفْهم تُدلُّ عليه القرائن.

ثامناً - الاستباق إلى الباب حدَّدَ متعلق الهم:

لو كان الهمُّ بالفاحشة لكانا في حالة اسْتِسْلام لا تتطلب مطلقا استباق الباب من الطرفيْن في آن واحد، وهذا يتناقض مع ما حدث فعْلاً.

تاسعاً - ترتيب فِعْلى (الهم) أفاد استحالة تعلقه بالفاحشة:

لمّا كان (الهم) منها أوّلاً؛ أفاد أنه من المحال أن يكون متعلّقاً بفاحشة للوجوه الآتية:



(الأول) لأن الهم بالفاحشة قد حدث منها قبل المراودة وتلاه دور التنفيذ المبيّن في آية المراودة.

(الثاني) لو كان الهم متعلقا بالفاحشة من الطرفيْن لتقدّم همُّ الرجل على همّ الأنثى؛ ولا اقتضي ذلك أن يكون الكلام «ولقد هَمَّ بها وهَمَّتْ به».

(الثالث) إن موقف امرأة العزيز التي رفضها فتاها وأعرض عنها كل الإعراض، ولم تجد منه سوى الانصراف عنها وعدم الاستجابة لأغْراضها، لا يمكن أن يكون همها في هذا الموقف سوى الهم بالبطش طلبا للانتقام لما لحقها من ذل وصغار.

رفع عبد الرحمن النجدي المسلمون

الأخطاء المترتبة على تعليق (الهم) بالفاحشة:

إن قواعد اللغة، والمنطق، والنّص، والسّياق، كل ذلك مبطل لتعلّق الهم بفعل الفاحشة، وقد وقع الذين علقوا الهم بالفاحشة في المصادرات التالية:

(الأولى) تقديم الفعل على التفكير فيه وقصده.

(الثانية) معارضة آي الذكر الحكيم، وكل تأويل يؤخر الهم بالفاحشة ويجعله بعد المراودة عليها يكون باطلا، لا يلتفت إليه مطلقا.

(الثالثة) الخلط بين أمرين شتان ما بينهما وهما: (أ) الهمّ بالفاحشة وقد سبق المراودة - من جانب المرأة - وهو غير مصرّح به، إذ لا تَتِمُّ المراودة بدونه، (ب) والهمّ المنصوص عليه في آية الهم والبرهان؛ والذي لا يكون إلا بعد الفشَل في المراودة، هذا الفشَل الذي كان تأسيساً لآية الهم والبرهان.

(الرابعة) التّشكيك في عصمة الأنبياء، أو بناؤها على قواعد متحرِّكة بحسب ما يراه كل مؤول، والخوْض في مرتبة النبوة بما لا يليق أن ينسب إليها، ولتفصيل هذه الأخطاء المترتبة على تعليق الهم بالفاحشة بالنسبة لامرأة العزيز ويوسف - عليه السلام - نقول:

أولا: بالنسبة لامرأة العزيز:

يُفْضى تعليق الهمّ بالفاحشة إلى القول بأن المرحلة الثالثة من مراحل ارتكاب الجريمة سابقة للمرحلة الأولى وهذا محال، ولبيان ذلك نقول: تمرُّ الجريمة قبل ارتكابها بثلاث مراحل:

(الأولى) التفكير في الجريمة (الثانية) التحضير للجريمة (الثالثة) الشروع في الجريمة، وهي مراحل متتابعة وتتركب كل مرحلة على التي قبلها، ولو طبَّقْنَا ذلك على القضية التي بين أيدينا لوجدنا أن التفكير في الجريمة قد انتهى إلى التحضير لها، بتهيئة الخلوة وتغليق الأبواب وصرف الخدم واختيار الزمان، وغير ذلك من الإجراءات



والأفعال والتصرفات اللازمة لارتكاب بها والمؤكدة لذلك، ثم تأتي مرحلة التنفيذ، وقد دخلت بالشروع في الجريمة، وذلك باستدعاء المرأة ليوسف - عليه السلام - إلى الخلوة وتغليقها الأبواب وقولها «هيت لك» وخاب أثر ذلك كله لأسباب خارجة عن إرادة المرأة واختيارها، إذ انصرف عنها - عليها السلام - بكُلِّيَّته فأصبح تنفيذ الجريمة مستحيلا، . . .

وبهذا يتضح أن من علّقَ الهمَّ بالفاحشة قد نكَّسَ الأوضاع والحقائق، وجعل الشروع في الجريمة سابقا على التفكير فيها، كما جعلوا الهم بعد الشروع في الفعل، وهذا يتناقض مع اللُّغَة التي تُقَرِّرُ أنَّ الهم هو مقاربة الفعل دون الوقوع فيه، فلا يقال إذاً لمن شرع في الفعل يهمُّ به، ويلزم من هذا:

١ - التناقض مع صريح اعتراف المرأة من أنها راودته فاستعصم (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) ولو اشْتمَّت منه رائحة الميل لأعلنت ذلك مفاخرة.

٢ - على فرض وقوع همَّين بالفاحشة في آن واحد بين ذكر وأنثى، فإن طبيعة التكوين تقتضي سبق الذكر على الأنثى، ولقيل: «ولقد هم بها وهمّت به» مثلا، فلمّا تقدَّم همُّها دل على أن الهم المشترك بينهما لم يكن متعلِّقاً بالفاحشة قطعا.

٣ - لو كان همها متعلّقاً بالفاحشة لكان الأولى بها أن تميل إلى الاسترخاء والاستسلام بعد اليأس منه وتتْرُك مطاردته، لكن الذي حدث عكْس ذلك، فقد كانت متمالكة لكل قواها، فدلَّ ذلك على أن الهمَّ كان بقصد البطش والانتقام، لا الفاحشة.

٤ - تمالك المرأة التّام حين فوجئت بالعزيز يؤكد أن الهم لم يكن بالفاحشة وإلا لظهر عليها آثار الخَجَل والارتباك والشعور بالخيانة مما لا يخفى على أحد.

٥ - لم تَتَذكّر المرأة ممّا حدث حين رأت العزيز سوى هم يوسف - عليه السلام - بتأديبها وقد كبُر عليها ذلك، ولذا كان أول اتهام يوسف «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . .» ولم تقل: «من أراد بأهلك فاحشة» مما يؤكّد أن الهم كان بقصد التّأديب.



ثانياً - بالنسبة ليوسف - عليه السلام:

يلزم من تعليق (الهمّ) بالفاحشة في حقِّه - عليه السلام - المصادرات التالية:

١ - التجرُّؤ على الأنبياء في زمان نبوَّتهم أو ماقبله.

٢ - التعارض مع آية المراودة.

٣ - أن يكون البرهان - كما زعموا - آية صرفته - عليه السلام - عن الفاحشة وقد ثبت بطلان ذلك فيما سبق.

٤ - التعارض مع سنة الله تعالى مع أنبيائه.

الترجيح:

إن الاتجاه القائل: إن همَّ المرأة بيوسف - عليه السلام - كان للضرب والتأديب، وأن هم يوسف - عليه السلام - كان للدفاع والتأديب، هو القول الراجح المختار والذي ترتاح إليه النفس ويطمئن إليه القلب، فبراهينه الواضحة، وحججه القوية، وأدلته المتعددة، التي تتفق مع قواعد اللغة، والمنطق، والنص، والسياق، قد درأت عنه كل شبهة توجه إليه، في الوقت الذي أعطى النبوة حقها وقداستها دون أن يلجأ إلى روايات منكرة، أو تأويلات يرفضها السياق ويرفضها النص كما يرفضها الإعجاز القرآني، ولقد كان الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله موفقا بحمد تعالى في تحقيق هذا الاتجاه غاية التوفيق بما لم يكتب أحد مثله على حسب اطلاعي المتواضع، هذا والله أعلم(١).

---

(١) انظر يوسف بن يعقوب / ١٦١-١٩٢.

الله جل جلاله هو الذي صرف عن يوسف - عليه السلام - السوء والفحشاء:

قال تعالى: « ... كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ... » الإشارة في قوله: « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ » إلى شيء مفهوم ممّا قبله يتضمَّنه قوله «رآى برهان ربه» وهو رآى البرهان، أي: أريناه كذلك الرَّأي لنصرف عنه السوء والفحشاء(١).

قال الإمام الزمخشري: (كذلك) الكاف منصوب المحل، أي: مثل ذلك التثبيت ثَبَّتْنَاه، أو مرفوعه، أي: الأمر مثل ذلك(٢).

وقال الإمام ابن عطيه: والكاف من قوله (كذلك) متعلقة بمضمر تقديره: جَرَتْ أفْعالنا وأقدارنا كذلك لِنَصْرِف، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عِصْمَتُنَا له كذلك(٣).

وقال الإمام القرطبي: قوله تعالى: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) الكاف من «كذلك» يجوز أن تكون رَفْعاً بأن يكون خبر ابتداء محذوف، والتقدير: البراهينُ كذلك، أو يكون نعتا لمصدر محذوف؛ أي: أريناه البراهين رؤية كذلك(٤).

وجاء في تفسير البحر: وقال الحوفي: (كذلك) الكاف للتشبيه في موضع نصْب، أي: أريناه البراهين كذلك، وقيل في موضع رفْع، أي: أمْرُ البراهين كذلك، والنَّصْبُ أجود لمطالبة حروف الجرّ للأفعال، أو معانيها، وقال أبو البقاء: (كذلك) في موضع رفع، أي الأمر كذلك، وقيل في موضع نصب، أي: نُرَاعيه كذلك(٥).

قال أبو حيان: إن التقدير: مثل تلك الرؤية، أو مثل ذلك الرأي، نُري بَرَاهيننا لنصرف عنه، فتجعل الإشارة إلى الرَّأي أو الرُّؤية، والنَّاصب للكاف ما دل عليه قوله: (لولا أن رآى برهان ربه) و(لنصرف) متعلّق بذلك الفِعْل الناصب للكاف، ومصدر (رَآى) رؤية، ورأي، قال رؤ به بن العجاج:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٤.

(٢) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٢. (٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٨١.

(٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٠. (٥) تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٥.



ورأي عَيْنَيَّ الفتى أباكا *** يعطي الجزيل فعليك ذاكا[1]

قوله: «لِنَصْرِفَ» قرأ الأعمش (ليَصْرِف) بياء الغيبة عائداً على ربه، وقرأ الباقون بالنون.

معنى الصَّرْف: الصرف: نقْل الشيْءِ من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفْظ من حلول الشيْء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبَّرَ به عن العصمة من شيء يوشك أن يلابس شيْئاً، والتعبير عن العصمة بالصَّرْف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة، ولكن الله تعالى صرفهما عنه[2] ومعنى صرفهما عنه، صَرَف ملابَسَته إيَّاهما.

المراد بالسوء والفحشاء: اختلف المفسرون في المراد من السوء والفحشاء في قوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» على أقوال كثيرة متقاربة - غالباً -،

فقال الإمام الزمخشري: السوء: خيانة السيّد، والفحشاء: الزنا[3] وبمثله قال الإمام ابن الجوزيّ[4] وكذلك الإمام البيضاوي[5] وذكر الإمام الماوردي وجهين، (الأول) السوء: الشهوة، والفحشاء: المباشرة، و(الثاني) السوء: عقوبة الملك العزيز، والفحشاء: مواقعة الزنا[6] وقال الإمام البغوي: السوء: الإثم، وقيل: السوء: القبيح، والفحشاء: الزنا[7].

كما ذكر الإمام الفخر قولين، (الأول) السوء: جناية اليد، والفحشاء: الزنا، (الثاني) السوء: مقدمات الفاحشة، من القبلة والنظرة بشهوة، والفحشاء المباشرة[8]

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٢. (٤) تفسير زاد المسير / ٤ / ٢١٠.

(٥) تفسير البيضاوي ١ / ٤٨١.

(٦) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٦٠.

(٧) تفسير البغوي / ٤ / ٢٣٤.

(٨) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٢٣.



وقال الإمام القرطبي: السوء: الشهوة، والفحشاء: المباشرة[1] وقال الإمام القاسمي: السوء: المنكر والفجور والمكروه، والفحشاء: ما تناهي قبحه[2] وقال الإمام الطاهر بن عاشور: السوء: القبيح، وهو خيانة من أئتمنه، والفحشاء: المعصية، وهي الزنا[3].

والشيخ عبدالله العلمي يبيّن المراد من السوء والفحشاء بطريقة موسّعة جيّدة فيقول:

السوء: هو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسيّة والبدنيّة والخارجية، من فوات مال، وفقد حميم، وفعْلٍ قبيح، وهو اسم من ساءه ضدَّ سرَّه، والسوء ضدّ الحسَن، وهو في قوله تعالى: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ»[4] بمعنى الغمّ، وفي قوله تعالى: «مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ»[5] بمعنى القبيح، فالسوء كل عمل قبيح يَسُوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس أو يَسُوء الناس والفحشاء: هي والفُحْش، والفاحشة، ألفاظ ثلاثة معناها واحد، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وفَحُشَ الرجُل: صار فاحشا، قال الشاعر:

أرى الموْت يعْتَام الكرام ويصطفى *** عقيلة مال الفاحش المتشدِّد

يعني به العظيم القُبْح في البخْل، وفي الحديث: «إن الله يبغض الفاحش المتفَحّش»[6] فالفاحش: ذو الفُحْش في كلامه وأفعاله، والمتفحّش الذي يتكلّف ذلك ويتعمَّدُه، وكل ما يشتَدُّ قبحُه من الذنوب والمعاصي تطلق عليه هذه الألفاظ، ومنه الحديث: قال لعائشة - رضي الله عنها - «لا تقُولي ذلك، فإن الله لا يحبُّ الفُحْشَ وَلا التَّفَاحُش» أراد بالفُحْش، التّعَدّي في القوْل والجواب والتَّفاحُشْ تفاعُلٌ منه وقد يكون الفُحْشُ بمعنى الزيادة والكثْرَة، ومنه حديث بعضهم وقد سُئلَ عن دم البراغيث فقال: إن لم

---

(1) تفسير القرطبي/ 9/ 170. (2) تفسير القاسمي/ 4/ 359.

(3) تفسير التحرير والتنوير/ 6/ 12/ 255.

(4) النحل/ 27. (5) النساء/ 123.

(6) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أسامة بن زيد، وهو في الإرواء (2192) وفي الصحيحة 876، وفي صحيح الجامع/ 1877.



يكن فاحشاً فلا بأس وقوله تعالى: «وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(١) فالسوء: القبيح، والفحشاء: ما يتجاوز الحدَّ في القُبْح(٢).

وكل واحد من القتل والزنا يقال له سوء وفحشاء، قال تعالى: «وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً»(٣) وقال تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً»(٤) وقال تعالى: «مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سُوءٍ»(٥) أي: زنى، وقال تعالى: «وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ»(٦) أي: قتْل، وقال تعالى: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ»(٧) وقال تعالى: «فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ»(٨).

ثم قال الشيخ عبد الله العلمي: فإذا تقرَّر هذا فحاصل المعنى، لنصرف عنه ما يُغمُّه ويحزنه، وكل أمر قبيح، وكل ما يتجاوز في الحدّ القبح، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة، أو لنصرفَ عنه الكبيرة والكبْرى من المعاصي، فلعله أراد: لنصرف عنه ما يسوؤه، وهو خيانته لسيده، والفحشاء وهو قتْله لسيدته، أو السوء: ما لا حَدَّ فيه، وهو قتله لسيدته دفاعا عن عرضه، والفحشاء ما فيه حدّ وهو الزنى، أو نصرف عنه السوء، وهو مقدّمات الفاحشة من التقبيل والضَّمِّ ونحو ذلك، والفحشاء وهي الزنى أو القتل...

ثم قال الشيخ عبد الله العلمي: وهذا الأخير هو الأقرب عندنا بدليل قوله تعالى: «مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً» أي: زنى، و«مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ» أي: زنى، و«إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أي: الزنى، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنا(٩).

---

(١) البقرة/ ١٦٩. (٢) الكشاف/ ٢/ ٣١٢.
(٣) النساء/ ٢٢. (٤) الإسراء/ ٣٢. (٥) مريم/ ٢٨.
(٦) الأعراف/ ٧٢. (٧) البقرة/ ٤٩. (٨) النساء/ ٢٥.
(٩) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٤٢-٥٤٤.



قال صاحب فتح البيان: وحَمْلُ معنى السوء على العموم، أي: كل ما يسوءه، والفحشاء على كل أمر مفرط للقبح أولى، ويدخل فيه ما يَدُل عليه السّياق دخولا أوّليّاً(١).

آية بيّنة وحجة قاطعة:

وفي قوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء» آية بيِّنةٌ وحجّة قاطعة على أنه - عليه السلام - لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا تَوَجَّهَ إلَيْها قطّ، وإلا لقيل: لِنَصْرِفه عن السوء والفحشاء، وإنّما تَوجّهَ إليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفّة والعِصْمة فتأمَّل(٢) لأنه - عليه السلام - لم يعزم عليهما، بَل لم يتوجّه إليهما فيُصْرَفُ عنهما(٣).

إخلاص يوسف - عليه السلام - لله تعالى، واخلاص الله عزّوجلّ ليوسف:

قال تعالى: « إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» وهذه الجملة تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق(٤) وهو صرفه عن السوء والفحشاء الصَّرْف الخارق للعادة لئلا ينتقص اصطفاء الله إياه في هذه الشدَّة على النفس.

وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف «الْمُخْلَصِين» بفتح اللام، أي الذين أخلصهم الله تعالى واصطفاهم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب «الْمُخْلِصِين» بكسر اللام، على معنى المُخْلصين دينهم لله، ومعنى التّعْليل على القراءتين واحد(٥) وعلى كلا المعْنيَيْن أيضا فهو - عليه السلام - منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسميّة - أي التعبير بها - لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم مادّة احتمال صدور الهم بالسوء منه

---

(١) انظر: فتح البيان/ ٦/ ٣١٥.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٧.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٠. (٤) روح المعاني/ ٦/ ٤٠٨.

(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٥.



- عليه السلام - بالكلية[1] وفي هذا عند ذوي الألباب ما ينقطع معه عذْر أولئك المتشبّثين بأذيال هاتيك الأخبار التي ما أنزل الله تعالى بها من كتاب[2] وقد كان يوسف - عليه السلام - بهاتين الصِّفتيْن، مُخْلَص، ومُخْلِص - لأنه كان مخلصا في طاعة الله تعالى، مُسْتَخْلَصاً لرسالة الله تعالى[3].

وقراءة هذه الكلمة (مُخْلَصين) في القرآن الكريم بالفتح بمعنى أن الإنسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله لطاعته، ومن خواص الإخلاص أنه لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا عدوٌّ فيفسده، ولا يَعْجَبُ به صاحبه فيبْطله،... ويوسف - عليه السلام - قد عصم نَفْسَهُ فَعصمه الله بإخلاصه لله[4].

هذا، ومن المفسرين من يرى الاقتصار على قراءة (المخلَصين) بالفتح دون الكسر، قال صاحب المنار: «إنه من عبادنا المخْلَصين» بفتح اللام، وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفّاهم من الشوائب وقال فيهم: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ»[5] ويوسف - عليه السلام - هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية، وقد بشَّرَه أبوه بذلك بعد أن قصّ عليه رؤياه إذ قال له «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» فالاجتباء هو الاصطفاء[6].

والعبد الفقير يميل بقوّة إلى هذا الاتجاه، فإن المخْلَص بالفتح هو الذي جمع الله له الحسْنَيَيْن من أول الأمر، أكرمه الله تعالى بالاصطفاء أوّلا، فهو بهذا الإكرام وهذا الاصطفاء يطيع الله تعالى طاعة كاملة، وهذا هو الأليق بمقام يوسف - عليه السلام - الذي أكرمه الله تعالى واجتباه من أول الأمر ليكون نبيا ورسولا، أما المخْلص بالكسر، فهو الذي جاهد نفسه طويلا حتى بلغ درجة الإخلاص لله تعالى فأكرمه الله تعالى

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٧.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٠٨. (٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٠.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٤٥.

(٥) سورة صٓ/ ٤٥-٤٧. (٦) المنار/ ١٢/ ٢٧٩.



وأخلَصه له على قدر جهاده وإخْلاصه، وقد يَحْدُث له في طريق جهاده هفوة أو غفلة أو زلّة يعود بعدها إلى مواصلة جهاده ليصل إلى درجة الإخلاص.

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: هناك أناس يصِلون إلى كرامة الله تعالى بطاعته جل شأنه، أطاعوا الله فأكرمهم، - على قدر طاعتهم له - وهناك أناس يكرمهم الله تعالى ويصطفيهم من أول الأمر، فبالإكرام والاصطفاء يطيعون الله تعالى[1].

شهادة إثر شهادة:

وفي قوله تعالى: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» شهادة إثر شهادة مِنَ الذي يعلم السر وما تخفي الصدور بأن يوسف - عليه السلام - متصف بصفة لا تكون إلا لمن اجتباهم الله تعالى واصطفاهم، لقد سبقت شهادة الله تعالى له - عليه السلام - بقوله: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» قبل آية المراودة، فإن المخلص لله تعالى قد ذاق من حلاوة عبوديته له تبارك وتعالى ما يمنعه من العبودية لغيره عز وجل، وخالطه من محبته تعالى ما يحول دون محبته لسواه، فما أحب شيئاً إلا بحبه لله سبحانه، وليس أحلى على القلب ولا أطيب من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته الخالصة لله تعالى، وذلك يقتضي الصدق في التوكل على الخالق، والتوجه الكلي إليه سبحانه في جميع شئونه مع كمال المحبة والخشية والتعظيم، فإذا أخلص العبد لله تعالى اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه وصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، وقد جاءت هذه الشهادة (إنه مِن عِبَادِنَا الْمُخْلصين) قبل آية الاستباق نحو الباب ومواجهة العزيز لتؤسس في النفوس براءته - عليه السلام - من أي شيء ينسب إليه[2].

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٢) يوسف بن يعقوب / ١٨٩-١٩٠.



مضمون الآية الكريمة:

لما أحكمت امرأة العزيز خطتها، ودبرت الخلوة المحصنة التي تمكنها من نيل مرادها من يوسف - عليه السلام - واستعدت بكامل زينتها ودعته - عليه السلام - إلى مخدعها، وراودته عن نفسه وصرحت له بما تريد منه، متنازلة عن آخر قطرة من حيائها وكبريائها، حدث ما لم يكن في حسبانها بحال، إذْ كان رده عليها مدوياً مزلزلاً - أطاح بكل بارقة أمل فيما أرادته واشتهته، «قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» فأشعلت كلماته هذه في قلبها ناراً أخرى عاتية مستعرة طغت على نار الشهوة، إذ وجدت نفسها أمامه - وبعد كل ما أعدت وهيأت وخططت - مُحَقَّرة مهانة ذليلة مرفوضة من عبد هي سيدته، فقررت الانتقام منه وتأديبه عَلَّها تسترد شيئاً من كرامتها المهدورة، وعزتها المراقة، وكبريائها المسحوق تحت قدمه - عليه السلام - ولما همت بذلك واتجهت نحوه وهي غاضبة حانقة هَمَّ - عليه السلام - هو أيضاً ليدافع عن نفسه ضدها ويؤدبها، لكن الله تعالى بفضله ورحمته تجلى عليه في هذه اللحظة الحرجة فأراه البرهان الذي أنار له كل شيء، فعلم أن السلامة في الهروب بسرعة من هذا المكان إلى خارج القصر درءاً للشبهات وتفادياً لمكر المرأة به واتهامه بما هو بريءٌ منه لو ظل في مخدعها حتى تستصرخ عليه الشهود، وانطلق بأقصى سرعة تاركاً المكان إلى خارج القصر، يفتح أبوابه باباً بعد باب، وهكذا صرف الله عنه السوء فلا يفعله، والفحشاء فلا يقربها، لأنه من عباد الله المخلصين، الذين استخلصهم ربهم لعبادته ومحبته وتبليغ رسالته، فهم برءاء من كل شبهة وريبة.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - ثبات يوسف - عليه السلام - على موقفه الطاهر المشرف في مواجهة دعوة امرأة العزيز له لارتكاب ما حرم الله تعالى.

٢ - رد الفعل الشديد الذي ظهر على امرأة العزيز بعد رفض يوسف - عليه السلام - الرفض التام، وإبائه المطلق وترفعه العالي عما تطلب، فهمت بضربه وإيذائه رداً على ما صدر منه.

٣ - هم يوسف - عليه السلام - أن يرد على المرأة اعتداءها، لكن الله تعالى عصمه من ذلك وأراه البرهان أن السلامة في الخروج من القصر كله.

٤ - مشروعية الدفاع عن النفس ولو بما يسيء إلى الخصم.

٥ - صَرَفَ الله السوء والفحشاء عن يوسف - عليه السلام - لأن الله تعالى اجتباه وأخلصه لطاعته، فكان - عليه السلام - مخلصاً لربه دائماً.

٦ - كلما ازداد العبد إخلاصا لربه، كلما زاده الله توفيقاً وحفظاً ورعاية.

٧ - الإخلاص سرّ من أسرار الله تعالى يودعه قلب من أحبّه.



«الفصل الثاني»

(من الباب الثاني)

«الاستباق والتحكيم والبراءة»

من الآية رقم (٢٥)

إلى الآية رقم (٢٩)



«آيات الفصل الثاني»

قال الله تعالى:

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾



«الآية الخامسة والعشرون»

أولاً - النص الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«واستبقا الباب» تَسَابقا إليه، والتَّسابق والمسابقة بمعنى واحد[١] والاستباق افتعال من السَّبْق، وهو طلب السَّبْق إلى الشيء، وأصل (استبق) أن يتعدى بـ(إلى) فحذف اتِّساعاً[٢].

«وقدَّت قميصه من دُبُر» أي: قطعته من وراء، أي: من خَلْف، والقدُّ: القطع والشَّقُّ، وأكثر استعماله فيما كان طُولاً، قال النابغة:

تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفُ نَسْجُه *** وتُوقِدُ بالصُّفَاح نار الحبائب[٣]

والقَطُّ، يستعمل فيما كان عَرْضاً[٤] والقميص: الشعار تحت الدّثار، والجلباب، والجمع: أقْمِصَةٌ وَقُمُصٌ وقمصان.

«وألفيا سيدها لدى الباب» أي: وَجَدَا وصادفا زوجها العزيز عند الباب. والإلفاء: وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعْي لوُجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئا، أو حاصلا عن جهل بأول حصول، كقوله تعالى: «بلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا»[٥].

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن / ٣٠٦.

(٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٦٧.

(٣) البيت من الوافر للنابغة الذبياني.

(٤) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٢٩٦.

(٥) البقرة / ١٧٠.



«إلاّ أن يُسْجنَ» : السَّجْن بفتح السّين قياس مصدر سجنه، بمعنى الحبس في مكان محيط لا يخرج منه، والسّجن بكسر السين: اسم للبيْت الذي يسجن فيه[1].

رابعاً - الإعراب:

«وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ» الواو عاطفة، والجملة متّصلة بقوله تعالى: «ولقد همَّت به وهم بها» وقوله: «كذلك لنصرف عنه السوء الخ...» اعتراضٌ جئ به بيْن المتعاطفَيْن تقريراً لنزاهته وبراءته - عليه السلام - و(استبقا) فعل ماض، والألف، فاعل، و(الباب) منصوب بنزْع الخافض، و(قدَّت قميصه): قدَّ فعل ماض، وفاعله، هي، وقميصه، مفعول به، و(من دبُر)، حال، ويحتمل أن يكون (قُدَّت) معطوفا على «واستبقا»، ويحتمل أن يكون حالا، أي: وقد قدَّت جذبته من خلفه بأعلى القميص من طوقه فانْخَرق إلى أسفله.

«وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (وألْفيا)، عطف على ما تقدم، والألف فاعل، و(سيدها) مفعول به، و(لَدَى)، ظرف في محل نصب مفعول به ثان.

«قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ما، اسم استفهام مبتدأ، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، أي ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم، و(جزاء) خبر، و(مَنْ)، مضاف إليه، وجملة (أراد) صلة، و(بأهلك)، جار ومجرور متعلّقان بأراد، (سوءاً) مفعول به، و(إلا)، أداة حصر، و(أن وما في حيّزها) بَدَلٌ من جزاء، أي إلا السجن، ويجوز أن تكون ما، نافية، وجزاء مبتدأ، وأن يسجن خبره، و(أوْ)، حرف عطف، و(عَذاب)، عطف على المصدر المؤوّل، و(أليم)، صفة، ومَن، يجوز فيها أن تكون موصولا أو نكرة موصوفة[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٦.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤٧٤-٤٧٥.



سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى امتناعه - عليه السلام - ذكر مبالغته في الامتناع بالجدّ في الهرب دليلاً على إخلاصه فقال:

«واستبقا الباب...»(١)

متصل بقوله: «ولقد همّت به وهمّ بها... الخ». وقوله تعالى: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء... الخ» اعتراض جئ به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته - عليه السلام -(٢) وانتصب «الباب» إما على إسقاط الخافض اتّساعا، إذ أصل استبق أن تتعدى بـ(إلى) وإما على تضمين «استبقا» معنى «ابْتَدَرا» فتنصب مفعولا به(٣) ومعنى «استبقا الباب»: تسابقا إليه، وأصل السّبق التقدم في السير، نحو «فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً»(٤) والتّسابق والمسابقة بمعنى واحد، والاستباق افتعال من السَّبق، وهو طلب السَّبْق إلى الشيء(٥)...

والمراد بـ(الباب) الباب البرَّاني الذي هو المخرج من الدار والمخلّص من العار، بدليل قوله: «لدى الباب» ولذلك وحّده بعد الجمع فيما سلف حيث قال: «وغلقت الأبواب»(٦).

فالأبواب التي غُلّقت كانت متعدّدة، فمنها ما يُفْضي إلى أجنحة الخدم، ومنها ما يُفضى إلى أجنحة أخرى في القصر، ومنها ما يفضى إلى الباب الخارجي، وهذا هو الطريق المقصود، فالاتجاه كان إلى فتح الأبواب المفضية إلى الباب الخارجي الذي يفضي

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٣١. (٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٠٨.
(٣) الدر المصون/ ٦/ ٤٧٠-٤٧١. (٤) النازعات/ ٤.
(٥) انظر: المفردات (كتاب السين)/ ٢٢٢.
(٦) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٢-٣١٣.



به حيث الآخرون، فإنه - عليه السلام - علم عن طريق البرهان أن ما همت به المرأة من ضرب وإيذاء سيكون في صالحها، وأنه لو قابل همّها بمثله من الضرب والتأديب سيثبت عليه ما تريده هي، ولا سبيل إلى النجاة إلا في سرعة مغادرة المكان، فعدَل عن ضربها واشتد يسعى ليتخلص من هذا المأزق، وإسناد «السبق في ضمن الاستباق إليها مع أن مرادها منع يوسف - عليه السلام - وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب؛ لأنها لمّا رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها، أسرعت هي أيضا لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج، أو عبّر عن إسراعها أثره بذلك مبالغة[١]...

وهذا القول: «واستبقا الباب» من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لما رآى برهان ربه هرب منها فَتَعادَيَا، هي لتردّه إلى نفسها، وهو ليهرب منها[٢].

• **شتان ما بين استباق واستباق:**

لقد سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب الخارجي، هو ليهرب عنها، وهي لترده إلى نفسها[٣] هو يستبق لباب الجنة، وهي تستبق لباب جهنّم، هو يستبق لباب الطهارة، وهي تستبق لباب الدَّنَس، هو يستبق لباب الشرف والعلو، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط، كل منهما يريد الباب، ولكن لأمرين مختلفيْن، كل منهما يريد الباب وهو عمل في ظاهره واحد، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف، صورة هذا العمل واحدة، ولكن الروح مختلفة، هو استبق الباب ليخرج منه، وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج، هو استبق الباب ليفتحه، وهي استبقت الباب لتسدَّه في وجهه، هو استبق الباب ليفرَّ بدينه ومروءته، وهي اسْتبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها[٤].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٧، ويوسف بن يعقوب/ ٨٠.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٠.

(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٨١.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٤٧-٥٤٨.



الاستباق العنيف كان بسبب خوف المرأة من المصيبة الأكبر:

لقد كانت عملية الاستباق بين يوسف - عليه السلام - وبين المرأة عنيفة إلى أقصى حدّ، والسبب أنها كانت تخشى من وقوع المصيبة الأكبر - بعد مصيبة تنازلها عن كل كرامتها وعزتها، ثم مصيبة الرد الصاعق عليها من يوسف - وهي أن يخرج يوسف من القصر فيخبر الآخرين بخبرهما معا، وهذا شيء خطير للغاية لا يمكن أن تتحمله امرأة في مثل مركزها، إنها مصيبة كبرى تعمها وزوجها وأهلها وتجعلها مُهَانة ذليلة يَتَنَدَّر الناس بفعلتها ويرمونها بالطيش والضلال المبين، لذلك لما علمت أنّه اختار الطريق الصحيح لخلاصه منها، حرصت بكل قوة لتلحق به وتمنعه من الخروج حتى لا يعلم أحد بما وقع. ولم تزل تجري وراءه مسرعة حتى لحقت به.

قوله تعالى: «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ»، القميص الذي يُلْبس معروف مذكّر، وقد يعني به الدرع فيؤنث، وأنّثهُ جرير حين أراد به الدرع فقال:

تدعو هوازنَ والقميصُ مُفاضةٌ *** وتحت النّطاق تشَدُّ بالأزرار

والجمع أقْمِصَةٌ، وقُمُصٌ وقمصانٌ[1] وقد يطلق على الجلباب[2] ولعله المراد هنا، «وَقَدَّتْ» يحتمل أن يكون معطوفا على «واستبقا» ويحتمل أن يكون حالاً، أي: وقد قدَّت، والقد: القَطع والشَّقّ، وأكثر استعماله فيما كان طولا، والقطُّ: يستعمل فيما كان عرْضاً[3] وفي وصف سيدنا علي - رضي الله عنه - كان إذا اعْتَلى قدَّ، وإذا اعترضَ قط[4] وقوله: «مِنْ دُبُرٍ» أي من خلف، ومعنى وقدَّت قميصه من دبر» أي جذبتْه من خلفه بأعلى القميص من طوْقه فانْخرَق إلى أسلفه، وقدُّها لقميصه من دُبُر يدل على أنه - عليه السلام - سابقُها في الاستباق[5] فقد جرتْ خلفه تحاول جاهدة مجاراة سرعته،

---

(١) اللسان / ٧ / ٨٢.

(٢) المعجم الوسيط / ٢ / ٧٥٩.

(٣) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٢٩٦.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥٤٩.

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



بل اللحاق به، بل تخطّيه، وقد أمكن لها فقط الإمساك بما وصلت إليه يدها من قميصه، وقد كان إمساكها للقميص وجذبها له من العنْف لإرغام يوسف - عليه السلام - على الوقوف أو الإمساك به نفسه، على أقل تقدير بالدرجة التي قدَّت ذلك القميص من خلفه، وواضح أنها لم تتمكن من تخَطّيه، بل إنها لم يكن بإمكانها أن تلحق بقميصه لولا امتداد يدها[1] ولولا أن يوسف - عليه السلام - كان يستغرق بعض الوقت في فتح الأبواب المغلَّقة لما استطاعت امرأة العزيز أن تلحق به بحال، إذ أنه بالطبع أقوى منها وأسرع بكثير، ولكن كان ذلك لحكمة قدَّرها العليم الحكيم سبحانه.

قوله تعالى: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» هذه الجملة عطف على ما تقدَّم، والإلفاءُ: وجْدان الشيء على حالة خاصة من غيْر سَعْيٍ لوجْدَانه، فالأكثر أن يكون مفاجئاً، أو حاصلا عن جهل بأوَّل حصول، كقوله تعالى: «قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا»[2] قال الإمام البخاري: «وألفيا» وجَدَا، وهي قراءة عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وقال أبو الأسود الدُّؤَلي:

فَأَلْفَيتُه غيْر مُسْتَعْتِبٍ *** وَلاَ ذاكراً اللّهَ إلاّ قَليلا

والسيد: الزوج، قاله زيد بن ثابت ومجاهد، والسّيّد: فيْعَل من ساد يسود، وشاع إطلاقه على المالك وعلى (الرئيس) فمعنى «وألفيا سيدها» أي: وجَدَا سيّدها، و«لدى الباب» أي: عند الباب الخارجيّ يريد الدخول إلى البيت، وإطلاق السيد على الزوج قيل: إن القرآن الكريم حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج سيّداً، والظاهر أن ذلك لم يكن مستعملا في عادة العرب، فالتّعبير هنا من دقائق التاريخ مثل قوله الآتي: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ»[3]، [4] وإطلاق كلمة (سيد) على الزوج هي لغة المصريين وشائعة بينهم إلى اليوم، حكاها القرآن العظيم جرْياً على

---

(1) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٨٣.

(2) البقرة/ ١٧٠. (3) يوسف/ ٧٦.

(4) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٦.



اصطلاحهم(١) وقال «سيدها» ولم يقل (سيدهما) لأن استرقاق يوسف - عليه السلام - غير شرعيّ، وهذا كلام ربّه تعالى العليم بأمره، لا كلام من اسْتَرَقَّه(٢).

وجود العزيز لدى الباب كان رحمة من الله تعالى ليوسف - عليه السلام -:

لقد كان وجود العزيز عند الباب الخارجي مصادفة وهو يهمُّ بدخول البيت رحمة واسعة من الله تعالى بعبده يوسف - عليه السلام - فأنقذته من خطر محقَّق كادت أن توقعه به امرأة العزيز ردّاً على موقفه منها، لكن عناية الله تعالى كانت تحوط يوسف - عليه السلام - دائماً، ففي اللحظة التي فَتَح فيها الباب الخارجي كانت قد لحقت به المرأة وقدَّت قميصه من دُبُر، وهنا أمكن لهما أن يريا العزيز معا، وقد كان وجود الزوج لدى الباب مفاجئاً للمرأة بالذات، لأنّه يُظنُّ أنها لم تكن لتجرُؤَ على ما قامت به لو لم تكن مطمئنة إلى أن ذلك الوقت غير وقت عودة العزيز(٣) فلما وجدتْه أصيبت بخيْبة أمل لا حدّ لها، وجمدت في مكانها بعد أن أيقنت أن كل مخطَّطاتها ذهبت سدى، وها هي الآن تواجه زوجها وقد أصبحا الآن وجها لوجه أمامه لا يخفيهما ساتر أو حجاب، وهما على حالة تثير الدَّهشة والتَّساؤل، ورأت المرأة نفسها قد وقعتْ في مأزق حرج فخافت أن يتكلم يوسف قبل أن تتكلم هي، أو خافت أن يبادرها سيّدها بالسؤال عن هذا الحال فبادرت بالتَّكلُّم وَسبقتْ قبل أن تُسأل(٤) ورغم أنها في هذا الموقف المروّع إلا أنها أظهرت مكْر الأنوثة وصمودها الهائل للدفاع عن كيانها، فها هي تواجه فجأة الرجل الذي كانت تبذل كل ما في وسعها لخيانته، وتُوغل فيما يشوّه سمعته، غير عائبة بمركزه ولا بفضله ولا بحقّه عليها، وكانت صدْمة المواجهة تقتضي أن تتداعي المرأة أمامه، أو أن يظهر عليها الحرج، أو أن تنطق أحوالها بما يدور

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٥٣.

(٢) تفسير المراغي/ ٤/ ١٢/ ١٣٢.

(٣) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٨٣.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٥٧.



في نفسها، ولكنها تمالكت أعصابها ولم تُعوزْها الحجة في موْقف تذهب فيه كل فطانة، ويتزعزع كل ثبات، ويطير فيه قلب الجرئ، فلا يتضمّن كلامها إلا ما يدل على البراءة من كل إثْم، والطهارة من كل سوء، وبدأت تحاول في ذكاء خارق وسرعة مذهلة علاج الموقف بطريقة تتّفق وصالحها[1] وأسعف المرأة ذكاؤها وكيدها وحاولت أن تلصق بيوسف - عليه السلام - تهمتها، وأن تنسلّ من جريرتها فبادرت زوجها بقولها[2]

«قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (قالت) استفهام مبني على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب؟ فقيل «قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ... الآية» و(ما) نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد[3] والمراد بكلمة (الأهل) ههنا الزوجة، كما في قوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ»[4] أي زوجته، وقوله تعالى لنبيه محمد - ﷺ - «وإذ غدوْت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال»[5] أراد من أهله عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - لأن غدوه إلى أحد كان من حجرتها، و«سوءاً» أي: أي شيء يسوؤك مها يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير «سوءا»[6] وقالت: «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا» ولم تقل «من فعل بأهلك سوءا» تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل.

وقولها: «إلاّ أن يُسجن» أي: إلا السجن يعاقبُ به، لأنّ (أن) الخفيفة وما عملت فيه اسم بمنزلة السجن[7] والسَّجْنُ بفتح السين قياس مصدر سجنه، بمعنى الحبس في مكان محيط لا يخرج منه، والسِّجن بكسْرِ السِّين اسم للبيت الذي يسجن فيه، كأنهم سمُّوه بصيغة المفعول كالذبح، وأرادوا المسجون فيه[8].

---

(1) يوسف بن يعقوب / 81. (2) نظرات في أحسن القصص / 1 / 325.
(3) تفسير الكشاف / 2 / 313. (4) القصص / 29.
(5) آل عمرا / 121. (6) تفسير المنار / 12 / 286.
(7) معاني القرآن (الأخفش الأوسط) / 365.
(8) تفسير التحرير والتنوير / 6 / 12 / 264.



وقولها: «أو عَذَابٌ عليم» أي: موجع يؤدّبه ويلزمه الطاعة[1] وهذا العقاب «إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» هو من مواد الشريعة المصرية آنذاك عقابا لكل من حاول الفاحشة[2] وهذه المادة توافق شريعتنا المحمديّة، لأن كلاَ شقّيْ هذه المادة من أنواع «التعزير» الذي هو عقاب من حاول فعل الفاحشة، وبعبارة أخرى، الذي يكون في المعصية التي لا حدَّ فيها[3].

والواضح في قول المرأة «مَا جَزَاء مَن أَرَادَ بأهلكَ... الآية» مسارعتها في تنزيه نفسها عن أي سوء، موهمة زوجها أنها فرَّت منه تبْرئة لساحتها عنده جاعلة صدور إرادة السوء من يوسف أمراً محقَّقاً مفروغا منه غنيّاً عن الإخبار بوُقوعه[4] ولو وقفت المرأة على قولها: «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا» كان الكلام استفهامياً وتفويضاً للحكم إلى زوجها، ولكنها خافت أن يكون حكم الزوج التخلّص من يوسف بالقتْل أو البيع ولم تسمح نفسها بفراقه حيث شغفها حُبّاً وغراما، فَقَلَبَتْ (ما) إلى النّفي بزيادة الاستثناء، وحكمت بنفسها على يوسف بالسجن أو العذاب الأليم[5].

بيان وجوه الإعجاز في قوله تعالى: «قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

١ - جعلت صدور إرادة السوء من يوسف - عليه السلام - أمرا ثابتا غير مطروح للمناقشة، وغير قابل للبحث، ولذا لم تطلب التّحقيق فيما ارتكبه، بل طلبت توقيع الجزاء عليه لما ثبت وقوعه منه، والذي وقع منه في نظرها هو همّه بضربها، وهذا أمر لم يكن متوقّعا من مثله لمثلها، وكيف يجوز له أن يرتكب هذه الكبيرة وهو الذي يجب أن يطيعها في كل ما تأمر، فجرى عمله هذا بالنسبة إليها مجرى السوء، وهي لشدّة

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٦.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٧٩.

(٣) مؤتمر سورة يوسف/ ١/ ٥٥٧.

(٤) انظر: تفسير الألوسي/ ٦/ ٤٠٩، والتفسير المنير/ ١٢/ ٢٤١.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٧٩.



ذكائها جاءت بعبارة تؤدي مَعْنَيَيْن لصالحها، فإرادة السوء منه تَحْتَمل أنه حاول ضرْبها، كما تحتمل أنه قصد أن ينال منها مالا ينبغي.

٢ - لم تخصِّص نفسها بإرادته للسوء، بل عَمَّمَتْ ليشمل أهل العزيز، ومن المعتاد أن يقصد بالأهل الزوجة، ولكن في الظروف غير العادية لابد من التخصيص لتحديد المسئولية حيث لا ينفع التعميم، وكأنها جاءت بلفظ الأهل ليدخل في هذا الحكم كل ما يشمله هذا اللفظ في القصر بما في ذلك امرأة العزيز، ولا يخفى ما في ذلك من تمييع للقضيَّة.

٣ - لو كان في نيتها التخلص منه - عليه السلام - والنّجاة بنفسها لقالت بادئ ذي بدء، ما جزاء من أراد بامرأتك الفاحشة، ولكنها جاءت مرة أخرى بلفظ عام هو «السوء» الذي يتّسع معناه لتجاوز الحد فيما بين الفتى وسيدته بالإهانة والعصيان أو عدم تنفيذ أمْر مّا، كما يفهم منه المغازلة، أو الضرب الخ... فهي بالتعريض باتهامه تحاول صرف الانتباه عن حقيقة ما حدث.

٤ - مما يدل على شدّة تمكّنها من الموقف أن كلامها فيه إغراء ليوسف - عليه السلام - بالسكوت، ودعوة إلى التعاون معها للخروج من المأزق، يعني أنها ما زالت تطمع في قضاء وطرها ونيْل بُغْيتِها وكأنها تقول: في إمكاني أن أتهمك اتهاما مباشراً بالفاحشة، ولكني أعطينك فرصة للنّجاة، لعل ذلك يرضيك ويبعثك على مراجعة نفسك والسكوت عما حدث من جهة، والرضوخ لي من جهة أخرى، وفي ذلك ما يدل على أنها لا زالت مصرة على استئناف محاولاتها من جديد.

٥ - في دَعْواها أمام زوجها اعتبرت أنَّ المسألة غير خاصة بالعرْض بل بتأديب يوسف - عليه السلام -، وبلباقة حاولت توجيه الانتباه إلى بحث نوع العقوبة التي يستحقها[١] وخشية تغليظها اقترحت بنفسها العقوبة المألوفة في هذه الأحوال، وهي

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٨١-٨٢.



ليست بعقوبة التعدّى على الأعراض، ولكنها عقوبة من تجاوز حدّ الأدب إما بالسجن وإما بالتعذيب المؤلم، فهي بمكرها قد جعلت براءتها فوق الشُّبُهات، وغير قابلة للمناقشة.

٦ - يتضن كلامها تهديداً مستَتِراً ليوسف - عليه السلام - بأنها هي صاحبة السلطان التي بيدها الأمر والنَّهْي، وها هي تقترح العقوبة التي تُوقَّعُ عليه، ومن اقترح العقوبة في إمكانه أن يقترح العفْو أيضا، ومن قَدَّم السجن في هذه المرة، يستطيع أن يقدم التعذيب أو القتل مَرَّة أخرى، ومن عَمَّمَ إرادة الأهل بالسوء في هذه المرة، يمكنه أن يخصّص الأهل بالزوجة والسوء بالفاحشة في المرّة القادمة، فهي تُريه أنها سيدة الموقف، لدرجة أنها تستغل الواقعة لتهديده - عليه السلام - من طريق الإشارة تحت سمع زوجها وبصره، وليفهم أنه واقع في قبضتها لا محالة، ولا سبيل للنجاة سوى الرضوخ لرغبتها مادام في استطاعتها أن تفعل به ما شاءت، ولن يتمكن مِنَ النّجاة من مكرها وكيدها.

٧ - في إضرابها عن عقوبة الإعدام وذكرها للعقوبة التي تُبْقى على حياته - عليه السلام - وتقديمها للسجن على العذاب تريد أن توحي بأنّ الذي حدث ليس بالأمر الجَلَلَ الموجب للقَتْل أو التعذيب، وفي هذا ما فيه من تسكينٍ لثائرة زوجها وتهدئته وَصرْفه عن الظّنون.

٨ - بالرغم من إعراض يوسف - عليه السلام - عنها فإنها كانت تكن له أشدَّ الحبّ، فهي تكتفي في اتّهامه بالتّعْريض والظّنّ لتمييع القضية الأساسيّة، كما أنها لم تتجاسر على تلفيق جريمة محاولة ارتكاب الفاحشة لأن هذا ليس من مصلحتها، تعظيما منها لطهارته - عليه السلام -، وخوْفاً عليه من أن يعامل بقَسْوة من أجْل تزويرها وتضليلها القوم عن حقيقة ما حدث(١).

---

(١) المرجع السابق/ ٨٢-٨٣.



وهذا هو ما حملها على تقديم السجن وتأخير العذاب، فهي لا تريد أن يمسه أحد بعذاب، ولَمّا أنّها قد اعتادت أن تنفّذ رغباتها الأولى، فقد كانت واثقة من أن يكون مآله السجّن ما لم يرضخ لرغباتها، كذلك أطلقت المراد من السجن ليحصل بأقلّ مدّة، ولو أرادت الحبس الطويل لقالت: أن يجعل من المسجونين، كما هدّد فرعون موسى - عليه السلام - «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ»(١) وهي في جميع ما تقول تعلم أنها آثمة، وأنه لم يعْصمها من السقوط سوى عصْمة يوسف - عليه السلام - ولكنها في نفس الوقت تخادع خِداعاً يوصلها إلى مقصودها(٢).

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد أن ذكر الله تعالى امتناعه - عليه السلام - عما أرادته امرأة العزيز، وأراه برهان ربه أن السلامة في مغادرة المكان، فر يوسف من أمامها هاربا إلى الباب الخارجي طالباً النجاة منها، مرجحاً الفرار على الدفاع الذي تخشى عاقبته، وتبعته هي تبغي إرجاعه حتى لا يفلت من يدها، وهي لا تدري إذا هو خرج إلى أين يذهب، ولا ماذا يقول، ولا ماذا يفعل، وما كادا أن يصلا إلى الباب الخارجي حتى أدركته وقدت قميصه من دبر فانشق طولاً، وما أن فتحه يوسف - عليه السلام - حتى وجدا زوجها العزيز قاصداً الدخول إلى البيت، فلما نظر إليهما رأى أمراً شق عليه، فبادرت المرأة بمكرها وكيدها وكذبها قائلة لزوجها ما جزاء من أراد بأهلك شيئاً يسوؤك - صغيراً أو كبيراً - إلا سجن يعاقب به، أو عذاب أليم موجع يؤدّبه ويلزمه الطاعة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - في فرار يوسف - عليه السلام - هرباً من المرأة وجحيمها إلى الباب الخارجي، دلالة واضحة على سرعة استجابته لبرهان ربه الذي أراه إياه.

---

(١) الشعراء/ ٢٩.

(٢) المرجع السابق/ ٨٣-٨٤، وانظر في ذلك أيضاً، تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٢٥، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٦.

رفع المسيّهم

٢ - وفي هذا الفرار دلالة أكيدة على شدة بغضه - عليه السلام - لما قامت به المرأة من محاولة جره إلى ارتكاب ما يغضب الله تعالى.

٣ - لقد كان هذا الفرار من يوسف - عليه السلام - فراراً من الدنيا وزينتها وفتنتها وكل ما فيها إلى الله تعالى القائل: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّه».

٤ - كان لِقَدِّ المرأة قميصه - عليه السلام - من الخلْف أثر بالغ في نفي التهمة عنه فيما بعد وتبرئته، وفي نفس الوقت كان دليلاً على جرم المرأة وكذبها.

٥ - شدة ذكاء المرأة وبراعتها الساحرة في مبادرتها زوجها بالكلام الذي يبرئ ساحتها ويلصق التهمة بغيرها.

٦ - في هذه الآية الكريمة إضافة دلالة على صدق محمد - ﷺ -، وأن القرآن الذي جاء به هو من عند الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فقد ثبت في تاريخ مصر القديم أن المصريين في زمان يوسف - عليه السلام - لا يقولون لزوج المرأة زوجها، بل يقولون: سيدها، فمن أين درس محمد - ﷺ - هذا التاريخ، فيعبر هذا التعبير الدقيق وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، فدل هذا على أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى أنزله على عبده ورسوله محمد - ﷺ -.

٧ - وجود سيدها لدى الباب كان رحمة من الله تعالى بيوسف - عليه السلام - فلو انفردت به قبل مجئ الزوج لساء الأمر وتعقّد.



«الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وَشَهِدَ شَاهِد» الشاهد: من يؤدي الشهادة (ج) شهود، والشهادة: أن يخبر بما رآى. و - أن يقر بما علم، والشهادة البيّنة (في القضاء): هي أقوال الشهود أمام جهة قضائية(١).

رابعاً - الإعراب:

«وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا» الواو عاطفة، وشهد شاهد فعل وفاعل، و(من أهلها) صفة لشاهد.

«إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ» الشرط مقول قول محذوف، أي: فقال، و(إنْ) شرطية، و(كان قميصه) كان واسمها، وجملة «قُدَّ» بالبناء للمجهول خبر، و(من قبل) متعلقان بـ(قدّ)، (فصدقت) الفاء رابطة، وصدقت فعل ماض، والجملة جواب الشرط، أي: فقد ظهر صدقها، «وهو» الواو حالية، وهو مبتدأ، و«من الكاذبين» خبر، ولا بد من تقدير (قد) ليصح دخول الفاء الرابطة، وإلا فلو لم تقدر لم يصح دخول الفاء لأنه فعل ماض متصرف.

«وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ» عطف على الجملة الأولى وهي مماثلة لها في إعرابها.

---

(١) المعجم الوسيط / ١ / ٤٩٧.



خامساً - الموقف من المتعارضات:

تحقيق القول في موضوع (الشاهد) في قوله تعالى: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...»

اختلف أهْل التأويل في المراد من الشاهد في قوله تعالى: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا»:

(أ) فذهب فريق من المفسرين إلى أن المراد بالشاهد هنا صبيّ في المهد، واستدلوا على ذلك بما نُقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْح، وعيسى بن مريم» وبما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريح تكلموا في المهد[١].

واعترض على أصحاب هذا الاتجاه بأن الحديث الأول قد ضعَّفه رجال الحديث[٢]

أما الحديث الثاني فموقوف لا يصلح للاحتجاج به[٣] ثم قالوا: ولو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا في تفنيد زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص، لأنه من الدلائل الظنّيّة، وكلامه في المهد من الدلائل اليقينية؛ كما كان إخبار عيسى - عليه السلام - في المهد برهانا على صدْق مريم، وأيضا لو كان كذلك لما كان هناك داع إلى قوله «من أهلها» الذي ينْفي التَّحَامل عليها ويمنع إرادة الضرّ بها، فإن هذا الطفل لو كان من أي مكان لقبلتْ شهادته، قال الجبائي: لو كان طفلا لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى بيان، ولو كان طفلا لحسن أن يقال: «ونطق طفل في مهده»[٤] وأيضا فإن لفظ «الشاهد» لا يقع عرفا إلا على من تقدَّمَتْ معرفته لما يشهد وإحاطته به[٥].

(ب) وذهب آخرون إلى أن الشاهد لم يكن من الإنس وإنما كان من أمر الله، ورووا في ذلك قولا عن مجاهد قال: كان - أي الشاهد - من أمر الله ولم يكن إنْسِيّاً...

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٩٣-١٩٦، والدر المنثور/ ٤/ ٢٥-٢٦.

(٢) قال الهيْثمي في المجمع(١/ ٦٥) رواه أحمد والبزّار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط.

(٣) انظر تفسير المراغي/ ١٢/ ١٣٥، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٧.

(٤) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٦٨.

(٥) انظر تفسير المراغي/ ١٢/ ١٣٥، وتفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٤ (هامش) وتفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٢٦.



وهذا القول مرفوض لأنه يتعارض مع صريح النَّص القرآنيّ «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا» وهي بالطبع إنسيَّة، وغيرُ الإِنْس ليس من أهلها.

(جـ) **وذهب قلة من المفسرين** إلى أن المراد بالشاهد، القميص المشقوق، ورووا في ذلك قولا عن مجاهد أيضا، قال: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا» قال: قميصه مشقوق من دُبر، فتلك الشهادة....،

وهو قول مرفوض أيضا كسابقة، لأنه لا يقال للقميص هو من أهل الرجل أو من أهل المرأة.

(د) **وذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب** إلى أن الشاهد هو زوجها نفسه، قال: فالشاهد الذي أدى شهادة الحق في هذا الموقف هو العزيز نفسه، إنه الذي شهد على المرأة وهو من أهلها وليس من أهل يوسف(١)

وهذا قول بعيد للغاية لأنه يخالف منطوق القرآن ومفهومه بالكلية، ولو صحّ هذا الادعاء، لما كان هناك حاجة أن يقول: «إِنْ كَانَ قَمِيْصُه... وإن كان قَمِيْصُه... الآية» فقد كان يكفيه نظرة واحدة إلى القميص الذي يلبسه يوسف ويقف أمامه، وكان يمكن أن يقول القرآن «فلما رآى العزيز أن قميص يوسف شق من دُبُر قال إنه من كيدكُنّ...» مثلا، وينتهي الأمر.

(هـ) **ويرى أكثر المفسرين** أن المراد بالشاهد حَكَمٌ من أهل المرأة، ويُرَجَّحُ أنه ابن عمٍّ لها، وكان رجلا حكيما يأخذ الملك - أو العزيز - برأيه، فعن قتادة في قوله: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا» قال: رجل حكيم كان من أهلها، وعن زيد بن أسلم قال: ابن عم لها كان حكيما(٢).

وقال الإمام القرطبي عن هذا القول: هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسّدي، قال السدي: كان ابن عمها، وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم(٣).

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٣٢.

(١) انظر: الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٩٥، والدر المنثور/ ٤/ ٢٦.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٣.



الترجيح:

والقول الأخير هو الأولى بالقبول، لأنه يتفق مع النص القرآني: «مِنْ أَهْلِها» وهذه الصفة تجعل شهادته أولى بالقبول من غير الأهل، لأن شرف المرأة يخصه كذلك ويهمه الدفاع عنه ما أمكن، فإذا جاءت شهادته ضد المرأة كانت أقوى شهادة عليها وأوثق لبراءة يوسف - عليه السلام -.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يردُّ التهمة عن نفسه:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾.

وجه المناسبة:

لَمّاذ ذَكَرَ القرآن الكريم حال المرأة عندما ألفيا سيدها لدى الباب واتهامها يوسف وتبرئة ساحتها، فكأنه قيل: فماذا قال حين قذفته بهذا؟ فقيل:

«**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**»(١) فقوله (قال) استئناف وجواب عماقيل(٢) فإنها لما أغرتْ به وعرَّضته للسجن أو العذاب مُبَرِّئَةً نفسها بالكذب عليه، وجب عليه الدفع عن نفسه وتبرئتها بالصدق عليها، ولولا ذلك لكتم عليها، فإنه - عليه السلام - ما هتَكَ سترها في أول الأمر، إلا أنه لما خاف على النفس والعِرْض أظهر الأمر(٣) ونطق بالحقّ في مقابلة بُهْتِهَا وكذبها عليه، وتبرَّأَ مِمّا رمتْه به من الخيانة(٤) قال بعض العلماء: وقال (هي) بضمير الغيبة دون الخطاب أو الإشارة استحياء من تعيينها أو الإشارة إليها، لأن في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة، وأيضا مراعاة لحُسْن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها(٥).

واعترض على ذلك بأن الخطاب موجه إلى العزيز فلا يصح أن يكون فيه ضمير خطاب لها، وفي هذا من الأدب ما فيه، لأن العزيز هو صاحب الشأن، ومن جهة أخرى

---

(١) انظر نظم الدرر/ ٤/ ٣٢.

(٢) انظر روح المعاني/ ٦/ ٤١٠.

(٣) انظر تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٣، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦١، وتفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٥.

(٤) انظر تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٢، وتفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٥.

(٥) انظر تفسير البحر/ ٥/ ٢٩٧ وروح المعاني/ ٦/ ٤١٠.



لا يعطيها ذلك فرصة للدخول مع المتكلم في جدال لا ينبغي، بخلاف ما لو وجّه إليها الخطاب في هذا الموضوع الدقيق، كذلك لم يصرّح بلقبها حياء من العزيز[1] هذا، وتقديم المبتدأ (هي) على الخبر الذي هو فعل (رادوتني) يفيد القصر، وهو قصر قلب للرَّدّ عليها[2] ومعنى قوله «هِيَ رَاوَدتني» أي: طالبتْني للمواتاة لا أنّي أردت بها سوءاً كما زعمت[3] وما كان - عليه السلام - يقصد تفضيحها، إلا أنه بإتّهامها إياه قد وضعته في موقف لا يصحّ السكوت عليه، إذ لو سكت لانتهي الموقف حتما إلى خدْش مرتبة النبوّة، وقد كان دفاع يوسف - عليه السلام - عن نفسه بهذا القول «هي راودتني عن نفسي» بمثابة خناجر تمزّق هذه المرأة في كِبْرِها الزائف، وعزتها الآثمة، وغرورها المخدوع[4] وكان أشد عليها وقعا وألما مّما حدث من يوسف لها، فما كانت تتوقّع أن يجرؤ على إظهار الحقيقة كاملة أمام زوجها دون أن يعمل لها أي حساب، فصرّح غير هيّاب ولا وجِل بموضوع القضية مقررا أنها راودته عن نفسه، مما يبطل أي ادعاء منها عليه، وعبارته - عليه السلام - بخلاف عبارتها - يفهم منها كل شيء دون حاجة إلى تفصيل أو إضافات، وما رآه العزيز أصدق شاهد على ذلك، وبتصريحه - عليه السلام - تطوّرته القضية من اتّهام عام له - عليه السلام - بإرادة السوء بأهل العزيز، إلى قضية أخرى واضحة المعالم، ألا وهي اتهامها بالمراودة، ولا ينقصها شيء سوى الشهود[5].

من هو الشاهد؟

قال الله تعالى: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...» الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة[6]

---

(1) يوسف بن يعقوب / 85. (2) تفسير التحرير والتنوير / 6 / 12 / 257.

(3) روح المعاني / 6 / 410.

(4) انظر الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / 381.

(5) يوسف بن يعقوب / 84-85. (6) المفردات (كتاب الشين) / 267.

قال الجوهري: الشهادة: خبر قاطع، والمشاهدة: المعاينة، مأخوذة من الشهود أي الحضور، لأن الشاهد مشاهد لما غاب عن غيره(١) ولما كان كل صالح للشهادة كافيا، فلم تدع ضرورة إلى تعيينه قال: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ» وبوصف الشاهد كونه «مِّنْ أَهْلِهَا» حصره فيهم، لأن الأهل أعظم في الشهادة(٢) وأوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف - عليه السلام - وأنفى للتهمة عنه(٣) فهو لصيق بها حريص على براءتها(٤) لأن الظاهر من حال أقارب المرأة وأهلها عدم قصدها بشيء في عرضها، فشهادة القريب في هذه الأمور أقوى من شهادة الغريب(٥)، وقد سبق ترجيح الرأي القائل: إن الشاهد ابن عم للمرأة كان حكيما، يأخذ الملك أو العزيز برأيه، وهو قول أكثر المفسرين، والذي يتفق مع النص القرآني الكريم.

لماذا سمي قوله شهادة مع أنه لم يشاهد الواقعة؟

إن القرآن الكريم عبّر عن قول الحكم من أهل المرأة بأنه شهادة، وهو في الواقع ليس بشهادة، لأن الشهادة يجب أن تكون أمام القاضي، ولم يكن هناك قضاء، كما وأن الشهادة لا تكون بالترديد «إن كانَ قميصه... وإن كان قميصه... الخ» بل يجب أن تكون بالجزم، وأيضا فالشهادة يجب أن تكون عن عيان ومشاهدة للمشهود عليه، ولم يكن معهما أحد بالبيت ليُعَايِن المراودة فيشهد أنها منه أو منها؟(٦) فما الحكمة في ذلك؟

والحكمة في تسمية قول الحكيم في القضية بالشهادة؛ لأنه لما أدّى مؤدي الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمّي شهادة(٧) حيث إن النزاع كان معروضا

---

(١) فتح الباري / ٥ / ٢٩٣ (كتاب الشهادات).

(٢) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٣٢.

(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٣.

(٤) دروس من سورة يوسف / ٨١.

(٥) انظر: يوسف بن يعقوب / ٨٦.

(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨٢.

(٧) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٤.

من الجانبين - يوسف والمرأة - ولكل منهما قول، وساعدت فتواه على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه، فلذلك سمّيت فتواه شهادة[1] ويجوز أن يكون معنى «وشهد شاهد» أي: وحكم حاكم، والنكتة في العدول عن جملة «وحكم حاكم» إلى جملة «وشهد شاهد» الإشارة إلى أن هذه الأمارة - شق القميص - هي قائمة مقام الشاهد، فكأنها شهادة، لأن معنى قول النبي - ﷺ - «البينة على من ادعي»[2] أنّ عليه أنْ يظهر ما يبيّن صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حُكِمَ له[3].

المبدأ الذي قرره الشاهد ليبني عليه الحكم في القضية:

قال الله تعالى على لسان الشاهد: «إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ»

كيف علم الشاهد بالقضية وبشق القميص؟

أكثر المفسرين على أن الشاهد وهو ابن عم المرأة، كان جالسا مع زوجها لدى الباب الخارجي وشهد خاتمة السباق بينها وبين يوسف - عليه السلام - وعلم شق القميص عن طريق المرأة، فعن السدي في قوله تعالى: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» قال: جالسا عند الباب وابن عمها معه، فلما رأته «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا» إنه راودني عن نفسي فدفعته عن نفسي، فشققْت قميصه، قال يوسف: بل هي راودتني عن نفسي، وفررت منها فأدركتني، فشقّت قميصي، فقال ابن عمها: تبيان هذا في القميص، «فَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ... الخ»[4] ويؤكد الإمام الطاهر بن عاشور هذا الاتجاه فيقول: ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز

---

(١) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨٢.

(٢) رواه البيهقي بإسناد حسن ولفظه: «ولكن البينة على المدّعي، واليمين على من أنكر».

(٣) انظر: الطرق الحكمية لابن القيم.

(٤) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ١٩٢.



وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقا وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف - عليه السلام[1] وقول الشاهد «إِنْ كَانَ قَمِيصُه... الخ» يدل على أنه قرر المبدأ الذي ارتآه ليكون أساسا لحكمه في القضية قبل أن يرى القميص، وإلا لو أنه قرر المبدأ وكان قد رأى القميص، يكون قد بنى المبدأ على ما رأى، وهذا ينقض عدالة المبدأ الذي قرره في الحكم في القضية[2].

وقد ساق الشاهد شهادته مساقا مأمونا من الحرج والطعن، حيث صدّرها بصورة الشّرطيّة المتردّدة ظاهراً بين نفعها ونفعه، وأما حقيقة فلا تردّد فيها قطعا، لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها مِمّا يستحيل وجوده من قد القميص من قُبُل، فيكون محالاً لا محالة، ومن ضرورته تقرير كذبها، والشرطية الثانية، تعليق لصدقه - عليه السلام - بأمر محقّق الوجود، وهو القدُّ من دُبُر، فيكون محقّقاً البيّنة، وقدَّم أمارة صِدْقها في الذكر لأن الشقّ من القُبل محتمل، وأما من دُبر فهو يقيني[3] وأيضاً، قدّم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه، فهي السيدة وهو فتى، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول[4] وأيضا، لكيْ يبتعد عن الاتهام بالحقد عليها، وهذا مثل ما يأتي عن يوسف - عليه السلام - أنه قدَّم رحال الإخوة في التفتيش على رحْل أخيه، ثم استخرج الصواع من رحْل أخيه، لكي يبتعد عن الاتهام بالمؤامرة في الموضوع، أو أن القضية مدبّرة، وقال الشاهد «... صدقتْ وهوَ مِنَ الكاذِبين» مع أنه كان يكفي أن يقول: «صدقت» لأنَّ تصديق جانب من المتخالفَيْن يقتضي تكذيب الجانب الآخر،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٧.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة اليوسف) شرائط مسجلة.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٨٩.

(٤) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨٣.



وكذا في الفقرة الثانية كان يكفي أن يقول «فَكَذَبَتْ» لأن تكذيب السيدة يقتضي تصديق قول يوسف - عليه السلام -، ولكن حيث إن كل واحد منهما كان مُدَّعيا على الآخر، فهي تدَّعي أنه راودها، وهو يدَّعي أنها راودته، فلذا يجب التّنْصيص في كلتا الدعوتين على ما لِكلّ من الصّدق والكذب[1] فهو تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام[2].

هل علامة شقّ القميص تكفي وحدها لتصديق يوسف - عليه السلام - وتكذيب المرأة؟:

إن الحكم في القضية عن طريق شقّ القميص من القبل أو الدُبُر، هو من القضاء بالقرينة البيّنة، لأنها لو كانت أمسكت ثوبهُ لأجل القبض عليه لعقابه، لكان ذلك في حال استقباله إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرَّق قميصه من قبل، وبالعكس؛ يتخرَّق قميصه من دُبُر إن كان أمساكه في حال فرار وإعراض[3] وهذا القد للقميص من دُبر يعتبر علامة من العلامات منضمَّة إلى غَيرها، بلغت مبلغ اليقين في الدلالة على كذبها لا أنَّهَا علامة يعوَّل عليها في الحكم، بل هي جارية مجري المقوّيات والمرَجِّحات[4] فلقد كانت هناك علامات كثيرة دالة على أن يوسف - عليه السلام - هو الصادق.

(الأولى) أنه في ظاهر الأمر كان عبدا لهم، والعبد لا يمكنه أن يتسلّط على مولاه إلى هذا الحدّ.

(الثانية) أنه شوهد يعدو عدوا شديداً ليخرج، والرجل الطالب للمرأة لا يخرج على هذا الوجه.

(الثالثة) أن المرأة كانت بكامل زينتها، وأما يوسف - عليه السلام - فما كان عليه من أثر تزيين النفس، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٨.

(٣) المرجع السابق / ٦ / ١٢ / ٢٥٧.

(٤) يوسف بن يعقوب / ٨٩.



(الرابعة) أن أصول يوسف - عليه السلام - السابقة تمنع إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر، وذلك أيضاً مما يقوّي الظن.

(الخامسة) أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح، بل ذكرت كلاما مبْهَماً مجملا، وأما يوسف - عليه السلام - فإنه صرَّح بالأمر، ولو أنه كان متَّهَماً لما قدر على التّصْريح باللفظ الصريح، فإنّ الخائن خائف.

ثم إنه تعالى أظهر ليوسف - عليه السلام - دليلا آخر يقوي تلك الدلائل والأمارات السابقة، ويدل على أنه برئ عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة، وذلك عن طريق الشاهد الحكيم[1].

نماذج من الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات في القضاء الإسلامي:

إن ما قاله وما حكم به الشاهد في قضية يوسف - عليه السلام - والمرأة، هو من قبيل الاعتماد على الأمارات، وأنها تقوم مقام البيّنة، وله نظائر كثيرة في القضاء الإسلامي، فمن ذلك:

● أن رسول الله - ﷺ - أمر الملْتَقِط أن يدفع اللُّقَطة إلى واصفها، وأمره أن يعرّف عِفَاصَها، ووعاءها، ووكاءها[2] فقد روي زيد بن خالد الجهني قال: سئل رسول الله - ﷺ - عن لقطة الذهب والورِق فقال: «اعرف وكاءها وعِفَاصها ثم عرّفها سنة، فإن لم تعرف، فاستَنْفِقْها، ولتكن وديعة عندك، فإن جاء طالبها يوما فادفعها إليه»[3] فقد جعل - ﷺ - وصفها قائما مقام البيّنة.

● وقد ادّعت امرأتيْن ولداً عند سليمان - عليه السلام - فقال: «إيتوني بالسّكين أشقّه بينهما» فسمحت الكبرى بذلك، وقالت الصغرى: لا تفعل - رحمك الله - هو ابنها، فاستدلّ برضا الكبرى بشقّه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك على أنها أمه،

(١) انظر تفسير الفخر الرازي٩ / ١٨ / ١٢٥-١٢٦.

(١) العفاص: غلاف يُغطى به رأس القارورة، والوعاء: يكون من جلد أو غيره يوضع فيه زاد الراعي، والوكاء: ما يشدّ به الكيس وغيره.

(٢) صحيح البخاري (٣ / ٩٥) اللقطة، وصحيح مسلم (٥ / ١٣٥) اللقطة.



وأن الحاصل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعها الله في قلب الأم، فاتّضحت هذه القرينة عنده - عليه السلام - حتى قدّمها على إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها: هو ابنها.

● حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-والصحابة-رضي الله عنهم- معه، برجْم المرأة التي ظهر بها حمل، ولا زوج لها ولا سيّد.

● وحكم عمر وابن مسعود - رضي الله عنهما - بوجوب الحدّ برائحة الخمر من فم الرجل أو قَيْئِه خمراً اعتماداً على القرينة.

● ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع - قطع يد السارق - إذا وُجِد المال المسروق مع المتهم، وهذه القرينة أقوى من البيّنة والإقرار، وقد سئل الإمام أحمد - رحمه الله - عن المستأجر ومالك الدار تنازعا «دَفيناً» في الدار، فكل واحد منهما يدّعى أنه له، فقال: من وصفه منهما فهو له(١).

مضمون الآيتين السابقتين (٢٦، ٢٧):

لما أغرت امرأة العزيز بيوسف - عليه السلام - وَعَرَّضَتْهُ للسجن أو العذاب وجب عليه أن يدفع عن نفسه فقال: «هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي» أي طالبتني للمواتاة لا أني أردت بها سوءاً كما زعمت، وبعد تفكير عميق وبحث لهذا الأمر من جانب العزيز رأى أن يُحَكِّم في القضية واحداً من أهلها من أصحاب الرأي والحكمة، طلبا لإحقاق الحق وخوفاً من أن يطال بلوم أو اتهام من أهل زوجته، وعن طريق الشق الذي في قميص يوسف وما قاله كل منهما في مواجهة الآخر، قرر الشاهد المبدأ الذي يترتب عليه الحكم.

فقال: «إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ» وقد كانت علامة شق القميص من دُبر

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٥٧١-٥٧٦.



مع غيرها من العلامات الأخرى دليلاً أكيداً على براءته - عليه السلام - ، وإلحاق التهمة والذنب بالمرأة.

سابعاً - من فيض نور الآيتين الكريمتين:

١ - وجوب الدفاع عن النفس في حال اتهامها بالسوء والفاحشة ظلما.

٢ - نسبة السوء صدقاً إلى الغير جائز في مقام الدفاع والمحاكمة، قال الله تعالى: «لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا»(١).

٣ - القرائن يعمل بها عند الاشتباه.

٤ - في الآية دليل لمن يرى الحكم بالأمارات والعلامات فيما لا تَحْضُرُه البينات كاللقطة والسرقة، والوديعة، ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها.

٥ - لطف الله ورحمته بعبده المصطفى يوسف - عليه السلام - إذ حال بين العزيز وبين أن يحكم هو بنفسه على يوسف، أو أن تسول له نفسه بالتخلص من يوسف أو بتعذيبه، فجعله يلجأ إلى الحكم الشاهد ليحكم في القضية.

٦ - إلهام الله تعالى الشاهد قاعدة الحكم في القضية التي تبرئ يوسف وتظهر جرم المرأة وكذبها.

---

(١) النساء/ ١٤٨.



«الآية الثامنة والعشرون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

ثانياً - القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

«قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ» الكيد: الخبث والمكر، تقول: كاده يكيده كيْداً ومكيدة، والكيد: التّدبير بباطل أو حق، والكيد: الاحتيال والاجتهاد، وبه سمِّيت الحرب كيداً[1]، والكيد: طلب الإنسان بما يكرهه[2]، والكيد فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصل إلى مقصود[3].

قال ابن قتيبة: وأصله من المَشَقَّة من قولهم: فلان يكيد بنفسه، أي يجوز - يَسْلُكُ - بها غمرات الموت ومَشَقَّاته - ويقال: كدتُّ فلانا أكيده، كبِعْتُه أبيعه، قال:

من يكِدْني بسَيِّءٍ كنت منه *** كالشَّجا بينَ حَلْقه والوريد[4]

قال الراغب وهو نوع من الاحتيال وقد يكون ممدوحا وقد يكون مذموما، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر[5] وهو في هذه الآية الكريمة من هذا القبيل (المذموم) ومثاله في الممدوح قوله تعالى: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»[6]

«إِنّ كَيْدكُنَّ عَظِيم» العظيم: ما ينقص مقدار غيره عنه حِسّاً أو معنى[7].

---

(١) اللسان/ ٣/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٣٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٨.

(٤) الشّجا: الشّوْك، والقائل أبو زبيد الطائي، انظر الدر المصون/ ٣/ ٣٧٧.

(٥) المفردات (كتاب الكاف) ٤٤٣.

(٦) يوسف/ ٧٦. (٧) نظم الدرر/ ٤/ ٣٣.



رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا رأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ» الفاء، عاطفة، و(لمّا) حينيّة أو رابطة، (رأى قميصه) فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وجملة (قُدَّ مِن دُبر) حاليّة و(قال) جواب لما، وإنّ واسمها وخبرها «إنّ كيدكنّ عظيم» إن واسمها وخبرها[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٤٧٥.



سادساً - التفسير والبيان:

إثبات براءة يوسف - عليه السلام -:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

وجه المناسبة:

لما استمع العزيز إلى المبدأ الذي قرره الشاهد ليبني عليه الحكم في القضية واقتنع به، ذهب ليرى مكان القدّ في القميص، قال تعالى:

«فلمَّا رأى قميصَهُ قدَّ مِن دُبُرٍ» الرَّائي للقميص والقائل في الآية الكريمة هو العزيز نفسه، وإلى ذلك ذهب جمهور المفسرين، وقد روى هذا القول عن محمد بن إسحاق[١]

قال الإمام الطبري: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ» خبر عن زوج المرأة، وهو القائل لها: «إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ الخ»[٢]

وقال الإمام الزمخشري: «فَلَمَّا رآى» يعني (قطفير) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها وقال: «إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ الخ»[٣]

وقال الإمام الطاهر بن عاشور: والذي رآى قميصه قدّ من دبر وقال: «إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ» هو العزيز لا محالة[٤]

وقيل: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ... الخ» خبر عن الشاهد، حكاه علي بن عيسى[٥] وقول الجمهور هو الأولى والأنسب للسياق، فمن حق العزيز أن يصف زوجته بالكيْد، وليس من حق الشاهد الذي يجب أن يراعي مكانة العزيز[٦] والرؤيا في قوله «فَلَمَّا رأَى» الأصل أنها بصريّة وليس علمية، لأن سريّة القضيّة لا تحتمل أن يطّلع شخص غير العزيز عليها، ويفهم من قوله: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ» كأنه لم يكن رآى ذلك بعد أو لم

---

(١) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٢. (٢) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ١٩٦.

(٣) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٤. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٥٨.

(٥) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٢. (٦) انظر: فتح البيان/ ٦/ ٣٢٠، ويوسف بن يعقوب/ ٨٩.



يتدبّره(١) فلما رآى قميصه قد من دبر قال لها وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكداً لأجل إنكارها(٢).

«إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» الكيد: كل قول أو فعل يراد به إيقاع الغير في أمر لا يحبه، وأكثر استعماله فيما يذم من الأقوال والأفعال، وقد يستعمل في المدح كقوله تعالى: «كذلك كدْنا ليوسف»(٣) وفي (هاء) الكناية في قوله «إنهُ مِن كيدكُنّ...»

ثلاثة أقوال: (الأول) أنها ترجع إلى تمزيق القميص، قاله مقاتِل، وهو بعيد كما ترى، إذ أن كيدها تعلّق بأمر آخر، وما تمزّق القميص إلا لشدّة فراره منها، بل إن شق القميص هو الذي أوقع الحكم أخيراً عليها. (الثاني) أنها ترجع إلى قولها «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا...».

وهذا معقول للغاية، لأنها ما قالت هذا القول إلا لتغطية فعلتها مع يوسف - عليه السلام - وفي نفس الوقت رمتْه بالتُّهمة التي هو منها برئ، وذلك كيد منها عظيم، فالمعنى قوْلك هذا مِن كيدكن، قاله الزجاج، (الثالث) أنها ترجع إلى السوء الذي دعته إليه، ذكره الماوردي(٤)، وهو نفسه وإن لم يكن احتيالا لكنّه يلازمه، كما قال الألوسي(٥) وهو طمعها في يوسف - عليه السلام - وهو قول معقول أيضاً، لأنها هي التي أرادت السوء وَطَلَبَتْه واجتهدت في نيْله، ثم كَادَتْ فقلبت الحقيقة مدَّعية أن يوسف - عليه السلام - هو الذي أراد بها سوءاً(٦) وعن القولين الثاني والثالث يقول الزمخشري: «قال إنه» إن قولك «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا» أو أن هذا الأمر وهو طمعها في يوسف «من كيدكن»(٧).

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٦٩. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٣٣.
(٣) يوسف/ ٧٦. (٤) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٢.
(٥) روح المعاني/ ٦/ ٤١٤.
(٦) انظر: زاد المسير/ ٤/ ١٢/ ٢١٣، وتفسير البحر/ ٥/ ٢٩٨.
(٧) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٤.



ومعنى قوله: «إنّه مِن كَيْدِكُنّ» أي ناشِئٌ من احتيالكنّ أيتها النساء ومكركنّ ومسبَّبٌ عنه، وهذا تكذيب لها وتصديق له - عليه السلام - كأنه قيل: أنت التي راودته فلم يفعل وفرَّ فاجْتَذبْتيه فشقَقْتِ قميصه، فهو الصادق في إسناد المراودة إليك، وأنت الكاذبة نسبة السوء إليه(١).

حكمة التعبير بالجمع مع أن المخاطب واحدة:

إن العزيز يريد ولا شكَّ بقوله: «إنّه مِن كيدكنّ» إنه من كيدك، ولكنه عبّر بصيغة الجماعة ليشير إلى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النّساء، فجعل النساء في الخدعة والمِحَال كزليخا، وزليخَا في الخَتْل والحيلة صورة صادقة لكل النّساء، فالكيد هو خُلُقٌ لهن عريق، قال الشاعر:

وَلا تَحْسَبَا هنْداً لها الغدْرُ وحدها ** سَجيَّةُ نفْس كلِّ غانيةٍ هِنْدِ(٢)

ونظيره قوله ﷺ: «إنكنَّ لأنتُنَّ صواحب يوسف» يريد أن الإلحاح والمكر من نفسيّة هذا الجنس النسائي، قاله ﷺ لحفصة - رضي الله عنها - إذ كانت قالت عائشة - رضي الله عنها -: (إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصلّ بالناس) فلم يقبل ﷺ، ثم قالت له ذلك حفصة، فلم يقْبل، وإذ رآهُنَّ قد ألْحَحْنَ، قال ذلك(٣). فالعزيز لم يخص الكيد بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروّي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحَدُ أهلها، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التّفصّي من خطيئاتهنّ، فقد أثبت خطيئتها مستدلا عليها بالسُّنَّة العامة في أمثالهن(٤).

قوله: «إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» العظيم: ما ينقص مقدار غيره عنه حسّاً أو معنى، قال ابن

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤١٤.

(٢) البيت لأبي تمام من قصيدة له.

(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٥٨٥-٥٨٦.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٨٨.



عباس - رضي الله عنهما - «إنّ كَيدَكُنّ عَظيم» أي: عملكنَّ عظيم، تخلطْنَ البرئ والسَّقيم فوَصَفَ الكيد بالعظيم، لأن كيدهنّ أعظم من كيد جميع البشر في إتمام مرادهنَّ، وذلك لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من الورْطة[2] ولا قِبَل للرجل باحتماله، وهم لا يفطنون إلى كيد هنَّ لدقَّته[3].

كيد الرجال وكيد النساء:

الكيد موجود في الرجال وفي النساء على السواء، إلا أن كيد الرجال أشدّ وأعظم من كيد النساء فيما يتعلق بالحروب ومقابلة الأحداث الجسام وتدبير أمور الدنيا، قال الله تعالى عن مكر الرجال: «وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ»[4] كما جعل الله تعالى قيادة الأسرة وتولى أمرها للرجال لكثرة عقلهم وحسن تدبيرهم قال الله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»[5].

أما فيما يتعلق بالأمور الجنسية، فإن كيد النساء في ذلك أعظم من كيد الرجال بكثير، وذلك بسبب طبيعتهن التي خلقن عليها، فإنه ألطف وأعلق بالقلب وأشدّ تأثيراً في النفس، ولأن ذلك قد يورث من العار مالا يورثه كيد الرجال، ولربَّات القصور منهنَّ القدح المعلى من ذلك، لأنهنَّ أكثر تفرّغاً من غيرهنّ مع كثرة اختلاف الكيادات إليهنّ فهنّ جوامع كوامل[6].

قال الحفناوي - عن وصف كيد النساء بأنه عظيم: هذا فيما يتعلَّق بأمْر الجماع والشهوة، لا عظيم على الإطلاق، إذ الرجال أعظم منهنّ في الحيل والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة[7].

---

(1) زاد المسير/ 4/ 213.
(2) انظر تفسير القرطبي/ 9/ 175، وفتح البيان/ 6/ 320.
(3) يوسف بن يعقوب/ 90.
(4) إبراهيم/ 46. (5) النساء/ 34.
(6) انظر تفسير البحر/ 5/ 298، وروح المعاني/ 6/ 415.
(7) فتح البيان/ 6/ 320.



كيد النساء وكيد الشيطان:

● ذهب بعض العلماء إلى أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، حتى قال بعضهم: إني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان، فإن الله تعالى يقول: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا»[1] أي: مكره ومكر من اتبعه، ويقول عن كيد النساء على لسان العزيز يخاطب زوجه «إِنّ كَيدكُنَّ عَظيم»، ولأن الشيطان يوسوس مسارقة، وهنّ يواجهن به الرجال، ومع هذا الاتجاه يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: قوله تعالى: «إِنّ كَيدكُنَّ عَظيم»، هذه الآية الكريمة إذا ضُمّت لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، والآية المذكورة هي قوله تعالى: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» لأن قوله في النساء: «إِنّ كَيدكُنَّ عَظيم» وقوله في الشيطان: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا»، يدل على أن كيدهن أعظم من كيده، وقال مقاتل عن يحى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان»، لأن الله تعالى يقول: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» وقال: «إِنّ كَيدكُنَّ عَظيم»...

وقال الأديب الحسن الشنقيطي:

ما استعظم الإله كيدهنّه *** إلا لأنّهنّ هنّ هنّه[2]

● وذهب آخرون إلى أن كيد الشيطان أعظم من كيد النساء، وأن كيد النساء ما هو إلا بعض من كيد الشيطان، يقول الإمام الألوسي عن استدلال الاتجاه الأول بالآيتين السابقتين:

ولا يخفى أن استدلال هذا الاتجاه بالآيتين مبنيّ على ظاهر إطلاقهما[3] وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: إن هذه المقارنة بين كيد النساء وكيد الشيطان في الآيتين

---

(١) النساء/ ٧٦.

(٢) أضواء البيان/ ٣/ ٧٢، وانظر: تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٥.

(٣) روح المعاني/ ٦/ ٤١٥.



لا وجه لها، لأن ضعف كيد الشيطان إنما في مقابلة كيد الله تعالى الذي يقول: «فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» والمخبر عن كيد الشيطان هو الله تعالى، والمخبر في الآية الكريمة كيد النساء هو العزيز في مقابلة كيد الرجال[1] فالمقام مختلف، فالنساء حبائل الشيطان ومن بعض وسائل إغوائه، ولو كانوا أشد كيدا من الشيطان لما أمكنه أن يكيد لهن ويسخّرهن في كيده لمن صعب عليه إغواؤه من غير طريقهن، ففي الخبر «ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء».

وردّ أصحاب الاتجاه الأول على هؤلاء فقالوا: ولا عبرة بما قيل: إن ضعف كيد الشيطان إنما هو في مقابلة كيد الله تعالى، وعظم كيد النساء إنما هو في مقابلة كيد الرجال، وما قيل من أن ذلك محكيا عن قطفير، فكل ذلك لا يصلح للاستدلال بوجه من الوجوه وليس بشيء، لأن الله تعالى قصّه من غير نكير، فلا جناح في الاستدلال به كما لا يخفى[2] والله أعلم.

الترجيح:

وهو على لسان الشيخ محمد طه الباليساني الذي قال: الصحيح أن هذا القول: «إنّ كَيدكُنَّ عَظيم» من العزيز لا من الله تعالى، فالعزيز هو الذي جعل كيد النساء عظيما، والذي سمي كيد الشيطان ضعيفا هو الله تعالى، فلا يلزم أن يكون كيد النساء أعظم من كيد الشيطان حقيقة، فإن قيل: قد ذكر الله تعالى قول العزيز وقرره فيلْزم ذلك، قلنا: لا، لأن كيد الشيطان جعل ضعيفا مقابل إرادة الله تعالى وأمْرِه، ومقابل إرادة من عصمه الله تعالى وتمسك بدينه وتوكل عليه لا مِنْ كل جهة، ولهذا قال الله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ»[3] فإن كيد الشيطان عظيم وقوي حقيقة في حقّ المايعين، والتّابعين لهوى النفس وشهواتها وأقوى من كيد النساء،

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٩٠.

(٢) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٤١٥.

(٣) الحجر/ ٤٢.



بل إن كيد النساء جزء من كيد الشيطان وناشئ من وسواسه ودسائسه[1]. هذا، والله أعلى وأعلم.

مضمون الآية الكريمة:

بعد أن استمع العزيز إلى المبدأ الذي قرره الشاهد ورضي به واقتنع، ذهب ليرى مكان الشق في قميص يوسف - عليه السلام - فلما تبين له أنه قُدَّ (شق) من دبر، تيقن الأمر وعلم صدق يوسف وكذب زوجته، فاتجه اليها قائلاً: إن هذا الفعل من كيدكن، إن كيد كن عظيم، وهو خلق لكن يا معشر النساء عريق.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - موقف العزيز العادل والمشرف من القضية وبذله غاية الوسع للوصول إلى حقيقة الأمر، حتى استعان بالشاهد الحكيم من أهل الزوجة.

٢ - ذكاء العزيز وحنكته في أن يكون الحكم من أهل الزوجة، حتى إذا كانت شهادته لغير صالحها لم يتعرض للوم أهلها واتهامه بالكذب عليها.

٣ - شهادة الشاهد على من هو من أهله من أقوى الشهادات.

٤ - عظم كيد النساء للرجال فيما يتعلق بأمور الجنس، أما فيما يتعلق بأمور الحرب وتدبير أمور الدنيا، فكيد الرجال فيها أشد من كيد النساء.

٥ - كيد الشيطان أشد من كيد النساء.

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨٤، وانظر: تفسير المنار / ١٢ / ٢٨٨.



«الآية التاسعة والعشرون»

أولاً - النص الكريم:

قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا» العَرْض: خلاف الطول، وأصله أن يقال في الأجسام ثم استعمل في غيْرها كما قال: «فَذُو دُعَاء عريض» يقال: أعْرَضَ: ذهب عرْضاً وطولاً، وأعْرَضَ عنه: صدَّ، وإذا قيل: أعْرَض عنِّي فمعناه ولَّى مُبْدِياً عَرْضَه، قال تعالى: «فأعْرِضْ عَنهُم وَعِظْهُم»(١) «يوسف أعرض عن هذا»(٢).

«وَاسْتَغْفِري» غفر: الغَفْرُ: إلباسُ ما يصونُهُ عن الدَّنَس، والغفران والمغفرة من الله تعالى، هو أن يصون العبْد من أن يمسَّه العذاب، قال تعالى: «غُفْرَانَكَ ربَّنا»(٣) «مَغْفِرَةً مِنْ رَّبِّكُم»(٤) «وَمَنْ يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللّه»(٥) والاستِغْفارُ، طلب ذلك بالمقَالِ والفعَال(٦).

«لِذَنبِك» الذنب في الأصْل: الأخْذ بِذَنَب الشيء، يقال: ذَنَبْتُه: أصَبْتُ ذَنَبه، ويستعمل في كل فِعْل يُستوْخَمُ عقباه اعتباراً بِذَنَب الشيء، ولهذا يُسَمّى الذَّنْب تَبِعَةً اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذَّنب: ذنوب، قال تعالى: «فأخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِم»(٧) وقال: «فكُلاًّ أخَذْنَا بِذَنْبِه»(٨)، (٩).

---

(١) النساء/ ٦٣. (٢) المفردات (كتاب العين)/ ٣٣٠.
(٣) البقرة/ ٢٨٥. (٤) آل عمران/ ١٣٣.
(٥) آل عمران/ ١٣٥. (٦) المفردات (كتاب الغين)/ ٣٦٢.
(٧) آل عمران/ ١١. (٨) العنكبوت/ ٤٠.
(٩) المفردات (كتاب الذال)/ ١٨١.



«إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» الخطأ: العدول عن الجهة، والخاطئ هو القاصد للذنب، ومنه قوله تعالى: «وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ»(١) يقال للمتعمد: خطِئ فهو خاطئ، والمصدر الخِطْء، قال تعالى: «إِنَّ قَتلَهُم كَانَ خِطْئاً كَبِيراً»(٢) والاسم منه الخطئة، ويقع على الصغيرة، كما في قول إبراهيم - عليه السلام - «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»(٣) وعلى الكبيرة كما في قوله «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ»(٤)، ويقال فيمن لم يتعمّد الفعل: أخْطَأ، وكذا لمن اجتهد ولم يوافق الصواب، لحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر» والفَاعل من أخْطَأ: مُخْطِئ، والاسم: الخطأ، قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا»(٥).

قال الحريري:

لا تخطُوَنَّ إلى خِطْءٍ ولا خطاءٍ
من بعد ما الشّيب في فوديك قد وخطا
فأي عُذْرٍ لمن شابت مفارقه
إذا جرى في ميادين الهوى وخَطا؟(٦)

رابعاً - الإعراب:

«يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ» (يوسف)، منادى محذوف منه حرف النداء، و(أعْرِضْ)، فعل أمر، وفاعله، أنت، و(عن هذا) متعلقان بأعْرِضْ، (واستغفري)، فعل أمر، والياء فاعله، و(لذنبك) متعلقان باستغفري، «إنك كنت من الخاطئين» إنَّ واسمها، وجملة (كنت) خبرها، و(من الخاطئين) خبر كنت، والجملة تعليل للاستغفار(٧).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الحاقة/ ٣٦-٣٧. (٢) الإسراء/ ٣١.
(٣) الشعراء/ ٨٢. (٤) البقرة/ ٨١.
(٥) النساء/ ٩٢.
(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٠٨.
(٧) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٧٥-٤٧٦.



سادساً - التفسير والبيان:

نتيجة الحكم لصالح يوسف - عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد ما واجه العزيز امرأته مقررا خطأها، التفت إلى يوسف - عليه السلام - مؤكداً براءته فقال:

«**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا**» فهذا القول هو قول العزيز له، إذ هو صاحب الحكم[١] وفي مناداته بـ«يوسف» أي: يا يوسف، فهو منادى مفرد حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مُفَاطِن للحديث؛ تقريب له وتلطيف لمحله[٢] والمراد من قوله: «أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا» أي: عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع بين الناس، واجعله كأن لم يكن شيء، وابق في البيت محْترَما مكرَّما، لم يدخل في قلبنا ريب منك، فإنك عندنا نزيه شريف أمين[٣]...

لقد كان أخشى ما يخشاه العزيز أن يطلع الناس على هذا الذي حدث بين يوسف وامرأته، ولذلك كان طلبه المباشر والصريح ليوسف - عليه السلام -، أن يستر هذا الأمر حتى لا يعلم به أحد من قريب أو من بعيد، ذلك أن أصحاب الجاه والسلطان يسيئهم أشدّ الاساءة أن يعلم غيرهم أن أهلهم على خطيئة، فهذا مما يهز مكانتهم ويحط من قدرهم أمام الناس. ثم أقبل على امرأته وقال:

«**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ**» هذه الجملة عطف على الجملة السابقة «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا» عطف أمر على أمر، والمأمور به مختلف، وكاف المؤنثة المخاطبة تعيّن أنه خطاب لامرأة العزيز، فالعزيز بعد أن خاطبها بأن ما دبّرته هو من كيد النساء، وجّه الخطاب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٩.

(٢) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٨٥.

(٣) تفسير البغوي / ٤ / ٢٣٥.



إلى يوسف - عليه السلام - بالنداء، ثم أعاد الخطاب إلى المرأة، وهذا الأسلوب من الخطاب يسمّى بالإقبال، وقد يسمى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ، ومنه قول الجَرميّ من طيّ من شعراء الحماسة:

إخَا لَكَ مُوعِدِي ببنِي جُفَيْف *** وهَالَةَ إننــي أنهـاكِ هَالاَ

خاطبه، ثم التفت إلى هالة ونهاها، قال المرزوقيّ في شرح الحماسة: والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بيْن عدَّة، ثم تُقْبِلُ أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعا وأخصُّهم بالحال(١) وهذا القول من العزيز لامرأته: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ» يشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بالرب أو الأرباب - في زعمهم - كما قال يوسف - عليه السلام - بعد ذلك لصاحبيْه في السجن: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»(٢) وكانوا يؤمنون بالبعث والحساب، وهذا ثابت على آثارهم الموجودة في مصر إلى يومنا هذا، وفي شريعتهم تحريم الزنا ومقدّماته من المراودة ونحوها، كما يدل عليه النص الكريم، يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: قوله لامرأته: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ» معناه أنه قد عرف عن الله منهجا، فإن من يؤمن بمنهج سماوي لا يجد ملجأً له إلا أن يَتَرَضَّى صاحب المنهج ليغفر له خطيئته(٣). ثم استأنف ما أشار إليه بقوله:

«إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»(٤) الخِطْءُ بكسر الخاء وسكون الطاء: الذنب على عمْد، والفعل منه خطِئَ فهو خاطئ(٥) يقال: خطِئَ إذا أذْنَب متعمِّدا، وأخطأ إذا فعله من غير تعمّد، والفاعل من أخطأ: مخطئ، والاسم: الخطأ، وقال: «إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» ولم يقل من الخَاطئات لأنه قصد الإخْبار عن المذكر والمؤنث فغلب المذكر؛ والمعنى:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٩.

(٢) يوسف / ٣٩.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٤) نظم الدرر / ٤ / ٣٣.

(٥) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٥١.



من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين المتعمدين للذنب، مثل: «إِنَّهَا كَانَت مِن قَوْمٍ كافِرين»(١) و«وكَانَت مِنَ القَانِتين»(٢)، (٣).

قال الشيخ محمد طه الباليساني: قال العزيز «إِنَّكِ كُنت مِنَ الخَاطِئِينَ» والظاهر أن يقول من الخاطئات، ولكن حيث أن المراودة تكون غالبا من الرجال لا من النساء، وقَلَّ أن تراود المرأة الرجل، قال «مِنَ الخَاطِئِينَ» فكأن العزيز كَسَرَ حجرَيْنِ بَرمْيَة واحدة، فنَسَب إليها خطيئتَيْن بلفظ واحد، خطيئة المراودة، وخطيئة قيامها بما هو من عمل الرجال لا النساء، فصار الذنب ذنبين(٤).

الحكمة من ذكر المراودة والهم في سورة يوسف - عليه السلام -:

قد ينظر بعض ذوي الأبصار الكليلة إلى هذا الموقف العاطفي بين يوسف – عليه السلام – وبين امرأة العزيز، فيخيّل لهم أن القرآن الكريم إنما اصْطَنع هذا الموقف اصطناعا ليَترضّى به بعض الغرائز استهواءً للنفوس وَشدًّا لانْتبَاهِهَا، كما يحدث ذلك في أغلب ما يَعْرِضُ القصاصون من قصص، وهذا ولاشك ضَلالٌ في الرأي وفساد في الإدراك، فالقصص القرآني منزَّل من عالم الحقّ لا يَلْبَس به باطل، ولا يطوف بحماه زُور، وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه في قوله: وَبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزل»(٥) وما كان من عالم الحق فلن يحمل إلا ما يزكّي النُّفوس ويطهر القلوب، وينير البصائر، ويُعلى قدْر الإنسانيّةِ في الإنسان، ويدفع عنها عوادي الوَهَن والضّعف(٦).

فلقد انتصر يوسف – عليه السلام – في معركته مع دَواعي الإغراء أيّما انتصار، وانتصرت المرأة أخيراً على الهوى المبرّح الذي استبَدَّ بها أوّل الأمر حتى صدعت بالحق وكشفت عن خَطئها واهتدت وأسلمت نفسها وقالت: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْس لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ»(٧).

---

(١) النمل/ ٤٣. (٢) التحريم/ ١٢. (٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٥.
(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٨٥. (٥) الإسراء/ ١٠٥.
(٦) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٨٩. (٧) يوسف/ ٥٣.



عزيز مصر (قطفير) شخصية حكيمة وقورة:

من أهل التفسير من يرى أن عزيز مصر قد تصرف مع امرأته بعد ثبوت إدانتها ومراودتها ليوسف - عليه السلام - تصرفا بارداً لا يتناسب مع فعْلتها الآثمة، حيث إنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة، وكان عليه أن ينزل بها العقاب الرادع، وأن يقوم بإبعاد يوسف من القصر، ولكنه لم يفعل هذا ولا ذاك، مما يدل على ضعفه ودناءته وقلة غيرته، حتى إن من المفسرين من وصفه بـ(الدّيُّوث) الذي لا يغار على أهله ولا يخْجل من ارتكابهم الفاحشة، يقول الشيخ سيد قطب، - بعد الحكم في القضية -:

ولم يحل العزيز بين المرأة وفتاها، ومضت الأمور في طريقها، فهكذا تمضي الأمور في القصور[1] وهذا الاتجاه لبعض أهل التفسير يعتبر ظلماً فادحاً للعزيز ومكانته وليس له من دليل يستند إليه، وإنما هو مجرد تخمين وتخيل لا أكثر.

الرد على هذا الاتجاه:

حين ننظر في الآيات الكريمة التي تتحدث عن العزيز، نجدها تتحدث عنه كشخصية حكيمة وقورة، فالآية الواحدة والعشرون من السورة تطلعنا على العزيز وهو يقول لامرأته بشأن يوسف - عليه السلام - (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً).

يقول الدكتور حسن محمد باجودة:

يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً، طيب القلب رحيماً، بعيد النظر ألمعياً، فقد تبين في الغلام يوسف بفراسته وألمعيته أنه من معدن متميز، لهذا خصه دون سواه بهذا الاهتمام الفائق، وهو رجل متزن مجرب، لذا فهو يقدم فعل الرجاء (عسى) بين يدي قوله (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) إنه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته فيه، وواضح أن الرجل منطقي في رجائه[2]. ولا ننسى قول أهل

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨٣.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٧٩-٨٠.



التأويل في العزيز: إنه من أصدق الناس فراسة، عند تفسير هذه الآية الكريمة: (أكرمي مثواه... الخ).

ثم غاب عنا العزيز حتى تحدثت عنه الآيات من ٢٥-٢٩.

حيث فوجئ بالحادثة المفجعة له بين زوجه ويوسف - عليه السلام -، ولا شك أنه اعتبرها نكبة من أفدح النكبات التي حلت به وبأسرته وبأسرة زوجه أيضاً فلم تخرجه هذه الحادثة عن عقله واتزانه وعدالته ليرتكب حماقة من الحماقات في حق يوسف وامرأته، بل صمت وصبر وتماسك ثم استشار أحد الحكماء الفطناء من أهل المرأة، واقتنع ورضي بحكمه، ورأيناه يتحرى العدالة بكل دقة، حتى جعل يوسف وامرأته أمامه سواء، فلما تبين له صدق يوسف وبراءته أعلن ذلك وأمر يوسف بكتمان الأمر ونسيانه كأن لم يكن، ثم عزر امرأته بما يليق بمكانتها وهي من أرباب البيوتات الكبيرة، فَوَبَّخَهَا وسَمَّى فعلتها المشينة كيداً ومكراً عظيماً، ثم زاد فواجهها بالحكم عليها أنها مذنبة وخاطئة عامدة، وأن عليها أن تستغفر الله وتتوب إليه مما فعلت، ولو كان أمر العزيز كما اتهموه لما اهتم بموضوع المراودة ولترك الحبل على الغارب (كما يقولون)، وهذا من أقوى الأدلة على رجولة العزيز وعدالته.

يقول الشيخ محمد طه الباليساني:

ماذا يفعل العزيز أكثر مما فعل؟

من تبرئة يوسف - عليه السلام - وتعزير امرأته وَأمْرِها بالتوبة والاستغفار، فهل رأيتم في شرع الله تعالى قتل امرأة ارتكبت صغيرة ولم تقع في كبيرة؟ وهل هناك أمر بِحَدِّهَا؟، وهل يوجد تكليف بطلاقها وفراقها؟ كلاًّ، كل ذلك لا يوجد، وليس على المرأة في هذه الحالة إلا التعزيز والزجر والاستتابة، وقد فعل العزيز كل ذلك، فاستتابها منها بقوله: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ» وزجرها بقوله: «إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»(١).

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٨٦.



لماذا أبقى العزيز يوسف في القصر بعد الحادثة؟

أبقى العزيز يوسف - عليه السلام - في القصر مع وجود المرأة فيه للأسباب التالية:

أولاً: ظهور كمال براءته - عليه السلام - وهو ما كان يعتقد فيه دائماً.

ثانياً: علمه أنه - عليه السلام - على درجة عالية من الكمال الخلقي فلا تؤثر فيه دواعي المحرمات، ولا خوف منه أبداً على شرفه وعرضه.

ثالثاً: لا يوجد أفضل منه - عليه السلام - يسلم إليه بيته ويأتمنه على أهله.

رابعاً: الستر على الفضيحة باستمرار بقائه - عليه السلام - في القصر، إذ لو أخرجه منه ويوسف على ما يعلم الناس هو صاحب المكانة المقربة من العزيز، لأدى ذلك إلى تساؤلات الناس عن السبب، وقد يصلون إلى معرفة ما وقع، وهذا أشد وأقسى ما يخافه العزيز، وهو على ما هو عليه من مكانة عالية وجاه عريض بين الناس.

خامساً: ليس من السهل على العزيز أن يتخلص من يوسف بسهولة - خاصة وقد ثبتت براءته - فبين يديه من الأعمال الهامة للغاية ما لديه، سواء بالنسبة للدولة أو العزيز نفسه يقوم بها يوسف - عليه السلام - بطريقة فريدة غاية في الحكمة والسداد بتوفيق وإلهام من الله تعالى.

سادساً: كان على العزيز أن ينتظر الوقت الكافي حتى تمر تلك الحادثة بسلام وتظل في الخفاء والكتمان،... ثم يقرر قراره بعد ذلك في المكان الذي يجب أن يكون فيه يوسف بعيداً عن زوجه دون أن يبخسه حقه أو يقلل من شأنه.

وبناء على ما سبق، فإن موقف العزيز من قضية المراودة وما ترتب عليها موقف لا غبار عليه بحال، بل هو موقف حكيم يدل على شخصية حكيمة وقورة.



مضمون الآية الكريمة:

أقبل العزيز على يوسف - عليه السلام - وأمره أن يعرض عن هذا الكيد الذي كادته له المرأة، وأن يكتمه فلا يحدث به أحداً أبداً، ثم قال العزيز لزوجته، وأنت أيتها المرأة الكائدة المذنبة، توبي إلى ربك واستغفري لذنبك، إنك كنت من زمرة المجرمين الذين يتعمدون ارتكاب الخطايا ويجْتَرِحُون السيئات وهم مُصِرُّون عليها.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - وجوب اتخاذ الحيطة والدقة والتثبت في المواقف الصعبة.

٢ - من العدالة إقرار البراءة لمن ثبتت براءته بعد التهمة، وإثبات الجريمة على من ثبتت عليه.

٣ - عدم اتهام الناس بمجرد الادعاء أو مجرد الظن أو الشك، فالمتهم برئ حتى تثبت إدانته.

٤ - موقف العزيز الحكيم والشجاع في معالجة قضية المراودة والحكم فيها.

٥ - الخطأ المتعمد يعاقب عليه الشخص المخطئ، أما الخطأ غير المتعمد فلا عقاب عليه، ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد في ذلك قوله - ﷺ - (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، وفي رواية «وُضِعَ»(١).

٦ - الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، بابان عظيمان من أبواب رحمة الله تعالى بعباده، فبهما تمحى السيئات، وقد تبدل حسنات، كما قال الله تعالى: «إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا»(٢) فالحمد لله تعالى على واسع رحمته وعظيم عفوه وكريم منته.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ثوبان، وهو في الإرواء (٨٢) وفي صحيح الجامع (٣٥١٥).

(٢) الفرقان/ ٧٠.



(الفصل الثالث)

(من الباب الثاني)

من القصّر إلى السّجْن

من الآية رقم (٣٠)

إلى الآية رقم (٣٥)

رفع
المسيس هما
عبد الله بن عباد الرحمن

رفع
المسهم

آيات الفصل الثالث

(من الباب الثاني)

قال الله تعال :

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾



«الآية الثلاثون»

أولاً - النّصُ القرآنيُ الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«قَد شَغَفَهَا» قرأته عامة الأمصار بالغيْن، وقرأ أبو رجاء «قَدْ شَعَفَهَا» بالعيْن، والصواب قراءته بالغين لإجماع الحجَّة من القراء عليه[١].

ثالثاً - اللغة:

«وَقَالَ نِسْوَة» النِّسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث (اللمة) ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان، كسر النّون وضمها[٢].

«فَتَاهَا» الفتى: الطَّريّ من الشباب، والأنثى فتاة، والمصدر فَتَاءٌ، ويكنّي بهما عن العبد والأمة، قال «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ» والفَتَى من الإبل كالفتى من الناس، وجمع الفتى فِتْيَةٌ وفِتْيان، وجمع الفتاة فتيات، وذلك قوله «مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَات»[٣] أي: إمائكم، «وَقَالَ لِفِتْيَانه»[٤] أي: لمملوكيه، وقال «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْف»[٥]، [٦].

«قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» الشِّغَاف: غلاف القلْب الذي هو فيه، وهو جلدة دونه كالحجاب وسويدائه، وإياه عنى النابغة الذبياني بقوله:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك والجٌ ** مكان الشِّغَاف تبتغيه الأصابع

---

(١) انظر تفسير الطبري/٧/١٢/٢٠٠-٢٠١.

(٢) تفسير الكشاف/٢/٣١٦.

(٣) النساء/٢٥. (٤) يوسف/٦٢.

(٥) الكهف/١٠.

(٦) المفردات (كتاب الفاء)/٣٧٢-٣٧٣.



ويروى «ولوج الشغاف» بدل «مكان الشغاف»(١)...

وقرئ «قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا» وهي من شعفة القلْب، وهي رأسه معلق النّياط، وشعَفَةُ الخيل: أعلاه، ومنه قيل: فلان مشْعُوفٌ بكَذَا، كأنما أصيب شعفة قلبه(٢).

رابعاً: الإعراب:

«وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ» الواو عاطفة لتَتَسَاوَقَ مجريات القصة، و(قال نسوة) فعْل وفاعل، و(في المدينة) صفة لنِسْوة.

«امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» (امرأة العزيز) مبتدأ، وجملة (تُرَاود) خبر، و(فتاها) مفعول به، و(عن نفسه) جار ومجرور متعلّقان بـ(تراود) و(قد) حرف تحقيق، و(شغفها) فعل وفاعل مستَتر ومفعول به، و(حُبّاً) تمييز مُحَوَّل عن الفاعل، وجملة (قد شغفها) حال من فاعل (تراود) أو من مفعوله، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً لـ(امرأة).

«إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» إنَّ واسمها واللام المُزَحْلَقَة، وجملة (نراها) خبر إنَّ، و(في ضلال) متعلقان بـ(نراها) و(مبين) صفة لـ(ضلال).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) انظر اللسان/ ٩/ ١٧٨-١٧٩ (شغف).

(٢) المفردات (كتاب الشين)/ ٢٦٢-٢٦٣.



سادساً - التفسير والبيان:

إنتشار حادثة السوء، ومكر النسوة بامرأة العزيز:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾

وجه المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى محنة يوسف - عليه السلام - وتبرئته منها، أوْرَدَ تعالى ما ترتَّبَ عليها من انتشار الخبر وشيوعه في مصر[١].

كيف انتقل خبر حادثة السوء وشاع بين النسوة؟:

لقد اهتم العزيز اهتماما بالغا بأمر التستّر على حادثة المراودة، حتّى لا يَعْلَمَ أحَدٌ بخطيئة أهله، فهذا أشد ما يخافه ويخشاه... ومرت الأيام وتتابعت، وظنّ العزيز أن القضيَّة قد سُتِرَت، ولكن وكما قيل: كُلُّ سرٍّ جاوز الإثنيْن شاع، فقد كان مشهد المراودة أوّلا ثُنائياً بين امرأة العزيز ويوسف - عليه السلام - ثم صار ثلاثيّاً بالعزيز، ثم صار رباعيّاً بالشاهد من أهل المرأة، إضافة إلى ما هو معلوم من أن القصور لها جدران، وفيها خدم وحشَم قد يكون منهم جواسيس يتسمَّعون الأسرار لنقْلها إلى كبرائهم من خصوم العزيز، كما أن هذه الأوساط المترفة لا يمكن أن يبقى لها سرٌّ مكتوم، فنساء هذا الوسط ليس لهنّ همّ إلا الحديث عما يجري في محيطهنّ وتداول مثل هذه الفضائح في كل مناسبة يجتمعن فيها، وعلى هذا فيمكن انتقال خبر حادثة المراودة بإحدى الطرق الآتية:

(أ) إما أن يكون عن طريق العاملين بالقصر من خدم وحشم، وخاصة من كانت مهمته منهم التسمّع للأخبار ونقلها إلى أعداء العزيز، وقد ورد في أكثر التفاسير أن

---

(١) انظر: التفسير المنير / ١٢ / ٢٥٢.



نسوة العاملين في القصر، زوجات الساقي والخباز وصاحب الدواب وصاحب السجن والحاجب، هُنَّ اللائي علمن بخبر الحادثة عن طريق أزواجهن فتحدثن بها ففشت.

(ب) أو يكون انتقال الخبر عن طريق زوجة الشاهد، فلعله قد حكى الأمر لزوجته، ومن طبيعة المرأة أن تفشى ما وقع من صويحباتها من نقائص لترتفع عليهنّ، فقصَّت الخبر فبلغ سيدات المدينة.

(جـ) أو أن امرأة العزيز نفسها أرادت أن تنفّس عن نَّفسها، فباحت بالسِّرِّ إلى المقرّبات منها فأفْشَيْنَه، هذا، ومن المحال أن ينتقل خبر الحادثة عن طريق يوسف - عليه السلام - لأن أدبه وخلقه واصطفاءه لا يتصور معه ذلك، ولولا اتهام امرأة العزيز له لما ذكر أمر المراودة، ثم إنه ملتزم بقول العزيز له: «يُوسُفُ أعرِضْ عَنْ هَذا» أي أعرض عن هذا الأمر ولا تذكره لأحد لئلا يشيع.

قوله تعالى: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ»

النسوة: اسم جمع لا واحد له من لفظه بل من معناه، وهو امرأة، وتأنيثه غير حقيقي بل باعتبار الجماعة، ولذلك لم يلحق فِعْله (وَقَالَ) تاء التأنيث، أما الهاء التي في آخر (نسوة) فليستْ علامة للتأنيث، بل هي (فِعْلة) فـ(نسوة) على وزن فِعْلَة، جمع قِلَّة، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدْنى (أقلّ) العدد، وقد نظمها القائل ببيت شعر فقال:

بِأفْعَل وبافْعَال وأفْعِلَة ** وفِعْلَةٌ يُعْرَفُ الأدْنى مِنَ العَدَد

أما جمع التكثير فهو (نساء)، وفي القاموس وشرحه ما يفهم منه أنّ النِّسْوة، والنُّسْوة، والنِّساء، والنِّسْوَان، والنِّسُون، والنِّسْنِين، جموع للمرأة من غير لفظها، والمشهور كسْرُ نونِ (نِسْوَة) ويجوز ضمُّها في لغة وقد قرئ بها(1).

(1) انظر تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٦، وتفسير ابن عطيه / ٩ / ٢٨٥، وتفسير البحر / ٥ / ٢٩٩، والدرّ المصون / ٦ / ١٧٢، وتفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٦٠، وإعراب القرآن وبيانه / ٤ / ٤٧٩.



النّسوة: ما عددهن؟ ومن هن؟ وما صفاتهن؟

إن القرآن الكريم لم يذكر لنا عَدَدَ النِّسْوة كما لم يُبيِّن لنا من هُنَّ ولا أسماءهنّ ولا صفاتهنّ، لأن الفائدة في العبْرة محصورة في أن عملهنّ عمل جماعة قليلة يُعْهَد في العُرْف ائتمارهنّ واتّفاقهنّ على الاشتراك في مثل هذا المكر المنْكر، وكما هو معلوم فإن (نسوة) جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها، وهذا يدل على أن عددهنَّ كان قليلا، ومن العلماء من ذكر أن عددهن خمس[1]. خلافا للروايات الباطلة التي تدّعي أن اللَّواتي أجبْن دعوتها كنّ أربعين امرأة، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات (النّسوة) كلهنّ بجمع القلة، هذا عن عدد النسوة، أما عن أسمائهنّ وصفاتهنَّ، فالظاهر أن هؤلاء النِّسوة كن من نساء الأمراء والوزراء، فقرينة الحال تدلُّ على أنهنّ من بيوتات كبار الدولة، من خليطات امرأة العزيز ونظيراتها، فمثلهنّ يُصْغى لقولهنَّ.

ولا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهن ثم بانتقادهنّ، بخلاف ماجاء في بعض التفاسير من أنهنَّ كنّ امرأة الخبَّاز والسَّاقي ونحو ذلك، فقولهن لا يغيظ ولا يجد آذاناً صاغية، والمعلوم أن نساء البيوتات الدّنيا وكذا الوسطى لا يتسامين بعد الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك إلى الوصول إليها بالمكر والحيلة لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها، أو سلْب عشيقها منها، ويؤيّد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن، وتشعر كلمة (المدينة) أن النسوة كنّ «مدنَّيات» من سيدات مصر، من مدينة «صوعن» أو «منفيس» عاصمة المملكة الهكسوسيَّة في ذلك العصر، فالجار والمجرور (في المدينة) صفة لنسوة[2] والمقصود من ذكر هذه الصّفة أنهنّ كنّ متفرّقات في المدينة[3].

قوله تعالى: «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ» إذا أضيف لفظ امرأة في القرآن العظيم إلى عَلَم رُسِمت تاؤه مفتوحة، وقد جرى ذلك في الآيات التالية:

---

(١) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٦١٢، وإعراب القرآن وبيانه / ٤ / ٤٧٩.

(٢) انظر تفسير المنار / ١٢ / ٢٩٠، ومؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ١٦٢، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨٧، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٨٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٥٩-٢٦٠.



(أ) سورة آل عمران: «إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»(١).

(ب) سورة يوسف في موضعين، في الآية ٣٠، والآية ٥١.

(جـ) سورة القصص: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»(٢).

(د) سورة التحريم: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»(٣)، (٤).

«العزيز» هو في الأصل، الذي يُقْهِرُ ولا يُقْهَر، كأنه مأخوذ من عزَّ، أي حصل في عزاز، وهي الأرض الصَّلبة التي يصعب وطؤها، ويطلق على الملك، ولعلهم كانوا يطلقونه إذ ذاك على كل من ولاه الملك على بعض مخصوص من الولايات التي لها شأن، فكان من خواصه ذوي القدر الرفيع والمحل المنيع، وهو بهذا المعنى مراد هنا، لأنه أريد به قطفير، وهو في المشهور كما علمت إنما كان على خزائن الملك، وكان الملك، الريان بن الوليد(٥) وتسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون عزيزاً هو اصطلاح للمصريين، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقا (خديوي) مادام تحت نُفُوذ وإمْرة السّلطان العثماني بالآستانه، بل كان يسمّى الخديوي في أول الأمر بعزيز مصر(٦).

حكمة الكشف عن مكانة المرأة هنا:

لأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز، وأن الذي اشترى يوسف من مصر هو

---

(١) آل عمران / ٣٥. (٢) القصص / ٩.

(٣) التحريم / ١٠-١١.

(٤) يوسف بن يعقوب / ٩٢ (هامش).

(٥) روح المعاني / ٦ / ٤١٦.

(٦) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٦١٥.



عزيز مصر(١) والقرآن الكريم لم يكشف من قبل عن مكانة هذه المرأة، لأن الأحداث كانت تجري على المستوى المألوف في حياة الناس، عامّتهم وخاصّتهم على السواء، فأي بيت كان يمكن أن يضم يوسف - عليه السلام - إليه، وأي امرأة كان يمكن أن تراوده عن نفسه، سواء كانت امرأة ملك أو سوقه، إنها امرأة أيّاً كان وضعها، أمّا حينما يكون للحدث ذكر يراد به الكشف عن وقعه في المجتمع وأثره في الناس فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق بهد الحدث، من حيث وضعه الاجتماعي ومكانته في المجتمع...

فالحدث يكبر أو يصغر، وتَتَّسع دائرته أو تضيق، تبعا لمن تعلَّق به الحدث، إذ يُقْتَل الرجل من عامة الناس دون أن يشعر الناس بهذا الحدث أو يلتفتوا إليه، على حين يصاب الحاكم أو السيد من سادات القوم بخدْش أو جرح، فيكون ذلك حديث الناس في الأندية والمحافل ليوم أو لبضْعة أيام، وربما لشهور أو سنين(٢).

فَإِضَافَتُهُنَّ لَهَا إليه بهذا العنوان - امرأة العزيز - دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الأخطار، فيكون عونا على إشاعة الخبر بحكم أن النفوس إلى سماع ذوي الأخطار أميل، وقيل: وهو الأولى، إن ذاك لقصد المبالغة في لوْمها بقولهن:

«**تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ**»(٣) «تراود» خبر «امرأة العزيز» وجئ بالمضارع تنبيها على أن المراودة صارت سجيَّة لها وديْدنا؛ دون الماضي، فلم يقُلْن: «رَاوَدَتْ»(٤) فإيثارهنّ لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة(٥).

«فتاها» الفتى: الذي في سنّ الشباب، وجمعه فتية وفتيان، ويكنَّى به عن المملوك وعن الخادم، كما يكنّي بالغلام والجارية، وهو المراد هنا، وقد شاع إطلاقه عُرْفاً

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨٣.

(٢) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٣٦-٤٣٧.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٤١٦.

(٤) الدر المصون / ٦ / ٤٥٧.

(٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٠.



في المملوك، وهذه التسمية من المصريين، بإطلاق لفظ (الفتى) على العبد، أَدَباً هو نعم الأدب، والعجيب الملفت للنظر حقا أن ذلك هو ما أمر به الإسلام، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يقُل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي»(١) وقد يطلق (الفتى) على غير المملوك، ومنه قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسى لِفَتَاهُ»(٢) وإضافته إلى ضمير «امرأة العزيز» لأنه غلام زوجها فهو غلام لها بالتّبع، والمراد به - كما هو ظاهر - يوسف - عليه السلام - وتعبير هنّ عن يوسف - عليه السلام - بذلك - فتاها - مضافا إليها لا إلى العزيز الذي لا تستلزم الإضافة إليه الهوان، بل ربما يشعر بنوع عزَّة؛ لإبانة ما بينهما من التباين الناشئ عن المالكية والمملوكية، وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنئ، قد تعذر في مراودة الأخْدان، لاسيما إذا كان فيهم علو الجناب، وأما التي لها زوج، وأي زوج، عزيز مصر، فمراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذي لا كفَاءة بينها وبينه أصلا، وتماديها في ذلك غاية الغيّ ونهاية الضلال.

ومعنى «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ» أي: تطالبه بمواقعته لها وتتمحّل في ذلك وتخادعه عن نفسه(٣).

فكأنهن قُلْن: أهكذا تنزل السيدة عن مقامها لتراود خادمها؟ أهذا مما يليق بالحرائر، أوْ يجْمُلُ بسيّدة مع خادمها؟ فضلا أن تكون هذه السيدة امرأة العزيز؟ ذلك أمر منكرٌ شنيع(٤)! ويفهم من كلام النسوة استفظاعهن للعمل الذي أقدمت عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى فحديثهن مبني على براءة يوسف - عليه السلام - ورفضه التام الاستجابة لطلبها، فليس هناك تعرُّض البتّة من النسوة ليوسف(٥) فإنها هي

---

(١) رواه الإمام أحمد. (٢) الكهف/ ٦٠.

(٣) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٠.

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٣٨.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٨٩.



المُرَاوِدة، وهو المتأبّي والمتعالي عليها، هي الطالبة، وهو المطلوب، هي تريده على الفعل الشنيع، وهو عن كل ما تشتهي وترغب في سماء عالية لا تطال ولا تمس بسوء.

«قَدْ شَغَفَهَا» هذه الجملة يجوز أن تكون خبراً ثانياً، وأن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً: إمّا من فاعل (تراود) وإما من مفعوله، والضمير المستتر في «شغفها» لـ(فتاها) ولما فيه من الإجمال جئ بالتمييز للنِّسْبة بقوله «حُبّاً» والأصل: قد شغفها حبُّه، وهو منقول عن الفاعلية، و«شَغَفَ» فعل مشتق من اسم جامد، وهو الشِّغاف بكسر الشين المعجمة، وشغاف القلب: حجابه وغلافه الذي هو فيه، وإياه عني النابغة الذبياني بقوله:

وقـد حَـالَ هَـمٌّ دون ذلك داخـل ** دخول شِغَافِ القلب تبتغيه الأصابع

يعني أصابع المطَبِّبين، يقول: قد حال عن البكاء على الديار همٌّ دخل في الفؤاد حتى أصاب منه داء، وهذا الفعل (شَغَفَ) مثل كَبَدَه، وَرَآهُ، وَجَبَهَه، إذا أصاب كبده ورئته وجبْهته، ومعنى «قد شغفها حبا» أي: قد وصل حب يوسف إلى شغاف قلبها فدخل تحته حتى غلب على قلبها ووصل إلى فؤادها وملك عليها أمرها، وهو كناية عن التمكّن، وبمثل هذا قال أهل التأويل كعكرمة ومجاهد وابن عباس وغيرهم، وهذا المعنى على قراءة عامة قراء الأمصار بفتح العين «قد شَغَفَها» وهو الصواب لإجماع الحجة من القراء عليه، وقرأ ثابت البناني «شغِفَها» بكسر الغيْن المعجمة(1).

وقرأ علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، والشعبي، وعوف الأعرابي، بفتح العين المهملة، من شَعَفَ البعيرَ إذا هنأه فأحرقه بالقطران، قال امرؤ القيس:

أتقتلني وقد شعَفْت فُؤادَها ** كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

فشُبهت لوعةُ الحب وجواه بذلك، والمهنوءة: المطْلِيَّة بالقَطْران، وإذا هنِّئ البعير بالقطران يجد له لذة حُرْقَةٍ كحرقة الهوى مع لذّته، قال ابن زيد: الشغف في الحب،

---

(1) انظر تفسير الطبري/٧/١٢/١٩٨، والدر المصون/٦/٤٧٥، وتفسير التحرير والتنوير/٦/١٢/٢٦٠، وتفسير المنار/١٢/٢٩١.



والشعف في البغض، وقال الشعبي: الشَّغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب، والشَّعَف: الجنون، والمشعوف: المجنون، وعن ابن عباس، الشَّغف: الحب القاتل، والشَّغف: حُبّ دون ذلك، هذا، وأدغم النحويان وحمزة وهشام وابن محيْصن دال «قد» في شين «شَغَفَها» وروي عن ثابت البناني وابن رجاء كسر العيْن المهملة، قال النحاس: لا يعرف في كلام العرب إلا «شغَفها» بفتح الغين، وكذا شعفها، وهذا القول «قد شغفها حبا» من النسوة، تكرير للوم امرأة العزيز وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبيّة وجعلها تعليلا لدوام المراودة، حتى إنها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها، واللائق بمقامها الكتمان ومكابرة الوجدان(١).

مراتب الحب:

جاء في كتاب أسرار البلاغة في فصل ترتيب الحُبّ،

أن أول مراتب الحب الهوى،

ثم العلاقة، وهي الحب اللازم للقلب.

ثم الكَلَف، وهو شدَّة الحب.

ثم العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار المسمى بالحب،

ثم الشَّعَف بالمهملة، وهو احتراق القلب مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاعج.

ثم الشغف بالمعجمة، وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب،

ثم الجوي، وهو الهوى الباطن،

ثم التَّيْم، وهو أن يستعبده الحب،

ثم التّبْل، وهو أن يسقمه الحب،

ثم التدلّه، وهو ذهاب العقل من الحب.

---

(١) انظر تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٦٠، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٠١، وتفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٩-١٨٠، وتفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٠-٢٧١، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٩١.

رفع المسْهِم

ثم الهيوم، وهو أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه[١].

وذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية مراتب غير ذلك للمحبة حيث قال: والمحبة مراتب:

أولها (العلاقة) وهي تعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: (الإرادة) وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة (الصّبابة) وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة (الغرام) وهي الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم لملازمته، ومنه «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا»[٢].

الخامسة (المودّة)، و(الوُد) وهي صفو المحبة وخالصها ولبّها، قال تعالى: «سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا»[٣].

السادسة (الشَّغَف) وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب.

السابعة (العشق) وهو الحب المفرط الذي يُخَافُ على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب تعالى، ولا العبد في محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم، واختلف في سبب المنع، فقيل: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك، ولعل امتناع إطلاقه: أن العشق محبّة مع شهوة.

الثامنة (التَّيْم) وهو بمعنى التعبد.

التاسعة (التعبد).

العاشرة (الخلة) وهي المحبة التي تخلَّلت روح المحب وقلبه.

هذا، وقيل في ترتيب منازل المحبة غير ما سبق وهذا الترتيب تقريب حسن، لا يعرف حسنه إلا بالتأمّل في معانيه[٤].

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٤٧٠.

(٢) الفرقان / ٦٥. (٣) مريم / ٩٦.

(٤) إغاثة اللهفان / ٢ / ٤١ (هامش).



قوله تعالى: «**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**» «إنّا لنراها» أي: نعلمها، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى (العلم) حقيقة كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر، وإذا أريد منها البصرية ثم تجوّز بها عن العلميّة كان أبلغ في إفادة كونها فيما صنعت من المراودة والمحبّة المفرطة مستقرة[١] والتأكيد بـ(إنَّ) واللام لتحقيق اعتقادهن ذلك وإبعاداً لتُهمتهنّ بأنهنَّ يحسدنها على ذلك الفتى.

«فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» الضلال هنا: مخالفة طريق الصواب، أي: هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني، وهذا كقوله «إنّ أبَانَا لَفي ضَلالٍ مبين» ومعنى «إنّا لنراهَا في ضَلالٍ مبين»: إنها لفي خطأ واضح وبُعْد عن الصواب وجهل يتنافى مع مكانتها[٣] حيث وُجدت منها هذه الحالة، وهي حُبُّها لفتاها ومراودتها إياه عن نفسه، وهي حالة تحط قدرها وتضعها عند الناس[٤].

والجملة «إنّا لنَراهَا في ضَلالٍ مُبين» مقررة لمضمون الجملتين السابقتيْن المسوقتيْن للَّوم والتّشنيع، وتسجيل عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم، وإنما لم يَقُلْن: «إنَّها في ضَلالٍ مُّبين» إشعاراً كما قيل: بأن ذلك الحكم غير صادر منهن مجازفة، بل عن علم ورأي، مع التّلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه[٥].

والواضح أن قولهن عن امرأة العزيز: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» قضيّة حق في ذاتها، وقضية واقعة، ولكن؛ هل النسوة يقلنها تعصُّباً للحقّ أو تعصُّبا للفضيلة؟ كأن الحق يُنَبِّهُنَا على أن قولهن ليس غضْبة للحق ولا كُرْها للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز، ولكنهن أردْن شيئا آخر، أن يُنْزِلْن امرأة العزيز عن كبريائها وينشرن فضيحتها فأتيْنَ بنقيضَيْن لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج «امرأة العزيز» يعني أرفع شخصية «تراود فتاها» انظر النَّزْلة من امرأة العزيز إلى الخادم

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤١٧. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦١.
(٣) التفسير المنير/ ١٢/ ٢٥٣. (٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٤.
(٥) روح المعاني/ ٦/ ٤١٧-٤١٨.



المملوك، لقد نَبَّهَنَا الحقُّ إلى أن قولهنّ لم يقصد به الحق وإنما قُصد به شيء آخر كما يفعل الماكر، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ»(١).

وهكذا لم تعد قصة امرأة العزيز وحكايتها مع فتاها سراً، فقد ذاع خبرها وانتشر بين الناس، وعلى الأخص في مجتمع النساء، ولا عجب، فالنساء مولعات بنقل الأخبار وتداولها والتفنّن في صياغتها والإضافة عليها من الخيال في أغلب الأحوال، وكلما كانت الأخبار تتعلق بالعرض والشرف، كان النساء أسرع في نقلها وتوشيتها بما يمكّن لهن من الكذب والبهتان، فكيف وقد أصبحن أمام حادثة وضح فيها الحق واليقين الذي لا يحتاج إلى تَوْشِيَة وتزيين(٢).

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد أن بين الله تعالى محنة يوسف - عليه السلام - وتبرئته منها، أورد عز وجل ما ترتب عليها من انتشار الخبر وشيوعه، حتى تحدث به بعض النسوة اللائي يُقِمْن في المدينة وهي العاصمة المصرية التي حدث فيها هذا الحادث، فجعلن يلُمْن امرأة العزيز لَوْمًا شديدا على مراودتها لفتاها الذي تحت يدها واعتبرن ذلك أمرا شديد القبح منها، خصوصا وهي امرأة كبيرة القدر، ولها زوج عظيم المكانة، وأن استمرار مراودتها لفتاها الذي تَأَبَّى عليها وامتنع من تلبية مرادها لدليل على أن حبه قد وصل إلى شغاف قلبها، إلى باطنه وسويدائه، فملك عليها أمرها وسلب منها عقلها وإرادتها فهامت به، إنا لنعلمها بسبب فعلها هذا لفي خطأ واضح وبعد عن الصواب وجهل يتنافى مع مكانتها وعزتها.

---

(١) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - انتشار خبر المراودة بين الناس، فكل سر جاوز الإثنين شاع.

٢ - طريقة انتشار الخبر تلقي باللائمة على امرأة العزيز وتبرئ يوسف - عليه السلام - وهذا هو الحق الذي أنطق الله به الجميع.

٣ - النساء مولعات بنقل الأخبار خاصة فيما يتعلق بالعرض والشرف.

٤ - مصائب العرض والشرف أقسى على النفس وأشد من كل ما سواها.

٥ - أفصح القرآن الكريم عن المرأة هنا كزوجة للعزيز، لأن حدث المراودة يراد به هنا الكشف عن وقعه في المجتمع، فالحدث يكبر أو يصغر تبعا لمن تعلق به الحدث.

٦ - لم يصرح النسوة باسم امرأة العزيز ولا باسمه ليظهر كونها من ذوات الأخطار فيكون عونا على إشاعة الخبر.

٧ - انتقاص النسوة لأمرأة العزيز ولومها بشدة على مراودة فتاها وأن استمرار ذلك منها، دليل على أن حبه قد بلغ من قلبها ونفسها كل مبلغ.

٨ - حكم النسوة على امرأة العزيز بأنها لفي خطأ واضح وبعد شاسع عن طريق الصواب بسبب مراودتها فتاها.

٩ - نهى الإسلام عن إشاعة الفاحشة بين الناس طلباً للستر وقصداً لسلامة المجتمع وصلاحه.

١٠ - لقد كان أدب المصريين في إطلاق لفظ (فتى) على العبد جميلاً هو نعم الأدب، وقد أمر به الإسلام.



«الآية الواحدة والثلاثون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾

ثانياً - القراءات:

قوله: «مُتَّكَأً» العامّة على ضمّ الميم وتشديد التاء وفتح الكاف والهمز، وقرأ أبو جعفر والزهري «مُتَّكا» مشدَّد التاء دون همز، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون أصله متكأ كقراءة العامة، وإنما خُفِّف همزه كقولهم توضَّيْتُ في توضَّأتُ، فصار بزنة مُتَّقَى، والثاني: أن يكون مُفْتَعَلاً من أوْكَيْتُ القِربَة إذا شددت فاها بالوكاء، فالمعنى: أعْتَدَتْ شيئا يشتَدِدْنَ عليه؛ إمَّا بالاتّكاء وإما بالقطع بالسكين، وهذا الثاني تخريج أبي الفتح، وقرأ الحسن وابن هرمز «مُتَّكَاءً» بالتَّشديد والمدّ، وهي كقراءة العامة إلا أنه أشبَع الفتحة فتولَّدَ منها ألفٌ كقوله:

ومن ذَمِّ الرجال بمنتزاح

بمعنى بمنتزح، وقرأ ابن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة والضحاك والجحدري وأبان بن تغلب «مُتْكاً» بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف، وكذلك قرأ ابن هرمز وعبدالله ومعاذ، إلا أنهما فتحا الميم، والمتْك بالضَّم والفتح الأترُجُّ لغتان، وأنشدوا:

فأهدت مُتْكَةً لبَني أبيها *** تخُبّ بها العَثَمْثَمَةُ الوَقَاحُ

وقيل: هو اسم لجميع ما يقطع بالسكين كالأترجّ وغيره من الفواكه، وأنشدوا:

نشْرَبُ الإثمَ بالصواع جهاراً *** وترى المتْك بيننَا مستعاراً

قيل: وهو من مَتَكَ بمعنى بتَكَ الشيء، أي: قطعه، فعلى هذا يحتمل أن تكون الميمُ بدلا من الباء وهو بدل مطرد في لغة قوم، واحتمل أن يكون من مادة أخرى وافقت



هذه، وقيل: بالضم العسل الخالص عند الخليل والأترُجُّ عند الأصمعيّ، ونقل أبو عمر وفيه اللغا الثلاث، أعني ضم الميم وفتحها وكسرها، قال: وهو الشراب الخالص، وقال المفضل: هو بالضَّم المائدة، أو الخمر في لغة كِنْدَه[١].

«وَقَالَتِ اخْرُجْ» قرأها أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر التاء في الوصل، والوجه أن التاء من (قَالَت) ساكنة في الأصل؛ لأنها تاء ضمير المؤنث وهو الذي أُسند القول إليه، وإنما تحرّكت هذه التاء بالكسر لالْتقائها مع ساكن بعدها وهو الخاءُ من (اخْرُج) وحق التقاء الساكِنَيْن الكسر.

وقرأ الباقون (وَقَالَتِ اخْرُجْ) بضمّ التّاء في الوصل، والوجه أنهم جعلوا حركة التقاء الساكنين ههنا ضمة، لأن الحركة التي بعدها ضمة، فأتبعوا الضمَّة الضمَّة؛ لئلا يخرجوا من الكسر إلى الضم، ولا اعتداد للحرف الذي بينهما لأنه ساكن[٢].

«حَاشَ لِلّه» قرأه أبو عمرو بألف في الوصل خاصة في الموضعين في هذه السورة، وقرأهما الباقون بغير ألف «حَاشَ لِلّه» وحجة من حذف الألف أنه جعله فعلا على «فاعل» «كقاض» وحمله على الحذف لحرف اللّين، كما حذفت النون من «لم يك» على التشبيه بحرف اللين، مع كثرة الاستعمال، وحذف الألف أقوى، لأن الفتحة تدل عليها، ولا تدل الضمّة في «لم يك» على النون، وأيضا فإنّهُ اتّبع خط المصحف، وهي في مصحف عثمان وابن مسعود بغير ألف، وأصلها الألف، لأنه «فاعل» مثل «رامى» وإنما حذفت الألف استخفافا، ولأن الفتحة تدل عليها، وكأنهم جعلوا اللام في «لله» عوضا منها، ومعنى «حَاشَ لِلّه» أي بُعد يوسف عما رُمِي به لخوفه لله ومراقبته له، وهي التنزيه عن الشّرِّ.

وحجة من أثبت الألف في الوصل أنه أتى بها على الأصل، وحذف الألف في الوقف لاتباع المصحف[٣].

---

(١) الدر المصون / ٦ / ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٧.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها / ٢ / ١٠.



قوله: «مَا هَذَا بَشَرًا» قرأ العامة «بَشَرًا» بفتح الباء على أنها كلمة واحدة، وقرأ الحسن وأبو الحَوَيْرث الحنفي «بِشِرًى» بكسر الباء، وهي باء الجَرّ دخلت على «شِرى» فَهُمَا كلمتان، جار ومجرور، وفيها تأويلات: أحدها: ما هذا بِمُشْتَرى، فوضع المصدر موضع المفعول به كضرْب الأمير، الثاني: ما هذا بمباع، فهو أيضا مصدر واقع موقع المفعول به إلا أن المعنى يختلف، الثالث: ما هذا بثمن، يعنين أنه أرفع من أن يُجْرَى عليه شيء من هذه الأشياء.

وروي عبدالوارث عن أبي عمرو كقراءة الحسن وأبي الحويرث، إلا أنه قرأ عنه «إلاّ مَلِك» بكسر اللام واحد الملوك، نفوا عنه ذُلّ المماليك وأثبتوا له عزَّ الملوك[١].

ثالثاً - اللغة:

«فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ» مَكَرَ: المكْرُ: صرفُ الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فِعْلَ جميل، وعلى ذلك قال: «وَاللهُ خَيرُ المَاكرين» ومكر مذموم، وهو أن يتحرى به فِعْلَ قَبيح، قال: «وَلا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه»[٢] «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ»[٣] «فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ»[٤] وقال في الأمرين: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا»[٥] وقال بعضهم: من مكر الله إمهال العبد وتمكينُه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وُسِّع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله[٦].

«وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً» «اعتدت»: هيأت وأحضرت، واعْتَدَّهُ له هَيَّأه، وهو عتيد: مُعَدّ حاضر، ومنه العتيدة التي فيها الطيب والأدْهان. مُتَّكَأً: المتكأ: المَكان الذي يُتَّكَأ عليه والمِخَدَّة المتَّكأ عليها، وقوله: «وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً» أي أتْرُجّاً، وقيل طعاما متناولا

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٤٨٩-٤٩٠.

(٢) فاطر/ ٤٣. (٢) الأنفال/ ٣٠.

(٣) النمل/ ٥١. (٤) النمل/ ٥٠.

(٥) المفردات (كتاب الميم)/ ٤٧١.



من قولك اتّكأ على كذا فأكله «قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا»[1] «مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ»[2] «عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ»[3] «مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ»[5].

«فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» أكبرنه: أعظمْنه، يقال: أكبر الشيء: رآه كبيراً، وأكبر فلانا: أعظمه، وقيل: أكبرن بمعنى حضْن، والهاء للسّكت، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضتْ، وحقيقته دخلت في الكبر، لأنه إذا حاضت تخرج من حدّ الصِّغر إلى حدّ الكبر.

«وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ»: تنزيها له، و(حاشا) تكون على ثلاثة أوجه:

١ - فعلا متعدِّيا متصرفا، تقول: حاشيْته بمعنى استثنيته، وإن سبقتها (ما) تكون نافية.

٢ - تنزيهيّة، نحو «حاشا لله» فتكون اسما مرادفا للتنزيه منصوبا على المفعولية المطلقة، وقيل: هي فعل وتثبت الألف (حاشا) وتحذف (حاش).

٣ - أن تكون للاستثناء فتكون حرفا بمنزلة «إلا» لكنها تَجُرُّ المستثنى[6] وهناك تفاصيل أخرى يرجع إليها في المطولات[7].

رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا» (الفاء) عاطفة، و(لمّا) حينية أو رابطة، و(سمعت) فعل وفاعل مستتر، و(بمكرهن) متعلقان بـ(سمعت) وجملة (أرسلت) لا محل لها، و(إليهنّ) متعلقان بـ(أرسلت)، (وأعتدت) عطف على أرسلت، و(لهن) متعلقان بأعْتَدت، و(متكأ) مفعول به (وآتت) عطف أيضا، وكلّ واحدة مفعول آتت الأول، و(منهنّ) صفة لواحدة، و(سكينا) مفعول آتت الثاني.

---

(١) طه/ ١٨. (٢) الطور/ ٢٠.

(٣) يس/ ٥٦. (٤) الواقعة/ ١٦.

(٥) المفردات (كتاب التّاء)/ ٧٤-٧٥.

(٦) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٨٩.

(٧) انظر في ذلك (الدر المصون)/ ٦/ ٤٨١-٤٨٨، والمغني في توجيه القراءات العشر/ ٢/ ٢٧٢-٢٧٣.



«وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» (الواو) عاطفة، وجملة (اخرج) مقول القول، و(عليهن) متعلقان بمحذوف حال.

«فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» (الفاء) عاطفة، و(لما) ظرفية حينيّة أو رابطة حرفية، و(رأينه) فعل وفاعل ومفعول به، و(قطعن) فعل وفاعل، و(أيديهن) مفعول به.

«وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا» (وقُلن) فعل وفاعل، و(حاش) اسم للتنزيه في محل نصب مفعول مطلق، و(لله) متعلقان بمحذوف حال، و(ما) نافية حجازية و(هذا) اسمها، و(بشراً) خبرها.

«إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» (إنّ) نافية، و(هذا) مبتدأ، وإلا أداة حصر، و(ملك) خبر، و(كريم) صفة[1].

البلاغة:

١ - «سمعت بمكرهن» استعار المكر للغيبة لأنها تشبهه في الخفاء.

٢ - «وقطعن أيديهن» استعار لفظ القطع للجرح، أي جرحْن أيديهن[2].

٣ - في قوله تعالى: «مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» فَنَّانِ متداخلان، الأول ظاهر، وهو التشبيه البليغ، فقد شبَّهن يوسف بالمَلَك من دون ذكر الأداة، وهذا واضح كما قلنا يجري على غرار التشبيهات المألوفة المقصود منه وقد عاين ذلك قوم لوط في ضيف إبراهيم من الملائكة، كما ركب الله تعالى في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان، وكذلك قوله تعالى في صفة شجرة الزقوم في جهنهم «طَلْعُهَا كَأَنَّه رؤوسُ الشَّيَاطين»، فكذلك قد تقرر أن لا شيء أحسن من الملك، فلما أرادت النّسوة تشبيه يوسف بالحسن شبَّهْنَه بالمَلَك.

ولكن الأسلوب القرآني شاء أن يتجاوز المألوف من تشبيهات العرب لكل ما راعهم حسنه من البشر بالجنّ فأدخل فيه فَنّاً آخر لا يبدو للناظر للوهلة الأولى، وهو فنٌّ عرفوه

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٨١-٤٨٢.

(٢) التفسير المنير / ١٢ / ٢٥١.



بأنه سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج كلامه مخرج المدْح، أو ليدُلّ - كما هنا - على شدَّة الوَلَهِ في الحب، وقد يقصد به الذمّ أو التعجّب أو التّوبيخ أو التقرير، ويسمى هذا الفن (تجاهل العارف) وهو على قسمين:

(أ) الموجب: وهو ما يكون فيه الاستفهام عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع، وللمتكلم أن ينطق بأحدهما ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه، ومن ذلك الباب قوله تعالى: «أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ»(١) وهذا خارج مخرج التعجّب، وقوله تعالى: «قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء»(٢) وهذا خارج مخرج التوبيخ، وقوله: «أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ»(٣) وهذا خارج مخرج التقرير، وجميعه موجب كما رأيت.

(ب) المنفي: وأما الآية التي نحن بصددها فهي من القسم المنفي، فقد تجاوز التشبيه كما قلنا، تشبيه العرب كل من راعهم حسنه من البشر بالجن إلى تشبيه يوسف حين كان حسنه بَادِي الروْعَة متجاوزا في ائتلاقه ووسامته المألوف المعهود من روائع الحسن، وله مع روعته البادية نور ورَأْوَة، وطلاقة وتهلل، وعليه مسحة من سكينة تُؤَمِّنُ ناظره من تلك الرعوة، وتثبّت قلبه بما يسري إليه من سكينة وإيماءة بالخير، واستهواء لما فيه راحة النفس ولذتها، فكان كذلك تشبيهُه بالملكَ الكريم.

٤ - الحذف: وفي قوله: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» والتقدير في حبّه، لأن الذوات لا يتعلَّقُ بها لو، ودليل تقدير في حبه قوله «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» في مراودته، ولعلها أولى بدليل قوله: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ» وإنما قلنا أولى لأنه فِعْلُها بخلاف الحب فإنه أمر قهريّ لا يلام عليه إلا من حيث تعاطي أسبابه، أما المراودة فهي حاصلة باكتسابها فهي قادرة على دفعها فيأتي اللوم عليها بخلاف الحب فإنه ليس فعلا لها ولا تقدر على دفعه، لأن الحب المفرط قد يقهر صاحبه ولا يطيق أن يدفعه، وحينئذ فلا يلام عليه، وعلى كل حال فهو من أسبابه.

---

(١) القمر/ ٢٤. (٢) هود/ ٨٧. (٣) الأنبياء/ ٦٢.



٥ - وفي قوله «متكأ» تصوير لنوع من الطعام الذي إنما يقدم تفكُّهَا وتبَسُّطاً وتجميلا للمجلس، وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء، والكلمة بعد هذا من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها فتعلق بها العرب فيما بعد، ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون، انظر حينما يصف القرآن دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي تحدّثن منتقدات عن مراودتها ليوسف عن نفسه إلى جلسة لطيفة رائعة في بيتها لتطلعهن فيها على يوسف وجماله، فيعْذرْنها فيما أقدمت عليه، لقد قدّمت لهن في ذلك المجلس طعاما ولا شك، ولقد أوضح القرآن الكريم هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام، فهذه الكلمة إنما تصوّر شهوة الجوع، وتنتقل بالفكر إلى «المطبخ» بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٤٨٣-٤٨٩.



سادساً - التفسير والبيان:

امرأة العزيز تقابل مكر النسوة بمكر أشد وأعظم، وتغرقهن في بحر جمال يوسف - عليه السلام -:

قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

وجه المناسبة:

لما بلغ امرأة العزيز مقالة النسوة عنها، والتي فضحتها وأهانتها وحكمت عليها بالضلال المبين، سارعت بإعداد خطة مدروسة ومكيدة محكمة للإيقاع بهنّ فيما لُمنها فيه، وفي ذلك يقول الله تعالى:

«**فلمَّا سَمِعَتْ بمكرهِنَّ...**» دلّ بالفاء على أن كلامهنّ نُقل إليها بسرعة[1] وحق «سمع» أن يُعدَّى إلى المسموع بنفسه، فتعْديته بالباء هنا؛ إما لأنه ضُمّن معنى (أُخْبِرَت) كقول المثل: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) أي: تُخْبَرُ عنه، وإما أن تكون الباء مزيدة للتوكيد مثل قوله تعالى: «وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ»[2]، [3].

معنى المكر: المعنى الأصلي اللغوي للمكر هو: تدبير أمر في خفاء. ومعلوم بداهة أنّ ما يدبّر في الخفاء لا يلزم أن يكون شرّاً، بل قد يكون خيراً.

فالمكر ضربان: مكر محمود، وهو ما كان القصد منه تحري فعل جميل، ومن ذلك قوله تعالى: «وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»[4] ومكر مذموم، وهو ما كان القصد منه تحرّى فعل قبيح، ومن ذلك قوله تعالى: «وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ»[5]...

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٣٤.   (٢) المائدة/ ٦/.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦١.

(٤) آل عمران/ ٥٤.   (٥) فاطر/ ٤٣.



ومكر النسوة بامرأة العزيز هو من المكر المذموم، لأنهن قصدن من قولهن - كما قال السدي - أو حديثهن - كما قال قتادة - تلويث سمعتها وإلحاق العار بها وفضيحتها وهدم مكانتها بين النساء العاليات، إذ أجمعن على الشهادة ضدها، ومعايرتها بفشلها المبكي مع فتاها الذي أذلها وهي سيدته، كما لوَّحْن بأنهن يترفَّعن عن فعل ما فعلت.

لماذا سمي قول النسوة مكراً؟

سمي قول النسوة في شأن امرأة العزيز مكراً للوجوه الآتية:

(الوجه الأول): باعتبار الأساس والمنشأ، لأن الغيبة التي هي من هذا القبيل إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس، واستطلاع ما يدور في البيوت، من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز ونحوهن، وهذا مكر بمن يبحث عنهم وينقب عن أحوالهم وخفاياهم، ولا ريب أن هذا أمر منكر، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار، وعدم الإغضاء عن استطلاعها وتجسّسها، عملا بالآداب العامة.

(الوجه الثاني): وهو أنهن كن يتمنين يوسف - عليه السلام - ويشتهينه لأنفسهن، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء، تقول بلسانها ما ليس في قلبها، والله أعلم بما تكنُّه، ولذلك لم يسمّه «غيْبة» بل (مكرا) فهنّ بقولهن: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه» يتمنَّين أن تكون الأسباب قد سهَّلت لهن هذه المراودة، وبقولهن «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن، ولما قلن: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أرَدْنَ أنها في هداية ظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته، عديم النظير في ملاحته، فملاحظتهن على امرأة العزيز، ملاحظة غبطة وغيرة، ملاحظة يقصد منها معنى آخر، يعرفْنَه وتعرفه امرأة العزيز، ويعلمه الله الخبير الذي سمي هذه الغيبة مكراً.

(الوجه الثالث): كنّ قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة «المكر» بدليل أنَّهن لُمْنَها وهن غائبات عنها، ولم ينْصحْنها وجها لوجه، وإلا فهن لو أردن النصح لاجتمعن بها



وقدَّمن لها ما يعود عليها بالغَنَاء، فسمّاه مكراً لأنه من قَبِيل التحكُّك بشخصية تلك المرأة وتنقّصها، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة.

(الوجه الرابع): سمِّيت هذه الغيبة «مكراً» لأنها طَعْن لم يرتكِزْ على مستندات قوية، لأن الذي وقع منهنّ وإنِ اسْتند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز، إلا أنه غير جائز، إذ يجب أولا التثبت والتّبيّن، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب(١).

وكان الواجب على هؤلاء النسوة أن يكتمن على خبر امرأة العزيز السيء وألا يشعنه بين الناس، وأن يعملن على نصحها ووعظها في السّر، فإن إشاعة الفاحشة بين الناس يؤدي حتما إلى فساد المجتمعات وضلالها، ولذلك حكم الإسلام على من يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(٢).

ويجيب الإمام ابن القيم - رحمه الله - على من يقول: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به، وسمعت به امرأة العزيز فإن الله سبحانه لم يقصه في كتابه؟ فيقول: بلى، قد أشار إليه بقوله: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ». وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

(أحدها): قولهن: «امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا» ولم يسمُّوها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعْل، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

(الثاني): أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها - بعد الملك - وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

(الثالث): أنّ الذي تراوده مملوك لا حرّ، وذلك أبلغ في القبح.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٢٤-٦٢٥.

(١) النور/ ١٩.



(الرابع) : أنه فتاها الذي هو بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف مَن طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

(الخامس) : أنها هي المراودةُ الطالبة.

(السادس) : أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبُّه إلى شغاف قلبها.

(السابع) : أنّ في ضمن هذا أنه أعفّ منها وأبرّ وأوْفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع عفَافاً وكرماً وحياءً، وهذا غاية الذم لها.

(الثامن) : أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع، حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلْن: راودتْ فتاها، وفرْق بين قولك: فلان أضاف ضيْفاً، وفلانٌ يقْرِي الضَّيْف ويطعم الطعام ويحمل الكلّ، فإن هذا يدلّ على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فَنَسَبْنَ الاستقباح إليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على الهوى، ولا يَكدْن يريْنَ ذلك قبيحا، كما يساعد الرجال بعضهم بعضا على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور، وأنه ممّا لا ينبغي أن تساعَد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهنّ جمعْن لها في هذا الكلام واللوم بيْن العِشْق المفرِط، والطلب المفرط، فلم تقْتصد في حبّها ولا في طلبها.

أما العشق فقولهن: «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» أي وصل حبه إلى شغاف قلبها. وأما الطلب المفرط فقولهن: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا» والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدَّة الحِرْص على الفاحشة(١).

---

(١) إغاثة اللهفان / ٢ / ١٤٠-١٤٢.



توجيه الدعوة إلى النسوة:

قال الله تعالى: «أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ» علمت المرأة يقينا أن النسوة اللاتي قلْن عنها ما قلْن، قد مكرْن بها فعلا، فقررت أن تقابل مكرهن بمكر أشد، فإذا كان مكرهنّ قد وقف عند حدّ القول، فإن مكرها سيتعداه إلى الفعل، فعملت على استدراجهن إلى مجلس يتمكَّنَّ فيه من مشاهدة يوسف - عليه السلام - عن كثب، لِيَلْتمسْن بأنفسهن مدى تأثير مشاهدتهنّ له في نفوسهن، لتتَّخذ من انفعالهنّ عذراً لها يبرز تهتُّكها في حبّه، وحجة عليهن تسقط عذلهنّ لها، وتظهر لهن أنها ليست كما تصوَّرْن، وأنهن لو كُنَّ في مكانها لفعلْن ما فعلته أو أشد[1] فوجهت إليهن الدعوة على سبيل الضيافة.

تلبية الدعوة وحضور النسوة:

كانت الدعوة موجهة بالطبع من امرأة العزيز إلى النسوة اللاتي قلن في شأنها وشأن يوسف ما قلن، فالظاهر عود الضمير في قوله «أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ» إليهنّ، كما يُفهم من السِّيَاق، وقد لَبّيْن وحضرْن لمالها عليهن من الدَّالة بكونها امرأة العزيز، حيث يعتبرْن دعوتها لهن شرفاً كبيراً، إضافة إلى ما هو أهم، وهو شدَّة اشتياقهن لرؤية يوسف - عليه السلام - وكان يوصف لهن بفائق الحسن والجمال.

قال الله تعالى: «وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً» وكانت امرأة العزيز قد أعدَّت لهن مكانا خاصا وضعت فيه متكآت ليأخذن راحتهن، ويجلسن كما يحلو لهن، حتى تتم المفاجأة، وكأنها بغير تدبير فيكون وقعها أعظم في النفوس وآكد في القلوب[2].

«وأعتدت» أفْعلتْ من العتاد وهو العدَّة، وكلُّ ما اتَّخذته عُدَّةً لشيء فهو عَتاد، والعتاد: الشيء الثابت اللازم، و«أعتدت» بمعنى أعَدَّت، أي: هيّأت وأحضرت، يقال: «عَتُد الشيء عُتَاداً: حضَر، وعتدٌ وعتيد، ويتعدَّى بالهمزة والتَّضعيف فيقال: أعتدَه

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٩٥.

(٢) نظرات في أحسن القصص/ ٢/ ٣٢٩.



صاحبه وعدَّدَه؛ إذا أعَدَّه وهيَّأه، ويقال: أخذ للأمر عتاده، أي ما أعدَّه من السلاح والدواب وآلة الحرْب، أَعْتُد وأَعْتِدَة، مثال زمان وأزْمُنُ وأزمِنَة، وفي حديث: «إن خالداً جعل رقيقه وأعتَده حُبّاً في سبيل الله» وفي البخاري، «وَأعْتدتْ»: أَعَدَّت، أَعْتَدْنَا: أعْدَدْنا، أفعلنا من العتاد.

والمتكأ: محل الاتكاء والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى، وإنما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، والمتكأ: مفْتَعل من تَوَكَّأت، كمُتَّجه من توجَّهْتُ، وأصله (مُوتكأ) أبدلت من الواو تاء، وأدْغمت التّاء في التّاء، ويطلق «المتكأ» على نفس الطعام، وعلى نفس المائدة والخوان، وعلى نفس ذلك ومحله، وعلى النمارق والوسائد، كل ذلك جائز وصحيح في اللغة والاصطلاح، وفي البخاري: (المتكأ) ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام[١].

ففي معنى «المتكأ» ثلاثة أقوال:

(أحدها): أن «المتكأ»: ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، قاله أبو عبيدة والسدي، فالمعنى، هيَّأت لهن مجلسا.

(الثاني): أن «المتكأ» مجلس الطعام،قاله ابن عباس، لأنهم كانوا يتكئون له كعادة المترفين المتكبرين، وقد أخرج ابن أبي شيبة عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - «أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله، وأن يأكل متكئاً» وروى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آكل وأنا متكئ».

(الثالث): أن «المتكأ» هو نفس الطعام، قاله الحسن ومجاهد وقتادة، مأخوذ من قول العرب: اتكأنا عند فلان، أي طعمنا عنده، قاله العتبى وابن قتيبة، ومنه قول جميل بن معمر:

فظَلَلْنَا بنِعمة واتَّكأْنا *** وشرِبْنَا الحلال من قلله

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٠١، ومؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٢٧، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٩١، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٢، والفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٥٣.



وهو على هذا اسم مفعول، أي: متكئا له، أو مصدر، أي: اتكاءً، وعبَّرَ بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترف عن ذلك مجازا مرسلا، وقيل: هو من باب الكناية، وعلى القول بأن المتكأ هو نفس الطعام، فأي الطعام هو؟

فيه أربعة أقاويل:

(أحدها) أنه الزُّما وَرْد، وهو الرقاق المحشوبا للحم وغيره، قاله الضحاك وابن زيد.

(الثاني) أنه الا ترجّ، أو التُّرُنْج وهو ثمر من جنس الليمون يستعمل في صنع الحلوى، والعامة في سوريا وفلسطين تسميه (الكبار) قاله ابن عباس ومجاهد، وهو تأويل من قرأها مخَفَّفَةً غير مهموزة، و(المتْك) في كلامهم الأترج، قال الشاعر:

نشرب الإثم بالصُّوَاع جهاراً *** وترى المتْك بيننا مستعاراً

والإثم: الخمر، والمتك: الأترج.

(الثالث) أنه كل ما يُحَزُّ بالسِّكين، وهو قول عكرمة، لأنه في الغالب يؤكل على متكأ.

(الرابع) أنه كل الطعام والشراب على عمومه، وهو قول سعيد بن جبير وقتادة[1].

قوله تعالى: «وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا» «وآتت» عطف على (وأعتدت) و«كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا» مفعولان، وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكَّرُ ويؤنث، وأنشد الفراء:

فَعَيَّثَ في السَّنَام غَدَاةَ قُرٍّ *** بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَةَ النِّصَاب

ومعنى (فَعَيَّث) أي: أثَّرَ

وقال الجوهري: والغالب عليه التذكير، وقال:

يُرى ناصحا فيما بَدَا فإذا خلا *** فذلك سكِّينٌ على الحلْقِ حاذِقُ

والأصمعي لا يعرف في السكين إلا التذكير[2]،

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٠١-٢٠٤، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٣٢-٢١٣٣، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٤-٢٦٥، وزاد المسير/ ٤/ ٢١٥-٢١٧.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٧٩.



فبعد أن استقر المقام بعقيلات الأمراء والوزراء المدعوات في قصر امرأة العزيز، وفي المكان الذي أعدته لهن إعدادا خاصا، أمرت جواريها بإحضار الطعام بين أيديهن، والظاهر أنه كان طعاما معيَّناً انتقَتْه، لا يؤكل حتى يحمل في يد ويجزُّ بالسِّكين باليد الأخرى حَزّاً، وأعطت هي بيدها كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكينا لتأكل بها مبالغة في الاحترام، ويحتمل أنها أمرت الجواري بذلك على جاري العادة، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسّكين(١).

ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأن الترف في القصور كان عظيما، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية(٢) والقرآن الكريم أخبر عن إيتاء امرأة العزيز السكاكين، وترك ماله - الطعام - آتتهن السكاكين، إذ كان معلوما أن السكاكين لا تدفع إلى من دُعي إلى مجلس إلا لقطع ما يؤكل إذا قطع بها، فاسْتُغْنِي بفهم السامع بذكر إيتائها صواحباتها السكاكين عن ذكر ما له آتتهن ذلك، فكذلك استُغْنِي بذكر إعتدادها لهنّ المتكأ عن ذكر ما يُعْتَدُّ له المتكأ مما يحضر المجالس من الأطعمة والأشربة والفواكه وصنوف الالتهاء لفهم السامعين بالمراد من ذلك(٣).

وإعطاء السكين لكل واحد من النِّسْوة المدعوات تخطيط من جانب المرأة، لتستعمله كل واحدة في قطع ما يعهد قطعه مما قدّم إليهن من طعام، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن لتبكيتهن بالحجة(٤) وهذا هو الذي يظهر من النَّص، وإلا فقد كان يكفي قوله: «وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً» تعبيرا عن مجلس الطعام وما يشتمل عليه من أطعمة وفاكهة وأشربة، وما يلزم لذلك من سكين ونحوه.

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٣١.

(٢) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٨٤.

(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٠٤.

(٤) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٤١٩.



المفاجأة المذهلة للنسوة «رؤية يوسف - عليه السلام - والجمال الخارق»

أخذ النسوة راحتهن على «المتكأ» الذي أعدَّته المضيفة، ووُضع الطعام بين أيديهن، فأخذْن يأكلن ويمْرَحْن ويشربْن ويضحكن كعادة الناس في مثل هذه الجلسات، وفي اللحظة التي كان وضع النِّسوة فيها هكذا، مشغولات بمعالجة قطع ما قُدّم إليهن، رأت امرأة العزيز أن اللحظة المناسبة التي أرادتْها وخطَّطَتْ لها قد حانتْ، فقد كان نجاح خطتها متوقِّفاً على خروج يوسف على النسوة في مثل هذه الحالة، فهو أهم ما في الأمر[1] هنالك أطلقت المرأة سهمها اليوسفي الجمالي الخارق، لتصيب به النّسوة في مقتل.

قال تعالى: «**وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**» وهذا يقتضي أنه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها، وعُدِّي فعل الخروج بحرف (على) لأنه ضُمِّنَ معنى (ادخل) لأن المقصود دخوله عليهن لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه[2].

قال تعالى: «**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**» عطفٌ على مقدّر يستدعيه الأمر بالخروج، وينسحب عليه الكلام، أي: فخرج عليهن فرأينه، وإنما حُذف على ما قيل: تحْقيقا لمفاجأة رؤيتهم، كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن، كما حُذف لتحقيق السرعة عند قوله تعالى: «فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ»[3] وفيه إيذان بسرعة امتثاله - عليه السلام - بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل[4] كما يفيد قوله: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ» أنهن لم تسبق لهن رؤيته - عليه السلام - رغم وجوده في القصر سنوات طويلة، وكان القصر منتدى الصديقات النبيلات، فلعل امرأة العزيز كانت تخفيه عن النساء غيرة منها عليه[5].

«أكبرنه»: أعظمنه وهِبْنَ حسنه الرائع وجماله الأخّاذ الفاتن، واستولي عليهن الدّهش، وهذا هو قول الجمهور، وهو الصحيح، وقد ضعف العلماء قول من قال:

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٩٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٦٢.

(٣) النمل / ٤٠.

(٤) روح المعاني / ٦ / ٤١٩.

(٥) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٦٣٦.



إن (أكـبـرن) هنا بمعنى حِـضْنَ، أو بمعنى أمْنـيْن، إذ هو تـظرف مـصنـوع لا يليق بالقرآن الكريم(١).

والهمـزة فيـه – (أكبـرنه) – للعدّ، أي: أعـددنه كبـيراً، وأطلق الكِبَر على عظيم الصفات تشبيها لوفرة الصفات بِعِظَم الذات(٢) وحين يقال: أكْبَرْت الشيء، كأنك قد تخيّلته قبل أن تراه على صورته الحقيقية، وقد تكون الصورة المتخيلة حسنة وجميلة للغـاية، إلا أنك حين تـراه تكْبِرُ مـرآه الحقيـقي عن التّخـيّل الذي تـصورتَهُ عنه، قد يحدّثونك عن إنسان، فلما تراه تجد أنه أكثر بكثير مما حدثوك عنه، قال الشاعر:

كـادَتْ مـسـاءلة الركـبـان تخبـرني
عن جعـفر بن حـبـيب أصـدق الخبـر
حـتى التـقـيْنا فـوالله مـا سـمـعَت أذني
بـأطْـيَـبَ مما قـد رآى بـصـري

وعلى العكس، قد تسمع عن إنسان أنه حسن في كذا وكذا، فلما تراه تقول من هذا الذي يقولون عنه كذا وكذا، ولذلك يقولون في المقابل: سَمَاعك بالمعيدي خير من أن تراه، يا ليتك ظللت تسمع عنه ولم تره، فقبل رؤيتهم ليوسف – عليه السلام – تخيَّلن للفتى صورة عالية من الحسن، لأنه استطاع أن يستولي على قلب امرأة العزيز حتّى شغفها حبا، فلما رأينه أكبرن مرآه عن كل صورة تخيَّلْنَها له(٣) وكان يوسف – عليه السلام – آية ربانية في الحسن والجمال، فقد أخرج بن جرير وغيره عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر» وجاء عن الحسن أنه أعطى ثلث الحسن، وفي رواية عن أنس مرفوعا أنه – عليه السلام – أعطِيَ هو وأمه شطر الحسن(٤).

---

(١) انظر تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٠٤-٢٠٥، تفسير ابن عطه/ ٩/ ٢٩٠، وروح المعاني/ ٦/ ٤٢٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٤٨٠-٤٨١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٢.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٤) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٠٧.



تصوير العلماء لحالة النسوة حين خرج عليهن يوسف - عليه السلام -:

خرج يوسف - عليه السلام - على النسوة وقد لبس أجمل الثياب، ونُضْرة الشباب تعلو وجهه، ومشي أمامهن بأمر سيدته، وقد صبغ الحياء وجنتيْه بلونه الورديّ الفاتن فازداد حسنا، وانعكست طهارة نفسه ونقاوة قلبه على وجهه وجسمه فتألق تألق القمر(١) ليلة البدر والتمام، شاهَدْنَه فشاهدن فتى لا كالفتيان، وشابا لا كالشبان، أبْلَج الغرّة، وضئ الطلعة، سمح المعارف، حلو الملامح(٢)، وشاهدن من وراء هذا الحسن نفسا جميلة كريمة، فظهرتْ على وجوههن الدّهشة، وفرحت به أفئدتهن، واختلط فرحهن بأمارات البغتة، وبُهِتْنَ كأنّ على رؤوسهن الطير(٣)... رأينه فرأين ما لا عين منهن رأت من مثل هذا الصفاء والحسن والجمال، «رَأَيْنَهُ فأَكْبَرْنَهُ» إذ خطف نور النبوة وجلالها وجمال صاحبها أبصارهن وأدْهش ألبابهن، ولم يلحظْن عليه أي التفات إليهن أو ميل نحوهن، فلا جرم أكبرنه وعظّمنه، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن(٤).

ذهول النسوة وتقطيع أيديهن:

قال الله تعالى: «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» أي: جرحنها بما في أيديهن من السكاكين، وهذا كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، وهو معنى حقيقي للتقطيع عند البعض، وفي الكشف أنه معنى مجازي على الأصح، وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه فسَّرَ التقطيع بالإبانة، والمعنى الأول - جرحنها - أسرع تبادراً إلى الذهن(٥).

قال النحاس: إنه ليس قطعا تبين منه اليد إنما هو خدْشٌ وحزٌّ، وذلك معروف في اللغة أن يقال: إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده، ويبعد قول من فسَّر القطع

---

(١) نظرات في أحسن القصص / ١ / ٣٢٩.

(٢) قصص القرآن (جاد المولى) / ٨٥.

(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٦٣٥.

(٤) انظر: يوسف بن يعقوب / ٩٥.

(٥) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٢٠.



بالإبانة، وهو ماروي عن مجاهد، والأصح أنه كان قطعا بلا إبانة[١].... والتَّضعيف في «وقطَّعْن» للتكثير، إما بالنسبة لكثرة القاطعات، وإما بالنسبة لتكثير الحزّ في يد كل واحدة منهن، فالجرح كأنه واقع مراراً في اليد الواحدة، ففي التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفي من الدلالة على كثرة جرحهن، ومع ذلك لم يبالين به[٢]، فقل لي: هل هناك تصوير أعلى من ذلك؟[٣].

والمراد بالأيدي الجوارح المعلومة، ويبعد القول بغير ذلك مثل القول بأنها الأنامل، ومن العجيب ما روي عن عكرمة من أن المراد بها الأكمام[٤] والظاهر بطلان تلك الرواية، لأنها تناقض صريح النص القرآني،

لقد رآى النسوة يوسف - عليه السلام - على هذه الصورة الربانية الفائقة الحسن والرّوعة والجمال، فَأُخِذْنَ بطلعته أخذاً شديداً، ملك عليهن كل حواسهن ومشاعرهن حتى غبْن عن كل ما حولهنّ، وذُهلْن عما في أيديهن من السكاكين، وأصْبَحْن وكأن قوي الاحساس المتنوعة المتفرقة على أعضائهن قد توحدت واجتمعت كلها في عيونهن، فكأن كيانهن كله قد أصبح عيونا معلقة بهذه المعجزة التي طلع القَدَرُ بها فلم يعد في أيديهنّ حِسٌ ولا إدراك، فبدلا من أن يقطّعن الطعام والفاكهة بالسكين قطَّعن أيديهن، بأن جرحنحها وحزَزْنها من حيث لا يشعرْن بألم، ولا يعلَمْن أنهنّ يصنعْن شيئا لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول لرؤية يوسف - عليه السلام -[٥] فكان شأنهن شأن قيس حين شاهد ليلى فالتقط الجَمْرَ ووضَعه في راحته ولم يشعر بالألم فتحرَّقت راحتاه وما شعر.

---

(١) انظر تفسير البغوي/ ٤/ ٢٣٨، وتفسير القرطبي/ ٩/ ١٨٠.

(٢) انظر تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٣، وتفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٢.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٤) أنظر: روح المعاني/ ٦/ ٤٢٠.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٣٧، وانظر: القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٣٩.



الدّماءُ تسيل وامْرَأة العزيز تتشفّى:

لقد سَالَتْ دِمَاءُ النسوة الماكراتِ... حين رأيْنَ يوسف - عليه السلام - في جماله الملائكتي السَّماوي الأخاذ... سالت دماؤهُمَّ وهنَّ مذهولات لا يدرين بأي شيء إلاّ مشهد يوسف الْغَاصِبَ لكل أبصارهنّ وشعورهن وكيانهنَّ... سالت دماؤهنّ وبأيديهن لا بيد غيرهِنَّ... سالت الدماء وتتابعت تَتَفَجَّر من الأيدي المسكينة... وامرأة العزيزتنظر وتتشفى، وترى ما اشتهت وما خططت لأنْ تراه منْهُنَّ، وكأنما الدِّماء التي تدفَّقَتْ منهن دافئة ثخينة كانت تروي لها عَطَشاً طالما تمنّتْ أن تذْهبَ بظَمَئِه وحرارته، وكأن تلك الدماء بمثابة حمام باردٍ لها غَسَلَ أودْرَانَ غيظها منْهُنَّ وأذْهب عنها نار مكرهن وكيدهن، ورأت أنها انتصرت عليهنَّ انتصاراً فِعْليّاً سَاحقاً، وهاهنّ الآنَ يقَعْنَ فيما وقعت هي فيه من قبل، وبنظرة واحدة وبطلعة واحدَة من يوسف - عليه السلام - عليهن قد فقدْن شعورهن وتورَّطن بكل كيانِهِنَّ ووقَعْنَ صريعاتٍ دامياتٍ تحت أقدام جمال وبهاء يوسف.

وصف النسوة ليوسف - عليه السلام -:

قال الله تعالى: «وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ» «حاش لله» تركيب عربي جرى مجري المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه، وأصل (حاشا) فعل يدل على المباعدة عن شيء، ثم يعامل معاملة الحرف فيجرُّ به في الاستثناء فيُقْتَصر عليه تارة، وقد يوصل به اسم الجلالة فيصير كاليمين على النفي، يقال: حاشا الله، أي: أحاشيه عن أن يكذب، كما يقال: لا أقسم، وقد تزاد فيه لام الجر فيقال: حاشا لله، وحاش لله، بحذف الألف، أي: حاشا لأجله، أي: لخوفه أن أكذب، حكى بهذا التركيب كلام قالته النسوة يدل على هذا المعنى في لغة القبط حكاية بالمعنى[١].

فقوله: «وقلن» أي: تنزيها لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز وتعجّبا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٦٣.



من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديع «حاشا لله»(١) أي: حاش أن يُرْمي مثل هذا بسوء أو أن يميل إليه، لأن تلك من أفعال البشر وهو ليس منهم، فإنه - عليه السلام - لم يلتفت إليهن البتّة كما يفعل الشباب، ولا شمَمْن فيه أثرا من آثار الشهوة أو نوازع البشر في مثل هذه المواقف، بل شهدْنَ عليه من الطهارة التي لا يتصف بها إلا الأنبياء ما جعلهن يصفنه بالملائكية فقالوا:

«مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» قد تطهر من الصفات المعهودة في البشر، وتجرّد من بواعث الشهوة ونوازع الوهم والخيال، وقد بَدأْنَ بتنزيه الخالق سبحانه عن السوء، ثم بتنزيهه - عليه السلام - من العيب، على معنى أن الله تعالى منزه عن ألا يطهره من المساوي(٢).

فالنسوة قد نفيْنَ عنه البشرية لأنه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع والطهارة الفائقة والسمو العالي مالم يعهد على أحد من البشر قط، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية، ثم لما نفيْن عنه البشرية لهذه العلة، أثبتن له صفة الملائكية وإن كنّ لا يعرفن الملائكة، لأنه قد تقرر في الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كل شيء، كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك، ومن هذا قول الشاعر:

فَلَسْتَ لإنْسِيٍّ ولكن لملاكٍ *** تنزّل من جوّ السماء يصوب

وغرضهن فيما قلن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال(٣).

احترام النسوة الأقصى ليوسف - عليه السلام -:

إن ما صدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف - عليه السلام - هو مجموعة مركبة من ثلاثة أركان: ركن قلبيّ، وهو إكبارهن له، وركن عمليّ، وهو تقطيعهن

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٤٢٠.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٩٦.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٢، وفتح القدير / ٣ / ٢٤.



أيديهن، وركن لساني، وهو قولهن: «حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ»... فقد ظهر احترامهن ليوسف - عليه السلام - في مظاهره الثلاث، في الجَنان، والأركان، واللسان، على حدّ قول الشاعر:

أفادتكُم النَّعْمَاء مني ثلاثة *** يدي ولساني والضمير المحجّبا

وهذا أقصى أنواع الاحترام(١).

وتحول النسوة اللائمات إلى متغزلات مادحات:

لقد رآى النسوة يوسف - عليه السلام - فقررن أنه ليس من عالم البشر، بل هو من عالم أرقى جمالا، وأعلى بهاء وأسمى نوراً، نعم، إن الصورة وإن تكن صورة إنسان أرْضِيّ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه، هي نفس ملك سماوي، هنَّ كُنَّ ظَنَنَّ قبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط، حسب العادة المألوفة، أي أنه ليس فيه إلا جمال الجسم وقسامة الوجه ونحو ذلك...

أما الآن وقد رأينه، وتأمَّلن وتفرَّسْنَ فيه، وعلمن ما عنده من طهر ونزاهة وجمال نفس، ونورانية روح، فقد عرفن شيئا كن يجْهلنه من قبل، فقد امتزج جمال صورته بجمال نفسه فاستحالتا إلى صورة واحدة، فإذا هو نور على نور، وفي لحظة واحدة خطف جمال يوسف الآسر الأخّاذ خطف قلوبهن وشعُورهن وعقولهن خطْفاً، حتى سِرْنَ بين لحظة وأخرى أسيرات جماله، فوقعن في حبه وقوعا دوَّى في أعماقهن... وصار لسان كل واحدة ينشد:

وعَذَلْتُ أهل العشق حتى ذقتُه

فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعــذَرتهم وعــرفت ذنبي أنني

عيَّــرْتهم فلقــيت منه ما لقــوا

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٦٣٦-٦٣٧.



وصار حال المرأة وحالهن كما قال الشاعر:

أبْصَـــرَه عَـــاذِلي عَلَيْـــه
وَلَـمْ يـكـن قَـــبْلَهـــا رآه

فـــقـــال لي لو عـــشـــقت هذا
مـــا لامَـك الـنـاس في هـواه

فظل من حـــيـث لـيـس يدري
يأمـــر بـالعـــشق مَنْ نهـــاه[1]

المضمون العام للآية الكريمة:

لما بلغ امرأة العزيز مقالة السوء عنها ومكر النسوة بها قررت أن تقابل مكرهن بها بمكر أشد وأنكى وأعدت لهن خطة ماكرة مدروسة ليقعن فيما وقعت هي فيه مع يوسف، فتقيم بذلك الحجة عليهن وتلتمس العذر لنفسها، وقامت بتوجيه الدعوة إليهن للحضور إلى قصرها، فَلَبَّيْن وحضرْن، وكانت قد أعدت وأحضرت وهيأت لهن مجالس يتكئن عليها وهن يطعمن ويشربن ويتحدثن حتى تطول الجلسة بهن لتحقق غرضها من الدعوة، وآتت كل واحدة منهن سكيناً لتقطيع ما قدم إليهن من فاكهة، وفي اللحظة التي كان النسوة فيها مشغولات بتقطيع ما بين أيديهنّ أمَرَتِ امرأة العزيز يوسف - عليه السلام - أن يخرج عليهن، فلما خرج عليهن ورأينه أكبرنه وأعظمنه وهبن حسنه وجماله، وأصبن بذهول بالغ وتعلقت كل حواسّهن بصورته وَغِبْنَ عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهن، لدرجة أنهن قطعن أيديهن بالسكاكين بدل الفاكهة لفرط ذهولهن وتعلقهن بصورته الرائعة وقلن (حاش لله) تعجباً وتنزيهاً لله تعالى أن يكون قد خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر، إنه ليس بشراً مثلنا (إن هذا إلا ملك كريم) أي ما هذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٤٦، وتفسير المنار/ ١٢/ ٢٩٤.

البديعة التي تجذب الأنظار وتخلب الألباب، وهكذا تحول النسوة اللائمات العاذلات لامرأة العزيز إلى عاشقات محبات ليوسف، ووقعن في لحظة واحدة فيما وقعت هي فيه من قبل.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - قد يكون كلام الناس في ظاهره حق وصدق ووعظ، وفي باطنه مكر وخبث ودهاء، وَيُعْلَمُ ذلك بالقرائن والأحوال والمقاصد.

٢ - ثورة النفوس حين تُتَّهَم حتى ولو كان ذلك الاتهام حقيقة واقعة يعلمها المتهم في نفسه، فيحاول رد الاتهام بكل ما استطاع.

٣ - الرد على مكر النسوة بمكر أشد وأقْسَى من جانب امرأة العزيز.

٤ - قد تكون الدعوة للإكرام والضيافة، وهي للإيقاع والشماتة.

٥ - تم إعداد مجلس الطعام وما يتعلق به على صورة تمكن امرأة العزيز من تنفيذ خطتها مضافاً إلى ذلك السكين لتقطيع الفاكهة.

٦ - طاعة يوسف لسيدته فيما لا يُحَرِّمُ الله الطاعة فيه.

٧ - خروج النسوة عن عقولهن وشعورهن وحواسهن بمجرد رؤيتهن ليوسف، حتى قطَّعن أيديهن وهن لا يشعرن.

٨ - انبهار النسوة بجمال يوسف العالي حتى وقعن كلهن في شباك حبه وصرن يمدحنه ويقلن: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

٩ - أكثر المآسي القاسية المتعلقة بالعرض والشرف تقع بسبب اختلاط الرجال بالنساء في أي موقع من المواقع.



«الآية الثانية والثلاثون»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ثانياً - القراءات:

قوله تعالى: «وَلَيَكُونًا» قرأ العامة بتخفيف نون «وَليكونَنْ» ويقفون عليها بالألف إجراءً لها مُجْرى التنوين، ولذلك يحذفونها بعد ضمة أو كسرة نحو: «هل تقومون» و«هل تقومين» في: «هل تَقُومُن» و«هل تَقومِن» والنون الموجودة في الوقف نون الرفع رَجَعوا بها عند عدم ما يقتضي حذفها.

وقرأت فرقة بتَشْديدِهَا، وفيها مخالفة لسواد المصحف لِكَتْبها فيه ألفا، لأن الوقف عليها كذلك كقوله:

وإيَّاك والمَيْتَاتِ لا تقربَنَّها *** ولا تَعبُد الشيطان واللّهَ فاعْبُدا

أي: فاعْبُدْن فأبدلها ألفا، وهو أحد الأقوال في قول امرئ القيس:

قفا نبك.................

....

وأجرى الوصل مُجْرَى الوقف[1]

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «فَذَلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّني فِيه» لوم: اللَّوْمُ عذل الإنسان بِنِسْبَته إلى ما فيه لوم، يقال: لمته فهو ملوم، قال تعالى: «فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم»[2] وقال سبحانه وتعالى: «وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ»[3] وقال جل شأنه: «فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»[4] فإنه ذكر

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٤٩٢. (٢) إبراهيم/ ٢٢.

(٣) المائدة/ ٥٤. (٤) المؤمنون/ ٦.



اللوم تنبيها على أنهم إذا لم يُلاموا لم يُفْعَل بهم ما فوق اللوم، وألام: استحق اللوم، قال تعالى: «فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ»(١) والتّلاوُم: أن يلوم بعضُهم بعضا، قال سبحانه: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ»(٢) واللَّوْمة: الملامة، واللائمة: الأمر الذي يلام عليه الإنسان(٣).

قوله تعالى: «فَاسْتَعْصَمَ» استعصم: استمسك، كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة، قال: «فاستعصم» أي: تحري ما يعصمه(٤) والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفُّظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها(٥)

«مِنَ الصَّاغِرِين» الصاغر: الذليل، والصاغرون: الأذلاء الذين لحقهم الصغار، وتركيب «من الصاغرين» أقوى في معنى الوصف بالصغار من أن يقال: «وليكونن صاغراً»(٦).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي» فذلك، الفاء فاء الفصيحة، أي إن شئتم معرفته فذلكن، واسم الإشارة مبتدأ، ولم تقل: فهذا، وهو حاضر وسياق الكلام يتطلب ذلك رفعا لمنزلته في الحسن، و(الذي) خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي، ولم يُجْعَل الذي خبر لاسم الإشارة لأن لام البعد التي اقترن بها اقتضت بعده عنه لما تقدم من تَعْظيم رتبته في الحسن والجمال، و(فيه) متعلّقان بـ(لمتنني) أي في حبه أو مُرَاوَدَتِه، «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» (الواو) عاطفة، و(اللام) جواب للقَسم المحذوف، و(قد) حرف تحقيق، و(راودته) فعل وفاعل ومفعول به، و(عن نفسه) متعلّقان بـ(رَاوَدته)، «فاستعصم» (الفاء) عاطفة و(استعصم) فعل ماض زيدت فيه السّين للمبالغة

(١) الصافات/ ٤٥. (٢) القلم/ ٣٠.

(٣) انظر: المفردات (كتاب اللام)/ ٤٥٦-٤٥٧.

(٤) المفردات (كتاب العين)/ ٣٧.

(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٨.

(٦) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٤.



في الامتناع «وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ» (اللام) موطئة للقسم، و(إن) شرطية، و(لَمْ) حرف نفْي وقلْب وجزم، و(يفعل) فعل مضارع مجزوم، وهو فعل الشرط، و(ما) مفعول به، وجملة (آمره) صلة، أي الذي آمره به، ويصح كونها مصدريَّة، أي: أمري، والضمير في (آمره) عائد على الموصول، أي ما آمُرُ به، فحذف الجارّ كما حذف في «أمرتك الخير»، ومفعول (آمر) الأول محذوف، وكان التقدير ما آمره به، وإن جعلت (ما) مصدرية جَازَ، فيعود الضمير على يوسف، أي أمري إياه، ومعناه مُوجب أمري، و(اللام) واقعة في جواب القسم، وجواب الشرط محذوف على القاعدة في اجتماعهما دلّ عليه جواب القسم المذكور، والتقدير ليسجنن وليكونن، وفي (يسجنن) نون التوكيد الثقيلة، وفي (يكون) نون التوكيد الخفيفة، واسم يكون مستتر تقديره هو، و(من الصاغرين) خبرها.

البلاغة:

الحذف في قوله: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» والتقدير في حبه، لأن الذوات لا يتعلَّق بها لوم، ودليل تقدير في حبه قوله «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» في مراودته، ولعلها أولى بدليل قوله: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ» وإنما قلنا أولى لأنه فِعْلُها بخلاف الحب فإنه أمر قهري لا يلام عليه إلا من حيث تعاطي أسبابه، أما المراودة فهي حاصلة باكتسابها فهي قادرة على دفعها، فيأتي اللوم عليها بخلاف الحب فإنه ليس فِعْلاً لها ولا تقدر على دفعه، لأن الحب المفرط قد يقهر صاحبه ولا يطيق أن يدفعه، وحينئذ فلا يلام عليه، وعلى كل حال فهو من أسبابه(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٨٢، ٤٨٣، ٣٨٨

رفع المساهم

سادساً - التفسير والبيان:

«تلاومٌ واعتراف ووعيد»

قال الله تعالى: قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

وجه المناسبة:

إن النسوة لما قلن في امرأة العزيز «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» عظم ذلك عليها فجمعتهن «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...» فعند ذلك ذكرتْ أنهن باللوم أحقّ، لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها[١].
ولهذا قالت:

«فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» الفاء فصيحة، والخطاب للنسوة، والإشارة إلى يوسف - عليه السلام - بالعنوان الذي وصفْنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية، فاسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبره، أشارت إليه إشارة البعيد وإن كان حاضراً تعظيماً له ورفعا من شأنه لتُظهِر عُذْرَهَا في شَغَفِها به، ومعنى (فيه) أي: في حبّه، وقيل: الإشارة إلى الحب، والضمير له أيضا، والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى ورجحه ابنُ جرير، وأصل اللوم، الوصف القبيح[٢] والمعنى، إن كان الأمر كما قلتنّ فذلكن الملك الكريم النائي عن المراتب البشرية هو «الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أي عيّر تنّني في الافتتان به، حيث ربأْتنّ بمحلي بِنِسْبَتي إلى العزيز، ووضعتن قدره بكونه من المماليك، أو بالعنوان الذي وصفْنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني، فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتُنَّ في أنفسكنّ وقُلْتُنَّ فيه وَفيّ ما قُلتُن،

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٣٣.

(٢) تفسير فتح القدير/ ٣/ ٢٥.

(٣) انظر تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٢-٢٧٣.



فالآن(٣) ما قولكن في أمري وافتتاني به، .... وتابعت امرأة العزيز قائلة(١) إنكن بنظرة واحدة إلى جمال يوسف القاهر حدث منكنّ ما حدث، ....

وإنما يوسف ترعرع في داري وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه، ويقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وأخلو به في ليلى ونهاري، فأراه بشراً سويّاً، إنسيّاً لا جنِّيّاً، وجسداً لا ملَكا روحانيا، فأتراءي له في زينتي، وأعرض على نَظَرِه ما ظهر وما خفي من محاسني، فيعرض عنها احتقاراً. فأتَصَبَّاه بكل ما أملك من كلام عذْب يخلُب اللُّب، ولين قوْل وخشوع جامعةً فيهما كل ما يكنّه قلبي من صَبَابة وشوق، مع فُتُور جفْن وانكسار طرف، وطول ترنيق وتحديق، فلا يرفع إليَّ طرْفاً، ولا يميل نحوي عطفاً، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها، أمِثْلَ هذا الملك القاهر يسمى عبداً طائعاً، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة، تأمر؛ بل تشير فتطاع، وينكر عليها أن تراود فتردّ، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز؟ لقد انكشف القناع فلا أمر لِمَن لاَّ يطاع(٣) ولم ينطق النسوة بشيء، علامة واضحة على اقتناعهن بعذر المرأة البالغ أمام هذا الجمال اليوسفي العاصف.

لقد كان كيد المرأة أبلغ من كيد النسوة، إذا انتهى كيدها إلى وقوعهن فيما لُمْنَها من الافتتان بفتاها، كما جعلتهن يقمن بدليل حسّيّ لا يمكنهن نسيانه، إذ قطعن أيديهن بدلا من تقطيع ما قُدّم إليهن من طعام، وذلك لفرط دهشتهن التي غيّبتهن عن شعورهن، لقد بلغ مكرها الذروة بما فعلته بهن مما أسقط لومهن لها، بل جعلتهن بتوجيه اللوم إليهن أولى(٣) إنها لم تنتصر على النسوة لأنهن قطعن أيديهن فحسب؛ بل ثأرت لنفسها أيضا لأنها تركتهن يتلقّين جميعا نفس الصفعة التي تلقتها من يوسف حينما أغرته وعرضت نفسها عليه فاستعصم وجرح كبرياءها كامرأة، ...

---

(١) تصوير لحالها الواقع.

(٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٩٥.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٩٦-٩٧ (هامش).



ثم لما أظهرت عذر نفسها عندهن وتم لها إقامة الحجة عليهن بما شاهدَتْه مما وقعْن فيه عند ظهوره لهن، ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فأقَرّت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة[1] وكشفت عن حقيقة حالها فقالت:

«**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**»[2] أي والله لقد راودته حَسْبَمَا قلتنّ وسمعتنّ (فاستعصم)[3] أي طلب العصمة وتمسك بها وعصاني[4] واستعصم: مبالغة في عصم نفسه، فالسين والتاء للمبالغة مثل، اسْتَمْسك، واستجْمع الرأي، واستجاب، والاعتصام، بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفّظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، واستعصم أكبر كلمة تقال للتّنْزيه، أي: امتنع من الاستجابة والتجأ إلى الله تعالى ليحفظه من هذا المكر، وفيه برهان نيِّرٌ على أنه لم يصْدر عنه - عليه السلام - شيء مخلٌّ باستعصامه بقوله «مَعَاذَ اللّه» من الهم وغيره[5] فإن المرأة لم تعترِف بمراودتها ليوسف - عليه السلام - عن نفسه فقط، بل وباعتصامه منها ومُبَالَغَته في الاعتصام، وهذا أول اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف - عليه السلام - وطهره وكمال عفّته.

● **الحكمة في مجئ القسم في قولها: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»**

اللام في (ولقد) جواب لقسم محذوف تقديره، والله لقد راودته عن نفسه، ولم يكن هنا حاجة للقسم، لأن الخبر إنما يؤكّد بالقسم أوْ غيره إذا أنكر وجود مضمونه المخاطَب، ومراودتها له كانت مسلَّمة عند النسوة كما لا يخفى، ولكن أكدت بالقسم لأن هذا الأمر الذي أخبرت عنه مما ينكر أن يَصْدر منها معه، إذ هي السيدة وهو العبد

---

(١) تفسير فتح القدير / ٣ / ٢٥.
(٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٣٣.
(٣) تفسير الألوسي / ٦ / ٤٣٢.
(٤) تفسير بن عطية / ٩ / ٢٩٤.
(٥) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٨، وتفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٣، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٩١ / والوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٩٥.



المملوك، فكيف تطمع فيه وتراوده، وهذا بعيد جدا وعجيب، ولكن سلطان الجمال يذهب بالعقل والكمال، فيجعل السيدة أمَةً والعبد سيِّداً، ولله دَرُّ من قال:

خذوا بدمي هذا الغزال فإنه
رَمَاني بِسَهْمَيْ مقْلتيْه على عمْدِ
ولا تقتلوه إنني أنا عبده
ولم أر حُرّاً يقتل بالعبد[1]

ويرى الإمام الألوسي أن تأكيد الجملة بالقسم مع أن مضمونها من مراودتها له عن نفسه مما تحدّث به النسوة لإظهار ابتهاجها بذلك[2] ولعل الأول أولى، لأنه لا يتصور ابتهاج المرأة بمراودة لم تنل منها إلا التحقير والإذلال، والله أعلم.

نظر الله تعالى إلى يوسف ونظر يوسف إلى ربه تعالى:

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: ها هنا أقول: والله ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم، وأن قالت له: «هَيْتَ لَكَ» فقال: «مَعَاذَ اللّه» فكم قال هذا من ليس له مَقَامُه في معرفته باللّه ومراقبته له، وقد روي أن رجلا راود أعرابية في ليلة ليلاء وقال: لا يرانا غير كواكب هذه السماء، فقالت: وأيْنَ مكوكبها؟

وإنما عجبي بل إعجابي بيوسف - عليه السلام - أن نظره إلى الله أو نظر الله إليه لم يدَعْ في قلبه البَشَرِيّ مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حبّاً[3].

امرأة العزيز تزداد وقاحة وفجوراً وعُتُوّاً:

«وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ» لم تقف امرأة العزيز عند حد اعترافها للنسوة بمراودتها ليوسف - عليه السلام - من قبل، بل زادت الطين بلّة فصرحت كذلك باستمرارها في مراودته، وهددته بالسّجن والصَّغَار إن لم يفعل ما تأمره به.

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٩١.
(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٢٣.
(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٩٥.



والضمير في (ما آمره) عائد على الموصول، أي: ما آمر به، فحذف الجار كما حذف في (أمرتك الخير) ومفعول آمر الأول محذوف، وكأن التقدير: ما آمره به، وإن جعلت (ما) مصدرية جاز، فيعود الضمير على يوسف، أي: أمري إياه، ومعناه موجب أمري[1] وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها، (ليسجنَنّ) بالنون المثقلة، آثرت بناء الفعل للمفعول جرْيا على رسم الملوك أو إيهاما لسرعة ترتّب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل، «وليكوناً» بالمخفَّفة «من الصاغرين» أي الأذلاء المهانين في السجن، وهو من صَغَر كفرِح، ومصدر صَغَر بفتحتين، وَصُغْراً بضم فسكون، وَصَغَار بالفتح، وهذا في القَدْر، وأما في الجثة والجُرْم، فالفعل صَغُر ككَرُم، ومصدره صَغِرَ كعِنَب، وجعل بعضهم الصغار مصدراً لهذا أيضا، وكذا الصغر بالتحريك، والمشهور الأول. وقد ذكر الخليل أحمد أن التوكيد بالثّقيلة أشدّ من التوكيد بالخفيفة، يدل له قوله: «ليسْجنَنَّ وليكونَن» فإن امرأة العزيز كانت أشدّ حرصا على سَجْنه من كيْنُونَته صاغراً، وقد قرئ الفعلان (ليسجنن وليكونن» بالتثقيل، ولكن القراءة المشهورة أولى، لأن النون كُتبَت في المصحف ألِفاً على حكم الوقف، واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم، وجوابه سادّ مسادّ الجوابيْن[2].

ولم يُذكر هنا العذاب الأليم الذي ذكرته في قولها السابق «مَا جَزَاء من أرَادَ بأهلكَ سوءاً» لأنها إذ ذاك كانت في طراوة غيْظها، ومتنصّلة من أنها هي التي راودته، فناسب هناك التغليظ بالعقوبة، وأما هنا؛ فإنها في طَمَاعية ورجاء[3] هناك عيَّنت نوعين من العذاب، «أن يَسجن أو عَذَابٌ أليم» لأن العذاب المترتب على السجن إنما كان من الجائز أن يصح على يوسف، لأنها آنذاك تعتقد أن التهمة لاصقة بيوسف لا محالة، أما الآن

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٥.

(٢) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٢٤، وتفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٣، وإعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٩٠.

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٦.



وقد ثبتت براءته أمام زوجها والشاهد من قبل، وأمام جماعة النّسوة الآن، فإنها تعيّن نوعين من العقاب مصدرهما الكبْرياء المجروح، والعزَّة الآثمة، إن الصّغار والذلّ مترتّبان على السجن(١).

لقد أرادت المرأة أن يعتبر يوسف هذه الرغبة أمراً صادراً يجب عليه أن يرضخ وأن يستجيب له، وإلا تعرَّض هذه المرَّة إلى أسْوَا معاملة من سجن وإهانة، وفي قولها هذا «وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ... الخ».

تصريح تلو تصريح، ودليل يتلوه دليل على براءته - عليه السلام - من إرادته شيء من السوء، وأن الإلحاح والطلب إنما كان من جانبها دون أية استجابة مشجّعة لها... ومن تأمَّلَ هذا أدرك تماما أن «الهم» منها و«الهم» منه - عليه السلام - لم يكن إلا بقصد البطش والانتقام من جانبها، والضرب والتأديب من جانبه، كما يتبيّن من ذلك أنَّ القرآن العظيم يفسر بعضُه بعضاً، وهذا من أسرار الإعجاز، فيسقط بذلك قول من قال: إن همها كان بقصد الطلب والرغبة، بدليل أنها هنا قد صرَّحت بأنه إذا لم يرْضخ لها ليسجنَّ وليهانَنّ حتى يكون من الأذلّين بعد أن كان عزيزاً مكرما، ولتمْحُو من نفسه أي أمل في أنها قد ترجع عما سولته لها نفسها خشية الفضيحة، ولتحكُمَ حوْله الحبْل، ولتسدَّ أمامه أبواب التخلص منها حتى ييأس فلا يجد أمامه مَناصاً من إجابتها؛ صرَّحتْ بما صرَّحت به أمام النّسوة عَلَناً وهنَّ شاهدَات عليها، ليعلم أنها لا تخشى فيه أحداً، ولن تخْفى أمرها خِيفَة الاتّهام(٢).

يا لله! إن هذا الموقف يهدّ الجبال الراسيات، وتدبير لا قِبَل لأشدّ العزائم على احتماله، فامرأة ماكرة هتكت سترها، وكاشفت نسوة بلدها بما تسِرّ وما تُعْلن من أمرها، ونسوة تواطأن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه،

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٩٦.

(٢) انظر: يوسف بن يعقوب / ٩٩.



ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء وإبعاد تلك الَّلأْوَاء إلا بمعونة من ربه، وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن، ومن ثم جرى على لسانه مايأتي في الآية التالية:

مضمون الآية الكريمة:

لما ظهر للنسوة عذر امرأة العزيز وتم لها إقامة الحجة عليهن، قالت: فذلكن الذي لمتنني في حبه، وعيرتنني في الافتتان به، إن له من رفعة المنزلة ما رأيتن، وله من البهاء والجمال والجلال ما شاهدتن، وهو مع قربه بعيد المنال لا يدرك منه شيء جال في أذهانكن، ولقد رأيتنه فبدا منكن ما يجعلكن باللوم أحق، إذ لحقكن من نظرة واحدة أعظم مما نالني منه مع طول مكثه عندي.

وإني أقر بأنني راودته عن نفسه فاستعصم، ثم إن امرأة العزيز كشفت برقع الحياء عن آخره وأباحت بباقي سرها نحو يوسف أمام النسوة فأعلنت إصرارها على إخضاع يوسف - عليه السلام - ليفعل ما تريد، وهددته وأنذرته بالسجن والصغار إن لم يفعل ولكن هيهات هيهات يا زوجة العزيز - إن ما تطلبينه بعيد عنك كل البعد، ومحال أن تناليه مهما هددت وأنذرت وتسفلت، فإن يوسف الكريم بن الكرماء في عصمة ربه ومولاه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - نجاح امرأة العزيز في كيدها للنسوة وإقامة الحجة عليهن ورفع الملامة عنها.

٢ - لأول مرة تعترف امرأة العزيز بأنها هي التي راودت يوسف - عليه السلام - وأنه كان دائماً معتصماً بربه عز وجل لم يحدث منه أي سوء لا من قريب ولا من بعيد.

٣ - إن نظر يوسف إلى ربه ومولاه العلي الأعلى، أو نظر الله تعالى إليه لم يدع في قلبه البشري مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حباً.

٤ - وقاحة امرأة العزيز وفجورها وعتوها، واستمرارها في غيها وتهديدها يوسف - عليه السلام - بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به.



٥ - من كان في عصمة الله تعالى لم ينله أحد بسوء، ولن تنال امرأة العزيز مناها من يوسف أبداً، فإن من كان غارقاً في أسافل الطين لا يمكن أن يبلغ سماءً في أعلى عليين.

رفع
المسيهما

«الآية الثالثة والثلاثون»

أولاً - النص الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾

ثانياً - القراءات:

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ» قرأها يعقوب وحده بفتح السّين (السَّجْن)، والوجه أنه مصدر سَجَنَه سَجْناً، أي سجْنهم إياي أحب إلى مما يدعونني إليه من المعصية، وقرأ الباقون (السِّجن) بكسر السين، واتفقوا على كسر السِّين في قوله: «وَدَخَلَ مَعه السّجن فتيان» والوجه في قراءة الباقين أن السِّجْن بالكسر هو الموضع الذي يُحْبَسُ فيه المسجون، والمعنى؛ دخول السِّجن أحب إلى مما يدعونني إليه(١).

«أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» قرأ العامة بتخفيف الباء، صَبَا يصبُو أي: رقَّ شوقه، وقرأت فرقة (أصَبُّ) بتشديدها، من صَبَبْتُ صبابة فأنا صَبٌّ(٢).

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» الصّبْوة: الميل إلى الهوى، ومنه «الصَّبَا» لأن النفوس تصبو إليها، أي: تميل لطيب نسيمها ورَوْحها، يقال: صَبَا يصبو صَبَاءً وَصُبُوّاً وَصَبَى يُصْبَى صَباً، والصِّبَا بالكسر اللهو واللعب، وقرأت فرقة (أصَبُّ) من صَبَبْتُ صَبَابة فأنا صَبٌّ، والصَّبَابة: رِقَّةُ الشَّوْقِ وإفراطه، كأنه لفرْط حبه ينصَبُّ فيما يهواه كما ينصَبُّ الماء(٣).

قوله تعالى: «وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ»

---

(١) الموضح في القراءات / ٢ / ٦٧٩، وانظر: المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة / ٢ / ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) الدر المصون / ٦ / ٤٩٣-٤٩٤.

(٣) الدر المصون / ٦ / ٤٩٣-٤٩٤.



جهل: الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خُلُوُّ النفس من العلم، هذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يُفْعَل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة مُتَعَمِّداً، وعلى ذلك قوله تعالى: «قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّه أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»(١) فجعل فعل الهُزُوِ جهلا، والجاهل تارة يذكر على سبيل الذَّمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذم نحو قوله تعالى: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ»(٢) أي من لا يعرف حالهم وليس يعني المتخصِّص بالجهل المذموم(٣)، والمراد بالجاهل هنا: من يرتكب الإثم ويستحقُّ الذمّ، أو ممَّن يعمل عمل الجهالة(٤)

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وهو ما كان جوابا لمقَدَّر، فقد قالت له النسوة بعد أن أسمعن تقرير زليخا: أطعْ مولاتك؟ قال رب السجن الخ، و(رب) مضاف محذوف منه حرف النداء، و(السجن) مبتدأ، و(أحب) خبر و(إِلَيَّ) للتَّبْيين، وهي المبيِّنَةُ لفاعل مجرورها بعد ما يفيد حُبّاً أو بُغْضاً من فعل تعجّب أو اسم تفضيل، وهما متعلقان بـ(أحب) وجملة (يدعونني) صلة، وهو فعل مضارع مبني على سكون الواو، والنون الأولى نون النسوة، والثانية نون الوقاية، فالواو ليست ضميراً، بل هي لام الكلمة وليس هو من الأفعال الخمسة التي ترفع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها، وأضاف العمل إليهن لأنهن جميعا دعونه إلى أنفسهن، وقيل: لأنهن لما قلن له: ألا تطيع مولاتك صح إضافة الدعاء إليهن جميعا، و(إليه) متعلقان بـ(يدعونني).

---

(١) البقرة/٦٧. (٢) البقرة/٢٧٣.

(٣) المفردات (كتاب الجيم) /١٠٢.

(٤) انظر تفسير القرطبي/٩/١٨٥.



«وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ» (الواو) عاطفة، و(إن) شرطية، و(لا نافية) و(تصْرِف) فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره أنت، و(عني) متعلقان بـ(تصرف)، و(كيدهن) مفعول به، و(أصب) جواب الشرط، والفاعل مستتر تقديره أنا و(إليهن) جار ومجرور متعلقان بـ(أصْبُ)، و(أكن) عطف على (أصب) واسم أكن مُسْتَتِر تقديره أنا، و(من الجاهلين) خبر (أكن)[1].

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٨٣.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

« الفرار إلى الله تعالى واللجوء التام إليه سبحانه »

قال الله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وجه المناسبة:

هذا القول استئناف بياني، كأن سائلا يقول: فماذا صنع يوسف - حينئذ؟ فقيل: «قال» مناجيا ربه عز وجل:

«**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**»[١]، وذلك لأن ما حكي قبله مقام شدّة من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف - عليه السلام - فيه لكلام امرأة العزيز[٢]، وهذا الخبر من الله تعالى يدل على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف - عليه السلام - في المراودة عن نفسه، وتوعّدته بالسّجن والحبس والصغار إن لم يفعل ما دعته إليه، فاختار السَّجن على ما دعته إليه من ذلك[٣]، إنه - عليه السلام - لما اشتد عليه الكرْب وهددته المرأة اتجه إلى ربه تعالى ليفرج كربه، فهذا الكلام مناجاة منه لربه الذي هو شاهدُهم، ومعنى هذه الدعوة «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» أي قال: بربي، الغالب على أمري، العالم بسرِّي وجهري، إنّ الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين، حيث شظف العيش، أحب إلى نفسي وآثر عندي على ما يدعونني إليه هؤلاء النسوة، من الاستمتاع بهن في ترف القصور وزينتها، والاشتغال بحبّهن عن حبّك، وبقربهن عن قربك، وبمغازلتهنّ عن مناجاتك[٤].

والظاهر أنه - عليه السلام - قال هذا القول في نفسه، ويحتمل أنه جهر به

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٤٢٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٦٥.

(٣) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢١٠-٢١١.

(٤) تفسير المنار / ١٢ / ٢٩٧.



في مَلَئِهِنّ تأييساً لهن من أن يفعل ما تأمره به، فالسجن يقطع عليهن حبال الرّجاء التي يتعلّقن بها لتوصّلُهن إلى ما يردْن فيَيْأسْن من نيل مرادهن، وقرأ الجمهور «السِّجْن» بكسر السين، وقرأهُ يعقوب وحده بفتح السِّين على معنى المصدر، أي أنَّ السَّجْنَ أحبّ إليّ[1] وهو في القراءتَيْن مبتدأ خبره ما بعده، وقرى «رَبُّ»، بالضَّم، و«السِّجْنُ» بكسر السين والجرّ على الإضافة، فـ«رَبُّ» حينئذ مبتدأ، والخبر هو الخبر، والمعنى على ما قيل: لقاء صاحب السجن، أو مقاساةُ أمره «أحبّ إليّ»[2].

صيغة التفضيل «أحب»: فعْل (أحب) جاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، اثنان في سورة يوسف، في الآية (٨) «لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا» وهذه الآية، والموضع الثالث في سورة التوبة آية (٤٢) «قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» و(أحب) بناء أفْعَل في التَّفْضيل، يكون للمشتركين في شيء ولأحدهما المزيد في المشتَرك فيه على الآخر، ولم يكن المدعو إليه (السجن) حبيبا إلى يوسف - عليه السلام -[3] فأحبّ هنا ليست على بابها من التّفْضيل لأنه لم يحبّ ما يدعونه إليه قطّ، وإنما هذان شرَّان، فآثر أحَدَ الشَّرَّيْن على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقَّة، وفي الآخر لذة، لكن لما يترتَّبُ على تلك اللذة من معصية الله تعالى سوء العاقبة لم يخْطر له ببال، ولما في الآخر من احتمال المشقة في ذات الله تعالى، والصبر على النوائب، وانتظار الفرج، والحضور مع الله تعالى في كل وقْت داعيا له في تخْليصه آثَرَه[4] فهذا هو المتبادر إلى الفهم من جعل اسم التفضيل هنا على غير بابه، فليس المراد أن ما يدعونني إليه محبوب عندي، والسَّجْنُ أحب إليّ منه،

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٥.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٢٥.

(٣) أحكام القرآن الكريم (ابن العربي)/ ٣/ ٥١-٥٢.

(٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٦.



وإنما معناه أن هذين الأمرين إذا تعارضا وكان لابد من أحدهما، فالسجن آثَرُ وأولى بالترجيح، لأنه ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهنّ فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن[1] وعلينا أن نلحظ أن تفْضيل يوسف - عليه السلام - للسجن على ما يدعوه إليه النسوة، إنما تم في ضَوْء تخْيير امرأة العزيز له بين الأمريْن المُرَّيْن، وإلا فقد كان - عليه السلام - يؤثر السلامة والعافية على هذين الأمريْن معا، فليس هناك مجال للترجيح أو المفاضلة، ولكن هناك الرفض التام لأحد الأمريْن، وبالتالي فهناك القبول التّام بالضرورة لثاني الأمرين، بل هناك الرضا، بل هناك الحب، «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»[2].

وجاء بأفعل التفضيل تأدبا مع الله تعالى فلم يجزم بطلب السجن كوسيلة وحيدة لصرف كيدهن عنه - عليه السلام - ولو فعل ذلك لوُكل إلى ما اتَّكل عليه، وفي هذه الحالة كان لا بد من وصول كيدهن إليه لاتّكاله في النجاة من مكرهن على هذه الوسيلة، والأنبياء - عليهم السلام - لا يتكلون في كل شئونهم إلا على الله تعالى.

وفي تصريحه - عليه السلام - بأن السجن أحب إليه مما يدعونه، إعلان بعدم الاكتراث بتهديد امرأة العزيز وغيرها إن لم يَرْضَخْ لهنّ وإعلانٌ أيضا بإعراضه - عليه السلام - الكامل عن الدنيا وَزُخْرفها وقد عرضت عليه كاملة غير منقوصة دون أن يكلفه ذلك شيئاً، فهو لا يلتفت إلى ما سوى الله تعالى ومرضاته والإنابة إليه[3].

لماذا طلب يوسف - عليه السلام - السجن ولم يطلب النجاة العامة؟:

إن قلت: يوسف - عليه السلام - مجاب الدعوة؛ فلم طلب السجن ولم يطلب النجاة العامة؟ قلنا: إن يوسف - عليه السلام - اعتقد حسب الظاهر أنه لا ثالث

---

(١) تفسير المنار/ ١٢ / ٢٩٧.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٨٤-٣٨٥.

(٣) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٢٠٢-٢٠٣.



لهذين الأمرين، إمَّا استجابة للمحظور أو الدخول في السجن، أو رآى ذلك بنور البصيرة وأطلعه الله تعالى عليه، فكأنه قيل له في الغَيْب، أيهما تحبُّ؟ المحظور أو السجن؟ فاختار السجن على الوقوع في المحظور، أو تقول: قد ورد في الحديث القدسي: «... ولا يزال - العبد - يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها... الخ»(١) والمعنى أنه لا تنطق جارحة من جوارحه إلا بقدر ما نحبُّ ونختار، فلم ينطق لسان يوسف - عليه السلام - إلا بما اختاره الله تعالى له من السجن، وذلك لحكم يعلمها مسبب الأسباب ورب الأرباب، لا نستطيع أن نعبّر عنها أو نفهمها إلا أن نقول: إنه امتحان(٢).

لماذا أسند الفعل (يدعونني - إلى ضمير جمع النساء مع أن التي دعته امرأة واحدة؟

أسند الفعل (يدعونني) إلى ضمير جمع النساء؛ مع أن الداعية واحدة؛ إما لأنهن خَوَّفْنَه عَنْ مخالفتها وزيَّنَّ له مطاوعتها، فقد روي أنهنّ قلْن له، أطع مولاتك واقض حاجتها لتأمَن من عقُوبتها، فإنها المظلومة وأنت الظالم، وإمّا لأن كلا منهن طلبت الخلوة لنصيحته فلما خلت به دعته إلى نفسها، وعن علي بن الحسن - رضي الله عنهما - أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سرّاً تسأله الزيارة، فإسناد ذلك إليهن لأنهن أيضا دَعَوْنَه إلى أنفُسهنّ بالتصريح أو الإشارة(٣) والدلائل تدل على أنّ الأمرين السابقيْن قد حدثا(٤).

وقيل: كان الدعاء من امرأة العزيز خاصة، ولكنه أضافه إليهن خروجا من التصريح إلى التعريض، وقيل: إنه عني امرأة العزيز والنسوة اللاتي لهن مثل كيدها، وقيل: لأن تلك الدعوة من رغبات النساء فيكون على وزان جمع الضمير في «كيدهن»(٥)... ثم

---

(١) رواه البخاري/ ١١/ ٢٩٢.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٩٣.

(٣) روح المعاني/ ٦/ ٤٢٥.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٢٠٢.

(٥) انظر: تفسير زاد المسير/ ٤/ ٢٢١، وروح المعاني/ ٦/ ٤٢٥، وفتح القدير/ ٣/ ٢٥.

رفع المسيّهما

نَاطَ العصمة بالله تعالى، واستسلم لله، كعادة الأنبياء والصالحين، وأنه تعالى لا يصرف السوء إلا هو فقال(١):

«وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ» وهذا فزع منه - عليه السلام - إلى ألطاف الله تعالى، جرْيا على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور على جناب الله عز وجل، وسلب القوى والقدرة عن أنفسهم، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن، بإظهار ألا طاقة له بالمدافعة، كقول المستغيث: (أدركني وإلا هلكت) لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعيه تدعوه إلى هواهن(٢) إنها دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يغتر بعصمته، فيريد مزيدا من عناية الله تعالى وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من كيد وفتنة وإغراء(٣) فهو يحاربهن بالله تعالى لا بتدبيره الشخصي(٤).

وقوله «وإلا تصرف» أي أنت يا رب الآن وفيما يستقبل من الزمان، مجاوزاً «عني كيدهنّ» أي ما قد التبس من مكرهن وتدبيرهن الذي يردْن به الخبث احتيالا على الوصول إلى قصدهن خديعة وغروراً(٥) «أصب إليهن» أي أمِلْ على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية إلى إجابتهن بمواتاتها أو إلى أنفسهن، وهو كناية عن مواتاتها، وهذه الكلمة «أصْبُ» مشعرة بالميل فقط لا بمباشرة المعصية(٦) قال الشاعر(٧):

إلى هند صبا قلبي *** وهند مثلها يصبي

«وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ» أي الغريقين في الجهل الذين يرتكبون الإثم ويستحقون الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال، ودل هذا على أن حدا لا يمتنع عن معصية اللّه إلا بعون الله؛

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٦. (٢) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٤.

(٣) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٨٥. (٤) يوسف بن يعقوب/ ٢٠٤.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٣٦.

(٦) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٦، وروح المعاني/ ٦/ ٤٢٥.

(٧) الشاعر هو يزيد بن ضبة الثقفي، وضبة: أمّه، شاعر كبير من أهل الطائف، مات أبوه وخلفه صغيرا فحضنته أمه فنُسب إليها (الأعلام ٨).



ودل أيضا على قبح الجهل وذم صاحبه[1] وإن من أشد الناس جهلا من آثر لذة قليلة منَغَّصَة على لذَّاتٍ متتابعات وشهوات متنوعات في جنات، ومن آثر هذا على هذا فمن أجهل منه؟ فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذّتيْن، ويؤثر ما كان محمود العاقبة على ما كان سيء العاقبة في الأولى والآخرة[2].

فالجهل هنا ليس هو ما يقابل العلم، بل هو السّفه والعدول عن الصواب، والعجز عن تقدير العواقب، والغفلة عن مواطن الخير، والوقوع في مهاوي الشر والرذيلة، ومن ذلك قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا ** فنجهل فوق جهل الجاهلينا[3]

وهذا القول منه - عليه السلام - «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ... الخ»

إعلام صريح بأنه مَاصَبَا إليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بيَّنَ مقْتَضى الاستهداف لكيد هؤلاء النسوة وسأل ربه تعالى أن يديم له ما عَوَّدَه عليه في قوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ»[4].

وأنه - عليه السلام - قد اختار عَنْ رِضاً وحُبٍّ السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي، ودعا الله تعالى مستعينا به أن يثبته على الطهر والعفة والنقاء.

وأنه - عليه السلام - خاف الله من الذنوب ولم يَخْف من أذى الخلق وحبسهم إذا أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعِزّ وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة[5].

وأنه - عليه السلام - بموقفه هذا قد ضرب لشَباب المسلمين لله رب العالمين مثلا جديداً في التضحية إرضاء لله تعالى وفراراً بدينه أن يمسّه أدنى سوء.

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٨٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٤٢٦.

(٤) انظر تفسير المنار/ ١٢/ ٢٩٩.



وكان اختيار السجن هو الحل الوحيد أمام يوسف - عليه السلام -:

لقد كان السجن هو الحل الوحيد أمامه - عليه السلام - لصرف الأسباب الحائلة دون تبليغ الدعوة ممثلة في كيد النسوة ومكرهن، للاعتبارات الآتية:

١ - إن المشاكل النسائية أصبحت تتفاقم وتتعدد محاورها وتلاحقه - عليه السلام - في كل عمل يؤديه، ولما كانت هذه الأمور لا يمكن الاحتراز أو التخلص منها، ومن المحال ضبطها، ولما كانت تصرفاتهن مثيرة لسخط الرجال لما فيها من المساس بكرامتهم، فإنهن ولا شك سيورِّطنه - عليه السلام - في عداء مستحكم مع رجال البلاط وكبار رجال الدولة.

٢ - إن النسوة من طبيعتهن - إن لم يستجب لهن - يتّجهن إلى تلفيق اتهامات قد تمس العرض ويكدْن له - عليه السلام - ما شئن من الكيد انتقاما منه غير عابئات بالنتائج كما هي عادتهن، ولما كنّ من الطبقة الاجتماعية الممتازة، كان لديهن من الفراغ ما يتسع لحبْك هذه المؤامرات وتدبير تلك الدسائس.

٣ - إن وقته - عليه السلام - سيبدد وجهده سيضيع لا في الدعوة إلى الله تعالى بل للتخلص من مؤامرتهن التي تستدعي كل مؤامرة منها إلى إثبات البراءة منها.

٤ - إن تصرفاتهن المتحرفة ستكون سببا في إثارة الخلاف والخصام في الأسر والعائلات، ولا يحسمها سوى السجن، لتعذر وصولهن إليه وتعقبهن له - عليه السلام - وبذلك تبطل مكائدهن التي لا تنتهي[١].

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٢٠٠.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما واجه يوسف - عليه السلام - تلك المحنة المتصاعدة من المرأة والنسوة، واشتد عليه الكرب وهددته المرأة، اتجه إلى ربه تعالى ليفرج عنه كربه وينقذه من مكرهن وكيدهن، وناجاه بقوله: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» أي قال: بربي، الغالب على أمري العالم بسري وجهري، إن السجن وما فيه من ظلم وظلمات وأهوال وشدائد أحب إلى نفسي وآثر عندي على ما يدعونني إليه، لأن ما في السجن من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، إنه - عليه السلام - لم يكترث ولم يعبأ بتهديد المرأة وغيرها إن لم يرضخ لهن، وأعلن عن إعراضه التام عن كل شهوات الدنيا وزينتها المحرمة، واستعذب العذاب والحبس في سبيل مرضات الله تعالى، فهو - عليه السلام - دائما لا يلتفت إلى ما سوى الله تعالى والإنابة إليه في كل حال وعلى أي حال، ثم ناط - عليه السلام - العصمة بالله تعالى، فهو وحده القادر على صرف السوء عنه، فقال: «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ»

أي: إن لم تُحوّل عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، ويمددنه من شباك الصيد لم أسلم من الصبوة إليهن والميل إليهن، وأكن من الجاهلين الذين يرتكبون الذنوب والآثام ويستحقون العذاب.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الصالحون دائموا اللجوء والإنابة إلى الله تعالى خاصة وقت الكروب والشدائد.

٢ - إن من احتمل الأذى والهوان في سبيل مرضات الله تعالى كان له العافية في الدنيا والآخرة.

٣ - إن السجن إذا وفر دواعي مرضات الله تعالى كان أفضل من كل متع الدنيا وزينتها التي لا توفرها.



٤ - لا يمنع أحد من معصية الله تعالى إلا بِعَوْنه جل شأنه.

٥ - لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور.

٦ - الجهل قبيح في كل صوره وأشكاله وصاحبه مستحق دائماً للذم.

٧ - الجاهل هو الذي لا ينظر إلى عواقب الأمور فيقع في المحظور ويهلك.

٨ - ضرب يوسف - عليه السلام - بصبره وعفته وسموه وطهارته أروع مثل للإنسانية، وعلى الشباب المسلم التأسي به.

٩ - ما أكرم على الله تعالى من إنسان صالح يحافظ على طهارة الأعراض ويبذل كل ما في وسعه من أجل ذلك حين يفرط فيها أهلها.

١٠ - إذا لم يكن اتصال الرجل بالمرأة عن طريق الزواج الحلال، فإن البشرية حتماً تنحط وتتسفل إلى دَرْك أحطّ من الحيوان.

رفع المسا هم

«الآية الرابعة والثلاثون»

أولاً - النص الكريم:

قال الله تعالى : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (٣٤)

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» (الفاء) عاطفة، و(استجاب) فعل ماض، و(له) متعلقان به، و(ربّه) فاعل، و(فصرف) عطف على (فاستجاب)، و(عنه) متعلقان بـ(صرف) و(كيدهن) مفعول به.

«إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» إنّ واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ ثان، و(السميع العليم) خبران لإنَّ، أو لـ(هو) والجملة خبر إنَّ[١].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٩٢.

رفع المسيهم

سادساً - التفسير والبيان:

«... واستجاب الله دعاءه»

قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾

وجه المناسبة:

لما تَضَرَّع يوسف - عليه السلام - إلى ربه، وسأله أن يصرف عنه كيد النسوة، أخبر تعالى أنه أجاب دعاءه، فقال:

«فاستجاب له ربه... الخ» وعطف جملة (فاستجاب) بفاء التعقيب إشارة إلى الله تعالى عجّل إجابة دعائه الذي تضمنه قوله: «وإلا تصرف عني كيدهن» و«استجاب» مبالغة في أجاب[1]، ولا ينافي التعقيب أن الصرف تأخر زمانا عن الدعاء، لأن تعقيب كل شيء يكون حسب ما يليق به من الزمان، وألا يتأخر عن الزمان اللازم له، قال تعالى: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى»[2] فإخراج المرْعى لا يعقبه غثاء فوْراً، فمعناه، لم يتعدّ جعله غثاء عن الزمان المقرر له، وإنما قلنا إن الصرف تأخَّرَ عن الدعاء زمانا، لأن الصرف كان بسجنه، وقد قال تعالى بعد هذه الآية: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» وثم يفيد التراخي[3] ويمكن أن يقال هنا: إن الله تعالى صرف عنه - عليه السلام - كيد النسوة بمجرد تضرعه ودعائه إلى ربه، حتى قبل أن يسجن، فلم يصبه من كيدهن شيء، والله أعلم.

أين دعاء يوسف - عليه السلام؟

إن قال قائل: وما وجه قوله: «فاستجاب له ربه» ولا مسألة تقدّمت من يوسف لربه، ولا دعا بصرف كيدهن عنه، وإنّما أخبر ربه - وهو العليم بحاله - أن السجن أحبّ إليه من معصيته؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٧. (٢) الأعلى/ ٤-٥.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٩٥.



قيل: إن في إخْباره بذلك شكاية منه إلى ربه تعالى مِمّا لَقِيَ منهن، وفي قوله «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» معنى دعاء ومسألة منه ربه صرف كيدهن، فكأنه قال: رب اصرف عني كيدهن، ولذلك قال الله تعالى ذكره: «فاستجاب له ربه»[1] وفي إسناد الاستجابة إلى الربّ مضافا إلى ضميره - عليه السلام - ما لا يخفى من إظهار اللطف، وزاد حسن موقع ذلك افتتاح كلامه - عليه السلام - بندائه تعالى بعنوان الربوبية، «فاستجاب له ربه» أي: أجاب له على أبلغ وجه دعاءه الذي تضمنه قوله: «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ».

«فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» حسب دعائه بأنه ثبّته على العصمة والعفّة وحال بينه وبين المعصية[2] فَلَمْ يَصْبُ إليهن فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفّها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهنّ[3].

«إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» دعاء يوسف - عليه السلام - حين دعاه بصرف كيد النسوة عنه، ودعاء كل داع من خلقه.

«العليم» بمطلبه وحاجته، وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم[4] فيجيب ما صحّ فيه القصد وطاب منه العزم[5] وهكذا تجلى الحق بلطفه ورحمته على عبده يوسف - عليه السلام - فصرف عنه ما يدبّرُ له من قِبل النسْوة من الكيد لإخضاعه لهن، كما صرف عنه جل شأنه قبل ذلك السوء والفحشاء في قوله تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

---

(١) انظر: تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢١١-٢١٢، وتفسير البحر / ٥ / ٣٠٦.
(٢) انظر: روح المعاني / ٦ / ٣٢٧.
(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٣٠٠.
(٤) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢١٢.
(٥) نظم الدرر / ٤ / ٣٦.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما شكا يوسف - عليه السلام - إلى ربه تعالى كيد النسوة، وتضرع إليه جل شأنه أن يصرف عنه كيدهن، أخبر تعالى أنه استجاب دعاءه الذي دل عليه هذا الابتهال والالتجاء، فصرف عنه كيدهن فلم يصب إليهن، ولم يحتج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه ربه أن يكون من الجاهلين الذي يرتكبون الآثام، «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» إنه هو السميع المجيب لمن أخلص له الدعاء، جامعاً بين مقامي الخوف والرجاء (العليم) بصدق إيمانهم وما يصلح من أحوالهم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الله تعالى سميع قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه، قال تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» وقال عز ذكره: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

٢ - في إجابة الدعاء لطف من الله تعالى ورحمة ومِنَّة منه جل شأنه لمن دعاه.

٣ - الدعاء هو العبادة، وهو صفة ملازمة لأنبياء الله تعالى ورسله وعباده الصالحين، وقد أفاض القرآن الكريم والسنة المباركة عن مكانة الدعاء عند الله تعالى وفضله وكرامته.



(صبر يوسف وعفته وتقواه)

لقد كانت عفة يوسف - عليه السلام - مستوفية لكامل شروطها وأركانها، ولذلك كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإنسان، ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي، وفي امرأة العزيز الإثارة بكل قواها، جمال ومنصب وإغراء ودعوة ملتهبة، وخلوة تامة، وتهديد إن لم يستجب، ومع استيفاء كل هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفة في يوسف - عليه السلام - فيضبط نفسه بصبر منقطع النظير، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، ترفعاً عن الخيانة، وطلباً لمرضاة الله، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات(١).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: أخبر الله تعالى عن عشق امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه: (بإيجاز)

(الأول) - ما ركبه الله تعالى في طبع الرجل والمرأة من ميل كل منهما إلى الآخر.

(الثاني) - أن يوسف - عليه السلام - كان شابا وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

(الثالث) - أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سريّة تكسر ثورة الشهوة.

(الرابع) - أنه كان في بلاد غربة يتأتي للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتي له في وطنه وبين معارفه.

(الخامس) - أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

(السادس) - أن المرأة غير ممتنعة ولا أبيّة.

(السابع) - أنها كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

---

(١) الأخلاق الإسلامية / ٢ / ٥٨٢.



(الثامن) - أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

(التاسع) - أنه لا يخشى من الرقباء، فقد غلّقت الأبواب وغيّبت الرقباء.

(العاشر) - أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار ولا ينكر أحد عليها رؤيته معها.

(الحادي عشر) - أنها استعانت عليه بأئمَّة المكر والاحتيال من نسوة المدينة.

(الثاني عشر) - تهديد ها له وتوعده بالسجن والصغار إن لم يُلَبِّ رغبتها.

(الثالث عشر) - أن الزوج لم يفرق بينهما بعد حادثة المراودة والهم والإستباق.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله تعالى على أن اختار السجن على الزنى «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه[١].

ثم يقول ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضي، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة.

وقال الإمام بن الجوزي: قرأت سورة يوسف فتعجبت من مدحه على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر فإذا هي مُخَالَفَةٌ للهوى المكروه، فقلت: واعجبا لو وافق هواه من كان يكون؟ ولما خالفه - أي خالف هواه - صار امرءاً عظيماً تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فياله مِن عز وفخر، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب[٣].

---

(١) الجواب الكافي (ابن القيم) / ٢١٧-٢١٩.

(٢) مدارج السالكين / ٢ / ١٧٩.

(٣) الذنوب وأثرها السيء (البن الجوزي) / ٨٧.



(أصحاب الكهف)

هذا واختيار يوسف - عليه السلام - للسجن ليتحصن به من فتنة النساء وإغوائهن وكيدهن، يذكرنا باختيار أصحاب الكهف لذلك الغار في الجبل، ليبتعدوا فيه عن أهل المدينة وشركهم، وما هم فيه من حياة ضالة آثمة، وليتنعموا فيه بالإيمان الخالص لله الواحد جل وعلا، ولقد قالوا بلسان القرآن العظيم «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمرِكُم مِّرْفَقًا»(١).

يقول الشيخ سيد قطب: وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة فسيحة ممتدة (ينشر لكم ربكم من رحمته) ولفظة (ينشر) تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء...، إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والارتفاق.

إنه الإيمان...، وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن، عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان(٢).

---

(١) الكهف / ١٦.

(٢) تفسير الظلال / ٤ / ٢٢٦٢.



محمد - ﷺ -، وغار حراء واختياره الاحتباس في شعب بني هاشم:

واختيار يوسف للسجن، يذكرنا برسولنا محمد ﷺ، وقد حبب إليه الخلاء قبل البعثة، ليبتعد عن ضلالات مشركي مكة عبدة الأوثان والأصنام، ولينقطع عن الخلق إلى الخالق العلي الأعلى، وكان يخلو بغار حراء، وهو جبل علي مقربة من مكة المكرمة، فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرا، وتارة أكثر إلى شهر، وكانت عبادته على دين إبراهيم - عليه السلام - ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، ونزل عليه قرآن الله العظيم، هدى ورحمة للعالمين، فصار به خاتم الرسل المكرمين.

كما يذكرنا سجن يوسف - عليه السلام - بما لاقاه سيدنا محمد ﷺ - من كفار مكة هو وأهله، مما كان أشد عذاباً ومحنة من السجن الذي زج فيه بيوسف البريء، ونعني بذلك مقاطعة قريش للنبي ﷺ، فقد أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب وَلَدَيْ عبد مناف، وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموهم محمداً ﷺ ليقتلوه. وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب، سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم، ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش، وانْخَذَل عنهم بنو عمهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من أن يبيعوا لهم شيئاً، وظلت المقاطعة اللعينة هذه قرابة ثلاث سنوات حتى نُقِضَتْ برحمة الله تعالى، وخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.

يقول الإمام بن تيمية رحمه الله: واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين، لا يبايعون ولا يشارون، وصبيانهم يتضاغون من الجوع، قد هجرهم وقلاهم قومهم، هذا أكمل من حال يوسف - عليه السلام - فإن هؤلاء - أهل

رفع المسلم

مكة - كانوا يدعون الرسول إلى الشرك وأن يقول على الله غير الحق، وكان كذب هؤلاء على النبي صلى الله وسلم أعظم من الكذب على يوسف، فإنهم قالوا إنه ساحر وإنه كاهن، وإنه مجنون وإنه مفترٍ وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف، لاسيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد، ثم قال: وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس، فإن يوسف حبس وسكت عنه، والنبي وأصحابه رضوان - الله عليهم - كانوا يؤذون بالأقوال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة، وهذا معنى الحبس(١).

كما يذكرنا سجن يوسف - عليه السلام - بسجن النبي (يحي الحصور) - عليه السلام - لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا، وكذلك كان سجن يحي بسبب اعتراضه على (هيرودس) لأنه لم يترك خطية الزنا مع «هيروديا».

---

(١) دقائق التفسير (ابن تيمية) / ٣ / ٢٧٣-٢٧٤.

رفع المسلم

السجن وأهل العلم والحق والتقوى:

كما يذكرنا سجن يوسف - عليه السلام - بالجمع العظيم من عباد الله الصالحين، الذين كانوا يؤثرون السجن والعذاب والتنكيل، على حياة الحرية والترف والنعيم، ابتغاء مرضاة الله تعالى، واستمساكاً بكلمة الحق والثبات عليها، لا يخافون في الله تعالى لومة لائم فمنهم الإمام أبو حنيفة الذي حبس أيام المنصور بأمر عامل بني مروان على العراق (ابن هبيرة) لما امتنع الإمام عن العمل تحت سلطانه، فحبس أبو حنيفة وضرب أياماً متتالية حتى أشرف على الهلاك، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل - فقد امتحن أيام الخليفة المأمون، ثم أيام المعتصم، بمحنة خلق القرآن، وثبت على كلمة الحق ولم يتزحزح قيد أنْمُلَة عن قول الحق بأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم، وليس بمخلوق، وقال قولة يوسف - عليه السلام - «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» وكان يقول - رحمه الله -: (السجن كره، والقيد كره، والضرب كره، والوعيد كره) ومع ذلك فقد كان كل هذا الكره هيناً عنده مادام في سبيل الله تعالى وعقيدته الصحيحة التي ورثها عن السلف الصالح - رضي الله عنهم أجمعين - وقد مكث - رحمه الله - في السجن نيفاً وثلاثين شهراً[1].

وسجن شيخ الإسلام ابن تيمية - في سبيل مرضات الله تعالى والدعوة إلى الحق والاستمساك به، وكان يقول - رحمه الله - ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وقال - رحمه الله -: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه[2]. وكذلك يذكرنا السجن بحبس شيخنا (الشيخ عليش) وشيخنا الشيخ (حسن العدوي) في الحادثة العرابية وإلخ..[3].

---

(١) انظر: الإمام أحمد ابن حنبل إمام أهل السنة / ١٧٣-١٧٤.

(٢) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب / ٩٤.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ١ / ٦٨٤.



«الآية الخامسة والثلاثون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

ثانياً - القراءات:

قوله: «لَيَسْجُنُنَّهُ» قراءة الجمهور، وقرأ الحسن «لَتَسْجُنُنَّهُ» بتاء الخطاب، وفيه تأويلان:

(أحدهما): أن يكون خاطب بعضهم بعضا بذلك.

(الثاني): أن يكون خوطب به العزيز تعظيما له.

قوله: «حتّي حين» قرأ عبدالله بن مسعود «عَتّى» بإبدال حاء (حَتّى) عَيْناً وأقْرأ بها غيرَه، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إليه: «إن هذا القرآن أنزل بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغتهم» قلت: وإبدال الحاء عيْناً لغة هذيْليّة(١).

ثالثاً - اللغة:

قوله: «ثُمَّ بَدَا لَهُم» «بَدَا» معناها: ظهر، يقال: بدا الشيء بُدُوّاً وبداءً، أي: ظهر ظهوراً بيِّناً(٢) و(بَدَا) هنا، من البدَاءِ بالفتح، لا من البدو المطلق، أي: ثم ظهر لهم من الرأي ما لم يكن ظاهراً من قبل(٣).

قوله: «مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ» الآية: العلامة الظاهرة، والصحيح أنها مشتقة من التَّأيِّي الذي هو التَّثبّت والإقامة على الشيء، وقيل: الآيات: إشارة إلى الأدلة(٤).

والمراد بها هنا: دلائل صدق يوسف - عليه السلام - وكذب امرأة العزيز(٥).

قوله: «حَتَّى حِينٍ» الحين يدل على مطلق الوقت، يقع على القليل والكثير.

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٩، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٠٧، والدرّ المصون/ ٦/ ٤٩٤.

(٢) المفردات (كتاب الباء)/ ٤٠.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٢٦٧.

(٤) المفردات (كتاب الألف)/ ٣٣.

(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٨.



رابعاً - الإعراب:

قوله: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» (ثم) حرف عطف، و(بدا) فعل ماض، وفاعله مضمون يفسّره (ليسجننه) أي: ظهر لهم أن يسجنوه، وقال المبرد: هذا غلط، لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه (بدا) وهو المصدر، قال الشاعر:

وحق لمن أبو موسى أبوه *** يوفقه الذي نصب الجبالا

أي وحق الحق، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه، وعلى مذهب سيبويه فاعل حق، هو يوفّقه، أي حقّ التوفيق، و(لهم) متعلقان بـ(بدا) و(من بعد) حال، و(ما) مصدرية، وهي مع ما في حيّزها مضافة لـ(بعد) و(رأوا) فعل وفاعل، و(الآيات) مفعول به، (ليسجننه) اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول المنصوب على الحال: أي ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين: والله لنسجننّه، فجملة القسم وما بعده مقول القول ويسجننه فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة فاعل، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة، ولكنها لم تباشر الفِعْل فأعرب، والهاء مفعول به منصوب، و(حتى) حرف جر و(حين) مجرور بـ(حتى) والجار والمجرور متعلقان بـ(يسجننه)[1].

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٩٢.

خامساً - الموقف من المتعارضات:

(أ) ما المراد بالآيات في قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ»

اختلف العلماء وأهل التأويل في المراد من الآيات في قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ» على أربعة أقوال:

(القول الأول) وهو لجمهور المفسرين، ويرى أن المراد بالآيات هنا: الدلائل المبرئة ليوسف - عليه السلام - من التّهمة التي رمته بها امرأة العزيز، فعن ابن عباس قال: كان من الآيات قدّ القميص وخَمْش الوجه.

وعن عكرمة؛ مثله، وعن مجاهد: قدّ القميص من دبر، وعن قتادة: حزُّ أيديهن وقدُّ القميص، وعن ابن إسحاق: شقّ قميصه من دبر، وعن السّدّي: القميص وقطع الأيدي(١).

وهذه الأقوال السابقة لا تخرج عن: (أ) قدّ القميص من دبر (ب) خمش الوجه (جـ)، قطع الأيدي.

(القول الثاني) ويرى أن المراد من الآيات العلامات الدالة على أن امرأة العزيز لا تترك يوسف ومراودته، وقد زاد الطين بلّة. ظهور سيدات أخريات يراودن يوسف عن نفسه، فاتَّسَع الخرق على الدّاقع، فلا مجال للحيلولة دونهن ودون يوسف - عليه السلام - وحفظ يوسف من مراودتهن ومنعهن من المراودة إلا إبعاد يوسف وحفظه وإخفائه عنهن بالحبس وإدخال السِّجن، واستدل أصحاب هذا الاتجاه بما فعله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين سمع امرأة ذات ليلة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ** أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ** سهل المحيا كريم غير ملجاج

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٢-٢١٣، والدر المنثور/ ٤/ ٣٢، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٣٩-٢١٤٠، وزاد المسير/ ٤/ ١٢١-١٢٢.



فقالت لها امرأة كانت معها: مَنِ (النصر)؟ أي: هذا الذي تذكرينه في شعرك، قالت: رجل أود لو كان معي طول ليلة أمس ليس معنا أحد، وكان النصر من أجمل الناس، فلما سمع عمر بذلك قال: أما وعمر فلا، أي فلا تبيت معه، فدعا عمر بنصر فإذا هو أحسن الناس شَعْراً، فأمره عمر بأن يَطم - أي يجزّ شعرَه - ففعل وخرجت جبهته فعاد أحسن مما كان، فأمره عمر أن يعْتَمّ - أي يلبس العمامة - ففعل فازداد حسنا، فقال له عمر: لا تُساكن في بلدة يتمناك النساء بها، ثم أمر بما يصلحه من المال وسيَّرَه ونفاه إلى البصرة، ولعلها كانت في ذلك الوقت معسكراً لانساء فيها، ثم أعاده عمر - رضي الله عنه - بعد مدة، ويعتبر هذا الحكم من المصالح المرسلة(١).

(القول الثالث) ويرى أن امرأة العزيز ومن يقف وراءها من رجال الحكم والسياسة الذين يملكون إصدار الأمر بالسجن هم الذين أعدُّوا الآيات، أي العلامات الكاذبة، واخْتَلَقُوا الدلائل المفتراة، واختاروا الوقت لِزَجّ يوسف البرئ في السِّجن(٢).

(القول الرابع) ويرى أن المراد من الآيات ما يلي:

ما شهدوه واختبروه من الدلائل على أن يوسف - عليه السلام - إنسان غير الأناسيِّ التي عرفوها، في عقيدته وإيمانه وأخلاقه، من عفَّةٍ ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإتراف المتّبع في قصور هذه الحضارة، ومن عناية ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد، فمن هذه الآيات أن تفنُّنَ سيدته في مراودته لم يحدث أدنى تأثير في جذب خِلسات نظره، ولا في خفقات قلبه، بل ظل مُعْرِضا عنها متجاهلا لها، حتى إذا صارحته بكلمة (هيت لك) اقشعَرَّ جلدُه واستعاذ بِربِّه، ومنها أنها لما غضبت وهمَّت بالبطش به، هم بمقاومتها والبطش بها وهي سيدته وما منعه من ذلك إلا ما رآى من البُرْهان في دخيلة نفسه.

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٩٧-٩٨.

(٢) دروس من سورة يوسف / ١٠٠.



ومنها، أنها لما اتّهمته بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها بكذبها وصدقه.

ومنها، مسألة انتشار خبرها معه وخوْض نساء المدينة في افتتانها به، وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها.

ومنها، مسألة مكر هؤلاء النسوة وأعمقهُنَّ كيداً معه، إذ حاولْن رؤيته وتواطأن على مراودته، ودهشتهن مما شاهدن من جماله حتى قطَّعْن أيديهن وهن لا يشعرن.

فجميع هذا الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربَّتها وصديقاتها من هؤلاء النسوة مثار فتنة للنساء لا تُدْرك غايتها، وأن الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الأول - في سجنه - وإن كانت سيئة النيَّة ماكرة فيه، لإخفاء ذكْرِه وكفّ ألسنة الناس عنها(١).

الترجيح بين الأقوال السابقة:

الأولى بالصواب هو القول الأول، وهو الذي يرى أن المراد بالآيات، قدّ القميص من دبر، وخَمْش الوجه، وقطع الأيدي، وإن كانت آية القميص هي الأكبر، وذلك لأن هذا القول يتفق مع النص القرآني الكريم «فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ... الآية» وقوله: «وَقَطَّعْنَ أيديَهُنّ».

وأما القول الثاني، وهو الذي يرى أن الآيات هي العلامات الدالة على أن امرأة العزيز لا تترك يوسف ومراودته كذلك النسوة، فهذه ليست بآيات، لأن الآيات لا تكون غالبا إلا فيما هو شديد الظهور والوضوح، وليس الأمر كذلك فيما ذهب إليه أصحاب هذا الاتجاه، حيث أطلقوا على الحيثيات والدوافع التي جعلتهم يقررون سَجْن يوسف آيات، إضافة إلى أن هذا القول يخالف النّص القرآنيّ ويتجاهله.

وأما القول الثالث، وهو الذي يرى أن المرأة ومن يقف وراءها من رجال الحكم والسياسة هم الذين أعدوا الآيات ولفقوا الدلائل الكاذبة، فهذا الرأي غاية في البعد

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٠-٣٠١.



عن النص القرآني الكريم الذي يفهم منه أنهم هم الذين رأوا الآيات، لا أنهم هم الذين أعدوها، فلم يقل القرآن الكريم مثلاً: «ثم بدا لهم من بعد ما أعدوا الآيات» ثم إن هذا الرأي يتغافل عن الآيات الواردة في النص الكريم، من قدّ القميص وقطع الأيدي.

وأما الاتجاه الرابع والأخير، فقد عَمَّمَ الآيات، وأضاف إليها ما ليس منها مما لا يمكن لأهل الحلّ والعقد رؤيته، وذلك مثل ما وقع بين يوسف وامرأة العزيز في المراودة والهم، وما اختص به يوسف من آية البرهان التي أطلعه الله تعالى عليها وحده ولم يحدّث بها غيره، ولذلك فقد تجاوز هذا الرأي تحديد الآيات المذكورة في النص الكريم، وخرج عن مقتضى المطلوب، هذا والله أعلى وأعلم.

أقوال العلماء في الزمن المفهوم من الحين في قوله: «حتى حين» وذلك على ستة أقوال:

(الأول) المراد بالحين هنا سبع سنين، قاله عكرمة.

(الثاني) المراد بالحين هنا خمس سنين، قاله الكلبي.

(الثالث) المراد بالحين هنا سنة، قاله ابن عباس.

(الرابع) المراد بالحين هنا ستة أشهر، قاله سعيد بن جبير.

(الخامس) المراد بالحين هنا إلى أن تنقطع مقالة الناس، قاله عطاء.

(السادس) المراد بالحين هنا زمان غير محدود، وهو قول أكثر المفسرين[(١)].

الترجيح: والصحيح هو القول السادس وهو قول جمهور المفسرين، والذي يرى أن المراد بالحين هنا زمان غير محدود، إذ ليس في كلام العرب ما يحدّد الحين بزمان معين، قال الإمام ابن عطية: والحين في كلام العرب وفي هذه الآية، الوقت من الزمن غير المحدود يقع للقليل والكثير، وذلك بين موارده في القرآن الكريم[(٢)] وقال الإمام أبو حيان: والحين يطلق على مطلق الوقت، ومن عَيّن له هنا زمانا، فإنما كان ذلك باعتبار مدة سجن يوسف، لا أنه موضوع في اللغة كذلك[(٣)].

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٤٠-٢١٤١ وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٧ وتفسير البغوي/ ٤/ ٢٣٩، وزاد المسير/ ٤/ ٢٢٢.

(٢) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٩٧.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٧.



سادساً - التفسير والبيان:

قرار سياسي بسَجْن يوسف - عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾

وجه المناسبة:

ولما كانت تلك الآيات المبرئة ليوسف – عليه السلام – موجبة لرفعته، فكان حينئذ أبعد شيء عن السجن لو كان الناس متمكنين من جَرْى أمورهم على حسب السديد من عقولهم، فأخبر تعالى أنهم خالفوا داعي السداد، واستبدلوا الغيّ بالرشاد، لحكمه بأن السجن سبب عظيم لصرف كيدهن عنه، وإثبات العزّ والمكنة له، ففعلوا مع علمهم بأن ذلك ظلم وسفه، إجابة لغالب أمر الله وإظهارا لعليّ قدره، بمخالفة العوائد مرة بعد مرة، وهدم سداد الأسباب كرّة إثر كرة فقال تعالى:

«**ثمَّ بَدَا لَهُم**»(١).

وثم للترتيب الرُّتبيّ كما هو شأنها في عطف الجمل، فإن ما بدا لهم أعجب من بعد ما تحققت براءته – عليه السلام –(٢) والتعبير بحرف العطف (ثم) يفيد مضى مدة قضاها أهل الحلّ والعقد في التشاور والتروّي في الأمر قبل إصدار الأمر بسجن يوسف – عليه السلام – كما يدل على مرور فترة زمنية ذات طول نِسْبِي قضاها يوسف في جهاده النفسي ومكابدته ابتغاء رضا الله عز وجل(٣) وبهذا نعلم أن فكرة سَجْنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث، ولكن بعدما مضى ردْح من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه(٤)...

وفي فاعل «بَدَا» أربعة أوجه:

(الأول) أنه ضمير يعود على (السّجن) بالكسر في قراءة الجمهور، وهو بطريق اللازم، ولفظة (السَّجن) في قراءة من فتح السين».

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٣٧. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٧.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٨٧. (٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٨١.



(الثاني) أن الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل، وهو (بدا) أي بدالهم بَدَاءٌ، وقد صرح الشاعر به في قوله:

لعلَّك والموعود حقٌّ لقاؤه * * * بدالك في تلك القلُوص بداء[1]

قال المبرد: الفاعل ما دل عليه (بدا) وهو مصدر، أي بدالهم بداءٌ، فحُذِف لأن الفعل يدل عليه.

(الثالث) أن الفاعل مضمر يدل عليه السياق، أي بدالهم رأي.

(الرابع) أن الفاعل محذوف وأقيمت الجملة مقامه، وليست الجملة فاعلا، لأن الجمل لا تكون كذلك.

وأحسن الأوجه هو الوجه الأول، وهو كون الفاعل ضمير يعود على (السَّجْن) بفتح السين، أي ظهر لهم حبسه، وقد نَصَّ السمين الحلبي على استحسان هذا الوجه[2] وكذلك الخطيب الشربيني[3] وابتدأ به الإمام أبو حيان الأوجه الثلاثة التي ذكرها[4] واقتصر عليه الإمام البيضاوي في تفسيره[5].

و(لهم) الجار والمجرور متعلقان بـ(بدا) وضمير الجماعة في (لهم) يشمل فئة يَعْنيها الأمر ممن بيدها الحل والعقد من عِلِّيّة القوم في مصر، وتدْخل امرأة العزيز معهم دخولا أوّلياً لأنها هي التي هددته بالسجن علانية واحتالت لتحقيق ذلك بعد أن يئست من نَيل مرادها من يوسف بعد التهديد، والأقرب أنها أثارت عليه أهل الحل والعقد ليسجنوه.

ومعنى «ثم بدا لهم» أي: ثم ظهر لهم من الرأي ما لم يكن ظاهرا من قبل، ومنه كلمة سيدنا علي - رضي الله عنه - البليغة «فما عدا مما بدا» أي فما عداك وصرفك عما كنت فيه مِمّا بدا لك الآن وكان خفيّاً عنك قبله، ولذلك عُطفَت الجُمْلة بـ(ثم) التّي تفيد الانتقال مما كانوا فيه إلى طور جديد بعد التّشاور والتروّي في الأمر[6].

---

(١) نسبة ابن منظور إلى الشماغ ابن ضرار وليس في ديوانه، وقيل: لمحمد بن بشر الخارجي (الخصائص/ ٣٤٠).

(٢) الدّرّ المصون/ ٦/ ٤٩٤. (٣) السراج المنير/ ٢/ ١٠٧.

(٤) البحر/ ٥/ ٣٠٦. (٥) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٣.

(٦) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٠.



قوله تعالى: «مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ» الآية يعبر بها عن الواضح الجليّ، وجمعها يدلّ على ظهور أمور واضحة دلّت على براءته[1]، والمراد بها قدّ القميص من دبر، وخمش الوجه، وقطع الأيدي، وإن كانت آية القميص هي الأكبر، وهذا هو ما يتّفق مع النص القرآني الكريم «فَلَمّا رآى قَميْصُه قُدَّ من دُبُرٍ» وقوله: «وقَطّعْنَ أيديَهُنّ».

وقد تكون الآيات التي رأوها لم ينص على جميعها في القرآن الكريم، بل رأوا - علموا - قول الشاهد، وقدّ القميص، وغير ذلك مما لم يذكروه[2] يدل لذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - عن الآيات فقال: ما سألَني عنها أحد قبلك، من الآيات قدّ القميص وأثرها في جسده، وأثر السكين، فعدّ - رضي الله تعالى عنه - الأثر من الآيات ولم يذكر فيما سبق، ومن هنا قيل: يجوز أن تكون هناك آيات غير ما ذكر، تُرِك ذكرها كما تُرِكَ ذكر كثير من معجزات الأنبياء عليم السلام[3].

وعلى هذا فيتحمل أن يكون معنى قوله: مِن بعد مَا رأوا الآيات» أي من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف - عليه السلام - برئ فلم يرد تعيين آية، بل قرائن جميع القصة[4] كما يحتمل أيضا أن تكون هذه الآيات تَثْبُتُ للبعض اتفاقا ودون تعمد، كالآية على براءته في نظر الشاهد حينما وافق قميص يوسف الذي قد من دبر، وأن البعض الآخر من الآيات ثبت تعمدا منهم لها واختبارا ليوسف، وقد كانت النتيجة دائما وأبدا واحدة، براءة يوسف وطهره وعفته[5].

قوله تعالى: «لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ» قال أهل اللغة: الحين وقت من الزمان غير محدود، يقع على القصير منه وعلى الطويل والحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه نحو قوله تعالى: «ولات حين مناص»[6] ومن قال

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٧. (٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٧.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٤٢٧. (٤) تفسير ابن عطية / ٩ / ٢٩٧.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٨٨.

(٦) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٣٦.



حينٌ فيأتي على أوجه، للأجل نحو: (ومتعناهم إلى حين) وللسنة نحو قوله تعالى: «تُؤتي أكلها كل حين بإذنِ ربّها»، وللساعة نحو (حين تمسون وحينَ تصبِحُون» وللزمان المطلق نحو: «هَل أتَى عَلى الإنسانِ حينٌ مِنَ الدّهر» - (ولتعلمن نبأه بعد حين) وإنما فسِّرَ ذلك بحسب ما وجد قد علق به، ويقال: عاملتُهُ: مُحَايَنَةً حيناً وَحيناً، وأحَيَنْتُ بالمكان: أقمتُ به حينا، وَحَان حينُ كذا، أي قَرُب أوانُه، وَحَيَّنْتُ الشيءَ: جعلت له حينا، والحين عُبِّر به عن حين الموت(١).

وقد ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالحين هنا، من سبع سنين إلى ستة أشهر - كما سبق - ومنهم من قال: إلى أن تنقطع مقالة الناس، وهذه الأقوال باعتبار سجن يوسف لا أن الحين، قد وضع لها في اللغة، قال الإمام الفخر: والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوسا مدّة طويلة لقوله تعالى: «وادَّكرَ بعد أمة»(٢)، (٣).

أهم الأسباب التي دعت أهل الحل والعقد إلى سجن يوسف بعد ثبوت براءته:

الواقع أنهم كانوا يقصدون من سجنه - عليه السلام - أموراً منها:

١ - حسم الكلام في الموضوع حتى لا تتناقله الأخبار وتلوكه الألسنة ويصبح حديث القوم، بعد أن ثبت لهم أنَّ النسوة لا يكففن عن مطاردته - عليه السلام -.

٢ - حماية سمعة الرجال أمام الناس، وليقع في روع من خفيت عليهم الأمور أنهم ما سجنوه إلا لمعاقبته على شيء صدر منه، تغطيه للموقف.

٣ - إيهام الجماهير أنه هو الذي راود المرأة، لأنها لو كانت تحبه ما سعت في سجنه.

كل هذا وغيره أثبت لهم أن بقاءه في القصر بين امرأة العزيز وصديقاتها مثار فتنة وشر مستطير، وأنه من المصلحة الخاصة والعامة أن يبعد يوسف عن القصر ويوضع في

---

(١) المفردات (كتاب الحاء) / ١٣٨، وانظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) يوسف/ ٤٥.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٣٦.



السجن مدة من الزمان إلى أن ينقطع خبر ما حدث بينه وبين امرأة العزيز والنسوة.

وهذا من المصالح المرسلة، وكالذي فعله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع نصر بن الحجاج، لما تغزلت فيه المرأة الشاعرة لشدة جماله وأرادته لنفسها، فأبعده إلى البصرة زماناً درءاً للفتنة، ثم أعاده إلى المدينة بعد حين (تقدم تفصيل ذلك).

وهكذا التقت على السجن ثلاث رغبات:

(الأولى) رغبة امرأة العزيز، تريد تعذيبه - عليه السلام - وإذلاله وإلحاق الصغار به كما أوعدته وهددته (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين).

(الثانية) رغبة أهل النفوذ والسلطان، لقطع الكلام فيما حدث، والمحافظة على مكانة كبار رجال الدولة الذين عشقت نساؤهم يوسف، وحماية النساء بصفة عامة من صرعة فتنته الجمالية الآسرة.

(الثالثة) رغبة يوسف - عليه السلام - الفراراً منهن إلى مرضاة الله تعالى والأنس بجواره في راحة واطمئنان (رب السجن أحب مما يدعونني إليه).

سجن سياسي:

كان قرار سجنه - عليه السلام - كما يفهم من دلالة النص القرآني الكريم قراراً سياسياً بحتاً وليس قراراً قضائياً، فلم يصدر حكم قضائي بسجنه، لأن الحكم القضائي لا يصدر إلا بناء على جريمة ارتكبت وتأكدت، وكان أهل الحكم الذين أصدروا قرار السجن على يقين تام ببراءته - عليه السلام - من التهمة المنسوبة إليه - بمراودة المرأة - ولهذا لم يحددوا مدة السجن، بل جعلوها إلى (حين) حتى إذا مضى زمان انقطع به خبر ذلك الحدث وتناساه الناس بانقطاع أسبابه، عادوا فنظروا في أمره - عليه السلام -.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما اختار يوسف - عليه السلام - السجن فراراً إلى الله تعالى من النسوة وكيدهن له، ودعا الله تعالى بذلك حيث قال: «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه... الآية»، حقق الله دعاءه في هذه الآية الكريمة، فبعد مرور فترة زمنية قضاها يوسف - عليه السلام - في القصر، في جهاد نفسي ومكابدة شاقة في مواجهة امرأة العزيز والنسوة، شاءت حكمة الله تعالى أن يظهر لأهل الحكم والسياسة في مصر رأي جديد في شأن يوسف - عليه السلام - من بعد أن رأوا الآيات الدالة على صدقه وبراءته وعفته، وهو إيداعه السجن مدة من الزمان إلى أن ينقطع خبر ما حدث بينه وبين امرأة العزيز والنسوة، وأشاعوا بين الناس أن يوسف - عليه السلام - سيسجن لأنه كان المراود للمرأة، وإلا لو كانت هي التي تحبه وتراوده لما سعت في سجنه، وكان القرار بسجنه - عليه السلام - قراراً سياسياً. إذ أنه لم يتهم بقليل ولا بكثير، وهذه شهادة حتى من خصومه بطهارته ونقائه وسموه عن كل ما يخل بالشرف والأمانة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الإنسان الكامل الإيمان ينتصر على كل الفتن بكماله وعفته وتوكله على مولاه.

٢ - كَادَت المرأة ومن معها من أهل الحكم والسلطان ليسجن يوسف البريء، وكاد الله تعالى لعبده يوسف لتكون عاقبة السجن له فوق ما يتصورون.

٣ - كان في قرار أهل الحل والعقد بسجن يوسف - عليه السلام - استجابة لدعائه إلى مولاه (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه).

٤ - كثيراً ما يتعامى المستكبرون في الأرض عن الحقائق والأدلة الساطعة، ويوقعون العقاب بالأبرياء والمظلومين، ليحققوا مصالحهم فحسب.

٥ - قد يدخل السجن من لا ذنب له ولا جريمة، وقد لا يسجن من يستحق السجن والعقاب، وهذا واقع في حياة الناس.



٦ - يريد العتاة الجبارون أن يكون السجن وصمة عار وذِلّة للمتقين، ويأبى الله تعالى إلا أن يخرج منه عباده متوجين بتاج النور والعزة والإيمان.

٧ - يظن الغافلون أن أهل الحكم والسياسة هم أنفسهم الذين رأوا وقرروا سجن يوسف، ولا يدرون أن الله من وراء كل شيء، وأن السجن لم يكتب على يوسف - عليه السلام - إلا لحكمة عالية ستدل عليها الأحداث القادمة.

٨ - رب مِنْحة في مِحْنة، ويا لها من منحة بالغة العظمة يؤتيها الله عبده يوسف - عليه السلام - وهو بين جدران السجن، سوف تتحدث عنها الآيات تلو الآيات بعد ذلك.

(أين «قطفير» عزيز مصر، وهذه الأحداث)؟

لقد التقينا بعزيز مصر «قطفير» لآخر مرة من خلال النص القرآني الكريم، حين قال ليوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته: (يوسف أعرض عن هذا) ثم قال لزوجه زاجراً وواعظاً ومؤدباً: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» يوسف / ٢٩. وبعد هذه الآية الكريمة لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن العزيز، لا بنصّ ولا بإشارة حتى آخر السورة الكريمة، رغم وقوع أحداث جسيمة تتعلق ببيته وبأقرب الناس إليه، زوجه «زليخا» ويوسف - عليه السلام - مع ما يتمتع به العزيز من مكانة عالية ونفوذ واسع وسلطان عظيم كوزير أول لملك مصر، الريان بن الوليد.

فأين العزيز من تلك الأحداث؟

إن الذي يرجحه العبد الفقير بالدلائل الواضحة الآتية بعد، هي أن العزيز (قطفير) قد توفي بعد حادثة المراودة بزمن قليل وقبل أن تدعو زوجه (زليخا) النسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف - عليه السلام - فإن العزيز قد أصيب بصدمة نفسية شديدة بسبب حادثة المراودة، بعد أن تأكد له أن زوجته هي المراودة ليوسف، والكائدة له والكاذبة عليه، وأن يوسف - عليه السلام - بريء من اتهام المرأة له، وكان هم العزيز بعد ذلك



محصوراً في بذل كل مستطاع للتكتم على حادثة المراودة حتى لا يعلم بها أحد آخر فينتشر خبرها ويفتضح أمره وأهله بين الناس، وقد كان هذا أخشى ما يخشاه ويعمل له كل حساب، ولهذا فقد أبقى يوسف في القصر وأمره بكتمان الأمر، وعزّر زوجته بما يناسب حالها، ومع كل هذه الحيطة التي أحاط بها العزيز أمر حادثة المراودة، إلا أن الأمور كانت تجري على غير ما يظن، وعلى عكس ما يتوقع...

فبعد حين من الزمان ليس بالبعيد، نَقَل إليه أتباعه ما قاله النسوة في حقه وحق زوجه، مما ينبئ بفضيحة جارفة لا تبقي ولا تذر... هنالك أيقن العزيز أن الطامة الكبرى التي كان يخشاها قد وقعت، ولا راد لها، وإذا كان نسوة الأمراء قد بدأن الحديث عنه وعن أهله بتلك الصورة الشديدة القبح والغليظة السوء، فعما قريب سوف تكون قصته وأهله على كل الألسنة، وفكر العزيز كثيراً... وتصور ما يمكن أن يحدث له بعد ذلك، كيف يسوس أمور الدولة... وكيف يكون موقفه أمام الملك ورجال القصر وساسة البلاد، إن الملك سيخلعه ولا شك من منصبه بسبب تلك الفضيحة... وإن وضعه سوف يهبط من السماء العالية إلى الهاوية السافلة... لقد رأى أن حياته بعد الآن لا قيمة لها... والموت خير منها... فلعل العزيز قد مات كمداً وحزناً وغماً.... حين ضاقت عليه الأرض بما رحبت... أو لعله انطلق بنفسه فراراً من أَلْسِنَة الناس وعيونهم... واختفى عن الساحة حتى مات، والمؤكد أن العزيز قد غاب إلى الأبد قبل أن تدعو المرأة النسوة إلى القصر ليشهدن الجمال اليوسفي، ولهذا قد غيبه القرآن بعد ذلك عن الذكر.

رفع المستهمل

دلائل الاتجاه الراجح بوفاة العزيز قبل حضور النسوة إلى القصر من أجل يوسف، وأهمها ما يلي:

١ - لم يرد ذكر العزيز بعد التحكيم في حادث المراودة من قريب ولا من بعيد، رغم تعدد الحوادث التي كانت تستعدي ظهوره لو كان حياً، خاصة وهو رئيس وزراء مصر وعزيزها، علاوة على أن من اتصلت بهم الأحداث هم أقرب الناس إليه، زوجه، ويوسف - عليه السلام -.

٢ - ما كانت امرأة العزيز لتتجرأ على دعوة النسوة في بيتها والتصريح أمامهن بهيامها بفتاها وإصرارها على أن ينفذ مرادها باللين أو بالقوة.

٣ - إن العزيز الذي طلب من يوسف - عليه السلام - كتمان أمر حادثة المراودة حتى لا يعلم بها أحد، ثم عزّر زوجته، وحكم عليها بأنها الخاطئة وأمرها بالاستغفار لذنبها، ما كان له ليسكت أبداً أمام دعوة امرأته للنسوة لتستعرض جمال يوسف أمامهن وتفضح زوجها أمام الجميع.

٤ - إن القرآن الكريم أتى بموضوع التهديد بالسجن والصغار ليوسف - عليه السلام - إن لم يفعل ما تبتغيه المرأة - على لسانها هي، ولو كان العزيز كَمَا افْتُرِيَ عليه رجل لا يبالي بأمر عرضه وشرفه لقالت المرأة، وإن لم يفعل لأطلبن من العزيز سجنه وإذلاله، مثلاً، لأنه وحده مالك أمر يوسف، والقادر على إصدار حكم ضده.

٥ - إن العزيز لم يكن من بين الذين بدا لهم سجن يوسف - عليه السلام - ولو كان موجوداً لنسب إليه ذلك الأمر وحده، فهو مالكه وصاحب السلطة العليا في البلاد بعد الملك.

٦ - إنه مع طول مكث يوسف - عليه السلام - في السجن، ولسنوات طويلة، لم يذكر القرآن الكريم أنه التقى بيوسف في السجن ولو لمرة واحدة، ولو كان حياً لزاره في السجن مرات، لأن يوسف كان بالنسبة له كولده، وقد دخل السجن وهو بريء من كل ذنب.



٧ - أن يوسف - عليه السلام - بعد تأويله الرؤيا للملك وإرسال الملك رسوله إليه ليأتي به، أبى أن يخرج حتى تثبت براءته وقال: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن... الآية﴾ ولو كان العزيز حياً لكان من الممكن أن يقول له مثلاً: ﴿ارجع إلى ربك واسأله ما بال العزيز والشاهد والنسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾.

٨ - أن الملك لما ولى يوسف - عليه السلام - من بعد... وجعله على خزائن الأرض، لم يصدر أمراً بعزل العزيز - زوج المرأة - وإقامة يوسف عزيزاً مكانه، مما يؤكد عدم حياة العزيز.

ومما تقدم يتأكد لنا أن العزيز، تلك الشخصية الوقورة الحكيمة، قد رحل عن مسرح الأحداث قبل دعوة امرأته النسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف - عليه السلام -.

وأن المرأة هي التي صارت لها السلطة عليه من بعده، فقد كانت تقول له وهو حي: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» أما الآن فهي التي تملك وتحكم وتهدد وتقول: «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين»، وفعلاً نفذت تهديدها بمساعدة أهل الحل والعقد وحكم على يوسف - عليه السلام - بالسجن، هذا والله أعلى وأعلم.

الرد على من رغم بأن المرأة هي التي طلبت من العزيز سجن يوسف فأجابها:

إن علماءنا أهل التفسير الأجلاء، كادوا أن يتفقوا على أن امرأة العزيز هي التي أثارت زوجها ودفعته إلى أن يأمر بسجن يوسف - عليه السلام - وقد ذكر في ذلك روايات عدة نسبت إلى أهل السلف المكرمين، منها على سبيل المثال، ما رواه إمامنا الطبري في تفسيره عن السدي قال:

﴿ثم بدا لهم...﴾ قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم أني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذرى، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستني.



وحين نتدبر هذه الرواية المنسوبة إلى (السُّديّ) نجد أنها باطلة من أساسها، إذ أنها تعارض نصاً قرآنياً صريحاً وهو وصية العزيز ليوسف وأمره له بكتمان أمر الحادثة وعدم ذكرها لأحد (يوسف أعرض عن هذا..) وقد التزم يوسف بما طلب منه العزيز، وهو بخلقه الكريم لم يكن ليذكر لأحد شيئاً عن حادثة المراودة سواء أطلب منه العزيز ذلك أم لا، لأنه يعلم أن ذلك من باب إشاعة الفاحشة بين الناس الذي نهى عنه كل شرع، فما جاء في تلك الرواية من قول المرأة بأن يوسف فضحها على الملأ من الناس، يخالف القرآن ويناقض خلق يوسف - عليه السلام -.

ويأتي في تلك الرواية أيضاً أن المرأة تريد أن تعتذر بعذرها أمام الناس، فكيف يقبل ذلك، وقد نص القرآن الكريم على أنها هي التي استدعت النسوة واعترفت أمامهنّ بكل شيء، ثم ما هذا الأدب الجم الذي أصابها فجأة حتى تقول لزوجها: (فإما أن تأذن لي..) فهل استأذنته أيضاً حين دعت النسوة إلى قصرها لمشاهدة يوسف، وفضح نفسها أمامهن بأنها هي المراودة له، وأنها ما زالت هائمة به حتى الثُّمالة، وفي ذلك فضيحة لزوجها العزيز أيضاً، ثم إن الرواية تتحدث عن حبس العزيز لزوجته، فكيف يحدث ذلك، وفي نفس الوقت ترسل هي إلى نساء كبار رجالات الدولة ليكون ما كان منها أمامهن مما سبق ذكره.

ثم كيف لرجل حكيم ووزير أول للدولة المصرية، تحدث عنه القرآن الكريم واصفاً إياه بالعدل والحكمة أن يوافق على إدخال يوسف السجن وهو على يقين أنه بريء.

هذا، ولم أجد من بين المراجع الكثيرة التي رجعت إليها من تحدث عن وفاة العزيز قبل استدعاء زوجته للنسوة في القصر وعرض يوسف أمامهن، سوي الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله في كتابه القيم (يوسف بن يعقوب - عليه السلام -) وكان أهم ما قاله في ذلك: نحن نجزم بأن هذه الشخصية الحكيمة الوقورة يعني العزيز قد وافاها الأجل، واختفت عن مسرح الأحداث (أي قبل أن تدعو المرأة النسوة لبيتها).



(الفصل الرابع)

(من الباب الثاني)

يوسف - عليه السلام -
يبدأ مرحلة جديدة من حياته داخل السّجن:

من الآية رقم (٣٦)

إلى الآية رقم (٤٢)



رفع
المسهم

آيات الفصل الرابع

(من الباب الثاني)

قال الله تعالى:

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾



«الآية السادسة والثلاثون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ثانيا - القراءات:

قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ»

قرأ البعض (السَّجن) بفتح السين، على معنى موضع السجن[١]

وقرأ الباقون بكسر السين.

والراجح قراءة (السِّجن) بكسر السين، بمعنى البيت الذي يسجن فيه، لأن الدخول لا يُنَاسِب إلا أن يتعلق بالمكان لا بالمصدر[٢]

قوله: «أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا»

قرأ عبدالله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَبـاً) وهي في الشَّوَاذّ، والراجح قراءة (أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)، وينبغي أن تُحْمَل قراءة بن مسعود وابن أُبَيّ على التفسير لمخالفة تلك القراءة سواد المصحف، وللثابت عنهما بالتواتر قراءتها (أعصر خمراً) وفي مصحف عبد الله بن مسعود (فوق رأسي ثريداً تأكل الطير منه) وهو أيضا تفسير لا قراءة[٣]

ثالثا - اللغة:

قوله: «فتيان»: تثنية (فتى) وهو من ذوات الياء، وجمع الفتى (فتية) «أعصر

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٢٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٨.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٨.



خمراً» : أي عنبا ، أطلق عليه ذلك مجازاً لأنه آيلٌ إليه ، كما يطلق على الشيء باعتبار ما كان عليه ، كقوله تعالى : «وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ»(١) وَمَجَازُ هذا أقرب ، وقيل : بل الخمر : العنب حقيقة في لغة غسَّان وأزْدعمان ، وعن المعتمر قال : لقيت أعرابيا حاملا عنبا في وعاء فقلت : ما تحمل؟ فقال : خمراً(٢) ، ويجوز وصف الخمر بأنها معصورة ، إذا العصْر لها ومن أجلها(٣) فليس ذلك من مجاز الأول ، والمشهور أنه منه كما قال الفراء ، والخمر مؤنثة ، وربّما ذكّرت ، وعن السجستاني أنه سمع التذكير مِمَّنْ يوثق به من الفصحاء(٤)

والعَصْر : الاعتماد على فيه مائيَّة لتُجْتَلَبَ منه ، وهو مصدر عَصَرْت ، والمعصور الشيء العصير ، والعصارة : نفَايَةُ ما يُعْصَر(٥)

قوله : «أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً»

الحمل : رفع الشيء بعماد تقلّة ، والخبز : اسم لقطعة من دقيق البُرّ أو الشعير أو نحوهما يُعْجَنُ بالماء ويوضع قرب النار حتى ينضج ليؤكل ، ويسمَّى رغيفاً أيضا(٦) وجمع الخبز (أخْباز) ، والخبْزَة : ما يُجْعَلُ في المَلَّة ، والخبز : اتخاذه ، واخْتَبَزَتْ إذا أمرت بخبزه ، والخبازة : صنعته(٧)

قوله : «تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ» : الطَّير : جمع واحده طائر ، وتأنيثه أكثر من تذكيره ، وجَمْع الجَمْع : طيُورٌ ، أو أطْيَار(٨) ، و(تأكل منه) أي تنْهَسُ منه يقال : نَهَسَ اللحم نَهْساً : أخذه بمقدم أسنانه ونَتَفَه للأكل(٩) ، والمراد أن النَّهْسَ من أعلى لأنها الجهة المناسبة لأكل الطير ،

«نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ» ، النَّبَأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال

---

(١) النساء / ٢ . (٢) الدر المصون / ٦ / ٤٩٦ .
(٣) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٠ . (٤) روح المعاني / ٦ / ٤٣٠ .
(٥) المفردات (كتاب العين) ٣٣٦ . (٦) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٦٩ .
(٧) المفردات (كتاب الخاء) ٢٧٣ . (٨) انظر : القاموس المحيط / ٥٥٥ .
(٩) انظر : اللسان / ٦ / ٣٦٠ .



للخبر في الأصل (نَبَأ) حتى يتَضَمَّنَ هذه الأشياء الثلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه (نبأ) أن يتعَرَّى عن الكذب، كالتَّوَاتُر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي ﷺ[1].

رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ» (الواو) عاطفة على محذوف، و(دخل) فعل ماضي و(معه) ظرف مكان متعلق بـ(دخل)، و(السجن) مفعول به على السَّعة، و(فتيان) فاعل.

قوله: «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا»

(قال) فِعْل، و(أحدهما) فاعل، والجملة استئناف بياني، وإنَّ واسمها، وجملة (أراني خبرها، و(الياء) مفعول أراني الأول، وجملة (أعصر خمراً) في محل المفعول الثاني.

قوله: «وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ»

(وقال الآخر) فِعْل وفاعل، وإن واسمها، وجملة (أراني) خبرها، وجملة (أحمل) مفعول أراني الثاني، و(فوق رأسي) ظرف متعلق بـ(أحْمل) أو بمحذوف حال من (خبْزاً) لأنه كان في الأصل صفة له، فلما تقدَّم أعرب حالا، و(خُبْزاً) مفعول به، و(تأكل الطير منه) صفة لـ(خبزاً)

قوله: «بِتَأْوِيلِه إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

فعل أمر، و(نا) مفعول، والفاعل مستتر تقديره (أنت) و(بتأويله) متعلقان بـ(نبئنا)، وإن واسمها وجملة (نراك) خبرها، و(من المحسنين) متعلقان بـ(نراك)[2].

---

(١) المفردات (كتاب النون) ٤٨١.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٤ / ٤٩٣.



خامساً - الموقف من المتعارضات، ويشتمل على أربعة أمور:

الأمر الأول:

أقوال المفسرين فيما يدل عليه لفظ (مع) في قوله «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ»:

ذهب أكثر المفسرين إلى أن «مع» في قوله تعالى: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ» يدلُّ على مَعِيَّة ذات، أي أن الثلاثة، يوسف - عليه السلام - والفتَيَيْن دخلوا جميعا السِّجن في وقت واحد.

ذكرُ بعْض من قال بذلك:

قال الإمام الزمخشري: (مع) يدلُّ على معنى الصُّحْبَة واستحداثها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحبا له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبيْن له[١]

وتابع الإمامَ الزمخشري في ذلك أكثرُ أهل التفسير، ومنهم الإمام البيضاوي[٢] والإمام أبو حيان[٣] والإمام أبو السعود[٤] والإمام الألوسي[٥]. وتعقب بأن هذا مُنْتَقَضٌ بقوله تعالى على «بلقيس» وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[٦] إذ ليس إسلامها مقارنا لابتداد إسلام سليمان - عليه السلام - ورُدَّ عليهم بأن الحمل على المجاز هنالك للصارف، ولا صارف فيما نحن فيه، فيحمل على الحقيقة، ويشهد لذلك ما ذكره الزمخشري في قوله سبحانه: (فلما بلغ معه السَّعْي)[٧] من أنه بيان متعلق بمحذوف لتعذر التعلّق - ببلغ -

وذهب آخرون إلى أن أمر الصحبة محتمل وليس واجبا أن يكون دخولهما معه،

ذِكر بعْض من قال بذلك:

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣١٩. (٢) تفسير البضاوي / ١ / ٤٨٣.

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٣٠١. (٤) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٥.

(٥) روح المعاني / ٦ / ٤٢٩. (٦) النمل / ٤٤.

(٧) الصافات / ١٠٢. (٨) روح المعاني / ٦ / ٤٢٩.



قال الإمام ابن عطية الأندلسي، وهذه - (مع) - تحتمل أن تكون باقتران وقت الدخول، وألا تكون، بل دخلوا أفذاذاً - أي أفراداً -(١)

وقال الإمام القرطبي: ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف - عليه السلام - أو بعده أو قبْله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه(٢) أي اجتمع الثلاثة في بيت واحد داخل السجن مقيمين فيه.

الترجيح:

والقول الراجح هو الأول، والذي يرى المقارنة في الدخول بين الثلاثة - يوسف - عليه السلام - والفَتَيَان - لأنه المعنى الحقيقي لـ(مع) ولا يوجد ما يصرفه عن ذلك، قال الإمام أبو حيان: و(مع) تدل على الصحبة واستحداثها، فدل على أنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة(٣)

وقال الإمام الألوسي: والظاهر أن (مع) تدل على الصحبة والمقارنة لفاعل الفعل في ابتداء تلبّسه بالفعل، فتفيد أن دخولهما مصاحبين له وأنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة(٤)

ويؤكد المجلس العلمي بـ(فاس) هذا الرأي فيقول:

إن الاحتمال الأول، وهو المقارنة - أي دخول الثلاثة معا - هو الظاهر، لأن المقارنة هي الأصل، ولا يُعْدَل عنها ما أمكن(٥)

فالفتيان دخلا السجن معه في اللحظة التي دخل فيها نفسها، رِجْلاً بِرِجل(٦)

---

(١) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٩٨. (٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٨٩.
(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٧. (٤) روح المعاني/ ٦/ ١٢٩.
(٥) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٩٨ (هامش).
(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٩٠.



الأمر الثاني:

أقوال المفسرين في المراد بالفتي:

(١) من حيث الرّق والحرية:

● **ذهب كثير من المفسرين** إلى أن المراد بـ(الفتى) الغلام العبد، وأن معنى (فَتيَان) أي عبدان[١]

● **وذهب كثيرون غيرهم** إلى أن لفظه (فتى) تقع على المملوك وعلى الخادم الحر، ويحتمل أن يتّصف الساقي والخبَّاز بجميع ذلك[٢] وعلى هذا فاحتمال كون الفَتَيَيْن اللذين دخلا السجن مع يوسف حُرَّيْن أو عبْدين واردٌ ولا ترجيح لأحدهما.

الترجيح:

الاتجاه الثاني هو الراجح لدلالة النص القرآني الآتي عليه، قالله تعالى في حق سيدنا إبراهيم - عليه السلام -: «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ»[٣] وهو حُرٌّ، وقال جل ذكره على لسان النسوة: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ» وهو - عليه السلام - مملوك في نظرهم.

(ب) من حيث الشباب أو الشيخوخة:

● **ذهب بعض المفسرين** إلى أن لفظه (الفتى) تطلق فقط على الإنسان أوَّل شبابه، بين المراهقة والرجولة فمعنى (فَتَيَان) أي شابَّان، وهذا هو المعنى اللغويّ للَّفظة.

● **وذهب آخرون** إلى أن لفظه (الفتى) تطلق على الحَدَث والشيخ - أي المتقدم في السن، لأنهم يسمون المملوك (فتى) قال القشيري: ولهذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ»[٤]

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٤، وتفسير الكشاف/ ٢/ ٣١٩، وتفسير البغوي/ ٤/ ٤٢٠.

(٢) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٦٨.

(٣) الأنبياء/ ٦٠. (٤) القرطبي/ ٩/ ١٨٩.



وسُمِّي الخادم المملوك (فَتًى) لأنه يظل في خدمة سيدة ومالكه ولو شاخ وتقدَّمت به السِّن، فيكلف من الأعمال ما يُكَلَّفُ به الفتيان(١)

الترجيح:

والقول الثاني هو الراجح، فلقد أطلق النسوة على يوسف - عليه السلام - (فتى) رغم أنه جاوز الثلاثين حينئذ، قال الإمام بن الجوزي: و(فتيان) جائز أن يكونا حدَثْين أو شيخيْن، لأنهم يسمُّون المملوك (فتي) وقال ابن الأنباري: والعرب تُسَمِّي المملوك (فتى، شابا كان أو شخيخا(٢).

الأمر الثالث:

«رُؤْيَا» الفتيَيْن، هل كانت صادقة أم لا؟

اختلف المفسرون في (الرؤيا) من حيث كونها صادقة أم لا، إلى أقوال ثلاثة:

القول الأول: يرى أن رؤيا الفتيين كانت رؤيا صدْق رأياها مناما ثم سألا يوسف - عليه السلام - عن تأويلها، فأؤلها لهما تأويل صدق بما علمه الله تعالى إياه من تأويل الأحاديث، وقد وقع.

وممن ذهب إلى هذا القول، ابن اسحاق ومجاهد(٣)

القول الثاني: يرى أن رؤيا الفتيين كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجربة من غير أن يكون رأيا شيئا في منامهما.

وممن ذهب إلى هذا القول، السدّي، وابن مسعود الذي قال:

ما رآى صاحبا يوسف شيئا، وإنما كانا تحالما به ليجرّبا علمه(٤).

القول الثالث: يفرق بَيْن الفتيين في رؤياهما من حيث الصدق والكذب، فيرى أن

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٤٢.

(٢) زاد المسير/ ٤/ ٢٢٢.

(٣) انظر تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٤.

(٤) المرجع السابق/ نفس الصفحة.



المصلوب منهما كان كاذبا، وهو القائل: «إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ» وأن الناجي وهو القائل: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» فصادق،

قاله ابن (مجلز)(١)

الترجيح:

القول الأول، وهو الذي يرى أن رؤياهما رؤيا حقيقية، وأنهما أرادا أن يعرفا تأويل رؤياهما من يوسف - عليه السلام - وأن تأويلها صادق وقد وقع؛ هو القول الراجح؛ وهو رأى الجمهور، وذلك لأن هذا القول يتفق مع النص القرآني الكريم، حيث جاء على لسان يوسف - عليه السلام - بعد ذلك: «وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ... الآية»(٢) فقد وقع تأويلها حيث انتهى خبر صاحب طعام الملك، إشعاراً بقتله وصلبه وأكل الطير من رأسه، أما الساقي وهو الذي اعتقد يوسف - عليه السلام - نجاته وقال له: «اذكرني عند ربك» فقد عاد إلى عمله الأصلي ساقيا للملك، ثم ظهر على ساحة الواقع المؤكد لذلك بعد أن رآى الملك رؤيته العجيبة وعجز الملأ عن تفسيرها، فقال الساقي النَّاجي «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ»(٣)

كما أن هذا النص القرآني الكريم يؤكد بوضوح أن الآخر «الخباز» لم ينج وإنما وقع عليه الصلب وأكل الطير من رأسه، كما أول يوسف - عليه السلام - له رؤياه، قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين، فقال لهما يوسف - عليه السلام -: ما لي أراكما مكروبين؟ قالا: سيّدنا؛ إنا رأينا ما كرهنا، قال: فقصَّا عليَّ، فقصا عليه، قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام(٤).

(١) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٨.

(٢) يوسف/ ٤٢. (٣) يوسف/ ٤٥.

(٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٩٠.



أما القول الثاني، وهو القائل بأنهما تحالما ولم يريا شيئا فقول باطل لأنه يخالف النص القرآني الذي أكد بعد ذلك صدق الرؤيا وصدق التأويل. ثم إن الفتيين لم يكونا في حاجة إلى ادعاء التحالم والكذب على يوسف - عليه السلام - حيث أنهما أقرًا له بالإحسان الذي دفعهما إلى التوجه إليه وحده دون غيره ليؤول لهما رؤياهما «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»، وقد كان مجال تأويل الرؤى على يد يوسف - عليه السلام - مفتوحا أمام أهل السجن جيمعا، ومعلوم للكل كذلك.

وأما القول الثالث: والقائل بأن الساقي صادق والخباز كاذب، فقول مردود من أصله، لأنه يخالف النص القرآن الكريم الذي حكى صدق الرؤيين وصدق التأويل، ثم إن هذا القول قد فرَّق بين رؤيَيْن صدقا وكذبا بلا دليل، كما أنه يحمل بين طياته دليل بطلانه إذ يقول: إن المصلوب منهما (الخباز) كان كاذبا، ولو كان الخباز كاذبا في رؤياه وأنه لم ير شيئا لما صُلِب، لأن التأويل حينئذ سيقع على غير محل، وكونه صلب بدلالة السياق القرآني، فهذا دليل على أن رؤياه رؤيا صدق لا كذب فيها، هذا، والله أعلى وأعلم.

الأمر الرابع:

أقوال المفسرين في المراد من الإحسان في قوله: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

القول الأول: وهو قول الجمهور، ويرى أن معنى قوله: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي العالمين الذين أَحْسَنُوا الْعِلْمَ، لأنهما رَأَيَا منه مَا عَلِما أنه عالم[1]

القول الثاني: وهو قول الضحاك ابن مزاحم، ويرى أنَّ إحسان يوسف - عليه السلام - كان إحسانا اجتماعيا من حيث معاملته الحسنة أهل السجن، روي ابن جرير الطبري عن الضحاك بن مزاحم أن رجلا سأله عن قوله: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا احتاج جمع له، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له[2]

---

(١) انظر تفسير القرطبي/ ٩/ ١٩٠.

(٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٦.



القول الثالث: وهو قول قتادة، ويضيف إلى إحسان يوسف - عليه السلام - الاجتماعي، الإحسان التعبدي، فقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» قال: كان إحسانه فيما ذُكر لنا، أنه كان يُعَزِّي حزينهم، ويداوي مريضهم، ورأوْا منه عبادة واجتهاداً فأحبُّوه[١]

القول الرابع: وهو قول ابن اسحق، ويرى أنَّ وصفهما ليوسف - عليه السلام - في قولهما: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» مشروط بتأويله رؤياهما تأويلا يرضيهما،

فقد روي ابن جرير عن ابن إسحاق قال:

استفتياه في رؤياهما وقالا له: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إن فعلت[٢]

وهناك أقوال ثلاثة أُخَر ذكرها الإمام الماوردي ولم ينسبها لأحد وهي:

(أ) أنه كان - عليه السلام - يأمرهم بالصبر ويعدهم بالثواب والأجر،

(ب) أنه كان لا يَرُدُّ عذر معتذر.

(جـ) أنه كان يقضي حقَّ غيره ولا يقضي حق نفسه،

وهذه الأقوال الثلاثة تدخل تحت مضمون القولَيْن الثاني والثالث المنسوبين إلى الضحاك وقتادة، فهي من أنواع الإحسان الاجتماعي لمن حوله، يضاف إليها الجانب التعبدي المتضمن توثيق صلتهم بالله تعالى وانتظار ثوابه وأجره.

الترجيح بين الأقوال السابقة:

أما القول الأول: وهو رأي الجمهور، والذي خص الإحسان هنا بمعنى العلم، وقد صوبه إمامنا الطبري يرحمه الله -[٣] فهذا القول وإن كان ملائما ومتناسبا مع الحال التي كان عليها الفتيان، حيث قصدا يوسف - عليه السلام - ليؤوّل لهما رؤياهما لعلمهما أنه عالم بتأويل الأحاديث، إلا أنه لا يتلاءم ولا يتناسب مع نظرة الفَتَيَيْن إلى

---

(١) الدر المنثور/ ٤ / ٥٣٧.

(٢) تفسير الطبري/ ٧ / ١٢ / ٢١٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري/ ٧ / ١٢ / ٢١٦.



إحسان يوسف - عليه السلام - فقد رأيا منه إحسانا في كل شيء، فهذا القول تفسير للإحسان بحسب مناسبة رؤيا الفتيين والتوجه إلى يوسف لتأويلها، وليس تفسيراً للإحسان العام المتعلق بيوسف - عليه السلام - في نظرهما، والذي يشمل الإحسان في كل أحواله،

وأما القول الثاني: والذي خص الإحسان هنا بالإحسان الاجتماعي المتضمن حسن معاملة يوسف - عليه السلام - مع أهل السجن، فقد ضيَّق معنى الإحسان وخصَّه ببعض معناه بلا مخصِّص، وبلا دليل يدل على ذلك.

وأما القول الثالث: وهو الذي أراد بالإحسان في الآية الكريمة الإحسان الاجتماعي، والإحسانالتعبدي، فهو أقرب الأقوال المذكورة لما يفهم من معنى الإحسان، إلا أنه لم يكمل دائرة الإحسان الكلية التي يقصدها الفتيان من قولهما له - عليه السلام - «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

وأما القول الرابع: والذي يفهم منْه أنهما يريان إحسانا له - عليه السلام - مشروطا بتأويل رؤياهما - (إن فَعَلْت) - فهذا الشرط يناقض النص القرآني الكريم «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» حيث أكَّدَا له أنهما يريان أنه من المحسنين قبل تأويله لرؤياهما، وأن هذا هو الذي جعلهما يخصَّانه دون أحد غيره بطلب التأويل، ثم إن هذا القول يناقض الواقع أيضا، حيث إن صفة الإحسان ثابتة له - عليه السلام - عند الفتَيَيْن منذ أن التقيان به أول مرة، وهذه هو رأيهما فيه في الحاضر والمستقبل أيضا.

الترجيح:

والذي يرجحه العبد الفقير أن الإحسان الذي يقصده الفتيان من قولهما له: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أنه إحسان عام يشمل كل ألوان الإحسان، فقد رأيا منه - عليه السلام - إحسانا في كل أحواله، وقَدْ أطلق القرآن الكريم الإحسان ولم يخصه بنوع منه، فالصواب أن يظل على إطلاقه، ليعم كل إحسان، من تأويله للرؤيا، لأهل



السجن، ومن العلم الذي علمه ربه إياه فنشره بين المسجونين، ومن الإحسان الكامل في معاملته لمن حوله من المسجونين،

يقول الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله:

فَهُمَا مَا وَصَفَاهُ بالإحسان إلا لغلبة ظهور هذه الصفة على يوسف - عليه السلام - في جميع معاملاته، كما بينه عز وَجَلَّ في آية سابقة: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»(١)

هذا، والله أعلى وأعلم.

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٢٠٨.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما ذكر السجن ودخول يوسف - عليه السلام - فيه، وكان سبباً ظاهراً في الإهانة، شرع سبحانه وتعالى يقصُّ مِنْ أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة، كل ذلك بيانا للغلبة على الأمر والاتصاف بصفات القهر مع ما في ذلك من بيان تحقّق ما تقدَّم به الوعد الوفيُّ ليوسف - عليه السلام - وغير ذلك من الحِكَم، فقال تعال:

«وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ»(١)

فهٰهنا محذوف، والتقدير: لما أرادوا حَبْسه حَبَسوه، وحذف ذلك لدلالة قوله «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ»(٢) قال الزجاج: فيه دليل على أنه حبس وإن لم يذكر ذلك(٣). فالمعنى، فسجنوه فدخل معه السِّجن غلامان سُجِنَا أيْضاً(٤)

ولفظة (مع) هنا تدل على معية ذات، أي أن الثلاثة، يوسف والفتَيَيْن دخلوا جميعا السجن في وقت واحد، فـ(مع) يَدُلُّ على معنى الصحبة واستحداثها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبَيْن له، لأن المقارنة التي يدل عليها لفظ (مع) هي الأصل، ولا يُعدل عنها ما أمكن، فالفتيان دخلا السجن مع يوسف - عليه السلام - في نفس اللحظة التي دخل فيها نفْسها رِجْلاً برجل، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وهو القول الراجح، كما سبق، والسِّجن

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٣٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٣٦.

(٣) زاد المسير/ ٤/ ٢٢٢.

(٤) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٢٩٨.



بكسر السين، المحبس، فهو اسم للبيت الذي يسجن فيه، والسَّجْن بفتح السِّين، مصدر سَجَنه سَجْناً، بمعنى الحبس في مكان محيط لايخرج منه، وفي الحديث: «ما من شيء أحق بطول سَجْن من لسان، والسّجّان: صاحب السِّجْن، ويقال: رجل سجين: مسجون، وكذلك الأنثى بغير هاء، والجمع سجناء وسجني، وقال اللحياني: امرأة سجين وسجينه، أي مسجونة، من نسوة سجني وسجائن[1]

مكان السّجن:

ذكر المقريزي أنه - عليه السلام - قد سُجِن ببوصير، من عمل (الجيزة) وقال: إن في هذا المكان أثر نبيَّيْن، أحدهما يوسف - عليه السلام - وقد سجن سبع سنين، وكان الوحْي ينزل عليه، والآخر موسى - عليه السلام - وقد بنى مسجد على أثر هناك يعرف بمسجد موسى، وسطح المسجد معروف بإجابة الدعاء[2]

«من هما الفتيان»؟

وكان الفتيان فيما ذكر: غلامين من غلمان ملك حاكم مصر الأكبر، أحدهما صاحب شَرَابه، والآخر صاحب طعامه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ» قال: أحدهما خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرابه. وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله.

كما أخرج ابن جرير وابن حاتم عن محمد بن اسحاق في قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ» قال: غلامان كانا للملك الأكبر الريَّان بن الوليد، كان أحدهما على شرابه، والآخر على بعض أمره، في سخْطَةٍ سخطها عليهما، اسم أحدهما «مجلث»، والآخر «نبو»، و(نبو) الذي كان على الشراب[3]

---

(١) انظر: اللسان/١٣/٢٠٣.

(٢) الخطط (المقريزي) ١/٣٨٧-٣٨٨.

(٣) انظر تفسير الطبري/٧/١٢/٢١٤، والدر المنثور/٤/٥٣٥، وتفسير ابن أبي حاتم/٧/٢١٤١.



سبب حبس الفتيين:

أخرج ابن أبي حاتم والطبري عن السدّي قال: غضب الملك على خبازه بلغه أنه سَمَّه فحبسه، وحبس الساقي، وظن أنه مالأه على السّم، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾(١)

وقد أورد أكثر المفسرين تفصيلا لسبب حبس الفتيين خلاصته أن جماعة أهل مصر أرادوا المكْر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالا لِيَسُمَّا الملك في طعامه وشرابه، فأجابا هم، ثم إن السَّاقي نَكل - رجع - عنه، وقبل الخبَّاز الرشوة فسَمَّ الطعام، فلما أحْضِر الطعام والشراب قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب، فشربه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كل من طعامك فأبى، فجُرِّب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما(٢) هذا، والذي يظهر أن الساقي لم يشترك من أول الأمر مع الخبَّاز في مؤامرة قتل الملك بالسمّ، ولكنه حَبَسَه مع الخباز من باب الاحتياط حتى يتبين له حقيقة الأمر، فلما تحقق من ذلك أخرجه وأعاده ساقيا له كما كان، لأن الملك لو علم أن الساقي رغب في الاشتراك في مؤامرة قتله أول الأمر ثم ندم ورجع، لما أعاده ليكون مسئولا عن شرابه، إذ قد تسوّل له نفسه مرة أخرى أن يفعل ما ندم عليه وَتَركَه، فيكون في ذلك نهاية حياة الملك، وهذا ما لا يفعله عاقل بنفسه، فكيف بمثل هذا الملك.

الحكمة من دُخول الفتيين مع يوسف - عليه السلام - السجن في نفس اللحظة:

شاءت حكمة الله تعالى أن يدخل مع يوسف - عليه السلام - السِّجن فَتَيَان في نفس الوقت الذي دخل فيه، وليس ذلك من باب المصادفة والاتفاق، ولكنه تقدير

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٤ وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٤٢.

(٢) انظر: تفسير البغوي/ ٤/ ٢٤٠.



العزيز العلم[1] الذي برحمته - جل شأنه - قضى أن يقترن دخوله معهما، فالمعروف أن المرأ أكثر إلْفاً لمن كان في مثل سنّه، هذا صحيح بالنسبة للصغار والكبار، وكذلك بالنسبة للفتْيان بطبيعة الحال، فكان ذلك سلْوَةً له وعزاء، وممَّا يخفف عنه وطْأة الألم الذي انْتابه للظلم الذي حلَّ به[2] إضافة إلى أن أحد هذين الفتيين مَثَلُه قريب من مثل يوسف - عليه السام - إذ ألْقِيَ به في السجن على سبيل الاحتياط مع أنه برئ، وهو ساقي الملك، هذا من ناحية يوسف - عليه السلام - أما من ناحية من أصدروا القرار بحبس يوسف - عليه السلام - وهم المشار إليهم بـ(لهم) في قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» فلعلهم تعمدوا إدْخال يوسف - عليه السلام - مع التفيَيْن في نفس اللحظة على حساب أنه ممَّن علقت به شبهة المؤامرة على قتل الملك، إضافة لإشاعة اتهامه بأنه أراد سوءاً بامرأة العزيز[3] وبهذا يكونوا قد أوقعوا التشويش على حدث سَجْنه[4].

ودخل يوسف - عليه السلام - السجن راضيا مستسلما لقضاء الله تعالى:

دخل يوسف - عليه السلام - السِّجن، لا كما يدخله مجرمٌ قتل نفْسا، أو لصٌ سرق متاعا، بل دخله دخول مظلوم لم تنصفه كلمة القضاء، فأسلم نفسه لله تعالى يرجو عدالة السماء، دخله مرتاح الضمير، رضِيَّ النفس مطمئنَّ الفؤاد[5]...

وكان السجن ابتلاء جديدا له - عليه السلام - تذوّق فيه جمال الصبر، واستعْذَب بين جنباته المصاعب والمتاعب،....

ووجد في ظلامه نور النفسه المؤمنة، وفي رقْعته الضَّيقة المحدودة منطَلَقاً لروحه،

---

(1) انظر: تفسير المنار/ 12/ 303 والتفسير الواضح/ 2/ 79.

(2) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ 290.

(3) انظر: التفسير القرآني للقرآن الكريم/ 12/ 1271.

(4) انظر: تاريخ الأنبياء/ 138.

(5) قصص القرآن (جاد المولى) 88-89.

رفع المسهم

بعيداً عن لؤْم الناس وغدرهم وخيانتهم ومكرهم، فازدادت روحه صفاءا وسمواً، وازداد إلى الله تعالى قربا، وارتفع لديْه قدْراً[1]...

لقد كان السجن استجابة لما طلب من ربه تعالى وامتحانا لصدْقِ عزيمته في الفرار من الفتنة ودواعيها،..

ثم لقد كان هذا السجن هو الطريق الذي سلك بيوسف - عليه السلام - إلى المُلْك الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعه بين يديه، وأن يجعله خاتمة لهذه الرحلة الشَّاقَّة على أشواك الابتلاء، «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»[2][3]

ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف - عليه السلام - هو «الحلقة الأولى» من سلسلة أسباب رُقِيّه لوزارة المال بمصر، وأنه «النواة» التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم، ثم جاءت «بثمرة» رقيه العظيم[4].

وأشرق السجن بنور يوسف نبي الله الكريم:

نعم... فلقد أشرق السجن العام القريب من عاصمة مصر آنذاك بنور يوسف - عليه السلام - بل لقد ازدان السجن شرفاً وعلوّاً على كل من حوله بحلول يوسف فيه، وكيف لا، ويوسف نور من نور الله تعالى، نور توحيد وعبودية، نور رحمة وهداية، نور توفيق ورشاد، إنه نور من علمه الله تعالى علم تأويل الأحاديث،

نور من آتاه الله الحكم والعلم،

نور من توجه الله تعالى بتاج الإحسان،

نور من صرف الله عنه السوء والفحشاء،

نور من شهد له ربه أنه من عباده المخْلَصين،

نور من برأه الله تعالى من مكر المرأة بشهادة الشاهد والعزيز،

---

(١) تاريخ الأنبياء/ ١٣٨. (٢) يوسف/ ٢١.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٤١.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١/ ٦٧٩.



نور من قال عنه النسوة «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم»

نور من أقرت المرأة أمام النسوة أنها هي التي راودته فاستعصم،

نور من هُدِّد بالسجن والصغار إن لم يفعل ما حرَّم الله تعالى، فاختار السجن فراراً إلى الله.

نور من استجاب الله دعاءه فصرف عنه كيد النسوة ومكرهن به.

نور من وعده الله الذي لا يخلف وعده في رؤياه بأن يتم عليه النعمة وعلى آله بالنبوة والرسالة، كما أول أبوه يعقوب - عليه السلام - رؤياه،

لقد كان وجود يوسف في السجن إشراقه نور بهية إلهية، ملأت السجن نوراً رغم ظلمته وضيقه وإحاطته بأهله.

وعمل - عليه السلام - على تحويله إلى مجال من مجالات الدعوة إلى الله تعالى، فقد كانت تلك رسالته التي تشغل كل تفكيره، والتي كان ينتهز كل فرصة سانحة ليستغلها في أداء الرسالة.

إحسان يوسف - عليه السلام - لأهل السجن واجتماعهم على حبّه وتوقيره:

لا شك أن يوسف - عليه السلام - وهو الذي أعطاه الله ما أعطى ووهبه ما وهب، كان رحمة من الله تعالى وخيراً وبركة على أهل السجن جميعاً، لقد كان لهم هاديا ومرشدا وواعظا وناصحا، وكان بهم رحيما ودوداً شفوقا مواسيا، يؤكد كل ذلك ما وصفه به ربه تعالى من صفات كريمة لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين، قال السدي: وكان يوسف - عليه السلام - قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصِدْق الحديث وحسن السَّمْت وكثرة العبادة، صلوات الله وسلامه عليه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم(١).

وقال قتادة: بلغنا إن إحسانه أنه كان يداوي مريضهم ويعزّى حزينهم، ويجتهد

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٧.



لربه، وقال: لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم، واشتدَّ بلاؤهم، فطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، إن لهذا أجراً، إن لهذا ثوابا، فقالوا: يا فتي بارك الله فيك، ما أحسن وجهك، وأحسن خلقك، لقد بورك لنا في جوارك، ما نحب أنا كنا في غير هذا منذ حُبِسْنَا، لما تخبرنا من الأجر والكفارة والطهارة[1]،

وهكذا رآى فيه أهل السجن من آيات الحسن الخِلْقِيِّ والخُلُقِيِّ ما جعلهم جميعا ينجذبون إليه ويتعلقون به، وقد ألفوه - عليه السلام - إما قائما يناجي الخَالِقّ بعبارات لم تطرق معانيها الأسماع من قبل، ولم يذوقوا حلاوتها وجمالها، أو مشغولا بشئونهم، فكان موضع محبتهم وإجلالهم - مما مَهّدَ له - عليه السلام - سبيل دعوتهم إلى الله تعالى وترك عبادة الأصنام، كما عهدوا فيه القدرة الخارقة على تعبير الرؤي، فكان في نظر الجميع حتى مسئول السجن نفسه «من المحسنين» وهو ما وصفه الفتيان في قولهما الآتي:

قال تعالى: «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا»

«قَالَ أَحَدُهُمَا» مستأنف لا محل له، ولا يجوز أن يكون حالا، لأنهما لم يقولا ذلك حال الدخول، ولا جائز أن تكون مقدّرة، لأن الدخول لا يؤول إلى الرؤيا[2] وهذا الاستئناف مبنيٌّ على سؤال من يقول: ما صنعا بعد ما دخلا معه السجن؟ فأجيب «قَالَ أَحَدُهُمَا...» وهو الشَّرَابي واسمه (بنو)، ليوسف - عليه السلام -

«إِنِّي أَرَانِي» إني وما في حيزه في محل نصب بالقول، أي رأيتني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية[3]

«أَعْصِرُ خَمْرًا» أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جليَّة كأني أراها في اليقظة الآن وهي

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٦.

(٢) الدر المصون/ ٦/ ٤٩٧.

(٣) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٥.



أنني أعصر خمراً، أي عنبا ليكون خمراً لا لِيُشْرَب الآن، فتسمية العنب خمراً تسمية بما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر، وقراءة ابن مسعود وأُبَيّ في الشَّوَاذّ «أعصر عنبا» تفسير لا قراءة، والقراءة المتواترة عنهما «أَعْصِرُ خَمْرًا»

وروي عن ابن عباس في قوله «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» قال: عنبا، وما رُوِي من أنَّ عرب غسّان وعمان وأذرعان يُسَمُّون الخمر عنَبا، كما رُوِي عن الضحاك في ذلك قوله «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» قال: عنبا، أهل عمان يسمون الخمر عنَبا، وفي رواية عنه أيضا، أرض كذا وكذا يدعون الخمر عنبا، فمحمول على هذا النوع المخصوص من العنب لكثرة مائه وسرعة اختماره، دون ما يؤكل في الغَالب تفكُّهاً لِكبر حجمه واكتناز شحمه وقله مائه، ولكل منهما أصناف، فما كل العنَب يعصر لأجل التخمير[1]،

والعَصر: الضغط باليد أو بحجر أو عن طريق آلة على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من المائع، زيت أو ماء، أو غيره، والعصير: ما يستخرج من المعصور، سُمِّيَ باسم محله، أي معصور من كذا[2] والعصارة: نفَاية ما يعصر.

وعن رؤيا الساقي يقول عكرمة: أتاه فقال: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنب، فنبتَتْ فخرج فيه عناقيد، فعصر تهن ثم سقيتهنّ الملك، فقال: تمكث في الجسن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرا[3]

وهذه الرؤيا رؤيا صادقة، وليست تحالما من الساقي، ولا اختباراً منه لعلم يوسف - عليه السلام -.

فإن قيل: كيف عرف يوسف - عليه السلام - أن المراد من قوله: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» رؤيا المنام؟

الجواب: لوجوه: (الأول): أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله (أعصر) يغنيه عن ذكر قوله: «أراني» (الثاني): دَلَّ عليه قوله: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ»[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٤، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٠٨، وتفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٦٩.

(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٣٧.



قوله تعالى: «وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ»

«وَقَالَ الآخَرُ» وهو الخبّاز، واسمه (مجلث) وقيل: ملحب، ليوسف - عليه السلام - «إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا...» وفي مصحف عبد الله بن مسعود «ثريداً» بدل خُبْزاً، وهي تفسير لا قراءة، أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة الآن، وهي أني «أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا...» والحَمْل: رفع الشيء بعماد تقلّه، والخبز اسم لقطعة من دقيق يُعجن بالماء ويوضع قرْب النار حتى ينضج ليؤكل، ويسمى رغيفاً أيضا، وجمع الخبْز (أخباز)

«تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ» يعني من الخبز، أي تنهس منه، صفة للخبز، أو استئناف مبني على السؤال، والطير: جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع طيور وأطيار.

وعن رؤيا «الخباز» فقد روي عن ابن مسعود والشعبي أن الذي رآى الخبز قال: كنت أرى أني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه[1] وهذه الرؤيا صادقة وليست تحالما من الخباز ولا اختباراً منه ليوسف - عليه السلام -

ثم قالا له بعد أن قَصَّا رؤياهما عليه:

قال تعالى: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ»

أي أخبرنا بتأويل ما ذكر من الرؤيَيْنِ، أو ما رُئِيَ بإجراء الضمير مجري ذلك بطريق الاستعارة، فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد، كما في قوله:

فيها خطوط مِنْ سَوَادٍ وبلق *** كأنه في الجلد توليع البهق

أي كأن ذلك، والسِّر في إجراء الضمير مجري اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذُكِرَ أو بما رُئي؛ أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرّض لحال من أحوال، فلا يَتَسَنَّى تأويله بأحد الاعتبارَيْن إلا بإجرائه

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٧-٣٠٨.



مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جري عليه في الكلام فتأمل، هذا إذا قالاه معا، أو قاله أحدهما من جهتهما معا، وأما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه؛ فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدَّدَ المرجع، بل عبارة كل منهما تنبئ بتأويله مستفسراً لما رآه، وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عزّ وجلّ «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ»(١) فإنهم لم يخاطبوا بذلك دفعه، بل خوطب كل منهم في زمانه بصيغة مفردة خاصة به(٢).

كلمة «تأويل» في القرآن الكريم:

وردت كلمة (تأويل) في القرآن الكريم سبع عشرة مرَّة، وكانت لها أربع حالات:

١ - «تأويلاً» مصدر منصوب على التَّمييز، مرَّتان

٢ - «تأويله» مضاف إلى الضمير والهاء، ثماني مرات

٣ - «تأويل الأحاديث والأحلام والرؤيا» مضاف للاسم الظاهر خمس مرات

٤ - «تأويل» مجرد عن الإضافة؛ مرفوع أو مجرور مرَّتان

أما السور التي وردت فيها كلمة (تأويل) فكانت سبع سور هي:

١ - يوسف «٨» مرات، ٢ - آل عمران «مرتين»

٣ - الأعراف «مرتين» ٤ - الكهف «مرتين»

٥ - النساء «مرة واحدة» ٦ - يونس «مرة واحدة»

٧ - الإسراء «مرة واحدة»(٣)

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معاني مختلفة، ومن ذلك:

(أ) وروده بمعنى التفسير والتعيين، كما في قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

---

(١) المؤمنون/ ٥١.

(٢) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٦، وانظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٠، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٠٨.

(٣) التفسير والتأويل في القرآن/ ٤٢-٤٣.



فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ» (آل عمران: ٧)

(ب) وروده بمعنى العاقبة والمصير، كما في قوله تعالى: «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» (النساء: ٥٩)

(جـ) وروده بمعنى وقوع المخبر به، كما في قوله تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ» (الأعراف: ٥٣) وقوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ»

وقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» (يوسف: ٦) وقوله تعالى: «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا» (يوسف: ٣٧) قوله تعالى: «أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ» (يوسف: ٤٥) قوله تعالى: «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ» (يوسف: ١٠٠)

(د) وروده بمعنى تأويل الأعمال، كما في قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً» (الكهف: ٧٨) فمراده بالتأويل هنا؛ تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر – عليه السلام – من خرْق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال(١).

استعمال التأويل عند اللغويين:

التأويل كان يستعمل عند اللغويين من رواة ومحدّثين في معنَيَيْن:

(الأول) في معنى: المرجع والمصير والعوْد. وذلك حتى بداية القرن الخامس الهجري، حيث لم يرد إلينا في المعاجم التي وضعت في هذه الفترة، – وهي المصدر الوحيد لكل المعاجم التي وضعت بعد ذلك – ما يخالف ذلك.

(١) التفسير والمفسرون/ ١/ ١٦-١٧.



(الثاني) في معنى التفسير والتدبير والبيان. كما وضّح ذلك ابن منظور في لسان العرب، ونقله عن الليث والجوهري،...

وهذان المعنيان هما اللذان استعملا في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم ولم يعرف لهما معنى ثالث.

وقد استعمل الرسول - ﷺ - كلمة (التأويل) في كِلاَ المعنيين، فمن استعمالها على لسانه ﷺ بمعنى العاقبة والمصير، ما روي عنه - ﷺ - أنه لما نزلت الآية الكريمة: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ... الآية[1] قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد[2].

ومن استعمالها في المعنى الثاني - التفسير والتدبّر والبيان - ما دعا به رسول الله - ﷺ - لابن عباس - رضي الله عنهما -: «اللهم فقِّههُ في الدين وعلِّمه التأويل[3] وحين نزلت الآية الكريمة «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ»[4] قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله، فالتأويل الذي استعمله ابن عباس ونسبه إلى نفسه، هو العلم به، والذي دعا به الرسول - ﷺ - له هو معرفة معاني الآيات التي نقلت عنه.

المعنى الثالث للتأويل:

ثم نجد ابن منظور في القرن السابع الهجري ينقل لنا عن ابن الأثير في معنى التأويل: أنه نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِكَ ظاهر اللفظ. وهذا المعنى ينقله الزبيدي في تاج العروس عن ابن الكمال إذ يقول: قال ابن الكمال: والتأويل: صَرْفُ الآية عن معناها إلى معنى تحتمله، إذا كان المعنى المحتمل الذي تُصْرَفُ إليه الآية موافقا للكتاب والسنة، ثم ينقل عن جمع الجوامع للسّبْكي أن التأويل: هو حمْل الظاهر على المحْتَمَل المرْجُوح، فإن حُمِلَ لدليل فصحيح، أو لما يظن دليلا ففاسد، أو لا لشَيْءٍ فَلَعِبٌ لا تأويل،

(١) الأنعام/ ٦٥.

(٢) حديث ورد في الترمذي/ ١١ / ١٨٧ وقال عنه: حديث حسن.

(٣) سبق تخريجه. (٤) آل عمرن/ ٧.



وهذا المعنى الثالث للتأويل من نتاج العصور المتأخرة عن عصر الرواية والاستشهاد والاحتجاج[1]

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير: هو علم نزول الآية، ونصها، والأسباب التي نزلت فيها، وبيان وضع ألفاظ حقيقة ومجازاً.

والتأويل: إخبار عن حقيقة المراد من الآية، وقال الراغب: إن التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل في الألفاظ، أما التأويل فأكثر ما يستعمل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهيّة، أما التفسير فيستعمل فيها وفي غيرها[2]

وغالبا ما يرتبط التأويل بالواقع كقوله تعالى: «هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ»[3] أما التفسير فهو مرتبط بالفهم الذهني على حسب قواعد التفسير.

قوله تعالى: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

«إِنَّا نَرَاكَ» تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه - عليه السلام - أي: إنا نعتقدك[4] فقد رأيناك على حال علمنا بها علما هو كالرؤية أنَّكَ[5]

«مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي في كل أمورك من علم وعبادة وحسن خلق وحسن عشرة ومودة ورحمة بالمسجونين، ويدخل في الإحسان دخولا أوّليا علم تأويل الرؤيا الذي اشتهر به - عليه السلام - داخل السجن، قال السدي: لما دخل يوسف - عليه السلام - السجن وسألوه عن عمله قال: أنا أُعَبِّرُ الرؤيا[6]

---

(١) انظر: الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل / ٣١-٣٣.

(٢) المرجع السابق / ٤١-٣٢.

(٣) يوسف / ١٠٠.

(٤) روح المعاني / ٦ / ٤٣٠.

(٥) نظم الدرر / ٤ / ٣٨.

(٦) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢١٤.



وهذا الحكم بالإحسان من الفتيين لا يتأتي إلا بطول المعاشرة وحسن الصحبة، وما قالا هذا إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما جعله - عليه السلام - كعبة قصَّادهم وقبلة استفتاءاتهم[1]

وهذا القول منهما «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» يدل على أن الإحسان ظاهر في يوسف - عليه السلام - أي أنهما ليسا محتاجيْن لتتبّع عمله.. لأن كل ما يعمله يوسف هو في مقام الإحسان... فكأنما المسألة واضحة كرؤية العيْن لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر[2]

صفة الإحسان المتمثلة في يوسف - عليه السلام -:

وتعود بنا هذه الصفة «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إلى مشهد سابق وصف الله تعالى به يوسف بهذه الصفة «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»[4] فعندنا الآن آيتان، في الأولى ما وصف الله تعالى به يوسف - عليه السلام - وفي الثانية ما وصف به الفتيان يوسف في السجن، ويلقانا هذا الوصف مرة ثالثة بعد أن أصبح يوسف - عليه السلام - على خزائن الأرض «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»[5]

كما نلتقي مع هذا الوصف مرة رابعة في قول الله تعالى على لسان إخوة يوسف: «قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[6]

ثم نلقا هذه الصفة مرة خامسة على لسان يوسف - عليه السلام - «قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»[7]

ثم نلقاها مرّة سادسة وأخيرة، على لسان يوسف أيضا، «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ

---

(١) تفسير المراغي/ ٤/ ١٢/ ١٤٥.
(٢) معجزات الأنبياء والرسل/ ٧٢.
(٣) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٠.
(٤) يوسف/ ٢٢. (٥) يوسف/ ٥٦.
(٦) يوسف/ ٧٨. (٧) يوسف/ ٩٠.

ملاحظة: رجاء كتابة حاشية رقم (٣).



من بَعْـدِ أَن نَّزغَ الشَّـيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَـاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»(١)

أرأيت... كل من حول يوسف شهد له بالإحسان، وكان دائما كما وصفه ربه وكما شهد له كل من حوله من المحسنين، أحسن به ربه، وأحسن هو ما استطاع إلى الإحسان سبيلا(٢)

إلى هنا «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» انتهى كل واحد من الفتيين من قص رؤياه على يوسف - عليه السلام - وانتظرا منه أن يؤوّل لهما مباشرة رؤياهما، لكنه - عليه السلام - رأى أن ينتهز هذه الفرصة السانحة للهداية والإرشاد، ليقدّم لهما أوّلاً ما هو أنفع لهما، وأهم من تأويل الرؤيا، وأعظم من كل شيء، وهو ما سنراه بحول الله تعالى في الآيات الكريمة التالية.

مضمون الآية الكريمة:

شاءت رحمة الله تعالى وحكمته أن يدخل مع يوسف - عليه السلام - السجن فتيان، أحدهما قائم على شراب الملك، والآخر مسئول عن طعامه، وحسنت معاشرتهما ليوسف - عليه السلام - ورأوا فيه كل ما هو جميل وكريم وأحبّاه ووثقابه وبعلمه وخلقه ودينه، وبعد مضى مدة من الزمان رأى كل وحد منهما رؤيا أهمّته وأحزنته، فلم يجدا خيرا من يوسف - عليه السلام - ليخبرهما بتأويل رؤياهما، وكان - عليه السلام - يفسر الرؤيا للمسجونين، فاتجها إليه وأخبره كل واحد منهما برؤياه، أما الساقي فقد رأى في المنام أنه يعصر خمرا، وأما الخباز فقد رأى في المنام أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، ثم قال كل واحد منهما نبئني بتأويل ما رأيت، أي بتفسيره الذي يَؤُولُ إليه في الخارج، وعلّلوا تَوّجَههُم إليه ومسألتهم التأويل لرؤياهما

(٦) يوسف / ١٠٠.

(٧) انظر: دروس من سورة يوسف / ١٠٢-١٠٥.



برؤيتهم إياه من المحسنين في كل ما رأوا منه من كمال صلة بربه وحسن معاشرة لكل من حوله في السجن، وانتظرا منه - عليه السلام - أن يؤول لهما رؤياهما في الحال، ولكنه رأى أن يقدم لهما قبل تأويل الرؤيا ما هو خبر من التأويل ومن كل شيء وهو ما تتحدث عنه الآيات الكريمة الآتية بعد.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - رحمة الله تعالى بعبده ورسوله يوسف - عليه السلام - إذ دخل معه السجن فتيان فأَنِسَ بهما وأَنِسَابه، وكان لأحدهما وهو الساقي أثرا طيبا عليه حيث كان سببا في إخراجه من السجن بعد تأويله لرؤيا الملك.

٢ - ما أبغض السجن وما أكرهه وما أشد عذابه على النفس، لكنه إذا كان الطريق الوحيد لدوام رضاء الله تعالى والبعد عن سخطه وعما حرمه الله، فنعم إذا هذا السجن، إنه حينئذ يكون أعظم من كل ما في دنيا الناس السافلة.

٣ - كم في السجن من المظلومين الأبرياء، وكذلك كان يوسف - عليه السلام -.

٤ - ارتباط الرؤيا الصادقة بحياة الإنسان ارتباطا وثيقا، وغالبا ما تدل على الوقائع التي تحدث في المستقبل، ولها رموز وإشارات يقتبس منها المؤول دلالات تفسيرها.

٥ - الرؤيا الصادقة تكون للمؤمن كما تكون للكافر، وهي للمؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، لكنها ليست للكافر كذلك.

٦ - ضرورة أن يكون العالم الداعي إلى الله تعالى مثلا أعلى وقدوة صالحة وسيرة طيبة لكل ما يدعو إليه من هدى ونور، هنالك يكون أهلا للتقدير والتوقير، ومحلا للقبول، ومقصدا يبتغيه ويطلبه كل طالب للعلم والهداية.

٧ - الإحساس معلوم بالفطرة السليمة حتى من الذين ليس لهم منهج حق يتبعونه، فقد قال الفتيان ليوسف ولما يسلما بعد (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

٨ - الإحسان هو درجة الأتقياء الذين أخلصوا دينهم لله وراقبوه في السر والعلن،



هو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما صح في الحديث الشريف.

٩ - من سنة الله تعالى في خلقه أن يجعل لأهل الإحسان نصيبا من أثره العظيم في الدنيا قبل الآخرة، وهذا ما حدث بعدُ ليوسف - عليه السلام -.

رفع
المسهم

«الآية السابعة والثلاثون»

أولاً - النصّ القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«طعام» الطعام: اسم جامع لكل ما يؤكل، وقَدْ طَعِمَ طعْماً فهو طاعِمٌ إذا أكل أو ذاق، وفي التنزيل: «فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا»(١)(٢) والطَّعْم: تناوُل الغذاء، ويسمى ما يُتَناول منه طعْم وطعام(٣) قال تعالى: «وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ»(٤) وقال عزّ ذكره: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً»(٥) وقال سبحانه: «الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ»(٦)

«مِلَّةَ قَوْمٍ»

المِلَّةُ كالدين، وهو اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين، أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي - ﷺ - الذي تُسنَدُ إليه، نحو «اتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيم» - «واتبَعْت مِلَّة آبائي» ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى ولا إلى آحاد أمَّة النبيّ، ولا تُستَعْمل إلا في حَمَلة الشرائع دون آحادها.

لا يقال: مِلَّةَ الله، ولا يقال: مِلَّتِي ومِلَّة زيد كما يقال: دين الله ودين زيد،

---

(١) الأحزاب/ ٥٣. (٢) اللسان/ ١٢/ ٣٦٣.

(٣) المفردات (كتاب الطاء) ٣٠٤.

(٤) المائدة/ ٩٦. (٥) الإنسان/ ٨.

(٦) قريش/ ٣.



ولا يقال: الصلاة ملّة الله، وأصل المِلَّة من أمْلَلْتُ الكتاب، قال تعالى: «فَلْيُمْلِلِ الذِي عَلَيْهِ الحَقُّ»(١) وتقال: المِلَّة، اعتباراً بالشيء الذي شرعه الله تعالى،

والدين، يقال اعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة(٢)

«الآخِرَةُ»

آخِر: يُقَابَلُ به الأول، وآخر يقال به الواحد، ويُعَبَّرُ بالدار الآخرة عن النشأة الثانية، كما يُعَبَّرُ بالدار الدُّنيا عن النشأة الأولى، نحو «وإنَّ الدَّارِ الآخِرَةُ لَهِيَ الحَيَوَان»(٣) والآخرة: دار البقاء، صفة غالبة(٤) وهي تأنيث الآخِر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى: «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»(٥)

«كَافِرُونَ»

الكُفْرُ بالضَّمِّ نقيض الإيمان، يقال: كَفَر بالله يكفُرُ كفْراً وكفوراً وكفراناً، فهو كافر، والجمع: كُفَّار. والكُفْر مشتقّ من السَّتْرِ، ووصْف الليل بالكافر لِسَتْرِه الأشخاص، والزَّرَّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسْمٍ لهما، كما قال بعض أهل اللغة لما سمع: ألْقَتْ ذكاءُ يمينها في كافر، والكافُور: اسم أكمام الثمرة التي تكَفِّرُها، قال الشاعر:

كالكرم إذا نادي من الكافور. وكُفْرُ النِّعْمَة وكفرانها: سترها بترْك أداء الشكرها، وأعظم الكُفْر: جحودُ الوحدانيَّة، أو الشريعة أو النبوة، والكُفْرَان، في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكُفْر في الدين أكثر، والكُفُور؛ فيهما جميعا «فأبى الظَّالمون إلا كُفُوراً» - «فأبى الناس إلا كُفُوراً»(٦).

---

(١) البقرة/ ٢٨٢.

(٢) المفردات (كتاب الميم) ٤٧١-٤٧٢.

(٣) العنكبوت/ ٦٤. (٤) اللسان/ ٤/ ١٤.

(٥) القصص/ ٨٣.

(٦) المفردات (كتاب الكاف) ٤٣٣-٤٣٤، وانظر: اللسان/ ٥/ ١٤٦-١٤٧، والقاموس المحيط (كفر) ٦٠٥.

رابعاً - الإعراب:

قوله: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ»

(لا) نافية، و(يأتيكما طعام) فعل مضارع مفعول به وفاعل. و(تُرْزَقَانه) صفة لطعام.

«إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ» استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال، أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حالا ما نبَّأتكما به، بأن بيَّنت لكم ماهِيَّتَهُ وكيْفِيَّتَه وسائر أحواله وفي موضع الجملة بعدها وجهان: أحدهما، أنها في محل نصب على الحال، وساغ ذلك من النكرة – طعام – لتخصّصها بالوصف، الثاني، أن تكون الجملة في محل رفع نعْتاً ثانيا لـ(طعام) والتقدير: لا يأتيكما طعام مرزوق إلا حال كونه منبِّئاً بتأويله، أو مُنَبَّئاً بتأويله، والضمير في (بتأويله) يعود على الطعام.

«قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا»

(قبل) الظاهر أنها ظرف لـ(نبأتكما) ويجوز أن يتعلَّق بـ(تأويله) أي: نبأتكما بتأويله الواقع قبل إتيانه

وجملة (أن يأتيكما) مضافة للظَّرْف، وسماه تأويلا بطريق المشاكلة، لأن الكلام في الرؤيا، أو المعنى، إلا نبَّأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع.

«ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»

«ذلكما» إشارة إلى التأويل لهما، وهو مبتدأ، و(مما) خبر، وجملة «عَلَّمَنِي» صلة، و(علمني ربي) فعل ومفعلو به وفاعل.

«إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» استئناف إخباري بما هو عليه، ويجوز أن يكون تعليلاً لما قبْله، أي علَّمني ذلك وأوحي إليّ، لأنِّي رفَضتُّ مِلَّة أولئك واتبعت ملة الأنبياء وبعبارة أخرى فقول: «إني تركت» استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما تقدّم وتعليلا له، كأنه قيل: لماذا علَّمك ربك تلك العلوم الجليلة الشأن؟ فقال: لأني تركت



دين الكفـر الذي اجـتـمـعـوا عليـه من الشِّـرْك وعبـادة الأوثان[٢] و(لا يؤمـنـون) صـفـة لـ(قوم) و(بالله) متعلّق بـ(يؤمنون)

﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هم» تأكيد لـ(هم)، وكافرون خبر (هم).

البلاغة:

في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا﴾ مجاز، لأن الطعام يُؤْتَى به ولا يأتي[١].

---

(١) انظر: روح المعاني/ ٦/ ٤٣١، والدر المصون/ ٦/ ٤٩٦-٤٩٧، إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤.

رفع المسـاهم

خامساً - الموقف من المتعارضات، ويتضمن أربعة أمور:

الأمر الأول: هل كان الإتيَان بالطعام للفتيين في اليقظة أو المنام؟

- **ذهب بعضُ المفسرين إلى أنّ الإطعام للفتَييْن كان مناما.**

ذكرُ بعَض من قال بذلك من أهل التفسير:

قال السُّدِّي: قال يوسف لهما: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ» في النَّوْم «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ» في اليقظة.

وقال ابن اسحاق: قال يوسف لهما: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه» يقول في نومكما «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ» ويعني بقوله (بتأويله) ما يئول إليه ويصيرُ ما رأيا في مَنَامهما من الطعام الذي رأيا أنهُ أتَاهما فيه.

وقال الطبري: (قال) يوسف للفتَييْن اللذين استعبراه الرؤيا (لا يأتيكما) أيها الفتيان في منامكما (طعام) ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله[1]

- **وذهب أكثر المفسّرين إلى أنَّ الإتْيَان بالطعام للفتَييْن كان في اليقظة.**

ذكر بعض من قال بذلك من أهل التفسير:

قال الحسن: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ» في اليقظة «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ» قبْل أن يصلكما، لأنه كان يُخْبر بمَا غَاب مثل عيسى عليه السلام[2].

وقال ابن جريح: وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفاً فأرسل به إليه، فالمعنى، لا يأتيكما طعَام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا (ترزقانه) أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره، ويحتمل يرزقكما الله به[3]

وقال الإمام الزمخشري:

ينبئهما يوسف بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبْلَ أن يأتيهما ويصفه لهما

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٧.

(٢) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٦٩.

(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٩١.



ويقول: اليوم يأتيكما طعام مِنْ صفته كيْت وكيْت، فيجدانه كما أخبرهما[1] هذا، وقد أشار الكلبيُّ إلى الوجهيْن السابقيْن فقال:

وفيه - أي الطعام - وجهان: أحدهما، أنه قال يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام قبلْ أن يأتيهما، وذلك مِنَ الإخبار بالغيوب الذي هو معجزة الأنبياء، والآخر، أنه قال: لا يأتيكما طعام في المنام إلا أخْبَرْتكما بتأويله قبْل أن يظهر تأويله في الدنيا.

الترجيح:

والراجح أن المراد من الإتْيان بالطعام للتفيَيْن، الإتْيَان بِهِ لهما يقظة في السجن، سواء جُلب لهما من الحكومة أو من بُيُوتهما أو من أيّ مكان آخر.

يقول الإمام أبو حيان: والظاهر أن قوله (لا يأتيكما) إلى آخره، أنه اليقظة[2] وبهذا قال الإمام أبو الطيب القنوجي البخار[3] وقال الإمام الألوسي: وإلى ما ذكرنا من حمْل الإتْيان على الإتيان في اليقظة ذهب غيْرُ وَاحد مِنَ الأجلَّة ورُوي عن ابن جريح[4]

ويرى العبد الفقير: إن قوله «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه... الخ» يعطي دلالة واضحة على أن ذلك الإنْبَاء لذلك الطعام قد تكرَّرَ حدوثُهُ في كل مناسبة، ولا يُعْقَل أنَّ الفتيَيْن كانا دائما يريَانِ في المنام الطعام الذي سيأتيهما في النهار، فالمناسب أن الإتيان بالطعام للْفَتَيَيْن كان في اليقظة،

يقول الدكتور حسن محمد باجودة:

إن فضل الله تعالى على يوسف - عليه السلام - جعله قادراً علىَ تعْيِين نَوْع الطعام الذي سيصل للفتَيَيْن في المسْتَقْبل دون أن تكون هناك قاعدة - أيْ لمعرفة نوع الطعام وما يتعلّقُ به كقاعدة الرؤيا - رمُوز أو إشارات - ينطلِق مِنها تأوِيلُ يوسف للطعام،

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٠.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٨.

(٣) فتح البيان / ٦ / ٣٣٥.

(٤) روح المعاني / ٦ / ٤٣١.



ثم يقول: إنّنا بصَدَدِ عمل هو الغاية في الإعجاز، فكيْف به وَهو يتكرَّرُ في كل مناسبة(1)،

وأما من ذهب إلى أن المراد بالإتيان بالطعام للفتييْنِ إنما هو في (الرؤيا) فهو بعيد، ولو كان الأمر كذلك لقال مثلا: لا تريان طعاما في نومكما... الخ،

يقول صاحب المنار، وقال بعضهم: إن المراد لا تريَانِ في النَّوْمِ طعاما يأتيكما إلاّ نبأتكما بتأويله، وهو بعيد، هذا، والله أعلى وأعلم.

الأمر الثاني:

هل أوحي إلى يوسف - عليه السلام - وحيَ النبوة قبل أن يسأله الفتيان عن رُؤيَيْهما؟

● **جمهور المفسرين،** على أن يوسف - عليه السلام - قد أوحيَ إليْه وَحْيَ النبَّوةِ والرسالة قبل أن يؤول للفتييْنِ رُؤيَيْهما بدليل ما جاء على لسانه من قوله: «ذَلِكُمَا مِمَّا علَّمَنِي ربِّي...»

وقوله «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...»

وقوله «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ...»

ذكر بعض من قال بذلك من أهل التفسير:

● قال الإمام الطبري: «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا» من فضل الله الذي تفضَّل به علينا، فأنعم إذ أكْرَمنا به، «وَعَلَى النَّاسِ» إذ أرسلنا إليهم دعاة إلى توحيده وطاعته، ثم ذكر أن ممَّنْ قال بذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - إذ قال: «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا» أن جعلنا أنبياء «وَعَلَى النَّاسِ» يقول: أن بعثنا إليهم رسُلاً(2).

● وقال الإمام الماوردي: قوله: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... الآية» وأخْبَرَ بتَرْكِ ملَّة قوْم لا يؤْمنون تنبيها لهم على نبوَّته وحثّاً لهم على طاعة الله(3).

(1) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / 395-396.
(2) تفسير الطبري / 7 / 12 / 218.
(3) تفسير الماوردي / 2 / 269.



● وقال الإمام الزمخشري: قوله: «مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» وأوحى به إليّ، ثم قال: وقوله تعالى «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي... الآية» وذكر آباءه ليريهُمَا أنه من بيْتِ النبوَّة بعْد أن عرَّفهما أنه نبيٌّ يُوحي إليه بمَا ذكر من إخباره بالغيوب ليقوِّيَ رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوْله(١).

● وقال الإمام الفخر الرازي:

فإن قيل: كيف يجوز حمل الآية «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ...» على ادِّعَاءِ المعجزة، مع أنَّهُ لم يتقَدَّم ادِّعاء للنبوَّة؟

قلْنا: إنه وإن لم يذكر ذلك، لكنّ يعلَمُ أنه لا بدَّ وأن يقال: إنه كان قدْ ذكره، وأيضا ففي قوله «ذلِكُمَا ممَّا عَلَّمَني رَبِّي» وفي قوله «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي» مَا يَدُلُّ على ذلك.

ففي قوله «ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» أي لست أخبرُ كما على جهة الكهانَة والنجوم، وإنَّمَا أخبرتكُم بوَحْي منَ الله تعالى، وَعِلْمٌ حَصَل بتعليم الله تعالى،

وفي وقوله «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي...» أنه - عليه السلام - لما ادعي النبوَّة وَتحدَّى بالمعجزة وهو علم الغيب، قرَن به كونْه من أهل بيْتِ النبوّة.

فإن قيل: لما كان نبيّاً فكيف قال: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي...»

والنبيّ لا بدّ وأن يكون مختَصّاً بشريعة نفسه؟

قلنا: لعلَّ مراده التوحيد الذي لم يتغيَّرْ،

وأيضا، لعله كان رسولا من عند الله، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم - عليه السلام -(٢)

● وقال الإمام أبوحيان: والظاهر أن قوله «مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» دليل على أنه إذ ذاك كان نبيّاً يوحى إليه(٣)

● وقال الإمام ابن كثير: (ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَلَيْنَا) أي أوحاه إلَيْنَا وأمَرنَا به

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢ / ٣٢٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩ / ١٨ / ١٤٠-١٤١.

(٣) تفسير البحر/ ٥ / ٣٠٨.



(وَعَلَى النَّاسِ) إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون» أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[1]

● وقال الأستاذ أحمد عزّ الدين خلف الله: تحت عنوان: التَّنْبيه على بعض ما في الآية الكريمة من إعجاز:

● الإشارة إلى نبوته ورسالته - عليه السلام -

إذ اقتصر في بيان آبائه على الرسل، وبدأ بإبراهيم الخليل - عليه السلام - ثم جدّه المباشر (اسحاق) عليه السلام - ثم أبيه (يعقوب) عليه السلام - وَجمع - عليه السلام - نفْسَهُ معهم عِنْدَ بيَان فضْل الله تعالى عليهم، كما يدلّ عليه ضمير الجمْع للمتكلّم (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك مَنْ فَضْلِ الله عَلَيْنَا) للتَّنْبيه على أنه واحد منهم حتّى جَازَ أن يضمَّ نفْسَه إليْهم ويتكلَّمَ عنهم[2]

هذا، وذهب القلة من المفسّرين إلى أن ما جاء في الآيتين الكريمتيْن - مما سبق - لا يقطع بنبوّة يوسف - عليه السلام - وأنه قدْ أُوحيَ إليه،

ذكرُ بعض من قال ذلك:

● وقد أشار الإمام الألوسي إلى هذا البعْض حين قال:

وادُّعِيَ أنَّ الآية دليل على أنه عليه السلام كان إذ ذاكَ نَبيّاً، ثم إن الإمام الألوسي لم يثبت نبوته عليه السلام حينذاك ولم يَنْفِ، وَإنما قال بعد ذلك مباشرة: وَأيا ما كان - أي نبيّاً أو لم يكن بعد - فالمراد أن ذلك - أي قول: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» - بعض ممّا علمنيه الله الله تعالى[3]

● وقال الشيخ محمد طه الباليساني: عند قوله تعالى: «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ...» فأراد أن يبيّنَ لهم أن هذا العلم مَنَ الْوَحْي وَأنَّهُ رسولٌ، إن كان في ذلك الوقْتِ نبيّاً،

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٨.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٢١٧.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٤٣٢.



أو من الإلهام إن لم يصر بعد نبيّاً في ذلك الوقت[1]، وكأن قول الباليساني تفسير لقول الألوسي السابق.

التَرْجيح:

والواضح أن ما ذهب إليه أئمتنا الأعلام من جمهور المفسين من الإيحاء إلى يوسف - عليه السلام - وحي نبوة قبل تأويله رؤيا الفتيين هو القول الراجح، لوضوح أدلته، وقوة حجته.

ومن المعلوم أنه قد مَرَّت مرْحلتان من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - ذهب البعض فيهما إلى الإيحاء إليه - عليه السلام - وَحْيَ النبوّة،

الأولى، عند قوله تعالى: «وَأوْحَيْنَا إِلَيْهِ لتُنَبِّئَنَّهُم بأمْرِهِم هَذَا وَهُم لا يَشْعُرُون» وَقَدْ حقَّقْنا هنالك أنَهُ وَحْيُ إلهام لا وحْيَ رسالة،

الثانية: عند قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ أتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً...» وحقَّقنا هنالك أيضا، أن هذا الإيتاء ليس ايتاء النبوة والرسالة، وإلا لما كان هناك اختلاف بيْن العلماء في قوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَولا أن رأى بُرهَانَ رَبه) فيما يتعلَّقُ بهمّه - عليه السلام - إذ يكون مَعْصُوما بالنبوة حينذاك لوكان قد أوحي إليه وَحْيَ النبوة،

وهذه التي نحن بصددها المرحلة الأخيرة للقول بالإيحاء إليه عليه السلام بالنبوّة والرسالة، وشواهدها وأدلتها واضحة قوية كما سبق،

وحيث إنه من المعلوم الثابت نصّاً أن يوسف - عليه السلام نَبيٌّ ورسول، كما قال تعالى في حقّه في سورة غافر على لِسَان مؤمن آل فرعون: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»[2]

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٠١.

(٢) غافر / ٣٤.



وَحيْث إنه إلى آخر سورة يوسف لا يوجد نص فيها يدلّ على نبُوته - عليه السلام - أوضح وأقوى دلالة مما جاء في الآيتيْن الكريمتيْن، فإن رأى جمهور المفسرين بأنه أوحي إليه قبل أن يسأله الفتيان عن رؤييهما هو الراجح، والله أعلم.

الأمر الثالث:

ما المراد بالقوم الذين عنا هم يوسف - عليه السلام - في قوله:

«إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ»

● اختلف أهل التفسير في المراد من القوْم الذين عنا هم يوسف - عليه السلام - في القول السابق إلى عدَّة أقوال:

● فمنهم من قال بأنه أراد بهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم(١).

● ومنهم من قال بأنه أراد بهم الكنعانيِّين الذين نشأ فيهم والقبط الذين شَبَّ بينهم(٢)

● ومنهم من قال بأنه أراد بهم القوم الكنعانيّين وغيرهم من سكان أرض الميعاد التي نشأ فيها، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم(٣)

● ومنهم من قال بأنه أراد بهم سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به(٤)

● ومنهم من قال بأنه أراد بهم كل من اتَّصَفَ بصِفَاتهم حيث كانوا(٥)

الترجيح:

والراجح أن المراد بالقوم الذين عنا هم يوسف - عليه السلام - في قوله:

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ٢٧٢.

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٣٠٥.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٧٤٧.

(٥) روح المعاني / ٦ / ٤٣٢.



«إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...» أهْلُ مِصْرَ وَمن كانَ الْفَتَيَانِ على دينهم، وهو ما ذهب إليه العلامة الزمخشري، ويقدّم لنا دليل الترجيح الدكتور حسن محمد باجودة فيقول:

وَإِنَّا لنَتَساءَلُ عن هؤلاءِ القوْمِ فنقول:

أيَّ قوْمٍ عنا هم يوسف بقوله هذا؟

والمسألة لا تخلو بيْن كونِه يعْنِي المجتمع الذي فيه آل يعقوب، أو المجتمع الذي باعتْه السَّيَّارة فيه - المجتمع المصري آنذاك - ولا يمكن أن يقْصد يوسف المجتمع الذي فيه آل يعقوب لِسَبَبَيْن:

الأوَّل: هو أنه يمكنُ أن يكونَ ليعقوب وآله فيه آثار حسنة،

والثاني: هو أن الفتيَيْن اللذَين يوجِّهُ إليهما الحديث، لا يعرفان شيئاً عن ذلك المجتمع، ولم يبْق بعْد ذلك سوى أن يوسف - عليه السلام - يقْصدُ المجتمع المصري الذي عاش فيه الفتيان حتّى قُضِيَ عليهما بالسّجن، وليس بخاف أنَّ الفتيَيْن على علم تامٍّ بقَصْدِ يوسف، لأنَّ الوصْفَ الذي ذكره ينطبق على ذلك المجتمع الذي يعرفانه يقينا(١)، والله أعلم.

الأمر الرابع:

هل يرجع الضمير في قوله في الآية الكريمة: «بتأويله» إلى الطعام أو إلى ما رآى الفتيان من الرؤيا؟

● **ذهب عامة المفسرين** إلى أن الضمير في قوله: «بتأويله» في الآية الكريمة يرجع إلى الطعام، ويكون المعنى على هذا: لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به، بأن بينت لكما ما هيّته وكيفيّته وسائر أحواله، وهم يريدون بذلك معرفة يوسف - عليه السلام - بأمر الغَيْب على وجه من الإعجاز، كما ذكر الله تعالى

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٩٨-٣٩٩.



عن عيسى بن مريم - عليه السلام - إذ يقول: «وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»(١)

● وذهب قلة من المفسرين إلى أن الضمير في قوله في الآية الكريمة: «بتأويله» يرجع إلى ما رآى الفتيان من الرؤيا، ومن أبرز هؤلاء الشيخ محمد محمد المدني، وقد اعتمد في رأيه على الآتي:

١ - أنهما قالا له حين أصبح الصباح: لقد رأينا كذا كذا فنبئنا «بتأويله» أي: بتأويل هذا الذي رأيناه، فقال لهما ما معناه: سوف لا يأتيكما طعام الصباح حتى أكون قد نبّأتكما «بتأويله» أي: تأويل ما رأيتما فإن لي علما بذلك وهو مما علمني ربي، فتقدير الكلام على هذا التفسير، لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله، أي: تأويل ما رأيتما فإن لي علما بذلك وهو مما علمني ربي.

٢ - ويوسف - عليه السلام - يريد بهذا أن يثبت لهما علمه بالتأويل، وسرعته في الإفادة والإفتاء، ليؤثر عليهما بذلك تأثيراً حسنا، فيعتقدان فيه العلم والصدق وسرعة الإفادة التي تدل على رسوخ القدم، فإذا اعتقدا فيه ذلك سهل عليه بعد هذا الاعتقاد أن يدعوهما إلى دينه، وكان ذلك أدعي إلى استجابتهما.

٣ - كلمة «بتأويله» إذا كان الضمير فيها إلى الطعام كان معنى الكلام: إلا نبأتكما بتأويل هذا الطعام قبل أن يأتيكما، فما معنى تأويل الطعام؟

وهل يقال: أوَّلْتُ الطعام بمعنى أخبرت به وعَرَّفت الناس بنوعه؟ إن الله تعالى يقول في شأن عيسى عليه السلام - «وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»(٢) فاستعمل لفظ (الإنباء) وهو اللفظ الطبيعي المناسب للمعنى في هذا المقام، أما (التأويل) فهو المناسب للرؤيا، ولم يعهد في اللغة أن يعبر به عن الإخبار والإنباء.

٤ - ثم إن كلمة «تأويل» جاءت في سورة يوسف - عليه السلام - عدة مرات

---

(١) آل عمران / ٤٩. (٢) آل عمران / ٤٩.



بالمعنى الذي نقوله، لا بالمعنى الذي يقوله المفسرون، فالله تعالى يقول: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ»(١) ويقول: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ»(٢) ويقول: «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ»(٣) ويقول: «وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ»(٤) ويقول: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»(٥) ويقول: «أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ»(٦) ففي كل ما سبق لم تخرج كلمة واحدة عن هذا النطاق المعنوي من الكلمات التي جاءت في سورة يوسف، مع أن السياق الذي وردت فيه تلك الكلمات كلها هو سياق الكلام عن الرؤي والأحلام،...

ولقد جاءت كلمة «تأويل» في غير سورة يوسف بمعنى ما يؤول إليه الشيء، مثل قوله تعالى: «فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ»(٧) وقوله: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا»(٨) وقوله: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا»(٩) وقوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً»(١٠) وليس في شيء من ذلك معنى الإخبار بالشيء.

٥ - وأجاب فضيلته على الاعتراض القائل بأن تخصيص الطعام بطعام الصباح بلا تخصيص غير مقبول بقوله:

إن هناك قرينة معنوية في الكلام تدل على أنه كان يقصد طعام الصباح، وهذه القرينة هي أنهما قصًّا عليه الرؤيا طالبين منه أن ينبئهما بتأويل ما رأيا، والعادة أن ذلك يكون صباحا عند تذكر الرؤي الليلية والاتصال بمن يرجى منه تأويلها، ولو كان المراد: لا يأتيكما طعام في أي يوم من الأيام إلا نبأتكما به قبل أن يأتيكما، لكان يوسف - عليه السلام - قد خرج عن مجريات الحديث بينه وبينهما وأقْحَمَ أمر علمه بالغيب،

---

(١) يوسف/٦. (٢) يوسف/٢١.
(٣) يوسف/٤٤. (٤) يوسف/١٠٠.
(٥) يوسف/٣٦. (٦) يوسف/٤٥.
(٧) آل عمران٧. (٨) الكهف/٧٨.
(٩) الكهف/٨٢. (١٠) النساء/٥٩.



ومعرفته لأصناف الطعام على حديث دائر في شأن الرؤيا، مع أنه لا صلة بين هذا وذاك،

لذلك: لا أستسيغ ما ذكره المفسرون، وأكاد أجزم بأن التفسير الذي ذكرته هو التفسير الصحيح دون سواه[1]

ويمكن الرد على الشيخ بالآتي:

● اعتماده على أن الطعام المذكور في الآية الكريمة في قوله: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ» أنه طعام الصباح غير صحيح، فمن الممكن أن يكونا قد أخذا بعض الوقت للتفكير والمشاورة حتى ذهبا إليه معا طلبا لتأويل رؤييهما، ثم إن السجن لا يخضع لتنظيم أوقات الطعام صباحا وظهرا ومساء، كما هو حال معظم الناس، خاصة في السجون الغابرة، حيث كانوا يقدمون وجبة واحدة كل يوم للمسجونين وبذلك تبطل القرينة المعنوية على أن الطعام كان طعام الصباح.

● لو كان القصد من قول يوسف - عليه السلام - الإسراع في التأويل كما يقول الشيخ، لما طلب منهما الانتظار حتى يأتيهما طعام الصباح فلم يكن يوسف - عليه السلام - وهو الذي علمه ربه علم تأويل الأحاديث في حاجة إلى وقت للتفكير في تأويل رؤييهما.

● أما قوله: إن «التأويل» هو المناسب للرؤيا والتدليل على ذلك بالآيات الكثيرة، فنقول: هذا صحيح، ولكن إطلاق التأويل هنا على الطعام مع أن حقيقته في المشهور تفسير الألفاظ المراد منها خلاف الظاهر كما في الرؤي، إنما كان على سبيل الاستعارة، فإن ذلك يشبه تفسير المشكل، أو أنه بالنسبة إلى الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنسبة إلى ما رؤي في المنام وشبيه له، ويحسِّن هذه الاستعارة ما في ذلك من المشاكلة لما وقع في عبارتهما من قولهما:

---

(١) عن مجلة الثقافة الإسلامية التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - العدد الأول - السنة ٢٣ - المحرم ١٣٨٥ - ٢ مايو ١٩٦٥م من ص ١٦ إلى ص ١٨.



«نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ» وكون المراد بالتأويل الأمر الآيل لا المال، بناء على أنه في الأصل جعل شيء آيلا إلى شيء آخر[1] فكان الحديث عن تأويل الطعام لهما سابقا، نقلة في الاتجاه نفسه، نقلة هيّنة ليّنة ليس فيها إزعاج ولا مفاجأة، بل إن يوسف - عليه السلام - مع ذلك ليتعمَّد استعادة ما يمكن استعارته من معجمهما اللغوي، فإن كان قد جاء على لسانهما: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ»، فإنه يجيء على لسانه الآن: «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ»[2]

الترجيح:

وما ذهب إليه عامة المفسرين من عوْد الضمير في قوله: «بتأويله» على الطعام هو الراجح لوضوح أدلته وقوة حجته، وهو المناسب كذلك لمكانه يوسف - عليه السلام - الذي علمه ربه بجلاله وكماله علم تأويل الأحاديث، ومن كان هذا شأنه لم يكن في حاجة إلى انتظار وقت يحضر فيه الطعام حتى يؤوّل لهما رؤياهما، والله أعلم.

---

(١) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٣١.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٠١.



سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يعرّف بنفسه ويمهّد للدعوة للتوحيد:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وجه المناسبة:

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افْتَرَصَ ذلك، فوصل به وَصْفَ نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبّئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويَصِفُهُ لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيْت وكيْت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلُّصا إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله تعالى(١)

فقوله: «قال الخ» إشارة إلى أنه يعرف ذلك وأدق منه، ليقبلا نصحه فيما هو أهمّ المهم لكل أحد، وهو ما خلق الله العباد له من الاجتماع على الله – لتفريغهما للفهم لكلامه والقبول لكل ما يلقيه لاحتياجهما إلى إفتائه لهما، مؤكدا ما وصفاه بالإحسان بما أتبعه من وصف نفسه بالعلم، انتهازاً لفرصة النصيحة عند هذا الإذعان بأعظم ما يكون النصح به من الأمر بالإخلاص في عبادة الخالق والإعراض عن الشرك(٢).

حكمة تقديم الهداية على الإجابة:

إن على العالم إذا استفتاه أحد في أمر يهمّه، خاصة من الجهال وغير الموحدين بالله تعالى؛ أن يقدم الهداية والإرشاد، والموعظة والنصيحة أولا، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتي فيه ثم يفتيه بعد ذلك(٣)، وله أن يصف نفسه بما يرغبه

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٢.

(٢) نظم الدرر / ٤ / ٣٨.

(٣) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٠٢.



في قبول علمه إن كان الحال محتاجا إلى ذلك، ولا يكون ذلك من باب التزكية، بل من الإرشاد إلى الائتمام به بما يُقرّب إلى الله تعالى فيكون له مثل أجره[1] كما قال - ﷺ - من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجرهم شيء[2].

ولهذا فقد رأى يوسف - عليه السلام - أن يقدم الهداية على الإجابة ليقترن إعلان الدعوة إلى الله تعالى بآية دالة على صدق صاحبها، ولو تم التأويل قبل إعلان الدعوة لما كان آية للسامعين ترتبط أذهانهم بها، وحيث إن تأويله - عليه السلام - لرؤيا صاحبي السجن آية من آيات نبوته وصدق دعوته فقد لزم ذلك تقديم بيان الدعوة على التأويل، ولو بدأ - عليه السلام - بتعبير رؤياهما لا انصرف الذِّهن نهائيا عن متابعة الكلام والإصغاء إليه، ولا اتَّجَهَ الاهتمام إلى تدبُّر مصيرهما وما سيلاقيه كل منهما، وفي ذلك تشتيت للانتباه وتضييع للأثر المطلوب من اتّخاذ التعبير بابا للدخول منه على بيان العقيدة الصحيحة[3] وبهذا ربط - عليه السلام - الدعوة إلى الله تعالى بما يهتم السامع بمعرفته وما يدور في خلده من الأفكار والخواطر، ليتم إقباله بكليّته على الإصغاء لما يُدْعى إليه، بخلاف ما لو واجه السامعين بالدعوة كموضوع مستقل، فإن إقبالهما حينئذ سيقِلُّ كثيراً[4] فبدأ - عليه السلام - هذا البدء ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله تعالى والخروج من الكفر[5]

ولا يخفى أن الدافع له - عليه السلام - ليقدم الأهم على المهم هو ما وجده من ثقة السائلَيْن بعلمه وفضله، فقد توسم فيهما خيراً وَتوجُّهاً إلى قبول الحقّ، فأراد أن يخرج أولا عمّا في عهدته من دعوة الخلق إلى الحق[6] وفي تقدير يوسف - عليه السلام -

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٣٩.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأخرجه أبو داود (٤٦٠٩) والترمذي. (٢٦٧٤) وابن ماجة (٢٠٦).

(٣) يوسف بن يعقوب / ٢١٣. (٤) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٧.

(٥) فتح القدير / ٣ / ٢٨. (٦) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٧.



أنه إذا صح من صاحبي السِّجن أن يقبلا منه الكشف عن المجهول في حلمهما، فلن يأبيا أن يقبلا منه الكشف عن الدين الحق والمعبود الحق[1]

وهكذا، وبحكمه بالغة أرجأ يوسف - عليه السلام - الكلام على تأويل الرؤيا للفتيَيْن، وشدَّ انتباههما إلى الأهم والأوجب، توصلا إلى هدايتهما إلى الدين الحق.

نقلٌ هيّن وتدرّج حكيم:

قال تعالى: «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ»

قوله: «لاَ يَأْتِيكُمَا» أي في اليقظة، و«تُرْزَقَانِه» صفة لـ(طعام) وكان الظاهر أن يقول لهما (ما أتاكم) لأنه كان يذكِّرهم بالماضي ويخبر عنه بقرينة «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا»، ولكنه عدل عنه إلى المضارع ليفيد الاستمرار، وأن هذا الحال كان مستمراً في الماضي إلى الآن، وذلك لأن المضارع يفيد الاستمرار حسب اللغة، وقال «تُرْزَقَانِه» ولم يقل «يرزقكما الله تعالى» مع أن الرِّزق من الله تعالى وحده، إما لأن الفاعل معلوم والاختصار مطلوب فعبّر بالمجهول، أو لأن الصاحبين كانا مشركيْن لا يَريَان الرزق من الله تعالي وحده، فلم يُرِدْ - عليه السلام - أن يصادم عقيدتهما في أول الأمر، بل أراد أن يتدرّج بهما إلى المصارحة والدعوة إلى والتوحيد[2] وهذه الجملة «تُرْزَقَانِه» تبيّن أن هذا الطعام خاص بالفتيَيْن دون أهل السجن[3] كما تهيّئ الفتيَيْن لِفَهْم قصد يوسف - عليه السلام -[4]

«**إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ**» استثناء مفرّغ من عموم الأحوال، أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به، بأن بيّنت لكم ما هيَّته وكيفيَّته وسائر أحواله، والضمير في (بتأويله) يعود على الطعام، وقال «بتأويله» مطلقا ليفيد العموم، أي الطعام وما يتعلق به، وما يؤول ويرجع إليه أمره.

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومهفومه/ ٤٤٣.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٠١.

(٣) نظم الدرر/ ٤ / ٣٩.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٩٦.



قوله: «قَبْلَ أن يأتِيكمَا»

(قبل) ظرف متعلق بـ(نبأتكما) و(إن) وما في حيّزها مضافة للظرف، وحاصل المعنى، أنه لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما قبل إتيانه إياكما، بأنه يأتيكما طعام من صفته كيْت وكيْت، وإطلاق التأويل على ذلك مع أن حقيقته في المشهور تفسير الألفاظ المراد منها خلاف الظاهر ببيان المراد بطريق الاستعارة، فإن ذلك يشبه تفسير المشكل، أو أنه بالنسبة إلى الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنسبة إلى ما رؤي في المنام وشبيه له، ويُحسِّن هذه الاستعارة ما في ذلك من المشاكلة لما وقع في عبارتهما من قولهما:

«نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ» وكون المراد بالتأويل الأمر الآيل لا المآل بناء على أنه في الأصل جعل شيء آيلا إلى شيء آخر، وكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الأول ويكون المعنى: إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام[١].

وهذا القول «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ» مُسْعِفٌ علَى إشعار الفتيَيْن بأن الحدث في اتجاه طلبهما، وأن طلبهما نفسه في طريقه للتحقيق[٢] إن هذا ليريهما أن تأويل رؤياهما لَيَسِيرٌ للغاية على من ينبئهما بتأويل الطعام وبكل ما يتعلق به قبل أن يصل إليهما إخباراً بالغيب، ودون أن تكون هناك إشارات أو رموز تنبئ عن هذا الطعام، أما وإن كان رؤيا كل منهما تحوي رموزا لتأويلها، فذلك ولا شك سيجعل تأويلها أيسر عليه[٣]

ونلحظ أيضا في هذا القول حكْمَة يوسف - عليه السلام - فهو وإن كان لم يبدأ بعد في تأويل رؤيا الفتيَيْن، إلا أنه وضعهما على نفس الاتجاه في التأويل، إذ ذكَّرهما بتأويل الطعام لهما قبل أن يأتيهما، ومعلوم أن الطعام هو موضوع رؤيا كل منهما، فتخصيص الطعام بالتأويل ليس للحَصْر، ولكنه جاء لما يقتضيه الحال، إذ هو داخل

---

(١) روح المعاني / ٦ / ٤٣١.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٩٤.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٠١.



في عموم الأحاديث، فكان الحديث عن تأويل الطعام لهما سابقاً، نقْلة لَهُما في الاتجاه نفسه، نقله هينة لينة ليس فيها إزعاج ولا مفاجأة، بل إن يوسف - عليه السلام - مع ذلك ليتَعَمَّد استعارة ما يمكن استعارته من مُعْجَمِهما اللغوي، فإذا كان قد جاء على لسانهما «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِه» فإنه يجئ على لسانه الآن «إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِه»(١).

أول نص صريح في أن يوسف - عليه السلام - نبي من أنبياء الله تعالى:

والمتأمل لهذا القول على لسان يوسف - عليه السلام - «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِه قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا» يتبيّن أنه بصدد صيغة الغاية في قوة التعبير ووضوح الدلالة، في أنه - عليه السلام - عنده بفضل الله تعالى القدرة على القيام بهذا العمل ليس لمرة واحدة بل مرّات، لا بل في كل مناسبة...

وإنا لنتساءل؟ هل هذا العمل عادي أم أنه نعجز؟

والجواب معروف بطبيعة الحال، وهو أننا بصدد عمل الغاية في الإعجاز، فكيف به وهو يتكرر في كل مناسبة؟

وإنا لنتساءل أيضا، أن فئة من البشر تستطيع القيام بعمل كهذا؟

والجواب عن ذلك، إنها النبوَّة وكفى، والذي يلوح لنا - والله أعلم -

أننا الآن أمام أول نص صريح بأن يوسف - عليه السلام - نبي من أنْبياء الله تعالى(٢) فالكشف عن هذا الطعام الغائب وسره وما يتعلق به وما يؤول إليه، قبل أن يصل إلى الفتيَيْن، لا يكون إلا بطريق النبوة، وهذه معجزة كمعجزة عيسى - عليه السلام - حيث قال: «وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»(٣)، فإن هذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله تعالى، والأنبياء

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٩٤.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٩٦.

(٣) آل عمران/ ٤٩.



يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا، وأيضا فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له، وأيضا فالله إنما أخبره أنه علمه تأويل الرؤيا(١)

كيف مدح يوسف - عليه السلام - نفسه؟:

لعل سائلا يسأل: كيف مدح يوسف - عليه السلام - نفسه هذا المدح العجيب؟ ألا يُعَدُّ هذا عُجْباً؟ وكيف يجوز أن يمدح الإنسان نفسه؟

والجواب: أنه يجب على الداعلية أن يذكر للناس صفاته الواقعية الصادقة التي تبْبِئُ عن شخصيّته وعظمته ومدحه بها، ليجلب بها ثقة الناس إليه، فيحملهم على الإيمان بصدقه وبشخصيته، ليؤمنوا بما دعا إليه من الإسلام، ولذلك قال الله تعالى لرسول محمد - ﷺ -: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»(٢) وقد قال عيسى عليه السلام. لبني إسرائيل: «قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»(٣)

ابتلاء واصطفاء:

وهكذا يتضح أنه كلما ابتلى الله تعالى عبده يوسف - عليه السلام - بمحْنة..، اصطفاه بمنحة،

ففي محنة الجب أوحي الله إليه وحْي إلهام وبشره بإتمام النعمة والفرج مما فيه، وفي محنة امرأة العزيز منحه الله تعالى شهادة الطهر والعفاف، وشهد بذلك شاهد المرأة من أهلها، وأقر العزيز بشهادته،

وفي محنة كيد النسوة له، استجاب الله تعالى دعاءه وصرف عنه كيدهن.

وفي محنة السجن هذه، منحه الله تعالى المنحة العظمى والنعمة التامة. ألا وهي

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٢٠٩، وانظر: تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٣٩-١٤٠.

(٢) الضحى / ١١. (٣) آل عمران / ٤٩.



نعمة النبوة والرسالة، فأخذ ينتهز كل فرصة ويتحيَّن كل سانحة ليواصل الدعوة إلى الله تعالى الواحد بين المسجونين.

لغته كريمة وخلق عظيم:

قال تعالى: «ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»

ولما وصف نفسه من العلم بما يدعو كل ذي هِمَّة إلى السَّعْي في الأسباب التي حصل له ذلك بها ليصير مثله أو يقرِّب منه، وكان محل أن يقال: من علمك ذلك؟ قال مرشداً إلى الله تعالى داعيا إليه أحسن دعاء بما تميل إليه النفوس من الطمع في الفضل: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»(١)

فهذه الجملة استئناف بياني، لأن إخباره إياهما عن الطعام الذي يأتيهما في اليقظة بكل ما يتعلق به، يثير عجب السائِلَيْن عن قوة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأن ذلك مما علمه ربه تخلصا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد، وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة(٢) وكان التوحيد خاصا بحكمائهم وعلمائهم(٣)

«ذلكما» أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات، ومعنى البعد في (ذلك) للإشارة إلى علوّ درجته وبُعْد منزلته(٤) ونبه على غزارة علمه بالتبعيض في قوله: «مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»(٥) أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي، الموجد لي والمربي لي والمحسن إلي، بوحْي منه إِلَيَّ، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنْجيم، ولا ما يشبهها من طرق صناعية، أو تعليم بشريّ يلتبس به الحق بالباطل، ويشتبه الصواب بالخطأ(٦) إنه - عليه السلام - حريص على إظهار فضل الله العظيم عليه، والإشارة إلى نعمه التي

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٣٩.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧١.

(٣) تفسير المراغي/ ٤/ ١٢/ ١٤٦.

(٤) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٧٧.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٣٩.

(٦) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٥.



لا تُحْصَى، وإن لـ(منْ) التي تفيد التبعيض لدورا بعيد المدى في ذلك، فلا يقتصر فضل الله تعالى على يوسف - عليه السلام - في جعله قادراً على الإنْباء بما يؤول إليه الطعام الذي يرزقانه - في اليقظة - ولكنه يمتد فيشمل تعبير الرؤي،

وهو ما يهتم به الفتيان في تلك اللحظة، كما يُفيد هذا التبعيض أن الله تعالى علمه علوما أخرى، ومنها علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة، كما قال - عليه السلام - بعد ذلك: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»(١)(٢)

وقد آثر - عليه السلام - التعبير هنا بلفظة (الرب) على ما سواها، لما تتضمنه من معنى الإنعام الدائم عليه، وتأمل ضمير المتكلم من «ربي» الذي يقدم لهذا الغرض النبيل أجمل خدمة، فإذا أضفنا إلى ذلك أن يوسف - عليه السلام - يعتبر وحده السراج المنير في ذلك المجتمع، استطعنا أن نفهم شيئا من فعل سحر هذا القول «ربّي» في نفس الفتَيَيْن، وشيئا من الشّوق عندهما المعرفة ما يمكن معرفته عن هذا الرب المنعم على هذا الشاب المحسن، عسى أن ينالهما وقتا من الأوقات غيْض من الفيْض الذي نال يوسف - عليه السلام -(٣)

فلقد علما آلهة شتى يعبدونها وقوْمهم المصريين، آلهة لم تنطق بشيء، ولم تعلّم أحداً شيئا، ولم تُوحِ بشيء، فأي رب هذا الرب الذي يُعلّم عباده كل هذا العلم الخارق للغيب، وما هي يا ترى الوسيلة لنيل شيء من هذا العلم. فكأنه قيل هنا: ما لغيرك لا يُعلِّمُه مثل ما علَّمَك؟

فقال معَلّلاً له مطْمِعاً كُلَّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُ في فضْلِ الله تعالى مؤكِّداً ومُعْلِماً بأن ذلك أمرٌ عظيم يحقُّ لمثله أن يفعل، ثم قال:

«إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...»(٤)

---

(١) يوسف / ٥٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٧١.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٩٨.

(٤) نظم الدرر / ٤ / ٣٩.



ونلحظ أنه يجئ على لسان يوسف الآن «لا يُؤمِنُونَ بِاللّه» بينما جاء في الجزئيّة السَّابقة «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي»، إنه - عليه السلام - حينما أرادَ أنْ يعبِّرَ عَنِ النِّعم الجليلة التي خصه الله تعالى بها استعمل لفظة (الرب) وإنَّ لضمير المتكلم (ربي) قُوَّةً لهذا الفهم، بينما الكلام الآن يُعمُّ كُلَّ القَوْم الذين أخطأوا الطريق الصحيح، فلفظ الجلالة (الله) هو المناسبُ لهذا العموم(١)

ويشير - عليه السلام - بقوله السابق: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...» إلى القومْ الذين تربِّي فيهم، وهم بيْت العزيز وحَاشيةُ الملك، والملأ مِنَ القومْ والشَّعْب الذي يتبعهم، والفتْيَانِ على دينِ القومْ وَلكنه لا يواجِهُهُمَا بَشَخْصيَّتيهمَا، إنّمَا يُوَاجِهُ القوْمَ عَامَّة كي لا يُحْرِجُهُما وَلا يُنفِّرْهما، وهي كِيَاسةٌ وحكْمَةٌ وَلطافَةٌ وحُسْن مدخل(٢).

وإذاً فَيُوسف - عليه السلام - أعلمهم بكل وضوح وتأكيد أنَّ الله تعالى قد وهبه هذا العلم العظيم بسبب عظيم، وهو أنه ترك دين القوْم الذين لا يؤمنون بالله الواحد حقَّ الإيمان، فقد كان المصريون يؤمنون بوجود الله تعالى ولكنَّهم كانوا يشركون به غيره، وإذا كانوا كذلك فهم ليسوا بمؤمنين بالله الواحد ولا يستحقّون شيئاً من إفاضته تعالى عليهم ببعض العلم.

- **مسألة «الترْك» في قوله تعالى: «إنِّي تركْتُ مِلَّةَ قوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ...»**
- **معنى الترْك:**

الترك في اللغة: الطَّرْحُ والتَّخْلِيَة، يقال: تَرَكَ الشَّيْءَ تَرْكا: طَرَحَهُ وَخَلاَّه.

والترك للشيء، يصدق بعَدَمِ مُلاَبَسَته للشَّيْءَ مطلقا، ويصدقُ أيْضاً بالتحوّل عنه بعْد التَّلَبُّسِ به - وهو الأصل - وَيفرَّقُ بينهما بقرينة الحال أو المقال أو كليْهما

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٩٩.
(٢) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٨٨.



كما هنا[١] فحال يوسف معلوم، وهو كونه نبي لم يشرِكْ أبداً بالله تعالى، ومَقَالُه معلوم وهو قوله «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ...»

وعلى ما تقدم فإنَّ التَّرْك يكونُ للدَّاخل في الشَّيْء ثُمَّ ينْتقل عنه، وهذه حقيقَتُه، ويكون - كذلك - لمن لَمْ يدخُل فيه أصْلا[٢] والفارِق بينهما القرينة كما سبق، فتعْبِيرُ يُوسف عن الامتناع بالتّرْك جائزٌ صحيح[٣]

معنى التّرْك هنا ودَليله:

في قوله تعالى: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ...» جاء الخبر مبتدأ، أي: تركت ملّة قومٍ، والمعنى: مَا مِلْتُ وإنَّمَا ابتَدأ بذلك، لأنَّ في الابتداء الدليل على معناه[٤].

● فإن قلْت: ظاهر قوله (إِنِّي تركت) أنه كان داخلا في هذه المِلَّةِ ثمَّ تركها، وليْس الأمْرُ كذلك، لأنَّ الأنبياء من حين ولدوا على التوحيد، فما معنى هذا التَّرك؟

والجواب من وجهيْن:

الأول: أن الترك عبارة عن عدم التعرُّضِ للشيْءِ والالتفات إليه بالمرَّة، وليْس من شرطه أن يكون قدْ كان داخلا فيه ثم تركَهُ ورجع عنه.

الثاني: - وهو الأقرب - أن يوسف لما كان عند العزيز، والعزيز كافر وجميع من عنده كذلك، وقد كان بينهم، وكان يوسف على الإيمان الصحيح صحَّ قوله: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» فَتركَ مِلَّتَهُمْ وَأعْرَضَ عنْهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه[٥].

وعلى كلا الوجْهين السّابقَيْن فإنَّ المُرَادَ بالتَّرك هُنَا؛ هو عدمُ التَّلَبُّسِ بِذَلِكَ - أي بملَّة

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٧.

(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٠١-٣٠٢.

(٤) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢١٧.

(٥) مختصر تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل/ م ث ص٨١٣.



الكافرين - مِنَ الأصل، وعدَم الالْتِفَات إليه بالكليَّة، لا أنَّهُ قد كان في تَلبُّسٍ به ثمَّ تركه، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ»(١) ومثله قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى»(٢) أي بْعد موْته فلا يبعَثْ، فليس معناه أنه كان سدًى قبله(٣).

وَأيضا، فكما أنَّ العوْدَ إلى الشَّيْءِ قد يُسْتعمل بمعنى الصيرورة إليه بدون سبْق مزاولة له، فكذلك ترْك الشيْءِ قد يستعمل بمعنى رفضه وعدم الدخول فيه أساسا، كما جاء في قوله تعالى: «أوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِم» (الكهف: ٢٠) فقد أطلق العوْد على الصيرورة بدون سبْقِ المزاولة أيْضاً، لأنَّ هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقُوا ملَّة التَّثليث، ومنه قول معاذ: «أعدتَّ فتَّاناً يا معاذ؟» أي: أصِرْتَ(٤)

لِماذا عَبَّرَ بِالتَّرْكِ عَنِ الامْتِناعِ؟

كان يمكن ليوسف - عليه السلام - أن يقول للفتَيَيْن: إنِّي امْتَنَعْتُ عن التلبس بملّة قوم لا يؤمنون بالله، فهذا هو المعنى المرادُ مِنَ التَّرْكِ هنا، فلماذا عَدَل عن التعبير بمثل ذلك إلى التعبير عن الامتناع بالترك؟

والجواب: فعل يوسف ذلك استجْلاباً لهما، عَسَى أن يتوكَّأ التَّرْكُ الحقيقي الذي هُوَ بَعْد أخْذٍ في الشيْء وهو خاصٌّ بالفتيَيْنِ، على الترك الظاهري في نظرهما بالنِّسبَةِ ليوسف، وهو ترْكٌ غير حقيقي، إذ أنَّ الترك قد أُجْري مجري التَّجنُّبِ مِنْ أوّل حالة، فكان ذلك ترغيبا لهما لأنْ يتْرُكا تلك المِلَّة التي كانا فيها اقتداء به عليه السلام(٧).

---

(١) تفسير فتح البيان / ٦ / ٣٣٦.

(٢) القيامة / ٣٦.

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٣٠٥.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٧٤٩-٧٥٠.

(٥) أنظر: تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠١، وتفسير البحر / ٥ / ٣٠٨، وروح المعاني / ٦ / ٤٣٢، وتفسير أبي السعود / ٤ / ٢٧٧.



● لماذا قال: (تركتُ مِلَّة قوْمٍ) ولم يَقل: اتركوا مِلَّة قوْمٍ، أو اتَّبعوا ملة ابراهيم - عليه السلام - ؟

والإجابة أن يقال: جاء الكلام في قوله «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...» في الصيغة الخبرية لا في صيغة الأمر والنهي، لأن صيغة الأمْر والنَّهْي قَبْلَ التَّأسِيسِ لَهَا، إنَّمَا تبْعَثُهُم على الفرار خشيةً مما ينْزل بهم من العقَابِ لمجرّد الإصْغاءِ، والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من شِدَّةِ حرْصِهِم على الهداية لا يُلقُونَ إلى القوْمِ مَا لاَ طاقة لهم به[1] ثم إنَّ التَّعْبير بقوله (تركت) فيه لطافة، وَهي أن الصَّاحِبَيْن يَتوهَّمَان من التَّعبر بـ(تركت) أنه كان على دينهما فلم يكن ليعلم شيْئاً، وحينما تركه عَلَّمَهُ اللّهُ تَعَالى هذا العلم، فيكونُ ذلك أبْلغ في حقِّهما على ترْكِ ما هم عليْه والتَّمَسُّكِ بما تَمَسَّكَ به، فكأنَّهُ قال: لَوْ تَتْركُون أنْتُم ما أنْتُم عليه وتتمَسَّكونَ بما أنَا عليه، فإن الله تعالى يعِّلمكُم مثل مَا علَّمَنِي، وهذا إيهام، وَالإيهام جَائز بدليل أنَّ رَسُول الله - ﷺ - قابل في طريقهِ قوْماً فسألوه، من أيْنَ جئتُم؟ فأجَابَ (من ماء) فظنُّوا أنَّهم جَاءُوا منْ وادٍ به ماء، ولكنْ أراد ﷺ أنهم جاءوا وخلقُوا مِنْ مَاء، وَأوْهَمَ هكذا لئَلاّ يعرفُوه مخافة أنْ يخبر الأعْدَاءَ بهم[2].

● وأخيراً فإنَّ من تأمَّلَ جملة (ترك) التي تستمدُّ عظيم دلالَتِهَا مِنْ بَسَاطَتِهَا المعبِّرَة، إنَّهَا تَدُلُّ على أن يوسف - عليه السلام - تَرَكَ أسَاساً مِلَّةَ القَوْمِ[3].

ثم إنَّهَا تُمثِّلُ الغَمْزَةَ الأولى المصَوَّبة إلى الفتيَيْن، وإن كانت غمزَةً في الحاشية - ليتركوا ملة قومهم ويتبعوه -،

أما الغمزة الثانية، فإنَّها آتية في قوله تعالى: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً... الخ» وهي غمزَةٌ في الصميم[4].

وتابع يوسف - عليه السلام - يذكر أهمّ أوصاف الذين ترك ملَّتهم فقال:

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٢١٤.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٠٢-١٠٣.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٩٨.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٧٤٦.

«وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»

لقد وصفهم أوّلاً بأنَّهم لا يؤمنون بالله الواحد الأحد الحق؛ الإيمان الصادق الذي يدخلُهم في زمْرَةِ عباد الله الموَحّدين، وها هو يصفُهم ثانيا بأنَّهم لا يُؤمنون بالآخرة بل هم يكفرون بها، ويوم الآخرة هو يوم القيامة، يوم يُحْيِي اللّهَ الخلْق بَعْد الموْتَة الأولى كما قال جلَّ شأنه: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ»[١] وليوم القيامة أسماء كثيرة في كتاب ربِّنَا العظيم، وَذِكْرُ الآخرة هنا في قول يوسف - عليه السلام - يقرِّرُ أنَّ الإيمان بالآخرة كان عنْصراً من عَنَاصر الْعقيدة على لِسَانِ الرسل جميعا، منذ فَجْرِ البشريَّة الأوّل، ولم يكن الأمْرُ كما يزْعمه علماءُ الأدْيان المقَارنة؛ أن تصوّر الآخرة جاءَ إلى العقيدة بجملتها متأخراً، ولكنَّه كان دَائما بالنِّسبةِ للرسالات الإسْلاميَّة الصَّحيحة، عنْصُراً أسَاسياً فيها، فالإيمان بالجزاء، الربانيّ الأمثل. وبيَوْم هذا الجزاء الأمْثَل - اليوم الآخر - وبما يَسْتَتْبِع مِنْ حياة أخرى ودار أخرى، هو الركن الاعتقادي الإيماني الذي يَقَع في الدّرجة الثانية بَعْدَ الإيمان بالله تعالى[٢] إن قضية البعث في الدار الآخرة هي التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد قضيّة وحدانية الله تعالى[٣].

الحكمة من تكرير لفظة (هم)

وكررت لفظة (هم) لَّما دخل بينهما قول (بالآخرة) فصارت (هم) الأول كالملغاة، وصار الاعتماد على الثانية كما قال: «وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون»[٤] أو للدلالة على أنهم خصوصا كافرون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا قوما مؤمنين بها، وهم الذين على مِلّة إبراهيم - عليه السلام - ولتوكيد كُفْرهم بالجزاء تنبيها على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبُها إلاّ مَنْ هو كافرٌ بدار الجزاء[٥].

---

(١) الزمر/ ٦٨.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ٦٢٢.

(٣) أشراط الساعة/ ٢٧. (٤) البقرة/ ٤.

(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٠.



وقال الشيخ أبو حيان: وليست عندنا (هم) تدُلُّ على الخصوص[1] - أي كما قال الزمخشري - وَرَدَّ صاحب الدُّرِّ المصون على قول أبي حيان السابق فقال:

قلت: لم يقل الزمخشري إن (هم) تدُلّ على الخصوص، وإنَّمَا قال: تكرير (هم) للدلالة، فالتكرير هو الذي أفاد الخصُوص وليْس (هم) وهو معنى حسن فهمه أهلُ البيان[2]. وقال الفخر الرازي:

ولعل إنكارهم للمعاد كان أشدّ من إنكارهم للمبْدَأ، فَلأجْل مبالغتهم في إنكار المعاد كرَّرَ هذا اللفظ (هم) للتأكيد[3]

هذا ويجمع ما تقدّم أن تقول:

وكرر لفظ (هم)،

لإِرَادَة التخصيص، أي: هم كافرون بالآخرة لا نحنُ معاشر المسلمين،

أو لتقوية الإسناد إليهم، فإنهم تعمقُوا في إنكار الآخرة أكثر من إنكارِ الله تعالى،

أو لإرادة التخصيص والتقوية معا، لأنَّ كل ما يفيد التخصيص يفيد التقوية أيْضاً[4].

أهمُّ الطَّوائف التي لا تعْتَقِدُ باليوم الآخر:

الإيمان بالآخرة هو دين إبراهيم - عليه السلام - وأولاده، سواء كانُوا من سلالة إسحاق أو مِنْ سُلالة اسماعيل - عليهما السلام - إنما وُجِدَ من سلالَةِ اسماعيل طائفَةٌ من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة «وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حياتنا الدنيا نموتُ ونحْيا وما يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْر»[5] كما أنه وُجِدَ مِنْ سُلالَة إسْحَاق طائفةٌ يقال لهم «صَدُّوقِيُّونَ» نشأوا كما قاله «يوسيفرس» نحو سنة (١٥٠) ق.م، أنكروا القيامة لأنَّهُم أنكرُوا خلودَ النَّفس، أي اعتَقَدُو أنَّ النَّفْس تموتُ مع الجسد، وهؤلاء طائفة صغيرة في اليهود،

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩. (٢) الدر المصون/ ٦/ ٤٩٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٤٠.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٠٣.

(٥) الجاثية/ ٢٣.



وَقَد كان يُوجَدُ شيعة في الإسلام يقال لهم «الخطَّابية» زعموا أنَّ الدُّنْيا لا تفْنَى، وأنَّ الجنَّة هي ما يصيبُ الإنسان في الدُّنيا من خيْرٍ، وأنَّ النَّار هي ما يصيبُهم فيها من شرٍّ، وقريبٌ منهم فرْقَةٌ يونانيَّة يقال لها «التَّناسخيَّة» يقولون بِتَناسُخِ الأرْوَاح، وأن لا بعْثَ ولا آخرة،

وأما هذه الأيام، فيوجد فِرْقَةٌ يُسَمُّونَ أنْفُسهم بـ(البَهَائية) ومركز تبشيرهم بدينهم (عَكَّا) و(حيفَا) وهم لا يعْتَقِدُون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه - في الإسلام - بل يؤوّلون ذلك بأن الآخرة هي آخرةُ الأفْراد أو الأمم في الدُّنيا، وأنَّ الملائكة هم خيارُ النَّاسِ ومُلَحاؤهم[1] هذا بالإضافة إلى فِرَقٍ أخْرَى كثيرة مُنْتَشِرة في أرْجَاء الأرْضِ، لا يُؤمِنون باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر في الإسلام:

ومعلوم يقيناً أن الإيمان باليوم الآخر جزء لا يتجزأ من حقيقة الإيمان، فهو أحد الأركان السِّتّة التي بني عليها، إنه الركن الخامس من أركان الإيمان، كما جاء في حديث ابن عمر المشهور والمتفق عليه، حين سأل جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ عن الإيمان بعد أن سأل عن الإسلام فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله واليوم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»

وقد جاء ذكر اليوم الآخر في القرآن العظيم مائة وخمسة عشر مرَّة[2] من ذلك قوله تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»[3].

ما المراد باليوم الآخر:

المرَادُ باليوم الآخر أمْرَان:

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٧٦٠-٧٦١.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / ٢١-٢٢.

(٣) العنكبوت / ٦٤.



الأوّل : فَنَاءُ هَذه العَوَالم كلّها وانْتهاءِ هذه الحياة بكاملها،

والثاني : إقْبَالُ الحيـاة الآخرة وَابْتدَاؤُهَا، فَدَلٌ لفْظ (اليوم الآخر) على آخر يوم مِنْ أيَّام هذه الحياة وعَلى اليوم الأوّل والأخير مِنَ الحيـاة الثانية، إذْ هوَ يوم واحدٌ لا ثَانِيَ لَهُ البتَّة(١)

- **أهمية الإيمان باليوم الآخر وأثره على سلوك الإنسان:**

إن الإيمان بالآخرة مبدأ ضروري لسعادة الجماعة الإنسانية، وَإذا نظرنا إلى مشكلة السلوك الإنْساني وجدنا أن سعادة الجماعة الإنسانية مَرْهُونةً بضَوابِطِ سُلُوك الإنسان، وحين نَبحثِ عن الضوابط التي يمكن أنْ تَضبط سلوكه، نجدُ ضوابط ضعيفة ونَاقِصَة إلا ضابطاً واحداً هو مُرَاقبة اللّه تعالى والخوف من عقابه يوم القيامة «يوم الدين» يوم الآخرة، ولَهذا تُعَدُّو قَضيَّةَ الإيمان باليوم الآخر ضرورة إنسانية لحل مشكلة الجنوح الإنساني، ولَمنْح المجتمعات الإنْسَانية أفْضَل صُورة ممكنة من السَّعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة، ولِدَفْعِ الإنسان إلى فعل الخيْر، والارتقاء في سلم الفضائل الفرديَّةِ والجماعية(٢).

فالإيمان باليوْم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب هو الموَجِّهُ الحقيقيُّ لسلوك الإنسان سبيل الخير، وليس هناك أي قانون من قوانين البشر يستطيع أن يجعل سلوك الإنْسَان سوِيّاً مستقيما كما يصنعه الإيمان باليوم الآخر(٣)،

والواقع المشاهد يحكم وبكل وضوح على الفرْق الشاسع بيْنَ حياة وعمل وخلق من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن لا يؤمن بذلك،

فالمؤمن المصدق بهذا اليوم، نراه في كل حركاته وسكناته طوال حياته يراقب الله تعالى في كل ما يأتي وما يذر، ينتظر الجزاءَ الأوْفى من الله تعالى يوم الآخرة، كما أنَّ له سلوكا مُسْتقيما في الحياة صابرا شاكرا راضيا محتسبا متوكلا على الله تعالى في كل أمُور،

---

(١) عقيدة المؤمن (الجزائري) ٣٢١.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ٦٢٦.

(٣) أشراط الساعة/ ٢٨.



أمَّا غَيْـر المؤمنِ باللّهِ تَعالى وَغيـر المصـدِّق باليَـوم الآخـر، فَلَيْسَ لَه همٌّ في الحيـاة إلا تحقيق مآربه الدُّنيوية الهابطة لاهيا عن عبادة اللّه تعالى وَطاعته، إنه كما يقول الله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ»(١)

مضمون الآية الكريمة:

لما طلب الفتيان من يوسف - عليه السلام - تعبير رؤييهما ووصفاه بالإحسان انتهز هذه الفرصة فوصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، لشد انتباههما إليه، وليحدثهما عن الأهم وهو توحيد لله تعالى، ودلل على ما أوتيه مما هو فوق العلم مما يعرفانه منه، من إخبارهما بالطعام وكل ما يتعلق به وهو بَعْدُ عند أهله. لم يأت إليهما، فإذا حضر الطعام إليهما وجداه كما وصف وأخبر، «قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا» ثم أجاب على ما يمكن أن يكون عندهما من استفهامات حول من علمه هذا العلم الخارق فقال: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» وعن توقع سؤالهما ولم يعلمك ولم يعلم غيرك؟ فقال: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» أي الواحد الأحد والذي لا يمعبود بحق سواه «وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» أي وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة، من بعث وحشر وحساب وجزاء.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - للعالم إذا جهلت منزلته في العلم أن يصف نفسه بما هو بصدده، وليس ذلك من باب التزكية إن قصد أن يقتبس منه ويتبع ويهتدي به في الدين.

٢ - على العالم أن ينتهز كل فرصة سانحة للدعوة إلى الله تعالى.

٣ - إذا سئل المفتي وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه كان عليه أن يبدأه بما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله.

---

(١) محمد / ١٢.



٤ - على العالم أن يقدم الهداية والإرشاد والعظة على ما استفتي فيه، ليظل المستفتي متعلقا بما يقول ولا ينصرف عنه.

٥ - ربط الدعوة إلى الله تعالى بما يهتم به المدعو إليها، لجذب اهتمامه واطمئنانه إلى حسن الإجابة عما يشغله.

٦ - في الآية الكريمة إعلام من يوسف - عليه السلام - بأن علم تأويل الأحاديث من العلوم التي علمه الله إياها وهي آية من آيات النبوة ومنها علم تأويل الرؤى.

٧ - في جهره بالدعوة إلى الله الواحد آية دالة على نبوته - عليه السلام -.

٨ - هذه أول مرة يبدأ فيها يوسف - عليه السلام - التعريف بنفسه.

٩ - الإيمان بالله واليوم الآخر هو مصدر كل خير وسعادة في الدارين، وعدم الإيمان بذلك هو سبب كل شر وشقاء في الأولى والاخرة.

١٠ - التخلية قبل التحلية، فقد قدم - عليه السلام - ذِكْر تَرْكِه لملة المتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه في الآية التالية.



«الآية الثامنة والثلاثون» (٣٨)

أولاً - النّصُّ القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «آبَائِي»

- قرأ الأشْهَبِيُّ العَقيْلِيُّ وأبُو عمرو «آبَائيْ» بالإسكان في الياء،
- وقَرأ الجمهور «آبَائِيَ» بياء مفتوحة،

التّرجيح:

قال أبو حاتم: هما - أي القراءتين السابقتين - حسنتان، فاقرأ كيْف شئْت، وأمَّا طرحُ الهمزة فلا يجوز، ولكن تخفْيفُها جيِّد، فتَصيرُ ياءً مكسُورَةً بعْد ياءٍ ساكِنَةٍ أو مفْتفوحة[١]

ثالثاً - اللغة:

قوله: «واتَّبَعْتُ»

(تبعَ): تبعَ الشَّيْءَ تَبَعاً وتَبَاعاً في الأفْعَالِ، وَتبعْتُ الشَّيْءَ تبُوعاً: سِرْتُ في أثَرِه، وَاتَّبَعَهُ وأتْبَعَهُ وَتَتَبَّعَهُ: قَفَاهُ وَتطلَّبَهُ مُتَّبِعاً له، وكذلك تَتَبَّعَهُ وَتَتَبَّعْتُهُ تَتَبُّعاً، قال القطاميُّ:

وَخَيْرُ الأمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ منْهُ *** وليْسَ بأن تتبَّعَهُ اتِّبَاعَا،

وَضعَ الاتِّبَاعَ موْضِعَ التَّتَبُّع مَجَازاً، قال سيبويْه: تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعاً، لأنَّ تَتَبَّعْت في مَعْنَى اتَّبَعْت، وَتبِعْتُ القوْمَ تَبَعاً وَتَبَاعَةً بالفتْح، إذَا مَشِيتَ خلْفَهُم أوْ مَرُّوا بكَ فَمَضَيْتَ معهم، وفي حديث الدُّعاء «تابع بيْننا وبينهم على الخيرات» أي اجعلْنا نتَّبعهم على ما هم عليه[٢] ويقال: تَبِعَهُ واتَّبَعَهُ: قَفَا أثَرَه[٣]،

---

(١) تفسير ابن عطية / ٩ / ٢٠٨.

(٢) اللسان / ٨ / ٢٧.

(٢) المفردات (كتاب التّاء) ٧٢.



قوله: «نُشْرِكَ»

شرك: الشِّركة والمشاركة: خَلْطُ المِلْكَيْن، وقيل: هو أن يوجَدَ شيْءٌ لاثْنَيْنِ فَصاعِداً عَيْناً كانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ أوْ مَعْنًى، كمُشَارَكة الإنْسَانِ والفرَسِ في الحيوانيَّة، ومشاركَة فَرَسٍ وفَرسٍ فِي الْكُمْتَةِ وَالدُّهْمَة، يُقَال: شركتُه، وشَارَكْتُهُ، وتشاركُوا واشْتَركُوا، وَأشْرَكْتُه في كَذَا، قال «وأشْرِكْهُ فِي أمْرِي»(١)

وَجمع الشَّرِيك: شركاء «ولَم يكن له شريكٌ في الملك - شركاءَ متشاكِسُون - شُرَكاءَ شَرَعُوا لهم - أيْنَ شركائي(٢)

ويقال: أشْرَكَ باللّهِ: كَفَر، فهو مشْرِكٌ وَمُشْرِكِيّ، والاسم: الشِّرْك فِيهما(٣)،

قوله: «مِن فَضْلِ اللّهِ»

فضْل: الفضل: الزيادة عن الاقْتصار، وذلك ضربان:

محمود: كفضْل العلم والحلم، ومذْموم، كفضْل الْغَضَب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود: أكثر استعمالا، والفضولُ في المذموم(٤)

والفضل: ضد النقص، ج: فضول، وقد فَضَل كنصَر وعلِمَ، وأما فَضِلَ، كَعَلِمَ، يفْضُلُ، كينصر، فمركَّبَةً منهما، والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضْل،

والاسم: الفاضلة. وفضَّلَهُ تفْضيلاً: مزَّاه(٥).

وَالفَضل: النَّفع الزائد على مقدار الواجب، فكل عطاء الله فضل فإنه لا واجب عليه تعالى:

قوله: «لاَ يَشْكُرُونَ»

الشُّكْرُ بالضَّمِّ: عِرْفان الإحسان ونَشْرُه، ولا يكون إلا عن يَد، و - مِنَ اللّه: المجازاة، وَالثَّناء الجميل،

---

(١) طه/ ٣٢.

(٢) المفردات (كتاب الشين) ٢٥٩.

(٣) القاموس المحيط (باب الكاف) ١٢٢٠.

(٤) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨١.

(٥) القاموس المحيط (حرف اللام) ١٣٤٨.



يقال: شكره، و - له شُكراً وشُكوراً وشُكْرَاناً، وَشَكَر الله، ولِلّه، وبالله، ونعمة الله، و - بها، وتشكَّرَ لَهُ بَلاءَه، كَشَكَرهُ والشّكُور: الكَثير الشكْر[1]،

والشّكْرُ: تَصوُّرُ النِّعمة وإظهارها، ويُضَادُّه الكفر وهو نِسْيَانُ النِّعْمة وَسَتْرُها، وَالشكْر ثَلاثَةُ أضْرب: شكْرُ القَلْب، وهو تَصوُّر النِّعْمة، وَشكْرُ اللِّسَان: وَهُوَ الثناء عَلَى المنْعِم، وَشكْر سَائر الجوارح، وَهُوَ مكافأةُ النعمة بِقَدْر اسْتِحْقاقه[2].

رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...»

دَاخِلٌ في حَيِّزِ التَّعْليل، كأنه قال: إنما فُزْتُ بما فُزْتُ لأنِّي لم أتَّبع ملّة قوم كفروا بالمَبْدَإِ والمَعَاد، واتَّبَعْتَ ملة آبائي الكرام المؤمنين بذلك[3]

(واتبعتُ) عطف على تركْتُ، والتاء فاعله، وملة آبائي مفعول به، وإبراهيم وما بعده بدل أو عطف بيان، أو منصوب على المدْح[4]

قوله: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّه مِن شَيْءٍ»

في قوّة البيان لِمَا اقْتَضَتْهُ جُمْلَة (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي...) من كوْن التّوْحيد صار كالسَّجيَّة لهم عرف بها أسْلافُهم بيْن الأمم، وعرَّفهم بها لنفْسه في هذه الفرصة[5]

و(ما) نافية و(كان) فعل ماض ناقص، و(لَنَا) خبرُها المقدَّم و(أن) وَمَا في حيِّزِها اسْمُهَا المؤخَّر، و(بالله) مُتعَلِّقَان بـ(نُشْرِك) وَ(من) حَرْف جرّ زائد، و(شيء) مجرور لفْظاً مفعول به منْصُوب محلاً لـ(أن نشرك)

قوله: «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ...»

(ذلك) مبتدأ، و(من فضل الله) خبر، و(علينا) متعلقان بـ(فضل) و(على الناس) معطوف على (عليْنا)

---

(1) المرجع السابق (حرف الراء) ٥٣٧.

(2) المفردات (كتاب الشين) ٢٦٥.

(3) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٢.

(4) الدر المصون/ ٦/ ٤٩٧.

(5) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٣.



قوله: ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾

وأتى بالاستدراك في قوله: (وَلَـكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ) للتصريح بأنَّ حَالَ المخاطبين في إِشْرَاكِهم حال من يكفر نعمة الله، (ولكنَّ) الواو عاطفة، و(لكنَّ) وَاسمها، وجملة (لا يشكرون) خبرها[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٤ / ٤٩٤.

رفع المساهم

سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يبدأ بالدعوة إلى عبادة الله الواحد:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد أن عرَّف يوسف - عليه السلام - الفتيَيْن في الآية السابقة أنه نبيٌّ يُوحي إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ذكر في هذه الآية آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة ليقوّي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله(١)

وأيضا، فإن لما بيَّن لهم في الآية السابقة معالم الكفر في ملّة القوم الذين تركهم والذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ بيَّن لهم في هذه الآية معالم ملَّة الإيمان الحنيفية التي يتبعها هو وآباؤه - عليهم الصلاة والسلام -.

ففي الآيتين تماسك مصدره أنهما تتعلقان بيوسف - عليه السلام -، ولقد كان نَسَبُهُ غامضا عند المصريين، وكان يُحْسَب أنه من غمار الناس، سواء أيام وجوده عبدا في بيت العزيز، أو في أزمنةسجْنه الأولى، ولما حانت الفرصة وأكرمه الله تعالى بالنبوة، أظهر نسبه الشريف العالي أمام الفتيَيْن ومن في السجن، تمهيدا لما يلقيه عليهما من العظة والإرشاد والدعوة إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة كل ما سواه، وما كان يقصد - عليه السلام - بحديثه عن أصله الطيّب ومنبته الكريم علوا ولا تفاخراً، وإنما تحدُّثاً بنعمة الله تعالى عليه وعلى آله، وقد قال محمد - ﷺ - في ذكر طهارة آبائه وشرفهم: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢ / ٣٢٠ ونظم الدرر/ ٤ / ٤٠.



من بني هاشم»(١) ومعلوم أنه قد أتى على يوسف - عليه السلام - منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار:

الدور الأول: أخذ (السيارة) إياه لمصر كسلعة تجارية، ولم يعلن عن نفسه آنذاك لعلمه عن طريق الوحي الإلهاميّ، أن ما هو مساق إليه، إنما هو قدر الله تعالى وقضاؤه عليه لِيُتمَّ له أمره الذي وعده إياه في رؤياه من تمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب بالنبوة والرسالة، كما أتمها على أبويه من قبْل إبراهيم وإسحاق، فكان السكوت هو الأوْلى له هنالك.

الدور الثاني: زمَنُ خِدْمَتِه للعزيز (فوطيغار) وزوجه (زليخا) قبل دخول السِّجن، وقد سكت يوسف - عليه السلام - في هذا الدور أيضا لأنه لم يكن هناك داع للإعلان والتعريف عن نفسه،

الدور الثالث: دور الاتهام والاعتقال والزَّجِّ به في السجن ثم مِنَّة الله تعالى عليه بالنبوّة والرسالة، فكان لزاماً عليه قبل دعوة أهْل السِّجن إلى الدين القيم، أنْ يُعْلن عن نَسَبِه الطاهر وأصله الكريم، فإنَّ الحاجة تدعو إلى ذلك حتى يُقْبل الناس عليه وهم على علم بأنه أهل للدعوة والرسالة، فهو الكريم ابن الكرماء، فكان قوله الآتي:

«وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ»

ما الفائدة في ذكر هذا الكلام «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي... الخ»؟

والجواب: أنه - عليه السلام - لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب؛ قَرَنَ به كونه من أهل بيت النبوة، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام، فإن الإنسان متى ادعي حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه، وأيضا فكما أن درجة إبراهيم - عليه السلام -، وإسحق ويعقوب كان أمرا مشهورا في الدنيا، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال، فكان انقيادهم له أتم، وتأثُّرِ

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب «فضل نسب النبي ﷺ» حديث رقم (١) وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب ٥ / ٥٨٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح.



قلوبهم بكلامه أكمل، ونلحظ أن يوسف - عليه السلام - لم يأت على لسانه في هذه المناسبة هذا النسق «يَعْقُوبَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ» الذي يدل على النسب لا غير، فيبدأ بأبيه ثم جده إسحاق ثم جد جده إبراهيم، ولكن يجئ على لسانه «إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» ليلقى علينا درسا جميلا بهذا النسق، وهو أنه يجب أن يكون كل ما يصدر عنا من قول أو فعل مرادا به وجه الله تعالى وحده، ولقد قال أبوه يعقوب - عليه السلام - من قبل وهو يؤول رؤيا ابنه يوسف - عليه السلام - «كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ» ولم يقل (كما أتمها على أبويك إسحاق وإبراهيم) إنه ولا شك أدب النبوة العظيم، وهذا القول: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي... الخ» يشير أيضا إلى نبوته ورسالته - عليه السلام -.

ملة آباء يوسف - عليه السلام -:

لقد أعلن يوسف - عليه السلام - أنه تابع لملة آبائه - عليهم السلام - والمراد بلفظة (الملّة) إنما هو أصول التوحيد وإجلال الله تعالى بالعبادة دون الفروع الشرعية(١).

فكان تابعا في ذلك لأبيه (يعقوب) - عليه السلام - التابع لأبيه اسحاق - عليه السلام - التابع لأبيه (إبراهيم) - عليه السلام -، فالملة هي في البدء لإبراهيم - عليه السلام - وأما أنسالُه المذكورون فتابعون له فيها وإن كانوا أنبياء، ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - تابعون له في شريعته التوراة وعقيدتها مع أن كل واحد منهم نبي، وقد يكون البعض منهم رسولا أيضا، وقد يكون منهم أصحاب أسفار مجيدة(٢).

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام / ٣ / ١٣٢.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٧٦٦.



كيف يكون يوسف - عليه السلام - نبيا رسولا، وهو تابع لملة آبائه والرسول لا بد أن يكون مختصا بوحي جديد؟

ويجيبنا الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذا السؤال من خلال كلامه عن الفرق بين النبي والرسول فيقول:

فالنبي هو: الذي ينبئه الله تعالى، وهو ينبئ بما أنبأ الله له، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله تعالى ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ»(١).

وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره الله بتبليغ رسالته إلى من خالف الله، كنوح - عليه السلام - وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس - عليهما السلام - وقبلها آدم - عليه السلام - كان نبيًّا مُكَلَّماً قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان بين آدم ونوح - عليهما السلام - عشرة قرون، كلهم على الإسلام، فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله تعالى بما يفعلونه، ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة، يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحي إلى أحدهم وحي خاص في قضية معينة، ولكن كانوا في شرح التوراة كالعالم المسلم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن، كما فَهَّم الله تعالى سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود - عليهما السلام - فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فهم رسل، ولا بد أن يُكَذَّبَ الرسل قوم، ثم قال - رحمه الله -:

---

(١) الحج/ ٥٢.



فقوله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمي رسولا عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي - ﷺ - (العلماء ورثة الأنبياء) وليس من شرط أن يأتي الرسول بشريعة جديدة، فإن يوسف - عليه السلام - كان رسولا وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كان رسولين، وكانا على شريعة التوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»(١)، (٢).

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول:

إن إبراهيم - عليه السلام - (٢٦٢٠) - قبل الهجرة وكل حياته (١٧٥) سنة وبعد مائة سنة (١٠٠ سنة) من عمره تقريبا ولد له إسحاق - عليه السلام - فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه إبراهيم (٧٥) سنة وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة، وبعد (٦٠) سنة من عمره ولد له يعقوب - عليه السلام - فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه إسحاق (١٢٠) سنة وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة، وبعد (٩٣) من عمره، ولد له يوسف - عليه السلام - فيكون يوسف قد عاش مع أبيه في حياة أبيه (٥٦) سنة وبذلك أمكن ليوسف - عليه السلام - أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيدا من أبيه يعقوب - قبل أبيه إسحاق -، كما أمكن لإسحاق - عليه السلام - أن يتلقاه ويتلقنه جيدا من أبيه إبراهيم - عليه السلام - فضلا عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبيّاً ورسولاً كريماً، عليهم جميعا وعلى رسولنا محمد أفضل الصلاة وخير السلام(٣)، هذا، ومن الملاحظ أن يوسف - عليه السلام - لم تستمر حياته مع أبيه يعقوب مدة حياة يعقوب كلها، إلا أنه - عليه السلام - لما أُخِذَ من أبيه على يد إخوته وألقى في الجب كان سنه علي الأرجح في الثالثة عشر من عمره، ولا شك أنه في هذه السن، وهو التلميذ الأكرم

(١) غافر/ ٣٤. (٢) النبوات/ ٢٨١-٢٨٢.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٧٧٠-٧٧١.



المحب لدى أبيه وأستاذه يعقوب النبي والرسول، قد بلغ مبلغاً عظيماً في أصول التوحيد وحقيقته الخالصة التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، خاصة وأن يوسف - عليه السلام - كان يحمل أمارات الفطنة والذكاء والصفاء.

هذا ولا يصح لقائل أن يقول: إذا كان اتباع الآباء مطلوباً كما أخبر يوسف - عليه السلام - عن نفسه، فإن اتباع القوم لآبائهم مطلوب أيضا، فكيف يطالبون بترك ملة قومهم واتباع ملة أخرى؟

ويجاب عن ذلك بأن الفرق بين الاتباعين هو الفرق بين النقيضين، فاتباع يوسف - عليه السلام - لآبائه - عليهم السلام - ما وقع إلا على ملة الحق ملة الأنبياء والمرسلين، دين الله رب العالمين، أما اتباع القوم فما وقع إلا على ملة باطلة مخترعة، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم بإيمان، قال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»(١)

وفي قول يوسف - عليه السلام - «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي»

تقرير وتأكيد على أن الدين الإلهي الذي هو من عند الله تعالى، يجب اتباعه اتباعاً تاماً مطلقاً، وليس لأحد أيا كان أن يغير أو يبدل فيه قليلاً أو كثيراً، فليس من حق أي مسلم لله رب العالمين إلا أن يكون متبعا لدين الله الواحد.

الإسلام هو الملة الحنيفية التي دعا إليها كل نبي ورسول:

الإسلام هو دعوة يوسف - عليه السلام - كما جاء في الآية الكريمة «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»(٢)

والإسلام هو دعوة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وذريته من الأنبياء، «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ»(٣)

والإسلام هو وصية إبراهيم لبنيه ويعقوب - عليهم الصلاة والسلام - «وَمَن يَرْغَبُ

---

(١) الطور/ ٢١. (٢) يوسف/ ١٠١. (٣) البقرة/ ١٢٨.



عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(١)

والإسلام هو دعوة جميع الأنبياء والرسل قبل إبراهيم - عليه السلام - قال نوح - عليه السلام - لقومه «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(٢)

والإسلام هو دعوة جميع الأنبياء والرسل بعد إبراهيم - عليه السلام - قال موسى - عليه السلام - لقومه: «وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ»(٣)

وكان من دعاد السحرة المصريين لما آمنوا برب هارون وموسى، «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ»(٤)

وجميع الأنبياء الذين أقاموا التوراة كانوا مسلمين «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ»(٥)

والإسلام هو الدين الذي أشهد الحواريون الله عز وجل على أنهم يدينون به «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ»(٦)

والإسلام هو ملة المسلمين أتباع خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد - ﷺ - «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ

---

(١) البقرة/ ١٣٠-١٣٣. (٢) يونس/ ٧٢.
(٣) يونس/ ٨٤. (٤) الأعراف/ ١٢٦.
(٥) المائدة/ ٤٤. (٦) المائدة/ ١١١.



أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»(١)

فالإسلام هو الدين الحق الذي لا دين سواه منذ أن خلق الله تعالى الخلق وأرسل الرسل - عليهم السلام - وما دعا نبي إلا إلى الإسلام، «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ»(٢)

ولا يقبل الله تعالى إلا الإسلام «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»(٣)

وعقيدة الإسلام واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ»(٤) «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا»(٥)

فدين الله واحد لا يتبدل ولا يتغير وهو الإسلام، أما الشرائع فمختلفة، على حسب كل قوم وزمانهم وأحوالهم وما هم عليه من أمراض وعلل.

(فلكل أمة جعل الله لها شرعة ومنهاجا) قال الله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٦)

حصر عدد الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

وبمناسبة الحديث عن الرسل والأنبياء - عليهم السلام - وأنهم جميعا كانت ملتهم الإسلام.

---

(١) الحج/ ٧٨. (٢) آل عمران/ ١٩.

(٣) آل عمران/ ٨٥. (٤) الأنبياء/ ٢٥.

(٥) الشورى/ ١٣. (٦) المائدة/ ٤٨.



نذكر أنه لم يرد نص قاطع عن الرسول - ﷺ - في حصر عدد الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر، ولا في حصر عدد الأنبياء، ولذلك فنحن اتباعا للنصوص القاطعة من قرآن وسنة يجب علينا أن نؤمن إجمالا بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، من عرفنا منهم ومن لم نعرف وفق الحقيقة المعلن عنها في القرآن الكريم، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ»(١) كما يجب علينا الإيمان تفصيلا بخمسة وعشرين رسولا سماهم الله في قرآنه وقص علينا قصصهم، أولهم آدم - عليه السلام - وآخرهم محمد - ﷺ -، وها هي أسماؤهم: ١ - آدم، ٢ - إدريس، ٣ - نوح، ٤ - هود، ٥ - صالح، ٦ - إبراهيم، ٧ - لوط، ٨ - اسماعيل بن إبراهيم، ٩ - اسحاق بن ابراهيم، ١٠ - يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم - وهو إسرائيل، وإليه ينسب شعب إسرائيل، ١١ - يوسف بن يعقوب، ١٢ - شعيب، هو ابن ميكل بن يشجر بن مدين، بن ابراهيم الخليل، ١٣ - أيوب - من ذرية ابراهيم، ١٤ - ذو الكفل، ١٥، ١٦ - موسى وهارون - وهما ابنا عمران بن قاهات بن لاوي، بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم خليل الرحمن، وهارون أسبق ميلادا من موسى - عليه السلام - بثلاث سنين، ولهما شقيقة اسمها مريم، وكانت فوق سن الإدراك حينما ولد موسى وهي التي تتبعته إلى دار فرعون، ١٧ - داود، وينتهي نسبه إلى يعقوب - عليه السلام، ١٨ - سليمان بن داود، ١٩، ٢٠ - الياس، واليسع، وهما رسولان من بني إسرائيل، ٢١ - يونس بن متى، وهو من بني اسرائيل ويتصل نسبه ببنيامين شقيق يوسف، ٢٢، ٢٣ - زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - وهما رسولان من بني إسرائيل، ٢٤ - المسيح عيسى - عليه السلام - وهو آخر رسل بني إسرائيل واسمه بالعبرية (يسوع، يسوّع) أي المخلِّص، وهو عيسى ابن مريم ابنة عمران ويتصل نسب عمران بدواود - عليه السلام،

---

(٣) غافر / ٧٨.



٢٥ - سيدنا محمد - ﷺ - خاتم النبيين والمرسلين، والذي ينتهي نسبه إلى اسماعيل ابن ابراهيم عليما السلام.

الأنبياء كلهم إخوة لعلات:

جاء في الصحيح: «الأنبياء كلهم إخوة لعلات، أبوهم واحد - وهو الدين - وأمهاتهم شتى - وهي الشرائع».

والمؤمنون الذين أسلموا لله كلهم إخوة:

فكل من آمن وصدق واتبع الرسول الذي أرسل إليه من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ - وإلى أن تقوم الساعة، كلهم إخوة في الدين والإسلام، لأنهم جميعا مؤمنون موحدون متبعون لما جاءهم من عند الله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤمِنُونَ إِخْوَة».

وتقوى هذه الأخوَّة وتزداد بين كل تابع للنبي محمد - ﷺ - في كل زمان ومكان.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ»

بعْد أن بيَّن يوسف - عليه السلام - المِلَّةَ الصحيحة، ملَّة الآباء المصطفين الأخْيار، ملَّة كل نبي ورسول، شرع في بيان العقيدة الصحيحة التي تقُومُ عليها تلك المِلَّةُ الحنيفيَّة،

فكأنه قيل: ما تلك الملّة؟ فقال: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْ»(١)

وقوله: (ما كان لنا) أي: ما صَحَّ لنا معْشَر الأنبياء - فيوسف واحد منهم - وما اسْتقام بوجه من الوُجوه، لما عْندنا من نور العلم الذي لم يدعْ عندنا لبْساً بوجْهٍ أصْلاً، (أن نشرك) أي: نُحَدِّدَ في وقْت ما شيئاً من إشراك (بالله) وأعرق في النَّفْي - بالغ فيه - فقال: (من شيء) أي بما شرعه لنا من الدّين القويم كانت ملَّتُنا التَّوحيد، ومن التأكيد، العموم في سياق النَّفْي، ليعم ذلك كل شيْء من عاقل، مَلَكٍ أو إنْسِيٍّ أو جِنِّيّ

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٤٠.

(٢) تفسير الكشاف/ ٢ / ٣٢١.



أو غير ذلك(١) فـ(مِن) زائدة في المفعول به - من شيء - لتأكيد العموم، ويجوز أن يكون المعنى، شيئاً من الإشراك قليلا كان أو كثيراً فيرادُ من (شيء) المصْدَر، وأمْرُ العموم بحاله. ويلتزمُ من عموم ذلك عموم المتعلقات(٢)

إن يوسف - عليه السلام - يؤكد لهم ويبِّن أنَّ العَقيدَةَ الصَّحِيحة التي تقوم عليها المِلَّة الصحيحة هي عقيدة التوحيد الخالص من كل شرك، فَنَفَتِ الآيةُ وُجُودَ أقل القَليل مِنَ الشِّرْك وهذا ما يعطيه موْقع (مِنْ) فيها - في قوله (من شيء)(٣)

فحرْفُ الجرِّ (مِنْ) الذي يفيد التَّبْعيض هو المناسبُ هنا، لأنَّ نَفْيَ جزْءِ الشيْءِ أبلغ من نَفْيه كلِّه؛ ولا يخْفَى العلاقةُ الوثيقَةُ بيْنَ الجزئيَّتَيْنِ في الآية، فإن كلاً منْهما تدعو إلى عبادة الله وحده، «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» الجزئية الأولى «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ» - الجزئية الثانية -(٤)

ومِنْ فَائدَة قَوْل «مِن شَيْءٍ» أيضاً،

أنّ أصْنَاف الشِّرْك كثيرة، فمنهم مَنْ يعبُد الأصنام، ومنْهم من يعبُد النار، ومنهم من يعبُد العقْل والنفس والطبيعة، فقوله: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ» ردٌّ على كل هؤلاء الطوائف والفرق، وإرشاداً إلى الدِّين الحق، وهو أنه لا موجود إلا الله ولا خَالِقَ إلاَّ الله ولا رازق إلاَّ الله

فإن قيل: لم قال: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ» وحال كل المكلَّفين كذلك؟

والجواب: ليس المراد من قوله «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ» أنه حرَّمَ ذلك عليهم، بل المراد أنَّه تَعَالى طَهَّرَ آباءَه عن الكفر، ونظيره قوله «مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ» (مريم: ٣٥)(٥)، (٦) فكأنه - عليه السلام - يقول لهم، نحن لا نعبد مع الله

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٤٠.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٢٢٦.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٠١.

(٥) مريم/ ٣٥. (٦) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٤١.

أحَداً وَلا نشرك به شيئا غيره، فلا نَعْبُدُ المُلُوك كالفراعنة، وَلا التماثيل ولا الأصنام والصُّوَر، ولا نَعْبُدُ الحيوان، (كعجل أبيس) الذي كان يعبُده بعْضُ الفراعنة، ولا نَعْبُدُ الشَّمْس أوِ القمر(١).

حقيقة الشّرك - والعياذ بالله تعالى:

الشِّرك لغة: الإسم من شركه في كذا يشركه شركا وشركة، كأشركَهُ، فَكذا يشركه فيه، إذا جَعَلَ لَهُ نصيباً قليلاً أو كثيراً في ذَاتٍ أو معنى، ومثله شاركه في كذا يشاركه فيه: كان شريكا له فيه بقدر كبير أو صغير في ذاتٍ أو وَصْفٍ.

والشِّرك شرعا، ضدّ التوحيد كما أن الكفر ضدّ الإيمان،

وحقيقته: أن ينزّل المخلوق منزلة الخالق، وبالعكس، مثل مساواةِ المخلوق بالخالق في أي شيْءٍ، أو مُنَازعة المخلوقِ لخالقه في خصَائِصِه.

والشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كُفْر، وفي عباداته تعالى إن كان الفاعل له عالما به مُصِرّاً عليه كُفْرٌ كذلك، إذا الشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته تكذيبٌ لله تعالى؛ وكَذِبٌ عليه عزَّ وجلّ، وفي عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى، وتأليه غيْرُ الله تعالى كفْر، وتكذيب لله تعالى في قوله: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ»(٢) وفي قوله: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»(٣) وتكذيب الله تعالى كُفْر بلا شك.

إختلاف الشرك عن الكفر:

ويخْتَلف الشرك عن الكفر في أنَّ مِنَ الشِّرْك ما لا يكون كُفْراً وذلك كالشِّرْكِ الأصغر، والشِّرْكِ الخفيّ، لخبر الرسول ﷺ، في ذلك، ومن ذلك قوله: «إنَّ أخْوَفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشّرك الأصغر يا رسول الله»؟ قال: «الرِّياء»(٤)

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٦.

(٢) آل عمران/ ١٨. (٣) محمد/ ١٩.

(٤) رواه أحمد بإسناد جيد، وتمام الحديث «يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراقبون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟» المسند (٤٢٨٥/ ٤٢٩)



وقوله ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت، «أجعلتني لله نداً، قل: ما شاء الله وحده»(١) والند: الشريك.

وقوله ﷺ: «يأيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» فقيل له: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ يا رسول الله - قال «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك مما لا نعلمه»(٢)

ولم يحكم رسول الله ﷺ في كل هذا بردة فاعله ولا بتكفيره، ولهذا قيدنا الكفر في شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شرك، وأصر عليه عناداً ومكابرة(٣)

وقد قسم الإمام ابن القيم - رحمه الله - الشرك إلى قسمين:

أولا: الشرك المتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته تعالى وهو نوعان:

النوع الأول: شرك التعطيل وهو ثلاثة أقسام:

(أ) تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

(ب) تعطيل الصانع سبحانه عن كمالاته بتعطيل اسمائه وصفاته وأفعاله.

(جـ) تعطيل معاملته تعالى عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

النوع الثاني: شرك من جعل مع الله إلها آخر، ولم يعطل أسماءه وصفاته.

ثانياً - الشرك في العبادة والمعاملة ويقع فيه السواد الأعظم، وسببه عدم الإخلاص لله تعالى في العبودية، فتصدر الأعمال متلبسة بمقصدين:

مقصد دنيوي: ينطوي تحته حظ النفس وشهواتها،

ومقصد أخروي.

حكم الشرك:

الشرك أقبح الظلم، قال الله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم»(٤)

---

(١) رواه أحمد بلفظ «أجعلتني والله عدلا...» (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) وانظر: الفتح الرباني (١/ ٣٨) وروي ما يدل على معناه في الدارمي وابن ماجه وكذا أحمد (٥/ ٧٢، ٣٩٣) والفتح الرباني (١/ ٢٧، ٢٨).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣١٧) والطبراني بسند لا بأس به، وروي مسلم هذا اللفظ «من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» وهذا الحديث قدسي (٨/ ٢٢٣).

(٣) عقيدة المؤمن (الجزائري) ١٠٧-١٠٨. (٤) لقمان/ ١٣.



والشرك ظلم لا يغفر، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا»(١) وقال جل شأنه: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا»(٢)

والشرْك أشدّ أنواع الكفر، قال الله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»(٣)

والشرك مُحْبِطٌ لِكُلِّ عمَل، ولا يُقْبَل مِنْ صَاحبه صرف ولا عدل، وهو مُمَلَّدٌ في النَّار.

التوحيد الحقُّ الذي تقتضيه عقيدة الإسلامي

معنى التوحيد:

التوحيد في اللغة مصدر وحَّد الشيء يوَحِّدُه توْحيداً، إذَا أفْرَدَه ونَفَى عنه التعدَّد.

والتوحيد في عرف الشرع: نَفْيُ الكفْء والمِثْلِ عن ذات الله تعالى وصفاته وأفْعاله، ونَفْي الشريك في ربوبيَّته وعبادته عزَّوَجَلَّ، قال تعالى في نَفيّ الكفء: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (٤) اللَّهُ الصَّمَدُ (٥) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)»(٤)

وقال تعالى في نفْي الشريك في الربوبية: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ»(٥) وقال جل شأنه: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ»(٦)

وقال عز ذكره في نفْي الشريك في العبادة: «قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»(٧)

---

(١) النساء/ ٤٨. (٢) النساء/ ١١٦. (٣) المائدة/ ٧٢.
(٤) سورة الإخلاص. (٥) الرعد/ ١٦. (٦) يونس/ ٣١.
(٧) الأنعام/ ١٦٢-١٦٣.



ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام:

(أ) توحيده تعالى في الذات والصفات والأفعال، فهو جل شأنه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»(١)

(ب) توحيده تعالى في الألوهية، وهي تَرْجع إلى عبادة الله وحده،

والسؤال منْه وحْده، والاستعانة به وحده، ودعاؤه وَحْدَه، (فالإله) هو المعبُودُ الذي تُولِّهُ العقول في معرفته وتدعوه وتَصْمُدُ إليه لاعتقادها أن السلطة الغَيْبيَّةَ له وَحده.

(جـ) توحيده تعالى في الربوبية:

وهي الاعتقاد بأن مصْدَر الخَلْقِ والرِّزق والإحْيَاء والإمَاتَة، وكذا التشريع والحظر والإباحة وسنِّ الأحكام إنَّمَا هو لله وَحْدَه، الذي يُرَبِّي العالم بقوانينه السماويَّة التي ينُزِّلها على رسله، وإلى الوحْدَاتَيْنِ، وحدة الألوهيَّةِ ووحْدَة الربوبيَّة الإشارة بقوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»(٢).

قوله تعالى: «ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ»

هذه الجملة زيادة في الاستئناف والبيان لقصدا لترغيب في اتباع دين التوحيد وبيان أنه فضل الله(٣)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا» قال: أن جعلنا أنبياء،

«وَعَلَى النَّاسِ» قال: أن جعلنا رسلا إليهم.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة - رضي الله عنه - (ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ

---

(١) الشورى/ ٤٢. (٢) آل عمران/ ٦٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٣.



عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) قال: إن المؤمن ليشكُرُ مَا بِهِ من نعمة الله تعالى، ويشكر ما في الناس من نعمة الله تعالى، ذُكِرَ لَنَا أنَّ أبا الدَّرْداء - رضي الله عنه - كان يقول: يَا رُبَّ شاكر نعمة غيْر منعم عليه لا يدْري، ويا رُبَّ حامل فقه غير فقيه(١).

وَظَاهِرٌ أنَّ مَا رُوِي عَنْ (قتادة) في معنى قول الله تعالى: (ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يَدْخُلُ تحت شكر النعمة العظمى وهي إرسال الرسل إلى الناس ليؤمنوا بالله وحده ويطيعوه سبحانه، ولولا هذه النعمة العظمى لما علم الناس كيف يشكرون الله تعالى على ما أنعم مما لا يُعَدّ ولا يحصى.

إن يوسف - عليه السلام - بَعْدَ أن أكَّدَ للفتييْن أنَّهُ مَا صَحّ لَنَا مَعَاشِرَ الأنبياء أن نَّشْرِكَ بالله أي شيءٍ كان(٢) عَلَّلَ ذَلِكَ بما يُعْرَفُ بِهِ أنَّه كما وَجَبَ عليهم ذلك وَجَبَ على كل أحَد من الناس.

فقال: «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ»، وقوله (ذلك) إشارة إلى ملّتهم وشرعهم، وكون ذلك فضْلا عليهم بيِّن، إذ خصَّهم الله تعالى بذلك وجعلهم أنبياء(٣).

أوْ أن قوله (ذلك) إشارةً إلى التوحيد المدلول عليه بنَفْيِ صِحَّةِ الشِّرْك و(مِنْ فضْلِ الله عَلَيْنَا) أي ناشِيءٌ من تأييده لنا بالنبوَّة والْوَحْيِ بأقْسَامه، والمراد أنه فضْلٌ علينا بالذَّات(٤)

وهذا الفضل العظيم لا يُنال بالدراسة ولا يكْتَسَبَ بالقراءة والمطالعة في الكتب، بل إنَّه مَحْضُ فَضْل اللّه تعالى على مَنِ اصطفى من عباده الذين يُعلِّمهم الكتاب والحكمة ويكلفهم بتبليغ رسالاتِهِ إلى الخلْق ودَعْوَتهم إلى دِين اللّه الحق،

(وعلى الناس) بواسطتنا وذلك بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته، ونبيّنُ لهم هدايته. وهم إخوانُنا في النسب عامة، فنحن وبعض الناس شكرْنا

(١) الدر المنثور / ٤ / ٥٣٨-٥٣٩.
(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢١.
(٣) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٢.
(٤) روح المعاني / ٦ / ٤٣٣.



الله فقبلْنَا ما تَفضَّل به عليْنَا، فلم نُشْركْ به شيئا، وكل عطاء الله تعالى فضْل فإنه لا واجب عليه سبحانه، فكان لذلك واجباً على كل أحد إخلاص التوحيد له شكراً على فضله لما تضَافرَ عليْه دليلا العقْل والنَّقْل من أنَّ شكر المنْعم واجب(١)

وَهذه المرتبة العظمى، مَرْتَبَةُ دَعْوة النّاسِ إلى اللّه تعالى وَهِدَايتهم سبيل الرشاد وتعْريفهم بأسْبَاب نَجاتِهم، وتحصيل سعادتهم دُنْيا وأخْرى، إنَّما هي مِنْ فضْل اللّه تعالى على المرسلين وعلى العالمين، الذين يجب أنْ يُقَابلوا هذه النِّعْمة الكبرى بما يليق بها مِنَ الشكْر وَالثّنَاء(٢).

وإذَا قيسَتْ جميع الأفْضَال إلى جَانب نِعْمَة إرْسَال الرسل وهداية الخلق إلى دينِ الله تعالى، لَمْ يُعدْ لها فضل أبداً، ذلك لأن كُلَّ خَيْر لا يَنْبَع إلاّ مِنْ مَصْدَرِ هذه المِنّة، منَّة الله على العباد بالإسلام والدين القَيِّم، فَمَنْ قَبِلَهُ وانْقَادَ له فهو حظُّه وقدْ حصل له أكبرُ النِّعم وأجَلُّ الفضائل(٣)

وكأنَّ يوسف – عليه السلام – يقول للصاحبين: إذَا أردتُّمَا أن تنَالا من فضْل الله تعالى وإحْسَانه، فإنَّه الطريق مفتوحٌ لَكُمَا إلى الله تعالى، فلْتُؤمِنَا بالله تعالى كما آمن يوسف(٤)

قوله تعالى: «وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ»

بعد أن بيَّنَت الآية الكريمة أن عدم الإشراك من فضْل الله تعالى، بيَّنَت أنَّ أكثر النَّاس لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة، وقد ذكر سبحانه ذلك على سبيل الذّم فدلَّ على أنَّهُ يَجِبُ على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على الإيمان لئلا يَدْخُلَ في الذّمّ(٥)

والواقع يؤكد أنَّ العَدَدَ القليل جداً مِنَ النَّاس هم الذين يقومون بحقِّ شكر المنْعم،

---

(١) نظم الدر/ ٤٠، وانظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٧.

(٢) يوسف بن يعقوب/ ٢٤٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٧.

(٤) انظر: القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٥٤٥.

(٥) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٣.



كما قال تعالى «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»(١) أما أكثر الناس فَهُمْ جاحِدُونَ لِنِعَمِ اللّه تعالى ولا يُوَحِّدُونه.

ويلاحظ أنَّ يوسف - عليه السلام - لم يقل: (ولكن أكثركم لا تشكرون) كما أنه قال (يا صاحبي السجن) - بعد هذه الآية مباشرة - ولم يقل: أيها المسجونان، وقال: «وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» (آية: ٤٠) ولم يقل: (ولكن أكثركم لا تعلمون) تحْسينا للجواب ما أمكن وَتلْطيفاً للخطاب ما تيسَّرَ، كما قال تعالى: «ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»(٢)(٣).

تسْلِيَة للنبي ﷺ:

وَإِنَّا لنَتَبَيَّنُ نوْعاً مِنَ التوافُقِ بيْنَ هذه الجزئية «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ» وبَيْن قوله تعالى في السورة نفسها خطَاباً لنبيِّنا محمد ﷺ تسلية له «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ»(٤) وقوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ»(٥) فكأنَّ مَا يجئ الآن على لسان يوسف - عليه السلام - يعتبر تَسْلِيَةَ غيْرَ مُبَاشِرَة للرسول ﷺ(٦).

غمْزُ قنَاة الفتيَيْن:

وقد أراد يوسف - عليه السلام - بقوله «وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ» غمْزَ قَنَاةِ الفَتَيَيْنِ بأنَّهُمَا لم يكونا مِنَ الشكر في شيء، ولكنهما بالعكْسِ كفَرا بنعمة التوحيد ولم يَسْتَعْمِلا فيها قواهما العقلية(٧)

---

(١) سبأ/١٣. (٢) النحل/١٢٥. (٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/٢/٧٧٨.

(٤) يوسف/١٠٣. (٥) يوسف/١٠٦. (٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/٤٠٢.

(٧) مؤتمر تفسير سورة يوسف/٢/٧٧٨.

مضمون الآية الكريمة:

بعد أن عرّف يوسف - عليه السلام - الفتيين بأنه نبي يوحي إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ذكر في هذه الآية آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله، فقال: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي» أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص «إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» وبيَّن أساس ملَّتهم التي اتبعها وراثة وتلقيناً، فكانت يقيناً لهم ووجْدانا بقوله: «مَا كَانَ لَنَا» أي ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مِمَّا يقع منا «أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ» نتخذه ربّاً مدبّراً، أو إلهاً معبوداً معه، لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) ولا من غير ذلك كالشمس والقمر والحيوانات والتماثيل والصور، «ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا» بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيّته وألوهيّته بوحْيه وآياته في خلقه «وَعَلَى النَّاسِ» بإرسالنا إليهم ننْشُر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ» نعم الله عليهم، فهم يشركون به أرْباباً وآلهة من خلقه، يُذِلُّون أنفسهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم.

سابعاً: من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إتباع الأبناء ملّة الآباء مطلوب فقط إذا وقع الاتباع على ملَّة الحق التي جاء بها الأنبياء والمرسلون وفيما عدا ذلك فباطل.

٢ - الإسلام هو دعوة كل نبي ورسول، من لدنْ آدم - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ - خاتم النبيين والمرسلين.

٣ - الأنبياء كلهم إخوة، دينهم واحد، وهو الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وشرائعهم مختلفة حسب حال كل قوم.

٤ - المؤمنون بدين الله الحق في كل زمان ومكان إخوة.

٥ - براءة الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من كل معبود سوى الله تعالى.



٦ - الشرك بالله - والعياذ بالله - أصل كل ظلم وبلاء في حياة الناس، وهو يؤدي إلى الانقطاع والبعد عن دين الله الواحد، ويصاحبُه الفجور والفسادُ والطغيان والاعتداء على حرمات الناس. فالمشرك إنْسان مُتَسَلِّطٌ على الآخرين لا يهمه إلا نفسه.

٧ - نعمة الإيمان بالله الواحد وطاعته تفوق كل نعمة، وبها تستقيم مسيرة البشر ويتحقّقُ للمتوجين بها الحياة الطيبة في الأولى والآخرة، وبدونها لا يكون للإنسان قيمة ولا لحياته معنى، بل إنَّ عدمه حينئذ يكون أوْلى.

٨ - فضل الله العظيم على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام - حيث اصطفاهم واختارهم وأرسلهم لهداية الناس إلى دين الله القويم، ثم فضل الله العظيم على عباده بإرسال الرسل إليهم لهدايتهم إلى توحيده وطاعته.

٩ - فضْل القلةِ المؤمنة الشاكرة من عباد الله تعالى، على الكثرة الجاحدة الكافرة.

رفع المسيؤهما

«الآية التّاسعة والثلاثون»

أولاً - النّصُّ القرآن الكريم:

قال الله تعالى: يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

ثانيا - أوجه القراءات: □

ثالثا - اللغة:

قوله: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ»

والصاحب: الملازم، إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً، ولا فرْق بيْن أن يكون مصاحبته بالبدن، وهو الأصل والأكثر، أوْ بالعناية والهمة، وعلى هذا قال:

لئنْ غِبْتَ عن عيْني *** لما غبتَ عن قلبي

ولا يقال في العُرف إلاّ لمن كثُرْت مُلازمته[١]

قوله: «أرْباب»

الربُّ، باللام لا يطلق على غير الله عز وجل، وَرَبُّ كل شيء: مالكه ومستحقُّهُ، أو صاحبه، ج: أرْباب ورُبُوب[٢]

ولا يطلق (الرب) غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل: ربُّ كذا[٣]

والربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشّيْءِ حالاً فحالاً إلى حدِّ التّمام، يقال: ربَّه، وربَّاه، وربَّبَه، فالربُّ مَصْدر مُسْتعار للفاعل[٤].

قوله: «القهار»

---

(١) المفردات (كتاب الصاد) ٢٧٥.

(٢) القاموس المحيط / ١١١.

(٣) اللسان / ١ / ٣٩٩.

(٤) المفردات (كتاب الراء) ١٨٤.



القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويسْتعْمل في كل واحد منهما، قال: «وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ»[1] وقال: «وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّار»[2] و(القهار) من صفات الله عز وجل، قال الأزهري:

والله القاهر القهار، قهر خلقه بسلطانه وقدْرته وصرَّفهم على ما أراد طَوْعاً وكرْها، وَ(القَهَّار) للمبالغة، وقال ابن الأثير:

القاهر: هو الغالب جميع الخلق، وقَهَرَه يقهَرُه قهراً: غلبه، وتقول: أخذتهم قهراً: أي من غير رضاهم[3]

رابعاً - الإعراب:

قوله: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ»

(يا) حرف نداء، وصاحبي منادى مضاف، وعلامة نصبه الياء، والسجن مضاف إليه، والإضافة هنا يجوز أن تكون من باب الإضافة للظرف، مثل: مَكْرُ الليل، أي: في الليل، إذ الأصل يا صاحِبَيَّ في السجن[4] فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره، وهو يوسف - عليه السلام -[5]

واحتمل أن يكون من إضافته إلى شبه المفعول، كأنه قيل: يا ساكني السجن، كقوله: «أصحاب النار» و«أصحاب الجنة»[6][7]

قوله: «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ»

الهمزة للاستفهام التقريري، وأرباب مبتدأ، ومتفرقون صفة، وخيْر خبر.

---

(1) الأنعام/ ١٨. (2) الرعد/ ١٦.
(3) اللسان/ ٥/ ١٢٠.
(4) الدر المصون/ ٦/ ٤٩٧.
(5) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢١.
(6) الحشر/ ٢٠.
(7) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩.





قوله: «أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»

(أم) هنا متصلة[١] وهي حرف للمعادلة بعد همزة الاستفهام المطلوب بعدها تعيين أحد الشيئين، حرف عطف، و(الله) عطف على أرباب، والواحد صفة، والقهار صفة ثانية[٢]

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن (للعكبري) ٧٣٣.

(٢) إعراب القرآن وبيانه (الدرويش) ٤ / ٤٩٤-٤٩٥.

رفع المسلم

سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يحوّل السّجن إلى مدرسة توحيدية:

قال الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾

وجه المناسبة:

ولما أقام لهم الدليل على ما هو عليه من الدين الحنيفيّ تبعا لخلاصة الخلق، بما تقرَّر في الأذهان من أن الله تعالى هو المنعم وحده سبحانه فيجب شكره، بعد أن قرر لهم أمر نبوّته وأقام دليلها بما يخبرهم به من المغيّبات، ودعاهم إلى ما يجب عليهم من التوحيد وهو الإسلام، وكان أكثر الخلق إلا الفذّ النادر يقرون بالإله الحق، ولكنهم يشركون به بعض خلقه، أتبعه برهان التمانع على فساد كل مله غير الإسْلام الذي يطابق عليه الأنبياء والرسل كلهم، تأييداً لأدلّة النَّقل بقاطع العقل، فقال مناديا لهم باسم الصحبة بالأداة التي تقال عند ماله وقع عظيم في النفوس في المكان الذي تخلق فيه المودَّة، وتُمَحَّض فيه النصيحة، وتُصفَّى فيه القلوب، ويتعمد الإخلاص رجاء الخلاص(١):

«يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ»

اتفق القرّاء على كسْر سين «السِّجن» هنا، بمعنى البيت الذي يُسْجَنُ فيه المعاقبون، لأن الصاحب لا يضاف إلى السِّجن إلا بمعنى المكان، والجملة استئناف ابتدائي مصدّر بتوجيه الخطاب إلى الفتيَيْن بطريق النداء المسترعي سمعهما إلى ما يقول للاهتمام به(٢)

واحتمل قوله «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ» أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف، والمعنى: يا صاحِبَيَّ في السِّجن، واحتمل أن يكون إضافته إلى شبه المفعول، كأنه قيل: يا ساكني السجن، كقوله «أصحاب النار» و«أصحاب الجنة»(٣)(٤) والصحبة: ملازمة اختصاص، كأصحاب الشافعي مثلا، لملازمة الاختصاص بمذهبه، وهي خلاف ملازمة الاتصال(٥)

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٤١. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٤.

(٣) الحشر/ ٢٠. (٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٤١.



والصاحب الملازم، إنسانا كان أو حيوانا أو مكانا أو زمانا، ولا فرْق بين أن تكون مصاحبته بالبدن، وهو الأصل والأكثر، أو بالعناية والهمَّة وعلى هذا قال:

لئن غبت عن عيني، لَمَا غبْت عن قلبي،

ولا يقال في العرف - (صاحب) - إلا لمن كثرت ملازمته(١)

فناداهما - عليه السلام - بعنوان الصحبة، للإيذان بما حدث من الصلة بينهما والموافقة في الأحوال التي تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها ليُقْبلا عليه ويقبلان مقالته(٢)

فبهذا النداء الجميل «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ» خاطبهما - عليه السلام - تحبُّباً إليهما وتودُّداً، لأن النُّصْح علاج مُرّ، فليصحبه شيء من حلو الكلام، مثل: «يا بني إسرائيل» و«يا أهل الكتاب» و«يا أيها الذين آمنوا» التي صُدِّرَت بها جُمَلُ الوعظ في كتاب الله المجيد(٣) فقد اتخذ منهما صاحبْين وتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ليدخل من هذا المدخل إلى صُلْب الدعوة وجسم العقيدة، وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنما يعرضها قصة موضوعية(٤) وإن لياء النداء في «يا صاحبي» لوقعا خاصا في نفس الفتيين السجينيْن الذي ينبغي أن يكونا متَعطّشَيْن بسبب الظرف العصيب اللذين هما فيه إلى كل لفظ جميل بطريقة جميلة تدل على العناية بهما والاهتمام لهما، فكيف إذا رَنَّ في آذانهما لفظ (الصاحب) الذي يدل على المصاحبة، ولكن في أيّ شيء؟ إنها المصاحبة ساعة دخول السجن، وفي البقاء فيه، فهذا ما يفهم من القول على لسان يوسف - عليه السلام - «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ»(٥)

ولَمَّا فَرَّغ أفهامهما بالنداء لما يلقيه، قَرَع أسماعهما بالإنكار مع التقرير(٦) إيراداً للدليل على بطلان ملة قومهما فقال(٧):

---

(١) المفردات (كتاب الصاد) ٢٧٥.

(٢) أنظر: تفسير أبو السعود/ ٤/ ٢٧٨، وتفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٤.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٧٨٠.

(٤) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٨٩.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٠٣.

(٦) نظم الدرر/ ٤/ ٤١.

(٧) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩.



«أأرْبَابٌ مُتَفرِّقونَ خَيْرٌ أم اللهُ الواحِدُ القهَّارُ»؟

الهمزة للاستفهام التقريري، و(أرباب) مبتدأ، و(متفرقون) صفة و(خير) خبر.

إنه - عليه السلام - بعد أن تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفَتييْن من عبادة الأصنام، أورد هنا الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله «أَأَرْبَابٌ...» فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنْفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجَّة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها،

ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق[1] وإنَّ للاستفهام هنا دوره العظيم، إذ يحْمل الفتيَيْن على المشاركة الفكرية الإيجابية، لأن فيه إشْعاراً لهما بكيانهما ووجودهما، وردّ شيء من الاعتبار لهما الذي ضاع في زحمة الأحداث[2]، ولو أورد - عليه السلام - الدليل على بطلان ملة قومهما في صورة مباشرة، لنفرَتْ طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، كما أن في عرْضه عليهما بطَوْل أمر الأوثان، بأن وصفها بالتفرق، ووصف الله تعالى بالوحدة والقهر تلطُّفٌ حسن، وأخْذٌ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته[3]

فياله من حكيم إذ قال لهم هذا القول: «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»

إنها المقارنة الجوهرية في القول على لسانه - عليه السلام -

فهناك من ناحية، الأرْبابُ المتفرِّقُون بطبْعهم دائما، الذين لا يخلُقونَ شيئاً وهم يُخْلَقُون، ولا يملكونَ لأنْفُسهم ضراً وَلا نَفْعاً وَلا يملكون مؤتاً وَلاَ حياةً ولا نُشُوراً[4]

وهناك في المقابل: الله الواحد القهار[5] قابَلَ - عليه السلام - تَفرُّقَ أرْبابهم

---

(١) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٩٠.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٥٤.

(٣) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٣.

(٤) الفرقان / ٣.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٠٣-٤٠٤.



المتعددة بالواحد، فيكون ذِكْرَ الواحد على هذا في مقابلة ما أشير إليه مِنَ التعدُّدِ، و(القهار) في مقابلة ما أشير إليه مِنَ المَفْقُودِيَّة وَالعَجْز، وَالمعنى: أمُتعدِّدُون سَمَّيْتُمُوهم أرْبَاباً عجزة مقهورون مُتَأثرون مِنْ غَيْرِهم خيْرٌ (أم اللّهُ) أي صاحب هذا الاسم الجليل (الواحد) الذي يستحيل عليه التكثُّرُ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوه (القهار) الذي لا موجود إلاّ وَهو مُسَخَّر تحت قهره وَقُدْرته عَاجِزٌ في قَبْضَته[1]

وَسَمّى يوسف - عليه السلام - آلِهَتَهُم المزْعُومَة (أربَاباً) بناء على زعمهم، لاعتقادهم فيها أنّها كذلك، وكَذا المشاركةُ في أفْعَل التفضيل، لأن ذلك أقرب إلى الإنصاف، لكنه ألْيَن في القولِ فيكون أدْعَى إلى القَبُول[2] فالكلام خرج على سبيل الفرض والتَّقْدير[3]

إذْ أنّه فَرَضَ لَهما مُفَاضَلَةً بيْن مجموع الحَالَيْنِ، حَالَ الإله المنفرد بالإلهية وَالأحْوَال المتفرِّقة للآلِهَة المُتعدِّدين، ليصل بذلك إلى إقْنَاعهما بأنَّ حَال المنْفرد بالإلهية أعظم وأغْنَى فيَرجِعَانِ عَنِ اعْتقاد تعدُّدِ الآلِهَة، وَلَيْس المرادُ مِنْ هذا الاستدْلال وَجُودَ الحَالَيْن في الإلهيَّةِ والمفاضَلَة بَيْنَ أصْحَابِ هذين الحالَيْن، لأنَّ المخَاطَبَيْن لا يُؤمِنَان بوُجود الإله الواحد،

هذا إذَا حُمل لَفْظ (خيْر) عَلَى ظاهر المتعارَف منه، وَهُوَ التَّفْضيل بيْن مشتركَيْن في صفَة، ويجوز أن يكون (خيْر) مُسْتعملاً في معنى (الخير) عِنْد العقل، أي الرُّجْحَان والقَبُول، وَالمَعْنى: أعْتِقَادُ أرْبَاب متفرِّقين أرْجح، أم اعتقاد أنه لا يوجَدُ إلا إله وَاحِدٌ، ليستنزل بذلك طائر نَظرهما واستدلالهما حتى ينجلي لهما فسَادُ اعْتقاد تعدُّدِ الآلِهة، إذْ يتبيَّنُ لهما أنَّ أربَاباً متفرِّقينَ، لا يخلو حالهم من تطرُّقِ الفساد والخلَل في تصرُّفهم، كما يُوحي إليه وصْف التَّفرق بالنِّسبة للتّعدد، ووصف القهار بالنسبة للوحدانية[4]

---

(1) روح المعاني / ٦ / ٤٣٤.

(2) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٠٤.

(3) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٤٤.

(4) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٧٥.



وإذا وضَعْنَا صِفَة «الأرْبَاب وصفة متفرِّقُونَ» في كَفَّة، وَوَضَعْنا في الكفَّة الأخرى صفة (الواحد) وَالصّفة (قهَّار) في صيغة المبالَغة، اتَّضَحَ لَنَا كيف تتعَلَّقُ الكفة الأولى بالفراغ، وأمَّا قَوْله (خير) فَليْسَ في إمكاننا إلا أن نَّقِفَ ونَتَأملَ هذا اللّفظ البسيط البريء الهادي، الذي يجب أن يكون له فعل السِّحر في نفْسَي الفتيَيْن المنكسريْنِ[1]، وهكذا، وبهذا التنبيه «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ... الآية»، وجَّهت الآية الكريمة الدعوة إلى السَّامعين ليخرجوا من سَلْبيَّتهم إلى الإيجابيَّة للإجابة على الاستفهام، فإذا رفضوا تلك المقارنة كان ذلك اعترافاً منهم ببطلان مِلَّتهِمْ، أما في حال قيامهم بالمقارنة بيْن العقيدتين، فإن ذلك يسُوقهم سوْقاً إلى اكتشاف ما هم عليه من الباطل الذي لا يقوم على دليل ولا يعترف به عقْل ناضج.

إن هذا المنهج المقارن، يقْتضي تتبُّعَ ما يترتب على عقيدة الأرباب المتفرقين ليلمسوا بأيديهم فسادها وفساد ما يترتب عليها، كما يقتضي تدبُّر ما يترتب على عقيدة التوحيد الخالص من توليد للطاقات الضرورية للحياة القويمة وتوْفير البيئة الصحية التي تسمح للإنسان بالانطلاق نحو الكمال[2].

وكان المصريون المخاطبون يعبدون كغيرهم من الأمم في ذلك الوقت، أرباباً متفرقين في ذواتهم وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها، وفي صفاتهم الحسية التي يُصَوِّرُها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنْصوبة في المعابدِ والهياكل، وفي الأعمال التي يسندونها إليهم بزعمهم، فهو يقول لصاحِبَيْه:

«أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ» أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام وَمَا يقتضيه بطبْعه من التنازع والاختلاف في الأعمال والتدبير المفسِدِ للنظام هو (خير لكما) ولغيركما من الأفراد والأقوام فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفع، وكل

---

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٠٤.

(١) يوسف بن يعقوب/ ٢٥٢-٢٥٣.



ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتَّوْفيق من عالم الغيْب (أم الله) الواجب الوجود الخالق لكل موجود (الواحد) في ذاتِه وَصِفَاتِه وأفْعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير (القَهَّار) بقُدرته التامة وإرادته العامة، وعزَّتِه الغالبة لجميع القوى والسُّنَن والنَّواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماويَّة والأرضية، كالنور والهواء والماء - الظاهرة - والملائكة والشياطين - الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها وسببُ اخْتلاف مَظاهرها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها[1].

وجاء بصيغة (القهار) هنا، تنبيهاً للمخاطبين - ولأهل السجن - على أنه تعالى له هذا الوصْف الذي معناه الغلبة والقدرة، وإعلاماً بعروِّ أصنامهم عن هذا الوصف الذي لا ينبغي أن يُعْبَد إلا المتصف به[2].

وذلك لأن شرط القهار ألا يقهره أحدٌ سواه، وأن يكون هو القهَّارُ لكل ما سواه، وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته، إذ لو كان ممكنا لكان مقْهوراً لا قاهراً، ويجب أن يكون واحداً، إذْ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ما سواه، فالإله لا يكون قهّاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك[3]، فهذا يقتضي أن يكون الإله غيْر كل ما يعبدون وَفَوْق كل ما يتصورن، وهم عالمون أن تلك الأصنام جماداً، والمعنى: أعبادة أرْباب متكاثرة في العدد (خير) أم عبادة واحد قهار، فمن ضرورة العاقل يرى خيريَّة عبادته.

وهكذا رسم يوسف - عليه كل معالم الدين الحق وكل مقومات العقيدة الصحيحة.

لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» كل معالم هذا الدين وكل مقومات هذه العقيدة، كما هزَّ بها قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزّاً عنيفاً.

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٤٤.



فقوله: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ...»

سؤال يهجم على الفطرة ويهزّها هزّاً شديداً، إن الفطرة تعْرف لها إلهاً واحداً، ففيم إذن تعدد الأرباب؟

إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار، ومتى توحد الإله وتقرَّر سلطانهُ القاهر في الوجود، فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الربُّ وسلطانُه القاهر ثم يدينون لغيره ويَخْضَعوا لأمره ويتخذوا بذلك من دون الله ربّاً(١).

إن خضوع العباد ودِيْنونتهم لله الواحد القهار يكْفل لهم عطاء الله تعالى الذي لا ينفد، عطاءً يدوم في هذه الحياة ويبقى خالداً لهم في الآخرة، رَضواناً وجَنات ونعيماً، أما خضوع العباد لِغَيْر الله تعالى، فذلك يسْلبُهم كل خير ويهوي بهم إلى الهُوَّةِ السَّحيقة المهلكة، إلى عذاب النار وغضب الله الواحد القهار.

جَوابُ الفتيَيْن على يوسف - عليه السلام -

حين تطرح السؤال على خِصْمَك فهذا يَدُلُّ على أنَّك واثق أنَّ إجابته ستكون إقراراً منه(٢).

ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفُه (الله الواحد القهار) خَيْر من الآلهة المتفرقة التي هي مجرَّد أسماء لا كمال لها ولا فِعَال لدَيْها(٣).

ولَقَدْ أدْرك الفتيان السؤال الذي وجهه إليهما يوسف - عليه السلام - والجواب الذي لا يختلف عليه عاقلان، على قوله «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»، هو؛ بَلِ الله الواحد القهار، لا ربَّ غيْرُه ولا إله سواه(٤)

فهذه قضية منطقية لا تحتاج إلى كثير من الجدل والمُمَاحكة... فأيٌّ أحقُّ أنْ يدين

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩١.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٢٨.

(٤) تفسير المنار / ٢ / ٣٠٨.



له المرء بالطاعة والولاء؟ آلهة متفرِّقون قد توزع بينهم السلطان - إن كان لهم سلطان - أم الإله الذي تفرد وحده بالملك والسلطان؟ وأيٌّ أرضي للإنسان، أن يكون عاملاً لأمير أو وزير، أمْ يكون عاملاً للملك الذي يعمل له الأمراء والوزراء؟ الجواب واضح صريح.

ولقد وقع هذا الجواب في نفسيْ صاحبي السجن، وهو أن الإله الواحد القائم على كل الآلهة أوْلَى أنْ يُعْبد[١].

مضمون الآية الكريمة:

لما ذكر - عليه السلام - ما هو عليه من الدين الحنيفيّ، تلطّف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيَيْن من عبادة الأصنام، وكان المصريون المخاطبون كغيرهم من الأمم يعبدون أربابا متفرقين فهو يقول لصاحبيه، «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ» متنازعون مختلفون في الأعمال والتدبير المفسد للنظام، هو «خير» لكما ولغيركما من الأفراد والأقوام فيما تطلبون ويطلبون من كشْف الضّر وجلب النَّفْع، وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عَالَم الغيب «أم الله» الواجب الوجود الخالق لكل موجود (الواحد) في ذاته وصفاته وأفعاله، المتفرّد بالخلق والتقدير والتَّسخير، الذي لا ينازع ولا يعارَض في التصرّف والتدبير (القهار) بقدرته التامة وإرادته العامة وعزَّته الغالبة؟

والجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل: هو الله الواحد القهار، لا رب غيره، ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله في الآية التالية «ما تعبدون من دونه» أي غير هذا الواحد القهار.

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٤٥-٤٤٦.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - مَهَمَّة كل نبيٍّ ورسول هي إخراج العباد من ظلمات عبادة غير الله إلى نور عبادة الله الواحد القهار.

٢ - التوحيد هو أساس الدعوة، فيجب البدء بالدعوة إليْه أوّلاً، وبعد ذلك تأتي الدعوة إلى الأعمال الفرعية.

٣ - بتوحيد الله تعالى وعبادته يتحرر الإنسان من عبادة كل المخلوقات.

٤ - لله تعالى في كل شيء آية تدلُّ على أنه الواحد.

٥ - توقف الكمالات البشرية على عقيدة التوحيد، وأعلى المراتب الإنسانية هي مرتبة المجتمع الإسلاميّ الصحيح.

٦ - اتخاذ آلهة من دون الله الواحد تدميرٌ للبشرية ومقوماتها.

٧ - تعدد الأرباب يلزم منه بطلان ربُوبيتهم جميعاً.

٨ - على الواعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تعبر عن ارتباطه بمن يعظهم، وأن يكون عالماً بحال من توجّه إليهم الدعوة، خاصة الملل التي يعْتنقونها.

٩ - وعليه أنْ يأخُذ من يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته بالتدرج شيئاً فشيئاً وفي صورة محبَّبَةِ وأسلوب ليِّنِ لطيفٍ حتّى يصل إلى مبْتغاه.

١٠ - ألا يفتر عن تعليم الناس وإرْشادهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

١١ - أن يقصدَ بدعوته مرضاة الله تعالى وحسن ثوابه.

١٢ - الثواب العظيم لمن دعا إلى الله تعالى وعبادته وطاعته، «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم»، قاله ﷺ لعلي - رضي الله عنه -(١)

---

(١) حديث متفق عليه.



«الآية الأربعون»

أولاً - النّص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله: «مَا تَعْبُدُونَ»

العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، والعبوديّة: إظهار التّذلّل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: «لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ»

والعابد: الموحّد(١)

قوله: «أَسْمَاء»

الإسم: ما يُعْرَف به ذات الشيء، وأصله سِمْوٌ، بدلالة قولهم أسماء، وسُمَيٌّ وأصله من السُّمُوّ، وهو الذي به رفع ذكر المسَمَّى فيعرفُ به، قال: «ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا»(٢) وقال: «بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم» وقال: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء»(٣)، ومعرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمَّى وحصول صورته في الضمير، وقوله: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا» فمعناه أن الأسماء التي تذكرونها ليس لها مسمَّيات، وإنما هي أسماء على غير مسمى، إذ كان حقيقة ما يعتقدون في الأصنام بحسب تلك الأسماء غير موجود فيها(٤)

---

(١) انظر: المفردات (كتاب العين) ٣١٩، والقاموس المحيط / ٣٧٨، واللسان / ٣ / ٢٧٠

(٢) هود / ٤١.

(٣) البقرة / ٣١.

(٤) المفردات (كتاب السين) ٢٤٤.



وأسماء هنا بمعنى مسمَّيات، أو ذوي أسماء، لأن الاسم لا يُعْبَد[١] و«سلطان»: حجة[٢] و«القيّم»: الثابت الذي دلَّت عليه البراهين[٣]

رابعاً - الإعراب:

قوله: «مَا تَعْبُدُونَ من دُونه إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم»

(ما تعبدون) خطابٌ لهما ولمن على دينهما من أهل مصر، (ما) نافية، و(تعبُدُون) فعْل مضارع مرفوع بثبوت النُّون والواو فاعل، و(من دونه) حال.

و(إلاّ) أداة حصر، و(أسماء) مفعولٌ به، و(سمَّيتموها) صفة، وهي متعدِّيَةٌ لاثنيْن حذف ثانيهما، أي سميتُمُوها آلهة[٤] و(أنتم وآباؤكم) جملة مفسِّرَة للضَّمير المرْفُوع في سمَّيتمُوها[٥] و(التاء) فاعل، و(أنتم) تأكيد للتَّاء، و(آباؤكم) عطف على التَّاء

قوله: «مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ»

(ما) نافية، و(أنزل الله) فعل وفاعل، و(بها) الجار والمجرور متعلِّقَان بـ(أنزل) و(من) حرف جرّ زائد، و(سلطان) مجرور لفْظاً، مفْعُولٌ به مَنْصُوبٌ محَلاً والجملة نعت - لأسماء - أو حال، لأنَّ (أسماء) وُصِفَتْ.

قوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ»

(إن) نافية، و(الحكم) مبتدأ، (إلاّ) أداة حصْر، و(لله) خبر الحكم وجملة (أمر) مسْتأنفة أو حاليَّة، والأوَّلُ أضبَط - وأظهر - و(أن) مصدريَّة، و(لا) نافية، و(تعبدُوا) فعل مضارع منصوب بـ(أن) و(أن) وَما بعدها منصوب بنزع الخافض، وهو متعلِّقٌ بـ(أمر) - أي أمركم أن لا تعبدوا،

ويجوز أن تكون مفسِّرَة، و(لا) ناهية، و(تعبدوا) مجزوم بـ(لا) و(إلاّ) أداة حصر و(إيَّاه) مفعول (تعبدوا)

---

(١) إعراب القرآن (للعكبري) ٢ / ٧٣٣.

(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢١.

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٣٠٩.

(٤) انظر الدر المصون / ٦ / ٤٩٨، وإعراب القرآن (للنحاس) ٢ / ٣٣٠

(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٧٦.



قوله : «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»

(ذلك) مبتدأ ، و(الدين) خبر ، و(القيِّم) صفة ، (ولكن) والواو استئْنافيَّة أو حاليَّة ، و(لكن) واسمها وجملة (لا يعلمون) خبرها[1] .

خامساً - الموقف المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن وبيانه (الدرويش) ٤ / ٤٩٥ .

رفع عبد الرحمن النجدي
المسلم

سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يصرّح للفتييْن بحقيقة ما يعبدون:

قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان الجواب لكل من يعقل: الله خير، على قوله لهما: «أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ»؟ أشار إلى ذلك يجْزم القول بعد ذلك الاستفهام في سَلْب صلاحيّتهم قبل هذا الإمكان بعدم حياتهم، وعلى تقدير حياتهم بعجزها فقال: «مَا تَعْبُدُونَ... الخ»(١)

وهذه الآية الكريمة خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية(٢) فيوسف – عليه السلام – لَمَّا ألقى على الفتيَيْن قضيَّة المقارنة بين عبادة أرباب متفرقين، لا حول لهم ولا قوّة، وبين عبادة الله الواحد القهار، وعلم منهما موافقة جوابهما لمراده(٣) حيث سكتا ولم يعارضاه، فدفعه ذلك إلى مواصلة الإرشاد وبيان سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا، فضْلا عن الألوهيّة(٤) فاستطرد – عليه السلام – بعد الاستفهام إلى الإخبار عن حقيقة ما يعبدون(٥) وأشار إلى ذلك يجْزم القوْل في سلْب صلاحية آلهتهم قبل هذا الإمكان بعدَم حياتهم، وعلى تقدير حياتهم بعجْزهم(٦) خاصة وقد وقع في نفس الفتَيَيْن أن الإله الواحد القائم على كل الآلهة – المدَّعاة – أوْلى أن يُعْبَد، وإذ يتَّجهُ عقلاهما وقلباهما إلى الإله الواحد، ينظرون إلى آلهتهم تلك التي

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٤١. (٢) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٩٠.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٠٤.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٥. (٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣٠٩.

(٦) نظم الدرر/ ٤/ ٤١.



يعبدونها من قبل، وارْتَبَطَتْ بها مشاعرهم زمنا طويلا - ما شأنهما مَعَهَا الآن؟ وما شأنها هي معهم؟

أيتْرُكُونَهَاهكذا منْ غيْر استئذان؟ ثم أتدعهما تلك الآلهة يخْرُجَان عَن طاعَتِها ثمَّ لا تَنَالُهُم بأذى؟...

وَيرُدُّ يوسف - عليه السلام - كل هذه الخواطر التي تنازعهم في شأنِ آلهتهم تِلْكَ، ويكْشِفَ لهم عن زيفها وعجْزِها وأنها لَيْسَتْ إلاّ مخلُوقاتٍ منْ مخلوقَاتِ الله تعالى، لا تَمْلكُ مع الله شيئا فيقول لصاحبيه:

«مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً...»(١)

وكان - عليه السلام - يخاطب الفتيين بلفظ المثنى (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ) وَهنا قال: «مَا تَعْبُدُونَ من دُونِه...» بلفظ الجمع، لأَنَّهُ هُنَا قَصَدَهُمَا وَمَنْ هو على الشِّرْك بالله مقيمٌ منْ أهل مصر، فقال للمخَاطَبِ بذلك، مَا تَعْبُدُ أنْتَ وَمَنْ هو على مثْل ما أنْتَ عليه منْ عبادَة الأوثان «إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم...»(٢)

الإسم والمسمى:

الأسماءُ توضع عادةً للدلالة على المسّى، بحيْثُ إِذَا نَطقْنَا الاسم نَسْتَحْضِرُ صورة المسمَّى، ولذلك حين يولد الولد نأت فنَسميّه مثلا، محمد أو أحمد أو عبد الله، ومعنى ذلك أنَّنَا نضَعُ للذَّاتِ المشَخَّصَةِ اسْماً، إِذَا أطْلِقَ هذا الاسم انْصَرَفَ إِلى تِلْكَ الذَّاتِ، فالاسْمُ يُوضَعُ عَلَمٌ عَلَى مُسَمَّى، إِذاً فَلا بُدَّ أنْ يُوجَدَ المُسَمَّى؛ وَبعْد ذلك نضَع له الاسْم الذي يدلُّ على ذَاتِه، فإذا وُضِعَ اسْمٌ لِمُسَمَّى غيْر موْجُود - كما فعل الفتيان وأهل مصر، حيْثُ وَضعُوا أسماء آلهة، ولا توجدُ آلهَةٌ على الحقيقة، إسْمٌ لإله، ولا يوجَدُ إله، فيكون هؤلاءِ قَدْ وَضعُوا الإِسْمَ عَلَى غَيْرِ مُسَمَّى(٣)

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٤٦.

(٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٠.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



والاسم الذي هو (ألف) و(سين)، و(ميم) قد يجري في اللغة مجري النفس والذَّات وَالعيْن، فإن حُملَت الآيَةُ عَلَى ذلك صَحَّ المعْنَى، ولَيْسَ الاسم - على هذا - بمنْزلَةِ التَّسْمِيَةِ الَّتي هِي (رَجُل) و(حَجَرٌ)،

وإن أريد بهذه الأسماء التي في الآيَة أسْمَاءَ الأصْنَام التي هي بمنزلة (اللات) و(العزّى) ونحو ذلك من تسْمِيَتِهَا آلهة، فيُحْتَمَلُ أنْ يُرِيدَ: إلاّ ذَوات أسماء، وَحَذَفَ المضَافَ وأقَام المضَافَ إلَيْه مَقَامَهُ،

ويُحْتَمَلُ وهو الراجح المختار - إن شاء الله - أن يريد، مَا تعْبُدُونَ مِنْ دونه أُلُوهيَّةً وَلا لَكُمْ تَعَلُّقٌ بإله إلاّ بِحَسَبٍ أنْ سَمَّيْتُمْ أصْنَامَكُمْ آلِهَةَ، فَلَيْسَتْ عِبادَتكم لإله إلاَّ باسْم فَقَط لا بالحقيقة، وَأمَّا الحقيقة، فهي وسائر الحجارة والخَشب سَواء، فإنَّمَا تعَلَّقَتْ عِبَادَتكم بِحَسَبِ الاسْمِ الَّذي وصَفْتُمْ، فذلك هوَ مَعْبُودكم إذا حَصَل أمركم، فعبَّرَ عن هذا المعْنَى باللّفظ المسْرُودِ في الآية، وَمن هذه الآية وَهِمَ من قال في قولنا (رَجُل) و(حجر) - إن الاسم هو المسمَّى في كل حال، وقد بانت هذه المسألة في صدر التعليق[1].

فإن قيل: إن الله تعالى قال فيما قبْل هذه الآية: (أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، وذلك يدلُّ على وُجُود هذه المُسَمَّيَات، ثم قال تعالى عقيب تلك الآية: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا...» وَهذا يدُلُّ عَلَى أنَّ المُسَمَّى غيرُ حَاصلَ وبينَهُمَا تَنَاقُضٌ؟

والجواب: أنَّ الذَّاتَ مَوْجُودَة حَاصلة؛ إلا أنَّ المُسَمَّى بالإله غيْرُ حَاصل، فإنَّ ذَوَاتِ الأصْنَامِ وَإن كانت موْجُودة إلاّ أنَّهَا غيْرُ موْصُوفَة بصفات الإلهيَّة، وَإذَا كانَ كذلك، كان الشيء الذي هو المسمَّى بالإله في الحقيقة غيْرَ مَوْجُودٍ وَلا حَاصِل[2]

---

(١) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٤٤.



وقوله: «مِن دُونِهِ» أي: من دون الله تعالى الذي أقام بـرهَانَ التَّمَانعُ - الذي هو البرهان الأعظم - على أُلوهيَّته وعَلَى اخْتِصَاصِهِ بذلك(١)

والعبادة: خضُوع بالقَلْبِ في أعلى مراتب الخضوع، فهيَ تعْني التذلُّلَ الكاملَ والخضُوعَ المطْلَقَ لأمْرِ الله الواحد الأحَدِ المعبود بحَق، إنَّها ضَرْبٌ مِنَ الخضوع بالغ حَدَّ النهاية، ناشئٌ عن اسْتشْعَارِ القَلْبِ بعَظمَةٍ للمعْبُودِ لا يعْرِفُ مَنْشأها، وَعن اعتقادٍ بسُلْطَةٍ له لا يدْرك كنْهها وما هيَّتَهَا، وَقُصارَى مَا يعرِفُهُ منها أنَّهَا محيطةٌ به ولكنَّها فَوْقَ إدْراكه(٢).

والعبادة: اسْمٌ جامعٌ لِكُلِّ ما يُحِبُّهُ الله تعالى وَيَرْضَاهُ مِنَ الأقْوالِ والأعمال الباطنة والظاهرة، وَهي الغايةُ المحبُوبةُ للّه والمرْضية له، الذي خَلَقَ الخَلْقَ لها كما قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ»(٣) وَبها أرسل جميع الرسل - عليهم السلام - كما قال نوح لقومه: «اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ» (الأعراف: ٥٩)(٤)

والعُبُوديَّة: الوفاء بالعهود، وحفْظ الحدُود، والرِّضا بالموْجُودِ، وَالصَّبْرِ على المفْقُود(٥).

وقوله: «سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم...»

أي: كَسَوْتُمُوها أسْمَاء، سمَّيْتُموها آلهة، وهي لا شيْء، ولا فيها من صفاتِ الألوهيَّة شيء(٦) فَتَسْمِيَتُها آلهة، إنَّمَا هو محض الجهل والضلالة(٧)، فما عبدُوا سِوَى أسْماء مفرَّغة مِنْ جَميع خصائص الألوهية، وهذه الأسماد هِيَ مِنْ مُخْترعَاتِهم،

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٤٢.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ٨١٤.

(٣) الذاريات/ ٥٦. (٤) العودية (ابن تيمية) ٤ / ١.

(٥) التعريفات (الجرجاني) ١٨٩-١٩٠.

(٦) تيسير الكريم الرحمن/ ٢ / ٢٨.

(٧) روح المعاني/ ٦ / ٤٣٥.



وَهي مجرَّد أسماء كاذبة باطلة لا مسمَّى لها في الحقيقة، وهذا كمَنْ سَمَّى قُشُورَ البَصَلِ لحما وأكلها، فيقال: ما أكَلْتَ مِن اللّحْمِ إلاّ اسْمَهُ لا مُسَمَّاه، وكمَنْ سَمَّى التُّرَابَ خُبْزاً وأكله، يقال له: ما أكلت إلا اسْمَ الخبْز، بل هذا النَّفْي أبْلَغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلاهيَّتَها[1]

ثم قال منافيا للإنزال بأي وصف كان[2]:

«**مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**» أي برهان بتلك التسمية المستَتْبِعَةِ للعبادة، ولا ينْزل، ولن ينْزل أبَداً بِتَسْمِيَتِها «مِنْ سُلْطان» أي حجَّةٍ تدُلُّ على صحتها، إذ لَيْسَ بيدِكُمْ برهان على صحَّة عبادتها، ولا عَقْل يُسلِّمُ بذلك، وَإِنَّمَا هِي الشُّبْهَةُ تزوَّجَتْ بِتَسْويل الشيطان فَحَبَلَتْ بهذه المعبُودَات فولَدَتْهَا فإذَا هِيَ تماثيل سيِّئَة المثال، فمعبُوداتكم وليدة شبْهَة، وَنتيجة تقْليد، فأي باطل أخذتم؟ وأي حق رَفَضْتُّم؟[3].

إنَّ العبادة لا تكون إلا بمُسْتَند شرعِيٍّ، فلا يُعْبَدُ تبارك وتعالى إلا بما شرعه وبيَّنَه ونزل به الوحْي، فمعبوداتكم ليس لها في عالم الحقّ مكان، فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله - عليهم السلام - ولَمْ يحمِلُها إليكم كتابٌ من كتب الله تعالى، إنها موْلودَاتٌ مِنْ بنَات الوهم والضلال[4].

وَإنما لم يذكر المسَمَّيَات تربية لما يقْتضيه المقام مِنْ إسْقَاطِهَا عن مرْتبة الوجود، وَإيذاناً بأنَّ تسْمَيَتهم في البطلان حيث كانت بلا مُسَمَّى، كَعبَادَتهم حيث كانت بلا معبود، ويلحق بهؤلاء، الذين يزعمون أنهم يعبدون الله تعالى وهم يتخيَّلونَهُ جسما عظيما جالساً فوْق العرش، أو نحو ذلك ممَّا ينزِّهُهُ العقْلُ وَالنَّقْلُ عنه تعالى الله عما يقُول الظالمون علُوّاً كبيراً، لأن ما وضع له الاسم الجليل في نفس الأمر ليس هو الذي تخيَّلُوه، بل أمْرٌ وَرَاء ذلك، وهو المسْتحقٌّ للعبادة، وَمَا وضعُوه هُمْ لَهُ لَيْس بإله في نفْسِ

(١) بدائع الفوائد (ابن القيم) / ١ / ١٩.
(٢) نظم الدرر / ٤ / ٤٢.
(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨١١-٨١٢.
(٤) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٤٦.



الأمْرِ وَلا مستحقٌ للعبادة. وهو الذي عبدوه، فما عبدوا في الحقيقة إلا اسما لا مطابق له في الخارج، لأن ما في الخارج أمر، وما وضعوا الاسم له أمر آخر(١)

إن الله سبحانه وتعالى لم ينزل بها من سلطان فحسب، بل أنزل السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل بها سلطانا لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها(٢)

ثم يضرب يوسف - عليه السلام - ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين:

لمن ينبغي أن يكون السلطان؟ لمن ينبغي أن يكون الحكم؟ لمن ينبغي أن يكون الطاعة؟ أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون العبادة؟ فيقول:

«إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ»

أي: ما الحكم في شأن العبادة المتفرعة على تلك التسمية وفي صحتها إلا لله عز سلطانه، لأنه المستحق لها بالذات، إذ هو الواجب بالذات، الموجد للكل والمالك لأمره(٣) فالحكم الحق في الربوبية والعقائد والعبادات الدينية لا يكون إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة(٤) فالحكم مقصور عليه سبحانه وتعالى بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعي الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته، سواء ادعي هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب، أو هيئة أو أمة، أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية، ومن نازع الله سبحانه أولَى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله تعالى كفرا بواحا، يصبح به كفره من المعلوم بالدين بالضرورة، حتى يحكّم هذا النص وحده،

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٨.

(٣) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٥.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٠٩.



إن الناس في جملتهم لا يملكون حق الحاكمية، إنما يملكه الله وحده، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله تعالى بسلطانه، أمَّا ما لم يشرعه الله تعالى فلا سلطان له ولا شرعية، وما أنزل الله به من سلطان[1] وهاتان الكلمتان «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ» تضمنتا من المعاني ما يحتاج بيانه إلى دوائر معارف يشترك في وضعها جهابذة المتخصصين في العلوم الإنسانية وغيرها[2] إننا ولا شك بصدد عبارة هي الغاية في القوة، تحصر العبادة في الله وحده، خاصة إذا وضعنا جملة «أمَرَ» من قوله: «أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ» في كفّة، وجملة «أنزل» من قوله تعالى على لسان يوسف- عليه السلام - بشأن أصنام القوم «مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ» في كفة أخرى[3]

ولما انتفى الحكم عن غير الله تعالى وكان ذلك كافيا في وجوب توحيده، رغبة فيما عنده، ورهبة مما بيده، أتبعه تأكيدا لذلك وإلزاما به أنه حكم به فقال:

«أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ»[4]

وهذه الجملة لانتقالٍ من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه، لأن ذلك نتيجة إثبات الإلهية والوحدانية له، فهي بيان لجملة «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ» من حيث ما فيها من معنى الحكم[5] أي: بيان لما حكم به الله تعالى[6] فهي استئناف بياني مبني على سؤال ناشئ من الجملة السابقة، كأنه قيل: فماذا حكم الله في هذا الشّأن؟ فقيل: «أَمَرَ... الخ»...

وجوّز أن يكون سرد هذه الجمل على هذا الطراز لسدّ الطرق في توجيه صحة عبادة الأصنام عليهم أحْكَمَ سَدّ، فإنهم إن قالوا: إن الله تعالى قد أنزل حجة في ذلك، رُدُّوا بقوله:

(١) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٠.
(٢) يوسف بن يعقوب / ٢٧٧.
(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٠٥.
(٤) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٠.
(٥) نظم الدرر / ٤ / ٤٢.
(٦) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٧٧.



«مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ»

وإن قالوا: حكم بذلك كبراؤنا ردوا بقوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ»

وإن قالوا: حيث لم ينزل حجة في ذلك، ولم يكن حكمٌ لغيره، بقي الأمر موقوفا، إذ عدم إنزال حجة تدل على الصحة لا يستلزم إنزال حجة على البطلان، رُدُّوا بقوله: «أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ»[1] أي: بل إياه وحده، فادْعُوا واعبدوا، وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتوجهوا، حنفاء لله غير مشركين به شيئا من خلقه.

قضية العبادة:

إن قضية العبادة هي قضية عقيدة تقومُ أو لا تقوم، وقَضيَّةُ إيمانٍ يُوجَدُ أو لا يُوجَد، وَقَضيَّةُ إِسْلامٍ يَتَحَقَّقُ أو لا يَتحقَّقُ،

ثم هي بعد ذلك - لا قَبْلَهُ - قضيَّةُ مَنْهَجٍ للحياة الواقِعيَّةِ يَتَمثَّلُ في شريعةٍ ونظام وأحكام، وَفي أوْضاعٍ وَتجمُّعاتٍ تَتحقَّقُ فيها الشريعة والنظام، وتنفَّذُ فيها الأحكام،

وَكذلك فإن قضية «العبادة»، ليست قضيَة شعائر؛ وَإِنَّمَا هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة...

وأنَّهَا مِنْ أجْلِ أنَّها كذَلِك استحقَّتْ كل هذه العناية في المنهج الربَّانيّ المتمثّل في هذا الدّين، واسْتَحَقَّتْ كل هذه الرسل والرسلات، واستحقَّتْ كل هذه العَذَابَات والآلام والتَّضْحِيَات[2]

ما يندرج تحت العبادة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العبادة هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٥.

(٢) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٤٣.



والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل... والدعاء، والذكر، والقراءة... وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله - ﷺ - وخشية الله تعالى والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة(١).

ولما قام هذا الدليل على هذا الوجه البيّن، كان جديرا بالإشارة إلى فضله فأشار إليهبأداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شأنه فقال:

«ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»(٢)

(ذلك) إشارة إلى تخصيصه تعالى بالعبادة، و(الدين القيم) أي القويم الذي لا اعوجَاجَ فيه، والحق الذي لا شَكَّ فيه(٣) وهو الثابت الذي دلَّتْ عليه البراهين العقْليةُ والنّقْليّة(٤) وهو الدين المستقيم الموصِّل إلى كل خيْر، وَمَا سواه مِنَ الأدْيَان فإنَّهَا غيْر مستقيمة، بَلْ مُعْوَجَّة تُوَصِّلُ إلى الشَّرِّ(٥)

فَالتَّعْبير بقوله (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) تعْبيرٌ يفيدُ القَصْر، فلا دين قَيِّماً سِوَى هذا الدين الذي يتحقَّقُ فيه اختصاصُ اللهِ بالحكْمِ تحقيقاً لاخْتِصَاصِه بالعبادة(٦)

وهكذا بيَّن يوسف - عليه السلام - للفتيَيْن وَمَنْ وَراءهما من أهل مصر، حقيقة الدين القيِّم والمنْهج الصَّحيح الذي لا يضِلُّ من سلكه وَلَا يَشْقَى مَنْ طبَّقَه(٧).

ثم يبين - عليه السلام - حقيقة واقع الناس من الدين القيم فيقول:

---

(١) العقيدة الصافية/ ٢٥٢.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٤٢.

(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٠.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٩.

(٦) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٩١.

(٧) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١١٠.



«وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»

أي: ولكنَّ أهل الشِّرْكِ بالله يجْهَلُون ذلك، فلا يعْلمون حقيقتَه[1] لجهالتهم وغلَبَة الكفر[2] عليهم ولا يدرون ما في الدين القيِّم من خير ونَعيم، ولا يعلمون ما يجرُّه انْحرافهم عنه من بلاء[3]. وشقاء وعَذَاب أليم،

وكونهم لا يعلمون، لا يجعلهم على دين الله القَيِّم، فالذي لا يعلم شيئا لا يمْلك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه، فإذا وُجِدَ نَاسٌ لا يعلمونَ حقيقة الدين، لم يعُد منَ الممكن عقْلاً ووَقعا وصْفهم بأنهم على هذا الدين، ولم يقُم جهلهم عذراً لهم يسْبغُ عليهم صفة الإسلام ذلك أنَّ الجهْل مَانع للصّفَةِ ابتداء، فاعتقادُ شيءٍ فَرْعٌ عَنِ العلم به، وهذا منطق العقل والواقع... بل منطق البَداهَةِ الواضح[4]

وأيضاً، كونهم لا يعلمون، لا يرفع عنهم العقوبة، فالعقوبَةُ تلْزَمُ العبْدَ وإنْ جهل إذا أمْكَنَ لَهُ العلْمَ بطريقه[5]

وكونُ أكثر الناس ضالين لا يعتبر حجة يحْتَجُّ بها الإنسانُ لاتباعهم، لأنَّ الدِّينَ القيم بعْد أن فضَّلَهُ الأنبياء والمرسلون ما كان لأحد بعد هذا حجة أوْ دَليل في الإعراض عنه وَاتّباع هواه، فيا حَسْرَةً على العباد، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون فيَضلُّونَ وَيُضلُّونَ، حتى تصير نسبة الضلال والجهل، والكفر هي الغالبة على نسبة الهداية والعلم والإيمان، ولا يخفى ما في هذه الجزئية من تسلية للنبي ﷺ وهو في مكة، إذ كان أكثرهم مشركين.

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٠.
(٢) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٠٤.
(٣) يسوف بن يعقوب/ ٢٩٣.
(٤) تفسير الظلال/ ٤/ ٩١٩١.
(٥) فتح البيان/ ٦/ ٣٣٩.



هل آمن الفتيان؟

إن يوسف - عليه السلام - دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما فقامت عليهما بذلك الحجة(١).

هذا، والعبد الفقير يرجح استجابة الفتيين ليوسف - عليه السلام - وإيمانهما بما جاء به، فقد حكما عليه بالإحسان في كل ما يقول ويفعل، ولم يريا منه إلا الصدق وسعة العلم وسماحة الخلق، ثم لم يشر القرآن العظيم إلى ما يدل على إعراضهما لا من قريب ولا من بعيد كما أشار إلى المكذبين المعرضين في مواطن كثيرة، بل إن ما قاله أحدهما ليوسف بعد ذلك وهو الساقي، يرجح ما ذهبنا إليه، إذ قال له: «يوسف أيها الصديق» فقد وصفه بالصديقية الجامعة لمعاني الكمال والاستقامة على طاعة الله تعالى، ولا يمكن أن يخاطب هذا الذي نجا وادَّكَرَ بعد أمة يوسف - عليه السلام - ويصفه بتلك الصفة الجميلة، إلا وليوسف في قلبه موقع الإيمان والإجلال والتقدير هذا، والله أعلم.

يوسف - عليه السلام - وقضية الدعوة إلى الله تعالى:

إننا نلاحظ في الحوار بين يوسف - عليه السلام - وبين صاحبيه في السجن، قضية حيوية في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وهي أن على الداعية إلى الله ألا يجعل من الاضطهاد ونصب المكائد له وإيذائه وسيلة للتخلي عن الدعوة، وألا يجعل من السجن - في حال تعرضه لدخول السجن - مجالاً للاستسلام إلى الأفكار الذاتية التي يختزن في إطارها آلامه وأشواقه إلى الحرية، فينشغل بها عن قضيته، ويبتعد عن دعوته، بل يعمل على تحويل السجن إلى مجال حي من مجالات الدعوة إلى الله، لأنه يمثل الأرضية الصالحة للبذور الطيبة للفكرة، من حيث طبيعة السجن التي تقترب بالإنسان من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٢٩.



حالات الصفاء الروحي، وتنطلق به بعيداً عن كل ما يحجبه عن الاتصال بالله تعالى والإحساس بوجوده وعظمته، من أجواء مادية أو اجتماعية، هذا من جهة،...

ومن جهة ثانية، فإن أجواء السجن تجعل السجين مستعداً للحوار والاستماع إلى كثير مما يلقي عليه، لأنه في حاجة إلى الهروب من واقعه، وإلى قضاء الوقت الطويل الذي يحس فيه بالحاجة إلى الأشياء الجديدة التي تشغله وتستوعب فراغه، وهذا ما لاحظناه في قصة يوسف - عليه السلام - فقد استمع إلى رفيقيه في السجن وهما يعرضان عليه رؤاهما ويطلبان تأويلها.. فلم يمتنع من ذلك، بل اعتبرها فرصة جيدة للدعوة، فحاول أولاً أن يزيدهما ثقة بقدرته على ذلك، فبدأ بالحديث عن نفسه، وعن عقيدته، انطلاقاً من قناعته المرتكزة على الحجة والبرهان، وهاجم من خلال ذلك الأفكار المضادة المستندة إلى عبادة غير الله، أو الإشراك بالله، مما لا يخضع لأي منطق، ولا يرتكز على أي دليل.

مضمون الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية، فيوسف - عليه السلام - لما قارن بين عبادة أرباب متفرقين، وبين عبادة الله الواحد، وعلم من صاحبيه موافقة جوابهما لمراده، استطرد - عليه السلام - بعد الاستفهام إلى الإخبار عن حقيقة ما يعبدون، فقال:

«مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم» أي ما تعبدون أنتم وقومكم أهل مصر إلا (أسماء) أي ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم، فهي فارغة لا مسميات تحتها «مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ» بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم يُنَزِّل الله بها سلطانا، لم يكن طريق، ولا وسيلة، ولا دليل لها.

«إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ» وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي «أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» أي المستقيم الموصل إلى كل خير،



وما سواه من الأديان فإنها، غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى الشر، «وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به من أظهر الأشياء وأبينها.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - العبادة الحقة لا تكون إلا لله وحده، فهو جل جلاله المستحق للعباده بذاته.

٢ - العبادة الصحيحة هي التي تقوم على العقيدة الصحيحة التي جاء بها المرسلون.

٣ - وجوب الجهر بالعقيدة الصحيحة في كل زمان ومكان.

٤ - الأنبياء والمرسلون يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وما خشي يوسف على نفسه وهو يجهر بالدعوة في السجن تحت أعين الرقباء.

٥ - إطلاق أسماء الآلهة على ما يعبد من دون الله لا يخرجها عن كونها مجرد مسميات فارغة لا أصل لها ولا حقيقة لها في الواقع.

٦ - الدعوة لا تصح ولا تقبل إلا ببرهان وحجة.

٧ - لا يعبد الله تعالى إلا بما شرع، وليس لأحد أن يقترح من عنده شيئاً على دين الله رب العالمين.

٨ - وجوب معرفة الدين الصحيح على كل مكلف، وعدم معرفته لا تسقط عنه العقوبة في الآخرة إذا أمكن له المعرفة.

٩ - لا يُحْتَجُّ للدعاوي الباطلة باتباع أكثر الناس لها، فأكثرهم لا يعلمون.

١١ - الدين القيم يحمل أكمل النظم في كل فروع الحياة، والتي يترتب عليها الجمال البشري، حياة طيبة في الدنيا، وسعادة خالدة في جنات ونعيم.

١٢ - إن فعل يوسف - عليه السلام - مع الفتيين من دعوتهما إلى الله تعالى، رمز لفعله دائماً مع كل من في السجن.



«الآية الواحدة والأربعون»

أولاً - النصُّ القرآنيُّ الكريم:

قال الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «فَيَسْقِي رَبَّهُ»

قرأ الجمهور «فيَسْقِي ربَّه» على فتح الياء من «سقى»

وقرأت فرقة: «فَيُسْقِي» بضم الياء والبناء للفاعل من أسقى،

قال صاحب اللوامح: يقال: سقى وأسقى بمعنى، وقرئ في السبعة «نَسقيكم» و«نُسقيكم» بالفتح والضم، والمعروف أن «سقاه» ناوله ليشرب، و«أسقاه» جعل له سقيا، ونسب ضم الياء لعكرمة، والجحدري، وذكر بعضهم أن عكرمة قرأ «فيُسْقَى» بالبناء للمفعول، - رِيه - بالياء المثناة والراء المسكورة، والمراد به ما يروي به، وهو مفعول ثان لـ(يسقى) والمفعول الأول الضمير النائب عن الفاعل العائد على أحد، ونصب «خمرا» حينئذ على التمييز(١)

ثانياً - اللغة:

قوله: «فيصلب»

الصَّلب: مصدر صلبه يَصْلُبُه صَلْباً، وأصله من الصليب، وهو الودَك الذي يخرج من العظم، وبه سُمِّيَ المصلوب لما يسيل من ودكه(٤)

والصلب: هو تعليق الإنسان للقتل، قال تعالى: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوه»(٥)

---

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٠، وروح المعاني/ ٦/ ٤٣٦، والدر المصون/ ٦/ ٤٧٥.

(٤) اللسان/ ١/ ٥٢٩.

(٥) النساء/ ١٥٧.



والصليب: أصله الخشب الذي يصلب عليه[1] ومادة (صلب) لم ترد في القرآن الكريم إلا فيما فيه إزهاق روح.

قوهل: «قُضِيَ»

القضاء: فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا[2] قال الزهري:

القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أُحْكِم عمله، أو أُتِمَّ، أو خُتِمَ، أو أُدِّي أداء، أو أُجِبَ أو أُعْلِمَ، أو أُنْفِذَ، أو أُمْضِيَ فقد قُضِيَ[3]

فمعنى «قَضِيَ» في الآية، أي: فُرِغَ منه وبُتَّ فيه.

قوله: «تَسْتَفْتِيَان»

الاستفتاء لغة: السؤال عن المُشْكل، والفتوى جوابه، ويكون في النوازل المشكلة الحكْمِ المبهمة الجواب، يقال: أفتاه في الأمر: أبانه له، ويقال: أفتيت فلانا رؤيا رآها، إذا عبّرْتُها له، وأفتيتُه في المسأله، إذا أجبته عنها[4]

رابعاً - الإعْراب:

قوله: «يَا صَاحِبَي السِّجْنِ»

(يَا) حرْف نداء، و(صَاحِبَي السِّجْنِ) منادى مضاف، ويجوز أن تكونَ هذه الإضافةُ منْ بابِ الإضَافة للظّرْف، إذ الأصل (يا صاحِبَيَّ في السِّجْن) ويجوز أن تكون الإضَافة إلى الشَّبيه بالمفْعُولِ به، والمعنى: يا ساكني السجن.

قوله: «أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا»

«أمَّا» حرْف شرط وتفْصيل، (أحدكما) مبتدأ، و(الفاء) رابطة، وجملة (يسقي) خبر (أحدكما) و(ربه) مفعولٌ به أوّل، و(خَمْراً) مفعول به ثان.

---

(1) انظر: المفردات (كتاب الصاد) ٢٨٤.

(2) المفردات (كتاب القاف) ٤٠٦.

(3) اللسان/ ١٥/ ١٨٦.

(4) اللسان/ ١٥/ ١٤٦.



قوله : «وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ»

و(أمَّا) عطف على (أمَّا) الأولى، و(الآخر) مبتدأ، و(الفاء) رابطة، وجملة يُصْلَبُ) خبر، (فتأكل الطير) الفاء عاطفة و(تأكل) عطف على (يصلب) و(الطير) فاعل تأكل، و(من رأسه) متعلِّقان بـ(تأكل).

قوله : «قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»

(قُضِيَ) فعل ماض مبْنِي للمجهول، و(الأمْر) نائب فاعل، و(الذي) صفة للأمْرِ، و(فيه) متعلِّقَان بـ(تسْتفتيان).

خامساً - الموقف المتعارضات: □

رفع المسيّهم

سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يؤوّل رؤيا الفتيَيْن:

قال الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما تمّ نصحه وعلا قدَحه بإلقائه إليهما ما كان أهم لهما لو علما، لمآله إلى الحياة الأبديَّة والرفعة السَّرمديَّة، أقبل على حاجتهما تمكينا لما ذكره وتأكيداً للذي قرَّره، فناداهما بالأداة الدالة على أن ما بعدها كلام له وقع عظيم، لتجتمع أنفسهما لسماع ما يلقي إليهما من التعبير، فقال:

«يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ» أي الذي تزول فيه الحظوظ، ويحصل الانكسار للنَّفس والرِّقَّة في القلب فتخلَّص فيه المودة[١]

فبعد أن بيَّن لهم - عليه السلام - أن علوم التأويل التي أوتيها لا فضل لأحد عليه فيها إلا الله تعالى الذي منَّ عليه بها، وبعد أن صرَّح لهم أنه برئ من كل ملة قد كفر أصحابها بالله تعالى، وعبدوا أسماء ابتدعوها لمسمَّيات اخترعوها لا حكم لها ولا سلطان، بل هي مجردة من كل حوْل وقوَّة لأنها لا تملك شيئا من صفات الربوبيّة التي نسبوها إليها واختصوها بها، منصرفين عن حقيقة الحقائق التي يدور حولها الوجود كله، ألا وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» كما جاء بها الأنبياء والمرسلون الذين وضحوا علومها التي تربط الإنسان من جميع الوجوه بخالقه جل ثناؤه،

وبعد أن بيّن لهم - عليه السلام - أنه لا خير إلا في الدين القيّم، ملة أبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب - صلوات الله وسلامه عليهم[٢] وجد يوسف أنه قد بلغ الغاية من الدرس الذي ألقاه على الفَتَيَيْن مرتبطا بالأمر الذي يشغل بالهما[٣]، انتقل - عليه السلام - إلى تعبير الرؤيا وإجابة طلب الفتيين، . . .

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٤٣. (٢) يوسف بن يعقوب/ ٢٩٥.

(٣) انظر: تفسير الظلال/ ٤ / ١٩٩٢.



وقبل الانتقال إلى التعبير نودّ الإشارة إلى أن هذا العمل - الدّعويّ - من يوسف - عليه السلام - والمجهود العظيم الذي بذله متدرّجا بالفتييْن من مسألة إلى مسألة حتى هيَّأهما لتقبّل دعوته، ثم دعاهما صراحة إلى دين الله تعالى، ليس إلا رمْزاً للمجهود العظيم الذي يبذله في كل مناسبة،... وإن هذا لدرس عظيم يلقيه هذا النبي العظيم على كل حامل أمانة من أمَّة الإسلام في كل زمان ومكان[1]

تعبير رؤيا الفتيين:

من الواضح أن تأويل رؤيا الفتييْن مُغَاير لما سبق من دعوته - عليه السلام - لهما - إلى عبادة الله الواحد وترك ما سواه، ولهذا فصل عنه بتكرير الخطاب قال:

«**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ**»[2] نَادَاهُما بهذا القول اللطيف المؤنس مَعاً، ليندرج الحكمان معا، فلا يواجه المحكوم عليه بالصلب بمصيره، وترك لهما - عليه السلام - إدراك تعبير ما رأياه طبقا لمقتضى الحال[3] وفي ذلك تلطّف وتحرُّج من المواجهة بالشَّرِّ والسُّوء، وشفقة بالمصلوب منها، ومراعاة لحسن الصحبة.

وبعد هذه التوطئة اللطيفة يأتي تعبير الرؤيا،

«**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**» وهو الذي رآى أنه يعصر خمراً، فيسقى ربه: يعني سيده، كما قال ابن زيد،

«**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**»، وهو الذي رآى أن على رأسه خبزاً تأكل الطير منه،

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أن الرؤيا الأولى، التي رآى صاحبها أنه يعصر خمراً، أن الذي يعصر خمراً في العادة، يكون خادما لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من الحبس،...

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٠٦.
(٢) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٣٥.
(٣) يوسف بن يعقوب / ٢٩٦.



وأوّل رؤيا الآخر، أي: الذي يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ، سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرآى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل(١)

ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أن لا بد من وقوعه فقال:

«قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»(٢)

قُضي الأمر: أي تَمَّ وانتهى حكمه، والاستفتاء: مصدر استَفْتَى إذا طلب الإفتاء، وهو الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة، وفعله (أفْتى) ملازم للهمْز(٣) والاستفتاء يكون في الحادثة لا في حكمها، يقال: استفتى الفقيه في الحادثة: أي طلب منه بيان حكمها، ولا يقال: استفتاه في حكمها(٤)

وبعد أن أول يوسف - عليه السلام - رؤيا الفتيَيْن، أخبرَهما عن غيْبٍ عَلِمَهُ من قبل الله تعالى، أن الأمر قد قضي ووافق قضاء الله تعالى(٥) وقوله «قضي الأمر» المراد به الجنس، أي أمر كل منكما(٦) والتعبير عنه بـ(الأمر) وعن طلب التأويل بـ(الاستفتاء) تهويلا لأمره وتفخيما لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في التوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب، وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك، لما أنهما بصَدَده، إلى أن يقْضي - عليه السلام - من الجواب وَطَرَهُ(٧) ومعنى «قضي الأمر... الخ» أي قطع وتم ما تستفتيان فيه، يعني مآله، وهو نجاة أحدهما وهلاك الآخر.

وهذا الإخبار من يوسف - عليه السلام - للفتيَيْن نبأ زائد على تعبير رؤياهما يؤكد أنه من مكاشفات يوسف - عليه السلام - وَرَدَ مورد الجواب عن سؤال يخطر ببالهما،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥٣-٤٥٤. (٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٢٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٨.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٢٩٦. (٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٠.

(٦) حاشية الصاوي على الجلالين/ ٢/ ٢٤٤.

(٧) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٦٦.



أو أسئلة في صفة ذلك التعبير، وهل هو قطعِيٌّ أم ظنِّيٌّ يجوز غيره؟ ومتى يكون؟ فهو يقول لهما: إن الأمر الذي يهمّكما، أو يشكل عليكما وتستفتياني فيه - أي تسألاني عن تعبيره وتفسيره - قد قُضِيَ وَبُتَّ فيه وانتهى حكمه[1]

وهنا - أي بعد هذه الآية الكريمة - يُسْقط السِّياق أن التأويل قد تحقَّق، وأن الأمر قد قُضِي على ما أوله يوسف - عليه السلام - ويترك هنا فجْوة نعرف منها أن هذا كله قد كان[2] فلقد نَجَا الساقي، وصلب صاحبه (الخباز) وفق ما قال لهما يوسف - عليه السلام -[3]

دلالة قول يوسف - عليه السلام - (قضي الأمر) على أنه قد أوحى إليه بالنبوة:

وقول يوسف - عليه السلام - (قضي الأمر) دال على وحي[4]، فهذه الجزئية التعقيبية (قضي الأمر) على لسانه تدل على الثقة المطلقة فيما قال بوحي من الله تعالى[5]، فمعنى التأويل أن يوسف - عليه السلام - علم بوحي من ربه أن الملك قد حكم في أمرهما بما قاله[6]، فجواب يوسف إذاً للفتيين ليس مجرد تعبير رؤيا مبني على الظن والحسبان، وإنما اعتمد على الوحي من الله تعالى، والوحي يفيد القطع واليقين، لا الظن والتخمين[7].

وخلاصة الأمر: أن في تلك الآية الكريمة برهان ناصع وآية مستلزمة لصدقه وثبوت نبوته - عليه السلام - ويحصل لمن تنبه إليها وتدبرها العلم - بالضرورة أو النظر أن يوسف - عليه السلام - رسول حقاً[8].

ولقد كان تعبير يوسف لرؤيا الفتيين بمثابة الحلقة الأولى من سلسلة الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن.

---

(١) تفسير المنار / ١٢ / ٣١٢. (٢) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٢.
(٣) نظم الدرر / ٤ / ٤٤. (٤) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٥.
(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١١.
(٦) تفسير المنار / ١٢ / ٣١٢. (٧) التفسير المنير / ١٢ / ٢٧١.
(٨) يوسف بن يعقوب / ٢٩٥.



فكان هذا التعبير هو (الحجر الأول) في أساس خروجه من السجن وبناء مجده العظيم.

وأما (حجر الزاوية)، فهو تعبيره - عليه السلام - رؤيا الملك الآتية:

وأما (ثالثة الأثافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل ما رُمِيَ به، حتى خرج من معتقله - أخيراً - عزيز الجناب، ناصع الجبين[1].

شخصية الخباز:

قالوا: شخصية (الخباز) الذي حكم الملك عليه بالصلب هي الشخصية الوحيدة في القصة التي كانت نهايتها غير سعيدة من بين كل الشخصيات التي ذكرت في سورة يوسف، وهذا القول لا يسلم لهم.

فما أدرانا أن الله تعالى قد لطف به وهداه إلى التوحيد والإيمان على يد يوسف - عليه السلام - فمات موتة طيبة على الإسلام مغفوراً له، فهذا هو الأقرب إلى إنسان علم من تأويل رؤياه أنه قد فقد كل أمل في هذه الحياة.... ألا يرتجي أملاً أعظم وأكثر من كل ما على الأرض، أملاً في حياة خالدة وسعادة دائمة جزاء للمؤمنين الموحدين، خاصة إذا ما جاءه هذا الأمل الجديد على يد صاحبه المحسن الصادق المبرأ من كل عيب، يوسف - عليه السلام - هذا والله أعلم.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨٣٤.

رفع المسبهم

مضمون الآية الكريمة:

وبعد تحقيق الحق، ودعوة الفتيين إليه، وبيانه لهما مرتبة علمه، شرع - عليه السلام - في تفسير ما استفسراه فقال: ﴿أما أحد كما وهو الساقي فيسقي ربه خمراً﴾ أي يخرج من السجن، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، ﴿وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾

وأما الآخر (وهو الخباز) فيصلب فتأكل الطير من رأسه بعد صلبه، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل لابد من وقوعه فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - قضاء حاجة الدعوة قبل الإجابة على الاستفتاء..

٢ - مشروعية الاستفتاء في كل مشكل من الأمور، خاصة فيما يتعلق بالأمور الشرعية لأنها الأهم.

٣ - الترفق بالأصحاب عند إعلانهم بنبأ هام مؤثر فيهم.

٤ - الله تعالى وحده هو عالم الغيب، وقد يُطْلِعُ الله تعالى رسله على بعض الغيب معجزة لهم ودليلاً على صدق نبوتهم.

٥ - قضاء الله تعالى حتمي الوقوع لا محاولة.

٦ - اتخاذ ملوك مصر آنذاك، سقاة للملك يقومون بصناعة الخمور الملكية في معمل القصر، ويرأسهم صاحب شراب الملك، يدل على مدى الرفاهية التي كانوا فيها.

٧ - الخمر محرمة في كل الشرائع السماوية، لأنها تذهب العقل، وتدفع شاربها إلى ارتكاب أشد المنكرات، كما ثبت أنها تسبب للإنسان أمراضاً خطيرة تؤدي به إلى الهلاك، ولذا فقد عدها الإسلام العظيم من الكبائر وأمر بإقامة الحد على شاربها، وهو أربعون جلدة.



«الآيَةُ الثَّانِيَةُ والأربعون»

أوّلاً - النّصُّ الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾

ثانياً - أوجُه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله (ظَنَّ)

للظَّنِّ شَكٌّ ويقين، إلاّ أنه ليْس بيَقين عيان، وإنَّما هو يقينُ تدبُّر، فأمَّا يَقينُ العيان؛ فلا يُقَال فيه إلاّ عِلْمٌ، وَهو يكُونُ اسْماً ومصْدراً، وجمع الظَّنِّ الذي هو الاسم (ظنون)

وفي التهذيب: الظنَّ يقينٌ وشَكٌّ، وأنْشَدَ أبُو عبيْدَة:

ظَنِّي بهم كعَسَى وهم بتَنُوفَةٍ *** يتنَازعُونَ جوائز الأمْثَال

يقول: اليقين منهم كعسى، وعسى شك؛ وقال شَمّر:

قال أبو عمرو ومعناه: ما يُظَنُّ بهم من الخيْر فهو واجب، وعسى من الله واجب، وفي التنزيل العزيز (إنِّي ظَنَنْتُ أنِّي مُلاق حِسَابِيَة» أي: علمت[1].

والظَّنُّ: اسم لما يحْصُلُ عن أمارة، ومَتَى قَوِيَتْ أدَّتْ إلى العلْم، وَمَتَى ضَعُفَتْ جداً لم يتجاوزْ حَدَّ التَّوَهُّم[2].

البُضْع:

في المُرَادِ بالبُضْعِ مِنَ العَدَدِ خلاف: وأصل اشتقاقه من بضعْتُ بمعنى قطعت، ومعناه القطعة من العدد، قاله الزجاج.

قال قتادة: هو بين الثلاث إلى التسْع،

---

(١) اللسان/ ١٣ / ٢٧٢.

(٢) المفردات (كتاب الظاء)٣١٧.



وقال أبو عبيدة: البضْع لا يبْلُغُ العِقْدَ وَلا نصف العِقْد، وإنَّما هو من الواحد إلى العشرة.

وقال مجاهد: هو من الثلاثة إلى السبعة، وهو قول أبي بكر الصديق وقطرب[1]

وقال الفراء: لا يذكر البضع إلا مع العشرات، ولا يُذكر مع مِئَة وَلا أَلْفٍ، وذلك يقتضي أن يكون مخصوصا بما بيْنَ الثلاث إلى التّسْعَة، وقال: هكذا رأيْتُ العرب يقولون، وما رأيتهم يقولون (بضع ومائة)[2]

وقال الراغب: البِضْع بالكَسْر: المقتطع من العشرة، ويقال ذلك لما بيْن الثلاثة إلى العشرة، وقيل: بل هو فوْق الخمسة ودون العشرة، والبَضْع، والبِضع بالفتح والكَسْر، مابيْن الثلاث إلى العشرة، قال تعالى: «بضع سنين»[3]

وقال شَمَّر: البضع لا يكون أقل من ثلاثة، ولا أكثر من عشرة[4]

وقال الإمام الطبري: والصواب في البضع: من الثلاث إلى التسع إلى العشْر وَلا يكونُ دُونَ الثلاث، وكذلك مازاد على العِقْدِ إلى المائة، وما زاد على المائة فلا يكون فيه بضع[5].

رابعاً - الإعْرَاب:

قوله: «وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»

(وَقال) عطفٌ على ما قبله، وفاعله يوسف،

(لِلَّذِي ظَنَّ) فاعل (ظنَّ) يجوز أن يكون يوسف - عليه السلام - إن كان تأويله بطريقة الاجتهاد، وأن يكون الشرابي إن كان تأويله بطريق الوَحْي، أو يكون الظنُّ بمعنى

---

(1) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٧١.

(2) الفراء (معاني القرآن) ٢/ ٤٦.

(3) المفردات (كتاب الباء) ٥٠.

(4) اللسان/ ٨/ص ١٥.

(5) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٥.



العلم واليقين[1] أي علم - يوسف - وأيْقَنَ أن السَّاقي ناج، أي: متخلص من الهلاك[2]
(أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا) (أنَّهُ) أنَّ واسْمُها و(ناج) خبرها.
و(منهما) يجوز أن يكون صفَةً (لِنَاج) وأن يتعلق بمحذوف على أنه حَالٌ مِنَ المَوصُول[3].
(اذْكُرْنِي) مقُولُ القَوْل.
(عِندَ رَبِّكَ) ظَرف متعلِّق بمحذوف حال
قوله: «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» (الفاء) عاطفة، و(أنساه) فعل ومفعول به، والضمير يعودُ إلى الساقي، و(الشيطان) فاعل، والمعنى: فأنساهُ الشيطان أن يذكر يوسف عند الملك،
وقيل: فأنسى يوسف ذكر ربه حين وكل أمره إلى غيره، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)، ويؤيدُ رُجُوعه إلى الذي نجا مِنَ الغُلامَيْنِ قوله فيما سيأتي (وقال الذي نجا منْهما وادّكرَ بعْد أمّة،
قوله: «فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ»
(الفاء) عاطفة، و(لبث) فعل وفاعل مستَتِر، و(في السجن) جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف حال، و(بضع سنينِ) نصب على الظرفية متعلِّقْ بـ(لبث)[4]

خامساً - الموقف من المتعارضات، ويتضمّن خمسة أمور:

الأمْرُ الأول: من الذي ظنّ؟ هل هو يوسف - عليه السلام - أم النّاجي؟

ذهب أكثر المفسرين إلى أن (الظّانّ) في قوله تعالى:
«وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا...» هو يوسف - عليه السلام - أي: قال يوسف للذي ظنَّ أنَّهُ نَاجٍ من صَاحبيْه في السجن: اذكُرْني عنْد سيِّدك الملك.

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٢.
(٢) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٦٧.
(٣) الدر المصون/ ٦/ ٥٠٠.
(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٤/ ٥٠٢-٥٠٣.



وذهب آخرون، إلى أن (الظّان) هو النَّاجي، أي قال يوسف للذي ظنَّ أنَّ نفسه ناجٍ مِنَ السِّجن - وهو الساقي - (اذكرني عند ربك)

الترجيح: والراجح أنَّ (الظَّان) هو يوسف - عليه السلام - لا صاحبه النَّاجي، لأنَّ التَّوْصِيَةَ المذكُورَةَ - اذكُرْني عند ربِّك - لا تدُورُ على ظنِّ النَّاجي بل على ظنِّ يوسف، قال بذلك الإمام أبو السعود، وبمثله قال الإمام الألوسي أيضا[1]

أمَّا مَنْ قَالَ بأن (الظانَّ) هو الناجي فهو بعيد، لأنَّ قَوْل يوسف للسَّاقي: (اذكرني عند ربك) نشَأ عَنْ ظنِّه - أي يوسف - أنه ناج لا عَنْ ظن الساقي - كما سبق - وهو ظاهرٌ لمن له الذوقُ السليم[2].

الأمرُ الثاني: مَا المرادُ بالظَّنّ في الآية الكريمة؟

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الظَّن في الآية الكريمة، بمعنى اليقين.

فيوسف - عليه السلام - عبَّرَ عَنِ العِلْم بالظَّنِّ؛ لأنَّ كلَّ عِلْمٍ بالنِّسْبة إلى علم الله تعالى عدماً[3]

ذكرُ بعَضِ مَنْ قال بذلك من أهل التفسير:

قال الإمام ابن عطية الأندلسي: (ظن) هنا - وقال للذي ظن... - بمعنى اليقين، لأنَّ مَا تَقدَّمَ مَنْ قوْله (قُضِيَ الأمْرُ) يُلْزِمُ ذَلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود[4]

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي:

(وَقال للذي ظنّ): أي أيقن، هو، أي: يوسف أنه ناج، وهو السَّاقي[5]

وقال الإمام الألوسي: وهو - أي الظن - بمعنى (اليقين) كما في قوله تعالى: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[6]

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٠، وروح المعاني/ ٦/ ٤٣٧.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١١٣.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٤٣.

(٤) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٠٥.

(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٠.

(٦) البقرة/ ٤٦.



وَذهب آخرون إلى أنَّ الظنَّ في الآية الكريمة على بابه،

روي ابن جرير الطبري عن (قتادة) - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) - قال: وإنَّمَا عَبَارَةُ الرُّؤيَا بالظَّنِّ، فيُحقُّ الله ما يشاء(١)

فقتادة - رضي الله عنه - فسَّرَهُ بالظَّنِّ الذي هو خلافُ اليقين، قال: إنَّمَا ظن يوسف نجاته، لأنَّ العَابر يظن ظنّاً، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يشاء(٢)

التَّرْجيح:

والرأي الأول، وهو الذي يرى أنَّ الظن هنا بمعنى اليقين هو الراجح،

وَقد رَدَّ الإمام الطبري على من قال بأن عبارة الرؤيا ظن - وهو قتادة - قال: فإن ذلك كذلك من غيْر الأنبياء، فأمَّا الأنبياء فغير جائز منْها أن تخْبر بخبَر عنْ أمْرٍ أنه كائن ثم لا يكون، أو أنه غير كائنٍ ثمَّ يكونَ مع شهادتها على حقيقة ما أخْبرتْ عنه أنه كائن أو غيْر كائن، لأنَّ ذلك لو جاز عليها في أخبارها لم يؤمن مثل ذلك في كلِّ أخبارها، وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها سقطَتْ حجَّتُها على مَنْ أرْسلَتْ إليْه، فإذا كان ذلك كذلك كان غيْر جَائز عليها أن تخبر بخبر إلاّ وَهو حَقٌّ ووَصدْقٌ،

فمعلومٌ إذا كان الأمْرُ على ما وصفتَ أن يوسف لم يقْطع الشهادة على ما أخبر الفتيَيْن اللّذيْن استَعْبَراه أنه كائن فيقول لأحدهما: (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) للآخر - (وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ) ثم يؤكِّدُ ذلك بقوله: «قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» عند قولهما: لَمْ نرَ شَيْئاً، إلاّ وَهو على يقين أنَّ ما أخبرهما بحدُوثه، وكونه أنَّهُ كاذن لا محالة لا شكَّ فيه، ولِيَقِينه بِكَوْنِ ذلك قال للنَّاجي منهما: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ)

---

(١) تفسير الطبري/٧/١٢/٢٢٢.

(٢) تفسير القرطبي/٩/١٩٤.



فَبَيَّنٌ إذاً بذلك فَسَادُ القوْل الذي قاله (قتادة) في معنى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾(١)

وقال القاضي أبو محمد بن عطية الأندلسي:

(قضي الأمر) دَالٌّ على وَحْيٍ، وَلا يترتَّبُ قوْل (قتادة) إلاّ بأن يكونَ معنى قوله (قُضِيَ الأمْر) أي قُضِيَ كلامي وقُلْتُ مَا عنْدي وَتَمَّ، والله أعلم بما يكونُ بعد(٢)

وَمع الاتجاه بأنَّ (الظن) بمعنى اليقين يقول الإمام القرطبي بَعْدَ أنْ ذكر القولَيْن:

والأوّل - وَهو القولُ بأن الظَّن بمعْنَى اليقين - أصَحّ وَأشبَهُ بحال الأنبياء - عليهم السلام - وأن مَا قاله للفتَيَيْنِ في تعبير الرؤيا كانَ عَنْ وَحْي، وَإنَّمَا يكونُ ظَنّاً في حكم الناس، وأمَّا في حَقّ الأنبياء فإن حكمهم حَقٌّ كيْفمَا وَقَعَ(٣)

ومع نفْس الاتجاه السابق يقول الإمام الشَّوْكاني:

والمراد بالظنّ، العلم، لأنه قد عَلِمَ من الرؤيَا نجاة الشرابي - السَّاقي - وَهلاك الخبَّاز، وبعد أنْ ذكر القوْل الثاني قال: والأول - وهو أن الظن بمعنى اليقين - أولى وأنْسَبُ بحال الأنبياء، لا سِيَّمَا وَقدْ أخْبَرَ عَن نَّفْسِه - عليه السلام - بأنَّهُ قدْ أطلعه الله على شيء مِنْ عِلْمِ الغيْب، كما في قوله: ﴿لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه... الآية﴾(٤).

الأمر الثالث:

ما المراد من قوله - عليه السلام -: «اذكرْنِي عِندَ رَبِّكَ»؟

اختلف المفسِّرون في مُرادِ يُوسف - عليه السلام - من قوْله للنَّاجي من صاحِبَي السِّجْن: «اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ»

فمنهم من قال: بأنه - عليه السلام - قصد من ذلك أن يعْرِضَ النَّاجي قضِيَّتَهُ

(١) تفسير الطبري/٧/١٢/٢٢٢.

(٢) تفسير ابن عطية/٩/٣٠٥.

(٣) تفسير القرطبي/٩/١٩٤.

(٤) فتح القدير/٣/٣١.



على الملك للنظر في الإفْرَاج عنْه وإطْلاق سَرَاحه، أي أن يوسف - عليه السلام - يقول للناجي: قل للملك ما عرفْتَهُ عنِّي عَسَى أن يتذكر ما أصَابني من ضُرٍّ فيمنعه، ومَا وَقَعَ عليَّ مِنْ ظُلْمٍ فيرْفعه، ويُخَلِّصُني مِنْ هذه الأغْلال والمتاعب(١)

الردّ على هذا القول:

وقد رُدَّ هذا القوْل بأن يوسف - عليه السلام - كان من أثبت الناسِ، ولهذا بَعْدَ أنْ طُلِبَ (وقال الملك ائتوني به) قال: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ، إن ربي بكيدهن علم(٢)

فلم يكن يوسف حين قال - «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» متبرّما بالسِّجْن وَلا ضجراً من هذه المحْنة، ولا يوجد دليل على ذلك، ولو كان يتعجل الخروج من السِّجن لما رفض الخروج حين اسْتدْعاه الملك لمجْلسه، بل كان المناسِبُ لذلك أنْ يبادر بالامْتثال لأمْرِ الملك ويُسْرِعَ بمغادرة السِّجن، لو كان هدفه مجرَّد الخروج من السِّجن، ثم إن خروجه من السِّجْن قبْل أنْ تَتَبيَّنَ براءته ليْسَ لصَالحه بَلْ أقلّ ما يصيبُه من ذلك هو الادّعاءُ عليْه بأنَّه كَان مذْنباً مع امرأةِ العزيز، كما أشيع ذلك،

ثم كيف يلجأ مَنْ يَقُول لصاحبَي السِّجْن ومن معهم في السجن:

«مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» ثم يلجأ بعد ذلك إلى ساقي الملك ليتوسط له عند الملك ليخرج من السجن، مع أنّ وضْع السَّاقي نفسه لا يسمح - من ناحية ظروفه أو مرتبته - أن يكون واسطة في إطلاق سراحه - عليه السلام -(٣)

وذهب آخرون إلى أنه - عليه السلام - أراد من قوله للساقي: «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»

---

(١) تاريخ الأنبياء (النجار) ١٤٠.

(٢) التفسير الكبير (ابن تيمية) ٥٨.

(٣) انظر: يوسف بن يعقوب / ٢٩٧-٢٩٩.



أن يذكُرَ السَّاقي أمام الملك دعوته - عليه السلام - إلى الدين القيِّم، فلا تَتَّجِهُ العبادَةُ إلاّ للّهِ الواحد القهَّار،

ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أن سياق الآيات يقتضي أن الدعوة إلى الله تعالى كانت محور حديثه - عليه السلام - مع صاحبي السِّجْن، فيكون المناسب هو أن يطلب النَّاجي أن يذْكر ذلك عنْد الملك؛

فإما أن يرسل الملك إلى يوسف ويسأله عن هذا الدين الجديد الذي كان يدْعُو إليْه في السِّجْن، وإمّا ألا يرسل فيكون السَّاقي قد أبْلَغَه دعْوَةَ الدِّين الجديد[١]

وقَدْ رُدَّ على هذا القول بأنه لم يكن مِنَ الحكْمة ولا مِنَ المنَاسب أن يدعو يوسف الملك وقومَه إلى الدين القيِّم قبْل أن تُعْلَنَ براءته، فقد كان الكثير ممَّن حوْله لا يعلمون حقيقة مَا حَدَث ولو كان هذا هو الهدف من قوله (اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) - لما رفضَ - عليه السلام - الخروج من السِّجن قبْل أنْ يُبَتَّ في قضيَّته أمَام الملك، ولما قال: (اذكرني) بل المقام لا يكون فيه مذكور سوى الله عزَّ وَجَلَّ، كأن يقول له: (اذكر للملك حقيقة الدين القَيِّم كما عَلَّمْتُكَ وَعَرِّفْهُ اللّهَ الوَاحِدَ القهَّارَ كما عرفْتك) ونحو ذلك.

وذهب فريق ثالث إلى أنه - عليه السلام - قال للساقي: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) يريد منه أن يذْكر ما رآه صَاحبُه في السِّجن، وما سمعه منْه فيترَتَّبُ على هذا الذكر ما يلي:

إحاطة الملك بخاصيّة تأويل الرؤى التي اختصَّهُ الله بها - عليه السلام - كَيْ يلجأ الملك إليْه في ذلك، فيكون في ذلك آيَةً ليُوسف برهانا على نبوَّته، فإذَا حدَث ذلك؛ اسْتَجَابَ الملك ليوسف ليحققَ في قضيَّته ليظْهَرَ للملإِ براءَتَهُ، ليَعْلَمَ الجميع أن ساحَتَهُ - عليه السلام - وَهي سَاحَةُ النبوَّة والرسالة - أسمى من أن تكون موضع ريبة، وأطهر من أن تكون موقع تُهْمَة، ولا يمكنُ لأحد أنْ يَمَسَّ جَلالَهَا بسُوءٍ وَلا أنْ يَقْدَح في نزاهَتِها قادح[٢]

---

(١) يوسف - عليه السلام - (عبد الحميد كحيل). (٢) يسوف بن يعقوب / ٣٠٢.



الترجيح: والرأي الثالث والأخير هو الراجح لمطابقته للواقع الذي حدث بعد ذلك، والله أعلم.

الأمرُ الرابع:

هل قول يوسف - عليه السلام - للسَّاقي: (اذكرْني عِندَ ربّكَ)

يَدلُّ على أنه - عليه السلام - قد عَرضَتْ له غَفْلة مِنْ قبل الشَّيطان؟ فأنساهُ ذِكرَ ربِّه؟

ذهب كثير من المفسّرين إلى أن يوسف - عليه السلام - قد عرضَتْ له غفلة من قِبَلِ الشيطان فالتفتَ بقلْبِه إلى النَّاجي - الساقي - وقال له: (اذْكُرْني عِندَ ربِّكَ) توسُّلاً به إلى الملك لإخْرَاجِه، وقال: ، وكان الأولى بيُوسف - عليه السلام - أن يتوكَّلَ على الله تعالى ولا يقُول هذا القوْل للنَّاجي، فَلَمَّا نَسِيَ أنْ يتوكَّلَ على ربِّهِ جُوزي على ذلك يلبثه في السَّجن بضْع سنين.

نماذج من أقوال أهل التفسير في ذلك:

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (العُقُوبَات) وابن جرير الطبري، والطبراني وابنُ مرْدويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَم يقُل يوسف - عليه السلام - الكلمةَ التي قالها (اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) مَا لبِثَ في السَّجنِ طول مَا لبثَ، حيْث يبتغي الفرَج من عنْد غير الله» وذكر مثل ذلك - أو قريبا منه - عن عكرمة، وعن أبي هريرة، وَعن الحسن وعن قتادة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زَوَائِدِ الزُّهد، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أنس رضي الله عنه قال: أوحي إلى يوسف «مَنِ اسْتَنْقَذَكَ مِنَ القَتْلِ حِينَ هَمَّ إخوتُكَ أنْ يقْتُلُوك؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن اسْتَنْقَذَكَ مِنَ الجُبِّ إذْ أَلْقَوْكَ فيه؟ قال: أنت ياربّ..

قال: فمن اسْتنْقَذَكَ مِنَ المرْأةِ إذْ هَمَمْتَ بِهَا؟ قال: أنت يارب. قال: فمالَكَ نَسِيتَنِي



وَذَكَرْتَ آدمِيّاً؟ قال: جزعا، وكلمة تكلَّمَ بها لِسَاني، قال: فَوَعِزَّتي لأخلِّدنَّك في السِّجْن بضْع سنين، فلبثَ في السِّجن بضْع سنين[١]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحَسَن - رضي الله عنه - قال: لما قال يوسف - عليه السلام - للسَّاقي: (اذْكُرني عِندَ رَبِّكَ) قيل له: يا يوسف، أتَّخَذْتَ من دُوني وكيلا؟ لأطِيلَنَّ حَبْسَك، فبكى يوسف وقال: يا رب تشاغل قلْبي من كثرة البَلْوى فَقُلْتُ كَلِمَةً».

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد - رضي الله عنه - في قَوْله: (وَقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) قال يوسف للذي نجا من صاحِبَي السِّجن: اذكرني للملك، فلم يذكره حتى رآى الملكُ الرؤيا، وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه وأمَرَه - أي أمر الشيطان يوسف - بذكْرِ الملك وابْتغاء الفرج من عنْده، فلبث في السِّجْن بضْع سنين عقُوبة لقَوْله (وَقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ)

وأخرج ابنَ مَرْدَوَيْه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: عَثُر يوسف ثلاث عثرات: قوله: (وَقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ)

وقوله لإخوته: (إِنّكم لسَارِقُون)

وقوله: (ذلك ليعلم أني لم أخُنْهُ بالغيْب)

فقال له جبريل - عليه السلام - ولا حين هَمَمْتَ؟ فقال: وما أبرئ نفسي[٢]

وقال الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى: «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّه»: وهذا خبرٌ من اللّه جل ثناؤه عن غفْلَةٍ عَرَضَتْ ليوسف - عليه السلام - مِنْ قِبَل الشيطان نَسيَ لَهَا ذِكْرَ رَبِّه، الّذي لَوْ به اسْتَغَاثَ لأسْرَعَ بما هو فيه خَلاصُه، ولكنّه زَلَّ بها، فأطَالَ مِنْ أجْلِهَا في السِّجْن حَبْسه، وَأوْجَعَ لها عقُوبته[٣]

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٥٤١.

(٢) المرجع السابق / ٥٤٢-٥٤٣.

(٣) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٢٢.



وَقال الإمام الفخر الرازي مؤيِّداً لِلْقَوْل السابق:

واعلم أنَّ الحقَّ هو القولُ الأول - وهو أن الضمير في (أنساه الشيطان) و(ذكر ربه) راجع ليوسف - عليه السلام - والمعنى أن الشيطان أنْسَى يوسف أن يذكر ربّه، ثم قال: وَما ذَكَرَه هذا القائل الثاني - مِنْ عَوْدَةِ الضَّمِيرين إلى الساقي - تمسُّكٌ بظاهر الشريعة، وَما قرَّرَهُ القائل الأوّل تمَسُّكٌ بأسْرَارِ الحقيقة ومكارم الشريعة، وَمن كان له ذَوْقٌ في مَقَامِ العبُودِيَّة، وَشربَ من مشْرَبِ التَّوْحيد عرَفَ أنَّ الأمْرَ كما ذكرْناه، وأيْضاً ففي لفظ الآيةِ مَا يَدُلُّ على أنّ هذا القَوْل ضعيف، لأنه لو كان المرادُ ذلك لقال: فَأنْسَاهُ الشيطان ذكره لرَبِّه[1]

ومع القول السابق يقول الشيخ أبو بكر الجزائري تحت عنوان:

«من هداية الآيات» رقم ٥: غفْلَةُ يُوسُف بإقْباله عَلَى الفتَى وقوله له: (اذْكُرْني عندَ رَبِّكَ) ناسِياً مولاهُ الحق وَوَليَّهُ الذي أنْجاهُ مِنَ القَتْلِ وَغيَابَة الجبّ وفتْنَةِ النساء، جَعلَتْهُ - أي الغفلة - يحْبَسُ في السِّجن سبع سنين[2]

وذهب فريق آخر من المفسِّرين إلى أن قول يوسف - عليه السلام - (اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) لا يُنَاقِضُ التوكُّل، وليْس فيه دليل على أن يوسف أغْفَلَ الدعاء إلى الله تعالى، وأن الضميرين في قوله (فَأَنساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّه) راجعان إلى الناجي لا إلى يوسف.

أمَّا أنَّ قوله (اذْكُرني عِندَ رَبِّكَ) لا يناقض التَّوكُّل، فيقول في ذلك ابن تيمية - رحمه الله -:

وَلَيْسَ في قوله (اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) ما يناقض التوكُّل، بل لقد قال يوسف: (إِنِ الحُكْمُ إلاَّ للّهِ)، كما أنَّ قَوْلَ أبيه - يعقوب - عليه السلام -: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرِّقة) لا يناقِضُ التوكُّل، بل قال: (وَمَا أُغني عنكم من الله من شيءٍ، إن الحكْمُ إلاّ لِلّه، عليه توكلت وعليه فليتوكَّل المتوكِّلُون»

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٤٩.

(٢) أيسر التفاسير/ ٢/ ٢١٦.



وأيضا: فيوسف قد شهد الله أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله تعالى، فإن ذلك شرْك، ويوسف لم يكن مشْركا في عبادته ولا توكُّله، بل قد توكَّلَ على ربِّه في فِعْل نَفْسه بقوله: «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُن أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ» فكيْف لا يتوكلُ عليه في أفْعَال عباده، وقوله «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» مثل قوله لِربِّه - الملك «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»(١) فلما سأل الولاية للمصلحة الدينيَّة لم يكُن هَذا مُناقضاً للتَّوكُّل، وليس فيه إلا مُجرَّد إخبار الملك به ليعلم حاله ليتَبيَّنَ الحق(٢)

وأما أن قوله «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» ليس فيه دليل على أنه أغفل الدعاء إلى تعالى،

فيقول الإما ابن حزم:

ولَيْس في قوله (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) دليل على أنه - عليه السلام - أغفل الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، لكنه - عليه السلام - رَغَّبَ هذا الذي كان معه في السِّجن في فِعْل الخيْر وَحَضِّه عليه، وهذا فرْضٌ مِنْ وَجْهَيْن:

أحَدُهما: وُجُوبُ السَّعْي في كفِّ الظُّلْمِ عنه،

الثاني: دعاؤه إلى الخيْرِ والحسنات(٣)

واللائق بمقامه ألا يقول للناجي: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الأسباب والمسببات(٤) فالمرسلون معصومون من الالتفات إلى غير الله تعالى لأنهم أخيار مصطفون.

وأما أنَّ الضميرين في قوله (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) راجعان إلى الناجي لا إلى يوسف - عليه السلام -

فيقول الإمَامُ ابْنُ تيمية - رحمه الله -:

---

(١) يوسف/ ٥٥.

(٢) التفسير الكبير (ابن تيمية) ٥٦-٥٨.

(٣) الملل والنحل/ ف٤/ ٣ ص١٣.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٣١٤.



قال الله تعالى ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ... الآية﴾

فكيْف يكون قد أنْسَى الشيطان يوسف ذكْرَ ربِّه؟ وإنَّما أنْسَى الشيطانُ الناجي من صَاحِبَيْهِ في السِّجن ذكْرَ رَبه، أي الذكر المضاف إلى رَبه والمنسوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف(١)

ويقول الإمام ابن حزم:

وأما قوله: «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» فالضمير الذي في «أنساه» وهو (الهاء) راجع إلى الفتى الذي كان معه في السِّجْن، أي الشيطان أنْسَاهُ أنْ يُذَكِّرَ رَبَّهُ أمْرَ يوسف، ويُحْتمل أيضا، أن يكون الشيطان أنساه ذكر الله تعالى، لأن في الآية دليل على أن الناجي قد آمن، وَلو ذكر الله تعالى لذكر حاجَة يوسف، وبرهان ذلك قول الله عزّ وجل (وادَّكر بعد أمَّة) فَصحَّ يقيناً أن المذكور بعد أمَّة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حتَّى تَذَكَّرَ(٢)

ويقول الإمام أبو حيان:

والضمير في «فأنساه» عائد على الساقي، ومعنى «ذكر ربه» ذكر يوسف لِرَبِّهِ - لرب الناجي وهو الملك - والإضافة تكون بأدْني مُلابَسَه، وإنْسَاء الشيطان له بما يوسوس إليه من اشتغاله حتَّى يذهل عما قاله يوسف، وقيل: الضمير في (فأنساه) عائد على يوسف ورتبوا على ذلك أخْبَاراً لا تليق نسبتُها إلى الأنبياء - عليهم السلام -(٣)

الترجيح:

والراجح هو الرأي القائل، بأن الضمير في (فأنساه) عائد على الناجي

قال الإمامُ ابنُ كثير:

---

(١) التفسير الكبير (ابن تيمية) ٥٦. (١) الملل والنحل / ف ٤ / ٣ص١٣.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣١٠. (٣) المرجع السابق / نفس الصفحة.



والصواب أن الضمير في قوله «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» عائدٌ على النَّاجي كما قاله مجاهد ومحمد بن اسحاق وغير واحد، ويقال: إنَّ الضمير عائدٌ على يوسف، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم، وأسند ابن جرير ههنا حديثا فقال: حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن زيد بن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعْني يوسف - الكلمة التي قَالَهَا مَا لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عنْد غيْر الله»

وهذا الحديث ضعيفٌ جداً، لأنَّ سُفْيَان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن زيد هو الجوزي أضعَفُ منْهُ أيْضاً، وقد رُوي عن الحَسَن وَقتادة مرسلا عن كل منْهما، وهذه المرسلات ههُنَا لا تُقْبَل، لو قُبلَ المرسَلُ من حيث هو في غيْرِ هذا الموْطن، والله أعلم(١)

ويعني الإمام ابن كثير بقوله: (لَوْ قُبِلَ المرْسَلُ من حيث هو) ما هو الصَّحِيحُ عنْد علماءِ الأصول، وهو عدَم الاحتجاج بالمراسيل(٢)

وأما الروايات السابقَة التي تَتحدَّثُ عَنْ إنْسَاءِ الشيطان ليوسف ذكْرَ ربه وأمْره له بذكر الملك وابتغاءِ الفَرج من عنده، وأنّ ذلك كان السبب في لبثه في السجن بضع سنين، وكذا تلك الروايات عن خطاب الله تعالى، وخطاب جبريل - عليه السلام - ليوسف - عليه السلام - وتَوْبيخه على الاسْتِشْفاع بآدَميٌّ مثله، فكل هذه الروايات إما من موضوعات الراوي، وإمَّا مِنَ الإسْرَائيليات(٣)

وإضافة لما سبق، فإن قوله تعالى: «فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» مُرتَّبٌ على قَوْله «فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» - أي أنْسَى الشيطان النَّاجي ذكْرَ يُوسف لِرَبِّه الملك - ولا علاقَة له بقوله (اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ) حتَّى يُظَنَّ أنَّهُ مجازاة ليوسف كَمَا تَوَهَّمَهُ البَعْضُ مِمَّن لَيْسَ عِنْدَهُ دِقَّةٌ وَإدْرَاكٌ للأمُور، وَلَيْسَ عنْدَه كبير احترام لأنبياء الله الكرام(٤)

---

(١) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٧٩.   (٢) تفسير المنار/ ١٢/ ٣١٥.

(٣) انظر: المرجع السابق نفس الصفحة، وتفسير البغوي/ ٤/ هامش/ ٢٤٥، والإسرائيليات والموضوعات/ ٣٢٠-٣٢١.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٨٥٤.



«النّسيانُ لا يَستوجِب العِقابَ»

ولو صَحَّ أنَّ الضمير مِنْ «أنْسَاه» راجع إلى يوسف - وقد قال بضد ذلك من قبل - لما كان في ذلك نقصٌ ولا ذنب - يستحق عليه زيادة سجنه - إذ ما كان بالنّسْيانِ فلا يبعده عن الأنبياء(١)

وأيضا، فلم يكن في قوله: «اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ» ترك الواجب ولا فعل المحرم حتَّى يعاقبه الله تعالى على ذلك يلبثه في السجن بضع سنين(٢)

وَلَو كان قوله «اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ» ذنباً لوَجَب أنْ يعطفَ عليه الإنْسَاء بجملة حالية، بأن يُقَال: «اذْكُرْني عِندَ رَبِّكَ، وقد أنْسَاه الشَّيْطان ذِكْرَ رَبِّه» - أي في تلك الحال - فلم يذكُرْهُ بقَلْبه وَلا بِلِسَانه فَاسْتحقَّ عقابه تعالى بإطالة مكثه على خلافِ ما أراده من ملك مصر، لكنَّ عطف الإنْسَاء على ما قاله للساقي (بالفاء) - «فَأنْسَاهُ الشيطان» يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكراً لله تعالى قبْلَه إلى أن قاله، . . .

والنِّسْيان لَيْسَ ذَنْباً يُعَاقبُ اللّه تعالَى عَلَيه، وقد قال تعالى لخاتم النبيين: «وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالمينَ»(٣)

يعني الذين أمره بالإعْرَاض عنهم إذَا رآهم يخُوضُونَ في آيَاتِ الله(٤)

الأمْرُ الخامس:

مَا المدَّة التي قضَاها يوسف - عليه السلام - في السجن؟

ونعني بذلك المدَّة التي قضاها - عليه السلام - قبْل خروج النَّاجي وبعده،

قال الإمام أبو حيان: والظاهر أن قَوْله (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) إخْبَارٌ عن مدَّة مقامه في السِّجْن منذُ سُجِنَ إلى أن أخْرِج(٥)

---

(١) الملل والنحل / ف٤ / ص١٣.

(٢) ابن تيمية (التفسير الكبير) «ابن تيمية» ٥٨.

(٣) الأنعام / ٦٨.

(٤) انظر: تفسير المنار / ١٢ / ٣١٤-٣١٥.

(٥) تفسير البحر / ٥ / ٣١٠.



وقد اختلف المفسرون في المدّة التي قضاها يوسف - عليه السلام - في السجن، بناء على اختلافهم في تفسير البضع - كما سبق - واختلاف الرواة - كذلك -.

فقال بعضهم: لبث يوسف في السجن سبع سنين، رُوي ذلك عن قتادة، وابن جريح، ووهب بن منبه، قال وهب: حبس يوسف سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين(١)

وقال بعضهم: لبث يوسف في السجن ثنتا عشرة سنة رُوي ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنهما -:

وقال آخرون: لبث يوسف في السجن أربعة عشرة سنة رُوي ذلك عن الضحّاك(٢)

التَرجيح:

والراجح أن البضع من ثلاث إلى تِسْع، وأكثر ما يطلق على السَّبع، وعليه الأكثرون في مدّة سجن يوسف من أولها إلى آخرها، وما قالوه من أن السَّبْعَ كانت بعْد وصيَّته للسَّاقي وأنه لبث قبْلها خمس سنين فلا دليل عليه(٣)، والله أعلم.

وقد رجَّحَ الإمام الألوسي مدَّة اللبث في السجن بأنها سبع سنين فقال: والمراد به هنا - أي البضع - في أكثر الأقاويل سبع سنين وهي مدة لبثه كلها فيها، صحه البعض وسنتان منها كانت مدة لبثه بعد ذلك القول: «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»(٤)

---

(١) تفسير الماوري / ٢ / ٢٧١.

(٢) انظر: تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٢٢، وتفسير ابن كثير / ٢ / ٤٧٩-٤٨٠.

(٣) تفسير المنار / ١٢ / ٣١٥.

(٤) روح المعاني / ٦ / ٤٣٧.



سادسا - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وجه المناسبة:

لما قضي يوسف - عليه السلام - حاجته من الفتيَيْن بدعوتهما ومن وراءهما من أهل السجن وسائر قومهما صراحة إلى دين الله القيم وترْك ما عليه القوم من عبادة ما سوى الله تعالى، ثم قضى حاجة الفتيين بتأويل رؤييهما، اتجه - عليه السلام - لمن ظن أنه ناج منهما وهو الساقي، دون علم الآخر لئلا يشعره أنه المصلوب(١) وطلب منه أمرا ذكره القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى:

«وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ...»

القائل هو يوسف - عليه السلام - والموجه إليه القول هو الشرابي أحد صاحِبَيْ يوسف في السجن، والذي أول له يوسف رؤياه وبشره فيها بنجاته وعودته ساقيا عند الملك، والظانّ هو يوسف - عليه السلام - لا صاحبه الناجي، لأن التوصية المذكورة «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» أي عند سيدك الملك، لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف، بدلالة قوله: «قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» حيث كانت فتواه عن وحي نبوي، وهذا كقوله تعالى: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ»(٢) ونظائره، وقد سبق ترجيح ذلك،

والذكر في قوله: «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» يشمل دعوته - عليه السلام - إياهم إلى التوحيد، وتأويله للرؤيا، وإنبائهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل أن يأتيهما، وآخره فتواه الصريحة - للساقي والخباز - فهي جديرة بأن تذكره كلما قدّم للملك شرابه(٣). فهو - عليه السلام - لم يطلب من الساقي إلا أن يذكر للملك عند اللزوم

---

(١) التفسير المنير/ ١٢/ ٢٧١.

(٢) البقرة/ ٤٦.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٣١٣.



ما رآه وما سمعه منه - عليه السلام - في السجن، فيترتب على هذا الذكر إحاطة الملك بالخاصّية التي أوتيها - عليه السلام - ألا وهي خاصّية التأويل وتعبير الرُّؤي، فإذا ما حدث ورآى الملك رؤيا يعجز الملأ من قومه على تعبيرها، لجأ إليه - عليه السلام - في تأويلها، فيكون في ذلك آية ليوسف وبرهانا دالاً على نبوته، وحينئذ لا يخالف له الملك أمرا لو طلب منه - عليه السلام - إعادة التحقيق في قضيته ليظهر للملأ براءته من كل سوء،...

فلم يكن قوله لصاحب السجن «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» بقصد الإفراج عنه، ولا الوصول إلى منفعة قد تجرها صلة الساقي بالملك، ولا بقصد التوطئة لنيل ما تهفوا إليه نفوس الطامعين كعادة الدنيويين، ولا بقصد إنابة الساقي عنه - عليه السلام - في الدعوة إلى الله تعالى، بل كان القصد من ذلك كله هو استعجال التحقيق في قضيته ليعلم الملأ أن ساحته، وهي ساحة النبوة، أسمى من أن تكون موضع ريبة، وأطهر من أن تكون موضع تهمة، ولا يمكن لأحد أن يمسّ جلالها بسوء أو أن يقدح في نزاهتها قادح،...

والحال يقتضي إعلان هذه البراءة على رؤوس الأشهاد مقترنة بآية من آيات نبوته - عليه السلام - حتى لا تلتبس البراءة بعمل من أعمال العفو أو الصفح أو المنة التي قد يصدرها الملك، كما أن المسألة لا تحتاج إلى سكوت خشية اختفاء أشخاص الشهود من مسرح الحياة، أو أن يتفرقوا بحيث يتعذر استدعاؤهم، وهذا كله مما يقتضي استعجال نظر القضية قبل أن يصبح نظرها لا جدوى منه، لذا طلب - عليه السلام - من الساقي أن يذكره عند سيده الملك[1] حتى إذا ما خرج من السجن بعد تبرئة ساحته أمام الملك وأمام الملأ من قومه، فإذا ما دعاهم بعد ذلك إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة ما سواه، كان حريّا به أن يستمع له، وأن يستجاب له، وأن يتّبع،...

وقوله - عليه السلام - «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» لا يناقض التوكل، وليس فيه دليل على أن يوسف أغفل الدعاء إلى الله تعالى، وقد سبق توضيح ذلك وتقريره وترجيحه، ولقد

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٠٢-٣٠٣.



وقع تأويل رؤيا الفتيين كما أولهما يوسف - عليه السلام - فصُلب الخباز وأكلت الطير من رأسه لثبوت إدانته، وبرّئت ساحة الساقي من تهمة الاشتراك في مؤامرة قتل الملك بالسم، فنجا وعاد كما كان قبل اتهامه وسجنه، خادما عند الملك ومسئولا عن شرابه...

وكان من المنتظر أن يبادر الساقي بإخبار الملك عن يوسف - عليه السلام -... يوسف الذي يستحق أن يجازي بأتم الإحسان، لكن الله سبحانه وتعالى قدّر غير ذلك ليتم أمره وقضاؤه، فكان حال الساقي كما قال الله تعالى:

«فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ»

الضميران في هذه الجملة راجعان إلى الساقي وهو الناجي، لا إلى يوسف - عليه السلام - وهو الصواب، وقد سبق تحقيق ذلك، والمعنى، فأنسى الشيطان الناجي أن يذكر أمر يوسف لربه وسيده الملك، على حد قوله تعالى: «وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ»(١)(٢) وترتّب على ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم بعد هذا مباشرة فقال:

«فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ»

والراجح أن البضع من ثلاث إلى تسع، وأكثر ما يطلق على السبع، وعليه الأكثرون في مدة سجن يوسف من أولها إلى آخرها، وما قالوه من أن السبع كانت بعد وصيته للساقي وأنه لبث قبلها خمس سنين فلا دليل عليه، وقد صحح البعض أن سنتان من السبع كانت مدة لبثه في السجن بعد قول يوسف - عليه السلام - للناجي: «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ» **وقد سبق تقرير ذلك**(٣)

الحكمة من لبث يوسف في السجن بعد خروج الساقي منه:

قال الإمام أبو حيان: أراد الله تعالى إجزال أجر يوسف - عليه السلام - بطول مقامه في السجن(٤)

---

(١) الكهف/ ٦٣. (٢) تفسير المنار/ ١٢ / ٣١٣.

(٣) انظر: روح المعاني/ ٦ / ٤٣٧، وتفسير المنار/ ١٢ / ٣١٥.

(٤) تفسير البحر/ ٥ / ٣١٠.



وقال الإمام ابن تيمية: ولُبْثُ يوسف في السجن كان كرامة من الله تعالى في حق يوسف - عليه السلام - ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال، ولهذا قال - أواخر القصة - «أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»(١)، ولو لم يصبر ويتق، وأطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس(٢)

المحنة في سبيل الله تعالى وآثارها الحميدة:

وبالرغم من طول المحنة وقسوتها، وبقدْر ما يدخل على النفس منها من الهموم والآلام، وبرغم ما قد يتعرض له المؤمن في محنته من الفتن، فإن المخرج منها حاصل لا محالة، وإن الفرج يعقبها ولاشك، ونحن البشر قد نعجز أن نتصوّر لها حلاّ، أو نتخيل لها انفراجا، حتى يبلغ المرء حد اليأس، وعندئذ يأتي الفرج من عند الله تعالى، فيتذوق حلاوته المؤمنون، وعندما يترتب الفرج على سبب واهٍ لا يخطر بالبال، يستشعر المؤمن عظمة الله تعالى وقدرته جل شأنه على تفريج الكرب(٣)

مضمون الآية الكريمة:

لما قضي يوسف - عليه السلام - حاجته من الفتيين، بدعوتهما وأهل السجن إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده وترك عبادة كل ما سواه، ثم قضى حاجة الفتيين بتأويل رؤياهما، اتجه - عليه السلام - خفية إلى الساقي وهو الذي ظن، أي تيقن أنه ناج منهما، وقال له: اذكرني عند ربك، أي سيدك الملك، ولم يكن قصد يوسف - عليه السلام - قوله هذا، إلا إرادة استعجال التحقيق في قضيته، ليعلم الجميع أنه بريء من كل تهمة، حتى إذا ما باشر رسالته في الدعوة إلى الله تعالى بينْهم، كان حريّاً أن يسمع وأن يستجاب له، ولم يكن قصده أبداً استعجال الخروج من السجن،

---

(١) يوسف/ ٩٠.

(٢) التفسير الكبير (ابن تيمية) ٥/ ٥٤.

(٣) نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٣٤٣.



ولا الوصـول إلى أي لون من ألوان المنفعـة الدنيـوية لدى الملك، لكن إرادة الله تعـالى وحكمته لم تشأ ذلك، فأنسى الشيطان عدو الإنسان المبين، وعدو عباد الله الصالحين، أنسى الناجي أمر يوسف فلم يذكره للملك، وترتب على ذلك أن مكث يوسف في السجن مدة أخرى لحكمة أرادها العليم الحكيم سبحانه.

فصول مأساة يوسف - عليه السلام - السابقة:

١ - إلقاؤه في الجب.

٢ - نقل السيارة له من مكان إلى آخر.

٣ - بيعه لعزيز مصر كرقيق.

٤ - اتهامه زوراً بالفحشاء.

٥ - محنته بالنسوة المصريات.

٦ - سجنه ظلماً.

٧ - نسيان صاحبه في السجن (الساقي) له، وقد تشفّع به أن يذكره للملك.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل هو قَرِينُه، فالتوكل يكون عند الأخذ بالأسباب لا عند تركها.

٢ - الاعتقاد الجازم بأن الأسباب لا تعمل بنفسها، إنما تعمل بإرادة الله تعالى وحده.

٣ - من وقع في مكروه أو شدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار عن حاله، وهذالا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض.

٤ - مهما كان الإنسان حريصاً على تحصيل الخير لنفسه، فإنه لا يقع له منه إلا ما قدره الله له وفي الزمن الذي يشاؤه الله تعالى.

٥ - جواز توسل الإنسان إلى الله تعالى بإيمانه وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى، وهذا جائز صحيح بالدليل النقلي وباتفاق العلماء.



٦ - جواز توسل الإنسان إلى الله تعالى بدعاء إنسان آخر وشفاعته، بأن يطلب منه الدعاء إلى الله تعالى، وهذا أيضاً جائز صحيح بالدليل النقلي وباتفاق العلماء، ومن ذلك قول الرسول - ﷺ - لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لمَّا ذهب ليعتمر «أشركنا يا أخي في دعائك» وفي رواية «لا تنسانا يا أخي من دعواتك».

٧ - إن كان المتوسل إليه إنسان فلا مانع من أن يتوسل إليه بإنسان آخر، وهذا من باب الشفاعة، ومن طريق قوله ﷺ: «أشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

٨ - النسيان لا يترتب عليه عقاب، لأنه لا قدرة للمرء على منعه.



(الفصل الخامس)

(من الباب الثاني)

رؤيا الملك وتأويل يوسف - عليه السلام - لها: وجعله على خزائن الأرض

من الآية رقم (٤٣)

إلى الآية رقم (٥٧)



رفع المساهم

آيات الفصل الخامس

(من الباب الثاني)

قال الله تعالى:

وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات
خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿٤٣﴾
قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴿٤٤﴾ وقال الذي نجا منهما وادكر
بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴿٤٥﴾ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع
بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي
أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴿٤٦﴾ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في
سنبله إلا قليلا مما تأكلون ﴿٤٧﴾ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا
قليلا مما تحصنون ﴿٤٨﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿٤٩﴾ وقال
الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي
قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴿٥٠﴾ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه
قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا
راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿٥١﴾ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا
يهدي كيد الخائنين ﴿٥٢﴾ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن
ربي غفور رحيم ﴿٥٣﴾ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا
مكين أمين ﴿٥٤﴾ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴿٥٥﴾ وكذلك مكنا
ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر
المحسنين ﴿٥٦﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿٥٧﴾

«الآية الثالثة والأربعون» (٤٣)

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثانياً - أوْجُه القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

قوله تعال: «وقال المَلِك» الملك: هو الله تعالى وتقدّس، ملك الملوك، له الملك وحده، وهو مالك يوم الدين، وهو مليك الخلق، أي ربهم ومالكهم، وفي التنزيل: «مَالِكِ يَومِ الدّين»(١)، (٢)

والله جل جلاله هو المَلِك المطلق، والمُلْك الحقٌ الدائم لله، فلذلك قال: «لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمد»(٣)، وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤتِي المُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاء»(٤).

والمُلْك: ضبْط الشيء المتصرَّف فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجنس للمُلْك، فكل مُلْكٍ مِلْك، وليس كلّ مِلْكٍ مُلكاً، قال تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ»(٥) وقال: «وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا»(٦)

والمُلْك: ما يُمْلَكُ ويُتَصرَّف فيه، يقال: ملك الشيء ملكا: حازه وانفرد بالتصرف فيه، فهو مالك، (ح) مُلَّكٌ ومُلاَّك، والمَلِكُ - من البشر - هو المتَصرّف بالأمر والنَّهي

(١) الفاتحة / ٤. (٢) اللسان / ١٠ / ٤٩١.
(٣) التغابن / ١. (٤) آل عمران / ٢٦.
(٥) آل عمران / ٢٦. (٦) الفرقان / ٣.



في الجمهور، ولهذا يقال: مَلِكُ النّاس، ولا يقال: مَلِكُ الأشياء[١] وهو صاحب الأمر والسلطة على أمَّةٍ أو قبيلة أو بلاد، (ج) أملاك، ومُلُوك[٢].

قوله تعالى: «بَقَرَاتٍ سِمَانٍ»

بقرات: واحدته بقرة، وتجمع بقرة أيضا على بَقَر، قال الله تعالى: «إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا»[٣] وقال: «بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ»[٤] وقال: «بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين»[٥].

ويقال في جمعه (باقِرْ) كـ(حَامِلْ) و(بَقِير) كـ(حَكِيم) وقيل: بيْقور، وقيل للذَّكر ثَوْرٌ، وذلكَ نحو جمل وناقة ورجل وامرأة، واشْتُقَّ مِن لفْظِه لفْظٌ لِفعْله فقيل: بَقَرَ الأرْضَ، أي: شَقَّ[٦] وقال الأزهري: البقر اسم للجنس وجمعه باقر[٧].

سِمَان: جمع سَمِينة، ويجمع سمينٌ أيْضًا عليه، يقال: رجالٌ سِمَانٌ، كما يُقَال: نساءٌ سِمانٌ، والسِّمَن مصْدَر سَمِنَ يَسْمَنُ فهو سمينٌ، فالمصدرُ والاسمُ جَاءَا على غير قياس، إذ قِيَاسُهُمَا سَمَناً بالفتْح، فهو سمن، نحو فرِحَ فَرَحاً فهو فَرِح[٨].

والسِّمنُ: ضدُّ الهزال، يقال: سمينٌ وَسِمَانٌ، قال تعالى: «أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَان، وأسمنْتُهُ وَسَمَّنْتُهُ: جعلتُه سمينا، قال: «لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوع»[٩].

قال سيبويه: ولم يقولوا: سُمَنَاء، استغنَوْا عنه بِسِمَان[١٠].

قوله تعالى: «سَبْعٌ عِجَافٌ» (عجاف) من عَجُفَ يَعْجُفُ، على وزن عَظُمَ يَعْظُمُ،

---

(١) انظر: المفردات (كتاب الميم) / ٤٧٢، والبحر المحيط / ١٢٣٢.

(٢) المعجم الوسيط / ١ / ٨٨٦. (٣) البقرة / ٧٠.

(٤) البقرة / ٦٨. (٥) البقرة / ٦٩.

(٦) المفردات (كتاب الباء) / ٥٦.

(٧) تفسير القرطبي / ١ / ٤٤٦.

(٨) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٤٩٩.

(٩) المفردات (كتاب السين) / ٢٤٢-٢٤٣.

(١٠) اللسان / ١٣ / ٢١٩.



وروي عَجِفَ يَعْجَفُ على وزن حَمِدَ يَحْمَدُ[١] وهي - عجاف - جمع أعْجَفْ وعجْفاء، والعجف: الهزال الذي ليس بعده، ومنه قول الشاعر:

ورجال مكة مسنتون عجاف[٢]

والسبب في وقوع (عجاف) جَمْعَالِ (عجفاء) على غير قياس، لأن أفْعَل فعلاء لا تجمع على فعال، لأنهم بنوه على (سمان) والعرب قد تبنى الشيء على ضده، كما قالوا: عدوَّه - بالهاء - بناء على صدّيقة[٣] ومنهم من قال بأن القياس في جمع (عجفاء): عجف، لكنه صيغ هنا بوزن فِعَال، - عجاف - لأجل المزاوجة لُمقَارِنه، وهو (سمان) كما قال الشاعر:

هَتَّاكُ أخْبِيَةٍ ولاَّجُ أبْوِيَةٍ، والقياس أبواب، لكنه حمله على أخْبِيَة[٤] ومخالفة القياس للحوار كثير، فقد قرئ «وَقَالَتُ اخرج عليهنّ[٥] بضم التاء في (قالت) لمجاورتها لضمّ الراء في (اخرُج)[٦].

وقوله: «يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ»، هي الهزْلي التي لا لحم عليها ولا شحم، ضُربت مثلا لسبع سنين لا قَطْرَ فيها ولا خِصْب، وفي حديث أم معبد: يسوق أعْنُزاً عِجَافاً، جمع عَجْفاء، وهي المهزولة من الغنم وغيرها[٧].

وقوله: «وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ»: جمع سُنْبُلَة، كَقُنْفُذَة، وهي ما يخرجه الزرع، كالقمح والشعير فيكون فيه الحَبّ[٨] الذي انعقد[٩].

قوله: «خُضْر»

---

(١) تفسير القرطبي / ٩ / ١٩٩.

(٢) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٠٨.

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٢٨٠.

(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٠.

(٥) يوسف / ٣١.

(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١١٧.

(٧) اللسان / ٩ / ٢٣٤.

(٨) تفسير المنار / ١٢ / ٣١٧.

(٩) التفسير المنير / ١٢ / ٢٧٤.



خَضِرَ: يُقَال: اخْضَرَّ الشَّيْءُ اخْضِرَاراً، واخْضَوْضَرَ، وَخَضَّرْتُهُ أنا، وَكُلُّ غَضّ خَضِر(١).

قال تعالي: «فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً»(٢) وقال: «ثِيَاباً خُضْراً»(٣) وخَضِرَة، جمع أخضر، والخُضْرَةُ: أحَدُ الأَلْوَان بيْنَ البَيَاضِ والسواد، وهي إلى السواد أقْرَب(٤) والمرادُ بقوله «خُضْر» أنَّه قد انْعَقَدَ حَبُّها(٥)، واشْتَدَّ فَهِيَ خَضِرَةٌ نَاضِرَةٌ(٦).

قوله: يَابِسات» يَبِس: يُقَال: يَبِسَ الشّيْءُ يَيْبَسُ، واليَبْسُ يَابِسُ النَّبَات، وَهو ما كَانَ فيه رطوبة فذَهَبَتْ، والْيَبْسُ، المكانُ يكونُ فيه ماءٌ فيذْهب، قال تعالى: «فَاضْرِبْ لهُم طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً» والأَيْبَسَان: مَالاَ لَحْم عليه من السَّاقَيْنِ إلى الكَعْبين(٧) ومعنى (يَابِسَات) أيْ بَلَغَتْ أوانَ الحصْدِ ولَيْس فِيهَا حَبٌّ، وَهي كَالحشيش اليابس(٨).

قوله: «يا أَيُّهَا المَلأُ» الملأُ: جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العَيُونَ دواءً ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالا، قال تعالى: «وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمه»(٩) يقال: فلانٌ ملْءُ العيُون، أي: معظَّمٌ عنْدَ من رآه كأنّهُ ملأَ عينَهُ مِنْ رؤيَتِه(١٠) وقوله: (أفتوني) الفتْيَا، والْفَتْوى: الجواب عما يشكل من الأحكام(١١).

ومعنى (أفتوني في رؤياي) هذه، أي عبِّروهَا وَبيِّنُوا حُكْمَهَا وَمَا تؤول إلَيْهِ مِن العَاقبة، والتعْبيرُ عن التّعْبيرِ بالإفْتَاءِ، لتَشْرِيفِهم وتَفْخِيمِ أمْرِ رؤياه(١٢).

وقوله: «تَعْبُرُونَ» عبارة الرؤيا مأخوذة من عَبَرَ النَّهْرَ، وهو تجاوزه من شَطٍّ إلى شَطٍّ، فكَأنَّ عَابِرَ الرؤيا ينْتَهِي إلى آخرِ تأويلها(١٣) وقيل لعابر الرؤيا عابر، لأنَّهُ يتأمَّلُ جَانِبَيِ الرؤْيَا، فيتفكَّرُ في أطرافِهَا، وَينْتَقِلُ مِنْ أحَدِ الطَّرَفَيْنِ إلى الآخر(١٤).

---

(١) اللسان/ ٤/ ٢٢٣. (٢) الحج/ ٦٣. (٣) الكهف/ ٣١.
(٤) المفردات (كتاب الخاء)/ ١٥٠. (٥) فتح القدير/ ٣/ ٣٢.
(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١١٧.
(٧) المفردات (كتاب الياء)/ ٥٥٠.
(٨) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١١٧.
(٩) المؤمنون/ ٣٣. (١٠) المفردات (كتاب الميم)/ ٤٧٣.
(١١) المرجع السابق (باب الفاء)/ ٣٧٣.
(١٢) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٠-٢٨١.
(١٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٠٨.
(١٤) تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٥٠.

رفع المسلم

رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ» قال الملك، فعل وفاعل، وإن واسمها، وجملة (أرى) خبرُها، وسبع بقرات، مفعولٌ به، وسمان صفة لِبَقَرَات، و(يأكلهنَّ سَبع) فعل مضارع ومفعول به وفاعل، و(عجاف) صفة لـ(سبع) وجملة (يأكلهنَّ) في محلٍّ نَصْب مفعول ثان لـ(أرى)، وعَبَّر بالمضارع لاستحْضَار الصورة. وقال الألوسي: والجملة (يأكلُهُنَّ) حال من البَقَرَاتِ أو صفة لها(١).

قوله: «وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ» و(وسبع) عطف على (سبع) الأولى، و(سُنْبُلات) مضافٌ إليْه، و(خُضْر) صفة لـ(سنبلات) و(أخر) عطف على سبْع، وهي صفة معدولة عن وزن (آخر)، و(يابسات) صفة لـ(أخر).

قوله: «يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» و(أفْتُوني) فعْل أمْر مبْني على حذف النون، والواو فاعل، والياء مفعولٌ به. و(في رؤيَاي) متعلِّقَان بـ(أفْتُوني) و(إنْ) شَرْطيّة، و(كنتُم) كان واسمها، وهي في محل جزْمٍ فعْل الشَّرط، وجملة (تَعبُرون) خبر (كنتم) والجواب محذوف دلَّ عليه ما قبْلَه، أي: فأفْتُوني في رُؤيَاي(٢) واللام في (للرُّؤيا) مقوِّيَة لوصُول الفعْل إلى مفعُوله إذَا تقدَّمَ عليْه، فَلَوْ تأخَّرَ لمْ يحسُنْ ذلك، بخِلَاف اسم الفَاعل فإنَّهُ لِضَعْفه قدْ تَقَوَّى بها، فتقول: زيدٌ ضاربٌ لعمرو فَصيحاً، وقد أجَاز الزمخشري فيها - أي اللام - وجُوهاً مُتكَلَّفَة(٣).

وعبّر الرؤيا بالتخفيف عبارة أقوى وأعرف عند أهل اللغة من عَبَّرْتُ بالتَّشْديدِ تعْبيراً، حتّى إنَّ بَعْضَهُم أنْكَرَ التَّشْديد، وَيَرِدُ عليه ما أنْشَدَهُ المبرِّدُ في الكامل لِبعْضِ الأعراب وهو:

رَأيْتُ رؤيَا ثمَّ عَبَرْتُها *** وكُنْتُ للأحلام عَبَّاراً(٤)

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٣٨.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش)/ ٤/ ٥٠٣-٥٠٤.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣١١، وانظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٣.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٤٤٠.



البلاغة: «إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ» استعمل صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية بيْن كلٍّ مِنْ (سِمَان... وَعِجَاف). و(خضْر.. وَيَابِسَات) طباق(١).

فوائد:

١ - أوقع سبحانه وتعالى قوله: «سمان» صفة للمُمَيَّزْ وهو بقرات دون المميِّز وهو سبْع، والفرْق بيْن الأمْرَين وكلاهما جائز في قواعد النحو أنك لو أوقعتها صفة لبقرات، فقد أردت أن تُمَيِّزَ السبع بنوْع مِنَ البقرات وهي السِّمَان منها خاصة، لا بجنْسِهِنَّ، ولو أوْقعتها صفة لِسَبْع فقد أردت أن تَميّزَ السَّبْع بجنس البقرات لا بنَوْع خاص منها، ثم رجَعْتَ فوصفت المميَّز بالجنس بالسَّمَن.

٢ - دلت كلمة (أخَر) على أن السنبلات اليابسات كانت سبعا كالخُضْر دون التصريح بالعدد، ذلك لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخُضْر، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله: «وَأخَر يَابِسَات» بمعنى «وسَبعاً أخر».

٣ - «أخَرَ» صفة معدولة عن وزن آخر(٢).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) التفسير المنير / ١٢ / ٢٧٤.

(٢) اعراب القرآن وبيانه (الدرويش) / ٤ / ٥٠٨.



سادساً - التفسير والبيان:

«رؤيا الملك»

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣)

وجه المناسبة:

ولما بطل هذا السبب الذي أمر به يوسف - عليه السلام -، وهو تذكير الشرابي - الساقي - به، أثار الله سبحانه سببا ينْفذ به ما أراد من رئاسته وقضى به من سجود ما دلت عليه الكواكب فقال:

«وقال الملك إني أرى... الخ»(١) فإنه جل ثناؤه إذا أراد شيئا هَيَّأ له أسبابه(٢) فقد كانت هذه الرؤيا التي رآها الملك مما قدّر الله تعالى أن تكون سببا لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معزَّزاً مكرَّما(٣) وهذا تكريم من الله تعالى لعبده ونبيه يوسف - عليه السلام - فإنه لما أذن له بالخروج من سجنه قيَّض لخروجه الملك نفسه(٤).

زمان يوسف - عليه السلام - وتأويل الرؤى:

رؤيا الملك هذه، هي الرؤيا الثالثة التي تمرّ بنا في هذه السورة الكريمة، بعد رؤيا يوسف - عليه السلام - ثم رؤيا صاحِبَي السجن، وطلب تأويل الرؤى الثلاث في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة جوّ العصر كله في مصر وخارجها(٥) من الاهتمام بالرؤى وما يتعلَّق بها، من حرْصٍ على تعبيرها ووجود معبّرين تختلف قدراتهم على التعبير، ففي أرض كنعان بفلسطين، رآى يوسف - عليه السلام - رؤياه التي أوّلها له

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٤٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي / ١٨ / ١٥٠.

(٣) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٠.

(٤) يوسف بن يعقوب / ٣١٠.

(٥) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٣.



أبوه يعقوب – عليه السلام –، وفي أرض مصر، كانت رؤيا الساقي والخباز، ثم رؤيا الملك هذه، وكأنّ إرادة الله تعالى اقتضت أن يتحدّى – عليه السلام – بقدرته الخارقة على تعبير الرؤى كلّ المعبّرين في عصره، قياسا على جعل الله تعالى معجزة موسى – عليه السلام – من جنس ما تفوّق فيه قوم مصر آنذاك من السحر العظيم، قال الله تعالى: «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ»(١)، وجَعَلَه جل شأنه معجزة عيسى – عليه السلام – من جنس ما برع فيه قومه من الطبّ، قال الله تعالى على لسانه – عليه السلام – «وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ»(٢) كما جعل جل ثناؤه معجزة محمد ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه من الفصاحة والبلاغة، فكان القرآن العظيم معجزته ﷺ – للعرب، وللناس كافة، قال الله تعالى: «فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»(٣).

وكان تعبير الرؤى مما يشتغل به المصريون، وكان الكهنة منهم يعدّونه من علومهم، ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم، وقد وجدت في آثار القبط أوراق من البرْدي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرؤى، فإن استفتاء صاحِبَي السجن يوسف – عليه السلام – في رؤييهما ينبئ بأن ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك آخر هذه الآية الكريمة أهل مَلَئِه تعبير رؤياه ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يُظَنُّ بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو مَلأُ الملك من حضور كهان من شأنهم تعبير الرؤيا(٤).

هل كان تأويل الرؤى هو معجزة يوسف - عليه السلام - فقط؟

والذي يظهر من النص القرآني الكريم في هذه السورة الكريمة أن معجزة تأويل الرؤى من المعجزات التي وهبها الله تعالى يوسف – عليه السلام –، يضاف إليها علمه

---

(١) الشعراء/ ٣٢-٣٣. (٢) آل عمران/ ٤٩.

(٣) البقرة/ ٢٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨١.



بالغيْب الذي علَّمه الله إياه، وإخباره ببعض ما يكون في المستقبل نتيجة تعليم الله له، كما قال في نهاية القصة: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ»[1].

قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلِكُ...» هذا عطف جزء من قصة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف - عليه السلام - من السجن[2] فهو عطْفٌ على سياق صَاحِبَيِ السّجن وما قالاه ثمَّ[3].

من هو الملك؟: جاء لفظ (ملك) في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة، والملك هو الريان بن الوليد، كما ذكره مؤرّخوا العرب، وكما وُجد اسمه منقوشا على بعض الأحجار الأثرية، وهو من العمالقة، فاللام في (المَلِك) للعهد، أي ملك مصر آنذاك، وسماه القرآن الكريم هنا (ملكا) ولم يسمِّه (فرعون) لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكَمَها (الهكسوس) وهم العمالقة، وهم من الكنعانيِّين أو من العرب، ويُعبِّر عنهم ملوكُ الإغريق بملوك الرعاة، أي البدْو، وقد ملكوا مصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - وكان عصرهم فيما بين مدَّة العائلة الثالثة عشر والعائلة الثامنة عشر من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا - صعيد مصر - في مدينة (طيبة) وكان ملْكُهُم في تلك المدّة ضعيفا، لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى (العماليق)، ويقدر المؤرخون أن مَلِك مصر في زمن يوسف - عليه السلام - كان في مدة العائلة السابعة عشر، فالتعبير عن حاكم مصر آنذاك بـ(الملِك) في القرآن الكريم من دقائق إعجاز القرآن العلمي[4] كذلك فإن هذا التعبير معجزة ظاهرة

---

(١) يوسف/ ٩٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٧٩.

(٣) تفسير المنار/ ١٢/ ٣١٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٠.



من المعجزات الكثيرة الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وأن القرآن وحيٌ من عند الله تعالى، وذلك لأن القرآن الكريم عبَّر عن حاكم مصر زمن موسى - عليه السلام - بلقب (فِرْعون) وعبر عنه في زمن يوسف - عليه السلام - بـ(الملك) وذلك لأنه ثبت في تاريخ مصر القديم أن المصْريين كانوا يلقبون (الحاكم) إذا كان منهم بـ(فرعون) ويلقبونه بـ(الملك) إذا كان من غيرهم وسيطر عليهم، ولهذا جاء لفظ (ملك) خمس مرات في هذا السورة تأكيدا لهذه الحقيقة، فمن أين علم محمد - ﷺ - وهو أمِّيٌّ بهذا الفرق الدقيق، والذي لم يطلع عليه المؤرخون إلا أخيراً من كتابات الآثار التي وجد وها نتيجة الحفريات والتنقيب، فظهر أن القرآن الكريم من الله تعالى أنزله على رسوله محمد - ﷺ -(١) فلو كانت المسألة كلاما عن ملوك مصر كلاما عاماً، كان سماهم كلهم فراعنة، لكن جاء «وقَالَ المَلِك إنّي أرَى» لم يقل (فرعون) كما في عهد موسى - عليه السلام - إذاً؛ هذه دلالات في التاريخ قبل أن يكتشفوا حجر رشيد ويحلّ رموزه (شامبليون) إذاً؛ تعرف أن الذي تكلم بهذا القرآن هو الرب العالم بالأشياء على وفق ما تكون الأشياء(٢).

الحكمة من مجئ يوسف - عليه السلام - في عهد (مَلِك) ولم يأت في عهد (فرعون):

ولعل الحكمة - والله أعلم - كما قال بعض العلماء: أن الله تعالى أراد أن يمكن ليوسف في أرض مصر، ولم يكن ذلك ممكنا عند الفراعنة - على حسب العادة - إذ يستحيل عليهم أن يحكّموا غريبا عليهم ويخضعوا لسلطانه، فكانت حكمة الله تعالى أن يكون يوسف في مصر أيام حكم (مَلِك) وهو الوليد بن الريان، وهو من آسيا التي منها يوسف - عليه السلام - وكلاهما من العنصر السامي، ومعلوم أن يوسف أعلن عن آبائه قبل أن يجعله الملك على خزائن الأرض، إضافة إلى أنه يتكلم مثلهم باللغة السّاميّة، وهي قريبة جدا من اللغة العربية.

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١١٦.

(٢) هذا هو الإسلام / ١٥٥-١٥٦.

رفع المسامهم

قوله تعالى: «إني أرى»

ذكر في القرآن الكريم خمس رؤى:

(أحدها) رؤيا إبراهيم - عليه السلام - قال الله تعالى على لسانه: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى»(١).

(ثانيها) رؤيا الساقي «إنّي أرَاني أعصرُ خمْراً» (ثالثها) رؤيا الخباز «إنّي أرَاني أحْمِلُ فَوقَ رَأسي خُبْزاً تأكلُ الطّيْرُ منه» «رابعها) رؤيا الملك هذه «إنّي أرى سَبعَ بَقرَاتٍ سِمَانٍ... الخ» فذكر هذه الرؤى الأربع بلفظ المضارع، وذكر الخامسة فقط وهي رؤيا يوسف - عليه السلام - بلفظ الماضي، «يَا أبَتِ إنّي رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوكَباً وَالشّمْسَ وَالقَمرَ رَأيتُهُم لِي سَاجِدين» فما السِّرُّ في ذلك؟ السِّرُّ أنه ثبت في اللغة العربية أن الماضي يقال لشيء وقع مرَّة ومَضَى، ولكن المضارع إذا أخْبِرَ به عن الماضي يفيد أنه وَقَع هذا الشيء واستَمَرَّ وقوعه مرَاراً، وذلك لأن المضارع وُضِعَ للحال والاستقبال، فإذا نقل إلى الماضي وأخبر به عنه فلإفادة الاستمرار فيه، فلعل أن يوسف - عليه السلام - رآى ما رأى مرَّةً واحدة وقصَّها على أبيه وانتهى، ولكن الباقين رأوا ما رأوا وفي ليَالٍ عديدة، فلهذا عبَّر عن رؤياهم بالمضارع ليفيد أنه استمر رؤيتهم لرؤياهم في الماضي(٢) قال الإمام برهان الدين: وقد عبّر بالمضارع (إني أرى) حكاية للحال لشدّة ما هاله ذلك(٣).

«وَقَالَ المَلِكُ إنّي أرَى» ولم يذكر أنه رآى في منامه ولا في غيره؛ لتعارف العرب بيْنَها في كلامها إذا قال القائل منهم: أرى أني أفعل كذا وكذا؛ أنه خبر عن رؤيته ذلك في منامه وإن لم يذكر النّوم، وأخرج الخبر جل ثناؤه على ما قد جرى به استعمال العرب ذلك فيما بينهم، قال أبو حيان: و(رأى) أي في منامه كما دل على ذلك قوله: «أفتوني في رؤياي»(٤).

---

(١) الصافات/ ١٠٢.
(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١١٦-١١٧.
(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٤٦.
(٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٠.



عن السُّدي قال: إن الله أرى الملك في منامه رؤيا هالته - أرعَبتْه - فرآى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خُضْر وأخر يابسات، فجمع السحرة والكهنة والحزاة - العالمين بالتعبير - والقَّافّة فقصَّها عليهم فقالوا: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالِمين، وعن ابن اسحاق قال: ثم إن الملك الريان بن الوليد رآى رؤياه التي رآى، فَهَالَتْه، وعرف أنها رؤيا واقعة، ولم يَدْرِ ما تأويلها، فقال للملإ حوله من أهل مَمْلَكَتِه (إنّي أرَى سبعَ بَقَرَاتٍ سمَانٍ... الآية - إلى قوله (بعالمين)[1].

هل رؤيا الملك واحدة أو رؤيَيْن؟:

الظاهر أن الملك رآى رؤيَيْن، واحدة بعد الأخرى، فرآى أولا الرؤيا الخاصّة بالبقرات السّمان والعجاف، ثم استيقظ من منامه، ثم عاد إلى رقاده فرآى الرؤيا الخاصة بالسنبلات الخضر والسنبلات اليابسات[2] قال الإمام القاسمي: (وسبع سنبلات) أي: وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات... الخ[3]، وسئل بعض العلماء: هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مراد واحد يتكرران في ليلة واحدة؟

فأجاب بأن هذا من الممكن، بل من المرجّح، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله، فإذا كان الشاغل قوياً تكرّر حدوثه، بل إذا تذكّرْنا حِلْمَيْ مليك مصر، وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة، قلنا إنه واقع ثابت[4].

«نصّ الرؤيا»:

«إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ»

قوله: (أرى) أي رأيت، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، وقوله: (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة، ككرام في جمع كريم وكريمة، يقال: رجال كرام

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: تاريخ الأنبياء (عبدالوهاب النجار)/ ١٤٠.

(٣) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٦٨.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٨٦٤.



ونسوة كرام (يأكُلُهنّ) أي أكلهن، والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا، والجملة حال من البقرات أو صفة لها، (سبع عجاف) أي سبع بقرات عجاف، وهي جمع عجفاء، والقياس عجف، لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال، ولكن عُدِل به عن القياس حمْلا لأحَد النّقيضيْن على الآخر، وإنما لم يقل (سَبْعُ عِجَافٍ) بالإضافة، لأن التمييز موضوع لبيان الجنس، والصفة ليست بصالحة لذلك، فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ، وأما قولك ثلاثة فرسان، وخمسة ركبان، فلجَرَيَانِ الفارس والراكب مجري الأسماء، روي أنه رآى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان، (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حَبُّها، (وأخَرُ يابسات) أي وسبعا أخر يابسات قد أدركت وَالْتَوَتْ على الخُضَر حتى غلبتها، على ما روي، ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات(١).

أثر الرؤيا على الملك:

الثّابتُ أنَّه في الأحداثِ العظيمة، وَبيْن يدي الهزَّاتِ العنيفة التي تعْرضُ للناس وتؤدي إلى تحوّل أحْوَالهم وتغْيير مَسيرة حياتهم، في هذه الأحوال تكثُر الرؤى والأحلام، وتطرق الناس أحاسيس شتّى تنبئ عَنْ أن شيئاً عظيما في طريقه إلى الوقوع، إن في الإنسان حاسَّة خفيَّةً كثيراً ما تسْبقُ الحواس الظاهرة في لقائها للأحدَاث المقْبلة قبْلَ أنْ تَقعَ في محيط المدْرَكَاتِ الحسِّيّة، وهذه ظاهرة واضحة عنْد كثير من الناس تخْتلف بيْنَهُم قُوّة وضَعْفاً، وحلم الملك هذا ليس إلا إرْهاصا بالأحْدَاث التي تَسْتَقْبلها البلاد، وَيتأثر بها الناس، وإذا كان الملك هو القائم على أمر البلاد والعباد، فإن ما يطرقه من تلك الأحداث المقبلة أكثر مما يطرق غيره من الناس(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٠.

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٤٨.

رفع المسيّهما

ولقد كان أثر الرؤيا على الملك عظيما، حتى إنه لما قام من نومه مذعوراً بسببها لم يكن له هم إلا معرفة تأويلها فقَد توقع من خلالها أن أمرا خطيراً سيحل بالبلاد، وأن همّاً لازماً سيصيب الناس جميعا[1] فقد شاهد في الرؤيا أن الناقص الضعيف استولى على القويّ، فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيّد، وأنه مُنْذِرٌ بنوْع من أنواع الشرّ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه، والشيْء إذاصا معلوما من وجه وبقي مجهولا من وجه آخر، عظُم تشوّق الناس إلى تكْميل تلك المعرفة، وقويت الرغبة في إتمام الناقص، لا سيّما إذا كان الإنسان عظيم الشأن، واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالا على الشر من بعض الوجوه، فبهذا الطريق قوّى الله داعيَة ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا[2].

الملك يجمع الملأ من قومه ويقص عليهم رؤييه:

«**يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**» «يا أيها الملأ» الملأ: جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رِوَاءً ومنْظراً، والنفوس بهاءً وجلالا، قال تعالى: «ألم ترَ إلى الملإِ من بني إسرائيل - وقال الملأ من قومه - إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك - قالت يا أيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيّ كتاب كريم» وغير ذلك من الآيات، يقال: فلان ملء العيون، أي معظم عند من رآه كأنه مَلأَ عينه من رؤيته[3].

والخطاب لأشراف قومه من رجال البلاط ومن العلماء أصحاب المناصب، وقيل: هم السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا، وحال الملك يقتضي وجود هؤلاء وهؤلاء لشدَّة اهتمامه بتأويل رؤياه.

«أفتوني في رؤياي» هذه، أي عبّروها وبينوا حكمها وما تؤول إليه من العاقبة، والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه[4].

---

(١) انظر: نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٣٤٣.
(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥١.
(٣) المفردات (كتاب الميم)/ ٤٧٣.
(٤) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٠-٢٨١.



«إن كنتم للرؤيا تعبرون» أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفّهة إلى أخرى، فاللام فيها للبيان والتقوية[1] وأراد بقوله هذا «إن كنتم للرؤيا تعبرون» ألا يخرجوا بالجواب عن القصد ولا يبعدوا به[2] فمنعهم من الكلام عن الرؤيا بغير علم[3] ولا يخفى ما في قوله «إن كنتم للرؤيا تعبرون» من الإثارة والتَّهييج لهم ليبذلوا غاية الوسع في التأويل.

هل كان الملك يتوقع من ملئه تأويل رؤياه؟:

ذهب أكثر أهل العلم إلا أن الملك كان يتوقع من ملئه تأويل رؤياه، فهم أشراف القوم وعلماؤهم، فإذا لم يكن لديهم تعبير لها، فلن يكون هناك من يعبرها[4] وقد حدث ذلك فعلا، فلم يستطع أحد بعد هذا الملإ تعبيرها، وذهب بعض العلماء أن قوله «إن كنتم للرؤيا تعبرون» يفهم منه أن الملك يشُك في مقدرتهم على التعبير وإدراك المقصود من هذه الرؤيا، والقول الأول هو الأظهر وإلا كان جمع الملإ والإفصاح عن الرؤيا أمامهم وطلب تعبيرها عبث، وهذا لا يليق بشخصية الملك ومكانته، كما لا يتفق والحال التي كان عليها بسبب الرؤيا وشدة اهتمامه بمعرفة ما تؤول إليه.

---

(١) تفسير المنار/ ٢/ ٣١٧.

(٢) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٣.

(٣) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٤٧.

(٤) انظر: نظرات في أحسن القصص/ ١/ ٣٤٤.

مضمون الآية الكريمة:

إن الله تعالى إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه، فلقد رآى الملك رؤيا عجيبة أهمته وشغلته، وشاء الله تعالى ألا يؤولها له من بعد إلا يوسف - عليه السلام -، فكانت هذه الرؤيا سببا لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معزّزاً مكرماً، وجمع الملك العلماء والحكماء والكهان ومعهم كبار رجالات الدولة، وقال لهم: إني رأيت في المنام مراراً سبع بقرات سمان، أي سمينات، فجاءت سبع بقرات هزيلات فأكلن تلك السمينات وبلعْنها بلعاً، ورأيت سبع سنبلات خضر اشتدَّ حبّها يغشاها سبع سنبلات يابسات لا حَبَّ فيها، فسترت اليابسات الخضر، يا أيها الجمع الحشود من العلماء والحكماء والكهان أفتوني في رؤياي هذه وأعلموني بمعناها وما تدل عليه فيكون مآلا لها، إن كنتم للرؤيا تعبرون، أي إن كنتم تعلمون علم التعبير للرؤيا.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تأييد الله تعالى لرسله بالأسباب الظاهرة والباطنة.

٢ - إذا أراد الله تعالى شيئاً هيَّأ أسبابه وأزال عوائقه، وسبحان مَنْ جَعَلَ لكل شيء سببا.

٣ - كانت رؤيا الملك سبَباً عظيماً لخلاص يوسف من السجن وتبوأه أخيراً المكان المحمود وعلى مصر كلها.

٤ - الرؤيا الصادقة تكون للمؤمن، وتكون للكافر.

٥ - الاتجاه بطلب تأويل الرؤيا إلى من يُظَن أنه عالم بتعبيرها، دفعاً لما يترتب على التأويل الفاسد من شرٍّ.

٦ - استدعاء أهل الذكر والخبرة في الأمور التي تهمّ الناس، لاسْتفْتَائهم فيما يجب أن يتبع من خطوات لمواجهتها.

٧ - مكانة العلماء وأهمية العلم في كل عصر من العصور.

٨ - حاجة الملوك إلى العلماء.



«الآية الرابعة والأربعون»

أولاً - النّصّ القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

ثانياً - أوْجُه القرءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله: «أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ»

الضّغث: قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان، وجمعه أضغاث، وبه شُبِّهَت الأحلام المختلطة التي لا يتبيّن حقائقها[١]

وقال أبو حنيفة: الضّغث: كلُّ مَا مَلأَ الكفّ من النبات، وفي التنزيل العزيز: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ»[٢] يقال: إنه كان حُزْمة من أسَلٍ ضرب بها امرأته فبرّت يمينه، وقال الفراء: الضّغث: ما جمعته من شيء مثل: حزمة الرطبة، وما قام على ساق واستطال ثم جمعته فهو ضغث، وقال أبو الهيثم: كل مجموع مقْبُوضٍ عليه بجُمْع الكفِّ فهو ضغث، والفعل: ضَغَثَ[٣] وفي الحديث: أنه أُتِيَ بمريض وجَب عليه حدٌّ فَفُعِل به ذلك[٤] وقال ابن مقبل:

خُودٌ كأن فِرَاشها وضِعَتْ به *** أضغاث ريحان غداة شمال[٥]

والحِلْم: الرؤيا، والجمع أحلام، يقال: حلم يحلُم إذا رآى في المنام، والرؤيا والحلم: عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غَلُبَت الرؤيا على ما يراه في النوم من الخير والشيء الحسن، وغَلُب الحلمُ على ما يراه من الشّر والقبيح، ومنه قوله: «أضغاث

---

(١) المفردات (كتاب الضاد) / ٢٩٧.

(٢) ص / ٤٤.

(٣) اللسان / ٢ / ١٦٤.

(٤) رواه أحمد / ٥ / ٢٢٢.

(٥) والخود: الفتاة الشابة الحسنة الخلق، والشمال: الريح الباردة.



أحلام» وتُضَمُّ لام (الحلم) وتُسْكن (حُلْم)[1] فمعنى «أضغاث أحلام» أي: تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسْوَسة شيطان[2].

قوله: «بتأويل»: التأويل: عبارة الرؤيا والتأويل، والمعنى، والتفسير، واحد، قاله أبو العباس أحمد بن يحيى[3].

قوله: «بعالمين»: العلم نقيض الجهل، تقول: عَلِمْتُ الشيءَ أعلمُه علْما: عرفته والمعنى: ما نحن بتأويل أحلامك هذه بعالمين.

رابعاً - الإعراب:

قوله: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» قالوا فعل وفاعل، وأضغاث أحلام، خبر لمبتدأ محذوف، أي هذه أضغاث أحلام وتخاليط أوهام، والجملة مقول القول، (وما)، الواو عاطفة، و(ما) نافية حجازية بمعنى ليس ونحن، اسمها، وبتأويل متعلقان بعالمين، والباء حرف جر زائد، وعالمين، مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس.

البلاغة:

(أ) «المبالغة» فقد جمعوا لفظ الضّغث فقالوا «أضغاث أحلام» وجعلوه خبراً للرؤيا مع أنها واحدة للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان، أولا نطوائه على أشياء متباينة، ولفظ الجمع كما يدل على كثرة الذوات يدل أيضا على المبالغة في الاتّصاف كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، لمن لا يملك إلا فرسا واحداً وعمامة فَرْدَةً تَزَيُّداً في الوصف[4].

---

(١) انظر: اللسان / ١٢ / ١٤٥.
(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٤.
(٣) اللسان / ١١ / ٣٣.
(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٥٠٤.



(ب) «التشبيه بالاستعارة» حيث شبه اختلاط الأحلام المشتملة على المحبوب والمكروه والسَّارِّ والحزن باختلاط الحشيش المجموع من أصنافٍ متنوعة[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات:

هل قول الملأ للملك: «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» نفي للعلم بتأويل الأضغاث منها خاصة دون المنام الصحيح، أو نفي للعلم بالرؤيا مطلقا؟

والإمام الزمخشري يتناول الاتجاهين السابقين فيقول:

إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بِنَحَارير - أي بِمُتْقِنين -[2].

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنهم أرادوا نفي العلم بتأويل الأضغاث دون الرؤيا الصحيحة، وهذه أقوال بعضهم:

قال الإمام ابن عطية، في تفسيره للآية الكريمة «قالوا أضغاث أحلام...»: والمعنى: أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النّوم، ولسْنا من أهل العلم بذلك، أي بما هو مختلط ورديء، فإنما نَفَوْا عن أنفسهم عبْر الأحلام لا عَبر الرؤيا على الإطلاق، ثم قال: والأحلام وحدثان[3] النفس ملغاة، والرؤيا هي التي تُعَبّر ويُلْتمس علمها[4].

وقال الإمام الفخر الرازي: واعلم أن القوم ما نَفَوْا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين:

منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة، فيسهل الانتقال من الأمور المتخيّلة إلى الحقائق العقلية الروحانية.

---

(1) التفسير المنير / 12 / 274.

(2) تفسير الكشاف / 2 / 324.

(3) بكسر الحاء وضمّها - ج: حديث.

(4) تفسير ابن عطية / 9 / 310.



ومنه ما تكون الرؤيا فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم، وهو المسمى بالأضغاث، والقوم قالوا: إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث، ثم أخبروا أنهم غير عالمين بهذا القسم(١).

وقال الزجاج: نفَوْا عن أنفسهم علم مالا تأويل له، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل(٢).

وقال الإمام البضاوي: يريدون بالأحلام، المنامات الباطلة خاصة، أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة(٣) وقال الإمام الألوسي بنَصّ القول السابق(٤) وكذلك قال الدكتور وهبه الزحيلي(٥).

هذا، وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيراً وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل بالَه(٦) وعلى هذا القول فَعندهم علم الرؤيا لكنهم لم يبذلوه، وقيل: إن الله تعالى صرفهم عن هذه الرؤيا لطفا بيوسف - عليه السلام - ليكون تأويله لها سببا في خلاصه(٧) وعلى هذا القول أيضا فعندهم علم بالرؤيا لكن الله تعالى صرفهم عنه بحكمته.

أما الاتجاه الثاني: وهو الذي يرى أن قولهم «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» نَفْيٌ للعلم بالرؤيا مطلقا، فقد ذهب إليه بعض الأئمة، وهذه بعض أقوالهم:

قال الإمام أبو حيان: والظاهر أنهم نفَوا عن أنفسهم العلم بتأويل الأحلام، أي لَسْنا مِنْ أهل تعبير الرؤيا(٨) واختار ابن المنير هذا القول وادّعى أيْضاً أنّهُ الظاهر، وأن قول الملك لهم أوّلا: (إن كُنتُم للرُؤيا تَعبُرون) دليل على أنهم لم يكونُوا في عِلْمِه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشّكِّ فجاء اعترافُهم بالقصور مطابقاً لشَكِّ الملك الذي أخرجه مخْرج استفهامهم عن كونهم عالمين، وأن قولَ الفتى «أنا أنبِّئُكم بتأويله» إلى قوله:

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥١.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٠.

(٣) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٦.

(٤) روح المعاني/ ٦/ ٢٤٢.

(٥) التفسير المنير/ ١٢/ ٢٧٤.

(٦) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٠.

(٧) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٧٣.

(٨) تفسير البحر/ ٥/ ٣١١.



«لعَلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» دليل على ذلك أيضاً[1] وعلى هذا القول فالمراد بـ«الأضغاث» الجماعات من الرؤيا التي منْها صحيحة ومِنْهَا بَاطلة، ولهذا قال السَّاقي: «أنا أنبئُكم بتأويله» فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل، لا أنَّهُم ادَّعَوْا ألاّ تأويل لَهَا[2].

والإمام ابن كثير يؤيد هذا الاتجاه فيقول: «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» أي لو كانَتْ رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها[3] فهو ينفي عنهم تأويل الرؤى مطلقا.

الترجيح:

والظاهر الذي تدل عليه الآية الكريمة هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، من أن الملأ من قوم الملك يريدون من قولهم «أضغاث أحلام» المنامات الباطلة خاصة، أي ليس لها تأويل عندهم، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فإن أعيان العلماء والحكماء والكهان في مصر آنذاك، قد برعوا في تأويل الرؤى، والتي كانت علما معروفا عندهم على أغلب الظن، حيث جعل الله تعالى بحكمته علم تأويل الأحاديث والذي من جملته علم تأويل الرؤى، من معجزات يوسف - عليه السلام - لتكون معجزة التأويل متناسبة مع روح العصر وجَوّه، حتى إذا أعلن الجمع كله عجزهم عن تأويل رؤيا الملك، وقام يوسف - عليه السلام - بتأويلها بما لا قبل لهم به، كان ذلك دليلا على صدقه فيما يدعو إليه، وسببا ظاهرا في علو شأنه عند الملك،...

ومما يرجح الظن بأن علم تأويل الرؤى كان موجودا عندهم في ذلك الوقت، مجئ الفتيين إلى يوسف - عليه السلام - ليؤول لهما رؤياهما، فلو لم يكن تأويل الرؤى معلوما عندهم لما سألوه،...

---

(١) روح المعاني/ ٦/ ٤٤٢.

(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٠.



ثم إن الملك الذي شغله هم هذه الرؤيا عن كل هم، ما كان يعبث حين جمع الملأ من قومه وفيهم أهل العلم والمعرفة والكهانة ليسألهم عن رؤياه وهو يشك في مقدرتهم على ذلك، وإذا شك في أهل العلم والمعرفة فمن الذي بعدهم يمكن له أن يؤول رؤياه، إضافة إلى أن القوم لم يقولوا للملك حين أخبرهم أنه رآى كذا وكذا..: لا نعلم تأويل الرؤى، ولكنهم وصفوا رؤياه بأنها (أضغاث أحلام) أي ليست رؤيا صادقة وإلا كانوا أولوها له، وهذا على حسب قولهم، والله أعلم.

رفع المسامير

سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

وجه المناسبة:

لما أخبر الملك الملأ من قومه برؤياه فكأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل:

«**قالوا أضغاث أحلام**»(١) أي: تخاليطها جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم، ثم استُعِير لما تجمعه القوة المتخيّلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها في المنام، والأحلام جمع حلم، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها، والإضافة بمعنى (مِن) أي: هي أضغاث من أحلام، أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تَؤُول إليها ويعتني بأمرها، وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان، كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، لمن لا يملك إلا فرسا واحداً وَعِمَامة فردة، أو لتضمّنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان، والسبع العجاف، والسنابل السبع الخضر، والأخر اليابسات، فتأمّل حسن موضع الأضغاث مع السنابل، فلله در شأن التنزيل(٢).

وجعل من ذلك قوله تعالى: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ»(٣) فقد روي أن أيوب - عليه السلام - غضب على زوجته لذنب فعلته وأقسم أن يجلدها مائة جلدة، ولما شفاه الله وكانت زوجته مخلصة في خدمته التامة والرحمة به والشفقة عليه والإحسان إليه، ما رآى أن يكافئها على ذلك بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضِغْثا، وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفّى بنَذْرِه(٤).

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ٥٠.

(٢) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٢٨١.

(٣) ص/ ٤٤.

(٤) تيسير العلي القدير/ ٤ / ٣٥.



فقولهم: أضغاث أحلام» معناه: رؤياك هذه أضغاث أحلام، يعنون أنها أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها[1] وفي الحديث: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»[2] والحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق بينهما من الاصطلاحات التي سنّها الشارع للفصل بين الحق والباطل، كأنه كره أن يُسَمّى ما كان من الله وما كان من الشيطان باسم واحد، فجعل الرؤيا، عبارة عن الصالح منها، لما في الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبَصر أو البصيرة، وجعل الحلم، عبارة عما كان من الشيطان، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيّل للحالِم في منامه من قضاء الشهوة مما لا حقيقة له[3] وهذا القول منهم «قالوا أضغاث أحلام» بمثابة المقدمة الأولى للعذر بجهلم، أما المقدمة الثانية لعذرهم فهو قولهم إثر ذلك:

«وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» أي: لا نُعبّر إلا الرؤيا، وأما الأحلام، التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس فإنا لا نعبّرها، فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا[4] وقد جاءوا بضمير الجمع (نحن) ليُعْلَم أنهم مجمعون على رأيهم هذا[5]...

وقد كان ذلك من لطف الله تعالى بيوسف - عليه السلام - فإنه لو عبر رؤيا الملك ابتداء، قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها، لم يكن لها ذلك الموْقع. ولكن لما عَرَضَها عليم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتما لها غاية الاهتمام، فعبّرها يوسف - عليه السلام - وقعت عندهم موقعا عظيما، وهذا نظير إظهار الله تعالى فضل آدم - عليه السلام - على الملائكة الكرام بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله،...

---

(١) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٢٦.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٢ / ٣٧٣) ومسلم (٢٢٦١).

(٣) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٦٨. (٤) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٣١.

(٥) يوسف بن يعقوب / ٣٢١.

رفع المسهم

وكما يظهر الله تعالى فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في يوم القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفّعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى - عليهم السلام - فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدا - ﷺ - فيقول: «أنالها» فيشفع في جميع الخلق، وينال بذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون. فسبحان من خفيت ألطافه، ودقَّت في إيصال البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه(١).

مضمون الآية الكريمة:

قال الملأ إن هذه الرؤيا مشتملة على أمور مختلفة، اخْتَلَط بعضها ببعض، وما نحن بتأويل الأحلام المختلطة بعالمين، بل نحن نعلم تعبير الأحلام المتناسقة والمتناسب بعضها مع بعض، والملاحظ أنّهم في ردهم على الملك، قد جمعوا بين الجهل، والجزم بأن رؤيا الملك أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، فهم لم يقولوا نحن لا نعلم تأويلها فحسب، بل زادوا ما زادوا مما فيه خروج على أخلاق أهل العلم والحكمة، ولقد كان عدم معرفة تأويلهم للرؤيا وتصريحهم بذلك أمام الملك والجميع لطفاً من الله تعالى بيوسف - عليه السلام -.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣١.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الرؤيا نوعان: رؤيا من الرحمن، وحلم من الشيطان.

٢ - كثيراً ما يختلق الجاهل أعْذاراً يسْتُرُ بها جَهْلَهُ.

٣ - الواجب على من لم يعلم شيئاً سئل عنه أن يقول صراحة لا أعلم. وقد قالوا: من قال: لا أعلم فقد أفتى، لأنه فتح الطريق أمام السائل ليسأل غيره.

٤ - العلم يرفع صاحبه إلى أعلى عليين إذا عمل به.

٥ - والجهل يهوي بأهله إلى أسفل سافلين.

٦ - الرؤي في عالم الإنسان من دلالات عظمة الخالق جل وعلا، فعن طريقها يشاهد الإنسان وهو نائم وقد سكنت كل جوارحه عالما واسعاً متَشَعبا لا يُدْركه وهو مستيقظ، فتبارك الله أحسن الخالقين.



«الآية الخامسة والأربعون»

أولاً - النّص الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله: «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» وادَّكَرَ، بالدال غير المعجمة، وهي قراءة أكثر القراء، أي: تذكَّر، وأصله (اذتكَر) أبدلت التاء دالا وأدغمت الذال فيها فصار (ادّكر) وقرأ الحسن (اذّكر) بإبدال التاء ذالا معجمة وإدغام الذال المعجمة فيها. والقراءة الأولى أفصح، وهي قراءة الجمهور.

قوله: «بَعْدَ أمَّة» بضم الهمزة وتشديد الميم، أي طائفة من الزمان ومدّة طويلة، وهي قراءة الأكثرين.

وقرأ الأشهب العقيلي «إمَّة» بكسر الهمزة وتشديد الميم، بعد نعمة، أُنْعِمَ عليه بالنجاة من القَتْل. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والضّحّاك وقتادة وأبو رجاء وشبيل بن عزْرة الضَّبْعي وربيعة بن عمرو «بعد أمَه» بفتح الهمزة والميم مخفّفة وهاء، أي بعد نسْيان، وكذلك قرأ ابن عمر ومجاهد وعكرمة، واختُلفَ عنهم، وقرأ عكرمة وأيضا مجاهد وشبيل بن عزرة «بعد أَمْه» بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة، مصْدر (أمِه) على غير قياس، وهو مثل (الأمَه) وهما لغتان، ومعناهما النسيان، ويقال: آمِهَ يأْمَهُ أَمَهاً إذا نَسِيَ، والقراءة الأولى «بْعد أُمَّة» هي الأفصح، وهي قراءة القراء في أمصار الإسلام.

قوله: «أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ» أي: أخبركم بمن عنده علمه لا من جهتي، و«بتأويله» قرأ الأكثرون، وقرأ الحسن «أنا آتيكم» مضارع أتى من الإتيان، وكذا في الإمام وفي مصحف أُبَيّ، وقال الحسن: كيف ينبّئهم العِلج - الكافر من العجم - والقراءة الأولى أصح، قال النحاس: ومعنى «أنبئكم» صحيح حسن، أي أنا أخبرُكم إذا سألت[1].

---

(١) انظر: الدر المنثور/ ٤/ ٣٩-٤٠، وتفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٢٨-٢٢٩، وتفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٤، وتفسير بن عطية/ ٩/ ٣١٠-٣١١، وتفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠١-٢٠٢، وتفسير البحر/ ٥/ ٣١٣-٣١٤، وروح المعاني/ ٦/ ٤٤٢-٤٤٣.



ثالثاً - اللغة:

قوله: «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا» «نَجا» أصلُ النجاء الانفصَالُ من الشيْءِ، ومنْه نجا فلانٌ من فلان، وَنَجَّيْتُهُ وأنْجيتُه، قال تعالى: وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا»(١).

ومعنى (نجا) هنا، أي: خلص من الهلاك.

«منهما» أي من صاحبي السجن، وهو الساقي(٢)

قوله: «وادَّكر» بالمهملة، أي طلب الذكر - بالمعجمة، وزنه افتعل.

«بَعْدَ أُمَّةٍ» الأُمّة: كل جماعة يجمعهم أمْرٌ مّا، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسْخيراً أو اختياراً، وجمعها (أُمَم)(٣) ويراد بها الطائفة من الزمان «وادَّكر بعد أمة» أي بعد أزمان مجتمعة طويلة، كما يراد بها الرجل الجامع لكل صفات الخير كما في قوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً»(٤) أي قائما مقام جماعة في عبادة الله تعالى.

قوله: «أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ» «نبأ» النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخَبَر في الأصل «نبأ» حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة(٥) وجمعه: أنبَاء ومعنى: «أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ» أي أخبركم إخباراً عظيما بتفسير ما يؤول إليه معنى الحلم.

قوله: «فَأَرْسِلُونِ» الإرسال يقابل الإمسَاك، يقال: أرسل الرسول: بعثه برسالة، ومعنى (فأرسلون) أي فابعثوني إلى من عنده علم التأويل. والمراد به يوسف - عليه السلام -.

---

(١) النمل/ ٥٣.

(٢) المفردات (كتاب النون) / ٤٨٣ .

(٣) نظم الدرر/ ٤ / ٥١.

(٤) النحل/ ١٢٠.

(٥) المفردات (كتاب الألف) / ٢٣.

(٦) المفردات (كتاب النون) / ٤٨١، وانظر: الدر المصون/ ٤ / ٥١.



رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا» الواو عاطفة، (وقَالَ الذي) فعل وفاعل، وجملة (نجا) صلة، و(منْهما) يجوز أن يكون صفة لناج؛ وأن يكون حالا من الذي؛ ولا يكونُ مُتَعَلّقاً بناجٍ؛ لأنه ليس المعْنى عليه[1].

«وَادَّكَرَ» فيه وجهان: أظهرهما أنها جملة حالية، إمّا من المؤصول، وإمّا من عائده وهو فاعل (نجا).

والثاني: أنها عطفٌ على (نجا) فلا محلَّ لها لنسقها على مالا محَلَّ له[2]، و(بعد أمَّة) متعلِّقان بـ(ادّكَرَ).

قوله: «أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ» (أنا) مبتدأ، وجملة (أنبئكم) خبر، والكاف مفعوله، و(بتأويله) مُتعلّقان بـ(أنبئكم)، (فأرسلون) الفاء فاء الفصيحة، وأرسلوني، فعل أمر وفاعل ومفعولٌ به، أي أن شئْتُم تَعبير الرؤيا فأرسلون[3].

خامساً - الموقف المتعارضات: □

---

(١) التّبيان في إعراب القرآن للعُكبري / ٢ / ٧٣٣.

(٢) الدر المصون / ٦ / ٥٠٧.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٥٠٤-٥٠٥.



سادساً - التفسير والبيان:

هنالك... تذكر الفتى الناجي يوسف - عليه السلام -:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان هذا حالا مذكرا للساقي بيوسف - عليه السلام - أخبر سبحانه بأنه ذكره بعد نسيانه فقال عادلا عن الفاء إيذانا بأنه من الملأ:

«**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا**»(١)

أي خلص من الهلاك من صاحبي السجن، وهو الساقي (بنو) الذي قال له يوسف - عليه السلام - «اذكرني عند ربك»....

لقد ثبتت براءة الساقي وخرج من السجن بعد أن أوصاه يوسف - عليه السلام - أن يذكره عند سيده الملك، ولا ننسى أن العلاقة بين يوسف الفتى، والساقي الفتى علاقة مودّة، ليس بسبب الموافقة في السنّ فقط، بل لأن الساقي اعتبر تعبير يوسف لرؤياه بشارة له، وقد كان المأمول ألا ينسى الساقي يوسف بصفة عامة، الذي طوّق جيده بهذا التعبير، فكيف به وقد طلب يوسف منه ذلك؟ وكيف به وهو ساقي الملك يراه باستمرار(٢) حتى إذا سمع ما دار في مجلس الملك، وشهد عجز الجميع عن تأويل رؤياه، وتهرّبهم من التأويل بحجّة أنها أضغاث أحلام، تذكر وصية يوسف - عليه السلام - له حين كان في السجن معه، ووجد الفرصة سانحة ليدل القوم على يوسف ليعلموا مكانته العالية، وليكفّر هو بذلك عن تقصيره في حقه - عليه السلام - إذ نسي ما وصاه به قبل خروجه من السجن، وها هو الآن يتذكر ذلك كما قال تعالى:

«**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**» قوله «وادّكر» أي تذكّر الساقي يوسف - عليه السلام - وما شاهده منه من العلم بتأويل الرؤيا،...

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٥١.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١١٠.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٣١٦-٣١٧.



وقوله: «بعد أمَّة» أي: بعد طائفة من الزمان ومدة طويلة، فهي أمَّةٌ من أزمان مجتمعه، ومنه قوله تعالى: «وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ»(١) وأصل (الأمة) الجماعة من المخلوقات التي تجمعها صفات وعادات واحدة متجانسة، كما قال تعالى: «وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم»(٢).

قال ابن درستويه: والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال - والله أعلم - وادّكر بعد حين أمّة، أو زمن أمة(٣)، وكان تذكره، بعد سنتين، في تلك اللحظات الحرجة التي مرت بالملك، والتي ضاق فيها صدره بمن حوله وما حوله، بعد أن عجز أعيان مملكته عن تأويل رؤياه، زاعمين كذبا أنها أضغاث أحلام لا تأويل لها فبينما ساد الكل صمت حزين، مشاركة للملك فيما أهمّه وغمّه، إذ بالمفاجأة الكبرى تحدث، وإذ بصوت قريب من الملك يخترق هذا الصمت الرهيب ويقول:

«أنا أنبّئكم بتأويلِهِ فأرْسِلون» هكذا ابتدأ الساقي كلامه بضميره (أنا) وجعله مسنداً إليه وخبره فِعْلي لقصد استجلاب تعجّب الملك من أن يكون الساقي ينبئ بتأويل رؤيا عَوِصَت على بلاط علماء الملك، مع إفادة تقوى الحكم، وهو إنباؤه إياهم بتأويلها، لأن تقديم المسند إليه على الخبر الفِعْلي في سياق الإثبات يفيد التَّقَوّى، وإسناد الإنباء إليه مجاز عقلي لأنه سبب الإنباء، ولذلك قال: «فأرسلون»(٤) الذي أشعرنا بأن الذي سيقوم بهذه العملية شخص آخر بعيد عن مكان الملك بعداً مّا، وحينما يقول الساقي: أنا أُنَبئكم بتأويله» فذلك يذكرنا بقوله هو ورفيقه في السجن ليوسف - عليه السلام - «نبئنا بتأويله» وحينما نتبيّن أن خاصة الملك، وذوي الرأي والمشورة، أجمعوا على

---

(١) هود/ ٨. (٢) الأنعام/ ٣٨.

(٣) انظر: الدر المصون/ ٤/ ٥١، وفتح القدير/ ٣/ ٣٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٣.



العجز عن تعبير الرؤيا، بل واعتبارها أضغاث أحلام، ويأتي في هذه اللحظة الحرجة ساق يُعَبِّرُ في لهجة الواثق عن قدرته على تعبير هذه الرؤيا التي عجز عنها الخاصة، وهو الذي لم يشمله أساسا طلب تعبير الرؤيا، فذلك دليل على ثقته البعيدة في كل ما سيقوله يوسف السجين آنذاك، وهي ثقة مستمدّة مما سبق أن أخبره هو وصاحبه، عما سيحدث لكلٍّ مستقبلا، وقد تحقق كله بحذافيره، ونستطيع أن نفهم أن الساقي شعر آنذاك بغمرة الفرح تملأ جوانب نفسه، حيث إنه سيحل ما أشكل على أهل الحل والعقد...

ولا نشك أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه سيقدم للملك يداً بيضاء تؤكد وفاءه السابق الذي خرج بسببه من السجن سابقا، لهذا استعمل في تعبيره ما يدل على إحساسه بالقدرة على عمل مالم يستطع عمله الآخرون، وقد قيّد ذلك الإطلاق قوله: «فأرسلون»(١) وذلك لأن قوله: «أنا أنبئكم بتأويله» معناه: أخبركم بتأويل ذلك الذي خفي أمره بالتلقي ممن عنده علمه لا من تلقاء نفسي، ولهذا عقّبه بقوله «فأرسلون» إلى من عنده علمه، وأراد به يوسف - عليه السلام -(٢).

ولا نشك كذلك في فرحة الملك الغامرة بهذا الخبر السار الذي صدر عن ساقيه، وجاء في وقته المناسب ليرد بحسم على مزاعم أهل العلم والرأي والشورى، الذين قالوا إن الرؤيا غير صحيحة ومشوشة مختلطة ولا تأويل لها «أضغاث أحلام» ومن المؤكد أن قول الساقي عن الرؤيا قد وقع على رؤوسهم وقوع الصاعقة، وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وفضحهم أمام الجميع، وهذا جزاء من يفتي بغير علم ولا دليل، وكان عليهم إذا لم يعلموا تأويلها أن يقولوا: لا نعلم تأويلها، أما أن يدّعوا جهلا واستكباراً أنها أضغاث أحلام، فهذا هو الجهل بعينه، هذا، وأغلب الظن أن الملك المهموم الذي فرح واستبشر خيرا بما قاله الناجي، قد رغب في الاستيثاق من الأمر قبل إرساله، فأخبره

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١١٠-١١١.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٤٣.



الساقي بأنه التقى في السجن بفتى كريم محسن حكيم، يُلْهَمُ تأويل الرؤى وكأن الغيب يكشف عنه، وما أوّل رؤيا لأحد في السجن إلا وجاءت طبق ما أوّل، ويمكن أن يكون قد أخبره كذلك عن تأويله لرؤياه وصاحبه في السجن، وكيف تحقّق تأويله.

لماذا لم يذكر الفتى الناجي اسم يوسف - عليه السلام؟:

لم يذكر الفتى الناجي اسم يوسف – عليه السلام – ثِقَةً بما سَبَق من التّذَكُّر وما لحِقَ به من قوله (يوسف أيها الصديق)[1].

أو لعل الفتى لم يُصَرِّحْ باسم يوسف حِرْصاً على أن يكونَ هو المرسل إليه، فإنهُ لو ذكره فلربما أرسَلُوا غيْرَه[2] وقد كان حريصا أشدّ الحرص على أن يكون هو المرسل إليه، لعل في ذلك يكون عذْراً منه مقبولا عند يوسف وعوضاً عن نسيانه هذه المدة الطويلة فلم يذكره للملك. فأراد أن يفاجئهم بخبر يوسف – عليه السلام – بعد حصول تعبيره ليكون أوْقَع

المراد بالضمائر في قوله: (أنبئكم)، (أرسلون):

جُلّ علمائنا الموقّرين من أهل التفسير يرون أن ضميرَي الجمع في قوله (أنبئكم) و(أرسلون) قد خاطب بها الناجي الملك ولكن بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهل مجلسه، والذي يظهر لنا أن الناجي قد خاطب الملك وحده معظما إياه، وما كان يجوز لمثله أن يتناسا مكانة الملك وسَطْوَتَه وعظمته ويُدْخله مع جموع الحاضرين كواحدٍ منْهم، وأيضاً فإن الملك وحْدَه هو الذي يهمه ويشغله أمر الرؤيا وتأويلها أكثر من كل من حوله، فلا يَحْسُنُ حينئذ إلا أن يكون الخطاب له بالذات،

ومع ما رأيناه يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور: وضمائر جمع المخاطب في (أنبئكم) و(أرسلون) مُخَاطب بها الملك على وجه التعظيم كقوَلْه تعالى: «قال رب ارْجِعُون)[3][4].

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٢.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٤٣. (٣) المؤمنون/ ٩٩.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٣.



المضمون العام للآية الكريمة:

كانت رؤيا الملك التي أهمته وشغلته وعَرْضها على الملأ وعجزهم عن تأويلها سبباً في تذكر الساقي وصية يوسف - عليه السلام - له بقوله (اذكرني عند ربك) فانتهز هذه الفرصة وقال للملك، أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فأرسلون إلى من يعلم تأويلها لأسْأَله عنها فإنه متبحر في هذه الأمور فآتيكم بجوابه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - النسيان طبيعة البشر.

٢ - إن تذكر الخير وفعله بعد نسيان يرجع إلى قضاء الله تعالى وحكمته.

٣ - لقد صرف الله تعالى أعيان الملإ عن تأويل رؤيا الملك لطْفاً ورحمة بعبده يوسف - عليه السلام - لينفتح الباب على مصراعيه بعد ذلك أمام هذا الصَّابر المحتسب المصطفى ليفوز بما أراده الله له.

٤ - جعل الله تعالى لكل شيء من خلقه سبباً وزماناً ومكاناً لا يتعداه.

٥ - عالم عامل واحد أكرم على الله من ألوف مدَّعي العلم وأنصاف العلماء.

٦ - العلماء أغنياء بعلمهم لأنه يصلهم بربهم الغني الحميد، فهم في غني عن الملوك، وما يملكون، أما الملوك فهم فقراء إلى علم العلماء وحكمتهم كي يسيِّروا ممالكهم ويَضْمَنوا لها البقاء.

٧ - على من عنده علم بحلٍّ مشكل أو إزالة معْضِلَة أن يسارع بتقديمه إلى الناس أو يعرّفهم بمن هو أهل لذلك.

٨ - قد يأتي الخير من ضعاف الناس ومن لا يتصور أن يكون منهم ذلك.

٩ - ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وألا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وألا يمتنع من التعليم أولا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم.



«الآية السادسة والأربعون»

أولاً - النّص القرآنيّ الكريم:

قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ثانياً - أوجه القرءات:

ثالثاً - اللغة:

قوله: «الصدّيق» الصديق: أصله صفة مبالغة مشتقة من الصِّدْق، وغُلِّب استعمال وصف الصديق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوى صدقه في الوفاء بعهد الدِّين[١]، والصديق من كَثُرَ منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل يقال لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوّده الصدق، وقيل: لمن صدق بقوله واعتقاده وحقَّقَ صدقَه بفعله، قال تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا»[٢] وقال: «وأمُّه صدّيقةٌ»[٣] وقال: «فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ»[٤] فالصديقون هم قوم دُوَيْنَ الأنبياء في الفضيلة[٥].

قوله: «أفْتنَا» الفُتْيا: تَبْيينُ المشكل من الأحكام، أصله من (الفتى) وهو الشّابّ الحدث الذي شبّ وقوي، فكأنه يُقوِّي ما أشْكل ببيانه فَيَشبُّ ويصير فَتِيّاً قويّا، يقال: أفتاه في المسألة يفتيه إذا أجابه، والاسم: الفتوى، ويقال: أفْتَيْتُ فلانا رؤيا رآها إذا عبّرَها له، ومعنى (أفتنا) أي: أخبرنا في رؤيا من رآى سبع بقرات... الخ[٦].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٤.

(٢) مريم / ٤١. (٣) المائدة / ٧٥. (٤) النساء / ٦٩.

(٥) المفردات (كتاب الصاد) / ٢٧٧.

(٦) فتح القدير / ٣ / ٣٣.



رابعاً - الإعراب:

قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

لا بد من تقدير محذوف، أي فأرسلوه فأتى يوسف في السجن فقال: (يوسف) أي يا يوسف، منادى محذوف منه حرف النداء، و(أيها) منصوب محلاً على الاختصاص لأنه مبني على الضمّ، و(الصديق) بدل منه أو عطف بيان له تابع له على اللفظ، و(أفتنا) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعل مستتر تقديره (أنت) و(نا) مفعول به، وفي سبع جار ومجرور متعلقان بـ(أفتنا) و(بقرات) مضاف إليه، وجملة (يأكلهن سبع عجاف) صفة لـ(بقرات) وما بعده عطف عليه، و(لعل) واسمها وجملة (أرجع) خبرها، و(إلى الناس) متعلقان بـ(أرجع) و(لعلهم يعلمون) مثلها[1].

البلاغة:

الإيجاز: حيث حذف من الكام ذكْر إرساله ومَشْيه ووصوله، إذ لا غرض فيه من القصة، وهذا من بديع الإيجاز[2].

براعة استهلال: في قوله ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ فهو يتضمن الاستعطاف بالثناء للوصول إلى الجواب[3].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٥٠٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٤.

(٣) التفسير المنير / ١٢ / ٢٧٤.



سادساً - التفسير والبيان:

الناجي يطلب من يوسف - عليه السلام - تأويل رؤيا الملك:

قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)﴾

وجه المناسبة:

لما طلب النّاجي إرساله إلى من يعلم تأويل الرؤيا بقوله: «فأرسلون» دلَّلَ على أنهم أرسلوه فأتى يوسف – عليه السلام – فقال له:

«يُوسُفُ أَيُّهَا الصّدّيقُ...»

لقد رأينا من قبل، كيف أن الله تعالى صَرَف أعيان الملإ من قوْم الملك عن تأويل رؤياه، وجمَّد أفكارهم وهم العلماء والحكماء والكُهَّان، حتى إنَّهم لم يقُولوا في تأويلها ولا كلمة واحدة، بل ردُّوها على الملك رَدّاً تامّاً، وحكموا عليها بالبطلان كذبا وادعاء، وهذا من لطف الله تعالى وعظيم إحسانه بعبده يوسف – عليه السلام – فلولا جهلهم بتأويل الرؤيا لم يُحْتَج إلى يوسف في تفسيرها للملك، فكان يمكن أن يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته(١).

وكان طبيعيا والحال كما سبق، ألا يتردّد الملك لحظة في الإذن لساقيه بالذهاب إلى السجن كي يأتيه بتأويل الرؤيا، وكان هذا الإذن من الملك جواباً لقول الساقي له: «فأرسلون» أي فأطلقُوني أمضى لآتيكم بتأويله منْ عنْدِ العالم به، وفي الكلام محذوف قد ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما ترك، وذلك فأرسَلُوه فأتى يوسف فقال له: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...»(٢) ومعلوم أنه قد حذف من الكلام ذكر إرْسالِهِ ومشيه ووصوله

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨٧٠.

(٢) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٢٩.



إذ لا غَرَضَ فيه مِنَ القصَّة، وهذا من بديع الإعجاز القرآني(١) فالقرآن الكريم يأتي في الأمور التي يحكم العقل بحدوثها ويتخطاها(٢).

في الطريق إلى السجن:

لا شك أن الفتى الناجي قد انطلق من فوره بعد أن أذن له الملك صوْب السجن الذي يضم بين جوانبه نور النبي يوسف - عليه السلام - ولا شك أيضاً أنه كان يودُّ لو تطوي له الأرض طيّا ليصل إليه في أقل وقت، وقد سمح له الملك ليركب ما شاء وليأخذ معه من الرجال ما يؤمن له القيام بمهمته بسلامة وأمان ودون اعتراض من أحد. وكانت المسافة بين قصر الملك والسِّجن عدَّة أميال، فقد كان في غير مدينة الملك كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقيل: كان فيها، ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال(٣).

فلما وصل إليه وشاهده قريبا منه خاطبه قائلا:

«يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» أي: يا يوسف يا أيها الصدّيق. وأول ما يلاحظ على قول الساقي ذكر اسم يوسف صراحة، وهي صراحة تدل على منزلة يوسف الرفيعة في نفسه، تماما كما كانت له - عليه السلام - في نفس الشاهد الذي أكبر في يوسف عفّته وطهره(٤) ناداه بنداء القرب «يوسف» تحبّبا إليه، وزاد في التحبّب بقوله: «أيّها الصّدّيق»(٥).

ونداءه بهذه الجملة «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» المشتملة على اسمه ولقبه - عليه السلام - تنبيه إلى صحبته له سابقا ومعرفته به وحاله، وليلفت فكره إلى ما كان سبق من عبارته رؤياه وصدقه فيها(٦) ووصفه له بالمبالغة في الصدق «الصديق» حسبما شاهده

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٤.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣١٤.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٥.

(٥) نظم الدرر / ٤ / ٥١. (٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٨٧٦.



وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره، فهو من براعة الاستهلاك[1] إن الساقي لم يقتنع بوصفه - عليه السلام - مثلا - بصيغة اسم الفاعل «صادق» لأن صيغة «صدّيق» تدل على تتبّع الساقي لكل ما حدث، ومقارنته له بكل ما قاله يوسف - عليه السلام - فتبيّن له صدق قوله، وكل ذلك امتداد للصدق الذي عرفه به طوال الفترة التي صاحبه فيها داخل السجن، خاصة في إخباره - عليه السلام - له ولصاحبه معه في السجن عن الطعام قبل أن يأتيهما، ثم في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، وقد جاءت كل واحدة منهما حقّا صريحا واضحا كفلق الصبح، وهذه الصيغة «صدّيق» تدل أيضا على ثقة الساقي المطلقة في موافقة ما سيقوله يوسف تعبيراً الرؤيا الملك مع الأحداث المقبلة، وصدقه في كل ما يصدر عنه من قول[2] كما تدل كذلك بقوّة على إيمان الساقي بيوسف - عليه السلام - إذ ناداه بألزم الصفات بإيمانه «الصدّيق» ولم ينعتْه بهذا النعت إلا لإيمانه بجميع ما سمعه منه - عليه السلام - وإلا لما جاز أن يصفه بالصّدّيقيّة وهو في نفس الوقت يكذبه في أهم ما جاء به وألقاه إليه أيام صحبته له في السجن، وهو توحيد الله تعالى وعبادته وحده وترك كل ما سواه[3].

معنى الصديق:

الصدّيق: من غَلبَ عليه الصدق وعرف به، كالسكير لمن غلب عليه السكر، وهذا إذا لوحظ أخذه من الصدق، كما هنا.

وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التَّصْديق، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكمال الإيمان بهم، وذلك كما في لقب «الصدِّيق» لأبي بكر - رضي الله عنه -.

ومن قبيل إطلاق الصِّديق بالمعنى الأول: قوله تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا»[4] وقوله تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا»[5].

---

(١) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٢.
(٢) انظر: الوحدة الموضوعية / ٤١٥.
(٣) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣١٧.
(٤) مريم / ٤١. (٥) مريم / ٥٦.



ومن قبيل إطلاق التصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى: «وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ»(1) بدليل: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ»(2)

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسل كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ»(3).

فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة صدِّيق «أطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم و(يوسف) بمعنى، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسل بمعنى آخر».

والصدّيق: رتبة من أربع رتب رسمية، ولقب من أربعة ألقاب سماويّة، وهي (نبي) و(صدِّيق) و(شهيد) و(صالح) وهؤلاء الأربعة هم المنْعَم عليهم في قوله تعالى: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ»(4).

والدليل على ذلك كله قوله تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا»(5)، (6).

طلب الفتوى:

وبعد هذا النداء الطيب الحبيب الصادق من الناجي المصدّق ليوسف - عليه السلام - ها هو يعلن عن المهمة التي قدم من أجلها إليه فيقول:

«**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ...**» إن الفتى قال له هنا: «أفتنا» وقد قال له من قبل هو وصاحبه في السجن: «نبّئنا» وذلك لما عاين من سموّ رتبته وجرّب من علوّ فضله سابقاً، لأن هذه المادة «أفتنا» تشعر بذلك(7) أو لعله اقتباس من قول يوسف له ولصاحبه من قبل: «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»(8) واستعماله «أفتنا» وليس أي جملة أخرى أخف وزنا وأقل أثراً، لأنه يطلب الفتيا في هذه الرؤيا، والمعروف أنها

---

(1) المائدة/ 75. (2) التحريم/ 12. (3) الحديد/ 19.

(4) الفاتحة/ 6. (5) النساء/ 68.

(6) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ 2/ 878-879.

(7) المرجع السابق ص878.

(8) يوسف بن يعقوب/ 317.



لا تطلب إلا في الأمر الجَلَل، ولا يخفى أن قول الساقي هذا يُعبّر عن اهتمام صاحب الرؤيا نفسه بها[1] ولهذا قال: «أفتنا» بالجمع، ولم يقل: (أفتني) بالإفراد مع أنه المستفتي وحده، إشعاراً بأن الرؤيا ليست له؛ بل لغيره مِمّن له ملابسة بأمور العامة، وأنه في ذلك معبّر وسفير كما آذن بذلك حيث قال: «لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ»[2] ومع أن القرآن الكريم لا يشير هنا إلى صاحب الرؤيا حين قصها الساقي على يوسف، فلعل الساقي قد صرح ليوسف بصاحبها، أو أن القرآن الكريم اكتفى بالإشارة الصريحة السابقة في قوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى...»[3].

أمانة الناقل:

وأكمل الفتى قوله:

«**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ**»

ونرى أن الساقي أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونِعْمَ ما فَعَل فإن تعبير الرؤيا قدْ يختلفُ بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكورٌ، في ذلك العلم[4].

وإعادة العبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنه بلغ السؤال كما تَلَقّاه، وذلك تمام أمانة النَّاقل[5].

ثم إن السياق القرآني أثْبَتَ الرُّؤيا وأعادَهَا مرَّة أخرى على لسان السَّاقي ليبين لنا الدِّقَّة في النَّقل وكيف تكون، وليرشدنا إلى أهمية ذلك، وأيضا ليجيء تأويلُها مَلاصِقاً في السّياقِ لذكْرِها[6].

وبعد أن ذكر الفتى الرؤيا بنصها بلا زيادة أو نقصان ليوسف - عليه السلام - قال: «**لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ**».

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ٤١٥.
(٢) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٢.
(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤١٥.
(٤) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٥٢.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٥.
(٦) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٩٣.



كان السَّاقي عظيم الرجاء في نيل هذا السَّبْق الفريد والفوز بثقة الملك، ولهذا قال: (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ) أي إلى المَلِكِ وَمَنْ عنْده، لأنَّ الملك هو صاحب الرؤيا والمهتم كل الاهتمام بتأويلها، ومَنْ مَعَه منَ الملإِ تبع له، فَلَعَلَّ هذه تعليلٌ لرجوعه إليهم بإفتائه، وإنما لم يَبُتَّ في الرجوع إليهم جَرْياً على قواعد العقلاء في عدم البت في الأمور المستقبلة وتحرُّزاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع.

وكما قال الشاعر:

فبينما المرء في الأحياء مغتبط ** إذا هو الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الأعاصير

والرَّمس: القبر مستوياً مع وَجْهِ الأرض.

فالإنسان بطبيعته لا يضمن بقاءه حَيّاً ساعةً من الزَّمَنِ ولا أقلَّ من ذلك، كما لا يَضْمَنَ وجوده زمان ومكان الحدث المستقبلي الذي يرجوه، وأيضاً لا يضمن بقاء من يريد إبلاغهم على حالهم الذي يرجوه أيضا، فلربما نزلت بهم نازلة أو نحو ذلك، ولهذا علمنا القرآن العظيم أن نتبع حديثنا عن الحدث المستقبلي الذي نرجو فعله بقول: (إن شاء الله) كما خاطب الحق جل وعلا نبيه محمداً - ﷺ - بقوله الكريم: «وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً»(١).

ولما كان تصديقهم ليوسف - عليه السلام - وعلمهم بعد ذلك بفضله وعملهم بما أمرهم به مظنونا،

قال: «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ».

والساقي عظيم الرجاء أيضا في أن يعلم الملك ومن معه تأويل الرؤيا لو قدَّر الله تعالى أن يعود به إليهم، فربما لم يَعْلَمُوه، إمَّا لِعَدَمِ فَهْمهم، أو لِعَدَم اعْتمادهم.

فَلَعَلَّ هذه - الثانية - تعليل لما يرجوه من علمهم بها.

---

(١) الكهف/ ٢٣-٢٤.



ويترتب بالطبع تلقائياً إلى علمهم بها أن يعلموا فضل وعلم ومكانة يوسف - عليه السلام - فيكون في ذلك الفرج والخلاص والتمكين له في الأرض(١).

فقوله (لعلهم يعلمون) لا يخرج عن احتمالين اثنين:

إمّا أن يكون (يعلمون) بمكانك فيظهر عندهم فضلك حتى يكون سبب خلاصك، فعلى هذا يكون العلم على بابه.

وإما أن يكون (يعلمون) معناه، لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا، ويُسمّى علماً، وإن كان ظنّاً، لأن الأصل أن كل ظن شَرْعيٍّ يرجع إلى العلم بالدليل القطعي الذي أسْنِدَ إليْه(٢).

المضمون العام للآية الكريمة:

قال الساقي بعد أن وصل إلى يوسف - عليه السلام - في السجن:

يوسف أيها الصديق في الأقوال والأعمال والإخبار عن المغيبات وتعبير الأحلام، أفتنا وأخبرنا عن تأويل ما رآى الملك في المنام أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لكي أرجع إلى الناس، أي الملك والملأ من قومه لعلهم يعلموا تأويله فإنهم متحيرون فيه، أو لكي يعلموا علمك وفضلك.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - وجوب تعظيم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام عند مخاطبتهم قال الله تعالى: «لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا»(٣) فلا يخاطب النبي ﷺ إلا بلقب النبي والرسول ونحوهما مما فيه احترام له عليه الصلاة والسلام، وقد قال الساقي ليوسف - عليه السلام - (يوسف أيها الصديق) فأتبع اسمه بصفة تتناسب ومكانة النبوة والرسالة، لأنه قد آمن به، وقد وصف الله بعض النبيين عليهم السلام بالصديقية.

---

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٤، وروح المعاني/ ٦/ ٤٤٤.

(٢) أحكام القرآن (ابن العربي)/ ٣/ ٥٧.

(٣) النور/ ٦٣.



٢ - على طالب العلم والاستفتاء أن يكون موقراً ومطيعاً لمن يتلقى منه العلم أو الفتيا، قال موسى - عليه السلام - للخضر: «سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا»(١).

٣ - تحرِّي الدِّقة التَّامة والأمانة الكاملة في تبليغ الرسائل وخاصة ما يتعلّق منها بأمور الدين.

٤ - التأدب بأدب القرآن العظيم، فلا نقول عن شيء مستقبلي نرجو حدوثه أو القيام به إلا مع قولنا: (إن شاء الله).

٥ - التعرف على العلماء وتخصصاتهم وحفظ ذلك وتسجيله حتى إذا ما احتجنا إلى واحد منهم أو أكثر سهل علينا الرجوع إليهم.

---

(١) الكهف / ٦٩.

«الآية السابعة والأربعون»

أولاً - النص القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا» قرأ حفْص «دَأباً» بفتح الهمزة مقصورة. وقرأ الباقون بإسكان الهمزة، وهما لغتان مثل: النَّهْر، والنَّهَر، والظَّعْن، والظَّعَن، وكل اسم كان ثانيه حرفا من حروف الحلق الستة وهي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء، جاز حركته وإسكانه[١] لكنّ أبا عمرو إذا أدْرَج لم يهمز، وكذلك حمزة إذا وقف، فإنهما يُبْدلانها ألفا، والحجّة لمن أسكن (دأبا) أنه أراد المصدر، والحجة لمن فتح (دأبا) أنه أراد الاسم، ويجوز أن يكون أصله الفتح فأُسْكِنَ تخفيفا، والاختيار: السكون، لإجماعهما عليه في قوله تعالى: «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَون»[٢]، [٣].

ثالثاً - اللغة:

قوله: «تَزْرَعُون» زرع: زرع الحبّ يزرعه زرْعاً وزراعة: بذره، والاسم: الزَّرع، وقد غُلِّبَ على البُرّ والشعير، قال تعالى: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ»[٤] وجمعه زُروع، وقيل: الزرع نبات كل شيء يُحْرَث، وقيل: الزرع: طرح البذر.

والزَّرَّاع مُعَالِج الزرع، وحرفته الزراعة، والمزْرعة موضع الزرع[٥] والزرع في الأصل مصدر، وعُبّر به عن المزروع نحو قوله تعالى: «فَنُخْرِجُ به زَرْعاً»[٦]، [٧].

---

(١) انظر: حجة القراءات / ٣٢٩، والمغني في توجيه القراءات العشر المتواترة / ٢ / ٢٧٤، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٧٢.   (٢) الأنفال / ٥٢.

(٣) انظر: اموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٩، والحجة في القراءات السبع / ١٧٠.

(٤) الأنعام / ١٤١. (٥) اللسان / ٨ / ١٤١.   (٦) السجدة / ٢٧.

(٧) المفردات (كتاب الزاي) / ٢١٢.



قوله: «دأباً» الدَّأب: العادة والملازمة، يقال: ما زالَ ذلك دينَك ودأبَك. وديْدَنك وديدبونك، كله من العادة، يقال: دَأَبَ فلان في عمله، أي جَدَّ وتعب، يدأبُ دَأْباً ودَأَباً ودُؤُوباً، فهو دَئِبٌ، قال الراجز:

راحت كما راح أبو رئال *** قاهي الفؤاد دَئِبُ الإجْفال

وفي الصحاح، فهو دائب،

وفي الحديث: «فكان دَأْبي ودَأْبهم» وقوله عز وجل: «مِثْلَ دَأْب قَوم نُوح»(١)، (٢).

قوله: «حَصَدتُّم» أصل الحصد: قطع الزرع، وزمن الحَصَاد والحِصاد، كقولك: زمن الجَدَاد والجِدَاد، قال تعالى: «وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه»(٣) فهو الحصاد المحصُود في إِبَانة(٤).

والحصد: جَزُّكَ البُرّ ونحوه من النبات، يقال: حصد الزرع وغيرَه من النبات: يَحْصِدُه ويَحْصُدُه حَصْداً وحَصَاداً وحِصَاداً، عن اللحياني: قطعه بالمنجل، وحصَده واحتَصَدَه بمعنى واحد(٥).

قوله: «فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ»

ذروه: اتركوه،

في سنبلة: السُّنْبُل: جزء النبات الذي يتكوّن فيه الحَب، والسُّنْبُلَةُ واحدة السُّنْبل(٦).

قوله: «تأكلون» الأكل: تناول المطعم، والأُكل، والأكلُ: لما يُؤْكل، بضم الكاف وسكونه، قال تعالى: «أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا»(٧) والأكْلَة: للمرَّة، والأُكلَة كاللُّقْمَة، والأكَّال: كثير الأكل، والأكَلَةُ جمع آكل(٨) يقال: أَكَلَهُ أكْلاً ومأْكَلاً، فهو آكل وأكيل من أكَلَة(٩) والإِكلَةُ: هيئَةُ الأكل(١٠).

---

(١) غافر/ ٣١. (٢) اللسان/ ١/ ٣٦٨-٣٦٩.
(٣) الأنعام/ ١٤١. (٤) المفردات (كتاب الحاء)/ ١٢٠.
(٥) اللسان/ ٣/ ١٥١.
(٦) المعجم الوسيط/ ١/ ٤٥٣. (٧) الرعد/ ٣٥.
(٨) المفردات (كتاب الألف)/ ٢٠.
(٩) القاموس المحيط/ ١٢٤٢.
(١٠) اللسان/ ١١/ ١٩.



رابعاً - الإعراب:

قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...» جملة (تزرعون) مقول القول، و(سبع سنين) ظرف متعلق بـ(تزرعون) و(دأبا) حال من المأمورين، أي دائبين، أو مصدر لفعل محذوف، أي تَدْأَبونَ دَأباً، ودل على تَدْأبون، تزرعون على كلا التقديرْين[1].

قوله تعالى: «فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِه إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ» الفاء عاطفة، و(ما) يجوز أن تكون شرطية أو موصولة، وهي في محل نصب مفعول مقدم لـ(حصدتم) على الحالَيْن، وحصدتم فعل وفاعل، و(فذروه) الفاء واقعة في جواب الشرط أو الموصول لما فيه من رائحة الشرط، و(ذروه) فعل وفاعل ومفعول به، و(في سنبله) متعلقان بـ(ذروه) و(إلا) أداة استثناء، و(قليلا) مُسْتَثْنى واجب النصب، و(مِمّا) صفة لـ(قليلا) وجملة (تأكلون) صلة[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٧٣، وانظر: التبيان في إعراب القرآن / ٢ / ٧٣٤.

(٢) إعراب القرآن وبيانه / ٤ / ٥٠٥.



سادساً - التفسير والبيان:

القسم الأول من تأويل الرؤيا، سنوات الزرع والحصاد والادخار:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧﴾

وجه المناسبة:

لما سأل الساقي يوسف - عليه السلام - عن تأويل رؤيا الملك التي قصها عليه، فكأنه قيل: فما قال له؟ فقيل:(١).

«قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...»

الآن... وقد فرغ الفتى الناجي من نقل رؤيا الملك بكل دقة وأمانة إلى يوسف - عليه السلام - وها هو ينتظر تأويلها منه على أحرَّ من الجمر.

ولعل أخشى ما كان يخشاه في هذه اللحظات الحاسمة، أن يمتنع يوسف - عليه السلام - عن تأويل الرؤيا، بسبب سجنه كل هذه السنوات ظلما واتهامه بما هو بريء منه، فكيف يؤول رؤيا لمن أساءوا إليه كل هذه الإساءة، أو لعَلَهُ يشترط شروطاً لمصلحته يحصل عليها من الملك قبل التأويل، أو يكون قد تأثرَ بموقف الساقي منه حين أوصاه عند خروجه من السجن أن يذكره للملك، ويوسف لو فعل وامتنع عن التأويل لكان معذوراً بسبب كل ما أصابه من هؤلاء القوم - ولكن الساقي في قرارة نفسه كان يعلم أن يوسف - عليه السلام - الذي آمن به وبدعوته التوحيدية، والذي صاحبه سنوات في السجن عن قرب فرآى منه ما رآى من آيات الكمال الخلقي، التي لا تكون إلا لمن اصطفاهم الله من خلقه، لا يمكن أن يتأثر بما حدث له فيمتنع عن تقديم العون في أي صورة من صوره إلى الآخرين.

... وفعلاً، وكما توقع الساقي، فقد بادره يوسف - عليه السلام - بتأويل الرؤيا،

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ٥٢.



لم يشترط لنفسه شرطاً، أو يطلب لنفسه طلباً، بل لعلَّ حُسْنَ استقباله للساقي قد ألهاه حتى عن تقديم العذر له عن التأخير، وليس هذا بعجيب ولا بغريب على يوسف - عليه السلام - الذي اختاره الله تعالى واصطفاه لحمل الدعوة الإلهية إلى الناس، لا يمكن أن يمتنع أبداً عن تقديم العطاء الإلهي الذي مَنَّ الله تعالى عليه به ليساعد به الناس، ولا يمكن أن يبْخلَ بالعلم الذي عَلَّمَه الله تعالى إياه ولا أن يكتمه، ولو كان تقديم هذا العلم إلى من آذوه وسجنوه وافتروا عليه وهو الطاهر البريء، ولقد عجب المصطفى محمد - ﷺ - من موقف يوسف هذا من القوم.. حتى قال فيه رسول الله - صلى الله عيه وسلم - فيما أخرجه عبدالرَّزَّاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ -: «لقد عجبت من يوسف وصبره - والله يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسِّمان، ولو كنت مكانه - والله يغفر له - حين أتاه الرسول لبادرتهم الباب[1] أي اشترطت عليهم أولاً أن يخرجوني من السجن قبل التأويل، وفي رواية عن عكرمة (ولو كنت مكانه ما أخبرتهم بشيء حتى أشترط أن يخرجوني) ومعلوم أن هذا القول من رسولنا محمد - ﷺ - هو من فرائد تواضعه - ﷺ - لإخوانه الأنبياء، ومعلوم أن مكانته فوق مكانة كل نبي، ودَرجته فوق درجة كل رسول.

ولكم أوذي - ﷺ - في سبيل الدعوة إلى الله تعالى فَصَبَرَ الصَّبْر الجميل، ولما اشتدَّ إيذاء أهل مكة له، ثم أهل الطائف الذين رجع من عندهم محزونا مهاناً كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل - عليه السلام - ومعه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فما كان من الرسول - ﷺ - إلا أن قال: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجلّ وحده لا يشرك به شيئا[2] ولقد حدث بحمد الله تعالى ما كان يرجوه ﷺ

---

(١) انظر: الدر المنثور/ ٤ / ٤٠، وتفسير الطبري/ ٧ / ١٢ / ٢٣٥.

(٢) الحديث بكاملة في صحيح البخاري (١ / ٤٥٨) وصحيح مسلم (٢ / ١٠٩).

رفع المسيهم

وبدأ يوسف - عليه السلام - يؤول الرؤيا قائلاً:

(قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون)

قوله: (قال) استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا قال يوسف في التأويل؟ فقيل: «قال تزرعون»(١).

وقوله (تزرعون) خبر في معنى الأمر والإنشاء كقوله تعالى: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ»(٢).

وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاد المأمور به فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله تعالى:

(فذروه في سنبله(٣) وهذا أسلوب عربيّ قد جرى عليه القرآن الكريم كثيراً(٤) وإنّما عَدَلَ عن الأمْرِ إلى الإخبارِ لأنّ الزَّرْعَ هو مقتضى طبعهم وعملهم، وما يوافق الطبع لا يحتاج إلى الأمر به، بل يكفي مجرد توجيه إليه، ولكن إبقاء الحب في السنبل وحفظه فيه كان خلاف عملهم، فلذا أمرهم به بقوله (فذروه في سنبله)(٥) ولم يكن يطلب منهم مجرد الزراعة، ولكن أن يجدوا ويجتهدوا ويتعبوا في ذلك(٦) والمعنى: ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة(٧).

قوله: «سَبْعَ سِنِينَ»

لفظ السنين ولفظ الأعوام:

لفظ (السنين) يستعمل لسنوات الجدب والقحط، ولفظ (الأعوام) يستعمل في أعوام الخصب والخير.

---

(١) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٨.
(٢) الصف / ١١.
(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٥.
(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨٨٦.
(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢١.
(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٩.
(٧) تفسير البغوي / ٤ / ٢٤٧.



قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ»(١).

وقال الرسول - ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فاعطوا الإبل حظّها من الأرض، وإذا سافرتم في السِّنة فأسرعوا عليها السير(٢) ويوسف - عليه السلام - لم يعبِّر بكلمة (أعوام) هنا مع أن هذه السنين السَّبع الأولى سنون خصْب وَخَيْر، إما لأن هذه القاعدة غالبة لا مطردة، أو أن هذه السنين مع أنها سنون خصب إلا أن نتاجها لا ينفق فيها فهو مدَّخر للإنفاق منه في سنين الجدب فأشبهته، والله أعلم.

سنون شمسيّة:

وأراد يوسف - عليه السلام - بالسنين السِّنين الشمسيّة، لأن الموضوع موضوع زراعة، وهي مركبة على السّنة الشمسيّة، فالمصريون هم أوّل من عرفَ السنين الشمسية، لأنهم أول أمة اهتدت إلى معرفة الزراعة، فلما مارسوها احتاجوا إلى سنة فلكية لا تتغير فيها أوقات الفصول، ومازال الفلاحون في مصر حتى هذه الساعة يحددون أوقات زراعة المحصولات الزراعية المختلفة بالأشهر الشمسية بحسب تسميتها القديمة، وفي معبد الشمس الذي أبدعه القدماء المصريون، توجد طاقات بعدد أيام السنة الشمسية وفي كل يوم من أيام السنة تدخل أشعة الشمس من إحدى هذه الطاقات - الفتحات - الشمسية، ومازالت موجودة حتي الآن.

وقوله (دأباً)

تقدم في بيان معاني الكلمات أن لكلمة (دأبا) ثلاث معاني في اللغة، المعنى الأول: الجد والتَّعب، والمعنى الثاني: السَّوْقُ الشديد، والمعنى الثالث: الشَّأن والعادة، وهذا المعنى الثالث هنا يرجع للمعنيين الأوّلين، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة هو الجد والتعب فيها والسَّوْقُ الشديد، فالمعاني الثلاثة - لكلمة (دأبا) -

---

(١) الأعراف/ ١٣٠.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم/ ٥٨٩.

رفع المسيهم

مرادة، إذ أن كل واحد منها يرمي إلى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع، هذا أمرٌ لازمٌ وضروريٌ جدا، لأنَّ الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي(١).

وقول يوسف - عليه السلام - (تزرعون سبع سنين دأباً) إشارة إلى تعبير سبع بقرات سمان - وسبع سنبلات خضر فقد أول - عليه السلام - البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين مجدبة(٢) والمعنى: ازرعوا في هذه السبع سنين - الأولى - فإنها تنبت وتدر بالخير والبركة فإنها سنوات خصب وخير كالبقرات السمان(٣).

وبعد أن أخبرهم عن سنوات الخصب والمطر وهي السبع المتواليات أرشدهم إلى ما يفعلونه في تلك السنين فقال:

«فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ»

وقوله هذا يدلّ على خبرة خبير برأي نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بحال إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحَبَّة إذا بقيت في خبائها انحفظت(٤) من عوامل الفساد، فلا يصيبها التسوس، ولا تتأثر بالمؤثرات الجوية.

وهذه الخبرة العالية بالزراعة من يوسف - عليه السلام - وهو لم يكن فلاحاً ولم يزرع، لا وهو عند أبيه ولا عند مخدومه في القصر، تدل على أن الله ألهمه علم الزراعة على مستوى لم يبلغه أحد غيره، خاصة فيما يتعلق بحفظ المحصول من الآفات.

ويتفق قوله (فذروه في سنبله..) مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٢.
(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢١.
(٤) تفسير البحر / ٥ / ٣١٤.



محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة، وأن ذلك الإلهام كان لنبي من أنبياء الله تعالى هو يوسف - عليه السلام - ومعنى (فما حصدتم فذروه في سنبله) أي فما حصدتم في كل سنة، فادخروه في سنبله ولا تدوسوه، فإن الحب ما دام في السنبل يبقى سالماً لا يأكله السوس، وإذا أخرج وادّخر في المخزن تعرض للفساد والتّسوّس[1].

وقوله هذا مشورة أشار بها على القوم، ورَأْيٌ رآه لهم صلاحا، يأمرهم باستبقاء طعامهم، عن قتادة قال: قال لهم نبي الله يوسف: «تزرعون سبع سنين دأبا.. الآية» فإنما أراد نبي الله ﷺ البقاء[2] أي بقاء الحب صالحا في سنبله، وعن زيد بن أسلم قال: لم يرض يوسف - عليه السلام - أن أفتاهم بالتأويل حتى أمرهم بالرفق فقال: «تزرعون سبع سنين دأبا... الآية» لأن الحب إذا كان في سنبله لا يؤكل[3].

وقد استثنى - عليه السلام - بقوله: «إلا قليلاً ممّا تأكلون» ما يجب أن يكون طعاما للقوم[4] أي: فدوسوه عند الحاجة وبقدرها فقط، فهو إرشاد منه - عليه السلام - لهم إلى التقليل من الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله: «تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ»....

وهكذا يجتمع الطعام ويتركّب، ويؤكل الأقْدَمُ فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوَّت الناس الأقْدَم من ذلك المدّخر[6].

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٢.

(٢) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣. (٣) الدر المنثور / ٤ / ٤٠.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٧.

(٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٢.

(٦) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣١٣.



المضمون العام للآية الكريمة:

قال لهم يوسف - عليه السلام - : ازرعوا سبع سنين دائبين ومستمرين على الزرع، فإن هذه السبع سنين سنوات خصب ورفاه، واحصدوا ما زرعتم ولا تدوسوه، بل ذروه واحفظوه في سنبله، لأن الحب لا يفسد مادام في السنبلة، ويفسد إذا مر عليه وقت طويل وهو في المخزن، وكلما احتجتم لأكل بعضه فدوسوه ساعة الحاجة، وذروا الباقي محفوظا في السنبل.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - أرضُ مصر أرضُ فلاحة وزراعة من عهدها الأول وحتى الآن.

٢ - قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا... الآية»

هذه الآية أصل في القوْل بالمصالح الشّرْعية التي هي حفظ الدين والنفس والعقل والنَّسَب والمال، فكل ما تضَمَّنَ تحصيل شيءٍ من هذه الأمُور فهو مصلحة، وكل ما يفوِّتُ شيئاً منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة.

٣ - قصْدُ الشَّرعُ إرشاد الناس إلى ما يحقق مصالحهم الدُنْيَويّة ليحصل لهم التمَكُّن منْ معرفة الله تعالى وعبادته الموَصِّلتيْن إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضلٌ من الله عز وجل ورحْمَةٌ رحم بها عباده من غير وجوب عليه ولا استحقاق.

رفع المسهم

«الآية الثامنة والأربعون»

أولاً - النص القراني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله: «سبع شداد» أي: سبع سنين شديد جَدْبُها، فهي مجدبات صِعَاب، والشِّدّة: الأمر يصعب تحمله، وشِدّة العيش: شظفه وضيقه[1] (المعجم الوسيط)

قوله: «تحصنون»

حصن: الحصن جمعه حصون، قال الله تعالى: « وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ»[2] وتحَصَّنَ إذا اتخذ الحصن مسكنا، ثم يتجوز به في كل تحرُّز، ومنه قوله تعالى: «إلاّ قَليلاً ممّا تُحْصِنُون»، أي: تُحْرِزُون في المواضع الحصينة الجارية مجري الحصن[3] ويقال: حَصُنَ المكان يَحْصُنُ حصانة فهو حصين: مَنُعَ، وأحْصَنَهُ صاحَبه وحَصَّنه، والحِصْنُ: كل موضع حصين لا يُوصل إلى جوفه، وحصنٌ حصينٌ من الحصانة[4].

رابعاً - الإعراب:

قوله: «ثُمَّ يَأْتِي من بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ» (ثم) حرف عطف وتراخ، ويأتي فعل مضارع، و(من بعد ذلك) حال، و(سبع) فاعل يأتي، وشداد صفة لـ(سبع).

قوله: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلاَّ قَليلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ» جملة (يأكلن) صفة ثانية لـ(سبع) والنون فاعل و(ما) مفعول به وجملة (قدمتم) صلة (ما) و(لهن) متعلقان

---

(١) المعجم الوسيط / ١ / ٤٧٦.

(٢) المفردات / ١٢٠.

(٣) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٤٥.

(٤) انظر: اللسان / ١٣ / ١١٩.



بـ(قـدمـتـم) و(إلا) أداة اسـتـثـناء، وقـلـيـلا مـسـتـثـنى، و(مما) صـفـة لـ(قليـلا) وجـمـلة (تحصنون) صلة[1].

البلاغة:

«يأكلن» فيـه مجاز، لأنه نسب الفعل والأكل إلى الزمان، والمعنى: تأكلون فيـها وقوله: «ما قدمتم لهن» فيه مجاز أيضا، لأن الإنسان لا يدخر للمستقبل، بل لنفسه في المستقبل.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٤/ ٥٠٥.

سادساً - التفسير والبيان:

القسم الثاني من تأويل الرؤيا،

سنوات الجدب والقحط.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد أن أخبرهم عن سنوات الزرع والحصاد والادّخار أرشدهم إلى ما يَتقَوَّون به على ما يأتي من سنين القحْط والجدْب فقال:(١)

«ثمَّ يأتِي مِن بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ»

هذه الآية الكريمة في قوة التعليل لقوله: «فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِه... الخ» أي: لأنه يأت بعد هذه السبع الأولى سبع سنوات شداد(٢) وقال: «من بعد ذلك» أي من بعد السنين السبع المذكورة - ولم يقل: «من بعدهنّ» قصدا إلى الإشارة إلى وصفهنّ، فإن الضمير ساكتٌ عن أوصاف المرجع بالكليّة(٣) ولما كانت مدّة الإتيان غير مستغرقة لزمن البعد، أتى بالجارّ فقال: «من بعد ذلك» أي الأمر العظيم(٤) فهو - عليه السلام - يبين لهم في هذه الجزئية من الآية الكريمة، ما ستعمله سبع سني الشدّة، فيصفها بأنها شداد، فليس هناك مدد من السماء، ولا نبع من الأرض،(٥) فهي جدوب قحطة، عن قتادة قال: «وهنّ الجُدُوب المُحول(٦) وسميت السنون المجدبة شداداً لشدتها على الناس(٧) وصعوبة تحملهم لها.

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٥٢.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٢.

(٣) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٣. (٤) نظم الدرر / ٤ / ٥٢.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٨.

(٦) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣١. (٧) تفسير البغوي / ٤ / ٢٤٧.

(٩) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٢.



والسبع الشداد التي تجْدب فيها الأرض، ويقل ماؤها، وتُغَار عيونها، ويذْوي نبتُها، وييْبَس شجرها؛ هي البقرات السبع العجاف والسنابل السبع اليابسات، كما أن السنين السابقة، هي البقرات السبع السمان والسنابل السبع الخضرات[1]...

وإلى هذه السنين السبع الشداد أشار النبي ﷺ - في دعائه على قريش فقال: «اللهم اشدُدْ وطْأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»[2]...

ثم يأتي التعبير المجازي الرائع في قوله تعالى عن السبع الشداد:

«يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ»[3]

فقوله: «يأكلن» فيه مجاز، لأنه نسب الفعل وهو الأكل، إلى الزمان، والمعنى تأكلون فيها، وقوله: «ما قَدّمْتُم لهُنّ» فيه مجاز أيضاً، لأن الإنسان لا يدّخر للمستقبل، بل لنفسه في المستقبل[4].

وهذا كما في قوله تعالى: «والنهار مبصرا»[5] فهو من باب نهاره صائم، ومنه قول الشاعر[6]

نهارك يا مغرور سَهْوٌ وغفلَةٌ *** وليلُك نوم والرّدىٰ لك لازمُ

والنهار لا يسهُو، والليل لا ينام، وإنما يُسْهَى في النهار، ويُنَام في الليل[7] وقوله: «يأكلن» فيه أيضا تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان، واللام، في «لهن» ترشيح لذلك، فكأن ما ادّخر من الحبوب شيء قد هُيّئَ وقُدّم لهن كالذي يقدّم للنّازل، وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن[8] وعبر بالماضي (قدمتم) لأنه علم أنهم يمتثلون أمره، فيقدّمون ويدخرون، فكأن الأمر قد وقع[9].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٨٩٠. (٢) فتح الباري / ٦ / باب التفسير رقم (٣٣٨٦).

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٨.

(٤) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٢.

(٥) روح المعاني / ٦ / ٤٤٥. (٦) هو عبد الله بن عبد الأعلى بن أبي عمرة.

(٧) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٠٤. (٨) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٣.

(٩) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٢.



إن هذه الجزئية من الآية الكريمة «يأكُلنَ مَا قدّمْتُم لَهُنّ» تدل وبكل وضوح على أن هذه السنوات السبع العجاف، لديها القدرة لأن تبتلع كل ما يقدم لها من طعام، حتى تكاد تأتي على الطعام كله، باستثناء القليل جدا من الذي سبق أن وضعوه في حصن حصين وحرْز أمين، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في الجزئية الأخيرة:

«إلاّ قلِيلاً مّمَّا تحصِنونَ»، التي تعتبر امتداداً لنصحه - عليه السلام - للقوم، وكأنه يقول لهم: عليكم أن تضعوا ما تذرونه في سنبله في أماكن هذه صفتها، خوفا من الآفات المتعددة، ومنها النار مثلا[1] وهذا هو المفهوم من قوله: «تحصنون» فالإحصان: الإحراز، وهو إلقاء الشيء فيما هو كالحصن المنيع[2] قال ابن عباس: «تحصنون» تحرزون[3] إنه يقول لهم: كلوا في هذه السنوات السبع الشداد ما ادّخرتموه في سنوات الخصب السبعة، واتركوا منه قليلا واحفظوه في حصن حصين، ليكون منه البذر بعد أن تنتهي السنوات السبع العجاف.

وجه المناسبة لتأويل رؤيا الملك، للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة والسنين المجدبة:

وذلك، أن الملك ترتبط به أحوال الرعيّة ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنوات، بها صلاح أحوال الرعيّة واستقامة أمر المعاش، أو عدمه، وأما البقر، فإنها تُحْرَثُ الأرض عليها، ويُسْتقىٰ عليها الماء، وإذا أخصبت السنة، سَمِنَت، وإذا أجدبتْ، صارت عجافا، وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضرّ، وفي الجدْب، تقِلُّ وتيْبَس، وهي أفضل غلال الأرض[4].

علامة بدء السنين السبع الشداد:

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن يوسف - عليه السلام - في زمانه كان يصنع

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٨.

(٢) نظم الدرر / ٤ / ٥٣.

(٣) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٥٤.



لرجل طعام اثنين فيقرّبه إلى الرجل، فيأكل نصفه ويدَع نصفه، حتى إذا ما كان يوما قرّبه له فأكله، فقال يوسف – عليه السلام – : هذا أول يوم من السبع الشداد[1].

المضمون العام للآية الكريمة:

ثم تابع يوسف – عليه السلام – تأويله لرؤيا الملك فقال: ثم يأتي بعد تلك السبع الخصبة، سبع سنوات قحط وجدْب، تأكلون فيها ما قدّمتم لتلك السنين في السبعة السابقة، ولا يبقى شيء إلا قليلا مما تحصنون وتدّخرونه للبذر والزرع، فبذلك تخرجون من الضيق الذي يحيط بكم في السبع الأواخر، وبهذا انتهى تأويل نص رؤيا الملك.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ – هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول وتصديقاً لمصطفى للتبليغ وحجة للواسطة بين الله جل جلاله وبين عباده.

٢ – حالات الضرورة تقتضي الأخذ بأمور تناسبها وتقدَّرُ بقدر الضرورة.

٣ – الاحتفاظ بالفائض في الصوامع وغيرها مبدأ اقتصادي هام ومفيد.

٤ – ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده.

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٤٠.



«الآية التاسعة والأربعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» قرأ حمزة والكسائي «تَعْصِرُون» بتاء الخطاب، وحجتهما قوله: تزرعون سبع سنين» و«تأكلون» و«مما تحصنون» كأنما وجّه الخطاب إلى المستفتين الذين قالوا: أفتنا في كذا، ويجوز أن يكون أراد المستفتين وغيرهم فغلَّبَ الخطاب، لأن الخطاب والغيْبة إذا اجتمعا غُلِّبَ الخطاب على الغيبة.

وقرأ الباقون «يعصرون» بالياء، وحجّتهم ذكرها اليزيدي فقال: يعني الناس، ذهب اليزيدي إلى أنه لما قرب الفِعْل من الناس جعله لهم(١).

قال الإمام الطبري: والصواب من القراءة في ذلك أن لقارئه الخيار في قراءته بأي من القراءتين شاء، بالتاء أو بالياء، لأنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار باتفاق المعنى، وإن اختلفت الألفاظ بهما(٢).

ثالثاً - اللغة:

قوله: «يغاث» غوث: الغوْث يقال في النُّصْرَة، والغيْث في المطر، واستغثته: طلبت الغوْث أو الغيْث، والغيْث: المطر، قال تعالى: «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ»(٣) وقال الشاعر:

سمعتُ الناس ينتجِعُون(٤) غيْثاً ** فقلت لصيد انتجعي بلالا(٥)

---

(١) انظر: الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٧٩، والحجة في القراءات السبع / ١٩٥-١٩٦، وحجة القراءات / ٣٦٠، والمغني في توجيه القراءات العشر المتواترة / ٢ / ٢٧٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣٣.

(٣) الحديد / ٢٠.

(٤) يقال: انتجع القوم: ذهبوا الطلب الكلأ، وانْتجع فلانا: قصده يطلب معروفة.

(٥) المفردات (كتاب الغين) / ٣٦٧.



والغَيْث: المطر والكلأ، وغاث الغيثُ الأرض: أصابها، والغَيْث: عَيْلَمُ الماء[1] والكلأ ينبت بماء السماء، يقال: غاث الله البلاد يغيثها غيثا، وغيْثت الأرض تُغَاثُ غيْثاً إذا أمطرت، فهي مَغيثة ومَغْيُوثَةٌ أيضا، فمعنى «يغاث الناس» أي يمطرون[2].

قوله: «يعصرون» عصر: العصْر مصدر عَصَرْتُ، والمعصور: الشيء العصير، والعُصَارة: نِفَايَةُ ما يُعْصَر، قال تعالى: «وَفِيهِ يَعْصِرُون» أي يستنبطون منه الخير[3].

رابعاً - الإعراب:

قال تعالى: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» عطف أيضا، وجملة «فيه يغاث الناس» صفة لـ(عام) و«يعصرون» عطف على يغاث، أي يعصرون الأعناب وغيرها[4].

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

---

(1) اللسان / ٢ / ١٧٥.

(2) انظر: تفسير القرطبي / ٩ / ٢٠٥.

(3) المفردات (كتاب العين) / ٣٣٦.

(4) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٤ / ٥٠٥-٥٠٦.



سادساً - التفسير والبيان:

العام الخامس عشر

عام الغوث والخير وكثرة الزروع والثمرات

قال الله تعالى ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد أن أوّل يوسف - عليه السلام - رؤيا الملك وتمت فتواه فيها، إذ به يفاجئ القوم ببشرى أعلمه الله إياها عن العام الخامس عشر فيقول:

«ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»

وقوله: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ...» أي: من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدّخر «عام» ولم يعبّر بالسَّنة تحاشيا عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق[1] والعام اثنا عشر شهرا، ونظيره الحوْل والسّنة، وهو مأخوذ من العوْم، لما لأهله فيه من السَّبْحِ الطويل، قاله الرماني، والتعبير به دون مرادفاته - الحول والسنة - إشارة إلى أنه يكون فيه من السَّعَةِ بعموم الرِّيّ وظهور الخِصْب[2] وغزير البركة أمر عظيم، ولذا أتبعه بقوله:

«فيه» ولما كان المتَشَوَّف إليه الإغاثة، على أنه من المعلوم أنه لا يقدر عليها إلا الله تعالى، قال بانيا للمفعول: «يُغَاثُ النّاسُ»[3]

قال ابن عباس ومجاهد والجمهور، «يغاث» من الغيْث، وقيل: من الغوْث، وهو الفَرَج، ففي الأول بني من ثلاثي، وفي الثاني من رباعي، تقول: غَاثنا الله، من الغيث، وأغاثنا الله من الغوث[4] قال قتادة: «فيه يغاث الناس» بالمطر والغيث، وبذلك قال الضحاك وابن عباس ومجاهد ثم دلَّل على كثرة الغيث والخير والبركة بقوله:

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٣.

(٢) الخصْب: نقيض الجدْب، وهو كثرة العُشْب ورفاهة العَيْش.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٥٣. (٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٤.



«وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» أي يعصرون العنب والسمسم وما أشبه ذلك، كما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدّي والضحاك وقتادة...،

وذهب البعض إلى أن معنى «وفيه يعصرون» أي: وفيه يحْتلبون، روي ذلك عن ابن عباس أيضا، وعن علي بن أبي طلحة قال: كان ابن عباس يقرأ «وفيه تَعْصِرون» تحتلبون[1]...

والجمهور على أنه من عَصْرِ النبات، كالعنب والقصب والزيتون والسمسم والفجل، وجميع ما يُعْصَر، ومصر بَلَدُ عصير لأشياء كثيرة، والحَلبُ منه عَصْرٌ للضّلُوع[2]...

والمعنى أن القوم سيغاثون في ذلك العام بالمطر فتحْيا الأرض بعد موتها وتُنْبِتُ من كل زوج بهيج، فلا يكتفون بأكل الناتج، ولا يقتصر ذلك على ما يؤكل، إنما يتسع فيشمل ما يعصر أيضا[3] وهذا يدل على وفرة الخير وكثرته وعمومه أنحاء مصر، فأنت لا تعصر شيئا إلا إذا فاض عن قوت ذاتك[4] إنه عام مبارك ينهمر فيه المطر ويمتلئ النيل بالماء ويجري ساريا في أنحاء مصر فيعم الخصب والنماء بعد الجدْب والقحط وشدّة الأيام وقسوتها.

إخبار يوسف - عليه السلام - عن العام الخامس عشر، وهل هو وحْيٌ أو فهم؟

إن إخبار يوسف – عليه السلام – عن العام الخامس عشر لم يكن في رؤيا ملكهم، فهل علم ذلك عن طريق الوحْي، أو عن طريق الفهم؟

ذهب أكثر المفسرين إلى أن يوسف – عليه السلام – قد علم تفصيل حال العام الخامس عشر عن طريق الوحْي، فهو خبر من يوسف – عليه السلام – للقوم عما لم يكن من رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله إياه، دلالة على نبوّته،

---

(١) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣١٤.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٨.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



وحجة على صدقه، قال قتادة: ثم زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها فقال: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عام... الآية» وعن ابن عباس: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عام» قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه، وكان الله قد علّمه إياه، عام فيه يغاث الناس بالمطر(١).

وذهب **بعض المفسرين** إلى أن الإخبار عن العام الخامس عشر من يوسف - عليه السلام - قد فهمه من التعبير بالسبع الشداد، فإن العام الذي يليها تزول به شدّتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدْب المستمر سبع سنوات متواليات، إلا بعام مخصب جدا، وإلا لما كان للتقدير فائدة(٢) فحديث يوسف - عليه السلام - عن هذا العام بشارة وإدخال لمسرة الأمل بعد الكلام المُؤيس، وهو من لازم انتهاء مدّة الشّدّة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر، كما قال تعالى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»(٣)، (٤).

والقول الراجح هو الأول والقائل بأن هذا الإخبار عن العام الخامس عشر كان عن طريق الوحي، قال الإمام الفخر الرازي: فإن قيل: لَّما كانت العجاف سبع دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب، وكان هذا أيضا - الخصب - من مدلولات المنام، فلم قلتم إنه حصل بالوحْي والإلهام؟

قلنا: هَبْ أن تبدُّل القحط بالخصب معلوم من المنام، أما تفصيل الحال فيه وهو قوله: «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» لا يُعْلَم إلا بالوحي(٥) وقد أكد الإمام أبو حيان الأندلسي بأن التفصيل بحال العام هو من جهة الوحي(٦) وهذا لأن يوسف قد وصف

---

(١) تفسير الطبري / ٧ / ٢٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٣٣.

(٣) الشرح -٥-٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٧.

(٥) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٥٤.

(٦) تفسير البحر / ٥ / ٣١٥.



هذا العام بوصف يميزه عن أي عام سواه من سني الرخاء والشدة[1] فبشرهم بالعام المبارك بعد تأويل الرؤيا، إبَانَةً لعلُوّ كعْبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد[2] فهذا التخصيص والتفصيل - لحال العام - لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل، لا مقابل له في رؤيا الملك، ولا هُوَ لازِم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل، وهذا هو الظاهر[3].

فقد كان من الجائز أن يخفّ القحط عن مصر شيئا فشيئا، وعاما بعد عام، حتى تعود البلاد من أقصاها إلى أقصاها إلى حالتها الأولى من الخصب والرخاء، فإخباره - عليه السلام - عن هذا العام بهذا الوثوق وهذا التأكيد وذلكم التفصيل، لا يمكن إلا أن يكون وحيا أو إلهاما من الله تعالى، والله أعلم.

رأي مخالف للرأيين السابقين يرى أن العام الخامس عشر عام من القحط والشدة العظمى.

يقول الشيخ محمد محمد المدني: أمّا العام التالي للسبع الشداد - العام الخامس عشر - فليس مشاراً إليه في رؤيا الملك، ولا مَرْمُوزاً له برمْز، لكنه يفهم من أن السبع الشداد سيأكلن المدّخرات من سنوات الرخاء، «إلاّ قَلِيلاً مِمّا تُحصِنُون» أي أنهم مطالبون أيضا بأن يُحْصِنوا قليلاً من مدّخرات السنوات السبع، فلا يتركوا السنوات السبع الشداد تأتي على هذه المدّخرات كلها، بل يحصنون القليل منها لعام يأتي بعد ذلك يكون الناس فيه قد خرجوا من السنوات السبع الشداد، وهم يترَقَّبون ثمرات العام الجديد، ولا بدلهم في أثناء فترة الترَقُّب من جزء يعيشون عليه، فهذا الجزء هو ما أشير إليه بقوله: «إلاّ قَلِيلاً مِمّا تُحصِنُون»...

وإذاً، فقوله تعالى: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» معناه: عام آخر من الشدة العظمى التي يكون من لوازمها أن «يغاث الناس»، أي يُدْرَكُوا بالميرة وهم في أشد الحاجة إليها، فإن الغَوْث إنما يكون حين يصل الأمر في الاحتمال

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٩.

(٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٤.

(٣) انظر: روح المعاني / ٦ / ٤٤٦.



والصبر إلى آخر المدى، كما يكون من لوازمها أن الناس «يَعْصِرُون» أي: يُلْجَئُون إلى دفع غائلة الحاجة إلى الطعام بِعَصْرِ أي شيء من النبات والحشائش والأشجار، كما يقع أيام المجاعات.

ويضيف الشيخ قائلا: إن قوله تعالى: «إلاّ قَليلاً ممّا تُحْصِنُون» فيه إشارة عليهم بأن يحصنوا القليل من محاصيل السبع الخصيبة فلا يأكلوه كله في السبع الشداد، ومعنى ذلك أنهم في حاجة إليه أيضاً، وإلا لما كان لذلك الإحصان والإبقاء فائدة، والحاجة إليه تكون بملاحظة العام الذي سيأتي بعد الشداد وقبل الحصاد، ولا شك أن عاما يأتي بعد سبع شداد استهلكن أعظم المدخرات وأكثرها لا بد أن يكون عاما من الشدة العظمى يحتاج إلى تدبير شأنه وعمل تخطيط «للتموين» فيه يعتمد على هذا القليل المحصن،...

وعلى تفسيرنا هذا يكون لقول يوسف - عليه السلام -: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» ارتباط بالرؤيا، وقد أدرك يوسف - عليه السلام - هذا المعنى وأشار في شأنه بهذا العلاج فيما أشار به أخْذاً مما يحكم به النظر والتأمل من أنه ما دامت سنوات سبع عجاف قادمة بعد السبع الخصبة، فلا بد أن يكون بعد ذلك فترة ترقب العام الجديد ومحصوله، ولا بد من إدخال هذه الفترة في حساب الاستعداد...

ونزيد الأمر تأييدا فنقول: إن قوله تعالى: «تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا» يبدو أن حساب السنة إنما هو من مبدأ وقت الزرع، لا من وقت الجنْي والحصاد، فالعام الذي يأتي بعد تمام السبع الشداد، يبدأ أيضا من وقت الزرع، لأن الكلام مبني على أساس وقت واحد للبدء، وإذا كانت السبع الشداد قد أخذت كل المدخرات ولم يأت محصول جديد بعد، فلا بد من الاعتماد على القليل الذي أُحْصِنَ من قبل وتدبيره على وجه يكون فيه إغاثة الناس بعد عهد طويل من القحط، وفي المرحلة الأخيرة التي هي أشد المراحل منه. انتهى كلام الشيخ[1].

(١) عن مجلة الثقافة الإسلامية - يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - العدد الأول السنة ٢٣ - المحرم ١٣٨٥هـ ٢ مايو ١٩٦٥م.



الرد على هذا الرأي:

هذا الرأي بادي الضعف لوجوه كثيرة نذكر منها:

١ - ربَطَ الشيخ بين قوله تعالى: «إلاّ قَليلاً ممّا تُحْصِنُون» وبين العام الخامس عشر المذكور في قوله تعالى: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»، وهذا الربط لا أساس له على الإطلاق، بل ومردود بقوله تعالى: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ»، أي بعد السنوات الأربع عشرة بما وصفت به.

٢ - يقول الشيخ: يحصنون القليل من المدّخرات لعام يأتي بعد ذلك يكون الناس قد خرجوا فيه من السنوات السبع الشداد.. ثم يقول بعد ذلك بقليل: وإذاً فقوله: «ثُمَّ يأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» معناه: عام آخر من الشدَّة العظمى التي يكون من لوازمها أن يغاث الناس.

فكيف يخرجون من السنوات السبع الشداد ليدخلوا في عام آخر من نفس النوع من الشدة غير أنها عظيمة؟...

ثم إنه بهذا يكون قد قسم الثمانٍ سنوات المتصلة بالسبع الأولى إلى مرحلتين (الأولى) مرحلة الشدة فقط، (الثانية) مرحلة الشدة العظمى، وهي المختصة بالعام الخامس عشر، وهذا تقسيم غريب يأباه أسلوب القرآن العظيم، ولو كان الأمر - فرضا - كما يقول، لكان يمكن أن يقول القرآن العظيم - مثلاً -: (ثم يأتي من بعد ذلك ثمان شداد يأكلن كل ما ادّخرتم).

٣ - إضافة سنة بالغة الشدة إلى السنوات السبع الشداد مخالف للنص القرآني الكريم الذي قصر سنوات الشدَّة على سبع شداد في مقابلة سبع خصاب وبنص الرؤياء.

٤ - على فرض أن قوله تعالى: «إلاّ قَليلاً ممّا تفحصنُون» الانتفاع بهذا القليل المحصن في العام الخامس عشر العظيم الشدة، إذاً فمن أين يأتي النتاج للقمح وغيره من المزروعات إذا أكل هذا المحصن القليل، فمن المعلوم أنه لابد من البذر والسّقْي ليكون النتاج والجنْي، فالمحصن القليل خاص بالبذر الذي يتوقف عليه الحصاد.



٥ - يرى الشيخ أنه من لوازم العام العظيم الشدة في القحط أن الناس «يعصرون»... كما يقع أيام المجاعات، وهذا تصور مخالف للواقع، فالشدة العظمى في القحط وعدم وجود الماء للزرع يستحيل أن يعصر فيها شيء، لأن العصر إنما يكون في المعصور المحتوي على الماء، فمن أين هذا الماء، وفي أيام المجاعات الشديدة يأكل الناس أوراق الأشجار، كما حدث لأصحاب النبي ﷺ في شعب أبي طالب لما حاصرهم المشركون فيه ومنعوا عنهم الطعام، فالعصر إنما يكون في أوقات الرخاء والخصب «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا».

٦ - يرى الشيخ أن المصريين يعيشون على القليل المحصن في العام الخامس عشر العظيم الشدة في القحط، وهم ينتظرون ثمرات العام الجديد، ومن الثابت أن في مصر من قديم الزمان خضروات مختلفة يمكن أكلها بعد أيام أو أسابيع قليلة، وحتى محصول القمح الرئيسي فيمكن تناول حبه في سنبله وهو أخضر بعد ثلاثة شهور، ويتم نضجه في أربعة شهور، فكيف يظلون العام الخامس عشر بطوله في انتظار لثمراته ويحيون على القليل المحصن، فهذا مخالف للواقع.

٧ - هذا الرأي مخالف لعامة المفسرين ولا يعوّل عليه، والله أعلم.

ملامح تأويل يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك:

(أ) تضمّن تأويل يوسف - عليه السلام - للرؤيا ثلاثة أنواع من القول:

(الأول): تعبير بالمعنى لا باللفظ.

(الثاني): عرْض رأْي وأمر به، وهو قوله: «فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ».

(الثالث): الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن بعد السبع الشداد(١).

(ب) عبّر الرؤيا بجميع ما دلّت عليه:

فالبقرات لسنين الزراعة، لأن البقرة تُتَّخذ للإثمار، والسّمن رمز للخصب، والعجف

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣١٤.

رفع المسابهم

رمز للقحط، والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام يُنْتفع به، وكونها سبعا رمز للانتفاع به في السبع سنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديداً، والسنبلات اليابسات رمز لما يدّخر، وكونها سبعا رمز لادّخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك سنِّي الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب(١).

(جـ) أعطى - عليه السلام - مع التأويل التدبير المحكم:

لم يكتف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك، بل أعطى مع هذا التأويل التدبير المحكم الذي ينبغي أن يكون إلى جانب ما كشفت عنه الرؤيا من أحداث، لقد كان يمكن له - عليه السلام - أن يقول في الرؤيا: إن مصر تستقبل منذ اليوم سبع سنين من الخصب، حيث يجئ النيل بالماء الذي يروي الأرض ويخصّبها خلال تلك المدة، ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين مجدبة، يمسك فيها النيل ماءه، فلا ينبُت زرع خلال تلك السنين، ذلك هو تأويل سبع البقرات السمانِ الذي يأكلهن سبع عجاف، وسبع السنبلات الخضر وسبع السنبلات اليابسات، كان يمكن له - عليه السلام - أن يقف عند هذا الحد من تأويل الرؤيا، ولكن هذا التأويل يصبح عديم الجدوى؛ إذ لم يقم من ورائه التدبير المحكم المناسب له.

(د) اشتمال التأويل على البشريات الطيبة:

فقد بشَّرَهم - عليه السلام - بأن ما يختزنونه من القوت خلال سني الرّخاء سيغطيِّ احتياجات سنّي المجاعة ويفيض منه القليل، وفي ذلك أحسن بشرى بأن المجاعة ستنتهي بسلام، كما بشرهم بالخصب والنماء في العام الخامس عشر فيعصر فيه الناس ما جرت عادتهم بعصره في وقت الرخاء، من زيتون وعنب وسمسم وكتان وغير ذلك.

(هـ) اشتمال التأويل على خطة المواجهة اللازمة لاجتياز المجاعة بسلام:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٦.



وقد تضمنت هذه الخطة ما يلي:

١ - التركيز على زراعة الحبوب خلال سني الرخاء لأنها محور الأمن الغذائي.

٢ - الأولوية تكون لزراعة الحبوب ذوات السنابل، لأن السنابل تساعد على الاحتفاظ بالحب سليماً هذه المدة الطويلة.

٣ - تحديد عدد سنوات التخزين بسبع متوالية.

٤ - بيان الطريقة الصحيحة للتخزين.

٥ - الاقتصاد في الاستهلاك.

٦ - التزام جميع الزرّاع بخطة زراعية موحّدة تحدِّد الأصناف التي تزرع.

٧ - عدم التصرف فيما يزرعونه إلا في حدود التعليمات العامة للخطة.

٨ - عدم تبديد المحصول، فيأخذون منه ما يحتاجونه للطعام على قدر الضرورة.

٩ - الاستفادة بأهل الخبرة في الزراعة وتنفيذ التوجيهات والنصائح الزراعية بكل دقة وحزم.

١٠ - إنشاء إدارة حكومية حازمة بمعاونة مسئولي القطاعات في الدولة للإشراف التام على تنفيذ الخطة بكل عناصرها، على أن تضم الكفاءات العالية في علوم الزراعة والاقتصاد[١].

(و) لم يبخل - عليه السلام - على القوم في تأويله للرؤيا بشيء مما علمه الله إياه:

إن يوسف - عليه السلام - لم يبخل بعلمه على القوم الذين سجنوه وما زال باقيا في السجن ظلما، وإن كل هذا النصح والتوجيه منه لهم، لدليل على أننا أمام إنسان لا يمكن إلا أن يكون صاحب خلق عظيم، إنسان عرف بإلهام من الله تعالى كل دقائق المستقبل فأخبرهم بها، ولا يمكن أن يصدر ذلك إلا من نبي من أنبياء الله تعالى[٢].

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣١٩.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤١٩.



(ز) ما كان في استطاعة أحد غير يوسف - عليه السلام - أن يؤوّل لهم الرؤيا بمثل ما أول:

وذلك لأن تأويله - عليه السلام - قائم على علم علمه الله تعالى إياه، كما قال: «ولِنُعَلِّمَهُ مِن تَأويل الأحَاديث» وكما قال لصاحبيه في السجن: «ذلِكُمَا مِمّا عَلّمني رَبّي» أما تأويل غيره للرؤيا فلن يقوم إلا على مجرد الظن والتخمين، فشتان بين تأويل من عند الله العليم الخبير، وتأويلٌ مِنْ عِنْد الكهان والعُرَّاف، ولهذا فقد كان وجود يوسف - عليه السلام - في مصر في هذه المرحلة الزمنية رحمة كبيرة بمصر وأهلها ونجاة لهم من الهلاك المحقق، وخاصة أنه تولى ذلك الأمر بنفسه بعد خروجه من السجن وجُعِلَ مشرفا عاما على تنفيذ الخطة المحكمة للعبور بالبلاد في أمن وسلام خلال سنوات الجدب والقحط.

وهكذا كان تأويل يوسف - عليه السلام - للرؤيا بمثابة تخطيط محكم علمه الله إياه، وقد وازن فيه بين ثلاثة جوانب، الأول - الإنتاج، الثاني - الاستهلاك، الثالث - الادخار، فيعيد استثمار المدّخر ليحل به نَمَطاً من أنْماط المعادلة الصعبة، معتنيا بكل الأسس المادية للخطة وجوانبها البشرية، مثيراً حوافز العمل المادي، مع صيانته بضوابط من القيم الروحية التي تعمل من أجل إغناء الحياة ناظرة إلى ما بعد الحياة[1].

الدولة وملكية الحاصلات الزراعية في السنوات السبع الخصيبة:

يبدو أن الحاصلات الزراعية المنتَجَة من أرض مصر خلال السنوات السبع الأولى الخصيبة، ظلت ملكا لأصحابها الزراع، لكن كانت كل الأعمال الزراعية وتجميع المحاصيل وتخزينها تحت إشراف حازم من الدولة، والأقرب أن تكون الدولة بقيادة يوسف - النبي - عليه السلام - قد سَنَّت في ذلك الوقت قانونا تترك بموجبه للزراع ما يكفيهم وأهلهم في العام على حسب الحاجة الضرورية، ثم تأخذ ما فاض عنهم

---

(١) انظر: سورة يوسف (دراسة تحليلية) / ٤٢١.



بالثمن وتجعله في صوامع الدولة لتوزيعه عليهم بقدر الضرورة خلال سنوات القحط، وما كان يبيعه يوسف - عليه السلام - فيما بعد حين تولى منصبه الرفيع في الدولة، كان من ذلك الحصاد المجموع من الفلاحين، والمجعول في الصوامع، وإلى وقت قريب كانت الحكومة المصرية تفرض على زراع القمح والذرة توريد نسبة محددة من الإنتاج إلى الدولة يخزّن في صوامعها المجهزة لحفظها، وحتى الآن فإن الحكومة المصرية تستقبل اختياريا الحاصلات الزراعية من الحبوب الزائدة عن حاجة الزراع لتخزينها في الصوامع لوقت الحاجة، وذلك في مقابل ثمن مناسب. والمؤكد أن الخطة الزراعية قد نفذت بعد ذلك على أكمل وجه وأتمّه، وكيف لا، وهي تحت إشراف ومسئولية نبي الله ورسوله يوسف - عليه السلام -

لماذا لم يعاود يوسف - عليه السلام - طلبه للساقي أن يذكره عند الملك؟

إن يوسف - عليه السلام - لم يعد في حاجة الآن إلى ذلك، لأنه رآى بنور النبوة أن الملك بعد أن يستمع إلى تأويله المعجز لرؤياه سوف يرسل حتما في طلبه، لأنه الأعلم بقيادة أمور الدولة الاقتصادية فيما هي مقدمة عليه من أمور عظام.

المضمون العام للآية الكريمة:

إن يوسف - عليه السلام - لم يكتف بتأويل رؤيا الملك، بل زادهم على التأويل بإلهام من الله تعالى خبر العام الخامس عشر، عام الغوث والغيث من الله تعالى، وزيادة الخيرات والبركات لتعم مصر كلها، حيث ينهمر المطر ويمتلئ النيل بالماء ويجري ساريا في أنحاء مصر، فتحيا الأرض بعد موتها، وتنبت من كل زوج بهيج، فلا يكتفون بأكل الناتج، ولا يقتصر ذلك على ما يؤكل، إنما يتّسع فيشمل ما يعصر أيضا، وهذا يدل على كثرة الخير وعمومه أنحاء البلاد، فأنت لا تعصر شيئاً إلا إذا فاض عن قوت ذاتك.



من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إن يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات وما بعدها.

٢ - كان ذهاب ساقي الملك إلى يوسف - عليه السلام - في سجنه لتأويل رؤيا الملك سبباً في معرفة مكانته في الفضل والعلْم، فخرج بعد ذلك من السّجن.

٣ - كان تأويل يوسف - عليه السلام - للرؤيا سبباً في إنقاذ أهل مصر ومَنْ حولْها من المجاعة مدة السنوات المجْدبة.

٤ - الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام رحمة للناس جميعاً، سواء في تصحيح العقيدة وتقويم الأخلاق وتصحيح السّلوك، أو في الحياة المعيشيّة والاقْتصاديّة.

٥ - فضل يوسف على أهل مصر جميعا حيث أفادهم بأكثر مما سألوا من التأويل، فلقد زادهم النصح والإرشاد وإعداد الخطة الكاملة لمواجهة سنين الشدّة.

٦ - فائدة علم التعبير وانتفاع الناس به، وأنه من العلوم الشرعية، ويثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وتعبير الرؤيا داخل في (الفتوى).

٧ - حرمة كتمان العلم، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مَنْ سُئلَ عن علم فكتمه أُلجِمَ يوم القيامةِ بلجام من نّار»(١).

٨ - لطف الله العظيم بشعْبِ مصر حيث هيأ لهم بفضله ورحمته نبياً كريماً ورسولاً عظيما ليقوم على مصالح الناس الدينيّة والدنيوية معا.

٩ - في آيات تأويل الرؤيا إعجاز كميّ وكيفيٌّ، حيث أحداث الخمس عشرة سنة وما فيها من أحداث قدريّة وما يَلْزم لها من خطط محكمة لمواجهتها حتّى تمرَّ في سَلام، في أوجَزِ عبارة وأجْزَل لفظ وأنسَبه أداء للمعاني، كل ذلك في كلمات لا يتجاوز

(١). رواه أبو داود (٣٦٥٨) والترذي (٢٦٥١) وأخرجه ابن ماجة، وإسناده صحيح، وصححه ابن حِبّان (٩٥).



عددها بضْعاً وثلاثين، مع أنّ بسْطَ معانيها تحتاج إلى مجلدات، كي تجْلو خطة المواجهة أربعة عشر عاماً ما تتطلَّبُه معانيها.

١٠ - كما تضمنت الآيات الإعجاز الْغَيْبيَّ الذي يتضَمَّن ما سَتُواجِهُه البلاد لمدّة خمسة عشر عاماً مسْتقبلية.

رفع
المسهم

رفع
المسهم

«الآية الخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله: «فَاسْأَلْهُ» قرأ ابن كثير والكسائي «فَسَلْهُ» بغير همز، وقرأ الباقون «فاسأله» بالهمز.

قوله: «النِّسْوَةِ» قرأ أبو حيْوَة وأبو بكر عن عاصم في رواية «النُّسْوَةُ» بضم النون، وقرأ الباقون «النّسْوة» بكسر النون، وهما لغتان(١).

قوله: «اللاّتِي» قرأت فرقة «اللاّي» بالياء، وقرأ الباقون «اللاّتي» وكلاهما جمع (التي)(٢).

ثالثاً - اللغة:

قوله: «الرَّسُولُ» المُرْسل (للمذكر والمؤنث والواحد والجمع) وفي التنزيل العزيز: «إِنّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين»(٣) ويجمع أيضاً على رُسُل، وأرْسُل(٤).

قوله: «مَا بَالُ النِّسْوَةِ» البال: الحال التي يُكْتَرَثُ بها، ومنه ما باليْت بكذا، أي: ما اكترثت به، فمعنى ما بال النسوة» أي: ما حالهن.

رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَقَالَ المْلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ...» معطوف على محذوف، أي لما جاء الرسول وأخبره بتأويلها فقال الملك، وجملة (ائتوني به) مقول القول، فلما: الفاء عاطفة، ولمّا حينيّة ظرفية أو رابطة، وجاءه الرسول، فعل ومفعول به مقدم وفاعل.

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥٥.

(٢) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٦.

(٣) الشعراء/ ١٦.

(٤) المعجم الوسيط/ ١/ ٣٤٤.



قوله: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ارجعْ فعل أمر وفاعله أنت، وإلى ربك، جار ومجرور متعلقان بـ(ارجع)، فاسأله معطوف على ارجع، والهاء مفعول به، و(ما) اسم استفهام مبتدأ، و(بال) خبر، والجملة في محل نصب مفعول (أسأله) المعلقة عن العمل بالاستفهام، والنسوة مضاف لـ(بال) واللاتي، موصول صفة، وجملة (قطعن أيدهن) صلة.

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إن واسمها، وبكيدهن متعلقان بـ(عليم)، وعليم خبر إن[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(1) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٦-٧.

رفع المسيهمل

سادساً - التفسير والبيان:

أمر ملكي بإحضار يوسف - عليه السلام - من السجن.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

وجه المناسبة:

لما أول يوسف - عليه السلام - رؤيا الملك، ورجع الساقي إليه فأخبره بتأويلها، وقع في نفسه موقعا عظيما وصدّقه، فأرسل رسوله ليأتي به ليسمع التأويل منه ويكرمه، قال الله تعالى:

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي» في الكلام حذف قبل هذا يعطيه ظاهر الكلام ويدل عليه[١] والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف - عليه السلام - من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته: «ائتوني به» أي بيوسف - عليه السلام - رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه[٢] وهكذا صدر الأمر الملكي العالي بإحضار يوسف - عليه السلام - من السجن إلى المجلس الملكي بالقصر، ليسمع الملك ذلك التأويل منه[٣] بأذنه، ويختبر تفصيل رأيه ودرجه عقله بنفسه[٤].

عن ابن اسحاق قال: فخرج (بنو) من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك حتى أتى الملك فأخبره بما قال، فلما أخبره بما في نفسه بمثل النهار وعرف أن الذي قال كائنٌ كما قال، قال: «ائتوني به» وعن السدي قال: لما أتى الملك رسوله قال: «ائتوني به»[٥].

---

(١) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣١٦. (٢) فتح القدير/ ٣/ ٣٥.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٥٣.

(٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢١.

(٥) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٣٤.



وهذا القول «ائتوني به» خطاب من الملك إما للملإ الحاضر مجلسه ليرسلوا من يعيّنُونه لإحضاره[١] وإما للفتى الناجي ومن كان معه في رفقته إلى يوسف أوّلا للاسْتِفْتاء عن الرؤيا، وهو الراجح إذ أن السّاقي كان في غاية اللهفة والتّرصّد لأمر الملك هذا، ليكون هو الذي يحظي بتبليغ نبي الله يوسف - عليه السلام - بأمر إخراجه كما حظي من قبل بشرف حمل التأويل منه إلى الملك، وما كان الملك ليرفض للساقي طلبه أن يكون هو الذي يأتي بيوسف، وقد كان سبب التأويل العظيم الذي رفع الغمّة وكشف حقائق المستقبل القريب، ثم إنه من كياسة الملك أن يرسل إلى يوسف صاحبه الذي عرفه ويحبه، لا أن يفاجئه برسول جديد، وهذا ما عليه أكثر المفسرين.

قال الإمام الفخر الرازي: فعاد الشّرابي إلى يوسف - عليه السلام - فقال: أجب الملك[٢].

وقال الإمام الألوسي: «فلما جاءه» أي يوسف - عليه السلام - «الرسول» وهو صاحبه الذي استفتاه فقال له: إن الملك يريد أن تخرج إليه[٣].

وقال الشيخ عبدالله العلمي: وعندنا أن هذا الرسول «فلما جاءه الرسول» هو رئيس السقاة الذي كان قال: «فأرسلون»[٤].

يوسف - عليه السلام - يرفض الخرج من السجن قبل تبرئته من التهمة:

لما عاد رسول الملك - الساقي - إلى يوسف - عليه السلام - ليبلغه قرار الملك بإخراجه من السجن وحضوره بين يديه، كان يتوقع من يوسف أن يطير فرحا بهذا الأمر الملكي ويبادر بالخروج من السجن للقاء الملك، ولكنه وبعد أن أبلغه بالأمر فوجي به - عليه السلام - يرفض الخروج ويقول:

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٥٥.

(٣) روح المعاني / ٦ / ٤٤٧.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٠٢.



«قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ»

قوله: «ارجع إلى ربك» أي سيدك الملك. فاسأله قبل شخصوصي إليه ووقوفي بين يديه، «ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن»(١) إنه - عليه السلام - قد جعل تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله - خبر يوسف مع النسوة - فمعنى «فاسأله» أي فبلّغه سؤالا من قبلي(٢) ففي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة(٣) والبال: الأمر الذي يُهْتَمُّ به ويُبْحَث عنه، فهو يقول: سلْه عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته، فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضيّة عوقبت عليها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل العفو(٤)...

إذاً فهو - عليه السلام - قد قدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قُرِف به وسُجِن فيه، لئلا يتسلّق الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ويجعلوه سُلَّما إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خُلِّد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حُقَّ به أن يُسْجَن ويُعَذّب ويُسْتَكَفَّ شرُّه(٥).

فأراد - عليه السلام - بذكر النسوة بعد طول المدة كشف حقيقة أمرهن معه حتى لا ينظر إليه الملك لحظة مّا بعين التهمة بعد أن يصير إليه(٦) وهذا يدل على شدة طهارته، إذ لو كان ملوّثا بوجه مّا، لكان خائفا أن يذكر ما سبق(٧)... فلو كان - عليه السلام - متهما بفعل قبيح، أو كان قد صدر منه ذنب وفحش، لاستحال بحسب العرف والعادة، أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، لأنه لو كان أقدم على الذنب ثم يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، كان ذلك سعيا منه في فضيحة نفسه، وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية، والعاقل لا يفعل ذلك(٨)...

---

(١) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٨٨.

(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٧. (٤) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢١.

(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٥. (٦) انظر: تفسير البغوي/ ٤/ ٢٤٨.

(٧) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥٥. (٨) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥٨.



إن دعوة الملك شخصيا لم تؤثر في يوسف - عليه السلام - الذي لم يقابل طلب سيد البلاد بردّ الفعل المنتظر عادة كلما طلب من أحد الرعيّة شيئا، فلم يبادر - عليه السلام - بالخروج ويسارع بالمثول بين يدي الملك طمعا في عفو أو مكانة، كما اعتاده الناس وألفوه، بل عَدَلَ بلطف عن إجابة طلب الملك، إلى تحريك الدعوى الجنائية بطريق الادّعاء المباشر، وهو حق مقصور على من لحقه من الجريمة ضرر مادّي أو أدبيّ[١]... ألا وإن أول ما يلفت انتباهنا حقا في جواب يوسف - عليه السلام - على رسول الملك، أنه على الرغم من قضاء يوسف هذه السنوات العديدة مظلوما في السجن، إلا أنه حينما يطلب إليه أن يغادر السجن ومقابلة الملك، فإنه يسعى بكل ما أوتي من قوّة لإثبات براءته، والإثبات قبل أن يغادر السجن[٢] لقد جعل - عليه السلام - براءته في المقام الأول، وخروجه من السجن في المقام الثاني، فلم يكن طلب الملك له والإفراج عنه ليهمه بمقدار ما يهمه براءة ساحته مما أُلْصِق به من العار[٣] فكان هذا الفعل منه - عليه السلام - أناة وصبرا ودليلا على عزة نفسه وإصرارا على حفظ كرامتها، إذ لم يرْضَ أن يكون متهما بالباطل، ولن يخرج حتى يظهر براءته ونزاهته[٤]... وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه الملك بالبراءة من جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا[٥]...

إن موقفه الرائع هذا ليدلنا على أننا نقف أمام شخصية فذّة عجيبة، آية في الهدوء والرزانة والصبر وقوة الاحتمال[٦] وقد وردت السنة المطهرة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره - عليه السلام - قال رسول الله ﷺ: «لو لبثت

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٣٢٣.

(٢) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٤٢١.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٩٠١.

(٤) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢٢.

(٥) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥٥.

(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٢١.

رفع المسا همة

في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[١] وهذا القول من الرسول ﷺ - هو من فرائد تواضعه لإخوانه النبيين والمرسلين، لا أنّه - عليه الصلاة والسلام - لو كان مكانه بادر وعجّل، وإلا فحلمه ﷺ وتحمّله واهتمامه بما يترتب عليه قبول الخَلْق أوامر الحق سبحانه وتعالى أمر معلوم لدى الخواص والعموم[٢].

الحكمة من توجيهه الاستفسار عن قضيته إلى الملك نفسه:

إنه في توجيهه - عليه السلام - السؤال عن قضيته إلى الملك نفسه تصعيد مقصود، ليتولى الملك القضية بنفسه، وليصْدُر الحكم بالبراءة على يديه، فلا يستطيع أحد بعد ذلك مهما كان مركزه في الدولة، أن ينْبِسَ ببنْت شفه في تلك القضية بما يخالف قرار الملك وحكمه، على عكس ما لو تولّى القضية أحد رجالات الدولة أو قضاتها ممن هم تحت الملك، إذاً لأمكن نقض الحكم، وإثارة الشكوك حوله لإضعاف مكانة يوسف عند الملك بعد ذلك لو أرادوا، ولهذا فقد أراد - عليه السلام - أن يرأس الملك مجلس التحقيق بنفسه، حتى يصدر الحكم دون تأثر بأية شخصية، ويكون نهائيا لا يجوز التعقيب عليه لصدوره من أعلى سلطة قضائية في البلاد، ثم إن هذا الحكم سيكون حصانة له ضد كيد النسوة، فلا يستطعن الكيد له أبداً بعد مثولهن أمام مجلس الملك[٣].

لماذا سأل يوسف - عليه السلام - الملك عن قضيته مع النسوة دون أن يكشفها له؟

إن يوسف - عليه السلام - قد أمر الرسول أن يسأل الملك ويستفهمه عن قضيته مع النسوة، والتي بسببها زج في السجن، وهو الطاهر العفيف الشريف، ولكنه في نفس الوقت لم يكشف له عن تلك القضية ولا قصتها ولا أوضحها له، لأن السؤال مُجْمَلا ممّا يُهيّج الملك على الكشف والبحث والاستعلام فتحصل البراءة، وإنما كان الأمر

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في باب التفسير / ٨ / ٣٦٦، ومسلم في كتاب الإيمان / ١ / ٣٣٨.

(٢) روح المعاني / ٦ / ٣٦٦.

(٣) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣٢٤-٣٢٩.



كذلك لأن الملك يأنف من جهله وعدم علمه به، ولو قال: سَلْهُ أن يفتّش عن ذلك، لكان طلبه للفحص عنه، وهو مما يُتَسَامح ويُتَسَاهل به، وفيه جرأة عليه، فربما امتنع منه ولم يلتفت إليه، فأراد - عليه السلام - أن يورد عليه السؤال ليُجْرِي التفتيش عن حقيقة القصة، حتى يتبيّن له براءته بيانا مكشوفا يتميز فيه الحق من الباطل[١]، . . .

قال الإمام برهان الدين البقاعي:

وأخرج الكلام على سؤال الملك عن أمرهن لا على سؤاله أن يفحص عن أمرهن؛ لأن سؤال الإنسان عن علم ما لم يعلمه يُهَيِّجُه إلى البحث عنه، بخلاف سؤاله في أن يفتّش لغيره ليعلم ذلك الغير، فأراد - عليه السلام - بذلك حث الملك لأن يجدّ في السؤال حتى يعلم الحق، ليقْبَل بعد ذلك جميع ما حدثه به من الكيد والاحتيال في إيصال الضرر[٢].

الدبلوماسيّة اليوسفيّة في الإشارة إلى النسوة:

إن يوسف - عليه السلام - وهو النبي والرسول صاحب الخلق الكريم والعقل الرشيد والفطنة الإلهية، لم يكن يريد بسؤال الملك عن شأن النسوة التشهير بهنّ، فإن أخلاق الأنبياء تتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، ولكن كان لابد له من السعي في إظهار براءته مما اتهم به وحبس بسببه، قال الله تعالى: «لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا»[٣] ولهذا فقد اقتصر - عليه السلام - على ذكر ما هو ضروري جدّا لحسم قضيته، فلم يذكر اسم امرأة العزيز، ولا أسماء أو صفات من حضَرْن مأدبتها حين اعترفت أمامهن بمراودتها له واعتصامه منها وتهديدها له بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به، كما لم يذكر مراودة النسوة له وقولهن له: أطع مولاتك، ولا طَلَبَ حضور الشاهد الذي حكم ببراءته حين اتهمته امرأة العزيز بإرادته السوء بها، واكتفى - عليه السلام - بالإشارة إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وفي ذلك كفاية لتحقيق المطلوب،

---

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٥-٣١٦، وروح المعاني/ ٦/ ٤٦٦، وتفسير القاسمي/ ٤/ ٣٧٠-٣٧١.
(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٥٤. (٣) النساء/ ١٤٨.



وتفسير ذلك أن النسوة اللاتي قطعن أيديهن يعتبرن وسطا بين امرأة العزيز المتطرّفة في مراودة يوسف - عليه السلام - عن نفسه، والنسوة الأخريات اللاتي يجب أن يكون لهن دور في مراودته - عليه السلام - ولكنهن لم يتعرّضْنَ لتقطيع أيديهن، وبما أن تقطيع الأيدي إنما تم بسبب امرأة العزيز التي خطّطت لذلك، وبما أن لهذه المرأة ولنسوة المدينة الدور الأكبر في سجن يوسف، لذلك لم يكن باستطاعة يوسف في سؤاله أن يتخطى نسوة المدينة...

وتأمل هذه البساطة البارعة في قوله «ما بال» أي: ما شأن، إنه يكتفي بالتساؤل وإثارة الاهتمام بالإشارة إلى موضع الزناد الذي تُطْلَق الرصاصة بالضغط عليه، الكفيل بإشعال المسألة لأدنى ملامسة، فيبحث الملك عن السبب في تقطيع النسوة أيديهن، ويأتي سؤال آخر هو: لماذا قطّع النسوة أيديهن؟ ويليه هذا السؤال: وكيف تم ذلك؟...

وفجأة نجد امرأة العزيز في قفص الاتهام هي وجماعة النسوة[١] وهنا تظهر آية من الآيات البينات التي أيّد الله تعالى بها نبيه يوسف - عليه السلام -[٢].

ولما كان هذا موطنا يسال فيه عن علم ربه سبحانه لذلك، قال مستأنفا مؤكدا لأنهم عملوا في ذلك الأمر بالجهل عمل المكذب بالحساب الذي هو نتيجة العلم:

«إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ»

فهو - عليه السلام - قد جعل علم الله سبحانه وتعالى بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيا عن التصريح[٣] وهذه الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة، يتبيّنُ منها حينما تصل إلى أذن الملك، أن كيد النسوة وراء الزج بيوسف في السجن ظلما، وهي كذلك تبيّنُ رأى يوسف الواضح في القضية،... وإن لضمير المتكلم في «ربي» لدورا بعيد الدلالة في تعميق مفهوم الإيمان والاطمئنان في نفس يوسف - عليه السلام - وإن لسان حاله

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٢٣-٤٢٤.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٣٢٦.

(٣) فتح البيان / ٦ / ٣٥٢.



ليقول: إن ربي الذي جعل لكيد النسوة وقتا من الأوقات سلطة عَلَيّ، لن يتخلى عني وسيثيبني جزاء صبري ورضاي بِقَدَرِه عليّ[1].

توقع يوسف - عليه السلام - أن تقر النسوة بحقيقة الأمر في قضيته:

توقع يوسف – عليه السلام – من النّسْوَة ألا يكتمن الحقيقة عندما قال: «ما بال النسوة... الخ» وذلك لما يأتي:

١ – رأي أن الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع فقد آن لسلْطان الحق أن يغلب سلطان الباطل.

٢ – هو قد ظن فيهن خيراً واعتمد على شَرَفهنّ.

٣ – كان يعتمد على الشاهد الحكيم من أهل امرأة العزيز الذي برأه من التهمة سابقاً.

٤ – إنه لم يُحْبس بحكم قضائي ولم تثبت عليه تهمة ولم يحدد سجنه بزمن، وإنما حبس حبْساً إداريا (حتّى حين).

٥ – موقف ملك مصر منْه وثقته بعلمه ودرايته وتولّيه قضيته بنفسه، وإن هيبته والخوف من الكذب أمامه سيعمل على قول الصّدْق من النسوة.

٦ – هو يعلم أنَّ الواقع والأحداث تَشهَد بصدقه، فلو كان كما اتهموه به لم يكن هذا الحال حاله، ولما أصرَّ على البقاء في السجن بعد أن طلبه الملك حتى تثبت براءته.

٧ – علمه من ربه العلي الأعلى والولَيّ المولى أن الله تعالى يُحق الحق ويبطل الباطل، ولو بعد حين(٢).

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٢٥.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٩٠٦.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما سمع الملك تعبير يوسف لرؤياه، وقع ذلك التعبير في قلبه وأعجب بيوسف - عليه السلام - وبعلمه وبفضله، فأحب أن يراه ويتكلم معه ليزْداد معرفة به وبفضله، وأرسل رسوله إلى يوسف ليأتيه به، فلما جاءه الرسول من طرف الملك وأخبره بأن الملك يدعوه ويريد أن يراه، فامتنع أن يخرج من السجن وهو متَّهم، وأراد أن يجري الملك التحقيق في قضيته لتظهر براءته ونزاهته فيخرج من السجن بريء الساحة عالي الرأس موفور الكرامة، وحتى لا يقول الناس، إن الملك أخرجه بسبب تأويل الرؤيا مع أنه متهم لذلك قال لرسول الملك:

ارجع إلى سيدك واطلب منه أن يحقق ويعلم ما بال النسوة اللاتي قطّعْنَ أيدهنّ، وما سبب هذا القطع، فإنه كان وراء ذلك كيد في حقي، وإن ربي بكيدهنّ عليم، فليعلم الملك ذلك، ليتحقق من براءتي ممّا نُسِبَ إليّ وأنا بريء منه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الخلق الكريم والصبر العظيم والحكمة البالغة في رفض يوسف - عليه السلام - الخروج من السجن حتى تثبت براءته.

٢ - فضيلة الحلم والأناة وعدم التسرع في الأمور.

٣ - وجوب نفي التهم والاجتهاد في ذلك، وهو واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها، قال عليه الصلاة والسلام «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التُّهم»[١] وقال للماريّن في معتكفة وعنده بعض نسائه: (هي فلانة) اتقاءً للتهمة[٢].

٤ - العلم المقْرون بالعمل الصالح سبب للخَلاص من المحن الدنْيَوية والأخروية.

---

(١) رواه البخاري/ ٨/ ١٣، ٣٩.

(٢) ورد هذا المعنى في حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وفلانة هي صفية بنت حُيَيّ أم المؤمنين.



٥ - العلماء أغنياء بعلمهم الذي يصلهم بربهم عن غنى الملوك، والملوك فقراء إلى علم العلماء.

٦ - لا بأس بانتهاز الفرصة لإثبات الحق والصدق والبراءة، ولا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك.

٧ - عدم المبادرة إلى الاتهام بالسُّوء والطعْن بالأعراض، واجب شرْعاً.

٨ - وجوب صدور تشريع قضائي يتضمن اتخاذ إجراءات وقائية لحماية الأبرياء من ظلم الظالمين.

٩ - سعة صدر الملك الرّيّان حيث لم يغضب على يوسف لرفضه الخروج من السجن والمثوول بين يديه، بل وأجاب طلبه في إجراء التحقيق في قضيته بنفسه.

١٠ - حكمة طلب المسجون ظلماً البقاء في السجن حتى تثبت براءته ليْسَت حكمة مُطّردة مع كل الناس، وإنّما تكون لمثل حال يوسف مع الملك.

١١ - من سنة الله تعالى في خلقه - إحقاق الحق وإبطال الباطل.

١٢ - فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، أفضل من الصورة الظاهرة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة، والسَّجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة بعد ذلك والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.



«الآية الواحدة والخمسون»

أولاً - النص الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله: «حَصْحَصَ» قرأ العامة من القراء «حَصْحَصَ» بالبناء للفاعل، بمعنى ثبت الحق واستقرّ، وقُرِئَ بالبناء للمجهول على معنى أُقِرَّ الحقُّ في مقرّه ووضع في موضعه(١).

ثالثاً - اللغة:

قوله: «مَا خَطبكُنّ» الخطْب: الشأن والأمر، صغر أو عظم، وهو مصدر خطب يخطُبُ، ومنه: هذا خطب يسير وهذا خطب جَلَل، وجمعه خطوب، وخصه بعضهم بماله خطر فقال: الخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره، ومنه قولهم: جلّ الخطب، أي عظم الأمر والشأن، وفي التنزيل: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ»(٢) و«قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ»(٣) والمعنى: ما كان شأنكن وأمركن إذ قلتن ليوسف ما قلتن(٤) أو: ما فعلتنّ وأردتن به في ذلك الوقت(٥).

قوله: «حَصْحَصَ الحَقُّ» أي: ثبت واستقرّ، وقال الخليل: حصحص معناه تبين وظهر بعد خفاء، وقال بعضهم هو مأخوذ من الحصة، والمعنى بانت حصة الحق من حصة الباطل كما تتميز حصص الأراضي وغيرها، وقال الراغب: حصحص الحق وذلك بانكشاف ما يغمره، وحص وحصحص نحو كفّ وكفكف، وحصة قطعة، إما بالمباشرة

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٦، وتفسير البحر/ ٥/ ٣١٦، وروح المعاني/ ٦/ ٤٤٩.

(٢) الذاريات/ ٣١. (٣) طه/ ٩٥.

(٤) انظر: المفردات (كتاب الخاء)/ ١٥٠، واللسان/ ١/ ٣٦٠، والقاموس المحيط/ ١٠٣، وصفوة البيان لمعاني القرآن/ ٣١٠.

(٥) انظر: التبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٣٥، وإعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش)/ ٥/ ٧.



وإما بالحكم، والحصة: القطعة من الجملة، وتستعمل استعمال النصيب، وفي الصحاح: هو من حصحص البعير إذا ألقي ثفناته للإناخة، قال:

فحصحص في صم الصفا ثفناته *** وناء بسلمي نوءة ثم صمما[1]

والثفنات: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما[2].

رابعاً - الإعراب:

قوله: «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ»

(ما) اسم استفهام مبتدأ، وخطبكن خبر، وإذ ظرف متعلق بخطبكن لأنه في معنى الفعل، وجملة راودتن في محل جر بإضافة الظرف إليها، وراودتن فعل وفاعل ويوسف مفعول به، وعن نفسه متعلقان براودتن.

قوله: «قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ»

(لله) بيان، و(ما) نافية، و(علمنا) فعل وفاعل، و(عليه) متعلقان بعلمنا، ومن حرف جر زائد، وسوء مجرور لفظا بمن، منصوب محلا على أنه مفعول علمنا.

قوله: «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» فعل وفاعل، والآن ظرف زمان متعلق بحصحص، والحق فاعل حصحص.

قوله: «أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ»

أنا مبتدأ، وجملة راودته خبر، وهي فعل وفاعل ومفعول به، وعن نفسه متعلقان براودته، والواو حرف عطف، وإنّ واسمها واللام المزحلقة، ومن الصادقين خبر إنه.

خامساً - الموقف من المتعارضات:

من الذي تولى إعادة التحقيق في قضية يوسف - عليه السلام - مع النسوة؟

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه / ١٩.

(٢) إعراب القرآن وبيانه / ٥ / ٥-٦، وانظر: الكشاف / ٢ / ٣٢٦، والمفردات (كتاب الحاء) / ١٢٠، والدر المصون / ٦ / ٥١٣.



ذهب أكثر المفسرين إلى أن الذي تولى إعادة التحقيق في قضية يوسف - عليه السلام - مع النسوة هو الملك نفسه، وهذه بعض أقوالهم:

قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز، وأما العزيز فقد مات(١).

وقال الإمام الطبري: فدعا الملك النسوة اللاتي قطّعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: «مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ»(٢).

وقال الإمام الماوردي: «قَالَ مَا خَطْبُكُنّ» فهذا سؤال الملك قد تضمّن تنزيه يوسف لما تخيّله من صدقه لطفا من الله تعالى به، حتى لا تسرع واحدة منهن إلى الكذب عليه(٣).

وقال الإمام البغوي: فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة وامرأة العزيز «قَالَ مَا خَطْبُكنّ»(٤).

وقال الإمام ابن عطية: فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن وقال لهن: «قَالَ مَا خَطْبُكنّ»(٥)...

وبهذا قال الإمام أبو حيان الأندلسي(٦) والإمام الألوسي(٧). والإمام ابن كثير(٨) والإمام محمد الطاهر بن عاشور(٩).

وذهب قلة من المفسرين إلى أن الملك لم يقم بالتحقيق بنفسه، قال الشيخ عبدالله العلمي: انصاع (بنو) رسول الملك - الساقي - لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف إلى الملك، فأمره بإجراء التحقيقات السرّيّة، لأنها دعوى متعلقة بالعِرْض،

---

(١) تفيسر القرطبي/ ٩/ ٢٠٧. (٢) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٣٦.
(٣) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٧٦. (٤) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٤٨.
(٥) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣١٩. (٦) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٦.
(٧) روح المعاني/ ٦/ ٤٤٨. (٨) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨١.
(٩) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٩٠.



كما ذكر الشيخ قبل ذلك أن بعضهم قال: هو مندوب الملك، ذهب إليهن وجمعهن في محل واحد بما فيهن امرأة العزيز وسألهن هذا السؤال «مَا خَطْبُكنّ»(١).

الترجيح:

والراجح هو الاتجاه الأول القائل بأن الملك هو الذي تولي بنفسه إعادة التحقيق في قضية يوسف - عليه السلام - مع النسوة، وذلك بدلالة الآتي:

١ - دلالة ظاهر النص على أن القائل هو الملك، فيوسف - عليه السلام - قال لرسول الملك: «فاسأله» أي الملك، ولم يقل مثلا: فاطلب منه أن يحقق في القضية.

٢ - لو قام رسول الملك - الساقي - بالتحقيق بنفسه لظلّت الشبهة قائمة بيوسف - عليه السلام - أمام الناس، لأنه كان صاحبه في السجن.

٣ - لم يكن الساقي مؤهلا للتحقيق في القضية، فهو مجرد خادم ورئيس سقاة ولا خبرة له بذلك، وبعيد جدا وغير معقول أن يكلفه الملك بذلك.

٤ - والساقي لا يجرؤ أن يذهب إلى قصور الأمراء والوزراء من كبار رجالات الدولة، ليجمع زوجاتهم ويستجوبهن عن القضية، وما كان الملك ليأمره بذلك فيكون سببا في اعتراض كبار رجال الدولة على هذا الإجراء.

٥ - لو قام بالتحقيق غير الملك على أي مستوى من القضاء، لأمكن الطعن في الحكم في قضية يوسف ببراءته وإثارة الشكوك حوله.

٦ - كان الملك مهتما بأمر يوسف ومقدرا له كل التقدير، ولذا حرص على أن يقوم هو بنفسه بإعادة التحقيق في قضيته.

٧ - كان يوسف - عليه السلام - صريحاً في سؤاله الملك نفسه أن يفتش عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليتحقق بنفسه من براءته ونزاهته، وحتى لا يكون لأحد بعد أن يحكم الملك في القضية أن يشكّك في الحكم أو يذكر يوسف - عليه السلام - بأي سوء.

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٩١٢، ٩١٩.



وبذلك تثبت براءته القاطعة أمام الناس جميعا وتقطع ألسنة الذين يحاولون الاصطياد في الماء العكر، وليتضح لهم أنه - عليه السلام - هو صاحب الحق على هؤلاء الذين تعدوا عليه دون مبرّر اقتضى سجنه، بل ولم يلتفتوا إلى الآيات والبراهين القاطعة ببراءته - عليه السلام -.

رفع المسيهما

سادساً - التفسير والبيان:

الملك يتولى بنفسه إعادة التحقيق في القضية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما قال يوسف - عليه السلام - ذلك وأبي أن يخرج من السجن قبل تبيّن الأمر، رجع الرسول إلى الملك فأخبره بما قال - عليه السلام - فكأنه قيل: فما فعل الملك؟ فقيل:[١] دعا النسوة وامرأة العزيز إلى مجلس القضاء الملكي،

«**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**»

ففي الكلام متروك قد استغنى عنه بدلالة ما ذكر عليه عنه[٢] والآية الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأن الجمل التي سبقتها تثير تساؤلا في نفس السامع عما حصل من الملك لما أبْلِغ إليه اقتراح يوسف - عليه السلام - مع شدة تشوقه إلى حضوره بين يديه[٣].

ذكاء الملك ودهاؤه في طرح موضوع القضية على النسوة:

كان الظاهر أن يسأل الملك النسوة قائلا: هل كانت المراودة منكن أو من يوسف؟ لأن المقام للتحقيق عن المراودة من أي جانب كانت، لا عن نتيجة المراودة، إلا أنه غيّر الأسلوب إيهاما للنسوة بأنه علم بحقيقة الحال، حتى لا يبقى لإنكارهن مجال، وبأن المراودة كانت منهن، وإنما السؤال عن أنه، هل استجاب يوسف أم لا؟[٤].

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٥٧.

(٢) تفسير الطبري / ٧ / ١٢ / ٢٣٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٨٩-٢٩٠.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٥.



وهذا دهاء عظيم من الملك، إذ فاجأهنّ بسؤال مؤسس على أنّ المراودة قد وقعت منهن فعلا ليوسف - عليه السلام - لينتزع منهن الاعتراف بالحقيقة انتزاعا، وبأقصر الطرق، أشبه بالشبكة التي أحاطت بالمصيد من كل النواحي، فلا هروب ولا مفر من الاعتراف.

وهذا السؤال يدل على أن الملك قد اطلع على الواقع ودرس القضية دراسة مستفيضة، انتهى إلى معرفة دقائقها الخفية، وإلى نتيجة أكيدة صحيحة ببراءة يوسف[١] قال الإمام الماوردي:

فهذا سؤال الملك قد تضمّن تنزيه يوسف لما تخيله من صِدقه، لطفا من الله تعالى به، حتى لا تسرع واحدة منهن إلى الكذب عليه[٢].

قوله: «قال» أي للنسوة بعد أن جمعن[٣] والخطاب يشمل امرأة العزيز[٤] «ما خطبكن» الخطب: الأمر الخطير الذي يحق أن يخاطب به صاحبه، فهو الحديث الجلل الذي يتحدث به الناس حديثا يصل إلى مرتبة أن يخطب فيه، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس[٥] وهنا حذف مضاف تقديره: ما نتيجة خطبكن وأمركن الخطير[٦].

«إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ» أي: خادعْتُن بمكر ودوران ومراوغة يوسف عن نفسه[٧] في يوم الضيافة[٨] وهل وجدتن منه ميلا لكنّ[٩] وقد وجه الملك الخطاب إليهن جميعا، لأن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها[١٠] بعد أن قلن له أطع مولاتك[١١].

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٢١، ٤٢٦.
(٢) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٧٦. (٣) نظم الدرر / ٤ / ٥٧.
(٤) فتح القدير / ٣ / ٢٦.
(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٢٥.
(٧) نظم الدرر / ٤ / ٥٧. (٨) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨١.
(٩) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٦. (١٠) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٠٧.
(١١) تفسير البحر / ٥ / ٣١٦.



النساء المصريات يقابلن دهاء الملك بدهاء أعجب.

قال تعالى: «قلنَ حاشَ لِله ما علِمْنا عليْهِ مِن سُوءٍ» وهذا القول منهن كالتأكيد لما ذكر في أول الأمر في حقه وهو قولهن: «وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ»(١) فتلك هي الشهادة الأولى منهن بطهارته، وما جاء هنا فهو الشهادة الثانية منهن بذلك...

كان المتوقع من النسوة حين سألهن الملك عن أمرهن الخطير مع يوسف - عليه السلام - وموقفه منهن، أن تكون إجابتهن: لا... لم نجد منه ميلا أبدا.

إلا أن هذه الإجابة لو نطقن بها، لكان فيها اعتراف ضمنيّ منهن بمراودة يوسف عن نفسه، ويكون المعنى حينئذ: نحن راودنه ولكنه لم يمل إلى أي واحدة منا، هنالك تكون الطامة عليهن، فيفتضح حالهن وتحيط بهن الذلّة والمهانة أمام الملك ومن معه، وهذا ما لا يُرِدْن أن يقع بحال، صونا لهن ولأزواجهن وأهلهن،...

ولهذا فقد مكرن مكرا عجيبا في إجابتهن على سؤال الملك، وكأنهن ينافسنه مكرا بمكر ودهاء بدهاء، فعملن على إخفاء أمر المراودة منهن ليوسف، وعدم الإشارة إليها البتة،...

وإنه وإن كان الملك قد أوقعهن في مصْيدة حتْمِيَّة الاعترافِ ببراءة يوسف، فليكن له ذلك، ولكن على طريقتهن الماكرة الذكيّة، والتي تحفظ لهن أعراضهن وتصون كرامتهن، فكان جوابهن: «قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ».

و«حاش لله» أي معاذ الله، أي ننزّه الله تعالى أن يعجز أن يخلق بشراً عفيفا مثل هذا(٢) أو المعنى: «حاش لله» تنزيه لله وتعجُّب من قدرته على خلق عفيف مثله(٣) أو تنزيها له - عليه السلام - وتعجّبا من نزاهته وعفته(٤) فالقول مبالغة في النفي والتنزيه(٥).

---

(١) يوسف/ ٣١. (٢) أيسر التفاسير/ ٢/ ٦٢٠.
(٣) التفسير المنير/ ١٢/ ٢٨١.
(٤) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٤.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٩٠.



وقولهن: «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ» أي: ما علمنا على يوسف من ذنب(١) ولا أيّ أمر سيّء يُنسب إليه(٢) من خيانة في شيء من الأشياء(٣) ودليل هذا إغراقهن في النفي بقولهن «من سوء» الذي جئ به نكرة في سياق النفي ليدل على العموم، ودخول «من» عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه(٤) وذلك لأن نفْي الجزء أبلغ من نفي الكل(٥) فمعنى قولهن: «حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ» أي: معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يُشينه ويسوءه، لا كبير ولا صغير، ولا كثير ولا قليل، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء(٦)...

لقد كان أمر تبرئته - عليه السلام - مما اتهم به، هو الحقيقة التي يصعب إنكارها، ولو من مثل هؤلاء النسوة، فقد كان أمر يوسف إذاً من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال(٧) وليت من نسب إليه السوء - حاشاه - كان عنده عُشر مِعْشار ما كان عند أولئك النسوة الشاهدات من الإنصاف(٨)، لقد شهدت له - النّسوة بالبراءة من السوء على علمهن، لأنها شهادة نفْي، ولو كانت شهادتهن على إثبات لشهدن قطعا، وهذا حكم الله تعالى في الشهادات أن تكون على العلم في النفي، وعلى القطع في الإثبات(٩)...

وواضح أن جماعة النسوة في جوابهن، لا يرفضْن حقيقة مراودتهن ليوسف - عليه السلام - التي أشار إليها الملك صراحة في سؤاله لهن؛ بل يسكتْن عنها، وفي السكوت اعتراف(١٠) ولكنه في نفس الوقت من حصافتهن ومكرهن وحرصهن على ألا يأتين بكلمة توشي عن المراودة منهن ليوسف، وإن فُهِم ذلك من الجواب أو لم يُفْهم،...

---

(١) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٧.

(٢) فتح القدير/ ٣/ ٣٦. (٣) فتح البيان/ ٦/ ٣٥٢.

(٤) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٥٧، وتفسير المنار/ ١٢/ ٣٢٢.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٢٦.

(٦) تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢٢. (٧) تفسير الظلال/ ٤/ ١٩٩٥.

(٨) روح المعاني/ ٦/ ٤٥٠. (٩) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٧٧.

(١٠) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٢٦.



كما يتضح أيضا أنهن اقتصرن في الشهادة على ما يتعلق بسؤال الملك، فلم يتعرَّضْنَ لإقرار امرأة العزيز في مجلسهن بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، واقتصرْن على جواب ما سُئِلْن عنه، وهذا من الحكمة بمكان في مثل هذه المواقف، حتى لا تتشعّب الأمور، وتُتَقاذف الاتهامات بين امرأة العزيز وبينهن، ويؤدي ذلك إلى ظهور ما أخفينه، وهو أمر مراودتهن ليوسف - عليه السلام -.

امرأة العزيز تعترف بالحقيقة كاملة:

ولما تم قول النسوة، وشهدن بالبراءة ليوسف - عليه السلام - من كل سوء، لم يَبْقَ إلا ما عند امرأة العزيز، فكأنه قيل: فما قالت التي هي أصل هذا الأمر؟ فقيل:

«**قالت امرأة العزيز**» وكانت حاضرة المجلس الملكي، فصرحت بالحقيقة كاملة،

«**الآن**» ظرف من ظروف الزمان، وأرادت به زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن[١]

«**حصحص الحق**» أي حصل على أمكن وجوهه، وانقطع عن الباطل بظهوره[٢] فالآن تبين الحق وانكشف وظهر، وبمثل هذا روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسّدّي[٣] وقال الزمخشري: ثبت واستقر[٤] وقال الخليل: ظهر وتبيّن بعد خفاء[٥].

وقال الفخر الرازي: وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس[٦]

وقال القرطبي: انقطع عن الباطل بظهوره وثباته[٧] وقال أبو السعود: أقِرَّ الحق في مقره ووضع في موضعه[٨] وقال محمد طه الباليساني: جاء وقت إظهار الحق[٩] ولا تعارض بين الأقوال السابقة وهي تفيد في جملتها أن هذا الوقت هو وقت إظهار الحق بعد خفائه ووضوحه وضوحا يقطعه عن كل باطل، فثبت واستقر وتمكن في القلوب والنفوس تمكنا تاما بلا نقص أو شبهة،... ثم أوضحت امرأة العزيز هذا الحق بقولها:

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٥. (٢) انظر: الدرر/ ٤/ ٥٧-٥٨.
(٣) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٣٦. (٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٦.
(٥) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٣٨٤. (٦) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٠٧.
(٧) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٨٠. (٨) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٥.
(٩) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٢٥.



«**أنا راودته عن نفسه**» إن امرأة العزيز لم ترد بشهادتها مجرد ظهور ما ظهر بشهادة النسوة، بقولهن: «ما علمنا عليه من سوء» من مطلق نزاهة - عليه السلام - فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن، خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز، بل أرادت ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوته من نزاهته - عليه السلام - في محل النزاع وخيانتها، فقالت: «أنا روادته عن نفسي» لا أنه رادوني[1] ولم تقع منه المراودة أصلا[2]، ثم أكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا لكل سوء بقولها مؤكّدا لأجل ما تقدم من إنكارها

«**وإنه لمن الصادقين**»[3] أي في قوله حين افْتَريْت عليه وقلت لزوجي: «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا»[4] فقال: «هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي»[5] وإنما قالت ذلك بعد اعترافها تأكيداً لنزاهته - عليه السلام -، لقد أقرت على نفسها بالمراودة، والتزمت الذنب، وبرأت يوسف - عليه السلام - البراءة التامة[6] ووصفته بأنه صادق، وهو نعت موافق لما جاء على لسان الساقي «يوسف أيها الصديق» فهنا تواتر في نظرة البشر الواحدة، لصدقه - عليه السلام -[7].

لقد كان يكفي امرأة العزيز أن تقول مثل ما قالت النسوة «ما علمت عليه من سوء» ولكنها قالت ما قالت وإن لم يسأل عنه الملك، إظهاراً لتوبتها وتحقيقا لصدق يوسف - عليه السلام - وكرامته، لأن المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه، فجمع الله تعالى ليوسف - عليه السلام - لإظهار صدقه، الشهادة والإقرار، حتى لا يُخَامر نفسا ظنٌّ، ولا يخالطها شك ببراءته - عليه السلام -[8]. وأنه لم يقع منه ما ينسب به شيء من السوء إليه، فمن نسب بعد ذلك هَمّاً، أو غيره، فهو تابع لمجرد الهوى في نبيّ من المخلصين[9].

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٥. (٢) فتح القدير/ ٣/ ٣٦.
(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٥٨. (٤) يوسف/ ٢٥. (٥) يوسف/ ٢٦.
(٦) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٦. (٧) يوسف بن يعقوب/ ٤٢٦.
(٨) انظر: تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٨. (٩) نظم الدرر/ ٤/ ٥٨.



قال الإمام الزمخشري: ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قَذَفَتْه به، لأنهم خصومة، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبقَ لأحد مقال[١].

وقال الإمام أبو السعود: فتأمّل أيها المنصف، هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها، والفضل ما شهدت به الخصماء[٢].

دواعي اعتراف امرأة العزيز بكل الحق وبكل وضوح

إن امرأة العزيز، وهي أم المشكلة ورأس الحربة في اتهام يوسف - عليه السلام - بالمراودة، وسبب معاناته من جراء ذلك ودخوله السجن وبقائه فيه السنين الطويلة.

قد فاجأت الملك ومن معه في المجلس القضائي ومن حولهم من الملأ باعتراف تام بالحقيقة كاملة غير منقوصة، وبصورة لم تكن متوقعة أبداً من امرأة مثلها، لها مكانتها ومنزلتها بين أعالي القوم، وفي أمر يتصل بالشرف والعرض والكرامة.

لقد ضربت بكل ما سوى الحق والاعتراف به عُرضَ الحائط، فلا أهمية بعد الحق لنفس ولا لأهل ولا لمكانة.. وليكن بعد ذلك ما يكون، لقد جاء الحق على لسانها نورا يسطع كالشمس، فكأنها تقول:

إن يوسف محال أن يبدر منه سوء، ومحال أن يستجيب لنزوة نفس، أو يلتفت لشهوة محرمة أبداً... وهو بريء كل البراءة من تهمة المراودة، إنه لم يراودني، بل أنا الذي راودته عن نفسه فأبى واستعصم، وحاشاه أن ينظر ولو من طرف خفي إلى أي سوء.

لقد كان هذا هو مدلُول شهادتها واعترافها أمام القضاء الملكي العالي، فما هو الدافع وراء هذا الاعتراف الصريح منها؟

(أ) من العلماء من علل اعترافها بخوفها من شهادة النسوة ضدها بعد أن أقررْن ببراءة يوسف - عليه السلام -، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت فأقرّت[٣]

---

(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٦. (٦) تفسير أبي السعود/ ٥/ ٢٨٥.

(٣) انظر: تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٧، وتفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٤.



(ب) ومنهم من علّل اعترافها بأنها كانت واقعة تحت تأثير تأنيب الضمير[1] فقد كانت السبب في كل ما أصابه من سجن وإيذاء واتهام بما لم يفعل.

(جـ) ومنهم من علل اعترافها بأنها لما علمت أن يوسف - عليه السلام - راعي جانبها حيث قال: «ما بال النسوة» ولم يذكرها باسمها، مع أن الفتن كلها إنما نشأت من جهتها كافأته على ذلك باعترافها[2].

ومنهم من علل اعترافها بأن من ورائه دافع الإيمان بالله والتصديق برسالة يوسف - عليه السلام - ونبوته،

أما التعليل الأول، والمتمثل في خوفها من شهادة النسوة عليها بالمراودة إذا هي أنكرت، فيردُّه أنّ هذا الخوف غير موجود أصلا للآتي:

أولاً - لأنها وهي بين النسوة واحدة منهن، وإجابتهن إجابة لها أيضا، حيث لم تعترض عليها،

وثانياً - لأن النسوة في شهادتهن لم يُشِرْن إليها من قريب ولا من بعيد،

وثالثاً - لأن النسوة لو شهدن عليها بأنها أعلنت أمامهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم، فهددته بالسجن والصغار... الخ، فإنهن يخْشين أشد الخشية لو أنهن فعلن ذلك، لشهدت هي عليهن أيضاً بأنهن راودن يوسف، زيادة على قولهن له: أطع مولاتك، هنالك تكون الطامة الكبرى عليهن، جميعا، ويكون سعيهن ومكرهن في إخفاء أمْر مراودتهن ليوسف وعدم التعرض له في إجابتهن، قد خاب وانكفأ، إذا، فالادعاء بأنها اعترفت خوفا من شهادة النسوة عليهن ادعاء لا أساس له من الصحة.

وأما التعليل الثاني والثالث، والمتمثلان في تأنيب الضمير، أو مكافأة منها ليوسف على ستره عليها وعدم ذكر اسمها على الخصوص، فيردّ ذلك أنه كان يكفيها لإراحة ضميرها ومكافأة يوسف على الستر عليها أن تقول بعد قول النسوة وشهادتهن

---

(1) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٩١٥.

(2) فتح البيان/ ٦/ ٣٥٣.



ليوسف بالبراءة: وأنا أيضا أؤكد ما شهدت به النسوة، فما علمت على يوسف من سوء وحينئذ تتم تبرئة يوسف من التهمة، ويُعْلَم أن اتهامه - عليه السلام - من جانب امرأة العزيز أو مِنْ سواها بالمراودة، اتهام باطل لا أصل له، وبذلك ينتهي التحقيق ويقفل بابه عند هذا الحد، وبهذا ثبت عدم واقعية التعليل الثاني والثالث.

وأما التعليل الرابع والقائل: إن الدافع الوحيد وراء اعتراف امرأة العزيز، هذا الاعتراف الصريح المدوى الناطق بالحقيقة كاملة هو الإيمان فهو الصحيح، وذلك لما يأتي:

١ - أنها أشد الناس معرفة به - عليه السلام - وبسمّوه الخلقي، وقد رأت من آياته ما يبهر الألباب، إلا أنها ما كانت تلقى إلى ذلك بالا لانشغالها بهواها، فلما ثابت إلى رشدها وتدبّرت في أمره مذعرفته - عليه السلام - علمت من هو.

٢ - قولها (الآن حصحص الحق) آية على إيمانها، فإنها تصرح بسطوع شمس الحقيقة وانبلاج الصبح لذي عينين، مما رفع الغشاوة عن البصيرة، فانكشف لها وللقوم أنهم أمام رجل لا كالرجال، بل هو نبي مرسل أنقي من كل نقاء عرفه أهل الدنيا.

٣ - تضحيتها البالغة التي لا تطيق أنثى مهما كانت مكانتها أن تقوم بها في غير هذه الظروف، فما بالك بمن كانت في مثل مكانتها وهي إحدى الأميرات؟ فأدلت باعتراف كامل أمام المجلس الملكي، وهي تعلم تمام العلم أنها تُعرّض مكانتها وسمعتها للانهيار، وأنها تقضي على نفسها بالموت الأدبي، وكان في إمكانها أن تسلك مسلك النسوة، فتعترف ببراءة يوسف - عليه السلام - ولا تزيد، ولكن الإيمان جعلها تلجأ إلى الله تعالى ليغفر لها ويرحمها خشية مما فعلته مع نبي مرسل، ولعله - عليه السلام - يصفح عنها ويدعو لها:

لَعَلَّ رحمة ربي حين يقسمها *** تأتي على حسب العصيان في القسم

٤ - لم تكن عادتها من قبل، الالتجاء إلى الله تعالى، فلما آمنت عرفت الذِّلّة



والانكسار والخضوع لله تعالى، وأنه جل وعز لا يهدي كيد الخائنين - كما سيأتي على لسانها في إتمام شهاتها -

٥ - تجردت من كبريائها وخيلائها واتهمت نفسها، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، فرحمته تعالى هي أصل سعادة الإنسان، ولا تعطى هذه المظاهر الدنيوة البرّاقة شيئا.

إذا، فامرأة العزيز ما فعلت ما فعلت إلا لما شهدته من آيات جعلتها تؤمن به - عليه السلام - كنبي ورسول الله الواحد، وتتجرّد عن كل هوى[١] يقول الشيخ سيد قطب: إن في شهادة امرأة العزيز ما يشي بأن عقيدة يوسف - عليه السلام - قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن[٢].

رد المجلس الملكي لاعتبار امرأة العزيز:

لقد جاءت شهادة امرأة العزيز ببراءة يوسف - عليه السلام - من كل تهمة وعيب وسوء، عالية مدوّية، اهتز لصداها جموع الحاضرين في المجلس القضائي الملكي، وكان في إقرارها على نفسها بأنها المراودة والكاذبة والجانية والمضلّلة، جرْأة متناهية وصراحة فائقة في الاعتراف بالحقيقة كاملة غير منقوصة، وهذه الشهادة منها وهذا الإقرار وإن كانا ضدها، إلا أنهما يحسبان لها رغم ذلك، فالرجوع إلى الحق والاعتراف بالذنب فضيلة، ورفع الاتهام عن المظلوم وردّ اعتباره عمل كريم حتى وإن كان قد سبق ذلك ما يُشين، فحضورها للمجلس الملكي مع شدة حساسيته وما جرى فيه، قد ردّ لها الاعتبار، فلو تُركت وشأنها دون استدعاء لهذا المجلس ومثولها أمامه، لأصابها من الذلة والمهانة ما أصابها خاصة بعد اعتراف النسوة ببراءة يوسف - عليه السلام - وعِلْمُ الجميع أنها هي الأصل في كل ما جرى له، ولكن التحقيق أثبت طهارتها، فإن براءته - عليه السلام - شرف لها، فبعصمته من ربه باعد الله بينها وبين ارتكاب الفاحشة،

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٤٦.

(٢) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٥.



وإن ما فرط منها في حقه - عليه السلام - لم يكن في حق رجل عادي، بل في حق رجل من المصطفين، وهكذا خرجت من المجلس مرفوعة الرأس، ولعل ذلك كان تكريما لها لما بذلته في خدمته - عليه السلام - حين آواه العزيز إلى قصره[1].

تحقيق صرف الكيد عن يوسف - عليه السلام:

وبشهادة النسوة وامرأة العزيز ببراءته - عليه السلام - من كل سوء، تحقق صرف الكيد عنه، استجابة لدعائه «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[2] كما تجلى الله تعالى عليه فلم يكده كائد بعد ذلك أبدا.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما رجع رسول الملك من عند يوسف - عليه السلام - وعرض عليه طلب يوسف في إعادة التحقيق في قضيته فاستجاب الملك على الفور وأحضر النسوة ومعهن امرأة العزيز في مجلس قضاء يتولاه بنفسه، وقال لهن:

ما نتيجة خطبكن، أي أمركن الخطر وقت ما راودتّن يوسف عن نفسه ودعوته إلى أنفسكن أو إلى سيدته، هل كان منه استجابة لذلك؟

قلن (حاش لله) نُنَزِّهُ الله تعالى عن أن يعجز عن خلق مثل يوسف في العفة والطهارة، ما اطلعنا عليه من أي سوء صغير ولا كبير، قالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحق وثبت استقر، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين في قوله:

«هي راودتني عن نفسي».

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣٤٦.

(٢) يوسف / ٣٣-٣٤.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - اهتمام الملك بقضية يوسف - عليه السلام - وتولي إجراءاتها بنفسه دليل على عدالته ونزاهته.

٢ - دهاء الملك وعبقريته في إجراءات التحقيق في القضية.

٣ - عرض القضية بهذه الطريقة وعلى هذا المستوى يدل على أن الشعب المصري كان يتمتع بالكثير من القيم الأخلاقية خاصة فيما يتعلق بالشرف.

٤ - الحق أحق أن يتبع، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

٥ - من تمام التوبة إحقاق الحق ورفع الظلم عن المظلومين.

٦ - أثر الإيمان في نفس امرأة العزيز جعلها تضحي بكل شيء في سبيل الحق.

٧ - من الخصال الحسنة، الجرأة في إعلان الحق والصراحة في إظهار الحقائق وعدم التردد في إنصاف الأبرياء.

٨ - رحمة الله تعالى بيوسف - عليه السلام - إذ جعل له مكانة مكينة في قلب ملك مصر، وذلك بسبب تأويله الرؤيا للملك، ثم بظهور براءته من كل سوء.

٩ - أصحاب الحق هم المنصورون دائما بنصر الله تعالى مهما طال الزمن، فإن الله تعالى هو الذي يحق الحق ويبطل الباطل بقدرته جل شأنه.



«الآية الثانية والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢)

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «لَمْ أَخُنْهُ»

خوْن: الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السّر،...

ونقيض الخيانة، الأمانة، يقال: خنْت فلاناً، وخُنْت أمانة فلان، وعلى ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ»(١)، (٢) أي: بترك فرائض الله وسنن رسوله وارتكاب المعاصي، من الخوْن، وهو النقص، يقال: خوّنه تخْوينا، نسبه إلى الخيانة ونَقَصه، والخائن ينقص المخُون شيئا مما خانه فيه(٣).

قوله تعالى: «بِالْغَيْبِ»

الغيب: مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال: غاب عني كذا، قال تعالى: «أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ»(٤) واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، قال تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»(٥) ويقال للشيء غيْب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى، فإنه تعالى لا يغيب عنه شيء، كما لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقوله تعالى: «عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»(٦) أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه(٧).

---

(١) الأنفال / ٢٧. (٢) المفردات (كتاب الخاء) / ١٦٣.
(٣) صفوة البيان / ٢٣٧. (٤) النمل / ٢٠.
(٥) النمل / ٧٥. (٦) المؤمنون / ٩٢.
(٧) المفردات (كتاب الغين) / ٣٦٦-٣٦٧.



قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

(لا يهدي) هدى: الهداية: دلالة بلطف على ما يوصِّل إلى المطلوب، ومنه الهديّة، وهوادي الوَحْش، أي مقدماتها الهادية لغيرها، وخُصّ ما كان دلالة بـ(هديْت) وما كان إعطاء بـ(أهديْت)، نحو هديتُ إلى البيت، وأهديت الهدية، والهُدى بضم الهاء وفتح الدال: الرشاد والدلالة، يقال: هَدَاهُ هُدًى وَهَدْياً وهِدَايَةً وهِدْيَةً بكسرهما: أرشده، فهدى واهتدى، وهداه الله الطريق و - له - و - إليه -[1] فمعنى (وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدّده[2].

رابعاً - الإعراب:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ذلك مبتدأ، وليعلم، اللام للتعليل، ويعلم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور خبر، ويجوز أن يراد هذا الكلام، لعموم الأحوال، فذلك عندئذ خبر لمبتدأ محذوف، أي فالأمر ذلك، وأن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولَيْ يعلم، وجملة (لم أخنه) خبر أنّي، وبالغيب في محل نصب حال من الفاعل أو المفعول، ويجوز أن يكون ظرفا، أي بمكان الغيب، فيعلّق بـ(أخنه) وأن الله، عطف على أني، وجملة (لا يهدي) خبر إن، وكيد الخائنين مفعول به[3].

---

(١) انظر: المفردات (كتاب الهاء) / ٥٣٨-٥٤١.

(٢) روح المعاني / ٦ / ٤٥٠.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) / ٥ / ٨.



خامساً - الموقف من المتعارضات:

من القائل: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ»، إلى قوله تعالى: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (الآيتان ٥٢، ٥٣)

هل هو يوسف - عليه السلام - أم زليخا امرأة العزيز؟

والمعتمد في ذلك الأمر، اتجاهان[١]

الاتجاه الأول: ويرى أن القائل هو يوسف - عليه السلام - وقد ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين، واستندوا إلى ما روي عن الصحابة - رضي الله عنهم - في ذلك، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قال: هو قول يوسف لمليكه حين أراه الله عذره، وروي مثل ذلك أو قريب منه، عن ابن جريج ومجاهد، وعن أبي صالح، وعن ابن إسحاق الذي قال: يقول يوسف - «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» إطفير سيده «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» أي لم أكن لأخالفه إلى أهله حيث لا يعلمه، وتضيف رواية أخرى عن ابن عباس أن يوسف - عليه السلام - لما قال: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ» غمزه جبريل - عليه السلام - فقال: ولا حين همَمْتَ بها؟ فقال: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي».

وروي مثل ذلك أو قريب منه، عن أنس وعن الحسن وعن سعيد بن جبير وعن أبي صالح وعن مجاهد وعن قتادة وعن عكرمة وعن حكيم بن جابر وعن أبي الهذيل، وفي رواية عن الحسن قال: خشي نبي الله أن يكون قد زكّي نفسه - أي بقوله - «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ... الخ» - فقال: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي... الآية»[٢].

ذكر أقوال بعض أصحاب الاتجاه الأول من المفسرين:

قال الإمام الطبري: يعني بقوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» هذا الفعل الذي فعلته من ردي رسول الملك إليه وتركي إجابته في الخروج إليه، ومسألتي إياه أن يسأل

---

(١) هناك آراء بعيدة يحسن عدم الالتفات إليها.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٣٨، ٨/ ١٣/ ١-٣، والدر المنثور/ ٤/ ٤٢-٤٤.



النسوة اللاتي قطعن أيديهن، إنما فعلته ليعلم أني لم أخنه في زوجته بالغيب، ثم يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي... الآية﴾.

يقول يوسف صلوات الله عليه ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...﴾(١) فنسب الآيتين إلى يوسف.

وقال الإمام ابن أبي حاتم بمثل ما قال به الطبري، والإمام الماوردي ذكر هذا الاتجاه تحت الوجه الثالث من الوجوه في القائل(٢) والإمام البغوي سار في نفس هذا الاتجاه(٣)، والإمام الزمخشري اعتمد هذا الاتجاه، وإن كان قد أشار إلى الاتجاه الثاني بقوله: وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، ثم دلَّلَ على صحة ما ذهب إليه فقال: فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلا قائداً إلى أن يُجْعَل من كلامه، ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٤). وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، ثم ذكر الزمخشري ما رُوي عن ابن جريح الذي قال في ذلك: هذا من تقديم القرآن وتأخيره، ذهب إلى أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ متصل بقوله: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ... الآية﴾(٥).

وقال الفراء: ولا يبعُدُ وصل كلام إنسان بإنسان آخر إذا دلّت القرينة عليه، ومثاله قول تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٦) وهذا من كلام «بلقيس» - ملكة سبأ -(٧) وقال الإمام القشيري: الظاهر أن قوله ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ وقوله ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من قول يوسف.

وأبو بكر الأنباري: اختار هذا الاتجاه(٨)

والإمام البيضاوي تابع هذا الاتجاه كذلك(٩)

---

(١) تفسير الطبري/ ٧/ ١٢/ ٢٣٧، ٨/ ١٣/ ١. (٢) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٧٨.
(٣) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٤٨-٢٤٩. (٤) الأعراف/ ١٠٩-١١٠.
(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٢٢٨-٢٢٩. (٦) النمل/ ٣٤.
(٧) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٥٧.
(٨) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٠٩-٢١٠. (٩) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٨٧.



وكذلك الإمام برهان الدين البقاعي[1]

وهو كذلك رأي الإمام أبي السعود[2]

ويرى الإمام الشّوْكاني أن القول بأن القائل: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ... الخ الآيتين» هو يوسف - عليه السلام - هو الأولى[3]

والإمام الألوسي اقتصر على ذكر هذا الاتجاه مبيّنا أنه - عليه السلام - جعل قوله هذا فَذْلَكة منه لما نهض له أوّلا من التشهير لطهارة ذيله وبراءة ساحته[4] والأستاذ عبدالكريم الخطيب، يعلّل أخذه بهذا الاتجاه لما جاء في الآيتين من توحيد خالص ومعرفة مستبصره لما لله تعالى من سلطان في قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» وقوله: «إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ» ولهذا فهو يستبعد أن تقول امرأة العزيز هذا الكلام[5].

والدكتور حسن محمد با جودة، انتصر لهذا الاتجاه أيضا، ووافق الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تعليله لاختياره هذا الرأي، قال باجودة: إن امرأة العزيز لم تكن من الوجهة الدينية مهيَّئة لأن يصدر منها كلام كهذا[6].

الاتجاه الثاني:

وذهب جمع من أئمة المفسرين إلى أن قوله تعالى: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ... الآيتين الكريمتين» هو قول امرأة العزيز.

ذكر أقوال بعض أصحاب هذا الاتجاه، وردّهم على أصحاب الاتجاه الأول:

الإمام الماوردي، ذكر هذا الاتجاه تحت قول: الوجه الثاني، وقدمه على الاتجاه الثالث في الذكر وهو أن القائل يوسف - عليه السلام - كما سبق[7].

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٥٨-٥٩. (٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) فتح القدير / ٣ / ٣٦-٣٧. (٤) روح المعاني / ٦ / -٤٥.

(٥) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٥٤-٤٥٥.

(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٢٨-٤٢٩.

(٧) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٧٨.



والإمام القرطبي، بعد أن ذكر الاتجاهين قال: قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة، فالقول به أولى، حتى نبرئ يوسف - عليه السلام - من حلّ الإزار والسّراويل(١).

والإمام أبو حيان يؤيد هذا الاتجاه قائلا: الظاهر أن هذا من كلام امرأة العزيز، وهو داخل تحت قوله: «قالت» والمعنى «ذلك» الإقرار والاعتراف بالحق «ليعلم» يوسف أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات بقولها: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...»، كما ردّ الإمام أبو حيان بعد ذلك على قول الإمام الزمخشري السابق - كفى بالمعنى دليلاً قائلاً أن يُجعل من كلامه أي - يوسف -. قال أبو حيان: وهذا ليس كما ذَكَرَ، إذ لا يتعين في هذا التركيب أن يكون من كلام فرعون، بل هو من كلام الملإ تقدمهم فرعون إلى هذه المقالة فقالوا ذلك بعضٌ لبعض، فيكون في قول فرعون «يريد أن يخرجكم» خطابا للملإ من فرعون، ويكون في هذا التركيب خطابا من بعضهم لبعض، ولا يتنافي اجتماع المقالين(٢).

والإمام ابن كثير انتصر لهذا الاتجاه وقال: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، ثم عاد ابن كثير يقول: والقول الأول - أنه كلام المرأة - أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف - عليه السلام - عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك(٣).

وقال الإمام محمد رشيد رضا مؤيدا لهذا الاتجاه: هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ثم تابع يقول:

ولكن ذهب الجمهور، اتباعا للروايات الخادعة إلى أنها حكاية عن يوسف - عليه السلام - يقول: ذلك الذي كان منّي إذ امتنعت من إجابة الملك، واقترحت عليه

---

(١) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٠٩.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣١٦-٣١٧.

(٣) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨١-٤٨٢.



التحقيق في قضية النسوة، ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب... الخ، وأنه صرَّح بعد ذلك بأنه لا يبرئ نفسه من باب التواضع وهضم النفس. ثم تعجب الإمام محمد رشيد من اقتصار الإمام ابن جرير على هذا القول، كما أعلن اغتباطه بأن ابن كثير مع كثرة اعتماده على الطبري في تفسيره، إلا أنه قد خالفه في ذلك وأيّد الاتجاه القائل بأن الآيتين من كلام المرأة(١).

والشيخ سيد قطب، يرى كذلك أنه كلام المرأة حيث قال: وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخْل من إيثاره - عليه السلام - ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمر، وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف - عليه السلام - قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن، فقالت: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» ثم قال: وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة فتقول: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي... الآية»(٢)

والإمام محمد الطاهر بن عاشور يؤيد هذا الاتجاه فيقول: ظاهر نظم الكلام في قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَم... الآية» أن الجملة من قول امرأة العزيز، وهو في موقع العلة لما تضمّنته جملة «أَنَا رَاوَدَتُهُ عَن نَفْسِه» وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف - عليه السلام - مما كانت رمته به، فالإشارة بذلك إلى الإقرار المستفاد من جملة «أنا راودته» أي ذلك الإقرار - ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب - ثم قال عن قوله «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي»: ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها فقالت: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ»(٣).

وأيّد العلامة عبد الرحمن السعدي هذا الاتجاه فقال: وهذا هو الصواب أنّ هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها ويوسف - عليه السلام - إذ ذاك في السجن لم يحضر(٤).

---

(١) تفسير المنار / ١٢ / ٣٢٣-٣٢٤. (٢) تفسير الظلال / ٤ / ١٩٩٥-١٩٩٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٩٢، ٧ / ١٣ / ٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٣٥.



والدكتور وهبه الزحيلي، بعد أن ذكر الاتجاهين معاً وتعرَّض لرأي الإمام أبي حيان، قال: والظاهر لي هو رأي أبي حيان(١).

والشيخ عبد الله العلمي، زكّي هذا الاتجاه واعتبر أن قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَم... الآية» من تتمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف - عليه السلام - وكان مما قال: إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث آيات، نطقت بها أمام الملك في قصره، في حال وجود يوسف - عليه السلام - في سجنه، كما يفيده كلمتا «فأرسلون» و«لعلي أرجع إلى الناس» فنسبة بعض القول ليوسف - عليه السلام - لَهُوَ من أبْعَد البعد، لأن الضمائر التي قبله عائدة على يوسف، فلا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في«ليعلم... الخ» على العزيز وجعله من كلام يوسف، وقد تضمّنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخا، فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة(٢).

ويدلّل الشيخ محمد طه الباليساني على بطلان الاتجاه القائل بأن قوله تعالى: «ذلك ليعلم... الخ» من قول يوسف فيقول:

أولاً - لأنه لا ينسجم مع نظم القرآن، لأن يوسف - عليه السلام - ألقى كلمته «ارجع إلى ربك فاسأله... الآية» ونتهت، والمقام مقام كلمة امرأة العزيز (وقد سبق ذكر مثل هذا الاستدلال).

ثانياً - إن العزيز برَّأ ساحة يوسف - عليه السلام - أول الأمر بقوله لا امرأته: «إنّ كيدكُنّ عظيم» وقوله: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»(٣) فلم يبق حاجة ليوسف - عليه السلام - إلى أن يبرّئ ساحته أو أن يزكي نفسه.

ثالثاً - إن العزيز كان متوفي في ذلك الوقت، ونصّب الملك يوسف مكانه، فلا حاجة لأن يقول يوسف هذا القول، ثم قال: فالأصحّ أن القولْين من امرأة العزيز علّلت به اعترافها(٤).

---

(١) التفسير المنير/١٢/٢٨٣، ١٣/٥.

(٢) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف/٢/٩٢٣-٩٢٥.

(٣) يوسف/٢٨-٢٩.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/١٢٧-١٢٨.



والدكتور عبد الوهاب النجار يقول تحت كلمة: ملاحظة: يجعل بعض المفسرين قوله تعالى: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي... الآية» من كلام يوسف - عليه السلام - وهو خطأ، لأن نظم الآيات وروح الموضوعَ يأْ بَيَان ذلك، وإنما هو من قول امرأة العزيز، لأن ذلك صدر ويوسف في السجن قبل أن يقول الملك: «ائتوني به أستخلصه لنفسي»(١)

والشيخ محمد جاد المولى، يقتصر على ذكر هذا الاتجاه، فهو أيضاً يؤيده(٢) والدكتور محمد السيد الوكيل يرجح هذا الاتجاه قائلا: وأرجح الآراء في هذا القول أنه من قول امرأة العزيز(٣).

والأستاذ أحمد عز الدين خلف الله، يزيدنا استدلالا على صحة هذا الاتجاه فيقول: يلزم الذين نسبوا الكلام إلى يوسف - عليه السلام - القول بأن نفوس الأنبياء أمارة بالسوء في أكثر الأوقات «إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحمَ ربّي إن ربّي غفور رحيم» ولا ينفعهم حمل ذلك على ما قبل النبوة بناء على من أجاز ذلك عليهم قبلها، خاصة وأن الكلام قد صدر بعد نبوته - عليه السلام - ثم قال:

وقد قسم علماء التربية النفوس إلى ثلاثة أقسام:

١ - نفوس أمارة بالسوء، وهي أدناها.

٢ - نفوس لوامة، وهي أعلى من السابقة درجة.

٣ - نفوس مطمئنة، وهي أعلاها جميعا، وهي مراتب ودرجات لا تتناها، ولا يجوز جعل نفوس الأنبياء في المرتبة الدنيا من مراتب النفوس،... ثم قال: ومن هذا يتبيّن أن الآيتين (٥١، ٥٢) هما حكاية لما قالته امرأة العزيز، من قوله تعالى: «ذلك ليعلم» إلى قوله: إن ربي غفور رحيم»(٤) والبلاغيّون، يرجّحون أن الآيتين (٥١، ٥٢) من قول زليخا امرأة العزيز، وقالوا: لأنه الأقرب إلى المقام والأليق بمقام الغزَل، حيث يفدي

---

(١) قصص الأنبياء (النجار) ١٦٦.

(٢) قصص القرآن (جاد المولى) ٩٥-٩٦.

(٣) نظرات في أحسن القصص / ٣٤٨.

(٤) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣٤٢-٣٤٣.



المحب من يحب بنفسه، ألا ترى أنه عندما استحكمت المحنة وبلغت النهاية فدته بنفسها فقالت: «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ»، وتقربت إلى قلبه بقولها: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ»(١).

والإمام ابن تيمية - رحمه الله - ينصر هذا الاتجاه:

لقد كان الإمام ابن تيمية كأمّة من العلماء في نصر هذا الاتجاه وإثباته، وإبطال الاتجاه الآخر بمصنّف على حدة، ومما قاله في ذلك:

«الوجه السادس» أن قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف - عليه السلام - أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم، أو ليُعْلِم الملك، أو ليُعْلم الله؛ لم يكن هنا ما يشار إليه، فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه، ولا تقدم أيضا ذكر عفافه واعتصامه، فإن الذي ذكره النسوة قولهن: «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنَ سُوءٍ» وقول امرأة العزيز: «أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَفْسِهِ» وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أوّلا، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو، فقول القائل: إن قوله «ذلك...» من قول يوسف مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل، لا يصلح بحال.

«الوجه السابع» أن المعنى على هذا التقدير - لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله -: إن عفّتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه، ويوسف - عليه السلام - إنما تركها خوفا من الله تعالى ورجاء لثوابه، ولعلمه بأن الله تعالى يراه، لا لأجل مجرد علم مخلوق، قال تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»، فأخبر أنه رآى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين، ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك، لم يكن هذا لأجل برهان ربه، ولم يكن بذلك مخلصا، فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله، بل يكون ثوابه على من عُمِلَ لأجْله.

---

(١) تفسير القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٩.



«الوجه الحادي عشر» أن هذا الكلام «ذلك ليعلم... الآيتين» فيه مع الاعتراف بالذنب الاعتذار بذكر سببه، فإن قولها: «أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» فيه اعتراف بالذنب، وقولها: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» إشارةُ تطابُقٍ لقولها: «أنا راودته» أي أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي، ثم بيَّنت السبب فقالت: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» فنفسي من هذا الباب، فلا يُنْكَرُ صدور هذا مني، ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة.

«الوجه الثاني عشر» (مختصرا)

أن يقال: إن الله تعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر توبته منه، ويوسف - عليه السلام - لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه أو يستغفر منه أصلا،...

وإذا كان الأمر في يوسف كذلك، كان ما ذكر من قوله: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي» إنما يناسب حال امرأة العزيز، ولا يناسب حال يوسف، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فِرْيَةٌ على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتياب لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونِسْبته إلى ما نزّهه الله منه(١).

والإمام ابن القيم - رحمه الله - قد تبع أستاذه وشيخه ابن تيمية في ذلك الأمر، وأن القائلة هي امرأة العزيز.

الترجيح:

القول الراجح، بل والصحيح هو القائل: إن قوله تعالى: «ذلك ليعلم... الخ الآيتين» هو من كلام امرأة العزيز قالته في مجلس القضاء الملكي، ولم يكن يوسف - عليه السلام - حاضرا بل كان ما يزال بعيداً في السجن، وذلك لوضوح أدلته وقوة حجته،

---

(١) دقائق التفسير (ابن تيمية) ٣/ ٢٧٥-٢٨٠.



فهو القول الأليق والأنسب والأقوى والأظْهر، أما الاتجاه الآخر والقائل: إنه من كلام يوسف - عليه السلام - فهو بعيد وغير صحيح ويتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير، والروايات التي استند عليها روايا خادعة، كما قال عنها الإمام محمد رشيد رضا الذي قال: إن شيخ الإسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الروايات، فهو ما نصر هذا القول - أنه كلام المرأة - إلا وقد فنّد روايات القول الآخر[1].

قال ابن تيمية: وغير مستبعد أن يكون أصل هذا - أي الروايات القائلة بأنه كلام يوسف - من اليهود أهل البُهْت، الذين كانوا يرمون موسى - عليه السلام - بما برأه الله منه، فكيف بغيره من الأنبياء؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن وجعل تفسير القرآن تابعاً لهذا الاعتقاد[2] والإمام ابن كثير ما خالف إمامه وشيخه الطبري مع كثرة أخذه منه، إلا لعلمه ببطلان الروايات التي استند عليها الطبري، فالقول بأن قوله: «ذلك ليعلم... إلى آخر الآيتين» من كلام يوسف - عليه السلام - قول واه يحتاج إلى تكلف ربط بينه وبين ما قبله، في الوقت الذي لا يوجد دليل صحيح يدل على أنه من كلام يوسف - عليه السلام -.

---

(١) انظر: تفسير المنار/ ١٢/ ٣٢٤.

(٢) دقائق التفسير/ ٣/ ٢٨٠.

سادساً - التفسير والبيان:

امرأة العزيز تتابع اعترافها وتفصح عن إيمانها

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾

وجه المناسبة:

لما شهدت امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - بالبراءة، وعلى نفسها بالذنب، علّلت سبب ذلك فقالت:

«**ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ...**» إن امرأة العزيز لم تكتف بالإقرار وإيضاح الحق فيما جرى بينها وبين يوسف - عليه السلام - بل واصلت تتم اعترافها وتعلن صراحة عن إيمانها الذي من الله عليه بها.

وقولها: «ذلك ليعلم...» هو في موقع العلّة لما تضمّنته جملة «أنا راودته عن نفسه» وما عُطف عليها من إقرار ببراءة يوسف - عليه السلام - بما كانت رَمَتْه به، فالإشارة بـ«ذلك» إلى الإقرار المستفاد من جملة «أنا راودته» أي: ذلك الإقرار ليعلم يوسف أني لم أخنه[1] في غيبته وأرميه بذنب هو منه بريء[2] وهذه الصيغة تدل على النفي في عموم الأزمان الماضية، وأنها لم تنسب إليه سوءا في غيبته قط، وقد صدقت، لأنها لم تنسب إليه التهمة إلا عندما ألفيا سيدها لدى الباب، ولم يكن ذلك في غيابه بل كان حاضراً، ألا ترى أنها شهدت على نفسها عند النسوة بقولها: «فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ»[3] وعلى هذا فإن اعترافها بمراودته في الآية السابقة كان للمرة الثانية، بعد اعترافها الأول فيما بينها وبين النسوة، والذي لم يرْق إلى تبرئته - عليه السلام - من التهمة أمام الملأ، لأنهن جميعا تواطأن عليه حينذاك.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٩٢.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣١٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٢ / ٢٩٣.



وقولها: «وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» عطف على «ليعلم» وهو علّة ثانية لإصداعها بالحق[1] ومعنى «لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أي: لا ينْفذه ولا يسدّده بل يبْطله ويزْهقه[2] فهداية الكيد مجاز عن تنفيذه، وقد جرَتْ سنة الله تعالى في الكون على أن فنون الباطل وإن راجَتْ أوائلها، لا تلبث أن تنْقشع «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»[3] فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يُتَبَيَّنَ أمره[4] ولا بد أن يقيم الله تعالى سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التَّعْمِيَة، والخيانة: مخالفة الحق بنقض الحق العام، وضدّها الأمانة، والغدْر: نَقْضُه، - أي العهد - خاصّاً[5].

المضمون العام للآية الكريمة:

قالت امرأة العزيز: ذلك الاعتراف مني بالحق، ليعلم يوسف في سجنه أني لم أخُنْه أثناء غيابته، أو أطعن في شرفه وطهارته وعفّته، لأن ذلك خيانة، والله تعالى لا ينْفذ ولا يسدد كيد الخائنين، بل يبطله ويبدّدُ أثره.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمية:

١ - الخيانة ظلم عظيم ومعصية كبيرة.

٢ - حَكَمَ الله تعالى أنه لا يسدّد كيد الخائنين، بل يبطله ويذهب أثره ويفضح صاحبه على الملأ.

٣ - كيد الخائن ومكره عائد عليه لا محالة ولو بعد حين، قال تعالى: «وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ»[6].

٤ - الخائن عدوّ لنفسه وللناس، وعدوّ لله رب العالمين.

٥ - الإقرار بالذنب والتوبة النصوح يجبّان ما قبلهما من الذنوب والمعاصي.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٦/ ١٢/ ٢٩٣.

(٢) روح المعاني/ ٦/ ٤٥٠. (٣) الأنبياء/ ١٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٤.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٥٨.

(٦) فاطر/ ٤٣.



«الآية الثالثة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ» قرأها نافع - ن -، وابن كثير برواية البزّي «بالسُّوِّ إلا ما رحم ربي» والوجه أن الهمزة التي بعد الواو قلبت واوا للواو التي قبلها، وأُدْغِمَت الواو في الواو، وكان أصله السوء بالهمز، فبَقِيَ السُّوِّ بالتّشْديد. وروي - ش - عن نافع، و - ل -/ عن ابن كثير بتحقيق الهمزة الأولى وتخفيف الثانية.

والوجه أن ذلك أقرب إلى القياس، لأنهم إنما يخفّفون الثانية لاجتماع الهمزتين، وتخفيف الثانية أوْلى، لأنها هي المتكررة، ولو لاها لما استثقلت الأولى بانفرادها، ثم إن من المواضع ما يكون فيه الهمزة أوّلا، فلو خُفّفَتْ لأدى الأمر إلى الابتداء بالساكن، لأن تخفيفها تقريب لها من الساكن، وأبو عمرو يخفّف الأولى ويحقّق الثانية، والوجه في ذلك أن الهمزة الأولى ههنا آخر كلمة، والثانية أول كلمة أخرى، والتغيير إلى الأواخر أسبق منه إلى الأوائل، ثم إنه لو خفّف الثانية لكان مُقَرِّباً لأوّلِ الكلمة من الساكن، فكان ذلك مؤديا إلى الابتداء بالساكن.

وروي - ح - عن يعقوب بتحقيق الهمزتين، وكذلك قرأ أهل الشام والكوفة، والوجه أنه الأصل(١)

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» (بَرأ): بَرَأَ الله الخلْق بَرْءاً وبُرُوءاً: خلقهم، فهو بارئ. و(بَرِئ) المريض - بَرْءاً وبُرْءاً: شُفِيَ وتخلّص مما به، و - من فلان براءَةً: تباعد

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٨١-٦٨٢.



وتخلي عنه، و - من الدين والعيْب والتهمة: خَلَصَ وخَلا، فهو بارئ (ج) بِراء. ويقال: فلان بَرِئ السّاجة: خال ممَّا اتُّهِمَ به، وبَرِئُ الذّمَّة: خالص من الدَّيْن، قال ابن الأعرابي: بَرِئَ إذَا تخلَّص، وبَرِئَ إذا تنزَّه وتباعد، وبَرِئَ إذا أعْذَرَ وأنْذر، ومنه قوله تعالى: «بَرَاءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ»[1] أي: إعذارٌ وإنذار[2] و(النفس): الذات، ومعنى «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» أي لا أنزّهها.

قوله تعالى: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» «أَمَّارَة»: من صيغ المبالغة على وزن فَعَّال، مبالغة في وصف النفس بالاندفاع نحو المهالك والمعاصي[3].

قوله تعالى: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو صيغة مبالغة لغافر، وهو مأخوذ من الغَفْر، وهو السَّتْر، فمعنى كون الله غفوراً: كونه كثير المغفرة، و(رحيم) اسم من أسماء الله تعالى، وهو مأخوذ من الرحمة كالرحمن، والمراد من الرحيم: المنعم بدقائق النعم وصغارها على مسْتحقيها وغير مستحقيها[4].

رابعاً - الإعراب:

«وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ» الواو حالية، و(ما) نافية، و(أبرئ نفسي) فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، و(إن النفس) إنّ واسمها، واللام المزحْلَقة، و(أمارة بالسوء) خبرها، و(إلاّ) أداة استثناء، و(ما) يجوز أن تكون مصدرية وموضعها النصب، والتقدير: إن النفس لأمارة بالسوء إلا لمن رحم ربي، وانتصابه على الظرف، ويجوز أن تكون (ما) بمعنى (من)، والتقدير: إن النفس لتأمر بالسوء إلا لمن رحم ربي، أو إلا نفسا رحمها ربي فإنها لا تأمر بالسوء.

وعبارة أبي حيان: والظاهر أن (إلا ما رحم ربي) استثناء متصل من قوله: (لأمارة بالسوء)، لأنه أراد الجنس بقوله: (إن النفس) فكأنه قال: إلا النفس التي رحمها ربي

---

(١) التوبة/ ١. (٢) اللسان/ ١/ ٣٣.

(٣) التفسير المنير/ ١٣/ ٥.

(٤) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ٢١٨-٢٢٩.



فلا تأمر بالسوء، فيكون استثناء من الضمير المسْتكِنّ في أمّارة، ويجوز أن يكون مستثنى من مفعول أمارة المحذوف، إذ التقدير: لأمارة بالسوء صاحبها إلا الذي رحمه ربي فلا تأمره بالسوء، وجوزوا أن يكون مستثنى من ظرف الزمان المفهوم عمومه من (ما) قبل الاستثناء، و(ما) ظرفية، إذ التقدير: لأمارة بالسوء مدة بقائها إلا وقت رحمة الله العبد وذهابه بها عن اشتهاء المعاصي، وجوّزوا أن يكون استثناء منقطعا، و(ما) مصدرية، وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة «إنّ رَبّي غَفُورٌ رَحيم» إنّ واسمها وخبرها(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٢، وتفسير البحر/ ٥/ ٣١٧، وإعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٩.

رفع المسـهم

سادساً - التفسير والبيانات:

تتمّة اعتراف امرأة العزيز:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان في كلامها السابق نوع تزْكية لنفسها، وأنه لم يجْر منها ذنبٌ في شأن يوسف - عليه السلام - استدْركت فقالت:

«وَمَا أبَرّئُ نفسِي...»(١)

فكان قولها هذا، كالاحتراس مما يقتضيه قولها: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادّعاءٌ بأن نفسها بريئة براءة عامة(٢)، ومعنى «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» أي: من المراودة والهم والحرْص الشديد والكيد في ذلك(٣) قال في الإكليل: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» أصل في التواضع وكسر النفس وهضمها(٤).

« إنَّ النّفسَ لأمَّارَة بِالسُّوءِ»

هذه الجملة تعليل لجملة «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» أي: لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، لأن النفوس كثيرة الأمر(٥) لصاحبها بارتكاب الذنوب والمعاصي، فإنها مركبة الشيطان ومنها يدخل بوسوسته وغوايته على الإنسان(٦)

«إلاّ مَا رَحِمَ رَبّيَ»

أي: إلا نفسا رحمها الله تعالى بالعصمة(٧) فأنجى الله صاحبها منها بأن صيّرها نفسا مطمئنة إلى ربها منقادة لداعي الهدى، مبتعدة عن دواعي الرّدي، فذلك ليس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٤. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٤. (٤) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣١٣.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥.
(٦) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٤.
(٧) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٦.



من النفس، بل من فضل الله تعالى ورحمته بعبده[1] وذلك كنفس يوسف - عليه السلام - التي رحمها الله بالعصمة فكان نقيّ الجيْب صحيح العِرْض[2]...

حقيقة النفس الإنسانية بإيجاز:

أطلقت النفس الإنسانية في القرآن الكريم على شيء هو في داخل الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية، التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني، وأسس خصائص النفوس البشرية ومكوناتها وعناصرها تشترك في أصول واحدة، وإن اختلفت نسب العناصر في الأفراد، والنفوس هي التي تُمنح الحياة، وهي التي تموت وتذوق الموت،...

والنفس من صفاتها أنَّهَا تهوَى فلها أهواء، وتشتهي فلها شهوات وتشعر بالمشقّات، وتصبر أو تفجر، وتخاف أو لا تخاف، وتخشى أو لا تخشى، وتجود أو تبخل وتشحّ، وتحسد أو لا تحسد، وترضى أو لا ترضى... إلى غير ذلك من صفات هي من قبل المشاعر الوجْدانية والإدراكية...

والنفس من صفاتها أنها تَهتدي أو تَضلّ، وتتزكّى أو تتدنّس، فمنابع الخير والشر لديها، ولديها فطرة إدراك الخير والشر، كما قال تعالى: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»[3] ولديها الدوافع لفعل كل من الخير والشر، ولهذا فمن صفاتها الأساسيّة الفطرية أنها لوَّامة لذاتها على ما تكسب من شر، ما لم يمت حِسُّ الخير لديها، أو يتخَدَّر، أو يُغْشَى عليه في حالة مرضية، بسبب الاتجاه المفرط إلى فعل الشر، الذي تدفعها إليه وساوس الاستمتاع بلذته، وتسويلات حُبّ العاجلة والرغبة بزينة الحياة الدنيا، فيصير أمرها حينئذ إلى أن تكون نفسا أمارة بالسوء، لا تأمر إلا بشر، ولا تنهى إلا عن خير، فإن بقيت على ذلك حتى الممات، فمصيرها الهلاك يوم الدين في نار وجحيم،...

---

(١) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٣٤.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٢٧.

(٣) الشمس / ٧-٨.



أما إذا استجابت بعد ذلك لنداء الخير، تدفعها إليه دوافع الخير الراقية فيها، والرغبة برضوان الله والجزاء الكريم الذي أعده الله تعالى للمتقين وللأبرار المحسنين، والخوف من العذاب الأليم، في نار وحميم، مستعينة بربها الرحمن الرحيم، فإنها ولا شك تنتقل وتصير نفسا لوّامة بعد أن كانت أمّارة بالسوء، وقد تترقى في الدرجات العلا إلى أن تصير نفسا آمنة مطمئنة، وكل هذه المفاهيم وغيرها عن النفس مما لا يتسع له المجال، قد دلّت عليها نصوص، القرآن الكريم،...

ويمكن أن نثبت للنفس الإنسانية أطرافا ثلاثة:

١ - طرف أعلى ربّاني ينزع إلى الخير، ويعظ به ويأمر بفعله.

٢ - طرف أسفل شيطاني، يوسوس ويسوّل بفعل السوء والشر.

٣ - طرف أوسط، وهو الطرف الذي يحدد مسيرة السلوك، وهو الذي لديه الإرادة المنفّذة، وهذا الطرف تتجاذبه نوازع الطرف الأسفل، ونوازع الطرف الأعلى، وعلى حسب الاستجابة يمكن أن تكون النفس أمارة بالسوء إذا خضعت ورضيت بالطرف الشيطاني الأسفل، ويمكن أن تكون لوامة أو مطمئنة، إذا استجابت ورغبت في الطرف الرباني[١] والنفس في كل أحوالها وصفاتها هي ذات النفس، ولكنها تنتقل من أمارة بالسوء إلى لوامة إلى مطمئنة حسب استجابتها واختيارها، وامرأة العزيز تقول: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ».

وهي النفس الملتصقة بالطرف الشيطاني، البعيدة عن المنهج الرباني، أما النفس المؤمنة، فلا تكون إلا نفسا لوّامة، وهي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، لِمَ لَمْ يستزد من فعل الخير، ولِمَ فَعَل الشر، وتأمره كذلك بالندامة على ما فَرَّط، وبالاستغفار والتوبة النصوح، قال تعالى: «لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»[٢]

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها / ١ / ٢٢٩-٢٣٣.

(٢) القيامة / ١-٢.



فقولها «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» كلام عن حال نفسها في الماضي، أيام اتباع الهوى والشهوة والشيطان، أما نفسها الآن وبعد إيمانها بربها العظيم، فقد صارت نفسا لوامة، تلومها على ما حدث منها في الماضي وتدفعها إلى الخير دفعاً كريماً، ولهذا فقد استثنت قائلة: «إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ» أي: من النفوس التي آمنت به، فأنجاها فأصبحت لوامة... أو اختارها واجتباها فصارت آمنة مطمئنة، وقد عبرت عن رجائها في جانب ربها أن يمن عليها بالنجاة من عمل السيئات، وأن يغفر لها ما فرط منها، فقالت:

«إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ»

وهذه الجملة تعليل لما قبلها، أي إن من شأنه عز وجل كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم[1] فربي (غفور) أرجو أن يغفر لي ما ارتكبته، فهو سبحانه غفور لمن أذنب وعصى، ثم تاب وأناب، وربي (رحيم) يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، ويوفق للأعمال الصالحة،...

لقد جمعت السيدة في قولها بين فضيلتين، فضيلة الاعتراف بالذنب، وفضيلة التوبة والاستغفار وطلب الرحمة من الله تعالى، ومن المعلوم في الإسلام أن الذنوب لا ترفع، والتوبة لا تقبل، إلا بعد الاعتراف والإقرار بالذنب، كما قال تعالى على لسان موسى - عليه السلام - بعد أن وكز القبطي فقضى عليه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[2] وكما جاء في الحديث الصحيح، فعن شداد ابن أوس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذبك من شر ما صنعت، أبُوء»[3] لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفرلي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت... الحديث[4] وهنا يسدل الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف - عليه السلام - وتبدأ مرحلة الرخاء والعِزّ والتمكين[5].

---

(١) فتح القدير / ٣ / ٣٧. (٢) القصص / ١٦.
(٣) أقرّ وأعترف. (٤) رواه البخاري برقم ٥٩٤٧.
(٥) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٠٤.



(امرأة العزيز أيتها المؤمنة التائبة... وداعا)

لا شك أن امرأة العزيز (زليخا) كان لها دور بارز في سيرة حياة يوسف - عليه السلام - بل ولها أثر كبير أيضاً في تطور الأحداث العظيمة التي مر بها - عليه السلام - وإذا نظرنا إلى أهم الأحداث في حياة هذا النبي الكريم فإننا نجد حدثين عظيمين:

الأول: حدث طرْده وإبعاده على يد إخوته مما كان سببا في وصوله إلى قصر العزيز في مصر.

الثاني: ما جرى وبينه وبين امرأة العزيز من أحداث حتى دخل السجن، وإذا دققنا التفكير وجدنا أن الحدث الأول وهو إلقاؤه في الجب، كان السبب في نقل يوسف - عليه السلام - إلى البلد الذي يريده الله له. وأما الحدث الثاني وهو دخوله - عليه السلام - السجن فقد كان السبب في نقله إلى المكانة العالية والتمكين في الأرض، كما علمنا فيما سبق من أحداث - فحدث إخراجه من بلده إلى بلد آخر، كان نقْله مكانية، أما حدث سجْنه، فقد ترتب عليه نَقْلَةَ مَكَانَة، فقد خرج من السجن عزيزاً مكرماً غاية ما يكون عليه الإعزاز والتكريم، خرج ليستخلصه الملك لنفسه، وليتولى أعظم منصب في البلاد بعد الملك، ألا وهو منصب عزيز مصر، لقد كانت امرأة العزيز من الأسرة المالكة في مصر آنذاك وكانت قوية الشخصية حادة الذكاء مستقيمة السّيرة ولا يصح ما يقال عنها من أنها كانت امرأة ماجنة خليعة مستهترة مُتَهَتِّكَة بسبب ما وقع منها ليوسف - عليه السلام - من مراودته المرة بعد المرَّة، وتهديده بالسجن والصغار إن لم يفعل، فإن أي امرأة في مكانها ما كانت أبداً لتستطيع أن تقاوم جذب هذا الجمال اليوسفي الخارق، فلو كان ما وقعت فيه مع يوسف - عليه السلام - يرجع إلى خلاعتها لما وقعت النسوة فيما لُمْنَهَا فيه، وَمَا بَدا منهنَّ مَا بَدا حين ظهر عليهنّ يوسف - عليه السلام - فقد ذُهِلْن عن أنفُسهنَّ كل الذهول، وقطّعن أيديهنَّ وقلن «حَاشَ لِلّه مَا هَذَا



بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ» قال النسوة ذلك وهن بعد لم يرونه إلا لدقائق معدودات، فهل ينتظر من امرأة العزيز وهي تصاحب هذا الجمال المبهر صباح مساء ألا تنجذب إليه أو لا تعشقه وتهيم به، إنَّ ما وقعت فيه من التعلق به تعلقا شغلها حتّى عن نفسها، لم يكن لها قدرة ولا طاقة ولا قوة لترده عن نفسها، فجمال يوسف البهيَّ قد سلبها زمام التحكم والسيطرة على نفْسها وهواها، وأني لها ذلك ويوسف معها أكثر وقتها يخدمها ويقوم على شئونها، سواده معها ووساده قريب منها، وقد سئلت إحدى النساء - كما سبق - وهي من أصل طيب عريق لمّا ارتكبَت الفاحشة مع مخدومها كيف تقعين في ذلك وأنت من أنت؟

قالت: طول السَّواد وقُرْب الوساد، فسوادهُ - أي شخصه - أمامها معظم الوقت، ومكان نومه وتوسده الفراش قريب منها، وكما لطف الله تعالى بإخوة يوسف فحول فكرهم وعزمهم من قتله إلى إلقائه في الجب وحال بينهم وبين جريمة القتل البشعة، كذلك لطف الله تعالى بامرأة العزيز حين ألقت بكل ما تملك من كبرياء وعز وسلطان وجمال تحت أقدام يوسف - عليه السلام - لتنال مشتهاها منه فلم تجده إلا جبلاً عالياً لا يطال ولا ينال، وجدته حصناً محصناً لا يقوي على فتحه كل جند الهوى والشيطان، فحال الله تعالى بينها وبين جريمة الزنا المنكر، بسبب عصمة يوسف - عليه السلام - وكما تاب الله تعالى على إخوة يوسف أخيراً وندموا على ما فعلوا فقد تاب سبحانه وتعالى عليها فتابت واستغفرت.

امرأة العزيز قد آمنت:

إن تصرفات امرأة العزيز الأخيرة لتدل دلالة أكيدة على أنها قد علمت بحقيقة رسالة يوسف ونبوته - عليه السلام - فأسلمت وحسن إسلامها، ولا شك أنها كانت أول من يَتَتَبَّع أخباره وأحواله وهو داخل السجن، خاصة وهي من الأسرة المالكة كما دلت الروايات الكثيرة، وزواجها من عزيز مصر يؤكد هذا، ولعلها كانت تظن أنه

رفع المسابهم

كواحد من البشر سوف لا يتحمل ظلمة السجن وعذابه لبضعة شهور، ولايلبث أن يرسل إليها موافقته على ما تشتهي منه.. حينئذ تستعمل سلطتها ومكرها لإعادته إلى قصرها، لكنها علمت عنه ما هدَّ كيانها وقطع آمالها وأيْأسها من نيل مطلبها، لقد علمت أنه ما شكى في السجن ولا بكى، ولا تألم ولا اشْتكى، بل كان نوراً من نور الله تعالى يمشي ويسري بين أهل السجن بالرحمة والمودَّة وحسن الخلق، حتى أوْحَى الله إليه فأخذ يدعو الناس في السجن إلى توحيد الله تعالى وعبادته وترك عبادة كل ما سواه، فتأثرت بدعوته تأثراً كبيراً قَلَبَ كل حياتها من ظلام إلى نور، ومن موت إلى حياة، وكيف لا، وقد كانت أقرب الناس إليه وأعلم الناس بخُلقه العالي وطُهره الطاهر وصفائه الصَّافي، هنالك... لم يعد يوسف بالنسبة لها كما كان في الماضي، بل أصبح لها هادياً ومرشداً ونبياً رسولاً، تتلمسُ أخباره من بعيد وتتعرف على أحواله وهداياته من هنا أو هناك...

حتى جاءت لحظة الوقوف والاعتراف بالحق أمام مجلس القضاء الملكي الأعلى، فكانت شهادتها صيحة حق مدوِّية، مبرئةً ليوسف - عليه السلام - من كل تهمة، ومُثْبتة له كل كرامة وطهر ونبل وشرف، وفي نفس الوقت معْلنة عن ذلك الإيمان العظيم في قلبها المشرق الوضيء، وما كان لأنثى مثلها أن تصدع بما صدَعَت به من الحق أمام الملإ العظيم لولا الإيمان، فكان يكفيها أقل منه بكثير لو لم تكن قد آمنت وصدَّقت، وإذا تأمَّلنا ما جاء على لسانها تعْقيباً على اعترافها من قوله تعالى: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ - إلى قوله تعالى: إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فمن نور هاتين الآيتين الكريمتين نرى دلائل إيمانها تتلألأ نوراً على لسانها واضحة مشرقة، ألم تقل «وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

قاعدة إلهية وسنَّة مطردة في كوْن الله تعالى، فالخائنون محرومون من هداية الله مبعدون عن رحمته مقْطوعون عن فضله وكرمه، ألم تُنْبِئْنا بحقيقة النفس وميلها



إلى الشّهوات ودوام أمْرِها بها، إلا نفسا رحمها خَالِقهَا فعصمها من كل سوء، كنفس يوسف - عليه السلام - والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ألم تَرْجُ الله ربها بعد أن تابت وأنابت ورجعت إليه أن يغفر لها ويرحمها «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ». فأي دلالة على صحة إيمانها بعد كل هذا. وقد صح أنها هي القائلة والمتكلمة بما سبق.

هل تزوجت (زليخا) بيوسف - عليه السلام -؟

إن أكثر كتب التفسير قد ذكرت أن زليخا تزوجت بيوسف - عليه السلام - وكذلك فإن أكثر مؤرخي العرب يذهبون إلى ذلك...

أخرج الطبري عن ابن إسحاق أن الملك زوّجه منها، فلما دخلت عليه عروسا قال لها: أليس هذا خيراً ممَّا كنت أردّتِ؟ فقالت له: أيها الصدّيق، كنتَ في غاية الجمال، وكنت شابَّة عذراء، وكان زوجي لا يطأ، فغلبتني نفسي في حبّك، فدخل يوسف بها فوجدها بكراً، وولدت له ولدين، إفرام، ومنشي[1].

وقال المطهر المقدسي: وكان - يوسف - تزوج زليخا فولدت له اثنين افرايم، ابن يوسف جدّ يوشع ابن نون، وكان وليّ عهد موسى من بعده، ومنشي، ابن يوسف أبو موسى صاحب الخضر كما يزعم أهل الكتاب، وجاء في قصص الأنبياء المنسوب إلى الكسائي أن يوسف - عليه السلام - لما اجتمع بأهله اخبرهم بما جرى له في مصر، وحدثهم بحديث (زليخا) وأن أولاده منها، وقال الكسائي في موضع آخر:

وكانت (زليخا) ماتت قبل يوسف فحزن عليها ولم يتزوج بعدها[2].

هذا، والحق أن أمر البت في زواج زليخا من يوسف - عليه السلام - والحُكم بصحته لم يردْ في أي مصدر يُعوّلُ عليه، يقول الإمام المحقق ابن عطية الأندلسي: وروي في نحو

(١) تاريخ الرسل والملوك (الطبري) ١ / ٣٤٧.

(٢) انظر: البدء والتاريخ (المقدسي) ٣ / ٦٩، وقصص الأنبياء (للكسائي) وجه ق ١٨٦، وظهر ق ١٨٨ على التوالي.



هذا من القصص ما لا يُوقَفُ على صحّته، وقد أشار قبل ذلك إلى ما رُوي عن زواجها من يوسف[١].

وقال الإمام الألوسي البغدادي: وخبَرُ تزوّجها أيضاً ممّا لا يعَوّلُ عليه عند المحدّثين.

هذا ويمكن الردّ على من ادّعى بأن الله أعادها شابة ليتزوجها يوسف - عليه السلام - بأن ذلك لو حدث لكان معجزة له، ولَأخْبَرَ عنها القرآن الكريم، كما أخبر عن معجزة ردّ البصر إلى يعقوب - عليه السلام - ولكن ذلك لم يقع، فبطل هذا الادّعاد.

لقد أكرم الله (زليخا) بما هو أعظم من الزواج بيوسف - عليه السلام - أكرمها بالإيمان العظيم.

إن هداية الله تعالى لامرأة العزيز، وشرح صدرها للإيمان بيوسف - عليه السلام - ودعوته، هي قمة العطاء الإلهي، وهي النّعمة فوق كل نعمة وكفى بها نعْمة، وإن مجرّد زواجها من يوسف الذي يتعلق به البعض ويود لو كان صحيحاً، لا يساوي شيئاً بجانب الإيمان... فقد حكى القرآن الكريم عن المرأتين اللتين تزوجت كل واحدة منهما برسول من رسل الله، ولم ينفعهما هذا الزواج شيئاً عند الله رب العالمين، واستحقت كل واحدة منهما النار لكفرها حتى ضرب الله بها المثل للذين كفروا، قال تعالى: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»(التحريم ١٠).

فعطاء الإيمان العظيم لزليخا، والذي جرى على لسانها فيَّاضاً بالنور والرضا واليقين في الآيتين التعقيبيَّتَيْن (٥٢-٥٣)، السابقتين، هو العطاء الأكرم والأسمى والأبقى والمقبول عند الله رب العالمين، فهذا هو ما يجب أن تتعلق به القلوب وتهتم به العقول المؤمنة المخلصة، ولعل الله سبحانه وتعالى، وكما أخبر رسوله - ﷺ - في الصحيح

(١) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٥-٣٢٦.



المتّفق عليه (المرءُ مع من أحبّ) أي حب الإيمان يكرمها ويتم عليها نعمته في الآخرةويجمعها بيوسف لتحظى بكونها زوجة له في الجنة ولا حرج على فضل الله تعالى ورحمته، وما علينا الآن إلا نقول لها الآن:

فسلاما عليك وتحية روحمة من الله تعالى يا (زليخا)

يا أخت الإيمان لنا...

ولكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم اللقاء العظيعم.

رفع
المسابهم

المضمون العام للآية الكريمة:

وتابعت امرأة العزيز كلامها متمّمة لاعترافها قائلة: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، من مراودة وكيد وتهديد ونحوه، «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» لأن النفس من طبيعتها أنها تأمر بالسوء دائماً «إِلاَّ مَارَحِمَ رَبِّي» من نفس فصارت بتوفيق الله تعالى نفسا مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متباعدة من داعي الردي، فذلك ليس من النفس بل من فضل الله تعالى ورحمته بعبده، «إِنّ رَبِّى غَفُور» لمن تجرّأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب «رَحيم» بقبول توبته وتوفيقه للعمل الصالح.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - أكثر النفوس نزّاعة للشهوة ميّالة للهوى آمرة بالسوء إلا من رحم الله.

٢ - أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه.

٣ - من جاهد نفسه وهواه وصبر على ذلك مستعينا بربه تعالى، أنجاه الله من نفسه الأمارة بالسوء وصيرها نفسا آمنة مطمئنة.

٤ - فضل الله تعالى ورأفته بعباده، فهو غفار لذنوبهم إذا استغفروه، تواب عليهم إذا تابوا وأنابوا إليه، بل ويبدل سيئاتهم حسنات، إنه كان غفوراً رحيما.

٥ - على المؤمن أن يكثر من الاستعاذة بالله تعالى من شر نفسه، وأن يسأل الله تعالى أن يُزَكّيها ويؤتِها تقواها، فمن دعائه ﷺ: اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومؤلاها[١].

---

(١) رواه مسلم.



«الآية الرابعة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله: «أستخلصه» خَلَصَ: الخالص كالصافي، إلا أنّ الخالص هو ما زال عنه شَوْبَهُ بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لَما لا شَوْبَ فيه[1] يقال: خَالَصَهُ: صافاه، واستخْلصه لنفسه: استخصّه[2] ويقال: استخلصه واستخَصَّه: إذا جعله خالصا لنفسه وخاصا به[3].

قوله: «مكين» مكين: اسم فاعل من مَكُنَ مكانَةً إذا عظم وارتفع، يقال: مَكَّنتُه من الشيء: جعلت له عليه سلطانا وقدرة، فتمككَّنَ منه واسْتمْكَنَ، أي قدر عليه[4] ويقال: مكَّنتُه وَمَكَنْتُ له فتمَكّن، ويقال: مكان ومكانة: منزلة[5] والمِكْنَةُ: التمكُّن، تقول العرب: إن بني فلان لذو مُكنَةٍ من السلطان: أي تَمكّن، ويقال: فلان مكين عند فلان: أي بَيِّنُ المكانة، يعني المنزلة، والمكانة: المنزلة عند الملك[5].

قوله: «أمين» أصل الأمن، طُمَأنينَةُ النفس وزوال الخوف، والأمنُ والأمانةُ والأمان في الأصل مصادر، ويُجْعَلُ الأمان تارةً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارةً اسْماً لَما يُؤْمَنُ عليه الإنسان[6] يقال: رجل أمين وأمَّان، أي له دين، وقيل: مأمون به ثقة[7].

---

(١) المفردات (كتاب الخاء) ١٥٥. (٢) القاموس المحيط / ٧٩٧.

(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٨.

(٤) القاموس المحيط / ١٥٩٤، وانظر: صفوة البيان / ٣١٠.

(٥) اللسان / ١٣ / ٤١٢-٤١٣. (٦) المفردات (كتاب الألف) ٢٥.

(٧) اللسان / ١٣ / ٢٢.



رابعاً - الإعراب:

قوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» عطف على ما تقدم، وقال الملك، فعل وفاعل، وجملة (ائتوني به) مقول القول، و(أستخلصه) فعل مضارع مجزوم لأنه وقع جوابا للأمر، والفاعل مضمر، والهاء مفعول به، ولنفسي، متعلقان بـ(أستخلصه).

«فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» الفاء عاطفة على محذوف يمكن تقديره بما تَتَسَاوَقُ معه مُجْرَيات القصة وحوادثها، أي: فجاء الرسول يوسف وقال: أجب الملك، فقام معه... فلما... الخ.

و(لمَّا) ظرفية حينيَّة، أو رابطة، و(كَلَّمه) فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وجملة (قال) جواب (لمَّا) لا محل لها، وإن واسمها، والظرف متعلق بمحذوف حال، و(لدينا) متعلق بمكين، ومكين، خبر إنّ، و(أمين) خبر ثان(٣).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ١٢.

سادساً - التفسير والبيان:

«يوسف - عليه السلام - بين يدي الملك»

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أتم ما قدّمه مما هو الأهم، من نزاهة الصديق، وعلم الملك ببراءته وما يتبعها، على ما كان قبله من أمر الملك بإحضاره إليه[١] فكأنه قيل: وماذا فعل الملك بعد أن تحقق من براءته؟ فقيل: طلبه لنفسه بدليل قوله تعالى:

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي».

هذه الجملة عطف على ما تقدم وفي الكلام حذف والتقدير: فسمع الملك كلام النسوة، وبراءة يوسف مما رُمِيَ به، فأراد رؤيته وقال: «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصا لنفسي وخاصا بي[٢] لا يشاركني فيه أحد، وهذا كناية عن شدّة اتصاله به والعمل معه، فالسّين والتّاء في «استخلصه» للمبالغة[٣] روي الطبري عن قتادة قال: «أستخلصه لنفسي» يقول: «أتخذه لنفسي»[٤]...

وهذه هي المرة الثانية التي يطلب فيها الملك يوسف - عليه السلام - ولكننا نلاحظ فرقا واضحاً بين طلبه له في المرة الأولى، وطلبه له في المرة الثانية،...

ففي المرة الأولى حين تحقق علمه بتأويل الرؤيا قال: «إئتوني به» فقط، فلما رفض - عليه السلام - الخروج من السجن إلا بعد إجراء تحقيق عادل في قضيته، وظهرت على يد الملك براءته وأمانته وصبره وعلوّ همّته، ازداد الملك إعجابا به وتقديرا لمكانته، وعلم أنه وقع على الخبير الذي يمكنه أن يعبر بمصر مرحلة الهوْل القادمة التي لا قبل

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٥٩.

(٢) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣١٧-٣١٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٩٧.

(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤.



لأحد غير يوسف بمواجهتها قال: «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» فقد تضمّن طلب الملك له في المرة الثانية؛ الاعلان عن مكانة يوسف عنده.

تصريح جريء وحكيم:

وهذا الإعلان الصريح البيّن من الملك عن مكانة يوسف - عليه السلام - المرتقبة واصطفاء الملك له من دون مملكته كلها، يعتبر تصريحاً جريئاً وحكيماً ويدل على شجاعة الملك وقوة سلطانه وحكمته، ففي هذا التصريح قطع لدابر أيّ دسيسة أو مكر أو محاولة للتَّشْويش على مكانة يوسف وعفته ونزاهته بأي شكل من الأشكال، خاصة من كبار رجالات الدولة الطامعين، حتى لا يكرروا الكيد والاتهام ليوسف - عليه السلام - من جديد - كما فعلت النسوة من قبل بمساعدة بعضهم على تلفيق التهم له والزج به في السجن.

لقد حرص الملك أن يواجه الكل بهذا الاختيار، لِيُيَئِّسَ الكائدين والحاسدين من النيل منه أو المساس به من أي جانب، وفي ذلك تصفية للأجواء المحيطة به - عليه السلام - وتهيئة الأجواء له ليتفرغ للعمل الكبير الذي شاءت الأقدار أن يتولاه، والذي بالقيام به سيصبح الممثل الأول لملك البلاد، وإن هذا التصريح الرائع والحاسم من ملك مصر والصادر في الوقت المناسب ليعلن للملأ أجمع، أن يوسف - عليه السلام - إنما يطلبه الملك ليستَخْلصَهُ لنفسه، ويجعله بمكان المستشار والنَّجي - أي الذي يناجيه - والصديق، الصادق في كل ما يقول.

ملك مصر الأكبر أمام نور النبوة وجلالها:

قال تعالى: «**فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**»

هذه الجزئية من الآية الكريمة تفيدنا ذهاب رسول الملك إلى يوسف - عليه السلام - في السجن للمرة الثالثة، وإخباره بنتيجة التحقيق في قضية وشهادة النسوة بالبراءة من كل عيب، وَطِلَب الملكِ له ليستخلصه لنفسه،...



فقول: «فلما كلمه» يدل على ما حذف من الكلام للإيجاز، وهو جزئية تنفيذ الأمر الملكي بإحضار يوسف - عليه السلام - وهذا الحذف للإيذان بسرعة الإتيان، فكأنه لم يكن بينه وبين الأمر بإحضاره - عليه السلام - والخطاب معه زمان أصلا، لنجد يوسف مع الملك[١]...

موقف العلماء من الضمير المستكنّ في «كلّمه» والبارز (الهاء):

الإمام أبو حيان استظهر كون الضمير الأول للملك، والثاني ليوسف، أي فلما كلمه الملك ورآى حسن جوابه ومحاورته[٢]...

والإمام الألوسي يرى أن الضمير المستكنّ في «كلمه» ليوسف، والبارز للملك، أي فلما كلم يوسف الملك آثر ما أتاه فاستنطقه ورآى حسن منطقه بما صدّق الخَبَرَ بالخبر[٣]...

قيل: والأول أولى، وهو ما ذهب إليه صاحب البحر وغيره، لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم، وقيل: الثاني أولى، وهو ما ذهب إليه صاحب روح المعاني وغيره، بدلالة قول الملك بعد ذلك: «قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مكِينٌ أَمِينٌ» فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف - عليه السلام - في الملك جاء بما حبّبه إلى الملك وقرّبه من قلبه فقال هذه المقالة «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مكِينٌ أَمِينٌ» وعلى كلّ؛ فالأول والثاني محتمل، ولا يغير شيئاً من المعنى.

لقد استدل الملك بكلام يوسف - عليه السلام - على عقله، وبعصمته على أمانته، وشاهد فيه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة، فما كان منه إلا أن «قال» مؤكداً تمكينا لقوله دفعا لمن يظن أنه بعد السجن وما قاربه لا يرفعه هذه الرفعة[٤]:

---

(١) انظر: روح المعاني/٧/٦.

(٢) تفسير البحر/٥/٣١٨.

(٣) روح المعاني/٧/٦.

(٤) انظر: نظم الدرر/٤/٥٩، وتفسير الماوردي/٢/٢٧٩، والدر المصون/٦/٥١٥.



«إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ»

وَتَرَتُّبِ هذا القول على تكليمه إياه دالّ أيضاً على أنه كلم الملك كلامَ حكيم أديب، فلما رآى حسن منطقة وبلاغة قوله وأصالة رأيه، رآه أهلا لثقته وتقريبه منه(١).

وقوله: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا» أي: عندنا، فـ(لدي) ظرف مكان بمعنى عند واليوم هنا ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة، بل هو التكلّم، والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونهما بعد حين(٢).

وقوله: «مكين» أي شديد المكنة، من المكانة، وهي حالة يتمكّن بها صاحبها من مراده(٣)، فهي صفة مشبهة من (مَكُنَ) إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

وقوله: «أمين» فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على كل شيء، أي موثوق به في حفظه(٤) فهو من الأمانة، وهي حال يُؤمَنُ معها نقض العهد(٥) وهي منزلة العاقل العفيف(٦) وفي اختيار «لدي» في قوله: «لدينا» على عندما لا يخفى من الاعتناء بشأنه - عليه السلام - وكذا في اسميّة الجملة وتأكيدها(٧).

وهذه الجملة: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وهي أيضاً صيغة تَوْلِيَة لكل ما يحتاج إليه وليّ الأمر من الخصال، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة، إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يُؤثر الأعمال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصّل الحقوق إلى أهلها، وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٧.
(٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٦.   (٣) نظم الدرر / ٤ / ٥٩.
(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٧.
(٥) نظم الدرر / ٤ / ٥٩.   (٦) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٧٩.
(٧) روح المعاني / ٧ / ٦.



مملكتـه، وبأن يقترح عليـه ما يرجو من خيـر، فلذلك أجابه بقـولـه في الآية التاليـة: «قَالَ اجعَلنِي خَزَائِنُ الأرضَ... الآية»(١)

فرق بين حيثيات الاستخلاص والراحة في الاستخلاص:

أما حيثيّات الاستخلاص، والتي جعلت يوسف - عليه السلام مسْتَخْلَصاً عند الملك، فهو ما سبق ذكره مما علمه عن يوسف من علم وعفة وأمانة وصبر وجلد وعزّة وإباء، ولذلك فبعد أن تمّت تبرئته قال الملك وقبل أن يراه - عليه السلام - «إيتوني به أستخلصه لنفسي»

وأما الراحة في الاستخلاص، فإن الملك لما كلمه يوسف - عليه السلام - ومعلوم أن المرء مخبوء تحت لسانه، وجد الملك لكلامه منطقا عالياً وحكمة لا تباري، وفَهْماً لمجريات الأمور والأحداث لا يعلمه غيره، فأكبره الملك، وازداد تقديره وإعجابه به، واستراح لاختياره إياه(٢)...

وهكذا اكتملت صورة يوسف - عليه السلام - في مرآي الملك من كل جوانبها، وتطابقت في الغيب والشهادة، بل وسمت في نظر الملك شهادة، وعظمت في قلبه بعد أن خاطبه وكلمه، فرآى فيه ما رآى من آيات الكمال النبوي وأمارات الاصطفاء الإلهي، ففرح به فرحا عظيما، وتوسم فيه الخير كله، وفتح أمامه الباب على مصراعيه ليختار بنفسه المنصب الذي يجد نفسه أهلا له من مناصب الدولة الرفيعة، فهذا هو المفهوم من قوله له: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» أي: فاختر ما تحب لنفسك من مناصب الدولة، وموقف الملك هذا من يوسف - عليه السلام - من بداية أن رآى رؤياه العجيبة - إلى أن أصبح مشاهدا له - عليه السلام - شاهدا له بكل ما هو كريم وجميل، يدل دلالة واضحة على أن هذا الملك الريان بن الوليد، كان من خيرة ملوك الأرض خبرة وعدالة.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٦٣ وتفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٨.

(٢) بعض معاني هذا الكلام مستخلص من تفسير الشيخ الشعراوي (سورة يوسف) شرائط مسجلة.



كيف تفاهم يوسف - عليه السلام - مع الملك؟

قال الشيخ عبد الله العلمي: كلّم يوسف - عليه السلام - الملك الريان، وكانا يتفاهمان تماما كما أفصح القرآن، لأن لغة (الريان) عمليقية، وهي قريبة جدا من العربية، أو هي عربية، ومعلوم أن العربية والعَبْرَانيّة متقاربتان، وكذلك كان يوسف - عليه السلام - يتفاهم مع القبط الأصليين، لأن القبطيّة قريبة أيضا للغته، والحاصل أن اللغة المصرية القبطية، واللغة العبرانية، واللغة العمليقية، واللغة السّرْيانية، واللغة المديانيّة، قريب بعضها لبعض، فكأنها من أمهات مختلفة لأب واحد، ولذلك كان بإمكان الجميع متى اجتمعوا أن يتفاهموا(١).

والعبد الفقير يرى أن مكانة يوسف - عليه السلام - ومنزلة اصطفائه بالنبوة والرسالة تؤهله لمعرفة لغة المرسل إليهم في مصر، سواء كانوا من أهل مصر الأصليين (القبط) أو المحتلين (العملقيين) الذين أطْلَقَ عليهم المصريون اسم (الهكسوس)، فإن ذلك من لوازم تبليغ رسالته إلى أهل مصر، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»(٢) والواقع أن يوسف - عليه السلام - قبل حادثة الجب، كان يعيش مع أبيه وأهله في أرض متصلة بأرض العمالقة المحتلين، فاللغة واحدة، وبالنسبة للمصريين القبط، فقد أحضر إلى مصر وهو غلام صغير وبيع إلى عزيز مصر وتعلم لغة القبط...

وإن الرسول محمداً ﷺ وهو عربي وقد أنزل عليه القرآن الكريم باللسان العربي المبين، قد علمه الله تعالى اللهجات العربية كلها، فصار أفصح العرب على الإطلاق، كي يتسنى له مخاطبة كل قبيلة بلسانها، ولقد سأله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله! ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: «كانت لغة اسماعيل - عليه السلام - قد دُرِسَتْ، فجاء جبريل - عليه السلام - بها فحفظنيها(٣).

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٩٤٤. (٢) إبراهيم/ ٤.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما تبيّن للملك الأكبر الوليد بن الريان ملك مصر، مدى نزاهة يوسف - عليه السلام - وأمانته وعفته وصبره، مما لا يبلغ ذلك إلا من بلغ من مراتب النزاهة أعلاها، ومن درجات الأمانة أقصاها، أمر رسوله بإحضاره إليه في صورة بالغة الكرم والاحترام، ومعلناً أمام الجميع أنه سيجعله خالصاً لنفسه ويسلمه مهام أموره، فذهبوا إليه - عليه السلام - في السجن وأتوا به إليه، فلما كلّمه علم من مكالمته فوق الأمانة سعة في عقْله وفهمه وذكائه وعلمه، فقال له: إنك اليوم لدينا ذو مكانة عظيمة ومؤتمن على أمور الدولة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - وجوب البحث التّام والتحري الكامل والتعرّف الصادق على من يُخْتَار للوظائف الهامة.

٢ - وجوب اختيار واستخْلاص الأصلح طلباً لمصلحة البلاد العليا ولمنفعة الناس العامة.

٣ - المرء مخبوء تحت لسانه، حكمة واقعة وأكيدة، لأن اللسان هو المظهر لحقيقته.

٤ - الحوار وسيلة التعارف والتعرفُ على فضائل الإنسان وما يتمتع به من علم وحكمة وخبرة.

٥ - الخلق والعلم وسعة الاطلاع أسَاس لتولي أعظم المناصب.

٦ - شرف مَنْ يطلب للمنصب لأنه أهل له وحقارة من يجري وراء المناصب ويذل نفسه وهو ليس لها بأهل.

٧ - تقدم الأمم وحضارتها يتطلب أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.



«الآية الخامسة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً: اللغة:

قوله: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ» الخزائن جمع خِزَانة، وهي ما يُخْزَن فيه الشيء النفيس، وخَزْن الشيء: إحْرَازُه حيث لا تناله الأيدي(١) والخَزْن: حفظ الشيء في الخزانة، ثم يُعبّر به عن كل حفظ، كحفظ السرّ ونحوه(٢) يقال: خَزَنَ الشّيء يخْزِنُه خَزْناً، واخْتَزَنه: أحْرَزَه وجعله في خِزَانة واختزنه لنفسه، والخزانة: اسم الموضع الذي يُخزنُ فيه الشيء وجمعها خزائن قال تعالى: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ»(٣) وقال: «وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّه»(٤)، والخزانة عمل الخازن، والمَخْزَن بفتح الزّاي: ما يُخْزَنُ فيه الشيء(٥) وخزائن الأرض: الأمكنة التي تُخْزَن فيها الأموال والطعام في أرض مصر، جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشي(٦).

قوله: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» حفيظ: صيغة مبالغة من الحفظ، والحفظ يقال تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضَبْطٍ في النفس، ويضادّه النّسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حفظت كذا حفظا، ثم يستعمل في كل تفقُّد وتعهّد ورعاية، قال تعالى: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(٧)، (٨) يقال: حَفِظَه كَعَلِمَه: حرسه، والقرآن: استظهره، والمال: رعاه، فهو حفيظٌ وحافِظٍ مِنْ حُفَّاظٍ وحَفَظه، والحفيظ: الموكل بالشيء، كالحافظ(٩).

---

(١) صفوة البيان / ١٧٦. (٢) المفردات (كتاب الخاء) ١٤٦.

(٣) الحجر / ٢١. (٤) الأنعام / ٥٠. (٥) انظر: اللسان / ١٣ / ١٣٩.

(٦) فتح البيان / ٦ / ٣٥٦. (٧) الحجر / ٩.

(٨) المفردات (كتاب الحاء) ١٢٤.

(٩) القاموس المحيط / ٨٩٧.



قوله: «عليم» صيغة مبالغة من العلم. عَلِمَ: العلم: إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء، الثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو مَوْجُودٌ له أو نفي شَيْءٍ هو منْفِيٌّ عنه، والعلم من وجه ضربان:

نظري وعمليٌّ، فالنظري ما إذا عُلِمَ فقد كَمَل، نحو العلم بموجودات العالم، والعمليٌّ مالا يتمّ إلا بأن يعمل، كالعلم بالعبادات، ومن وجه آخر ضربان: عقليٌّ وسمعِيٌّ، وأعْلَمْتُه وَعَلَّمْتُهُ في الأصل واحد، إلا أن الإعلام اختصّ بما كانَ بإخبار سريع، والتعليم اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم[1] ويجوز أن يقال للإنسان الذي علمه الله علما من العلوم (عليم) كما قال يوسف للملك «إني حفيظ عليم».

والعلم نقيض الجهل، يقال: عَلِمَ عِلْماً وعَلُمَ هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم علماءَ فيهما جميعا، وتقول: علاَّمٌ وعلاَّمَةٌ إذا بالغْتَ في وصفه بالعلم، وتقول: علمْتُ الشّيْءَ أعلَمُهُ علما: عرفته، قال ابن بري: وتقول: عَلِمَ وفَقِهِ، أي تَعَلَّمَ وتفقَّه، وَعَلُمَ وفَقُهَ، أي ساد العلماء والفقهاء[2].

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» (اجعلني)، فعل أمر، والنون للوقاية، والفاعل مستتر تقديره أنت، والياء مفعول به، (على خَزَائِنُ الأرض) جار ومجرور متعلقان بالمفعول الثاني، (إنّي حَفيظٌ عَليم) إنّ واسمها، وحفيظ، خبرها، وعليم، خبرها الثاني[3].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب العين) ٣٤٣.

(٢) اللسان/ ١٢/ ٤١٦-٤١٧.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ١٢-١٣.



سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾

وجه المناسبة:

لما قال الملك ليوسف - عليه السلام - : «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» فُهِمَ منه أنه قد ولّى يوسف - عليه السلام - تولية عامة بادئ ذي بدء، فكأنه يقول له: فاختر ما تحب أن تلي من أعمال المُلْك، وترك الأمر لاختياره وانتظر ما يقول:، فكأنه قيل: فماذا قال الصدّيق؟ فقيل: قال ما يجب عليه من السعي في إصلاح الدين والدنيا:

«قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ...»(١)

هذه الآية حكاية جوابه لكلام الملك، ولذلك فصّلت على طريقة المحاورات، واللام هنا للاستعلاء المجازي، وهو التصرّف والتمكّن، أي: اجعلني متصرفا في خزائن الأرض، والتعريف في (الأرض) تعريف العهد، وهي الأرض المعهودة لهم، وهي أرض مصر(٢) إذ لم يكن مُلْكُ المَلِكِ إلا بها فقط(٣) فيوسف - عليه السلام - يطلب من الملك أن يوليه أمر طعام بلده وخراجها والقيام بأسبابها(٤) قال الربيع بن أنس: على خراج مصر ودَخْله(٥) فلفظ (خزائن) عام لجميع ما تختزنه المملكة المصرية من طعام ومال وغيره(٦) إضافة إلى الخزائن التي زيدت من بعد لحفظ الأقوات، لأنها المقصودُ الأول في تلك المهمة العظيمة، وخلال السنوات الأربعة عشر القادمة.

لماذا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك أن يكون على خزائن الأرض؟

ثم علّل يوسف - عليه السلام - بما هو مقصود الملوك الذين لا يكادون يقفون عليه فقال:

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٦٠. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٨.
(٣) انظر: تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٥. (٤) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥.
(٥) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٥١. (٦) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٥.



«إني حفيظ عليم»(١) روي الإمام الطبري قولين في معنى «حفيظ عليم»

(الأول)، ونسبه إلى ابن إسحاق وقتادة وشيبة الضّبيّ، والمعنى: حفيظ لما استودعتني عليم بما ولّيتني.

(والثاني)، ونسبه إلى الأشجعيّ، كما نسبه الإمام السيوطي في الدّر المنثور إلى سفيان، والمعنى: حافظ للحساب عليم بالألسن، وقد صوّب الإمام الطبري القول الأول معلّلاً أن ذلك القول جاء عقيب قوله: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ» ومسألته الملك استكفاءه خزائن الأرض، فكان إعلامه بأن عنده خبرة في ذلك وكفايته إياه، أشبه من إعلامه حفظه الحساب ومعرفته بالألسن(٢)...

وهناك أقوال أخرى في معنى «حفيظ عليم» ذكرها أهل التفسير، منها، أن المعنى: إني حاسب كاتب(٣).

ومنها «حفيظ» أي: خازن أمين، و«عليم» أي: ذو علم وبصيرة بما يتولاه(٤).

ومنها «حفيظ» لما جعلته إلى من حفظ الأموال، لا أخرجها في غير مخارجها، ولا أصرفها في غير مصارفها، و«عليم» بوجوه جمعها وتفريقها ومدْخلها ومخرجها(٥).

ومنها، «حفيظ» أي لها ممن لا يستحقها، و«عليم» بوجوه التصرف فيه(٦).

حكم تخصيص هاتين الصفتين «حفيظ عليم» بالأشياء السابقة:

والإمام ابن عطية الأندلسي، يرى أن تخصيص هاتين الصفتين بالأشياء السابقة تخصيص لا وجه له، إذ أن الصّفتين «حفيظ» و«عليم» تعم وجوه التّثقيف والحيطة، لا خلل معها لعامل، فيوسف - عليه السلام - إنما أراد باتصافه بتلك الصفتين أن يعرّف الملك بالوجه الذي به يستحق أن يكون على خزائن الأرض، فاتّصف بأنه يحفظ المجبي من كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أجمع(٧)...

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٦٠. (٢) انظر: تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٥-٦، والدر المنثور / ٤ / ٤٥.
(٣) تفسير القرطبي / ٩ / ٢١٣. (٤) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٢. (٥) فتح القدير / ٣ / ٣٧.
(٦) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٨٨. (٧) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٢٥.



والعبد الفقير يرى وجاهة قول ابن عطية، بعدم تخصيص هاتين الصفتين بما ذكره المفسرون، فالذي وصف نفسه بتلك الصّفتيْن نبي ورسول كريم، فهو وصف تام شامل لجميع وجوه الحفظ والعلم المناسبة لمكانته عند ربه تعالى، وما ذكره المفسرون عن الصفتين يدخل تحت المعنى العام لهاتين الصفتين المذكورتين، كإيضاح لبعض ما تشتمل عليهما، والله أعلم.

مناسبة قوله: «إنّي حَفيظٌ عليمٌ» لما هو منتظر من الأحداث في السنوات القادمة:

إن الأزمة القادمة على البلاد والمتمثلة في السنوات السبع العجاف، وسنوات الرخاء التي تسبقها والمتمثلة في السنوات السبع الخصاب، في حاجة إلى الحفظ والصيانة، والقدرة على إدارة الأمور بالدقة، وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة، في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء، ومن ثم ذكر يوسف - عليه السلام - من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيراً كثيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة[1] فصفة «حفيظ» وصف له خصائصه التي تمتد مظلّتها لتشمل كل ما يتّسع له لفظ أداء الأمانة العظمى، من الأمور التي يتعين القيام بها على من تولى النظر في حفظ حقوق العباد ورعاية شئونهم، ويقتضي حملها حماية حقوق الإنسان التي أنعم الله تعالى عليه وكرمه بها،...

وصفة «عليم» وصف يقتضي أنه - عليه السلام - بالغ العلم بوجوه صلاح ما يسند إليه ووجوه استنْمائه[2] على خير وجه وأكمل وضع.

الحكمة من تقديم صفة الحفظ على صفة العلم:

إن حالة مصر يومئذ أنها كانت تستقبل سبع سنوات من الخِصب، ثم يعقبها سبع

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٠٥.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٣٥٦-٣٥٨.



سنين من القحط والجدْب، وأمر كهذا لا بد أن يكون الحزْم والضبط أول خطة يختطها وليّ الأمر مع الناس ويأخذهم بها، وإلا فإن الناس قد ينسوْن في يومهم ما هم في حاجة إليه في غدهم، إذا النفوس مولعة بحب العاجل تؤثره وإن كان قليلاً، على الآجل وإن كان كثيراً، ولهذا فقدم قدم يوسف - عليه السلام - الحفظ على العلم، فالصفتان وإن كانتا مطلوبتان لهذا الأمر، إلا أن الحفظ أولى وأهم من العلم، إذ قد يستغني الحفظ عن العلم ويتحقق للناس منه بعض الخير أو كثير منه، على حين أنه لو استغني العلم عن الحفظ لما تحقق للناس في هذه الحال خير أبدا، ولكان مجرد حقائق مرسومة في كلمات، فإذا اجتمع الحفظ والعلم فقد اجتمع الخير كله، وهاتان الصفتان أشبه شيء بالصفتين اللتين رأتهما ابنة شُعيب في موسى - عليه السلام - حين زكته ليكون قائما على مصالح أبيها، وذلك قولها: «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ»(١)، (٢).

الآية الكريمة وأسئلة ثلاث:

السؤال الأول: كيف جاز ليوسف - عليه السلام - طلب الولاية وقد نهى الإسلام عن ذلك؟

من الثابت أن الإسلام قد نهى عن طلب الولاية، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله - ﷺ - أنا ورجلان من بني عَمّي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاّك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال -ﷺ- : «إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، أو أحَداً حَرَصَ عليه»، (متفق عليه).

وقد أجاب العلماء على طلب يوسف الولاية بما يلي:

قال الإمام الفخر الرازي: إن طلب الولاية على خزائن الأرض كان واجبا على يوسف - عليه السلام - لوجوه:

---

(١) القصص/ ٢٦.

(٢) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٥٦-٤٥٧.



(الأول) : أنه كان رسولا حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدْر الإمكان.

(الثاني) : أنه عليه السلام - علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعلّه تعالى أمره بأن يدبّر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

(الثالث) : أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول، وإذا ثبت هذا فنقول: إنه - عليه السلام - كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكن رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبا عليه(١).

والإمام الألوسي، يقترب كثيراً من رأي الإمام الرازي فيقول: وربما يجب عليه الطلب إذ توقّف على ولايته إقامة واجب مثلاً وكان متعينا لذلك، ثم يعلّق على ما ورد في الصحيحين من النهي عن طلب الإمارة، أنه ورد في غير ما ذكر(٢) أي أن الأمر مختلف، فالمراد به في الحديث لمن لا يثق بنفسه من القيام بحق الولاية لضعفه وعجزه أو لأغراض نفسه(٣) أو يكون هناك من هو أهل لها غيره، أو من هو أفضل منه.

وقال العلامة السعدي: وليس ذلك - أي طلب التولية - حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبته في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه، فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاّه إياها(٤).

ويقول الشيخ محمد طه الباليساني: إن الملك بقوله ليوسف - عليه السلام -: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ» قد أصدر إرادته الملكية بتعيينه بوظيفة عالية وجعله أمينا

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٣٦٤.

(٢) انظر: روح المعاني/ ٧/ ١٣.

(٣) التفسير المنير/ ١٣/ ١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٥.



على أمور دولته، ثم يقول: فلم يبق ليوسف - أي بعد تعيينه من جهة الملك تعيينا عاماً - إلا اختيار نوعية وظيفته، فاختار أن يكون أمينا عاما على خزائن الدولة في أرض مصر لِمَا رآى في ذلك من المصلحة، فقول - عليه السلام -: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ» اختيار لنوعيّة الوظيفة بعد التعيين لا طلَبٌ للتوظيف(١).

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: إفرض أن ناساً في سفينة، وهاجت الرياح واختلّ توازن القبطان، وفي السفينة واحد عنده دراية بقيادة السفينة، فقد تعين عليه في هذه الحال أن يقدم نفسه حماية لها ومن فيها، ومصر كلها ستسير عبر أربعة عشر عاماً في حالة صعبة تحتاج فيها إلى خبرة عالية، لا توجد إلا في يوسف - عليه السلام - ثم يقول الشيخ: فمتى يطلب الإنسان الولاية على الشيء؟ إذا تعينت عليه بأن يرى شيئا يتعرض له غير أهل الخبرة وقد يفسدونه، وهو يعلم وجه الصلاح فيه، فشجاعته - عليه السلام - أنه طلبها لنفسه، وهي مهمة خطيرة(٢).

ويقول الأستاذ / أحمد عز الدين خلف الله: لقد كان - عليه السلام - على علم بما ستواجهه البلاد من أهوال المجاعة التي تنتظرها، وهي مجاعة تمتد فترة زمنية طولها سبع سنوات، وإن الحياة خلال المجاعات إنما هي ضرب من العذاب يفتّت الأكباد، فمثل هذه المجاعة حين تُقْبل تأتي أولا على الأخضر واليابس، ثم تعصر الأجساد عصرا يستلّ منها الحياة قطرة قطرة، حتى يصبح الموت هو النعيم الذي يتمناه كل حي، ومن شاء فليطلع على أخبار المجاعات وما تخلّلها من المآسي التي تقشعر لهولها الأبدان،...

فمن ذا الذي يقبل أن يصدر نفسه لمواجهة مثل هذا البلاء، ليتحمل مسئولية شعب بأسره طوال سبع سنوات عجاف، ليدفع شبح المجاعة الرهيب عن كل حي؟...

حقا إنه لعبء يتهرب من حملة أحكم الرجال وأشدهم صبرا وأقواهم احتمالا، ولقد تقدم - عليه السلام - في مجال ينعدم فيه من يتقدم، وصدّر نفسه لمواجهة مرحلة

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٣٠.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



لا يوجد سواه من يستطيع تسيير دفة البلاد بسلام خلالها، وما رأينا ولا سمعنا بحاكم فعل مثل ما فعله يوسف - عليه السلام - في مصر قبل البعثة المحمدية....

إن الأنبياء والمرسلين نعمة عظمى على البشرية في جميع أحوالهم، وهم إن طلبوا شيئاً فما طلبوه إلا ابتغاء نجاة الناس من أهوال الدنيا والآخرة، ولا يتم ذلك إلا باتباع النبيين والمرسلين الملزم بالتعلق بالله جل جلاله،...

فكان قوله - عليه السلام -: «إنّي حَفيظٌ عَليم» آية من الآيات الدالة على نبوته، كما كان تصديه لمواجهة المجاعة بشرى لأهل مصربنجاتهم منها، ويكفي أن الوقائع صدّقت كل كلمة قالها - عليه السلام -(١)

هذا، وما تقدم من أقوال أهل العلم المكرمين، فيه الكفاية وزيادة للإجابة على السؤال المطروح، فإن طلبه - عليه السلام - للولاية المذكورة، كان فدائية منه وشجاعة بالغة، وشفقة ورحمة بالناس، وآية دالة على نبوته ورسالته، وبابا واسعا للقيام بمهمة الرسالة والدعوة إلى الله تعالى،...

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: استعملني عمر - رضي الله عنه - على البحرين، ثم نَزَعَني وغرَّمَني اثنا عشر ألفا، ثم دعاني بعد إلى العمل فأبيت فقال: لِمَ، وقد سأل يوسف - عليه السلام - العمل وكان خيراً منك، فقلت: إن يوسف نبيّ ابن نبي ابن نبي ابن نبي، وأنا ابن أميمة، وأنا أخاف أن أقول بغير حِلْم، وأن أفْتِي بغير علم، وأن يُضْرَب ظهري، ويشتم عِرْضي ويؤخذ مالي(٢).

السؤال الثاني:

كيف يزكي يوسف - عليه السلام - نفسه وقد ورد النهي عن ذلك؟

وعن هذا السؤال يجيب الإمام الرازي فيقول: وأما قولهم مدح نفسه فجوابه من وجوه:

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٦١-٣٦٢.

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٤٥.



الأول - لا نُسَلِّم أنه مدح نفسه، لكنه بيّن كونه موصوفا بهاتيْن الصفتين النافعتين في حصول المطلوب، وبين البابيْن فرق، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف، لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين، لكنه ما كان عالما بأنه يفي بهذا الأمر، ثم يقول:

هبْ أنه مدح نفسه؛ إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر، والتوصل إلى غير ما لا يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقوله تعالى: «فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ»(١) المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم منها غير متزَكّيَة، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد هذا مباشرة وفي نفس الآية «... هو أعلم بمن اتقى»(٢) أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه، والله أعلم(٣).

والإمام القرطبي يسير في نفس الاتجاه الذي قال به الإمام الرازي فيقول: إنما قال يوسف - عليه السلام - ذلك عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: «فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ»(٤).

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: ودلَّ إثْنَاء يوسف على نفسه أنه يجوز للإنسان أن يُثْنِيَ على نفسه بالحق إن جُهِلَ أمرُه، ولا يكون ذلك من باب التزكية المنهي عنها(٥) والإمام الألوسي قال بمثل ما قال به الإمام أبو حيان(٦).

أما الشيخ سيد قطب فله وجهة أخرى يفصح عنها في قوله: إن يوسف - عليه السلام - لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا، لا خادماً في وضع جاهلي، وكان الأمر كما توقع، فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه(٧).

---

(١) النجم/ ٣٢. (٢) النجم/ ٣٢.
(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٦٥. (٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢١٧.
(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٨. (٦) روح المعاني/ ٧/ ٧.
(٧) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠١٣.



إن حال يوسف - عليه السلام - في وصفه نفسه بالحفظ والعلم، أشبه بحال المهندس الذي علم أن فلانا يريد إنشاء مسكن له، فذهب إليه يطلب منه أن يوليه هذا الأمر، معلّلا طلبه بقوله: (إني مهندس مدني) أي: مختص ببناء المساكن، فقوله هذا ضروري ليتسلم إنشاء المسكن لصاحبه، ولا حرج في ذلك.

السؤال الثالث:

هل يجوز للمسلم أن يعمل تحت سلطة حكومة غير مسلمة؟،، وكيف قبل يوسف - عليه السلام - أن يعمل تحت سلطة كافر؟

والإمام الماوردي، قد فصل الإجابة على هذا السؤال، فبعد أن عَرَض - رحمه الله - للقول الأول المجوّز لذلك بشرط أن يعمل بالحق فيما تقلّده، وللقول الثاني المانع من الجواز لما فيه من تولّي الظالم بالمعونة، قال: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يُفَصَّل ما يتولاّه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها - ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه، كالصدقات والزكوات، فيجوز تولّيه من جهة الظالمين، لأن النص على مستحقيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني - ما يجوز أن يتفردوا به ويَلْزَمُ الاجتهاد في مصرفة، كأموال الفيْء، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم لأنه يتصرف بغير حق ويجتهد في ما لا يستحق.

والقسم الثالث - ما يجوز أن يتولاه أهله وللاجتهاد فيه مَدْخل، كالقضايا والأحكام، فعقْد التقليد فيه محلول، فإن كان النظر تنفيذاً لحكم بين متراضِيَيْن، أو تَوَسُّطاً بين مجبوريْن جاز، وإن كان إلزام إجْبار لم يَجُزْ[1].

وأما عن خدمة يوسف - عليه السلام - لملك مصر، فيقول الإمام ابن حزم عنها: إنما هي خدمة تُقْيَة، وفي حقّ لاستنفاذ شيء لله تعالى بحسن تدبيره، وهي خدمة حسنة وفعل خير، وتوصُّل إلى الاجتماع بأبيه، وإلى العدل، وإلى حياة

---

(١) تفسير الماوردي/٢/ ٢٨١.



النفوس، إذ لم يقْدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك، ولعل ذلك كان مباحا في شريعة يوسف - عليه السلام - بخلاف شريعتنا، قال الله تعالى: «لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا»(١)، (٢).

وقال الإمام الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يتولى يوسف - عليه السلام - عملا من يد كافر ويكون تابعا له وتحت أمره وطاعته؟ قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم، وعن قتادة، هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رآى، فكان في حكم التابع له والمطيع(٣) عن ابن زيد قال: كان لفرعون خزائن كثيرة غير الطعام، فأسلم سلطانه كله ليوسف - عليه السلام - وجعل القضاء إليه أمره، وقضاؤه نافذ(٤).

هذا،... والتحقيق أن موقف يوسف - عليه السلام - من الملك بعد لقائه معه لا يخرج عن أمرين:

الأول: أن يكون الملك قد ظل على ديانته ولم يسلم، وهذا بعيد، ومع هذا التصور، فإن وصف الملك ليوسف - عليه السلام - بقوله له: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» يقتضي منه إطلاق يده - عليه السلام - ليتصرف في شئون البلاد كما يشاء، يؤكد هذا قوله تعالى في الآية التالية مباشرة: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء... الآية»(٥) وهذا في غاية الوضوح.

الثاني: أن يكون الملك قد أسلم مع يوسف - عليه السلام - لله رب العالمين، وهذا

---

(١) المائدة/ ٤٨.

(٢) انظر: الملل والنحل (ابن حزم) ف ٤(٣) ١٢.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) الدر المنثور/ ٤/ ٤٥.   (٥) يوسف/ ٥٦.



هو الظاهر الذي يقتضيه وصف الملك له بأنه - عليه السلام - عنده ذو مكانة ومنزلة عالية، وأنه مؤتمن على كل شيء، وبإسلام الملك يصبح تابعا من أتباع نبي الله ورسوله يوسف - عليه السلام - فلا يقضي أمرا من الأمور إلا بموافقته - عليه السلام - ويقوي هذا جدا، أن الملك لم يأت ذكره بعد ذلك في السورة الكريمة، ولم يُذْكَر له حكم أو قرار في أي شأن من شئون البلاد، ولا حتى حين أمر يوسف - عليه السلام - إخوته قائلا: «وأتوني بأهلكم أجمعين» فلم يرجع في ذلك إلى الملك، وقدموا عليه بين يديه هو، ولم يقدموا على الملك، هذا، الله أعلم.

المضمون العالم للآية الكريمة:

لما أعلن الملك الأكبر عن إراداته في تعيين يوسف - عليه السلام - موظفاً وأميناً عاماً في الدولة وفوَّض إليه اختيار نوعية وظيفته، اختار أن يكون أميناً عاماً على خزائن أرض مصر، وقال للملك: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وبهذا فقد طلب لنفسه أصعب مهمة ليتحمل أكبر مسؤولية في البلاد، ليَعْبرُ بها بإذن الله تعالى إلى برّ الأمان.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - هذه الآية الكريمة أصل في جواز طلب الولاية، كالقضاء ونحوه، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه.

٢ - لا تذمّ الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقْدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، ويجوز التّوْلية عن الكافر الظالم إذا فوّض إليه الحكم، فحكم بما أمر الله.

٣ - النّكول عن تولي الإمارة مع العلم بأنه لا يوجد من يقوم بها مثله أمر مرذول، لما فيه من التّراخي عن القيام بما فيه خير الجميع، ويجب عليه طلبها إذا ترتب على عدم قيامه بها ضياع مصالح الناس وفساد أحوالهم.

٤ - مؤهلات الإمارة، الحفظ والعلم «إني حفيظ عليم».



٥ - جواز مدح الإنسان نفسه إذا جُهِل أمرهُ، ولا يكون ذلك من باب التّزكية المنهي عنها، وذلك إذا كان فيه مصلحة ولم يقْصد الرياء وسَلِمَ من الكذب.

٦ - على كل من يريد أن يتولى أمراً، أن يكون عالماً به، خبيراً بكل ما يتعلق به، قادراً على إتمامه على الوجه الأكمل.

٧ - رحمة الله تعالى وفضله العظيم على عبده ورسوله يوسف - عليه السلام - حيث شرح له صدر الملك، وأزال العوائق من أمامه، وهيأ له الأسباب كي يتقلد أعلى مناصب الدولة بعد الملك.

رفع المسهم

«الآية السادسة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «حَيْثُ يَشَاء» قرأها ابن كثير وحده بالنون، والوجه أن المعنى، حيث نشاء نحن، على إسناد الفعل إلى الله تعالى بلفظ الجمع على ما سبق في مثله، والمراد أن يوسف - عليه السلام - لم يكن لينزل من الأرض إلا حيث يشاء الله تعالى أن ينزل يوسف فيه، ويجوز أن تكون المشيئة وإن كانت مسندة إلى الله تعالى، فإن مشيئة يوسف - عليه السلام - مشيئة الله تعالى، كما قال سبحانه: «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ»(١).

وقرأ الباقون بالياء، ولم يختلفوا في «يتبوّأ» أنها بالياء، والوجه في الياء من «يشاء» أن الفعل فيه مسند إلى يوسف - عليه السلام - كما أنّ في «يتبوأ» كذلك، والمعنى: ينزل يوسف من الأرض حيث يريده هو ويؤثر أن ينزل فيه، يصف بذلك تمكّنه(٢).

ثالثاً - اللغة:

قوله تعالى: «يَتَبَوّأ» بواء: أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النَّبْو الذي هو منافاة الأجزاء، يقال: مكان بَوَاءٌ إذا لم يكن نابياً بنازله، وبَوَّأْت له مكانا: سوّيته فتبوأ، قال تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا»(٣)، (٤)...

والتَّبَوُّءُ: أن يُعْلِمَ الرجلُ الرجلَ على المكان إذا أعجبه لينزله، وأبَاءه مَنْزِلاً وَبَوَّأَهُ إِيَّاهُ وَبَوَّأَهُ له وبوّأه فيه، بمعنى هَيَّأَهُ له وأنزله ومكَّنَ له فيه، قال الشاعر:

وبُوِّئَتْ في صميم مَعْشَرِها *** وتَمَّ في قومها مُبَوَّؤُها

---

(١) الإنسان/ ٣٠. (٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها/ ٢/ ٦٨٢.

(٣) يونس/ ٨٧. (٤) المفردات (كتاب الباء) ٦٩.



أي نزلت من الكرم في صميم النسب[١] قوله تعالى: «أجر» الأجْر والأُجرة: ما يعود من ثواب العمل دنْيَويّا كان أو أخْرَويّاً، قال تعالى: «إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّه»[٢] وقال: «وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»[٣] وقال: «وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ»[٤]، [٥].

رابعاً - الإعراب:

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء» (وكذلك) نعْت لمصدر محذوف، أي ومثل ذلك التمكين الظاهر مكَّنَّا ليوسف، و(مكّنا) فعل وفاعل، واللام متعلقة بـ(مكّنا) ومفعول مكّنا محذوف، أي الأمور، و(وفي الأرض) حال، وجملة (يتبوّأ) جملة حاليّة من يوسف، و(منها) جار ومجرور متعلقان بـ(يتبوّأ)، و(حيث) ظرف لـ(يتبوّأ) أو مفعول به له، وجملة (يشاء) في محل جرّ بإضافة الظرف إليها، ولا بد هنا من الإشارة إلى تتمة القصة التي اقتضى سياق الكلام حذفها، أي فولاه الملك على خزائن الأرض.

قوله: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» الجملة استئنافيّة مسوقة إلى التصرف العادل الذي اختص الله تعالى به نفسه، و(نصيب) فعل مضارع مرفوع والفاعل (نحن) و(برحمتنا) متعلقان بـ(نصيب) و(مَن) مفعول به، وجملة (نشاء) صلة، و(ولا نضيع) عطف على (نصيب) و(أجر المحسنين) مفعول به[٦].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) اللسان/ ١/ ٣٨-٣٩. (٢) هود/ ٢٩.

(٣) العنكبوت/ ٢٧. (٤) يوسف/ ٥٧.

(٥) المفردات (كتاب الألف) ٨١، وانظر: اللسان/ ٤/ ١٠-١١ والقاموس المحيط/ ٤٣٦.

(٦) انظر: التبيان في علوم القرآن (العكبري) ٢/ ٧٣٥-٧٣٦، والدر المصون/ ٦/ ٥١٥-٥١٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش)/ ٥/ ١٣.



سادساً - التفسير والبيان:

تمكين الله تعالى ليوسف - عليه السلام - في الأرض:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما سأل يوسف – عليه السلام – ما تقدّم، قال تعالى معلما بأنه أجيب بتسخير الله له: «وكذلك...»(١).

وهذه الآية الكريمة وكذا التالية لها، تعقيب على هذا الجانب المحفوف بالمكاره من قصة يوسف – عليه السلام – وأن هذه المكاره ابتلاء من الله تعالى لعباده المؤمنين، يُمَحِّصُهم بها، ويصفّي جوهرهم الكريم من كل كَدَر، وأن عاقبة أمرهم إلى نصر وتمكين.

السياق القرآني لم يتحدث عن موافقه الملك:

لقد سبق أن قال يوسف – عليه السلام – للملك: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وبعد ذلك لم يتحدث السياق القرآني عن موافقة الملك، بل نقلَنا مباشرة إلى أن الله تعالى قد مكَّنَ له في الأرض.

فههنا المفسرون قالوا: في الكلام محذوف وتقديره: قال الملك قد فعلت، إلا أن تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه إلى ما سأل، وما قالوه حسن، إلا أن ههنا ما هو أحسن منه، وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر، وأما المؤثر الحقيقي فليس إلا أنه تعالى مَكَّنَ له في الأرض، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتَصرَ على ذكر التمكين الإلهي، لأن المؤثِّر الحقيقي ليس إلا هو سبحانه(٢).

فكأنما يقول السياق القرآني هنا، إن الطلب تضمن الموافقة، زيادة في تكريم يوسف

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٦٠.

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩ / ١٨ / ١٦٥-١٦٦.



بإظهار مكانته عند الملك، فيكفي أن يقول يوسف ليُجَاب، بل ليكون قوله هو الجواب - إكراماً من الله تعالى له -.

ومن ثَمَّ يحْذفُ رد الملك ويَدعُ القارئ يفهم أن يوسف أصبح في المكان الذي طلبه، ويؤيد هذا تعقيب السياق،

«وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ»[١] (وكذلك) الإشارة بذلك إلى ما تقدم من جميل صنع الله به[٢].

أي: ومثل ذلك التمكين العجيب مكنّا ليوسف في الأرض، أي جعلنا له مكاناً، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه، حتى صار الملك يَصْدرُ عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه[٣].

عن السدّي في قوله: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ...» قال: استعمله الملك على مصر، وكان صاحب أمرها، وكان يلي البيع والتجارة، وأمرُها كلّه له. وقال ابن زيد: أي ملكناه فيما يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا، يصنع فيها ما يشاء، فُوِّضَتْ إليه، ثم قال: ولو شاء أن يجعل فرعون من تحت يده ويجعله فوقه لفعل[٤]

وإضافة التمكين ليوسف عليه السلام - في الأرض إلى الله تعالى، يؤكد أنه تمكين قدريّ قضى الله تعالى له به، ولن يكون في مقدور الملك ولا غيره أن ينزعه منه، لأنه صادر له ممّن له ملك السماوات والأرض وما بينهما.

وفي التعبير عن الجعل المذكور «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ» - بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره عزّ سلطانه من تشريفه - عليه السلام - والمبالغة في كمال ولايته، والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر، لا أنَّه حصل بعد السؤال ما لا يخفي[٥].

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٤.

(٢) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٢٥.

(٣) روح المعاني / ٧ / ٣٧.

(٤) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٦، والدر المنثور / ٤ / ٤٥.

(٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٧.



الفرق بين هذا التمكين والتمكين السابق:

حين نتأمل الجزئية الأولى للآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ يتضح أنها هي التي سبق أن جاءت تعقيبا على توصية العزيز امرأته بإكرام مثوى يوسف - عليه السلام - قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾(١).

وواضح أن هذه الجزئية تجيء في كل من المناسبتَيْن بعد امتحان من الله تعالى ليوسف، وهذا يعني أن رحمة الله تعالى دائماً قريب من المحسنين.

ومعناها في المناسبة الأولى: ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب العزيز مكنا له في قلوب الآخرين، في بيت العزيز على أقل تقدير. ومعناها في المناسبة الثانية، ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب الملك مكّنّا له في قُلُوب المصريين(٢).

فكان أولاً تمكينا خاصاً بزمن محدود وأمكنة محدودة، وبالوكالة عن العزيز وهو المذكور في قوله تعالى سابقاً، ولكن هذا التمكين الأول أعقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف، فلم يدم، ثم لم يكن عاماً وواسعاً كما أنه لم يكن إلا مستعاراً من جاه العزيز، وهذا كله بخلاف التمكين الثاني. المذكور هنا في هذه الآية، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الأزمنة والأمكنة وبالأصالة، فأما عمومه لجميع الأمكنة، فلقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء﴾.

وأما كونه بالأصالة، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير ماليّة فيها(٣).

والتمكين الأول كان ليوسف - عليه السلام - وهو في حالَة عبُوديّة وأسر، لقد كان تمكين اختبار وابتلاء، ولكن التمكين هنا تمكين سيادة وسلطان وحرية وانْطلاق، تمكين جاء نتيجة النجاح في الاختبار والابتلاء، ولذلك لم يُقيّدهُ هناك - في الآية الأولى للتمكين - بما قيّده به هنا من قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء﴾(٤).

---

(١) يوسف / ٢١. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٤٤.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٧٥.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٣٣.



الأرض هنا والأرض في الآية الأخرى:

ونتبيّن نوعاً من فرق بين لفظ الأرض في كلّ من المناسبَتَيْن، إن يوسف في المناسبة الأولى، كان تمكين الله تعالى له في أرض محدودة الرقعة، ربما كان معناها أرض عزيز مصر وقد اتسعت هذه الأرض بعد تعيين الملك له في منصب عزيز مصر، فأصبحت تعم الأرض الداخلة في المملكة الهكسوسيّة[١]، هذا وليس المراد بالأرض بطبيعة الحال التراب فقط الذي أمكن له أن يفترشه - عليه السلام - دائما، إنما المراد بالدرجة الأولى النفوس التي أسَرَها بإحسانه، والقلوب التي ملكها بمحبته وإخلاصه وتفانية، وكأن لسان حاله - عليه السلام - يقول لنا: ليس المهم الوصول إلى أمثال هذه المناصب، إنما المهم الانتفاع بها والاستفادة منها لما فيه خير البشرية دينيا ودنيويا، وليس المهم هذه المساحات الشاسعة من الأرض التي يمكن للإنسان أن ينتقل فيها، إنما المهم قلوب أصحابها وأنفسهم[٢] ثم بين الله تعالى مدى تمكينه - عليه السلام - في الأرض فقال:

«يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ»

أي: يتخذ منها مَبَاءَةً ومنزلا كل مكان أراد، فاستولي على جميعها ودخلت كلها تحت سلطانه[٣] يتجوّل ويتصرف فيها كيف يشاء وحيث يشاء[٤] كما يتصرف الرجل في منزله[٥] وهذا في مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والخدمة في القصر وما فيها من تحكم، والسجن وما فيه من قيود، فهو الآن قد أصبح في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض، وقد تجوّل - عليه السلام - في قطرها، وطاف قراها، والأمر أمره، والإشارة إشارته، عناية من الله تعالى ورحمة[٦]...

وبعد هذا الإنعام الفياض من الرحيم المنان على يوسف - عليه السلام - فكأنه قيل: لِمَ كان هذا؟ فقال لأمرين:

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٧٥.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٤٧. (٣) تفسير البحر / ٥ / ٣١٨.

(٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٣٣. (٥) فتح البيان / ٦ / ٣٥٧.

(٦) انظر: تفسير القاسمي / ٤ / ٣٧٧، وتيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٣٥.



(أحدهما) : أن لنا الأمر كله،

«**نصيب**» على وجه الاختصاص،

«**برحمتنا**» بما لنا من العظمة فنعطي في الدنيا من الملك والغني وغيرهما من النعم، والمراد هنا من الرحمة، النعمة العالية، وإلا فمطلق النعمة لكل إنسان دون التّقييد بالمشيئة.

«**من نشاء**» من مستحق فيما ترون وغيره، لا نُسْأل عما نفعل، وقد شئنا إصابة يوسف بهذا، كما اقتضت حكمتنا أن نشاء له ذلك،

(الثاني) : أنه محسن يعبد الله فانيا عن جميع الأغيار[١] وهذه الجزئية «نصيب برحمتنا من نشاء» كقوله تعالى: «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء»[٢] وهي تشكّل قاعدة عامة لرحمة الله تعالى التي يصطفي بها من يشاء من عباده، ولكن هؤلاء العباد يجب أن يكونوا صالحين محسنين، لأن لفظ الرحمة الذي تضمنته الآية مجانس للعباد الصالحين الذين من أهم خصائصهم أن قلوبهم (رحيمة) وقد قال تعالى: «هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ»[٣].

ويوسف - عليه السلام - هو المعنِيُّ أوّلا بهذه الجزئية، وهو محورها، ويدخل بعد ذلك تحتها كل من كانت هذه صفته وحاله، خاصة وقد جاء في هذه الجزئية الأخيرة من الآية لفظ «المحسنين»[٤] في قوله تعالى:

«وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»

أي: بل نوفّيه بكماله، وفيه إشعار بأن مدار المشيئة المذكورة إحسانُ من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له[٥] والمحسنون هم الذين يحسنون الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس[٦] وهم درجات، وأعلى الخلق درجة في الإحسان الأنبياء والمرسلون، وهم أيضا درجات، كما

---

(١) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٩، ونظم الدرر / ٤ / ٦١، والقول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٣٣.

(٢) آل عمران / ٧٤.   (٣) الرحمن / ٦٠.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٤٥.

(٥) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٧.   (٦) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٤.



قال تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»(١) وقوله جل شأنه: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ»(٢) ويوسف - عليه السلام - منهم.

المضمون العام للآية الكريمة:

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» أي ومثل هذا التّمكين الذي سلف ذكر أسبابه ومقدّماته، مكنا ليوسف في أرض مصر، يتّخذ منها منزلا حيث يشاء، بعد الضّيق والحبْس والإسار، ويتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، «نصيب برحمتنا من نشاء» أي نخُصّ برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغني والصحّة ونحوها من نشاء من عبادنا، بمقْتضى ما وضعْنا من السنن في الأسباب الكسْبيّة مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الإجتماعية، والفضائل الخلقية، «ولا نضيع أجر المحسنين» أي: ولا نضيع أجر من أحسنوا في أعمالهم بشكران هذه النّعم، بل نأجرهم عليها سعادة وهناء، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها، وسار على مقتضى السُّنن التي وضعْناها، أما من يسيئون التّصرّف فيها فتصيبهم المنغّصات، وتتوالى عليهم المكدّرات.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تمكين الله تعالى ليوسف - عليه السلام - في الأرض لصبره وتقواه وإحسانه.

٢ - أصبح - عليه السلام - يتصرف في شئون مصر كيف يشاء، ودخلت كلها تحت سلطانه.

٣ - الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين، بل يوفيهم أجورهم كاملة غير منقوصة، وقد اختصهم برحمته وواسع فضله.

٤ - قضى الله تعالى أن المحسن يرى أثر عمله الحسن في الدنيا قبل الآخرة، وأن المسئ كذلك، يرى أثر عمله السيء في الأولى قبل الآخرة.

٥ - الآمال العظيمة لا تتحقق إلا بالصبر الجميل والجهاد العظيم، والإحسان الدائم.

---

(٤) البقرة/ ٢٥٣. (٥) الإسراء/ ٥٥.

رفع المسيّهم

«الآية السابعة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

قوله: «وَكَانُواْ يَتَّقُونَ» التقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، وهي في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يُؤْثم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات(١)...

وتقوى الله: خشيته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتقيّ: من يتّقِ الله تعالى (ج) أتقياء(٢).

رابعاً: الإعراب:

«وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ» اللام لام الابتداء، و(أجر) مبتدأ، و(الاخرة) مضاف إليه، و(خير) خبر أجر، و(للذين) متعلقان بـ(خير) وجملة (آمنوا) صلة، و(كانوا) كان واسمها، وجملة (يتقون) خبرها(٣).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب الواو) ٥٣٠-٥٣١.

(٢) المعجم الوسيط/ ٢/ ١٠٥٢.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ١٣.



سادساً - التفسير والبيان:

أجر الآخرة خير من أجر الدنيا

قال الله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

وجه المناسبة:

ولَمَّا تقدم في الآية السابقة أن الإحسان من العبد والجَرْي على طريق الحق لا يضيع عند الله تعالى ولا بد من حسن عاقبته في الدنيا؛ عقَّبَ ذلك بأن حال الآخرة أحْمَد وأحْرى أن تُجْعل غرضا ومقصدا فقال:

«ولأجرُ الآخرةِ خيرٌ»(١)

فالآية الكريمة تدفع توهّم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكِرَ من الأجر العاجل(٢)، فإذا كان ما أعطاه الله تعالى ليوسف - عليه السلام - في الدنيا مما يستعظمه الناس، فإن عزها في الحقيقة لا يعد شيئاً مذكورا إذا قيس بعز الآخرة ونعيمها، وهذه إشارة واضحة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، الذي هو أعظم وأجل بكثير من كل ما يخوّل به الناس في الدنيا، من التمكين في الأرض والملك والثراء(٣)، . . .

وهذا المعنى المذكور جاء في عشرات الآيات من كتاب الله الكريم، من ذلك قوله تعالى: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً»(٤) وكذلك جاءت السنة بذلك وفي أحاديث كثيرة، من ذلك قوله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»(٥) وقوله - ﷺ -: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصْبُعَه في اليَمّ، فلينظر بمَ يرجع(٦).

---

(١) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٢٧.

(٢) تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٧.

(٣) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٦١، وتفسير القاسمي / ٤ / ٣٧٧

(٤) النساء / ٧٧.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢١) وقال حديث حسن صحيح.

(٦) رواه مسلم (٢٨٥٨).



أجر الآخرة خير لمن؟

ولمّا كان سياق الأحكام لتعليقها بأوصاف يكون السياق مرغّبا فيها أو مرهّبا منها أحسن وأبلغ قال:

«لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»

تلك هي الأوصاف التي يعمها الحكم، وهي الجمع بين الإيمان والتقوى، فبا التقوى تُتْرك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب والجوارح من الواجبات والمستحبات،...

فالمؤمن التقي في الآخرة أسعد حظا وأرقى نعيما من حاله في الدنيا مهما أعطى فيها، ويوسف - عليه السلام - الذي هو موضوع الحديث والمشهود له من ربه بكمال إيمانه وتقواه، لئن كان قد تبوّأ من خريطة مصر حيث شاء، فلعمري سوف يتبوّأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم بكثير مما آتاه الله تعالى في الدنيا، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان - عليه السلام -: «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ»[١] وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعدّ منهم يوسف - عليه السلام -: «وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ»[٢]، [٣]...

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي «آمنوا» وفي جانب التقوى بصيغة المضارع «يتقون»، لأن الإيمان عقْد القلب الجازم، فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجدّدة بتجدّد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والأزمان[٤].

---

(١) سورة صٓ / ٣٩-٤٠.

(٢) النحل / ٤١.

(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٨٤-٩٨٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ١١.



ثلاث شهادات من الله تعالى ليوسف - عليه السّلام -:

لا شك أن المراد من قوله «وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ» شرح حال يوسف – عليه السلام – فوجب أن يُصَدَّق في حقه أنّه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا تَنْصيص من الله عز وجلّ على أنه كان في الزمان السابق من المتّقين، وليس هَهُنا زمان سابق ليوسف – عليه السلام – يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقْت الذي قال الله فيه:

«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه – عليه السلام – كان في ذلك الوقت من المتّقين، وأيضاً قوله: «وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» شهادة من الله تعالى على أنه – عليه السلام – كان من المحسنين، وقوله قبل ذلك في حقه: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» شهادة على أنه من المخلصين وهذا كله يؤكد أنه – عليه السلام – لم يَحصُل منه همٌّ بالفاحشة أبدا وإنما كان همّاً للدفاع والتأديب، والله أعلم.

المضمون العام للآية الكريمة:

يقول الله تعالى: «وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ» أي ثوابها خير من ثواب الدنيا وأعظم بكثير «لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ» أي لمن جمع بين التقوى والإيمان، ويوسف – عليه السلام – من أجلّهم حظّا وأعلاهم كعبا، وما تقدم في السورة من آيات كريمة تشهد له – عليه السلام – بكمال إيمانه وتقواه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ – ثواب الآخرة وعطاء الله تعالى فيها لعبادة المؤمنين المتقين خير وأكثر وأعظم من عطاء الدنيا بأسره، لأن أجر الآخرة دائم ومتعتها تامة وسعادتها صافية، بخلاف الدنيا الزائلة، فمتاعها قليل، وناقص، وتكدّره الأحداث والنوائب.

٢ – الله تعالى يعطي الدنيا للمؤمن والكافر، ولا يعطى الآخرة، إلا للمؤمن.



٣ - ينبغي للعبد أن يدعو نفسه ويشوّقها لثواب الآخرة، وإذا كان في ضيق فلا يحزن، فإن ما ينتظره عند الله تعالى مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، لا يحدّ ولا يعدّ ولا يوصف.

رفع المسـاهم

فهرس الآيات - الجزء الثاني

من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السابعة والخمسين

الموضوع	رقم الصفحة
(الباب الثاني) الفصل الأول	
الآية الرابعة والعشرون (ولقد همت به)	٥٦٩
(أ) تحقيق معنى (الهم)	٥٧٥
(ب) تحقيق معنى (البرهان)	٥٧٧
(جـ) ذكر أقوال المفسرين في المراد من الهم إجمالا	٥٧٧
(د) ذكر أقوال المفسرين في الهم والبرهان تفصيلا	٥٧٩
سابعاً - عرض القول المختار في مسألة (الهم والبرهان)	٦١٣
الفصل الثاني	
الآية الخامسة والعشرون (واستبقا الباب... الآية)	٦٤٥
الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون (قال هي راودتني عن نفسي... الآية (٢٦) و(وإن كان قميصه قد من دبر... الآية) (٢٧)	٦٥٨
● الموقف من المتعارضات: تحقيق القول في موضوع (الشاهد)........	٦٥٩
● المبدأ الذي قرره الشاهد ليبني عليه الحكم في القضية	٦٦٥
الآية الثامنة والعشرون (فلما رأى قميصه قد من دبر... الآية)	٦٧١
كيد الرجال وكيد النساء	٦٧٦
كيد النساء وكيد الشيطان	٦٧٧
الآية التاسعة والعشرون (يوسف أعرض عن هذا... الآية)	٦٨٠
● الحكمة من ذكر المراودة والهم في سورة يوسف	٦٨٤
الفصل الثالث	
الآية الثلاثون (وقال نسوة في المدينة... الآية)	٦٩٣



الموضوع	رقم الصفحة
● مراتب الحب	٧٠٢
الآية الواحدة والثلاثون (فلما سمعت بمكرهن... الآية)	٧٠٧
تلبية الدعوة وحضور النسوة	٧١٨
● ذهول النسوة وتقطيع أيديهن. الدماء تسيل وامرأة العزيز تتشفى	٧٢٤
الآية الثانية والثلاثون (قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه... الآية)	٧٣١
الآية الثالثة والثلاثون (قال رب السجن أحب إلي... الآية)	٧٤٢
الآية الرابعة والثلاثون (فاستجاب له ربه... الآية)	٧٥٤
● صبر يوسف وتقواه	٧٥٨
محمد صلى الله عليه وسلم وغار حراء، واختياره الاحتباس في شعب بني طالب	٧٦١
● السجن وأهل العلم والتقوى	٧٦٣
الآية الخامسة والثلاثون (ثم بدالهم... الآية)	٧٦٤
أين قطفير عزيز مصر وهذه الأحداث	٧٧٦
الفصل الرابع	
الآية السادسة والثلاثون (ودخل معه السجن فتيان... الآية)	٧٨٥
الموقف من المتعارضات أقوال المفسرين فيما يدل عليه لفظ (مع)	٧٨٨
الآية السابعة والثلاثون (قال لا يأتيكما طعام... الآية)	٨١٤
الموقف من المتعارضات	٨١٨
أهمية الإيمان باليوم الآخر وأثره على سلوك الإنسان	٨٤٥
الآية الثامنة والثلاثون (واتبعت ملة آبائي... الآية)	٨٤٨
● ملة آباء يوسف - عليه السلام -	٨٥٤
● الإسلام هو الملة الحنيفيّة التي دعا إليها كل نبي ورسول	٨٥٧
● حقيقة الشّرك والعياذ بالله تعالى	٨٦٣



● التوحيد الحق الذي تقتضيه عقيدة الإسلام	٨٦٥
الآية التاسعة والثلاثون (يا صاحبي السجن أأرباب ... الآية)	٨٧٢
الآية الأربعون (ما تعبدون من دونه إلا أسماء ... الآية)	٨٨٤
● قضية العبادة	٨٩٤
الآية الواحدة والأربعون (يا صاحبي السجن أما أحدكما ... الآية)	٩٠٠
الآية الثانية والأربعون (وقال للذي ظن أنه ناج منهما ... الآية)	٩٠٩
الفصل الخامس	
الآية الثالثة والأربعون (وقال الملك إني أرى ... الآية)	٩٣٥
الآية الرابعة والأربعون (قالوا أضغاث أحلام ... الآية)	٩٥١
الآية الخامسة والأربعون (وقال الذي نجا منهما ... الآية)	٩٦١
الآية السادسة والأربعون (يوسف أيها الصديق ... الآية)	٩٦٩
الآية السابعة والأربعون (قال تزرعون سبع سنين دأبا ... الآية)	٩٧٩
الآية الثامنة والأربعون (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ... الآية)	٩٨٩
الآية التاسعة والأربعون (ثم يأتي من بعد ذلك عام ... الآية)	٩٩٥
الآية الخمسون (وقال الملك ائتوني به ... الآية)	١٠١١
الآية الواحدة والخمسون (قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ... الآية)	١٠٢٣
الآية الثانية والخمسون (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ... الآية)	١٠٤٠
الآية الثالثة والخمسون (وما أبرئ نفسي ... الآية)	١٠٥٤
● امرأة العزيز أيتها المؤمنة التائبة	١٠٦١
الآية الرابعة والخمسون (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ... الآية)	١٠٦٨
الآية الخامسة والخمسون (قال اجعلني على خزائن الأرض ... الآية)	١٠٧٧



الموضوع	رقم الصفحة
الآية السادسة والخمسون (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض... الآية) ...	١٠٩١
● الفرق بين هذا التمكين والتمكين السابق	١٠٩٥
الآية السابعة والخمسون (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا... الآية)	١٠٩٩
الفهرس	١١٠٥

طبع بمطابع القبس التجارية

رفع المسبهم



2010-06-27
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

موسوعة
تفسير سورة يوسف (عليه السلام)

منهج جديد في التفسير
يجمع بين تأويل السَّلف المحقق، وتفسير الخلَف الموفق

تأليف

عليش متولي بدوي البني

قدم لها: فضيلة الشيخ الدكتور سيد محمد نوح،
الأستاذ بكلية الشريعة - جامعة الكويت -

وفضيلة الشيخ السيد عبد المقصود محمد عسكر
الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - سابقاً

تحت إشراف

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - لجنة آسيا بدولة الكويت -
وتحدث بلسانها مديرها **الدكتور عادل عبدالله الفلاح**،
وكيل وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت

طبع على نفقة
وقف المرحوم بدر جاسم النصف غفر الله له

«الجزء الثالث - الباب الثالث»

من الآية رقم (٥٨)
إلى الآية رقم (١١١)



(الفصل الأول)

(من الباب الثالث)

من لقاء الإخوة بيوسف - عليه السلام - في رحلتهم الأولى إلى مصر، إلى دخولهم مصر من حيث أمرهم أبوهم في رحلتهم الثانية.

من الآية رقم (٥٨)

إلى الآية رقم (٦٨)



آيات الفصل الخامس

(من الباب الثاني)

قال الله تعالى:

وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾

رفع
المساهم

ومضت سنوات وسنوات، وحان موعد اللقاء المقدَّر في الأزل وما قدّره الله تعالى لا بد أن يكون.

رفع المسـاهم

« الآية الثامنة والخمسون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ» الكلام معطوف على كلام سابق يفهم من سياق القصة، أي أصابت يعقوب وأولاده ضائقة وهم في فلسطين، فقال يعقوب – عليه السلام – بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه واقصدوه لتشتروا ما نحن بحاجة إليه من الطعام، فخرجوا حتى قدموا مصر إلى آخر القصة، «وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ» فعل وفاعل، ولم ينصرف (يوسف) للعلميّة والعجمة، (فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ) عطف على (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ)

«فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ» الفاء عاطفة، و(عرفهم) فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والواو للحال، و(هم) مبتدأ، و(له) متعلقان بـ(منكرون) و(منكرون) خبر، أي لم يعرفوه لطول العهد(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ١٥.



سادساً - التفسير والبيان:

قدوم إخوة يوسف إلى مصر للمرة الأولى

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾

وجه المناسبة:

ولمّا كان المعنى كما تقدم، أي فجُعِل إليه خزائن الأرض، فجاءت السنون المخصبة، فدبّرها بما علمه الله تعالى، ثم جاءت السنون المجدبة، فأجدبت جميع أرض مصر وما والاها من بلاد الشام وغيرها، فأخرج ما كان ادّخره من غلال سبع سنين بالتّدريج أوّلاً فأوّلاً، كما حدّد له العليم الحكيم، فتسامع به الناس فجاءوا للامتيار منه من كل أوْب[١] ومن جملتهم إخوته، فأخبر القرآن عن ذلك بقوله:

«وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ» مفعول جاء محذوف، أي وجاء مصر إخوة يوسف[٢] لما أصابهم القحط ليمتاروا، وهذا من اختصار القرآن المعجز[٣] وكان مجيئهم في السنة الثانية من سني القحط، وقد عرف أنهم ممتارين من تقدم قوله تعالى: «قَالَ اجعَلْني عَلَى خَزَائِنُ الأرْض»، وقوله الآتي: «ألا تَرَونَ أنّي أوف الكَيْلَ وأنَا خَيرُ المُنْزِلين»، ولم يحضر معهم أخوهم (بنيامين) فقد تشبّث به أبوه يعقوب - عليه السلام - فأبقاه معه، لأنه كان يرى فيه بعض التعزية عن فقد أخيه الشقيق يوسف - عليه السلام - وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فخشي عليه أن يلحقه سوء[٤].

ودارة عجلة الزمن:

ودارت عجلة الزمن، وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طول سنوات الرخاء، فلم يذكر كيف كان الخِصب، وكيف زرع الناس، وكيف أدار يوسف - عليه السلام - جهاز

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٦٥.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٣٥.

(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٢٠.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ١٢.



الدولة، وكيف نظّم ودبّرو ادّخر، كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله: «إنّي حَفيظٌ عليم»(١) ومعلوم حصولها(٢) أي أنه لما تولى – عليه السلام – خزائن الأرض دبّرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجَبَا من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه وَضَبَطَه ضبْطاً تاماً(٣)، وكان سلاحه – عليه السلام – لتحمل المسئولية كما قال هو عن نفسه، الحفظ والعلم،

أما الحفظ فمن خصائصه ما يأتي:

١ – الإحاطة بطرق صيانة السلع وحفظها من التلف والضياع والتبديد.

٢ – الإحاطة بطرق صيانة الأرواح والأجسام وما تصلح به.

٣ – الترشيد الاقتصادي، وهو التصرف الأمثل لتوجيه موارد الثروة لتحقيق الهدف دون تبذير ولا تقتير ولا تسيّب.

٤ – العلم بتدبير الشئون بما يتفق ومصالح البلاد وما يدفع عنها كل سوء ويجلب كل خير.

٥ – استعمال الأصلح الذي يعين على حفظ الأموال والأنفس والأعراض.

٦ – العدالة في التوزيع وعدم محاباة أحد على حساب أحد مع الرحمة التي تقتضي عدم التفريط في مخلوق.

٧ – التخطيط الدقيق ليتسنى للمخزون من الأقوات والمؤن أن يغطى الفترة الباقية من المجاعة.

وأما العلم فمن خصائصه - فيما يتعلق بالوضع العام للمجابهة المنتظرة - ما يأتي:

(١) العلم بتدبير أمور الأفراد والجماعات تدبيرا يوجه الجميع نحو الكمال الأعلى، ومن ذلك تصريف الأمور تصريفا يحقق للبلاد ما هو خير لها في جميع شئونها.

---

(١) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠١٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ١٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٣٦.



ومن العلوم التي يحتاجها من يتصدر لمثل هذا المنصب ما يلي:

(أ) علم الإدارة والحكم والخبرة التامة في الشئون الإدارية.

(ب) علوم السكان.

(جـ) علوم التنمية والتخطيط والترشيد في جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية.

(٢) الإحاطة باقتصاديات الإنتاج والتوزيع، ويترتب على ذلك تقدير الاحتياطي اللازم لمواجهة أي عجز سنوي أو أيّ عجز في الخطة[١].

هذا... والمتصور أنه - عليه السلام - وبإلهام من الله تعالى وتوفيق منه جل شأنه، أخذ يطوف بالبلاد المصرية طولاً وعرضاً «يتبوأ منها حيث يشاء» ويقوم أثناء ذلك بدراسة كل منطقة وجهة دراسة متكاملة، ويضع الخطط المناسبة لكل أرض على حدة، ويرشد الزراع والمشرفين عليهم ليقوم كل واحد منهم بواجبه على الوجه الأكمل، في الزرع والحصد والتخزين،...

ولقد كانت الدقة التامة التي سادت جميع العمليات الزراعية، آية من الآيات الدالة على نبوته - عليه السلام،...

وكان من دلائل نبوته الباهرة أيضاً، أنه - عليه السلام - قد تربيّ مع قوم تقدموا جميع الأمم في شئون الزراعة وما يتصل بها، فإذا به يُعْجِزُهم بقوة إدراكه وسعة علومه وسداد تصرفاته وحسن تقديره، إعجاز أصدق مقالته أن ما كان منه - عليه السلام - لم يكن سوى اجتباء منه عز وجل له، فهو سبحانه الذي أفاض عليه من العلوم ما لا يدركه أهل الدنيا مدى الدهر، ولو اجتمعوا له[٢].

لماذا توجه إخوة يوسف بالضرورة إلى مصر ولم يتوجهوا إلى مكان آخر؟

لقد تحقق تعبير يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك الريان، بمجئ السنين السبع

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٣٦٦.



المخصبة، تلتها السنون السبع المجدبة، فحصل قحط وجوع لا سيّما في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين، لعدم استعداد أهلها لمثل هذا اليوم، وقد أصاب يعقوب - عليه السلام - وأهله في أرض كنعان بفلسطين، ما أصاب غيرهم من ضيق شديد في العيش(١)...

وفي هذه الأثناء كان قد سطع ذكر عزيز مصر، في مصر وفي البلاد المجاورة، وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً يحمل بين جنبيه نفْساً كريمة، فقد أعد عدّته للجوع والقحط والجدب، فهو يوزع الحنطة بين الناس بميزان عادل، ويقضي حوائجهم بقسطاس، لا يفرق بين شعب وشعب، ولا بين قطر وقطر(٢)، ولديه فائض من الحبوب يمد به البلاد المجاورة، والتي انطبق عليها من سني الخصب والمجاعة ما حدث بمصر، لكن إرادة الله تعالى شاءت ألا تُرى رؤيا مماثلة لرؤيا الملك في مكان خصب آخر كفلسطين، كي يُحْتَاط للشدة قبل حلولها(٣) ليكون ذلك سبباً مُلِحّاً في مجئ إخوة يوسف إلى مصر طلباً للميرة، فالله تعالى الذي يمسك بأزمّة الأمور وأعنّتها، يريد أن تمشي الأمور في المسار الذي قَدَّرَ، ليظهر عبده المصطفى يوسف - عليه السلام - على إخوته، وليظهر من خلال هؤلاء الأشخاص، قيمة الفضيلة والخير والإحسان، وكيف أن الله تعالى سيظهرها ويُعْلِي أصحابها، من هنا كانت تلك الأزمة الاقتصادية، وذلك القحط، ليجئ إخوة يوسف إلى مصر مُرْغمين يبحثون عن الطعام(٤).

ولعلمهم أن عزيز مصر قد حدد كمية الطعام التي يبيعها لكل شخص حمل بعير، فقد قدم إخوته العشرة لأبيه إلى مصر، وقد حملوا معهم بضاعتهم التي يعتاضون بها(٥).

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ٩٩١.

(٢) قصص القرآن (جاد المولى) ٩٧-٩٨.

(٣) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٨١.

(٤) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية / ٤٥٩.

(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ١٢.



قال ابن إسحاق: وكان يوسف - عليه السلام - حين رآى ما أصاب الناس من الجهد قد أسابينهم، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحد[1].

وقال ابن عباس: وكان يوسف - عليه السلام - يجلس عند البيع بنفسه فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم لكل رأس وسْقاً[2] والوسق: مكيلة معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث، ويطلق الوسق على حِمْل البعير[3].

يوسف - عليه السلام - وإخوته العشرة وجهاً لوجه:

قال تعالى: «فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ»

الدخول: الانتقال إلى محيط، والمعرفة: تبيّن الشيء بالقلب بما لو شوهد لفَرَق بينه وبين غيره مما ليس على خاص صفته[4]...

ثلاثون عاماً مضت أو يزيد، منذ أن فارق - عليه السلام - إخوته رغماً عنه وكرهاً منهم له، وهذا الزمان هو المتوقع بعد سنوات الإقامة في بيت العزيز، وبضع سنين في السجن، وسبع سنوات رخاء، وبعض سني الجدب حتى جاءوا[5]...

وكان عليهم إذا أرادوا الميرة أن يلتقوا بالعزيز وجهاً لوجهٍ، فهو الذي له حق التصرف فيها، وهو الذي يشرف بنفسه على عملية التوزيع، كما هو فعل الكفاءة الحازمة لا يثق فيه بغيره[6] ضاربا المثل الأعلى في الطريقة التي ينبغي، أن تؤخذ بها الأمور في مثل هذه الأزمات والأوقات الدقيقة الصعبة.

وقد كان - عليه السلام - يترقب مجيئهم بعد علمه بأن الجدب قد حصل ببلادهم من الممتارين الذين قدموا قبلهم من الأماكن القريبة منهم، فليس إخوة يوسف أول من جاء مصر طلباً للميرة، ولا آخر من جاء، فقد سبقتهم أفواج وأفواج...

---

(١) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٧.
(٢) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٢٠.
(٣) المعجم الوسيط / ٢ / ١٠٣٢.
(٤) نظم الدرر / ٤ / ٦٦.
(٥) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٥.
(٦) نظم الدرر / ٤ / ٦٦.



لحظة اللقاء الحاسمة:

وكانت لحظة رؤيته - عليه السلام - لإخوته العشرة، لحظة فاصلة بين ماض ولّى، وحاضر أتى، ولعله - عليه السلام - حين رآهم تذكر آخر مشهد له معهم، وهم يجعلونه في الجب ويتركونه لمصيره المجهول، ثم فكر فيما أفاض عليه ربه من نعمه التي لا تعد ولا تحصى،...

فأكرمه بالعز والسلطان، وبالنبوة والرسالة، وجعله الوحيد الذي يتوجه إليه إخوته من دون كل خلق الله، مرغمين مضطرين، طمعاً في الحصول على الميرة من بين يديه، لإنقاذ أنفسهم وأهلهم من شر المجاعة المهلكة، ولقد عرفهم - عليه السلام - من أول نظرة، فملامح الكبار لا تتغير كثيراً، فهم لا يزالون على حالتهم الأولى التي عرفها وملأ منها عينه أيام طفولته، فقد فارقهم وهم رجال، مع تشابه هيئاتهم وزيّهم في الحالين، ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم، لاسيما في زمن القحط، فكان يتوقع مجيئهم، أما هم فلم يعرفوه، كما قال تعالى:

«وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ»

وهذه الجملة عطف على جملة «فعرفهم»، ووقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدّد، للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسّم وتأمّل، وقرن مفعول (منكرون) الذي هو ضمير يوسف بلام التقوية، ولم يقل (وهم منكرون) لزيادة تقوية جهلهم[1]....

وسبب عدم معرفتهم له، طول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحا في البئر، حتى لو تخيّلوا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/١٢.



أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنُونهم، ولأن الملك مما يبدّل الزّي ويلبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف(١).

ولذلك لم يطرأ لهم على بال أن يكلّفوا أنفسهم مؤنة التوسّم في وجه العزيز والتّفَرُّس في ملامحه؛ إذ أنه عمل لا تستدعيه ضرورة لخلوّ الذهن من دواعيه، بل لو كانت هناك دواع تدعو إلى ذلك لكان التّوسّم في أي وجه غريب عنهم أقرب إلى العقْل عندهم من توسمهم يوسف - عليه السلام - في شخص العزيز.

لِمَاذا لَمْ يعرّفهم - عليه السلام - بنفسه؟:

وقد أخَّرَ - عليه السلام - تعريفهم بنفسه ليتمكّنَ من تنفيذ خطّته التي تهدف إلى جمع شمل الأسرة، بعد علاجهم مِمّا تنطوي عليه أنفُسُهم تجاهه وتجاه أخيه (بنيامين) ليعودوا قوماً صالحين بحق إلى حظيرة أبيهم دون أن يعترضوا عليه(٢)، وقد رآى عليه السلام أن هذا الوقت لم يُحنْ بعد، فلا بدّ مِن دروس يتلقَّوْنها قبل ذلك(٣) قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - وإنما لم يُعرّفهم نفسه لأسباب أُخَرَ فيها منفعه لهم ولأبيهم وله، وتمام لما أراده الله تعالى من الخير في هذا البلاء(٤).

مقابلة السيّئة بالحسنة:

ومع أن هؤلاء الإخوة العشرة لأبيه، هم الذين اعتدوا عليه وآذوه ومكروا به وبأبيه يعقوب - عليه السلام - المكر السَّيِّ، وكان في الإمكان - لو أراد عليه السلام - أن يقبض عليهم ويقيّدهم في الأغلال ويحاكمهم ويعاقبهم على ما ارتكبوه من جرم في حقه وحق والده وأخيه (بنيامين)، إلا أن الخلق العظيم الذي فطره الله عليه أبي إلا أن يحسن إلى من أساء إليه، وتلك آية من آيات النبوّة الرحيمة، ونستطيع أن نتبيّن

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٢٩.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٣٦٩

(٣) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٥.

(٤) إغاثة اللهفان / ٢ / ١٢٨.



إحسانه إليهم بوضوح من خلال النص القرآني الكريم، فقد جاء على لسانه بهذا الصَّدد «وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِين» وإذا كان يفهم منها أن إكرام يوسف - عليه السلام - ليس وقْفاً على إخوته النازلين به، بل كان شاملاً لكل قاصدٍ له، إلا أن المرَجَّح أنّ نصيب الإخوة كان أكثرمن نصيب سواهم(١) فقد واجههم بعد بسؤاله «ألا تَرَوْنَ أنّي أوْفِ الكَيلَ وأنَا خَيْرُ المُنزلين» مما يؤكد أنهم تمتعوا بثلاثة أنواع من الإكرام، حسْن الاستقبال، ووفاء الكيل، والنزول في ضيافته الكريمة.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما جعل يوسف - عليه السلام - على خزائن أرض مصر كلها، قام بمهمته العظمى خير قيام، فأمر بالزرع والاهتمام به، وادّخر سبع سنوات الخصب ما شاء الله تعالى أن يدّخر، ثم جاءت سنوات الجدب والقحط والجفاف، وأصاب الناس المجاعة، واشتهر في البلاد أن الطعام في مصر كثير وأنه يباع من قِبَل الدولة وبسعر معقول، فتوجّه الناس إلى مصر، وأصاب آل يعقوب - عليه السلام - ما أصاب الناس فتوجّه أبناؤه إلى مصر لشراء الطعام، وجاء مصر إخوة يوسف ففتَّشوا عمن بيده الطعام فدَلُوهم على العزيز وهو يوسف، فدخلوا عليه فعرفهم أوَّل ما دخلوا عليه لأن صورهم لم تتغيّر كثيراً وكانوا في مثل الزّي الذي تركهم فيه يوسف، وفي نفس الحال، أمّا إخْوتُه العشرة لأب فلم يعرفوه لأنه قد تغيرت صورته من الطفولة والصبا إلى الرجولة، وكان في زي ملكيّ وفي مكانة لا يتخيَّل أنه يمكن أن يكون من أصحابها في يوم ما.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٨٥.

رفع المسبّهما

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - كان لمجيء رؤيا الملك ووقوع تأويلها كما عبرها يوسف - عليه السلام - واستدعاء الملك له ليخلّصه لنفسه وجعله على خزائن أرض مصر، تدبيراً إلهيّاً حكيماً، حيث تتعابعت الأحداث وجاء سنوات الجدب والقحط بعد سنوات الزرع والخصب، وجاء إخوة يوسف إلى مصر يطلبون الميرة لتتم سلسلة الأحداث كما أراد الله تعالى.

٢ - حسن معاملة يوسف لكل النازلين أرض مصر وخاصة إخوته، حيث أحسن إليهم وأكرمهم وأنزلهم منزلاً كريماً، رغم إساءتهم له ولأبيه وأخيه (بنيامين).

٣ - العفو عن المسيء ومقابلة السيئة بالحسنة من شيم الأنبياء والصالحين.

٤ - العمل على المحافظة على الروابط الأسرية ومواجهة انحراف بعض أفرادها باللطف والحكمة حتى يعودوا إلى الاستقامة في ظل الأسرة المتكاملة.

٥ - من ضرورات نجاح القائد والحاكم والقائم على أمر من الأمور العامة، أن يباشر أموره بنفسه ما استطاع، تجلّي هذا في قيام يوسف بنفسه على بيع الطعام لخطورة المسألة.



«الآية التاسعة والخمسون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله: «جَهازهم» الجمهور على فتح جيم «جهازهم»، ويجوز كسره، وبه قرأ بعض القراء، وهما لغتان، وكذلك جهاز العروس تفتح وتكسر[1]

قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيّدة[2]

ثالثاً - اللغة:

قوله: «جَهَّزَ» الجهاز: ما يُعَدّ من متاع وغيره[3]، ويطلق على ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع، يقال: جهّزت المسافر تجهيزاً: هيّأت له جهازه، ومنه جهاز العروس، وجهاز الميت[4].

قوله: «أوفِ الكيل» وفَّى: الوافي الذي بلغ التّمام، يقال: درهم واف، وكيل واف، وأوفيت الكيل والوزن، قال تعالى: «وأوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُم»[5]، [6] ويقال: وفَّى فلان حقه: أعطاه وافياً، وتَوَافَى القوم: تَتَامُّوا[7]

قوله: «المُنْزِلين» نَزَلَ، النزول في الأصل: هو انحطاط من عُلُوّ، يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا: حطّ رحله فيه[8] والنزول: الحلول، وقد نَزَلَهُم ونزل بهم ينزل نزولاً ومَنْزَلاً، ومنزِلا بالكسر شاذ[9] والنُّزُل: مَا يُهَيَّأ للنازل فيه ويُعَدُّله إعداداً

---

(١) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٧٨، وانظر: الدر المصون / ٦ / ٥١٦.

(٢) فتح القدير / ٣ / ٣٩. (٣) المفردات (كتاب الجيم) ١٠١.

(٤) صفوة البيان / ٣١١. (٥) الإسراء / ٣٥.

(٦) المفردات (كتاب الواو) ٥٢٨.

(٧) القاموس المحيط / ١٧٣١.

(٨) المفردات (كتاب النون) ٤٨٨.

(٩) اللسان / ١١ / ٦٥٦.



فيه كل احتياجاته، ولذلك يسمّى الفندق: نُزُل، يعني مكان أعِدَّ لراحة النُّزَلاء وفيه كل احتياجاتهم(١).

و«الكَيْل» المراد به كيل الطعام، يقال: كِلْتُ له الطعام إذا توليتُ ذلك له، وكلتُه الطعام إذا أعطيته كيلاً، واكْتَلْتُ عليه: أخذت منه كيلاً، قال تعالى: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ»(٢)، (٣).

رابعاً: الإعراب:

«وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» الواو عاطفة، والكلام معطوف على مقدر يفهم من سياق الحوار، و(لما) حينيّة أو رابطة، و(جهزهم) فعل وفاعل مستتر ومفعول به، و(بجهازهم) متعلقان بـ(جهزهم) و(قال) جملة لا محل لها، لأنها جواب (لمّا) وجملة (ائتوني) مقول القول، وهو فعل أمر وفاعل ومفعول به، و(بأخ) جار ومجرور متعلقان به، و(لكم) صفة لأخ، و(من أبيكم) صفة ثانية.

«أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ» الهمزة للاستفهام، و(لا) نافية، و(تَرَوْن) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وأن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولَيْ (ترون)، وجملة (أوف الكيل) خبر (أن)، والواو عاطفة، و(أنا مبتدأ) و(خير المنزلين) خبر.

خامساً - الموقف من المتعارضات:

ما هو الأساس الذي بنى عليه يوسف - عليه السلام - طلبه من إخوته إحضار (بنيامين)؟:

والمفسرون في ذلك فريقان:

فريق يرى أن الأساس في ذلك هو ما دلّت عليه الروايات المتعلقة بهذا الأمر، (فمنها) ما رواه ابن جرير عن السّدّي قال: فلما نظر إليهم يوسف – عليه السلام –

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٢) المطففين/ ١-٢.

(٣) المفردات (كتاب الكاف) ٤٤٤.



قال: أخبروني ما أمْرُكُم فإني أُنكِر شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أرض الشام، قال: فما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نَمْتَار طعاما، قال: كذبتم أنتم عيون، كم أنتم؟ قالوا: عشرة، قال أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم بألف، فأخبروني خبركم، قالوا: إنا إخوة بنو رجل صدّيق، وإنا كنا اثنَيْ عشر، وكان أبونا يحب أخاً لنا، وإنه ذهب معنا البريّة فهلك منا فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه، قال: كيف تخبروني أن أباكم صديق وهو يحب الصغير منكم دون الكبير؟ ائتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ» قال: فضَعُوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا، فوضعوا شمعون(١).

(ومنها) ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره ويطنّ، وينقره ويطن، فقال: إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبراً، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف؟ وكان أبوه يحبه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في الجب وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض، ويعجبون أن هذا الجام ليخبر خبرهم، فمن أين يعلم هذا؟(٢) (ومنها) ما أخرجه عن أبي الجلد قال: قال يوسف - عليه السلام - لإخوته: إن أمركم ليريبني كأنكم جواسيس، قالوا: يا أيها العزيز إن أبانا شيخ صدّيق، وإنا قوم صدّيقون، وإن الله ليحي بكلام الأنبياء القلوب كما يحي وابل السماء الأرض، ويقول لهم وفي يده الإناء وهو يقْرعه القَرْعة، كأن هذا يخبر عنكم أنكم جواسيس(٣).

فبناء على هذه الروايات فإن الفريق الأول يرى أن يوسف - عليه السلام - قد أسس طلب أخيه الشقيق بنيامين من إخوته بإحدى طريقين:

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/٧.

(٢) الدر المنثور/ ٤ /٤٧.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.



الأول : ادعاؤه عليهم بأنهم جواسيس فاضطروا أن يخبروه بخبرهم كله.

الثاني : ادعاؤه أن صواع الملك هو الذي أخبره بخبرهم فأقرّوه على ما قال.

وأما الفريق الثاني: فيرى أن المفهوم من سؤال يوسف إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، أنه - عليه السلام - تركهم في ضيافته حتى أنسوا إليه، واستدْرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل(١) ثم طلب منهم إحضار أخيهم من أبيهم كشرط لقد ومهم وإعطائهم الميرة، فلم يكن بمقدوره - عليه السلام - أن يطلب من الإخوة أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم لو لم يكن قد أفهمهم أن هذه المعلومات هي التي سبق أن أخذها منهم(٢).

فطالبهم بإحضار هذا الأخ الذي تركوه، وأخبرهم أنه يريد بذلك أن يتأكد من صدق قولهم، وإنما كان غرضه الحقيقي أن يرى أخاه لشدّة شوقه إليه ورغبته في لقياه(٣)...

وكان هذا الاستدراج أول الخيط في تدبير الخطة التي وضعها - عليه السلام - والتي انتهت بجمع شمل الأسرة كلها(٤).

الترجيح:

وما ذهب إليه الفريق الثاني من المفسرين هو الراجح لما يأتي:

أولاً - هذه الأخبار التي وردت سابقاً بهذا الخصوص كلها مضطربة(٥) يخالف كل منها الآخر، ولا تتناسب مع مقام نبي كريم في مواجهة إخوته بعدم إكرامهم.

ثانياً - يبعُد من يوسف - عليه السلام - أن يتهم إخوته وينسبهم إلى الجاسوسيّة، لأنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة، ولأن البهتان لا يليق بحال الصدّيق(٦) وعلي كل حال فهو سؤال لا يقتضي صحته(٧).

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٥.
(٢) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف / ٤٥١.
(٣) تاريخ الأنبياء (النجار) ١٤٦.
(٤) يوسف بن يعقوب / ٣٧١.
(٥) روح المعاني / ٧ / ١٠.
(٦) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٧١.
(٧) التفسير المنير / ١٣ / ١٦.



ثالثاً - أن ما جاء في هذه الأخبار ينقض قوله لهم: «أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ»، فكونه خير المنزلين يقتضي مُعَاملتهم على أحسن ما يكون، دون أن يجرح إحساسهم أو يسئ إليهم ويجعلهم في موطن التهمة.

رابعاً - ما قيل عن استبقائه - عليه السلام - لأخيه شمعون، كما ذكره السّدّي، غير مقبول، لأنه أحسن إليهم ورغّبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم فكيف يستبقي أحدهم؟[1] على أن ذلك لو وقع لكان طامّة يُنْسَى عندها كل قيل[2]، ولو حدث ذلك لكان حكماً مسبقاً عليهم بكذبهم فيما ادعوا بشأن أبيهم وعددهم وما كانوا عليه.

وأيضاً، فإن القرآن الكريم لم يذكر استبقاء يوسف - عليه السلام - لشمعون، لا على لسانهم ولا على لسان أبيهم يعقوب - عليه السلام - ولو حدث ذلك لذكره كما ذكر أخذ يوسف لأخيه بنيامين وبقاء الأخ الكبير في مصر بسبب ذلك.

خامساً - أن مصدر الروايات السابقة هو الإسرائيليات المضللة.

قيل: إنه حاول الحصول على ذلك - إحضار بنيامين - عن طريق القوة والإرهاب والقهر والإزعاج، حيث اتهمهم بالتجسّس وحبسهم ثلاثة أيام، ثم أطلقهم وارتهن عنده أخاهم شمعون وقيَّدَه حتى يرجعوا ببنيامين، كما حكاه أكثر المفسرين، الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين، وليس له مصدر سوى سفرا لتكوين (تك ٤٢ : ٩-٤) وهو يخالف ظاهر الآيات الأربعة - ٥٩-٦٢، فَحَشْرُ ما ذكرتْه التوراة مع كلام الله تعالى هنا، هو من قبيل حَشْرِ الأروي مع النعام، أو الجمع بين الغواصات والطيارات[3].

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٣.

(٢) روح المعاني / ٧ / ١٠.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٠١٠.



سادساً - التفسير والبيان:

يوسف - عليه السلام - يطلب من إخوته إحضار شقيقه بنيامين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان المعنى في قوة أن يقال: فطلبوا منه الميرة فباعهم، بعد أن استخبرهم عن أمرهم، فأخبروه بأبيهم وأخيهم منه، فلما جهزهم بجهازهم طلب منهم إحضار أخيهم من أبيهم ليدلّلوا على صدقهم فيما أخبروه به، ولهذا قال:

«**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**»(١) في الكلام حذف تقديره: وقد كان استوضح منهم أن لهم أخا قعد عند أبيهم(٢) ومعنى الجملة كما جاء عن ابن إسحاق قال: لما جهز يوسف - عليه السلام - فيمن جهز من الناس، حمل لكل رجل منهم بعيراً بعدتهم(٣) فقد كان - عليه السلام - لا يبيع أحداً من الممتارين أكثر من ذلك تقسيطاً بين الناس، وفيما يأتي إن شاء الله تعالى من قولهم: «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ»(٤) ما يؤيده، وذلك ليتسع العطاء لكل من يأتي إلى مصر، ولا تكون فرصة للانتهازيّين ليتاجروا بأقوات الناس في هذا الزمن الجْدب العصيب، فيحدث ما يسمى الآن بالسوق السوداء للسّلعة، فيكون الفرق شاسعاً بين ثمنها من الدولة المصرية، وبين بيعها للآخرين من المتاجرين بهذه السوق، فيحدث خلل مدمّر، فيثري أصحاب السوق السوداء وبفتقر ويجوع ويهلك الآخرون، لهذا كانت الحكمة من إعطاء كل واحد حمل بعير فقط.

ويفهم من قوله: «وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ» أنه - عليه السلام - مع إعطاء كل واحد منهم حمل بعير، فقد جهزهم أيضاً بما يحتاجون إليه في قطع المسافة بين مصر وأرض

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ٦٦. (٢) تفسير البحر/ ٥ / ٣١٩.

(٣) تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ٨. (٤) يوسف/ ٦٥.

(٥) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ١٠٠٠.



كنعان في فلسطين، من مثل دقيق وسويق وعَلَفٍ للدّواب ونحوه[٥]

وبعد أن آنسهم – عليه السلام – وأعطاهم كل ما يصلحهم من كل ما يحتاج إليه المسافرون، فاجأهم بطلبه الثقيل عليهم:

«قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» روي ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» قال: يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه[١].

وقد نكّر – عليه السلام – في إشارته إلى أخيهم بقوله: «بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» وإن كان قد عرفَه وعرفَهم، مبالغة في كونه لا يريد أن يتعرّف لهم، ولا أنه يدري من هو، ألا ترى فرْقاً بين، مررت بغلامك، ومررْت بغلام لك، إنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام، وفي التنكير أنت جاهل به، فالتعريف يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب والتنكير لا عهد فيه البتّة[٢] فلو أنه – عليه السلام – قال لهم «بأخيكم» لأثار ذلك الشك في نفوسهم، ولبعثهم على التفكير في هذا التخصيص، والتدبّر في الرابطة التي تربط العزيز بأخيهم، مما يؤدي إلى تركيز أذهانهم للتعرف عليه، ولا يبعد حينئذ أن يدركوا أنه يوسف أخوهم، فيرجع حالهم معه إلى أشد مما كان حينما ألقوه في البئر، فلا يجتمع للأسرة شمْل أبداً[٣]...

وفي قوله: «ائتوني» تنبيه عليهم بالعودة ومعهم بنيامين، ولو لم يقصد ذلك لقال: «أرسلُوا إلَيّ أخَاكُم مِن أبِيكُم»، فهو يريد دعوتهم جميعاً مع أخيهم بنيامين، لأن يوسف – عليه السلام – يعلم أن أباهم لن يسمح بإرسال أخيهم إلا بمرافقتهم جميعاً له حرْصاً عليه، ونفس هذا الحرص نجده في إرسال يوسف من قبل مع إخوته جميعاً حينما خرج للتّريّض معهم، والحكمة في ذلك أن يعقوب – عليه السلام – يجعل الإخوة جميعاً مسئولين عن أخيهم، ووجودهم مجتمعين يحول دون تنفيذ الفريق المتطرف

(١) الدر المنثور / ٤ / ٤٨.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣١٩.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٣٧١.



منهم ما هو أسوأ بالنسبة لأخيهم، إذ لا يخلوا الأمر من معارضة تردّهم عن التطرف، فيسلم أخوهم من أذى المتطرفين منهم[1] ولذلك فإنه لم يسمح لهم بَعْدُ بأخذه معهم إلى مصر إلا بعد أن أخذ عليهم الميثاق جميعاً «لَتَأْتُنَّني به إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ»[2].

ثم ذكر - عليه السلام - ما يحرّضهم على الإتيان بأخيهم[3] وكان قد أحسن إليهم، فقال مقرّراً لهم بما رأوا منه:

«ألا ترَوْنَ أني أوفِي الكَيْلَ وأنا خَيْرُ المنزِلِينَ»[4]

و«أوف الكيل» أي أتمه لكم، قال الماوردي: «أوف الكيل» يحتمل وجهين: (أحدهما) أنه رخّص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل، و(الثاني) أنه كال لهم بكيْل وافٍ[5]، وإيثار صيغة الاستقبال «أوف» مع كون الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة، وجملة «وأنا خير المُنزلين» جملة حالية، أي ألا ترون أني أوف الكيل لكم إيفاءً مستمرّاً، والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك[6].

وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه، وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرا فيما سبق[7] وقوله هذا «ألاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ... الآية» يرغبهم في نفسهم آخرا، ويؤنسهم ويستميلهم[8] في العود إليه، وقد علم أنهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد ذلك: «ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ»[9] وجملة «وأنَا خَيْرُ الْمُنْزِلين» كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم[10] فمعنى «وأنَا خَيْرُ الْمُنْزِلين» أي خير المضيفين في قطره ووقته[11] فالمنزل: المُضِيف، قال مجاهد وابن عباس وغيرهما: «وأنَا خَيْرُ الْمُنْزِلين» يعني خير المضيفين[12]...

---

(1) المرجع السابق/ هامش ٣٧١-٣٧٢. (2) يوسف/ ٦٦.
(3) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٩. (4) نظم الدرر/ ٤/ ٦٦.
(5) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٣. (6) روح المعاني/ ٧/ ١٠.
(7) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٨. (8) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٩.
(9) يوسف/ ٦٥. (10) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ١٣.
(11) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٢٩. (12) الدر المنثور/ ٤/ ٤٨.



وحين نتصور المشقة التي عاناها الإخوة في سبيل الحصول على كمية الطعام الكبيرة هذه التي لم يكونوا يتعوقعون الحصول عليها بكل هذه البساطة، نستطيع أن ننتهي إلى أن هذه الجزئية على لسان العزيز «أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ» قد فعلت في أنفسهم فعل السحر، ووقعت منهم موقع الرضا التام، وكذلك هذه الجزئية «وأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِين» فقد فعلت مثل سابقتها في أنفس الإخوة فعل السحر، وكانت بردا وسلاماً على أفئدتهم(١).

كيف يمنّ يوسف - عليه السلام - على إخوته بما جاد عليهم؟:

إن الله تعالى قدنهى عن المنّ والأذى، قال جل شأنه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى»(٢) فكيف يعجب يوسف بعمله؟ وكيف يمنّ على إخوته بما جادت به مروءته عليهم؟

والجواب على ذلك هو: أن يوسف - عليه السلام - لم يقل ذلك بطريق الامتنان، بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به(٣) عن طريق الإغراء والترغيب، والتنبيه اللطيف إلى الفعال الحسن، بقصد أن يعودوا ثانية كي ينالوا من الإكرام ما نالوا، وتتحقق في النهاية إرادة الله تعالى بلَمّ شمل آل يعقوب وتحقيق الرؤيا(٤).

دواعي طلب يوسف لأخيه (بنيامين) ومنشأ زيادة محبّته له:

١ - ازداد شوقه إلى أخيه (بنيامين) بعد رؤية كل إخوته ما عداه، وهو وحده الأخ الشقيق له والأصغر منه.

٢ - إن يوسف وأخوه (بنيامين) أحب أخوين إلى بعضهما، وقد حسدهما الإخوة معاً، (قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) فكان لا يعرف وجوداً في قلب أخ من إخوته سوى في قلب (بنيامين) كما أن (بنيامين) كذلك، كان لا يعرف وجوداً في قلب أخ من إخوته سوى يوسف.

٣ - رغبته - عليه السلام - في إنقاذ (بنيامين) من شرور إخوته المتربّصين به.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٩٠-١٩١. (٢) البقرة/ ٣٦٤. (٣) روح المعاني/ ٧/ ١٠.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٩١، وانظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٠٩.



٤ – تشوقه – عليه السلام – أن يتعرّف على أحوال أبيه والأسرة اليعقوبيّة بسورة مفصّلة.

٥ – وضع حجر الأساس بإحضار (بنيامين) لجمع آل يعقوب جميعاً في مصر.

لماذا لم يطلب يوسف أباه يعقوب - عليه السلام -؟

قال الإمام أبو حيان: وظاهر كل ما فعله يوسف – عليه السلام – معهم – أي الإخوة – أنه بوَحْي، وإلا فإنه كان مُقْتَضَى البرِّ أن يبادر إلى أبيه يعقوب – عليه السلام – ويستدعيه، لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب – عليه السلام – ومِحْنته، ولتَتَفَسَّرَ الرؤيا الأولى – كما أوّلت[١].

المضمون العام للآية الكريمة:

لما عرَف يوسف – عليه السلام – إخوته، أنزلهم ضيوفاً عنده وأكرمهم غاية الإكرام، حتى أنسوا إليه واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل، ثم طلب منهم إحضار أخ لهم من أبيهم (بنيامين) ليظهر صدقهم فيما أخبروه به، وحثهم ورغّبهم في ذلك بقوله: «أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ».

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ – الحب الكبير بين يوسف وأخيه بنيامين.

٢ – استغلال الوقت المناسب واستعمال العرض الطيب لتحقيق ما يريده الإنسان من الغير.

٣ – الوفاء بالكيل سمة المؤمنين ودعوة النبيين، قال تعالى على لسان شعيب – عليه السلام – «وَيَا قَومِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالميزَانَ بِالقِسْطِ».

٤ – الاستدلال بما قدّمه الإنسان في الماضي من عمل طيب على ما سيقدمه في المستقبل.

٥ – مشروعية الضيافة، التي هي من سنن المرسلين، وقد حث عليها الإسلام في الكتاب والسنة، وقال يوسف لإخوته «وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ».

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٩.



«الآية الستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ» الفاء عاطفة، و(إن) شرطية، و(لم) حرف نفْي وقلْب وجزْم، و(تأتوني) مجزوم بلم، وهو فعل الشرط، والفاء رابطة، و(لا) نافية للجنس، و(كيل) اسمها، و(لكم) خبرها، و(عند) ظرف متعلق بمحذوف حال، والواو عاطفة، و(لا) ناهية، و(تقربون) فعل مضارع مجزوم بـ(لا) وعلامة جزمه حذف النون، هذه النون نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً، ويحتمل أن تكون (لا) نافية، و(تقربون) مجزوم نَسَقا على محلّ قوله: (فلا كيل لكم) وهو الجزم لأنه جواب الشرط، كأنه قيل: فإن لم تأتوني تُحرموا ولا تقربوا[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ١٥ / ١٦ .



سادساً - التفسير والبيان:

«وبعد الترغيب ترهيب»

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾

وجه المناسبة:

وبعد أن استمالهم - عليه السلام - ورغبهم في العودة إليه توعّدهم قائلاً:

«فإن لَمْ تأتوني بِهِ فلا كَيْلَ لكمْ عِندِي ولا تقربُون»

اعلم أنه - عليه السلام - لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ، جمع بين التّرغيب والتّرهيب، أما الترغيب فهو قوله: «أَلاَ تروْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ» وأما الترهيب فهو قوله: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ»[١] فهو - عليه السلام - بعد أن استمالهم وآنسهم ورغّبهم توعّدهم إن لم يأتوا به إليه، بحرمانهم من الميرة في المستقبل[٢] وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده، كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف[٣] لأنه يشتمل على شيئين:

(الأول) «فَلا كَيْلَ لَكُم عِنْدِي» أي فليس لكم عندي طعام أكيله لكم، (الثاني) «وَلا تَقْرَبُون» يقول: ولا تقربوا بلادي[٤]، أي لن أمكنكم من الاقتراب من بلادي بأي وجه من الوجوه إن لم يحضر معكم أخوكم[٥]، فقد صار أخوهم بنيامين الوسيلة الوحيدة لحصولهم على الطعام، وبدونه يموتون جوعاً، فانظر كيف كانوا يقولون عن أبيهم:

إنه يحب اثنين لاغناء فيهما، وأنهم وحدهم القادرون على غناء الأسرة والقيام بمتطلباتها، والذي اشترط عليهم وهدّدهم الآن هو الأخ الثاني شقيق بنيامين يوسف

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧١. (٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣١٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧١. (٤) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٨.
(٥) يوسف بن يعقوب/ ٣٧٣.



- عليه السلام - وهم لا يشعرون أنّه هو، فو الله إنه لدرس عظيم لهم، بدأ به يوسف - عليه السلام - سلسلة الدروس القاسية التي سيتلقونها تباعاً...

الحكمة من هذا الترهيب:

لقد كان يمكنه - عليه السلام - أن يقف في طلبه لأخيه بنيامين عند قوله: «ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ... الآية»، ولكن الحكمة اقتضت منه - عليه السلام - أن يقدم الترهيب بعد الترغيب، لأن إحضار الأخ ليس بالشيء اليسير عليهم، وهو يعلم ذلك كل العلم، بل هو أمر ثقيل عليهم كل الثقل، فكيف يمكن لهم أن يسألوا أباهم مرة أخرى أن يرسل معهم «بنيامين» وقد سألوه إرسال شقيقه يوسف معهم من قبل، ووعدوه بالمحافظة عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم معه، ولم يعد له يوسف حتى الآن، ثم إن الأخ المطلوب الآن هو الشقيق الوحيد ليوسف، وهو الأحب إلى قلب أبيه بعد يوسف، فكيف يتسنى لهم طلبه من يعقوب - عليه السلام -؟...

من أجل ذلك فقد عاجلهم - عليه السلام - بسبب قوى يبرّر طلبهم، وهو المنع من الكيل وعدم تمكينهم من دخول البلاد للحصول على الميرة، ليعلموا أن هذا الأمر ملزم لهم ولا رجعة فيه، وبهذا يأخذون طلب العزيز مأخذ الجِدّ، ويبذلون أقصى جهدهم في إقناع أبيهم بهذا الخصوص، ولو وقف - عليه السلام - عند قوله: «أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ» لأخذوا الأمر على سبيل الاستخفاف، وعلى أنه مجرّد رغبة أبداها العزيز، وليس عليهم إلا أن يعرضوه على أبيهم عرضاً مجرّداً، قَبِلَ ذلك العرض أم لم يقبل، فكان لابد له - عليه السلام - من أخذ الحيطة والحزم في طلبه أخيه على هذه الصورة المذكورة، حتى يجتمعوا كلهم على موقف جدّي موحّد تجاه أبيهم في تحقيق هذا الطلب[1].

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٢٧١-٢٧٣.

رفع المسابهم

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد ما رغبهم - عليه السلام - في الإتيان بالأخ بأنه يوف لهم الكيل، وأنه ينزلهم منزلاً كريماً في ضيافته، هددهم وتوعدهم إن لم يأتوا به إليه، بحرمانهم من الميرة في المستقبل، وعدم تمكينهم من الاقتراب من مصر بأي وجه من الوجوه، لأنهم حينئذ يكونون قد كذبوا عليه في إخباره أن لهم أخاً من أبيهم، وسائر ما أخبروه به عن أنفسهم وأهلهم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - جواز اللجوء إلى الترهيب إذا كان هو السلاح الأمثل لتحقيق أمر مشروع، ويكون أفضل لو كان معه ترغيب أيضاً، ليجتمع العنصران معاً، فتكون القوة الدافعة لحصول المطلوب وقد فعل يوسف - عليه السلام - ذلك مع إخوته.

٢ - اضطرار الإنسان للحصول على شيء مّا، يجعله يبذل غاية الوسع لفعل ما يطلبه منه.

٣ - شدّة حاجة آل يعقوب في المستقبل - أيضاً - إلى الطعام لاستمرار القحْط والمجاعة.



«الآية الواحدة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

جملة (سنراود) مقول القول، و(عنه) متعلقان بـ(نراود) وأباه، مفعول به، و(إنا) من عطف الجمل، وإن واسمها واللام المزحلقة، و(فاعلون) خبر (إنّا)[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ١٦.

رفع
المسٰهم

سادساً - التفسير والبيان:

إجابة الإخوة على طلب يوسف - عليه السلام - بإحضار أخ لهم من أبيهم.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما كان الإخوة يعلمون كيف يَضِنّ أبوهم بأخيهم الأصْغر - وبخاصة بعد ذهاب يوسف - فقد أظهروا ليوسف أن الأمْرَ ليْس ميْسُوراً وإنما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم وأنهم سيحاولون إقْنَاعه(١)، ولهذا قالوا:

«**سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ...**» فالمراودة تشعر بصعوبة ذلك(٢)، إذ هي تدُلُّ على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مُفَاتحة يعقوب في هذا الموضوع أوّلاً، ثم المجهود الذي عليهم أن يبْذلوه بعد ذلك حتى نجاحهم في أخذ الشقيق ليوسف معهم(٣) ومعنى «سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ» أي: سنحايله ونستميله في رفْق إلى أن يَترُكه يأتي معنا.

ثم أكَّدُوا عزمهم على تنفيذ ما وعدوه به فقالوا:

«**وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**».

تأكيد لذلك الوعد بأنهم فاعلوا ذلك لا محالة لانفرط فيه ولا نَتَواني(٤)، وأنَّهم سيبذلون قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم(٥).

وهذا هو المفهوم من تلك الجملة التي اشتملت على إنّ التي تفيد التوكيد، ولام التوكيد الداخلة على الخبر(٦) وهذا هو المعنى الذي رواه ابن جرير عن ابن إسحاق قال: «وإنّا لَفَاعلفون» أي: لنجْتهدنّ(٧).

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٥. (٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ١٤.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٥٥.

(٤) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٠. (٥) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ١٤.

(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٩٤. (٧) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٩.



ضمير الغائب «أباهُ»:

إن ضمير الغائب الذي جاء على لسان الإخوة «أباه» وقد كان بالإمكان أن يقولوا «سَنُرَاوِد عَنْهُ أبَانَا» ولكنهم لم يقولوا ذلك، مما يدل على أن الإخوة ما زالوا يشعرون بأن هناك حاجزاً يفصل بينهم وبين أخيهم لأبيهم شقيق يوسف، وأن قلوبهم ما زالت تَجِدُ على هذا الأخ خاصة، وقد وجد المحرّك لهذه الموجدة، أليس حصولهم على الطعام مستقبلاً بمجيء الشقيق ليوسف معهم؟ ولو فرض أن يعقوب - عليه السلام - لم يأذن لهم بأخذه؛ فما معنى هذا؟ معناه أن المجاعة تخنقهم، وإن السبب في رفض يعقوب - عليه السلام - معروف، فهم الذين عادوا في المرة الأولى بغير يوسف، إذا فالذي ينغّص عليهم رغد عيشهم في حقيقة الأمر - في نظرهِم هُم - يوسف - عليه السلام - وشقيقه، وإن استعمال ضمير المفرد الغائب وليس ضمير جماعة المتكلمين، يجعلنا نتذكر ضمير المفرد الغائب الذي سبق أن استعمله الإخوة للسبب نفسه فيما جاء على لسانهم «لَيُوسُفَ وَأَخُوهُ» من هذه الآية «إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»(1) ويلاحظ أن عدد الإخوة في المناسبتين عشرة(2).

المضمون العام للآية الكريمة:

ولما كان الإخوة يعلمون كيف يضنّ أبوهم بأخيهم الأصغر، نظرا لما حدث منهم في حق أخيه يوسف - عليه السلام -، أظهروا ليوسف أن الأمر ليس ميسوراً لهم، وأنهم سيحاولون مراودة أبيه وإقناعه بالسماح لهم ليحضر معهم، ولن يتوانوا عن بذل غاية الجهد في سبيل ذلك.

---

(1) يوسف / 8.

(2) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / 194.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - صعوبة طلب الإخوة من أبيهم إرسال بنيامين معهم، إلى مصر.

٢ - اضطرار الإخوة إلى هذا الطلب خوفاً من المجاعة والهلاك.

٣ - يمكن استعمال وسيلة الضغط المناسبة في الأحوال المشروعة التي تتطلب ذلك.

رفع
المسـاهم

«الآية الثانية والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

«وَقَالَ لِفِتْيَانه» بالألف والنون، قرأها حمزة والكسائي و - ص - عن عاصم، والوجه أنه جمع (فَتَى) وفَتَى فَعَلٌ، وفَعَلٌ يجمع على فِعْلان كخَرَب وخِرْبان وبَرَقٍ وبِرْقَان، وهو جمع الكثرة، وإنما اختير جمع الكثرة ههنا؛ لأن الرِّحَال أيضاً في قوله: «اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ» جمع الكثرة، فلما كانت الرِّحَال كثيرة جُعِلَ المتَوَلُّون لتعبئة البضاعة فيها أيضاً كثيرة، كذا ذكره أبو علي.

وقرأ الباقون «لِفِتْيَته» بالتاء من غير ألف، والوجه أنه جمع (فَتَى) للقِلَّة، فَعَلٌ يجمع في العدد القليل على فِعْلَةٍ كأَخٍ وإِخْوَةٍ ووَلَدٍ ووِلْدَةٍ وقَاعٍ وقِيعَةٍ(١).

ثالثاً - اللغة:

«رِحَالِهِمْ» رَحْل: الرَّحْلُ ما يوضع على البعير الرَّكوب، ثم يُعَبَّرُ به تارة عن البعير وتارة عما يُجْلَسُ عليه في المنزل، وجمعه رحال.

قال تعالى: «وَقَالَ لِفِتْيَانه اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ» والرِّحْلَةُ: الارْتحال، قال تعالى: «رحلة الشتاء والصيف»(٢)، وأرْحَلْتُ البعير: وضعت عليه الرَّحْل، وأرْحَلَ البعير: سَمِنَ، كأنه صار على ظهره رحْل لِسِمَنِه وسَنَامه، ورَحَلْتُه: أظْعَنْتُه، أي أزلته عن مكانه، والرَّاحِلة: البعير الذي يصلح للارتحال، وراحَلَهُ: عاوَنَهُ على رِحْلَته، والمُرَحَّلُ: بُرْدٌ عليه صورة الرِّحَال(٣).

---

(١) الموضح وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٢٨٢-٢٨٣

(٢) قريش / ٢. (٣) المفردات (باب الراء) ١٩١.



﴿إِذَا انقَلَبُواْ﴾ قلب: قَلْبُ الشيء تصريفه وَصَرْفُهُ عن وجه إلى وجه، كقَلْب الثَّوْبِ وقلْبِ الإنسان، أي صرفه عن طريقته، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[1] والانْقِلاَب: الانصراف، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[2]، [3] ومعنى ﴿انقلبوا﴾ هنا: انصرفوا ورجعوا[4].

رابعاً - الإعراب:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ (لفتيانه) متعلقان بـ(قال) وجملة (اجعلوا) مقول القول، و(بضاعتهم) مفعول به، و(في رحالهم) في موضوع المفعول الثاني.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ واسمها، وجملة (يعرفونها) خبر لعلّ، و(إذ) ظرف لما يستقبل من الزمن، وجملة (انقلبوا) مضافة للظرف، والجواب محذوف، أي فلعلهم يرجعون، و(إلى أهلهم) جار ومجرور متعلقان بـ(انقلبوا) ولعلّ واسمها، وجملة (يرجعون) خبرها[5].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) العنكبوت / ٢١.

(٢) الأعراف / ١٢٥.

(٣) المفردات (باب القاف) / ٤١١.

(٤) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٨٩.

(٥) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ١٦.

رفع المسيهم

سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أعلمنا سبحانه وتعالى أنه رغّبهم في شأن أخيه، ورهّبهم بالقول، أعلمنا بأنه رغبهم بالفعل، فقال عاطفاً على قوله الماضي:

«**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ**»(١) وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال، كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال «لفتيته»(٢).

وقوله: «لفتيانه» أي لغلمانه كما قاله قتادة(٣) الذين كالوالهم الطعام، قاله السدّي(٤) وقال أبو حيان: المراد بهم هنا: الخدم الكائلون(٥) وفي مصحف ابن مسعود «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ» وهو يكايلهم(٦) وقال الزجاج: الفتية والفتيان في هذا الموضع: المماليك، قال الثعلبي: هما لغتان جيدتان مثل: الصّبية والصبيان، وقد رُجِّحت القراءة الأولى بأنها أوْفق بقوله: «اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ» فإن الرحال فيه جمع كثرة، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد، فينبغي أن يكون في مقابلة صيغة الكثرة، وعلى القراءة الأولى يُسْتَعَارُ أحد الجمْعيْن للآخر(٧).

«**اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ**» المراد بالبضاعة هنا، هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام.

نوع هذه البضاعة:

والجمهور من المفسرين على أنها كانت أوراقاً، أي فضة، كما قال ابن عباس وقتادة

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٦٨. (٢) فتح القدير/ ٣/ ٤٠.
(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٩. (٤) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٥.
(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٠. (٦) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٣١.
(٧) روح المعاني/ ٧/ ١١.



وغيـرهمـا، وهو الصـحـيح، ولم تكن من قـبـيل النّعـال والأدم ونحو ذلك، كـمـا ذكـره البعض(١) فالذي يظهـر من كلمـة (بضـاعـة) أن الـذي كـان معـهـم هو من غـيـر النـقـود المضروبة، ويدخل فيه الفـضة غير المضروبة، لأن النـقد المضروب لا يُعبّر عنه «ببضاعة» بل يعـبـر عـنه بـ«دينار) أو بـ(درهم) كـمـا سبق في قـولـه: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ»، والغالب على البـلاد غـيـر المتـمدْينة أن تكون المقايضـة فيـهـا بغـيـر الدراهم المضـروبـة، كـبـلاد فلسطين «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ...»(٢)، كـمـا أن الغالب على البـلاد المتمدينة أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدنانير المضروبة، كما في البلاد المصرية، ولذلك اشـتُـرِيَ يوسف في مـصـر بـدراهم، وأمـا إخوتـه فلكـونهم من فـلسطين غـيـر المتـمدينة، فـقـد جاءوا لمصر يمترون، لا بـدراهم مضـروبة، ولكن بنوع من البـضـاعـة، ربما كان فضة غير مسكوكة - مضروبة - أو نحوها مما قد يَخْفَى وقد يَظْهَر، كما يشير إليه قـول يوسف - عليـه الـسـلام - «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا» فـإن هذا الـتـعـبـيـر يَنُمُّ عن أن هذه البضاعة ليست من قَبِيل النعال والأدم، كما ظنه كثير من المفسرين، فإن هذا مما يُعْرَفُ قطعاً، فإن هذه البـضـاعـة هي مما قد لا يعـرف إذا وضع في الرحـال، فلذلك قلنا إن هذه البضاعة، كانت من قبيل الفضة غير المضروبة، والله أعلم(٣).

وقـولـه: «فِي رِحَالِهِمْ» يفـهـم منه أنه وكّل لكـل رحل واحـداً من غلـمـانه يدس فـيـه البـضـاعـة التي اشـتـروا بهـا الطعـام الذي في هذا الرحل، والرحـال جـمـع رحْل، وهي الأوعية التي يحـمل فيـهـا الطعام وغيره، والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل من أثاث، قـال الواحـديّ: الرّحل: كل شيء مـعـد للرحـيل، من وعـاء للمـتـاع ومـركـب للبـعـيـر ومـجلس ورَسَن، والمراد هنا: الأوعـيـة التي يجعلون فـيـهـا مـا يمتارونه من الطعام، قال الأنباري: يقال للوعاء رحْل، وللبيت رحْل(٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٩، والدر المنثور/ ٤/ ٤٨.

(٢) يوسف/ ١٠٠.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٢٢-١٠٢٣.

(٤) فتح البيان/ ٦/ ٣٦٣.



وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا» أي: يعرفون أنها هي بضاعتهم بعينها التي اشتروا بها الطعام[1] فيعرفون حق ردها وحق التكرّم بإعطاء البدلين - الثمن والطعام - فيرغبون فينا[2].

وقوله: «إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ» أي عادوا إلى أهلهم وفرّغوا أحمالهم، فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعاً، وأما معرفة حق التكرم في ردّها، فهي وإن كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك، لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيّدت به[3].

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» حسبما أمرتهم به، و«لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا» تعليق بالجعل، و«لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» تعليق بترجّي معرفة البضاعة[4].

الأسباب التي دعت يوسف - عليه السلام - إلى ردّ ثمن البضاعة لأخوته دون علمهم:

١ - أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرما من العزيز وسخاء محضاً، فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

٢ - خاف ألا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى.

٣ - أراد التوسعة على أبيه، لأن الزمان كان زمان قحط.

٤ - رآى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

٥ - أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منّة.

٦ - مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب الزيادة في الثمن.

٧ - أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه لأخيه لمزيد من الإكرام، فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٦٨.
(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٠.
(٣) انظر: تفسير أبي السعود / ٤ / ٢٨٩.
(٤) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٠.



٨ - أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغة في الإحسان إليهم[١].

٩ - تسهيل عملية أخذ الإخوة لهذا الأخ الشقيق ليوسف معهم[٢]، ولهذا قالوا لما وجدوا البضاعة قد ردّت إليهم: «قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ»[٣] فكان رد البضاعة سبباً عظيماً في موافقة أبيهم - عليه السلام - في إرسال بنيامين معهم.

هذا، وما فعله يوسف - عليه السلام - من رد ثمن البضاعة لإخوته هو من الحيل المستحسنة، فالمقصود رجوعهم ومجئ أخيه، وذلك أمر فيه منفعه لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح[٤].

كيف جاز ليوسف - عليه السلام - أن يرد ثمن البضاعة إلى إخوته، وقد أصبح الثمن ملكاً للدولة؟

ويجاب عن ذلك بالآتي:

١ - يمكن أن يكون يوسف - عليه السلام - قد عوّض خزينة الدولة من ماله الخاص.

٢ - أو لأن أموال الدولة للمستحقين والمحتاجين، فردّ إليهم حسب حاجتهم واستحقاقهم، ولا يقال إنهم لم يكونوا من رعايا الدولة، لأن الإسلام عام لا يعتبر بالحدود المصطنعة ولا بالاختلاف في العائدية[٥].

٣ - كانت المساعدات التي أداها يوسف لمصر، والخدمات التي خدم بها أهلها، بمثابة خميرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد، فإنه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب[٦].

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧٢، وإغاثة اللهفان/ ٢/ ١٢٧-١٢٨.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٩٦.

(٣) يوسف/ ٦٥.

(٤) إغاثة اللهفان/ ٢/ ١٢٨.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٣٩.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ٢٠١٩.



٤ - كان له - عليه السلام - في عنق كل مصري مِنّة لإنقاذه الشعب من هلاك محقق، فلو أعطى إخوته ما أعطاهم ما كان لأحد عليه من سبيل(١).

٥ - كان واجباً عليه أن يصل إخوته ويبرّهم ويجبرهم في تلك الشدّة، إذ هو ملك عادل، وهم أهل إيمان ونبوة(٢).

وعلى كل حال، فإن يوسف - عليه السلام - لا بد أن يكون قد فعل ذلك، على الوجه الحق الذي يحبه الله ويرضاه من عباده المصطفين، وإلا لعاتبه الله تعالى على ذلك، ولم يقع.

أكثر من إشارة رمزية من يوسف لأبيه - عليهما السلام -:

ويمكن أن تستشف هذه الإشارات مما يلي:

١ - في قول يوسف - عليه السلام - لإخوته: «ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ»، ففي هذا القول منه - عليه السلام - إشارة رمزية لأبيه يعقوب - عليه السلام - فهذا النوع من التعبير يفيد أنه لم يسبق لبنيامين ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً، وإلا لقال: «ائتُوني بأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ»، كما أن جملة «ائتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» متى نُقِلَتْ لأبيهم أو قَعَتْهُ في استغراب، وأذهبت نفسه كل مذهب ممكن، وجعلته يظن أن لهذا الرجل المصري المجعول على خزائن أرض مصر مغْزي في هذا الطلب، وإلا فمن عَرَّفه أن لهم أخاً من أبيهم؟ وما هي علاقته به؟ وألا يكفي أنه عرف عشرة من أولاد يعقوب، فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب؟ وما هي هذه الأهمية يا ترى؟ وما المناسبة بين عزيز مصر وبين بنيامين؟ وما فائدة العزيز من مجئ بنيامين؟...

كل هذه الأسئلة لا بد أن ترد على ذهن يعقوب - عليه السلام - ولا بد أن يستنتج منها احتمال أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب، هو على الأقل يعرف يعقوب، ويعرف أن له ولداً غير هؤلاء العشرة، وأنه أخوهم من أبيهم، ويستنتج أن هذا الرجل صاحب

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٧٨.

(٢) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٢٠.



هذا الطلب ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواه، وعليه لا بد أن يقول يعقوب - عليه السلام - في نفسه حينئذ: إن في الأمر لَسِرّاً.

وبالنتيجة كأني بيعقوب - عليه السلام - قد قام عنده احتمال أن هذا المتكلم بهذا الكلام، الطالب هذا الطلب وبهذه الشدّة وبكل هذا التهديد، إما أن يكون يوسف، أو رجلاً يعرف يوسف وله به علاقة، ولذلك سيأتي له أن يقول لأولاده: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ»(١) فلكأني به أنه ظن أن يوسف بمصر، وعلى هذا فما كأن هذه الجملة «ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ» إلا برقية شفرة من يوسف لأبيه - عليهما السلام - أو لُغْز لا يحله إلا يعقوب، أو إشارة رمزية، وكل لبيب بالإشارة يفهم(٢) والرسول عليهم الصلاة والسلام - أرقى الخلق على الإطلاق فهما وعلما وحكمة.

٢ - في قوله - عليه السلام - لعمّاله: «اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ»

فقد كان - عليه السلام - يعلم مسبقاً موقف أبيه - عليه السلام - من إخوته إذا ما طلبوا منه بنيامين، فوضع علامة يعرف منها يعقوب - عليه السلام - وجود ابنه يوسف في مصر، ويجب أن نقف وقفة عند قوله: «اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ»، أي نفس البضاعة التي قدموها ثمناً للمؤنة، ولو جعلوا بضاعة سواها، لما ظهر المقصود من هذه العلامة، ولا يُعْقَلُ أن يكون رد بضاعتهم دون أن يمسها تغيير، من غير فائدة أو بدون معنى، بل كانت إشارة خاصة جعلها يوسف - عليه السلام - بينه وبين أبيه، أدركها الوالد ولم يحفظها الإخوة، ففي بداية القصة أرسل رجال القافلة واردهم في طلب الماء، فلما عثروا على يوسف - عليه السلام - أسَرُّوه بضاعة، وهنا حين فتح الإخوة متاعهم - بعد وصولهم إلى أبيهم - وجدوا أن بضاعتهم قد ردّت إليهم، ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة إلى اجتماعهم به - عليه السلام -، وردّ البضاعة في ذاته وفي مثل هذه المجاعة أمر نادر الوقوع، فلا يمكن أن يجري هكذا دون أن يكون له اتصال بآل يعقوب

---

(١) يوسف/ ٨٧.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٠٣-١٠٠٤.



ووجود يوسف – عليه السلام –، وإذا فاتت هذه العلامة على الإخوة، فما كانت لتفوت على يعقوب – عليه السلام – الذي شمّ رائحة ابنه في هذا التصرف، وقد أوتي – عليه السلام – من تأويل الأحاديث، ولعل هذا الحديث الرمزي يؤكد أن صاحبه لا يكون إلا يوسف – عليه السلام –، هذا هو المعنى الذي أراده يوسف وفهمه أبوه – عليهما السلام – أمّا لو كان المقصود هو عدم مقاضاتهم الثمن فحسب، فما كان من الضروري مطلقاً سلوك هذا الأسلوب[١].

٣ – لقد كان يعقوب – عليه السلام – سابقاً، يتحقق من أن ابنه يوسف حيٌّ يرزق، استناداً على ما رآى ولده يوسف من الرؤيا الجيدة، إنما أين هو؟ فسؤال كان لا يعلم له جواباً، وأما الآن فإنه فهم من هذه الرموز وتلك الإشارات أن ابنه يوسف بمصر، بدليل أنه قال لأولاده عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» وإلا لم يكن معنى للتحسّس عن يوسف في مصر خاصة[٢].

المضمون العام للآية الكريمة:

أمر يوسف – عليه السلام – غلمانه أن يجعلوا الثمن الذي اشترى به الأخوة الطعام، في رحالهم، وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره، ليجدها الإخوة حين يرجعون إلى أبيهم ويحلون رحالهم فيعرفون حقَّ ردّها وحقّ التكرم بإعطاء الطعام ورد الثمن، فيكون ذلك سبباً في رجوعهم ومعهم (بنيامين).

وقد فعل يوسف – عليه السلام – ذلك لأسباب تتعلق بصلة الرحم ووجوب التوسعة عليهم في زمن المجاعة والشدة، وزيادة في الإحسان إليهم وتشجيعاً لهم على الرجوع إلى مصر.

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٠٠٤-١٠٠٥.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - جَعْل البضاعة في رحال الإخوة يعتبر مؤثّراً للغاية في تيسير حصول الإخوة على موافقة أبيهم لأصطحاب (بنيامين) إلى مصر، والدليل على ذلك أن يعقوب - عليه السلام - كان قد رفض طلبهم قبل رؤيتهم البضاعة التي ردت إليه، وبعدها وافق بعد أن أخذ عليهم الميثاق كما سيأتي.

٢ - يمكن أن يكون في هذا التدبير إشارة رمْزيّة أو أكثر ليعقوب - عليه السلام - من ابنه يوسف - عليه السلام -.

٣ - زيادة كرم يوسف - عليه السلام - وإحسانه لإخوته وهم المسيئون إليه وقيامه بواجب صلة الرحم وشفقته بأهله.

٤ - التدبير الموفّق له أثره الفعّال في كل المواقع، وقد ساعد تدبير يوسف بجعل البضاعة في رحال إخوته على عودة الإخوة إلى مصر ومعهم (بنيامين).

٥ - كان هذا الجعْل للبضاعة من الدروس المفاجئة والمؤثرة في نفوس الإخوة، والتي يواصل يوسف - عليه السلام - بتلقينها للإخوة حتى يستقيموا تماماً على الطريق الحق الجامع لشمل الأسرة كلها.



«الآية الثالثة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

«يكتَلْ» بالياء، قرأها حمزة والكسائي، والوجه أن الفعل مسند إلى الأخ في قوله: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا» أي أرسله معنا يَكْتَلْ حِمْلَهُ كما نكتال نحن أحمالنا، والاكتيال هو قبول الكَيْل وتَسَلُّمِه، ويكْتَلْ: يفْتَعِلْ من الكيل.

وقرأ الباقون «نكتل» بالنون، والوجه أن الفعل مسند إلى جماعة المتكلمين، وهم إخوة يوسف الذين قالوا: «نَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ»(١)، والمعنى: أرسل معنا أخانا «نكْتَل» مَا مُنِعْنَاهُ لغيبته، ألا ترى أنهم قالوا: «مُنِعَ مِنَّا الكَيْل»، وفي قوله: «نكتل» يجوز أن يكون أخوهم داخلا فيهم(٢).

قال الإمام الطبري: والصواب أنهما - أي القراءتان المذكورتان - معروفتان متفقتا المعنى(٣).

ثالثاً - اللغة:

«مُنِعَ مِنَّا الكَيْل»: حُكِمَ بمنعه بعد هذا إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، «نكتل» نتمكن من اكتيال ما نحتاج إليه.

رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» (الفاء) حرف عطف، و(لمّا)

---

(١) يوسف/ ٦٥.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها/ ٢/ ٦٨٣-٦٨٤، وانظر: المغني في توجيه القراءات المتواترة/ ٢/ ٢٧٧، والحجة في القراءات السبع/ ١٩٦، وحجة القراءات ٣٦١.

(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٠.



حينيّة أو رابطة، و(رجعوا) فعل وفاعل، و(إلى أبيهم) متعلقان بـ(رجعوا) وجملة (قالوا) لا محل لها، و(يا) حرف نداء، و(أبانا) منادى مضاف، و(مُنع) فعل ماض مبني للمجهول، و(منا) متعلقان بـ(منع) و(الكيل) نائب فاعل.

«فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الفاء) فاء الفصيحة، و(أرسل) فعل أمر، و(معنا) متعلقان بـ(أرسل) و(أخانا) مفعول به، و(نكتل) فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب، و(إنا) إن واسمها، و(له) متعلقان بـ(حافظون) واللام المزحلقة، و(حافظون) خبر إنّ.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

رفع المستهم

سادساً - التفسير والبيان:

الإخوة يطلبون من أبيهم إرسال بنيامين معهم إلى مصر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وجه المناسبة:

هذا الكلام وثيق الصلة بما قبله، فبعد أن ذكر الله تعالى مطالبة يوسف - عليه السلام - إخوته بإحضار (بنيامين)، ذكر هنا مطالبتهم أباهم لإنجاز المطلوب(١) فقال:

«فلمّا رجعوا إلى أبيهم»

ودلّ على إسراعهم في الرجوع بالفاء في قوله: «فَلَمَّا رَجِعُوا»(٢) أي رجعوا من مصر ممتارين، بادروا بما كان أهم الأشياء عندهم، من التوطئة لإرسال أخيهم بنيامين معهم، وذلك قبل فتح متاعهم، وعلمهم بإحسان العزيز إليهم، من رد بضاعتهم، وأخبروا بما جرى لهم مع العزيز الذي هو على خزائن مصر(٣).

ومع ثقل طلبهم على أبيهم، إلا أنهم لم يجدوا بداً منه فجمعوا كل ما لديهم من جرأة وشجاعة وواجهوا أباهم بقولهم:

«قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيْلُ» أي منع منا الكيل مستقبلاً، لأنه، عليه السلام - قال لهم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ»، وفي ذلك ما لا يخفي من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة كان معهوداً فيما بينهم وبينه(٤).

وهكذا ألقوا إليه الخبر مجهلا «مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» ليكون سلاحاً من أسلحة الحرب النفسية مع أبيهم لأمر أرادوه... وفوجئ يعقوب - عليه السلام - بهذا الخبر القاسي على آل يعقوب كلهم، لأنه يحمل من شدة البلاء ما يحمل، خاصة في وقت حصول

---

(١) التفسير المنير/ ١٣/ ١٩.   (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٦٨.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٠.   (٤) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٨٩.



المجاعة الرهيبة وعدم استطاعتهم مواجهتها إلا عن طريق عزيز مصر، ثم يجيء وراء ذلك الخبر المفجع وهذا الطلب العجيب،

«**فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون**» وهنا يسأل يعقوب - عليه السلام - نفسه، ويسأل من حوله من أبنائه، ما العلاقة بين منع الكيل وإرسال أخيهم معهم؟ أهو مطلوب لعزيز مصر؟ وهل يعرف العزيز أخاهم هذا؟ ومن دلّهُ عليه؟ تساؤلات كثيرة عرف يعقوب - عليه السلام - جوابها فيما قصه عليه أبناؤه مِمَّا كان بين العزيز وبينهم(١) وذكروا له كذلك ما أكرمهم به من حسن استقبال وطيب ضيافة... الخ، ولكن كيف يقابلهم العزيز بكل هذا الإحسان والإكرام، ثم يشترط عليهم إحضار أخ لهم من أبيهم ليحصلوا على الميرة في المستقبل. ويحكم عليهم ألا يقربوا مصر ولا يقربوه إلا ومعهم (بنيامين).. من يكون هذا العزيز الذي يُصرّ على رؤية أخ لهم من أبيهم ليعرف صدقهم فيما أخبروه به؟

لعل كل هذه التساؤلات وغيرها قدتواردت على فكر النبي يعقوب - عليه السلام- وهو يتلقّى الخبر المزْعِج الذي تلقّاه من أبنائه وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم، ويلاحظ في كلام الإخوة الصادقين هذه المرة وهم يطلبون اصطحاب بنيامين، أنه موجز لا تصنّع فيه ولا تنميق «قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(٢) بعكس كلامهم المصطنع والمُنَمَّق والمبالغ فيه عندما أرادوا اصطحاب أخيهم يوسف ليفعلوا به ما فعلوه به «قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

(١) انظر: القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٦٠.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٩٧.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما رجع الإخوة إلى أبيهم يعقوب - عليه السلام - في أرض كنعان بفلسطين ممتارين من مصر، أخبروا أباهم أن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا في المستقبل وألا نقرب مصر إلا إذا أتيناه بأخينا بنيامين، فأرسل معنا أخانا نكتل من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا، ونكون قد وفينا له بما شرط علينا، وإنا لحافظون لأخينا في ذهابه وإيابه ونراعيه أكمل رعاية.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - صدق الإخوة هذه المرّة فيما أخبروا به أباهم يعقوب - عليه السلام - من أنهم سيُمنعون الطعام مستقبلاً إلا إن صحبهم أخوهم (بنيامين).

٢ - من الواضح أنهم كانوا فعلاً سيحافظون على (بنيامين) لأن عداءهم الأكبر كان ليوسف - عليه السلام -.

٣ - الرغبة في الازدياد من الكسب والربح والعودة بطعام بلا ثمن، فقد وهبهم عزيز مصر ثمن طعامهم بردّه إليهم عن قصد ملحوظ.



«الآية الرابعة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤)﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

«خَيْرٌ حَافِظًا» بالألف: قرأها حمزة والكسائي و - ص - عن عاصم،

والوجه أن المعنى، حافظ الله خيرٌ من الحافظ منكم، فإن الله تعالى حفظه، وكما إن إخوة يوسف ادعوا أنهم حفظة لأخيهم في قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» فقال يعقوب - عليه السلام -: «الله خير حافظا» أي الحافظ من جملة حفظته خير من الحافظ منكم، وقوله: «حَافِظاً» منصوب على التمييز كما يقال: فلان خير حَسَباً وأكثر مالاً، وقرأ الباقون «خيرٌ حِفْظاً» بغير ألف.

والوجه أنهم أضافوا إلى أنفسهم حفظا بقولهم: «نحفظ أخانا» فقال يعقوب - عليه السلام - «الله خير حفظاً» أي إن حفظه خير من حفظكم، و«حفظا» منصوب على التمييز كما سبق[١].

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكل منهما أهل العلم بالقرآن، فبأيّتهما قرأ القارئ فمصيب[٢].

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ»

الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، و«هل» حرف استفهام، و(آمنكم) فعل مضارع

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٨٤-٦٨٥.

(٢) تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ١١.



وفاعل مستتر ومفعول، و(عليه) متعلقان بـ(آمنكم) و(إلا) أداة حصر (كما أمنتكم) الكاف نعت لمصدر محذوف، و(ما) مصدرية، أي هل آمنكم عليه أمنا كأمْني إياكم على أخيه، و(على أخيه) جار ومجرور متعلقان بـ(أمنتكم) و(من قبل) حال، أي من قبل هذا الزمان.

«فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» الفاء فاء الفصيحة، و(الله) مبتدأ، و(خير) خبر، و(حافظاً) تمييز أو حال، و(هو) مبتدأ، و(أرحم الراحين) خبر(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات:

قوله تعالى: «فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»

هل يدل على أن يعقوب - عليه السلام - قد أذن في ذهاب ابنه (بنيامين) في ذلك الوقت أم لا؟

وفي ذلك اتجاهان:

الاتجاه الأول، وقد ذهب إليه أكثر المفسرين، ويرى أن قول يعقوب - عليه السلام - : «فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» بعد قول إخوة يوسف له: «قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، يدل على إذنه في ذهاب ابنه بنيامين معهم في ذلك الوقت.

بعض من قال بذلك من المفسرين:

قال الإمام الطبري: «فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» بمعنى والله خيركم حفظا وحافظا - على القراءتيْن - «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» يقول: والله أرحم راحم بخلقه، يرحم ضعْفي على كبر سني، ووحدتي بفقد ولدي، فلا يضيّعه، ولكنه يحفظه حتى يردّه عَليّ لرحمته(٢)، وظاهر تأويل الإمام الطبري أن يعقوب - عليه السلام - قد إذِنَ في ذهاب

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥/ ١٧-١٨، وانظر: التبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٣٧، والفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٧٩، والدر المصون/ ٦/ ٥١٨-٥١٩.

(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١١.



بنيامين معهم في ذلك الوقت، معتمدا على الله تعالى في حفظه ورده سالماً لا علَى حفظ إخوته.

وقال الإمام الزمخشري: ثم قال: - يعقوب عليه السلام - «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» فتوكّل على الله فيه ودفعه إليهم(١).

وقال الإمام ابن عطية: ولم يصرّح بمنعهم من حمله لما رآى في ذلك من المصلحة، لكنه أعلمهم بقلّة طمأنينته إليهم وأنه يخاف من كيدهم،... ثم قال: فاستسلم يعقوب - عليه السلام - لله وتوكل عليه(٢).

وقال الإمام القرطبي: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» نَصْب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم، وقرأ سائر الكوفيّين «حافظا» على الحال، وقال الزجاج: على البيان، وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم، ومعنى الآية: «حفظا لله خير من حفظكم إياه»(٣).

وقال الإمام أبو حيان: لكن يعقوب لم يَخَفْ عليه كما خاف على يوسف، واستسلم لله وقال: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا»(٤)...

وبمثل ما تقدم قال الإمام ابن كثير(٥) والإمام البيضاوي(٦) والإمام الألوسي(٧) والإمام أبو السعود(٨) والإمام الشوكاني(٩) والشيخ عبدالرحمن السعدي، الذي عقّب على الآية بقوله: وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم(١٠) والإمام الطاهر ابن عاشور الذي كان من قوله: وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنه مرسل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه(١١).

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣١. (٢) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٣٢-٣٣٣.
(٣) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٢٤. (٤) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٠.
(٥) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٤. (٦) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٨٩.
(٧) روح المعاني / ٧ / ١٢. (٨) تفسير أبي السعود / ٤ / ٩٠.
(٩) فتح القدير / ٣ / ٤٠-٤١.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٢٣٧.
(١١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ١٦.



ومع من نقدم من المفسرين ذهب أكثر الباقين إلى القول بما قالوا به، من أن قوله تعالى: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» فيه دلالة على أن يعقوب - عليه السلام - قد أذن لإخوة يوسف بإرسال بنيامين معهم في ذهابهم للمرة الثانية إلى مصر، لكنه لا يثق بهم إن سلّمه إليهم، بل يثق بالله تعالى ويجعله وكيلاً عليه، فإن الله تعالى خير من كل أحد حافظا وهو أرحم الراحمين، فبرحمته يرده عَلَيَّ ويجمع شَمْلي به.

الاتجاه الثاني: وقد ذهب إليه جمع لا بأس به من المفسرين، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن قول يعقوب - عليه السلام - «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» يخاطب أولاده العشرة، لا يدل على إذنه - عليه السلام - بإرسال بنيامين معهم إلى مصر في رحلتهم الثانية إليها، بل على العكس فإنه يدل على الرفْض.

بعض من قال بذلك من المفسرين:

قال الإمام الماوردي: قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» ترغيبا في إرساله معهم، فلم يثق بذلك منهم لما كان منهم في يوسف، - ولذلك أجابهم بقوله: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ» لأنهم ضمنوا له حفظ يوسف فأضاعوه، فلم يثق بهم فيما ضمنوه، «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» يعني منكم لأخيكم، «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» في حفظ ما استودع أو فيما يرى من حزني، وعند قوله تعالى: «وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ»(١) قال الإمام الماوردي: وفي هذا القول منهم وفاء ليوسف فيما بذلوه من مراودة في اجتذاب أخيهم، لأنهم قد راودوه من سائر وجوه المراودة، ترغيباً، واستنزالاً، واستعطافاً وتسهيلاً(٢)، أي أنه لم يستجب لطلبهم قبل قولهم هذا، ولذلك علّق إرساله معهم على الميثاق من الله الذي يأخذه عليهم.

---

(١) يوسف/ ٦٥.

(٢) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٦-٢٨٧.

رفع المسهم

وقال الشيخ سيد قطب: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب - عليه السلام - فهو في ذاته وَعْدُهُم له في يوسف - عليه السلام - فإذا به يجهر بما أثاره الوعد من شجونه: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ»!

فخلّوني من وعودتكم، وخلّوني من حفظكم، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي... «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ثم قال الشيخ قطب بعد أن ذكر قول الله تعالى: «وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ... الآية»: واستسلم الرجل - عليه السلام - على كُرْه - أي لم يوافق من قبل - ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً(١).

وقال الشيخ محمد أحمد جاد المولى، عن قوله تعالى: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ... الآية»: قال يعقوب - عليه السلام - لن آذن لكم بسفره، ولن أستريح لفراقه، وهل ترونني آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه من قبل» فاصرفوا عني كيدكم، واكفوني شركم «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»(٢).

وقال الشيخ عبد الله العلمي: هذا الموقف الذي وقفه يعقوب - عليه السلام - ههنا مع أولاده موقف سلبيّ، خلافاً للزمخشري ومن تبعه من المفسرين، فهو - عليه السلام - بقي مقيماً على المخالفة، مُصِرّاً على الإباء، غير واقف معهم موقفاً إيجابياً إلا بعد ما ذكروا عدة محسنات، وبعدما أتوه موثقهم، وأما قول يعقوب - عليه السلام - «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا... الخ» فمعناه: إن أردت أن أرسله معكم، فلا أعتمد على حفظكم له، «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا... الخ»، ولكني لا أريد(٣).

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠١٦-٢٠١٧.
(٢) قصص القرآن الكريم (جاد المولى) ١٠١.
(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٠٣.



وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: ففي قول يعقوب - عليه السلام - «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ» اتهام لهم بالكيد ليوسف - عليه السلام - أوّلاً، ثم السير في طريق الكيد لأخيه ثانياً[1]. فلم يوافق هنا على أخذه معهم إلى مصر.

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار: فتذكر يعقوب - عليه السلام - قديم أمرهم بحديثهم وعاودته لوْعتُه على يوسف - عليه السلام - فقال لهم: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ» ثم قال الشيخ النجار: فتح إخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذي أتوا به من مصر، فوجدوا فضّتهم بحالها لم تمس، فكان ذلك مما شدّد عزائمهم في الكلام مع أبيهم[2] أي في شأن إرسال بنيامين معهم إلى مصر، فهو لم يوافق أول الأمر.

وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: لم يصرح يعقوب - عليه السلام - في المرة الأولى لبنيامين في نزول مصر لطلب الميرة مع إخوته، خشية عليه أن ينال منهم ما نال يوسف من قبل، ثم قال: وفي قوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ... الخ» فيه تقريع شديد لهم بسابق فعْلتهم حين وعدوه بحفظ يوسف وهم يعلمون عزيز مكانته فلم يفُوا بشيء، بل جاءوا بعكس ما وعدوا، وها هم يكررون نفس الوعد ليأمنهم على أخيه!

ولما رأوا أنهم لو تمادوا في الطلب فلن يجدوا سوى الرفض القاطع، أجَّلوا الحديث معه - عليه السلام - إلى مناسبة أكثر ملاءمة[3] وكان ذلك عندما فتحوا متاعهم وفوجدوا بضاعتهم ردت إليهم.

وقال الدكتور / حسن محمد باجودة: وليْست الصَّفْعة التي وجهها يعقوب - عليه

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٦١.

(٢) قصص الأنبياء (عبد الوهاب النجار) ١٦٨.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٣٧٦-٣٧٧.



السلام – لأبنائه العشرة هيّنة، وهي قوله لهم: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ... الخ»، لهذا سكتوا في الحال عن هذا الأمر تماماً، ولولا أنهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم لسكتوا عن هذا الأمر حتى يرغموا بعد وقت ما، حينماتعض المجاعة آل يعقوب على معاودة الطلب[1]، وفي سبيل تبيُّن المبرر لما جاء على لسان يعقوب – عليه السلام – في هذه الآية: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ...» علينا أن نعود أدراجنا إلى آيتين سبق أن جاءتا على لسان الإخوة أنفسهم – العشرة – مخاطبين أباهم، قال تعالى على لسانهم: «قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[2] إنهم يشيرون صراحة إلى عدم ائتمان يعقوب لهم على يوسف، ويعقوب في رده عليهم لا يشير البتّة إلى عدم الائتمان هذا بل يسكت عنه سكوتاً، وإن سكوته دليل على عدم مخالفتهم في استنتاجهم، ولكنه دليل صامت، إنه لم يُجِبْهم لأنه لم يكن عنده الدليل الكافي، وفعلوا بيوسف ما سولت لهم به أنفسهم، وعادوا عشاء يبكون، ولم ينس يعقوب تبجّح هؤلاء الإخوة بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا على يوسف، وأنهم ناصحون وحافظون له.

وفي هذه المرة الثانية، حينما يطلبون منه أن يرسل معهم أخاهم، فعلى الرغم من أنهم لم يشيروا إلى أنه ينبغي أن يأتمنهم على أخيهم، إلا أن يعقوب – عليه السلام – الذي حرّك طلبهم في نفسه كوامنَ الشَّجَن وأليم الذكريات، يجيبهم مؤنّبا كما جاء في القرآن الكريم: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ»، وهذا القول في حقيقته رد على تبجُّحهم السابق بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا، وتقْريع بأنهم لا يمكن أن يؤتمنوا هذه المرة على الشقيق، لأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً لذلك[3] وعلى هذا فإن موافقة يعقوب – عليه السلام – بأخذ بنيامين معهم إلى مصر، تلك الموافقة المشروطة

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٥٧.

(٢) يوسف / ١١-١٢.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ١٩٧-١٩٨.



بأخذ الميثاق عليهم، لم تحدث إلا بعد ظهور العامل القوى المساعد، والذي تم تدبيره على يد الحكيم يوسف - عليه السلام -، ألا وهو ردّ البضاعة إليهم.

الترجيح:

والراجح من القولين هو الاتجاه الثاني القائل: إن قول يعقوب - عليه السلام - «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» لا يدل على إذنه - عليه السلام - لأبنائه العشرة باصطحاب بنيامين معهم في رحلتهم الثانية إلى مصر، وذلك للآتي:

١ - دلالة قوله - عليه السلام - لهم: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ...» فهذا القول منه - عليه السلام - يعني الآتي:

(أ) الرفض المباشر لطلبهم، فائتمانهم عليه لن يكون إلا مثل ائتمانهم على أخيه يوسف من قبل، فخانوا الأمانة والعهد وكذبوا، وفعلوا به ما فعلوا.

(ب) اتهام صريح لهم بالكيد لأخيهم يوسف من قبل، وأنهم الآن يكيدون لأخيه بنيامين مثلما فعلوا بيوسف.

(جـ) تذكير لهم بفعلتهم المنكرة بيوسف - عليه السلام - وتبكيت لهم، وإلقاء المسئولية كلها عليهم في ضياعه.

٢ - يبعد جداً الجمع بين ماجاء في قول يعقوب - عليه السلام - لهم من دلالات تصب على رؤوسهم حمما مؤلمة، وبين موافقته على إرسال بنيامين معهم في نفس الوقت.

٣ - أنّ طلبهم لأخيهم جاء ثانية في قولهم: «وَنَحْفَظُ أَخَانَا» بعد أن قالوا في طلبهم له أولاً «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون»، ولهذا فلم يتحدث أبوهم - عليه السلام - عن إرساله معهم بما اشترط عليهم إلا بعد ذلك.

٤ - أن قوله - عليه السلام - «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ليس إجابة ضمنيّة منه علي طلبهم، وإنما هو رد مباشر على قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» فهو يعلّمهم أن الحفظ كله من الله تعالى لا منهم ولا من غيرهم، هذا، والله أعلم.



سادساً - التفسير والبيان:

(رفض لطلب الإخوة أولاً)

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وجه المناسبة:

لما طلب الإخوة من أبيهم يعقوب - عليه السلام - إرسال بنيامين معهم إلى مصر في رحلتهم الثانية إليها بعد ما فعلوا بيوسف من قبل حين أرسله معهم، فكأنه قيل: فهل أجابهم لطلبهم، فقيل:

«**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ**» فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والمعنى أنكم ذكرتم قبل، هذا الكلام في يوسف، وضمنْتم لي حفظه حيث قلتم هناك: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون»

ثم ها هنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه، فهل يكون ههنا أماني إلا ما كان هناك، يعني لما لم يحصل الأمان هناك، فكذلك لا يحصل هنا(١) إن هذا القول ليس فقط مجرد رفض لطلبهم إرسال بنيامين معهم، بل وتبكيت وتكذيب لهم، واتهام لهم بالكيد لأخيه يوسف من قبل، ومواصلة ذلك الكيد لأخيه الآن، لقد قالوا له من قبل في شأن يوسف:

«وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» ذلك القول الذي قالوه الآن، وزادوا عليه النصح هناك، فماذا كانت النتيجة؟ كانت نقْضا لكل ما قالوه وتعهدوا به، إنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، لقد خبرهم وخبر أقوالهم وتعهداتهم فما وجدها شيئاً مذكُوراً، وكان عكس ما تعهدوا به هو الذي وقع، إنه لن يسلمه ليفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل، فهو لا يثق لهم بوعد، وما أشبه الليلة بالبارحة، ثم تابع - عليه السلام - يرد على قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» بقوله:

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧٣.

رفع المسهم

«فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»، وليس هذا القول منه - عليه السلام - إجابة ضمنية على طلبهم، وإنما هو رد مباشر على قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون»، ذلك القول الذي أهاج في نفسه الذكرى الأليمة لما حدث منهم تجاه ابنه الحبيب يوسف - عليه السلام -، إنه يعلمهم أن الحفظ كله لله تعالى، لا منهم ولا من غيرهم، فإنه لا ثقة أبداً في حفظ أي مخلوق كان، ولكن الثقة كلها في حفظ الله القادر الحفيظ العليم، «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» بخلقه من كل مخلوق.

هذا، ولما تبين للإخوة أن مواصلتهم الكلام مع أبيهم الآن بخصوص إرسال بنيامين معهم لن يأتي إلا بالرفض المطلق، خاصة بعد أن واجههم صراحة ولأول مرة، متهما إياهم بكيدهم لأخيهم يوسف من قبل، وأنهم الآن يريدون أن يعيدوا الكرة مع أخيه الشقيق، مما أفحمهم وأبهتهم، ما كان منهم إلا أن أجَّلوا الحديث معه بهذا الخصوص، حتى تأتي مناسبة أخرى تهئ لهم العودة إليه.

عمر بنيامين عندما طلبه إخوته من أبيهم:

ربما يتوهم البعض من قول إخوة يوسف لأبيهم «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون» يعنون بنيامين، وقول أبيهم - عليه السلام - «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ... الخ» ثم قولهم: «وَنَحْفَظُ أَخَانَا»، وقول أبيهم «لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ... الخ»...

ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن بحيث يخاف عليه إذا سافر، وليس هذا التوهّم في محله، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك، كيف وقد كان عمر (بنيامين) حينما فارقه أخوه يوسف - عليه السلام - كُرْهاً سبع سنين، ثم مضى على يوسف بمصر قرابة (٢٣) سنة، فكان بنيامين وقتما طلبه يوسف ابن نحو ثلاثين سنة أو أكثر، وله خمسة أولاد، فلم يكن خوف أبيه - عليه السلام - لصغره، وإنما كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه كما سبق أن تواطأوا على أخيه من قبل[1].

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٠٣٠.

رفع المسَاهِم

المضمون العام للآية الكريمة:

أجابهم - عليه السلام - بقوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ»، أي: هل أثق بكم وأجعلكم أمناء على أخيكم إلا كما وثقت بكم وجعلتكم أمناء على أخيه يوسف من قبل، فانتهى الأمر إلى ما ترون، فأنتم لا يوثق لكم بوعد، ولا يطمأن منكم إلى عهد، فما أشبه الليلة بالبارحة «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ولكن الثقة كلها في حفظ الله تعالى القادر الحفيظ العليم، وهو أرحم الراحمين بخلقه من كل مخلوق.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تأثير حوادث الماضي بخيرها وشرها في الأمور المستقبلة.

٢ - رفض يعقوب - عليه السلام - أول الأمر إرسال بنيامين مع إخوته إلى مصر، بسبب ما حدث منهم بالنسبة ليوسف - عليه السلام.

٣ - حفظ الله تعالى هو الحفظ الحق، وما سواه عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً.

رفع المسـاهم

« الآية الخامسة والستون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله تعالى: «رُدَّتْ» الجمهور على ضم الراء وهو الأصل، وقرأ علقمة ويحيى والأعمش «رِدَّتْ» بكسر الراء، ووجهه أنّه نَقَلَ كسْرة العين إلى الفاء كما في (قيل) و(ربيع)، لأن المضاعف يشبه المعتلّ(١) قال ذُو الرُّمَّة:

دَنا البَيْنُ مِنْ مَيٍّ فَرِدَّتْ جمالها * * وَهَاجَ الهوى تَقْويضَها واحتمالها(٢)

قوله تعالى: «ما نبغي» بالنون قراءة الجمهور، وقرأ أبو حيوة «ما تَبْغي» بالتاء على مخاطبة يعقوب، وهي في قراءة ابن مسعود، وروتها عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ، وهي بمعنى: أي شيء وراء هذا الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا(٣).

ثالثاً - اللغة:

«متاعهم» المتاع: يقال لكل ما ينتفع به على وجه ما، فهو مَتَاعٌ ومُتْعَةٌ، وعلى هذا قوله: «ولَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ» أي طعامهم، فسماه متاعاً، وقيل: وعاءهم، وكلاهما متاع، وهما متلازمان، فإن الطعام كان في الوعاء(٤).

«مَا نَبْغِي» بغي: البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى؛ تجاوزه أو لم يتجاوزه،

---

(١) التبيان في إعراب القرآن / ٢ / ٧٣٧.

(٢) الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٧٩-٨٠.

(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣١، وانظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٧٩-٨٩، وتفسير ابن عطيه / ٩ / ٣٣٤.

(٤) المفردات (كتاب الميم) ٤٦١.



فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب، وابتغيْت كذلك(١).

ويقال: بغيت الشيء أبغيه بُغَاءً وبُغْيَةً، بضمّهن، وَبِغْيَةً بالكسر: طلبته(٢) فـ(نبغي) من البغاء، وهو الطلب، ... ومعنى «ما نبغي» أي ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام وإحسان العزيز إلينا كما حدثناك، هذه إذا جعلت (ما) استفهامية، فإن كانت نافية كان المعنى: لا نبغي شيئاً آخر، هذه بضاعتنا ردت إلينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني.

«وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» الميرة: الطعام يَمْتَارُهُ الإنسان، يقال: مَارَ أهْلَه يُمِيرُهم، قال: «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا»(٣) ومعنى «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» أي: نجلب لهم الميرة، وهي الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد، يقال: مَارَ عياله يُميرهم مَيْراً: بمعنى جلب لهم طعاما(٤).

«بَعِيرٍ» البعير لغة: يقع على الذكر خاصة من الإبل، وأطلقه بعضهم على الناقة أيضاً، وجعله نظير إنسان، ويجوز كسر بائه اتباعاً لِعَيْنِه، ويجمع في القلة على أبْعِرَة، وفي الكثرة على بُعْرَان(٥).

رابعاً - الإعراب:

«وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» (لمّا) حينيّة أو رابطة، و(فتحوا متاعهم) فعل وفاعل ومفعول به، وجملة (ردت إليهم) في محل نصب مفعول (وجدوا) الثاني، «قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي» (قالوا) فعل وفاعل، و(يا أبانا) منادى مضاف، و(ما) اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لـ(نبغي) أي أي شيء نبغي ونطلب من الكرامة، هذه أموالنا ردت إلينا، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون (ما)

---

(١) المفردات (كتاب الباء) ٥٥. (٢) القاموس المحيط / ١٦٣١.
(٣) المفردات (كتاب الميم) ٤٧٨. (٤) صفوة البيان / ٣١١.
(٥) الدر المصون / ٦ / ٥٢٠.



نافية، أي ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أيضاً أن تكون (نبغي) من البغْي، أي: ما افترينا فكذبنا على هذا العزيز.

«هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا» (هذه) مبتدأ، و(بضاعتنا) خبر، وجملة (ردت إلينا) خبر، والجملة مستأنفة مسوقة لإيضاح قولهم: (ما نبغي).

«وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» الواو عاطفة على محذوف، أي نستظهرُ بها ونستعينُ ونميرُ أهلنا، و(أهلنا) مفعول به، و(نحفظ أخانا) جملة مَنْسُوقة على ما قبلها، و(نزداد) جملة منسوقة أيضاً، و(كيل بعير) مفعول به لـ(نزداد).

«ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» (ذلك) مبتدأ، و(كيل) خبر، و(يسير) صفة[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ١٨.

رفع
المسيّ همام

سادساً - التفسير والبيان:

مفاجأة غير متوقعة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾

وجه المناسبة:

لما أجاب يعقوب - عليه السلام - أبناءه على طلبهم اصطحاب بنيامين معهم إلى مصر بالرفض مع التبكيت والاتهام بالكيد لبنيامين كما كادوا ليوسف من قبل، ما كان منهم إلا أن لا ذوا بالصمت، وانتظروا فرصة أخرى تسمح لهم بمعاودة طلبهم هذا من أبيهم وجاءتهم هذه الفرصة في قوله تعالى:

«وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ»

«وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ» أي: فتحوا أوعية طعامهم، ففيه مجاز الفتح للأوْعية لا للمتاع، «وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ» التي دفعوها عن ثمن شراء الطعام إلى العزيز في مصر، «رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» بعينها كاملة لم تمس(١) وكان هذا تفضلاً، وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال(٢)...

وقد وجد الإخوة في هذا الأمر، الفرصة السانحة التي تقوّي عزمهم وتشجعهم على معاودة الحديث مع أبيهم بشأن سفر بنيامين معهم إلى مصر، فعاودوا الكلام مع أبيهم في ذلك، وجرت المحاورة على أساس جديد، هيّأه لهم تدبير يوسف - عليه السلام - بجعل البضاعة في (رحالهم).

«قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا»

وجملة «قَالُواْ يَا أَبَانَا» مستأنفة استئنافا بيانياً، لترقّب السامع أن يعلم ماذا صدر

---

(١) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٤٢.

(٢) روح المعاني / ٧ / ١٢.



منهم حين فجأهم وجدان بضاعتهم في ضِمْنِ متاعهم، لأنها مفاجأة غريبة، ولذلك لم يعطف بالفاء[١].

وقوله: «ما نبغي»، في (ما) هذه وجهان، أظهرهما: أنها استفهامية، فهي مفعول مقدم واجب التقديم؛ لأن لها صدر الكلام، أي: أي شيء نبغي، والثاني: أن تكون (ما) نافية ولها معنيان: أحدهما: ما بَقِيَ لنا ما نطلب، قاله الزجاج، والثاني: ما نبغي، من ابتغْي، أي: ما افترينا ولا كذبنا على هذا الملك في إكرامه وإحسانه[٢]، قال الزمخشري: ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قَدِمْنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته.

وقوله: «هَذه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا»، جملة مستأنفة موضّحة لقوله: «ما نبغي»، والجُمل بعدها محطوفة عليها[٣] وإنما علموا أنها ردت إليهم بقرينة وضْعها في العِدْل بعد وضع الطعام، وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيّالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف - عليه السلام - من العطف عليهم والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم، إذ قال لهم:

«أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ»[٤]

وكان الإخوة في اهتبال الفرصة الجديدة غاية في الذكاء،... إنهم في فرح مستطير، يقولون: «يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِه بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا»، أي ما الذي يمكن أن نبغي أكثر من الذي حصلنا عليه، أو يمكن أن نحصل عليه في المستقبل، لقد حصلنا في الرحلة السابقة على كل شيء نبغي، حتى ثمن الطعام نجده الآن في رحالنا، وإن لسان حالهم ليستمر قائلاً: إن هذا يا أبانا دليل على كرم العزيز البعيد المدى[٥] ثم تابع الإخوة يشيرون إلى المكاسب التي يمكن أن يعودوا بها من الرحلة الثانية والتي لا يمكن أن تنجح إلا بأخذ بنيامين معهم، فقالوا:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ١٧.

(٢) الدر المصون/ ٦/ ٥١٩. (٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣١.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ١٧. (٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٠٠.



«وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ»

وقوله: «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» أي: نجلب لهم الميرة - الطعام - من عند العزيز، معطوف على مقدر ينسحب عليه البضاعة، أي فنستظهر بها ونمير أهلنا، «وَنَحْفَظُ أَخَانَا» من المكاره حسبما وعدْنا، وتفرّعه على ما تقدم باعتبار دلالته على إحسان العزيز، فإنه مما يعين على الحفظ، «ونزداد» أي بواسطته، ولذلك وسّط الإخبار به بين الأصل والمزيد، «كيل بعير» أي وسق بعير زائد على أوساق أبَاعِرِنا على قضية التقسيط المعهود من العزيز، لكل شخص حمل بعير فقط[1]

ثم يتوّج الإخوة كلامهم بهذه الجملة: «ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» وفيه وجهان: (أحدهما) أن الذي جئناك به كيل يسير لا ينفعنا، قاله مقاتل، واختاره الزجاج[2] (الثاني) أن ما نريده يسير على من يكيل لنا، وهو العزيز، قاله الحسن[3] وهو الأنسب، لأن أحمال الإخوة العشرة في زمن القحط والشدة لا يعتبر شيئاً يسيراً، كما أن مجرد إضافة حمل بعير واحد للأخ إلى الأحمال العشرة لا يحوّلهم من (يسير) إلى (كثير).

الترتيب الإبداعي لهذه الجمل الثلاث:

الأولى جملة «ونمير أهلنا» معطوفة على جملة «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا» لأنها في قوة؛ هذا ثمن ما نحتاجه من الميرة صار إلينا، ونمير به أهلنا، أي نأتيهم بالميرة وهي الطعام المجلوب من بلد إلى بلد.

الثانية جملة «وَنَحْفَظُ أَخَانَا» معطوفة على جملة «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا»، لأن المير يقتضي ارتحالا للجَلْب، وكانوا سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقا لهم في الارتحال المذكور، فكانت المناسبة بين جملة «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» وجملة «وَنَحْفَظُ أَخَانَا» بهذا الاعتبار، فذكروا ذلك تطمينا لخاطر فيهم.

---

(١) انظر: روح المعاني/ ٧/ ١٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧٥.

(٣) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٧.



الثالثة جملة «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم، لأن في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير، لأن يوسف - عليه السلام - لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم، أعطاه حمل بعير في عداد الإخوة، وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها، وهذه الجمل مترتبة ترتيباً بديعاً، لأن بعضها متولّد عن بعض(١).

من الإعجاز القرآني لهذه الجمل الثلاث والتي قبلها:

انظر إلى روعة النظم القرآني في تصويره لهذا الإغراء العجيب الذي جاء إلى يعقوب - عليه السلام - محمولاً في قول الإخوة: «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ»...

فهذه الواوات المتتابعة، التي تجمع المتعاطفات، وتقرن بعضها إلى بعض، تمثل أروع ما يمكن أن يبلغه فنّ العرْض، لمجموعة من فريد اللآلي وكريم الجواهر، تحركها يد صناع، فتجئ بها واحدة إثر أخرى...

وفي اختيار حرف (الواو) من بين حروف العطف، وفي تكراره دون مغايرة، في هذا ما يزاوج بين هذه المتعاطفات ويؤاخي بينها، بحيث تبدو مجتمعة وهي متفرقة، لما في حرف الواو من رخَاوة ولِين، حيث تصبح هذه المتعاطفات على هذا النسق كياناً واحداً، ومطلباً واحداً لا يمكن الفصل بين أجزائه(٢).

ذكاء الإخوة في حمل الأب على الموافقة لإرسال بنيامين معهم:

إن إخوة يوسف وبعد أن وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، ابتهلوا هذه الفرصة الرائعة، واستعملوا ذكاءهم في الحديث عن رحلتهم الثانية إلى مصر، فقد عرضوها أمام أبيهم يعقوب - عليه السلام - بصورة فائقة من التفصيل والإغراء معاً، إذ قد عرفوا كيف

---

(١) تفسير التحرير والتنوير /٧/ ١٣/ ١٧-١٨.

(٢) القصص القرآني الكريم في منطوقه مفهومه/ ٤٦٢.



يستميلون قلب والدهم ويقنعونه هذه المرة بأخذ أخيهم بنيامين معهم، فقد أشاروا إلى المكاسب التي يمكن أن يعودوا بها من الرحلة الثانية الناجحة، والتي لا يمكن أن تكون كذلك إلا بأخذ أخيهم بنيامين معهم، إلى مصر(١).

ففي قولهم: «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» قد جعلوا أخذ أخيهم معهم مطلباً ثانياً بعد الطلب الأول، وهو الميرة، وربطوه به، بحيث لا تكون الميرة إلا وأخوهم معهم...

ثم هم من جهة أخرى يقولون: «وَنَحْفَظُ أَخَانَا» ولا يقولون: «نأخذ أخانا» كأن أخذ الأخ أصبح الآن وبعد وجود البضاعة أمر مفروغ منه، لا مراجعة لأبيهم فيه، فهم آخذوه وحافظوه، ولقد وفوا ليوسف - عليه السلام - فيما بذلوه من مراودة لأبيهم في اجتذاب أخيهم، لأنهم قد راودوه من سائر جهات المراودة، (ترغيباً) في قولهم: «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» و(استنزالا) في قولهم: «وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» و(استعطافاً وتسهيلاً» في قولهم: «ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ»(٢).

وهكذا نجحت حيلة يوسف - عليه السلام - برد أثمان الطعام، حيث كان لذلك الأثر الكبير في موافقة الأب على إرسال بنيامين معهم إلى مصر بشروط تأتي إن شاء الله تعالى في الآية التالية.

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٠٠.

(٢) انظر: تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٧.



المضمون العام للآية الكريمة:

ولما فتحوا متاعهم الذي جاءوا به من مصر وجدوا بضاعتهم التي دفعوها ثمن شراء الطعام إلى العزيز ردّت إليهم كاملة ووضعت في رحالهم، فلما رأوا ذلك قالوا يا أبانا ما نبغي وما نريد أكثر من هذا تكريماً من العزيز وأعوانه، هذه بضاعتنا وأثماننا ردّت إلينا، فأرسل معنا أخانا (بنيامين) نذهب إلى مصر ونأتي بالميرة لأهلنا، ونحفظ أخانا، ونزداد كيل بعير، ذلك الكيل كيل سهل على العزيز لكثرة ما لديه من الطعام ولسعة كرمه وسخائه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تدبير يوسف الحكيم في جعل بضاعتهم في رحالهم حيث تَسَبَّبَ عنه موافقة أبيهم على طلبهم.

٢ - المفاجأة السَّارة وأثرها في النفوس.

٣ - الكرم دائما لا يأت إلا بخير.

٤ - حسن اسْتغلال الأخوة لوجود ثمن البضاعة المشتراة لتأييد موقفهم، والتّدليل على صدقهم فيما أخبروا أباهم به من نُبْل العزيز وكرمه وحسن ضيافته لهم.

٥ - استعمال المغريات لنجاح خطتهم.



«الآية السادسة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

قوله: «حَتَّى تُؤْتُونِ» قرأ ابن كثير «تُؤْتوني» بياء في الوصْل والوقْف، وروي عن نافع أنه وصل بياءٍ وَوَقْفٍ دونها، والباقون تركوا الياء في الوجهين(١).

ثالثاً - اللغة:

«حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّه» الميثاق: عقد مؤكد بيمين وعهد، قال تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ»(٢) والموْثِقُ: الاسم منه، قال تعالى: «حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّه» إلى قوله: «موثقهم» والوُثْقَى قريبة من الموثق، قال تعالى: «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى»(٣)، (٤).

والمواثقة: المعاهدة، ومنه قوله تعالى: «وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ»(٥) وجاء في حديث كعب بن مالك «تواثقنا على الإسلام» أي تحالفنا وتعاهدنا(٦).

«إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» تقول العرب: أحِيطَ بفلان، إذا هلك أو قارب الهلاك، وأصله من إحاطة العدوّ، واستعمل في الهلاك؛ لأن من أحاط به العدوّ يهلَكُ غالباً، فمعنى «إلا أن يحط بكم» أي: «إلا أن تهلكوا جميعاً، أو إلا أن تُغْلَبُوا عليه فلا تطيقوا الإتيان به(٧).

«قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» وَكَلَ: التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً

---

(١) تفسير ابن عطيه / ٩ / ٣٣٥. (٢) آل عمران / ٨١.
(٣) لقمان / ٢٢. (٤) المفردات (كتاب الواو) ٥١٢.
(٥) المائدة / ٧. (٦) اللسان / ١٠ / ٣٧١.
(٧) صفوة البيان لمعاني القرآن / ٣١١.
(٨) النساء / ١٣٢.



عنك، والوكيل: فعيل بمعنى المفعول، قال تعالى: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً»(٨) أي: اكتف به أن يتولى أمرك ويتوكّل لك، وعلى هذا قوله: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيل»(١)، (٢).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ»

(قال) فعل، والفاعل ضمير يعود على يعقوب، و(لَنْ» حرف نفْي ونصب واستقبال، و(أرسله) أرسل فعل مضارع منصوب بـ(لن) والفاعل ضمير، والهاء مفعول به، و(معكم) ظرف متعلق بـ(أرسله) و(حتى) حرف غاية وجر، و(تؤتوني) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به أوّل، و(موثقاً) مفعول ثان لتؤتون، و(من الله) صفة،

«لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ»

اللام واقعة في جواب القَسَم المدلول عليه بقوله: (موثقا) لأن الميثاق بمعنى اليمين، و(تأتنني) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنيْن فاعل، والياء مفعول به، والنون المشدّدة للتوكيد، والنون الثالثة نون الوقاية، و(به) متعلقان بـ(تأتّني) و(إلا) أداة استثناء، و(أن) ومافي حيّزها استثناء مفرّغ من أعم الأحوال، أي لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، فهو حال أو استثناء مفرغ من أعم العِلَل.

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»

الفاء عاطفة، و(لما) تقدمت، و(آتوْه) فعل وفاعل ومفعول به أوّل، و(موثقهم) مفعول به ثان، و(الله) مبتدأ، و(على ما نقول) متعلقان بـ(وكيل) و(وكيل) خبر (الله)(٣).

خامساً - الموقف من المتعارضات:

---

(١) آل عمران/ ١٧٣. (٢) المفردات (كتاب الواو) ٥٣١.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٢٠، وانظر: التبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٣٧، والدر المصون/ ٦/ ٥٢١-٥٢٢.



سادساً - التفسير والبيان:

«موافقة مشروطة»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

وجه المناسبة:

لما كان يعقوب - عليه السلام - غير مختار لإرسال ابنه وألحّوا عليه في ذلك، علّق إرساله بأخذ الموثق عليهم، إذ به تؤكد العهود وتشدّد.

«قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ...»(١)

إن ما قام به الإخوة وهم يراودون أباهم يعقوب - عليه السلام - بشأن اصطحاب بنيامين معهم إلى مصر، من ترغيب فيما سيأتون به من مصر إذا صحبهم، ومن ترهيب فيما يحدث لآل يعقوب جميعاً إذا مُنِع الطعام في المستقبل، خاصة مع هذا الجدب والقحط الشديد، إضافة إلى المفاجأة السعيدة برد بضاعتهم إليهم، ودلالة ذلك على صدقهم فيما أخبروا به أباهم عن كرم العزيز وحسن ضيافته لهم،...

كل ذلك جعل يعقوب - عليه السلام -، يتحوّل عن رفضه ويأذن لهم باصطحاب بنيامين معهم إلى مصر في رحلتهم الثانية، ولكن بشرط أخذ الموثق عليهم فيما يتعلق بسلامته، والموثق أو الميثاق: عقد مؤكد بيمين وعهد.

«قال» أي يعقوب - عليه السلام - لأبنائه العشرة، «لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ» أي بنيامين شقيق يوسف - عليه السلام.

«حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ» أي حتى تعطوني ما أتوثّق به من جهته، فالموثق مصدر ميمي بمعنى المفعول، وأراد، عليه السلام - أن يحلفوا بالله تعالى، وإنما جعل الحلف بالله تعالى موْثقا منه، لأنه مما تؤكد العهود به وتشدّد، وقد أذن الله تعالى بذلك، فهو إذْنٌ منه تعالى جل شأنه

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٢١.



«لتأتنّني بِهِ» جواب قَسَم مضمر، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله وتقولوا: والله لنأتينّك[1].

«إلاّ أن يُحَاطَ بِكُمْ» لفظ عام لجميع وجوه الغلبة، والمعنى: تعمكم الغلبة من جميع الجهات، حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلّص[2] عن مجاهد قال: «إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» إلا أن تهلكوا جميعاً، وعن قتادة قال: «إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقو ذلك، وعن مجاهد أيضاً مثله، وعن ابن إسحاق: «إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» إلا أن يصيبكم أمر يذهب بكم جميعاً فيكون ذلك عذراً لكم عندي[3]...

والاستثناء بقوله: «إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» هو استثناء مفرّغ من أعم الأحوال، والتقدير: لتأتنَّني به على كل حال إلا حالَ الإحاطة بكم، أو من أعَمّ العِلَل على أن قوله: «لتأتنني به في تأويل النّفْي، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت، أي ما أطلب إلا فعْلَك[4].

فقوله: «إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم، حيث سدّ عليهم كل فرص الإيذاء، سواء كانت من ذات أنفسهم أوبإيحاء منهم لسواهم، والمعنى: لتقسمن قسما يربطكم أن تردوا عليّ ولدي، إلا إذا غلِبْتم على أمركم غُلْباً لا حيلة لكم فيه، ولا تُجْدِي مدافعتكم عنه[5].

«فلمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ» أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب - عليه السلام - «قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» أي على ما قلناه في أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبيْن،... وإيثار صيغة الاستقبال «ما نقول» لاستحضار صورته المؤدّي إلى تثبّتهم ومحافظتهم على تذكّره ومراقبته، و«وكيل» مطلع ترقيب، يريد عَرْضَ ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم[6].

---

(١) روح المعاني/ ٧/ ١٤. (٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٢.
(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٢-١٣. (٤) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٩٠.
(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠١٧، وانظر: يوسف بن يعقوب/ ٢٠٥.
(٦) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٩٢.



دلالة أخذ يعقوب - عليه السلام - هذا الميثاق على أبنائه:

إن هذا الميثاق الذي أخذه يعقوب – عليه السلام – على أبنائه العشرة لمصلحة ابنه بنيامين، يبيّن شدة حب يعقوب – عليه السلام – لابنَيْه يوسف وبنيامين، وإن ما فعله الإخوة مع يوسف – عليه السلام – يؤكد لهم عذر أبيهم في تشديده معهم حتى لا يفرطوا في بنيامين، وعسى أن ينبّههم هذا الميثاق إلى شدة ارتباطهم بأخيهم وأبيهم بدلاً من عدم المبالاة أو التفريط في حقّه، وهو إيقاظ لضمائرهم حتى تطفو عقدة الأخ التي ابتلوا بها وتظهر على السطح الواعي، ليتسنّى لهم التخلص منها بعد ذلك، وهذا هو ما كان يخطط له يوسف – عليه السلام – ويكمّله يعقوب – عليه السلام –(١).

ومن الغريب أنه كما توقع يعقوب – عليه السلام – سُوءاً يحل بيوسف – عليه السلام – حين طلبوا أخذه معهم فقال: «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ»(٢)، توقّع أيضاً هنا أن سوءاً سيحل بابنه الآخر، إذ يقول لبنيه: «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ» وقد أحيط بهم فعلاً ووقع المحذور في أخيهم (بنيامين) – كما سنرى بعد – فقد صَدَّقَت هذه القصة المثل السائر وهو قولهم: البلاء موكّل بالنطق(٣).

هل في أخذ يعقوب - عليه السلام - الميثاق على أبنائه ينافي إيمانه بالقضاء والقدر؟

إن أخذ يعقوب – عليه السلام – الميثاق على أبنائه ليس فيه البتّة منافاة لإيمانه بالقضاء والقدر والتوكل على الله تعالى، بدليل أنه أخذ الموثق من أبنائه بألا يفعلوا من جانبهم أي ضرر يقدرون على عدم فعله، أما ما لا يَدَلهم فيه فقد جاء على لسانه قبل أخذ الميثاق عليهم قوله: «فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»، وجاء بعده على لسانه: «اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»، بل إن ما فعله يعقوب – عليه السلام – من أخذ

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) يوسف/ ١٣.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٢، وانظر: القصص القرآني الكريم منطوقه ومفهومه/ ٤٦٣.

رفع المسهم

الموثق على أبنائه العشرة، الذين فعلوا بيوسف - عليه السلام - ما فعلوا، يعتبر درساً نافعاً لكل ذي بصيرة نيِّرة، والمؤمن لا يُلْدَغ من جحر مرّتين، وإن يعقوب - عليه السلام - قد أخذ الموثق من أبنائه وفلذات كبده، فمن باب أولى أن يؤخذ الموثق مِمّن سواهم ممن قد يُخْشَى أذاهم(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

قال لهم أبوهم: لن أرسل بنيامين معكم حتى تؤتون عهداً مقبولاً من الله تعالى، وأن تحلفوا لي لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فتهلكوا جميعاً، أو تمنعوا من ذلك، فلما آتوه موثقهم قال: الله ما نقول وكيل، أي شاهد وكفى به شهيداً.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تشدد يعقوب - عليه السلام - هذه المرة مع أولاده أكثر مما حدث عندما أذن لهم باصطحاب يوسف - عليه السلام -.

٢ - جواز أخذ العهد المؤكد في الأمور الهامة، حتى ولو كان ذلك على أقرب الناس، كالأبناء مثلاً.

٣ - في الآية دليل على جواز الكفالة (الحمالة) والأصح أنها تكون من المال، ولا تكون في حَدّ أو تعْزير، كما هو قول مالك - رحمه الله - وأكثر العلماء.

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٢٠٥.



«الآية السابعة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«وَمَا أُغْنِي» الإغناء هنا مشتقّ من الغَنَاء، بفتح الغيْن وبالمد، وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهم، فمعنى «وَمَا أغْنَى» أي ما أدفع عنكم بوصيتي وتدبيري من قضاء الله شيئاً.

رابعاً - الإعراب:

«وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ» (وادخلوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(من أبواب) متعلقان بـ(ادخلوا) و(متفرقة) صفة،

«وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ» «وَمَا أُغْنِي» (ما) نافية، و(أغني) فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره (أنا) و(عنكم) متعلقان بـ(أغني) و(من الله) حال، و(من) حرف جر زائد، و(شيء) مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به.

«إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (إن) نافية، فهي بمعنى (ما) و(الحكم) مبتدأ، و(إلا) أداة حصر، و(لله) خبر، و(عليه) جار ومجرور متعلقان بـ(توكلت)، و(عليه) عطف جملة على جملة، و(فليتوكل) اللام لام الأمر، و(يتوكل) فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و(المتوكلون) فاعل[١].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٢٠-٢١.



سادساً - التفسير والبيان:

(وصية يعقوب - عليه السلام - لأبنائه)

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

وجه المناسبة:

لما سمح لهم بخروجه معهم، أتبع ذلك الخبر عن أمره بالاحتياط من المصائب، لأنهم أحد عشر رجلاً إخوة أهل جمال وبسطة، وكانوا قد شهروا عند المصريّين بعض الشهرة، بسبب ما دار بينهم وبين يوسف - عليه السلام - من الكلام في المرة الأولى، فكانوا مظنّة لأن ترمقهم الأبصار ويشار إليهم بالأصابع، فيصابوا بالعيْن، ولم يوصهم في المرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين، مع شغل الناس بما هم فيه من القحط، فقال حكاية عنه(١).

«وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ»

«وَقَالَ يَا بَنِيَّ» عطف على جملة «قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»، وإعادة فعْل «قال» للإشارة إلى اختلاف زمن القولَيْن، وإن كانا معاً مُسَبَّبيْن على إيتاء موثقهم، لأنه اطمئنان لرعايتهم وابنه، وظهرت له المصلحة في سفرهم للإمْتَار، فقوله: «يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ» صادر في وقت إزْمَاعِهم الرحيل(٢)...

إن يعقوب - عليه السلام - بعد أن أخذ الميثاق المؤكد على أبنائه وأذن لهم في الرحيل واصطحاب بنيامين معهم إلى مصر، واصلوا الاستعداد والتجهيز، حتى إذا أتموا أمرهم وأوشكت القافلة على التحرك، وقفوا جميعاً أمام أبيهم يودعونه ويستأذنونه في الرحيل، فأخذ - عليه السلام - يقدم لهم النصح وينادي عليهم بنداء الحنان الفائق والحب العظيم.



---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٧٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٢٠.

«يا بَنِيّ» مخاطباً كل أبنائه دون أن يخص واحداً منهم، ويردف ذلك بالنَّهْي فالأمر «لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ»(١) ومفهوم هذه الوصية على إطلاقه، يربط ما بين دخولهم إلى أي مكان وما بين الأبواب المتفرقة، يعني عدم الدخول من مدخل واحد أيّاً كان، وينطبق ذلك على جميع الأمكنة في مصر إلى أن يخرجوا منها، وهذا المفهوم مبني على تمام الاحتياط(٢)...

الباب والسِّكّة: ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة، اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة(٣).

قال الإمام الماوردي: «وادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ» قاله الجمهور، الثاني: من طريق واحد من طرقها «وادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ» أي طُرُق، قاله السدي(٤) وما قال به الجمهور هو المناسب لظاهر النص.

الحكمة من نهيه - عليه السلام - أبناءه من الدخول من باب واحد:

لقد نهاهم - عليه السلام - عن ذلك حذراً من إصابة العين،... عن ابن عباس في قوله: «وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ» قال: رهب يعقوب - عليه السلام - عليهم العين.، وبمثل ذلك قال قتادة، ومجاهد، والضحاك، ومحمد بن كعب، والسّدي، وابن إسحاق(٥).

دلالة الآية الكريمة على التحرز من العين:

وبناء على ما سبق من أهل التأويل في بيان سبب هذا النهي، ففي الآية الكريمة دليل على التحرّز من العين،

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٠٧.

(٢) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٣٨١.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢١.

(٤) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٧.

(٥) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٣-١٤، وانظر: الدر المنثور/ ٤/ ٤٩.



«الإصابة بالعين»

روي مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «العيْنُ حقّ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقتْه العين»(١) وفي صحيحه أيضاً عن أنس أن النبي - ﷺ - رَخّص في الرُّقْيَةِ من الحُمَةِ والعين والنّملة»(٢)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «العين حق»(٣)...

والعين عينان: عين إنسيّة، وعين جِنّيّة، فقد صح عن أم سلمة أن النبي - ﷺ - رآى في بيتها جارية في وجهها سعفة، فقال: استرقوا لها، فإن بها النظرة(٤) ومعنى (سعفة) أي نظرة من الجن.

ومما ورد في علاج المصاب بالعين ما يلي:

١ - أن يتوضأ العائن ثم يغتسل منه العين.

ففي سنن أبي داود عن عائشة قالت: كان يُؤْمَرُ العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين(٥).

٢ - الرقي:

فقد ذكر الترمذي من حديث سفيان بن عُيَيْنَة عن عمر وبن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزُّرَقي أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول اللّه، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ فقال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»(٦)، ومن ذلك رقية جبريل - عليه السلام - للنبي ﷺ الذي رواها مسلم في صحيحه «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»(٧).

---

(١) صحيح مسلم (٢١٨٨). (٢) صحيح مسلم (٢١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري/ ١٠ / ١٧٣، ومسلم (٢١٨٧).

(٤) أخرجه البخاري/ ١٠ / ١٧١، ومسلم ٢١٩٧).

(٥) أخرجه أبو داود في الطب (٣٨٨٠) ورجاله ثقات وإسناده صحيح

(٦) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وسنده جيد.

(٧) أخرجه مسلم (٢١٨٥).



٣ - التعوّذ:

فقد روي أبو داود في سننه عن سهل بن حنيفٍ قال: مَرَرْنا بسيل فدخلت فاغتسلت فيه، فخرجت محموما، فَنُمِيَ ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «مروا أبا ثابت يتعوّذ»[١]...

ومن التعوذات والرقي، الإكثار من قراءة المعوِّذَتَيْن، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبويّة:-

نحو «أعوذ بكلمات الله التّامّات من شر ما خلق»، ونحو «أعوذ بكلمات الله التّامّة من كل شيطان وهَامَّة، ومن كل عيْن لامَّة»، ونحو «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما خلق وذَرأَ وبَرَأ، ومن شرّ ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما يلج في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فِتَنِ الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٢].

وكان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسنيْن - رضي الله عنهما - بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامّة، ومن كل عيْن لامَّة» وكان ﷺ يقول: «كان أبوكما إبراهيم - عليه السلام - يُعَوِّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهما السلام»[٣].

٤ - كتابة الآيات القرآنية - لعلها آيات الشفاء الست - ثم يشربها المعين، ويجوز أن تكون غيرها، مثل سورة الفاتحة، وآية الكرسي - فقد رآى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات القرآنية ثم يشربها، قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ويسقيه المريض، ومثله عن أبي قِلابة، ويذكر عن ابن عباس أنه أمر أن يُكْتَبَ لامرأةٍ

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٨٨٨) وفي سنده رَبَابُ جدة عثمان بن حكيم، لم يوثقها غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

(٢) زاد المعاد/ ٤ / ١٦٢-١٦٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.



تَعَسَّرَ عليها ولادها أثر من القرآن ثم يُغْسَل وتُسْقَى، وقال أيوب: رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء وسقاه رجلاً كان به وجع(١).

وآيات الشفاء الست هي:

الأولى: «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ»(٢)

الثانية: «وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ»(٣)

الثالثة: «فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ»(٤)

الرابعة: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»(٥)

الخامسة: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»(٦)

السادسة: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء»(٧)

(ومن علاج ذلك أيضاً والاحتراز منه قبل وقووعه)

٥ - ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردّها عنه.

فقد ذكر البغوي في كتاب (شرح السنّة) أن عثمان رضي الله عنه رآى صبيّاً صبحاً فقال: دَسِّمُوا نُونَتَه لئلا تصيبه العين. ومعنى (دسموا نونته) أي سوّدوا نونته، والنُّونة: النّقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير(٨).

ومن ذلك ما ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم وعلى رأسه عمامة دسماء - أي سوداء(٩).

ومن هذا أخذ الشاعر قوله:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى *** عيْبٍ يُرقّيه مِنَ العَيْنِ

٦ - ومما ورد من الرقي التي ترد العين قراءة هذا الدعاء المروي عن أبي عبد الله الساجي على العائن؛

---

(١) زاد المعاد/ ٤/ ١٧١. (٢) التوبة/ ١٤. (٣) يونس/ ٥٧.

(٤) النحل/ ٦٩. (٥) الإسراء/ ٨٢. (٦) الشعراء/ ٨٠. (٧) فصّلت/ ٤٤.

(٨) شرح السنة/ ١٣/ ١١٦. (٩) أخرجه مسلم (١٣٥٨) وغيره.



فقد ذُكِر عن أبي عبد الله الساجي أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزْو على ناقة فارهة، وكان في الرّفقة رجل عائن، قَلَّمَا نظر إلى شيء إلا أتْلَفه، فقيل لأبي عبد الله الساجي: احفظ ناقَتَكَ من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله، فتحَيَّنَ غيبة أبي عبد الله فأخبر أن العائن قد عانها، وهي كما ترى، فقال: دُلُّوني عليه، فَدُلَّ فوقف عليه وقال: بسم الله، حَبْسٌ حَابِسٌ وحَجَرٌ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدتُ عَيْنَ العَائن عليه وعلى أحب الناس إليه، ثم قرأ: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ»[١] فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا العائن، وقامت النّاقة لا بأس بها[٢].

قال ابن القيم: وَمَنْ جَرَّبَ هذه الدعوات والعُوَذ عرف مقدار منفعتها وشدّة الحاجة إليها، وهي تمنع وصول أثر العائن، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوة نفسه، واستعداده، وقوة توكّله وثبات قلبه، فإنها سلاح، والسلاح بضاربه[٣].

قال العلماء: إذا عُرِف العائن أُمِرَ بالاغتسال للمعين، كما في حديث أبي أمامة، وأما إذا لم يعرف العائن فإنه يُسْتَرْقَى من العَيْن.

كيف يدفع العائن شَرَّ عينه عن الآخرين؟

(أ) بالتّبْريك: فإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين، فليدْفع شرها بقوله: اللهم بارك عليه، كما قال النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حُنَيف: «ألاَ بَرَّكت» أي: قلت: اللهم بارك عليه.

(ب) بقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

قال الله تعالى في سورة الكهف: «وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ»[٤]، روي هشام ابن عروة عن أبيه أنه كان إذا رآى شيئاً يعجبه، أو دخل حائطاً من حيطانه قال «مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ».

---

(١) الملك/ ٣-٤. (٢) زاد المعاد/ ٤/ ١٧٤.

(٣) المرجع السابق/ ٤/ ١٧٠. (٤) الكهف/ ٣٩.



حكم الشرع فيمن عُرف عنه الإصابة بالعين:

قال الإمام القرطبي: من عُرِف بالإصابة بالعين مُنِع من مداخلة الناس دفْعا لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكُفّ أذاه عن الناس، وقد قيل: إنه ينفي، وحديث مالك عن العائن يردّ هذه الأقوال، فإنه - عليه الصلاة والسلام - لم يأمر في عامر الذي عان سهيْل بن حُنَيف بحبْس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يَقْدَحُ فيه ولا يَفْسُقُ به، ومن قال: يحْبس ويؤمر بلزوم بيته، فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم(١).

الرد على من أنكروا إصابة العين:

إن القول بأن العين حقٌّ وأنها تصيب المعين بالضرر، وقد تقتله أيضاً، هو قول علماء الأمة ومذهب أهل السنة، كما دل على ذلك القرآن والسنة، وقد أنكر ذلك طوائف من المبتدعة، وهم محْجُوجونَ بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود، فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جَمَل ظهير أدخلته القدْر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى، كما قال جل شأنه: «وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ»(٢)، ومما قاله الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي في ذلك قوله:

وقد اعترض على ذلك - الإصابة بالعين - واعتقدوه من أكاذيب النَّقَلَة، وهم محْجُوجون بما سطروا في كتبهم، مِنْ أنَّ الكوْن والفساد يجري على حكم الطبائع الأربع، فإذا شذّ شيء قالوا: هذه خاصة خرجت من مجري الطبيعة لا يُعْرَف لها سبب، وجمعوا من ذلك مالا يُحْصىٰ كثرة، فهذا الذي نقله الرواة عن صاحب الشريعة خواص شرعية بِحِكَمٍ إلهيّة، يشهد لصدقها وُجُودُها كما وصِفتْ، فإنا نرى العائن إذا برَّك امتنع ضرره، وإن اغتسل شُفِيَ معينه، وهذا بالغ في فنّه(٤).

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٢٧ (٢) البقرة/ ١٠٢.
(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٢٦-٢٢٧. (٤) أحكام القرآن (ابن العربي) ٦٢.



وقد بسط الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) هذا البحث بما يشفي ويكفي، تحت عنوان: (بحث هديه ﷺ في علاج العين) خلاصته ما يأتي:-

أولاً - لا ينكر ذلك إلا أصحاب الأوهام والجهل والبعد عن معرفة الأرواح والنفوس.

ثانياً - إن عقلاء الأمم على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين.

ثالثاً - إن الله تعالى خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا ينكر عاقل تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس، والوجه يَحْمَرُّ حُمْرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحيي منه، ويَصْفَرُّ صُفْرَة شديدة عند نظر من يخافه إليه.

رابعاً - إن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيّف بكيفيّة خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصّيّة، سواء كان ذلك التأثير بالاتصال أو المقابلة، أو بالرؤية أو بتوجُّه الروح نحو من يؤثّر فيه، وقد يكون العائن أعمى فيوصف له الشيء فتؤثّر نفسه فيه وإن لم يَرَه، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يُعينُ بغير إرادته بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرِفَ بذلك حبسه الإمام وأجري له ما ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعاً(١) وهذا من باب الاحتياط، وإلا فالحديث الصحيح يعارضه، فلم يفعل الرسول ﷺ ذلك بعامر الذي عان سهيل، كما سبق.

هل كان النبي يعقوب - عليه السلام - يخشى على أبنائه الأحد عشر من العين فقط؟

إذا كان الدافع الأول لوصية يعقوب - عليه السلام - لأبنائه الأحد عشر بألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة هو الخوف عليهم من الإصابة بالعيْن، كما ذكر ذلك أهل السلف وتبعهم أهل الخلف، فإن هذا لا يمنع أن يدخل تحت بند هذه

---

(١) زاد المعاد/ ٤/ ١٦٥-١٦٨.



الوصية كل ضرر آخر يترتب على دخولهم من باب واحد، فقد يَلفِتُ هذا الدخول المنهي عنه نظر من يقومون بالأمن والحراسة على الأبواب، فيوقفونهم ويجرون معهم التحقيقات بسبب هذا المظهر الجماعي اللافت للانتباه، مما يترتب عليه من مشاكل وتعقيدات هم في غني عنها، أو يشد هذا الدخول الجماعي انتباه أهل السّوء من تجار أو قطاع طرق، فيصيبهم من ذلك الضرر، خاصة وأن الوصية من يعقوب - عليه السلام - لهم، لم تحدد الشيء المخوف منه، والذي كانت الوصية من أجله....

يقول الإمام ابن حزم في الملل: كان أمر يعقوب - عليه السلام - بدخولهم من أبواب متفرقة إشفاقاً عليهم، إما من إصابة العين، وإما من تعرض عدو، أو مستريب بإجماعهم، أو ببعض ما يخوّفه عليهم[1] ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

لعلّ أظهر ما في هذه النصيحة من حكمة، هي ألا يلفتوا الأنظار إليهم بهذا الكوكب المهيب، الذي ينتظم أحد عشر أخاً، أو كوكباً، في سَمْتٍ واحد من الشباب والبهاء والجمال، فذلك من شأنه أن يدير الرؤوس إليهم، فتكثر الأحاديث عنهم، وتختلف الآراء فيهم، وليس ببعيد أن يكاد لهم من الرجال أو النساء أو من تجار مثلهم، أو من حاشية العزيز نفسه[2]...

أما أبناء يعقوب - عليه السلام - فقد فهموا من هذه الوصية أن أباهم يقصد منها دفع شر يتوقعه، أو تجنب ضرر يخشى عليهم منه[3].

ما هي الأسباب التي دفعت يعقوب - عليه السلام - لوصية أبنائه هذه المرَّة دون الأولى؟

من المعلوم أن إخوة يوسف - عليه السلام - العشرة قد ذهبوا المرة الأولى إلى مصر للميرة ومع ذلك لم نسمع عن نبي الله يعقوب - عليه السلام - أنه أوصاهم بشيء في تلك الرحلة، فما هو الدافع وراء وصيته لهم هذه المرة؟

---

(١) تفسير القاسمي/ ٤ / ٣٨١.

(٢) القصص القرآني الكريم منطوقه ومفهومه/ ٤٦٤.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٣٨١.



وهذه الأسباب تتلخص في الآتي:

١ - إن هذه السفرة الثانية لهم تعتبر عوْدة إلى نفس المكان الذي ذهبُوا إليه من قبل وأصبح هناك في مدينة العزيز - العاصمة - من يعرفهم وخاصة الذين كانوا يقومون على خدمتهم طوال إقامتهم في ضيافة العزيز.

٢ - قصر المدَّة بين السفرة الأولى لهم والثانية، وفي هذا ما يُسَهِّل تذكّرهم لمن رآهم في المرة الأولى.

٣ - علم المقربين من يوسف أن عودة هؤلاء الإخوة في المرة الثانية مشروطة بإحضار أخيهم الحادي عشر، فكأنَّما هُم في انتظار رؤيتهم مع الأخ الحادي عشر.

٤ - ذهاب الأبناء جميعاً إلى مصر وبقاء يعقوب - عليه السلام - وحيداً مع باقي أهله مما حرَّك في نفسه الشفقة والخوف عليهم فأوصاهم.

٥ - اصطحاب الأخوة معهم هذه المرة أحب الأبناء إلى يعقوب - عليه السلام - بعد يوسف، وقد كان يتعزي به عن فراق يوسف، قبل ذهابه معهم.

٦ - إن وصية يعقوب - عليه السلام - كانت امتثالاً للعلم الذي علَّمه الله إياه وأوحاه إليه.

يقول الإمام الزمخشري معلّلا لوصية يعقوب - عليه السلام - في السَّفرة الثانية: وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة، التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال: هؤلاء أضياف العزيز... انظروا إليهم... ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرهم وقَرّبهم وفضلهم على الوافدين إليه..

فخاف يعقوب - عليه السلام - لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانُوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوءهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس[١].

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٢-٣٣٣.

رفع المستهمم

ولما خاف – عليه السلام – أن يسبق من أمره هذا إلى بعض الأوهام أن الحَذَر يغني من القدر، نفي ذلك مبيناً أنه لم يقصد غير تعاطي الأسباب على ما أمر الله، وأن الأمر بعد ذلك إليه، إن شاء سبّب عن الأسباب مسبّباتها، وإن شاء أبطل تلك الأسباب وأقام أسباباً تضادّها ويتأثر عنها المحذور فقال:

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(١) وهذه الجملة معترضة في آخر الكلام(٢) ومعناها: وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذي قضاه عليكم من شيء صغير ولا كبير، لأن قضاءه تعالى نافذ في خلقه(٣)، أي إن كان الله تعالى قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن، والحذر لا ينفع من القَدَر(٤).

قال الإمام الفخر الرازي: إعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم، ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدّره الله تعالى، وأن الحذر لا يغني من القَدَر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان، ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازماً بأنه لا يصل إليه إلا ما قدّره الله تعالى، ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله تعالى، فقوله – عليه السلام –: ﴿لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب، بل إلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى(٥).

ومن هذا يتضح أنه – عليه السلام – لم يرد بقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٧٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٢١.

(٣) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ١٤.

(٤) تفسير البغوي / ٤ / ٢٥٨.

(٥) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٧٨.

رفع المسيّهم

شَيْءٍ» إلغاء الحَذَر بالمرة، كيف وقد قال سبحانه: «وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ»(١) وقال عز ذكره: «وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»(٢)، بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة، بل هو تدبير وتشبّثٌ بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذنه تعالى، وأنّ ذلك ليس بِمُدَافَعَةٍ للقَدَر، بل هو استعانة بالله تعالى وَهَرَبٌ منه إليه(٣) فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً لا يُخَالَفُ ولا يُمَانَع(٤) قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله تعالى أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم(٥)....

إنه - عليه السلام - يعلمهم الاعتماد على توفيق الله تعالى ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدُّبا مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطّلع على مراد الله تعالى في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها(٦)...

إنه - عليه السلام - يبيّن لأبنائه في وضوح تام، بأن نصيحته لا تعدو أن تكون نوعاً من الحيطة والحذر، الذي يحمل بكل إنسان أن يقوم به، وليس معناها أنه وإن كان نبيا لله تعالى، يمكن أن يكون لها شيء من أثر فيما قدره أحكم الحاكمين،...

إنه - عليه السلام - يشعرهم بأنه ليس هناك تعارض أبداً بين الحيْطة والحذر من ناحية، ونفاذ أمر الله تعالى من ناحية أخرى، وحينما يصرح - عليه السلام - لأبنائه وفلذات كبده بأنه وهو نبي الله تعالى لا يغني عنهم من الله شيئاً، فمن باب أولى أن يكون ذلك موقفه من غير أبنائه(٧)...

إنه - عليه السلام - يوضح لهم أنه على كل واحد من الناس أن يفكّر ويفكر ويأخذ بالأسباب التي يراها جَالِبَةً خيراً، أو دافعة شرّاً، هذا هو المطلوب من كل ذي عقل، ثم لا يمنع هذا من أن تجري الأمور على خلاف ما فكر المرء وقدّر، فيقع الشر مما قدَّر أنه

---

(١) النساء/ ١٠٢. (٢) البقرة/ ١٩٥.
(٣) روح المعاني/ ٧/ ١٩. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٤.
(٥) فتح البيان/ ٦/ ٣٦٩.
(٦) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢١.
(٧) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢١٠.



خير، ويَجِئ مما حَسِبَ أنه شر(١) كما قال تعالى: «وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ»(٢)....

وبعد أن نفي يعقوب - عليه السلام - عن نفسه أن يغني عنهم شيئاً - يعني بوصلته(٣) علل ذلك بقوله:

«إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ»(٤) فهذه الجملة في موضع التعليل لمضمون «وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ»، والحكم هنا بمعنى التصرف والتقدير، ومعنى الحصر: «أنه لا يتم إلا ما أراده الله تعالى(٥) فما القضاء والحكم إلا لله تعالى دون ما سواه من الأشياء، فإنه يحكم في خلقه بما يشاء، فينفذ فيهم حكمه ويقضي فيهم ولا يُرَدّ قضاؤه(٦) فله الحكم المطلق، لا يشاركه أحد ولا يُمَانِعُه شيء(٧) وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القَدَرِيّ القهريّ الذي لا مفر منه ولا انفكاك، وقضاؤه الإلهي الذي يجري به قَدَرُه، فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً، وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشرّه،...

وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضا منهم واختيار، وهو الحكم الشرعيّ المتمثل في الأوامر والنواهي، وهذا كذلك لا يكون إلا لله، شأنه شأن حكمه القدري باختلاف واحد هو؛ أن الناس ينفّذونه مختارين، أولا ينفذونه، فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه في حياتهم الدنيا وفي جزائهم الأخروي، ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذونه فعلاً راضين(٨)...

وبناء على ما تقدم فإنه يجب على العبد أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السَّعْي البليغ والجد الجهيد، فإنه يعلم أن كل ما في الوجود فلا بد أن يكون بقضاء الله

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٦٤.

(٢) البقرة/ ٢١٦. (٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٣.

(٤) نظم الدرر/ ٤/ ٧٢. (٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢٣.

(٦) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٤. (٧) روح المعاني/ ٧/ ١٩.

(٨) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠١٧-٢٠١٨.



تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته، وقوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ» تأكيد لهذا المعنى[1]...

ولما قصر عليه الأمر كله عليه سبحانه، وجب رد كل أمر إليه وقصر النظر عليه فقال منبّها على ذلك:

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ»[2]

وهذه الجملة في موضع البيان لجملة «وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ» ليبيّن لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله تعالى هو معنى التوكل الذي يضلّ في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وإنكاراً، ولذلك أتى بجملة «وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أمراً لهم ولغيرهم، على معنى أنه واجب الحاضرين والغائبين.

وأن مقامه لا يختص بالصديقين، بل هو واجب كل مؤمن كامل الإيمان، لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهلية.[3]

وقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» يقول: على الله توكلت فوثقت به فيكم وفي حفظكم عليه، حتى يردكم إلى وأنتم سالمون معافون، لا على دخولكم مصر إذا دخلتموها من أبواب متفرقة.

وقوله: «وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ»

يقول: وإلى الله فلْيفوضْ أمورهم المفوضون[4]، وهم الثابتون في باب التوكل، إنه - عليه السلام - قد توثق في هذه الوصيَّة وأشهد الله تعالى ووَصَّى بنيه، وأخْبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع تسبب وهو توكل جميع المؤمنين[5].

ويَدْخُل بنُوه - عليه السلام - في عموم الأمر «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» دخُولاً أوّلِيّاً،

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٧٩. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٧٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢٣-٢٤.

(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٤. (٥) تفسير ابن عطيه/ ٩/ ٣٣٦.



وفي هذا الأسلوب ما لا يخفي من حُسْن هِدَايتهم وإرشادهم إلى التوكّل فيما هم بصدده على الله تعالى شأنه، غير معتمدين على ما وصّاهم به من تدبير(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

بعدما سلم يعقوب - عليه السلام - (بنيامين) إلى إخوته العشرة، خاف عليهم أن يرى الناس كثرتهم فيحسدهم البعض فتصيبهم العين، أو يكون دخولهم جميعاً من باب واحد فيه لفت لنظر الناس إليهم فيصيبهم ضرر أو أذى، فقال لهم: يا بَنيّ لا تدخلوا مصر من باب واحد، بل تفرقوا وكونوا جماعات، وليدخل كل جماعة من باب غير باب الآخرين، «وَمَا أُغْنِي عَنكُم» بهذا التّدبير من أمر الله وقدره شيئاً، وليس الحكم والقضاء إلا لله تعالى، لا يرد حكمه شيء من التدابير والأخذ بالأسباب، عليه توكلت وحده لا غيره من الأسباب والخطط والتدابير، وعليه وحده فليتوكل المتوكلون، فإن بالتوكل، يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - استحباب الوصية النافعة عند وداع المسافرين، وكون هذه الوصية مما يتصل وحال سفرهم وما يبتغون، كما فعل يعقوب - عليه السلام - مع بنيه هذه المرة.

٢ - على المؤمن أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، فإن الدين النصيحة والمسلم أخو المسلم.

٣ - على المؤمن أن يأخذ بالأسباب مع الاعتماد الكلّي على الله تعالى والثّقة التامة فيه وتفويض الأمر كله إليه.

٤ - الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى، بل هو قرينُه وحقيقته ودليله.

٥ - استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الدافعة لها بعد نزولها

---

(٤) روح المعاني / ٧ / ٢٠.

غير ممنوع، بل جائز ومشروع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، وذلك لأمر يعقوب بنيه ألا يدخلوا مصر من باب واحد ويدخلوها من أبواب متفرقة.

٦ - الحذر والأخذ بالأسباب لا يرد قضاءً ولا قدراً، فالحكم لله وحده.

٧ - الله تعالى برحمته ومنّته لا يقضي لعبْده المؤمن إلا بخير، وإن كان في الظاهر على خلاف ما يريد العبدُ ويرجو، فنهايته خير بإذنه تعالى، لأن المؤمن أمره كله خير، كما قال ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(١).

٨ - وجوب التوكل على الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).



«الآية الثامنة والستون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم» (لمّا) ظرفية حينيّة أو رابطة، و(من) حرف جر، و(حيث) ظرف مبني على الضم في محل جر بـ(من) والجار والمجرور متعلقان بـ(دخلوا) وجملة (أمرهم أبوهم) مضافة للظرف.

«مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ» الجملة جواب (لما) وقيل: الجواب هو «آوى إليه أخاه» قال أبو البقاء: وهي جواب (لما) الأولى والثانية[1] و(ما) نافية، و(كان) فعل ماض ناقص، واسمها ضمير التفرق المدلول عليه بالكلام السابق، و(عنهم) متعلقان بـ(يغني) و(من الله) حال، و(من) حرف جر زائد، و(شيء) مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به.

«إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا» استثناء منقطع على معنى، ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي حَدَبُه عليهم، و(في نفس) صفة، و(يعقوب) مضاف إليه، وجملة (قضاها) صفة لحاجة.

«وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» الواو للحال، وإنّ واسمها

---

(١) التبيان في إعراب القرآن (للعكبري) ٢ / ٧٣٨.



واللام المزحلقة، و(ذو علم) خبر إن، وجملة (علّمناه) صلة، و(لكنّ) الواو حالية أيضاً، ولكنّ واسمها، وجملة (لا يعلمون) خبر[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٢٤-٢٥.

رفع المساهم

سادساً - التفسير والبيان:

(دخول الإخوة مصر من حيث أمرهم أبوهم)

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

وجه المناسبة:

ولما وصاهم أبوهم - عليه السلام - في الآية السابقة بما وصاهم به، فكأنه قيل: فهل نفّذوا وصية أبيهم؟ فقيل: نعم، لقوله تعالى:

«وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم»

وانطلق الركب الكريم، والذي يضم كل أبناء يعقوب - عليه السلام - الأحد عشر الباقين بعد يوسف - عليه السلام - انطلق متجهاً إلى مصر تصحبه دعوات الوالد النبي الرحيم، وتَظلِّله سحائب التوكل على الله الحي الذي لا يموت، ولعلَّ يعقوب - عليه السلام - قد عاوده التفكر والتدبر في أمر عزيز مصر العجيب، هذا الذي استقْبل أبناءه في مصر، ولأول مرة ودون سابق معرفة، بكل هذا الترحاب والتكريم حتى ردهم رَداً جميلاً ورَد معهم ثمن بضاعتهم الذي أخذه معهم إلى مصر، لا شك أن لهذا العزيز صلة أو معرفة على الأقل بآل يعقوب، وإلا لما فعل معهم هذا الفعل الطيب الكريم وفي وقت يشكو فيه الناس من شدّة القحط وسوء الجدب.

... أفيمكن أن يكون هذا هو يوسف الحبيب، ولم لا، وقد أخبر الأبناء أنه أكرمهم كرماً فوق كرم آل يعقوب لذويهم، ولم لا - وقد وعده الله في رؤياه تمام النعمة كما أتمَّها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق... ولعل ذلك يكون في مصر - العلم كله عند الله العليم الخبير.

وهذه الآية الكريمة تعقيبيّة على نصيحة يعقوب - عليه السلام - واستدْراكاته،



ولها علاقة وثيقة بيعقوب - عليه السلام - ، وهي تشير إلى أن الأبناء قاموا بتنفيذ نصيحة والدهم بحذافيرها ولم يخالفوا أمره ، وهي طاعة تدل على مابعدها ، وأن الإخوة سيحاولون جاهدين العمل وفق العهد الذي قطعوه على أنفسهم[1] ، ودلّت كلمة «حيث» على الجهة أي لما دخلوا من الجهات التي أمرهم أبوهم بالدخول منها ، فالجملة التي تضاف إليها (حيث) هي التي تبين المراد من الجهة[2] ، فقوله : «وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم» أي من الأبواب المتفرقة من البلد - مصر - قيل : كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها ، وإنما اكتفي بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه[3] وقد أغنت جملة «وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم» عن جمل كثيرة ، وهي أنهم ارتحلوا ، ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم سلموا مما كان يخافه عليهم - ولم يحدث لهم أي سوء - فالكلام إيجاز[4] ثم بين الله تعالى أنه لو قدّر عليهم سوءا لما نفعتهم نصيحة والدهم وعملهم بها فقال :

«مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ»

وهذه الجملة جواب (لمّا) ، وعن معناها يقول ابن عباس : أي ذلك التفرّق - في الدخول - ماكان يرد قضاء الله تعالى ولا أمراً قدره الله[5] لأن الحذر لا يدفع القدر[6] . . .

قال المفسرون : لما قال يعقوب - عليه السلام - : «وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ» صدّقه الله تعالى في ذلك فقال : «مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ»[7] ثم يجئ هذا الاستثناء على الجملة السابقة في قوله :

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢١١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٢٤ .
(٣) روح المعاني / ٧ / ٢٠ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٢٤ .
(٥) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٨٠ .
(٦) فتح القدير / ٣ / ٤٣ .
(٧) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٧٩ .

رفع المسيّ هما

«إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا»

وهذا الاستثناء منقطع، لأن الحاجة التي في نفس يعقوب - عليه السلام - ليست بعضاً من الشيء المنفيّ إغناؤه عنهم من الله تعالى(١).

فالمعنى: ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به(٢) وروي عن مجاهد في تفسير الحاجة قال: خيفة العين على بنيه، وعن ابن اسحاق قال: ما تخوّف على بنيه من أعين الناس لهيبتهم وعدتهم(٣)...

وقد ذكر العلماء في تفسير الحاجة وجوها:

(أحدها) ما تقدم، وهو خوفه عليهم من إصابة العين.

(ثانيها) خوفه عليهم من حسد أهل مصر.

(ثالثها) خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر.

(رابعها) خوفه عليهم من ألا يرجعوا إليه.

وكل هذه الوجوه متقاربة(٤).

ثم يأتي هذا الثناء الجليل من الله تعالى على يعقوب - عليه السلام - في قوله تعالى:

«وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ»

وهذه الجملة معترضة بين جملة «وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم... الخ» وبين جملة «وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»، وفي تأكيدها بـ(أن) و(اللام)، وتنكير (عِلْم) وتعليله بالتعليم المسند إلى ضمير العظمة، من الدلالة على جلالة شأن يعقوب - عليه السلام - وعلوّ مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفي، والمعنى: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ» جليل «لِّمَا عَلَّمْنَاهُ» أي لتعليمنا إياه بالوحي ونَصْبِ الأدلة، حيث لم يعتقدْ أن الحذر يدفع القدر حتى يتبيّن الخلل في رأيه عند تخلّف الأثر، أو حيث بَتّ القول بأنه لا يغني

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٢٤.
(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٣.
(٣) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ١٤.
(٤) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٨٠.



عنهم من الله شيئاً، فكانت الحال كما قال، فاللام للتعليل، و(ما) مصدرية، والضمير المنصوب ليعقوب - عليه السلام- .

وهذا الاتجاه هو الأولى، ويؤيده قراءة الأعمش «مما علمناه»[١] وكذلك فإن قول قتادة وسفيان في معنى قوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ»، أنه عامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً[٢] يتعانق مع هذا الاتجاه، بل إن قولهما مترتب عليه حتماً، فإنه لتعليم يعقوب - عليه السلام - بالوحي كان عاملاً بما علم، قائماً بوصية أبنائه، معلما إياهم أنها لا تردّ قضاء، ولا تغني عنهم من الله من شيء، ومعلوم أن الأنبياء والمرسلين هم أول العاملين بما علمهم الله تعالى وأوحاه إليهم، كما قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»[٣].

وهناك اتجاهان آخران في معنى قوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ»، (أحدهما) أي: لمتيَقّن بوعدنا، وهو قول الضحاك، (الثاني) أي: وإنه حافظ لوصيتنا، وهو معنى قول الكلبي[٤] والاتجاه الأول هو الأولى، وقد اقتصر على ذكره الإمام أبو السعود وكثير غيره[٥].

ولما كان قد يُظَنُّ أن كل أحد يكون كذلك، أي يعلم ما علمه، نفي ذلك سبحانه بقوله:

«وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»

وهذا القول استدراك نشأ عن جملة «وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم... الخ» والمعنى: أن الله تعالى أمر يعقوب - عليه السلام - بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدَّره لهم، فإن مراد الله تعالى خفي

---

(١) انظر: روح المعاني/ ٧/ ٢١.
(٢) الدر المنثور/ ٤/ ٤٩، وتفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٥.
(٣) الأحزاب/ ٢١.
(٤) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٨٨.
(٥) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٢٩٣.



عن الناس، وقد أمر سبحانه بسلوك الأسباب المعتادة، وعَلِمَ يعقوب - عليه السلام - ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلّب الأمريْن فمهملون أحدهما، فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمراً قدره الله تعالى وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله تعالى أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها، فأكثر الناس في جهالة عن وضع هذه الحقائق موضعها، ولا يخلون عن مضيّع لإحداهما، ويفسر هذا قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما أمر المسلمين بالرجوع عن عمواس، لما بلغه ظهور الطاعون بها، وقال له أبو عبيدة: أفرار من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ألسنا نفرّ من قدر الله إلى قدر الله... الخ الخبر(١) فالواجب الجمع بين أخذ العدَّة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد، وبين الاتكال على الله تعالى، والاعتقاد بأن الأسباب وحدها لا تحقق النتيجة المرجوة إلا بإرادة الله تعالى وحده.

هذا ومن المعلوم أن سنة الله تعالى التي أجراها في خلقه، أن الله تعالى أجرى عادته بخَلْق النتائج بعد الأسباب، ولا يخرق هذه العادة إلا نادراً، حسب حكمته ومشيئته تعالى، كأن يريد أن يظهر معجزة لنبي، كما حدث لإبراهيم - عليه السلام - فالنار التي جعلها الله تعالى سبباً للإحراق عادة، جعلها الحقُّ جل شأنه برداً وسلاماً على إبراهيم - عليه السلام - أو يكون ذلك كرامة لوليّ، أو إظهاراً للناس أن السبب ليس هو المؤثّر وحده، وإنما هو أمر عاديّ وضعه الله للناس في سائر أعمالهم وشتى أمورهم، وإن شاء تعالى أبطل السَّبب وعطَّل نتيجته.

والمراد بأكثر الناس، المشركون، فإنهم لا يعلمون بأن الله تعالى قد أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة(٢) فغير المؤمنين بالله تعالى لا ينظرون أبداً إلى قدر الله القائم سلطانه فوق العباد، أما المؤمنون فيعلمون بسلطان ربهم وبحكمته

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢٧-٢٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٨٠.



وإرادته وسعة علمه، وأن تدبيرهم وأخذهم بالأسباب لا يصادم أبداً تدبير الله تعالى ولا يحول دون إمضاء إرادة الله تعالى كما أرادها(١).

وهذه الجزئية التي تختتم بها الآية الكريمة، تنص على أن قليلاً من الناس فقط هم المؤمنون الذين يؤمنون بهذا القرآن وبكل ما جاء به، ويعلمون ما علمه يعقوب - عليه السلام - من الجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل، أما جمهور الناس فإنهم عن هذا غافلون(٢).

---

(١) انظر: القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٦٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢١٢.

رفع المسيهم

المضمون العام للآية الكريمة:

ولما دخلوا مصر متفرقين كما أمرهم أبوهم - عليه السلام - ما كان يغني ويدفع عنهم دخولهم بهذا النوع من قضاء الله تعالى شيئاً، لأنهم ابتلوا في هذه المرّة بالاتهام بالسّرقة واسترقاق أخيهم، إلا أنه أفادهم أداء حاجة في نفس يعقوب - عليه السلام - أمر بها، وتطبيق قاعدة حكم بها، وهو أنه يجب التمسك بالأسباب، وإن يعقوب - عليه السلام - لذو علم لما علمناه، من أنه على المرء أن يهيئ الأسباب ويأخذ بها، ثم بعد ذلك يتوكل على الله في وجود المسبب لا على الأسباب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه القاعدة وهَذا الأمر، بل منهم من يرى الأسباب كافية في وجود الشيء ناسين مسبب الأسباب وهو الله تعالى وحكمه وإرادته، ومنهم من لا يرى للأسباب قيمة، وكلا هذين الطّرفيْن، على خلاف حقيقة الإسلام وقواعده المتينة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - وجوب تنفيذ الأبناء لوصية الآباء.

٢ - تصديق القرآن الكريم لما قاله يعقوب - عليه السلام - وما أوصى به أبناءه، حيث قال: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ» وفي ذلك من رفع مكانة يعقوب النبي ما لا يخفي.

٣ - وجوب العمل بما علمه العبد عن ربه تعالى، فلا قيمة لعلم بلا عمل به.

٤ - العلماء العاملون هم من أعلى الخلق درجات عند الله تعالى يوم القيامة.

٥ - أشرف العلم هو الذي يصل العبد بربه ويدفعه إلى عمارة الدنيا والآخرة.



رفع
المسهم

(الفصل الثاني)

(من الباب الثالث)

من دخول الإخوة على يوسف - عليه السلام - في رحلتهم الثانية إلى مصر ومعهم بنيامين، إلى أن أمرهم أبوهم بالذهاب إلى مصر للمرة الثالثة بحثا عن يوسف وأخيه

من الآية رقم (٦٩)

إلى الآية رقم (٨٧)



(الفصل الأول)

(من الباب الثالث)

من دخول الإخوة على يوسف - عليه السلام - في رحلتهم الثانية إلى مصر ومعهم بنيامين،
إلى أن أمرهم أبوهم يعقوب - عليه السلام - بالذهاب إلى مصر للمرة الثالثة بحثاً عن يوسف وأخيه

من الآية رقم (٦٩)

إلى الآية رقم (١١١)



رفع المسهم

آيات الفصل الأول

(من الباب الثالث)

قال الله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ
﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ
إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ
كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ
دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ
إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟
نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن
قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ
إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا
وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ

رفع المساهم

عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ
﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

(الآية التاسعة والستون) - ٦٩ -

أولاً - النّص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثانياً - أوجه القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

«آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» يقال: أويْتُهُ وأوَّيْتُهُ وآويتُه: أنْزَلْتُه، وَالْمأوَى، وَالْمأوِي، والمأواة: المكان، وتَأوَّتِ الطَّيْرُ وتآوَتْ: تَجمَّعت(١). ويقال: آواه إذا ضَمَّه، وأوَيْت منزلي وإلى منزلي: نَزَلْتُه، فمعنى (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ): ضَمَّه إلى نفسه وأنزله معه في منزله(٢).

«فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» الابْتِئَاس: أفْتِعَالٌ من البُؤس، وهو الشِّدَّة والضّرر، يقال: ابْتَأسَ يَبْتَئِسُ ابْتِئاساً، إذا حَزِن، ومنه المُبْتَئِس، أي الكاره الحزين، ويقال: بَئِسَ - كَسَمِعَ - بُؤساً وبُؤوساً: اشْتَدَّتْ حاجته، فمعنى «فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» أي: فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى(٣).

رابعاً - الإعراب:

«وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» الواو عاطفة، ولمّا ظرفيّة حينيّة أو رابطة، ودخلوا فعل وفاعل، والجار والمجرور متعلقان بدخلوا، وجملة آوى لا محل لها، وإليه متعلقان بآوى، وأخاه مفعول آوى، والجملة جواب لّما الأولى والثانية.

«قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» إنَّ واسمها، وأنا مبتدأ، وأخوك خبر، والجملة خبر إنّ، وهي مستأنفة، وهكذا كل ما اقتضى جواباً وذكر جوابه

---

(١) القاموس المحيط (حرف الألف) ١٦٢٨.

(٢) صفوة البيان/ ٣١٢.

(٣) انظر: اللسان/ ٦/ ٢٠.



ثم جاءت بعده قال فهي مستأنفة[1] والفاء الفصيحية، ولا ناهية، وتبتئس مضارع مجزوم بلا، وبما متعلقان بتبتئس، وجملة كانوا صلة، وجملة يعملون خبر كانوا[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) التِّبيان في إعراب القرآن (العكبري) ٢ / ٧٣٨.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٢ / ٢٥.

رفع المستهم

سادساً - الشرح والبيان:

(يوسف - عليه السلام - يأوى إليه أخاه بنيامين الشقيق)

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلاد - مصر - في الآية السابقة، أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف - عليه السلام - في هذه الآية فقال:

«**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ...**» وبعد الرحلة الطويلة الشاقة وصل الأحد عشر أخاً مصر، ودخلوها من حيث أمرهم أبوهم كما جاء في الآية السابقة، ثم اتجهوا صوب إقامة العزيز ومعهم ثمن البضاعة الذي ردّ إليهم، ولعل ذلك قد تم بعد استئذان العزيز وإعلامه عن طريق حُرّاسه بأن الذين اشترط عليهم من قبل ألا يقربوا مصر حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم، قد قدموا ومعهم شاب آخر لعله أخوهم المطلوب إحضاره، فإن التشابه بينه وبينهم ظاهر، ودخلوا على يوسف - عليه السلام - فكان همه الأول أن يقع نظره على أخيه الشقيق (بنيامين) ورآه فاهتزّ له قلبه وودّ ألا ينظر لغيره، لكنه أمسك بزمام نفسه وتابع ينظر إلى باقي إخوته الواحد تِلْو الآخر حتى لا يثير انتباههم إلى أي أمر قد يفسر على أنه غير عادي، عن ابن اسحاق قال: لما دخلوا قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فذكر لي أنه قال لهم: قد أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، أو كمال قال.

وعن قتادة في قوله: «آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ» قال: ضمّه إليه وأنزله معه، وهو بنيامين[١] وصورة ذلك كما روي عن ابن اسحاق وغيره أنه - عليه السلام - قال لهم: إني أراكم رجالاً، وقد أردت أن أكرمكم، وَدَعَا ضافَّتَه[٢] فقال: أنزل كل رجلين على حدة،

---

(١) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ١٥، والدر المنثور / ٤ / ٥٠.

(٢) ضافّته: يظهر أنه جمع ضائف، وهم الموكلون بالضيوف، من ضافه يضيفه: إذا نزل به ضيْفا.



ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما، ثم قال: إني أرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس معه ثان، فسأضمه إلى فيكون منزله معي، فأنزلهم رجلين في منازل شتى، وأنزل أخاه بنيامين معه، فآواه إليه(١).

هل تم إيواء يوسف لأخيه بعد الدخول مباشرة؟

المفهوم من صورة الإيواء هذه أن إيواء يوسف - عليه السلام - لأخيه الشقيق لم يتم بعد الدخول مباشرة، بل كان بعد أن تم الترتيب لذلك كما سبق، لكن الدكتور حسن محمد باجودة يقول: يفهم من هذه الجزئية «وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» أن الإيواء تم بعد الدخول مباشرة(٢) ويرد الشيخ سيد قطب هذا المفهوم فيقول: ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى، يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف، ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه، ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساوَرَ يوسف عند دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر، وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب(٣) ففكرة الإيواء والتخطيط لها من جَانب يوسف - عليه السلام - ساورته لأول رؤياه لأخيه الشقيق بنيامين، لكن فعل الإيواء نفسه لم يبدأ إلا بعد تنفيذ هذه الفكرة واختلائه بأخيه.

الحكمة في استعمال كلمة «آوى» هنا:

لعل الحكمة - والله أعلم - في استعمال هذه الكلمة «آوى» هنا، أن الله تعالى يشير بها إلى إنقاذ بنيامين من ظلم إخوته إياه واستبدادهم به، فقد تكاد هذه الكلمة أن لا تستعمل إلا في مقام النصر والإنقاذ من الذل والتهلكة ونحو ذلك، ومن ذلك قوله تعالى في شأن عيسى ومريم - عليهما السلام -: «وَآوَيْنَاهُمَا

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٥.

(٢) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٢١٤.

(٣) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠١٨.



إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»(١) وقوله تعالى في حق المجرم: «وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ»(٢) وقوله تعالى في النبي ﷺ «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى»(٣) وقول لوط - عليه السلام -: «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»(٤) وقول ابن نوح: «سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ»(٥) وقوله تعالى في يوسف - عليه السلام -: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ»(٦).

يوسف - عليه السلام - يختلي بأخيه بنيامين:

كم كان يوسف - عليه السلام - في لهفة شديدة للاختلاء بأخيه بنيامين، فهو وحده الذي يستطيع أن يظهر له نفسه في هذا الوقت ويطلعه على كل شأنه، وهو وحده الذي يمكن أن يتعرف منه بيقين على كل ما جرى لآل يعقوب من بعده وما صاروا إليه، وهو وحده الذي يرجو أن يبثه كل الحب والودّ والشوق العظيم، وهو وحده الذي يمكنه أن يزيل عنه الكثير من علائق البُعْد والأحزان وما جرت به الأيام، وبواسطته وحده يمكنه مواصلة تلقين إخوته الدروس، حتى يفيئوا إلى رشدهم ويعترفوا بتفضيل الله له عليهم، وبناء على الترتيب الذي وضعه يوسف - عليه السلام - ونفّذه مع الإخوة فيما يتعلق بالضيافة، فقد تحقّق الانفراد بأخيه الشقيق، فأطلعه على شأنه وما آل إليه، وعرّفه أنه أخوه يوسف قائلاً:

«**قالَ إني أنا أخُوكَ**» وهذه الجملة إجابة لسؤال، فكأنه قيل: ماذا قال له؟ هل أعلمه بنفسه أو كتم ذلك عنه كما فعل بسائر إخوته؟ فقيل: بل (قال) مُعْلِماً له، لأنه لا سبب يقتضي الكَتْم عنه، مؤكداً لما للأخ من إنكاره لطول غيبته وتغيّر أحواله وقطع الرجاء منه (إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ)(٧) فأكد الخبر بـ(إنّ) وبالجملة الإسمية، وبالقصر الذي أفاده ضمير الفصل، أي أنا مقصورٌ على الكوْن أخاك لا أجنبي عنك، فهو قصر قلْب لاعتقاده أن الذي كلمه لا قرابة بينه وبينه(٨). وظاهر قوله «إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ» وبكل

---

(١) المؤمنون/ ٥٠. (٢) المعارج/١٣. (٣) الضحى/٦.

(٤) هود/ ٨٠. (٥) هود/٤٣. (٦) يوسف/ ٩٩.

(٧) نظم الدرر/ ٤ / ٧٦.

(٨) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣ / ٢٦.



هذا التأكيد، أن يوسف - عليه السلام - قد تعرف إلى أخيه بنيامين وأعلمه بأنه أخوه يوسف - حقيقة، وابن أبيه يعقوب - عليه السلام - وأمه (راحيل) وهذا ما عليه سائر المفسرين، ولا وجه لمن قال بغير ذلك، كوهب بن منبه الذي قال: إنه لم يعترف له بالنسبة ولكنه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك(١).

قال أبو حيّان: وهو الظاهر، وهو قول ابن إسحاق وغيره، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكْتمه(٢)، وقال الألوسي: والقول بأنه - عليه السلام - تعرَّف إليه وأعلمه بأنه أخوه حقيقة هو الظاهر(٣) وقال الإمام الفخر: والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أن يوسف - عليه السلام - أراد تعريف النَّسب، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأُنس، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة(٤).

«فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ»

الابتئاس: اجتلاب الحزن والبؤس، وهذا القول تأكيد لما عليه سائر المفسرين من أنه - عليه السلام - أراد تعريف النسب، وإلا لما كان له محل، فهو تفريع على ذلك الخبر من الأخ لأخيه بأنه أخوه حقيقة، وهو مُسَبَّبٌ عنه(٥) والضمير في (كانوا) و(يعملون) راجعان إلى إخوتهما غير الأشقاء بقرينه المقام، وتأويل الكلام: فلا تحزن ولا تسْتكن لشيء سلف من إخوتك إليك في نفسك وفي أخيك من أمك، وروي مثل ذلك عن قتادة والسُّدّي وغيرها(٦)، أما اليوم فقد أمنتهم، وهذه الجزئية «فَلَاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» لم تصدر من يوسف - عليه السلام - لأخيه الشقيق، إلا بعد حديث طويل معه، ومعرفة منه شخصياً للمعاملة السيئة التي كان الإخوة يعاملونه بها،

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٥-١٦.
(٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٥. (٣) روح المعاني/ ٧/ ٢٣.
(٤) تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٣/ ١٨١.
(٥) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٧٦، وتفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ٢٦.
(٦) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٦.



فالفعل الناقص من قوله «بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» يرتبط بفترة زمنية لا يعرف يوسف من ذات نفسه عنها شيئاً إلا بعد حصوله على المعلومات من ذات الشقيق[1] فأفاد فعل الكون - كانوا - في المضيِّ أن المراد ما عملوه فيما مضى، وأفاد صوْغ (يعملون) بصيغة المضارع أنها أعمال متكررة من الأذى[2] وواضح أن هذا القول «فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» يشمل الأخوين معاً، يوسف وبنيامين، أي: بما كانوا يعلمون بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تُعْلِمْهُم بما أعلمتك، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -[3].

وهذا القول أيضاً «فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» أراد به يوسف - عليه السلام - أن يصفِّي نفس أخيه بنيامين من كل ما وجده من إخوته فيما سبق من أذى أو إساءة، وأن يتحلّى بصبغة العفو والتسامح وإظهار الحب والود لإخوته ونسيان الماضي، فهكذا نفوس الأنبياء - عليهم السلام - ونفوس تابعيهم المخلصين، يقول الفخر الرازي، إن يوسف - عليه السلام - ما بقي في قلبه شيء من العداوة، وصار صافياً مع إخوته، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافياً معهم أيضاً[4] وسبحان الله اللطيف الخبر الذي خلق من إساءتهم إحساناً، ومن مكرهم بيوسف ونفْيه من أرض كنعان سبيلا للخير العميم والفضل العظيم من الرب الكريم، ولولا إبعادهم له - عليه السلام - وما حدث له بسبب ذلك من كل ماضي، لما صار أخيراً عزيزاً على مصر والمتولي أمرها، وسبحان الله القائل: «وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ»[5].

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢١٥.
(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ٢٧. (٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٣.
(٤) تفسير الفخر الرازي / ١٨ / ١٣ / ١٨١-١٨٢. (٥) البقرة / ٢١٦.

المضمون العام للآية الكريمة:

ولما دخل أولاد يعقوب - عليه السلام - على يوسف - عليه السلام - في مجلسه الخاص ومنزل ضيافته ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، ضم إليه أخاه واختلي به وقبّله وأنزله معه، وأطلعه على شأنه وعرفه أن أخوه يوسف، وأمره ألا يطلع إخوته على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، ولما شكى إليه بنيامين ما لاقاه بسبب فراقه وما عمل الإخوة في إبعاده عنه، قال له يوسف - عليه السلام - لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بنا من إساءة، فقد جمعنا الله تعالى على خير وتم الأمر في صالحنا بمنة الله علينا ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيّل لإبقائه عنده عزيزاً مكرَّما إلى أن ينتهي الأمر ويحين الوقت المناسب ليعرفهم بنفسه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - رحمة الله تعالى ومنّته بيوسف - عليه السلام - وبأخيه بنيامين حيث جمع بينهما على خير وفضل عظيم بعد فراق طويل.

٢ - شدة فرح يوسف - عليه السلام - بأخيه الشقيق حيث ضمه إليه وأنزله معه وعرفه بنفسه، فكانت فرحة غامرة من أفراح العمر المعدودة.

٣ - إسرار يوسف لأخيه بالخطة التي وضعها لاستبقائله عنده عزيزاً مكرما، وقد أمره ألا يطلع إخوته على ما أطلعه عليه من أنه أخوه.

٤ - دلالة النص القرآني على أن بنيامين كان محوطا بظلم إخوته واستبدادهم فيما مضى.

٥ - صفة العفو والتسامح من صفات الأنبياء - عليهم السلام - وتابعيهم المخلصين.

٦ - قد تأتي المنفعة من أمر ظاهره مضرَّه، وقد تأتي المضرَّة من أمر ظاهره النّفع، وسبحان الله العليم الخبير.



الآيات الثلاث...

من الآية الواحدة والسبعين إلى الآية الثانية والسبعين.

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«قَالُوا مَّاذَا تَفْقِدُونَ» «تَفْقِدُون» قراءة الجمهور، و«تُفْقَدُون» قراءة عبد الرحمن السُّلَمي، بضمّ التَّاء من أفقدتُّه إذا وجدتُّهُ فقيداً، نحو: أحْمَدتُّه إذا أصبْته محموداً، وَضَعَّفَ هذه القراءة أبو حاتم، قال أبو حيّان: ووجهها - أي هذه القراءة - ما ذكرناه(١).

«قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» قرأ الجمهور (صُوَاعَ) بضم الصاد، بعدها واو مفتوحة، بعدها ألف، بعدها عين مهملة، وقرأ أبو حيوة والحسن وابن جبير بكسر الصاد «صِوَاع»، وقرأ أبو هريرة ومجاهد (صاع) بغير واو على وزن فَعْل، فالألف فيها بدل من الواو والمفتوحة، وقرأ أبو رجاء (صَوْع) على وزن (قَوْس)، وقرأ عبد الله بن عون بن أبي أرطيان (صُوع) بضم الصاد، وقرأ الحسن وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب اللوامح (صُوَاغ) بالغين المعجمة على وزن (غُرَاب).

وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يَحْذف الألف ويسكن الواو (صُوْغ) وقرأ زيد بن علي (صَوْغ) مصدر صاغ، وصُوَاغ وصَوْغ مشتقّان من الصَّوغ، مصدر صَاغَ يَصُوغ، أقيما مقام المفعول بمعنى: مصوغ الملك(٢) قال الإمام الطبري: وأما الذي عليه قُرَّاءُ الأمصار: فَصُوَاعَ الملك، وهي القراءة التي لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة عليها(٣).

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢ / ٣٣٤، وتفسير البحر/ ٥ / ٣٢٦.

(٢) انظر: تفسير ابن عطية/ ٩ / ٣٤٢، وتفسير البحر/ ٥ / ٣٢٦ وتفسير القرطبي/ ٩ / ٢٣٠.

(٣) تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ١٨.



ثالثاً - اللغة:

«جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» السِّقاء: ما يُجْعَل فيه ما يُسْقى، وأسْقَيْتُكَ جلداً: أعْطيْتُكَهُ لتجعله سقاء، وقوله تعالى: «جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» فهو المُسَمَّى (صواع الملك) فتسميته (السِّقَاية) تنبيها أنه يُسْقى به، وتسميته (صواعاً) أنه يكال به[1] فالسقاية إناء كان يشرب به الملك، ويكال به الطعام للمتارين، لعِزَّة ما يكال به في ذلك الوقت، وهو الصَّاعُ والصُّواع، والصُّوَاع يُؤَنَّثُ باعتبار السقاية، ويذكَّر باعتبار الصَّاع[2].

«ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» المؤذّن: كل من يُعْلِمُ بشيء نداءاً، قال: «ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» وقال: فَأذَّن مُؤَذِّنٌ بينهم» وقال: «وَ أذّن في الناس بالحج»، والأذين: المكان الذي يأتيه الآذان[3] والتَّأذين: النِّداء المكرَّر، ومعنى أذَّن مؤذِّن: «أي: نادي مناد، يقال: آذنه إذا أعلمه، وأذَّنَ: أكثر الإعلام، ومنه المؤذِّن للصلاة لكثرة ذلك منه[4].

«أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» العير: القوم الذين معهم أحمال الميرة، وذلك اسم للرجال والجمال الحاملة للميرة، وإن كان قد يستعمل في كل واحد من دون الآخر، قال: «فَلَمَّا فَصَلَتِ العِير» وقال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» وقال: والعير التي أقبلنا فيها»[5] والعِيرُ بالكسر: الإبل التي تحمل الميرة لأنها تعير أي: تذهب وتجئ، من قولهم: عَارَ الفرس إذا انفلت وذهب هاهنا من مَرَحِه، وأعاره صاحبه فهو مُعَار، ثم كَثُر حتى قيل: لكل قافلة عير كأنها جمع عير، وأصلُها فُعْل، كَسَقْفٍ وسُقْف، فُعِلَ به ما فُعِلَ ببيض وعير، والمراد أهل العير، كقوله: وَاسأَل القَرية» أي: اسْأل أهل القرية[6] والسَّارق: هو من يسرق المتاع من الأحْرَاز، والسرقة: أخذ ما ليس له أخذه في خفاء، وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقَدْرٍ مخصوص، قال تعالى:

---

(١) المفردات (كتاب السين) ٢٣٧. (٢) صفوة البيان لمعاني القرآن / ٣١٢.
(٣) المفردات (كتاب الألف) ١٤.
(٤) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٢٦، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٨٣.
(٥) المفردات (كتاب العين) ٣٥٣.
(٦) انظر: الكشاف / ٢ / ٣٣٤، وإعراب القرآن المجيد / ٣ / ٨٣.



«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا» وقال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»(١). وقيل: المراد بالعير قافلة الحمير،

«ماذا تفقدون» فَقَدَ: الفَقْدُ عدم الشيء بعد وجوده، فهو أخص من العدم، لأن العدم يقال فيه وفيما لم يوجد بعد، قال: «مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» والتَّفَقُّدُ: التَّعَهُّد، لكنَّ حقيقة التَّفَقُّد تعَرُّفُ فقدان الشي، والتَّعَهُّد: تَعَرُّفُ العهد المتقدِّم، قال: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ» والفاقد: المرأة التي تفقد ولدَها أو بَعْلَها(٢).

«وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ» الزعيم: الكفيل، والغارم: الضَّامن، قال تعالى: «وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ» قالوا جميعاً: معناه، وأنا به كفيل، ومنه حديث علي - رضي الله عنه -: ذمتي رهينة وأنا به زعيم، وَزَعَمْتُ به أزْعُمُ زَعْماً وَزَعَامَةً أي: كَفَلْتُ، وزعيم القوم: رئيسهم وسيّدهم، والجمع: زُعماء، والزعامة: السيادة والرياسة، وقد زَعُمَ زَعَامَةً قال الشاعر:

حتى إذا رَفَعَ اللواء رأيته *** تحت اللواء على الخميس زعيما(٣)

والزعيم هنا: المؤَذِّن(٤)

رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ»

الفاء عاطفة للدلالة على رغبتهم الحثيثة في السفر، ولمّا ظرفية أو رابطة، وجهزهم فعل وفاعل ومفعول به، وبجهازهم جار ومجرور متعلقاً بجهزهم، وجملة (جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) لا محل لها من الإعراب، وفي رحل متعلقان بجَعَل.

«ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»

ثم حرف عطف وتراخ، وأذن مؤذن فعل وفاعل، وأيتها منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وهو نكرة مقصودة مبني على الضم، والهاء للتَّنبيه، والعير بدل من أيتها، وإن واسمها واللام المزحلقة، وسارقون خبرها.

---

(١) المفردات (كتاب السين) ٢٣١. (٢) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨٣.
(٣) اللسان/ ١٢/ ٢٦٦. (٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٣١.



«قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ»

الواو للحال بتقدير (قد) وعليهم متعلقا بأقبلوا، وماذا اسم استفهام مفعول مقدم لتفقدون، أو ما اسم استفهام، وذا اسم موصول خبر، وجملة تفقدون صلة.

«قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ»

جملة «نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» مقول القول.

«وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ»

الواو عاطفة، ولمن خبر مقدم، وجملة (جاء به) صلة، وحمل بعير مبتدأ مؤخر، والواو عاطفة، وأنا مبتدأ، وبه متعلقان بزعيم، وزعيم خبر.

البلاغة:

في قوله تعالى: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» مجاز مرسل علاقته المجاورة، والمراد أصحاب العير كما ورد في الحديث: «يَا خَيْلَ الله اركبي»(١)

خامساً - الموقف من المتعارضات:

الأمر الأول: هل جَعْلُ يوسف - عليه السلام - السقاية في رَحْل أخيه كان بعلم بنيامين أم لا؟

ذهب أكثر المفسرين إلى أن جعل يوسف - عليه السلام - الصواع في رحل أخيه كان بعلم بنيامين، قال كعب: لما قال له يوسف: «إِنّي أَنَا أَخُوكَ» قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال له يوسف: قد علمتَ اغتمام والدي بي، وإذا حبستك ازداد غَمُّه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد، قال: لا أبالي فافعل ما بدالك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدُسُّ صاعي في رحلك، ثم أنادي عليكم بالسرقة ليُهَيَّأ لي ردّك بعد تسريحك، قال فافعل، فذلك قوله: «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ»(٢).

---

(١) إعراب القرآن وبيانه (الدرويش) ٥/ ٢٥-٢٦.

(٢) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٦٠.



وذهب قلة من المفسرين إلى أن يوسف - عليه السلام - جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين دون علمه، وأنه تركه تجوز عليه الحيلة، قال السُّدِّي: «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» قال: والأخ لا يشعر، فلما ارتحلوا أذّن مؤذن قبل أن ترتحل العير «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»(١).

الترجيح:

والراجح هو الاتجاه الأول القائل بأن جعل يوسف - عليه السلام - السقاية في رحل أخيه كان بعلم بنيامين، لأن الأمر لو كان عكس ذلك لأدى إلى إحداث مفاجأة مذهلة ومرعبة لبنيامين، الأمر الذي يدعوه إلى بذل قصارى جهده مع إخوته لإثبات براءته من التهمة، فلعل الذي كال له هو الذي نسي الصواع في رحله، ولو تمكن من إثبات براءته لقُلِبَتْ خطة يوسف - عليه السلام - رَأساً على عقب، ولا انطلق بنيامين عائدا مع إخوته إلى أرض كنعان، ثم ما كان يصح من يوسف - عليه السلام - وهو النبي الرحيم الحكيم أن يوقع على أخيه الحبيب هذه الصدمة المروّعة، وهو خال البال عما يريده من ذلك.

قال الإمام أبو حيان: وما تقدَّم يدل على أنه - أي جعل السقاية في رحل أخيه - كان بعلم منه(٢).

وقال الإمام ابن القيم: «ردّاً على من قال إنه وضع السقاية في رحل أخيه دون علمه والقرآن الكريم يدل على خلاف هذا، والعَدْل يردُّه، وأكثر أهل التفسير على خلافه(٣).

وقال الإمام ابن كثير: وتواطأ معه - أي يوسف مع بنيامين - أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزّزاً مكرّما معظّما(٤).

وقال الشيخ عبد الله العلمي: كان يوسف - عليه السلام - عقد النيَّة بالاتفاق مع بنيامين على عمل الحيلة بنسبة السرقة إليه توصلا لبقائه عنده(٥).

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ١٧.

(٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٦. (٣) إغاثة اللهفان/ ٢/ ١٣٠.

(٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٥.

(٥) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٦٤.



وقال الدكتور حسن محمد باجودة : إن يوسف اتفق مع شقيقه على أن يَسْتَبْقيه عنده تمهيداً لجلب كل آل يعقوب إلى مصر ، كما أنهما اتفقا على الوسيلة التي يتم بها الاستبقاء ، وهي جعل السقاية في رحل بنيامين دون أن يعلم الإخوة بحقيقة الاتفاق ، ثم يقول : فمن المسْتبعد تماماً أن يوضع صواع الملك في رحل شقيق يوسف دون سابق علم منه ، فكيف يدري الشقيق أن يوسف هو الآمر بوضعه في رحله ، وكيف يدري بالمغزي البعيد الذي يرمي إليه يوسف ، وهل من المعقول أن يُفَاجَأ إنسان بتهمة كبيرة كهذه دون أن يَنْبِسَ ببنت شفه ، خاصة وأن القضية لم تعالج في رفق ، إنما في صورة قوية من العنف ، إن سكوته معناه صدق نسبة التهمة إليه ، أو أن هناك مُفَاهَمَة سابقة بألا يرفض هذه التهمة ، بل يسكت عنها لغرض ما ، وهو ما حدث فعلاً[١] وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله : إن وضع السقاية في رحل بنيامين بغير علمه ، فيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع - يعني لبنيامين - ثم يقول : فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه[٢] .

الأمر الثاني: هل قام يوسف - عليه السلام - بتلك الحيلة من نفسه أو من طريق الوحي؟

ذهب أكثر المفسرين إلى أن يوسف - عليه السلام - قام بتلك الحيلة ، وهي جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين لاستبقائه عنده ، عن طريق الوحي .

قال مجاهد في قوله (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) كادها الله له فكانت علة ليوسف ، وعن ابن جريح والسدي (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) يقول : صنعنا ليوسف ، وقال الإمام الطبري : (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » يقول : هكذا صنعنا ليوسف حتى يخلّص أخاه لأبيه وأمه من إخوته لأبيه ، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم ، ويحتبسه في يديه ، ويحول بينه وبينهم ، ثم قال : فكاد الله ليوسف حتى أخذ أخاه منهم ، فصار عنده بحكمهم وصُنِع الله له[٣] .

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢١٧ .

(٢) انظر : يوسف بن يعقوب / ٣٨٧-٣٨٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٢٤ .



وذهب بعضهم إلى أن ذلك لم يكن عن طريق الوحي، وإنما فعل يوسف ذلك باجتهاد من نفسه، وأجاب هذا الفريق على الاعتراضات التي يمكن أن تثار على هذا العمل من جانبه - عليه السلام - دون وحي فقالوا: فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه ليُسَرِّقَهم وهم براء وهذه المعصية؟ فأجابوا عن ذلك بأربعة أجوبة:

(أحدها) أنها معصية فَعَلها الكيّال ولم يأمر بها يوسف، وجوابهم هذا بعيد، إذ لو حدث ذلك دون أمر يوسف لسارع - عليه السلام - بإظهار براءة أخيه بنيامين.

(الثاني) أن المنادى الذي كال حين فقد السقاية ظن أنهم سرقوها ولم يعلم بما فعل يوسف فلم يكن عاصيا. وهذا الجواب بعيد أيضاً، لأن يوسف - عليه السلام - لو فعل ذلك دون علم المنادى لما نفّذ المنادى الطريقة المذكورة في التفتيش والتي جاءت، في قوله تعالى: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ»

(الثالث) أن النداء كان بأمر يوسف، وعني بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه، وذلك صدق.

وهذا القول منهم بعيد جداً، ولا دليل عليه أصلاً، ثم إنهم - الإخوة - لم يسرقوا يوسف، لأن السرقة كما هو معلوم: أخذ شيء خفية من حِرْز مثله. وهم أخذوه من أبيه جهاراً نهاراً.

(الرابع) أنها كانت خطيئة من قبل يوسف فعاقبه الله عليها بأن قال القوم - يعني الإخوة -: «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» يعنون يوسف[1] وهذا القول افتراء على يوسف - عليه السلام - بلا دليل يدل عليه، إذ أن يوسف لو أخطأ لذكر القرآن الكريم ذلك، وأيضاً فإن يوسف - عليه السلام - لم يسكت عنهم حين قالوا: «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ»، بل ردّ عليهم بنفسه كما ذكر القرآن الكريم: «قَالَ بَل أنتُم شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أعلمُ بِما تَصِفُون».

---

(١) انظر: تفسير الماوردي / ٢ / ٢٨٩.



ثم قالوا: - أي القائلين بصدور الحيلة من تلقاء يوسف دون وحي -

فإن قيل: كيف استجاز يوسف - عليه السلام - الحيلولة بين أخيه وأبيه فيزيده حُزْنا على حزن وكَرْبا على كرب؟

قلنا: إذا اشتدّ الكرب جاء الفرج.

وهذا بعيد للغاية، فليس من الحكمة لكي نطلب الفرج من شدَّة، أن نعمد إلى خلق شدَّة أخرى نضيفها على الأولى كي يأتي الفرج، بل الحكمة أن نصبر على الشِّدَّة حتى تزول بإذن الله تعالى الذي يجعل من بعد العسر يسراً، ومن بعد الشدة فرجاً ومخرجاً.

ثم زادوا جوابا آخر على الأول فقالوا: إن الحزن كان قد غلب على يعقوب - عليه السلام - بسبب فقد يوسف - عليه السلام - غَلَبَةً لا يؤثر فيها فقد أخيه كل هذا التأثير، أولا تراه لما فقد أخاه قال: يَا أَسَفَى عَلَى يوسف»[١].

وجوابهم الثاني هذا لا يتمشى مع واقع الأمر وحال النفس، أفَلَمْ يقل يعقوب - عليه السلام -: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» ولم يقتصر على يوسف، وهذا يدل على أن المصيبة الأولى الشديدة قد أضيف إليها مصيبة أخرى فزاد التأثر، ولم يكن يوسف - عليه السلام - ليعُقَّ أباه يعقوب بهذا الفعل لولا أن الوحي الهمه ذلك ليكون سبباً لجمع شمل الأسرة كلها في مصر بعد أن يتلقى الإخوة الأشداء الدروس المناسبة لهم، ويخضعوا لأخيهم يوسف - عليه السلام - هنا لك فقط، تُفكُّ الرموز وتتضح الحقائق.

الترجيح:

والاتجاه الأول القائل بأن يوسف - عليه السلام - فعل تلك الحيلة، وهي جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين لاستبقائه عن طريق الوحي من الله تعالى هو الراجح، لأنه الذي يتوافق وينسجم مع دلالة النص القرآني الكريم ومع حال يوسف النبي الحكيم

---

(١) أحكام القرآن (ابن العربي) ٣/ ٦٣.

رفع المسيَّهم

وحال أخيه الشقيق بنيامين، وهو ما يظهر لنا بوضوح في أقوال علمائنا المكرمين.

يقول الأستاذ المحقّق خضر محمد خضر ردّاً على الأقوال الأربعة السابقة التي ذكرها الفريق القائل بأن الحيلة لم تكن عن طريق الوحي: ولم كل هذه الأقوال والله تعالى يقول: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» أي أن ذلك التدبير - وهو جَعْل السقاية في رحل أخيه - كان بوحي من الله تعالى[1].

قال الإمام أبو حيان: والذي يظهر أنّ هذا التّحيّل ورمْي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب بوحي من الله تعالى، لما علم تعالى في ذلك من الصلاح، ولما أراد من محنتهم بذلك، ويقوّيه قوله: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»[2].

(١) تفسير الماوردي / ٢ / ٢٨٩ (الهامش).

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٦، وانظر: تفسير الألوسي / ٧ / ٢٤.

رفع المسيرهم

سادساً - الشرح والبيان:

يوسف - عليه السلام - وتسريق إخوته:

«الآية السبعون»

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

وجه المناسبة:

لما نزل الإخوة عند يوسف - عليه السلام - خير منزل، ومضى وقت من الزمان استراحوا فيه من عناء السفر، واستعدوا للعودة إلى أرض كنعان بفلسطين، أخبر سبحانه وتعالى عن يوسف - عليه السلام - أنه أعدّ لهم مكيدة فقال:

«فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ...»

وهذه الجملة «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ» أغنت عن كثير من الجمل، لأنها أفادت مرور وقت من الزمان على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم في ضيافته وكرمه ورعايته، حتى استأذنوه للعودة إلى ديارهم، ولم يشعر أحد منهم بشيء يدل على تقريبه لبينامين من دونهم، ولو أحسّوا بشيء من ذلك لا استوجسوا شرّاً، خشية أن يدلى لبينامين للعزيز بما فعلوه معه ومع أخيه يوسف، ولسارعوا إلى رحالهم قاصدين العودة إلى ديارهم، غير مكترثين بما يترتّب على ذلك، ولَنَالَ بنيامين على أيديهم حينئذ الشيء الكثير من إيذائهم وظلمهم، إلا أن حكمة يوسف - عليه السلام - ورزانته حالت دون شعورهم بأي شيء من التقارب بينه وبين أخيه الشقيق، هذا، وقد ترجَّح لنا مِمَّا سبق في البند (خامساً)، أن يوسف - عليه السلام - قد تواطأ مع أخيه بنيامين، واتّفق معه على عمل الحيلة بنسبة السّرقة إليه، توصلا لبقائه عنده عزيزا مكرّما، كما أنها اتّفقا على الوسيلة التي يتمّ بها الاستبقاء، وهي جعل السقاية في رحل بنيامين دون أن يعلم الإخوة بهذا الاتفاق، وقد كان هذا بأمر الله تعالى عن طريق الوحي، بدلالة قوله تعالى



بعد ذلك «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» وذلك لمواصلة إلقاء الدروس المهذّبة لإخوته حتى يستقيموا ويخضعوا له، وأيضاً تمهيداً لجلْب كل آل يعقوب إلى مصر.

والمفهوم من قوله: «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ» أن يوسف – عليه السلام – وبعد إنزال إخوته منزلاً كريماً، ومكثهم في كنَفه ورعايته المدة المقررة، أمر بتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم حسب المتبع، لكل واحد منهم حمل بعير، كما زودهم بزاد الطريق لهم ولأباعرهم مدة سفرهم، فالكلام «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ» إيجاز، عن قتادة – رضي الله عنه – قال: «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ» يقول: لما قضي لهم حاجتهم ووفّاهم كيلهم. وفَصَّل ابن إسحاق قال: حمل لهم بعيراً بعيراً، وحمل لأخيه بعيراً باسمه كما حمل لهم(١).

هل أخذ العزيز ثمنا لبضاعتهم هذه المرة؟

إن النص القرآني الكريم سكت عن ذكر أثمان بضاعتهم هذه المرّة، ولعلها البضاعة التي ردها يوسف – عليه السلام – إليهم في المرة الأولى تكرمة منه لهم وإن خلقه العالي يأبى أن يسترد ما أمر بوضعه بنفسه في رحالهم وهذا هو الأظهر، لأنهم لو ردّوها لذكرها القرآن العظيم، كما ذكر جعلها في رحالهم أول مرة، كما أنّ ردّها لا يتناسب ومقام العزيز، وكذلك موقف صدْقهم منه حيث نفّذوا طلبه بإحضار أخيهم بنيامين إليه، ويحتمل كذلك أن يكونوا قد ردُّوها إليه وأتوا بأثمان جديدة لبضاعتهم هذه المرة، كما نُقِل ذلك عن كثير من المفسرين، والله أعلم.

«جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ»

ما المقصود بالسقاية؟ السقاية إناء كبير يُسقى به الماء والخمر، والصُّواع: لغة في الصّاع، وهو وعاء للكيل يقدر بوزن رطل وربع أو ثلث، وكانوا يشربون الخمر بالمقدار، يُقدّر كل شارب لنفسه ما اعتاد أنه لا يصرعه، ويجعلون آنية الخمر مقدّرة بمقادير

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/١٦-١٧.



مختلفة، فيقول الشارب للساقي: رطلاً، أو صاعاً، أو نحو ذلك، فتسميه هذا الإناء سقاية وتسميته صواعاً جارية على ذلك، وتعريف السقاية تعريف العهد الذهني، أي: سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم(١).

والأولى أن يقال: كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة(٢) ونستطيع أن نفهم من النص القرآني أن هذا الصواع ليس عاديّاً، إنما هو من طراز معيّن، لذا جاز إضافته إلى الملك(٣).

ومعنى ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: جعل السقاية التي هي الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يُجعل فيه ما يشتري به من الطعام من مصر.

لماذا وقع الاختيار على السقاية بالذات لتنفيذ تلك الحيلة؟

وقع الاختيار على السقاية بالذات لأمور منها:

١ - أنها مطلوبة دائماً للكيل أو للسّقى، فطلبها يكون قريباً بخلاف غيرها.

٢ - أن استخدامها في الكيْل يجعل اتهام آخر من كال مستندا إلى وجه قويّ من وجوه الاتهام، ولا يتوفّر هذا الشرط في أي شيء آخر.

٣ - سهول تدبير حيازة الصواع بحيث تدخل دخولا حكميّا في حيازة الغير.

٤ - أن الاتهام بسرقة الصواع أخفّ من غيره لأمور منها:

(أ) أن الصواع من الأشياء المخصّصة للانتفاع العام، وهذا مما يدرْأ الحد عن السرقة في شريعتنا.

(ب) فيه شبهة المال غير المحرز في المكان المناسب له، والحد لا يكون واجباً إلا إذا وقعت السرقة على مال مُحْرَز(٤).

من الذي وضع السقاية رحل بنيامين؟

من أهل التفسير من يرى أن فكرة جعل السقاية في رحل بنيامين قد صدرت من

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢٥.
(٢) تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٣/ ١٨٢.
(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٢٦.
(٤) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٣٨٨.



العزيز، والذي قام بتنفيذها واحدٌ من الفتيان، قياساً على ما حدث في المرة الأولى، قال تعالى عن يوسف - عليه السلام - «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»(١) ومنهم من يرى أن يوسف - عليه السلام - هو الذي وضع بنفسه الصواع في رحل أخيه بنيامين، ذلك لأن في قوله تعالى «جعل السقاية» إيماء إلى أنه - عليه السلام - وضعها بيده، ولم يَكِلْ ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته(٢).

وهذا هو المناسب، لما يأتي:

١ - يُخشى إن كان هذا الجعْل للسقاية في رحل بنيامين على يد واحد من الفتيان ممّن يثق فيهم يوسف - عليه السلام - أن يُفْشى الأمر فتكون الكارثة ويقال: العزيز يأمر فتاه بوضع السقاية في رحل أخيه ثم يتّهمه بالسرقة، وذلك مما يؤدي إلى اهتزاز مكانة العزيز بينهم.

٢ - على فرض أن الفتى لن يُفشى الأمر لغيره، فكيف يكون موقف العزيز أمام هذا الفتى بالذات، الذي يأمره بوضع السقاية في رحل أخيه، ثم يفاجأ باتهامه إياه بسرقتها، إن هذا بالطبع غير لائق ولا يصحّ ممَّن له مكانته وسلطانه.

٣ - إن حكمة يوسف - عليه السلام - تقتضي الأخذ بالأحوط وعدم الإقدام على فِعْل يمكن أن يسبب حرجاً له ولآله.

٤ - أن هذا الأمر سرّ يخص آل يعقوب وحدهم، وينفّذه يوسف - عليه السلام - بوحْي من الله تعالى، فلا يجوز أن يطلع عليه أحد غير يوسف وبنيامين.

٥ - إن الذين قاسوا وضع الصواع على وضع بضاعتهم في رحالهم في سفرتهم الأولى قد جانبوا الصواب، فرد البضاعة إليهم وجعلها في رحالهم هنالك؛ عمل طيب يظهر كرم يوسف - عليه السلام - لهؤلاء القوم، ويرفع من شأنه أمام القوم لرحمته

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢١٨.

(٢) انظر: تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٢٠.



بالضعفاء، أمافي جعل السقاية في رحل أخيه عن طريق فتى ما، فالأمر مختلف تماماً، إذ أنه عمل لا يجيزه شرع ولا قانون في دين الملك الذي هو دين الفتيان المصريين، هذا، والله أعلم.

«ثمَّ أذَّنَ مؤَذِّنٌ أيَّتها العِيرُ إنكمْ لسَارقونَ»

قوله: «ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» أي: أعلم فيهم بالنداء[١] والأذان في اللغة: الإعلام، يقال: آذَنَهُ: أعلمه، وأذَّن: أكثر الإعلام، ومنه (المؤذّن) لكثرة ذلك منه، وكان ذلك النداء مع رفع الصوت مراراً كثيرة بدليل التفعيل[٢] - أذَّن -.

متى حدث ذلك التأذين؟

حدث ذلك التأذين بعد انطلاقهم وإمعانهم في السير[٣] حتى قاربوا الخروج من مدينة (صوعن)[٤] فإن (ثم) تقتضي مهلة بين جعْلِ السقاية والتأذين، عن ابن إسحاق قال: ثم أمهلهم حتى إذا انطلقوا وأمعنوا من القرية أمرٍ بهم فأدركوا فاحتُبسوا، ثم نادى مناد «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» قفوا[٥] والسياق يقتضي ذلك، إذ لو كان هذا وهم بحضرته لم يحتج إلى الأذان، وإنما يكون الأذان لنداء البعيد يُطلبُ وقوفه. وحبْسه[٦]، وهذا هو المفهوم مما جاء على لسان الأخ الكبير بعد ذلك «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» - أي عند وقوع الحادثة - ولا يمكن أن يراد بها مدينة العزيز، لأن القرآن الكريم قد عرّفها سابقاً بـ(مصر) وبـ(المدينة) قال تعالى: «وَقَالَ الذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ» وقال جل شأنه: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ»[٧].

«أَيَّتُهَا الْعِيرُ» العير بكسر العين: الإبل التي يحمل عليها، لأنها تَعير أي تذهب وتجئ،[٨] والعير: اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٧٦. (٢) تفسير فتح البيان/ ٦ / ٣٧٢.
(٣) نظم الدرر/ ٤ / ٧٦.
(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ١٠٦٤.
(٥) تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ١٧. (٦) إغاثة اللهفان/ ٢ / ١٣١.
(٧) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٢٠-٢٢١.
(٨) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش)/ ٥ / ٢٣.



ركابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة[1] والظاهر قول الجمهور أن العير الإبل، بدلالة قول المؤذن فيما بعد: «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ». وليس مرادا بها الحمير كما ذهب البعض.

وقال مجاهد: كانت دوابّهم حميراً، ومناداة العير: المراد أصحابها، كقوله: (يَا خَيْلَ الله اركبي)[2] فمخاطبة العير تجوز، والمراد أربابها[3].

قال الزجاج: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ» معناه يا أصحاب العير، أي الإبل، فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة، قاله السمين الحلبي[4] وتأنيث اسم الإشارة «أَيَّتُهَا الْعِيرُ» لتأويل العير بمعنى الجماعة، لأن الرّكاب هم الأهَمّ[5] وفي المناداة بهذا النداء «أَيَّتُهَا الْعِيرُ» دون المناداة عليهم بالنداء: (أيها الراكب) أو (يا أصحاب البعير) دعوة لهم أن يتقفوا عن المسير، لأن العير هي المنظور إليها عند هذا النداء، وأن عليها أن تقف...، ولهذا حَسُن مخاطبتها، لأنها هي المطلوبة أولا، فإذا وقفت كان للمنادي ومن معه شأنهم مع راكبيها، ولهذا فإنه ما إن صَدَرَ النداء «أَيَّتُهَا الْعِيرُ» حتى توقفت بفعل أصحابها[6] هذا، ونستطيع أن نفهم مما سبق أن العير قد فَصَلَت - انطلقوا حتى بلغوا منزلاً وافْتُقِد الصواع، وبحث عنه فلم يعْثر له على أثر، وبما أن آخر جماعة كيل لهم به هم أبناء يعقوب - عليه السلام - وافتُقِد الصواع على إثْرها مباشرة، وبما أنهم غادروا البلدة قبل بُرْهة وجيزة متجهين صوْب ديارهم، فالذي يُرَجَّحُ بعد التَّثبُّت من فقده وعدم أخذ شخص آخر له أن الصواع قد سرقته العير التي فَصَلَت، إذاً ينبغي أن يُتَتَبَّعُوا ويؤمروا بالوقوف ويفتّشوا تفتيشاً دقيقاً[7].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ٨٣/ ٢٨.
(٢) تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٦.
(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٤١.
(٤) تفسير فتح البيان/ ٦/ ٣٧٣.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٢٨.
(٦) القصص القرآني الكريم، في منطوقه ومفهومه (الخطيب) ٤٦٨.
(٧) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف/ ٢١٩.



«إنكم لسارقون»

بهذا القول المزعج والاتّهام الموجع، وقعت المفاجأة على رؤوس الإخوة وقوع الصاعقة، عدا (بنيامين) الذي كان على علم مسبقاً بأمر هذا الاتهام وحكمته، وذهل الإخوة مّما يحمله هذا النداء من أمر خطير يُنْسب إليهم، إنه الاتهام الصريح والمباشر بالسرقة والخيانة، يجئ في صورة مؤكّدة، فقد خاطبهم المؤذن وجهاً لوجه مضمّنا كلامه (إنَّ) و(اللام) المفيدتيْن للتوكيد، ولا يخفى أن خبر (إنَّ) جاء في صيغة جمع المذكّر السالم، فكأن صفة السّرقة لاصقة بكل أفراد القافلة، ولم يكن بإمكان المنادي إلا أن يقول ما قاله(١).

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢١٩.

رفع المسهم

الإخوة يسألون أصحاب النداء عن المفقود: «الآية الواحدة والسبعون»

«قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ»

وجه المناسبة:

لما اتُّهِم الإخوة بالسرقة فكأنه قيل: إن هذه لتهمة عظيمة، فما قالوا في جوابها؟ فقيل: «قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم...»[1] أي قالوا ولم يكن قولهم حال إدبارهم بقصد الفرار بل قد (أقبلوا عليهم) على المؤذن وأصحابه[2] وهم في حالة ذهول وإنكار لهذا الاتهام الصريح لهم بالسرقة وقالوا لهم: «مَّاذَا تَفْقِدُونَ»؟ بلهجة الاستفهام الذي يمازجه استغراب، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة[3] بل إن لفظ «تُفْقِدُون» يدل على إبطالهم للاتهام من أساسه[4] والمعنى: أي شيء تفقدون، وما الذي ضل عنكم فلم تجدوه؟ قالوا هذا ليقع التّفتيش فتظهر براءتهم ولم يلوذوا بالإنكار من أوّل بل سألوا كَمَالَ الدعوى عسى أن يكون فيها ما تبطُل به فلا تحتاج إلى خصام[5].

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٧٧.

(٢) يوسف بن يعقوب/ ٣٩٥.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٧٨.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٣٩٥.

(٥) انظر: تفسير بن عطية/ ٩/ ٣٤١.

الصُّواع والجائزة: «الآية الثانية والسبعون»

«قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ»

وجه المناسبة:

لما سأل الإخوة المؤذّن ومن معه عن الشيء الذي يفقدون ويتهمونهم بسرقته أجابوهم:

«**قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ**» (قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصّارخين، «قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» والصواع: هو السقاية التي جعلها يوسف في رحل أخيه، فتسميته (السّقاية) تنبيها أنه يسقي به، وتسميته (صواعاً) أنه يكال به، والصّواع يؤنّث باعتبار السّقاية، ويذكّر باعتبار الصاع، ولم ترد كلمة الصّواع في القرآن الكريم إلا في هذا المحل. عن ابن عباس في (صواع الملك) قال: كهيئة المكوك، قال: وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب فيه، وعن الضحاك قال: (صواع الملك): إناء الملك الذي كان يشرب فيه، ورُوي مثل ذلك عن قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير[1]، وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه وتهويل سرقته[2] فإنه وإن كان هيِّنا بكونه صواعاً، فهو عظيم بنسبته إلى الملك[3] ثم تابع المؤذّن يقول:

«**وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ**»

«وَلِمَن جَاء بِهِ» أي: أظهره وردَّه من غير تفتيش ولا عناء،

«حِمْلُ بَعِيرٍ» وهو بالكسر: قدْر من المتاع مهيَّأ لأن يُحْمل على الظّهر، وأمّا الحَمْل في البَطْن فبالفتح، والمراد به حمل بعير من طعام كما قال مجاهد وغيره، فمن جاء بالصواع من رحله أخذ حمل بعير تَقْدُمَةً أو هدية بعد العفو عنه، لأنّ الاعتراف يهدم الاقتراف، وإن جاء به من رحل غيره أخذه على أنه جعالة أو عمالة أو أجْراً أو حلوانا مع شكره[4].

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/١٨-١٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٢٨.

(٣) يوسف بن يعقوب/٣٩٥-٣٩٦.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/٢/١٠٧٩-١٠٨٠.



هذا، ويبدو من قوله: «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ» ذكاء هذا القائل في اختيار الطعام جزاءً لمن جاء بالصواع، في الوقت الذي كانت فيه المجاعة في أوجّها[1] وحِمْل البعير من الطعام كان يساوي في ذلك الحين العصيب مبلغاً لا يستهان به، ومعلوم أن الشخص الذي يقدم إلى مصر من أقصى الأرض لا يعطي أكثر من حمل بعير واحد، حتى ولو كان معه ثمن عشرات الأحمال، أو كانت حاجته وحاجة أهله تفوق حمل البعير مرّات ومرّات ولما كان هذا الوعد بحمل بعير يحتاج إلى وجود كفيل يتعهد بتحقيقه؛ تابع المؤذّن يقول:

«وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» أي: ضامن وكفيل أؤديه إليه، وإفراد الضمير تارة (وأنا) وجمعه أخرى (نفقد) دليل على أن القائل واحد وهو المؤذّن[2] وهذا الوعد بحمل بعير لمن يجئ بالصواع قبل التفتيش، لم يكن على نيّة تحقيق الوعد، لجزمهم بامتناع وجود الشرط، وعزمهم على ما لا يَخفى من أخذ من وُجد الصواع في رحله[3] والظاهر أن المؤذّن كان ينفّذ خطة وضعها له يوسف - عليه السلام - بنفسه، وهو الأقرب، لأنه لو كان يفعل من تلقاء نفسه لجاز أن يخطئ فتفشل الخطة في استبقاء يوسف لأخيه، ويدل على ذلك أنه سأل الإخوة بعد ذلك عن جزاء السارق في شريعتهم، ولو كان المؤذن يقوم بهذا الإجراء دون إرشاد من يوسف - عليه السلام - لما كان هناك من داع لسؤاله هذا، فالقانون الواجب نفاذه في نظره هو قانون الملك وحسب. ودلّ قوله «وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ» على جواز الكفالة بنوعَيْها، الكفالة بالمال، والكفالة بالنفس، وهذا مطابق للحديث النبوي: «الزعيم غارم»[4] وهو رأي المذاهب الأربعة، ولم يُجِز بعضهم الكفالة بالنفس لعجز الكفيل عن إحضار المكفول بنفسه[5].

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٢٧.

(٢) نظم الدرر / ٤ / ٧٧.

(٣) انظر: فتح البيان / ٦ / ٣٧٤.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وحسّنه، وابن حِبّان وصحّحه، وعن أبي أمامة الباهلي وغيره.

(٥) التفسير المنير / ١٣ / ١٨٣.

رفع المسـاهم

كما تدل هذه الآية على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وهي التي حكم بها الرسول ﷺ في الحديث السابق،...

فإن قيل: هذه كفالة بشيء مجهول، فكيف تصح؟

قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم، فصحّت الكفالة به، إلا أن هذه كفالة مال لردّ سرقة، وهي كفالة بما لم يجب، لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على ردّ السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم(١).

المضمون العام للآيات الكريمة (٧٠، ٧١، ٧٢):

أراد يوسف - عليه السلام - استبقاء أخيه بنيامين معه في مصر، فاتخذ لذلك حيلة أسرها إلى بنيامين، وهي أنه - عليه السلام - لما جهزهم بجهازهم من الطعام وما يلزم لهم في سفرهم، جعل بنفسه السقاية في رَحْل أخيه بنيامين، ثم لما انطلق الإخوة عائدين إلى بلادهم، وابتعدوا مسافة غير بعيدة، لحق بهم رجال يوسف ونادى مناديهم عليهم قائلاً: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»، قال الإخوة وقد توقفوا عن السير وأقبلوا على المنادي وأصحابه: «مَّاذَا تَفْقِدُونَ»؟ فأجابهم المؤذن قائلاً: نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير من الطعام، وأنا بذلك الحمل ودفعه له كمكافأة زعيم متكلف بذلك.

سابعاً - من فيض نور الآيات الكريمة:

١ - حسن تدبير يوسف - عليه السلام - في استعمال الحيلة لاستبقاء أخيه الشقيق (بنيامين) معه في مصر.

٢ - جواز استعمال الحيلة للوصول إلى الحق بشرط ألا يؤدي ذلك إلى ارتكاب محرم على الحقيقة.

٣ - مشروعية إعطاء المكافآت لمن يقوم بعمل معيّن، وهي (الجَعَالة) في الفقه.

٤ - مشروعية الكفالة، والكفيل، والغارم.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ١٨/ ١٣/ ١٨٣.



«من الآية الثالثة والسبعين، إلى الآية الخامسة والسبعين»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ» فَسَدَ: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويُضادُّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فَسَدَ فَسَاداً وَفُسُوداً، وأفسده غيره، قال تعالى: «وَاللّه يَعْلَم المُفْسد مِنَ المُصْلح»(١).

«قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ» الجزاء: الغنَاء والكفاية، قال تعالى «وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً» والجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرّ، يقال: جزيتُه كذا، وبكذا، قال تعالى: «وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً»، وقال: «جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً»(٢) والجزاء: المكافأة على الشيء، كالجازية، يقال: جزاه به، وعليه جزاءً، ومجازاةً، وجزاءً(٣).

«كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمينَ» الظلم: يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر ويقلّ من التَّجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تَعدّيه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلميْن بون بعيد(٤) وهو أنواع: ظلم بين الإنسان وربه، وظلم بينه وبين الناس، وظلم بينه وبين نفسه.

---

(١) المفردات (كتاب الفاء) ٣٧٧. (٢) المفردات (كتاب الجيم) ٩٣.

(٣) القاموس المحيط (حرف الجيم) ١٤٦٠. (٤) المفردات (كتاب الظاء) ٣١٥.



رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)»

التّاء حرف جرّ وقسم، والله لفظ الجلالة مجرورة بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره (نُقْسِم) واللام واقعة في جواب القسم، أو هو تأكيد للقَسَم الأول، وقد حرف تحقيق، وعلمتُم فعل وفاعل، وما نافية، وجئنا فعل وفاعل، ولنفسد، اللام للتعليل، والفاعل مستتر تقديره (نحن) وفي الأرض، جار ومجرور متعلّقان بـ(نفسد) وما كنا، ما نافية، وكان واسمها وسارقين خبرها.

«قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)»

الفاء الفصيحة، وما اسم استفهام مبتدأ، وجزاؤه خبر، والضّمير للصواع، أي: فما جزاء سرقته، أو الضمير للسارق، وإن شرطية، وكنتم فعل الشرط، وكاذبين خبر كان، وجواب إنْ محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: فما جزاء سرقة الصواع أو السارق.

«قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)»

قالوا فعل وفاعل، وجزاؤه مبتدأ، ومَنْ شرطية أو موصولة مبتدأ ثان، ووجد صلة أو فعل الشرط، وفي رحله متعلقان بـ(وجد) والفاء رابطة على الوجهين، وهو مبتدأ، وجزاؤه خبر، وجملة (فهو جزاؤه) خبر مَنْ، ومَن وما في حَيِّزها خبر المبتدأ الأول، والضمير على هذا الإعراب يعود على السارق، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ، والهاء تعود على المسروق، و(من وجد في رحله) خبره، ومَن بمعنى الذي، والتقدير، وجزاء الصواع الذي وجد في رحله، ويجوز أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، أي المسئول عنه جزاؤه، أي: استرقاقُه جزاؤه، وكانت تلك شريعة آل يعقوب(١).

هذا، وقد استعرض صاحب كتاب (الدر المصون) السّمين الحلبي، الأوجه التي أوردها العلماء في إعراب قوله تعالى: «قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ»

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥/ ٢٦، ٢٩.



بالتفصيل، مع التعليق على ما جاء في الكشّاف، والمحرَّر، والبحر، بخصوصها، تارة بالصحة وتارة بالضّعف، وذلك فيما يقارب أربع صفحات،[1] وخلاصة الأوجه الأربعة التي ذكرها كما حدّدها محقّق (الدر المصون) الدكتور أحمد محمد الخرّاط هي:

(الأول) جزاؤه مبتدأ، ومَن مبتدأ ثان، والجملة خبر الأول.

(الثاني) جزاؤه مبتدأ، ومَن خبر.

(الثالث) جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، ومَن مبتدأ.

(الرابع) جزاؤه مبتدأ خبره محذوف، ومَن مبتدأ[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) الدر المصون / ٦ / ٥٢٩-٥٣٢.

(٢) انظر: الكشاف / ٢ / ٣٣٤-٣٣٥، والمحرر الوجيز / ٩ / ٣٤٣-٣٤٤، التّبيان في إعراب القرآن (للعكبري) ٢ / ٧٣٩، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٨٥-٨٦.



سادساً - الشرح والبيان:

إخوة يوسف - عليه السلام - يردون التهمة ويؤكدون البراءة

«الآية الثالثة والسبعون»

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾

وجه المناسبة:

لما أجاب المؤذّن الإخوة عن سؤالهم «ماذا تفقدون»؟ بأنهم يفقدون صواع الملك، وذلك يعني أنهم يَتَّهمونهم بسرقته، فما كان من الإخوة إلا أن ردُّوا هذه التهمة وأكّدوا براءتهم.

«قالوا تالله لقدْ علِمتم مَّا جئنَا لِنفسِدَ فِي الأرْض...»

لقد كانت التهمة التي اتّهموا بها خطيرة، خاصة وهم أبناء نبي الله يعقوب – عليه السلام – الذي يعرفه الجميع، ومن أهل التقوى والورع، وقد تربّوا في مدرسة أبيهم يعقوب النبويّة الرسوليّة الإلهيّة، ولذا فقد وقع كلام المؤذّن على رؤوسهم وقْع المطارق المرْجِفة، فغضبوا لتلك الإهانة البالغة، ولم يسكتوا عليها، بل أجابوا المؤذّن ومن معه بإجابة تدلّ على الثقة والاطمئنان من براءتهم من تلك التهمة، كما تعلن عن التعجّب والاستغراب من هذا الاتهام المرفوض.

«**قالوا تالله**» أقسموا بالتاء من حروف القسم، لأنها يكون فيها التعجّب غالباً، كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر، فالتاء تفيد التعجّب زيادة على ما سواها، ولا تدخل التاء في القسم إلا على لفظ (الله) من بين أسمائه تعالى، لا تقول: (تالرحمن) و(تالرحيم) ثم استأنفوا الإخبار عن نفي صفة السرقة عنهم، وأن ذلك لم يوجد منهم قط[1] واستشهدوا يعلم رجال يوسف لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرَّتَيْ مجيئهم[2] ومداخلتهم للملك فقالوا:

---

(١) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٢.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٨١.



«لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ» أي: لنسْرق، لأن السرقة من أعظم أنواع الفساد في الأرض ومن معصية الله تعالى، روي ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: «لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ» يقول: ما جئنا لنعصي في الأرض[١]. والمراد بالأرض، أرض مصر، فهؤلاء الإخوة يتعجبون من الذين قالوا لهم ما قالوا، دون أن يرعوا حرمة لأمانتهم ودينهم المعروفين[٢]، وإنما قالوا «لَقَدْ عَلِمْتُم» في مواجهة رجال يوسف، لأنهم قد كانوا عرفوهم بالصلاح والعفاف، وأن مهمتهم وقدومهم إلى مصر ليس إلا للميرة، فكأنهم يقولون لهم: لقد علمتم صدقنا وموافقة ظاهرنا لباطننا، وقد رأيتم وشاهدتم بأنفسكم كيف أكرمَنا العزيز غاية الإكرام، أكرمنا في المرة الأولى حين قدمنا إليكم، لما علم أننا أبناء نبي الله يعقوب - عليه السلام - الذي يعرفه الجميع، وزادنا إكراماً هذه المرة أيضاً لأننا جئناه بالدليل على صدقنا فيما حدثناه به من أمورنا وأحوالنا، فأتيناه بأخ لنا من أبينا، كما جئناه بالبضاعة التي ردها إلينا وجعلها في رحالنا أول مرّة، ولو كان من خُلقنا أخذ شيء لغيرنا لأخفينا ثمن الميرة الذي أعاده لنا، ومن يؤدّ الأمانة في غائب لا يقدم على سرقة حاضر، ثم إنه ما رآى أحد شيئاً يسوءه منا، بل كنا بحمد الله تعالى مثالاً للحفظ والأمانة وشدة الاحتياط في كل أمورنا، وما كنا لنسرق العزيز بعد أن وفّانا كيلنا وزادنا وأكرمنا كل هذا الإكرام.

إن إخوة يوسف - عليه السلام - كانوا واثقين كل الثقة من براءتهم، وأنّ سرقة صواع الملك هذا لا يمكن أن يقدم عليه أحد أبناء نبي الله يعقوب - عليه السلام - ولذا جرى على ألسنتهم الفعل (علمتم) وهو الفعل الأقوى في الدلالة على العلم اليقيني والمؤكد بما قبله، أي: لقد علمتم علماً جازماً مطابقاً للواقع[٣] ثم أكّدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم:

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢١، والدر المنثور/ ٤/ ٥١.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٢٩.

(٣) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٣١، وتفسير الألوسي/ ٧/ ٢٦.

رفع المسيهما

«وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ» لزيادة التَّبَرّي مما قذفوهم به، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشّنعاء[1] ومعنى (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) أي: وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا[2] وإن هذه الجزئية (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) تتعلق بالماضي والحاضر، فإن الإخوة في ذلك الظرف الصعب أكثر ارتباطاً بالفترة الزمنية التي لهم فيها علاقة بالفتيان والمؤذّن، وأكثر تمثّلا لها وتعلقاً بها من سواها[3].

ماذا لو فكر إخوة يوسف فيما عُرض عليهم من كافأة قبل التفتيش وأخرجوا الصواع من رحل بنيامين؟

إنه لو حدث ذلك لانتهت خطة يوسف - عليه السلام - لاستبقاء أخيه بنيامين معه بالفشل، فلو فكر إخوة يوسف قليلاً فيما عُرض عليهم أخيراً من كافأة لمن يأتي بالصواع قبل التفتيش، وخُروجاً لهم من أي تهمة يمكن أن تلصق بهم بعد التفتيش إذا وجد الصواغ في رحل أحدهم، بل وطلبا للسلامة والإسراع بالعودة، إذاً لبدأوا بأنفسهم تفتيش رحالهم، لعل سهواً وقع، أو أن صاحب الكيل وضعه دون أن يشعر ولا بأس من التأكد، فيقوم كل واحد منهم بذلك لنفسه، فإذا وجده أحدهم في رحله أعطاه لزعيم الفريق الضامن للجائزة المعهودة، ونالوا حمل بعير زائدا على ما معهم، وخلصوا أنفسهم من كل ما يعترض طريق عودتهم أو يوقعهم فيما لا يشتهون، ولكن الله تعالى أذهب عنهم التوفيق وحسن التّعقّل ومدارسة الأمر بصورة مناسبة، لتتمّ إرادة الله تعالى، فغلب عليهم الغضب لأنفسهم من هذا الاتهام البشع، وأخذوا في الدفاع عنها وردّ التهمة بكل قوة، وأصبحت المسألة في نظرهم مسألة كرامة وعزة نفس، وغفلوا عن طريق السلامة والصواب، فقالوا لمن اتهموهم بالسرقة (لقد علمتم... الخ) وبقولهم هذا وبإنكارهم الشديد للاتهام بالسرقة، وعدم اهتمامهم بما عُرض عليهم قبل التفتيش، فتحوا الباب على مصراعيه أمام رجال يوسف لإجراء التفتيش عليهم.

---

(١) فتح القدير / ٣ / ٤٥.

(٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٤.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٣١.



استدراج رجال يوسف للإخوة كي يحكموا بشريعتهم على من سرق:

«الآية الرابعة والسبعون»

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾

وجه المناسبة:

لما ردّ الإخوة التهمة عن أنفسهم بكل ما استطاعوا، فكأنه قيل: فما قال المؤذّن ومن معه بعد ذلك؟ قيل:

«قَالُواْ فَمَا جزَآؤُهُ...»(١)

لقد دافع إخوة يوسف عن أنفسهم دفاعاً قوياً واضحاً كما سبق، وأجهدوا أنفسهم في ردّ التهمة عنهم، ولكن الخطة المحكمة التي نسج خيوطها يوسف - عليه السلام - بوحي من ربه عزّ وجل، لم تبلغ غايتها بعد، ولهذا لم يأخذ رجال يوسف بهذا المنطق الذي تكلم به الإخوة، بل مضوا في الاتهام توصلا للكشف عن المتهم وهذا هو المطلوب، وهذه الجملة «قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ» مستأنفة، والقائلون هم رجال يوسف أو المنادي وحده(٢) ومعنى «مَا جَزَاؤه» أي: ما عقابه، وضمير «جَزَاؤه» عائد إلى الصواع بتقدير مضاف دل عليه المقام، أي: ما جزاء سارقه أو سرقته(٣).

«إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ» في قولكم «وَمَا كُنَّا سَارِقِين»(٤) وتبيّن الصواع في رحالكم، وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف - عليه السلام - وأعد الخطة المحكمة لتحقيقه، فإنه - عليه السلام - وهو يضع هذا السؤال لفتيانه قد أيقن أن إخوته ولا شك سيحكمون شريعتهم في قضية السرقة، وما كان فتيانه يدرون شيئاً عن شريعة يعقوب - عليه السلام -، مما يدل على أن هذا السؤال كان من إعداد يوسف - عليه السلام - وعن طريق نفس السؤال يتم الكيد للإخوة بحكمهم هم على أنفسهم، وهذا ما حدث كما سيأتي في الآية التالية.

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٧٧-٧٨. (٢) فتح القدير/ ٣/ ٤٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٠.

(٤) تفسير بن عطية/ ٩/ ٣٤٣.



جواب محقق للمطلوب:

«الآية الخامسة والسبعون»

قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

وجه المناسبة:

لما كان الإخوة واثقين من براءتهم من تلك التهمة، أجابوا رجال يوسف - عليه السلام - بما يتضمّنه الحكم في شريعتهم على من سرق،

«**قالوا جزآؤه من وجد في رحله...**» أي: يُسْتَعْبَد ويُسْتَرقّ، فجزاؤه مبتدأ، و«مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ» خبره، والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد في رحله، فهو كناية عن الاستعباد(١) فيسلّم السارق بسرقته إلى المسروق منه، وكان ذلك سُنَّة آل يعقوب - عليه السلام - في حكم السارق، قاله ابن إسحاق والسدي ومعمر وغيرهم، وعن ابن زيد في قوله «قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ» قال: عرّفوا الحكم في حكمهم فقالوا: «جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ»(٢) وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرّم ضِعْفَيْ قيمة المسروق، فأراد يوسف - عليه السلام - أن يحبس أخاه عنده فردّ الحكم إليهم ليتمكّن من حبسه عنده على حكمهم(٣) وجملة «فَهُوَ جَزَاؤُهُ» زيادة في البيان، أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير(٤) ذلك هو شرعهم الذي يدينون به، فلا تزر وازرة وزر أخرى.

«**كذلك نجزي الظالمين**» هذه الجملة بقية كلام إخوة يوسف، والمعنى: مثل ذلك الجزاء الأوْفى نجزي الظالمين بالسرقة، وهو ديننا وسنتنا في أهل السرقة، وهي مؤكّدة لما قبلها على أنها من كلام إخوة يوسف، وهو الظاهر(٥) ولقد كان تحكيم إخوة يوسف في تحديد الجزاء على السرقة آية من آيات الله تعالى، تمكّن يوسف - عليه السلام -

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٣٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٢، والدر المنثور/ ٤/ ٥١.

(٣) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٦١. (٤) فتح القدير/ ٣/ ٤٥.

(٥) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٨، وروح المعاني/ ٧/ ٢٧.



من استبقاء أخيه، فلو حكم على أخيه (بنيامين) بعد ثبوت السرقة عليه بالقانون الوضعي المصري لما تمكن من الاحتفاظ به عنده، ولرُدّ إلى إخوته بعد ثبوت السرقة عليه، بعد أن يُضرَب ويدفعون غرامته ببيع بعض ما معهم من أحمال أبْعِرَتهم، وحينئذ يجد الإخوة سبباً قويّاً للنّيل من بنيامين، والإساءة الشديدة إليه(١).

المضمون العام للآيات الكريمة (٧٣، ٧٤، ٧٥)

(٧٣) أقسم الإخوة قائلين في مواجهة رجال يوسف: تالله لقد علمتم من أحوالنا وأخلاقنا أننا ما جئنا لنفسد في الأرض هذه، أي بلدتكم، وما كنّا سارقين قط، وليست السرقة من خلقنا وأعمالنا.

(٧٤) هناك قال لهم رجال يوسف -: فأي شيء جزاء السارق عندكم إن ثبت على واحد منكم أنه سارق وكنتم كاذبين في قولكم (وَمَا كُنَّا سَارِقِين)؟

(٧٥) فأجابهم الإخوة: جزاء السارق عندنا هو أن يسترقّ ويكون عبدا لصاحب المال المسروق، فبمثل هذا الجزاء نجزي الظالمين بارتكاب السرقة.

سابعاً - من فيض نور الآيات الكريمة:

١ - جواز الحلف بالله تعالى عند الضرورة.

٢ - مشروعية دفع التهمة عن النفس البريئة.

٣ - السرقة من أشد المنكرات وأعمال الإفساد في الأرض، والشارع الحكيم يعاقب السارق بقطع يده بشروط معلومة في الفقه.

٤ - الإفساد في الأرض بكل صورة وأشكاله محرم في كل الشرائع السماوية.

٥ - ذكاء السؤال المؤدي للإجابة المطلوبة.

٦ - إفصاح الإخوة عن حكم السرقة في شِرْعة يعقوب - عليه السلام -.

٧ - سير الخطة لاستبقاء بينامين في مصر مع يوسف - عليه السلام - كما خُطّط لها تماما، وذلك بتوفيق الله تعالى.

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٣٩٧.

رفع المسهم

الآية السادسة والسبعون

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

ثانياً - القراءات:

«ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ» وعاء: الجمهور على كسر الواو (وِعاء أخيه) وهو الأصل لأنه من وَعى[١] وقرأ الحسن (من وُعاء) بضمّ الواو، وكذلك جاء عن نافع، وقرأ ابن جبير (مِنْ إِعاء) بإبدال الواو المكسورة همزة، كما قالوا: إِشَاح، وإِسَادَة، في وِشاح، ووِسَادة، وذلك مطّرد في لغة هُذَيْل، يُبْدِلون من الواو المكسورة الواقعة أوّلاً همزة.

«نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء» قرأ الجمهور «نَرْفَعُ دَرَجاتِ مَن نَّشاء» بالنون فيهما على ضمير المعظّم، وإضافة درجات، أي: نرفعُ نحنُ دَرَجاتِ من نريدُ رفع درجاته، والرافع هو الله تعالى.

وقرأ الكوفيّون (دَرَجَاتٍ) بالتَّنْوين، والوجه أنّ التقدير: نرفع من نشاء درجاتٍ، فيكون الرّفع لأصحاب الدرجات، وقرأ يعقوب بالياء في (يرفع) و(يشاء) أي: يرفع الله درجات من يشاء رفع درجاته.

«وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» قرأ الجمهور: «وفوق كل ذي علم عليم» وقرأ عبد الله بن مسعود: «وفوق ذي عالم» فخرجت على زيادة (ذي) أو على أن قوله (عالم) مصدر بمعنى علم، كالباطل، أو على أن التقدير: وفوق كل ذي شخص عالم[٢].

---

(١) التّبيان في إعراب القرآن / ٢ / ٣٩.

(٢) أنظر: تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٤٥-٣٤٦، وتفسير البحر / ٥ / ٣٢٨، والموضح في وجوه القراءات وعللها / ٣ / ٦٨٥، والدر المصون / ٦ / ٥٣٢-٥٣٣، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٨٧.



ثالثاً - اللغة:

«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ» وَعَي : الوعي : حفظ الحديث ونحوه، يقال : وَعَيْتُهُ في نفسه، قال تعالى : «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»، والإيعاء : حفظ الأمتعة في الوعاء، قال تعالى : «وَجَمَعَ فَأَوْعَى»، وقال : «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ»، وقال الشاعر : والشَّرُّ أَخْبَثُ مَا وَعَيْتُ من زاد.

والوعاء يقال بضم الواو (وُعَاء) وكسرها (وِعَاء) لغتان، وهو ما يحفظ فيه المتاع[1].

«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» قال ابن الأعرابي : الكيد : التّدبير بالباطل وبالحق، فعلى هذا يكون المعنى كذلك دَبَّرْنا ليوسف، وعبارة ابن الخشّاب : وَلِكاد استعمال آخر تكون فيه بمعنى أراد، وعلى ذلك أنشد أبو الحسن (الأخفش) وغيره :

كادَتْ وَكِدتُ وتلك خير إرادة * * لو عاد من عصر الشبيبة ما مضى

وحملوا عليه قوله تعالى : «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» أي : أردنا[2].

«مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» دين الملك : أي : سلطانه، كما فسره ابن عباس، أو هو القضاءُ والحكم، كما فسره قتادة، وأصل الدين : الطاعة[3].

رابعاً - الإعراب:

«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ»

الفاء عاطفة، وبدأ فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره (هو) وبأوعيتهم جار ومجرور متعلّقان بـ(بدأ) وقبل ظرف زمان متعلق بمحذوف حال، ووعاء أخيه مضافان، وثم حرف عطف، واستخرجها فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والهاء تعود على الصواع لأنّ فيه التذكير والتأنيث، أو على السقاية لأن الصواع يحمل معناها، ومن وعاء أخيه متعلقان بـ(استخرجا).

---

(١) انظر : المفردات (كتاب الواو) ٥٢٧-٥٢٨، وتفسير القرطبي / ٩ / ٢٣٥.

(٢) انظر : فتح القدير / ٣ / ٤٥، وإعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٢٨.

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٨.



«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» الكاف نعت لمصدر محذوف كما تقدم، وليوسف متعلقان بـ(كدنا).

«مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» ما، نافيه، وكان فعل ماض ناقص، واسمها مستتر، واللام للجحود، ويأخذ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، واللام ومجرورها في موضع الخبر، وأخاه مفعول به، وفي دين الملك حال.

«إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ» الاستثناء منقطع، إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد بقوله: «إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ» لأنه أخذه بشريعة يعقوب، أو الاستثناء متّصل من أعَمِّ الأحوال، أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له، وجملة (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ... الخ) تعليل لما صنعه الله تعالى من الكيد ليوسف، أو تفسير له، وعلى كلّ لا محلّ لها.

«نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» درجات، منصوب على الظرفية، ومن مفعول به، وجملة نشاء صلة، وفوق، الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وكل ذي علم مضافان، وعليم خبر(١).

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٢٩-٣٠، وانظر الفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٨٧-٨٨، والدّرّ المصون / ٦ / ٥٣٣-٥٣٤.



خامساً - الموقف من المتعارضات:

الأمر الأول: من الذي قام بتفتيش رحال إخوة يوسف؟

ذهب أكثر المفسرين إلى أن يوسف - عليه السلام - هو الذي قام بتفتيش رحال إخوته، سواء أكان ذلك بنفسه، أو أمر به المؤذّن تحت إشرافه، فعن قتادة في قوله: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ» قال: ذُكر لنا أنه كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تعالى تأثُّماً ممّا قذفهم به، حتى بقي أخوه بنيامين وكان أصغر القوم، قال: ما أرى هذا أخذ شيئاً، قالوا بلى فاسْتَبْرِه[1] فاستخرجها من وعاء أخيه.

وعن ابن جريح قال: ذُكر لنا أنه كان كلما بحث متاع رجل منهم استغفر ربه تأثُّماً، قد علم أين موضع الذي يطلب، حتى إذا بقي أخوه وعلم أنّ بُغْيته فيه قال: لا أرى هذا الغلام أخذه، ولا أبالي ألا أبحث متاعه، قال إخوته: إنه أطيب لنفسك وأنفسنا أن تستبْرِيَ متاعه أيضاً، فلما فتح متاعه استخرج بغيته منه، قال الله تعالى (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) وروي عن السُّدّي وغيره مثل ذلك[2] ومن الأئمة الذين ساروا على هذا الاتجاه، الماوردي، والبغوي، والزمخشري، والفخر الرازي، وأبو حيّان، وأبو السعود، والشوكاني الذي قال: فأقبل يوسف على ذلك فبدأ بتفتيش أوعيتهم[3].

وقد استدل أصحاب هذا الاتجاه بأدلة متعددة، قال الإمام ابن عطية: وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف - عليه السلام - لأنه كان يفتشهم يعلم أين الصواع[4]. وقال الشيخ محمد طه الباليساني: ولا يبعد أن يكون المفتش نفس يوسف، قام بنفسه بذلك لشدة الاهتمام بالموضوع[5].

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري: وهنا أخذ يوسف بنفسه يفتش أوعية إخوته بحثاً

---

(١) أصله: استبرئه، أي: اطلب براءته بتفتيشه، ثم خَفَّفَ الهمزة وحذفها للأمر.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٣، والدر المنثور/ ٤/ ٥١.

(٣) فتح القدير/ ٣/ ٤٥.

(٤) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٤٦.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٥٥.



عن الصواع، وبدأ بأوعيتهم واحداً بعد واحد، وآخر وعاءٍ وعاءَ أخيه (بنيامين) دفعاً للتهمة والتواطؤ في القضية، حتى استخرجها من وعاء أخيه الذي كان في رحله، وهذا ما دل عليه قول تعالى: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ»(١).

وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: وتولي عليه السلام تفتيش رحالهم بنفسه حفظاً لكرامتهم، وبدأ بأوعيتهم كي يطمئنوا على براءتهم(٢).

ويقول الدكتور حسن محمد باجودة: إن جملتَيْ (بدأ) و(استخرج) من قوله تعالى: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ» تعودان كما هو واضح إلى شخص مفرد، وليس عندنا سوى المؤذّن والعزيز اللذين يمكن أن يعود إليهما ضمير الجملتين، كما يقول ذلك السياق، ونريد أن نَعْرِفَ بصفة أكيدة على من يعود الضميران فنتساءل: أيمكن أن يكون المراد المؤذّن في هذه الآية؟ والجواب بالنفي، لماذا؟ لأن تركيب هذه الجزئية «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ» لا يهئ لفهم كهذا، فلو كان المؤذن هو المراد لجاء السياق في صورة كهذه: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَائه» فدل عدم مجئ اسم يوسف في الظاهر أن الضمير في الفعلين لا يعود على المؤذن، وهذا يعني بالتالي أنه بالضرورة يعود على يوسف(٣).

وذهب قلة من المفسرين إلى أن التفتيش لم يقم به يوسف - عليه السلام - بنفسه ولم يكن في حضرته، روي ابن جرير وغيره عن ابن إسحاق قال: لما قال الرسول لهم: «وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ» قالوا: ما نعلمه فينا ولا معنا، قال: لستم ببارحين حتى أفتّش أمتعتكم وأعذر في طلبها منكم، فبدأ بأوعيتهم وعاءً وعاءً يفتشها وينظر

---

(١) أيسر التفاسير / ٢ / ٦٣٣.

(٢) يوسف بن يعقوب / ٣٩٨.

(٣) الوحدة الموضوعية لسورة يوسف / ٢٢٤-٢٢٥.



ما فيها، حتى مر على وعاء أخيه ففتشه، فاستخرجها منه، فأخذ برقبته، فانصرف به إلى يوسف، يقول الله: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»[١] وقال الإمام القاسمي: (فبدأ) أي: فتى يوسف (بِأَوْعِيَتِهِمْ) أي: فتشها (قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ) أي: بنيامين، دفعاً للتهمة[٢]...

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (فبدأ) المتفش (بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ) وذلك لتزول الريبة التي يُظَنُّ أنها فُعِلت بالقصد[٣].

الترجيح:

ومما سبق يظهر لنا أن الاتجاه القائل بأن يوسف - عليه السلام - هو الذي قام بالتفتيش بنفسه أو بواسطة أحد رجاله تحت إشرافه التام، هو الراجح، فهذا هو الذي يتفق مع مدلول النص وطريقة تركيب الجزئية المتعلقة بالموضوع، والذي يتناسب مع شدة الاهتمام بالموضوع، والمحافظة على كرامة إخوانه، كما أن هذا هو المفهوم من أقوال أكثر أهل السلف، ثم إن الأمر كان أمر وحي، وسيترتب على تنفيذه على الوجه المراد أمور بالغة الأهمية، ويخشى حدوث خلل في التنفيذ إذا تم بعيداً عنه - عليه السلام - كأن ينسب بعير بنيامين مثلاً إلى أحد إخوته ولو بطريق الخطأ، فتبطل الخطة كلها، لهذا كان لا بد وأن يكون التفتيش تحت إشرافه - عليه السلام - مباشرة، سواء كان بنفسه أو بواسطة أحد رجاله، وأما رواية ابن إسحاق، التي تقول إن رسول يوسف هو الذي فتش أمتعة الإخوة في مكانهم بعيداً عن يوسف، فإنها تحمل بين طيّاتها ما يبطلها، حيث إنها أسقطت ما جاء في القرآن الكريم من سؤال المؤذن الإخوة عن الجزاء إن كانوا كاذبين الخ، وعلّقت الرواية التفتيش على قول رسول يوسف (المؤذن): «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ» قالوا: لا نعلمه فينا ولا معنا، هنالك قال رسول يوسف

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/٢٣.

(٢) تفسير القاسمي/٤/٣٨٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن/٢/٤٤١.



لهم: (لستم ببارحين حتى أفتش رحالكم) وهذا مخالف للنص القرآني، وإذاً فالرواية في ذاتها لا تصلح للتدليل بها على أن رسول يوسف هو من قام بالتفتيش وحده بعيداً عن يوسف - عليه السلام -.

الأمر الثاني: أين مكان التفتيش؟:

وبالنسبة للمكان الذي تم فيه تفتيش أوعيتهم فقد انقسم العلماء إلى فريقين:

فريق يرى أن التفتيش تم في المكان الذي يجلس فيه العزيز، وهذا يعني أن رجال العزيز الذين تتبعوا إخوة يوسف، لمّا أمروهم بالوقوف واتهموهم بالسرقة، عادوا بهم مباشرة إلى يوسف - عليه السلام - في مجلسه، فقام بتفتيش رحالهم بنفسه أو تحت إشرافه مباشرة، ومع هذا الاتجاه يقول الإمام الزمخشري: (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ) قيل: قال لهم من وُكِّل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم[1].

وقال الإمام الفخر الرازي: اعلم أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يُسترق، قال لهم المؤذن: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم، فانصرف بهم إلى يوسف[2].

وقال الإمام أبو حيان في تفسيره بما قال به الإمام الزمخشري[3] وقال الإمام أبو السعود: (فبدأ) يوسف - عليه السلام - بعد ما رجعوا إليه للتفتيش (بِأَوْعِيَتِهِمْ)[4].

وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله: عاد رجال العزيز بالقافلة حتى مَثُلَ الجميع أمام العزيز، ومن التحقيق تبين أن إخوة يوسف - عليه السلام - هم آخر من كال فانحصرت الشبهة فيهم، وتولى - عليه السلام - تفتيشهم بنفسه[5] وقال الدكتور حسن محمد باجودة؛ بعد أن دلَّلَ على أن التفتيش قام به يوسف - عليه السلام -

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٥. (٢) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ١٨٥.
(٣) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٨. (٤) تفسير أبي السعود / ٤ / ١٣ / ٢٩٦.
(٥) يوسف بن يعقوب / ٣٩٨.



كما ذكر سابقاً، قال: وقد يبدو لأول وهلة أن تحقيق من يعود عليه الضميران في (بدأ) و(استخرج) ليس من الأهمية بمكان، ولكن الحقيقة غير ذلك، إذ حينما يتضح أن الذي قام بالتفتيش الفعلي هو يوسف - عليه السلام - فهذا يعني أن سلطة الفتْيان والمؤذن محددة، وهذا يعني أيضاً أن التفتيش لم يتم في القرية التي لحق المؤذن العير فيها، ولكن في مدينة العزيز نفسها، إذ من المستبعد تماما أن يتحول العزيز إلى المكان الذي وصلت إليه القافلة بقصد البحث عن الصواع، فلا يتمشى هذا بالكلية مع الهيبة التي كانت للعزيز دائماً، والأقرب إلى العقل أن يكون الإخوة هم الذين عادوا إلى المدينة، والله أعلم(١).

وفريق آخر من المفسرين يرى أن التفتيش تم خارج مدينة العزيز، وهم من الذين قالوا بأن التفتيش لم يقُمْ به يوسف - عليه السلام - وإنما جُنْدُه، وخلاصة ما استدلوا به على ما ذهبوا إليه ما يلي:

أولاً - قوله (فبدأ) عبّر بالفاء ليفيد عدم مرور وقت بين قولهم (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) وبين بدء التفتيش.

ثانياً - العقل والعادة، فإنهم لا يكلفون بالرجوع ولكن يفتشوا في نفس المكان حتى لا يشق عليهم الأمر.

ثالثاً - الواقع، فإن التاريخ ينص صراحة على أن التفتيش حصل خارج البلدة.

رابعاً - قولهم فيما سيأتي «وَاسأل القَريَة التي كُنّا فِيهَا وَالعِير التي أقبلنا فيها» فهذا يعني أن التفتيش تم في القرية التي وصلوا إليها وكان يرافقهم في رحلة العودة عير آخر(٢).

الترجيح:

والاتجاه الأول القائل بأن التفتيش لم يتم في القرية التي لحق المؤذن العير فيها،

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٢٤.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٩٤-١٠٩٥.



وأن الإخوة أعيدوا إلى المدينة وتم التفتيش بمعرفة يوسف - عليه السلام - هو الراجح والأقرب إلى القبول، إذ أن هيبة العزيز وعلو مكانته تحول دون تتبعهم بنفسه ليقوم بالتفتيش في نفس القرية التي لحقوا العير فيها، . . .

أما حجج الفريق الثاني الأربعة فيمكن الرد عليها بالاتي:

بالنسبة للتعبير بالفاء في قوله (فبدأ) فالمعنى، فبعد وصولهم مباشرة إلى المكان الذي يجلس فيه العزيز بدأ بتفتيش رحالهم، ولم يمض وقت بين وصولهم وتفتيشهم، . . .

وأما بالنسبة لاستدلالهم بالعقل والعادة، فإن أمر هذا الكيد كان فوق العقل والعادة، إذ هو من تدبير الله تعالى ليوسف - عليه السلام - لاستبقاء أخيه، ثم إن عودتهم من القرية التي لحقوا بها إلى مكان العزيز، إنما كانت ليكون وقع الدرس المراد عليهم أشد، حيث يتولى العزيز بنفسه تفتيشهم ويستخرج الصواع من وعاء أخيهم، فتكون الصدمة أكبر وأعظم من أن يكون ذلك بأيدي رجاله، . . .

وأما بالنسبة لاستدلالهم بالتاريخ، فهذا الاستدلال ليس محل اتفاق، وإلا لما وقع اختلاف في الموضوع أصلاً، . . .

وأما بالنسبة لقول الإخوة بعد ذلك: «واسأل القرية التي كنا فيها» فلأن بداية حادثة التفتيش وقعت في تلك القرية وعلم بها أهلها، وعادت القافلة كلها إلى العزيز، ووقع التفتيش على عير الإخوة فقط، لأنهم آخر من كال، وكانوا يشكلون أكبر كتلة متماسكة في القافلة، وبذلك عرف أصحاب العير الذين كانوا معهم بالتفتيش وما ترتب عليه، والله أعلم.



سادساً - التفسير والبيان:

وبدأ التفتيش المزلزل المعلومة نتيجته مسبقاً:

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

وجه المناسبة:

ولما أجاب الإخوة على المؤذن ومن معه بما هو المطلوب، من تحكيم شريعتهم في السارق باسترقاقه، فحينئذ عادوا بهم مباشرة إلى يوسف - عليه السلام - في مجلسه ليبدأ التفتيش على أوعيتهم، قال تعالى:

«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ»

لقد كانت إجابة الإخوة على رئيس فرقة التفتيش عن صواع الملك وجزاء من سرقه، محققة للمطلوب الذي يرجوه يوسف - عليه السلام - وهو تحكيم شريعة يعقوب - عليه السلام - على من يثبت عليه أنه سرق الصواع، ولم يدر بخَلَد إخوة يوسف أنهم بإجابتهم تلك «قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» قد أفسحوا المجال كله، ويسروا بأفواههم الوسيلة المشروعة ليوسف - عليه السلام - ليحتفظ بأخيه بنيامين دون أي تعسّف منه بقهرهم على ذلك، فهو بخلقه النبوي الكريم بعيد كل البعد عن مثل هذا، وإنه لو حدث ذلك منه فرْضا لنُسب إلى الظلم والجوْر، ولا انطلق الإخوة يبحثون عن السر وراء إجبارهم على ترك أخيهم في مصر وانتزاعه منهم بالقوة، وربما توصّلوا وهم على درجة كبيرة من الفطنة والذكاء إلى حقيقة ما يجري، هنالك تفشل الخطة كلها ويصعب عودة الإخوة إلى رحاب أخيهم يوسف والانضواء تحت جناحيه الكريمين،.

وبعد إجابة الإخوة السابقة وإقرارهم بأن من وُجِد المسروق في رحله فجزاؤه



أن يُسْترق، قال لهم المؤذن: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم، فانصرف بهم إلى يوسف - عليه السلام - وعادت القافلة حتى مثل الجميع أمام العزيز، ومن التحقيق المبدئي تبين أن إخوة يوسف - عليه السلام - هم آخر من كال فانحصرت الشبهة فيهم، وتولى - عليه السلام - تفتيش رحالهم بنفسه أو تحت إشرافه التام حفظا لكرامتهم واهتماماً بالموضوع، وكان طبيعياً أن يبدأ يوسف - عليه السلام - بتفتيش أوعية الإخوة قبل الشقيق. فقد كان من إحكام الخطة التي دبّرها يوسف - عليه السلام - أن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، حتى لا يتسرب الشك إلى نفوسهم إذا بدأ بتفتيشه قبلهم ووجدوا صواع الملك لديه(١).

فإن هذا قد يوحي إليهم بأن الأمر مدبّر، وأن الصواع قد وضع في رحْل أخيهم كما وُضعت أثمان بضاعتهم في رحالهم من قبل، لهذا بدأ برحالهم لنفي التهمة والريبة من قلوبهم(٢) وتمكيناً للحيلة وإبقاء لظهورها(٣) فمعنى «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ» أي: فتشها قبله تَوْرية(٤) حتى لا يثير شبهة في التفتيش(٥)...

والوعاء: الظرف الذي يحفظ فيه الشيء، وكأن المراد به هنا ما يشمل الرحل وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش، ولذا لم يعبّر بالرحال على ما قيل، وعليه يكون - عليه السلام - قد فتش كل ما يمكن أن يحفظ الصواع فيه مما كان معهم من رحل وغيره(٦).

«ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ»

صيغة (استَفْعَل) من أخرج تفيد أنه طلب إخراجها من رحل أخيه بالبحث عنها فيه، وأفادت (ثم) أنه استغرق وقتاً في البحث في رحال إخوته حتى انتهى إلى وعاء أخيه، وكان آخر من كال له(٦) فقوله (ثم) أي: أنه لما لم يجد في أوعيتهم شيئا

---

(١) تاريخ الأنبياء/ ١٥١. (٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٣٥.

(٣) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٨. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٥.

(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٠. (٦) روح المعاني/ ٧/ ٢٨.

(٦) يوسف بن يعقوب/ ٣٩٨.



(اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ) أي: استخرج السقاية، وذكّر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لأنه أرجع بالتأنيث على السقاية.

وهذا التأنيث في تمام الرشاقة، إذ كانت الحقيقة أنها سقاية جعلت صواعاً، فهو كردّ العجز على الصدر، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعل يوسف كان يسميه (سقاية) وعبيده يسمونه صواعا[١] ومعنى «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ» أي: ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه[٢] وقال: (استخرجها) ولم يقل (وجدها) أو (سرقها أخوه) مراعاة للحقيقة الواقعة[٣].

وهكذا استدعت الحيلة ليتم إحكامها، أن يبدأ يوسف - عليه السلام - بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، وكانت النتيجة لهذا التفتيش معلومة مسبّقا، فوجد السقاية في رحل أخيه، أي كما خطط وتوقّع، . . .

قال الإمام السدي: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ» قال: فلما بقي رحل الغلام قال: ما كان هذا الغلام ليأخذه، قالوا: والله لا يُتْرَك حتى تنظر في رحله، لتذهب وقد طابت نفسك، فأدخل يده فاستخرجها من رحله[٤].

فحينئذ تم ليوسف - عليه السلام - ما أراده من إبقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته[٥]. . .

وبهذا التدبير خرج أخوهم من أيديهم وصار رهينة في يد الملك، مقابل السقاية التي اتهم بسرقتها[٦] وهذا هو الحكم بنص شريعة يعقوب - عليه السلام - وهو ما كان يهدف إلى تحقيقه يوسف - عليه السلام - فهو ولا شك، كان حريصاً على تطبيق الشريعة الإبراهيمية بحذا فيرها، ولو فرض أنه لم يوجه المؤذن أن يسأل إخوته

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٥، وتفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣١.
(٢) تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٢١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤١.
(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤١.
(٦) القصص القرآني الكريم منطوقه ومفهومه (الخطيب) ٤٧٠.



قائلا لهم: «فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ» فمعنى هذا أن إجابتهم «قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» لم تكن لتجري على ألسنتهم البتّة، وحينئذ يعطل الحكم الذي تقول به الشريعة الإبراهيمية، وفي حق من؟ في حق أتباع الشريعة الإبراهيمية نفسها - إخوة يوسف - ثم لا يُطبّق حينئذ إلا القانون الوضعي المصري، وهذا لم يكن ليحدث البتّة من يوسف - عليه السلام - وما حدث قد تحقق به المطلوب، لذا فقد كان السؤال من فرقة التفتيش لإخوة يوسف بإيحاء منه - عليه السلام - سؤالا حتميّا(١).

هول المفاجأة:

كان إخوة يوسف - عليه السلام - واثقين كل الثقة من أنهم جميعاً بريئون من هذه التهمة التي وجهت إليهم، حتى إنهم لما سئلوا عن جزاء من وجد الصواع في رحله، لم يشاءوا أن ينزلوا بأسلوبهم عن المستوى الرفيع الذي يساوي ثقتهم في طهر ذيْل كل واحد منهم، فجاء على لسانهم «مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ» أوّلاً، وجاء على لسانهم «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» ثانياً، فلم يجئ على لسانهم مثلاً: كذلك نجزي السارقين، قدل فرارهم إلى الظلم عن السرقة على سمّو منزلتهم، وقد كانوا يتحلون بالخلق الطيب والعمل الصالح، ولا غرو فهم أبناء نبي الله ورسوله يعقوب - عليه السلام - إلا فيما يتعلق بيوسف - عليه السلام - وأخيه(٢) ولهذا فحينما بدأ التفتيش تطاولت أعناقهم ليرى من اتهمهم صدق كلامهم، في أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض وما كانوا سارقين، فلما أخرج يوسف - عليه السلام - صواع الملك من رحل أخيهم أمام أعينهم وعلى مشهد من جموع الحاضرين، صُعقوا وبُهِتوا واقشعرّت أبدانهم وسكتوا وكأن على رؤوسهم الطير، فإن هذا المصاب الجلل الذي غشيهم برجْفته، ما كان أبداً ليخطر لهم على بال، وسرعان ما انطلق الإخوة صوب أخيهم بنيامين، ينظرون إليه نظر السخط

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٣٩.
(٢) المرجع السابق / ٢٣٣ وما بعدها.



والغضب، ويطلقون عليه قذائف حمم ألسنتهم، ويتبرؤون من عمله وينكرون علمهم بما فعل، وبنيامين ثابت في مكانه صابر على كل ما يوجه إليه من إخوته، فلم يرد أن يكاشفهم بالحقيقة خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه، فتبطل الحيلة التي دبرها يوسف - عليه السلام - فأبقى الأمر مكتوماً إلى حينه، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به، وبقي إخوة يوسف يتجرعون بألم شديد، مرارة هذا الدرس الرهيب الذي ألقاه عليهم يوسف - عليه السلام - بحكمة واقتدار، وبإلهام من الله العلي القهار.

وهكذا اقتضت الحكمة الإلهية تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا في يوسف[1].

ولما كان هذا كيدا عظيماً في أخذ أخيه بحكمهم مع ما توثّق منهم أبوهم، عظمه تعالى بالإضارة إليه بأداة البعد والإسناد إليه قال:

«كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»

معنى الكيد: الكيد كل قول أو فعل يراد به، إيقاع الغير في أمر لا يحبه، فمبدؤه السعي في الحيلة والخديعة ونهايته: إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وأكثر استعماله فيما يذمّ من الأقوال والأفعال كما في قوله تعالى: «إنّهُ مِنْ كَيدِكُنّ إن كَيدكُنّ عَظيم» وقد يستعمل في الممدوح كقوله تعالى في هذه الآية الكريمة «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» وللكيد معان كثيرة، فقد يراد به: الاحتيال والاجتهاد، وقد يراد به: الحرب، وتأتي كاد بمعنى طَلَبَ، وأراد، وغير ذلك من معان[3].

معنى (كدنا) هنا:

ذهب ابن جريح والسدي والضحاك إلى تأويل (كدنا) هنا بمعنى صنعنا[4]

وذهب ابن عيسى إلى تأويلها هنا بمعنى دبرنا[5] وكذا القتبيّ.

وذهب ابن الأنباري إلى تأويلها هنا بمعنى أردنا،

---

(١) تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٢١. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٧٨.

(٣) انظر: لسان العرب/ ٣ (فصل الكاف) ٣٨٣-٣٨٥، والقاموس المحيط حرف الكاف/ ٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٤-٢٥. (٥) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٩١.



قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ** لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى(١)

وقيل: كدنا: ألهمنا(٢)

كيد الله تعالى: قال الإمام ابن القيم: كيد الله تعالى نوعان: (لا يخرج عنهما)

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدراً محضاً، ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف - عليه السلام - في هذا الكيد - فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصواع في رحل أخيه وأرسل مؤذناً يؤذن «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» فلما أنكروا قال: «فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ» وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف قولهم: «مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» كيداً من الله تعالى أجراه تعالى على ألْسُنِ إخوته، وذلك خارج عن قدرته، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك بأن يقولوا: لا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقا، وقد كان يوسف - عليه السلام - عادلا لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم، فلو قالوا له ذلك لم يمكنه أن يُلزمهم بما لا يُلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ» أي: ما كان ليمكنه أخذه في دين ملك مصر لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه.

النوع الثاني: أن يلهمه أمراً مباحاً أو مستحباً أو واجباً يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا إلهامه يوسف - عليه السلام - أن يفعل ما فعل، هو من كيده سبحانه أيضاً، فيكون قد كاد له نوعَي الكيد(٣).

---

(١) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٣٦.

(٢) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٦٢.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان/ ١٤٣-١٤٦.



التدبُّر الأمثل في معنى الكيد المنسوب إلى الله تعالى:

يقول الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني: إن معاني (الكيد) تدور حول اتخاذ أعمال وتدابير توقع الآخرين فيما يكرهون، وبأدنى تأمّل يتضح لنا أن اتخاذ مثل هذه الأعمال قد يكون في الخير وقد يكون في الشر، وجانب الخير لا يكون مُنَافياً للكمال، بل هو من عناصره، فإذا شاع في تصورات العامة أو في العرف العام، أو كان أحد المعاني اللغوية تخصيص الكيد في الصورة القبيحة المستهجنة، التي لا تليق بكمال صفات الله جل وعلا، فلا يصح أن يسيطر هذا المعنى على مُتَدَبِّر ما نُسب إلى الله تعالى في القرآن الكريم من (الكيد) حتى يلجأ إلى التأويل بالمشاكلة أو غير ذلك، مادام باستطاعته أن يجد في المعاني اللغوية ما لا يتنافي مع كمال صفات الله عز وجل، بل هو ينطبق على ما نعلم بالنصوص القطعية الأخرى، وبالبراهين العقلية من صفات الله تعالى، وبناء على هذا نقول:

إن الكافرين يكيدون الشر، لأنهم يعملون بمكايدهم لإدْحاض الحق وإقامة الباطل في الأرض، أما الله تبارك وتعالى فإنه يكيد في الخير، لأنه لا يُصْلِحُ عمل المفسدين، بل يرد كيد الكفافرين إلى نحورهم، وينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه، ويؤيد أنصار الحق ويأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون، وينتهي بذلك الأمر دون إشكال ولا تأويل، وتستقيم عملية التدبّر لكلام الله تعالى(١).

مجئ الكيد في القرآن الكريم منسوباً إلى الله تعالى:

جاء الكيد منسوباً إلى الله تعالى في القرآن الكريم في أربع سور:

(١) في سورة الأعراف «وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»(٢)

(٢) وفي سورة يوسف «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»(٣)

---

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل / ٤٥٦.

(٢) الأعراف / ٣٨٣. (٣) يوسف / ٧٦.



(٣) وفي سورة القلم «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»(١)

(٤) وفي سورة الطارق « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا »(٢)

معنى قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»: إن هذا الكيد المذكور ولا شك من الكيد المحبوب الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة(٣).

ولهذا نُسب إلى الله تعالى، والمعنى كما قال الإما الطبري: يقول الله تعالى: هكذا صنعنأ ليوسف حتى يخلص أخاه لأبيه وأمه من إخوته لأبيه، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم، ويحتبسه في يديه ويحول بينه وبينهم، وذلك أنهم قالوا إذ قيل لهم: «فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ»: جزاء من سرق الصواع أن من وُجد ذلك في رحله فهو مُسْتَرَقٌ به، وذلك كان حكمهم في دينهم، فكاد الله تعالى ليوسف كما وصف لنا حتى أخذ أخاه منهم، فصار عنده بحكمهم وصُنْع الله له، عن مجاهد قال: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» كادها الله له فكانت علة ليوسف(٤).

وقال الإمام الزمخشري: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» أي: مثل ذلك الكيد العظيم «كِدْنَا لِيُوسُفَ» يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه»(٥).

والشيخ عبد الله العلمي، يكاد يجمع في تأويله لمعنى (الكيد) كل ما ورد في معناه عند العلماء فيقول: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» أي: كذلك الكيد العجيب كاد الله، أي دبر وأراد وصنع ويَسَّر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها، يكيد بها من سبق أنهم كادُوه، يصيد بها من كانوا صادُوه، «جزاء وفاقا» وواحدة بواحدة جزاء، وبالصاع الذي تكيل يكال لك(٦) وواضح أن الشيخ يشير بكلامه هذا إلى ما قيل من أن الكيد هنا جزاء الكيد، يعني كما فعلوا بيوسف - عليه السلام - في الابتداء فعلنا بهم، والأول، وهو ما ذكره الطبري عن السلف أولى(٧).

---

(١) القلم/ ٤٥. (٢) الطارق/ ١٥-١٦. (٣) انظر: تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٥.

(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٤.

(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٥، وانظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٨.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٩١.

(٧) انظر: تفسير فتح البيان/ ٦/ ٣٧٧.



وكان هذا الكيد درساً نفسياً تهذيبياً للإخوة تتبعه دروس أخرى:

مما لا شك فيه أن وجود الصواع في رحل بنيامين قد أصاب الإخوة بصدمة نفسية شديدة، جعلتهم ينكسون الرؤوس أمام العزيز وقومه، وأمام من يشاركونهم في القافلة، ولقد وضعهم يوسف - عليه السلام - بهذا الكيد الذي علمه الله تعالى إياه، أمام هذه المحنة القاسية، جزاءً لهم من جنس فعلهم، إنهم من قبل أعطوا أباهم عهداً بحفظ يوسف، ثم هم نقضوا ذلك العهد بأيديهم عَمْداً، فضيعوا يوسف عن سبق عمد وإصرار، وهم أولاء الآن يضيّعون أخاهم الذي ائتمنُوا على حفظه، ولكن عن غير إرادة منهم، إنّهم الآن أبرياء من تهمة التضييع لأخيهم، ولكنهم وهم أبرياء يؤخذون بجريمة سابقة افْلَتُوا من العقاب عليها، وهكذا تسوّي العدالة حسابها مع الناس، فإذا أفْلَتَ من يديها متَّهم في جريمة ما، ولم يُقْتص منه بها، ألبستْه العدالة ثوب الاتهام في أمر هو بريء منه، ليَلْقى جزاء الجريمة التي ارتكبها من قبل ولم يلق الجزاء عليها(١)، لقد كان هذا الكيد درساً قاسياً وشديداً عليهم ويكفي للتدليل على ذلك أن أخاهم الأكبر رفض أن يبرح أرض مصر دون أخيه بنيامين بعد ذلك «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»(٢).

وهكذا يتلقّى الإخوة الدرس تلو الدرس على يد أخيهم المصطفى يوسف - عليه السلام - حتى تتهذّب نفوسهم وتصفوا قلوبهم، وتذهب الغشاوة عن أبصارهم، ولكل درس زمانه ومكانه.

من لطائف الكيد السابق:

ذكر الإمام ابن القيم لطائف تتعلق بالكيد فيما صنع الله تعالى ليوسف - عليه السلام - لاستبقاء أخيه معه، وأهمها (بإيجاز) ما يلي:

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٦٧.

(٢) يوسف / ٨٠.



١ - أنه لما أراد أخذ أخيه بنيامين، توصل إلى أخذه بما يقر إخوته أنه حق وعدل، ولو أخذه بحكم قدرته لَنُسب إلى الظلم والجوْر، ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها.

٢ - أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده، بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم وخرجوا من البلد ثم أرسل في آثارهم لذلك.

٣ - أنه أذّن فيهم بصوت عال رفيع يسمعه جميعهم، ولم يقل لواحد منهم إعلاماً بأن ذهاب الصواع قد اشتهرتم بأخذه ولم يتهم به سواكم.

٤ - ظهور صدق المؤذن وعدله في اتهامهم بالصواع وحده.

٥ - سؤالهم عن عقوبة السارق في دينهم فأُخِذوا بما حكموا به على أنفسهم لا بحكم الملك وقومه.

٦ - تفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه تطمينا لهم وبُعْداً عن تهمة المواطأة.

٧ - أنه لما وصل إلى رحل أخيه قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فألحّوا عليه حتى فتش متاعه فأخرج منه الصواع(١).

المكائد التي تعرض لها يوسف - عليه السلام -:

١ - كاده إخوته حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه، وكانوا سبباً في بيعه بيع العبيد.

٢ - كادته امرأة العزيز بتغليق الأبواب ودعائه إلى نفسها، وكادته بالكذب عليه بقولها: «مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، وكادته بجمع النسوة له وإظهاره عليهن فاجتمعن كلهن على مراودته.

٣ - وكاده النسوة حتى استجار بالله من كيدهن(٢)

كيد الله تعالى ليوسف - عليه السلام -:

١ - كاد الله ليوسف - عليه السلام - بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان / ٢ / ١٣٠-١٣٢.

(٢) انظر: المرجع السابق / ١٣٩.



٢ - وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي فقالوا: «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ»[1] فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب، مما ترتب عليه بيعه كالعبيد.

٣ - وكاد له بأن هيّأ له الأسباب حتى سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له حذرا من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك كما رآه في منامه[2].

مشيئة الله تعالى هي النافذة:

قال تعالى: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ»

المراد بدين الملك:

اختلف أهل التأويل في المراد بـ(دين الملك)

فقال بعضهم: المراد بـ(دين الملك) سلطان الملك، روي ذلك عن ابن عباس والضحاك، وعلى هذا فمعنى قوله: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» أي: ما كان ليأخذ أخاه في سلطان الملك.

وقال الآخرون: معنى ذلك، أي: في حكمه وقضائه، روي ذلك عن قتادة، والسدي، وابن إسحاق، ومحمد بن كعب القرطبي، ومعمر[3].

وهذا الاختلاف بين الفريقين ليس حقيقياً، وهذه الأقوال وإن اختلفت ألفاظها في معنى (دين الملك) إلا أنها متقاربة المعنى، وذلك لأن من أُخِذَ في سلطان الملك وقع عليه حكمه وقضاؤه ونُفِّذ فيه، ولا يوقع حكم الملك وقضاؤه إلا على من كان واقعاً تحت سلطانه، وما كان في استطاعة يوسف - عليه السلام - أن يأخذ أخاه مطبّقا عليه قانون

---

(١) يوسف/ ٨٨.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان/ ٢/ ١٤٢-١٤٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٥-٢٦.



الملك وحكمه الذي يطبق على كل من هو تحت سلطانه، من أجل ذلك فقد ألهمه الله تعالى حتى تكلم إخوته ما تكلموا به من الحكم على السارق في شريعتهم، فأُخذ بنيامين بقولهم وشرعهم ولم يؤخذ بقضاء الملك، وعلى هذا فالاختلاف ليس حقيقياً، لأن تفسير كل فريق لمعنى (دين الملك) يحمل مفهوم المعنى المقابل للفريق الآخر، والله أعلم.

ولّما كانت هذه الوسيلة منكرة بحسب الظاهر لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاشاها إلا بوحي من الله، بيّن أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال:

«إلاّ أن يَشَاء اللهُ»

استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه، لا تفسير وبيان له كما قيل، كأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن يأخذ أخاه بما فعله في دين الملك في أمر السارق، أي في سلطانه - كما قال ابن عباس والضحاك - أو في حكمه - كما قال قتادة - أو في عادته - كما قال ابن عيسى - إلا به - أي: بالكيد - لأن جزاء السارق في دين الملك إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقات والاستعباد، كما هو شريعة يعقوب - عليه السلام - فلم يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال إلا أن يشاء الله[1] عن مجاهد في قوله (إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ) قال: إلا بعلّة كادها الله تعالى ليوسف - عليه السلام - فاعتلّ بها، أي: إلا أن يشاء الله تعالى بكيده الذي كاد له حتى أسلم من وجد في وعائه الصواعَ إخوتُه ورفقاؤه بحكمهم عليه، وطابت أنفسهم بالتسليم[2].

نوع الاستثناء في قوله: «إلاّ أن يَشَاء اللهُ»

قال الإمام ابن القيم: «إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ» استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء الله أخذه

---

(١) انظر: تفسير أبو السعود/ ٤/ ١٣/ ٢٩٦-٢٩٧، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٩١.

(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٤.



بطريق آخر، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا، والمعنى: إلا أن يُهيّء الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة(١).

وقال الإمام أبو حيان: والذي يظهر أنه استثناء منقطع، أي: لكن بمشيئة الله أخذه في دين غير دين الملك، وهو دين آل يعقوب أن الاسترقاق جزاء السارق(٢).

وقال الإمام ابن عطية: الاستثناء هنا (إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ) حكاية حال، والتقدير: إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ما وقع من هذه الحيلة(٣).

وقال الإمام أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي:

قوله: «إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ» فيه وجهان: أحدهما: أنه استثناء منقطع تقديره: ولكن بمشيئة الله أخَذَه في دين غير الملك، وهو دين آل يعقوب: أن الاسترقاق جزاء السارق. الثاني: أنه مُفرّغٌ من الأحوال العامة، والتقدير: ما كان ليأخذه في كل حال إلا في حال التباسه بمشيئة الله، أي: إذنه في ذلك.

ثم علق على قول الإمام ابن عطية في هذا الاستثناء فقال: وكلام ابن عطية مُحْتَمل فإنه قال: والاستثناء حكاية حال، التقدير: إلا أن يشاء الله ما وقع من هذه الحيلة(٤).

ولما كان يوسف - عليه السلام - إنما تمكن من ذلك بعلوّة درجته وتمكُّنه ورفعته، بعد ما كان فيه عندهم من الصغار، كان ذلك محل عجب، فقال تعالي:

«نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء»(٥) وقرأ بعض القراء: (نَرفَعُ دَرجاتِ مَن نَشاء) بإضافة الدرجات إلى (مَن) بمعنى: نرفع منازل من نشاء، رفْع منازِله ومراتِبه في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك ومنزلته في الدنيا على منازل إخوته ومراتبهم، وقرأ آخرون: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء) بتنوين الدرجات بمعنى: نرفع من

(١) إغاثة اللهفان / ٢ / ١٤٤-١٤٥.
(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٨.
(٣) تفسير ابن عطيه / ٩ / ٣٤٥.
(٤) الدر المصون / ٦ / ٥٣٣-٥٣٤.
(٥) نظم الدرر / ٤ / ٨٠.



نشاء مراتب ودرجات في العلم على غيره، كما رفعنا يوسف، فـ(مَنْ) على هذه القراءة نَصْب، وعلى القراءة الأولى خفض(١).

عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ قال: بالعلم يرفع الله به من يشاء في الدنيا.

وعن ابن جريج قال: يوسف وإخوته أوتوا علما، فرفعنا يوسف فوقهم درجة(٢) وقال القرطبي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ أي: بالعلم والإيمان(٣) وقال ابن كثير: كما قال تعالى: ﴿يَرفَعُ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا منكُم وَالذينَ أوتُوا العِلمَ دَرَجَات﴾(٤).

وقال الشوكاني: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات، كما رفعنا درجة يوسف بذلك(٥).

هذا، وفي إثار صيغة الاستقبال (نرفع) إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة، غير مختصة بهذه المادة(٦)...

وهذه الجملة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ تذييل لقصة أخذ يوسف أخاه، لأن فيها رفع درجات يوسف - عليه السلام - في الحال، بالتدبير المحكم من وقت مناجاته أخاه، إلى وقت استخراج السقاية من رحله، ورفع درجة أخيه الشقيق في الحال، بإلحاقه ليوسف - عليه السلام - في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة مِنْ فِيه، ورفع درجات أبيه وإخوته في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف - عليه السلام - وحُنُوِّه عليهم، فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول(٧).

وهذه الجملة أيضاً ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي، الذي يحبه الله تعالى ورسوله، من نصر دينه وكسر أعدائه ونصر المُحِقِّ وقمْع المبْطل؛ صفة مدح يرفع الله بها درجة العبد، كما أن

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٦. (٢) الدر المنثور/ ٤/ ٥٢.
(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٣٨. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٨٥.
(٥) فتح القدير/ ٣/ ٤٥. (٦) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٨٦.
(٧) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٢-٣٣.



العلم الذي يخصم به المبطل ويدْحض حجته، صفة مدح يرفع بها درجة عبده، كما قال سبحانه وتعالى في قصة إبراهيم - عليه السلام - ومنا ظرته قومه وكسر حجّتهم: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبرَاهِيمَ عَلَى قَومِه، نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مِن نَشَاء)(١).

ولما كان سبب الرفعة هو الأعلمية بالأسباب، وذلك أن الخلق لو اجتهدوا في خفض أحد فنصبوا له كل سبب علموه، وقدروا عليه وأراد الله ضد ذلك، لقيّض بعلمه شيئاً واحداً إن شاء فأبطل جميع تلك الأسباب وقضى برفعته، نبّه تعالى على ذلك بقوله: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»(٢)

وهذه الجملة تذييل ثان لجملة (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ... الآية) وفيها شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذِن بأن علم الله تعالى الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس، والفوقية مجاز في شرف الحال، لأن الشرف يُشبَّه بالارتفاع(٣).

وهذا القول (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) احتراس دقيق لطيف(٤) ومعناه أن فوق كل عالم من هو أعلم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى، وإنما عني بذلك أن يوسف - عليه السلام - أعلم إخوته، وأن فوق يوسف من هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى،...

عن ابن عباس قال: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه حدث بحديث، فقال رجل عنده: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) فقال ابن عباس: «بئسما قلت، إن الله هو عليم وفوق كل عالم، وعن عكرمة قال: عِلْمُ الله تعالى فوق كل أحد، وروي مثله عن سعيد بن جبير، وعن الحسن قال: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي

---

(١) إغاثة اللهفان / ٢ / ١٤٦-١٤٧.

(٢) نظم الدرر / ٤ / ٨٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٣٣.

(٤) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٠.



العلم إلى الله تعالى، وعنه أيضاً قال: إنه والله ما أمسي على ظهر الأرض عالم إلا فوقه من هو أعلم منه، حتى يعود العلم إلى الذي علمه[1]... من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة[2] وعلم الله تعالى فوق كل علم في الكيف والكم، فقوله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كيف ما يعلمه، وفوقه في كمِّ ما يعلمه[3] وكل علم مصدره الله سبحانه وتعالى، «وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[4] فلا يعلم المخلوق شيئاً إلا بتعليم الله له «سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»[5] «عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[6] وعلم كل المخلوقين بالنسبة إلى علم الله تعالى قليل... قليل... قليل... «وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»[7].

ما هي وجوه الحكمة في استبقائه - عليه السلام - لأخيه بنيامين في مصر؟:

والجواب: إن الحكمة في ذلك تتبين من وجوه عدة، منها:

١ - رغبة بنيامين نفسه في البقاء مع أخيه يوسف - عليه السلام - في مصر بعد أن ضاق ذرعا بإخوته.

٢ - كان احتجاز بنيامين هو الركن الأساسي في خطة إحضار آل يعقوب جميعا إلى مصر، إذ لو تركه عند أبيه لجاز أن يرفض الإخوة الحضور إلى مصر، مما يترتب عليه تخلّف يعقوب - عليه السلام - معهم مراعاة لشعورهم فتضيع الحكمة من التئام شملهم ونزع ما في صدورهم من غِلّ.

٣ - إن مقتضى رؤياه - عليه السلام - في بداية السورة أن الشمل سيجتمع عنده وهو في مكانة تقتضي سجودهم له بالإجماع، وهذا يكون في مصر لا في كنعان.

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٢٦-٢٧، والدر المنثور/ ٤/ ٥٢-٥٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤١.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٠٩٦.

(٤) النحل/ ٧٨.   (٥) البقرة/ ٣٢.

(٦) العلق/ ٥.   (٧) الإسراء/ ٨٥.



٤ - إن مصلحة والديه تقتضي الاحتفاظ به تمهيدا لما سيترتب على ذلك من أمور تنتهي بتوبة الإخوة ومجيئهم ومجئ آل يعقوب إلى مصر .

٥ - وحكمة دقيقة أخرى : فقد كان محور القصة كلها هو اتهام الإخوة لأبيهم بتفضيل يوسف وأخيه عليهم ، وظنوا أنهم لو تخلصوا منهما لخلالهم وجه أبيهم وكانوا صالحين ، فيسَّر لهم احتجاز بنيامين تحقيق أمنية طالما تمنوها ليروا بأعينهم وليلمسوا بأنفسهم إن كان أبوهم سيقبل عليهم وينسى يوسف وأخاه ، وهل سيخلو لهم وجه أبيهم حقاً كما زعموا ؟ وهل سيتحقق أيّ صلاح لهم بذلك ؟ وهل حياتهم بعد افتقاد الشقيقين ستكون حقاً أسعد وأفضل من حياتهم حين كان الشقيقان بينهم ؟ أم أن أحزان أبيهم المتصلة ستحوّل الحياة إلى جحيم لا يطاق ، وهذا ما حدث فعلاً[١] .

المضمون العام للآية الكريمة: (٧٦)

فاتفقوا على أن يفتش رحالهم ، فمن وجد الصواع في رحله يسترَقّ ويستعبد ، ففتّش أوعية الإخوة قبل وعاء أخيه الشقيق ، ثم فتّش وعاء أخيه ، فاستخرج السقاية منه فاسترقّهُ وضمه إلى نفسه ، (كذلك) مثل هذا الكيد «كدْنَا لِيُوسُفَ» أي ألهمناه ذلك الكيد وهو أن يجعل أخاه سارقا ظاهراً ويعاقبه حسب شريعة أبيه ، لأنه ما كان ليستطيع أن يأخذ أخاه حسب شريعة الملك ، لأنهم كانوا يعاقبون السارق بالضرب وتغريمه ضِعْفَيْ قيمة المسروق ، «إلاّ أن يَشَاءَ الله» أن يأخذه فيه ، نَرْفَعُ دَرَجَات» في العلم والفهم وتدبير الأمور «مَنْ نَشَاء» أن نرفعه وهو يوسف - عليه السلام - أو يوسف منهم ، وفوق كل صاحب علم عليم يُعَلِّمه وهو الله تعالى :

---

(١) انظر : يوسف بن يعقوب / ٤٠٠-٤٠١ .

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الكيد الذي كاده يوسف - عليه السلام - لإخوته، من الكيد المحبوب الذي يحبه الله تعالى ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

٢ - جواز التوصل للأغراض الصحيحة بما صورته الحيلة والمكيدة، إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً.

٣ - حكم الكيد هو حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دنيوية، إذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلاً من الدين.

٤ - ليس من الكيد المشروع ما تُسْتَحَلّ به المحرمات وتسقط به الواجبات، فإن هذا كيد للّه تعالى ودينه.

٥ - جواز تسمية قوانين ملل الكفر دينا لها.

٦ - العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، والله تعالى لما هدى يوسف إلى تلك الحيلة مدحه لأجل ذلك فقال: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء».

٧ - كل عالم من البشر فوقه من هو أعلم منه، والله سبحانه فوق كل عالم.

٨ - علم الله تعالى فوق كل علم في الكَمّ والكيف، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى.

٩ - تقرير قاعدة «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

١٠ - يجب على العالم أن يتهم نفسه وألا يغتر بعلمه، وأن يبالغ في التواضع والشكر لمن آتاه العلم وعلمه.

١١ - العلم هو أعظم عطاء الله تعالى لخلقه، وخاصة المصطفين منهم قال الله تعالى لرسوله محمد - ﷺ -: «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً»[١].

---

(١) النساء/١١٣.



« الآية السابعة والسبعون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

ثانياً - القراءات:

«فَقَد سَرَقَ» بفتح السين والراء، قراءة الجمهور، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي، وابن أبي شريح عن الكسائي، والوليد بن حسان عن يعقوب وغيرهم (فقد سُرِّقَ) بالتشديد مبنيّاً للمفعول، بمعنى نسب إلى السرقة، بمعنى جُعِلَ سارقا، ولم يكن كذلك في الحقيقة(١).

ثالثاً - اللغة:

«فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ»: الإسرار خلاف الإعلان، قال تعالى: «سِرّاً وَعلانية» ويستعمل في الأعيان والمعاني، والسِّرُّ: هو الحديث المكتم في النفس، قال تعالى: «يعلم السر وأخفى»(٢) والسِّرُّ: ما أخفيْت، والجمع أسرار(٣) والنفس: الروح، ونفس الإنسان: ذاته.

«وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» بدا: بَدا الشيءُ بَدْواً وبَداءً، أي ظهر ظهوراً بيِّنا، قال تعالى: «وبَدَالَهُم مِنَ اللّه مَا لَمْ يَكُونُوا يَحتَسِبُون»(٤).

«قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» شر: الشَّرُّ هو الذي يرغب عنه الكل، كما أن الخير هو الذي يرغب فيه الكل، قال: «شَرٌّ مَّكَانًا» والشر: ضد الخير(٥).

«وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» وصف: الوصف ذكر الشيء بِحلْيَتِهِ ونعْتِه، والصِّفة:

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٢٩.

(٢) المفردات (كتاب السين) ٢٢٩.

(٣) اللسان (حرف الراء) ٤ / ٣٥٦.

(٤) المفردات (كتاب الباء) ٤٠، وانظر: القاموس المحيط (حرف الباء) ١٦٢٩.

(٥) المفردات (كتاب الشين) ٢٥٧.



الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته، كالزِّنة التي هي قدْر الشيء، والوصف قد يكون حقا وباطلا، قال تعالى: «وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ» تنبيها على كون ما يذكرونه كذبا[1].

رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» قالوا فعل وفاعل، وإن شرطية، ويسرق فعل الشرط، والفاء رابطة لاقتران الجواب بـ(قد) وسرق أخ فعل وفاعل، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وله صفة، ومن قبل حال.

«فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» الفاء عاطفة، وأسرّها فعل ومفعول به، والهاء تعود للكلمة الآتية وهي «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» فهو إضمار على شريطة التفسير[2]، ويوسف فاعل، وفي نفسه متعلقان بأسرها، ولم يبدها، عطف على أسرها، ولهم، متعلقان بـ(يبدها).

«قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» انتم مبتدأ، وشر خبر، ومكانا تمييز، أي شرّ منه أو منهما، قاله أبو البقاء[3] وجملة «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» بدل من الهاء، ويجوز أن يعود الضمير، أي الهاء، على الحجّة عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم وقال أنتم شر مكانا، والله مبتدأ، وأعلم خبره، وبما متعلقان بأعلم، وجملة تصفون صلة[4].

البلاغة: (فَأَسَرَّهَا)... (وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) بينهما طباق.

---

(١) المفردات (كتاب الواو) ٥٢٥.

(٢) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٦، والدر المصون/ ٦/ ٥٣٥-٥٣٦، والتبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٤٠-٧٤١.

(٣) التبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٤١.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥/ ٣٠-٣١.



خامساً - الموقف المتعارضات:

هل سرق يوسف - عليه السلام - من قبل كما زعم إخوته لأب؟

إنه بسبب ورود قول الله تعالى على لسان إخوة يوسف - عليه السلام - : «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ»، فقد أخذ بعض المفسرين والرواة يتلمسون لإخوة يوسف واقعة يستندون عليها في اتهام يوسف بالسرقة، وأكثر أصحاب هذا الاتجاه وهم الجمهور يرون أن السرقة التي نسبت إلى يوسف - عليه السلام - هي ما أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني، أن عمّتَه وكانت أكبر ولد إسحاق - عليه السلام - وكانت إليها مِنْطَقَةُ اسحاق، فكانوا يتوارثونها بالكِبَر، وكان يعقوب - عليه السلام - حين ولد له يوسف قد حضنته عمّته، فكان معها وإليها، فلم يُحِبّ أحد شيئاً من الأشياء كحبّها إياه، حتى إذا ترعرع وقعت نفس يعقوب عليه، فأتاها فقال: يا أخَيّة، سلّمي إلى يوسف، فو الله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: فوا الله ما أنا بتاركته، فدعه عندي أياما أنظر إليه، لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج يعقوب - عليه السلام - من عندها عَمَدَت إلى مِنْطقة إسحاق - عليه السلام - فحزمتها على يوسف - عليه السلام - من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت مِنطقة اسحاق، فانظروا من أخذها ومن أصابها، فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف - عليه السلام - فقالت: والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب - عليه السلام - فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك إن كان قد فعل ذلك، فهو سلم لك؛ ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت - عليها السلام - فهو الذي يقول إخوة يوسف - عليه السلام - حين صنع بأخيه ما صنع: « إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ»(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري/٨/١٣/٢٨-٢٩، والدر المنثور/٤/٥٣.



ومع الرواية السابقة، فقد وردت روايات أخرى منها:

فعن عبد الله بن عباس، عن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن جريج، أن يوسف - عليه السلام - سرق صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة وألقاه في الطريق.

وعن عطية قال: كان يوسف - عليه السلام - معهم على الخوان فأخذ شيئاً من الطعام فتصدق به.

وعن زيد بن أسلم أن يوسف - عليه السلام - دخل كنيسة فوجد تمثالاً فأخذه، وعن عبد الله بن عباس قال: سرق مكحلة لخالته[١].

ومع هذه الروايات السابقة فقد ذكر بعض المفسرين إلى جانبها ما يخالفها، دون الإشارة إلى ترجيح قول على آخر، قال الإمام الماوردي: الخمس - أي من الأقوال في نسبة السرقة إلى يوسف - عليه السلام - أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قاله الحسن[٢].

والإمام القرطبي ذكر هذا القول أيضاً آخر الأقوال[٣]، والإمام الفخر الرازي قال - آخر ما ذكر من الأقوال -: الرابع أنهم كذبوا عليه وبهتوه، وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، ثم قال: وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغِلّ البتَّة.

أما أصحاب الاتجاه الآخر، والذي يرى أن إخوة يوسف قد كذبوا عليه فيما نسبوه إليه من السرقة، فهذه أهم حججهم:

قال الإمام الشوكاني: - معلّقا على القول القائل بأنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه - قلت: وهذا أولى، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم[٥]...

وقال ابن المنير: إن ما ذكر - أي من الروايات السابقة - في تفسير السرقة تكلف لا يسوغ نسبة مثله إلى بيت النبوة، ولا إلى أحد من الأشراف، فالواجب تركه، وإليه ذهب مكي[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري/٨/١٣/٢٨-٢٩، وتفسير الماوردي/٢/٢٩٢-٢٩٣، وتفسير البغوي/٤/٢٦٣، والدر المنثور/٤/٥٣-٥٤. (٢) تفسير الماوردي/٢/٢٩٣. (٣) تفسير القرطبي/٩/٢٣٩.

(٤) تفسير الفخر الرازي/١٨/١٣/١٨٨. (٥) فتح القدير/٣/٤٧. (٦) روح المعاني/٧/٢١.



وقال الشيخ سيد قطب: ﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تَعِلاّتٍ وحكايات وأساطير، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التي تحرجهم، وَتَبَرُّؤاً من يوسف وأخيه السارق، وإِرْوَاءً لحقدهم القديم على يوسف وأخيه، لقد قذفوا بها يوسف وأخاه[١].

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: وإنما قالوا ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ بُهْتانا ونفْيا للمعَرَّة عن أنفسهم، وليس ليوسف - عليه السلام - سرقة من قبل[٢] وقال الشيخ عبد الله العلمي بعد أن ذكر رواية اختارها من التوراة (تك ٣١-٣٥) تنسب السرقة إلى يوسف: ولكن الحقيقة والحال، أنه لم يفعل شيئا من ذلك، على أن سنّ يوسف في ذلك الوقت - وقت اتهامه بالسرقة - نحو عشر سنين، ولكن سنّ بنيامين حين وقوع الحادثة الحاضرة، كان نحو ثلاثين سنة، فأي شاهد قدموا؟ وعلى أي قياس قاسوا؟[٣].

ويقول الدكتور عبد العزيز كامل: وهذا الافتراء على يوسف وهو صغير، وهو ما حاول بعض المفسرين شرحه، يخرج بنا عن السياق الرئيسي، ولا يعدو أن يكون تهمة لا أساس لها، ومحاولة لتبرير الحادث الجديد بأنه شبيه القديم[٤].

---

(١) تفسير الظلال/ ٤ / ٢٠٢٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧ / ١٣ / ٣٥.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ١١٠٨.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٥٧.



الترجيح:

إن كل الروايات التي نسبت السرقة إلى يوسف - عليه السلام - إسرائيليات باطلة لا أساس لها من الصحة، واختلافها على كثرتها وتضارب بها دليل على بطلانها، والرواية التي استند إليها الجمهور في نسبة السرقة ليوسف - عليه السلام - وهي رواية منْطقة عمته - ظاهرة البطلان، لأن عمته لا يصح لها أن تمسكه بهذه الحجة حتى وفاتها، كما أن النبي المرسل يعقوب - عليه السلام - لا يُقِرّ أحداً على كذبه وخداعه، وإن إخوة يوسف، وهم الذين امتلأت صدورهم بالحقد على يوسف، والذين كذبوا على أبيهم في قولهم «أرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرتَع وَيَلْعَب» وكذبوا عليه بعد إلقائهم ليوسف في الجب وقالوا: «فَأَكَلَهُ الذّئب...» ليس هؤلاء ممّن يَحسُن الظن بهم في ادعائهم على يوسف بأنه سرق[1].

وعلى ما سبق فإن الاتجاه القائل بأن يوسف - عليه السلام - لم يسرق وأنهم كذبوا فيما نسبوه إليه من السرقة، هو الراجح لقوة حجته ووضوح أدلته، مع بطلان رواية من خالفه، وهذا القول هو الأولى والأليق كذلك بيوسف النبي الرسول - عليه السلام - وبأهله المكرمين، والله أعلم.

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٠٣.



سادساً - التفسير والبيان:

الإخوة يتهمون يوسف - عليه السلام - بالسرقة:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

وجه المناسبة:

ولما تم انتزاع بنيامين من إخوته بسبب وجود صواع الملك في رحله وتطبيق شريعة يعقوب عليه باسترقاقه، فكأنه قيل هنا: إن انتزاع أخيهم منهم بعد تلك المواثيق التي أكدوها لأبيهم لداهية تطيش لها الحلوم، فماذا كان فعلهم عندها؟ فقيل:

«قالوا إن يَسْرِقْ فقدْ سَرَقَ أخٌ لَهُ مِن قبْلُ»(١)

أتوا بكلمة (إن) لعدم تحققهم له بمجرد خروج السقاية من رحله، وأما قولهم: «إن ابنك سرق» بعد ذلك، فبناء على الظاهر، ويسرق - بالمضارع - لحكاية الحال الماضية، وقيل: إنهم جزموا بذلك و(إن) لمجرد الشرط(٢).

فقولهم: «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» يحتمل تأويلين:

أحدهما: أنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف - عليهما السلام - بحسب ظاهر الحكم، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابنَيْ راحيل، لأن أخاه يوسف كان قد سرق - في زعمهم - فهذا من الإخوة إنْحَاءٌ على ابْنَيْ راحيل، يوسف وبنيامين.

والوجه الآخر: الذي يحتمله لفظهم - يتضمن أن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه، فالذي رمي به يوسف من قبل - في زعمهم - حقٌّ إذاً، وكأن قصة يوسف والظن به قَوِيَ عندهم بما ظهر في جهة بنيامين(٣).

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٨١. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٤٧-٣٤٨، وانظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٢٩.



ولا يخفى أن الوجه الأول - تحقيق السرقة - هو الأقرب إلى ظاهر الآية، فإن إخوة يوسف لما بُهِتُوا بوجود الصواع في رحل أخيهم، اعتراهم ما يعترى المبهوت، فاعتذروا عن دعوى تنزههم عن السرقة إذ قالوا من قبل: «وَمَا كنّا سَارِقين» عذراً بأن أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم[1] وأن هذا الأمر ليس بغريب منه، فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام أنّا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى[2] فهو بعمله المشين هذا قد اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق، فقد جذبه عرق أخيه السارق، لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق[3] وهما ليسا شقيقين لنا[4] ونحن نتبرأ من التشبه بهما، ومع هذا فقد قصدوا تأنيب بنيامين على ما فعل[5] ولم يكتفوا بذمّه، بل جعلوا ذم يوسف - عليه السلام - هو الأصل، ولا يخفى أن هذا القول من الإخوة «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» في هذه اللحظة الحاسمة، ليدل دلالة قاطعة على حقيقة شعورهم تجاه يوسف وأخيه، فقد كان الواجب يحتّم عليهم الطعن في توجيه اتهام لأخيهم، وأن يتمسكوا بعدم توقيع الجزاء حتى يثبت فعلاً بالأدلة القاطعة أن أخاهم قد سرق حقا، فإن مجرد وجود الشيء في رحله لا يثبت عليه شيئاً، فربما يكون قد نسيه الكائل له، أو دسّه شخص آخر في رحله دون علم منه.

ولو طعنوا في الاتهام لما أمكن التوصل إلى أدلة يقينية تثبت التهمة،... إلا أن الإخوة لم يفعلوا من ذلك شيئاً، بل صدر منهم ما دل على شماتتهم بأخويهم، إذ ساهموا بتصرفهم على أن ينال العزيز مراده منهم، وكأنها فرصة اهْتَبَلُوها لينفّسوا عن أنفسهم بعض ما تحمِلُه من حقد وكره لأخويهما يوسف وبينامين[6] حتى إنهم قد دعموا إقرارهم بسرقة بينامين، بأن أخاه الآخر له سابقة في السرقة، فإن يكن هذا قد

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٤. (٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٨٧.
(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ١٣/ ٢٣٩. (٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤١.
(٥) التفسير المنير/ ١٣/ ٤١. (٦) يوسف بن يعقوب/ ٤٠١-٤٠٢.



سرق اليوم، فإن أخاه الآخر قد سرق من قبل، هكذا أقروا على بنيامين، وهكذا أظهروا شماتتهم بأخويهم، وهكذا ألقوا بهذه التهمة ليوسف - عليه السلام - في مواجهته[١] يريدون شفاء بعض غليلهم بالطعن فيهما، ونفض أيديهم منهما نفْض المودّع من تراب الميِّت[٢] كأنه لا صلة لهم بهما من قريب أو بعيد.

هذا، والملاحظ على قول الإخوة «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» ما يلي:

١ - هذا القول على لسان الإخوة دليل على أن الخدعة قد انْطَلَتْ عليهم، وأن تنفيذها الغاية في الإتقان، فهذا قول واثقٍ من أن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً، وأن شقيق يوسف سارق فعلاً.

٢ - أخرج هؤلاء الإخوة قولهم في يوسف وشقيقه في صورة المتحقق من سرقة كل منهما، وكأنهم قالوا: إن سرق بنيامين الآن فلا غرابة في ذلك، إذ أنه يحذو حذو شقيقه يوسف - (كبرت كلمة تخرج من أفواههم).

٣ - من حق الإخوة أن ينزعجوا لهول الصدمة، بسبب ظاهر السرقة الذي ثبت، ولكننا لا نجدهم في هذا الظرف العصيب يتحدثون كإخوة، ولكن كأعداء متباعدين متباغضين، ولو أن هناك شيئا من مودة لأخيهم، لكان منهم كلام غير الذي جرى على لسانهم تماما، ومهما كان تأثر الإخوة بما يجري، فليس من حقهم مطلقا أن يكون هذا تعليقهم الذي أخذ مأخذ الشماتة.

٤ - حينما جرى هذا القول على ألسنتهم لم يكونوا متمثلين بَعْدُ العهد الذي سبق أن آتوه والدهم ليأتُنَّهُ بأخيهم إلا أن يحاط بهم، ففهم من كلامهم أن أخاهم يستحق ما يحل به بسبب سوء صنيعه.

٥ - كان الإخوة متهيّئين بسبب حسدهم ليوسف لتذكره في كل ظرف سئ، وعلى الرغم من طول العهد بيوسف، إلا أنه كان قريباً من ذاكرتهم جميعاً في هذه اللحظة العصيبة.

---

(٧) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٧١.

(٨) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١١٠٧-١١٠٨.



٦ - لم يكن الإخوة ليتورعوا عن قذف المظلوم يوسف بالسرقة، وأن يلبسوه ما ليس له.

٧ - يبدو من قوله (أخ له) أنهم كانوا ما زالوا مصرين على اعتبار يوسف وشقيقه كتلة قائمة بذاتها، بينما هم جميعاً يمثلون قائمة أخرى[١].

يوسف - عليه السلام - وموقفه من التهمة:

«فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ»

لقد ألقى إخوة يوسف تهمة السرقة النكراء له ولأخيه في مجلسه الموقّر، وبمسمع منه، ولو كان - عليه السلام - بشرا عاديا لأخذهم بهذا الافتراء أخذ الجبارين، ولصب عليهم العذاب صبّا، وألقى بهم في ظلمات السجن مع المجرمين، ولكنه يوسف - عليه السلام - نبي الله ورسوله الكريم، والذي يسُوسُ إخوته بإلهام من الله تعالى وتوفيقه، ويلقّنهم الدرس تلو الآخر، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، فيلتئم شمل الجميع.

على من يعود الضمير البارز في قوله «فَأَسَرَّهَا»

ذكر أهل التفسير عدّة أوجه تتعلق بعود الضمير في قوله (فأسرها) وأهم هذه الوجوه ثلاثة:

الأول: أن الضمير يعود إلى ما بعده - الكلمة أو الجملة - وهو قوله. «قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا»، وبهذا فسّر الزجاج والزمخشري ومن تبعهما، أي أن يوسف - عليه السلام - قال في نفسه «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» فتكون هذه الجملة تفسيراً للضمير في (أسَرَّهَا) والإسرار على هذا الوجه مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع[٢]، وعلى هذا قول أهل السلف، فعن قتادة في قوله «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ» قال: أما الذي أسرَّ في نفسه فقوله: «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ»...

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٥.



وعن ابن عباس قال: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ يقول: أسر في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ﴾(١) ومع هذا الاتجاه الأول يقول الإمام الطبري:

وقوله ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني بقوله (فَأَسَرَّهَا): فأضمرها، وقال: (فَأَسَرَّهَا) فأنّث لأنه عني بها الكلمة وهي (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ) ولو كانت جاءت بالتذكير كان جائزاً، كما قيل: (تلك من أنباء الغيب) و(ذلك من أبناء القرى)، وكني عن الكلمة ولم يجر لها ذكر متقدّم، والعرب تفعل ذلك كثيراً إذا كان المعنى المراد مفهوما عند سامعي الكلام، وذلك نظير قول حاتم الطائي:

أمَاوِيَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى ** إذا حَشْرَجتْ يوما وضاق بها الصَّدر(٢)

يريد: وضاق بالنفس الصدر، فكنّي عنها ولم يجر لها ذكر، إذ كان في قوله: إذا حشرجت يوما، دلالة لسامع كلامه على مراده بقوله: وضاق بها، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال: (من بَعْدِها) ولم يجر قبل ذلك ذكر لاسم مؤنث(٣).

ويقول الإمام الزمخشري: (فَأَسَرَّهَا) إضمار على شريطة التفسير تفسيره (أنتم شرّ مَكانا) وإنما أنّث لأن قوله: (انتم شر مكانا) جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من كلام كلمة، كأنه قيل: فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكانا) بدلاً من أسرّها(٤).

ويقول الإمام ابن كثير: قال: (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ) يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ)(٥).

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/٣٠.
(٢) البيت لحاتم الطائي يخاطب زوجه (مادية) والشاهد فيه: أن الضمير في (حشرجت) ليس له مرجع مذكور في الكلام (هامش تفسير الطبري) ٨/١٣/٣٠.
(٣) تفسير الطبري/٨/١٣/٣٠.
(٤) تفسير الكشاف/٢/٣٣٦.
(٥) تفسير ابن كثير/٢/٤٨٦.



الوجه الثاني: أن الضمير في (فأسرها) يعود إلى جملة (قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) على تأويل القول بمعنى المقالة، على نحو قوله تعالى: (إنها كلمة هو قائلها) بعد قوله: (رَبِّ ارجعُوا لَعَلّي أعمل صَالحا فِيمَا تَرَكت) ويكون معنى (أسرّها في نفسه) - وهي الحَزَازَة - أنه تحمّلها ولم يظهر غضبا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه، وإلى هذا التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان، ويكون قوله (أنتم شر مكان) كلاماً مستأنفاً حكاية لما أجابهم به يوسف - عليه السلام - صراحة - مخاطبة في الوجه - على طريقة حكاية المحاورة، وهو كلام موجّه لا يقتضي تقرير ما نسبوه إلى أخي أخيهم، أي: أنتم أشد شرّا في حالتكم هذه، لأن سرقتكم مشاهدة، وأما سرقة أخيكم فمجرد دعوى، وفعل (قال) يرجّح هذا الوجه[1] وعلى هذا فيكون إسرار يوسف - عليه السلام - خاص فقط بـ(الحزازة) التي أثارتها مقالتهم (قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) فلم يقابلهم بهذه المقابلة بما يكرهون، بل كَظَمَ الغيظ وأسرَّ الأمر في نفسه، ثم وبّخهم مخاطبا إياهم في وجوههم بقوله: (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ)، قال أبو حيان: والظاهر من قوله: (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) خطابهم بهذا القول في الوجه[2] ومن المفسرين من يرى أن هذا الوجه هو الأولى، كما ذهب إلى ذلك الإمامان، الشوكاني، وصديق القنوجي البخاري[3].

الوجه الثالث: أن الضمير في (فأسرّها) عائد إلى الإجابة، أي أسرّ يوسف - عليه السلام - إجابتهم في ذلك الوقت، إلى وقت آخر، وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني، فالحزازة التي وجدت بسبب قولهم في الدافعة للإجابة.

الوجه المختار: والوجه المختار من الأوجه الثلاثة هو الاتجاه الأول الذي يرى بأن الضمير في قوله (فأسرّها) يعود إلى ما بعده، وهو قوله: (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٣٥. (٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٣٠.

(٣) انظر: فتح القدير / ٣ / ٢٤٧، وفتح البيان / ٦ / ٣٨٠.



بِمَا تَصِفُونَ) مع إضافة أن الإسرار في نفس يوسف - عليه السلام - كان أيضاً للحزازة التي حصلت في نفسه من مقالتهم (قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) والتي دل عليها المقام وفحوى الكلام، ذلك لأنه - عليه السلام - كان مع إخوته قمة في حسن المعاملة ولطف الحديث وغاية الكرم، ولو فاجأهم بهذا الكلام القويّ الجاف في وجوههم لظنوا به الظنون، حيث إنه ليس له عليهم - كما حكموا على أنفسهم من قبل - إلا أخذ من وُجِد الصواع في رحله، فلم التعدّي عليهم جميعاً وهم لم يمسّونه بشيء في اعتقادهم، لأنهم لا يعلمون أنه يوسف - عليه السلام - ويؤيد هذا الاختيار الدكتور محمد الطيب النجار فيقول: وفوجئ يوسف بهذه التهمة المفتراة منهم (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ) أي الحزازة أو الرد عليهم، ثم قال في نفسه تكذيبا لهم: (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ)[1].

ويقول الدكتور حسن محمد باجودة: ومما قد يساعد على أن الإسرار كان من نصيب القول (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا...) كما كان من نصيب الحزازة، عدم ابتداء الجزئية الأخيرة بواو العطف مثلاً، فلم تَجِئ في هذه الصورة (وَقَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا...) كي يقال: إن الواو تعني حالاً آخر[2].

وعلى هذا فمعنى قوله: «وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» أي لم يظهرها، لا قولاً ولا فعلاً صفحا لهم وحلماً، وهو تأكيد لما سبق[3] ورفع ظنّ أنه بكّتهم بما قالوا[4] ومعنى (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) أي: أنتم شرّ موضعاً ونُزُلا ممَّن نسبتموهما إلى السرقة ورميتموهما بها وهما بريئان منها، فإنكم قد فعلتم مع يوسف وأخيه، ومن الكذب على أبيكم ما لا يصح أن يفعله أحد، في حين أنه لا وجود للوصف الذي ادعيتموه عليَّ وعلى أخي[5] فإن ما

---

(١) تاريخ الأنبياء / ١٥٢.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٤٦.

(٣) روح المعاني / ٧ / ٣١.

(٤) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٨١.

(٥) يوسف بن يعقوب / ٤٠٧.



نُسب إلى أخي من الشر إنما هو ظاهراً لأمر خير اقتضاه، وأما أنتم ففعلتكم بيوسف وأخيه وأبيه شر مقصود منكم ظاهراً وباطناً(١).

«وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» وهو كلام جامع، أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم، والمراد: أنه يعلم كذبهم، فالمراد: أعلم بحال ما تصفون(٢).

قال الإمام أبو حيان: ومعنى (أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ) يعني هو أعلم بما تصفون منكم، لأنه عالم بحقائق الأمور، وكيف كانت سرقة أخيه التي أحَلْتُم سرقته عليه(٣) واعترض بأنه لم يكن فيهم علم، والتفضيل - أعلم - يقتضي الشركة، وأجيب بأنه تكفي الشركة بحسب زعمهم، فإنهم كانوا يدعون العلم لأنفسهم ألا ترى قولهم (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) جزْما.

وقال الإمام الألوسي: «وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا، فصيغة أفعل - أعلم - لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه تعالى على علمهم، كيف لا، وليس لهم بذلك من علم، قاله غير واحد(٤).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: كلمة (تصفون) وإن جاءت لنعْت الأشياء بسماتها، إلا أنها غُلِّبَت في استعمال الكلام الذي يكون معه كذبه، كما قال تعالى: «وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ»(٥) وقوله «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ»(٦)، (٧) عن قتادة قال: «وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» أي بما تكذبون(٨).

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤ / ٨١.
(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٦.
(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٠.
(٤) روح المعاني/ ٧/ ٣٢.
(٥) النحل/ ١١٦. (٦) الأنعام/ ١٠٠.
(٧) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
(٨) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٣٠.



لماذا قال يوسف – عليه السلام – في نفسه «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» ولم يسكت مطلقاً مادام لم يُسمعهم شيء؟ والإجابة أنه لو سكت لكان موافقة منه على اتهامهم له ولأخيه بنيامين، فكان لا بد من إجابتهم ولو سرا على افتراءاتهم، والله أعلم.

مقابلة بين اتهام الإخوة ليوسف وأخيه، وردّه عليهم - عليه السلام:

إن المتأمل لقول يوسف – عليه السلام – «قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» ينتهي إلى أن هذه الجزئية ذات شقّين: (الأول) «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» و(الثاني) «وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» وحينما نتلو الآية كاملة بكل جزئياتها «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» يتّضح أن الشقّ الأول من الجزئية الأخيرة «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» ردّ فعل من يوسف على إخوته الذين تضمّن تعليقهم القول «إِن يَسْرِقْ» والمراد: إن يسرق بنيامين الآن في الحقيقة.

كما يتضح أن الشق الثاني من الجزئية الأخيرة «وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» ردّ فعل من يوسف على إخوته الذين جاء بعد تعليقهم السابق مباشرة القول «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» والمراد بطبيعة الحال، فقد سرق شقيق له اسمه يوسف من قبل، فكأن الجزء الأول من التعليق خاص ببنيامين، والجزء الثاني خاص بيوسف – عليه السلام – وكذلك كان رد الفعل عند يوسف، فإن شقّي الجزئية الأخيرة ردّ فعل للحزازة التي تولّدت في نفسه لتعرُّض الإخوة لشقيقه وله على التوالي.

سادساً - المضمون العام للآية الكريمة:

لما رأى الإخوة أن السقاية أخرجت من رحل بنيامين، غضبوا غضباً شديداً واعتراهم ما يعترى المبهوت، وسرعان ما أخذوا ينزّهون أنفسهم ويبرّئونها من هذا العمل، وينسخلون من أخُوَّة يوسف وبنيامين، ويقولون: إن يسرق هذا فلا عجب في ذلك، فقد سرق أخ له من قبل، ولسنا على طريقته ولا على سيرته، فهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة، لأنهما من أم أخرى، فهو بعمله المشين هذا قد اقتدى بأخيه، أرادوا بذلك يوسف ولو اقتدى بنا ما سرق، فلم يؤاخذهم يوسف - عليه السلام - بما قالوه، وكظم غيظه وأسرّ الأمر وقال في نفسه: أنتم شر مكان منه، فإن ما نسب إلى أخي من الشر إنما هو ظاهراً لأمر خير اقتضاه، وأما أنتم ففعلتكم بيوسف وأخيه وأبيه شرّ مقصود منكم ظاهراً وباطناً، والله أعلم بكذبكم فيما وصفتم، ويعلم أننا برءاء مما وصفتمونا به.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - جاوز الإخوةُ الأربعين عاماً وما زال حقدهم الدفين على يوسف يغلي، وحسدهم له يتأجج، «قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ».

٢ - لم يكتف الإخوة بالتسليم بصحة التهمة، بل استشهدوا بقرينة تدعمها وتفيد العلم بأن أخاهم الأصغر اعتاد السرقة تَشَبُّها بأخ له من قبل كان سارقاً.

٣ - هذا الاستشهاد بالتشبّه كان مكراً منهم بأخويهم، إذ لم يحاولوا إثبات الجريمة فقط، بل انتهزوها فرصة للاستدلال على وجود وصف كريه مشترك بين الأخوين.

٤ - إن الإخوة قد جاءوا بزور وبهتان وإثم مبين بإسنادهم إلى يوسف - عليه السلام - خصلة لا يجوز إسنادها إلى أحد من الأنبياء لتنافيها مع العصمة المفطورين عليها.

٥ - جاء الإخوة بما يتنافي مع علمهم بأن أخاهم بنيامين رجل شريف المنبت والمحتد، وهو فوق شبهة السرقة، ونَسوا أن الواجب كان يحتم عليهم التحقق من الأمر قبل



التسرع في اتهامه واتهام أخيه بجريمة ليست هيّنة.

٦ - كان الاعتراف المباشر بالتهمة من الإخوة على أخيهم بنيامين لمجرد وجود الصواع في رحل بنيامين، لطف من الله تعالى بيوسف - عليه السلام - وأخيه، إذ حقق لهما المراد من استبقائه معه.

٧ - من الكلام ما يكون أشد وطأة على الإنسان من عذاب الأجسام.

٨ - قد يكون إخفاء الرد على الكلام السيء خير من إظهاره، كما فعل - عليه السلام -.

٩ - قد يضطر الحليم إلى أن يقول ما لم يكن ليقوله لولا ما وُوجه به من قول السوء المفترى.

١٠ - تم الأمر المرجو بانضمام بنيامين إلى أخيه يوسف - عليه السلام - بعد وجود الصواع في الرحل وتنفيذ شريعة إبراهيم - عليه السلام.

رفع المسار

« الآيتان الثامنة والسبعون والتاسعة والسبعون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ثانياً - القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

«إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا» شيخ: يقال لمن طعن في السن: الشيخ، وقد يعبر به فيما بيْننا عمن يكثر علمه، لما كان من شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه، ويقال: شيْخ بيّن الشَّيْخُوخة والشيْخ والتَّشْييخ، قال تعالى: «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير»[1].

كبُرَ: كَكَرُمَ كِبَراً، كَعِنَب، وَكُبْراً بالضم، وكَبَارة بالفتح: نقيض صَغُرَ، فهو كبير وكُبَّار، كَرُمَّان، وكَبِرَ كَفرِحَ، كِبَرَ كَعِنَبَ، ومَكْبِراً كمنزل: طَعَنَ في السِّن[2].

وكلمة (كبير) تطلق إطلاقات متعددة، إن أردت العمر تقول: كَبِرَ يَكْبَرُ، وإن أردت الكِبَر في المقام تقول: كَبُرَ يَكْبُرُ، ولذلك قال تعالى: كَبُرَتْ كلمة تخرجُ من أفواههم) وقال: (كَبُرَ مقتاً عِندَ اللَّه أن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون)[3].

وقولهم: «إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا» أي: كبير القدر ولم يريدوا كِبَر السِّن، لأن ذلك معروف من حال الشيخ[4].

---

(١) المفردات (كتاب الشين) ٢٧٠.

(٢) القاموس المحيط (حرف الكاف) ٦٠١.

(٣) انظر: اللسان/ ٥/ ١٢٦.

(٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٠.



رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا» يا حرف نداء، وأيها منادى نكرة مقصودة، والهاء للتنبيه، والعزيز بدل، وإنّ حرف مُشبَّه بالفعل، وله خبرها المقدم، وشيخاً اسمها المؤخر وهو نعت للأب، وكبيراً نعت لشيخ أو بدل منه.

«فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» الفاء الفصيحة، وخذ فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت، وأحدنا مفعول به، ومكانه ظرف مكان متعلق بـ(خذ) فهو منصوب على الظرفيّة، والعامل فيه خذ، وهو الظاهر، وإنّ واسمها، وجملة نراك خبرها، ومن المحسنين متعلق بـ(نراك) على أنه مفعول ثان.

«قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» معاذ الله، نصب على المصدر بفعل محذوف، أي: نعوذ بالله معاذاً، وأن نأخذ، أن وما في حيّزه منصوب بنزع الخافض متعلق بـ(نعوذ)، وإلا أداة حصر، ومَن مفعول نأخذ، وجملة وجدْنا صلة، ومتاعَنا مفعول وجدنا، وعنده متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لوجدنا، أي كائنا عنده، (إنا لظالمون) إن واسمها، وإذا جواب وجزاء، واللام المزحلقة، وظالمون خبر إنّا[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٣١، وانظر: التبيان في إعراب القرآن / ٢ / ٧٤١، والفريد في إعراب القرآن المجيد / ٣ / ٩٠، والدر المصون / ٦ / ٥٣٦ / ٥٣٧.



سادساً - التفسير والبيان:

(أ) «التماس مرفوض».

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

وجه المناسبة:

لما تنبّه الإخوة إلى ضخامة المشكلة التي وقعوا فيها بسبب الموثق الذي أعطوه والدهم بخصوص بنيامين، فكروا في طريقة تخرجهم من هذه الورطة المطبقة عليهم، فاتجهوا صوب العزيز ملتمسين استبدال بنيامين بأحدهم، قال الله تعالى:

«قالوا يا أيُّها العزيز»

إعلم أنه تعالى بيّن أنهم بعد الذي ذكروه من قولهم «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» أحبّوا موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة، فإنهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق أن يُستبعد، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان جائزا[1] وهذه الآية تدل على أن الإخوة الذين شطحوا أول الأمر إلى اتهام يوسف بالسرقة لأنه شقيق أخيهم المتهم بها، قد عادوا سريعاً للتنبيه إلى حقيقة المشكلة التي تورطوا فيها[2]. فليس الأمر أمر واحد منهم يؤخذ بجريمته وحسب، بل هو أبعد من ذلك بكثير، فهناك الموثق الذي أعطوه والدهم على أن يعودوا إليه بأخيهم بنيامين، (إلا أن يحاط بكم) وهل يمكن لأبيهم اعتبار ما حدث يدخل تحت هذا الاستثناء، وأنه قضاء الله تعالى ولا يدلهم فيه؟ وهل سيصدقهم في نقل صورة ما حدث إليه؟ إن الأمر جد عسير، ومن أجل ذلك.

فكر الإخوة وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى أن يطلبوا من العزيز أخْذَ واحد منهم مكان بنيامين، تخفيفا الوقع أمر الحادثة على أبيهم، وليس رغبة في إنقاذ بنيامين.

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٨٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٤٧.



وهذه الجزئية «قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» تجئ على لسانهم هنا لأول مرّة، كما تجئ هي نفسها في الرحلة الثالثة إلى مصر، قال تعالى: «فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ...»(١) ويلاحظ أن انكسار الإخوة في الرحلة الثالثة كان أقوى، فكان الإخوة إنما استعملوا هذه الجزئية حينما كانت أنفسهم منكسرة(٢) في المرّتين، إنهم يخاطبونه بما يليق بالأكابر ليرقّ لهم(٣) ويسلكون معه مسلك التّملّق لعله يسمح لهم بأخيهم(٤) فبدأوا كلامهم مع العزيز بكل توقير وإعظام وإكبار له، وبكل ضعف وانكسار وتواضع منهم، ثم أخذوا ينطلقون من هذه النقطة إلى النقطة الثانية والتي هي توطئة لمطلبهم، وقد جاءوا فيها بكلام يحمل على ترقيق القلوب وتهيئة العواطف للقبول فقالوا:

«إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا»

وصفوا أباهم يعقوب - عليه السلام - بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاق جبْر خاطره لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكِبَر إلى أقصاه(٤) والأوّل أولى، أي أنهم أرادوا كبير القدر ولم يريدوا كبير السّن، لأن ذلك معروف من حال الشيخ(٥) وهم قد ساقوا هذه الأوصاف لأبيهم يعقوب - عليه السلام - تقدمَةً لمطلبهم لا لأصل الفائدة، فقد سبق أن أخبروا يوسف - عليه السلام - بأن له ولدا قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستأنس بأخيه(٦) بنيامين يتسلى به عن أخيه المفقود، فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا، فلا يتضرر بفراقه كما يتضرر بفراق بنيامين(٧) خاصة وأنه أصغرنا، والصغير يتعلق به الكبير أكثر لأنه ابن شيخوخته(٨).

---

(١) يوسف/ ٨٨. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٤٩.
(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٨١. (٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤١.
(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٣٧.
(٥) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٠.
(٦) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٦.
(٧) فتح البيان/ ٦/ ٣٨١. (٨) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١١٥.

رفع المسبهم

مطلب الإخوة:

«**فخذ أحدنا مكانه**» قال ابن قتيبة: الأخذ يكون بمعنى الحبْس والأسْر[1] إنهم بعد أن بيّنوا السبب أفصحوا عن طلبهم ورجائهم، وهو أن يُخلي العزيز أخاهم بنيامين ويطلق سراحه ليعود معهم إلى أبيهم المسكين، وفي مقابل ذلك يأخذ العزيز واحدا منهم بدلاً من بنيامين يكون عبداً للعزيز،...

قال الإخوة ذلك وهم يعلمون ضَعْفَ مستندهم في هذا الالتماس، بعد صدور الفتوى الشرعية منهم بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله، وهم كذلك على يقين من أن طلبهم هذا يتعارض في جوهره مع روح الشريعة الإبراهيمية، ولكن الموقف الصعب الذي أحاط بهم، والأزمة النفسية التي غرقوا فيها، والخوف البالغ من غَضب أبيهم عليهم هوا الذي دفعهم ولا شك لهذا الرجاء[2].

«**إنَّا نراكَ مِنَ المحْسِنِينَ**»

وصف له - عليه السلام - بما شاهدوه من إحسانه لهم ولغيرهم، أو من المحسنين إلينا في هذه اليد إن أسدَيْتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحاق[3] قال: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إنا نرى ذلك منك إحساناً إن فعلت[4] فالإحسان على الأول إحسان لهم ولغيرهم، فهو عام، وعلى الثاني فهو إحسان خاص بهذا الطلب، والجملة على الوجهين اعتراض تذييلي على ما ذهب إليه بعض المحقّقين، وذهب بعض آخر إلى أنه إذا أريد بالإحسان الإحسان إليهم تكون مستأنفة لبيان ما قبل، إذْ أخْذ البدل إحسان إليهم، وإذا أريد أن عموم ذلك من دأبك وعادتك تكون مؤكدة لما قبل، هذا، وذكر أمر عام يتعلق بالإحسان على سبيل التذييل أنسب لذلك[5] فيكون معنى قولهم «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي: الراسخين في الإحسان إلينا وإلى كل قاصد، علّلوا طمعهم في استجابة

---

(١) تأويل مشكل القرآن/ ١/ ٣٨٤.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف٢/ ١١١٧، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٥٠-٢٥١.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٠. (٤) تفسير الطبري/ ٧/ ١٣/ ٣١.

(٥) روح المعاني/ ٧/ ٣٢.



طلبهم بما جبل عليه العزيز واشتهر به من الإحسان في كل شيء، حتى فاض عنه ذلك بين الخاص والعام، ثم جاءوا بحالة تتطلّب هذا الإحسان وتستدعيه بصفة خاصة قبل غيرها، وهي الأبوة المقترنة بكِبَر السن الموجب للرحمة والرعاية[1].

وجاءوا بهذه الجملة «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» لأن من عادة الطالب أن يقدم إلى المطلوب منه ثناء قبل الطلب أو بعده، وهذه آداب الطلب من الناس، والدعاء من الله تعالى أيضاً، قال تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ... الخ».

وكذلك الطلب من الناس إذا اقترن بالثناء يكون أقرب إلى القبول والتلبية[2] عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا صلى أحدكم - أي دعا - فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصلِّ على النبي - ﷺ -، ثم ليدْعُ بعد بما شاء»[3].

ووصْفه - عليه السلام - بالإحسان يذكر للمرة الثالثة في هذه السورة الكريمة، فقد وصفه ربه بقوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»[4] ووصفه صاحباه في السجن بقولهما: «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[5]، فكأن الإحسان يجري في حياة يوسف - عليه السلام - وبكل مراحلها، يشهد له بذلك ربه الأعلى، ويشهد له بذلك من صحبه في السجن، ويشهد له بذلك من تعامل معه، وهم الإخوة وغيرهم.

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٤٠٩.
(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٥٩.
(٣) حديث صحيح رواه الترمذي / ٩ / ٤٤٩.
(٤) يوسف / ٢٢. (٥) يوسف / ٣٦.



(ب) يوسف - عليه السلام - يستعيذ بالله تعالى من طلب الإخوة:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

وجه المناسبة:

لما استعطف الإخوة يوسف – عليه السلام – ليأخذ أحدهم مكان بنيامين، فكأنه قيل: فبماذا أجادهم؟ قيل:

«**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ**»(١)

أي: نعوذ بالله تعالى معاذاً من «أن نأخذ» فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه مضافاً إلى المفعول به، وحُذِف حرف الجر كما في أمثاله(٢) ومعنى «مَعَاذَ الله» أي: عياذاً بالله من فعل السوء(٣)

«**إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ**» لأن أخْذَنَا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها، والمتاع: اسم لما ينتفع به وأريد به الصواع، «إِنَّا إِذاً لَظَالِمُون» وهذه هي الجزئية التعقيبيّة في الآية الكريمة، والمعنى، إنا إذا لظالمون إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه، وهذا شيء طبيعي، لأنه حينما يؤخذ برئ بدلاً من الجاني لأي سبب من الأسباب فإن ذلك ظلم ما بعده ظلم، وهو ما تقول به الشريعة الإبراهيمية، وما تقول به كل بصيرة نيّرة، قال تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»(٤).

وإيثار صيغة المتكلم مع الغير مع كون الخطاب من جهة إخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك، وللإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يُسْتَبَدُّ به، بل هو منوط بآراء أهل الحلّ والعقد، وإثار «مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَه» على من سرق متاعنا الأخْصَر، لأنه أوفق بما وقع في الاستفتاء والفتوى، أو لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٨٢. (٢) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٦، وروح المعاني / ٧ / ٣٣

(٣) تفسير البحر / ٥ / ٢٩٤. (٤) النجم / ٣٦-٣٨.



في الكلام مع تمام المرام، فإنهم لا يحملون وجدان الصواع عنده على محمل غير السرقة(١) فيوسف - عليه السلام - كان يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبّر أدقّ تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة، حيث إن قوله «مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ... الخ» هي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه(٢).

وفيما تقدم يقول ابن إسحاق «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ» يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعنا عنده إنا إذا نفعل ما ليس لنا فعله ونجور على الناس(٣).

هذا، والمتأمّل لما صدّر به يوسف - عليه السلام - إجابته على طلب الإخوة يجد أن رده عليهم قد بلغ الغاية في الرفض والصّد العنيف لما سألوه، إنه نفس الرد والرفض القاطع على امرأة العزيز أن هذا الأمر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه، كما أنه هنا أظهر لإخوته أن استبدال بنيامين بغيره منكر أيضاً، لأن فيه استرقاق البرئ وفَكّ المجرم(٤) ويلاحظ أن يوسف - عليه السلام - لا يستخدم هذا القول «مَعَاذَ الله» في غير هاتين المناسبتين، بل إنه لم يأت في القرآن الكريم في غير هذين الموضعين(٥).

وكان ردّ يوسف على رجاء إخوته - كما سبق - درسا بالغ الأهمية:

كان آخر جواب يوسف لإخوته «إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ» يعني أنه يريد أن يقول لهم: وما نريد أن نكون ظالمين، وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف، وعرفوا ألا جَدْوى بعدها في الرجاء(٦) وكان هذا الرد الشديد درساً نفسياً عميقاً للإخوة يضاف إلى الدروس السابقة، فكيف بالإخوة الذين أعلنوا عن حكم شريعتهم في القضية يحاولون عند التطبيق التّنصّل منها، وإبدالها بشيء لا يقره شرع ولا قانون.

والملاحظ أن خيبتهم وخذلانهم كان من جهتين لا من جهة واحدة، (الأولى) جهة الرفض لما طلبوا، (الثانية) محاولتهم الخروج على شريعتهم صراحة، ومعلوم

(١) انظر: تفسير الألوسي/ ٧/ ٣٣، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٥٣. (٢) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٢.
(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٣٢. (٤) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٢٢٢.
(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٥٣. (٦) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٢.



أن أصحاب الإيمان الحق لا يتراجعون أبداً عن تطبيق الشريعة وإحقاق الحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.

وكأن يوسف - عليه السلام - يقول لهم: لقد تورطتم وأنتم الذين تدّعون أنكم صالحون متدينون في تناقض عجيب، فحينما كان السؤال عن حدّ السارق مجرّداً عن معرفة الشخص الذي سيُطبّق عليه الحكم، أعلنتم الحكم في صورة من التعبير واضحة قوية، وحينما تبيّن أن ذلك الشخص واحد منكم، إذا بكم تطلبون مني الإحسان إليكم بأن أعفو عن السارق وأعاقب البرئ محلَّه، فهل هذا هو الإحسان؟ أم أنه الظلم عين الظلم باعترافكم أنفسكم(١).

وهكذا بلغ بهم اليأس حدّه، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت، وعمَّتهم الخيبة والحسرة، فلا هم احتفظوا بكرامتهم أمام العزيز، ولا هم عادوا بشيء، ولا ننسى أنهم الآن أصبحوا أمام جهة أشد وطأة عليهم من كل ما سبق، وهي جهة يعقوب - عليه السلام - الذي يرهبون مواجهته، خاصة وهم أصحاب سابقة لا تغتفر، ارتكبوها في حقه وحق أخيهم يوسف، لقد كان هذا الدرس القاسي من يوسف لإخوته، لازما وضروريا، ليواصل تهذيبهم وتقليم أظافر شوكتهم حتى يخضعوا لأمره، وإن هذا التمييز الدقيق بين من وجدوا - متاعهم عنده، وبين إخوته وهم أقرب الناس إليه، يوضح صورة دقيقة وكريمة، من صور العدل والحق، وكما كانت درساً لإخوته خاصة، كذلك درس للناس عامة(٢).

المضمون العام للآيتين الكريمتين: (٧٨-٧٩)

تذكر الإخوة حال أبيهم وما أخذه عليهم من الميثاق في شأن المحافظة التامة على أخيهم بنيامين، وألا يفرطو فيه إلا أن يحاط بهم، وكيف يرجعون إليه بدونه، فاسترحموا العزيز وقالوا له: إن له أباً شيخاً رئيس قبيلة، فخذ أحدنا مكانه واسترِقَّه

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٦١.

(٢) دروس من سورة يوسف / ١٦٠.



مكانه رحمة بوالده فإنه لا يتحمّل فراقه، إنا نراك من المحسنين، فأحسن إلينا هذا الإحسان، فأجابهم العزيز بقوله معاذ الله أن نأخذ فنسترقّ إلا من ثبتت عليه الجريمة، وقد وجدنا متاعنا عنده، إنا إذا أخذْنا أحداً مكانه لظالمون قد تَعَدَّينا الشرْع والحق، فإنه لا يؤخذ أحد بجريمة غيره.

سابعاً - من فيض نور الآيتيْن الكريمتيْن:

١ - مشروعية الاستعطاف والتوسل إلى الغير شريطة أن يكون ذلك في إطار الحق المشروع والمنهج القويم.

٢ - كل صور الاسترحام والاستعطاف والاسترقاق يجب ألا ينظر إليها بتاتاً إذا كان المطلوب شيئاً لا يقره شرع ولا قانون.

٣ - جواز التوسّل بالصفات الداعية إلى الرحمة والعطف، كالكِبَرِ في السِّنّ، والكبر في القدر والمنزلة، ونحو ذلك، على أن يكون ذلك فيما هو مشروع.

٤ - من آداب الطالب للشيء الهام أن يثنى على المطلوب منه لتيْسير نيل الطلب وتحقيق الرجاء.

٥ - على من طلب منه أن يحكم بغير العدل أو تنفيذ ما يخالف الشرع أن يبادر برفض الطلب بكل شدّة، حتى لا يطمع طامع في تبديل شرع الله.

٦ - الشفاعة لا تكون إلا في الخيْر والحقّ والعدْل، ولا تكون في الظلم.

٧ - الحسرة والخيبة وعدم تحقيق الرجاء لكل من طلب مطلباً يخالف منهج الله تعالى.

٨ - كان هذا الرفض القاطع من يوسف - عليه السلام - لطلب الإخوة درساً جديداً قاسياً عليهم، توصلا إلى صلاح حالهم وتمام رشدهم.

٩ - إن مما يفعله بعض المسئولين من إلقاء القبض على قريب المتهم الهارب حتى يحضر، خروج عن الشرع فقد قال تعالى: «وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»(١).

---

(١) فاطر / ١٨.



«من الآية الثمانين، إلى الآية الثانية والثمانين»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾

ثانياً - أوجه القراءات:

«وَلاَ تَيأسُوا» آية (٨٧) و«فَلَمّا استَيأسُوا» آية (٨٠) بالهمزة بعد الياء، اتفق القراء عليه إلا ابن كثير في بعض الروايات.

والوجه أن يَئِسَ واستيأس بهمزة بين الياء والسين هو الأصل في الباب، لأن الكلمة مما فاؤه ياء، فالحرف الأول (ياء) والثاني (همزة)، واستَيْأسَ ويَئِسَ واحد، مثل: اسَتعْجَبَ وعَجِبَ، واسْتَسْخَرَ وسَخِرَ، قال أوس[١].

ومُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يرى من أَناتنا *** ولو زَبَنَتْهُ الحرْبُ لَمَ يترَمْرَمِ[٢]

وقرأ ابن كثير في رواية البزي (تَايَسُوا) و(اسْتَايَسُوا) بألف قبل الياء.

والوجه أنه قَلَبَ الكلمة فجعل العين في موضع الفاء، والفاء في موضع العين، فبقى (تأيَسُوا) و(اسْتَأيَسُوا) بالهمزة قبل الياء، ثم خُفِّفَت الهمزة فصارت ألفا، فبقى (تَايَسُوا) و(اسْتَايَسُوا) بالألف، كما قالوا (راس) و(فاس) بالألف، والأصل (رأس) و(فَأس) بالهمزة[٣]. ثلاثِيّاً مبنيّاً للفاعل إخباراً بظاهر الحال، وهي قراءة الجمهور.

---

(١) هو أوس بن حجر التميمي بن شريح، شاعر جاهلي مات قبل الهجرة بنحو سنتين.

(٢) زبنَتْهُ الحرب: صدَمَتْهُ، ورَمّ: بلى.

(٣) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٨٦.



«سَرَق» قرأ ابن عباس وأبو رزين، والكسائي في رواية: (إن ابْنَكَ سُرِّقَ) بالبناء للمجهول، وتشديد الراء، أي: نُسِبَ إلى السَّرَق، وقرأ الضحاك (سَارَقَ) اسم فاعل(١).

ثالثاً - اللغة:

«فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ» يأس: اليَأس: القنوط، وقيل: اليأس: نقيض الرجاء، يقال: يَئِسَ من الشيء يَيْأسُ، وَيَيْئِسُ نادرٌ عن سيبويه، ويَئِسَ ويَؤُسَ عنه أيضاً، وهو شاذ، قال: وإنما حذفوا كراهية الكسرة مع الياء، وهو قليل، والمصدر: اليَأس، وإنه لَيَائِسٌ وَيَئِسٌ وَيَؤوس، وَيَؤُسَ، والجمع يَؤوس، ويقال: استيأس بمعنى يَئِسَ، والقرآن نزل بلغة من قرأ يَئِسَ، ويقال: آيَسَهُ فلان من كذا، فاسْتَيْأسَ منه بمعنى أيِسَ واتَّأسَ أيضا، وهو افْتَعَل فَأدْغِمَ مثل: اتَّعَدَ(٢).

«خَلَصُواْ نَجِيًّا»

النَّجِيُّ: المناجي، ويقال للواحد وللجميع، قال تعالى: «وقرَّبْنَاهُ نَجِيّاً»

وقال هنا: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا» وناجَيْتُه: أي: سَارَرْتُه وأصله أن تخلُوَ به في نَجْوةٍ من الأرض(٣) قال الأخفش: وقال: (خلصوا نجيا) فجعل (النجي) للجماعة مثل قولك: هُمْ لِي صديق(٤).

«وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ»

التّفريط: أن يُقَصِّرَ في الفَرَط، يقال: ما فَرَّطتُّ في كذا، أي: مَا قَصَّرْتُ، قال تعالى: «مَا فَرَّطتُم فِي يُوسُفَ»(٥)

«فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ»

بَرِح: ثَبَتَ في البراح، ومنه قوله عز وجل: «لاَ أَبْرَحُ» وخُصَّ بالإثبات كقولهم

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٣٢.

(٢) انظر: اللسان / ٦ / ٢٥٩-٢٦٠، والقاموس المحيط / ٧٥٠.

(٣) المفردات (كتاب الخاء) ١٥٤.

(٤) معاني القرآن للأخفش / ٢ / ٥٩٢.

(٥) المفردات (كتاب الفاء) ٣٧٧.



(لا أزال) لأن (بَرِحَ) و(زَالَ) اقْتَضَيَا معنى النّفي، و(لا) للنفي، والنَّفْيَانِ يحصُل من اجتماعهما إثبات، وعلى ذلك قوله عز وجل: «لن نبرح عليه عاكفين»[1] وقوله هنا «فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ»

«حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي»

الإِذْن في الشيء: إعلامٌ بإِجَازَتِه والرُّخْصَةِ فيه[2].

رابعاً - الاعراب:

«فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا» لمّا ظرفيّة حينيّة، أو رابطة، و(استيأسوا) فعل وفاعل، و(منه) متعلقان بـ(استيأسوا) و(خلصوا) فعل وفاعل جواب لما، و(نجيا) حال من فاعل (خلصوا) أي: اعتزلوا في هذه الحالة متناجين، وإنما أفردت الحال وصاحبها جَمْع لأن النَّجيّ يُفْرَد مطلقاً.

«قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» (قال كبيرهم) فعل وفاعل، والهمزة للاستفهام التقريري، و(لم) حرف نفْي وقلْب وجزْم، وتعلموا فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مَفعُولَيْ (تعلموا) وإن واسمها، وجملة (قد أخذ) خبر، و(عليكم) متعلقان بـ(أخذ) وموثقا مفعول به، ومن الله صفة لموثقا.

«وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» في إعراب هذا الكلام وجوه[3] أظهرها أن (من قبل) خبر مقدم، وبُنِيَ (قَبْلُ) على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى، أي: ومن قبل هذا، و(ما) مصدرية، وهي مع مدخولها مبتدأ مؤخر، ومعناه: ووقع من قبل هذا تفريطكم، و(في يوسف) متعلقان بـ(فرطتم) ويجوز أن تكون (ما) موصولة، بمعنى: ومن قبل هذا الذي فرطتموه في يوسف من الجناية العظيمة، ومحل

(١) المفردات (كتاب الباء) ٤٢.

(٢) المفردات (كتاب الألف) ١٤.

(٣) بلغت ستة أوجه، انظر: التبيان/ ٢/ ٧٤١، والدر المصون/ ٦/ ٥٣٩-٥٤٢.



الموصول الرفع على الابتداء أيضاً، ويجوز أن تكون (ما) صلة، أي: زائدة لتحسين اللفظ، فـ(من) متعلقة بالفعل وهو فرطتم، وقد رَجَّحَ أبو حيان هذا الوجه[1].

«فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي» الفاء عاطفة على مقدّر، أي: سأبقى في مصر ولن أبرحها، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، و(أبرح) فعل مضارع منصوب بـ(لن) ومعناه: أفارق، فهي تامة، وفاعل أبرح مستتر تقديره (أنا) والأرض مفعول به، وحتى حرف غاية وجرّ، و(يأذن) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد (حتى) و(لي) متعلقان بـ(يأذن) و(أبي) فاعل.

«أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» (أو) حرف عطف، ويحكم فعل مضارع معطوف على يأذن، ويجوز أن ينصب بـ(أن) مضمرة في جواب النّفي، و(الله) فاعل، و(لي) متعلقان بـ(يحكم) وهو مبتدأ، و(خير الحاكمين) خبر.

«ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» (ارجعوا) فعل أمر وفاعل، و(إلى أبيكم) متعلقان بـ(ارجعوا) (فقولوا) عطف على ارجعوا، و(يا أبانا) منادى مضاف، وإنّ وابنك اسمها وسرق خبرها.

«وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا» الواو حرف عطف، وما نافية، وكان اسمها، وللغيب متعلقان بـ(حافظين) وحافظين خبر (كنا).

«وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» الواو عاطفة، وأسأل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت، والقرية مفعول به، والتي صفة، وجملة (كنا) صلة، وكان واسمها، و(فيها) خبرها.

«وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» العير عطف على القرية، والتي صفة، وجملة (أقبلنا) صلة، و(فيها) متعلقان بـ(أقبلنا) و(إنا) عطف، وإن واسمها واللام المزحلقة، وصادقون خبرها.

---

(١) البحر/ ٥/ ٣٣١.



البلاغة: في قوله تعالى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» مجاز مرسل: إذ المراد أهلها، والعلاقة المحلّية، أي: أرسل إلى أهلها فاسألهم عن تفاصيل هذه القصة، وكذلك قوله: «وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» أي: أصحاب العير[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٣١-٣٧.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

فجيعة أخرى، وحوار مرّ، ودرس جديد لهم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أجابهم يوسف - عليه السلام - بتلك الإجابة وأيقنوا أنه لا جدوى من الرجاء ولا أمل في الاستعطاف، حكى الله تعالى ما ترتب على ذلك من مناجاتهم هذا الأمر فقال:

«**فلمَّا استيأسوا منه...**» دل بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات(١) واليأس معناه قطع الأمل من الشيء، وهم (استيأسوا) وكأنهم يُلحّون على اليأس أن يأتي، كأنهم يطلبون اليأس(٢) لشدّة ما هم فيه من غم وهم وحزن، عن ابن إسحاق قال: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ» يئسوا منه ورأوا شدّته في أمره(٣) وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله تعالى مما طلبوه ومن تسميته ظلما بقوله «إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ»(٤) ونستطيع أن نفهم من «استيأسوا» اليأس الذي ليس وراءه يأس(٥).

إن يوسف - عليه السلام - بإجابته الصلبة الحادّة، قد قطع على الإخوة كل طريق للخلاص من هذا المأزق الذي وقعوا فيه، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وعلموا أن بقاء أخيهم بنيامين عند العزيز أمر محتم لا فكاك منه ولا خلاص.

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٨٦.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ٣٢.

(٤) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٢٩٩.

(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٥٤.



«خَلَصُواْ نَجِيًّا» (خلصوا): اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم[١] يعني أنهم أبعدوا أنفسهم عن الاجتماع الذي كان في اللقطة السابقة وهم أمام العزيز يسألونه مطلبهم على مشهد من الناس[٢].

«نجيا» حال من فاعل (خلصوا) أي: اعتزلوا في هذه الحال[٣] متناجين. والنّجيّ والنّجوى والتّناجي مصادر بمعنى المسارّة بالحديث، وأصله من النجوى، وهي المكان المرتفع عما حوله بحيث ينفرد من فيه عمن دونه، أو من النجاة، كأنه نَجَا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليه[٤].

قال الزمخشري: «نجيا» ذوي نجوى أو فوجا نجيّا، أي: مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، وأحسن منه أنهم تمحّضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته[٥].

عن قتادة قال: «خَلَصُواْ نَجِيًّا» خلصوا وحدهم نجيا، وعن السدي: «خَلَصُواْ نَجِيًّا» خَلَوا بينهم نجيا يتناجون، وعن ابن إسحاق «خَلَصُواْ نَجِيًّا» أي: خلا بعضهم ببعض ثم قالوا: ما ترون؟[٦]

وإنما أفردت الحال (نجيا) وصاحبها جمع (الإخوة): إما لأن النّجي فعيل بمعنى مُفَاعِل كالعشير والخليط بمعنى المخالط والمعاشر، كقوله تعالى: «وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّا»[٧] أي: مناجيا، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقا، يقال: هم خليطُكَ وعشيرك، أي: مخالطوك ومعاشروك، وإما لأنه صفة على فَعِيل بمنزلة صديق، وصديق وبابه يُوَحّد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والوجيب[٨] والذَّميل[٩] وإما مصدر بمعنى التناجي كما قيل:

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٦.
(٢) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
(٣) الدر المصون/ ٦/ ٥٣٨.
(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٢٩.
(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٦.
(٦) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٣٣. (٧) مريم/ ٥٢.
(٨) وجب قلبه: اضطرب.
(٩) الذميل: ضرْب من سير الإبل: ذَمَلَ يَذْمُلُ ويَذْمِلُ.



النجوى بمعناه، قال تعالى: «وَإِذْهُم نَجْوَى»(١) وحينئذ يكون فيه التأويلات المذكورة في «رَجُل عدْل» وَبَابُه، ويجمع على «أنجية» وكان من حقه إذا جعل وصفا أن يجمع على أفْعِلاء، كغنيّ وأغنياء، وشقِيّ وأشقياء، ومن مجيئه على «أنجية» قول الشاعر :(٢)

إنّي إذا ما القوم كانوا أنْجِيَهْ *** واضطرب القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ

وقال الآخر - هو لبيد(٣)

وشهدت أنْجِيَةَ الأُفَاقَةِ عاليا *** كَعْبِي وأردافُ الملوكِ شهودُ

وجمعه كذلك يقوي كونَه جامداً، إذ يصير كرغيف وأرغفة.

قال الإمام الثعالبي: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز، والاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبّر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام، إلى أن قال: ومن ذلك قوله عز ذكره في إخوة يوسف «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا» وهذه صفة اعتزالهم لجميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبَطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمَّنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة(٤) وسمع أعرابي رجلا يقرأ «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا» فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على هذا الكلام، لإيجاز بلاغته وخروجها عن طوق البشر، فإنك إذا وزنت قولك: - لَمَّا لمْ يطعِهم يوسف - عليه السلام - ولم يجبهم، ذهبوا وتشاوروا فيما يقولون بعد هذا، وكيف يرجعون لأبيهم - بهذا النظم، عرفت بالذوق أنه لا مناسبة بينهما(٥).

---

(١) الإسراء/ ٤٧.

(٢) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي، والأرشية: الحبال التي يُستقي بها، انظر: النوادر لأبي زيد/ ١١، وأمالي الشجري/ ٢/ ٢٥، والتهذيب/ ١١/ ١٩٩، واللسان/ ٦/ ٤٣٦١.

(٣) البيت من الطويل، انظر ديوانه ٤٧، مجاز القرآن/ ١/ ٣١٥، والتهذيب/ ٩/ ٣٤٤، واللسان/ ١/ ٩٧.

(٤) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٨٨.

(٥) تسيم الرياض/ ٢/ ٤٨٩ (عن كتاب يوسف بن يعقوب/ ٤١٢-٤١٣).



ولما كانوا في صورة التناجي فكأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل[1]

«قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ...»

إن السياق القرآني الكريم لم يذكر أقوالهم جميعاً، إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه[2].

من هو كبيرهم؟ هل هو راؤو بين أوروبيل، أكبرهم سنا كما قال قتادة؟ أم هو شمعون كبيرهم في العقل والعلم لا في السنّ كما قال مجاهد؟ أم هو يهوذا أعقلهم كما قال الكلبي؟ أم هو لاوى أبو الأنبياء كما قال محمد بن كعب؟.

اختلف أهل التفسير في ذلك كما سبق، والأصح أنه رأو بين أو روبيل أكبرهم سنا، قال الإمام الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عني بقوله (قال كبيرهم) روبيل، لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سنا، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: فلان كبير القوم مطلقا بغير وصل إلا أحد معنيَيْن، إما في الرياسة عليهم والسؤد، وإما في السنّ، فأما في العقل فإنهم إن أرادوا ذلك وصلوه فقالوا: هو كبيرهم في العقل، فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك فلا يُفْهم إلا ما ذكرْتُ، ثم قال الطبري: وقد قال الذين ذكرنا جميعاً: روبيل كان أكبر القوم سنا، فصح بذلك القول الذي اخترناه[3].

وقال الشيخ عبد الله العلمي: فقال أخوهم الأكبر رأو بين كما روي عن قتادة، وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الإطلاق، لأنه بِكر إسرائيل - يعقوب - عليه السلام - وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعا) في آرائه في يوسف، فقد كان له معه ضلْع لا يُنكر، وإن كانت المقادير لم تساعده[4].

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٨٧.

(٢) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٣٣-٣٤، تفسير القرطبي / ٩ / ٢٤١ ويوسف بن يعقوب / ٤١٣.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١١٢٨.



وقال الدكتور حسن محمد باجودة: وقد يقول قائل: لماذا نُصِرُّ على أن القائل أكبر الإخوة، وإن لفظ (كبير) هو الذي جاء في الآية القرآنية الكريمة؟ والجواب عن ذلك أن العادة قد جرت بأن يستعمل القرآن الكريم هذه اللفظة ويريد الأكبر أو الأكبر أهميّة، ولأن المنتظر أن استيقاظ الضمائر إنما يبدأ عادة بالأكبر سنّا والأكثر تجربة، لهذانرى أن هذا السبق ما كان ينبغي أن يفوت الأكبر، خاصة وأنه قد سبق وأن قُدِّمَ اقتراح لإنقاذ حياة يوسف وجعله في غيابة الجب قبل سنوات وسنوات «قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ»(١) ومثل هذا الاقتراح ينتظر ممن يعتبر في تلك الأثناء كبير إخوته، أو أكبرهم بتعبير أدقّ، ومن هنا ذهبنا إلى أن الأخ الأكبر هو صاحب الاقتراح الثالث - الإلقاء في الجب - ومن هنا ذهبنا أيضاً إلى أنه هو المراد بقوله تعالى: «قَالَ كَبِيْرُهُم»(٢)

والنص القرآني الكريم يدل على أن الأخ الكبير كان أكثر الإخوة تأثرا لما حدث، وإنه ليذكرهم بالموثق الذي أخذه أبوهم عليهم، فهو يقول لهم: «أَلَمْ تَعْلَمُوا أنّ أبَاكُم قَد أخَذَ عَليكُم مَوثِقاً مِنَ الله» وهو يشير بهذا إلى قول أبيهم لهم «لتأتنّني به إلاّ أن يحاط بكم» وواقع الحال أنهم قد أحيط بهم فعلاً، وأصبحوا مكتوفي الأيدي أمام استرقاق أخيهم بنيامين، ولا حول لهم ولا قوة في مواجهة دولة، خاصة وقد أُخِذَ بشرع الإخوة وفتواهم.

«وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ»

فعلى الوجه الأظهر في إعراب هذه الجملة، وهو أن (من قبل) خبر مقدم، و(ما) مصدرية، وهي مع مدخولها خبر مبتدأ مؤخر، و(في يوسف) متعلقان بـ(فرطتم) يكون المعنى، ووقع من قبل هذا تفريطكم في حق وشأن يوسف، فقد أسلمتموه للهلاك ولم تحفظوا وعدكم لأبيكم إذ قلتم:

---

(١) يوسف / ١٠.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٥٥.



«وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون» «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون»، إن الأخ الكبير يعني أن الأمر لو كان أخذ بنيامين وحده الآن ولا شيء قبل ذلك لهان، لكن السابقة المروعة التي أوقعتموها بيوسف هي التي تكسر ظهورنا وتجعل موقفنا الآن أمام أبينا موقف المتّهمين غير المصدّقين، فإن أباكم سيضم هذه (حادثة بنيامين) إلى تلك (حادثة يوسف) فيعلم بها خيانتكم قطعاً.

أول اعتراف بالحقيقة:

إن قول رأو بين: «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم وسكت عليه الباقون، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم فرّطوا في يوسف، وكان هذا نتيجة شيء من الخلاف بين الإخوة[1]، ولا يخفى أن هذه الجزئية الخاصة بيوسف - عليه السلام - «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» تُحمّل الإخوة مسئولية التفريط في يوسف وليس هو، فهم الذين أرادوا قتله أو طرحه أرضاً، أما هو فقد اقترح لإنقاذ يوسف بجعله في غيابة الجب[2].

«**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ...**» هذا الكلام مفرّعٌ على ما ذَكَرَهُ وذكّرَ به[3]، و(بَرِح) هنا تامة ضُمِّنت معنى (أفارق) فـ(الأرض) مفعول به، ولا يجوز أن تكون تامة من غير تضمين، لأنها إذا كانت كذلك كان معناها ظهر أو ذهب، ومنه (بَرِحَ الخفاء) أي: ظهر أو ذهب، ومعنى الظهور لا يليق، والذهاب لا يصل إلى الظرف المخصوص إلا بواسطة (في) تقول: ذهبت في الأرض، ولا يجوز ذهبت الأرض[4].

ولا يجوز في (برح) أن تكون ناقصة، لأن الأرض لا يصح أن تكون خبراً عن المتكلم هنا، وليست منصوبة على الظرفية ولا بنزع الخافض، وعني بها أرض مصر، أي: فلن

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٣١، ويوسف بن يعقوب/ ٤١٥-٤١٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٥٨.

(٣) روح المعاني/ ٧/ ٣٦.

(٤) الدر المصون/ ٦/ ٥٤٢-٥٤٣، وانظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٣١.

(٥) روح المعاني/ ٧/ ٣٦.



أفارق الأرض جريا على قضية الميثاق(٥).

إن الأخ الكبير (روبين) قد ذكّر إخوته بالميثاق المأخوذ عليهم، كما ذكّرهم بتفريطهم في يوسف من قبل، وقَرَنَ هذه إلى تلك، ثم رتّب عليها قراره الجازم ألا يبرح مصر(١) التي فيها الواقعة، ثم غيا ذلك بغايتين، (إحداهما) خاصة، وهي قوله:

«**حتى يأذن لي أبي**» يعني في البراح بالانصراف إليه، و(الثانية) عامة، وهي قوله:

«**أو يحكم الله لي**» بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب، وكأنه بعد أن غيا بالأولى - حتى يأذن لي أبي - رجع وفوض الأمر إلى من له الحكم حقيقة جل شأنه، وأراد حكمه سبحانه بما يكون عذراً له ولو الموت، والظاهر أن أحب الغايتين إليه الأولى، فلذا قدَّم (لي) فيها وأخره في الثانية فليفهم(٢).

توبة نصوح مضمرة:

لقد كان الأخ الكبير راضياً بحسَده السلبي ليوسف في الماضي، والآن يتبدّد هذا الحسد في غمرة الهموم، وتكون من هذا الأخ توبة نصوح مضمرة، في هذا التعبير الذي ألهمه الله إياه «أو يحكم الله لي...»(٣).

«وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» إذ لا يحكم سبحانه إلا بالحق والعدل(٤) وإذا أراد أمراً بلغه بإحاطة علمه وشمول قدرته، وجعله على أحسن الوجوه وأتقنها(٥) وإن كلمة «خير» هنا أبلغ لفظه تحتل هذا المكان، لأنها تتمشى مع نفسية هذا الأخ المنكرة، صادق التوبة، خالص الدعوة، الفقير إلى رحمة مولاه، الوحيد القادر على الحكم(٦).

وحينما نتأمل هذه الجزئية ككلّ «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» يتضح أننا بصدد توازن غاية

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٤.

(٢) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٣٢، وروح المعاني / ٧ / ٣٦.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٦٢.

(٤) روح المعاني / ٧ / ٣٦. (٥) نظم الدرر / ٤ / ٨٧.

(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٢٦٣.



في الدقة والعدل، بين القلب والعقل، بين العاطفة والفكر، ففي الوقت الذي نجد لفظه «الخير» تتعلق بنفس الأخ الأكبر، فإنا نجد لفظة «الحاكمين» تتعلق إلى درجة كبيرة بالذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد، بالله الكبير المتعال، الذي كل ما يشاء له أن يكون، هو الحكمة ذاتها، وهكذا يتضح لنا العدل التام والتوازن الكامل، فلفظة «الخير» ترتبط في جملتها بالعقل والفكر، ولفظة «الحاكمين» ترتبط في جملتها بالعقل والفكر(١).

---

(٤) المرجع السابق/ ٢٧٠.

أمر من الأخ الكبير برجوع الإخوة إلى أبيهم:

قال الله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

وجه المناسبة:

بعد ما اتخذ الأخ الكبير قراره السابق، فكأنه قيل: هذا ما رآى أن يفعل في نفسه، فماذا رآى لإخوته؟ فقيل: أمرهم بالرجوع ليُعْلِموا أباهم لإمكان أن يريد القدوم إلى مصر ليرى ابنه، أو يكون عنده رأى فيه فرج، فقال:

«ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ»(١)

لقد حدّد الأخ الكبير موقفه، وها هو الآن يبيّن لإخوته ما عليه أن يفعلوه، إنه يأمرهم بالرجوع فوراً إلى أبيهم يعقوب - عليه السلام - في أرض كنعان بفلسطين، ليخبروه بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عند أبيهم ويتنصّلوا إليه ويَبْرأوا ممّا وقع(٢) وفي أمره لهم بالرجوع إلى أبيهم ما يفيد أنه لم يحرّضهم على البقاء في مصر معه، بل لم يكن ليقبل ذلك، لأنه فيه زيادة آلام وتضاعف أوجاع الأب الحزين على تخلفهم جميعاً، لو حدث؛ فرجوعهم إلى أبيهم حتى وإن كان على هذه الصورة المزعجة، أخف وطأة من بقائهم جميعاً في مصر، ثم لقنهم ما يقولونه لأبيهم فقال:

«فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ»

الظاهر أن هذا القول من تتمة كلام كبيرهم(٣)

قرأ الجمهور «سَرَق» ثلاثياً مبينيّاً للفاعل إخبارا بظاهر الحال، وقرأ ابن عباس وأبو رزين والكسائي في رواية «سُرِّق» بتشديد الراء مبنيا للمفعول، لم يقطعوا عليه بالسرقة(١) والظاهر أنهم أرادوا أنه سَرَقَ في نفس الأمر(٢) وعلى هذا فيكون المعنى:

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٧.

(٣) روح المعاني / ٧ / ٣٦.



عودوا إلى أبيكم وقولوا له متلطفين في خطابكم «يا أبانا» وأكِّدوا مقالتكم فإنه ينكرها لكم فقولوا: «إن ابنك» بنيامين سرق صواع الملك، فاسترقّه العزيز القائم بأمر الحكم في مصر على وفق شريعتنا التي أخبرناه بها، ولما كانوا في غاية الثقة من أحداً منهم لا يلمّ بمثل ذلك، أشاروا إليه بقولهم:

«وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا»

الشهادة: الخبر عن إحساس قول أو فعل، وتجوز الشهادة بما أدى إليه الدليل القطعي(٣) أي: وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه وشاهدناه من إخراج الصواع من وعاء بنيامين، ولم يكن ذلك بسماع أو إشاعة أو تهمة(٤).

«وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ»

أي: لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا نأخذه، وقال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يُسترقّ ويصير أمرنا إلى هذا(٥) حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تُصاب به كما أصبت بيوسف، وفي الجملة حقيقة الغيب لا يعلمه إلا لله(٦).

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٢. (٢) روح المعاني/ ٧/ ٣٦.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٨٨.

(٤) تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٢٦.

(٥) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٦) التفسير المنير/ ١٣/ ٤٤.



«سوق الأدلة على صدق الإخوة»

قال الله تعالى: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

وجه المناسبة:

ولمّا كان ما لقّنه لهم أخوهم الأكبر يحتاج إلى دليل لتصديقهم تابع يقول لهم:

«واسأل القريَة التي كنّا فيها...»

السؤال: طلب الإخبار بأداته من الهمزة، وهل، ونحوهما(١)

اعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف - عليه السلام - بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا»(٢)

والقرية: الأرض الجامعة لحدود فاصلة، وأصلها من قريت الماء، أي جمعته.

فقولهم: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي: أهلها، فحذف، ففيه مجاز بالحذف لأن القرية لا تسْأل(٣) والمراد أهلها، وهو قول الجمهور، وهو الصحيح(٤).

ونستطيع أن نفهم من هذه الجزئية «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» أن القافلة التي كان فيها الإخوة، بعد أن فصلت العير من المدينة - عاصمة مصر - مرت بقرية في الطريق، على باب مصر تسمى (دسكرة) تعتبر من المحطات التي من الجائز أن تحط فيها الرحال، ومن هنا جاز القول «كُنَّا فِيهَا» وهناك أذَّنَ مؤذّن عَلَى العير «إِنَّكُم لسَارِقُون» وأن هذا الأذان والحوار كان بمرآي من أهل القرية ومسمع، وقد عرفوا أخيراً عند من وُجِد الصواع، وبما أن سمات سكان القرية الاستقرار، لذلك جاز لهؤلاء الإخوة أن يتخذوا هؤلاء السكان شهوداً في هذه القضية، يمكن أن يُسْألوا في أي وقت من الأوقات(٥).

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٨٨. (٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٩٤.

(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٦. (٤) تفير ابن عطية/ ٩/ ٣٥٥-٣٥٦.

(٥) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٧٧-٢٧٨، ومؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٣٥.



لماذا قال: «واسأل القرية» ولم يقل: «واسأل أهل القرية»؟

ويجيب الشيخ محمد متولي الشعراوي عن ذلك فيقول: إن الأحداث تحدث من:

(١) فاعل (٢) مفعول به يقع عليه فعل الفاعل (٣) مكان يقع فيه الحدث (٤) زمان يقع فيه (٥) سبب يوجب هذا الحدث (٦) قوة تنهض به، كل فعل يحتاج إلى ما تقدم، والحاجة القوية هنا، المكان، لذلك نَسَبَه إلى القرية، والمراد أهل القرية، وهذا يدل على وضوح تلك الحادثة لجميع أهل القرية، إذاً؛ فكل حدث يأخذ الأمر البارز فيه، أي: علامة عليه ودليلاً عليه، ولذلك قال: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» ولم يقل: «واسأل أهل القرية»[1] فقد اشتهر هناك أمر الاتهام بالسرقة، حتى لو سئلوا لشهدوا بذلك.

«وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا»

أي: اسأل أصحاب العير، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوما من (كنعان) من جيران يعقوب - عليه السلام -[2].

والعير: قافلة الحمير، من العَيَر - بالفتح - وهو الحمار، هذا الأصل، ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير، من النياق أو الجمال أو البغال التي تحمل الأمتعة.

لماذا قال هنا «وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» ولم يقل «وأصحاب العير التي أقبلنا فيها»

والجواب، أن كل حدث يأخذ الأمر البارز فيه، أي: علامة عليه ودليلاً عليه، ولا يقال (عير) إلا إذا كان في أمرٍ للعير فيه مدخل قويّ فوق الملابسات كلها، ولذلك ففي موقعة (بدر الكبرى) لما أَخْبَروا عن خروج الرسول - ﷺ - حينئذ قالوا:

فخرج رسول الله - ﷺ - لملاقاة العير، التي عليها البضاعة الآتية من الشام لأهل مكة ليصادرها، قالوا: أكان الخروج من أجل العير؟ قالوا: لأن العير هي التي تحمل البضاعة، والبضاعة هي المهمة، لكن! لما أخبروا عن الجماعة الذين أتوا من مكة ليحاربوا قالوا: «النفير» ولم يقولوا: (العير) فالنفير يعني الجماعة المحاربة، إذاً، وكما

---

(١) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٢) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٣٠١.



سبق في «واسأل القرية» فكل حدث يأخذ الأمر البارز فيه، ليدل عليه، والإنسان لا يطلب شهادة الغير على صدق كلامه إلا إذا كان صادقا، وقد كانوا في هذه المرة صاقين، لكن إذا كان الإنسان غير صادق فإنه يزوغ من الشهادة، ولهذا قرروا صدقهم بعد ذلك فقالوا:

«وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»[1]

وهذا القول تأكيد في محل القسم[2] وهو مبالغة في التأكيد والتقرير، يعني سواء نسبتنا إلى التهمة أم لم تنسبنا إليها فنحن صادقون، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم، لأن هذا يجري مجري إثبات الشيء بنفسه، بل هم قدموا الدليل بشهادة ناس حاضرين للحادثة من جيرانهم، ومن ناس غائبون في قرية بمصر يمكن أن يرسل إليهم فيُسألون، والإنسان إذا قدّم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده: وأنا صادق في ذلك، يعني كأنه يقول: فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة[3] فتصدقني.

كلمة الحق لها قوة:

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: انظر إلى موقفهم هنا وقد جاءوا بالصدق كله، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف - عليه السلام - وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله...

إنهم هنا يجدون لكلمة الحق مستساغا في أفواههم، وقوة على ألسنتهم، فيقيمون عليها الأدلة البعيدة - في مصر - والقريبة - في كنعان - ثم لا يكتفون بهذا، بل يجزمون بصدقهم، ويؤكدونه بقولهم: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

أمّا هناك - في موقفهم مع يوسف - فإنهم قد حملوا شاهد الزور بين أيديهم... قميصاً ملطخا بدم كذب، ودموعاً متلصّصة تتخذ من الليل ستاراً لها، ثم كلمات

---

(١) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة. (٢) تفسير البيضاوي/ ١/ ٤٩٣.
(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٩٥، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٣٢.



مستخذية، تمشي على استحياء في رعشة واضطراب «يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» إنهم هناك، يتهمون أنفسهم ويحكمون على ما يقولون بأنه لا يقع موقع التصديق من أبيهم، فما أبعد المدى بين قولهم هنا «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» وقولهم هناك «وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ»... إنه بُعد ما بين الحق والباطل، والصدق والكذب[1]!.

وكان بقاء الأخ الأكبر في مصر واحتجاز بنيامين لدى العزيز درساً قاسياً على الإخوة:

بعد جواب يوسف البليغ الموجز العادل على طلب الإخوة، وتنحيهم جانباً يتدارسون المسألة بعد اليأس القاتل الذي تمكن منهم، وبينما كان كل واحد منهم متلهّفاكي يسمع من أخيه رأيا سديدا لمعالجة هذه القضية العويصة، التي تستهدف في الحقيقة يعقوب والدهم - عليه السلام - الشيخ الكبير الفاني، إذ بانشقاق بين هذه المجموعة من الإخوة ينفجر مدوّيا كالإعصار، فيأتي على لسان الأخ الكبير هذا الاتهام المباشر لإخوته بتفريطهم في يوسف من قبل[2].

ثم يفاجئهم بلطمة أخرى شديدة، فيصر على البقاء في مصر، ويرفض العودة إلى أبيه دون بنيامين، ويأمرهم بالرجوع وحدهم، وهكذا أصبح أبناء يعقوب في جهات ثلاث، جهة يمثلها يوسف - عليه السلام - ومعه شقيقة بنيامين، وجهة يمثلها الأخ الكبير الرافض للعودة، وجهة يمثلها باقي الإخوة المتجهون إلى أرض كنعان، وهم يتهيبون لقاء والدهم، ولا يدرون بماذا يقابل أبناءهم إياه بخبرهم، هل يصدقهم؟ أم يكذبهم؟ أم يتهمهم؟...

إنه لدرس شديد، تلقاه الإخوة إضافة إلى الدروس السابقة، لعلهم يفيئون إلى الرشد وينضوون أخيرا تحت لواء أخيهم يوسف النبي - عليه السلام - ومازالت الدروس تتوالى...

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٧٥. (٢) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٦٥-٢٦٩.



المضمون العام للآيات الكريمة (٨٠، ٨١، ٨٢)

(٨٠) لما يئس الإخوة وتبيّن لهم أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم (بنيامين) انفصلوا عن القوم وبدأوا يناجي بعضهم بعضاً، ماذا نفعل، وكيف نقنع أبانا بما حدث، وبأي وجه نواجهه وليس معنا أخونا، وكانت نتيجة هذه المناجاة ما قاله أخوهم الأكبر لهم: ألم تعلموا أن أباكم قدأ أخذ عليكم موثقا من الله لترجعن بأخيكم هذا إليه، وقد حصل ما رأيتم، ومن قبل ما قصّرتُم في يوسف إذ فعلتم به ما فعلتم وقلتم لأبيكم ما قلتم، فوا الله لن أبرج أرض مصر ولن أعود إلى أهلي حتى يأذن لي أبي بالرجوع إليه، أو يحكم الله لي، وهو خير من حكم، وأعْدل من فصل بين الناس.

(٨١) ثم قال كبيرهم لهم: ارجعوا أنتم إلى أبيكم فقولوا له إن ابنك سرق فاستعبَدَه العزيز حسب شريعتنا، وما أخبَرْنا إلا بما علمنا وشاهدنا من أن السقاية أخرجت من رحل بنيامين، وما كنا للغيب حافظين فنعلم أنه سيسرق ويسترقّ حين أعطيناك الموثق، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله.

(٨٢) فإن لم تصدّقنا في هذا الخبر فحقّق وأرسل أحداً إلى القرية التي كنا فيها مصر، فلْيسْأل أهلها، واسأل القافلة التي كانت معنا وكنا فيها من جيراننا، ليظهر لك صدقنا، وإنا لصادقون بالتأكيد ودون ارتياب في هذا الخبر.

سابعاً - من فيض نور الآيات الكريمة:

١ - مهما كان الإنسان على أي درجة من العقل والقدرة والخبرة، فلا بد من مواجهته لأمور في مسيرة حياته، يعجز عن مواجهتها أو التخلص منها، ولا ينفعه حينئذ إلا اللجوء إلى ربه القادر المقتدر المجيب لمن دعاه.

٢ - مشروعية المناجاة والتشاور في الأمور الهامة للوصول إلى قرار حكيم.

٣ - تأثر الأخ الكبير بحادثة تسريق بنيامين واحتجازه فقرّر البقاء في مصر، حتى يأذله له أبوه بالعودة أو يحكم الله له، وهو خير الحاكمين.



٤ - تمزّق الإخوة إلى فرق ثلاثة، بعد استرقاق بنيامين، وبقاء الأخ الكبير في مصر، وعودة باقي الإخوة إلى أبيهم.

٥ - جواز الشهادة بأي وجه من الوجوه التي حصل العلم بها، فتصح شهادة المستمع والمعاين والأعمى والأخرس إذا فهمت إشارته فهماً تاماً، وكذلك تصح الشهادة على الخطّ إذا تيقن الشاهد أن هذا الخط لفلان.

٦ - الشهادة تكون بالاعتماد على الحواس الظاهرة، أما حقيقة الغيب فلا يعلمه إلا الله.

٧ - «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسْألها» كما هو نص الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن زيد بن خالد الجهني.

٨ - الاستشهاد بالغير دليل على الصدق.

٩ - كل من كان على حق وعَلِمَ أنه قد يُظن به أنه على خلاف ما هو عليه، أن يصرح بالحق الذي هو عليه حتى لا يبقى لأحد مُتَكَلَّم عليه.

رفع المستهم

«الآية الثالثة والثمانون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» (عسى) عند جمهور النحويين من أخوات كاد ترفع الاسم وتنصب الخبر، وعسى: طَمِعَ وترجّي، وهو من الأفعال غير المتصرفة، وقال الأزهري: (عسى) حرف من حروف المقاربة، وفيه تَرجّ وطمعٌ، قال الجوهري: لا يتصرف لأنه وقع بلفظ الماضي لما جاء في الحال(١) والأصح أنها فعل لا حرف لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها(٢).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا» (قال) مرتب على محذوف، أي: فرجعوا - فأخبروه بخبرهم فقال: فعل وفاعل، و(بل) حرف إضراب، وسوّلت فعل ماض، والتاء للتأنيث، ولكم جار ومجرور متعلقان بسوّلت، وأنفسكم فاعل، وأمراً مفعول به.

«فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»

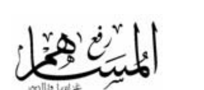
الفاء عاطفة، وصبر خبر لمبتدأ محذوف، أي صبري، وجميل نعْت، وعسى من أفعال الرجاء، و(الله) اسمها، وأن وما في حيزها خبرها، وبهم متعلقان بيأتيني، وجميعاً حال، وإن واسمها، وهو ضمير فصل، أو مبتدأ، والعليم الحكيم خبَرَانِ لإنّ، أو للضمير، والجملة خبر إنّ.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) انظر: اللسان / ١٥ / ٥٤-٥٦.

(٢) الدر المصون / ٢ / ٣٨٨.



سادساً - الشرح والبيان:

«تكذيب، فصبر، فترجّي»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

وجه المناسبة:

لما كان الخبر الذي عاد به الإخوة بشأن بنيامين جديراً بالإنكار، فكأنه قيل: لما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم، فما قال أبوهم؟ قيل:

«**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا...**»(١)

ويطوي السياق الطريق بهم حتى يقفهم أمام أبيهم المفجوع وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع(٢) وبكل ما وقع لهم، وما فعل عزيز مصر معهم، وما ارتكبه أخوهم بنيامين من السرقة التي أغضبت عزيز مصر عليهم، وجعلته بأخذ أخاهم بها... إلى آخر ما قالوه في هذا السبيل، وحاولوا أن يقيموا الأدلة والبراهين على صدقهم كما وجههم إلى ذلك أخوهم الأكبر من قبل، وهم في واقع الأمر صادقون، لكن أباهم لم يقتنع بما قالوا وظن أنه كذب وافتراء، ودارت في نفسه الشكوك والهواجس أن يكون صنيعهم هذا كصنيعهم من قبل بأخيهم يوسف، ولذا أجابهم قائلاً: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا»(٣) و(بل) للإضراب، فيقتضي كلاماً محذوفاً قبلها حتى يصح الإضراب فيها، وتقديره: ليس الأمر حقيقة كما أخبرتم(٤).

وواضح أن (بل) التي تفيد الإضراب، تلغي هنا كل الكلام الذي تفوّه به الإخوة واعتباره من لغو القول(٥) وهو إضراب لا عن صريح كلامهم فإنهم صادقون في ذلك،

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٨٨.

(٢) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٥.

(٣) تاريخ الأنبياء/ ١٥٤.

(٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٢.

(٥) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٩٣.



بل عما يقتضيه من ادعاء البراءة عن التّسبّب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما يؤدي إلى ذلك من قول أو فعل، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً فأتيتموه، يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته(١)

قال الزمخشري في قوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا» أردتموه، وإلا فما أدرىٰ ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم.

قال الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير تعليقا على ما ذكره الزمخشري:

وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كأن قائلاً يقول: هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءا، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جَلِيّته، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه؛ فما وجه قوله ثانيا (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا) كما قال لهم أولا؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زَيْدِ بسْطٍ في الجواب فنقول: كانوا عند يعقوب - عليه السلام - حينئذ متهمين وهم قمن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف - عليه السلام - وقامت عنده قرينة تحقق التهمة وتقوّيها، وهي أخذ العزيز له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس ولا من عاداتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن العزيز إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استُفْتُوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا، واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوّغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤ / ٣٠١.



في رحله سرقة من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادُّعِيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حُرَّاصا على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ» يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم،

وقوله «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا» واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا فالعمدة على الجواب الأول(١).

وقال الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله بعد أن استعرض قول الزمخشري، وما علق به عليه ناصر الدين، قلت: بل الوجه واضح لا يحتاج إلى بيان، ثم قال: فكأنه - عليه السلام - يقول لبنيه «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا»:

(أولاً) أنكم سلمتم في أخيكم في مقابل قرينة لا تقف أمام التحقيق.

(ثانياً) أنكم أكدتم التهمة بشهادة باطلة من عندكم، وكأنكم لم تكتفوا بتسليم بنيامين؛ بل ربطتم ذلك باتهام يوسف.

(ثالثاً) لم تحفظوا الميثاق، ولو حفظتموه ما بدر منكم هذا التفريط المخجل.

(رابعاً) إن هذا كله يعني أنكم ما زلتم تكنون الكراهية لأخوكم ولم تنسل الضغينة من نفوسكم بعد، ولا زالت هي الموجهة لكم في تصرفاتكم، ولئن أصررتم على هذا كان فيه تفرقكم وعدم اجتماعكم وهلاككم، وأنا أسعى إلى جمع شملكم ولكنكم تقفون في وجهي بجهلكم هذا وموقفكم هذا(٢).

وقال الأستاذ عبد الله العلمي: وهذه الجملة الشريفة «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا» هي عين الجملة الشريفة التي نطق بها يعقوب - عليه السلام - حينما أخبروه

---

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) يوسف بن يعقوب/ ٤١٦-٤١٧.



بأن الذئب أكل يوسف، فهو وإن يكن قد ذهبت به الظنون في شأن ولدَيه (يوسف وبنيامين) إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف، ولا يصدق بسرقة بنيامين، فهو قد تشكَّك في حادثتَيْ يوسف وبنيامين معاً[١].

والمنتظر أن الإخوة سيؤلمهم جدّا الكلام الموجز البليغ الذي وجهه إليهم والدهم، ولكن الذي جعلهم يتجرعون مرارة هذا الكلام مع شيء من الاقتناع بأنهم يستحقون ذلك وأكثر منه، أنهم يذكرون جيداً عملهم السيء بيوسف، خاصة وأن هذا الكلام هو نفسه الذي وجه إليهم في تلك المناسبة[٢].

«**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**» أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجملُ بي وأولَى لي، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه فيه بشيء، بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع.

وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة[٣] كما قال ﷺ للمرأة التي كانت تبكي عند القبر فنهاها فلم تنته، ثم جاءته إلى بيته تعتذر إليه أنها لم تكن تعرفه فقال لها: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[٤] لأنها الأشد ألما على النفس، فكأنه - عليه السلام - يقول: فصبري على ما نالني من فقْد ولديّ صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية[٥] إلا لله عز وجل، وهي لا تنافي الصبر.

فقد أثنى الله تعالى على الذين يلجأون إليه ويستغيثون به جل وعزّ، قال تعالى: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»[٦] وهذه الشكاية منه إلى مولاه عز وجل لم ترفع عنه ثناء الله عليه بأنه كان من الصابرين، قال تعالى: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٤٣.
(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٩٣.
(٣) تفسير فتح البيان/ ٦/ ٣٨٥.
(٤) متفق عليه، البخاري/ ٣/ ١٣٨، ومسلم/ ٩٢٦.
(٥) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٣٨.
(٦) الأنبياء/ ٨٣.



الأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»(١)

جمال الصبر وحلاوته:

ما أجمل الصفة (جميل) في نعت الصبر الذي أهم صفاته العاجلة (المرارة) وكيف يكون المرُّ جميلا؟ وكيف تتحول مرارته إلى حلاوة؟ إنه يكون كذلك عند ذوي النفوس المطمئنة التي تتذوّق الحلاوة، النتيجة النهائية لحلاوة الصبر، في الوقت الذي لا يطعم غيرها باستمرار سوى المرارة الدائمة، هذه النفوس يجب أن تكون من نوع ممتاز، لهذا فهي تفطن دائماً لمواطن الجمال والحلاوة، حيث لا يرى سواها إلا قبحا ومرارة، ألا وإن الصبر الجميل في حد ذاته ليصور الإيمان في درجة من أعلى الدرجات التي لا يصل إليها إلا من اصطفاه الله تعالى بها وأعانه عليها(٢).

مرض الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - فكان يَئِنُّ في مرضه، فَذُكِرَ له أن طاووس(٣) كان يكره أنِينَ المريض ويقول إنه شكوى، فما أنَّ الإمام أحمد حتى مات، وأصحاب هذه المرتبة هم الذين جاء فيهم قوله تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ»(٤).

الصبر المحمود والصبر المذموم(٤):

والحذر كل الحذر من الخلط بين الصبر المحمود والصبر المذموم، والصبر المذموم هو الصبر على الهلاك، ويدخل تحته باب الصبر عن الله تعالى مما يترتب عليه تعطيل كمال العبد بالكلية بانقطاعه عن الله تعالى، أما الصبر المحمود فهو الصبر على الجهاد في سبيل الله تعالى، ويشمل الصبر على الأوامر والطاعات، والصبر عن المنهيات

---

(١) صٓ/ ٤١/ ٤٤.

(٢) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٢٩٥-٢٩٧.

(٣) هو طاووس بن كيسان اليماني، المتوفي عام ١٠٥هـ.

(٤) الزمر/ ١٠.

(٤) أفرد العلماء الصبر بمؤلفات من أجلّها كتاب الإمام ابن القيم (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين).



والمخالفات حتى لا يقع فيها، والصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخّطها، فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام، والصبر على المستحبّ مستحبّ، وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحبّ، وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح، والله أعلم(١).

أولى بشارات التئام الشمل:

«**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**» (عسى) فعل ماضي نقل إلى إنشاء الترجّي والإشفاق، وهو يرفع الاسم وينصب الخبر، ولا يكون خبرها إلا مضارعاً مقروناً بـ(أنْ) فلفظ الجلالة (الله) اسمها، وأن وما في حيزها - أن يأتيني - خبرها، وقد يجئ خبرها اسما صريحاً كقوله(٢):

أكثَرْت في العذْل مُلحّاً دائماً *** لا تُكثِرَنْ إني عسيْتُ صائماً

وقد يتجرد خبرها من «أنْ» كقوله(٣):

عسى الكرب الذي أمسيت فيه *** يكون وراءه فرج قريب

وتكون تامة إذا أسندت إلى «أنْ» أو «أنّ» لأنهما يسدان مسدّ اسمها وخبرها، والأصح أنها فعل لا حرف، لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، ووزنها (فَعَل) بفتح العين، ويجوز كسر عينها إذا أسندت لضمير متكلم أو مخاطب أو نون إناث، وهي قراءة نافع - كما في قوله تعالى: «قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ»(٤) ولا تتصرف بل تلزم المضى، والفرق بين الإشفاق والتّرجّي بها في المعنى: أن الترجّي في المحبوباتِ والإشفاق في المكروهات، و«عسى» من الله تعالى واجبة، لأن الترجي والإشفاق محالان في حقه تعالى، وقيل: كل «عسى» في القرآن للتحقيق، يُعنُون الوقوع، إلا قوله تعالى: «عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ... الآية»(٥) وهي في هذه الآية

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٤١٨-٤١٩.

(٢) البيت في ملحق رؤبة/ ١٨٥، والخصائص/ ١/ ٩٨، وأمالي الشجري/ ١/ ١٦٤، والهمع/ ١/ ١٣٠، والدرر/ ١/ ١٠٧.

(٣) البيت لهدبة بن الخشرم، وهو في ابن يعيش/ ٧/ ١١٧، والأشموني/ ١/ ٢٦٠، والخزانة/ ٤/ ٨١، والهمع/ ١/ ١٣٠، والدرر/ ١/ ١٠٦.

(٤) البقرة/ ٢٤٦. (٥) التحريم/ ٥.



ليست ناقصة فتحتاج إلى خبر بل تامة، لأنها أسْندت إلى «أنْ» وقد تقدّم أنها تسدّ مسدّ الخبريْن بعدها(١).

قال الراغب الأصفهاني: عسى: طمع وترجّي، وكثير من المفسرين فسّروا لعلّ وعسى في القرآن باللازم وقالوا: إن الطمع والرجاء لا يصح من الله تعالى، وفي هذا منهم قصورُ نظر، وذاك أن الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً، لاَ لأنْ يكون هو تعالى يرجو، فقوله: «عسى ربكم أن يهلك عدوكم» أي: كونوا راجين في ذلك، وقوله: «عسى الله أن يأتي بالفتح - عسى ربه إن طلقن - وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم - هل عسيتم إن توليتم - هل عسيتم إن كتب عليكم القتال - فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل اللهُ فيه خَيراً كثيراً»(٢) أي كونوا راجين في كل ما تقدم.

فقول يعقوب - عليه السلام - «عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» قمة الرجاء في الله تعالى وتمام الاتصال الوثيق به، والشعور الفياض بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندهم أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار(٣) لقد قال يعقوب - عليه السلام - هناك «فصبر جميل».

وهذا دل على أن هذه الحادثة - حادثة يوسف - لن تقف عند هذا الحد، بل ستأتي بعدها أحداث تحتاج إلى تجنيد قوي الصبر لها، ولذلك قال هناك «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ» لكن في هذه الحادثة - حادثة بنيامين - كأن هبّات الفرج قربت منه، وصحيح قرب الفرج فقال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا»(٤).

فهذا القول يدل على أنه - عليه السلام - قد علم من احتجاز بنيامين أن هذه أولى

---

(١) الدر المصون / ٢ / ٣٨٧-٣٨٨.

(٢) المفردات (كتاب العين) ٣٣٥.

(٣) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٥.

(٤) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط إذاعية مسجلة.



بشارات التئام الشمل، إذ لم يسبق أن صرح بفعل الرجاء «عسى» إلا بعد هذه الواقعة[1]. فهذا هو رجاؤه في فضل ربه وإحسانه، وإذاً فهو صابر لحكم الله تعالى، مترقب لما وراء هذا الصبر من فرج، إذ لا بد من وراء الصبر الجميل من جزاء طيب وبشريات مسعدة «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ (١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْـهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»[2]، [3]، إن قوله: «عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» هو دعاء إلى الله تعالى نابع من إيمان عميق بوعد الله[4] الذي لا يتخلف أبداً عن عباده الصابرين.

«إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» هذه الجملة تعليل لرجائه - عليه السلام - من الله تعالى[5] وأمله أن يرد عليه أبناءه الثلاثة (يوسف وبينامين وروبيل).

إنه هو (العليم) بحالي وحالهم (الحكيم) الذي يبتلي ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة[6]. وترتيب الوصفين (العليم الحكيم) على غاية الإحكام كما ترى، لأن الحال داع إلى العلم بما غاب من الأسباب أكثر من دعائه إلى معرفة حكمتها[7] وحين نتأمل هاتين الجزئيتين «عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» نجد أن كلا منهما حدّدت معنى الأخرى أو وجّهته وجهة معينة، فحين نتأمل الأولى في ضوء الثانية، فإنا لا ننتهي فقط إلى أن الأولى مجرد أمل ورجاء كبيرين في الله تعالى من العبد العاجز يعقوب - عليه السلام - وإنما ننتهي أيضاً إلى أنه - عليه اللسلام - إنما يستمد قوله هذا من علم الله اللدنّي الذي يصطفى الله تعالى به من يشاء من عباده الصالحين...

ألم يأت بعد قليل على لسانه - عليه السلام - قوله تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»[9] ألم يثني عليه ربه من قبل بقوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٤٠٢. (٢) البقرة/ ١٥٥-١٥٧.
(٣) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٧٦. (٤) دروس سورة يوسف/ ١٦٣.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ٤١. (٦) تفسير الألوسي/ ٧/ ٣٨.
(٧) نظم الدرر/ ٤/ ٨٨-٨٩. (٨) يوسف/ ٨٦. (٩) يوسف/ ٩٦.



النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»(١) وفي ضوء هذه العلاقة نستطيع أن نفهم من قوله تعالى على لسان يعقوب «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» أن ما سبق أن جاء على لسانه مباشرة «عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» هو من باب العلم اللدنّي الذي مصدره العليم الحكيم(٢).

المضمون العام للآية الكريمة:

رجع الإخوة إلى أبيهم يعقوب - عليه السلام - وقالوا له ما قال لهم أخوهم الكبير، وحاولوا ما استطاعوا أن يقيموا الأدلة والبراهين على صدقهم، لكن أباهم - عليه السلام - لم يقتنع بما قالوا وظن أنه كذب وافتراء كما قالوا قبل ذلك في شأن يوسف - عليه السلام - فقال لهم: إن الأمر ليس كما أخبرتم، بل زينت لكم أنفسكم أمراً سيئاً فعلتموه فأصاب ابني ما أصابه نتيجة لذلك الفعل، فأمري صبر جميل، عسى الله أن يأتيني بأولادي كلهم، إنه هو العليم بحالي وبحالهم وأين هم، الحكيم في تدبير خلقه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - صفة الكذب من أبغض الصفات إلى الله تعالى، والمؤمن ليس بكذاب.

٢ - قد يحكم على الإنسان بالكذب وإن كان صادقاً لما علم عنه من الكذب فيما سبق.

٣ - الصبر الجميل عند وقوع البلاء له أجر عظيم وثواب كريم من الله تعالى. (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب).

٤ - جرت سنة الله تعالى أنه عند اشتداد الكرب والبلاء بالمؤمن الصابر يأتي الفرج من عند الله تعالى.

٥ - دوام الأمل والرجاء في وجه الله الكريم يحقق المرجو وييسِّره.

٦ - كل ما قدره الله تعالى على خلقه إنما هو بعلمه وحكمته جل شأنه.

٧ - الله سبحانه وتعالى لا يقضي قضاء على المؤمن إلا ويريد له الخير.

---

(١) يوسف/ ٦٨.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٠٠.



« الآية الرابعة والثمانون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾

ثانياً - القراءات:

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ» قرأ ابن عباس ومجاهد «مِنَ الحَزَن» بفتحتين، وقرأ قتادة بضمّتين «مِنَ الحُزُن» وقرأ الجمهور بضمة وسكون «مِنَ الحُزْنِ» فالحُزْنُ والحَزَن، كالعُدْمِ والعَدَم، والبُخْل والبَخَل، وأما الضمتان فالثانية إتباع(١).

«حتي تكون حَرَضا» قرأ بعضهم «حَرِضاً» بكسر الراء، قال الزمخشري: وجاءت القراءة بهما جميعا، وقرأ الحسن بضمتين «حُرُضٌ» كجُنُبٌ وشُلُلٌ»(٢) وزاد الزمخشري «وغُرُب»(٣) وقرأ أنس «حُرْضاً» بضم الحاء وسكون الراء(٤).

ثالثاً - اللغة:

«وَتَولَّى عَنْهُمْ» : أعرض عنهم، لأنه عُدِّي بـ(عن) لفظا فيقتضي معنى الإعراض وترك قربه(٥) والمعنى أنه ترك خطابهم.

«يَا أَسَفَى» : الأسف : شدة الحزن على ما فات، يقال : أسِفَ على كذا يأسفُ أسفاً : حزن أشد الحزن، كأنه يقول : يا أسفَى هَلُمَّ فهذا أوانك، وألفه بدل من ياء المتكلم(٦).

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ» البياض في الألوان ضد السواد، والمعنى : انمحَقَ سواد عينيه وبُدّل بياضاً من بكائه(٧)

«مِنَ الحُزْنِ» الحُزْنُ والحَزنُ : خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه

---

(١) الدر المصون / ٦ / ٥٤٥ . (٢) الشُّلل : الخفيف السريع.

(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٢٣٩ ، والغُرُب : الغريب .

(٤) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٥١ .

(٥) المفردات (كتاب الواو) ٥٣٤ .

(٦) صفوة البيان / ٤١٣ . (٧) تفسير الجلالين / ٢٢٤ .



من الغمّ، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالفم قيل: خشنت بصدره إذا أحزنته، يقال: حَزَنَ يَحْزِنُ وحَزَنْتُه وأحْزَنته، قال تعالى: «لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ»[١]

وقال سبحانه: «وَقَالُواْ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ»[٢]

«فَهُوَ كَظِيمٌ» الكظْمُ: مخرج النَّفَس، يقال: أخذ بكظمه، والكُظُوم: احتباس النَّفَس، ويُعبَّر به عن السكون، كقولهم: فلان لا يتنفَّس، إذا وصف بالمبالغة في السكوت، وكُظِمَ فلان: حُبِسَ نَفَسُه، وكظْمُ الغيظ: حبْسُه، من كَظَمَ السِّقاءَ إذا شدَّه على ملْئِه، أو من كظم البعير جرَّته إذا ردَّها في جوفه وكفّ[٣].

رابعاً - الإعراب:

«وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ»

«وتولى» الواو عاطفة، وتولى فعل ماض، و«عنهم» متعلقان بـ«تولى» «وقال» عطف على تولى، و«يا» حرف نداء، و«أسفى» منادى مضاف لياء المتكلم المنقلبة ألفا، والأصل (يا أسَفِي» قال أبو البقاء: قوله تعالى: «يا أسفى» الألف مبدلة من ياء المتكلم، والأصل (أسفى) فتحت الفاء وصيِّرَت الياء ألفا ليكون الصوت بها أتمّ.

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»

«وابيضت عيناه» فعل وفاعل، و«من الحزن» جار ومجرور متعلقان بـ(ابيضت) «فهو» الفاء عاطفة، وهو مبتدأ، و(كظيم) خبره[٤].

(البلاغة) «يا أسفى على يوسف» جناس الاشتقاق، وهو هنا تجنيس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة[٥].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الحديد/ ٢٣. (٢) فاطر/ ٣٤.

(٣) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٩، والدر المصون/ ٦/ ٥٤٥، ونظم الدرر/ ٤/ ٨٩، وصفوة البيان/ ٤١٣.

(٤) انظر: التبيان في إعراب القرآن/ ٢/ ٧٤٣، وإعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٣٥-٣٦.

(٥) تفسير الألوسي/ ٧/ ٣٩.



سادساً - التفسير والبيان:

«وجهي لن يخلوَ لكم بعد يوسف وأخيه»

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

وجه المناسبة:

لما أخبر الإخوة أباهم بخبر بنيامين وأخيه الكبير في مصر لم يصدقهم، فكأنه قيل: فماذا كان موقفه منهم بعد ذلك؟ فقيل:

«وتولّى عنْهمْ وقالَ يا أسفى على يوسُفَ...»

كثيرة تلك الأحداث التي مرت بيعقوب - عليه السلام -، وكثيرة تلك الأحزان التي تراكمت على نفسه بسببها يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ولكن قلب يعقوب - عليه السلام - وهو من المصطفين الأخيار، لم يتحوّل لحظة عن ثباته ويقينه التام بحكمة الله العليم الحكيم في كل ما يجري وما يحدث له من أمور، ورغم كل تلك الأحداث المفجحة، فلم ينقطع أمله الكبير لحظة في وجه ربه الكريم، كي يعيد إليه ابنه الحبيب يوسف - عليه السلام - ومن بعْده ولديه بنيامين وروبيل، بدلالة ما سيأتي على لسانه بعد قليل «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ... الآية»(١).

وهذا القول الكريم «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ... الخ» انتقال إلى حكاية يعقوب - عليه السلام - في انفراده عن أبنائه، ومناجاته نفسه، فالتولّي حاصل عقب المحاورة(٢) ومعنى «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ» أي: أعرض عنهم وانصرف بوجهه كراهة لما جاءوا به، وأنه ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم، وجعل يتفجّع ويتأسف(٣).

فقد بلغ به الحزن مبلغه بسبب فراق يوسف وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ

---

(١) يوسف / ٨٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٤٢.

(٣) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٣٣.



ما بلغه من كونه أسيرا عند عزيز مصر، فتضاعفت أحزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير(١) مما جعله ينصرف عنهم انصراف غضب(٢).

عن ابن اسحاق قال: «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ» أي: أعرض عنهم وتَتَامَّ حزنه وبلغ جهوده حين لحق بيوسف أخوه وهيَّج عليه حزنه على يوسف، فقال: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ...»(٣) وهذا التولي المذكور صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه منفرد بهمه وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل تحوطه فجيعته في ولده الحبيب يوسف الذي لم ينسه، ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر(٤) فاجتمع حزن إلى حزن(٥).

ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه، ذكر من أحواله تجدّد أسفه على يوسف فقال: «وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ»(٦) والأسف: شدة الحزن على مافات، روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم في قوله: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ» قال: يَا حُزْناً على يوسف(٧) ونادى الأسف على سبيل المجاز على معنى، هذا زمانك فاحضر، والظاهر أنه يضاف إلى ياء المتكلم قلبت ألفا، كما قالوا في يا غلامي: يا غلاما(٨) قال الزجاج: الأصل: (يا أسفِي) فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة(٩) وقيل: الألف ألف النّدبة، والهاء محذوفة، والمعوّل عليه الأول(١٠) وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه، لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف(١١).

وفي قوله «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ» تجانُس بين لفْظتَيْ، الأسف، ويوسف، مما يقع

---

(١) فتح القدير/٣/٥٠. (٢) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٤٢.
(٣) تفسير الطبري/٨/١٣/٣٨.
(٤) تفسير الظلال/٤/٢٠٢٥. (٥) نظم الدرر/٤/٨٨.
(٦) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٤٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري/٨/١٣/٣٨-٣٩، والدر المنثور/٤/٥٦-٥٧.
(٨) تفسير البحر/٥/٣٣٣. (٩) تفسير القرطبي/٩/٢٤٨.
(١٠) روح المعاني/٧/٣٨.
(١١) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٤٢.



مطبوعا غير مستعمل فيملح ويبدع، ونحوه قوله تعالى: «اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ»(١) وقوله سبحانه: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ»(٢) وقوله جل شأنه: «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»(٣) وقوله عز ذكره: «مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ»(٤)(٥).

وهذا الجناس حينما يأتي في هذه الصورة العفويّة من غير تكلف فهو ممَّا يزيد الكلام الجليل بهجة(٦) ويضيف إلى جمال العبارة المعنوي جمالا آخر تطرب له الأذن، وترتاح له النفس، ولم يأت هذا القول «يا أسفى» في القرآن الكريم إلا على لسان يعقوب - عليه السلام - وكأنه اختص به وحده، ليعبّر بدقّة متناهية عن نفثة المصدور المحزون على ابنه الحبيب يوسف - عليه السلام(٧).

لماذا أسف يعقوب - عليه السلام - على يوسف وحده؟:

إن يعقوب - عليه السلام - قد فقد ابنه يوسف أولاً، ثم ها هو الآن قد غاب عنه ابنيه (بنيامين) و(روبيل) الأخ الأكبر الذي اختار البقاء في مصر، ولكنه - عليه السلام - لم يُظهر أسفه في هذه الواقعة إلا على يوسف - عليه السلام - وذلك لوجوه:

(الأول) أن الحزن الجديد يقوّي الحزن القديم الكامن، والقدْح إذا وقع على القدْح كان أوجع، ومن ذلك قول متمم بن نويْرة:

وقد لاَمَنِي عند القبور على البكا *** رَفِيقي لتذارفِ الدموع السَّوَافِكِ

فقال أتبكي كل قبر رأيتَه *** لِقَبْر ثَوَى بين اللّوي والدّكادكِ

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى *** فدعني فهذا كله قبر مَالِكِ

---

(١) التوبة/ ٣٨. (٢) الأنعام/ ٢٦.
(٣) الكهف/ ١٠٤. (٤) النمل/ ٢٢.
(٥) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٨.
(٦) انظر: روح المعاني/ ٧/ ٣٩.
(٧) انظر: الوحدة الموضوعية/ ٣٠٢-٣٠٣.

رفع المسَاهِم

وذلك لأنه إذا رآى قبراً تجدّد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى، وقال آخر:

فلم تنسني أوفى المصيبات بعْده *** ولكن نكاء القرْح بالقرح أوجع

(الثاني) أن بنيامين ويوسف كانا من أمٍّ واحدة، وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب - عليه السلام - يتَسلّى برؤيته عن رؤية يوسف - عليه السلام - فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السَّلوة فعظم الألم والوجْد.

(الثالث) أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها سائر المصائب والرَّزايا، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

(الرابع) أن هذه المصائب الجديدة كانت جارية مجري الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها، وأما واقعة يوسف - عليه السلام - فأبوه كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوماً له، وأيضاً فهو - عليه السلام - كان يعلم أن هذين - بنيامين وروبيل - في الحياة، وأما يوسف فكان لا يعلم أهو حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظُم وجْدُه على مفارقته، وقوِيتْ مصيبته على الجهل بحاله[1]

(الخامس) أنه - عليه السلام - قد ترك يوسف يخرج مع إخوته بإرادته ولم يأخذ الحيْطة باتخاذ المواثيق والعهود على إخوته لحفظه، حتى إذا ما أخْلَفوا لم يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته.

(السادس) لفرقته ليوسف وطول العهد به[2].

(السابع) أن تخصيص يوسف بالأسف. لأنه فضلاً عن كونه نبياً مرسلاً، كما أراه الله في الرؤيا فإن انتهاء جميع الأرْزاء التي ابْتُلي بها آل يعقوب وبداية إتمام النعمة عليهم كان متوقفا على الاجتماع به - عليه السلام -.

فالمُصيبة في (بنيامين) فرع من المصيبة بيوسف، وانفصال يعقوب عن ابنه وهو نبي

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٩٧.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٥٣.



مرسل، ليس بالشيء الهيّن، خاصَّة وأن الأمَد قد طال، والعظْم قد وَهَنَ من الكبر، هذا وليس معنى تأسُّفه وتُحسرُه على يوسف - عليه السلام - أنه لم يتحسَّر على ابنيه (بنيامين) و(روبيل) لأن ذلك التحسر - على يوسف - هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكره أن يعقوب لم يتحسر قط إلا على يوسف، ولكن التّحسّر الأشد والأبلغ كان عليه وحده دون سواه، وهذا يدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده مازال غضّا طريّا(١).

وقفة تذكر وتأمل وعبرة «وتولى عنهم»:

لقد ظن إخوة يوسف من قبل، أن الذي يحول بينهم وبين خلوص وجه أبيهم لهم، والتفاته إليهم بالكلية، هو وجود يوسف وأخوه، وقالوا: «لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»(٢) وتآمروا على يوسف - عليه السلام - وفعلوا به ما فعلوا ليخل لهم وجه أبيهم «اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ»(٣) والآن وقد غاب يوسف وأخوه بنيامين عن وجه يعقوب - عليه السلام -، فهل خلا لهم وجهه؟ وهل أقبل عليهم ونسيهما؟ إن الأمر على عكس ما توقعوا تماماً، فها هو يعقوب - عليه السلام - يعرض عنهم بوجهه، بل ويفجر في وجوههم قنبلة يعقوبية أصابتهم في الصميم، وأثارت في صدورهم نار الحسرة والخيبة، ألا وهي إعلامهم وبكل صراحة ووضوح، أن أسفه كله، وحزن كله، وهمه كله، محصور في يوسف، يوسف الغائب الحاضر، يوسف البعيد القريب، يوسف الحبيب قبل كل حبيب.

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»

أي: بسببه، وهو في الحقيقة سبب للبكاء والبكاء سبب لا بيضاض عينيه، فإن العَبْرَة إذا كثرت محَقتْ سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، فأقيم سبب السبب مقامه

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٤٢١-٤٢٢.

(٢) يوسف/ ٦. (٣) يوسف/ ٩.



لظهوره والابيضاض كناية عن العمي[1]، فالظاهر أنه كان عمي لقوله: «فَارتدَّ بصيراً» فقابل البصير بالأعمى[2] والتزمه بعضهم بناء على جواز هذا على الأنبياء[3] وكان الحسن مِمَّن يرى جوازه، وقيل: ليس الابيضاض كناية عن العمي، والمراد من الآية أنه - عليه السلام - صارت في عينيه غشاوة بيّضتهما وكان عليه السلام يدرك إدراكاً ضعيفاً[4].

والأول أولى لدلالة النص على وقوع المعجزة برد بصره إليه، وهذا لا يكون إلا بعد فقده بالكلية، فالنص لم يقل فقوي بصره مثلاً، وإنما قال: «فَارتدَّ بصيراً» فكان وقع المعجزة أكمل، وهذا هو الظاهر كما قال أبو حيان وغيره، والله أعلم.

فنتيجة لبكاء عينيه المتواصل منذ غياب يوسف - عليه السلام - الذي استمر سنوات وسنوات، وازدياد سيلان الدمع منهما لابتلائه بغياب ابنه، فإن عينيه الآن أضعف من أن تتحمّلا جريان هذه الأبحر من الدمع مع احتفاظهما بالرؤية.

وهكذا تحوّل يعقوب - عليه السلام - إضافة إلى كل هذه الأحزان إلى شخص أعمى لا يبصر بكلتا عينيه،

ونود أن نعرف لماذا جاءت العين في صيغة المثنى «وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ» مع أن المفرد في هذه الحال يفي بالغرض ويغني عن المثنى؟ والجواب على ذلك أن صيغة المثنى هنا أبلغ من المفرد، لأنها تثبت بما لا يدع مجالا للتساؤل، بأن العمي كان من نصيب العينين معاً وليس من نصيب واحدة فقط، وإن في ذهاب ماء العينين معاً دليلاً على أن الحزن فوق كل احتمال، وكأن الحزن لامتلاء نفس يعقوب به، حاول أن يجد له مخرجا في صورة الدموع من عينيه، فذهب بمائهما ولم يغادر، لأن النبع الداخلي أكبر من التصريف.

الفترة الزمنية التي استغرقها ابيضاض عينيه:

المعروف أن مثل هذا الابيضاض يستغرق فترة زمنية قد تطول وقد تقصر، فإن الابيضاض لا يمكن أن يطرأ فجأة، فإذا عرفنا أنه من نصيب العينين معاً، وليس

---

(1) انظر: روح المعاني/ ٧/ ٣٩. (2) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٣.
(3) فتح البيان/ ٦/ ٣٨٧. (4) روح المعاني/ ٧/ ٣٩.



من نصيب عين واحدة، وأن العادة جرت بأن تسبق إحدى العينين الأخرى، فهذا دليل على أن هذه العملية قد استغرقت بالضرورة فترة زمنية ذات طول معين(١) قال مقاتل: لم يبصر شيئا ست سنين(٢).

التصبر في المصيبة:

«فَهُوَ كَظِيمٌ»

مادة (كظم) تدور على المنع من الإظهار، ويلزمه الكرْب لأنه من شأن الممنوع مما قد امتلأمنه، ويلزمه الامتلاء لأن ما دونه ليس فيه قوة الظهور(٣) فقوله: «فهو كظيم» أي: مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره، وقيل: مملوء من الحزن ممسك له لا يُبْديه، ففعيل بمعنى (مفعول) أي: مكظوم، فهو كما جاء في يونس - عليه السلام - «إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ»(٤) ويجوز أن يكون بمعنى (فاعل) أي: الكاظم، كقوله تعالى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ»(٥).

قال قيس ابن زهير:

فإن أكُ كاظما لمصاب شاس *** فإني اليوم منطلق لساني

وفي الكلام من الاستعارة على الوجهين ما لا يخفى، ورجح الأخير منهما (بمعنى فاعل) بأن فعيلا بمعنى فاعل مطّرد، ولا كذلك فعيلاً بمعنى مفعول(٦) ويرى الدكتور حسن محمد باجودة أن «كظيم» هنا صيغة مبالغة، تدل على أنه - عليه السلام - لم يشك إلى مخلوق وإنما كان يكتم حزنه في نفسه ويبقى همّه في صدره، وأن للفاء في قوله «فَهُوَ كَظِيمٌ» فضلاً جديداً في تحديد معنى اللفظ «كظيم» وأنه صيغة مبالغة، وليس بمعنى مكظوم، لأن صيغة المبالغة هنا تتواءم مع الحزن الجديد الذي حل بيعقوب بسبب ابيضاض كلتا عينيه، وللفاء دور في ذلك(٧).

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٠٣-٣٠٥.
(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٨. (٣) نظم الدرر/ ٤/ ٨٩.
(٤) القلم/ ٤٨. (٥) آل عمران/ ١٣٤.
(٦) انظر: روح المعاني/ ٧/ ٣٩، وفتح القدير/ ٣/ ٥٠.
(٧) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٠٤-٣٠٥.



عن قتادة قال: «فَهُوَ كَظِيمٌ» أي: سكت يكظم حزنه ويردّده في جوفه، وروي عنه أيضاً: «فَهُوَ كَظِيمٌ» أي: كظيم الحزن فلم يقل إلا خيراً، وقال ابن زيد: «فَهُوَ كَظِيمٌ» الكظيم: الذي لا يتكلم، بلغ به الحزن حتى كان لا يكلمهم[1] واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة، فبيّن الله تعالى أنها كانت غريقة في الغمّ، فاللسان كان مشغولا بقوله «يَا أَسَفَى» والعين بالبكاء والبياض «وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» والقلب بالغمّ الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شُدّ ولا يمكن خروج الماء منه. «فَهُوَ كَظِيمٌ» وهذا مبالغة في وصف هذا الغم[2].

كيف جاز ليعقوب - عليه السلام - أن يحزن كل هذا الحزن؟:

إن يعقوب – عليه السلام – ظل يستقبل الأحداث المريرة بصبر جميل لم يتخلّ عنه أبدا، فحينما عاد إليه أبناؤه وادّعوا كذبا أن الذئب أكل يوسف قال: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» ولما عادوا إليه بخبر بنيامين وروبيل قال أيضاً: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»

فقد أعلن عن الرضا التام بقضاء الله تعالى وقدره، صبر الصبر الجميل، أما بالنسبة لحزنه – عليه السلام فليس في طاقة بشر حتى ولو كان نبيا أو رسولا أن يرد الحزن عن نفسه، ولقد قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ، وقد حزن حزناً شديدا على قومه لعدم إيمانهم، لأنه كان حريصاً على هدايتهم ونجاتهم من عذا الله وسخطه، «وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»[3].

إن الحق جل شأنه، لا يريد أن يكون الإنسان كجلمود صخر لا ينفعل للأحداث، لأن الحزن لون موجود في الإنسانية، فالله تعالى يريد أن يُبقى العاطفة، لكن يُعَلِّيها، الله تعالى خلق في الإنسان الغرائز والعواطف، ولو لم يريدها لما خلقها في الإنسان،

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٠.

(٣) النحل/ ١٢٧.



لكنه يريد الغرائز لمهمّه، ساعة تخرج الغرائز والعواطف عن مهمتها، يكون صاحبها قد خرج عن المنهج الإلهي، والحق سبحانه وتعالى يقول عن يعقوب - عليه السلام - «فَهُوَ كَظِيمٌ» يعني أخذ العواطف على قدرها ولم يخرج بها أو تخرج به عن مرضاة الله(١).

فيعقوب - عليه السلام - حزن حزناً شديداً، لكنه لم يجزع أبداً، وتقريره أنه - عليه السلام - لم يذكر هذه الكلمة (يا جزعا)، ثم إنه أمسك لسانه عن النياحة وذكْر ما لا ينبغي، وهو المراد من قوله «فَهُوَ كَظِيمٌ» ثم إنه ما أظهر الشكاية لأحد من الخلق بدليل قوله: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله» وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته، فإنه صبر وتجرّع الغصّة وما أظهر الشكاية، فلا جرم استوجب المدح العظيم والثناء العظيم(٢) لأنه حزن، لكنه لم يجزع أبدا، وشتان ما بينهما، والحزن إذا كان في الله فهو مطلوب، أما الجزع فلا يكون إلا لأمر دنيوي، وهو مذموم(٣).

ورسولنا محمد ﷺ قد أنبأتنا سنته المباركة عن حزنه في مواقف متعددة، خاصة لما تُوفّى عمه أبو طالب وزوجة خديجة أم المؤمنين الكبرى - رضي الله عنها - حتى سُمِّيَ عام وفاتهما بعام الحزن،...

ولقد بكى رسول الله ﷺ وحزن على وفاة ولده إبراهيم - عليه السلام - وقال: «إن العين تدمعْ، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(٤) وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده، مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - فلما دخل عليه وجده في غاشية أهله فقال: «قد قَضَى» - أي: خرج من الدنيا بأن مات - قالوا: لا يا رسول الله! فبكى النبي - ﷺ -

---

(١) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٩٧. (٣) يوسف بن يعقوب/ ٤٢٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز برقم (٦٩٢) ومسلم في كتاب الفضائل برقم (٦٢).



فلما رآى القوم بكاء النبي بكوا، فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه[1] وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحِبِّه وابنُ حبه - رضي الله عنهما - قال: أرسلت بنت النبي ﷺ: إن ابني قد احتُضِرْ - أي حضرته مقدمات الموت - فاشهدنا، فأرسل - ﷺ - يقرئ السلام ويقول:

«إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمّى، فلتصبر ولتحتسب».

فأرسَلَتْ إليه تقسم عليه ليأتينَّها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، فرُفِعِ إلى رسول الله ﷺ الصبي، فأقعده في حجره ونَفْسُهُ تَقَعْقَعُ - تتحرّك وتضطرب - ففاضت عينهاه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده» وفي رواية «في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2] ففي الحديث أن ما يفيض من الدمع من حزن القلب بغير تعمد من صاحبه ولا استدعاء لا مؤاخذة عليه، وإنما المنهيّ عنه الجزع وعدم الصبر[3] وعن الحسن - رضي الله عنه - أنه بكى على ولد أو غيره فقيل له في ذلك فقال: ما رأيت الله تعالى جعل الحزن عاراً على يعقوب - عليه السلام[4].

فالحزن الكظيم - أي الدفين الذي لا يبوح به - ليس بالذي يجور على الصبر الجميل، أو ينتقص من مشاعر التسليم لله تعالى والرضا بقضائه، خاصة فيما يتصل بعاطفة الأبوة، وإنه ليس من الصبر الجميل أن تجفّ عواطف الأبوة وتتجمّد مشاعر الحزن على فقد الإبن، ثم إن هذا الكظم للحزن وحبسه في القلب هو في ذاته وجه من وجوه الصبر الجميل، حيث لم يتشكل هذا الحزن صورة في لطْم الخُدود أو شقّ الجيوب، أما شكاته وبث حزنه - أي: إذاعته والتصريح به في صور من الشكوى

---

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنائز) ١٨٣-١٨٤.

(٢) متفق عليه، البخاري/ ٣/ ١٢٤-١٢٥، ومسلم (٩٢٣) وأخرجه أحمد/ ٥/ ٢٠٤ وغيرهم.

(٣) رياض الصالحين (تحقيق شعيب الأرنووط) ٥٥-٥٦.

(٤) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٣٩.



إلى الله – فهو عبادة خالصة، وولاء مطلق لله تعالى، وطمع في رحمته ولجوء إلى فضله وإحسانه[1].

التصبّر في المصيبة كمالٌ بلغت إليه الشريعة الإسلامية:

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لم يُعط أحد الاسترجاع غير هذه الأمة، ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألا تسمعون إلى قوله: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ»[2] فالاسترجاع من خواص هذه الأمة، فقد أخرج الطبرانيّ وابن مردويّه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال النبي – ﷺ –: «أعطيت أمتي شيئاً لم يُعطَه أحد من الأمم، أن تقول عند المصيبة «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ»[3] ولو أعطيها الأنبياء قبلهم لأعطيها يعقوب إذ يقول: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ».

ويسن أن يقول بعد الاسترجاع: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، فقد أخرج مسلم عن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قالت: فلما توُفِّيَ أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ –، فأخلف الله تعالى لي خيراً منه، رسول الله – ﷺ –[4].

حُزن يعقوب - عليه السلام - وكونه آية لأبنائه ودرساً جديداً شديداً عليهم:

لقد كان حُزن يعقوب – عليه السلام – آية لأبنائه، فلو ارتفع الحزن عن أبيهم بعد غياب يوسف وأخيه عنه، لظن الإخوة أنهم قد نالوا بُغيتهم وخلا لهم وجه أبيهم باسْتبعاد يوسف وأخيه، ولرسَخَ في نفوسهم الاعتقاد في صحة ما ذهبوا إليه من قبل،

---

(1) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ 477.
(2) الدر المنثور/ 4/ 59. (3) البقرة/ 156.
(4) رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة.



مع أنه هو عين الباطل ورأس الهلاك، ولكنّ ازدياد حُزْن أبيهم بعد فراق (بنيامين) ومن قبله فراق يوسف، كان السبب الرئيسي الذي جعلهم يفكرون في الأمر تفكيرا سليما، فقد تأكد لهم خطأ ظنهم أن أباهم سيُقْبل بوجهه عليهم الإقبال كله بعد الخلاص من أخويهم فقد حدث العكس، إذ مارأوا إلا تنغيص العيش من جراء هذا الوضع الجديد الذي كانوا سببا فيه، فكان هذا الحزن هو الدافع الرئيسي الذي دفعهم إلى التوبة من كل سوء أسرُّوه تجاه يوسف وأخيه كما كان المحرّك الأساسي الذي أيقظ ما كان نائما من إحساساتهم، فهذا الحزن الذي كانوا يلومون أباهم عليه، لم يعلموا أنه هو في الواقع القوة المحركة التي جعلتهم يسْعَوْن إلى تصحيح الأمور ووضعها في نصابها طبقاً لما يرضاه الله ورسوله، ولهذا فقد كان هذا الحزن درسا جديدا وشديدا عليهم، حرَّك أسباب النّدم في أعماقهم، مما كشف لهم شيئا فشيئا عن تصرفاتهم الخاطئة التي تسببتْ في ذلك كله، ولو شعروا ببارقة رضا من أبيهم بعد غيبة أخويْهم لما كان من ذلك شيء أبدا، ولهلكوا جميعا[1].

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٢٦.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما أخبر الإخوة أباهم يعقوب - عليه السلام - بخبر بنيامين وأخيه روبيل في مصر، لم يصدقهم وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به، والتزم خلْوته وأعلن شدة أسفه وعظيم حزنه على فقد ابنه يوسف، وتواصل حزنه وبكاؤه حتى ابيضت عيناه وَعَمِيَتا، وظل يردّد حزنه في جوفه ولا يتكلم بسوء.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تجدد مصاب يعقوب - عليه السلام - بغياب ولدين آخرين له هما بنيامين وروبيل، مما فجر حزنه الشديد وأسفه المفجع على يوسف.

٢ - ظل غياب يوسف - عليه السلام - يمثل الفقد الأعظم، له، لأنه النبي المأمول إتمام النعمة على يديه.

٣ - الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وكذلك البكاء ليس بمحظور إلا أن يصاحبه محرم، كلطم خد وشق جيب وتمزيق ثوب ونحوه.

٤ - تتابع ابتلاءات يعقوب - عليه السلام - بفقد بصره بعد فقد أولاده.

٥ - يعقوب - عليه السلام - يكتم حزنه ويردده في جوفه وهو صابر محتسب.



«الآية الخامسة والثمانون»

اعتراض الإخوة على تذكر أبيهم ليوسف وحزنه عليه:

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» قرأ الجمهور «حَرَضاً» بفتح الراء، وقرأ بعضهم «حَرِضاً» بكسر الراء، قال الزمخشري: وجاءت القراءة بهما جميعا - يعني بفتح الراء وكسرها، وقرأ الحسن بضمتين «حُرُض» كجُنُب وشُلُل[١] وزاد الزمخشري «وغُرُب» وقرأ أنس «حُرْضاً» بضم الحاء وسكون الراء[٢].

ثالثاً - اللغة:

«قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ» قال الكسائي: فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أفعل كذا، أي: ما زلت، وقال الفراء: «إن (لا) مضمرة، أي: لا تَفْتَأُ، وإنما أُضمرت لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القَسَمَ إذا لم يكن معه علامة الإثبات، وهي اللام ونون التوكيد - كان على النَّفْي، لأنه لو كان مُثْبَتاً لزم أن يكون بهما عند البَصْريين، أو بأحدهما عند الكوفيّين، فلما وجدناه خالياً منهما علمنا أن القَسَمَ على النَّفي، أي أنَّ جوابه مَنْفِيّ لا مُثْبَت[٣] و«تفتأ» هنا ناقصة بمعنى (لا تزال) فترفع الاسم وهو الضمير، وتنصب الخبر وهو الجملة من قوله «تَذْكُرُ» أي: لا تزال ذاكراً له، يقال: ما فتئ زيد ذاهبا، قال أوس بن حجر:

فما فَتِئَتْ حتّى كأنَّ غُبَارَها *** سرادق يوم ذي رياح تُرَفَّعُ

وعن مجاهد «تفتأ» أي: لا تفتر، قال الزمخشري: كأنه جعل الفُتُوءَ والفُتُورَ أخوين،

---

(١) الشُّلُل: الخفيف السريع.

(٢) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٢٣٩، وتفسير القرطبي/ ٩/ ٢٥١، والدر المصون/ ٦/ ٥٤٧.

(٣) صفوة البيان/ ٣١٤.



وفيهما لغتان - بالإضافة إلى اللغة المشهورة وهي (فَتِئ) على وزن سمع - (فَتَأَ) على وزن ضَرَبَ، وأَفْتَأَ على وزن أكْرَم، وتكون تامة بمعنى سَكَّنَ وأَطْفَأَ(١) «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» الحَرَضُ: ما لا يُعْتَدُّ به ولاخير فيه، ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك: حَرِضَ، قال عز وجل: «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» وقد أحْرَضَهُ كذا، قال الشاعر:

إنّي امرُؤٌ نَابَنِي هَمٌّ فأحْرَضَنِي، والتَّحْرِيض: الحثُّ على الشيء بكثرة التَّزْيِين وتسهيل الخَطْبِ فيه، كأنه في الأصل إزالة الحَرَض، نحو مَرَّضتُّهُ وقَذَّيْتُه، أي: أزلتُ عنه المرضَ والقَذى، وأحْرَضتُّه: أفْسَدتُّه(٢).

ويقال: حَرِضَ الرَّجلُ يَحْرُضُ حَرَضاً بفتح الراء، فهو حَرِضٌ بكَسْرِها، فالحَرَضُ مصدر(٣) من باب تَعِبَ: أشرف على الهلاك، ولكونه كذلك في الأصل، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجَمْع(٤).

«أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» «هلك» قال الأصفهاني: الهلاك على ثلاثة أوجه، (الأول) افتقادُ الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، كقوله تعالى: «هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَة»(٥) (الثاني) هلاك الشيء باستحالةٍ وفساد، كقوله: «ويُهْلِكَ الحَرثَ وَالنَّسْلَ»(٦) ويقال: هلك الطعام، (الثالث) الموت، كقوله «إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ»(٧) وقال تعالى مُخبراً عن الكفار: «وَمَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهر» ولم يَذْكر الله الموت بلفظ الهلاك حيث لم يقصد الذّمّ إلا في هذا الموضع وفي قوله: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»(٨) ثم قال: (والرابع): بُطلان الشيء من العالَم وعدمه رأسا، وذلك المسمى فناءً المشار إليه بقوله:

---

(١) الدر المصون / ٦ / ٥٤٦، وانظر اللسان / ١ / ١١٩، والقاموس المحيط / ٦٠.

(٢) المفردات (كتاب الحاء) ١١٣-١١٤.

(٣) الدر المصون / ٦ / ٥٤٧.

(٤) صفوة البيان / ٣١٤. (٥) الحاقة / ٢٩.

(٦) البقرة / ٢٠٥. (٧) النساء / ١٧٦.

(٨) غافر / ٣٤.



﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(١) ثم قال: والهُلْكُ بالضّم: الإهلاك، والتَّهلُكة: ما يؤدي إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(٢)، (٣).

رابعاً - الإعراب:

﴿قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (قالوا) فعل وفاعل، والتّاء تاء القسم، ولفظ الجلاله (الله) مجرور بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم، و(تفتأ) أي: لا تفتأ، من أخوات كان، واسمها مستتر تقديره (أنت) وجملة (تذكر) خبرها، و(يوسف) مفعول به، و(حتى) حرف غاية وجرّ، و(تكون) منصوب بأن مضمرة بعد حتى، و(حَرَضا) خبر تكون، واسم (تكون) مستتر تقديره أنت، و(أو) حرف عطف، و(تكون) فعل مضارع ناقص، واسمها أنت، و(مِنَ الْهَالِكِينَ) خبر(٤).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) القصص/ ٨٨. (٢) البقرة/ ١٩٥.

(٣) المفردات (كتاب الهاء) ٥٤٤-٥٤٥.

(٤) إعراب القرآن وبيانه/ ٥/ ٣٦.



رفع المستهم

سادساً - التفسير والبيان:

اعتراض الأبناء على تذكر أبيهم ليوسف وحزنه عليه:

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وجه المناسبة:

لما رأى الإخوة أنهم قد فاتهم ما ظنوا أن يكون بعد ذهاب يوسف من صلاح الحال مع أبيهم بقَصْرِ الإقبال عليهم، ووقع لأبيهم هذا الفادح العظيم، تشوّف السامع إلى قولهم له، فاستأنف الإخبار عنه بقوله:

«قَالُواْ تَالله...»(١)

(قالوا) يعنى أولاد يعقوب - عليه السلام - الذين انصرفوا إليه من مصر(٢) وقيل غيرهم من أتباعه - عليه السلام -(٣) والأول أولى وأنسب للحال وللمقال ولما سيأتي بعده من مناداتهم قائلاً: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ»(٤) فهذه الجملة «قَالُواْ تَالله» محاورة أبنائه له عندما سمعوا قوله: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ» وقد قالها في خلوته فسمعوها، والتاء في قوله: «تَالله» حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم، وفيها زيادة معنى، وهو التّعجّب، والمقسم عليه بالتاء نادر الوقوع، لأن الشيء المتَعَّجب منه لا يكثر وقوعه، ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع لفظ الجلالة، لأن القَسَم باسم الجلالة (الله) أقوى القَسَم(٥).

«**تفتأ تذكر يوسف**» «تفتأ» هذا جواب القسم في قوله: «تَالله» وهو على حذف (لا) أي: لا تفتأ، ويدل على حذفها أنه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا،

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٩٠.

(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٠.

(٣) روح المعاني/ ٧/ ٣٩.

(٤) يوسف/ ٨٧.

(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٣-٤٤.



عند البصريين، أو إحداهما عند الكوفيين[1] ومنه قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح عداً * * * ولو قطعوا رأسي لديْكِ وأوصال

أي: لا أبرح قاعداً[2]

«تَذْكُرُ يُوسُفَ» أي: حريصاً على ذكره قويّا عليه حرص الفتى الشاب الجلد الصبور على مراده[3] وهي كلمة حانقة مستنكرة[4].

«حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» الحرض: الشيء الذي استحالت طبيعته وتغيرت معالمه، كالنبات يتحول إلى حطب، وكالثوب الجديد يصير بالياً، فمعنى «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» أي: مريضا مشرفا على الهلاك، وبعد ذلك،

«أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» أي: إنك لا تنقطع عن هذا الحزن حتى تذبل وتجف وتموت، فقوله «مِنَ الْهَالِكِينَ» أي: من الميّتين، وهو معنى غير معنى الحرض - المريض المشرف على الهلاك - فالتأسيس أولى من التأكيد، فكان الأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك، فالهلاك هو نهاية الحرض، وهو الموت[5] قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن يمرض حتى يَحْرِضه المرض إلا غُفِرَ له[6]...

لقد بلغ الحقد بقلوب بنيه الا يرحموا ما بأبيهم، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرُّون عنه، ولا يعزُّونه، ولا يعللونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير[7] إنهم لا زالوا يحصون على أبيهم حبه ليوسف - عليه السلام - ويعجبون من شدة تعلقه به تعلقا جعله يبدو كأن حادث الفراق قد تم بالأمس فقط، ولذا قالوا: «تذكر» ولم يقولوا: «تحزن» وما علموا

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٥٤٥-٥٤٦.
(٢) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٤٩.
(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٩٠.
(٤) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٥.
(٥) انظر: فتح القدير/ ٣/ ٥١، وفتح البيان/ ٦/ ٣٨٩، والقصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٧٧-٤٧٨.
(٦) مسند الدارمي/ ١/ ٣٠.
(٧) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٥.



أنهم هم كانوا السبب الرئيسي في جلب أسباب هذا الحزن[1] إن أبناء الشيخ الجليل ليغارون من يوسف حتي بعد أن ألقوا به في غيابات الجب، ويستكثرون على أبيهم أن يحزن على يوسف هذا الحزن الذي لا نهاية له، إن ذلك لدليل على هذا الحب العميق الذي كان ليوسف - وما زال - في قلب أبيهم، وأنه لا يزال مشغولا عنهم بالحزن عليه بعد فقده، كما كان مشغولا عنهم بالحب له وهو حي[2].

إن الإخوة يقسمون «تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» وكأن يوسف - عليه السلام - مسئول عن إتلاف صحة أبيه أو هلاكه، وكأنه في حضوره كان مثار حسدهم، وفي غيابه مثار شكواهم من أبيهم، بل إن يوسف في غيابه، وفي هذا السياق، كان أقوى من حضوره، ففي حضوره كان الحب مقسّما بينه وبين إخوته - وإن كان له الحظ الأوفر منه، أما في غيابه، فالحزن هو المسيطر على البيت، وبهذا الحزن حرم يعقوب أبناءه من إظهار الحب أو التعبير عنه، وهو - مَرَّة بعد مرّة - يدينهم بأن نفوسهم سوّلت لهم أمراً[3].

---

(١) يوسف بن يعقوب / ٤٢٨.

(٢) القصص القرآني منطوقه ومفهومه / ٤٧٧.

(٣) دروس من سورة يوسف / ١٦٤.

رفع المسيهم

المضمون العام للآية الكريمة:

ولما رآه بنوه على هذه الحال، اعترضوا عليه وقالوا له: لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضاً، أي: مشرفا على الهلاك، أو تكون من الهالكين فعلاً، فإلى متى هذا؟ فقلل من هذا التذكر، وترحّم على نفسك شيئاً ما، وقبل أن تهلك.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - لم يرحم الإخوة أباهم وهو في شدة الحزن والتأسف على يوسف، فلا هم يسرّون عنه، ولا يعزّونه، ولا يعللون بالرجاء، بل يريدون ليطْمِسُوا في قلبه كل شعاع يذكره بيوسف.

٢ - لو كانوا يريدون الرحمة به حقا، لأقروا له بأن الذئب لم يأكل يوسف كما ادعوا من قبل، وإنما ألقوه في الجب، ولكنهم لم يفعلوا.

٣ - أعلن يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بحزنه وأسفه الشديد على يوسف، أنه في غيابه أقوى من حضوره، وأنه لن ينساه أبداً.

٤ - بهذا الحزن الطاغي حرم يعقوب - عليه السلام - أبناءه، من أي بارفة أمل بأن حالهم يمكن أن يكون في صلاح بعد غياب يوسف.



«الآية السادسة والثمانون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾

ثانياً - القراءات:

(وحُزْني) قرأ الجمهور بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الحسن وعيسى (وَحَزَني) بفتحتين، وقرأ قتادة بضمتين(١)

ثالثاً - اللغة:

«قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ»: الشَّكْوُ والشّكَاية والشّكاة والشَّكْوَى: إظهار البثّ، يقال: شكَوْتُ وأشْكَيْتُ، قال تعالى: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ»، وأصل الشَّكْوِ فتح الشَّكْوَة وإظهار ما فيه، وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء، وكأنه في الأصل استعارة كقولهم: بَثَثْتُ له ما في وعائي ونَفَضتُّ له ما في جرابي(٢).

والبث: أشد الحزن، كأنه لقوته لا يطاق حمله فيبثُّه الإنسان، أي: يفرِّقُه ويذيعه(٣) وأصل البثّ: التفريق وإثارة الشيء، كـ(بَثَّ الريح التراب)، وبَثُّ النَّفْس ما انطوَتْ عليه من الغمِّ والسِّرِّ(٤).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ» (إنما) كافة ومكفوفة، و(أشكو بثي) فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، و(حزني) عطف على بثي، و(إلى الله) متعلقان بـ(أشكو)

«وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (وأعلم) عطف على (أشكو) و(من الله) متعلقان بـ(أعلم) و(ما) مفعول به، وجملة (لا تعلمون) صلة(٥).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٣٤. (٢) المفردات (كتاب الشي) ٢٦٦.

(٣) الدر المصون / ٦ / ٥٤٨. (٤) المفردات (كتاب الباء)٣٧.

(١) اعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٣٦-٣٧.



سادساً - التفسير والبيان:

«يعقوب - عليه السلام - لا يشكو إلا إلى الله وحده»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾

وجه المناسبة:

لمّا تشوّفت النفس إلى ما كان عن يعقوب - عليه السلام - بعد ما رأى من غلظة بنيه[١]، فكأنه قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ فقيل:

«**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**» فهذه الجملة مستأنفة[٢].

والشكوى: التوجّع من ألم ونحوه[٣] والبث في الأصل: إثارة الشيء وتفريقه، كبثّ الريح التّراب، واستعمل في الغمّ الذي لا يطيق صاحبه الصبر عليه، كأنه ثقل عليه فلا يطيق حمله وحده فيفرّقه على من يعينه، فهو مصدر بمعنى المفعول، وفيه استعارة تصريحية، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل، أي: الغم الذي بث الفكر وفرّقه[٤].

قال أبو عبيدة وغيره: البث: أشد الحزن[٥] قال أحمد عز الدين خلف الله: قلت: لا يستقيم المعنى لو جعلنا البث كذلك، - فيكون المعنى: إنما أشكو حزني وحزني إلى الله - إنما يكون البث هنا بمعنى (الهمّ) فكأنه عليه السلام يقول: إنما أشكو همي وحزني إلى الله تعالى لا إليكم[٦] قال الإمام الطبري: وقيل: إن البث أشد الحزن، وهو عندي من بثّ الحديث، وإنما يراد منه: إنما أشكو خبري الذي أنا فيه من الهم، وأبث حديثي وحزني إلى الله[٧].

عن ابن عباس قال: بثي: همي، وعن الحسن قال: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ...» قال: حاجتي وحزني إلى الله. وعن ابن اسحاق قال: قال يعقوب

---

(١) نظم الدرر ٤ / ٩٠. (٢) انظر: فتح القدير / ٣ / ٥١.

(٣) المعجم الوسيط / ١ / ٤٩٢. (٤) روح المعاني / ٧ / ٤٢.

(٥) تفسير البحر / ٥ / ٣٣٤. (٦) يوسف بن يعقوب / ٤٢٨.

(٧) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٤٥.



عن علم بالله «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»(١) لما رآى من فظاظتهم وغلظهم وسوء لفظهم به، لم أشْكُ إليكم، وعن قتادة قال: «إِنَّمَا أَشْكُو... الآية».

قال: ذكر لنا أن نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله من ورائه(١). والظاهر أن الأبناء قالوا ما قالوا لأبيهم بطريق التسلية والإشكاء، فقال في جوابهم: إني لا أشكو ما بي إليكم ولا إلى غيركم حتى تتصدوا لتسليتي، وإنما أشكو غمي وحزني إلى الله تعالى ملتجئا إلى جنابه، متضرعا في دفعه لدى بابه، فإنه القادر على ذلك، وفي الخبر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنوز البِرّ إخفاء الصدقة وكتمان المصائب والأمراض، ومن بثّ لم يصبر»(٢).

وهذه الجملة «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ» مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي: يشكو إلى الله - لا إلى أحد من خلقه - ولا حتى إلى نفسه ليجدّد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة، لأن الدعاء عبادة، وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى إلى الله أمرا جسديا ناشئا عن عبادة، مثل تفطّر أقدام النبي ﷺ من قيام الليل(٣).

لقد كان قولهم له - عليه السلام - «قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ...» وارداً على جهة التّعنيف، فكان رده عليهم قوياً صاعقا، فكأنه يقول لهم: اعلموا أن هذا الذي أذكره لا أذكره معكم، وإنما أذكره في حضرة الله تعالى، والإنسان إذا بث شكواه في حضرة الله تعالى كان في زمرة المحققين(٤).

وهذا هو الرسول ﷺ وقد رجع من الطائف بعد أن ردوه ردا قبيحا وآذوه ومولاه زيد بن حارثة إيذاء شديداً، يدعو ربه عز وجل بهذا الدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٥-٤٨، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٨٨-٢١٨٩، والدر المنثور/ ٤/ ٥٩-٦١، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) روح المعاني/ ٧/ ٤٢، وانظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠١.



قلبه كآبة وحزنا مما لقي من الشدّة، وأسفا على أنه لم يؤمن به أحد من أهل الطائف، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتَجَهَّمُني، أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يَحُلّ عليّ سخطَك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» فما أقرب الحالين في الشدة والهم والغم والتأسف، إلا أن حال يعقوب - عليه السلام - يختص بأسرة، أما حال الرسول - ﷺ - فإنه يتعلق بأمة باقية إلى يوم الدين.

العباد وشكواهم إلى الله تعالى:

الشكوى إلى الله تعالى لون من ألوان العبادة، لأن الأعلى إذا أصاب الأدنى بما يراه سوءاً، يتفرّع الأدنى إلى نوعين (الأول) نوع يتودّد إلى الله العليم الحكيم ويستعطفه ويلين له ويستغفره ويتضرع إليه، ليكشف عنه ما نزل به من سوء، وهو مع ذلك راض بقضاء الله تعالى وقدره، (الثاني) نوع يتأبى على المبْتَلي ويقسو قلبه فلا يتضرع ولا يستغفر. وقد قال الله تعالى: «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ»(٢).

وهذا النوع لا يرتفع عنه البأس حتى يهلك وهو كافر، أما النوع الأول الصابر المتضرع الشاكي إلى الله وحده لاغيره، ليذهب غمّه ويكشف كربه، فإن الله تعالى يستجيب له، لأنه يعلم أنه لا يكشف عنه الضّر إلا الله(٣).

فيعقوب - عليه السلام - يشكو إلى سيده ومالكه ومن بيده الأمر كله، وليست هذه الشكوى إعلاما بحال الشاكي، فالله سبحانه يعلم كل شيء علماً أزليّا، ما وقع

---

(١) الرحيق المختوم/ ١٤٨. (٢) الأنعام٤٣.

(٣) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



وما سيقع، وإنما هذه الدعوات والابتهالات هي عبادة لله تعالى بما يستولي على العبد منها من مشاعر الحاجة والعوز إلى الله[1].

إن الشكوى إلى الله تعالى ثمرة من ثمار الإيمان الصادق، وليس أفضل منها وسيلة لتعزية الإنسان، وما أصدق قول الشاعر:

لا تسألَنّ بُنَيَّ آدم حاجة
وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركتَ سؤاله
وبني آدم حين يُسْأَلُ يغضبُ[2]

«وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به، أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب[3] عن ابن عباس في قوله: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» يقول: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له[4] إن يعقوب - عليه السلام - قد أعقب كلامه «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ» بقوله: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» لينبّهم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العليَّة، ليعلموا أنهم دُون مرتبة أنْ يُعَلّموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم علماً من عند الله علَّمنيه لا تعلمونه، وهو علم النبوة، وفي هذا تعريض بردّ تعرُّضهم بأنه يطمع في المحال بأنه ما يحسبونه محالا سيقع[5] فهناك علم من الله تعالى يؤكد في نفس يعقوب لقاءه مع يوسف وأخيه تحقيقاً لرؤياه وإن طال الأمر[6]...

إن قلب يعقوب - عليه السلام - قد تجلّى فيه الشعور بحقيقة الألوهية كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ولألائها الباهر، إن هذا الواقع الظاهر المُيْئِس

---

(١) القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٧٨.
(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١١٦٦.
(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٠.
(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٥.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٥.
(٦) دروس من سورة يوسف/ ١٦٦.

من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل، في وجه هذا الواقع الثقيل...

إن هذا كله لا يؤثر في شعور الرجل الصالح بربه، فهويعلم من ربه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور، وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه، هذا اللون من المعرفة، معرفة التجلى والشهود بالقلب، وملابسة قدرته وقَدَرِه، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العباد الصالحين(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

قال أبوهم يعقوب - عليه السلام - ردّاً عليهم: إنما أرفع حالي وحزني إلى الله تعالى وحده ليدفعه عني، وأعلم من الله ما لاتعلمون من أن يوسف حي يرزق، وأن الله يجمع بيننا ويتم النعمة على يديه.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إعلام يعقوب - عليه السلام - أبناءه أنه لا يشكو همه وحزنه إلا إلى الله.

٢ - اعلامهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون من صدق الرؤيا وإتمام النعمة.

٣ - الله تعالى قد يطلع بعض رسله على بعض الغيب.

٤ - الشكوى إلى الله تعالى ثمرة من ثمار الإيمان الصادق، وهي عبادة مطلوبة.

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٦.



«الآية السَّابعة والثمانون»

طلب البحث عن يوسف - عليه لاسلام -

أولاً - النَّصُّ القرآني الكريم:

قال الله تعالى على لسان يعقوب - عليه السلام -: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

ثانياً - القراءات:

قوله: (فَتَحَسَّسُواْ) قرئ بالجيم، كما قرئ بالسّين والجيم في الحجرات، وهما تفعُّلٌ من الإحساس وهو المعرفة (فَلَمَّا أَحَسَّ عيسَى مِنْهُم الكُفر) وَمِن الجسّ، وهو الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان، الحواس، والجواس[1].

قوله: (وَلاَ تَيْأَسُواْ) وبهذا قرأ الجمهور، وقرأت فرقة (تأْيسوا) وقرأ الأعرج (تِئْسُوا) بكسر التاء، وقرأ ابن كثير في رواية البزّي (تَايَسُوا) و(اسْتَايَسُوا) بألف قبل الياء[2].

قوله: «مِن رَّوْحِ اللّهِ» قرأ الجمهور (مِنْ رَوْح الله) بالفتح، وقرأ الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة بضم الراء (مِنْ رُوح الله) قال ابن عطية: وكان معنى هذه القراءة، لا تيأسوا من حَيٍّ معه روح الله الذي وهبه، فإن من بقي روحه فيُرْجى، ومن هذا قول الشاعر:

وفي غيْر مَنْ قدْ وارت الأرض فاطمع[3]

ثالثاً - اللغة:

«فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» حسّ: الحاسة: القوة التي تُدرك بها الأعراض الحسّية، والحواس: المشاعر الخمس، يقال: حسَسْت وحَسَيْتُ وأحْسَسْتُ فأحْسَسْتُ[4].

---

(١) انظر الكشاف/ ٢/ ٣٤٠، والبحر/ ٥/ ٣٣٤، والدر المصون/ ٦/ ٥٤٩، روح المعاني/ ٧/ ٤٢.

(٢) انظر الكشاف/ ٢/ ٣٤٠، وتفسير ابن عطيه/ ٩/ ٣٦٣، والبحر/ ٥/ ٣٣٤، وروح المعاني/ ٧/ ٤٣، والموضح في القراءات وعللها/ ٢/ ٦٨٥-٦٨٦.

(٣) الدر المصون/ ٦/ ٥٤٩. (٤) المفردات (كتاب الحاء) ١١٦.



والتَّحسُّس: التعرف، وأصله طلب الخبر بالحاسّة، واستعمل في التعرُّف للزومه له[1].

والتحسّس قريب من التجسّس الذي بالجيم، وقيل: إن التحسس بالحاء يكون في الخير، وبالجيم يكون في الشرّ، ومنه الجاسوس؛ وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس[2] والمراد بالتحسس هنا طلبُ الأخبار في الخير، وهو معرفة كل خبر أو وسيلة توصّل إلى يوسف وأخيه، والمعنى: أي: تحسسوا خبرا من أخبارهما، أو تحسسوا عنهما.

«وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ» يئس: اليأس: انقطاع الرجاء، وهو ضد الطمع، وأصل معنى الروح: التّنفّس، يقال: أراح الإنسان، إذا تنفّس، ثم استعير للفرج، والمعنى: لا تقنطوا من فرج الله وتنفيسه[3].

رابعاً - الإعراب:

«يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» (يا) حرف نداء، و(بنيّ) منادى مضاف وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، و(اذهبوا) فعل أمر وفاعل، و(الفاء) عاطفة، و(تحسسوا) فعل أمر وفاعل، و(من يوسف) متعلّقان بـ(تحسسوا) و(أخيه) عطف على يوسف. (وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ) (الواو) فاعل، و(من روح الله) جار ومجرور متعلقان به.

«إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» (إنه) إنّ واسمها، وجملة «لا ييأس» خبرها، و(من روح الله) متعلّقان بـ(ييأس) و(إلاّ) أداة حصر، و(القوم) فاعل، و(الكافرون) صفة.

البلاغة: استعارة الروح للرحمة، وإيضاحه أن الروح مصدر بمعنى الرحمة، وأصله: استراحة القلْب من غمِّه، والمعنى: لا تقنطوا من راحة تأتيكم من الله[4].

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن/ ٣١٤-٣١٥.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٤٤.

(٣) انظر: صفوة البيان/ ٣١٥.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥ / ٤٦-٤٩.



سادساً - التفسير والبيان:

«أمر بالبحث عن يوسف وأخيه»

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

وجه المناسبة:

ولما أخبرهم - عليه السلام - أن علمه فوق علمهم، أتبعه استئنافاً ما يدل عليه فقال:

«يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ»(١) فهذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن في قوله: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» ما يثير في أنفسهم ترقّب مكاشفته على كذبهم، فإن صاحب الكيد كثير الظنون «يحسبون كل صيحة عليهم» فكأن في قوله: «اذهبوا» تصريح لهم بشيء مما يعلمه حين أذن الله بذلك عند تقرير انتهاءِ البلوى(٢) فقد علم من العلم الذي علمه الله إياه وأوحاه إليه أنه إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج، ولهذا فقد قوي رجاءهم وأمرهم أن يرحلوا إلى مصر ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه(٣).

حنان يعقوب الفائق:

بدأ - عليه السلام - كلامه لأبنائه بقوله: «يا بَنِيّ» وفي هذا دلالة على الحنان الفائق الذي حباه الله به لأبنائه، مع أنه لا يزال يعتقد أن لهم يدا على الأقل فيما حل بيوسف(٤) ففي مخاطبتهم بوصف البنوّة ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال(٥).

ونلحظ أن هذه هي المرة الثانية التي يرد فيها هذا الخطاب للإخوة في السورة كانت الأولى في قول يعقوب - عليه السلام - «يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٩٢.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧ / ١٣ / ٤٥.

(٣) تفسير القاسمي/ ٤ / ٣٩١.

(٤) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣١١-٣١٢.

(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧ / ١٣ / ٤٦.



مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ»(١) وكانت في مقام النصح لهم، وشفعها بقوله: «وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ»(٢) ورد فيها الحكم لله، وعليه التوكل، وفي هذه المرة يأتي خطابهم بوصف البنوّة ترفّقا وتلطّفا ولكنه يشفعه بأمر ونهي(٣) وقد كان بإمكان الأب يعقوب - عليه السلام - أن يستغني عن كلمة «يا بني» لو شاء، ولكنه الحنان الفائق الذي حباه الله به لأبنائه لم يكن ليسمح له بذلك،...

فإذا انتقلنا إلى مناسبة سابقة، استعمل فيها يعقوب توطئه النداء نفسها مع غير الإخوة، أعني ما جاء على لسانه ردّاً على ابنه يوسف الذي قص عليه رؤياه «قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»(٤) وعرفنا أن يوسف المخاطب هنا صغير برئ، وأن الإخوة هناك كبار وفي نظر يعقوب مذنبون، أدركنا إلى أي حد كان يعقوب - عليه السلام - عادلا في توزيع ما يملك على كل أبنائه دون تمييز،...

ويستفاد من هذه التوطئة «يا بني» الفرق بين طريقة الأب الحنون في الحديث، وطريقة أخ من أكثر الإخوة برّا بإخوته، أعني به الأخ الأكبر الذي وجه الخطاب إليهم دون شيء من توطئه فيما جاء على لسانه من قوله تعالى: «ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ...»(٥)، (٦) فلم يقل لهم مثلاً «يا إخوتي» أو نحو ذلك مما يوحي بالأخوه والقرابة والصلة.

أين يذهب الإخوة، وكيف تحددت وجهة ذهابهم؟:

إن يعقوب - عليه السلام - أمر أبناءه بالذهاب للتحسّس من يوسف وأخيه، ولكنه لم يعين لهم الجهة، ولكن تمشّيا مع قوله «يوسف وأخيه» فأخوه في مصر، والأخ الأكبر في مصر، والحصول على الطعام الضروري في مصر أيضاً، إذا فقد تحددت

---

(١) يوسف/ ٦٧. (٢) يوسف/ ٦٧.
(٣) دروس من سورة يوسف/ ١٦٥.
(٤) يوسف/ ٥. (٥) يوسف/ ٨١.
(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣١١-٣١٢.



وجهتهم بالذهاب إلى الأرض التي جاءوا منها وتركوا بها أخويهم بنيامين والمقيم بها[1] - الأخ الأكبر -.

عن ابن إسحاق قال: ثم إن يعقوب قال لبنيه وهو على حُسْن ظنه بربه مع الذي هو فيه من الحزن «يا بني اذهبوا إلى البلاد التي منها جئتم فتحسسوا من يوسف وأخيه...»[2]

«فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ»

لماذا أتت الفاء في قوله «فتحسسوا» ولم تأت الواو أو ثم بدلاً منها؟

والجواب على ذلك أنه لو جاء (يا بني اذهبوا وتحسسوا) لتساوي الذهاب والتحسّس في الأهمية، ولو جاء: «(ثم تحسّسوا) لدل ذلك على أن المهم في الأمر الذهاب، بينما يأتي التحسس بعد ذلك بكثير في الأهمية، ولكن حينما يجئ على لسان يعقوب - عليه السلام - «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» فدل ذلك على أن التحسّس أهم ما في الموضوع وأن الذهاب سبب ضروري فقط[3].

معنى «التحسّس» التحسّس: طلب الشيء بالحاسة، وهي القوة التي تدرك بها الأعراض الحسيّة فهو تفعّل من الحِسّ، والحواس هي المشاعر الخمس التي هي منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية، فالتحسس: طلب الإخبار بالخير، وهو قريب من التجسّس الذي يكون في الشر، ومنه الجاسوس، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس، وكذلك الجَوْس، وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردّد والطّوف، ومنه «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ»[4].

وأحسّ يستعمل في إدراك الحسّي والمعنوي، يقال: أحسَسْتُ بالحرارة والبرودة مثلاً،

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٤.

(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٩.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣١٣.

(٤) الإسراء/ ٥.



وأحسَسْتُ منه مكراً، وأحسست منه بمكر، وما أحسَسْنا منه خبراً، وهل تحِسُّ من فلان بخبر[1] فمعنى قوله: «فتحسسوا» أي: اعمدوا إلى كل حواسكم واشتدوا في الطلب والتعرف واسلكوا كل سبيل لتصلوا إلى مكان يوسف وأخيه[2].

ذلك لأن التحسس هنا جامع لمعرفة كل خبر أو وسيلة توصل إلى يوسف - عليه السلام - وأخيه[3] هذا، ومن المعلوم أنه - عليه السلام - دفع أبناءه للذهاب إلى مصر لأمرين: (الأول) التحسس من يوسف وأخيه، (الثاني) جلب الميرة - بدليل طلبهم لها أول لقائهم بيوسف - عليه السلام - هذه المرة - وإنما لم يذكر هذا الثاني لأنه طبيعيّ ومعلوم، ولأن الأمر الأول هو الأقوى والأهم في نظره[4].

تفاؤل يعقوب - عليه السلام - وثقته في أن يوسف لا زال حيا يرزق:

إن أمر يعقوب - عليه السلام - لبنيه للذهاب بحثا عن يوسف وأخيه في مصر، ليدل دلالة واضحة على أنه - عليه السلام - على ثقة في أن يوسف - عليه السلام - لا زال حيا يرزق، وفي حالة حسنة[5] وإلا فكيف يأمرهم بالتّحسّس وهذا المرة بالذات من يوسف وأخيه[6] ويدل على ذلك أيضا هذا الترتيب المذكور في قوله «من يوسف وأخيه» فالذي يروعنا حقا هو هذا الترتيب، ولو كنا نتعامل مع شخص عادي لكان ترتيب مثل هذا الكلام في الصورة: فتحسسوا من بنيامين وأخيه. لماذا؟ لأن هناك معلومات من نوع معيّن عن بنيامين، وليس هناك شيء من هذه المعلومات عن يوسف - عليه السلام - إذا؛ فمن المنتظر في هذه الحالة أن يكون الابتداء ببنيامين، فبهذا يقضي المنطق، وربما اتخذ هذا الشخص العادي أمله المعقول عن الابن الأول مطيّة لأمله البعيد عن الابن الثاني،...

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١١٧٧-١١٨٧، وصفوة البيان / ٣١٤-٣١٥.

(٢) انظر: دروس من سورة يوسف / ١٦٥.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٤٤٠.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١١٨٧.

(٥) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣١٢.

(٦) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٤١.



أما فيما يتصل بيعقوب - عليه السلام - فنحن بصدد شخص من نوع آخر، شخص اصطفاه الله تعالى بالنبوة وحباه بالعلم اللدنّي، فلم تكن هذه الجزئية على لسانه «مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» مراعي فيها التدرّج بالأمل من القريب إلى البعيد، من الممكن إلى المستحيل، ولكن هذا الترتيب روعي فيه حبه ليوسف، والإيمان المطلق في قدرة القادر على كل شيء، والثقة غير ذات الحدود، بإلهام من الله تعالى، بأن لكل ضيق فرجا، وبما أن المحن قد بلغت أوجّها وغايتها، فإن الإيمان بالله العلي القدير يجب أن يبلغ أوجّه وقمّته، ومع الإيمان الأمل والرجاء والتفاؤل[1] لأن كل ذلك متعلق بالله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هذا، ونلحظ أنه لم يأت ذكر الأخ الثالث الغائب (روبيل)، وهذا شيء طبيعي، لأنه هو الذي قرّر بمحض إرادته البقاء في مصر، حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له بحكم.

أهم الأسباب التي جعلت يعقوب - عليه السلام - يتوقع قرب اللقاء بيوسف:

١ - إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج.

٢ - عَلِمَ أن رؤيا يوسف صادقة.

٣ - لعله علم ذلك بوحْي من الله تعالى، بدلالة قوله لأولاده «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» قبل أن يأمرهم بالذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

٤ - لما أخبره أبناؤه بسيرة العزيز وكمال حاله في أقواله وأفعاله، طمع أن يكون هو يوسف.

٦ - إخبار ملك الموت بحياة يوسف، فقد روي ابن أبي حاتم عن النضر بن عربي قال: بلغني أن يعقوب - عليه السلام - مكث أربعة وعشرين عاماً لا يدري أ حيّ يوسف أم ميّت، حتى تمثّل له ملَك الموت فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قال: أنشدك بإله يعقوب؛ هل قبضت روح يوسف؟ قال لا، فعند ذلك قال يعقوب: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» فرحلوا إلى مصر[2].

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣١٣-٣١٤.

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٦١.



والإمام القرطبي - رحمه الله - يرى أن إخبار الملَك إياه بأنه لم يقبض روح يوسف هو الأظهر(١) ولعل الأولى إعلام الله له بحياة يوسف بأي صورة من صور الوحْي، بدلالة قوله: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» والله أعلم.

نهْيٌ عن اليأس من روح الله:

ولما أمرهم - عليه السلام - بالذهاب للتحسس من يوسف وأخيه، ولم يكن عندهم من العلم ما عنده(٢) نهاهم عن القنوط من روح الله فقال:

«وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ»

واليأس واليآسة: القنوط ضد الرجاء، أو قطع الأمل(٣) و«مِن رَّوْحِ اللّهِ» أي: من فرج الله، قاله محمد بن إسحاق وزيد، أو من رحمة الله، قاله قتادة والضحاك(٤) أو من توسعة الله، حكاه بن القاسم، قال الأصمعي: الرّوْح: الاستراحة من غم القلب(٥) فالمراد: لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتيسيره ولطفه في جمع الشتات وتيسير المراد(٦) وكشف الغمة والكرب(٧) وزوال هذه الشدة(٨) فكأنه - عليه السلام - يقول لهم: اتركوا اليأس المستولي عليكم مذ فعْلتكم مع أخيكم - يوسف - حتى ظننتم أنه قد انتهى أمره، وافسحوا المجال في نفسوكم لتقبّل رحمة الله تعالى عسى أن تجمعكم بيوسف(٩) فهذه الجزئية «وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ» تدل على أن شيئاً من اليأس، خاصة فيما يتعلق بيوسف - عليه السلام - قد دَبَّ إلى نفوس الإخوة(١٠) فهم وإن كانوا يعلمون أن الذئب لم يأكله وأنهم ألقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة، إلا أنهم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي / ٩ / ٢٥١-٢٥٢.

(٢) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٩٢. (٣) القاموس المحيط / ٧٥١.

(٤) انظر: تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٤٩.

(٥) زاد المسير / ٤ / ٢٧٦. (٦) نظم الدرر / ٤ / ٩٢.

(٧) دروس من سورة يوسف / ١٦٦.

(٨) انظر: تفسير القاسمي / ٤ / ٣٩١.

(٩) يوسف بن يعقوب / ٤٤١.

(١٠) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣١٥-٣١٦.

رفع المسهم

لا يدرون أين هو الآن، وهل هو حيّ أم ميّت. ففي نهيه - عليه السلام - أبناءه عن اليأس من روح الله، إنما يسعى جاهداً لتهيئة أبنائه لتلقى هذا الأمل في ارتياح وتفهم، خاصة وأن تسرّب اليأس في مثل مسألة يوسف - عليه السلام - أمر غير مستبعد بالنسبة للإخوة، أما هو - عليه السلام - وهو نبي ورسول كريم، فلم ييأس قط من روح الله، بل إنه تخطي مرحلة الأمل إلى مرحلة الأمل العالية التي ليس وراءها مرحلة[1].

تعليل للنّهي:

وبعد أن نهاهم - عليه السلام - عن اليأس من روح الله تعالى، علّل النّهي محذّرا إياهم عن ترك العمل بموجبه فقال:

«إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»

فموقع (إن) التعليل، والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف - عليه السلام - معتلّين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة، فإن الله تعالى إذا شاء تفريج كُرْبة هيّأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله تعالى واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله تعالى في تيسيره[2] وهذه الجزئية «إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» ذات قُوة في التعبير واضحة، فهنا (إنّ) التي تفيد التوكيد، و(لا) النافية، وأداة الاستثناء(إلاّ)، وفي ذلك حصر لليأس من روح الله على الكافرين.

أما المسلمون لله رب العالمين، فإن هذا النوع من اليأس لا يجوز بحقهم، وقد جعلهم خارجه حَصْرُ اليأسِ في الكافرين، ولا يخفى أن هذه الطريقة في التعبير جعلت المعنى غاية الوضوح، وأن هذه الجزئية الثالثة - في الآية - التي تتحدث عن اليأس، قوة للجزئية الثانية التي تشير إليه، وإذا كانت الثانية تنهي الأبناء عن اليأس من روح الله، فإن الثالثة تحصره في الكافرين، وفي ذلك أكبر نهى للأبناء عن اليأس وإخراج لهم

(١) المرجع السابق/ ٣١٥-٣١٦.
(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٦.



من زمرة اليائسين من روح الله، وإن الهدف البعيد الذي ينشده يعقوب - عليه السلام - تزويده لأبنائه بأكبر قسط من أمله الكبير في الكبير المتعال[1]. ذلك لأن اليأس قرين الكُفْر، والثقة في الله قرينة الإيمان[2].

فالمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، النّديّة أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرّخيّة، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرْب، واشتدّ بهم الضّيق، وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، حتى وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب[3].

هذا، ونلحظ أن يعقوب - عليه السلام - قال: «إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ» ولم يقل (منه) إشارة إلى ظهور حصول المراد لمن لم ييأس، فإنه يعلم سنة الله تعالى في إفاضة اليسر مع العسر «فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»[4] لا سيما في حق من أحسن الظن به تعالى[5].

قال ابن عباس: إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء، ويحمده في الرخاء[6]، وقال ابن زيد: إن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة[7] لأنه لا يعلم بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفيّ ألطافه، فإذا لم يصل إلى ما يبتغي من كشف ضرّ وجلب خير، انتحر همّاً وحزناً، أما المؤمن فيصبر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيراً[8].

الكفر في عرف القرآن الكريم والسنة المطهرة:

الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣١٦.

(٢) دروس من سورة يوسف / ١٦٦.

(٣) تفسير الظلال ٤ / ٢٠٢٦. (٤) الشرح / ٥-٦.

(٥) انظر: تفسير القاسمي / ٤ / ٣٩٢.

(٦) تفسير الفخر الرازي ٩ / ١٨ / ٢٠٣.

(٧) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٥٢.

(٨) فتح البيان / ٦ / ٣٩٠.



أو ثلاثتها، وقد يقال (كَفَر) لمن أخلّ بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله عليه[1] ولهذا شواهد كثيرة في القرآن والسنة، فقد أطلق لفظ (الكفر) في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة، ولهذا شواهد كثيرة، كما أطلق الكفر على غَمْط النّعم، قال تعالى: «وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»[2] أي: شديد الكفران للنعمة، وقال تعالى: «لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»[3] فالكفر هنا مقابل للشكر، كما أطلق الكفر على المعصية الكبيرة، قال ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» كما أطلق الكفر على الضلال، قال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[5] كما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الإسلام.

ففي ترك الزكاة يقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ»[6] أي: والمانعون للزكاة، أو النفقة في سبيل البرّ، هم الظالمون، فوضع (الكافرون) موضعه تغليظا وتهديدا وإيذانا بأن ترْك الزكاة من صفات الكفار. وفي من استطاع الحج ولم يحج يقول الله جل شأنه: «وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»[7] فقال «ومن كفر» مكان «ومن لم يحج» تغليظا وإيذانا بأن ترك الحج من سمات الكافرين.

كما يطلق الكفر على غير ما تقدم، من ذلك أن اتحاد الكلمة والوحدة إيمان، والخروج عن ذلك كفر، هذا، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وللعمل شعب كثيرة، من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب، فاليأس إذاً؛ كُفْر[8].

---

(١) المفردات (كتاب الكاف) ٤٣٤. (٢) إبراهيم/ ٣٤. (٣) إبراهيم/ ٧.
(٤) رواه البخاري في صحيحه. (٥) رواه البخاري في صحيحه.
(٦) البقرة/ ٢٥٤. (٧) آل عمران/ ٩٧.
(٨) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ١١٧٨-١١٨٣.

معنى موافقة الإخوة على طلب أبيهم وعدم اعتراضهم عليه والتزامهم الصمت:

إنا لنفهم من سكوت الإخوة التام وعدم إجابتهم أباهم البتّة حينما أمرهم بالذهاب إلى مصر والبحث عن يوسف وأخيه، أمور كثيرة،

منها، الاعتراف الضّمني بأن ما اتهمهم به أبوهم حين قال لهم: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ»(١) له أساس كبير من الصحة، على الأقل فيما يتعلق بيوسف.

ومنها، سحب ادعاءاتهم الكاذبة بعد جعل يوسف في الجب وافترائهم بأن الذئب أكله.

ومنها، شعورهم بالندم التام على ما فعلوا بيوسف وأخيه،

ومنها، الإحساس التام بجريمة إساءتهم لأسرة آل يعقوب التي اضطرب نظمها وساء حالها منذ أن فعلوا ما فعلوا بيوسف،

ومنها، أن تحولا خطيرا ومهما للغاية قد طرأ على حال الإخوة في الظاهر والباطن، فصفت نفوسهم وطهرت أفئدتهم، وذهب ما كان في قلوبهم من حقد وحسد على يوسف وأخيه، وهذا هو ما أراده يوسف - عليه السلام - بتصرفاته السابقة معهم، وتلقينهم الدرس تلو الآخر حتى يعودوا إلى الصواب.

إن الإخوة قد تحملوا بصمتهم أمام أمر أبيهم لهم بالبحث عن يوسف وأخيه فوق ما يطيقون، وقد رأوا في قرارة أنفسهم أنهم يستحقون العذاب الذي يتحملونه الآن، وقد تبين لهم وبكل وضوح، أنه لن ترتاح نفوسهم ولن تطمئن قلوبهم، ولن يرضى عنهم ربهم وأبوهم، إلا إذا زالت الضغائن من النفوس، وحل محلها الحب والود والتراحم، ولن يتم ذلك إلا بعودة يوسف وأخيه(٢).

---

(٤) يوسف / ١٨.

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٦٢-٤٦٦.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما أذن الله تعالى بانتهاء البلوى التي أصابت آل يعقوب، نفث في روع عبده ورسوله يعقوب - عليه السلام - بأن الفرج قريب، وألهمه الدلائل على ذلك بلطفه ورحمته، هنالك أمر يعقوب - عليه السلام - أبناءه التسعة بالذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وبذل كل مستطاع في سبيل ذلك، وقد قوى فيهم الأمل ونهّضهم وبشرهم، ونهاهم عن اليأس من فرج الله ورحمته، وأن يديموا رجاءهم وطمعهم في الله فيما يريدونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - إذا اشتدّ البلاء مع الصبر قرب الفرج.

٢ - إلهام الله يعقوب - عليه السلام - وشعوره بقرب لقائه بيوسف، وهذا هو سبب أمر أبنائه بالبحث عنه هذه المرة بالذات.

٣ - المؤمن لا ييأس أبدا من رحمة الله مهما اشتدّت به الكروب وحلّت عليه المصائب، أما الكافر فهو اليأس من رحمة الله.

٤ - إحساس الإخوة التام بجريمتهم في حق يوسف وأبيه وآل يعقوب جميعا.

٥ - موافقة الإخوة على طلب أبيهم بالبحث عن يوسف وأخيه، يدل على أن تحولا خطيرا قد طرأ على الإخوة، فصفت نفوسهم وطهرت أفئدتهم، وزال كل حقد على يوسف وأخيه.

٦ - وجوب طاعة الأبناء للآباء والأمهات فيما يحبه الله ويرضاه، أما في معصية الله تعالى فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٧ - تمام النعمة على آل يعقوب لن يكون إلا باجتماعهم جميعا تحت قيادة يوسف - عليه السلام -.



رفع
المسهم

(الفصل الثالث)

(من الباب الثالث)

من الرحلة الثالثة إلى مصر...
إلى نهاية القصة

من الآية رقم (٨٨)

إلى الآية رقم (١٠١)

رفع
المسـاهم

رفع
المساهم

آيات الفصل الثاني

من الباب الثالث

من قوله تعالى: «فلمَّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز» (٨٨)

إلى قوله تعالى: «... توفَّني مُسلماً وألحقني بالصَّالحين» (١٠١)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾



«الآية الثامنة والثمانون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ» قرأ حمزة والكسائي بالإمالة، لأن أصله الياء، والباقون بالنصب والتفخيم(١)

ثالثاً - اللغة:

«وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ» البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبْضَعْتُ الشَّيْءَ واستَبْضَعْتُه إذا جعلته بضاعة، وفي المثل كمُسْتَبْضِعِ التمر إلى هجر.

مزجاة: قال الواحدي: الإزجاء في اللغة: السَّوْقُ والدَّفْع قليلا قليلاً، ومنه قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجَى سَحَاباً» وفي القاموس، زجاه: ساقه ودفعه، وفي المصباح، زَجَّيْتُه بالتَّثقيل: دفعته برفق(٢) فالبضاعة المزجاة: بضاعة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزْجَيْتُه: إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب(٣) وأنشدو الحاتم الطائي:

لِيَبْكِ عَلَى مَلْحَان ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ *** وَأرْمَلَةٌ تُزْجى مع اللَّيلِ أرْمَلا(٤)

يعني أنها تسوقه بين يديها على ضعف منه عن المشي والعجز(٥) فالإزجاء هنا معناه السَّوْقُ والدفع.

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٦.

(٢) فتح البيان/ ٦/ ٣٩١-٣٩٢.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٠.

(٤) البيت من الطويل وليس في ديوانه، انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٠، وتفسير البحر (هامش) ٥/ ٣٣٥، وروح المعاني/ ٧/ ١٣/ ٥٠.

(٥) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٠.



«فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» الوافي: الذي بلغ التمام، يقال درهمٌ وافٍ، وكيْلٌ واف، وأوْفيْتُ الكيل والوزن[1]

«وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على القُرْبة، كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوَّع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرَّى صاحبه الصدق في فعله، قال تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»[2] وقال: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ»[3] يقال: صَدَّقَ، وتَصَدَّقَ[4].

«إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» الجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيْراً فخيْر، وإن شرّاً فشرّ، يقال: جزَيْتُه كذا، وبكذا، قال الله تعالى: «وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى»[5] وقال: «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى»[6]، [7]

رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ» الفاء عاطفة، ولمّا ظرفية حِينيّة أو رابطة، ودخلوا فعل وفاعل، وعليه جار ومجرور متعلقان بـ(دخلوا).

«قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» جملة (قالوا) لا محل لها، وأيها منادى نكرة مقصودة، والهاء للتنبيه، والعزيز بدل من (أيّ) ومسّنا فعل ومفعول به، وأهلنا عطف على (نا) أو مفعول معه، والضرّ فاعل.

«وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» الواو عاطفة، وجئنا فعل وفاعل، وببضاعة متعلقان بـ(جئنا) ومزجاة صفة، فأوف، الفاء عاطفة وأوف فعل أمر، و(لنا) متعلقان بـ(أوف) والكيل مفعول به.

«وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» وتصدق عطف على فأوْف، وعلينا متعلقان بـ(تصدق)، «إِنَّ اللّهَ يَجْزِي» إن واسمها، وجملة يجزي خبرها، والمتصدقين معفول به[8].

---

(١) المفردات (كتاب الواو) ٥٢٨. (٢) التوبة/١٠٣. (٣) التوبة/٦٠.

(٤) المفردات (كتاب الصاد) ٢٧٨. (٥) طه/٧٦. (٦) الكهف/٨٨.

(٧) المفردات (كتاب الجيم) ٩٣. (٨) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥/٤٧.



خامساً - الموقف من المتعارضات:

هل كانت الصدقة حلالا للأنبياء قبل نبينا - محمد ﷺ - أم كانت حراماً عليهم؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن الصدقة لم تكن حلالاً لأحد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فحرمتها عامة للرسول ﷺ ولمن قبله من الأنبياء، قال سعيد بن جبير: ما سأل نبي قط الصدقة، ولكنهم قالوا: «قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي: لا تنقصنا من السعر[١]، وعن أبي بكر الهذلي قال: سألت الحسن «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» فقال: الأنبياء لا يأكلون الصدقة، كانت نفاية لا تجوز بينهم و«وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي تجوَّزْ عنَّا، وقال ابن شجرة: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» تجوَّزْ عنّا، واستشهد بقول الشاعر:

تصدّق علينا يا بن عَفَّان واحتسب ** وَأَمِّرْ علينا الأشعريَّ لياليا[٢]

وقال ابن الأنباري: وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة لا نفس الصدقة[٣] فقد قالوا هذا تجَوُّزاً واستعطافا منهم في المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هَبْني من ضمنها كذا وخذ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسَّنْت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سَوْمك[٤].

وذهب آخرون إلى أن الصدقة إنما حرمت على محمد - ﷺ - لا عليهم، فقد سئل سفيان بن عُيَيْنة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي - ﷺ -؟ فقال: ألم تسمع قوله: «فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزي المتصدقين» قال الحارث: قال القاسم: يذهب ابن عيينة إلى أنهم لم يقولوا ذلك إلا والصدقة حلال لهم، وهم أنبياء، فإن الصدقة إنما حرّمت على محمد - ﷺ - لا عليهم[٥].

وقال الدكتور حسن محمد باجودة: ويلاحظ أن هذه الجزئية «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» تفيد

---

(١) انظر: تفسير الطبري/٨/١٣/٥٣-٥٤. (٢) تفسير القرطبي/٩/٢٥٤.
(٣) فتح البيان/٦/٣٩٢. (٤) تفسير ابن عطية/٩/٣٦٦.
(٥) تفسير الطبري/٨/١٣/٥٣-٥٤.



أن الصدقة كانت جائزة على آل إبراهيم، وعلى ذلك البعض، وهو ما أقول به، والله أعلم(١).

وذهب ابن جريح إلى أن معنى «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» قال: ردّ إلينا أخانا. ورد عليه الطبري قائلاً: إنه وإن كان لهذا القول وجه، فليس بالقول المختار، لأن الصدقة في المتعارف إنما هي الأغلب من معناه إعطاء الرجل ذي الحاجة بعض أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقة، فتوجيه كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى(٢).

وذهب بعض آخر إلى أنهم أرادوا بقولهم: «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» الذين وراءهم ممن تحل لهم الصدقة، ورد الأستاذ أحمد عز الدين عبد الله على هذا الاتجاه بأنه بعيد جداً، فلا يجوز ترك الصريح من القول إلى غيره(٣).

الترجيح: والرأي الأول القائل بتحريم الصدقة على جميع الأنبياء هو الراجح، بدلالة ما ورد في السنة الصحيحة، قال الإمام ابن عطية رداً على ما قيل: إن الصدقة غير محرمة على أولئك الأنبياء وإنما حرمت على محمد - ﷺ -: وهذا ضعيف يردّه حديث النبي - ﷺ -: «نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة»(٤)،

وقول الإخوة «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» لم يقصد به نفس الصدقة، وإنما قصد به المسامحة والتجوز، كما قال ابن الأنباري، والله أعلم.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٣٠.

(٢) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٥٤.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٤٤٤.

(٤) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٦٦.



سادساً - التفسير والبيان:

«رحلة الإخوة الثالثة إلى مصر»

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾

وجه المناسبة:

الكلام مرتبط بما قبله بتقدير محذوف، وهو أن يعقوب - عليه السلام - لما قال لبنيه: «اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» قبلوا هذه الوصية وعادوا إلى مصر[١] للمرة الثالثة يبحثون عن يوسف وأخيه بلا يأس، وإنما بأمل وَجِدّ في البحث[٢] وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى مصر وبلغوا مقام يوسف - عليه السلام - فطلبوا مقابلته فأذن لهم.

«**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ**» فالفاء عاطفة على كلام مقدّر دل عليه المقام[٣] استغناء بذكر ما ظهر عما حُذف[٤] وإنما لم يذكر إيذانا بمسارعتهم إلى ما أمروا به، وإشعاراً بأن ذلك أمر محقّق لا يفتقر إلى الذكر والبيان[٥] وفي التعبير بالفاء دلالة أيضاً على أنهم أسرعوا الكرة في هذه المرة[٦].

كيف دخل الإخوة على يوسف هذه المرة؟

لقد دخلوا على يوسف - عليه السلام - هذه المرة دخولا غير معهود في المرّتين السابقتين، فقد تخلّوا عن اعتزازهم بأنفسهم، وذلُّوا لله، ووطّأوا أكنافهم إرضاء لوالدهم، وظهرت عليهم علامات الحاجة والعوز بسبب البضاعة الرديئة التي كانوا يحملونها[٧] وما أن وقفوا بين يديه - عليه السلام - حتى خاطبوه بقولهم:

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٥.
(٢) التفسير المنير/ ١٣/ ٥٤.
(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٦.
(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٩.
(٥) روح المعاني/ ٧/ ٤٤.
(٦) نظم الدرر/ ٤/ ٩٢.
(٧) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٤٤٢-٤٤٣.



«قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» «قالوا» منادين بالأداة التي تنبه على أن ما بعدها له وقع عظيم «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ»(١) وهو استمرار لأسلوب التّلطف الذي كان آخر قولهم له في اللقاء السابق: «قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» وحديثهم الجديد أشدّ تلطّفا(٣) إذ جرى على لسانهم في أول لقاء به «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» وهذا القول لم تجر به عادتهم من قبل، ويدل على مدى الانكسار النفسي الذي لاح على الإخوة في المظهر وفي القول هذه المرة، إن هذه الجزئية «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» تدل من ناحية على المنزلة الرفيعة العالية في نفوس كل الإخوة، ومن ناحية أخرى على أنهم واثقون الثقة كلها بأنهم إنما يخاطبون عزيز مصر وليس أي شخص آخر، وهذا بدوره يدل على أن الكيد للإخوة مُتْقن الحبْكة دقيق التنفيذ، وأنهم كانوا مقتنعين تماما بأن الأمور كلها تسير سيرا طبيعيا(٤).

«مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» وهذا من أبلغ ترقيق وألطف استعطاف(٥) وأرادوا بمسّ الضر إصابته، وقد أطلق لفظ (الضر) على الإصابة كما في قوله تعالى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ»(٦)، (٧)، عن النضر بن عربي قال: بلغني أن يعقوب قال: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ» فخرجوا إلى مصر، فلما دخلوا عليه لم يجدوا كلاماً أرقّ من كلام استقبلوه به فقالوا: «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ»، وعن قتادة قال: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: الضر في المعيشة، قال الإمام الطبري: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: الشدّة من الجدب والقحط(٨).

وقال الإمام برهان الدين البقاعي: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» لابَسنا ملابَسَةً نحسّها(٩)

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٩٢. (٢) يوسف/ ٧٨.
(٣) دروس من سورة يوسف/ ١٦٦.
(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٢٥.
(٥) تفسير الماوردي/ ٢/ ٢٩٨. (٦) الأنعام/ ١٧.
(٧) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٦.
(٨) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٤٩.
(٩) نظم الدرر/ ٤/ ٩٢.

رفع المسيّهما

لقد وصفوا في جملة قصيرة، الوضع الاقتصادي والاجتماعي والنفسي الذي وصلوا إليه بين الرحلتين - الثانية والثالثة -[١].

وهذه الجملة «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» تفيد أن الضر قد أصابهم هم أنفسهم، كما أصاب أهلهم الذين تركوهم في أرض كنعان، ويشمل هذا الشيخ الكبير والنساء والأطفال، وذلك لأن لفظ (الأهل) يشمل الجميع بما فيهم يعقوب - عليه السلام - وتأمل لفظة «الضر» التي جاءت معرفة «بأل» فكأنهم يقولون - والله أعلم -: مسنا وألهنا الضر الذي تعرف، والذي لا يمكن أن يخفى عليك[٢].

وبعد أن وصفوا حالهم السابق اقتصاديا واجتماعيا ونفسياً، ذكروا بعد البرهان العلمي على سوء وضعهم الاقتصادي فقالوا: «وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ»: البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، و«مزجاة» صفة لبضاعة، والإزجاء: السوق بدفع[٣]، فهي بضاعة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً، وكُنِّيَ بها عن القليل أو الردئ، لأنه لعدم الاعتناء به يرمي ويطرح[٤] فهي بضاعة تافهة غير مرغوب فيها بوجه[٥].

وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال:

أحدها - أنها كانت دراهم، رواه العوفى عن ابن عباس.

الثاني - أنها كانت متاعا رثّاً كالحبل والغِرارة[٦] رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس.

الثالث: أنها كانت أقِطّاً[٧] قاله الحسن،

الرابع - أنها كانت نِعالا وأدما، رواه ابن جبير عن الضحاك.

---

(١) دروس من سورة يوسف/ ١٦٧

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٦٧

(٣) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٥٣

(٤) روح المعاني/ ٧/ ٤٤

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٩٢

(٦) الغِرارة بكسر الغين: الجُوالق، واحدة الغرائر، وربما كان معربا

(٧) اللبن المجفف الذي لم ينزع زبده.

رفع المسهم

الخامس - أنها كانت سويق المُقْل(1) روي عن الضحاك أيضاً.

السادس - أنها كانت حبة الخضراء وصنوبر، قاله أبو صالح.

السابع - أنها كانت صوفا وشيئا من سمن، قاله عبد الله بن الحارث(2)،

والملاحظ أن اختلاف هذه الأقوال وتضاربها يجعل من الصعب تعيين المراد بعين هذه البضاعة، لكن يستفاد من ذلك رحمة يوسف - عليه السلام - بالناس، خاصة في حال هذه المجاعة الشديدة التي عمّت الناس وكادت أن تفتك بهم، فإنه - عليه السلام - مع عدالته في التوزيع، وأن لكل طالب للميرة حمل بعير له فقط مهما كان معه من المال، فهو أيضاً لم يشترط نوعا معينا من المال أو ما يُقوَّم به للتبادل، فلم يشترط مثلا أن يكون ذهبا أو فضة، أو دراهم من نوع معين، كما تشترط الدول في العصر الحديث لبيع منتجاتها عملة معينة من العملات الصعبة، بل ترك الناس وقدراتهم وما يملكون ليبادلوا به الميرة، سواء كان ذهبا أو فضة أو دراهم أو أي شيء مما يقوم بمال، وفي ذلك رحمة بهم وتوسعة عليهم في التبادل حتى لا يهلكوا.

وفي المزجاة خمسة أقوال:

أحدها - أنها القليلة، روي العوفى عن ابن عباس قال: دراهم غير طائلة، وبه قال مجاهد، وابن إسحاق، وابن قتيبة، قال الزجاج: تأويله في اللغة أن التزجية: الشيء الذي يدفع به، يقال: فلان يزجي العيش، أي: يدفع بالقليل ويكتَفى به، قال الشاعر:

الواهِبُ المائةَ الهجَان وَعَبْدَهَا *** عُوذاً تُرَجِّي خلفها أطفالها(3)

أي: تدفع أطفالها.

الثاني - أنها الرديئة، رواه الضحاك عن ابن عباس، قال أبو عبيدة:

---

(1) السويق طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة المقلو.

(2) انظر: تفسير الطبري/ 8/ 13/ 50-53، وتفسير ابن أبي حاتم/ 7/ 2191-2192، والدر المنثور/ 4/ 62-63 وتفسير الماوردي/ 2/ 299-300، وزاد المسير/ 4/ 277.

(3) البيت للأعشى في ديوانه: 29 من قصيدة يمدح بها قيس بن معدي كرب.



إنما قيل للرديئة: مزجاة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها، قال: وهي من الإزجاء، والإزجاء عند العرب: السَّوْق والدفع، وأنشد:

لِيَبْكِ على ملحان ضيف مدَفَّع *** وأرملةٌ تُزجى مع الليل أرْمَلاَ(١)

أي: تسوقه.

الثالث - الكاسدة، رواه الضحاك أيضا عن ابن عباس.

الرابع - الرَّثَّة، وهي المتاع الخَلَق، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس.

الخامس - النّاقصة، رواه أبو حصين عن عكرمة(٢)

وهذه الجزئية «وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ» كما أنها وثيقة الصلة بالضرّ، لأنها مظهر من مظاهره، هي كذلك توطئة ضرورية للجزئية التي أتت بعدها مباشرة، والتي تمّ فيها طلب الطعام بشكل صريح(٣).

فكأن الإخوة يقولون له - عليه السلام - نحن نعرف أن بضاعتنا قليلة القدر، ونعترف بذلك، وهنا يبدو جانب الصدق بعد أن ظهر جانب الضر(٤)، فبضاعتهم لا تساوي ما يطلبون في مقابلها، إنهم يرجونه - عليه السلام - ألا يؤثر كون البضاعة رديئة في التقليل من الكيل الذي كان يكيله لهم في المرتين السابقتين ولهذا فقد سبّبوا عن هذا الاعتراف - لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم - قولهم:

«فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» أي: فأتِمَّهُ شفقة علينا بسبب ضعفنا(٥) فتقبّل منا البضاعة المزجاة، وبع لنا بها كما تبيع بالدراهم الجياد، لا تنقصنا بمكان دراهمنا، هذا قول أكثر المفسرين(٦).

«وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي: تفضل علينا بما بين سعر الجياد - من الدراهم - والرديئة، قاله

---

(١) البيت في اللسان «رمل» انشده ابن بري شاهداً على أن الأرمل: المرأة التي لا زوج لها.

(٢) زاد المسير/ ٤/ ٢٧٨.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٢٨.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٦٧.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٩٢.

(٦) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٥٤.



سعيد بن جبير، والسّدي، والحسن، لأن الصدقة تحرم على الأنبياء - كما سبق - إنهم يطلبون منـه معروفا «كل معروف صدقة»(١) ولم يطلبوا صدقة بمعنى السؤال، إذ السائل لا يقدم بين يديه شيئا يطلب به، ولكنهم رغبوا منه في أن يتجاوز عنهم هذه المرة نظراً لسوء الحال وشدة العسر والضيق، ولو أنهم كانوا يملكون الدراهم الجيدة ما وقفوا منه هذا الموقف، بل ولعل أوضاعهم لو تحسنت لقابلوا معروفه بمعرف أعظم، وكيف لا وهم أولاد نبي ورسول كريم.

«إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» وهذه الجملة تعليل لاستدعائهم التصدق عليهم(٢) والمعنى أن الله تعالى يخلف ما ينفقون في الدنيا، ويضاعف لهم الثواب على ما أنفقوا في الآخرة، ولم يقولو: «إنّ الله يجزيك» لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن. قال النّقّاش: قال: هو من المعاريض، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكا كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل(٣).

لكنّ الدكتور حسن محمد باجودة يقول: ولا ننسى أن المقصود الأول من هذه الجزئية على لسان الإخوة «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» هو يوسف نبي الله، وكأن الإخوة يخاطبون على عِلْم، واحدا من أتباع الشريعة الإبراهيمية، لأنه لاح لهم، كمال دين، وعظم خلق، في أحسن الصور التي يلوح فيها هؤلاء الأتباع، فكان خطابهم له خطاب خير ممثل لهذه الشريعة ممّن اعتادوا مخاطبتهم، وأثبتوا أنهم ألمَعِيُّون حقا(٤).

وإنا لنتبيّن في هذه الجزئية «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» صفاء روحيا يمثل مرحلة متطورة من المراحل التي مربها الإخوة من قبل، وبالإضافة إلى أنها تصور صفاء الإخوة

---

(١) رواه أحمد من مسنده، والبخاري في صحيحه عن جابر، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود عن حذيفة، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٥٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٤٧.

(٣) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٦٦-٣٦٧.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٣٢.



الروحي، فهي تعكس الصفاء الذي استفادوه من والدهم والذي تبيّنوه في نفس العزيز، ذلك الصفاء غريب الوجود من مثل ذلك المجتمع الذي فيه العزيز، لقد شعر الإخوة بانجذاب روحي إلى شخصية العزيز، والذي ساعد على ذلك اتجاه الإخوة السريع إلى الخير والصلاح، وارتفاع درجة الصفاء الروحي فيهم، وقد ساعد على تبلوره في هذه الصورة ذلك الغيض من فيض تواضع نبي الله يوسف وخلقه العظيم، ومن هنا جاز لنا أن نتبيّن نوعا من شبه بين الصفاء الروحي الذي يشعّ بدرجة معينة من كلام الإخوة، والذي يشع بدرجة كبيرة جدا من كلام نبي الله يعقوب ويوسف - عليهما السلام -(١). وما أشبه استعطاف الإخوة ليوسف باستعطاف ذلك الضّبّي لعبد الملك بن مروان إذ قال:

والله ما ندري إذا ما فاتنا *** طلب إليك مَنِ الذي نطلُب؟

فلقد ضربْنا في البلاد فلم نجدْ *** أحدا سواك إلى المكارم يُنْسَبُ

فاصبر لعادتنا التي عودتنا *** أو، لا، فأرشِدْ إلى من نَذْهبُ؟

هل يجوز أن يقول الرجل في دعائه: «اللهم تصدّق عليّ»؟

سئل مجاهد، هل يُكْرَه أن يقول الرجل في دعائه: «اللهم تصدّق علي»؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبغي الثواب، وعن زيد بن جابر عن عبد الرحمن الطويل قال: جاء رجل إلى عمر بن العزيز فقال: تَصَدَّقْ عَلَيَّ تَصَدَّقَ الله عليك بالجنة يا أمير المؤمنين، فقال: ويْحَك، إن الله لا يتصدق ولكن يجزي المتصدقين(٢).

وقفة تذكر وتأمل:

سبحان الله، مالك الملك، ومدبر الأمر، وهو العليم الحكيم...

كان إخوة يوسف - عليه السلام - يتفاخرون في الماضي البعيد بأنهم عصبة أولوا قوة وبأس شديد، وأنه لا يصح في التصرفات الحكيمة العادلة أن يرجح أباهم يعقوب حب يوسف وأخيه بنيامين عليهم، فهم عشرة أفراد، هم عصب الأسرة اليعقوبية

---

(١) المرجع السابق/ ٣٣١-٣٣٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٣-٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٩٣، والدر المنثور/ ٤/ ٦٣.



وعمادها المتحملين لأعبائها وأثقالها، أما هذان الصغيران - يوسف وأخيه - فإنهما لا يقومان بشيء من هذا؛ بل هما كَلٌّ على الأسرة، وهما في حاجة إلى من يرعى شئونهما ويعني بهما ويحميهما، فكيف يكونان بعد ذلك أحب إلى أبيهم منهم[1] لقد نظروا إلى المسألة نظرة عقليّة صِرْفَة، إنهم يجعلون يوسف وأخاه في كفّه، وهم جميعا في كفة أخرى، ومن زاوية هذه النظرة العقلية، هم يستحقّون ما لا يستحق يوسف وأخوه، إن يوسف وأخاه اثنان، وهم عشرة والعدل في نظرهم يقضي بألا ينال الإثنان ما ينال العشرة، فكيف إذا كان نصيب الإثنين أكثر من نصيب العشرة[2].

ثم كانت المؤامرة على يوسف - عليه السلام - حيث حقدوا عليه وحسدوه والقوه مهملا كالشيء المستغني عنه في الجب، وظنوا أنهم من بعده سيخل لهم وجه أبيهم، ولكن لم يحدث ذلك بل أعرض عنهم ورماهم رمية حامية شديدة، بإظهار أسفه الشديد على يوسف، فأصبح مشغولا يحب بنيامين الحاضر، وبذكرى يوسف الغائب، ولم تصلح لهم أمور حياتهم، بل على العكس صاروا كالمكروهين من أبيهم.. إلى أن ضيق عليهم واضطروا للذهاب إلى مصر للحصول على القوت الضروري لهم من بين يدي أخيهم الطريد المشرّد وهاهم الآن يقفون بين يديه في ضعف وذلة وانكسار، حتى بلغ بهم الأمر أن يقولوا له: «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ».

لقد حاق المكر السئ بأهله فصاروا على ما هم عليه الآن، أما يوسف-عليه السلام- وهو المحسن في كل أعماله، فقد صار عزيزاً لمصر، ووكيلا عن مليكها، فَالهُوَّةُ التي بينه وبينهم عميقة جدا، وهم بعيدون عنه، وهو بعيد عنهم بُعْدَ الثُّرَيّاَ عن الثّرى، وبعد الإبريز الوهّاج عن البرا - التراب -:

سارت مشرقة وسرت مغربا *** شتان بين مشرق ومغرب[3]

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٤٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ١٣٦.

(٣) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٢١٠-١٢١١.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما دخل الإخوة على يوسف - عليه السلام - هذه المرة - الثالثة - وهم في حالة ضَعْف وانكسار وعوز، ووقفوا بين يديه قالوا له: يا أيها العزيز لحقنا وأهلنا الفاقة والضرّ، ولسنا نملك ثمنا للقمح الذي نريد إلا هذه البضاعة المزجاة القليلة القيمة، والتي لا تساوي ما نطلب في مقابلها، لكن الأمل في كرمك بعد الله، لا في الثمن القليل الذي معنا، فأعطنا ما عوّدتنا من كيل واف كنت تكيله لنا سابقاً، وتفضل علينا بالفرق بين ثمن البضاعة وثمن ما تكيل لنا، إن الله يثيب المتفضّلين على أهل الحاجة بأموالهم في الدنيا والآخرة.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تقلُّب الناس بين السّراء والضّراء ابتلاء من الله تعالى.

٢ - تقديم الوسائل على المآرب فإنها أنجح لها وتيسير لبلوغها.

٣ - جواز شكوى الحاجة لمن يُرجى منه إزالتها، مع الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى من وراء كل شيء، وأن الذي يُرجى منه ذلك ما هو إلا سبب أراده الله لكشف الضر.

٤ - الحث على الإحسان، فإن الله تعالى يجزي المحسن أحسن جزاء في الأولى والاخرة، وإن لم يجزه المحسَنُ إليه.

٥ - دلّ مظهر الإخوة وقولهم على أنهم طرحوا الكبر، وَصَفَتْ نفوسهم من كل حقد، وأصبحوا عباداً لله صالحين.

٦ - جواز طلب الزيادة على الحق على سبيل التفضل وفعل المعروف.

٧ - ثقة الإخوة المطلقة في كرم العزيز وإحسانه.



«الآية التاسعة والثمانون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» الجهل على ثلاثة أضرب، الأول - هو خُلُوُّ النَّفس من العلم، هذا هو الأصل. الثاني - اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. الثالث - فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمداً، وعلى ذلك قوله تعالى: «قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّه أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»(١) فجُعِل فعل الهُزُوِ جهلا، وقال عز وجل: «فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ»(٢).

والجاهل تارة يذكر على سبيل الذمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذمّ، كقوله تعالى: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ»(٣) أي: من لا يعرفُ حالهم، وليس يعني المتخَصِّص بالجهل المذموم(٤). ومعنى «إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» أي: قُبْحَ أو عاقبة فعلكم فأقدمتُم عليه(٥).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»

قال فعل وفاعل ضمير مستتر يعود على يوسف، و(هل) حرف استفهام، و(علمتم) فعل وفاعل، و(ما) اسم موصول مفعول به، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية، أي: فِعْلُكُم بيوسف، والجار والمجرور - بيوسف - متعلقان بـ(فعلتم) وأخيه عطف على يوسف، وإذ ظرف متعلق بـ(فعلتم) أي: فعلتم ذلك وقت جهلكم، وأنتم

---

(١) البقرة/٦٧. (٢) الحجرات/٦. (٣) البقرة/٢٧٣.

(٤) المفردات (حرف الجيم) ١٠٢.

(٥) التفسير المنير/١٣/٥٤.



مبتدأ، و(جاهلون) خبر، والجملة الإسمية مضاف إليها الظرف، والاستفهام يفيد التعظيم والتهويل[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه «الدرويش» ٤٧.

رفع
المسيهم

سادساً - التفسير والبيان:

«يوسف - عليه السلام - ينبئ إخوته بأمرهم معه»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وجه المناسبة:

فلما رأى يوسف – عليه السلام – أن الأمر بلغ الغاية ولم يَبْقَ شيء يتخوّفه، عرفهم بنفسه، فاستأنف تعالى الإخبار عن ذلك بقوله حكاية:

«قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...»(١)

وتحقق وعد الله تعالى ليوسف - عليه السلام -:

وقبل الانتقال إلى جواب يوسف – عليه السلام –، في هيئة السؤال التقريري المفاجئ للإخوة، الدال على طيب نفس يوسف وطهر قلبه، وصفاء روحه، ونقاء معدنه، ولطف تعبيره، نتلوا هذه الآية الكريمة التي يشير الله تعالى فيها إلى إيحائه ليوسف الغلام آنذاك، بأنه سينبئ هؤلاء الإخوة بأمرهم هذا، قال الله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ»(٢) لقد تحقق وعد الله تعالى ليوسف – عليه السلام – وها هو يقوم الآن بتذكير الإخوة بأمرهم(٣).

ولكن؛ لماذا الآن؟

إن آخر حديث للإخوة مع يوسف – عليه السلام – في الآية السابقة، كان يحمل كل معاني التوبة إلى الله والرجوع إليه والتبرّؤ من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته(٤) لقد رأى يوسف من حال إخوته البائس الحزين ما أصاب أهله من ضرّ، فيرقّ لإخوته، ويفيض قلبه رحمة بهم، وقد تبين له أنهم قد جاءوا هذا المرة وهم قابلين للانقياد

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٩٣. (٢) يوسف/ ١٥.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٦٧.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٦٨.



النهائي إليه وإلى أبيه، وأن الله تعالى سيمكنه منهم، فقد أثمرت الدروس التي تلقوها على يد يوسف - عليه السلام - وعلى يد أبيه، فآنَ لهذه الدروس أن تنتهي بعد أن بلغ الأمر الغاية، ولم يبق شيء يتخوفه منهم - عليه السلام - وآن الأوان بإذن الله تعالى أن يكشف لهم عن حقيقة نفسه. وأن يتوقف عن تمثيل دور العزيز والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال لتمتلئ قلوبهم دفئا بالخبر المسعد، والرجاء العظيم، وذلك حين يعلمون أن العزيز الذي يقفون بين يديه والذي تحت يده خزائن الأرض، إنما هو أخوهم يوسف.

حكمته - عليه السلام - في طريقة إلقاء الخبر العظيم على الإخوة:

قدّر - عليه السلام - أن هذا الخبر إذا ألقى إليهم في غير حكمة كان وقعه شديدا عليهم، ربما صُعِقوا له، ولهذا فهو يدخل عليهم بهذا الخبر بتلك المقدمة التي تشبه الاستئذان على أهل الدار قبل الدخول عليهم ومباغتتهم على غير استعداد(١) وهذا الخبر يتضمّن تذكير الإخوة بأمرهم معه ومع أخيه بنيامين، ولكن بأي الطرق يقوم بذلك، وبعبارة أخرى: ماذا ينُتظر من الكريم نبي الله يوسف أن يقول لإخوته؟ وفي أي صورة من صور التّعيين سيقوم هذا الإنسان النبيل بتنبيه إخوته إلى الجريمة التي ارتكبوها بحقه... إنهم الآن النهاية في الضعف، وهو النهاية في القوة، فما هو فاعل بهم؟

فلنتأمل في هدوء لطف تعبير يوسف - عليه السلام - في مخاطبته لإخوته، وطريقته الليّنة في التنبيه، الملطّفة من السقوط المفاجئ للمعرفة بأن الذي أمامهم يوسف، كان اهتمامهم محصورا في الطعام ويتوقعون أن يكون جواب العزيز المتعلق بالطعام بالإيجاب، وإذا بهم يفاجأون بحرف الاستفهام

«هل»، يأتي بعد ذلك في صيغة الماضي الفعل اللطيف الوقْعِ من جملة

---

(٥) انظر: القصص القرآني منطوقه ومفهومه/ ٤٨٠.



«علمتم»(١) وفجأة يرنّ في أسماعهم

«مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ». وينظر الإخوة بعضهم إلى بعض، كيف جاء ذكر يوسف على لسان العزيز؟

وبهذا التحديد: ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ لقد كان آخر ما قاله أبوهم يعقوب - عليه السلام - «يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ»(٢) جملة قيلت في فلسطين من الأب، يسمعون قريبا منها أول وصولهم مصر، «يوسف وأخيه» هناك، و«يوسف وأخيه» هنا، وهناك يقول لهم يعقوب - عليه السلام - «وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» وهنا يتابع العزيز كلامه فيقول لهم:

«إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ»(٣) وهذا من شدة بره بهم وعطفه عليهم، حتى لا يكون التماس العذر حائلاً دون توبتهم(٤).

لقد أتاهم - عليه السلام - من جهة الدين وكان حليما موفقا، فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قُبْحَ «مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه، يعني هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبْح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يَجُرّ إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم، وتنصيحا لهم في الدين، لا معاتبة وتثريبا، إيثارا لحق الله تعالى على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفّس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفّى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها - أرفقها -، ولله حصي عقولهم ما أرزنها وأرجحها قال أحمد-رحمه الله-: ومن تلطفه بهم قوله: «إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» كالاعتذار عنهم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يَلْفَواْ عذرا كهذا؛ ألا ترى أن موسى - عليه السلام - لما اعتذر عن نفسه لم

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) يوسف/ ٨٧.

(٣) دروس من يوسف/ ١٦٨.

(٤) يوسف بن يعقوب/ ٤٤٥.



يزد على أن قال: «فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ»(١)، (٢) والصحيح أن يوسف - عليه السلام - قال لهم: «إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» تأنيسا لقلوبهم وبسْط عذر، كأنه قال: إنما أقدمكم على ذلك الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور، وكأنه لقّنهم الحجة، كقوله تعالى: «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ»(٣) أي: يقول العبد: يارب غرّني كرمك(٤) فلم يكن قوله لهم تشفّيا، بل حثٌّ على الإقلاع ونصح لهم لما رآى من عجزهم وتمسكنهم ما رآى، مع خَفِيٍّ معاتبة على وجود الجهل وأنه حقيق الانتفاء في مثلهم، فلله تعالى هذا الخلق الكريم، كيف ترك حظه من التشفّي إلى حق الله تعالى(٥) إن خلقه الكريم - عليه السلام - لم يكن ليسمح له أن يستعرض تلك الحوادث الماضية، التي أدْمَت القلوب وفجعت المنكوبين، ولا لمحاسبتهم حساب الملائكة للميت في قبره، ولكنه ألمح لهم عتابه عليهم في لطف ورقة بالغين، فما كان يجدر بذوي الرحم أن يفعلوا ما يدنّس سمعتهم(٦) لقد كان توجيه السؤال منه - عليه السلام - لهم بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة(٧) وهذا ما حدث منهم بعد ذلك حيث قالوا له: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ».

ومع هذا العتاب الرقيق فقد مدحهم في عين الوقت، حيث نسب جهلهم إلى الماضي وجعله مما يضاف إليه «إذْ» وهي تضاف لما حصل في الماضي، وذهب، فكأنه قال لهم: ولكن أنتم الآن عاقلون عاملون، والعبرة بالحاضر لا بالماضي لقد كان توجيه السؤال لهم «هَلْ عَلِمْتُم... الخ» بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة، وهذا ما حدث منهم بعد ذلك وفي نفس الموقف حيث قالوا: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ».

---

(١) الشعراء/ ٢٠.
(٢) تفسير الكشاف (حاشية السيد الشريف) ٢ / ٣٤١.
(٣) الانفطار/ ٦. (٤) تفسير البحر/ ٥ / ٣٣٧.
(٥) روح المعاني/ ٧ / ٤٥.
(٦) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ١١٩٢، ١٢٠٠.
(٧) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٧٧.

رفع المسابهم

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد ما قال الإخوة ليوسف – عليه السلام – ما قالوا. رقَّ لهم قلبه، وعلم أن الأوان قد حان ليعرّفهم بنفسه، فقد بلغ الكتاب أجله وأذنَ الله تعالى له بذلك، فتلَطَّف – عليه السلام – في إلقاء الخبر العظيم عليهم، وكان حليما موفقاً، فقال لهم: «هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» من إلقائه في الجب وتركه هناك ليهلك، وما فعلتم بأخيه (بنيامين) بتفريقكم بينهُ وبين أخيه وجفائكم له، حينما كنتم جاهلين، وقال ذلك تأنيساً لقلوبهم وبسط عذر لهم قبل أن يعتذروا، فكأنه قال: إنما أقدمكم على ذلك الفعل القبيح جهالة الصِّبا أو الغرور، وكأنّه لقَّنهم الحُجَّة، كقوله تعالى: «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» أي: يقول العبد: يا ربي غرني كرمك، وإن كان يُشْتمُّ من قوله عتاب رقيق لهم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ – الله تعالى لا يخلف وعده، وقد جاء وعده ليوسف كما أخبره بالوحي الإلهاميّ وهو غلام.

٢ – الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قد علوا على الناس بأخلاقهم العظيمة، ولقد قال تعالى لرسوله محمد – ﷺ – «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

٣ – تلَطُّف يوسف – عليه السلام – بإخوته ورفقه بهم حين ألقى الخبر العظيم عليهم.

٤ – العفو والصفح عن المسيء يؤديان إلى أعظم النتائج المرجوّة.

٥ – دفْع السَّيئة بالحسنة يحوّل العدو صديقا حميما.

٦ – صلة القربى تقتضي المبادرة إلى التسامح والتحابب.

٧ – تَلْقِينُ العذْر للمسيء خلق جميل من أخلاق الأنبياء.



«الآية التسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾

ثانياً - القراءات:

«قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ» قرأ الجمهور «أئِنَّكَ» على الاستفهام، وذكر أن ذلك في قراءة أبي بن كعب، ومعناه: الإلزام والإثبات، لأنه لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُم» الآية، عرفوا أنه يوسف. وقرأ قتادة وابن محيْصن وابن كثير وأبو جعفر «إنّك» على الخبر بغير استفهام، قال الإمام أبو حيان: ويبْعُد حمله على الخبر المحض، وقال الإمام الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا، قراءة من قرأه بالاستفهام، لإجماع الحجة من القراء عليه.

«إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ» قرأ الجمهور: «مَنْ يَتَّقِ ويصبر» وقرأ ابن كثير وقنبل (يَتَّقِي) بإثبات الياء، وأحسن الأقوال في توجيه هذه القراءة أنْ يكون «يتَّقِي» مجزوما على لغة وإن كانت قليلة[1]

ثالثاً - اللغة:

«قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا» منن: المنُّ ما يوزن به، يقال: مَنٌّ ومَنَّان وأمْنَانٌ، وربّما أبْدل من إحدى النونين ألفٌ فقيل: مَناً وأمْنَاءٌ، ويقال لما يُقَدَّرُ ممْنُونٌ كما يقال موزونٌ، والمنَّةُ: النعمة الثقيلة، ويقال ذلك على وجهيْن: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل فيقال: مَنَّ فُلاَنٌ على فلان إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ»[2] وقوله تعالى: «كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ»[3] «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ»[4] وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى.

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٥، وتفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤١، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٣٧، والدر المصون/ ٦/ ٥٥١، والفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ٩٦-٩٨.

(٢) آل عمران/ ١٦٤. (٣) النساء/ ٩٤. (٤) الصافات/ ١١٤.



والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستَقْبَح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المنّةُ تهْدِمُ الصنيعة، ولحسن ذكْرِها عند الكفران قيل: إذا كُفرَتْ النّعمةُ حَسُنَت المنّة، وقوله تعالى: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»(١) فالمنّةُ منهم بالقول، ومنّةُ الله عليهم بالفعل وهو هدايته إياهم(٢). ومعنى «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» أي: بالخلاص ورفعة القدر، اعترف بفضل الله تعالى عليه وعلى أخيه(٣).

رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ» قالوا فعل وفاعل، وأئنّك، الهمزة للاستفهام التقريري، وإنّ واسمها واللام المزحلقة، وأنت مبتدأ، ويوسف خبر، والجملة خبر (إن) ويجوز أن يكون الضمير - أنت - فصلا.

«قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» أنا مبتدأ، ويوسف خبر، وهذا مبتدأ، وأخي خبر، وقد حرف تحقيق، ومنّ فعل ماض، والله فاعل، وعلينا متعلقان بـ(من) والجملة حالية.

«إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» إنه إن واسمها وهو ضمير الشّأن والحال، ومَنْ اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، ويَتّقِ فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حرف العلة، ويصبر عطف عليه، فإن، الفاء رابطة للجواب، وإنّ واسمها، وجملة لا يضيع، خبرها، وأجر المحسنين مفعول به، وجملة الشرط وجوابه خبر إنّ(٤).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الحجرات/١٧.

(٢) المفردات (كتاب الميم) ٤٧٤.

(٣) زبدة التفسير/ ٣١٦-٣١٧.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥/ ٤٧-٤٨.



سادساً - التفسير والبيان:

«نعم أنا يوسف وهذا أخي»

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾

وجه المناسبة: ولما كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال العارفِ بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية، إذ يبعُد أن يعرف هذا سواه، فأرادوا أن يتثبّتوا من ذلك ويستيقنوا به، فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجّب المستغرب لما يسمع.

«قالوا أإنك لأنتَ يُوسُفُ»(١)

وبما أنه لم يكن هناك مخلوق سوى يوسف - عليه السلام - على علم بوضع يوسف في غيابة الجب، وبالتالي لا يمكن أن يصدر كلام كهذا «هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» إلا من يوسف، لذلك كان هذا السؤال على لسانهم «أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ» طبيعيا جدا، ومع أنهم لم يكونوا ليخطر على بالهم أن العزيز الذي يخاطبونه هو أخوهم يوسف، إلا أنهم مهيئون من الوجهة النفسية، بسبب الأمل الكبير الذي ألقاه في روعهم والدهم، لأن يقْتَنِصُوا الشاردة والواردة مما له علاقة بأخيهم يوسف، فكيف إذا سمعوا كلاما لا يمكن أن يصدر إلا منه، لذلك لم يكن غريبا أن يوقن الإخوة بأن الذي يسألهم في هيئة الاستفهام الإنكاري «هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ» هو يوسف أخوهم، فليس هناك من دليل أبلغ من هذا(٢) فقد أعطاهم - عليه السلام - علامة بينه وبينهم لا يعلمها إلا هو، إذ أشار إلى فعلتهم معه(٣).

وهكذا تصاعد الموقف ليصل إلى قمته، فقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم هو أخوهم

---

(١) تفسير المراغي / ٥ / ١٣ / ٣٣.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٤٤٥.



يوسف ولا يمكن أن يكون إلا هو[١] فقولهم «أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ» يدل على أنهم استشعروا من كلامه - عليه السلام - ثم من ملامحه، ثم من تَفَهُّم قول أبيهم لهم «وأعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون» إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريدا نفسه[٢] فهذا الاستفهام الذي أدخلوه على جملة تعتبر قمة في التوكيد «أئنَّكَ لأنتَ يوسف» قد جاء لطرد ما سقط على أنفسهم من غرابة المفاجأة، والجملة التي أتت بعد همزة الاستفهام تعكس يقين الإخوة المطلق من أن الذي يخاطبهم هو أخوهم يوسف، وليس سواه، وأصل الجملة «إِنَّكَ يُوسُف» ولا يخفى أنَّ «إِنَّ» تفيد التوكيد، ولكن الجملة تضمنت الضمير المنفصل (أنت) الذي يفيد التوكيد، لا، ليس ذلك فحسب، بل إن لام التوكيد نفسها دخلت على الضمير المنفصل الذي تلك صفته، فليس القصد من الاستفهام التَّثبّت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة[٣] فتأكيد الجملة بـ(إن) ولام الابتداء وضمير الفصل لشدّة تحققهم أنه يوسف - عليه السلام - وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم تَطَلَّبوا تأييده لعلمهم به[٤] فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير[٥] وقد عجبوا من أنهم يتردّدون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكتم نفسه[٦].

ولما كان من المتوقع من مثله - عليه السلام - فيما هو فيه من العظمة أن يجازيهم على سوء صنيعهم إليه، استأنف بيان كرمه فقال[٧]

«**قَالَ أَنَا يُوسُفُ**» كان يكفي في الجواب أن يقول: نعم، ولكن قال أنا يوسف للتّنصيص على المقصود، ولإبراز المقصود باسمه الذي يتلذّذ بسماعه كما يتلذذ به وبرؤيته[٨]. وتعظيما لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر[٩].

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه/ ٤٨١. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٨.
(٣) يوسف بن يعقوب/ ٤٧٢. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٤٩.
(٥) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٢٧. (٦) تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٣٣.
(٧) نظم الدرر/ ٤/ ٩٣. (٨) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٧٢.
(٩) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٨.



وكان - عليه السلام - قد أخفى بنيامين عنهم، لأنهم لو رأوه مع العزيز من أول الأمر، لأثار ذلك لديهم تساؤلات كثيرة، إذ كيف بالمتهم بالسرقة الذي وجد صواع الملك في رحله أن يكون مع العزيز في هذا العز والشرف، مع أن المفترض أن يكون في الحبس أو العمل الشاق - ثم أظهره لهم فجأة وقال:

«وَهَـٰذَا أَخِي» وأضاف - عليه السلام - في جوابه ذكر أخيه مع أنهم لم يسألوه إلا عن نفسه، مبالغة في تعريف نفسه وتفخيماً لشأن أخيه(١)، ولأن الاستفهام التقريري «هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» كان عن يوسف وأخيه معا(٢) ولأن في ذكر أخيه زيادة بيان وإيضاح لما سألوه عنه(٣) فلا يتوهم الاشتراك في الاسم وأنه يوسف آخر؛ بل إنه يوسف أخو هذا الذي تعلمون(٤) وأيضاً لأن في ذكر أخيه توطئة لما ذكر بعد من قوله:

«قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا»(٥)

فكأنه - عليه السلام - يقول: أنا يوسف الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه، والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله وإلقاءه في البئر، ثم صرتُ كما ترونْ(٦) وهذا أخي الشقيق الذي فرقتم بيني وبينه وظلمتموه، ثم أنعم الله عليه بما تبصرون(٧) «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» إذ تفضل علينا فجعل كل بلاء طلبتموه لنا نعمة علينا، وشملنا عز وجل برعايته في كل ما دبّرتموه لنا من سوء، وعافانا مما ابتليتم به، وخلّص لنا الخير كما خلص اللبن السائغ من بين فرْث ودم، ووهبنا الملك والسلطان والقوة والحكمة، وصرّفنا في خزائن الأرض(٨).

---

(١) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٣٠٤.
(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٧٢-٤٧٣.
(٣) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٢.
(٤) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٧٢.
(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٧. (٦) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٨.
(٧) تفسير المراغي/ ٥/ ١٣/ ٣٣. (٨) يوسف بن يعقوب/ ٤٤٥-٤٤٦.



وما تقدم يندرج تحت قول ابن عباس: «قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا» بكل عز في الدنيا والآخرة(١) إن الله تعالى أثاب يوسف - عليه السلام - وأخيه بنيامين على إحسانهما، ولكنه - عليه السلام - يتأدب في التعبير فيشير إلى أن ما أنعم الله به عليهما ما هو إلا منَّة امتن الله بها عليهما(٢) فردّ الفضل في ذلك إلى الله سبحانه - وهو الحق فكل نعمة مصدرها الله المنعم الكريم، ثم ينتقل - عليه السلام - إلى قاعدة عامة هي سبب الخير على امتداد الزمان والمكان فيقول(٣):

«إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»

وهذه الجملة تعليل لجملة «قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا» فيوسف - عليه السلام - اتقي الله وصبر، وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيّا، أراد - عليه السلام - تعليم إخوته وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثّهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم(٤).

فهذه العبارة العامة «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ... الخ» يفهمها الإخوة بالضرورة على أنها تنبيه لطيف من يوسف - عليه السلام - لهم بأنهم أثناء فعلهم به وبأخيه ما فعلوا، لم يكن لهم نصيب من التقوى والصبر، فجازاهم الله على صنيعهم، لأنهم لم يكونوا وقتها من المحسنين، فإنهم لم يصبروا ولم يحاولوا أن يعلموا، وقد استزلهم الشيطان فزين لهم الكيد ليوسف أول الأمر، وإساءة المعاملة لشقيقه بعد ذلك(٥). فكأنه - عليه السلام - يقول لهم:

ألا ترون أنكم كنتم دائما تسعون إلى طردنا من بيت أبينا...

والآن تتمنّوْن الإقامة عندنا، وها هم الناس يبجلونكم لانتمائكم إلينا،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢١٩٣.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٧٥.

(٣) دروس من سورة يوسف / ١٦٨-١٦٩.

(٤) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٤٩.

(٥) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٧٧.



فسبحانك تعز من تشاء وتذلّ من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، والآن تعلمون أن اتهامكم لأبيكم كان باطلا، وكيف تتهمونه - عليه السلام - بما من الله تعالى به علينا؟ فما فضّل والدنا في الحقيقة ولا قدم إلا من قدمه الله عز وجل...

ألا ترون أنكم قد جنّدتم كل ما عندكم من قوة وحيلة للخلاص منا، فما زادنا الله تعالى إلا تثبيتا، ألم تكونوا تتفاخرون دائما علينا بأنكم عصبة وتزدرون بشأننا وتحطون من قدْرنا، وها أنتم ترون الآن من الذي آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ومما لم تؤت عصبتكم عشر معشاره - ولا أقل من ذلك - وهذا مع الاقتدار عليكم والتمكن منكم، وها أنتم قد قصدتمونا فيمن يقصدنا التماسا لنجدتنا وكرمنا، ولكنا لا نسخر نعمة الله تعالى في الإيذاء وقطيعة الرحم، بل نصل ما أمر الله تعالى به أن يوصل ابتغاء مرضاة الله لا نرجو جزاء ولا شكورا...،

لقد وجد الإخوة أنفسهم يقفون أمام أخيهم يوسف - عليه السلام - وقفة الرعيّة أمام راعيها... إنهم ينظرون إليه الآن نظرتين: نظرة باعتباره أخوهم يوسف الذي سعوا في هلاكه، ونظرة باعتباره العزيز صاحب الحول والطول(١) وهذه الجزئية «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ...» يدخل فيها يوسف وأخوه ضمنا، وإن كان حظه - عليه السلام - كبيراً، فهو الذي صبر على فعل إخوته واحتسب، ولكل ما جرى له مع النسوة وفي السجن وهكذا، وهو الذي التقي الله في كل مناسبة(٢).

والرباط وثيق بين التقوى والصبر، وهما جناحا الإحسان، وقد جمع الله بين التقوى والصبر في مواطن كثيرة، من كتاب الله تعالى، منها قوله جل شأنه: «وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا»(٣) وقوله عز ذكره: «وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ»(٤).

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٦-٤٧.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٧٦.

(٣) آل عمران / ١٢٠. (٤) آل عمران / ١٨٦.



هذا، وذكر المحسين في قوله: «فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أجرَ الْمُحسِنِين» وضعٌ للظاهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: إن الله لا يضيع أجرهم، فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه، ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لأنه من التبليغ، كقول النبي - ﷺ «إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به»(١)، (٢) كما أن في وضع الظاهر موضع الضمير، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر؛ موصوفون بالإحسان(٣)، ولكلّ أجره على قدر صبره وتقواه، ولا يُحسن العمل إلا من كان في كل أعماله مشاهداً لله تعالى كانه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله عز وجل يراه، والآن... فقد استشعر الإخوة الندم على ما كان منهم، وأنهم كانوا على طريق ضال في الكيد الذي كادوه لأخيهم يوسف - عليه السلام(٤) ولابد أنهم قد فهموا تماما هذا الدرس الأخير الذي ألقاه عليهم أخوهم يوسف - عليه السلام - فقد كان عبقريا وحكيما، إذ اغتنم الفرصة السانحة لإلقاء الموعظة - عليهم حالة تأثرهم وانفعالهم بما يسمعون، مع ظهور شواهد صدقه فيما ألقاه عليهم(٥).

يوسف - عليه السلام - لم يعرف إخوته بنفسه إلا بإذن الله تعالى:

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف - عليه السلام - إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأولَيَيْن بأمر الله تعالى له في ذلك - والله أعلم(٦) ولعله إنما ستر أمره عنهم إلى هذا الحد، لأنه لو أرسل إلى أبيه يخبره قبل الْمُلْك لم يأمن كيد إخوته، ولو تعرف إليهم بعده أو أوّل ما رآهم لم يأمن

(١) من حديث صحيح متفق عليه، البخاري / ٩ / ٨٩، ومسلم (١٤٠١) روياه عن أنس.
(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٤٩.
(٣) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٩٣-٣٩٤.
(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٨١.
(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٤٩.
(٦) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٨٩.



أن تقطع أفئدتهم عند مفاجأتهم بانكشاف الأمر وهو فيما هو فيه من العز ، فإنهم فعلوا به فعل القاتل - أو أقرب - من غير ذنب قدمه إليهم ، فهم لا يشكون في أنه إذا قدر عليهم يهلكهم لما تقدم لهم إليه من سوء الصنيعة ، وعلى تقدير سلامتهم لا يأمنونه وإن بالغ في إكرامهم ، فإن الأمور العظام إن لم تكن بالتدريج عظم خطرها ، وتعدى ضررها ، فإن أرسلهم ليأتوا بأبيهم خيف أن يخدعوا أباهم ويخوفوه من ملك مصر ويحسّنوا له الإبعاد عن بلاده ، فيذهبوا إلى حيث لا يعلمه ، وإن أرسل معهم ثقات من عنده لم يؤمن أن يكون بينهم شر ، وإن سجنهم وأرسل إلى أبيه من يأتي به لم يحسن موقع ذلك من أبيه ، ويحصل له وحشة بحبس أولاده ، وتعظُم ، القالة بين الناس من أهل مصر وغيرهم في ذلك ، ففعل معهم ما تقدم ليظهر لهم إحسانه وعدله ودينه وخيره ، وكفّه عنهم وعفوه عن فعلهم بالتدريج ، ويقفوا على ذلك منه قولا وفعلاً من أخيه الذي ربي معهم وهم به آنسون وله ألِفُون ، فتسكن روعتهم ، وتهون زلّتهم ، ومما يدل على ذلك أنه لما انتفى عن أخيه بنيامين ما اتصفوا به مما ذكر ، تعرف إليه حين قدم إليه ونهاه أن يخبرهم بحقيقة الأمر ، وشرع يمد في ذلك لتَسْتحْكِم الأسباب التي أرادها ، فلما ظن أن الأمر قد بلغ مداه ، لوّح لهم فعرفوه وقد آنسهم حسن عقله وبديع جماله وشكله ورائع قوله وفعله ، فكان موضع الوَجَل الخَجَل ، وموضع اليأس الرجاء ، فحصل المراد على وفق السداد(١) . . .

وما كان - عليه السلام - ليعرفهم بنفسه قبل هذه اللحظة الحاسمة ، إذ لم تتوافر بعد لديهم القابليّة للانقياد والتسليم ، ولو عرفوه قبلها لواصلوا السير في ضلالهم القديم ، ولكان في ذلك هلاكهم ، فما لأحد طاقة ليقف بها في وجه اثنين من الأنبياء المرسلين ، الله تعالى ناصرهما ، فكان في تأخير كشفه - عليه السلام - لهم عن نفسه رحمة بهم ، وما أقدم على ذلك إلا بعد أن كمل استعدادهم وتمت قابليتهم للاعتراف

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٩٤ .

رفع المسابقة

بالذنب والتوبة منه، فتأمل محاسن هذه التربية النبوية التي أوتيها ذلكم النبي الكريم، إذ علم أنه بحسن سياسته لهم، سيؤول أمرهم إلى إسلاس قيادهم ومجيئهم طائعين مختارين ليكونوا آية من آيات العلوم التي أوتيها - عليه السلام -(١).

بشرى لأولى الصبر والتقي:

في هذه الآية الكريمة بشرى عظيمة لأولى الصبر والتقي بالفوز والنصر من الله العلي العظيم، مهما أوذوا وعذبوا في سبيل نصرة الحق والدين، فإن قصة يوسف - عليه السلام - تحيطك علما بما قد يتعرض له أهل الحق المخلصين لربهم، من ظلم الظالمين وتعدّي الجاهلين، فلكم تعرض يوسف - عليه السلام - للكثير من المحن والابتلاءات، على أيدي الأقرباء والغرباء على حد سواء، حتى شاء الله تعالى له في النهاية، أن ينال النبوة والرسالة، ويحوز الملك والسلطان، وتدين له البلاد والعباد في أرض مصر، ويصبح هاديها ومنقذها من الضلال والشرك وقائدها إلى الخير والصلاح، يقول الإمام ابن القيم:

وهذه عادة الله سبحانه في الغايات العظيمة الحميدة، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيّأ لها أسبابا من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت، وأهوال البرزخ، والبعْث والنشور والموقف، والحساب، والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسوله - ﷺ - إلى مكة ذلك المدخل العظيم، بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرَج، ونصره ذلك النصر العزيز، بعد أن قاسي مع أعداء الله ما قاساه.

وكذلك ما فعل الله برسله، كنوح، وإبراهيم، وموسى، وهود، وصالح، وشعيب - عليهم الله - فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشُقّ عليها، كما قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى

---

(١) يوسف بن يعقوب/ ٤٤٨.



أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ»[1] ويقول الشاعر في ذلك:

وربُّما كان مكروه النفس إلى *** محبوبها سبَباً ما مثله سبب

وبالجملة: فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المتلذّة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفّها بالمكاره، وخلق النار وحفَّها بالشهوات[2] كما قال ﷺ: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات»[3].

ألا وإن أصحاب الدعوة إلى الله تعالى، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشونه أحدا إلا الله، طالما تعرضوا لأنواع عديدة من المحن والبلايا، تأتيهم من القريب ومن البعيد، ويطول بهم الجهاد والكفاح وتحمل الأذى في سبيل نصرة دين الله تعالى والدعوة إليه، حتى يظن الكثيرون أنهم هالكون لا محالة، إذ بنصر الله تعالى يأتيهم فيرتفع شأنهم وتسمع كلمتهم، ويصبحون أعلاما وأئمة للهداة في كُلّ جيل.

المضمون العام للآية الكريمة:

كان سؤاله – عليه السلام – لهم عما فعلوه بيوسف وأخيه، علامة قوية على أنه هو يوسف، فأراد إخوته أن يتثبتوا من ذلك فقالوا له: من المؤكد قطعاً أنك يوسف، قال لهم: أنا يوسف الذي ظلمتموني غاية الظلم، وقد نصرني الله تعالى وأكرمني فصيّرني إلى ما ترونْ، ثم أظهر لهم أخاهم بنيامين وقال: وهذا أخي الذي فرقتم بيني وبينه وظلمتموه، ثم أنعم الله عليه بما تبصرون، قد منَّ الله علينا فجمع بيننا بعد الفرقة، وأعزّنا بعد الذلّة، وآنَسَنَا بعد الوحدة، وخَلَّصَنَا ممّا ابتلينا به، إنه من يتق الله فلا يفعل ما حرم الله، ويراقبه في كل حال، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر، بامتثالها، فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر المحسنين.

---

(١) البقرة/ ٢١٦. (٢) إغاثة اللهفان/ ٢/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) رواه البخاري برقم (٦٤٨٧، ورواه مسلم برقم/ ٢٨٢٣.



من فيض نور الآية الكريمة:

١ - قد تقتضي الحكمة إخفاء الإنسان نفسه إلى حين، دفعا لمضرة أو جلْبا لمصلحة أو تحقيقا لأمر مقصود للشرع يريد إتمامه.

٢ - الله تعالى يخص عباده المتقين الصابرين بالمنة والفضل العظيم، كلٌّ على قدر صبره وتقواه وتحمله الأذى في سبيل الله تعالى.

٣ - الله تعالى يحب عباده الحسنين فيحفظهم وينصرهم ولا يضيع أجرهم أبداً في الدارين.

٤ - في الآية الكريمة شهادة من الله تعالى ليوسف - عليه السلام - بأنه من عباد الله المحسنين، ولقد سبق له مثل ذلك من قبل، وشهادة أيضا لبنيامين بالإحسان على قدر درجته.

٥ - كل خير في الدنيا والآخرة هو من آثار التقوى والصبر، وأهلهما من عباد الله المحسنين.

٦ - إن من اتقى ارتقى ولو خاصمه كل أهل الشقاء، كما قيل: (كن مع الله ولا تبالي).

٧ - على الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدين في سبيله ألا ييأسوا أبداً من نصر الله تعالى لهم، مهما واجهوا من الصد والعنت من القريب والبعيد.

٨ - وجوب التأسي والاقتداء بأفعال الهداة المهديين من الأنبياء والمرسلين، في التأني والصبر وتفويض الأمر إلى الله العليم الحكيم، ولا يستعجلوه في أمره.

٩ - جرت سنة الله تعالى بأن الأمور الصعاب لا تنْفذ إلا بالمطاولة لترتب الأسباب شيئا فشيئا على وجه الإحكام.



«الآية الواحدة والتسعون»

أولا - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: «قالوا تالله لقدْ آثرَكَ اللهُ علَيْنَا»

أثر: أثر الشيء: حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثَرَ وأثَّرَ، والجمع آثار، قال تعالى: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا»(١) ويستعار الأثر للفضل، والإيثار للتفضّل، ومنه آثرته، وقوله تعالى: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنفُسِهِم»(٢) قوله جل شأنه: «تَاللّه لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا» وفي الحديث «سيكون بعدي أثَرَة» أي: يستأثر بعضكم على بعض(٤) قال الشاعر:

والله أسماك سُماً مباركا *** آثَرَكَ الله به إيثاركا(٥)

ومعنى «تَاللّه لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا» أي: اختارك وفضلك علينا(٦)

رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ تَاللّه لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا»

التاء، تاء القَسم، ولفظ الجلالة (الله) مجرور بها، والجار والمجرور (تالله) متعلقان بفعل محذوف تقديره، نقسم، واللام جواب القسم، وقد، حرف تحقيق، وآثرك الله، فعل ومفعول به وفاعل، وعلينا، متعلقان بـ(آثرك)

«وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» الواو عاطفة، وإنْ مخفّفة من الثقيلة مهملة، وكان واسمها، واللام الفارقة، وخاطئين، خبر (كنا)(٧).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) الحديد / ٢٧. (٢) الحشر / ٩.

(٣) رواه البخاري: (فتح الباري) ٢: الفتن ١٣ / ٥. (٤) المفردات (كتاب الألف) ٩.

(٥) جاء هذا البيت في اللسان - سما - ولم ينسب لقائل،

(٦) صفوة البيان / ٣١٥. (٧) إعراب القرآن الكريم وبيانه (الدرويش) ٥ / ٤٨.



سادساً - التفسير والبيان:

إقرار الإخوة بإيثار الله تعالى ليوسف - عليه السلام - وتفضيله عليهم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

وجه المناسبة:

لما ذكر يوسف - عليه السلام - لإخوته أن الله تعالى منّ عليه، وأن من يتّق ويصبر فإن الله لا يُضيّعه صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمزيّة فقالوا(١):

«تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا»

لقد كان جواب الإخوة في صورة قوية جدا من التعبير، المصور لوضع يوسف أخيراً وقد مَنّ الله عليه، المتضمّن اعترافهم الصريح بخطئهم المحض، بحق يوسف على وجه الخصوص، وتأمل تاء القسم، ولفظ الجلالة المقسم به، واللام التي تفيد التوكيد، الداخلة على (قد) التي تفيد التحقيق، كل ذلك بقصد التعبير عن ثقة هؤلاء المطلقة في أن الله تعالى قد فضله عليهم، وكان الأحرى بهم أول الأمر أن يفهموا ذلك ويمتثلوا لإرادة الله، ولكنهم لم يفهموا ولم يمتثلوا، وأرادوا الشر بيوسف، وأراد الله تعالى الخير له(٢) وصيغة اليمين «تالله» مستعمل في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأن ما ناله هو تفضيل من الله، وأنهم عرفوا مرتبته، وليس المقصود إفادة تحصيل ذلك لأن يوسف - عليه السلام - يعلمه(٣) إنهم الآن، والآن فقط، وبعد أن صهرتهم الأحداث والمحن، علموا أن أباهم كان محقّاً في إيثار يوسف عليهم، وما كان - عليه السلام - في ذلك إلا مؤثراً من آثره الله تعالى:

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٧٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٠.



لكن للنفس من أهوائها حجبا

تغشي القلوب فتغدوا للحجا كبلا(١)

فهي التي احتجبت عن نور طلعته

وهي التي حسبت صعب القلا سهلا(٢)، (٣)

لقد رآى الإخوة الآن الحق رأي العين، بعد أن حجبه عنهم كل هذا الزمان الفائت؛ نزعات النفس والهوى والشيطان وغوائل الحقد والحسد البغيض، وها هم الآن يقسمون أمام أخيهم يوسف ويعلنون بكل تأكيد ووضوح أن الله تعالى فضله عليهم «تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا» أي: والله لقد اختارك علينا وفضلك وقدّمك، وآتاك ما لم يؤت أحدا منا، فقد وهبك الله العلم والحكمة والنبوة والملك، وهذا جماع ما قاله أهل السلف والخلف في معنى «آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا»(٤)...

ولما اعترفوا بفضله - عليه السلام - حيث اختاره الله تعالى وفضله عليهم، تابعوا الاعتراف بخطئهم فقالوا:

«وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» فجمعوا بذلك بين فضيلتين، الانقياد للحق، والاعتراف بالخطأ(٥)

و(إنْ) خففوها من الثقيلة تأكيدا بالإيجاز، للدلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرع وقت «كنا» أي كونًا هو جبلّة لنا «لخاطئين» أي: عريقين في الخطأ وهو تعمد الإثم(٦) وفي ضمن هذا سؤال العفو، قيل لابن عباس: كيف قالوا: «وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، فما تعمّدوا حتى أخطأوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطّى المنهاج الذي عليه من الحق، حتى يقع في الشبهة والمعصية(٧) لقد استشعر الإخوة المعصية وندموا، فلكأنهم قالوا: إن هذا الحب

---

(١) للحجا كبلا: للعقل قيداً.

(٢) القلا: رؤوس الجبال وهامات الرجال.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٤٤٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٦، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢١٩٤، والدر المنثور/ ٤/ ٦٤، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٣٠٢.

(٥) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٧٤.

(٦) نظم الدرر/ ٤/ ٩٤. (٧) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٥٧.



وذاك الإيثار الذي كان من أبيك لك دوننا، هو فضل من فضل الله عليك، وإن في غيرتنا وحسدنا لما ألبسك الله تعالى من نعم، هو ضلال منّا، وإن هذا الذي أنت فيه من مكان عال، ومن سلطان عظيم، هو فضل اختصك الله تعالى به «لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا» ولكنا كنا خاطئين إذ حسدناك على هذا الفضل الذي يختص الله به من يشاء من عباده[1]. ففي قولهم «وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» من الاستنزال لإحسانه - عليه السلام - والاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة ما لا يخفى[2].

إخوة يوسف - عليه السلام - كانوا خاطئين وليسوا مخطئين:

من الناس من يقدم على الفعلة السيئة، تارة باجتهاد وتأويل، بحيث يكون غير خَاشٍ بما عمل عقابا من الله، ولا توبيخا من الضمير، وتارة بالغلَط وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام، فصاحب هذا العمل - في الحالين - لا يعاقب، وعلامة هذا النوع، أنه يفعل الفعل وهو راض عن نفسه، مستريح لعمله، ويقال لصاحب هذا العمل «مُخْطِئ»...

ومن الناس من يعمل عمل السوء، وهو عالم أنه سوء، وأن الإقدام عليه غير جائز، لا في حكم الله، ولا في حكم الضمير، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ما عمل، ما من ذلك بد، إن لم يعقبه بتوبة، وعلامة هذا النوع أنه يعمل العمل وهو راض عن نفسه، ولا مستريح لعمله، ويقال لصاحب هذا العمل «خَاطِئ»، فإذا تقرر هذا، فأولاد يعقوب - عليه السلام - كانوا من قبيل هذا النوع، ولذلك تراهم أقرّوا واعترفوا أمام أخيهم، ثم أمام أبيهم - من بعد - بأنهم كانوا خاطئين، وهذا يدل على أنّ العلّة التي كانوا يتوسلون بها لقتل يوسف أو طرحه أرضا، أو إلقائه في غيابة الجب، وهي كونه أحب لأبيهم منهم، كانت علّة غير حقيقية، حتى في نظرهم، وأنهم كانوا غير مقتنعين بها، لأنها صورية فقط، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والغيظ والأَثَرَة[3].

---

(1) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / 481. (2) روح المعاني / 7 / 48.

(3) مؤتمر تفسير سورة يوسف / 2 / 1225.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما ذكر يوسف – عليه السلام – لإخوته أن الله تعالى قد منّ عليه وعلى أخيه بنيامين، وأن هذا هو جزاء من اتقى وصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، صدقوه واعترفوا له بالفضل والمزيّة، وأقسموا بين يديه معلنين ذلك ومعترفين بالخطأ الذي ارتكبوه في حقه وفي حق أخيه وفي حق أبيه – عليه السلام – وبهذا رجعوا إلى الحق وانقادوا له، وندموا على ما فعلوا وتابوا، وتمنّوا لو يصفح عنهم أخوهم يوسف ويعفو عنهم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ – الاعتراف بالحق والإقرار به فضيلة عظيمة من فضائل الإيمان.

٢ – موقف الندم والحسرة والتأسف من إخوة يوسف على ما فعلوا.

٣ – ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله، فهل من معتبر.

٤ – الاعتراف بالذنب والخطأ سبيل الحظوة بالصفح والعفو.

٥ – رجاء الإخوة العظيم في أن يعفو أخوهم يوسف عما فعلوا.

رفع المسأهمل

«الآية الثانية والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: «قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»

التَّثْريب: العُتْبُ والتأنيب، يقال: ثَرَبَهُ يَثْرِبُه، وَثَرَّبَهُ وعليه وأثْرَبَه، إذا بكَّتَهُ بفعله وعدَّدَ عليه ذنوبه، وفي الحديث: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلْدها ولا يُثَرِّب»(١) أي: لا يُعَيِّر، وقال الشاعر:

فَعَفَوْتُ عنهم عفْو غير مُثَرَّبٍ * * * وتركتُهم لعقاب يومٍ سَرْمَدِ(٢)

وأصل التَّثْريب من الثَّرْب، وهو الشَّحْم الذي هو غاشية الكِرْش، ومعناه إزالة الثَّرْب، كما أنَّ التَّجْليد والتَّقْريع إزالة الجلْد والقرع، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجْف الذي ليس بعده، فضرب مثلا للتقريع الذي يُمَزّق الأعراض ويذهب بماء الوجوه، والمعنى لا تأنيب ولا لوم عليكم اليوم(٣).

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»

هذه الجملة مقول القول، و(لا) نافية للجنس، وتثريب، اسمها، وعليكم خبرها، و(اليوم) ظرف متعلق بمحذوف خبر ثان، أو بمتعلق الخبر وهو (عليكم)، وعلى كل، فالوقف عليه، ولا يجوز تعليق الظرف بالمصدر، وهو التثريب لأنه يصير شبيها بالمضاف، ومتى كان كذلك أُعْرِبَ ونُوّن نحو: لا خيراً من زيد عندك.

---

(١) رواه البخاري: (فتح الباري) ٣٦، الحدود: ١٢ / ١٦٥، وابن حنبل: ٢ / ٢٤٩.

(٢) القائل بشر، وقيل تبّع كما في اللسان - ثرب.

(٣) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٤٢، والمفردات (كتاب الثاء) ٧٩، والدر المصون / ٦ / ٥٦٦، وصفوة البيان / ٣١٤.



«يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»

جملة دعائية بمثابة التعليل، ويغفر الله، فعل وفاعل، ولكم متعلقان بـ(يغفر) وهو مبتدأ، وأرحم الراحمين، خبره[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن وبيانه / ٥ / ٤٨.

رفع المسهم

سادساً - «التفسير والبيان»

«عفو وصفح ودعاء بالمغفرة»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما اعترفوا بتفضيل الله له عليهم، وأقروا بخطئهم، وقدموا له المعذرة، أجابهم - عليه السلام - بالصفح فقال:

«**لا تثريب عليكم اليوم**» إنه - عليه السلام - مع قدرته وتمكّنه مع ما سلف من إساءتهم، لم يقل لهم إلا قول الكرام، اقتداء بإخوانه من الأنبياء والرسل «لا تثريب» أي: لا لوْم ولا تعنيف ولا هلاك (عليكم اليوم)، وإن كان هذا الوقت مظنة للّوم والتّأنيب، فإذا انتفى ذلك فما الظن بما بعده[١].

إن إحساس الإخوة العميق بعظم الذنب، جعلهم يقفون عند حد الاعتراف، ولا يتعدونه إلى طلب العفو، وربما كانوا مُهَيِّئِين هذا الطلب لعرضه في اللحظة المناسبة أثناء الحديث الذي اعتقدوا أنه سيطول مع أخيهم، ولكن النبيل يوسف - عليه السلام - وفّر عليهم مشقة هذا الطلب، ولم يحوجهم للخوض في المسألة التي لا تخص سواه بأكثر من الاعتراف الذي أدلوا به بمحض إرادتهم، إنه - عليه السلام - يتنازل عن كل حق له، ويأبى خلقه الكريم في ذلك اليوم الذي قدر فيه فعفا، حتى عن مجرد توجيه اللوم إلى الذين ألقوه في غيابة الجب، إن اليوم في نظره - عليه السلام - أولى أن تبدأ به صفحة جديدة من الصفاء والمودة، وفي مجرد توجيه اللوم، عودة إلى الماضي البغيض وإحياء له، وهذا يتعارض مع الصفحة البيضاء النقيّة التي يريد أن يبدأ بها هذا اليوم[٣]، لقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرّها، ولم يبق

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٠٩، ونظم الدرر/ ٤/ ٩٥.

(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٦.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٣٥، ٤٧٨-٤٧٩.



إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال، ونتحاشى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم[1]. لكأنه - عليه السلام - يقول لهم ما قاله الشاعر:

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف

ثم انتهى ثم ارْعَوى ثم اعتَرف

أبشر بقول الله في آياته

«إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف»

فحيث حملوا شهادة التوبة بأيديهم، وأقروا بخطئهم وذنبهم، وشفيع المذنب إقراره، فلا تثريب عليهم اليوم، فالإنسان يصيب ويخطئ، ويسرع ويبطئ، الإنسان من ماء وطين، وليس من الملائكة العليين، وإن لكل صارم نَبْوَة، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، والكمال لله تعالى، والعصمة لأنبيائه الكرام، لقد آثر - عليه السلام - العفو، وهو أشد أنواع الانتقام - عند العقلاء - وهو مرارة ساعة، ثم السعادة إلى الأبد، والانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفني، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن إخوته[2] والعدول عن الانتقام إلى الغفران فضيلة عالية، وهو خلق الأنبياء - عليهم السلام - جميعاً، وخلق المؤمنين، ولقد جاء في القرآن العظيم آيات كثيرة تدعو إلى العفو والصفح والمغفرة، من ذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ -: «فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين»[3] وقال جل شأنه لعباده المؤمنين: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره»[4] بل إن الله تعالى رتّب مغفرته ورحمته على العفو والصفح عن إساءة الناس، قال تعالى: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[5] فقال أبو بكر - رضي الله عنه - لما سمع هذه الآية: بلى، والله إني لأحِبّ أن يغفر الله لي، فعفا عن مسطح الذي أساء إليه بعد ما قال في ابنته عائشة - رضي الله عنها - ما قال في حادثة الإفك، وعاود الإنفاق عليه من ماله، بعد أن حلف ألا ينفعه بنافعة أبدا.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٢٣٣. (٢) المرجع السابق/ ٢/ ١٢٣٢-١٢٣٣

(٣) المائدة/ ١٣ (٤) البقرة/ ١٠٩ (٥) النور/ ٢٢.



وكذلك جاء في السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدعو إلى الصفح والعفو، من ذلك قوله - ﷺ -: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً... الحديث[1] وقوله ﷺ: «ولا ظُلِمَ عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً... الحديث[2]، وكانت حياته - ﷺ - كلها يتوّجها خلقه العظيم وعفوه الكريم، وصفحه الذي لا يُبَارى.

محمد - ﷺ - خير من عفا وصفح:

لقد دخل محمد - ﷺ - مكة عُنْوَة، وقد قتلوا أعمامه وبني أعمامه وأولياءه وأنصاره، بعد أن حصروه في الشِّعْب وعذبوا أصحابه بأنواع العذاب، وجرحوه في بدنه وآذوه في نفسه، وسفهوا عليه وأجمعوا على كيده، فلما دخل مكة بغير حمْدهم، وظهر عليها على صغر منهم[3] طاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بِمَحْجَن[4] فلما قضى طوافه دعا عثمان بن أبي طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة المشرفة ففتحت له، فدخلها - ﷺ - فصلى فيها ثم خرج، وأخذ بعُضَادَتي الكعبة فقال لقريش فيما قال: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف»: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام[5].

المعنى المراد من (اليوم) في قوله: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»:

إن الرسول - ﷺ - بعد أن انتهى من حديثه السابق لقريش، جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، جمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله - ﷺ -: «أين عثمان بن طلحة»؟ فَدُعِي له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء»[6]، لقد جاءت لفظة (اليوم) في كلامه - ﷺ - وعلى لسان يوسف -

---

(1) رواه مسلم (2588). (2) رواه الترمذي (2272) وسنده صحيح. (3) يوسف بن يعقوب / 449.

(4) المحجَن: عود معوجَ الطرف يمسكه الراكب للبعير في يده.

(5) أخرجه أبو داود في البعث (24) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة، وأورده السيوطي في الدر المنثور / 4 / 34، وابن حجر في فتح الباري / 7 / 211.

(6) الرحقيق المختوم / 481.



عليه السلام - هنا، والمعنى - والله أعلم - اليوم يوم برّ ولمّ شمل ورأب صدْع وابتداء صفحة جديدة بيضاء نقية[1].

وقال الشريف المرتضى في الدرر: إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كُلّه كقوله:

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا *** واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا[2]

إن يوسف -عليه السلام - قد طوى سريعا هذه الصفحة السوداء مما كان بينه وبين إخوته، ويغطي على آثارها بالصفح الجميل[3].

هل العفو والصفح يكون لكل الناس؟

إنه لا بد أن نعرف أن العفو مقصور على الذين يستحقونه، فإنه بالنسبة لمن عفا أبلغ وأنفع من أي وسيلة أخرى، وقد قال الشاعر:

ومن وجد الإحسان قيْدا تقيَّدَا[4]. وإن هناك نفوسا أخرى لا يجدي معها إلا استئصال الشّأفة[5] ونكتفي في هذه المناسبة بذكر حادثة واحدة في سيرة المصطفى - ﷺ -،...

فبعد ما جرى للمسلمين في غزوة (أحد) ما جرى، وبلغه - ﷺ - أن أبا سفيان يريد أن يغير على المدينة مرة أخرى لاستئصال البقية الباقية من المسلمين، خرج رسول الله - ﷺ - إلى القوم، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، وأخذ رسول الله ﷺ - في جهة ذلك أبا عزّة الجمحى، وكان رسول الله قد أسره ببدر ثم منّ عليه، فقال يا رسول الله أقِلْني، فقال - ﷺ -: والله لا تمسح عارضيْك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرّتين، اضرب عنقه يا زبير، فضرب عنقه، قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه»[6]

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٨٠. (٢) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٩٤.
(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٨١.
(٤) المتنبي، ديوانه ١، ٢٩٢. (٥) الأصل.
(٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٨١-٤٨٢.



وهذا مأخذ به القانون الدولي في الحروب، فالأسير الذي أسر في حرب وفك أسره، إذا عاد إلى القتال مرة أخرى وأسر فإنه يقتل.

ولما أعفاهم - عليه السلام - من التثريب كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى، فأتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم فقال:

«يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ»(١)...

لقد كان على الإخوة حقّان، الأول حق الناس، وهو حق يوسف - عليه السلام - فعفي يوسف عن حقه، والثاني هو حق الله تعالى، فقال لهم في هذا الحق: سيَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ»، فإن كان هذا دعاء، فهذا واضح، وتعليم للذين يعفون الناس عن حقوقهم أن يترجَّوا من الله تعالى أن يغفر لهم حقهم أيضاً، وإن كان خبراً، فعرَف ذلك بالإلهام، أو لوعد الله تعالى بالعفو عن التائبين، وقد صحّت عنده توبتهم، أو استدل بعفوه على عفوا الله تعالى حيث قال:

«وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» أي: إذا رحمتكم أنا وعفوت عنكم، فهو يغفر لكم بالأوْلى فإنه أرحم مني لأنه أرحم الراحمين كلهم(٢) وهو يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب(٣)...

لقد سمح لهم - عليه السلام - سماحا تاما من غير تعْيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتي إلا من خواص(٤) وما أنسب ما وقع من يوسف بالمراتب الثلاثة المذكورة في قوله تعالى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»(٥) فهو - عليه السلام - كظم غيظة بقوله «لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» ثم عفا عنهم بقوله: «يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ» ثم أحسن إليهم

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٩٥.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٧٥.

(٣) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٩٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٦. (٥) آل عمران / ١٣٤.



بقوله – بعد ذلك مباشرة: «وائتُونِي بِأهلكُم أجمَعين»[1] إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته، وإبقائه عليهم، ومصافاته لهم، تعلمتا أن نغفر لمن يسئ إلينا ونحسن إليه، ونصفي له الود، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا، فيسبغ الله علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا كما أوسع الله على يوسف، ويورثنا السعادة الأخروية، وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا، ونقمنا منهم، فينتقم الله منا، ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا[2].

المضمون العام للآية الكريمة:

لما اعترف الإخوة بخطئهم وأقروا بذنبهم وتمنّوا لو يصفح عنهم أخوهم يوسف – عليه السلام – إذ به ينشُرُ عليهم صفْحه وعفْوه وإحسانه، ويرفْع عنهم العتاب والملامة في ذلك اليوم الذي هو بمثابة يوم عيد وفرح بفضل الله العظيم «قَالَ لاَ تَثْرِيب عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتسامي يوسف – عليه السلام – فوق العفو والصفح الجميل فدعا لهم بالمغفرة من الله عز وجل «يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» أي إذا رحمتُكُم وعفوْتُ عنكم، فإنّ الله تعالى يغفر لكم بالأوْلى، فإنه أرحم منّي، لأنه أرحم الراحمين كلهم، وهكذا سَمَحَ لهم – عليه السلام – سماحاً تامّا، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص العباد، وهم أنبياء الله تعالى ورسله المكرمين.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٢٨٩.

(٢) تفسير القاسمي / ٤ / ٣٩٤.

رفع المسيّهما

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - كان يوسف - عليه السلام - مثلاً رائعاً في العفو والصفح، فقد عفا عنهم وصفح الصفح الجميل، ثم دعا لهم بالمغفرة والرحمة من الله الرحمن الرحيم.

٢ - العفو مع القُدرة يورث العزّة والرفعة.

إن يوم تصفية النّفوس من العداء والبغضاء والشحناء والعود بها إلى نور الصفاء والإخاء والمحبة هو يوم عيد عظيم.

٤ - على كل مسلم أن يتأسى بأخلاق الأنبياء في العفو والصفح والمغفرة، فهذا هو خلق القرآن الكريم وخلق سيد المرسلين محمد - ﷺ -.

٥ - تمثل الرسول - ﷺ - لما فتح مكة بأخيه يوسف - عليه السلام - فعفا عن أهل مكة العفو العظيم وهم الذين آذوه وقاتلوه وأخرجوه من مكة، وكان ذلك العفو سبباً في دخول الناس في دين الله أفواجاً.

رفع المسهم

«الآية الثالثة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» أَهْل: أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد[١] والمراد بالأهل هنا: كل أسرة آل يعقوب، رجالا ونساء وذراري.

رابعاً - الإعراب:

«اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً»

اذهبوا فعل أمر وفاعل، و(بقميصي) يجوز أن يتعلق بـ(اذهبوا) فتكون الباء للتّعْدية، ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف حال، أي: اذهبوا ومعكم قميصي، و(هذا) نعت أو بدل أو عطف بيان، (فألقوه) الفاء عاطفة، وألقوه فعل وفاعل ومفعول به، و(على وجه أبي) متعلقان بـ(ألقوه) و(يأت) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر، والفاعل مستتر تقديره (هو) و(بصيرا) حال، واختار الزمخشري أن يكون (بصيراً) خبراً لـ(يأت) على تضمينه معنى يَصِرْ بصيراً، ويشهد له «فارتد بصيراً».

«وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» (ائتوني) عطف على (اذهبوا) وبأهلكم متعلقان بـ(ائتوني) و(أجمعين) تأكيد للأهل[٢].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب الألف) ٢٩.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٥٤.



(أ) ما المقصود بقميص يوسف - عليه السلام - في قوله: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا...»؟ وهل كان قميصا مما يلبسه؟ أو قميصا من ثياب الجنة؟

اختلف أهل التفسير في ذلك إلى فريقين:

فريق يقول: إن قميص يوسف - عليه السلام - المشار إليه في قوله تعالى: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا...» هو من الجنة، واستندوا في ذلك لِمَا أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس قال: رجل للنبي - ﷺ -: يا خير البشر، فقال ﷺ: ذاك يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إن الله كسا إبراهيم ثوبا من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، فكساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله في قصبة حديد وعلقه في عنق يوسف، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه، فلما أراد الله أن يردّ يوسف على يعقوب، وكان بين رؤياه وتعبيرها أربعين سنة، أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً، وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله(1)...

ولِمَا أخرجه ابن أبي حاتم عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: لَمَّا ألقي إبراهيم في النار كساه الله تعالى قميصا من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فطواه وجعله في قصبة فضة، فجعله في عنقه، وكان في عنقه حين ألقي في الجب، وحين سجن، وحين دخل عليه إخوته، وأخرج القميص من القصبة فقال: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» فشمّ يعقوب ريح الجنة وهو بأرض كنعان بأرض فلسطين، فقال: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ»(2).

وذهب **فريق آخر** إلى أن القميص المشار إليه في الآية الكريمة «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا» هو قميص يوسف الذي كان يلبسه.

---

(1) الدر المنثور / 4 / 65.

(2) تفسير ابن أبي حاتم / 7 / 2196.



قال القاضي أبو محمد (ابن عطيه):

والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبينُ الغرابة في أن وجَد ريحه من بُعْد، ولو كان من قمص الجنة لما كان في ذلك غرابه ولَوَجَدَهُ - أي: ريحه - كل أحد(١) وقال الإمام بدر الدين البقاعي: فكونه قميصا من ملابس يوسف المعتادة أدَلّ في الغرابة وأدخل على الكرامة، والقميص ألصق الثياب بالجسم، فإظهار الكرامة به أدل على كمال دين صاحبه وعراقته في أمور الإيمان، وهو يؤوّل في المنام بالدين، وذلك أدخل في كمال السرور ليعقوب - عليه السلام -(٢)

وقال الإمام الألوسي: هو القميص الذي كان عليه حينئذ كما هو الظاهر(٣)، وقال الإمام القاسمي عن القميص: إنه حلّة من حُلَلِه التي كان يستشعر بها أو يتدثّر(٤)، وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم - عليه السلام - مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب(٥).

ويقول الأستاذ/ عبد الكريم الخطيب: أما وليس في القرآن الكريم، ولا في حديث رسول الله - ﷺ - شاهد بأن القميص من الجنة، فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه الغيبيات القائمة على الرّجم بالغيب، وأن يأخذ الأمور على ظاهرها(٦).

الترجيح: والراجح هو الرأي القائل: إن القميص الذي أرسله يوسف مع إخوته إلى أبيه ليأتِ بصيرا، هو قميصه الذي كان يلبسه، وذلك لوضوح أدلته وقوة حجته وضعف معارضته، وتوافقه مع العقل وظاهر النص، وتناسبه مع مكانة النبيين الكريمين عند الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٧١، وانظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٩.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ٩٦. (٣) روح المعاني/ ٧/ ٥٠.

(٤) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٩٥.

(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥١.

(٦) القصص القرآني الكريم في منطوقه ومفهومه/ ٤٨٢-٤٨٣.



أما الاتجاه القائل: إن القميص المرسل إلى يعقوب - عليه السلام - من ابنه يوسف - عليه السلام - ليرْتد إليه بصره، هو من الجنة، فلا دليل يدل على صحة ما ذهبوا إليه، والروايتين المذكورتين بهذا الشأن لا تسعفهما بالحجة، فالرواية الأولى المسندة إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - رواية منكرة، فمما جاء فيها أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل - عليهما السلام - وهذا مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع علماء الأمة، فقد قال تعالى في سورة الصافات: «فَبَشَّرنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيم»(١) وهو إسماعيل - عليه السلام - فإنه أول ولد بشر به إبراهيم - عليه السلام - باتفاق المسلمين، بل وجاء في نص كتاب اليهود - التوراة - أن إسماعيل - عليه السلام - وُلِدَ ولإبراهيم - عليه السلام -، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم - عليه السلام - تسع وتسعون سنة، ولكن اليهود في نسخة أخرى للتوراة أقحموا إسحاق - عليه السلام - وقالوا: إنه بِكْرَه كذبا وبهتانا وحسدا.

ثم قال الله تعالى في نفس السورة بعد إحدى عشرة آية «وَبَشَّرنَاه بإسْحَاق نَبياً مِنَ الصَّالحين»(٢) فقد تقدّمت البشارة بالذبيح وهو اسماعيل - عليه السلام - فسياق الآية الكريمة يدل على أن البشارة بولادة إسحاق - عليه السلام - ونبوته كانت بعد قصة الذبح الخاصة بإسماعيل - عليه السلام - وفدائه، وهذا أيضا مما يدل على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق - عليه السلام -(٣) فالرواية لا يبعد أن تكون من الإسرائيليات المفتراة تمجيدا لبني إسرائيل وحسد النبي اسماعيل.

والرواية الثانية تتبعها في النّكارة، فمما جاء فيها أن يعقوب - عليه السلام - شم ريح الجنة وهو بأرض كنعان بأرض فلسطين، وهذا مخالف للنص القرآني الكريم، فالله عزّ وجل يقول على لسان يعقوب - عليه السلام - «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ»(٤)

---

(١) الصافات / ١٠١. (٢) الصافات / ١١٢.

(٣) انظر: تيسير العلي القدير / ٤ / ١٣-١٥.

(٤) يوسف / ٩٤.



وليس ريح الجنة كما جاء في الرواية المذكورة، ثم إن الله تعالى لم ينقذ خليله إبراهيم - عليه السلام - بإنزال قميص من الجنة يلبسه ليقيه من النار، فالقميص كما هو معلوم لا يغطي سائر البدن، فكان يمكن احتراق الوجه والرأس وأطراف اليديْن والرجليْن لأن القميص لا يقع عليهم، وإنما أنقذه ربه تعالى بقوله للنار «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ»(١) فانتفي الاحتياج لما عدا ذلك، وإضافة إلى ما سبق، فإنه لو كان القميص المدّعى قد وضع في قصبة من حديد أو من فضة حول رقبة يوسف - عليه السلام - لترتب على ذلك ما يلي:

١ - إعلام يعقوب - عليه السلام - أبناءه جميعا أنه يؤثر يوسف عليهم، حيث اختصه وحده بذلك، مما يثير في نفوسهم الحسد والحقد والبغضاء ليوسف، فيعرّضه ويعرّضهم لما لا يحمد عقباه، وهذا ما لا يمكن لنبي الله يعقوب - عليه السلام - أن يفعله، وكيف يأمر ابنه يوسف بإخفاء أمر الرؤيا عن إخوته درْءا للحسد والكيْد وإغواء الشيطان، ثم يختصه علَناً بقميص إبراهيم عليه السلام، لتشتعل نار الحقد إلى آخر مداها.

٢ - لو كان القميص المدّعي معلقا حول رقبة يوسف حين جعله إخوته في الجب ما تركوه له، بل لا انتزعوه منه انتزاعا حيث يرون أنهم أحق به منه.

٣ - إن قميصا يعلق حول رقبة في قصبة من حديد أو من فضة تسعه كله، شيء بعيد عن العرف والعادة، ولم يكن يعلق مثل هذا الطوق من الحديد إلا في رقاب بعض العبيد، إعلاما بمالك الرقبة، ولا يليق بعامة الناس، فكيف بابن نبي مصطفى كريم.

٤ - لو كان الأمر كذلك، لتعرض يوسف - عليه السلام - للسؤال عما في رقبته في كل مرحلة من المراحل التي مر بها بعد جعله في الجب، وهي كالتالي:

(أ) مرحلة انتشاله من الجب، (ب) مرحلة بيعه في مصر للعزيز، (جـ) مرحلة حياته في قصر العزيز، (د) مرحلة حياته في السجن.

---

(١) الأنبياء/ ٦٩.



وفي المراحل السابقة لو أجاب يوسف السائل عما في رقبته وأعلمه بالأمر لترتب على ذلك رده إلى أبيه - يعقوب - عليه السلام - الذي يعرفه الجميع، وبهذا يتوقف الخط الإلهي المرسوم ليصل - عليه السلام - إلى الغاية الكريمة التي يريدها الله له.

٥ - لو ظل القميص في رقبته - عليه السلام - حتى أعطاه لإخوته ليلقوه على وجه أبيه ليرد إليه بصره، لكان من الممكن أن يتعرفوا عليه في أول لقائهم به عن طريق هذا الطوق المعهود لديهم حسب الزعم المذكور، فكم من أناس تعرفوا على غائبين عنهم لمدد طويلة بسبب خاتم أو عقد أو تاج أو نحو ذلك.

٦ - ثم نأتي إلى الأمر الأهم وهو أن جعل القميص في حلقة من حديد أو فضة ووضعه حول العنق يجعله تميمة، ولبس الحلقة هكذا من الشرك، فعن عمران بن حُصَين - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - رآى رجلا في يده حلقة من صفر فقال: «ما هذا؟» قال: من الواهنة(١) فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وَهَناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»(٢) وعنه - رضي الله عنه - مرفوعا أن النبي - ﷺ - قال: «مَن تعلّق تميمة فلا أتمّ الله عليه، ومن تعلّق ودع فلا ودع الله له»، وفي رواية «من تعلّق تميمة فقد أشرك»(٣).

فالادعاء بأن يعقوب - عليه السلام - قد جعل القميص في قصبة ووضعها حول عنق يوسف ادعاء باطل، فالتمائم محرمة في كل دين، من آدم - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ - وهي لون من ألوان الشرك والعياذ بالله تعالى، لا يقربه موحّد لله تعالى.

(ب) كيف يعيد إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه بصره؟ وهل جاء ذلك على وفق السّنَن الطبّية، أو أن ذلك كان معجزة؟

من المفسرين من يرى أن إعادة البصر ليعقوب - عليه السلام - بعد ذهابه عن طريق إلقاء قميص ابنه يوسف - على وجهه لم يكن أمرا معجزاً، وإنما جاء على وفق السنن

---

(١) الواهنة: عرِق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيرقي منها.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي (فتح المجيد) ١٠٢.

(٣) رواه الإمام أحمد، ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات (فتح المجيد) ١٠٢.



الطبّية ومألوف الحياة، وأن الذي ذهب ببصر يعقوب - عليه السلام - هو شدّة الحزن، وأن الذي يعيد إليه بصره هو شدّة الفرح، وهذا مما يعلمه يوسف - عليه السلام - مما علمه الله تعالى من تأويل الأحاديث، ثم قالوا:

فلعل يوسف - عليه السلام - علم أن أباه ما صار أعمى إلا من كثرة البكاء وضيق القلب فضعف بصره، فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوى، فحينئذ يقوي بصره يزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب، فإن القوانين الطبّية تدل على صحة هذا المعنى(١).

ويرى أكثر المفسرين أن عودة بصر يعقوب - عليه السلام - إليه بمجرد إلقاء قميص ابنه يوسف على وجهه كان معجزة أجراها الله تعالى بين نبيَّيْن كريمَيْن،

قال الإمام الفخر: قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى، ولو لا الوحي لما عرف ذلك، لأن العقل لا يدل عليه(٢)

وقال الشيخ أبو حيان الأندلسي: وقوله: «يَأتِ بَصِيراً» يظهر أنه بوحي(٣)، ووافقه الإمام الألوسي حيث قال بعد أن ذكر الرأي القائل بأن ذلك لم يكن معجزة والذي أورده الإمام الرازي بعد القول الأول، قال: وأنا لا أرى ذلك(٤) وقال الدكتور عبد العزيز كامل: هذا في مقام المعجزة من يوسف - عليه السلام - أن يحملوا معهم قميصه إلى أبيه ليعود إليه البصر.. ثم قال: بعض الذين حاولوا أن ينظروا إلى الأمر نظرة علمية، فسروا بياض العين بالماء الأبيض، الذي يغيّم عدسة العين، وأن في إزالته عودة البصر إلى العين، وأن عامل المفاجأة والبشرى قد تسقط معه الغشاوة عن العين، فلندع الذين يحاولون أن يقولوا في التفسير الطبي قولا، ولنقف عند حدود الآية(٥).

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢١٠-٢١١.

(٢) المرجع السابق/ ٩/ ١٨/ ٢١٠.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٩. (٤) روح المعاني/ ٧/ ٥٠.

(٥) دروس من سورة يوسف/ ١٧١.



وقال الدكتور حسن محمد باجودة: إن القيمص لا يلقى على وجه يعقوب من أجل وجهه، وإنما من أجل عينيه، فليس هناك اتصال مباشر بين القميص والعينين، وهذا من أسرار المعجزة، ثم قال: وأوحى إلى يوسف - عليه السلام - بأنه آن الأوان كي يرتد إلى يعقوب - عليه السلام - بصره، وأن ذلك سيتم بإذنه تعالى عن طريق إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه معجزة ليوسف - عليه السلام -(١).

الترجيح: والرأي القائل بأن يوسف قد علم عن طريق الوحي أن إلقاء قميصه على وجه أبيه يرد إليه بصره، وأن ذلك معجزة أجراها الله تعالى على يد يوسف - عليه السلام - هو الراجح الذي يدل عليه ظاهر النص، والذي يتناسب مع مكانة وقدْر هذين النبيين الكريمين، فلو كان الأمر بالقوانين الطبّية كما ذهب الرأي الآخر، لما كان من المسوغ أن يقول يوسف - عليه السلام - وبكل هذه الثقة «يَأت بصيراً» بل كان يمكن أن يقول: لعله يأت بصيراً، أو لعل فرحته بالبشرى تعيد إليه بصره، أو نحو ذلك، لأن الأمور الطبّية لا تأتي بالشفاء كأمر جازم محتّم، خاصة إذا كانت أمورا طبية نفسية بحتة، وكثيراً ما تتخلف، والواقع شاهد على ذلك، فكثير من الناس ممن ذهب بصرهم بسبب شدة الأحزان وعظم المصائب، لم يعد لهم بصرهم بعد أن حدثت لهم أحداث غاية في الفرح والسرور، إذا، فالأمر كما قال الحسن: لو لا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره.

إضافة إلى أن رجوع بصره - عليه السلام - بمجرد إلقاء القميص عليه، خارج عن كل نطاق الطب الدوائي والنفسي وكل طب بشري آخر، لأن الأمر في الطب البشري على أحسن الأحوال يقتضي حتما وقتا للتأثر والتفاعل والمثول للشفاء شيئاً فشيئا، أما كونه يُرَدّ إليه بصره في لحظة إلقاء القميص على وجهه، فهذا لا يقدر عليه إلا من يقول للشيء كن فيكون.

(١) الوحدة الموضوعية في سورة/ ٤٨٥.



سادساً - التفسير والبيان:

«يوسف - عليه السلام - البار بأبيه وأهله»

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أقرّ أعينهم بعد اجتماع شملهم بإزالة ما يخشونه دنيا وأخرى، بقي ما يخص أباهم من ذلك، فسرعان ما وجههم، إلى مكانة أبيه عنده، وليعلموا أن الأب حاضر في فكر الإبن دائماً فقال:

«اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي» ولما كان قوله هذا ربما أوقع في أفهامهم قميصه الذي سلبوه إياه، احترز عن ذلك بقوله:

«هذا» أي: الذي على بدني أو بيدي(١) لأن معناه: اذهبوا بهذا لا غيره(٢) فاسم الإشارة مخصص لقميص معيّن، فهو أحد قمصان يوسف التي كان يلبسها(٣).

«فأَلْقوهُ عَلَى وَجْهِ أبي يأْتِ بَصِيراً...»

عن السدّي قال: قال لهم يوسف: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لمّا فاته (بنيامين) عمي من الحزن، قال: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً...»(٤) والآيات لا تذكر أن يوسف علم من إخوته ما أصاب أباه، ولكن تُحِسّ من الآية - وكلها بالضمائر المتصلة - شدة حنين يوسف إلى أبيه(٥) والظاهر أنه عليه السلام لم يعرف حقيقة والده بإخبار مخلوق؛ بل لم يأت له ذكر في هذا المشهد إلا في هذه الآية، فهناك علم لدنّي خص الله تعالى به يوسف، فكان على علم تام بكل ما حل بأبيه، وأوحى إليه

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٩٦، ويوسف بن يعقوب/ ٤٤٩.

(٢) تفسير المراغي/ ٥/ ٣٦.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٧٦.

(٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٧.

(٥) دروس من سورة يوسف/ ١٧١.



مولاه بأنه آن الأوان كي يرتدّ إلى يعقوب - عليه السلام - بصره، وأن ذلك سيتم بإذنه تعالى، عن طريق إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه معجزة ليوسف-عليه السلام-(١) وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي ورسول، ويعقوب نبي ورسول(٢).

ولله حِكَمٌ وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر(٣) لقد أمر - عليه السلام - إخوته أن يحملوا معهم قميصه إلى أبيه، ليعود إليه بصره، دون إشارة إلى ماض حزين، لقد حملوا من قبل إلى أبيهم قميص يوسف ممزّقا ملطخا بدم كذب، وحملوا معه إلى أبيهم الحزن المقي، والبكاء الطويل سنين، على ولده الغائب، فاحملوا يا إخوتي هذه المرة قميص البشرى، إن الحسنات يذهبن السيئات(٤).

ونود أن نقف عند لفظ (وجه) من قول يوسف «فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي» فهل وجه يعقوب المريض أم عيناه؟ عيناه بطبيعة الحال، والعينان جزء من الوجه. فلم قال: «فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي»؟ ولا يخفى أنه أساسا لا يمكن أن يقال: «فألقوه على عينَيْ أبي» ثم إنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه بشر على عينَيْ مخلوق، فضلا عن إلقائه على وجهه، كي يرتدّ الأعمى بصيراً، وإن الإتيان بلفظ الوجه هنا دليل بليغ على أن ارتداد البصر إلى يعقوب، بإذنه تعالى، إنما تمّ بفعل قوة خفيّة وسر عظيم وضعه القادر على كل شيء، في قميص يوسف، ونود أن نقف أيضاً عند قوله تعالى «يأتِ بَصيراً» فلماذا أتت جملة (يأت) هنا، بينما جاءت جملة «ارتد» للدلالة على المعنى نفسه في قوله تعالى - الآتي بعد: «فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً»؟

والجواب على ذلك أن جملة (يأت) بمعنى يرتد، تعتبر مهيئةً الإخوة لتلقى بشارة

---

(١) أنظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٨٤-٤٨٥.
(٢) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٦.
(٤) دروس من سورة يوسف / ١٧١.

رفع المستهم

جديدة أتت بها الجملة نفسها التي تكررت مباشرة في قوله: «وائتُوني بِأهلكُم أجمَعِين»، وأدمج الأمر بالإتيان بأبيه في ضمن تبشيره بوجوده إدماجا بليغا إذ قال: «يأتِ بَصِيرا»(١).

بعض الإشارات والمعاني التي يحملها القميص لكل من الأب والإخوة:

لقد كان قميص يوسف - عليه السلام - يحمل إلى أبيه يعقوب - عليه السلام - ما يلي:

١ - العلامة الدالة على صدق إخوة يوسف.

٢ - رد بصره إليه معجزة ليوسف - عليه السلام.

٣ - علمه بكمال ابنه يوسف ونبوته.

٤ - تمام سروره بتمام نعمة الله تعالى على يوسف وعلى آل يعقوب كما بشره في الرؤيا «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»(٢).

أما القميص بالنسبة لإخوة يوسف فيتمثل فيما يأتي:

١ - كان آية لهم ومعجزة من الله تعالى شاهدة على نبوة يوسف - عليه السلام -.

٢ - بشهادتهم آية رد البصر على أبيهم بإلقاء قميص يوسف على وجهه، يتأكد لهم أن ما بين يوسف وأبيه - عليهما السلام - ليس بالأمر المعتاد كما ظنوا، بل إنها رابطة النبوة والرسالة وكفى.

٣ - لا شك - أيضا - أنهم عند رؤيتهم لهذه الآية سترسخ التوبة في قلوبهم، فلا تحدثهم أنفسهم بسوء بعدها في هذا الشأن،

٤ - علم الإخوة بأن العمي سيذهب إلى غير رجعة، ويعود النور إلى كلتا عينَيْ يعقوب، أسعدهم غاية السعادة، إذ بذلك يذهب آخر أثر سئ يؤلمهم في قضيتهم مع يوسف.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٨٥-٤٨٦.

(٢) يوسف / ٦. (٣) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥١.



٥ - تمثل الإخوة بهجة أبيهم بعودة البصر إليه وسعادته بعلمه بما وصل إليه يوسف من عزة وملك ونبوة، أثار في نفوسهم سرورا جارفا هجم عليهم من كل ناحية كاد يبكيهم(١).

والواضح تماما أن الإخوة قد تلقو قول أخيهم يوسف - عليه السلام - «فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» على أنه قضية مسلّمة لا شك فيها، وإن هذا ليدل دلالة أكيدة على كمال توبة الإخوة، وتمام انقيادهم وتوقيرهم لأخيهم النبي يوسف - عليه السلام -.

«بشارة جديدة»

«وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ»

من هم الأهل؟ إنهم الذين سبق أن جاءوا في قول الإخوة «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: جيئوني بجميع أهلكم، نساؤكم، أولادكم، عشيرتكم وكانوا ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة، عن عبد الله بن مسعود قال: كان أهله حين أرسل إليهم وهو بمصر ثلاثة وتسعين إنسانا، رجالا ونساء، ثم قال: والله ما خرجوا مع موسى - عليه السلام - حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفا، قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة(٢).

الحكمة من مجئ الأهل إلى مصر:

أراد يوسف - عليه السلام - أن يتخذ أهله مصر دارا لهم، فالحياة في المدينة وفي دولة كبيرة مثل مصر، نعمة عظيمة ومنة كريمة من الله تعالى، تفضل الحياة في البدْو كثيراً، ومن أجل هذا فقد تحدث يوسف - عليه السلام - آخر القصة عن هذه النعمة التي امتن الله بها على أهله فقال: «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ... الآية»(٣) ولا ننسى أن

---

(١) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٥٠، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٨٥، وتفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥١.

(٢) انظر: تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٥٧ وتفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢١٩٦، والدر المنثور / ٤ / ٦٥.

(٣) يوسف / ١٠٠.



يوسف - عليه السلام - وبفضل عطاء الله الواسع له، مسئول عن رعاية مصالح قومه الدنيوية - أيضا - لهذا كان طبيعيا أن يطلب أهله للمجئ إليه لا العكس، خاصة وأن مصر هي مكان تعبير الرؤيا التي تدل على منزلته الدينية والدنيوية، كما قال هو من بعد «قَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا... الآية»(١).

وهكذا حمل الإخوة من مصر إلى أرض كنعان بفلسطين، بشارات طيبة مباركة، لوالدهم ولأهلهم أجمعين.

(١) يوسف/ ١٠٠.

المضمون العام للآية الكريمة:

ما أن اجتمع شمل الإخوة بعد أن عرّفهم يوسف- عليه السلام - بنفسه، حتى كان أول اهتمام له هو أبوه يعقوب - عليه السلام - وقد أعلمه الله تعالى أنه قد أكرمه ومَنّ عليه بأن جعل في إلقاء قميصه على وجه أبيه يرُدّ إليه بصره، فأمر الإخوة بالذهاب إلى أرض كنعان بفلسطين وإلقاء قميصه الذي أعطاه لهم على وجه أبيه يأت إليه بصيراً، وفرح الإخوة بهذا النبأ، إذ به يرتفع عنهم آخر أثر سيّء يؤلمهم في قضية يوسف، ثم حملهم بشارة أخرى عظيمة، ألا وهي دعوة آل يعقوب جميعاً للحضور إلى مصر والعيش فيها آمنين مطمئنين.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - اهتمام يوسف الشديد بوالده الكريم، وإجراء الله المعجزة على يديه برد بصر أبيه إليه بعد أن عمي عن طريق إلقاء الإخوة القميص على وجهه.

٢ - في إلقاء الإخوة القميص على وجه أبيهم عن طريق البشير، سعادة لهم ولطف بهم، إذ يشعرون وكأنهم يشاركون في ذلك، فيرتفع عنهم الشعور بالذنب.

٣ - مسئولية يوسف - عليه السلام - عن رعاية قومه، وقيامه بذلك على خير وجه إذ دعاهم جميعاً للحضور إلى مصر.

٤ - في حضور آل يعقوب أجمعين إلى مصر نعمة عظيمة لمصر وأهلها، ونعمة لآل يعقوب إذ ينتقلون من حياة البدو الشاقة، إلى حياة الحضر الطيبة.

٥ - من سنته تعالى في خلقه أن يجْعَلَ بعد العسْر يسْرا، وبعد الشدّة فرَجاً.



«الآية الرابعة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾

ثانياً - القراءات:

«وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ» قرأ ابن عباس «فلما انفصل العير»[١]

ثالثاً - اللغة:

«وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ» الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فُرْجة[٢] يقال: فصل من البلد فصولا: إذا انفصل منه وجاوز حيطانه[٣] وهو لازم، وفصل الشيء فصلا: فرّق، وهو متعدّ[٤]

«إِنِّي لأَجِدُ» الوجدان: ظهور من جهة إدراك يستحيل معه انتفاء الشيء.

«لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» التّفْنيد: نسبة الإنسان إلى الفَنَد[٥] والفند: الخرف وإنكار العقل من هرم[٦] يقال: فَنَد الرجل، إذا نسبه إلى الفند، ويقال شيخ مفنّد، إذا فسد رأيه[٧] والإفناد: أن يظهر من الإنسان ذلك[٨] وأصل التفنيد في الكبر وقد يستعمل في غيره، جاء في المختار: الفَنَدُ بفتحتين: الكذب، وهو أيضا ضعف الرأي من الهرم، والفعل منه أفْنَدَ، والتفنيد: اللوم وتضعيف الرأي، وفي القاموس: الفَنَدُ بالتحريك الخرق وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول والرأي، والكذب كالإفناد[٩].

قال الإمام الطبري: وأصل التفنيد: الإفساد، وإذا كان كذلك فالضعف والهرم

---

(١) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٣٤٣. (٢) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨١.
(٣) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٤٣. (٤) تفسير البحر / ٥ / ٣٣٩.
(٥) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨٦.
(٦) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٥٢.
(٧) روح المعاني / ٧ / ٥١. (٨) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨٦.
(٩) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٥٢.



والكذب، وذهاب العقل، وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد، لأن أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهرم وذهاب العقل والضعف، وفي الفعل الكذب، واللوم بالباطل، مثاله في الإفساد قول ابن مقبل:

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه *** إذا كُلِّف الإفناد بالناس أفندا

أي: أفسد.

ومثاله في الكذب:

هل في افتخار الكريم من أوَدِ *** أم هل لقول الصدوق من فَنَدِ

أي: من كذب.

ومثاله في السفه والخطأ في الكلام والرأي والفساد، قول النابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك له *** قم في البرية فاحددها عن الفَنَد[1]

أي عن السفه والخطأ في الكلام والرأي والفساد في العقل.

ومثاله في اللوم - قول جرير ابن عطية بن الخطفي:

يا عاذِلَيَّ دعا الملام وأقصرا *** طال الهوى وأكلْتُما التفنيدا[2]

معنى (تفندون) عند أهل السلف:

قال ابن عباس ومجاهد: «تفندون» تسفّهون، وعن ابن عباس أيضا: تجهّلون، وعنه أيضا: تضعفون، وقال عطاء وابن جبير: تكذبون، وقال الحسن: تهرمون، وقال ابن زيد والضحاك ومجاهد أيضا: تقولون ذهب عقلك وخرقت، وقال أبو عمرو: تقبّحون، وقال الكسائي: تعجزون، وقال أبو عبيد: تضلّلون، وقيل: تخطئون، وهذه كلها متقاربة في المعنى، وهي راجعة لاعتقاد فساد رأي المفند، إما لجهله، أو لهوى غالب عليه، أو لكذبه، أو لضعفه، وعجزه لذهاب عقله بهرمه[3] ومحتمل جميعها

---

(١) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان - عليه السلام - لعظم ملكه، وقبْل البيت:

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه *** ولا أحاشي من الأقوام من أحد

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٩-٦١، وتفسير القرطبي/ ٩/ ٢٦٠، والدر المصون/ ٦/ ٥٥٦-٥٥٧.

(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٩.



ظاهر التنزيل، إذ لم يكن في الآية دليل على أن معنيّ به بعض ذلك دون بعض، فمعنى «لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» أي: لولا أن تعنّفوني - وتعجزوني - وتلوموني - وتكذبوني[1].

رابعاً - الإعراب:

«وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ»

(لمّا) ظرفية أو رابطة، وفصلت العير فعل وفاعل، و(قال أبوهم) فعل وفاعل، (إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) إن واسمها واللام المزحلقة، وجملة (أجد) خبر إن، و(ريح يوسف) مفعول به، و(لولا) حرف امتناع لوجود، و(أن تفندون) أن وما في حيزها مبتدأ خبره محذوف، وحذفت ياء المتكلم من (تفندون) للتحقيق ولمراعاة الفواصل، أما تقدير الخبر، لولا تفنيدكم موجود، وجواب (لولا) محذوف، أي: لصدقتموني[2].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) تفسير الطبري/٨/١٣/٥٩، ٦١.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه/٥/٥٤-٥٥.

رفع المسيّهم

سادساً - التفسير والبيان:

يعقوب - عليه السلام - يجد ريح يوسف - عليه السلام -

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما أمرهم أخوهم يوسف بالذهاب إلى أبيهم بالقميص وبالبشرى بجمع الشّمل، أبان في هذه الآية الكريمة استجابتهم الفورية للأمر وانطلاقهم سريعا إلى أرض فلسطين فقال:

«**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**»

التقدير: فخرجوا وارتحلوا في عير، وهي التي أقبلوا فيها من فلسطين، وقوله: «وَلَمَّا فَصَلَتِ» أي: ابتعدت عن المكان، كما قال تعالى في سورة البقرة: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ»(١)، (٢) فمعنى الجملة: ولما ابتعدت العير عن بلد مصر وجاوزت حدودها وخرجت من العريش(٣) قاصدة مكان يعقوب - عليه السلام - قريبا من بيت المقدس، وهو الصحيح(٤) والقول بأنه كان بالجزيرة لا يعوّل عليه(٥).

«**قَالَ أَبُوهُمْ**» يعقوب - عليه السلام - لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكدا لعلمه أنهم ينكرون قوله:

«**إِنِّي لَأَجِدُ**» أي: لأقول: إني لأجد(٦) والوجدان: ظهورٌ من جهة إدراك يستحيل معه انتفاء الشيء، وعبر عنه بالوجود، لأنه وجدان له بحاسة(٧)

«**رِيحَ يُوسُفَ**» والريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طِيب تدركه حاسة الشم(٨)

---

(١) البقرة/ ٢٩٥. (٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٢.
(٣) انظر: التفسير المنير/ ١٣/ ٦٢.
(٤) تفسير البحر/ ٥/ ٣٣٩.
(٥) روح المعاني/ ٧/ ٥١. (٦) نظم الدرر/ ٤/ ٩٦.
(٧) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢١٢.
(٨) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٢.



قال ابن عباس: وجد يعقوب ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال، وفي رواية عنه، من ثمانين فرسخا، وعن ابن إسحاق قال: لما فصلت العير من مصر، استروح يعقوب ريح يوسف فقال لمن عنده: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...»(١).

وجدان ريح يوسف، معجزة ليعقوب - عليه السلام -:

في الآية السابقة رأينا منة الله تعالى على عبده ورسوله يوسف - عليه السلام - حيث أوحي الله إليه أن قميصه إذا ألقى على وجه أبيه سيرد إليه بصره كما كان، وتلك معجزة ليوسف - عليه السلام -.

وفي هذه الآية الكريمة يمتنّ الله تعالى على عبده ورسوله يعقوب - عليه السلام - فيمنحه القدرة على وجدان ريح يوسف من مسافة بعيدة، وهذه معجزة ليعقوب - عليه السلام -.

فإنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات، لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة - مسيرة ثمان ليال - أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنها ليعقوب - عليه السلام - حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذَكَر، فكان معجزة له(٢).

وإن كلامه لغاية في الوضوح والاطمئنان إلى صحة ما يقول، إنه يجئ على لسانه جملة «أجد» وليس جملة «أشم» مثلاً، فكأنه ضم ابنه الحبيب فشمّه واستنشق ريحه، وهو الرجل الأعمى، فأسعفته حاسّة الشم في هذه المناسبة الإسعاف كله، والمفهوم أنه - عليه السلام - شم رائحة يوسف التي كان يعرفها في صغره، وقد سبق هذه الجملة «إنّ» و«اللام» اللتان تفيدان التوكيد، كما يجئ على لسانه-عليه السلام- (ريح) وليس (رائحة» وفرق بينهما، فالرائحة تفيد الكمية القليلة منها، وقد تكون آتية من بعد، أما الريح فتفيد القوة والقرب معا(٣)، وهذه الريح التي وجدها يعقوب - عليه السلام - علينا أن نصدق بها يقينا، أما كيف وجدها يعقوب -عليه السلام-؟.

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٥٨-٥٩، والدر المنثور/ ٤/ ٦٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢١٢.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٣٨-٣٣٩.



فهي إما أن تكون ريحاً شمّها فعلا بأنفه على الحقيقة كما تشم أرواح الأشياء ذات الريح، وهذا هو المفهوم من ظاهر السياق «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» والمناسبة لكون ذلك كرامة اختصه الله تعالى بها،

وإما أن تكون هذه الريح مشاعر وخواطر مثّلت له يوسف قريبا مقبلا عليه، أشبه بالطيف الزائر في المنام، أو الخاطر المسعد في اليقظة، وذلك كله من ألطاف الله تعالى بيعقوب - عليه السلام - ومن إشراقة نفسه الصافية، وانطلاق الروح من كثافة المادة وقيود الجسد.

هذا، وصدّهم - عليه السلام - عن مواجهتهم بالإنكار بقوله:

«لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ» أي لقلت غير مُسْتَحٍ ولا متوقف، لأن التفنيد لا يمنع الوجدان، وهو كما تقول لصاحبك: لولا أن تنسبني إلى الخفّة، أي: إني قائل به مع علمي بأنك لا توافقني عليه[1] وواضح أن هذه الجملة «لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» قوّة على ما سبقها لفهم أن الأمر معجزة، إذ أنها تكاد تكون قولا صريحاً بقرب لقائه بابنه الحبيب، ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضَعْف الرأي لصرح بذلك، فإن معنى هذه الجزئية «لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» أي: لولا خوفي من نسبتكم الخَرَف لي، لكان لي تعبير أكثر صراحة ووضوحا، ولقلت لكم: قد حانت ساعة لقائي يا بني الحبيب يوسف بعد طول غياب، والله أعلم[2] والأمر العظيم حقا، هو أن يقعوب - عليه السلام - لم ييأس من رحمة الله تعالى لحظة واحدة، منذ أن قدم عليه أبناؤه عشاء بخبر أكل الذئب ليوسف ولم يصدقهم، إلى هذه اللحظة التي يقول فيها: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» وبعد مضى قرابة أربعين عاما.

قيل ليعقوب - عليه السلام -:

شَمَمْتَ ريحه في مصر هلاً *** شممت ريحه في بئر كنْعان

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٩٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٣٩.

رفع المسلم

فأجاب:

لنا وقت نرى فــوق الســمــاء
ووقت نحن فيـه مثل عـمـيـان
إذا مــا الله لم يُظْهِــر لعــبــده
فــمــا أُذُنٌ ومــا قلبٌ وعــينان

المضمون العام للآية الكريمة:

ولما جاوزت عير بني يعقوب حدود مصر وخرجت من العريش قاصدة بيت يعقوب - عليه السلام - بفلسطين قرب بيت المقدس، قال أبوهم لمن كان معه من ولد ولده وأهله: إني لأجد ريح يوسف كما عرفتها في صغره، ولولا أن تنسبوني إلى ضَعْف الرأي وخَرَف الكِبَر لقلت لكم أكثر من هذا، وأن لقائي بحبيبي يوسف بعد طول غياب قد حانت ساعته بإذنه تعالى.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - رحمة الله تعالى بعبده يعقوب - عليه السلام - إذ بعث إلى قلبه البشرى بقرب لقائه بابنه يوسف، فوجد ريحه من مسافة بعيدة.

٢ - دلالة وجدان ريح يوسف على أنه حَيٌّ يرزق وأن ريحه متجهة إلى أبيه - عليه السلام -.

٣ - دلالتها أيضا على أن إخوته هذه المرة سيرجعون من مصر حاملين البشرى باجتماع شمل آل يعقوب.

٤ - دلالة مجئ الإخوة بالبشرى على أنهم قد ثابوا إلى رشدهم، وصَفَت أنفسهم تجاه أخويهم يوسف وبنيامين.



«الآية الخامسة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٩٥)

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ تَاللّه إِنَّكَ لَفِي ضَـلاَلكَ الْقَدِيمِ» التاء تاء القسم، والله مجرور بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم، وإن واسمها واللام المزحلقة، وفي ضلالك، خبر إنّ، والقديم صفة.

خامساً - الموقف المتعارضات: □

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

الأحفاد ومن معهم يسخرون من جدّهم - عليه السلام -

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

وجه المناسبة:

لما ذكر الله تعالى ما قاله يعقوب - عليه السلام - لأحفاده ومن معهم من أهله، استأنف حكاية جوابهم فقال:

«**قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم**»(١)

القائلون هم الحاضرون من ولد ولده وأهله، وليسوا أبناءه، لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه، ولقد قالوا ما ظنه يعقوب - عليه السلام - بهم، فكان جوابهم عليه موافقا لما توقعه منهم، وتأمل تاء القسم ولفظ الجلالة المقسَم به، وإن واللام من «لَفِي ضَلاَلِكَ» وكلاهما يفيد التوكيد(٢) والضلال: البعد عن الطريق الموصلة، والمراد به هنا ما ذكره أهل السلف، والذي عبر عنه الإمام الطبري فقال:

يقول تعالى ذكره: قال الذين قال لهم يعقوب: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ»: تالله أيها الرجل إنك من حب يوسف وذكره لفي خطئك وَزَلِّكَ القديم لا تنساه ولا تتسلى عنه(٣) والظرفية في قوله: «لَفِي ضَلاَلِكَ» مجاز في قوّة الاتصاف والتّلبّس، وأنه كتلبّس المظروف بالظرف، والمعنى أنك مستمر على التلبس بطلب من غير طريقه، أرادوا طمعه في لقاء يوسف - عليه السلام - ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته(٤)،

وصورة القسم «تالله» قد جاءت على ألسنة الإخوة في أربعة مواضع في هذه السورة:

(الأول) يمين منهم أنهم ليسوا بسارقين وأن أهل مصر بذلك جدّ عالمين «قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ»(٥)

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ٩٦.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٤٠.

(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦١-٦٢.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٣. (٥) يوسف/ ٧٣.



(الثاني) يمين منهم أن أباهم - عليه السلام - لو واظب على الحزن والجزع على يوسف - عليه السلام - يصير حرضا أو يكون من الهالكين «قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»(١)

(الثالث) يمين منهم على أن الله تعالى فضل يوسف - عليه السلام - عليهم جميعا وأنهم كانوا خاطئين «قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ»(٢)

(الرابع) في هذه الآية الكريمة، يمين من أبناء أبنائه ومن حضر معهم من آل يعقوب - عليه السلام - أنه لا يجد ريح يوسف لأنه في زعمهم قد هلك، ولكنّ إيغاله الشديد في حب يوسف جعله كعهده يتعلق دائما بلقائه(٣).

وكان في خطابهم إياه بهذا القول، خشونة واضحة منافية لحسن القول الذي ينبغي أن يقابل به قلب جريح، وممَّن؟ أهله، وهم أدري الناس بأنه نبي، وهو الذي أحسّ ريح يوسف - عليه السلام -(٤) قال قتادة: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله - ﷺ -(٥) قالوا له ذلك ولسان حال يعقوب - عليه السلام - يقول لهم:

لا يعرف الشّوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها
لا تعذل المشتاق في أشواقه
حتى تكون حشاك في أحشائه(٦)

وبعض العلماء يلتمس لهم العذر ويقول: إن إخوته قد أشاعوا عنه أنه أكله الذئب وهلك، وهم بالطبع يجهلون تماما ما حدث في مصر، وهم دائما يتمنّون ألا يأتي

---

(١) يوسف/ ٨٥. (٢) يوسف/ ٩١.
(٣) البرهان في متشابه القرآن (الكرماني) ٢٢٩.
(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٧٢.
(٥) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٢.
(٦) فتح البيان/ ٦/ ٣٩٩.



اسم يوسف على لسان أبيه يعقوب - عليه السلام - فإذا به يفاجئهم ودون مقدمات، وفي صورة قويّة من التعبير كلها ثقة بقوله: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» فما كان منهم إلا أن عبروا له صراحة بأن ما يسمعونه منه الآن ما هو إلا امتداد لضلاله القديم، في أمله العقيم بكون يوسف ما زال على قيد الحياة، ذلك الأمل الذي يسير في اعتقادهم سيرا عكسيا[1] وإذا كان خطابهم إياه بهذا القول مشتملا على شيء من الخشونة، فإن أدب عشيرته لم يكن منافيا لذلك في عرفهم[2].

وعلى كل حال، وعلى أي تقدير، فإن أحفاد يعقوب - عليه السلام - ومن كان معهم من أهله، الذين قالوا له ما قالوا، قد جاوزوا حدود الأدب والرحمة والتوقير للنبي الكريم يعقوب - عليه السلام - لقد وصفوه - عليه السلام - بالضلال، وإنما الضالون هم وآباؤهم إخوة يوسف، الذين كذبوا على أبيهم وعليهم من قبل، بافترائهم أن الذئب أكل عمهم يوسف، وهم السبب الوحيد في جعلهم يتوجهون إلى جدهم النبي بقولهم هذا المنافي للأدب، والبعيد عن كل احترام، وهم لا يعلمون أن جدهم - عليه السلام - يعلم من الله غير ما يعلمون، من أن يوسف - عليه السلام - حي، وأن الوصال به قد اقترب كثيراً، وسوف يأتي الفرج من الله بذلك عما قريب.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما قال يعقوب - عليه السلام - لبني بنيه ومن عنده من أهله «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» وذلك بعد مجاوزة العير أرض مصر وبداية سيرها في أرض الشام، فردوا عليه بغلظة وخشونة وسوء أدب، وأقسموا بالله إنه لفي ضلاله وخطئه القديم، حيث يعتقد أن يوسف حي، وقد أخبره أبناؤه من زمن بعيد أن الذئب أكله وهلك، والميت لا يعود أبدا.

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٤١.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٣.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - شدة وجفوة أحفاد يعقوب وجرأتهم الممقوتة عليه.

٢ - الكذب يبني عليه أكاذيب وضلالات، كما بنى الأحفاد قولهم على ما افتراه آباؤهم كذبا على أبيهم من قبل.

٣ - رحمة يعقوب - عليه السلام - بأحفاده وأهله، حيث لم يقابل قولهم الغليظ القاسي إلا بالصبر والصمت انتظاراً لفرج الله تعالى القريب.

٤ - عدم الرد على السفيه أوْجب لامتهانه من الرد عليه.

رفع
المسـاهم

«الآية السادسة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

ثانياً - القراءات:

«فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ» قرأ ابن مسعود: «وجاء البشير من بين يدي العير»(١)

ثالثاً - اللغة:

«البشير» فعيل بمعنى مُفْعِل، أي المبشّر، والبشارة: الخبر السار لا يعلمه المخْبَرُ به، يقال: أبْشَرْتُ الرّجُلَ وبَشَّرْتُه وبَشَرْته: أخبرته بِسَارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وَجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّتْ، انتشر الدم فيها انتشار الأوراق في الشجر، والتَّبْشير: المبادرة بإبلاغ الخبر المُسِرِّ بقصد إدخال السرور(٢)

رابعاً - الإعراب:

«فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً» (لما) ظرفية حينية أو رابطة، وإن زائدة - للتوكيد - وجاء البشير فعل وفاعل، وجملة (ألقاه) لا محل لها، والهاء مفعول به، و(على وجهه) متعلقان بـ(ألقاه) فارتد، الفاء عاطفة، وارتد فعل ماض فاعله (هو) وبصيراً حال، أو ارتد فعل ماض ناقص يعمل عمل صار، وبصيراً خبرها.

«قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»

الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وأقل مضارع مجزوم بـ(لم) والفاعل مستتر تقديره (أنا) ولكم متعلقان بـ(أقُل) وإنّ واسمها، وجملة (أعلم) خبرها، ومن الله جار ومجرور متعلقان بـ(أعلم) و(ما) موصول مفعول به، وجملة (لا تعلمون) صلة(٣).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) تفسير البغوي / ٤ / ٢٧٦.

(٢) انظر: المفردات (كتاب الباء) ٤٨، والمعجم الوسيط / ١ / ٥٨، وتفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٣.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيان / ٥ / ٥٥.



سادساً - التفسير والبيان:

«البشارة العظمى»

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وجه المناسبة:

لما ردّ أحفاد يعقوب ومن معهم عليه ردّاً قبيحا حين قال لهم: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» صبر وصمت حتى صدّق الله تعالى قوله وحقق وجدانه: في أقرب وقت فقال:

«**فلمّا أن جاء البَشِيرُ**»[١] قرأ ابن مسعود وعدّ ذلك قراءة تفسير «وجاء البشير بين يدي العير»[٢] فأسرع بعد الفصول تاركا العير وراءه، ولذلك عبّر بالفاء في (فلما) وزيدت (أنْ) لتأكيد مجيئه على تلك الحال، وزيادتها قياس مطرد[٣] وفائدة التأكيد هنا تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب - عليه السلام - لأنها خارق عادة، ولذلك لم يُؤْتَ بـ(أنْ) في نظائر هذه الآية مما لم يكن فيه داع للتأكيد[٤] ومفعول (جاء) محذوف تقديره: جاء يعقوب[٥]

كان يعقوب -عليه السلام- يشعر بقرب لقائه بابنه الحبيب يوسف-عليه السلام- ولما فوجئ بقولهم: «تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ» صمت وصبر ولم يجبهم، وسكن إلى ربه تعالى الواثق في لطفه ورحمته كل الثقة، وأنه تعالى سيحقق الرؤيا ويتم النعمة على يوسف وآل يعقوب، وفي ذلك الوقت كانت العير في طريقها إلى أرض كنعان، وما لبث الإخوة أن عجّلوا بشيراً من بينهم، لينطلق بكل سرعة إلى أبيهم-عليه السلام- بالبشرى العظيمة.

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٩٧.

(٢) روح المعاني/ ٧/ ٥٢.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ٩٧.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٣.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٧٩.



من هو البشير؟

جمهور المفسرين سلفا وخلفا يرون أن البشير هو يهوذا، الإبن الرابع ليعقوب - عليه السلام - روي ذلك عن ابن عباس في المشهور عنه، وكذا عن مجاهد وابن جريج والضحاك وغيرهم، قال السّدّي: قال يوسف: «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص مُلطّخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقيمص وأخبره أنه حيّ، فأفَرّحه كما أحزنته، فهو كان البشير(١) إذاً فالبشير هو يهوذا الذي سبق أن أحضر قميص يوسف وعليه الدم الكذب، يسبق إخوته الآن في الدخول على أبيه، ليحمل البشارة إليه، فليس بين إخوته من هو أولى بهذه البشارة وأحرص عليها منه(٢) ليمحو السيئة بالحسنة(٣).

وذهب قلة من المفسرين إلى أن البشير هو الإبن الأكبر، قال الدكتور حسن محمد باجودة: إننا نميل إلى الاعتقاد بأن أولى أبناء يعقوب بكونه البشير الذي يحمل القميص من مصر ويلقيه على وجه أبيه في الشام هو الإبن الأكبر(٤).

وما عليه الجمهور من أن البشير هو يهوذا هو الأقرب إلى القبول لأنه جاء بقميص الدم، قال أبو الفضل الجوهري: قال يهوذا لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص القرْحَة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة، فتركوه، والله أعلم.

ماذا كان يحمل البشير ليعقوب - عليه السلام -؟

كان البشير يحمل ليعقوب - عليه السلام - نعمة الخالق إلى المخلوق...

يحمل إليه النبأ العظيم الذي كان يستشرف إليه من زمن بعيد...

يحمل إليه السرور والغبطة والفرح...

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٢-٦٤.

(٢) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٤١.

(٣) تفسير المراغي/ ٥/ ٣٧.

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٣٦.



يحمل إليه الحياة الجديدة، حياة اللقاء بعد الفرقة، حياة تُثْلِج الصدر بعد الحرقة...

يحمل إليه نبأ أن فريسة الذئب هو في قيد الحياة...

يحمل إليه نبأ أن العبد المملوك صار مالكا، وأن نزيل الجُبّ أصبح فوق العرش...

يحمل إليه أن ابن البادية الذي كان يرعى الغنم، قد أصبح اليوم يرعى رعيّة له هي أهل مصر...

يحمل إليه أن صاحب الأحلام قد آن للكواكب أن تخرّ له سجّدا(١)

«أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ»

«ألقاه» أي: ألقى البشير وهو يهوذا القميص، «عَلَى وَجْهِهِ» أي: وجه يعقوب - عليه السلام -(٢) حين وصل إليه من غير فاصل بيْن أوّل المجئ وبين الإلقاء كما أفادته زيادة (أن) لتأكيد ما تفيده (لمّا) من وقوع الفصل الثاني، وهو هنا الإلقاء عقب الأول وترتّبه عليه، وهو هنا المجئ(٣).

«فَارْتَدَّ بَصِيرًا» وارتَدّ: رجع، وهو افتعال مطاوع ردّه، أي: ردّ الله إليه قوة بصره(٤) وانتصاب قوله: «بصيرا» على خبر «فارتدّ» أي: فانقلب بصيراً، أو فارتجع بصيراً، قال الرماني: الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، ولو كان إلى حال لم يكن عليها لم يكن ارتداداً، والارتداد والرجوع؛ نظائر(٥).

كان يعقوب - عليه السلام - يزداد يقينا بأن ساعة اللقاء بيوسف آخذة في الدنوّ، وقد بلغ هذا اليقين ذروته حينما أُلقِيَ القميصُ على وجهه فارتد بصيراً، إن وجود يعقوب لريح يوسف معجزة ليعقوب - عليه السلام -، وإن عودة الإبصار إلى كلتا عيني يعقوب بإلقاء قميص يوسف على وجهه بأمر يوسف، معجزة ليوسف - عليه السلام - وقد فهم يعقوب بهذه العملية كل شيء، لقد فهم أن ابنه قد اصطفاه

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٠٥.

(٢) روح المعاني/ ٧/ ٥٢. (٣) نظم الدرر/ ٤/ ٩٧.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٣.

(٥) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ١٠٠.



الله بالنبوة، وليس للفرح بهذا الفهم وبأن ابنه مسلم لله رب العالمين من مزيد، ويا له من فرح آخر هجم على يعقوب نبي الله، حينما وقعت عيناه أوّلا وقبل أي شيء؛ بعد عودة الإبصار إليهما، على أبنائه الأحد عشر، ولم يبق سوى يوسف -عليه السلام-[١] فسبحان من بدّل مرضه بالصحة، وضعفه بالقوة، وحزنه بالفرح، وبكاءه بالضحك، وتبلْبُل أفكاره بالطمأنينة، وانكسار قلبه بالجبران، وأسفه بالرجاء، فارتقى نظره إلى دور السلامة، كأنما في أضعاف هذا القميص جميع عقاقير الصحة وكل قطرات الشفاء، أو كأنما هو حلة من حلل الجنة، من لبسها عوفي من كل سوء[٢]...

إن شفاء يعقوب - عليه السلام - بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب، ولكن المهم هو طريقة الشفاء، وهي إرادة الله تعالى المنحصرة في (كن فيكون) وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أُمِر الإنسان أن يتعلمها، فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب، ولكن في طريق الشفاء، وما أعظم إعجاز القرآن الذي وصف حالة مرضية خاصة وبيّن سببها «وابيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزنِ» ولم يكن يعلم العالم شيئاً عن هذا المرض في ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل[٣].

إنها آية أجراها الله عز وجل لينبّه بها على كرامة عبديه يعقوب ويوسف - عليهما السلام - ولتكون آية للناس يتناقلونها جيلا بعد جيل، وليقصها القرآن الكريم فتبقى مَعْلَماً من معالم الإيمان.

والمفهوم أن يعقوب - عليه السلام - قد عادت إليه سائر قواه، مع رد بصره وذهاب أحزانه، وإقبال الفرح والسرور عليه من كل جانب، وليس ذلك بعجيب ولا منكر،

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٤٢.

(٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٠٣-١٣٠٤.

(٣) تفسير المراغي / ٥ / ٣٨.



فكثيراً ما شفي السرور من الأمراض، وجدّد قوى الأبدان والأرواح، والتجارب وقوانين الطب شاهد على صحة ذلك(١) فكيف يكون الأمر إذا كان الفرح والسرور بتمام نعمة الله تعالى على يوسف وآل يعقوب جميعا؟..

وبوقوع هذه المعجزة يكون الله تعالى قد صدّق قول يوسف - عليه السلام -: «يَأْتِ بَصِيرًا» فيوسف من عباد الله الذين إذا أرادوا أراد، كما أن الله أيضا بمجئ البشير بالقميص صدّق بالفعل قول يعقوب «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» فيعقوب - عليه السلام - من الذين إذا وجدوا الشيء تلميحا، وجدوه فيما بعد صريحاً(٢).

«قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ»

سبق أن أولاد يعقوب - عليه السلام - انتقدوه ولاموه حين تولى عنهم وقال: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ»، فقالوا له: «تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»، فأجابهم بقوله: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»، وقريبا لما قال لهم: «إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» اتهموه بالضلال الموغل في القدم في أمله العقيم بكون يوسف ما زال على قيد الحياة وقالوا له: «تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ»، ثم ما لبث أن جاء البشير فألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيراً بإذن الله تعالى، وبشّر بحياة يوسف وبما أفاض الله عليه من الاصطفاء بالنبوة والملك العظيم، وها هو الآن وأمام جميع آل يعقوب قد ظهر صدقه، وقد صدّقه الله تعالى في كل ما كان يقول لأبنائه، وحُقَّ له أن يقول لهم الآن وهو منتصر ومغتبط بنعمة الله تعالى، أنه كان على علم قطعي من ربه: «أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ».

ذكّرهم قوله: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(٣)

---

(١) انظر: تفسير المراغي/ ٥ / ٣٨.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢ / ١٣٠٦.

(٣) تفسير القرطبي/ ٩ / ٢٦٢.



وبقـولـه: «إِنِّي لأَجِـدُ رِيحَ يُوسُفَ لَـوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ» حـيث كـان مـتـرجّـيـاً للقـاء يوسف، مترقبا لزوال الهم والغم والحزن، وحيث كانوا يسخرون منه ويزعمون أنه تائه في بحر لجّي لا يدري ما يقول،...[1].

وحين نتـدبر قـول يعـقـوب - عليـه السـلام - نجـد أننا أولا بـصـدد «لَكُمْ» التي كـان بإمكانه أن يستغني عنها لو شاء، ولكنه حريص على شدّ انتباه أبنائه إليه شداً، وإشعارهم أنهم المقصودون أوّلا بقوله المتكرّر سابقا «إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»، ولا يخفى الدّوْر التوكِيديُّ بـ(إنّ) والدور القوى لفعل (علم) وتأمل هذه اللفتة الكريمة في قوله: «مِنَ الله» إنه التواضع الدائم الجمّ لله تعالى، وإنه الشكر والحمد والامتنان له عز وجل، وقد قدّم يعقوب - عليه السلام - هذا القول «من الله» ووضعه في المكان الذي لا يمكن تقديمه عنه، وفي ذلك إشعار دائم بأن المصدر لهذا العلم غير العادي هو الله المتفضل، الذي لا تُعد نعمه ولا تُحصى آلاؤه[2].

المضمون العام للآية الكريمة:

كم كان يعقوب - عليه السلام - في حاجة إلى تكْرُمة من الله تعالى يردّ بها على أولاده وأولاد أولاده من بعدهم، الذين كانوا يبادرونه بكلام شديد غليظ، كلما أتى على لسانه ذكر يوسف - عليه السلام -، وقد جاء بحمد الله تعالى الردّ الأعظم من المولى عز وجل حيث خابت كل ظنونهم وتحقق وعد الله تعالى ليوسف ويعقوب - عليهما السلام - في الرؤيا، وجاء البشير وهو يهوذا مبشراً بحياة يوسف -عليه السلام - وبمكانته العالية وسلطانه العظيم، وما أن ألقى قميص يوسف على وجه أبيه، حتى عاد بصيرا كما كان، بعد أن عمي حزْنا على فراق يوسف، هنالك لم يعد لأولاده أو أحفاده ومن حضر من آل يعقوب، أن يلوم أو يكذب يعقوب - عليه السلام - في شيء، ولقد كان رده الجميل عليهم، والذي يتناسب مع مكانة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٧.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٤٣.



النبوة وجلالها: «أَلَمْ أَقُلّ لَكُمْ إِنّي أعلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاتَعلَمُون» ألم أقل لكم سابقا أني أعلم من الله تعالى علما خصّني به لا تعلمونه أنتم، خاصة فيما يتعلق بأن يوسف حيّ، وأن الاجتماع به سيكون بإذن الله تعالى وفي الوقت الذي حدده الله عز وجل.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - بالبشرى العظيمة عن يوسف - عليه السلام - وحاله، وردّ بصر يعقوب - عليه السلام - بإلقاء القميص على وجهه، تحقق وعد الله تعالى بتحقيق الرؤيا وإتمام النعمة.

٢ - كان في تلك البشرى الرد الحاسم والقويّ والبالغ على كل سَفاهات الأولاد وأولادهم كلما تذكر يعقوب - عليه السلام - ابنه يوسف وأنه سيلقاه بإذن الله.

٣ - اختصاص الأنبياء والرسل وهم عباد الله المصطفون بعلم لا يعلمه غيرهم.

٤ - المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد أنبيائه تصْديقاً لهم، وتحديّاً لمكذبيهم.

٥ - كان لوقع المعجزة وتصديق الله لعبده يعقوب - عليه السلام -، أثر بالغ في نفوس الإخوة وآل يعقوب جميعا.



«الآية السابعة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ»

(يا أبانا) منادى مضاف، و(استغفر) فعل أمر وفاعله مستتر تقديره (أنت) و(لنا) متعلقان بـ(استغفر) و(ذنوبنا) مفعول به، وإنّ واسمها، وجملة (كنا خاطئين) خبرها[١].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٥٥.

رفع المسبهم

سادساً - التفسير والبيان:

(طلب الاستغفار)

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾

وجه المناسبة:

لما رجع بصر يعقوب - عليه السلام - إليه، وقرّت عينه بمعرفة حياة يوسف وما هو عليه من مكانة وملك ونبوة، وقرّر أولاده على قوله «أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»، تشوّفت النفس إلى علم ما يقع بينه وبين أولاده بعد ذلك، فأخبر الله تعالى عن ذلك بقوله:

«قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا»

«قالو يا أبانا» القائلون هم أولاد يعقوب - عليه السلام - وكانوا قد وصلوا إثر البشير، نادوه بعنوان الأبوة تحريكا للعطف والشفقة[١] «اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» أي: اسأل الله لنا أن يغفر لنا ذنوبنا التي اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا -يوسف وبنيامين- فلا يعاقبنا بها يوم القيامة.

وإنما سألوه المغفرة لأنهم ادخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله[٢] وإعلاما بأنهم تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا مع أبيهم ومع أخويهم يوسف وبنيامين[٣] فكان هذا القول «اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» اعتذارا عما حصل منهم[٤].

ولما سألوه الاستغفار لذنوبهم، عللوه بالاعتراف بالذنب، لأن الاعتراف شرط التوبة كما قال - ﷺ-: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[٥] وعن شداد ابن أوس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: سيد الاستغفار أن يقول العبد: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت،

---

(١) روح المعاني / ٧ / ٥٣. (٢) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٦٢.
(٣) التفسير المنير / ١٣ / ٦٥. (٤) فتح البيان / ٦ / ٤٠١.
(٥) نظم الدرر / ٤ / ٩٧.



أعوذبك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبي فاغفرلي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١] ومعنى «أبوء»: أقرُّ وأعتَرِف.

ولهذا فقد قالوا مؤكدين تحقيقا للإخلاص في التوبة[٢] ومعللين ذلك بقولهم:

«إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» أي متعمدين للإثم الذي ارتكبناه في حقك وحق يوسف وأخيه وحق آل يعقوب جميعا. ومن حق المعترف بذنبه أن يُصْفَحَ عنه ويُسْتَغفَرَ له، وكأنهم كانوا على ثقة من عفوه، ولذلك اقتصروا على طلب الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار[٣]...

لقد جاء الأبناء تائبين مستغفرين، بعد أن سمعوا من يوسف - عليه السلام - قوله لهم: «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليومَ يَغفِرُ اللهَ لَكُم وَهُوَ أرحَمُ الرّاحِمين»...

وبين الموقفين فارق:

الأول: أمام أخيهم يوسف، وفيه اعترفوا بالخطأ، ولا تزال المقارنة قائمة في نفوسهم «تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا» كأن الأمر صراع أو مباراة فاز فيها يوسف، نعم، نحن إخوة، وكانت القضية أنك أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، والآن نعترف أن التفضيل ليس من الأب وحده، ولكنه فوق هذا من الله تبارك وتعالى، ولم يطلبوا من أخيهم استغفاراً لهم، بل كان منه القول بعد الصفح «يَغفِرُ اللهَ لَكُم وَهُوَ أرحَمُ الرّاحِمين».

الموقف الثاني: أمام الوالد، وقد تكشَّفَت كل أبعاد القضية[٤].

---

(١) رواه البخاري/ ١١/ ٨٣، ٨٤.

(٢) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ٩٧.

(٣) روح المعاني/ ٧/ ٥٣.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٧٣-١٧٤.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما صدّق الله نبيه يعقوب - عليه السلام - وقَدِم البشير بالبشري وردَّ الله بصره إليه، أيْقَنَ الأولاد بما عليه أبوهم من علم لا يعلمونه، وأدركوا ما ارتكبوه في حقه وحق ابنيْه يوسف وبنيامين، فسارعوا يسألونه أن يستغفر لهم ذنوبهم معترفين أنهم كانوا متعمدين لخطيئتهم، عاصين لله تعالى، ظانين أن يكونوا بعدها قوماً صالحين، لقد اعترفوا بذنوبهم الآن أمام أبيهم - عليه السلام - كما اعترفوا بها من قبل أمام أخيهم يوسف - عليه السلام -.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - ارتكاب الذنب والاعتراف به والندم عليه والعزم على عدم العودة إليه سبيل لقبول الاستغفار والتّوبة منه.

٢ - التوبة والاستغفار من الذنْب باب عظيم من أبواب رحمة الله تعالى بعباده.

٣ - علَّمنا رسول الله - ﷺ - فضْل التوبة والاستغفار في أحاديث كثيرة، وأمرنا بذلك، وصحّ عنه أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرّة»(١).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧).



« الآية الثامنة والتسعون »

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى : قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» جملة (سوف أستغفر) مقول القول، ولكم متعلقان بـ(أستغفر) وربي مفعول به، وإن واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل، والغفور الرحيم خبران لـ(إنّ) أو لـ(هو) والجملة الإسمية خبر إنّ.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

(تسويف الاستغفار)

قال الله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

وجه المناسبة:

ولما سألوه - عليه السلام - الاستغفار وعللوه بالاعتراف بالذنب، حكى القرآن العظيم جوابه بقوله مستأنفاً:

«قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ»

«قال» أي: أبوهم يعقوب - عليه السلام - مؤكداً الكلامه:

«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ» أي: أطلب أن يغفر «لكم ربي» أي: الذي لم يزل يحسنُ إليّ ويربّيني أحسن تربية، فهو الجدير بأن يغفر لبنيّ حتى لا يفرّق بيني وبينهم في دار البقاء، والربوبية مُلْك هو أتم المُلْك على الإطلاق، وهو ملك الله تعالى لإنشاء الأنفس باختراعها وتصريفها أتمّ التصريف، من الإيجاد والإعدام والتقليب من حال إلى حال في جميع الأمور من غير تَعَب(١).

وتأمل قول «ربي» الذي نستشف منه صفاء روحيا ليس له حدود، نستشف ذلك من لفظ (الرب) أولا، فكثير هي الألفاظ التي يمكن أن يستعملها يعقوب -عليه السلام- في هذا الموضع، ولكنه تعمّد هذا اللفظ، لما فيه من معنى رعاية الله تعالى الدائمة له، منذ أن قدّر له أن يكون حتى اللحظة التي يخاطب فيها أبناءه، وإن انتقاء يعقوب لهذا اللفظ بالذات، من الأدلة التي لا تدخل تحت حصر على أن يقعوب - عليه السلام - عبد شكور لمولاه وخالقه، كما نستشف الصفاء الروحي ثانيا من ضمير المتكلم في «ربي» وكأنه - عليه السلام - قد استشعر في نفسه اصطفاء الله تعالى له بالمنن التي لا تحصى مما ليس لأبنائه الحضور نصيب منها، لهذا ضمّن كلامه هذا الضمير الذي يدل

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٩٧.



في هذه الصورة على أن له، بِمَنّ الله وفضله؛ عند بارئه، منزلة ليست لواحد من الحاضرين(١).

«إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»

هذه الجملة في موضع التعليل لجملة «أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ» وأكّد بضمير الفصل لتقوية الخبر(٢).

«إِنَّهُ هُوَ» أي: وحده، «الغفور» كثير المغفرة ولا أحد يغفر الذنب إلا هو، لا كما يعتقد بعض المذاهب والملل، حيث يذهبون إلى رؤسائهم الدينيين فيعترفون بذنوبهم فيغفر لهم الرؤساء، فإن ذلك شرك ظاهر وكفر واضح، لأن الذنب ذنب مع الله تعالى لا مع غيره، ولا حق لأحد من خلقه في المغفرة، «الرحيم» وافر الرحمة، وبرحمته هذه يغفر لعباده، لا لحاجته إليهم ولا لأيّ أمر آخر سوى مجرد الرحمة منه وإنه أرحم الراحمين، لا كما يزعم بعض المذاهب بأن المغفرة واجبة عليه تعالى للتوبة، ولا يجوز له ذلك بدون التوبة، فإن ذلك حكم على الله تعالى، والحكم على الله تعالى جهل وكفر(٣).

وإن هذه الجزئية على لسان يعقوب - عليه السلام - «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» لدرس بليغ لأبنائه بأن الغفور الرحيم هو الله عز وجل فقط، ولا يمكن بحال أن يكون حظ يعقوب من السماح والرحمة شيئاً، بالقياس إلى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغفور الرحيم(٤) وقوله - عليه السلام - «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ... الآية» مُشْعِرٌ بعفوه عن أبنائه(٥) تسكينا لقلوبهم، وتصحيحا لرجائهم ليقوي أملهم فيكون تعالى عند ظنهم بتحقيق الإجابة وتنجيزاً لطلبه(٦).

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٤٥. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٤.
(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٨١. (٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٣٤٥.
(٥) تفسير أبي السعود/ ٤/ ٤٠٦. (٦) نظم الدرر/ ٤/ ٩٧.



لماذا أرجأ يعقوب - عليه السلام - الاستغفار لأبنائه إلى وقت آخر؟

ذهب بعض أهل التفسير إلى أن يعقوب – عليه السلام – أخّر بنيه إلى السَّحَر، فعن محارب ابن دثار قال: كان عمّ لي[1] يأتي المسجد، فسمع إنسانا يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سَحَر، فاغفرلي، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي»، وروي مثله عن إبراهيم التَّيْمي، وعن ابن جريح، وغيرهم.

وذهب البعض إلى أن يعقوب – عليه السلام – أخر بنيه إلى صلاة الليل، فعن عمرو بن قيس في قوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي» قال: في صلاة الليل، وذهب آخرون إلى أنه أخر بنيه حتى تأتي ليلة الجملة، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله – ﷺ –: قد قال أخي يعقوب سوف أستغفر لكم ربي» يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهذا الحديث جزء من حديث طويل رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٠) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، والحاكم ١ / ٣١٦، من الطريق نفسها، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخَرِّجاه، وقد علّق عليه الذهبي فقال: هذا حديث منكر شاذ أخاف ألا يكون موضوعاً، وقد حيّرني والله جودة إسناده، فالله أعلم، وقال ابن كثير عن هذا الحديث، وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر، والله أعلم.

وذهب البعض، إلى أنه أخرهم إلى الليالي البيض، فإن الدعاء فيها مستجاب، وقيل: أخرهم ليعلم حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد دوام الاستغفار لهم، وهذا القول مبنيّ على أن السين وسوف يدلان على الاستمرار في المستقبل، وفيه كلام للنحوين[2].

---

(١) هذا نص الطبري، وعند ابن كثير، كان عمر – رضي الله عنه – يأتي المسجد

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨ / ١٣ / ٦٤-٦٥، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٢٢٠٠٧، وتفسير الماوردي/ ٢ / ٣٠٥-٣٠٦، والدر المنثور/ ٤ / ٦٨-٧٠، وتفسير القرطبي/ ٩ / ٢٦٣، وتفسير البحر/ ٥ / ٣٤١، وتفسير ابن كثير/ ٢ / ٤٩٠، وتفسير الألوسي/ ٧ / ٥٣، وفتح القدير/ ٦ / ٥٧ (هامش).



وقيل: وعدهم بالاستغفار في المستقبل إذ قال «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل، ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنه أراد أن ينبههم إلى عِظم الذنب وعظمة الله تعالى، وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة[1].

ومنهم من قال بأن التأجيل في الاستغفار لا يخرج عن احتمالين:

الأول: أن يكون يعقوب نبي الله يريد أن يتحري أنسب الأوقات التي يعتقد أن نفسه ستكون أكثر صفاء، وقلبه أكثر إقبالا على الله تعالى، لعلّ الله عز وجل يستجيب دعاءه

والاحتمال الثاني: أن يكون نبي الله يعقوب تعمد تأجيل الدعاء حتى يتوّج فرحه بلقائه الفعلي بابنه الحبيب يوسف وضمه[2].

وهناك قول بعيد، وهو أنه أخر الاستغفار لهم حتى يسأل يوسف - عليه السلام - فإن عفا عنهم استغفر لهم، وقلب النبي الرحيم يتنافي مع هذا القول بالكلية.

هذا وأقرب الاتجاهات في نظر العبد الفقير، هو أن أبناءه فاجأوه بطلب الاستغفار لهم والعفو عنهم في وقت كان فيه والدهم يعقوب - عليه السلام - في غمرة الفرحة العارمة، ونشوة السعادة الفائقة، متأثرا كل التأثر بما أفاض الله عليه من عطايا لا تعد ولا تحصى، ومتعلقا في نفس الوقت قلبا وقالبا بشكر المنعم عز وجل على تمام نعمائه على يوسف وآل يعقوب جميعا.

فما كان يملك وهو على هذه الحال أن ينتشل نفسه من كل ما هو فيه، ويستغفر لهم الاستغفار الكامل الذي يريده النبي الرحيم لأبنائه، من أجل ذلك قال:

«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» أي: عندما تتفرغ نفسي من كل شاغل يشغلها، فاقبل على ربي بالكلية في الأوقات التي تكون محلا لقبول الدعاء، صافي النفس مطمئن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٤.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٤٤.



القلب مرتاح الفؤاد، فأتوجه إليه بالدعاء ليغفر لكم «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» وفي هذا كفاية لهم منه - عليه السلام - خاصة وفيه ما يشعر بدوام استغفاره لهم، والله أعلم.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما سأل الأبناء أباهم يعقوب - عليه السلام - أن يستغفر لهم معترفين بذنوبهم، لم يشأ يعقوب - عليه السلام - أن يعجل لهم ما طلبوه، فقد كان في حال تتتابع نعماء الله تعالى عليه من كل جانب، مشغولا بشكر الله المنعم الفياض بعظيم النعم على ابنه يوسف وعليه وعلى آل يعقوب، فما كان منه - عليه السلام - إلا أن أخر الاستغفار لهم إلى حال يتفرغ فيه تفرغا تاما لدعاء ربه ليغفر لهم، وقد كان في إجابته لطلبهم ما يفيد أنه قد عفا عنهم وسامحهم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - فضيلة الاعتراف بالذنب والندم على الفعل وكون ذلك شرطا لقبول التوبة.

٢ - فضيلة دعاء الولدين للأولاد، خاصة إذا كانوا صالحين.

٣ - لا يغفر الذنب ولا يقبل التَّوْبة إلا الله تعالى وحده.

٤ - من شروط قبول التوبة بحق العباد أن يسامح من له الحق في حقه.

٥ - جواز تأخير الاستغفار أو الدعاء بصفة عامة لمن سأل ذلك إذا كان لحكمة، كتخيّر وقت وصفاء قلب، وحسن توجه.



«الآية التاسعة والتسعون»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«آمِنِين» أمن: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمنُ والأمانة والأمان في الأصل مصادر(١).

رابعاً - الإعراب:

«فلمَّا دَخلوا علَى يُوسُفَ آوَى إليْهِ أبَوَيْهِ»

عطف على محذوف تقديره، ثم توجهوا إلى مصر وخرج يوسف وحاشيته لاستقبالهم، ودخلوا فعل وفاعل، وعلى يوسف، متعلقان بـ(دخلوا) وجملة (آوى) لا محل لها، وإليه متعلقان بـ(آوى) وأبويه مفعول به، والظاهر أن دخولهم عليه كان في مضرب له في ضاحية البلد ولذلك عطف.

«وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ»

ادخلوا مصر، فعل وفاعل ومفعول به، و(إن) شرطية، وشاء فعل الشرط، والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه، وجملة الشرط اعتراضية بين الحال وصاحبها، فـ(آمنين) حال من الواو(٢).

---

(١) المفردات (كتاب الألف) ٢٥.

(٢) إعراب القرآن وبيانه / ٥ / ٥٦.



خامساً - الموقف من المتعارضات:

من هي أم يوسف التي آواها إليه؟

هل هي أمه الحقيقية «راحيل»؟ أو خالته (ليئة) أخت راحيل؟ أو بلهة جارية أمه؟ أو جدّته أم أمه؟

(أ) ذهب بعض المفسرين إلى أن أم يوسف التي حضرت إلى مصر، والمشار إليها في قوله تعالى: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ»، هي أمه الحقيقية «راحيل» قال الحسن وابن إسحاق: كانت أمه (راحيل) بالحياة، وقال قتادة: «أبويه» أبوه وأمه ضَمَّهما. وممن قال بذلك الإمام الطبري، والإمام ابن عطية، والإمام أبو حيان[1].

(ب) وذهب جمهور المفسرين إلى أن أم يوسف التي حضرت إلى مصر هي خالته (ليئة) أخت (راحيل) وقالوا: إن أمه (راحيل) توفّيت في نفاس بنيامين، فعن السّدي أن (أبويه) أبوه وخالته، وعن سفيان بن عيينه، «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» قال كانت الخالة، وقال وهب بن منبه: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» أبوه وخالته، وكانت أمه توفيت في نفاس بنيامين[2] وقال الإمام الألوسي: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» المراد بهما أبوه وخالته (ليا) وقيل: راحيل، وليس بذاك، والخالة تنزّل منزلة الأم لشفقتها، كما ينزل العم منزلة الأب، ومن ذلك قوله: «وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»[3]، [4] وقال الإمام القاسمي: قالوا «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» عني بأبويه والده وخالته، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين[5].

وقال الإمام الطاهر بن عاشور: الصحيح أن أم يوسف وهي راحيل توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين[6] وقال غيرهم مثل قولهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٧، وتفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٧٧، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٤١.
(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٧، والدر المنثور/ ٤/ ٧١. (٣) البقرة/ ١٣٣.
(٤) روح المعاني/ ٧/ ٥٥. (٥) تفسير القاسمي/ ٤/ ٣٩٨.
(٦) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٥.



(جـ) **وذهب البعض** إلى أن المراد من أمه في قوله: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» (بلهة) جارية أمه ومربّيته حال حياة أمه وبعد وفاتها.

قال الشيخ عبد الله العلمي ما خلاصته:

إنه من قال بأن من حضرت لمصر هي أمه الحقيقية، (راحيل) يرد عليه بأن كتب التاريخ تبعاً لِسفْر التكوين تؤكد أنها توفيت وعمر يوسف عشر سنين، ودفنت على طريق إفراته «بيت لحم».

ومن قال بأن المراد بها خالته (ليئة) أخت راحيل، يرد عليه بأنه ورد في التواريخ تبعا لسفر التكوين أنها ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر، ودفنت في الغار الشريف، ثم قال:

والصحيح أن التي حضرت لمصر (بلهة) جارية أمه، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها... والمربية تدعى أُمّاً لقيامها مقام الأم، وقد ورد في الحديث أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «أمّ أيمن أمّي بعد أمّي» لأن «أم أيمن» كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة «آمنة بنت وهب» من حين أن كان عمره ست سنين إلى أن انتقل إلى بيت جده عبد المطلب، وهكذا كان الحال في (بلهة)[1].

(د) **وقال بعضهم:** المراد أبوه وجدته أم أمه، حكاه الزهراوي[2].

القول المختار:

هو أن أم يوسف - عليه السلام - التي حضرت إلى مصر، هي أمه الحقيقية (راحيل) لأنه الذي يتناسب مع ظاهر النص القرآني، ولا يوجد سند قوي يؤكد وفاتها، فلا حاجة إلى التأويل، والتاريخ الإسرائيلي لا يعول عليه، وقد ثبت عدم صحته في مواطن كثيرة.

قال الإمام ابن عطية مشيرا إلى هذا القول: والأول أظهر - بحسب اللفظ - إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت[3].

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٢٤-١٣٢٥.

(٢) روح المعاني/ ٧/ ٥٥. (٣) تفير ابن عطية/ ٩/ ٣٧٧.



وقال الإمام أبو حيان: والأظهر أنهما أبوه وأمه راحيل(١).

وقال الإمام برهان الدين البقاعي: والظاهر أنها أمه حقيقية(٢).

وقال الإمام أبو الطيب القنوجي: وقيل: كانت أمه باقية، فلا حاجة إلى التأويل وهو الأولى بالنظم القرآني(٣).

وقد صوّب الإمام الطبري هذا الاتجاه وقال: إن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس، والمتعارف بينهم في أبوين، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلّم حينئذ لها(٤).

ويردّ الدكتور حسن محمد باجودة على القائلين بأن أمه لو كانت حيّة لملأت الدنيا صراخا وعويلا وحزنا على يوسف، فيقول:

قد يقول قائل: وأين دور والدة يوسف - عليه السلام - في الحزن عليه؟ إذ جَرَت العادة بأن تتفوّق الوالدة على الوالد في هذا المضمار؟

والجواب على هذا أننا نتبيّن في يعقوب - عليه السلام - أبا في الحنان لا كالآباء، فنحن بصدد رجل قد خصه الله تعالى بأن وضع في قلبه من المحبة لأولاده الشيء الذي لا يكاد يتصور، بخاصة يوسف وأخوه، وكذلك خصه بابتلائه في فلذة أكباده وأحب أبنائه إليه، فإذا عرفنا أنه كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، أدركنا أنها فترة على أقل التقديرات طويلة، قضاها يعقوب - عليه السلام - حزينا على يوسف، ذلك الحزن الذي لم تزدْه الأيام إلا استفحالا حتى انتهى به إلى العمي،...

وأين هي الوالدة التي يمكن أن تحزن على ولدها حزنا قريبا من حزن يعقوب في القوة وطول المدة، إن والدة يوسف، ونرجح أنها هي المقصودة بقوله تعالى: «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» وليس خالته، يجب أن تكون قد حزنت عليه حزنا بعيد المدى، وفرق ما بيْنَ الحزنيْن،

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٤١. (٢) نظم الدرر / ٤ / ٩٨.

(٣) فتح البيان / ٦ / ٤٠٢. (٤) تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٦٧.



أنّ حزنها كان يسير باستمرار نحو الضعف، بعكس حزن يعقوب، بل ليس هناك ما يمنع، أن يكون لها بدافع الإشفاق عليه، رأي فيه، يوافق ما قيل بحقه كما جاء في الآية «قَالُواْ تَاللّه إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ»(١).

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٣٤٦-٣٤٧.

رفع
المسلم
عبد الله إبراهيم

سادساً - التفسير والبيان:

« مصر تفتح أبوابها لآل يعقوب جميعا »

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

وجه المناسبة:

لما ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم – عليه السلام – وأخبروه بخبر يوسف – عليه السلام – ودعوته لهم جميعا بالإقامة في مصر، أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان إلى مصر، فخرج يوسف للقائهم فقال:[١]

« فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ »

ففي الكلام حذف بالإيجاز تقديره، فرحل يعقوب – عليه السلام – بأهله وساروا حتى أتوا يوسف «فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ»[٢] ولقد طوى السياق الكريم الزمان والمكان، فلم يذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف إذ ليس فيه شيء من العبر[٣] ومضى في مفاجآت القصة لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر[٤] وإعادة اسم يوسف في قوله: «فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ» لأجل بعد المعاد، والمراد أنهم دخلوا عليه في المكان الذي تلقاهم إليه في وجوه أهل مصر وضرب به مضاربه[٥] **وهذا هو الدخول الأول على يوسف - عليه السلام -** حيث استقبلهم مع كبار رجالات الدولة على مشارف عاصمة مصر في المكان المحدّد لاستقبالهم، زيادة في الاهتمام بأبيه وأهله، كرامة لهم، وإظهارا للفرحة بقدومهم، كما يفعل الناس اليوم بالنسبة لأصحاب المناصب العليا كالرؤساء ونحوهم، حيث يستقبلونهم في ميناء الدولة البري أو البحري أو الجوي في استراحة

---

(١) انظر: التفسير المنير / ١٣ / ٦٨.   (٢) روح المعاني / ٧ / ٥٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ٥٥١٣.

(٤) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٨.

(٥) نظم الدرر / ٤ / ٩٨.



خاصة تسمى باستراحة كبار الزوار، ثم بعد أخذهم قسطا من الراحة يدخلون بهم إلى عاصمة الدولة، حيث المكان المحدّد لإقامتهم، ولا يبعد أن يكون - عليه السلام - قد أرسل فرسانا لاستقبالهم عند أول دخولهم حدود الدولة بعريش مصر.

فرحة اللقاء:

«**آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ**» إكراما لهما بما يتميزان به[1] فضمهما إليه واعتنقهما، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً[2] إعلانا عن علو منزلتهما وليصحباه في دخول مصر دون أن يتحملا مشقة السفر مع آل يعقوب[3] وهذا القول «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» يدل على حرارة اللقاء لمغتربين، وعواطف اللقاء لا تخضع لقوانين البشر، ولكنه انفعال خاص، فواحد تلقاه بالسلام بالكلمة، وواحد تسلم عليه، وواحد تعتنقه، فهذا انفعال[4] ويا له من مشهد مبهر بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام، وبَعْد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضْني، والحزن الكامد، واللهف الظامئ الشديد، يا له من مشهد حافل بالانفعال، والخفقات والفرح والدموع[5] ويا له من لقاء عظيم تشهده ملائكة السماء وأهل الأرض، ويا له من مشهد كريم فائق الوصف والتصوير.

هذا، ونلحظ أن كلمة «آوَى إِلَيْهِ» نقرؤها للمرة الثانية في هذه السورة، ففي المرة الأولى «آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» وفي هذه المرة «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» فكان يوسف - عليه السلام - خير مأوى لأهله، بعد حياة القلق، وخوف المجاعة، والتعرض لأخطارها في البدو[6] وهذه الجملة «آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» تذكرنا بحديث رسول الله - ﷺ - الذي رواه الشيخان

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٧.

(٣) انظر: يوسف بن يعقوب / ٤٥٥.

(٤) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٥) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٩.

(٦) دروس من سورة يوسف / ١٧٥.



عن أبي واقد الحارث بن عوف - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله - ﷺ -، وذهب واحد، فوقفا على رسول الله - ﷺ -، فأما أحدهما فوجد فُرْجَة في الحلْقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله - ﷺ - قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة:

أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله إليه، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه(١).

الدخول إلى العاصمة المصرية:

«وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ»

«ادْخُلُواْ مِصْرَ» أي البلد المعروف، والمعنى: تمكنوا منها واستقروا فيها(٢) **وهذا هو الدخول الثاني إلى عاصمة مصر**، فإنه بعد أن تم استقبالهم خارجها وأخذوا قسطا من الراحة، أمر يوسف - عليه السلام - للركب المهيب بالتحرك نحو العاصمة المصرية، وفي صحبته أبويه، فلما بلغها قال لهم مكرما لجميع أهله: «ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ».

وجملة «إِن شَاءَ اللّهُ» تأدب مع الله تعالى، كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر، وهو لمجرد التيمّن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث، حيث يقول ﷺ: «لا يقل أحدكم اللهم اغفرلي إن شئت... الحديث»(٣) فإنه لا مُكرِه له، لأن ذلك في دعاء المخاطب لِلّه صراحة(٤) وذكر المشيئة في كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخر ذلك لهم، وسخر لهم مَلك مصر وأهلها له ثم لهم، وهذا من شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقون، وقوله: «آمنين» أي: على أنفسكم

---

(١) متفق عليه، البخاري/ ١/ ١٤٣، ١٤٤، ومسلم (٢١٧٦).

(٢) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٤١. (٣) رواه البخاري (٧٣٧٧).

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٥-٥٦.



وأنعامكم من الجوع والهلاك، فإن سِنِي القحْط كانت لا تزال باقية(١) وآمنين من جميع المكاره والمخاوف(٢).

والأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يُخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم - عليه السلام - «رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا»(٣) إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد(٤)، وهكذا... دخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النَّصَب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة(٥).

بم تعلقت المشيئة في قوله: «ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ»؟

قيل: التقيّد بالمشيئة عائد إلى الدخول مع الأمن(٦) وقيل: عائد إلى الدخول فقط(٧) وقيل: عائد على الأمن فقط كما في التفسير(٨) ولا مانع من عوده إلى الجميع، لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته كذلك(٩)

وقيل: إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قول يعقوب - عليه السلام -.

«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ» قال: وهو من المؤخر الذي معناه التقديم، قالوا: وإنّما معنى الكلام: قال: استغفر لكم ربي إن شاء الله إنه هو الغفور الرحيم (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال: ادخلوا مصر) ورفع أبوه، وقد نُسِب هذا القول إلى ابن جريح.

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السُّدّي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر

---

(١) تفسير المراغي/٥/٤٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن/٢/٤٤٧. (٣) إبراهيم/٣٥.
(٤) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٥٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن/٢/٤٤٧.
(٦) انظر: تفسير الكشاف/٢/٣٤٤. (٧) انظر: تفسير البحر/٥/٣٤١.
(٨) انظر: روح المعاني/٧/٥٥. (٩) انظر: فتح البيان/٦/٤٠٢.



حين تلقاهم، لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريح، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه، أو تأخيره عن مكانه إلا بحجة واضحة(١) وقد رد العلماء هذا القول وقالوا بأنه بعيد جدا وممتنع، بل قد قال الزمخشري عنه: إنه من بدع التفاسير(٢).

وواضح أنه - عليه السلام - يعلق دخولهم مصر، مصحوبين بالأمن والطمأنينة، بمشيئة الله تعالى وإرادته، وهذا درس يلقيه علينا يوسف - عليه السلام - وهو يذكرنا بقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم محمدا - ﷺ -: «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا»(٣)(٤).

دخول آل يعقوب - عليه السلام - مصر ومبدأ التاريخ العبراني:

يذكر التاريخ أن آل يعقوب دخلوا على يوسف في مصر سنة ٢٣٩٣ ش.ق. هـ (أي سنة شمسية قبل الهجرة). واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر، وهذا مبدأ تاريخ العبرانيين، وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥) سنة، ثم بعده - أي بعد هذا التاريخ - خرجوا من مصر على يد قائدهم موسى - عليه السلام -، ثم افتتحوا بلاد سورية الطبيعية - يعني أرض كنعان بفلسطين - على يد قائدهم النبي يوشع بن نون - عليه السلام -.

ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة مُسْتَعْمِرة لبلاد كنعان وفلسطين التي هي أرض (المعياد) حسب توراتهم(٥).

---

(١) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٦.

(٢) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٤.

(٣) الكهف/ ٢٣-٢٤.

(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٢٣.



المضمون العام للآية الكريمة:

استجاب يعقوب - عليه السلام - لطلب ابنه يوسف - عليه السلام - ليحضر وأهله أجمعين إلى أرض مصر الطيبة، وما أن وصل يعقوب - عليه السلام - إلى أرض مصر حتى وجد ابنه يوسف - عليه السلام - ومعه ملك مصر ووجهائها ولفيف من شعبها في انتظارهم على أحرّ من الجمر، على مشارف عاصمة مصر آنذاك وكان لقاء عظيماً فوق الوصف والكلام، وكان يوسف - عليه السلام - قد آوى إليه أبويه إعزازاً وتكريما لهما واعترافاً بفضلهما، ولما أخذوا قسطا من الراحة، أذِنَ يوسف - عليه السلام - للرّكب الكريم بالتحرك نحو العاصمة المصرية، وقال «ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ» فكل شيء لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، ادخلوها واستقروا فيها وأنتم بإذن الله تعالى آمنين من كل خوف مُنَعَّمين بكل ما هو كريم وحبيب، وهكذا التَأم الشمل بعد زمان طويل وأسى مرير، وسبحان من جعل لكل شيء قدَراً، فهنيئاً لمصر بيعقوب وآله.

رابعاً - من نور الآية الكريمة:

١ - فرحة اللقاء بعد طول غياب، واجتماع الشمل بعد تفرّق وعذاب.

٢ - استحقاق الوالدين للتكريم قبل غيرهما، وهكذا فعل يوسف بأبويْه.

٣ - الأمان مطلب هام ولذلك عده الله تعالى من أعظم النعم فقال واصفاً نفسه جل وعلا: «الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ»(١).

٤ - مِنَّةُ الله تعالى على مصر بتشريف نبيين كريمين لها، ووجود الأسباط الاثني عشر بين أحضانها وهذه بركة مباركة وشرف عظيم.

٥ - لمصر الطيبة مكارم جمة اختصها الله تعالى بها.

---

(١) قريش / ٤.

رفع المسلم

«الآية المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» عرش: العَرْش في الأصل شيء مُسَقَّفٌ، وجمعه عُرُوشٌ، قال تعالى: «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا»(١) وَسُمِّيَ مجلس السلطان عَرْشاً اعتباراً بعلوه، قال تعالى: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ»(٢).

«وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا» الخرور: الهُوِي والسقوط من عُلُوّ إلى الأرض(٣) والسجود: أصله التّطامن والتذلّل، وجعل ذلك عبارة عن التذلّل لله وعبادته، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما يجري مجري ذلك من سجود القرآن وسجود الشكر(٤).

«وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ» البدْو: خلافُ الحَضَر، قال تعالى: «وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ» أي: البادية، وهي كل مكان يبدو ما يَعِنُّ فيه، أي يعرض، ويقال للمقيم بالبادية بَادٍ، كقوله تعالى: «سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» وقوله: «يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ»(٦)، (٧).

«مِنْ بَعْدِ نَّزغَ الشَّيْطَانُ» نزغ: أفسد، يقال: نَزَغَ بين القوم نزْغاً: أفسد وحمل بعضهم على بعض، وفي التنزيل «مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي»

(١) البقرة/ ٢٥٩. (٢) المفردات (كتاب العين) ٣٢٩.
(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٦.
(٤) المفردات (كتاب السين) ٢٢١-٢٢٢.
(٥) الحج/ ٢٥. (٦) الأحزاب/ ٢٠.
(٧) المفردات (كتاب الباء) ٤٠.



والنَّزْغ: الكلام يُقْصَد به الإغراء بين الناس، وَنَزْغ الشيطان: وساوسه وما يحمل به الإنسانَ على المعاصي، والنَّزْغة: الطَّعْنَةُ والنَّخْسَة(١).

«لَطِيفٌ» هو من أسماء الله تعالى معناه: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف إذا رفق به(٢).

رابعاً - الإعراب:

«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا» (ورفع أبيه) فعل وفاعل مستتر مفعول به، و(على العرش) متعلقان بـ(رفع) و(خروا) فعل وفاعل، و(له) متعلقان بـ(خروا) و(سجدا) حال.

«وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ» (يا أبت) تقدم إعرابها، و(هذا) مبتدأ، و(تأويل) خبر، و(رؤياي) مضاف إليه و(من قبل) حال.

«قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» (قد) حرف تحقيق، و(جعلها ربي) فعل وفاعل، و(حقا) مفعول ثاني، والجملة حال مقدرة أو مقارنة.

«وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» الواو عاطفة، و(قد) حرف تحقيق، و(أحسن) فعل ماضي، و(بي) متعلقان بـ(أحسن) وأحسن أصله أن يتعدى بـ(إلى)، وقد يتعدى بالباء، كما يقال: أساء إليه وبه، قال كثير:

أسيئ بنا أو أحْسِني لا ملومة *** لعزة من أعراضنا ما استحلت

قال ابن هشام: معناها الغاية، أي إِلَيّ، وقيل: ضمّن أحسن معنى لطف فعدّاه بالباء كما تقول: لطف الله بك، فالباء، حينئذ للإلصاق، لأن اللطيف ملتصق وقائم بالمتكلم، والتّضمين شائع، وهو إشراب الكلمة معنى آخر، و(إذ) متعلق بـ(أحسن) أيضاً، وجملة (أخرجني) مضافة، والفاعل مستتر، والياء مفعول به، و(من السجن) جار ومجرور متعلقان بـ(أخرجني).

---

(١) المعجم الوسيط/ ٢/ ٤/ ٩.

(٢) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٥.



«وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» (بكم) متعلقان بـ(جاء) و(من البدو) متعلق به أيضا، و(من بعد) حال، و(أن) وما في حيزها مضافة للظرف، و(الشيطان) فاعل نَزَغَ، و(بيني) ظرف متعلق بـ(نزغ) و(بين) عطف على الظرف الأول، و(إخوتي) مضاف إلى (بين).

«إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» إنّ واسمها وخبرها، و(لما) متعلقان بـ(لطيف) أي لطيف التدبير لأجله رفيق، وجملة (يشاء) صلة و(إنه) إن واسمها، و(هو) ضمير فعل أو مبتدأ، و(العليم الحكيم) خبران لإنّ، أو لـ(هو)[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٥٦/ ٥٧.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

(رفع وسجود ووئام واعتراف بفضل الله تعالى ومنته ولطفه)

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

وجه المناسبة:

ولما ذكر الأمن الذي هو ملاك العافية التي بها لذة العيش، أتبعه الرفعة التي بها كمال النعيم فقال:

«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ...»(١)

الرفع: هو النقل إلى العُلوّ(٢) والعرش: سرير الملك ومجلس العز والرفعة، وكل ما عُرِّشَ فهو عريشٌ وعَرْش، وخَصَّصَت اللغةُ العرش لسرير الملك(٣) فالعرش: السرير الرفيع، قال تعالى: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم»(٤) والمراد به السرير الذي كان يجلس عليه يوسف(٥) وقد يُعَبَّرُ بالعَرْش عن المُلْكِ والمِلك نفسه، ومنه قول النابغة الذبياني:

عُرُوشٌ تَفَانَوْا بعْد عِزٍّ وأمْنَةٍ(٦)

والعرش كرسي تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك(٧) فهو سرير للقعود فيكون مرتفعا على سوق وفيه سعة تمكن الجالس من الاتكاء(٨) كما هي عادة الملوك(٩) والألف واللام في (العرش) عوض عن المضاف إليه، أي على عرشه الذي يجلس عليه، وهو عبارة عن تعظيمها واحترامهما، حيث كان لا يُجلِسُ أحداً على سريره وعرشه(١٠).

---

(١) نظم الدرر/ ٤ / ٩٨.   (٢) تفسير البغوي/ ٤ / ٢٧٩.   (٣) تفسير ابن عطية/ ٩ / ٣٧٧.
(٤) النمل/ ٢٣.   (٥) تفسير الفخر الرازي/ ٩ / ١٨ / ٢١٥.
(٦) تفسير القرطبي/ ٩ / ٢٦٤.   (٧) تفسير المراغي/ ٥ / ٤١.
(٨) تفسير التحرير والتنوير/ ٧ / ١٣ / ٥٦.   (٩) فتح البيان/ ٦ / ٤٠٣.
(١٠) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٨٣.



عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» قال: العرش: السرير، وفي موضع آخر قال: إنما سُمّي العرش عرشا لارتفاعه، وفي رواية عنه قال: العرش: السرير، والرفع: النقل إلى العلو، وعن السدي والضحاك ومجاهد وقتادة وسفيان مثله وعن ابن زيد: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» قال: مجلسه[١].

إن يوسف - عليه السلام - لما دخل عاصمة مصر آنذاك وكانت تسمى (صوعن) وبصحبته والديه، فلما بلغ مكان عرشه ومجلسه الموقر، أجلس أبويه على العرش إجلالا لهما وتعريفا بعزّة مكانتهما فوق ما فعله بإخوته إذ كانوا جلوسا بين يديه[٢].

«وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» أي أبوه وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام[٣] وكان السجود تحية الملوك واحترامهم، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية، ولذلك فلا يعدّ قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنه لا غضاضة منه إذ هو عادتهم، و«سجدا» حال مبيّنة، لأن الخرور يقع بكيفيات كثيرة[٤] فهو سجود كالسجود في الصلاة، لأن الخرور في اللغة المقيّدة بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض[٥] قال ابن عباس: وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان، وزاد قتادة: السلام تحية أهل الجنة كرامة من الله تعالى، عجّلها لهم ونعمة منه، وروي قريبا من ذلك عن سفيان وابن جريج والضحاك، وقال ابن زيد: ذلك السجود تشرفة كما سجدت الملائكة لآدم - عليه السلام - تشرفه - ليس سجود عبادة[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٧-٦٨ - وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢٢٠١، والدر المنثور/ ٤/ ٧١، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود/ ٤/ ٣٠٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٨.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٦. (٥) فتح القدير/ ٣/ ٥٨.

(٦) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٦٨-٦٩، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢٢٠٢، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٣٠٨، والدر المنثور/ ٤/ ٧١.



وقد أجمع المفسرون على أن ذلك السجود على أي وجه كان، فإنما كان تحية لا عبادة، لأن العبادة لا تكون إلا لله المعبود الواحد جل وعلا.

وتحققت الرؤيا:

« **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** » كان سجود الأبوان والإخوة جميعا ليوسف - عليه السلام - إشعاراً بتمام تحقيق رؤياه بأمر من هو غالب على كل أمر(١) لقد رآى يوسف - عليه السلام - رؤياه أول القصة في فلسطين، وكان تحققها في مصر، وبين الرؤيا وتعبيرها كل هذه السنين، رؤيا كانت في البادية، وتحققها في قصر عزيز مصر، وبين الرؤيا وتعبيرها كل هذه السنين، التي تتراوح بين العشرين أو الثلاثين أو الأربعين عاما كحد أقصى، وبينهما هذه التجارب العميقة، إلى أن تم تأويلها بمشهد السجود(٢) ذلك المشهد الختامي الموصول بمطلع القصة « إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » ذلك في ضمير الغيب، وهذا في واقع الحياة، ويذكر يوسف - عليه السلام - رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته وأبويه له تماما كما رآى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين(٣).

طريق طويل بين الرؤيا، وبين تحقيقها على أرض الواقع، ولقد ظلت الرؤيا سنين، تحمل فيها يعقوب ويوسف - عليهما السلام - صنوفا من الحزن والمحن، تحملها يعقوب وهو في مكانه، يكظمها تارة، ويبثها تارة، تفيض بها عينيه دمعا، ويتحرك بها لسانه دعاء وأسفا على يوسف، ويجزع لها القلب، وحوله من الأهل من يصف الألم الكبير، بالضلال القديم، ويحذره طول الحزن، فغايته الهلاك،....

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ٩٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري / ٦٩-٧١، وتفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢٢٠٢، والدر المنثور / ٤ / ٧١-٧٢، ودروس من سورة يوسف / ١٧٦.

(٣) انظر: تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٩.



ويوسف - عليه السلام - يمر من تجربة إلى تجربة، طاهرا كالشعار، والرؤيا حق القلب، الذي ينتظر حق العين والمشاهدة(١).

«وقال» أي يوسف - عليه السلام - «يا أبت» ملذّذا له الخطاب بالأبوة، «هذا» أي الذي وقع من السجود(٢) «تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ» التي رأيتها أيام الصبا(٣)

ابتداء تعداد نعم الله تعالى عليه:

«قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...» بهذه الجملة ابتدأ يوسف - عليه السلام - تعداد نعم الله تعالى عليه، ومعنى «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» أي: إن ربي الذي رباني بما أوصلني إليها قد جعل رؤياي صدقا، لا باطل فيها ولا لغو(٤) لقد كانت من الأخبار الرمزيّة التي يكاشِفُ بها العقلُ الحوادث المغيبة عن الحس، فجعلها ربي حقيقة مطابقة للواقع المحسوس، ولم يجعلها باطلا من أضغاث الأحلام الناشئة عن غلبة الأخلاط الغذائية أو الانحرافات الدماغية(٥).

مصداق قول يوسف ومصداق قول أبيه - عليهما السلام -:

يقول يوسف هنا: «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا»، يريد أن هذا مصداق قوله سابقا «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»...

وأما مصداق قول أبيه له: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...» فقد اجتباه ربه بالنبوة والرسالة، كما قال مؤمن آل فرعون: «وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً»(٦)...

وأما مصداق قوله: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» فقد أوّل حِلْمَي الساقي والخباز، وحِلْمَيْ ملك مصر،...

---

(١) دروس من سورة يوسف / ١٧٨-١٧٩.

(٢) نظم الدرر / ٤ / ٩٨. (٣) تفسير البيضاوي / ١ / ٤٩٦.

(٤) انظر: تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٧٩، وتفسير البحر / ٥ / ٤٢ ونظم الدرر / ٤ / ٩٨.

(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٧.

(٦) غافر / ٣٤.



وأما مصداق قوله: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» فقد تمّت بخروجه من السجن، إلى كرسي وكالة المملكة، وأنه صار وزير مالية مصر وعزيزها، وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين وإنقاذهم من الهلاك بالقحط بإذن الله تعالى، وأما مصداق قوله: «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» فقد صار بخروجهم فيما بعد من أرض السخرة والعبودية، ثم بدخولهم أرض الشام أرض العز والحرية، حيث استولوا عليها على يد موسى - عليه السلام - ثم على يد يوشع بن نون، وقيّض الله لهم قضاة يحكمونهم، ثم آتاهم الله الملك، وجعل في سلائلهم النبوة والكتاب، وأنزل على موسى - عليه السلام - منهم التوراة، وعلى داود - عليه السلام - الزبور، وعلى المسيح - عليه السلام - الإنجيل، وفضلهم على عالمي زمانهم، حيث كانوا موحّدين، وأما باقي أهل عصرهم ومواطنيهم من الأمم فكانوا وثنيين(١).

«وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» وتعدّية (أحسن) «بالباء» دل على القرب من المحسن من التّعدية بـ«إلى»(٢) فالإحسان يتعدّى بالباء، وبإلى، فيقال: أحسن إليه وأحسن به، وكذلك أساء إليه وأساء به، قال كثّير عزّة:

أسيئِ بنا أو أحْسِني لا مَلُومةً *** لديْنا ولا مقْليةً إن تَقلَّتِ(٣)

ومثال تعدية الإحسان بإلى في القرآن الكريم قوله تعالى في شأن قارون على لسان قومه: «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ»(٤) وتعدية الإحسان بالباء أبلغ، لأن من أحسن به الله هو من يتصل به بِرُّه، وحسن معاملته، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه، وعدم انفصال عنه، وأما من أحسن الله إليه، فهو الذي يسري بره، ولو على بعد، أو بالواسطة، إذ هو شيء يساق إليه سوقا، ونظير ما هنا من تعدية الإحسان بالباء قوله تعالى: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً»(٥) (٦).

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٣٢-١٣٣٣. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩.

(٣) البيت لكثير عزة من الطويل، انظر ديوانه/ ١/ ٥٣.

(٤) القصص/ ٧٧. (٥) البقرة/ ٨٣.

(٦) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٣٣-١٣٣٤.



وقوله - عليه السلام - «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» يدل على لطفه وحسن خطابه(١)، حيث ذكر نعمة إخراجه من السجن ولم يذكر نعمة إخراجه من الجب لوجوه:

الأول: أنه قال لإخوته «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم اليَوم» ولو ذكر واقعة البئر لكان تثريبا لهم، فكان إهماله جاريا مجرى الكرم.

الثاني: أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيروه عبداً، أما لما خرج من السجن صيره ملكا، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا.

الثالث: أنه لما أُخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة، فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة، فكان هذا أقرب إلى المنفعة.

الرابع: قصر المدة في الجب وطولها في السجن.

الخامس: الجب كان في حال صغره ولا يعقل فيها المصيبة، ولا تؤثر في النفس كتأثيرها في حالة الكبَر.

السادس: أمر الجب كان بَغْيا وظلما لأجل الحسد، وأمر السجن كان عقوبة لأمر ديني وهو منزه عنه، وكان أمكن في نفسه.

السابع: مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنسة فيه جبريل وغيره من الملائكة - عليهم السلام -(٢).

وأحسن الأوجه هو الوجه الأول، والنص القرآني يؤيده، فإنه - عليه السلام - لو ذكر نعمة الله تعالى عليه في إخراجه من الجب، لكان تثريبا وعتابا شديداً لإخوته، وقد عفا عنهم من قبل وقال لهم: «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فكان عدم ذكر نعمة إخراجه من السجن تصديقا لقولهم، وهو ما يتناسب مع مقام النبوة العالي وخلقها الكريم، والله أعلم.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٨.

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ٢١٨، ويوسف ابن يعقوب / ٤٥٨-٤٥٩.



«وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ» البدو: ضد الحضر، سُمّي بَدْواً لأن سكانه بادون، أي: ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب(1)، فـ«البدو» هنا بمعنى البادية، وهي خلاف الحاضرة، والنسبة إليها بدويٌّ، قال سراج الدين الورّاق موريا:

وبي من البدْو كحلاء الجفون بَدَتْ

في قومها كمهاة بين آساد

فلو بدت لحسان الحُضْر قُمْن لها

على الرؤوس وقلن: الفضل للبادي

فقوله: «وبي من البدو» أي البادية، وقوله: «بدت» أي ظهرت، وقال بدا من باب سما أي ظهر، وقوله «الحُضر» جمع حاضر، أي ساكن في الحاضرة، وهو كفارس وفُرْس، وقوله «للبادي» هو موضع التورية، ومعناه المقيم في البادية، بقرينة، «البدو» ومقابلته بالحُضْر، أو معناه الظاهر بقرينة «بدت» والواقع أن يعقوب - عليه السلام - وأولاده وأهله جميعا كانوا من أهل الخيام، من ساكني البادية غالبا(2)، وكان ينزل يعقوب - عليه السلام - بأطراف الشام ببادية فلسطين، وكان رب إبل وغنم وبادية(3) وكانوا يتنقلون في المياه والمناجع(4).

ويقال للمقيم في البادية «باد» كقوله تعالى: «سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ»(5) وجمعه «بادون» كما في قوله تعالى: «لَوْ أَنَّهُم بَادُون فِي الأَعْرَاب»(6).

وهناك اتجاه يرى أن يعقوب - عليه السلام - وأهله، كانوا يسكنون في الحاضرة مثل قرية «أربع» أو «سيلون» أو بئر سبع على فترات، ونُبّئ وهو في الحضر، ثم بعد مدة تحول إلى البادية، فإن الله تعالى لم يبعث نبيا من البادية، واتجاه آخر يرى

---

(1) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٨.

(2) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٣٤.

(3) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٣.

(4) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٤.

(5) الحج/ ٢٥. (6) الأحزاب/ ٢٠.



بأن «البدو» اسم لموضع بالشام قرب وادي القرى كان به منزل علي بن عبد الله بن عباس، وأولاده - رضي الله عنهم - كما في النهاية[1] أو أن «بدا» اسم موضع وإياه عني جميل بقوله:

وأنت التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بدا *** إليّ وأوطاني بِلاد سِوَاهُمَا[2]

وليعقوب - عليه السلام - بهذا الموضع مسجد تحت جبل[3]

وعلى ما تقدم فإن هناك ثلاثة أقوال:

الأول: يرى أنهم كانوا يسكنون في البادية بفلسطين.

الثاني: أنهم كانوا يسكنون الحضر ثم تحولوا إلى البادية بعد أن نبئ يعقوب - عليه السلام -.

الثالث: أنّ «بدا» اسم مكان وهو في الحضر.

والاتجاه الأول هو الذي يتفق وظاهر النص، لأن القرآن الكريم تحدث أنهم جاءوا من البدو، والمتبادر من معناه أنهم كانوا يسكنون البادية، وللعبد الفقير إضافة هنا، وهو أنهم كانوا يسكنون البادية سكنا فيه شَبَهٌ من الحضر، وإن كان أقرب إلى البادية منه إلى الحضر، وذلك استئناسا بقوله تعالى على لسان الإخوة «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» ثم على لسان أبيهم - عليه السلام -: «قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ»[4].

فهذا النص الكريم يوحي أنهم كانوا يقيمون إقامة مستقرة آمنة، أشبه بإقامة الحضر، حيث كانوا ينطلقون من مكان إقامتهم هذه إلى أماكن الرعي والزراعة، كما جاء على لسانهم في شأن يوسف - عليه السلام - «يرتع ويلعب» و«يرتع» يتسع في أكل

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٤٣، ومؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٣٤.

(٢) البيت من الطويل، في ديوان جميل (٧٦) وروايته فيه:

لعمري لقد حسَّنْت شَغْباً إلى بدا ** إليّ وأوطاني.. (عن تفسير البحر / ٥ (هامش ٣٤٣).

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) يوسف / ١٢-١٣.



الفواكه ونحوها، حيث يكون الخضر والمياه والزرع، وأيضا فإنهم كانوا يسافرون من مكان إقامتهم من أرض كنعان بفلسطين إلى مصر ثم يعودون إلى نفس المكان، ثم إنهم لو كانوا يقيمون في مجرد خيام متنقلة، لما كان هناك من داع لأن يقول لهم أبوهم - عليه السلام - في حق يوسف - عليه السلام -: «وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» لأن مثل هذا الخوف موجود على أي غلام في العائلة لو أنه انطلق بمفرده ليلعب لبعض الوقت ولو قريبا من الخيام، غير أنه ومع طول إقامتهم في محل سكنهم، إلا أن امتداد الصحراء من حولهم جعلت حياتهم أقرب إلى حياة البدو من حياة الحضر، وهكذا جاء النص القرآن موافقا للحال الغالبة عليهم، وبهذا يمكن أن يندفع الإشكال بأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من أهل القرى، كما سيأتي أواخر هذه السورة الكريمة عند قوله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى... الآية»(١) هذا، والله أعلى وأعلم.

لماذا اعتبر «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ» إحسانا؟:

إننا كما نعرف البدو، قوم يعيشون على الفطرة وعلى الانعزال، لا يضمهم مجتمع، ولا يضمهم مكان، فهم غير مستقرين، فهم يتبعون أرزاقهم من مناطق الكلأ ومساقط المياه، ويعيشون على كل ما هو فطري، فقول: «بَدْوٌ» مبتدى ظاهر، دائما ينتقل من هنا إلى هناك، إنما الحضر أن يحضر إليك كل شيء وأنت في المدينة، ففي الحضر استقرار في السكن والمعيشة والتعلم وكل شيء(٢) فذكر «من البدو» إظهار لتمام النعمة، لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة(٣) والكمالات الإنسانية، فأهل البادية يلحقهم الجفاء والبعد عن موارد العلوم، وعن رفاهة المدينة ولطف المعاشرة، وروي لجرير:

أرض الحِرَاثة لو أتاها جَرْوَلٌ *** أعني الحطيئة لاغتدى حَرَّاثاً

---

(١) يوسف/ ١٠٩.

(٢) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٨.



ما جئتَها من أي وجه جئتَها * * * إلا حسبت بيوتها أجداثاً.

وفي الحديث: «من بدا جفا»(١) أي: من حلَّ البادية، وفي آخر: «إن الجفا والقسوة في الفدادين»(٢) ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن(٣).

لماذا خص يوسف - عليه السلام - إحسانين بالذكر مع تتابع إحسان الله عليه؟

خص يوسف - عليه السلام - إحسانين بالذكر مع تعدد نعم الله عليه لأهميتهما، فالأول، يوم إخراجه من السجن، لأن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه وتوالي نعم الله الكبرى عليه،

والثاني: وهو مجئ عشيرته من البادية بفلسطين إلى مصر بقصد الاستيطان، لأن في ذلك تمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب جميعا، باجتماع الشمل، والتمتع بالحياة الآمنة الرغيدة، بعيدا عن القحط والجوع والخوف وتقلب الأحول(٤).

«مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» النّزْغ مجاز في إدخال الفساد في النفس، شُبِّهَ بنزْغ الراكب الدابة وهو نخسها(٥) وحملها على الجرى، والمراد من نزغ الشيطان، إثارته داعية الشرّ والفساد في النفس، بداعية غضب أو شهوة، حيوانية أو معنوية، بحيث تتقحّم بصاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع في العدو، وغُلّب استعماله في الشر فقط، وبناء عليه فنزغ الشيطان، إفساده وإغراؤه، يَحْمِلُ على التفريق بين الجماعة المؤتلفين، وهذا هو عين الشقاوة(٦)، وعن ابن عباس في قوله: «نزغ» أنه إيقاع الحسد، وعن ابن قتيبة، أنه التحريش والإفساد(٧) ويجمعهما إيقاع التحريش والإفساد عن طريق الحسد، يدل عليه قولهم: «لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن البراء / ٢ / ٣٧١ (طبعة الحلبي) ورمز له السيوطي في جامعة الصغير بالحسن.

(٢) أخرجه البخاري في: ٥٩ - (كتاب بدء الخلق).

(٣) تفسير القاسيم / ٤ / ٤٠٠.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٧، ويوسف بن يعقوب / ٤٥٨.

(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٥٨.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٣٤.

(٧) انظر: تفسير الماوردي / ٢ / ٣١٠.

رفع المسابهما

إِلَى أَبِينَا مِنَّا»(١) هنالك أخذوا في التّآمر ضده، وعبّر بالماضي «نَزَغ» ليفهم أنه انقضى(٢) وأسند إلى الشيطان لأنه هو الموسوس، كما قال تعالى: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا»(٣).

وأحال يوسف - عليه السلام - ذنب إخوته على الشيطان تكرما منه وأدبا(٤) مع أن الكيد إنما وقع من إخوته، فهو وجّه فكره للسبب الأول الأساسي، وهو الشيطان، أما أبوه - عليه السلام - فيما سبق - فنظر للسبب الأول، ولمن سيتأثر منه، فقال: «فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»(٥)(٦).

ومن لطفه وحلمه قوله: «بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» حيث قسم النّزغ بينه وبينهم ولم يفضل أحدا من الفريقين فيه، ولم يثبت الجار إشارة إلى عموم الإفساد للبَيْنَيْن(٧) وقال - عليه السلام -: «إخوَتي» ولم يقل «بعض إخوتي» كي يخرج شقيقه من بينهم، لأن في ذلك إيلاما شديدا لهم، وهو ما يأباه - عليه السلام - ويرفضه رفضا باتا، والحقيقة أن ما جاء على لسانه - عليه السلام - مخاطبا أباه «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» يعتبر عرضا سريعا موجزاً مركّزاً متضمّناً أهم ما صادفه - عليه السلام - منذ الرؤيا حتى تعبيرها في تلك اللحظة التي يخاطب فيها أباه(٨).

يوسف - عليه السلام - يصف ربه تعالى بثلاثة أسماء من أسمائه الحسنى جل وعلا:

«**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ**» هذه الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها(٩) واللطيف: اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو اللطف الكامل، واللطف: هو قوة النفوذ إلى بواطن الأشياء وخفيات الأمور مهما كانت دقيقة، فمعنى

---

(١) يوسف/ ٨. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩.
(٣) البقرة/ ٣٦. (٤) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٥.
(٥) يوسف/ ٥. (٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٣٦.
(٧) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩.
(٨) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٩١.
(٩) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٨.



أن الله لطيف: أنه عليم بخفيات الأمور ودقائقها، لا تخفى عليه منها خافية، قال الله تعالى في سورة الملك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1][2].

قال الخطابي: اللطيف: هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون[3].

عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطيف بيوسف وصنع له حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على إخوته[4].

فهو سبحانه فاعل اللطف في تدبيره ورحمته «لما يشاء» لا يعسُر عليه أمر[5] يوصل برّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها[6] لأنه جل وعلا يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنْف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل، واللطف في الإدراك فهو اللطيف[7] العالم بخفيايا الأمور المدبر لها والمسهّل لصعابها، ولنفوذ مشيئته سبحانه، فإذا أراد شيئا سهّل أسبابه[8] وإنا لنتساءل لماذا قال - عليه السلام - «ربي» ولم يقل مثلا: إن الله لطيف لما يشاء؟ والجواب على ذلك أنه - عليه السلام - يريد أن يعبر عن امتنانه لإنعام الله تعالى عليه، وإن لفظ الرب خير دليل على ذلك[9].

ثم علل هذه العلة بقوله:

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ و«العليم» اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو العلم الكامل، والعلم: صفة من شأنها كشف الأشياء على حقيقتها، وعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات، محيط بها، سابق على وجودها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب

(١) الملك/ ١٤. (٢) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ١٠.
(٣) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٥. (٤) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٧٢.
(٥) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩. (٦) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٨.
(٧) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩. (٨) روح المعاني/ ٧/ ٥٨.
(٩) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٩١.



عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، قال الله تعالى في سورة الحجر: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ»(١)(٢).

فكونه عز وجل لطيفا في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها، فيكون عالما بالوجه الذي يسهّل ذلك الصعب(٣) لعلمه بظواهر الأمور وبواطنها، وسائر العباد وضمائرهم(٤).

«الحكيم» اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو الحكمة، وهي الإصابة في التقدير، والإحسان في التدبير، ومن ذلك نرى جميع أفعال الخالق موافقة للحكمة، ولئن خفيت عنا الحكمة في بعض أفعال الخالق سبحانه، فذلك من قصور نظرنا، وضيق أفق تفكيرنا وتجاربنا، ومن تأثرنا بالعوامل النفسية الغريزية فينا، قال الله تعالى في سورة آل عمران: «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»(٥)(٦).

فهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها، ويسوق الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها(٧) بليغ الإتقان لما يصنعه(٨) يفعل كل شيء على وجه الحكمة لا غيره(٩) فقد شاءت إرادته تعالى أن يجتمع له - عليه السلام - النبوة وشيء من الملك، وأن يلم شمل آل يعقوب أخيراً، وسبقت ذلك ألطاف خفيّة التدبير من الله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الحكيم الذي يجئ كل تدبير منه على وجه الحكمة والصواب(١٠).

وقوله: «العليم الحكيم» طبق ما ختم به يعقوب - عليه السلام - بشراه في أول السورة(١١) حين أول رؤيا ابنه يوسف - عليه السلام - فقال: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ

---

(١) الحجر/ ٨٦. (٢) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ١٦٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٩/ ٢٢٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٨. (٥) آل عمران/ ٦.
(٦) العقيدة الإسلامية وأسسها/ ٢٠٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٨. (٨) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩.
(٩) روح المعاني/ ٧/ ٥٨. (١٠) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٤٩١.
(١١) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩.



وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[١] ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات[٢] وهذا غاية في الإعجاز والارتباط الوثيق بين الرؤيا وتأويلها، فسبحان من هذا كلامه.

المضمون العام للآية الكريمة:

لما دخل يوسف - عليه السلام - عاصمة مصر، وبلغ مكان عرشه ومجلسه، أجلس أبويه على العرش إجلالا لهما واعترافا بعلو مكانتها عنده، هنالك رآى يوسف - عليه السلام - أبويه وإخوته يخرون له سجدا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام لا على وجه العبادة، ولما رآى يوسف - عليه السلام - هذا الحال منهم تذكر رؤياه التي رآها في الصبا وقال لأبيه - عليه السلام - موجزا ما جرى لآل يعقوب خلال سني الفرقة الطويلة، في كمال وجمال يأخذ بالألباب وتسجد له العقول، فهو يقول لأبيه: إن ما حدث لي ولكم هو تأويل رؤياي التي رأيتها وأنا غلام، وقد أحسن الله تعالى إليّ: إذ برأني مما قالوا، وأخرجني من السجن، وولاني عزيزا على مصر، وإليكم: إذ أبطل نزغ الشيطان وإغرائه بيني وبين إخوتي، وجاء بكم من البدو، فاجتمع الشمل وكمل الأمر، وكفاكم مشقة الحياة في البدو خلال هذه المجاعة الرهيبة «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ» يوصل إلى المرافق في يسر وهناء وستْر من حيث لا يحتسب أحد، وهو وحده القادر على جعل ما يبدو سببا للهلاك ظاهراً، سببا لوصول النعمة حقيقة، فكان كل بلاء تعرضت له سببا فيما وصل إلى آل يعقوب من نعم، كما جعل النار برداً وسلاما على إبراهيم - عليه السلام - «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» تفسير لقوله «لَطِيفٌ لِّمَا يَشَا» لأن من كان هذا لطفه العظيم، كان علمه محيطا بكل شيء، ولا تخفى على حكمته خافية في الأرض ولا في السماء[٣].

---

(١) يوسف / ٦.

(٢) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٢٩.

(٣) يوسف بن يعقوب / ٤٥٧-٤٥٨.



سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تقدير يوسف العظيم لأبويه ورفعهما على العرش معه.

٢ - السجود كان تحية الأمم السابقة فأبطله الإسلام وأبدل به السلام.

٣ - الرؤيا الطيبة المبشرة بالخير غالباً ما تتأخر حتى تتحقق في عالم الواقع بإذن الله تعالى.

٤ - إذا أراد الله تعالى شيئاً هيّأ أسبابه، وقد هيأ الله الأسباب ليوسف وأهله أجمعين حتى تمت النعمة على آل يعقوب جميعاً في مصر، فسعدت بهم كل السعادة.

٥ - شكر الله تعالى واجب على كل مسلم، والأنبياء والرسل هم أهل القمة العليا في ذلك، وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - في هذه الآية الكريمة.

٦ - ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يزال ذاكراً حاله الأولى لِيُحْدِث لذلك شكراً كلما ذكرها، وذلك لقول يوسف - عليه السلام - «وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...».

٧ - أدب يوسف - عليه السلام - العالي ولطفه ورحمته بإخوته، حيث لم يذكر نعمة الله عليه بإخراجه من الجب، حال حضورهم، حتى لا يسبّب لهم إحراجاً أو ألماً.

٨ - نعمة الحياة في الحضر، حيث الاستقرار والتجمع الكبير للناس، وحيث العلم والمعرفة والصناعات والخير الوفير.

٩ - الشيطان عدو الإنسان المبين، ومن أعماله الخطيرة الإفساد بين الناس وإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم.

١٠ - لطف الله تعالى بيوسف - عليه السلام - حيث نقله في تلك الأحوال السابقة، وأوصل إليه الشدائد والمحن ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

١١ - لطف الله تعالى بعباده وإتمام النعمة على المحسنين، كلٌّ على قدر إحسانه.

١٢ - توافق نهاية هذه الآية الكريمة مع نهاية الآية التي بشر بها يعقوب



- عليه السلام - ابنه يوسف - عليه السلام - بالمبشرات التي وردت في الرؤيا، فقال هناك: «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ» وقال هنا: «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» وهذا غاية من الإعجاز والارتباط الوثيق بين الرؤيا وتأويها.

رفع
المسهم

الآية الأخيرة
في قصة يوسف - عليه السلام - الواحدة بعد المائة

اولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث» قرأ عبد الله ابن مسعود: «آتيْتَنِ» و«عَلَّمْتَنِ» بغير ياء فيهما، وقرأ ابن ذر «رب آتيتني» بغير «قد»[١]

ثالثاً - اللغة:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْك» مَلك: المَلِكُ هو المتصرّف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: مَلِكُ الناس ولا يقال مَلِكُ الأشياء، والمُلْكُ: الحق الدائم لله، فلذلك قال: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاء»[٢] فالمُلْكُ: ضبط الشيء المتصرَّف فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجنس للمُلْكِ، فكل مُلْكٍ مِلْك، وليس كل مِلْكٍ مُلْكا[٣] والمَلَك: واحد الملائكة. والمَلِك: الله تعالى، وهو المالكُ المطلق، ومالك الملوك، ومالك يوم الدين[٤].

«فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» فطر: أصلُ الفَطْرِ الشَّقُّ طولا، يقال: فطر فلان كذا فَطْراً، وأفْطَرَ هو فُطُوراً وانفَطرَ انفطاراً، قال: «هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور»[٥][٦] يقال: فَطَرَ الله الخلق يفطُرُهم: خلقهم وبدأهم، والفِطْرَة: الابتداء والاختراع، وفي التنزيل العزيز «الحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»[٧][٨].

---

(١) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٨٢، وتفسير البحر / ٥ / ٣٤٣.
(٢) آل عمران / ٢٦.
(٣) المفردات (كتاب الميم) ٤٧٢-٤٧٣.
(٤) المعجم الوسيط / ٢ / ٨٨٦.
(٥) الملك / ٣.
(٦) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨٣.
(٧) فاطر / ١ /.
(٨) اللسان / ٥ / ٥٦-٥٧.



«أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ» وَلِيٌّ: في أسماء الله تعالى: «الوليّ هو الناصر، وقيل: المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسماء الله عز وجل: الوالي، وهو مالك الأشياء جميعها المتصرِّف فيها[1] والولاية: النصرة، والولاية: تولي الأمر[2] يقال: ولاه يَلِيَهُ وَلْياً: دنا منه وقَرُب، ويقال: وَلِيَهُ يَلِيه وِلْياً: ولاه. و-الشيء، وعليه، ولاية: ملك أمره وقام به. و-فلانا، وعليه: نصره. و-فلانا: أحبَّه[3].

«تَوَفَّنِي» الوفاة: الموت، (ج) وَفَيَاتٌ، يقال: توفي الله فلانا: قبض روحه[4]

«مسلما» المسلم: هو الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبّد الله به الأنبياء والرسل - عليهم السلام -.

«وألحقني» الإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقا، أي مُدْرِكاً من سبقه في السير، وأطلق هنا مجازاً على المزيد في عداد قوم.

«بالصالحين» الصالحون: المتصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة، وأراد بهم الأنبياء[5].

رابعاً - الإعراب:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» (رب) منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وحرف النداء محذوف، و(قد) حرف تحقيق، و(آتَيْتَنِي) فعل وفاعل ومفعول به، و(من الملك) (من) تبعيضيّة، وهي ومجرورها صفة لمفعول به محذوف، أي آتيتني شيئا عظيما من الملك، وقيل: تبيينيّة فتتعلق بـ(آتَيْتَنِي) و(عَلَّمْتَنِي) عطف على أتيتني، و(مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) متعلقان بـ(علمتني)

«فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» يجوز أن يكون نعتا لـ(رب) أو بدلا منه، ويجوز أن يكون منادى وحرف النداء محذوف، ولعله أولى، والسماوات مضاف إليه.

---

(١) اللسان/ ١٥/ ٤٠٦-٤٠٧. (٢) المفردات (كتاب الواو) ٥٣٣.
(٣) المعجم الوسيط/ ٢/ ١٠٥٧. (٤) المصدر السابق/ ٢/ ١٠٤٧.
(٥) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٠.



«أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ» (أنت) مبتدأ و(وليي) خبر و(في الدنيا) حال، والآخرة عطف على الدنيا.

«تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» فعل دعاء، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ومسلما حال، وألحقني عطف على توفني، وبالصالحين، متعلقا بـ(ألحقني)[1].

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٥٧.

رفع المسهم

خامساً - الموقف من المتعارضات:

هل قصد يوسف - عليه السلام - بقوله: «توفني مسلما» الوفاة في الحال أو حين يحين أجله؟

● **ذهب جمهور المفسرين** إلى أن يوسف - عليه السلام - لم يطلب الوفاة في الحال، وإنما سأل الله تعالى الوفاة على الإسلام إذا جاء أجله.

ذكر بعض من قال ذلك:

فعن الضحاك في قوله: «توفني مسلما...» قال: توفني على طاعتك، واغفرلي إذا توفيتني(١) وكان ابن عقيل يقول: لم يتمَنّ يوسف الموت، وإنما سأل أن يموت على صفة، والمعنى: توفني إذا توفيني مسلما(٢) وقال المهدوي: ليس في الآية تمنى الموت، وإنما عدّد يوسف - عليه السلام - نعم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره، أي: توفني على الإسلام،... ثم قال: وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت(٣).

وقال الإمام الزمخشري: «توفني مسلما» طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى، كما قال يعقوب لولده «وَلا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُون» ثم جوّز الرأي المقابل(٤).

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: والذي يظهر أنه ليس في الآية تمنى الموت، وإنما عدد نعمه عليه، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي أمره، أي: توفني إذا حان أجلي على الإسلام، واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام لا الموت(٥).

وقال الإمام ابن كثير: «... توفني مسلما...» هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما منّ الله به عليه

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٧٣. (٢) زاد المسير / ٤ / ٢٩٢.

(٣) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٨٢-٣٨٣.

(٤) انظر: تفسير الكشاف / ٢ / ٣٤٥.

(٥) تفسير البحر / ٥ / ٣٤٣.



من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه، ثم ذكر احتمال أنه - عليه السلام - سأل ذلك - أي الوفاة على الإسلام - مُنَجَّزاً[١].

وقال الإمام الألوسي: والحاصل أنه - عليه السلام - طلب الموافاة على الإسلام لا الوفاة[٢] وقال الإمام أبو الطيب القنوجي البخاري: وليس في اللفظ - «توفني مسلما» ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال، ولهذا ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت في الحال وإنما دعا ربه أن يتوفاه على دين الإسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله، وقد عاش - عليه السلام - بعد ذلك سنين كثيرة[٣].

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي: «توفني مسلما» أي: أدم على الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت[٤].

وقال الشيخ سيد قطب: ويبدو المشهد الأخير، مشهد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه[٥].

وقال الشيخ عبد الله العلمي: معنى دعاء يوسف: رب احفظ عليّ إسلامي وأدِمْ عليّ صلاحي لآخر لحظة من حياتي[٦].

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور: «توفني مسلما» هو يسأل الدوام على الإسلام إلى الوفاة[٧].

وقال الدكتور حسن محمد باجودة: يدعو - عليه السلام - ربه أن يمُنَّ عليه حينما يقدّر عليه الوفاة بنعمة الإسلام[٨] وبهذا قال غيرهم من المفسرين.

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله - عليه السلام - «توفني مسلما» طلب منه

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٩٢. (٢) روح المعاني / ٧ / ٦٠.
(٣) فتح البيان / ٦ / ٤٠٧. (٤) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٩.
(٥) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٣٠. (٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٦٣.
(٧) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٠.
(٨) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٩٣.



للموت في الحال، فإنه - عليه السلام - لما عدّدَ نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولحاقه بصالح سلفه، ورآى أن الدنيا كلها فانية فتمنى الموت - أي عاجلا -.

ذكر بعض من قال ذلك:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال: اشتاق إلى لقاء الله، وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفاه وأن يلحقه بهم، قال ابن عباس: ولم يسأل نبي قط الموت غير يوسف - عليه السلام - فقال: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ... الآية»(١).

وقال الإمام الزمخشري - بعد أن ذكر الاتجاه الأول -: ويجوز أن يكون تمنيا للموت على ما قيل(٢).

وقال الإمام الفخر الرازي: واعلم أن اللفظ صالح للأمرين، ولا يبعد في الرجل العاقل إذ اكمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه(٣)

وقال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر احتمال أن يكون يوسف - عليه السلام - قال ذلك عند الاحتضار، واحتمال أنه سأل الوفاة على الإسلام -:

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا وكان ذلك سائغا في ملتهم كما قال قتادة(٤) وبمثل ذلك قال عدد من المفسرين.

الترجيح:

والذي يظهر - مما تقدم - أنه - عليه السلام - سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك منجّزاً، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، وكما جاء في الحديث في الدعاء للميت: «اللهم مَنْ أحيَيْتَه مِنّا فَأحيِه عَلَى الإسلام، وَمَنْ توفّيْتَهُ منّا فَتوَفَّهُ عَلَى الإيمَان»(٥)

---

(١) الدر المنثور/ ٤/ ٧٣.

(٢) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٥.

(٣) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢٣.

(٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٩٢.

(٥) رواه أحمد وأصحاب السنن.



وهناك دلائل كثيرة تؤيد هذا الاتجاه منها :

١ - أنه - عليه السلام - قرن قوله «توفني» بـ«مسلما» مما يوحي بأنه يطلب ذلك من ربه تعالى أن يثبته على الإسلام حتى حلول أجله، ولو كان يطلب الوفاة في الحال لقال : «توفني وألحقني . . .» فقد كان على الإسلام التام وهو يدعو ربه تعالى .

٢ - أنه لو سأل ربه الوفاة العاجلة بعد قدوم أبويه وإخوته وسائر آل يعقوب، إلى مصر مباشرة، لما كان في ذلك إحسانا وبرا بوالديه اللذين لم يهنآ بعد بصحبته بعد فرقة مضنية قاربت الأربعين عاما، وأيضاً لما حدث إتمام النعمة لآل يعقوب، حيث لا يمكنهم التمكين في أرض مصر والاستقرار فيها إلا في حال وجوده .

٣ - أنه كان متبعا لملة آبائه الكرام، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولم يطلب أحد منهم من ربه تعالى الوفاة في الحال، فكان عليه أن يتأسى بهم في كل شيء .

٤ - إجماع المفسرين على أن وفاة يوسف - عليه السلام - كانت بعد وفاة أبيه يعقوب - عليه السلام - .

٥ - ذكر أهل التاريخ أن يعقوب - عليه السلام - عاش بمصر سبعة عشر عاما، وقد وصى أبناءه جميعا عند وفاته - كما سيأتي - وأن يوسف - عليه السلام - عاش بعد وفاة أبيه ما بين ٦٠ : ٧٠ عاما[١] .

---

(١) انظر : يوسف بن يعقوب / ٤٦١-٤٦٢ .

رفع المسـاهم

سادساً - التفسير والبيان:

«ثناء ودعاء بحسن الخاتمة»

قال الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

وجه المناسبة:

لما أتم الله تعالى نعمته على يوسف - عليه السلام - بما خلصه من المحن العظيمة، ومكّن له في الأرض وآتاه الملك والنبوة، وأقرّ عينه بأبويه وإخوته وصدّق رؤيته، أعقب ذلك بالتوجه إلى ربه تعالى معترفا بنعمته شاكراً له وداعيا إياه فقال[١]:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ...»

«رب» أي: يا رب، وكلمة الربوبية معناها الخلق من عدَم، والإمداد من عُدْم، والإقَاتة لاسْتبقاء الحياة، والتّزاوج لاستبقاء النّسل، وكل مخلوق له حظ في الربوبية، حتى الكافر، قال تعالى: «وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»[٢] فهناك عطاءان، عطاء ربوبية لكل الخلق، وعطاء ألوهية لمن آمن به جل شأنه، فالمؤمنون مخصوصون بعطاء الألوهية[٣] وقد جمع الله تعالى لعبده يوسف - عليه السلام - عطاء الربوبية وعطاء الألوهية معا، وعلى مستوى الاجتباء العالي والكرم الإلهي.

وبعد أن عدَّد - عليه السلام - بعض نعم الله تعالى عليه في الآية السابقة وفي غيرها من السورة الكريمة؛ إذ به هنا يجملها وهو يتوجه إلى ربه تعالى في عطاءين اثنين عامّين فيقول في العطاء الأول:

---

(١) انظر: فتح البيان / ٦ / ٤٠٦، وتيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٩، وتفسير التحرير والتنوير / ٦ / ١٣ / ٥٩.

(٢) هود / ٦ /.

(٣) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ» والملك بضم الميم وسكون اللام عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة والتّدبير[١] ومعناه أن تملكَ من يَمْلك فتتحكّم في أمره في صورة مَلِك أو حاكم أو رئيس أو وزير، وهذا غير معنى (المِلْك) بكسر الميم وسكون اللام، فهو خاص بما في حوزة الإنسان من بيت ومزرعة ومكتب ونحو ذلك . . .،

وقد شاءت حكمة الله تعالى في الدنيا، أن يُمَلِّكَ بعضَ خلْقه لخلقه ابتلاء واختباراً للكل، كما قال تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢] . . .

أما في الآخرة فإن المُلك يُسْلَب من البشر في كل صوره وأنواعه حتى عن مِلْكِ حركة الجوارح، كما قال سبحانه: «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . الآية»[٣] ويقول عز وجل في اليوم الآخر: «لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»؟ فيجيب نفسه بنفسه «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[٤].

و«من» في قوله: «مِن الملك» للتبعيض، لأنه، عليه السلام - لم يُعْطَ إلا بعض مُلْك الدنيا، أو بعض مُلْك مصر[٥] وكيلا لملكها الريان بن الوليد، فهو مُلْكٌ خاص في زمن خاص وفي أرض محدودة[٦] قال الأصم: إنما قال: «من الملك» لأنه كان ذو مَلِكٍ فوقه[٧].

ويوسف - عليه السلام - من الأنبياء الذين جمع الله لهم بين الملك والنبوة، وهم أربعة داود، وسليمان، وأيوب الذي كان أميراً عظيما، ويوسف كان وزيرا عظيما وحاكما متصرّفا ووكيلا عاما مطلقا على شئون مصر[٨].

ويقول - عليه السلام - في العطاء الثاني:

«وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» و«مِن» في قوله: «مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» للتبعيض،

---

(١) انظر: فتح البيان/ ٦/ ٤٠٦. (٢) ال عمران/ ٢٦. (٣) فصلت/ ٢١.
(٤) غافر/ ١٦. (٥) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٥.
(٦) انظر: فتح البيان/ ٦/ ٤٠٦. (٧) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ١٢١.
(٨) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٥٥.



لأنه لم يؤت إلا بعض التأويل(١) سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا(٢) وفي الحقيقة أن ربه تعالى علمه - عليه السلام - من تأويل الأحاديث وعلمه غير ذلك، فالعلم الذي علمه الله إياه أعَمّ، كما قال الله عنه: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا»(٣) وقال هو عن نفسه: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»(٤) وقال الله عنه: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»(٥) ولكن يوسف - عليه السلام - إنما نَصّ هنا على «تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» لأن ذلك كان السبب في إيتائه نصيبا من الملك، فهو من قبيل ذكر العلة بعد المعلول، هذا إذا قصرناه على تعبير المرائي المنامية، أما إذا عممنا فيه ليشمل(٦) تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من العلم(٧) فالأمر ظاهر.

لماذا لم يذكر يوسف - عليه السلام - النبوة صراحة؟

إن يوسف - عليه السلام - في قوله: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ... الخ» ذكر نعمة الله بشيئين، ما أوتي من المُلك، وما عُلِّم من تأويل الأحاديث، ولم يذكر ما هو أعلى منهما وهو النبوة، مع ثبوت نبوته بالكتاب والسنة، فلماذا يا ترى؟ والجواب أن الوجه المختار هو أن النبوة داخلة في ضمن قوله: «وعلمتني من تأويل الأحاديث» لأن هذا التعليم الرباني المسند لله تعالى، لهذه الأحاديث، التي تشمل أحاديث الدين، هو عين الوحْي للأنبياء(٨).

«فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» (فاطر) نداء محذوف حرف ندائه(٩) أي: يا فاطر، والسماوات مضاف إليه، ولعله أولى الأوجه في إعرابه(١٠) قال الزجاج: نصبه - فاطر - من وجهين:

---

(١) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٥. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٦.

(٣) يوسف/ ٢٢. (٤) يوسف/ ٥٥. (٥) يوسف/ ٧٦.

(٦) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٥٧.

(٧) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٩.

(٨) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٥٥-١٣٥٦.

(٩) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٥٩.

(١٠) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٥٧.



أحدهما: على الصفة لقوله: «رب» وهو - أي: رب - نداء مضاف في موضع النصب، والتقدير: يا رب، والثاني: يجوز أن ينتصب على أنه نداء ثان[1]، و«الفاطر» الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع[2] من الفَطْر، وهو الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال، وأصله الشَّقّ وفصْل شيء عن شيء، ومنه فطَر نابُ البعير أي: طلع، واستعمل فيما ذكر لاقتضائه التركيب الذي سبيله الشق والتأليف، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود[3].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: إني فطرتها وأنا ابتدأت حفرها[4] فيوسف - عليه السلام - يناجي ربه تعالى واصفا إياه جل شأنه بأنه فاطر السماوات والأرض، أي: خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ولا مثال سبق[5] وكان هذا الوصف بعد وصفه تعالى بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادئ ما يعقبه[6] حيث أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يُعوِّل على غيره سبحانه في شيء من الأشياء فقال:

«أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[7]

معنى «الولي»: يأتي الوليّ بمعنى الناصر، وبمعنى المحب، وبمعنى متولي الأمر، وبمعنى القريب، قُرْبا نَسَبِيّا، أو قربا معنويّاً، وكل هذه المعاني مناسبة ههنا ماعدا القرْب النّسبي، لأن الله تعالى منزّه عن القرابة النّسَبيّة[8] فمعنى «أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ» أي: ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة[9] فوصل - عليه السلام - الملك الفاني بالملك الباقي[10] أي: فأحسن بي في الآخرة أعظم ما أحسنت بي في الدنيا[11].

---

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢٢. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٦.
(٣) صفوة البيان/ ١٧١. (٤) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢١.
(٥) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٧٠. (٦) روح المعاني/ ٧/ ٥٩.
(٧) نظم الدرر/ ٤/ ٩٩-١٠٠. (٨) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٥٧.
(٩) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٧٠. (١٠) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢٢.
(١١) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٠.



درجات الولاية:

ودرجات الولاية من الله تعالى لعباده المؤمنين متفاوتة على قدر درجاتهم وتفضيل الله لهم، . . .

فولاية الله تعالى لسيد أولى العزم محمد - ﷺ - أكبر من باقي أولى العزم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - وولايته سبحانه لهؤلاء الأربعة أكبر من غيرهم من سائر النبيين، وولاية الله تعالى ليوسف وأمثاله من الأنبياء - عليهم السلام - أكبر من ولاية الله تعالى لمطلق «مؤمن» كما أن ولاية الله تعالى للمؤمن الكامل أكبر من ولاية الله تعالى للمؤمن إيمانا ناقصا، ومتى كان الإنسان وليّا لله كان عدواً للشيطان، ومتى كان عدوا لله كان وليّا للشيطان، وهكذا يقال في كل شيء ما يناسبه، . . .

وولاية الخير تكون بين الله وأنبيائه، وبين الله وملائكته، وبين الملائكة بعضهم مع بعض، وبين الأنبياء والملائكة، وبين الأنبياء والمؤمنين، وبين المؤمن والمؤمن، . . .

وولاية الشر تكون بين الظالم والظالم، وبين الكافرين والشياطين، وبين المنافق والكافر، وكل ما تقدم وغيره مصرح به في كتاب الله الكريم في مواطن كثيرة[1]

ولما كان توليه لا يتم بتولى الله له، أتبعه بما يفيده فقال:

«تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» فانه - عليه السلام - لما شكر الله تعالى على نعم الدنيا واعترف بها توجه إليه جل شأنه ليسعفه بنعم الآخرة أيضا[2].

وهذا من أدبه - عليه السلام - حيث قدم الثناء على الله تعالى بقوله: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» على الدعاء وهو قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» ونظيره ما فعله الخليل - عليه السلام - في قوله: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ» فمن هنا إلى قوله: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً» ثناء

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٣٥٧، ١٣٥٩.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٨٥.



على الله، ثم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ إلى آخر الكلام دعاء، فكذا هاهنا[1] وقد جاءت بذلك السنة المطهرة، فعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا صلى أحدكم - أي دعا - فيبدأ بتحميد الله، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي - ﷺ - ثم ليدع بعد بما شاء»[2].

ومعنى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: أمتني على الإسلام منقاداً خاضعا طائعا أوامرك[3] لا يفارقني الإسلام حتى أموت، فأعظم ما يناله المرأ أن يكون مسلما لله رب العالمين، عابدا له وحده دون سواه، مخلصا له العبادة.

إنه - عليه السلام - يدعو ربه أن يمنّ عليه حينما يقدّر عليه الوفاة بنعمة الإسلام، إنه - عليه السلام - وقد اصطفاه الله تعالى بالنبوة، لم يصرفه ذلك عن معرفة حقيقة نفسه، بل كان ذلك حافزاً له على عبادة الله تعالى، وأخْذ جانب الحذر والحيطة، والأدب والتواضع، إنه يدعو الله تعالى ما يدعو به كل مسلم ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[4].

ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا في الإخلاص حققه بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ والصالحون: المتصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة، وأراد بهم الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار فإنه - عليه السلام - كان يومئذ نبيا، فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك[5].

إنه يدعو ربه بأن ينعم عليه في الآخرة بأن يكون من الصالحين والصالحين فقط، مع أنه نبي ورسوله ودرجة النبوة ليس فوقها درجة وقد منحها - عليه السلام - بل إنه لا يقول مثلا: واجعلني من الصالحين، مما يفهم أن له - عليه السلام - حقّا من نوع ما في ذلك، إنما يجئ على لسانه ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ويفهم من الإلحاق أن ذلك تفضّل وتكرم منه تعالى عليه، . . .

---

(1) انظر: تفسير الفخر الرازي/ 9/ 18/ 223.
(2) رواه الترمذي وصححه/ 9/ 449.
(3) التفسير المنير/ 13/ 75.
(4) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ 493.
(5) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ 7/ 13/ 60.



يا له من أدب، ويا له من تواضع جمّ، ويا له من درس بليغ نافع يلقيه نبي الله يوسف على أمة الإسلام[1] إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير[2] فهو يقول لربه ومولاه: إني لا أسألك سلطانا ولا صحة ولا مالاً، رب إني أسألك ما هو أبقى وأغنى، «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولَمّة الإخوان، ويخلص يوسف - عليه السلام - إلى مناجاة ربه تعالى، فكانت تلك الحال أعدل الأحوال التي يجد فيها المرء وجوده كله، قلبا وعقلا ولسانا، خالصا لله، لا تطرقه طوارق الهموم، ولا تصطخب في نفسه الآلام والأحزان التي تحجز كثيراً من عواطفه ومشاعره المتجهة إلى ربه[3] إنه ينفض يديه من كل شيء، ويتوجه إلى ربه بهذا الدعاد الخالص المنيب، ولم يخط ختام القصة خطوة وراء هذا كما فعلت التوراة، لأن الغرض الديني قد تحقق، وتحقق معه للقصة أجمل ختام[4].

العناصر الثمانية في الآية الكريمة:

إنه - عليه السلام - وبعد خطابه لوالده، وحديثه عن إخوته وأخذه في الثناء على ربه يتوجه إلى الله داعيا، دعاء هو خلاصة القصة كلها، كما جاء في هذه الآية الكريمة، وفي هذا الدعاء ثمانية عناصر، يمكن أن نراها أزواجا، ويمكن أن نراها شريحتين كبيرتين.. ولنبدأ بالتقسيم الثماني:

أولاً - رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ.

ثانياً - وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

ثالثاً - فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٤٩٣.

(٢) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٣٠.

(٣) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / ٤٨٨.

(٤) التصوير الفني في القرآن / ١٤٦.



رابعاً - وَالأَرْضِ.

خامساً - أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا.

سادساً - وَالآخِرَةِ.

سابعاً - تَوَفَّنِي مُسْلِمًا.

ثامناً - وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ.

رب قد آتيتني من الملك، والملك في هذه الدنيا، في هذه الأرض التي نعيش فيها وتختبرنا فيها، أنشكُر أم نكفُر.

- وعلمتني من تأويل الأحاديث، وهذا من فيْضك العلوي، من وحيك، ينزل على القلب من الأفق الأعلى.

وكأن يوسف - عليه السلام - في دعائه هذا بيْن أفقين من آفاق الإكرام:

الملك، وهذا دنيوي أرضي، وتأويل الأحاديث، وهذا علوي، سماوي، والأمران ثناء على الله تعالى،

ننتقل خطوة إلى الثنائية الثانية: فاطر السماوات والأرض... وهنا نجد ذكر السماوات والأرض، والسماء مكان تأويل الأحاديث، وفي الأرض كان الملك، وأنت يا رب آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، أما ملكك وعلمك فأنت المالك، لك الملك كله، أنت العليم لك العلم كله، ومنهما تفيض على عبادك،...

وننتقل خطوة إلى الثنائية الثالثة: أنت وليّ في الدنيا والآخرة. في الدنيا: وكان فيها ما آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، في هذه الدنيا أنت وليي، وفي الآخرة وهي دار الجزاء، أنت وليي...

وهذه الثنائيات الثلاث ومجموعها ست عناصر، كلها ثناء على الله تبارك وتعالى وإقراراً بفضله...

والآن: أيها النبي الكريم، وما دعاؤك؟ لقد كان هذا كله ثناء على الله، ارفع دعاءك



إلى ربك، فيناجي يوسف ربه قائلاً: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» وهذه الثنائية الرابعة والأخيرة في الدعاء، أن يموت على الإسلام، وهذا وداع الدنيا، وألحقني بالصالحين، وهذه صحبة الآخرة، مع أبيه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومن شاء الله أن يحمل مسئولية النبوة، ومن معهم من رفقة الصالحين[1] فسلام عليك أيها الكريم بن الكرماء، وسلام عليك أيها الصديق ابن الأصفياء، وسلام عليك أيها النبي ابن الأنبياء، سلام عليك ورحمة الله وبركاته.

كيف قال يوسف - عليه السلام - «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» وهو يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلما؟

والجواب: أحسن ما قيل فيه إنه كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الإسلام، ويرضى بقضاء الله وقدره، ويكون مطمئن النفس، ومنشرح الصدر، ومنفتح القلب في هذا الباب، وهذه الحالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر، فالمطلوب هاهنا هو الإسلام بهذا المعنى[2] ثم إن الدعاء هو العبادة، والنبوة لا تسقط العبادة بل تؤكدها، وما من نبي إلا دعا الله تعالى أن يموت مسلما وأن يغفر الله له وأن يرحمه، ولو سقط الدعاء لسقطت النبوة، وفي ذلك إيذان للعاملين بطلب الإسلام والتمسّك بكل ما يعين على الوفاة على الإسلام ليفوز العبد بالنجاة وسعادة الدارين[3].

ولقد كان الرسول محمد - ﷺ - المثال الأعلى للأنبياء والمرسلين، في الذكر والدعاء فكان أكمل الخلق ذكرا لربه عز وجل، في كل حال من أحواله، وأكثرهم توجها إلى مولاه بالدعاء في كل حين، والقرآن والسنة الصحيحة يشهدان بذلك، ومع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما قال له ربه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ

---

(١) دروس من سورة يوسف/ ١٨١-١٨٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢٦.

(٣) يوسف بن يعقوب/ ٤٦٠.



صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا»(١) إلا أنه ﷺ - كان لا ينفك عن الذكر والدعاء، لله تعالى، ومن دعائه الذي علمه أمته قوله ﷺ: «اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان»(٢) وكان أكثر دعائه: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار»(٣) وكان يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر(٤).

وكان يقول ﷺ: «اللهم إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة»(٥) بل إنه - عليه السلام - ومع علو منزلته وقربه من ربه عز وجل، فقد كان دائم الخوف من مولاه، يخشى من تغير الزحوال وتقلب القلوب، وكان يكثر من قوله: «يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك»(٦) وكان يقول: « اللهم مصرّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

فما كان يوسف - عليه السلام - في دعائه لمولاه «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» إلا متّبعا لنهج الأنبياء والمرسلين السابقين واللاحقين، لأن العبرة بالخواتيم.

هل يجوز أن يسأل المسلم من ربه تعالى الوفاة منجّزاً؟:

والجواب أن هذا السؤال غير جائز، حتى ولو كان لضُرّ أصابه، فعن قيس بن أبي حازم قال: دخَلْنا على خبّاب وقد اكتوى سبع كيّات في بطنه، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوْت به(٨) وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنّين أحدكم الموت لضُرّ أصابه»(٩) فإن كان لا بد فاعلا فليقل: «اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(١٠).

---

(١) الفتح / ١-٢. (٢) رواه أحمد وأصحاب السنن.
(٣) متفق عليه، البخاري / ٨ / ١٤٠، ومسلم (٢٦٩٠). (٤) مسلم / ٢٧٢٠.
(٥) أخرجه ابن ماجة «صحيح سنن ابن ماجة» (٣١٠٦) وغيره، وفي الصحيحه برقم (١١٣٨).
(٦) رواه الترمذي وحسنه، (٣٥١٧) وهو صحيح بشواهده، انظرها في تفسير ابن كثير / ٢ / ٢٩٨.
(٧) رواه مسلم (٢٦٥٤). (٨) رواه البخاري (٧٢٣٤) ومسلم (٢٦٨١)
(٩) أي: في دنياه (١٠) البخاري (١٠ / ١٠٧، ١٠٨)، ومسلم (٢٦٨٠).



وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت إما محسنا، فلعله يزداد، وإما مسيئا فلعلّه يَسْتَعْتِبْ[1]»[2] وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمرُهُ إلا خيراً». هذا إذا لم يكن فتنة في الدين، أما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة، لمّا آمنوا بالله رب العالمين وهدّدهم فرعون بالقتل «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ»[3] وقالت مريم - عليها السلام - لما جاءها المخاض وهو الطلق إلى جذع النخلة: «قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا»[4] لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: «يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا»[5] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه، وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[6] وروي الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعا أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب» فعند حلول الفتن في الدنيا يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدّة فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني، وقال البخاري - رحمه الله - لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال: اللهم توفّني إليك، وفي الحديث «إن الرجل ليمُرُّ بالقبر

---

(١) أي: يرجع إلى الله تعالى بالتوبة وتدارك الفائت وطلب عقبى الله تعالى، أي: رضاه عنه.

(٢) البخاري/ ١٠/ ١٠٩، ومسلم (٢٦٨٢).

(٣) الأعراف/ ١٢٦. (٤) مريم/ ٢٣. (٥) مريم/ ٢٧-٢٨.

(٦) رواه الترمذي وقال حسن صحيح، ورواه أحمد في مسنده (١/ ٣٦٨)، (٤/ ٦٦).

- أي في زمان الدجال - فيقول : يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتن والزلازل والبلايا ، والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون(١) .

هل يمكن أن يكون قوله «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» منسوخا؟:

قيل : هو منسوخ بقول النبي ﷺ «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به» .

قال أبو محمد : والنسخ في هذا لا يجوز ولا يحسن ، لأنه خبر أخبرنا الله به عز وجل ، لا يجوز البتّة أن يتغيّر ما أخبرنا الله به إلى معنى آخر من الخبر ، تعالى الله عن ذلك ، على أن الحديث ليس هو من معنى الآية في شيء ، لأن النبي ﷺ إنما قال : «لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به» وليس في الآية ضرّ نزل بيوسف - عليه السلام - فتمنى الموت من أجْله ، إنما معناها : متى توفّيتني توفني مسلما ، وبهذا يجب أن يدعو كل مسلم(٢) .

هذا ، وبمناسبة قوله - عليه السلام - «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» نقول:

الإسلام هو الملة الحنيفيّة التي دعا إليها كل نبي ورسول :

الإسلام هو دعوة يوسف - عليه السلام - كما جاء في الآية الكريمة : «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف / ١٠١)

والإسلام هو دعوة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وذريته من الأنبياء ، «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ» (البقرة / ١٢٨)

والإسلام هو وصية إبراهيم لبنيه ويعقوب - عليهم الصلاة والسلام - «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٩٢-٤٩٣ .

(٢) الإيضحاح لناسخ القرآن الكريم ومنسوخه / ٢٨٣ .



شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (البقرة / ١٣٠-١٣٣)

والإسلام، هو دعوة جميع الأنبياء والرسل قبل إبراهيم - عليه السلام - قال نوح - عليه السلام - لقومه: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(١).

والإسلام، هو دعوة جميع الأنبياء والرسل بعد إبراهيم - عليه السلام - قال موسى - عليه السلام - لقومه: «وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ»(٢).

وكان من دعاء السَّحَرة المصريين لما آمنوا برب هارون وموسى: « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ»(٣).

وجميع الأنبياء الذين أقاموا التوراة كانوا مسلمين، «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ»(٤)

والإسلام هو الدين الذي أشهد الحواريون الله عز وجل على أنهم يدينون به «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ»(٥)

والإسلام هو ملة المسلمين أتباع خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ،

فالإسلام هو الدين الحق الذي لا دين سواه منذ أن خلق الله تعالى الخلْق وأرسل الرسل - عليهم السلام - وما دعا نبيّ إلاّ إلى الإسلام، «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ»(٦)

ولا يَقْبَلُ الله تعالى إلاّ الإسْلام، «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»(٧)

---

(١) يونس / ٧٢. (٢) يونس / ٨٤. (٣) الأعراف / ١٢٦.
(٤) المائدة / ٤٤. (٥) المائدة / ١١١.
(٦) آل عمران / ١٩. (٧) آل عمران / ٨٥.



وعقيدة الإسلام واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته. «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ»(١) «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»(٢).

فدين الله واحد لا يتبدّل ولا يتغير وهو الإسلام، أما الشرائع فمختلفة، على حسب كل قوم وزمانهم وأحوالهم وما هم عليه من أمراض وعلل، قال الله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»(٣).

لماذا اختصت الأمة المحمدية باسم «المسلمين»؟:

ولقد اختص الله تعالى بفضله ومنّته الأمة المحمّدية باسم المسلمين دون سواها من الأمم، لأن نبيها هو خاتم النبيين والمرسلين، ولأن معجزته الكبرى وهي القرآن العظيم، محفوظة بحفظ الله تعالى القائل: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» والذّكْر من أشهر أسماء القرآن الكريم، أما غير الأمة الإسلامية من الأمم السابقة، كاليهود والنصارى، فقد حرَّفوا وبدلوا ما أنزل الله إليهم، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ذلك، منها على سبيل المثال قول الحق عز ذكره: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ»(٤).

لهذا فقد حُرموا من إطلاق اسم (المسلمين) عليهم، ونُسبُوا إلى الأسماء المناسبة لتحريفهم وتبديلهم ما أنزل الله إليهم، من يهودية أو نصرانية أو مسيحية،

---

(١) الأنبياء/ ٢٥. (٢) الشورى/ ١٣.

(٣) المائدة/ ٤٨. (٤) البقرة/ ٧٩.



أما الأمة المحمدية فقد اختارها الله تعالى على سائر الأمم وسمّى أهلها بـ(المسلمين) كما قال جل ثناؤه: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ»(١) أي: الله تعالى سمّاكم المسلمين من قبل.

وفاة يعقوب - عليه السلام:

كان اجتماع آل يعقوب بيوسف في مصر بركة عليهم جميعاً، وعلى مصر، وعظم يوسف في عين أهل مصر بحضور آله إليه، وتيقّنوا أن عزيز مصر من ذرية الخليل إبراهيم - عليه السلام - الذي كان قد حلت بركته بمصر من قبل مع زوجه سارة.

وأذن الملك لآل يعقوب بسكن أرض جَاسَان محافظة الشرقية حالياً(٢)، وعاش يعقوب - عليه السلام - في مصر سبع عشرة سنة، ولما بلغ من العمر مائة وسبعاً وأربعين سنة جمع بنيه وأوصاهم بما وصاه به إبراهيم الخليل - عليه السلام - كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم - عليه السلام -: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ»(٣). وتحدث القرآن العظيم عن مشهد وفاة يعقوب - عليه السلام - بعد ذلك مباشرة فقال: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»(٤).

طفرات حياة يوسف - عليه السلام -:

من تأمل في حيات يوسف - عليه السلام - وجدها كلها (طفرات)، فمن حضن أبيه إلى غيابة الجب، ومن الحرية الكاملة إلى الرقّ والعبودية، ومن نَازل الجُبّ

---

(١) الحج/ ٧٨.

(٢) انظر: يوسف بن يعقوب/ ٤٦٠-٤٦١، وقصص الأنبياء (ابن كثير) ٢٢٦.

(٣) البقرة/ ١٣١-١٣٢. (٤) البقرة/ ١٣٣.



إلى عالي القصر، ومن قصر العزيز إلى سجن الذليل، ومن متّهم بجريمة الفحشاء إلى (بريء) الساحة، معترف له بالطهارة والتقديس، ومن السجن إلى بلاط الملك، ومن ذليل بين إخوته إلى (عزيز) فوق رؤوسهم، ومن (طَرِيد) إلى (مُجَمِّع) ومن واقف فوق منبر الخطابة بحضور هيئة إخوته وأبويْه، إلى ماثِل في محراب الدعاء يدعو ربه بحسن الختام(١).

وفاة يوسف - عليه السلام -:

أقام آل يعقوب في مصر، ولم يزل يوسف - عليه السلام - يرعى إخوته وينظر في شئونهم حتى دنا أجله، فأوصاهم بما وصى به يعقوب بنيه، كما أوصى بنقل جثمانه الطاهر معهم إذا عادوا إلى كنعان ليدفن مع آبائه هناك - صلوات الله وسلامه عليهم - واختلفت الروايات في تقدير عمره - عليه السلام - ما بين ١١٠-١٢٠ عاماً فتكون مدة حياته في مصر بعد وفاة والده يعقوب - عليه السلام - ما بين ٦٠-٧٠ عاماً. ولما تُوفي جُعل في تابوت من الرخام وسد بالرصاص، وطُليَ بالأطلية الدافعة للهواء والماء، وأودع نيل مصر عند مدينة (مَنف) وهناك مسجده، فكان ذلك أبلغ الردّ على المراسم الجنائزية الوثنية المعتادة في ذلك العهد، ومكث هناك حتى استخرجه موسى - عليه السلام - لما خرج من مصر.

ولما توفي - عليه السلام - وإخوته بأرض مصر، بقي أعقابهم وكثروا فيها حتى صاروا في زمان موسى - عليه السلام - ستمائة ألف وسبعين ألفاً.

مدة بقاء بني إسرائيل في مصر:

مكث بنو إسرائيل بمصر نحو (٢١٥) سنة خلافاً لتوراة اليهود التي تقول: (٤٣٠) سنة، وعاشوا فيها مكرمين معززين يتمتعون بخيراتها الوفيرة، حتى جاء عهد فرعون موسى، فأذاقهم الويل والنكال، فقتّل أبناءهم واستحيا نساءهم، بعد أن

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٥٢.



رآى رؤيا أولها له الكهنة بأن غلاماً يولد منهم يكون هلاك مصر ومَلِكِها على يديه، ولذلك أمر بقتل من يولد من الذكور وترك الإناث، إلى أن أرسل الله تعالى موسى رسولاً إليهم فخرج بهم إلى سيناء ونَجاهُم الله من فرعون وجنده، الذين أغرقوا فأدخلوا ناراً(١).

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - مالك الملك هو الله تعالى وحده، يؤتيه من يشاء من عباده وينزعه ممن يشاء.

٢ - عطاء النبوة والرسالة فوق كل عطاء، ولا يكون إلا لمن اختارهم الله واصطفاهم.

٣ - عطاء الله تعالى لأنبياء ورسله موصول وممدود في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى لسليمان - عليه السلام - الذي وهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».

٤ - الله تعالى يتولى عباده الصالحين بالتأييد والحفظ والنصر المبين.

٥ - إن أعظم الغايات التي يتمناها المسلم هي أن يتوفاه الله على الإسلام وأن يلحقه بعباد الله الصالحين، ولا يتم ذلك إلا بالاستعانة بالله تعالى.

٦ - الصالحون من الأنبياء والمرسلين لهم الدرجات العلا عند الله رب العالمين.

٧ - تكريم الله تعالى لأمة محمد - ﷺ - بكرامات كثيرة، منها أنه اجتباهم وسماهم المسلمين من قبل.

٨ - في الآية الكريمة دليل على وحدة الأديان «إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإسلام».

٩ - لا يجوز في شريعة الإسلام تمني الموت وطلبه لضُر نزل بالمسلم، أما إذا كان لفتنة في الدين فيجوز سؤال الموت.

١٠ - لا سعادة في الدنيا بملك ولا بجاه، إلا إذا كان ذلك موصولاً بمرضات الله تعالى وذكره وشكره وحسن عبادته.

---

(١) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٦٥-١٣٦٧، ويوسف بن يعقوب / ٤٦٢-٤٦٣، وقصص الأنبياء (ابن كثير) ٣٥٢.



١١ - على كل مسلم أن يحمد الله تعالى ويشكره على نعمة الإسلام وكفي بها نعمة.

١٢ - ينبغي للعبد أن يسأل الله دائماً تثبيت إيمانه ويتخذ الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله تعالى حسن الخاتمة وتمام النعمة.

١٣ - اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

١٤ - اللهم من أحييته منا فأحييه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان - اللهم آمين - انتهت القصة بحمد الله تعالى فإلى التعقيب عليها بحوله وقوته.

رفع
المسـهم

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

(الفصل الرابع)

(من الباب الثالث)

التعقيب على القصة

من الآية رقم (١٠٢)

إلى الآية رقم (١١١)



«آيات الفصل الرابع»

(من الباب الثالث)

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

رفع المسـاهم

«الآية الثانية بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢﴾

ثانياً - القراءات: ☐

ثالثاً - اللغة:

«ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ» غَيْب: الغيب: مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترتْ عن العيْن، يقال: غاب عني كذا، قال تعالى: «أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِين»(١) واستعمل في كل غائب عن الحاسّه، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، قال تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»(٢) ويقال للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، كما لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض(٣).

«أمرهم» الأمر: الشّأن، وجمعه أمور، ومصدر أَمَرْته إذا كلّفتَه أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها(٤).

رابعاً - الإعراب:

«ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» (ذلك) اسم إشارة في محل رفع مبتدأ، و(من أنباء الغيب) خبره، وجملة (نوحيه إليه) حال، ويجوز أن تكون في محل رفع خبراً ثانياً،

«وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» (الواو) عاطفة، و(كنت) كان واسمها، و(لديهم) ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر (كنت) و(إذا) ظرف متعلق

---

(١) النمل/ ٢٠. (٢) النمل/ ٧٥.

(٣) المفردات (كتاب الغيْن) ٣٦٦-٣٦٦٧.

(٤) المرجع السابق (كتاب الألف) ٢٤.



بما تعلق به الظرف، أي: بالاستقرار المحذوف، وجملة (أجمعوا) مضافة للظرف، والواو للحال، و(هم) مبتدأ، وجملة (يمكرون) خبر، والجملة حالية.

البلاغة: في قوله: «وما كنت لديهم» الآية فنّ يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج، وفيه تهكّم مرير بهم، لأنه قد علم كل أحد أن محمدا - ﷺ - ما كان معهم، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص البديع لم تقع شبهة في أنه ليس منه[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٦١-٦٢.



سادساً - التفسير والبيان:

«التعقيب على القصة والتّدْليل على صدق نبوة محمد - ﷺ -»

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما قص الله تعالي على نبيه محمد - ﷺ - نبأ يوسف - عليه السلام - وإخوته، وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم والنبوة، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك، قال تعالى مشيراً إلى ما قصه عليه:

«ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...» بهذه الآية الكريمة يبدأ التعقيب على القصة لتستغرق العشر آيات الأخيرة في هذه السورة فقد انتهت قصة يوسف-عليه السلام- لتبدأ التعقيبات عليها، وتبدأ معها اللفتات المتنوعة، واللّمسات المتعددة، وقد سبق في مطلع السورة قوله تعالى لنبيه محمد - ﷺ - «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»(١) فها هو ذا يُعقّب على القصة بعد تمامها، ويعطف ختامها على مطلعها(٢) بعد أن تم الذي كان من أمرهم، على هذا الوجه الأحكم والصراط الأقوم، من ابتدائه إلى انتهائه(٣).

وقوله: «ذلك» إشارة إلى ما ذكر من الحوادث - في القصة - أي: ذلك المذكور، واسم الإشارة لتمييز الأنباء أكمل تمييز لتتمكّن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ(٤) فهو إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف - عليه السلام - يعني هذا الذي قصصناه عليك يا محمد - ﷺ - من أمور يوسف «من أنباء الغيب»(٥) أي أخباره التي لها شأن عظيم(٦).

---

(١) يوسف/٣. (٢) أنظر: تفسير الظلال/ ٤ / ٢٠٣١.

(٣) نظم الدرر/ ٤ / ١٠٥.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧ / ١٣ / ٦٠.

(٥) انظر: تفسير الماوردي/ ٢ / ٣١١. (٦) نظم الدرر/ ٤ / ١٠٥.



«نوحيه إليك» لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل[1] الذي لم تشاهده ولم تعاينه ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه لتثبّت به فؤادك، وتشجّع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم أن مَن قبلك من رسل الله إذا صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالمعروف وأعرضوا عن الجاهلين، فازوا بالظفر، وأيِّدوا بالنّصر، ومُكّنوا في البلاد، وغَلَبوا من قصدوا من أعدائهم وأعداء دين الله، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد - ﷺ - فبهم يا محمد فتأسّ، وآثارهم فقصّ[2] وعبّر بصيغة المضارع «نوحيه إليك» تصويراً لحال الإيحاء الشريف وإشارة إلى أنه لا يزال معه يكشف له ما يريد[3].

«وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ»

جملة «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ» في موضع الحال، إذ هي تمام التعجيب، وجملة «وَهُمْ يَمْكُرُونَ» حال من ضمير «أَجْمَعُواْ» وأتى بـ«يَمْكُرُونَ» بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة[4] وهذا الجزء من الآية الكريمة «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ...» تعريض لقريش وتنبيه على آية صدق محمد - ﷺ -، وفي ضمن ذلك الطّعن على مكذبيه[5] فكأن الله تعالى يقول له: إن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي، لأنك لم تحضربني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم - يوسف - في البئر كقوله: «وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ»[6].

وهذا تهكّم بقريش وبمن كذبه - ﷺ - لأنه لم يخْف على أحد من المكذبين أن محمدا - ﷺ - لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقِيَ فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من عِلْم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقعْ شبهة في أنه ليس منه، وأنه من جهة الوحي[7].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٤٩.
(٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٧٥.
(٣) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٥. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦١.
(٥) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٨٤. (٦) يوسف/ ١٥.
(٧) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٥-٣٤٦.



فإنه من المحقّق لدى كل ذي لُبّ، أنه لا علم إلا بتعليم، فثبت أنه لا معلّم لك إلا الله، كما علم إخوانك من الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - فيا له من دليل جَلَّ عن مثيل، وهذا من المذهب الكلامي، وهو إيراد حجة تكون بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب، وهو تهكّم عظيم ممن كذّب النبي ﷺ -[1] وضمائر «لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب[2] فهي عائدة إلى الإخوة وهم يمكرون المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه، وهم يمكرون بيوسف، وهم يمكرون بأبيهم، وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف - عليه السلام - من ناحية النسوة، ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السِّجن[3].

وقوله: «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ... الآية» كقوله تعالى في قصة مريم - عليها السلام - «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ»[4] وقوله سبحانه: «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)»[5] وقوله تعالى عن رسول اله محمد - ﷺ -: «مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»[6] وقوله عز وجل له أيضا: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»[7].

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ١٠٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦١.

(٣) تفسير الظلال / ٤ / ٢٠٣١.

(٤) آل عمران / ٤٤. (٥) القصص / ٤٤-٤٦.

(٦) سورة ص / ٦٩-٧٠. (٧) هود / ٤٩.

رفع المستهمل

لماذا تضمنت هذه الآية التعقيبية حدَثَ إجماع الإخوة على إلقاء يوسف في الجب فقط؟

إن هذه الجزئية «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» تشير فقط إلى حدث إجماع إخوة يوسف على إلقائه في غيابة الجب، وهو حدث واحد بعينه، بينما في القصة الكريمة أحداث وأحداث وأنباء وأنباء،... فلماذا؟

والجواب على هذا أن إجماع الإخوة على المكر بأخيهم يوسف، إنما كان تنفيذاً للرأي الثالث الذي أدلى به الأخ الأكبر، وهذا الرأي يعتبر حجر الزاوية في قصة يوسف - عليه السلام - ولو قُتل يوسف أو طرح أرضا بعيدة مخوفة فمات، وهذا نتيجة طبيعية لطرحِه أرضا تلك صفتها، لما كان هناك العبر التي نصّت عليها آية آخِرِ السورة «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ... الخ» والتي استفدْناها باستمرار من السّرد القصصيّ للأحداث، ولا ننسى أن الإخوة الذين ألقوا يوسف في غيابة الجب، كانوا مجمعين على إبقاء هذا الأمر سرّاً، وليس هناك حدث آخر في هذه القصة بقي سرّا حتى رُفع الستار عنه في الوقت المناسب بالضرورة سوى هذا الحدث، فلهذا كان طبيعيا جدا أن تأتي في الآية التعقيبية هذه الجزئية «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ...الخ» التي تدل على أن النبي - ﷺ - إنما عرَف كل هذه الأمور الغيبية، وفي مقدمتها إجماع الإخوة على المكر بيوسف - عليه السلام - الذي لم يكن معهم سوي الله عز وجل، عن طريق الوحْي، وهذا أوْعى لحمل مشركي مكة بالذات على الإيمان بأن الذي يُوحَى إليه ذلك إنما هو رسول رب العالمين[1].

الرسول - ﷺ - ومَجْريات هذه القصة:

رآى رسول الله - ﷺ - في مجريات أحداث القصة وفي خاتمتها أنه سيملك من أمر قومه ما ملك يوسف - عليه السلام - من إخوته، وأنه صلوات الله وسلامه عليه سيكون صاحب السلطان عليهم، ورآى كذلك أن قومه سينتهي أمرهم إلى ما انتهى

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٥٨-٥٩.

رفع المسيهم

إليـه إخـوة يوسف، من اعـتـرافـهم بـضـلالهـم وانضـوائهم تحت سلطان أخيـهـم، حـيث سيـدخل هؤلاء المشـركـون في دين الله، وفي طاعة الله ورسوله... ثم في انتقالهم من الجدب إلى الخصـب، ومن البـدو إلى الحضـر، ومن الضعف إلى القـوة والسلطان، كـمـا حدث ذلك لإخوة يوسف - عليه السـلام - وأن مُلكاً عظيمـاً ينتظر هؤلاء القوم، كـهذا الملك العظيم، بل وأعظم من الذي وقع ليوسف وإخوته...

كل هذا وكـثير غيره رآه النبي - ﷺ - في آيات تلك القـصـة التي هي إرهاص بميـلاد قـصـة جديدة تعيـد سيـرة تلك القـصـة، وتكـون تأويلاً لهـا.. ولقـد جاءت الأيام بقـصـة مـحـمـد - صلى الله عيـه وسلم - وقـومـه أوْسع مـدى وأعظم أثـراً وأخلد ذكـراً من قـصـة يوسف - عليه السلام - التي لم تكن إلا إشارة إليهـا... وكان يوم فتح مكة خاتم القصة المحمديه، كما كان (استيلاء إخوته يوسف على إخوة وضمهم إليه خاتمة قصته).

رفع المستهم

المضمون العام للآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى ما في هذه القصة من المعجزة التي أجراها الله تعالى لرسوله محمد - ﷺ - حيث أخبره بما جرى بين يوسف وإخوته وما آل إليه أمرهم، ولم يكن - ﷺ - لَدَيْهم ليعرف خبرهم ومكرهم بأخيهم يوسف، وما كان قارئاً ليقرأ عنهم، فمن أين علم هذا إن لم يكن وحياً من عند الله تعالى، فاشهدوا بأن هذا القرآن من الله تعالى، وأن محمداً رسول الله - ﷺ -.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الآية تعقيب على ما قصه الله تعالى على رسوله محمد - ﷺ - من قصة يوسف - عليه السلام -.

٢ - في الآية دليل على صدق نبوة محمد - ﷺ -، فقد أوحى الله تعالى إليه بهذه القصة، ولم يكن عنده ولا عند قومه علم بها من قبل.

٣ - هذا النوع من الإخبار القصصي من قبيل الإخبار بالغيب الماضي.

٤ - ما نقرؤه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين -عليه السلام- على قلب محمد الأمين - ﷺ -.

٥ - الله تعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة.

٦ - الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات لتصديقهم.

٧ - فضل القرآن العظيم في حفظ قصص الأنبياء والمرسلين.



«الآية الثالثة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«ولو حرصْت» الحِرْصُ: فَرْط الشَّرَه، وفَرْطُ الإرادة، قال تعالى: «إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ»(١) أي: إن تَفْرِطْ إرادتُك في هدايتهم، وقال تعالى: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ»(٢) وقال تعالى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» وأصل ذلك من حَصَرَ القَصَّارُ الثوبَ أي قَشَرَهُ بِدقِّه(٣) فمعنى الحِرْص: طلب الشيء بأقصى ما يُمكِنُ من الاجتهاد(٤).

رابعاً - الإعراب:

«وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» الواو عاطفة، و(ما) نافية حجازية بذلك زيادة الباء في خبرها، و(أكثرُ الناس) اسمها، والواو اعتراضية، و(لو) شرطيّة، و(حرصت) فعل وفاعل، والجملة امعترضة بين (ما) الحجازية وخبرها(٥).

البلاغة:

في قوله تعالى «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» فَنُّ الاعتراض.

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) النحل/ ٣٧. (٢) البقرة/ ٩٦.

(٣) المفردات (كتاب الحاء) ١١٣.

(٤) التفسير المنير/ ١٣/ ٨٠.

(٥) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٦٠-٦١.



سادساً - التفسير والبيان:

إعداد الرسول ﷺ لتقبّل موقف الجحود من قومه:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

وجه المناسبة:

لما سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ - عن قصة يوسف - عليه السلام - فنزلت بهذا البيان الشافي والشرح الوافي، فأَمِلَ - ﷺ - أن يكون ذلك سببا في إسلامهم فخالفوا تأميله، فحزن لذلك، فعزَّاه الله تعالى وآنسه بقوله:

«وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ»(١) وهذه الآية الكريمة انتقال من سوْق هذه القصة إلى العبْرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة(٢) التي كان من المفترض عليهم أن يتنبهوا لها، ويعلموا أنها تدل على صدق رسالته - ﷺ - وأن الذي أخبره بذلك هو العليم الحكيم، ولكنهم لم يفعلوا، بل ظلوا على تكذيبهم وعنادهم وجحودهم وكفرهم(٣).

«وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ» أي: كلهم(٤) فالظاهر للعموم(٥) كقوله تعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون»(٦) فالكثير هنا يقابل القليل، وتلك هي القاعدة السائدة في موقف الأمم من دعوة الرسل - عليهم السلام - في كل زمان ومكان، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أراد بهم أهل مكة(٧). لأنهم المواجهون بخطاب الدعوة في تلك الفترة، وحالهم منها كحال سائر الناس.

فالمؤمنون دائماً أقل من الكافرين، ولذلك شواهد:

---

(١) انظر: زاد المسير/ ٤/ ٢٩٣، ونظم الدرر/ ٤/ ١٠٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦١.

(٣) تفسير سورة يوسف (محمد متولي الشعراوي) شرائط مسجلة

(٤) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٦.

(٥) روح المعاني/ ٧/ ٦٢. (٦) يوسف/ ٣٨.

(٧) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٦.



١ - قوله تعالى: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً»(١) أي: لأستأصِلنّهم بالإغواء إلا قليلا منهم.

٢ - قال تعالى: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ» كرّر هذه الآية سبع مرات فيمن أُرسل لهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى - عليه السلام - كما يُعْلَمُ من سورة الشعراء(٢).

٣ - قال تعالى: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»(٣) والحواريون كانوا اثني عشر فقط، ارتدّ منهم يهوذا الإسخريوطي فبقي أحد عشر، فهذه الآية الكريمة تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الإيمان، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم أقلية(٤) وواقع تعداد المسلمين اليوم ونحن في العام الأول من القرن الثالث الميلادي، يكاد لا يبلغ ربع سكان العالم.

«وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ»

الحرص: شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته(٥) فمعنى «ولو حرصت» أي: ولو بالغت في طلب إيمانهم، وفي إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك عليهم «بمؤمنين» أي: بمصدقين، كما قاله سعيد بن جبير، لتصْميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد حسبما اقتضاه استعدادهم(٦) فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين لهم(٧).

وواضح أن الآية الكريمة تشير إلى الإيمان «بمؤمنين» لا الإسلام، ومعروف أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، فكأنه ﷺ - لم يكن حريصاً على أن يكون أهل

---

(١) الإسراء / ٦٢.
(٢) السورة رقم: ٢٦ في القرآن الكريم. (٣) آل عمران / ٥٢.
(٤) مؤتمر تفسير سورة يوسف / ٢ / ١٣٨٥-١٣٨٦.
(٥) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٢.
(٦) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٤٤، وروح المعاني / ٧ / ٦٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن / ٢ / ٤٤٨.



مكة وسواهم مسلمين فقط؛ بل مؤمنين[1] لأن الإسلام الظاهري بالأقوال والحركات دون تصديق بالقلب لا ينفع ولا يقبل عند الله تعالى القائل: «قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»[2] أي: لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نيّة وطمأنينة، ولا يدخل الإيمان في القلب إلا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ طاعة قائمة على التصديق والإذعان والرضا التام والقبول الكامل، ولهذا قال تعالى بعد ذلك في نفس الآية: «وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً، إن الله غفور الرحيم» أي: لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئا.

وقوله: «وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» كأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله: «إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»[3][4] وهذه الآية كقوله تعالى في سورة النحل: «إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ»[5] لقد كان رسول الله ﷺ حريصا كل الحرص على إسلام قومه ونجاتهم من عذاب الله، وكان يحزن أشدّ الحزن لانصرافهم عنه، حزنا كاد أن يهلكه، حتى خاطبه ربه بقوله الكريم: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»[6] أي: مهلكها من الحزن على عدم إيمانهم، ولهذا أمره تعالى تخفيض بعض هذا الحرص فقال له: «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» وصدق الله العظيم القائل: «لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ»[8].

فالله الرحمن الرحيم يخاطب رسوله محمدا ﷺ ويؤنسه ويواسيه ويوصيه ألا يحزن على كفر من كفر، ولا يتعب وراء القوم أكثر مما يريد الله تعالى منه من التبليغ

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦٤. (٢) الحجرات/ ١٤.
(٣) القصص/ ٥٦. (٤) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٢٧.
(٥) النحل/ ٣٧. (٦) الشعراء/ ٣.
(٧) فاطر/ ٨. (٨) التوبة/ ١٢٨.



الصحيح والثبات على الدعوة كما قال له ربه: «إِنَّ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغ»(١) فاقتصد في الحرص عليهم وقم بمهمة الدعوة، وبعد ذلك فكما قال له ربه: «فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ»(٢).

إيناساً وتسلية وإعداداً ووصية للرسول - ﷺ - يقول له ربه، «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» فخفف وهون الأمر على نفسك وخفف من حرصك عليهم، ولا تحمل نفسك أكثر مما تطيق وفوض الأمر إلى الله تعالى، وليس عليك إلا البلاغ، «فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - تفانيه - ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، وحرصه الشديد على إيمان قومه.

٢ - الحرص مطلوب في الداعية إلى الله تعالى، ولكن على ألا يكون ذلك سبباً في هلاكه، فإن الهداية والإضلال بيد الله تعالى وحده، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

٣ - ليس في الآية الكريمة نهي عن الحرص كُلّه ولكنه تنبيه إلى قَسْوة قلوب أولئك المخاطبين في مكة بالإسلام.

٤ - الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى صفات عالية من العلم والتقوى والصبر وغير ذلك، وهذا لأن فضلها عظيم عند الله تعالى «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

٥ - المؤمنون أقل من الكافرين، فالكثرة في الآية في مقابلة القلة، والآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة تؤكد ذلك.

---

(١) الشورى/ ٤٨. (٢) الزمر/ ٤١.

رفع المسلم هما

«الآية الرابعة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«وما تسألهم» قرأها الجمهور بالتاء، وقرأ بشر بن عبيد بالنون «وما نسألهم»(١)

ثالثاً - اللغة:

«العالمين» جمع عالم، وهو ما سوى الله تعالى، وسمّي بذلك لأنه علم على وجود الخالق، وجُمِع جمْع العقلاء تغْليبا(٢).

قال الراغب: وأما جمعه - العالمين - جمْع السلامة فلكون الناس في جملتهم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غَلَبَ حَكْمُه(٣)

رابعاً - الإعراب:

«وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ» الواو عاطفة، و(ما) نافية، و(تسألهم) فعل مضارع وفاعل مستتر، والهاء مفعول به، و(عليه) حال، لأنه كان في الأصل صفة لـ(أجر) والضمير يعود على القرآن، و(من) حرف زائد، و(أجر) مجرور بـ(من) لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به، و(إن) نافية، و(هو) مبتدأ، و(إلا) أداة حصر، و(ذكْر) خبر هو، و(للعالمين) خبر لـ(ذكر)(٤).

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) تفسير البحر / ٥ / ٣٤٤.

(٢) صفوة البيان / ٣.

(٣) المفردات (كتاب العين) ٣٤٤.

(٤) إعراب القرآن وبيانه / ٥ / ٦١.



سادساً - التفسير والبيان:

«لا أجر على الدعوة إلا من الله تعالى»

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما ذكر الله تعالى ما هم عليه من الكفر، ذكر ما يعجب معه منه فقال:

«وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...»(١) وهذه الجملة معطوفة على جملة «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم(٢) فهذه الآية مرتبطة بسابقتها تماما، فإذا كانت الآية الأولى - السابقة - تشير إلى أنه ليس هناك أي مبرر لهذا الانصراف منهم، وحتى الأجر الذي ينبغي أن يُدْفع لكل عامل لقاء تعبه، ولا يلام طالبه لأنه حق له، فإنك لا تطلب شيئاً منه فضلاً عما سواه من جاه وسلطان(٣) ولقد جاء عتبة ابن ربيعة، وكان سيدا مطاعا في قريش، نائبا عنها إلى رسول الله - ﷺ - في أوائل الدعوة - يعرض عليه كل ما في الدنيا من مال وجاه وسلطان، ليكف عن الدعوة فأبى، وقرأ عليه من سورة فصّلت(٤) وكان مما قاله عتبة لرسول الله - ﷺ -: يا بن أخي! إنْ كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكْناك علينا... الخ(٥) وقد قال ﷺ لعمه أبي طالب - بعد أن طلبت قريش منه أن يكف ابن أخيه عن دعوته -: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته(٦).

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٦. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٢.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦٤. (٤) هي السورة رقم: ٤١ في القرآن الكريم.

(٥) أنظر: السيرة الحلبية/ ١/ ٤٨٧. (٦) انظر: الرحيق المختوم/ ١١٤.



إنه لو كان الأجر على قدر ما يقدمه المرء للآخرين من خير ونفع، لكان أعظم ما يؤخذ عليه الأجر على الإطلاق هو الدعوة إلى دين الله الحق، لأن مردود الدعوة على المستجيب لها فوق كل ما في الدنيا من مال ومتاع، وإن غَمْسَة واحدة في نعيم الجنة الباقي، أطيب أكبر من كل نعيم الدنيا الزائل، ولو كان الناس يعقلون وسئلوا الأجر -فرضا- على هداية الرسل لهم وإشاردهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدارين، لأعطوا في سبيل ذلك كل ما استطاعوا، إلا أن جلال الدعوة وعظمتها، وكرامة حاملها ومبلّغها، فوق كل ما يملكه كل البشر، ولا يقدر على إعطاء الأجر على الدعوة إلا الله تعالى، كما قال جل شأنه: «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ» تكررت خمس مرات في سورة الشعراء وحدها[1]. هذا، والضمير في قوله: «وَمَا تَسْأَلُهُم» راجع للأكثر من «وما أكثرهم بمؤمنين»[2] وضمير «عليه» عائد إلى القرآن الكريم المعلوم من قوله: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ»[3] والمعنى، وما تسألهم على القرآن وما تتلوه عليهم منه من أجر، أي من جعالة ولا أجرة حتى يكون سؤالك سببا لأن يتهموك أو يقولوا «لو لا أنزل عليه كنز»[4] ليستغني به عن سؤالنا، بل تفعله ابتغاء وجه الله تعالى ونصحا لخلقه[5] عن ابن عباس في قوله: «وما تسألهم عليه من أجر» قال: «عَرَض من أعراض الدنيا، ولما نفي عنه ﷺ سؤالهم الأجر، نفي عن هذا الذكر كل غرض دنيوي فقال:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ»[6]

وهذه الجملة بمنزلة التعليل لجملة «وما تسألهم عليه من أجر» والقَصْر إضافي، أي:

---

(١) الشعراء / ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ٨٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٢.

(٤) هود / ١٢ / .

(٥) انظر: تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٩٣، ونظم الدرر / ٤ / ١٠٦، وفتح البيان / ٦ / ٤٠٩.

(٦) نظم الدرر / ٤ / ١٠٦.



ما هو إلا ذكر للعالمين لا لتحْصيل أجر مبلّغه[1] فهو للعالمين كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم[2]، ليتّعظوا ويتذكروا به[3] ويهتدوا وينجون به في الدنيا والآخرة[4] قال الرماني: والذكر: حضور المعنى للنفس، والعالم: جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها أن تعلم، لأنه أخذ من العلم، وفيه معنى التكثير[5] فهذا القرآن الكريم عظة من الله تعالى للعالمين عامة، وليس هناك طلب لمقابل، لا من أهل مكة ولا من سواهم[6] لأن الوعظ العام ينافي أخذ الأجر من البعض[7] والذكر من أشهر أسماء القرآن الكريم، قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[8].

المضمون العام للآية الكريمة:

وما تطلب منهم يا محمد - ﷺ - على هذا التبليغ والدعوة إلى اتباع القرآن من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء مرضات الله تعالى وحرصاً على هدايتهم وصلاحهم، وهذا القرآن إن هو إلا تذكير للعالمين قاطبة، يتذكرون به ما ينفعهم ويهديهم إلى مرضات الله فيفعلوه ليفوزوا برضاه ورضوانه، ويتذكرون به كذلك ما يضرهم ويشقيهم فيتركوه خشية لله تعالى.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - دعوة الأنبياء والمرسلين لا يقابلها أجر إلا من الله تعالى وحده.

٢ - لو كان الأجر يدفع في مقابل المنفعة والخير لكان الأحق بذلك الدعوة، لكن جلال الدعوة وكرامة حاملها فوق كل ما يملكه البشر.

٣ - لا يوجد لأحد عذر مطلقاً في عدم قبول دعوة الإسلام.

٤ - الإسلام دعوة عامة للناس كافة، وليست مختصة بقوم دون قوم.

٥ - فساد المتَلَقيّ للدعوة يجعله غير قابل للانتفاع بها ولو جاءه كل المرسلين.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٢. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٩.

(٣) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٧٦. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٩٣.

(٥) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٦. (٦) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦٥.

(٧) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٩. (٨) الحجر/ ٩.



«الآية الخامسة بعد المائة»

أولاً - النص القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«وكأين من آية» قرأ الجمهور (وكَأيِّن) وهي أصل الكلمة، إذ هي (أي) دخل عليها كاف التشبيه، وكتبت بنون في الصحف، ووقف عليها أبو عمرو، وروي سَوْرَةُ ابنُ المبارك عن الكسائي بياء دون نون، ووقف الجمهور على النون اتباعا للرسم، واعتل لذلك أبو علي الفارسي بما يوقف عليه في كلامه، وذلك على عادة المعللين، ومما جاء على هذه اللغة قول الشاعر:

وَكَأَيْنَ في المعاشرِ من أُناس *** أخوهم فوقهم وهُمُ كرام

وقرأ ابن كثير (وكائن) وهي أكثر استعمالا في لسان العرب وأشعارها، قال الشاعر:

وكائنٌ رَدَدْنا عنكم من مُدَجَّج *** يجئ أمام الركب يردي مقنعا[1]

وقرأ ابن محيْصين والأشهب والعقيلي (وكَأيْنَ) على مثال (كَعَيْن) وقرأ ابن محيصين أيضا (كان) على مثال (كع)

قال الشاعر:

كان صديقٌ خِلْتُه صادق الإخا *** أبان اختباري أنه لي مُداهِنُ

وقرأ الحسن (كَيٍ) بكاف بعدها ياء مكسورة منوّنة[2]

«والأرض»

قرأ عكرمة وعمرو بن قائد «والأرضُ» بالرفع على الابتداء، وما بعده خبر، ومعنى «يمرون عليها» أي: يشاهدون ما فيها من الآيات،

---

(١) البيت لعمرو بن شاس، والمدجج: اللابس السلاح، انظر: القرطبي / ٤ / ١٤٧، والدر المصون / ١ / ٢١٣.

(٢) انظر: الكشاف / ٢ / ٣٤٦ وتفسير ابن عطية / ٣ / ٢٥٠-٢٥٣، وتفسير البحر / ٣ / ٧٧-٨٧، وروح المعاني / ٧ / ٦٢-٦٣.



وقـرأ السّـدّي «والأرضَ» بالنصب، وهو من باب الاشـتـغـال، أي: ويطؤون الأرض «يمرون عليهـا» على آياتها وما أُودع فيها من الدلالات، والضمير في (عليهـا) و(عنها في هاتين القراءتين يعود على الأرض، وفي قـراءة الجمـهور، وهي بجَـرِّ (الأرضِ) يعود الضمير على (آية) أي: يمرون على تلك الآيات، ويشاهدون تلك الدلالات، ومع ذلك لا يعتبرون، وقرأ عبدالله بن مسعود (والأرضُ) برفع الضاد - أي كما قرأ عكرمة وعمرو بن قائد -[١]

ثالثاً - اللغة:

«وكأين» كلمة مركبة من كاف التشبيه وأيّ الاستفهامية المنوّنة، ثم هجر معنى جُزئيْها وصارت كلمة واحدة بمعنى (كم) الخبرية المفيدة للتكثير، يُكْنَى بها عن عدد مبهم فتفْتقِر إلى تمييز بعدها[٢]

رابعاً - الإعراب:

«وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»

(وكأين) في محل رفع مبتدأ، و(من آية) تمييز مجرور بمِن، و(في السماوات والأرض، صفة لآية.

«يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»

جملة (يمرون) خبر لمبتدأ وهو (كأين) و(عليها) متعلقان بيمرون، وهم، الواو حالية، و(هم) مبتدأ، و(عنها) متعلقا بمعرضون، ومعرضون خبرهم، والجملة الإسمية حالية، ويجوز أن يكون (في السماوات والأرض) خبر لـ(كأين)، وجملة (يمرون) صفة لـ(آية)[٣].

---

(١) انظر: الكشاف / ٢ / ٣٤٦، وتفسير ابن عطية / ٣ / ٢٥٠-٢٥٣، وتفسير البحر / ٣ / ٧٧-٧٨، وروح المعاني / ٧ / ٦٢-٦٣.

(٢) صفوة البيان / ٩٧.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٦١.



فائدة عن «وكأين»

(كأين) بمعنى كم في الاستفهام والخبر، وهي مركبة من (كاف التشبيه) ومن (أي) الاستفهامية، وقد حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من (كم) الخبرية، ولا تتعلقان بشيء لأنهما صارتا بمنزلة كلمة واحدة، ولذلك رآى أبو حيان أن تكون (كأيّن) كلمة بسيطة غير مركبة، ولم أجد من يؤيده وإن كان رأيه جميلا سهلاً.

و(كأين) توافق (كم) الخبرية في خمسة أمور:

١ - الإبهام، ٢ - الافتقار إلى التمييز، ٣ - البناء، ٤ - لزوم التصدير، ٥ - إفادة التكثير، أو التكثير تارة والاستفهام تارة أخرى. قال أبي لابن مسعود: كأين تقرأ سورة الأحزاب آية؟ قال: ثلاثا وسبعين،

وتخالف (كأين) (كم) في خمسة أمور:

١ - أنها مركبة، و(كم) بسيطة، ٢ - أن مميزها مجرور بمن غالبا حتى زعم بعضهم لزومه، وهو مردود بما رواه سيبويه ويونس أنهما سمعا منْ يقول: كأي رجلاً، ٣ - أنها لا تقع استفهاميّة عند الجمهور، ٤ - أنها لا تقع مجرورة، فلا تقول بكأين تبيع هذا؟ وأجازه بعضهم. ٥ - أنَّ خبرها لا يقع مفرداً، قال زهير:

وكائن ترى من صامت لك معجب ** زيادته أو نقصه في التكلم

وقال الخليل وسيبويه: هي (أي) دخلت عليها كاف التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى (كم) وصورت في المصحف نونا لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها بتغيّر معناها، فتصرفت فيها العرب بالقَلْب والحذْف فصار فيها أربع لغات قرئ بها: إحداها «كائن» كقول زهير - السابق - والثانية (كأى) مثل (كَعَيِّن) وهو الأصل، والثالثة (كأْين) مثل (كَعَيْن) والرابعة (كيْئِن) بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٢ / ٦٧-٦٨.



سادساً - التفسير والبيان:

الإعراض عن آيات الله تعالى في السماوات والأرض شأن الكفار دائما:

قال الله تعالى: وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

وجه المناسبة:

ولما كان القرآن الكريم أعظم الآيات بما أُنبئ فيه عن الأخبار الماضية والكوائن الآتية على ما هي عليه مضمنة من الحكم والأحكام، في أساليب البلاغة التي لا ترام، وغير ذلك ما لا يُحصر بنظام، كما أشار إليه أول السورة، كان ربما قيل: إن هذا ربّما لا يعلمه إلا الراسخون في العلوم الإلهيّة، عطف عليه الإشارة إلى أن له تعالى غيره -أي القرآن- من الآيات التي لا تحتاج لوضوحها إلى أكثر من العقل ما لا يحيط به الحصر، ومع ذلك فلم ينتفعوا به فقال:

«**وكأيّن مّن آية**»(١) قال الخليل وسيبويه: إن (كأين) أصلها (أي) دخل عليها كاف التشبيه، لكنه أنْمحي عن الحرفين المعنى الإفرادي وصار المجموع باسم واحد بمعنى (كم) الخبرية التكثيرية، والأكثر إدخال (من) في مميزة، وهو تمييز عن (الكاف) لا عن (أي) كما في مثلك رجلا(٢).

فهي اسم يدل على كثرة العدد المبهم(٣) والآية جمعها آيات، وهي العلامة الكبيرة الدالة على قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته، والآيات أنواع ثلاثة، (أحدها) آيات تحمل منهج الله تعالى إلى خلقه، وهي آيات القرآن الكريم، كما قال تعالى في أول هذه السورة الكريمة «الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِيْن»

(ثانيها) آيات للدلالة على صدق الرسل - عليهم السلام - كما قال تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ»(٤)

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٧.. (٢) فتح البيان/ ٦/ ٤٠٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٣.

(٤) الإسراء/ ٥٩.



(ثالثها) آيات كونية للدلالة على خالق الكون الإله الواحد جل وعلا، وهو المراد هنا، كما قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ»[1] ويدخل فيها آيات الأنفس، كما قال تعالى: «وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ»[2] وواضح من الآية الكريمة أن الحديث عن الآيات المحسوسة التي تدركها العقول[3] وأن المراد بها هنا، المخلوقات المنصوبة للاعتبار والحوادث[4] الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته[5] في الأرض والسماوات وما بينهما،

وآيات السماء قسمان رئيسيان:

الأول: أجرام نراها، أو نستطيع أن نراها باستخدام أجهزة معيّنة... وهذا الذي نراه هو جزء محدود من مجرات جبارة تسبح في الكون الكبير.

الثاني: نظم تتحرَّك بها هذه الأجرام، ندرك بعضها بالعين المجردة، كحركة القمر والشمس وبعض الكواكب... وصدق الله العظيم القائل: «وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»[6] وما تراه العين من آيات السماء: أجساما ونظاما، يكفي أيّ إنسان سَوِيٍّ التفكير، ليؤمن بمبدع هذا الكون، ولا يستطيع العلم - أي علم - أن يقوم، إذا لم يقبل أهله، أن الكون وما فيه، يقوم على نظام، وأنه ليس مجموعة من المصادفات، أو الحقائق غير المترابطة، إن المؤمنين والملحدين يلتقون عند وجود نظام للكون، ويختلفون في مصدر النظام، يقول المؤمنون: إنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وغيرهم يقول غير ذلك.

---

(١) آل عمران / ١٩٠. (٢) الذاريات / ٢٠-٢١.
(٣) دروس من سورة يوسف / ١٩٢. (٤) تفسير ابن عطية / ٩ / ٣٨٦.
(٥) روح المعاني / ٧ / ٦٣. (٦) يس / ٣٧-٤٠.



والأرض بها آياتها: آفاق الجماد من غازي وسائل وصَلْب، آفاق النبات والحيوان والإنسان، وهي آفاق يقود التأمل فيها إلى مزيد من الإدراك لما يحكمها من نظم وقوانين[1].

«يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»

ومعنى «يمرون عليها» أي: يرونها، فالمرور مجاز مُكَنَّي به عن التّحقق والمشاهدة، إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماء، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا»[2] وضمير «يمرون» عائد على الناس من قوله: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»، والضمير في «عنها» راجع إلى الآية[3].

ومعنى «وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أي: غير ناظرين إليها ولا متفكرين فيها[4] إن الآيات الدالة على وجود الصانع جل وعلا ووحدانيته وقدرته وعظمته، كثيرة لا تعد ولا تحصى، مبثوثة في تضاعيف الكون، معروضة للأبصار والبصائر في السماوات والأرض، يمرون عليها صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار، وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها، بارزة تواجه العيون والمشاعر، موحية تخايل للقلوب وللعقول، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها، ولا يحسون إيقاعها العميق، وإن لحظة تأمّل في مطلع الشمس ومغيبها، لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد... لحظة تأمل في الخضمّ الزاخر، والعين الفوّارة، والنّبع الرويّ، لحظة تأمّل في النّبتة النامية، والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم، لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوم، لحظة تأمّل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار، لحظة واحدة يتسمّع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب...

---

(١) دروس من سورة يوسف / ١٩٢-١٩٣.

(٢) الفرقان / ٧٢.

(٣) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٣.

(٤) تفسير أبي السعود / ٤ / ٣٠٩.

إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب(١) كم في السماوات من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات(٢)، وكثير هي الآيات التي يبصرونها في السماء ويمرون عليها في الأرض، وكلها يشهد بصحة ما تدعوهم إليه، ومع ذلك فهم لا يتأملون ولا يتدبرون(٣) قال أبو نواس:

تأمّل في رياض الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
غصونٌ من زبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

قيل لأعرابي: بماذا تعرف الله تعالى؟ فقال: إذا دلّت البعْرة على البعير، وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج لا تدلان على اللطيف الخبير.

وقال الشاعر:

وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد(٤)

وهذه الآية الكريمة وإن نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، إلا أنها للناس عامة، وهي تقريع لمن عطلوا أبصارهم عن إدراك صحائف الوجود، وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة، وكما قال الله تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ

---

(١) الظلال / ٤ / ٢٠٣٢. (٢) تفسير ابن كثير / ٢ / ٤٩٤.
(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٦٥.
(٤) انظر: روح المعاني / ٧ / ٦٣.



الْغَافِلُونَ»(١) وكثيراً ما دعا القرآن الكريم إلى النظر والتفكر في آيات الله تعالى، من مثل قوله جل شأنه: «قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ»(٢) فهذا هو حال الكافرين وشأنهم في كل زمان ومكان، والعجيب أن أكثر من يشتغلون بعلوم السماوات والأرض كافرون، غافلون عن خالقهما ومبدعهما، ذاهلون عن ذكره، لا يدرون شيئا عن علمه وقدرته وجلاله وعظمته.

وكما قال تعالى: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»(٣) يمتّعون عقولهم بلذة العلم، وأرواحهم محرومة من لذة معرفة الله تعالى والأنس بذكره والعيش في جوار رحمته ومنته، تلهّوا بالصنعة عن الصانع، وتاهوا عجبا بما توصلوا إليه من بعض أنواع العلوم والمعارف، فضلّوا وغووا، وما دروا أن الله تعالى هو العليم وحده، والذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، فلا علم لهم إلا منه سبحانه وبإذنه وإرادته.

المضمون العام للآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - وذم للكافرين، وتقرير أنهم دائماً لا يلتفتون إلى آيات الله الكونية المبثوثة في السماء والأرض، ليتعرفوا على الخالق المبدع الواحد الأحد، فكم في السماوات والأرض من آيات عظيمة دالة على توحيد الله تعالى وكمال علمه وقدرته، من شمس وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار، يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها من عبرة ودلالة على توحيد ربها، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فأحسن تدبيره.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - دوام رحمة الله تعالى ولطفه برسوله محمد -ﷺ- وتسليته وتعزيته عما يحدث له من كفار أهل مكة.

٢ - طبيعة الكافرين أنهم لا ينظرون في آيات السماوات والأرض نظر تدبر وتفكر ليصلوا إلى معرفة الله الخالق المبدع وتوحيده.

---

(٢) الأعراف/ ١٧٩. (٣) يونس/ ١٠١. (٤) الروم/ ٧.



٣ - من صفات المؤمنين الدائمة، النظر إلى آيات الله تعالى، المبثوثة في السماوات والأرض والتفكر فيها ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، امتثالاً لما جاء في الكتاب والسنة.

٤ - إن الذين لا ينظرون في آيات السماوات والأرض ولا يتفكرون فيها ولا يتدرونها كالأنعام أو أضل سبيلاً.

٥ - الله تعالى جعل الإعجاز في قرآنه الكريم وفي كونه العظيم، فقد قال إبراهيم الخليل - عليه السلام - للنمرود الكافر الذي ادعي الألوهية: «فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»(١).

---

(١) البقرة/٢٥٨.

رفع المسـاهم

«الآية السادسة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة: □

رابعاً - الإعراب:

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ» الواو عاطفة، وما نافية، و(يؤمن أكثرهم) فعل مضارع وفاعل، و(بالله) متعلقا بـ(يؤمن) وإلا، أداة حصر، والواو حالية، و(هم) مبتدأ، ومشركون، خبر، والجملة نصب على الحال[1].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب الألف) ٢٦.

رفع
المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

وجه المناسبة:

لما وُصِفوا بالإعراض عن آيات الله تعالى في السماوات والأرض، ربما قيل: كيف يوصفون بالإعراض وهم يعتقدون أن الله فاعل تلك الآيات؟ بيَّنَ أنّ إشراكهم مُسْقِط لذلك فقال:

«**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**»(١)

الضمير راجع إلى الناس في قوله: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» والإيمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة القلب.

ومعنى الإيمان بالله تعالى هو أن يُعبد وحده ولا يُشرك به شَيْئاً من خلقه، والكفر بكل طاغوت صارف عن عبادة الله تعالى وطاعة رسوله - ﷺ - كما قال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ»(٢).

والطاغوت هو كل مَا عُبد من دون الله تعالى، أو صَرَف عن عبادة الله، والإيمان بالله تعالى مبني علي توحيد الربّوبُيّة، وهو اختصاصه تعالى وتفرده بالخلق والرزّق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد الألوهية، أي في العبادة، وهو اختصاصه تعالي بسائر العبادات وتفرده بها دون سائر مخلوقاته، وتوحيد الذات والأسماء والصفات، فهو جل شأنه، واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»(٣).

أنواع الشرك

الشرك ثلاثة أنواع:

(الأول) شرك في الربوبية، وهو أن يعتقد أن مع الله تعالى رَبا آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدبير الكون.

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١٠٧. (٢) النحل/ ٣٦. (٣) الشورى/ ١١.

(الثاني) الشرك في الألوهية، ويقال له الشرك الأعظم، وهو أنْ يُعبدَ مع الله تعالى غيره، وذلك كالسجود لغير الله تعالى أو الدعاء أو الخوف والرجاء والاستعانة والسؤال والنذر وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله تعالى.

(الثالث) الشرك الخفي: ويقال له الشرك الأصغر، وهو الرياء، ويكون حينما يعمل الإنسان رياء للناس فهو مشرك بعمله ذلك.

ومعنى قوله تعالى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ»

أي أن أكثر الناس وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته، وتفصيل ذلك كما يلي:

قال ابن عباس في معنى الآية: تسألهم من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره.

وعن عطاء في معناها قال: كانوا يعلمون أن الله خلقهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك يشركون. وعن عكرمة وقتادة مثل ذلك.

وعن مجاهد قال: يقولون: الله ربنا، الله يميتنا، الله يرزقنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره.

وعن الحسن قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك.

وعن النضر بن عربي قال: فمن إيمانهم أن يقال لهم: من ربكم؟ فيقولون: الله، ومن يدبّر السماوات والأرض؟ فيقولون الله، ومن يرسل عليكم المطر؟ فيقولون: الله، ومن ينبت الأرض؟ فيقولون: الله، ثم بعد ذلك مشركون فيقولون: إن لله ولداً، ويقولون ثالث ثلاثة.

وعن زيد بن أسلم قال: ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو يؤمن بالله، يعرف أن الله عز وجل ربه، وأن الله خلقه ورزقه وهو مشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم - عليه السلام - «أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦)



فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ»(١) قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك بالله إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا. وعن الضّحاك قريب منه.

وعن أبي جعفر محمد بن علي قال: شرك طاعة قول الرجل: لولا الله وفلان، لولا وكلب بني فلان(٢)

وقد جمع الإمام الماوردي أقوال السلف في معنى الآية في خمس اتجاهات:

(الأول) أنه قول المشركين: الله ربنا وآلهتنا ترزقنا، قاله مجاهد.

(الثاني) أنه في المنافقين يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى، قاله الحسن.

(الثالث) هو أن يشبّه الله تعالى بخلقه، قاله السدّي.

(الرابع) أنه يشرك في طاعته، كقول الرجل: لولا الله وفلان لهلك فلان، وهذا قول أبي جعفر.

(الخامس) أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد ﷺ فلا يصح إيمانهم، حكاه الأنباري(٣).

أصناف الناس التي تدخل تحت معنى، الإيمان والإشراك معاً:

إن النظم القرآني الكريم صالح لحمله على كل من يصدق عليه مسمى الإيمان، مع وجود مُسَمّى الشرك، لأن العبرة كما هو مقرر؛ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعلى ذلك فيدخل تحت هذا المسمى الأصناف التالية:

أولاً - أهل مكة المواجَهون بالدعوة ومن هم على شاكلتهم:

---

(١) الشعراء/ ٧٥-٧٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٨٨-٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢٢٠٧-٢٢٠٨، والدر المنثور/ ٤/ ٧٥.

(٣) تفسير الماوردي/ ٢/ ٣١١-٣١٢.



لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا يعترفون بالله ربا وخالقا، ومع ذلك فقد كانوا يشركون في عبادته الوثَن، فهم مُوحّدون في الربوبية مشركون في الألوهية، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ»(١).

وكقوله تعالى: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيَّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ»(٢).

وكقوله تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ»(٣). إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، ومع هذا فإنهم قالوا: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ»(٤).

وكانوا يقولون في تلبيتهم: لَبَّيْك اللهم لَبَّيْك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وهذا هو الشرك الأعظم إذ يعبد مع الله غيره. وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: لَبَّيك لا شريك لك قال رسول الله - ﷺ -: (قَدْ قَدْ) أي: حَسْبُ حَسْبُ لا تزيدوا على هذا(٥)، وعن ابن مسعود، قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل للّه نداً وهو خَلَقَك»(٦) فإيمان أهل مكة إيمان بالمعنى الأعَمّ، أي تصديق، لا بالمعنى الأخص، أي إيمان المؤمنين، فهذا الإيمان الصادر منهم واقع في حال الشرك، فقد آمنوا حال كونهم مشركين، ويدخل مع هذا الصنف من شبه الله تعالى بخلقه، ومن أشرك في طاعته، كقول الرجل، لو لا الله وفلان لهلك فلان.

ثانياً - المنافقون:

لأنهم كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الشّرك، فما كانوا يؤمنون ظاهراً إلا وهم مشركون باطناً، قال الله تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ

---

(١) الزخرف/ ٨٧. (٢) يونس/ ٣١. (٣) العنكبوت/ ٦١.
(٤) سورة ص/ ٥. (٥) صحيح مسلم. (٦) متفق عليه.



يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ»[١] ومنهم الأعراب كما قال تعالى: «قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»[٢]

أي: لم تؤمنوا بقلوبكم وإن أظهرتم بالجوارح إسلامكم، فهم منافقون أظهروا الإسلام وأخفوا الشرك.

ثالثاً - أهل الكتاب الذين يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره:

ويقولون: عزير بن الله، والمسيح ابن الله، فهم يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حال كونهم مشركين.

كيف يوصفون بالإيمان وبالإشراك معاً؟

يوصفون بهما معاً، لأن المراد بإيمانهم اعترافهم بأن الله تعالى هو ربهم الذي هو خالقهم ومدبّر شئونهم، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، والذي يظهر - والله تعالى أعلم - أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شَرْعي، لأنَّ من يعبد مع الله غيره لا يَصْدُقُ عليه اسم الإيمان البتَّة شرعاً، أما الإيمان اللغَوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغَة مع كفره بالله تعالى، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً[٣].

هذا، والآية الكريمة صالحة لإرادة صنفيْن آخريْن:

الأول: المراؤون بأعمالهم من هذه الأمة (الشرك الأصغر):

والرياء هو حين يعمل الإنسان عملاً رياءً للناس، فهو مشرك بعمله ذلك، فالمراءون آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء للناس، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»[٤].

---

(١) المنافقون/ ١. (٢) الحجرات/ ١٤.

(٣) انظر: أضواء البيان/ ٣/ ٧٤-٧٥، وفتح البيان/ ٦/ ٤١٠-٤١٥.

(٤) صحيح مسلم/ ٢٩٨٥.



وأخرج أحمد - رحمه الله - في المسند من حديث محمود بن لبيد أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصْغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرّياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[١].

الثاني: الواقعون في الشرك الخفي:

وهو أخفُّ أنواع الشرك، أخرج أحمد - رحمه الله - من حديث أبي موسى قال: خطبنا رسول الله - ﷺ - ذات يوم فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخْفَى من دبيب النَّمْل، ثم قالوا له: كيف نجتنبه وهو أخفى من دبيب النَّمْل؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[٢].

هذا، وإن كانت الآية الكريمة صالحة لإرادة الصنفين الأخيرين إلا أن السّياق القرآني ومدلوله من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ لا يقتضي إرادتهما، لأنهما من الأقل (المؤمنين) وليسا من الأكثر (الكفار) ويطلق على كل منهما الإيمان بالمعنى الشرعي، والله أعلى وأعلم.

تشابه بعض من ينتسبون إلى الإسلام اليوم مع شرك أهل مكة في الجاهلية:

إن الآية القرآنية سارية المفعول في كل زمان، وهذا من إعجاز القرآن العظيم فإنه ينطبق في كل وقت وكل مكان، وقوله تعالى (وهم مشركون) يعني بهم في المقام الأول أهل مكة ثم من هم على شاكلتهم، فقد كان أهل مكة يعبدون الأصنام ويقدمون لها النذور، ويحلفون بها ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وكان هذا مع إيمانهم بالله، أي بوجوده ووحدته في الربوبية

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد / ٥ / ٤٢٨ ورواه غيره.

(٢) حديث حسن رواه أحمد (٤ / ٤٠٣) ورجاله رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبّان، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط (مجمع الزوائد / ١٠ / ٢٢٣).



وأنه الخالق الرازق... إلخ، واليوم قد صار ذلك في بعض المسلمين، فقد بَنوا للأولياء الهياكل والأضرحة حتى في المساجد، واتجهوا إليها بتقديم النذور، وخصّوها بالدعاء وسجدوا لها وركعوا.

فيا ليت القائمين على أمور المسلمين في المشارق والمغارب ينتبهون إلى خطورة هذه الأمور وما يترتب عليها من الخروج عن دائرة الإسلام الصحيح والخلود في النار، إنها أمور أخطر على المسلمين من كل عدو، فالعدو إذا قَتَل المسلم نال الشهادة وفاز بالأجر العظيم، أما الشّرك - والعياذ بالله تعالى - فخراب الدنيا وهلاك الآخرة.

رفع المسلم

المضمون العام للآية الكريمة:

بعد أن بين الله تعالى في الآية السابقة أنهم لا يفكرون في آياته الكونية المعروضة أمامهم تفكيراً صحيحاً يوصّلهم إلى الإيمان بالله الواحد المستحق للعبادة وحده، بَيَّنَ في هذه الآية الكريمة، أنه ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون به غيره فيما يختص به من الألوهية أو الخلق أو التأثير أو التشريع أو الإنعام أو الإمداد المعنوي، وكل ذلك يقدَحُ في صحة الإيمان، فلا يصح الإيمان إلا إذا خلا من الإشراك كله، وأكثر الناس لا يَخْلو إيمانهم عن هذا.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة القلب.

٢ - الشرك الأكبر بالله تعالى هو أعظم الذنوب على الإطلاق «إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يشَاء».

٣ - أفضل كلمة على الإطلاق هي كلمة التوحيد، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

٤ - على القائمين بأمور الأمة الإسلامية تطهيرها من كل أنواع الشرك، وصوره وألوانه.

٥ - على كل مسلم ومسلمة الابتعاد عن الرياء في الأعمال والأقوال، وأن يسألوا الله تعالى وقايتهم من الشرك الخفي بما علمهم الرسول - ﷺ - (اللهم إنا نعوذُ بِكَ أن نشرِك بِكَ شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه).



«الآية السابعة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

«غاشية»: الغاشية: كل ما يُغطّي الشيء، كغاشية السّرْج، وقوله: «أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ» أي: نائبه تغشاهم وتجللهم[1] «بغتة» البَغْت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب، قال تعالى: «لاَ تَأتِيكُمْ إلا بَغْتَة»[2] وقال: «بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتبْهتُهُمْ»[3] وقال: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ»[4][5]

«وهم لا يشعرون» المشاعر: الحواس. والشعور: إدراك الشيء بما يلطف كدقة الشعر. ومعنى وهم لا يشعرون «أي لا يعلمون بقيام الساعة[6].

رابعاً - الإعراب:

الهمزة للاستفهام الإنكاري وفيه معنى التوبيخ والتهديد، والفاء عاطفة، وآمنوافعل وفاعل، و(أن تأتيهم) المصدر المؤوّل مفعول (آمنوا) والهاء مفعول (تأتي) وغاشية فاعل (تأتي)، و(من عذاب الله) صفة لـ(غاشية).

«أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» أو تأتيهم، عطف على تأتيهم السابقة، والساعة فاعل تأتيهم، وبغتة حال، والواو حالية، وهم مبتدأ، وجملة (لا يشعرون) خبر، والجملة نصب على الحال[7].

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

---

(١) المفردات (كتاب الغين) ٣٦١. (٢) الأعراف/ ١٨٧.
(٣) الأنبياء/ ٤٠. (٤) الحج/ ٥٥. (٥) المفردات (كتاب الباء) ٥٥.
(٦) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١٠٨. (٧) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٦١.



سادساً - التفسير والبيان:

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

وجه المناسبة:

ولما أخبر الله تعالى عن وقوعهم في الشرك وتعاميهم عن الأدلة في الدنيا، من معجزات للرسول - ﷺ - ومن آيات الله الكونية، ولما كان بعض الناس كالحمار لا ينقاد إلا بالعذاب، هدّدهم الله به فقال:

«أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله...»(١).

قوله: «أفأمنوا» استفهام إنكار، فيه توبيخ وتهديد(٢) وإنكار الإيجاب نفْي، فالمعنى: فلا يأمنوا وهم على هذه الحال من عدم الإيمان، أو الإيمان المخلوط بالشرك «أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّه»(٣)...

والغشْي والغشيان: الإحاطة من كل جانب، كما قال تعالى: «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الآية» والغاشية: ما يُغْشي ويغطّي ويغم، والمراد بها الحادثة التي تأتي على الناس وتحيط بهم من كل جانب، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ولا ينصرون، والعرب يؤنّثون هذه الحوادث مثل: الطّامة، والصّاخة، والدّاهية، والمصيبة، والكارثة، والحادثة، والواقعة، والحاقة(٤) فالغاشية: ما يغشاهم ويغمرهم من عذاب الله تعالى، كقوله تعالى: «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»(٥) وقد تأتي هذه الغاشية في أي صورة من صور العذاب الإلهي، فقد تكون وقيعة تغشاهم كما قال قتادة، أو صواعق وقوارع،

---

(١) انظر: نظم الدرر / ٤ / ١٠٨.

(٢) تفسير البحر / ٥ / ٣٤٥.

(٣) القول المنصف في تفسير سورة يوسف / ١٩٢.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٤، وتفسير ابن عطية / ٩ / ٣٨٧.

(٥) العنكبوت / ٥٥.



كما قال الضحاك، أو تكون نقمة تشملهم فلا يفلت منهم أحد، فلا مانع هنا من الحمل على العموم(١) وإتيان الغاشية المذكورة، يعني في الدنيا، وذلك لمقابلته بقوله:

«أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً»(٢) المراد بالساعة يوم القيامة، كما قال تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ»(٣) و«بغتة» أي: فجأة، يقال: بغتهم الأمر بغتا وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقَّعُوا(٤)، إن الساعة حين تأتيهم، تأتيهم من غير سابقة، ومن حيث لم يحتسبوا، وقد كانوا عنها في غفلة تامة لا يتوقعونها، وبهذا تكون أشد على القلوب، وأثقل على النفوس.

قال يزيد بن مقسم الثقفي:

ولكنهم باتوا ولم أدر بغتة *** وأفظع شيء حين يَفْجَؤُكَ البغْتَ

ولما كان هذا المعنى مهولا ومفزعا، أكده بقوله:

«وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» أي: بأي نوع من الشعور، ولو أنه كالشّعْرة، وهذا إعلام بشدة جهلهم في أن حالهم حال من هو في غاية الأمن ممّا أقل أحواله أنه ممكن، لأنه الشعور إدراك الشيء يلطف كدقّة الشّعر(٥) فكأنهم في إعراضهم عن توقع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذاب الله في الدنيا، أو تأتيهم الساعة بغْتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب، الخَلّد، والمراد بالساعة الكبرى، وهي القيامة واليوم الآخر، حيث يؤخذ الناس بغتة وهم في أسواقهم ومواضعهم كما قال تعالى: «مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ»(٦).

وهذه الآية كقوله تعالى:

«أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

---

(١) انظر: تفسير الطبري/٨/١٣/٧٩، وتفسير البغوي/٤/٢٨٤ وفتح البيان/٦/٤١٥.

(٢) تفسير البحر/٥/٣٤٥. (٣) الأعراف/١٨٧.

(٤) تفسير الفخر الرازي/٩/١٨/٢٢٩.

(٥) انظر: نظم الدرر/٤/١٠٨. (٦) يس/٤٩-٥٠.



حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ»(١) وقوله: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ»(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: (ولَتَقومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطْويانه، ولتقُومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلَبنَ لقْحَته (الناقة ذات الدّر) فلا يَطْعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكْلَتَهُ (لقُمْتَه) إلى فيه فلا يطعمها)(٣) والمراد من كل هذا أن الساعة تَبْغَتُ الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتْهم، والحكمة في إبهام وقتها أنّ الفائدة لا تتم إلا بذلك، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت، فيحملهم الخوف علي مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلْتَزموا الحق، ويَتحرَّوا الخير، ويتَّقُوا الشرور والمعاصي(٤) ويمكن أن يكون المراد بالساعة في الآية، الساعة الصغرى، وهو يوم هلاكهم، كما فعل الله بمن سبقهم من الأمم الكافرة المكذبة لرسلها، فقد أخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: «فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»(٥).

وهكذا جعل الله لكل أمة أجلاً، وهكذا لا بد من يَوم بالغ الشّدة والعذاب والنّكال، لكل جيل منحرف عن منهج الله تعالى ودينه والعمل بشريعته، يوم عظيم يفجؤهم فيه عذاب الله فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذه سنة الله فيمن كذب وفجر وكفر، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

---

(١) النحل/ ٤٥-٤٧. (٢) الأعراف/ ٩٧-٩٩.

(٣) متفق عليه. (٤) تفسير المراغي/ ٥/ ٥١.

(٥) العنكبوت/ ٤٠.



المضمون العام للآية الكريمة:

بعدما ذكّرهم الله تعالى بما أنزل على رسوله - ﷺ - من المعجزات الدالة على صدقه، وما أودع في كونه الواسع في السماوات والأرض من آيات ودلائل عظيمة تدل على قدرته وعظمته ووحدانيته، أعرضوا وكفروا وصدوا عن سبيل الله، فكانوا كالحمار الذي لا ينقاد إلا بالعذاب، أنْزَل هذه الآية الكريمة إنكاراً لما هم عليهم من ضلال وكفر وعَمىً، وتوبيخاً وتهديداً وإنذاراً عظيماً لهم، «أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ...» أي أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون في عبادته غيره، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يَتَوقَعون، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربهم فَيُخَلِّدهم في نار جهنم.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الأمان لا يكون إلا للمؤمنين حقاً، كما قال ربنا العزيز: «الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» الأنعام / ٨٢.

٢ - لا يأمن مكر الله وعذابه إلا القوم الخاسرون الكافرون.

٣ - عذاب الله متوقع في أي لحظة من ليل أو نهار ليغشى المعرضين الكافرين.

٤ - يوم تقوم الساعة الكبرى لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيْراً.

٥ - من سنة الله تعالى في خلقه أنه يأخذ الكافرين المكذبين أخذاً أليماً شديداً، في يوم ساعتهم التي أجَّلَهَا لهم «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»(١). وهذا الأخذ يتربص بكل جيل كَفَر وصدَّ عن سبيل الله كما قال تعالى: «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِين بِبَعِيد».

---

(١) هود/ ١٠٢.

رفع المستهم

«الآية الثامنة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثانياً - القراءات: □

ثالثاً - اللغة:

(سبيلي) السبيل في أصل اللغة: الطريق، والسبيل والطريق يُذكَّران ويؤنَّثان، والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُل، قال تعالى: «لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»(١) يعني به طريق الحق، لأن اسم الجنس إذا أطلق يختص بما هو الحق، وعلى ذلك «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ»(٢) ويستعمل السبيل لكل ما يتوصَّلُ به إلى شيء خيْراً كان أوْ شَراً، قال تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ»(٣) وقال: «قُلْ هذه سَبِيْلِي»(٤) وقال: «الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ»(٥)(٦)

(بصيرة) البَصَر، مُحرَّكَة: حِسُّ العيْن، ج: أبْصَار، ومِنَ القلب: نَظَرُه وخَاطِرُهُ، فمعنى (على بصيرة) أي: على معرفةٍ وتحقُّق(٧).

(سبحان الله) سبحان: أصله مصدر، نحو غُفْرانَ، قال تعالى: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ»(٨) والتسبيح: تنزيه الله تعالى.

رابعاً - الإعراب:

«قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي»

هذه، مبتدأ، وسبيلي خبر، وجملة أدعو إلى الله متعلقان بـ(أدعو) ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء، والأول أولى، وعلى بصيرة، متعلقان بـ(أدعو) أو بمحذوف

---

(١) الزخرف/٣٧. (٢) عبس/٢٠. (٣) النحل/١٢٥.

(٤) يوسف/١٠٨. (٥) النساء/٧٦. (٦) المفردات (كتاب السين) ٢٢٣.

(٧) انظر: المرجع السابق (كتاب الصاد) ٤٩-٥٠. (٨) الروم/١٧.



من فاعل أدعو المستتر، ويجوز أن يكون من مبتدأ وخبره محذوف، أي: ومن اتبعني يدعو أيضاً، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخرا، وعلى بصيرة خبراً مقدّما، ومن اتبعني عطف على أنا.

«وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، أي وأسبح سبحان الله، (وما) الواو حرف عطف وما نافية حجازية، وأنا اسمها، و(من المشركين) خبرها[1].

البلاغة:

«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي» عبّر عن الشريعة بالسبيل على وجه الاستعارة، لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد، كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر، وهي استعارة متكررة في القرآن الكريم وفي كلام العرب.

«عَلَى بَصِيرَةٍ» وصْفُ الحجة بالبصيرة مجاز عقلي[2].

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٦٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٥.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

الرسول ﷺ - يدعو إلى الله تعالى على بصيرة وبرهان هو من اتبعه:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾

وجه المناسبة:

ولما وصف الله سبحانه له - ﷺ - أكثر الناس بما وصف من سوء الطريقة للتقليد الذي منشؤه الإعراض عن الأدلة الموجبة للعلم، أُمِرَ أن يذكر طريق الخلّص فقال: «قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي...»(١)

هذه الآية الكريمة استئناف ابتدائي معترضة بين الجمل المتعاطفة، للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبي - ﷺ - على صدق نبوته وصدقه فيما جاء به من التوحيد، إلى الاعتبار بجميع ماجاء به من هذه الشريعة من الله تعالى، وهو المعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد، كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر، وهي استعارة، متكررة في القرآن الكريم وفي كلام العرب(٢)...

ولهذه الآية مكانة خاصة في سورة يوسف - عليه السلام - فهي الآية الوحيدة التي بدأت بأمر إلهي إلى المصطفى - ﷺ - بعد أن قص عليه الله تعالى أحسن القصص، وهي ثمرة وتلخيص لما قبلها، وما بعدها تأكيد وتوضيح لها، فالسبيل في هذه الآية منسوب إلى النبي - ﷺ - بأمر من الله تعالى، ويأتي السبيل في آيات أخرى منسوبا إلى الله تعالى في مثل قوله: «ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»(٣).

ويأتي السبيل في آيات أخرى منسوبا إلى المؤمنين في قوله تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ

---

(١) نظرم الدرر / ٤ / ١٠٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٦٤-٦٥.

(٣) النحل / ١٢٥.



الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً»(١).

ويأتي السبيل معروفا يدل عليه سياقه في الآية الكريمة في مثل قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ»(٢)

وقد يأتي السبيل بصفة ملازمة له في مثل قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ»(٣) وصفوة القول أن السبيل الحق، يأتي في القرآن الكريم منسوبا إلى الله تعالى، فهو الأول والآخر والرب وإليه المنتهى،...

ويأتي منسوبا إلى الرسول - ﷺ - فهو الأسوة الحسنة والداعي إلى الله بإذنه...

ويأتي منسوبا إلى المؤمنين، فهم عُمّارُه وسالكوه والداعون إليه بإذن الله،

ويأتي منسوبا إلى صفة فيه، كالرشاد، ومعرّفا يبيّنه السياق القرآني(٤)، عن ابن عباس في قوله: «قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي» قال: دعوتي، وعنه أيضا قال: صلاتي، وعن الربيع بن أنس وعكرمة مثله. وعن زيد بن أسلم قال: أمري وسنتي ومنهاجي، وقال مقاتل: أي ديني(٤) ونظيره قوله سبحانه: «أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» أي: إلى دينه(٥).

فسبيل الله هو دين الله كما قال مقاتل، وهو دعوته ﷺ - كذلك، كما قال ابن عباس، وهو أيضاً، أمره ﷺ وسنته ومنهاجه، فقوله: «قل» أي: يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا وإخلاصا وقوله: «هذه» إشارة إلى ما يرونه منه من الدعوة إلى الله تعالى على ما دعا إليه كتاب الله وسنته - ﷺ - وقوله: «سبيلي» القريبة المأخذ، الجلية الأمر، الجليلة الشأن، الواسعة الواضحة جدا(٦)، أسير عليها مدى الحياة ولا أنحرف عنها، فهي طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله تعالى

---

(١) النساء/ ١١٥. (٢) الأحزاب/ ٤. (٣) غافر/ ٣٨.

(٤) دروس من سورة يوسف/ ١٩٩-٢٠٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٧٩-٨٠، وتفسير الماوردي/ ٢/ ٣١٢، وتفسير بن أبي حاتم/ ٧/ ٢٢٠٩، والدر المنثور/ ٤/ ٧٥-٧٦، وتفسير البحر/ ٥/ ٣٤٦.

(٥) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٨٤. (٦) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٨.



وإلى دار كرامته، المتضمنّة للعلم بالحق، والعمل به، وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له[1]

أمرَ - ﷺ - أن يقول هذا ويصارحهم به لكي لا يبقى منهم طمع فيه، في أن يرجع إلى مذهبهم وطريقتهم، فإنهم كانوا لا يزالون يحاولون لإرجاعه إلى ملّتهم، ويغرونه بالمُلك والمال والنساء، ويخوفونه بسلطانهم، فصارحهم بهذا[2].

ولما قال لهم - ﷺ - مُمْتثلا أمر ربه - عز وجل - «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي» فكأنه قيل: ما هي؟ فقال:

«أَدْعُو إِلَى اللّهِ»[3] فما في جملة «هَذِهِ سَبِيلِي» من الإبهام قد فسّرته جملة «أَدْعُو إِلَى اللّهِ»[4].

معنى الدعوة إلى الله تعالى:

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله -:

الدعوة إلى الله تعالى هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشَّهادَتَيْن، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقَدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعْبُد العبدُ ربَّه كأنه يراه.

وهذه الدرجات الثلاث التي هي (الإسلام) و(الإيمان) و(الإحسان) داخلة في الدين، كما قال - ﷺ - في الحديث الصحيح: (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم) بعد أن أجابه عن هذه الثلاث، فبيَّن أنها كلها من ديننا، فالدعوة إلى الله تعالى تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له، كما بعث الله بذلك

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥١.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٩٣.

(٣) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٨.

(٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٥.



رسله وأنزله به كتُبه، فالرسل متَّفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية، والرسول - ﷺ - قائم بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر، ودعوته - ﷺ - إلى الله، هي بإذنه تعالى، لم يشرع ديناً لم يأذن به الله،

والله سبحانه وتعالى، تارة يذكر أنه أمر رسوله - ﷺ - بالدعوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، إذ قد عُلِمَ أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لابُدَّ له فيما يدعوه إليه من أمرين: (أحدهما) المقصود المراد، (الثاني) الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يَذْكر الدّعوة تارة إلى الله، وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود الواحد الذي لا شريك له، المقصود بالدعوة،

والعبادة: اسم يجمع غاية الحب له، وغاية التذلّل له[1]

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ» ثم ابتدأ فقال:

«عَلَىٰ بَصِيرَةٍ» و«على» فيه للاستعلاء المجازي المراد به التمكن، مثل: «عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِم»[2] والبصيرة: فعيله بمعنى فاعلة، وهي الحجة الواضحة[3] والمعرفة التي يتميز بها الحق من الباطن، وجملة «عَلَى بَصِيرَةٍ» في محل نصب على الحال[4] ومعلوم أن البصر للمحسّات، والبصيرة للمعنويات، قال الله تعالى: «فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»[5] أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم، أي: لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار[6] وهذا في المعنويات، فالبصيرة يقين ونور مبني على برهان[7] ووصف الحجة بالبصيرة مجاز عقلي، والبصير صاحب الحجة، لأنه بها صار بصيراً بالحقيقة، ومثله وصف الآية بمبصرة

---

(١) انظر: دقائق التفسير/٣/٢٨٤-٢٨٧. (٢) البقرة/٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٦٥.

(٤) فتح القدير/٣/٦١. (٥) الحج/٤٦.

(٦) فتح القدير/٣/٤٥٨.

(٧) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



في قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ»(١) وبعكسه يوصف الخفاء بالعمي، كقوله تعالى: «وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ»(٢)(٣).

وقوله: «عَلَى بَصِيرَةٍ» إيماء إلى أن هذا الدين الحنيف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكاياتها فحسب، ولكنه دين حجة وبرهان، فقد ذكَر مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان، على أنظار العقول وطالَبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه(٤) ولما كان الموضع في غاية الشرف، أكّد الضمير المستتر - في «أدعو» - تعيينا وتنبيها على التأهل لظهور الإمامة فقال:

«أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي»(٥) أي: ويدعو إليها - كذلك - من اتبعني واهتدى بي، قال الفراء: والمعنى: ومن اتَّبعني يدعو إلى الله كما أدعو(٦) والاتباع: طلب الثاني اللحاق بالأول للموافقة في مكانه أو في أمره الذي دعا إليه(٧)

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: «أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي» قال: وحقّ والله على من اتبعه أن يدعو إلى مثل ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والحكمة والموعظة الحسنة، وينهى عن معاصي الله، وبمثله قال الكلبي، وعن قتادة قال: أي: على هدى أنا ومن اتبعني.

وعن ابن عباس في تفسير قوله: «وَمَنِ اتَّبَعَنِي» قال يعني أصحاب محمد - ﷺ - كانوا على أحسن طريقة، وأقْصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان وجند الرحمن، وعن ابن مسعود قال: أولئك أصحاب محمد - ﷺ - كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرّها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلّفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على إثرهم، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم(٨).

---

(١) النمل/١٣. (٢) هود/٢٨. (٣) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٦٥.
(٤) تفسير المراغي/٥/٥٢. (٥) نظم الدرر/٤/١٠٩.
(٦) فتح البيان/٦/٤١٦. (٧) نظم الدرر/٤/١٠٩.
(٨) تفسير المراغي/٥/٥٢-٥٣.



الدعوة إلى الله تعالى:

إن الدعوة إلى الله تعالى هي مهمة كل نبي ورسوله، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ»(١) وقد وصف الله تعالى أنبياءه ورسله بقوله: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا»(٢) وسيدهم في مقام تبليغ رسالات الله إلى العالمين هو محمد - ﷺ - فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أبناء بني آدم، وأظهر الله دينه على جميع الأديان، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو - ﷺ - فقد بعث إلى جميع الخلق، عربهم وعجمهم «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا»(٣) ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضي الله عنهم - بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسرّه وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يهتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون(٤).

وجوب الدعوة إلى الله تعالى:

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته، يدعون إلى الله كما دعا إلى الله...

فجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة(٥).

على من تجب الدعوة إلى الله تعالى:

لقد دلت نصوص القرآن والسنة، على وجوب الدعوة إلـى الله عز وجل، وأنها

---

(١) المائدة/ ٦٧. (٢) الأحزاب/ ٣٩. (٣) الأعراف/ ١٥٨.

(٤) تيسير العلي القدير لاختصار (تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٩.

(٥) دقائق التفسير/ ٣/ ٢٨٨-٢٨٩.



من الفرائض، والأدلة في ذلك كثيرة، منها هذه الآية الكريمة، ومنها قوله عز وجل: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(١) وقال ﷺ: «ليبلغ منكم الشاهد الغائب» وقال - ﷺ -: «بلغوا عني ولو آية»(٢) ورغّب في ذلك حتى قال - ﷺ - لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «فو الله لأن يهد الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَم»(٣).

وعن الدعوة إلى الله تعالى ومتى تكون واجبة أو فرض كفاية أو سنة،

يقول الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز - رحمه الله - ما خلاصته:

وصرح العلماء أن الدعوة إلى الله تعالى فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم بها الدعاة، فهي فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في صفة الباقين سنة مؤكدة وعملا صالحا جليلا، وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعيّن بالدعوة على التمام، صار الإثم عاما، وصار الواجب على الجميع، كل حسب طاقته وإمكانه، أما بالنظر إلى عموم البلاد، فالواجب أن توجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جل وعلا في أرجاء المعمورة، تبلّغ رسالات الله وتبين أمر الله عز وجل بالطريق الممكنة، فإن الرسول ﷺ - قد بعث الدعاة وأرسل الكتب إلى الناس وإلى الملوك والرؤساء، ودعاهم إلى الله عز وجل، ثم قال الشيخ بن باز - رحمه الله -:

وعلى ولاة الأمور ومن لهم القدرة الواسعة أن يبلغوا الدعوة إلى الله ما استطاعوا من الأقطار وبلغات الناس التي يتكلمون بها.

ومن المعلوم أن فضل الدعوة إلى الله عظيم، قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(٤) وقال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له

---

(١) آل عمران/ ١٠٤. (٢) رواه البخاري/ ٦/ ٣٦١.

(٣) متفق عليه، البخاري/ ٧/ ٥٨، ومسلم (٢٤٠٦).

(٤) فصلت/ ٣٣.



من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا»[1] والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

«وَسُبْحَانَ اللهِ» أي: أقدره حق قدره، فأثبت له من صفات الكمال ما يليق بجلاله، وأنزّهه عما هو متعال عنه تنزيها يعلم هو أنه يليق بجلاله ويرضى به[2].

وسبحان: مصدر التسبيح جاء بدلاً عن الفعل للمبالغة، والتقدير: وأسبح الله سبحانا، أي: أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزّهه عن النقائص التي بشرك بها المشركون من ادعاء الشركاء والولد والصاحبة[3] وكل ما ينسب إلى الله تعالى مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كما له[4].

ولما أُمر - ﷺ - بأن يخبر عن نفسه بأنه يدعو هو ومن اتبعه إلى الله، وأُمر أن ينزّه الله تعالى عن الشركاء، أمر أن يُخْبِرَ أنه في خاصة نفسه مُنْتَفٍ عن الشرك، وأنه ليس ممن أشرك، فقال:

«وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

وهو نفي عام في الأزمان، لم يكن منهم ولا في وقت من الأوقات[5] وهذه الجملة «وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بمنزلة التذييل لما قبلها، لأنها تعم ما تضمّنته[6] والكلام مؤكّد لما سبق من الدعوة إلى الله تعالى[7] والمعنى: وأنا برئ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم مني[8] وعدل عن «مشركا» إلى أبلغ منه فقال «وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أي لست في عداد من يشرك به شيئا بوجه من الوجوه، لأني علمت بما آتاني من البصيرة أنه - عز وجل - منعوت بنعوت الكمال، منزّه عن سمات النّقص، متعال عنها، وأن ذلك أول واجب، لأنه الواحد الذي جَلَّ عن المجانسة، القهار الذي كل شيء تحت مشيئته[9] إنه - ﷺ - يقول: هذه طريقي فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم[10].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٦٧٤) وورواه غيره.

(٢) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٩.   (٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥١.   (٥) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٦.

(٦) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٦.

(٧) روح المعاني/ ٧/ ٦٤.   (٨) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٨٠.

(٩) نظم الدرر/ ٤/ ١٠٩.   (١٠) تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٣٥.



المضمون العام للآية الكريمة:

لما وصف الله تعالى أكثر الناس بما وصف من سوء الطريقة للتقليد الناشئ عن الإعراض عن الأدلة القرآنية والكونية الموجبة لتوحيد الله تعالى وعبادته، أمر رسوله - ﷺ - أنْ يَذْكُرَ طريق الخُلَّص فقال: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي» أي: قل يا أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي ومنهاجي، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدي الحُجة والبرهان على ما أقول، وكذلك يدعو إليها أيضاً من اتبعني وآمن بي وصدقني، «وَسُبْحَانَ الله» أي وأنزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك في ملكه أو أن يكون هناك معبود سواه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً «وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أي: وأنا بريء من أهل الشرك به، لَسْتُ منهم ولا هم مني.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الدعوة إلى الله تعالى هي مهمة كل نبي ورسول.

٢ - دعوة الرسول - ﷺ - الناس إلى الله، قائمة على الهُدى واليقين والحجة البالغة، بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣ - وجوب الدعوة على أتباع النبي - ﷺ - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤ - الداعي إلى الله تعالى يجب أن يكون على بصيرة مما يدعو إليه، فلا تصح الدعوة من الجاهل، لأن من لا يعرف الحق كيف يَهْدي إليه، وما أفسد الدين إلا الدّعاة الجهلة.

٥ - ما أعظم فضل الدعوة وما أرْفَعَ درجة الدعاة المخلصين عند الله تعالى.

٦ - الدعوة الإسلامية قامت بالبرهان والحجة لا بالسَّيْف والقوة.

٧ - الرسول - ﷺ - ومن اتبعه بُرآء من كل أنواع الشرك.

٨ - علينا أن نتأسى برسول الله - ﷺ - في الدعوة اليوم.



٩ - وجوب المصارحة بالدعوة في الإسلام.

١٠ - من عمل شيئا مما فيه شائبة الشرك فليس من أتباع النبي - ﷺ -.

١١ - على كل مسلم أن يدعو إلى الإسلام بشرط الفهم الصحيح له، وبقدر ما يستطيع، فليست الدعوة وقفا على أحد بعينه.

رفع
المسلم

«الآية التاسعة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

ثانياً - القراءات:

«إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي» بالنون وكسر الحاء:

قرأها وحده - ص - في كل القرآن، وتابعه حمزة والكسائي في سورة الأنبياء «مَنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُّوحِي إِلَيْهِم»

والوجه أن المعنى نوحي إليهم، كما قال تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ» (النساء: ١٦٣) فجاء بلفظ الجمع، والموحي هو الله تعالى. وقرأ الباقون «يُوحَى إليهم» بالياء وفتح الحاء، وكذلك روي - ياش - عن عاصم.

والوجه أن الفعل مبني للمفعول به، كما قال تعالى: «وَأُوْحِيَ إِلى نُوْح» (هود: ٣٦) وقال: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ» (الجنّ: ١) لأن المقصود هو الإخبار عن حصول الوحي، إذ يُعْلَمُ أن الموحِيَ هو الله سبحانه

«أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» بالتّاء:

قرأها نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب.

والوجه أنه علي الخطاب حملا على القول؛ لأن ما قبله كذلك، وهو قوله تعالى: «قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُـو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ» (يوسف: ١٠٨) فلهذا قال: «أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» أي: قل لهم: أفلا تعقلون؟

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي «يعقلون» بالياء، والوجه أن ما قبله



على الغيْبة، وهو قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (يوسف: ١٠٩) فجرىٰ على الغيبة لموافقة ما قبله(١)

ثالثاً - اللغة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً»

الإرسال يقابل الإمساك، قال تعالى: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده»(٢)

والرسول: المُرْسَل، ج: أرسُلٌ ورُسُلٌ ورُسَلاءُ(٣)

ورسل الله تارة يراد بها الملائكة، كما قال تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»(٤)

وتارة يراد بها الأنبياء، كمال قال تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ»(٥)

«مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى»

قرى: جمع قرية، والقرية بالفتح ويُكْسَر: المصر الجامع(٦) وهي اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا، ويستعمل في كل واحد منهما، قال تعالى: «وَاسأَلُ القَرْيَةِ»(٧) قال كثير من المفسرين: معناه أهل القرية، وقال بعضهم: بل القرية ههنا أنفسهم، وعلى هذا قوله: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى»(٨) فإنها اسم للمدينة، وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى»(٩)

«كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها / ٢ / ٦٨٩-٦٩٠.

(٢) المفردات (كتاب الراء) ١٩٥.

(٣) القاموس المحيط (حرف الراء) ١٣٠٠.

(٤) التكوير / ١٩. (٥) آل عمران / ١٤٤.

(٦) نظم الدرر / ٤ / ١١١. (٧) يوسف / ٨٢.

(٨) هود / ١١٧.

(٩) المفردات (كتاب القاف) ٤٠٢.



العاقبة: آخر الأمر من كل شيء، وإطلاقها يختص بالثواب نحو «وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِيْن»(١) وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة كما في هذه الآية «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»(٢)

رابعاً - الإعراب:

«أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ» (الهمزة) للاستفهام، و(الفاء) عاطفة على محذوف وقد تقدم تقريره، و(كمْ) حرف نفي وقلب وجزم، و(يسيروا) فعل مضارع مجزوم بـ(لم) و(في الأرض) جار ومجرور متعلقان بـ(يسيروا)

«فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (الفاء عاطفة أو سببية، و(ينظروا) فعل مضارع، إما مجزوم نَسَقاً على (يسيروا) أو منصوب بأن مضمرة في جواب النفي، و(كيف) اسم استفهام في محل نصب خبر (كان) مقدما، و(عاقبة) اسم (كان) و(الذين) مضاف لـ(عاقبة) و(من قبلهم) متعلقان بمحذوف صلة الموصول،

«وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» (الواو) حالية، و(اللام) لام الابتداء، و(دار) مبتدأ، و(الآخرة) مضافٌ إليه من إضافة الشيء إلى نفسه، لأن المراد بالدار الجنة، وهي نفس الآخرة، واختار الزمخشري والبيضاوي أن يكون التقدير، ولدار الساعة الآخرة، أو الحال الآخرة فليس في الكلام على ذلك إضافة الشيء إلى نفسه، و(خير) خبر (دار) و(للذين) متعلقان بـ(خير) وجملة (اتقوا) صلة، (أفلا تعقلون) تقدم إعرابه(٣).

خامساً - الموقف من المتعارضات: ☐

---

(١) الأعراف/ ١٢٨.

(٢) انظر: المفردات (كتاب العين) ٣٤٠.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ ٥/ ٦٨-٦٩.



سادساً - التفسير والبيان:

ما أرسل الله تعالى إلى الناس إلا رجالا من أهل القرى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

وجه المناسبة:

كان أهل مكة يعترضون على إرسال الرسل من البشر وتعجبوا من ذلك قائلين: «أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً»(١) فرد الله عليهم بهذه الآية الكريمة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم...».

فلم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق(٢) لأنه لا يمكن التفاهم بين البشر والملائكة إلا لمن أعطاهم الله تعالى القدرة على ذلك من النبيين والمرسلين، ولا يكون كل إنسان نبيا، ولو أُرسلوا في صورة البشر لا التبس عليهم الأمر ولا اعترضوا نفس الاعتراض وهو، لماذا لم ينزّل ملائكة؟ كما قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ»(٣) فلذلك أرسل الله تعالى البشر إلى البشر، ولم يرسل من البشر إلا رجالا(٤).

إن سابقة إرسال رسول من غير البشر لم تحدث، ولو حدثت لكان من الممكن أن يقولوها، ولذلك لما قالوا: «أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً» ردّ الله عليهم بقوله: «قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً»(٥) فلا بد في الرسول أن يكون من جنس المرسَل إليهم، لماذا؟ لأنه مبلغ لمنهج تحقيقا، ومنفذ له تطبيقاً، فلو أن ملَكاً جاءهم لينفذ منهجا لقالوا: هو ملَك يستطيع أن ينفذ المنهج،

---

(١) الإسراء/ ٩٤. (٢) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٢٥١.

(٣) الأنعام/ ٩. (٤) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٩٥.

(٥) الإسراء/ ٩٤-٩٥.



أما نحن فبشر فلا نستطيع، ولهذا لا يصلح الملك أن يكون أسوة للبشر في تطبيق المنهج، والرسول لا بد أن يكون أسوة للقوم الذين يدعوهم في ذلك، كما قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً»(١)(٢).

وأيضا لابد أن يكون الرسول متكلما بلسان القوم الذين أُرسل إليهم ليبين لهم رسالة ربه، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»(٣) عن ابن عباس في قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً... الآية» قال: أي: ليسوا من السماء كما قلتم(٤).

قال العلماء: من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا، وإنما قالوا: أدميّا تحرّزاً من قوله تعالى: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا»(٥) والرسول لا يكون امرأة، لأن النساء حسب خلقتهن لا يصلحن للرسالة، ولا يستطعن أن يتحمّلن عبئها، وذلك لابتلائهن بالحيض والنفاس واشتغالهن بالحمل والوضع والرضاعة وتربية الأولاد(٦) ولأن الرسول ملتحم بالناس والمرأة لا تصلح لذلك، ثم إن الرسول لا يأتي عليه وقت يسقط عنه حكم الله الذي حمله إلى خلقه، فلا بد أن يكون الرسول مستوفيا للأداء التكليفي في كل زمن، وحيض المرأة ونفاسها ينقضان ذلك(٧).

فإرسال الرسل من البشر الرجال دون النساء، سنة إلهية قديمة، ولم ينتظم في سلك النبوة امرأة أبدا، ويحتج لذلك بقوله: «إِلاَّ رِجَالاً»، وقد كان ذلك معروفا عند العرب، حتى قال قيس ابن عاصم في سجاح المتنبئة:

أمستْ نبيّتنا أنثى نطوف بها *** ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم *** على سجاح ومن بالإفك أغرانا(٨)

---

(١) الأحزاب/ ٢١. (٢) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) إبراهيم/ ٤. (٤) الدر المنثور/ ٤/ ٧٦. (٥) الجن/ ٦.

(٦) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٩٥.

(٧) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٨) انظر: روح المعاني/ ٧/ ٦٤.



قال جمهور العلماء: إن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحْي تشريع، بدلالة هذه الآية الكريمة، . . .

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم ابنة عمران أم عيسى - عليهن السلام - نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: «وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ»(١) وبقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ»(٢) وبقوله: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ»(٣)

وأجيب بأنّ هذا القدر الذي ذكره القرآن الكريم حاصل لهنّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدْر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا القدر، هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرّده أم لا؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة أنه ليس في النساء نبيّة، وإنما فيهن صدّيقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم ابنة عمران: «مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ»(٤) فوصفها الحق تعالى في أشرف مقاماتها بالصدّيقيّة، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك في مقام التشريف، فكل ما جاء في القرآن الكريم من الإيحاء إليهنّ، أو تكليم الملائكة لهنّ، لا يلزم منه أن يكون نبيات بذلك(٥).

«مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى»

القرى، جمع قرية وهي على ما في القاموس: المصر الجامع، وفي (كفاية المتحفظ) القرية: كل مكان اتصلت به الأبنية، واتُّخِذ قراراً، وتقع على المدن وغيرها(٦) والمراد بها هنا المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يُعبّر عنها اليوم بالعواصم، وهذا من قبيل قياس الحاضر بالماضي -.

(١) هود/ ٧١. (٢) القصص/ ٧. (٣) آل عمران/ ٤٢-٤٣.
(٤) انظر: تيسير العلي القدير/ ٢/ ٥٠٤.
(٥) المائدة/ ٧٥. (٦) تفسير القاسمي/ ٤/ ٤٠٩.



حكمة إرسال الرسل من القرى وليس من البدو:

القرى (العواصم) مهيئة للإقامة والاجتماع وانتياب أهل الفضائل، وذلك أجدر بغزارة العقل وأصالة الرأي وحِدَّة الذهن وتوليد المعارف، على عكس البوادي في ذلك[1] والمعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا وأخلاقا... وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال الله تعالى: «الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً»[2] وفي الحديث أن رجلا أهدى لرسول الله - ﷺ - ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رَضِي، فقال - ﷺ -: «لقد هممت ألاّ أتَّهِبَ هبة إلا من قرشي أو أنصاري، أو ثقفيّ أو دوسيّ»[3] وقال ﷺ: «من بدَا جفا، ومن اتبع الصيد غفل[4] فقد جبل أهل البوادي الخشونة والجفاء والشدّة بخلاف أهل القرى فإنهم ألْيَن طبعا، وأنعم فطرة، وأكثر تحمّلا وصبراً، وألطف كلاما[5].

وأقدر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية[6] ففيهم علم ورقّة وأدب تَنَاوُل وتعامل، فلا يأتي الرسول من البدو لأن المعلومات عندهم قليلة وفيهم غلظة وجفاء غير مأنوس للحياة[7] وهم أبطأ الناس فهما وأسرعهم تقلبا، وقد لقي الإسلام من الأعراب أهل البداوة في فجر الإسلام عنتا شديدا، وهاجم القرآن الكريم بعضهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قريب، وقد كان طبيعيا لنجاح الدعوة أن يكون الرسول من بين سكان القرى الذين لهم ذوق حضاري من نوع معين، وهكذا كان محمد - ﷺ -[8] وكما قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ»[9] فإرسال الرسول في عواصم القرى، والتي تكون محلا لإقامة رؤسائها وزعمائها وقادتها الذين يكون في

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١١. (٢) التوبة/ ٩٧. (٣) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٩٦.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده عن البراء، ورمز له السيوطي في جامعه الصغير بالحسَن.

(٥) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ١٩٦ (٦) انظر: تفسير الظلال/ ٤/ ٢٠٣٥

(٧) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة

(٨) انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦٧ (٩) القصص/ ٥٩.



أيديهم زمام أمور الدولة وتسيير دفتها، هو سنة الله تعالى في إرسال كل الرسل إلى أقوامهم، فظهور الرسل في عواصم القرى يعمل على تبيّن أمرهم بسرعة واتضاح شأنهم(١) وإذا آمن أهل العاصمة تبعها سائر القرى لأن القيادة والسلطان في يد أهل العاصمة(٢).

فرسالة محمد - ﷺ - ماضية على سنة الله تعالى في إرسال كل الرسل، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل؟ فلك فيمن سبقك من المرسلين أسوة حسنة(٣)، قال الحسن: لم يبعث الله نبيا من أهل البادية، ولا من الجنّ، ولا من النساء(٤).

قال القاضي أبو محمد بن عطية:

ويعترض هذا - أي أن الرسول لا بد أن يكون من القرى أهل الحضر - ببدْو يعقوب - عليه السلام - وينفصل - أي بدو يعقوب - عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود - خيام - بل هو بتقرّ - استقرار - في منازل وربوع.

والثاني: أنه إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر(٥) وقد سبق توجيه مثل ذلك عند الكلام على قوله تعالى: «وَجَاءَ بِكُم مِنْ الْبَدْوِ».

مكة أم القرى:

قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»(٦) وأم القرى، أصل القرى، وهي مكة المكرمة، أشرف بقاع الأرض على الإطلاق، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها، لأن فيها البيت الحرام ومقام الخليل إبراهيم - عليه السلام -

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥١. (٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٤٤١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥١. (٤) روح المعاني/ ٧/ ٦٥.
(٥) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٩٠. (٦) الشورى/ ٧.



والعرب تسمى أصل شيء أمّه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان[١] ومكة المكرمة مجمع الخلائق لما أُمروا به من حج البيت الحرام، وكان العرب كلهم يأتونها(٢) وقد بلغ تشريف الحق جل وعلا للبلد الحرام (مكة) مبلغا عظيما، إذ وصف نفسه - عز وجل - على لسان نبيه محمد - ﷺ - بأنه رب هذه البلدة، قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[٣].

كما جاء ذكرها وتشريف البيت الحرام الذي بها في مواطن أخرى من كتاب الله الكريم، قال تعالى: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ»[٤] وقال تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ»[٥].

وقال تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام -: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ»[٦] وقال رسول الله - ﷺ -: «من مات بمكة فكأنما مات في السماء الدنيا» وقال مخاطبا لها: «والله إنك لأحب البقاع إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت».

وأجمع العلماء على أن مكة المكرمة ثم المدينة المنورة ثم بيت المقدس أفضل بقاع الأرض، على الترتيب المذكور، ولمكة أسماء كثيرة، منها مكة، وبكّة، وأم القرى،[٧] والبلد الحرام،...

والحديث عن مكة المكرمة هو الحديث عن كل الرسل والرسالات من آدم - عليه السلام - إلى محمد خاتمهم محمد - ﷺ -، وإذا كانت مكة المكرمة هي أعلى القرى شرفا ومكانة على الإطلاق، فهي كذلك أم القرى في سائر الأرض موقعا ومكانا، وهذه خصوصية لها أثبتتها الحقائق العلمية الكونية في العصر الحديث[٨].

(١) تفسير الفخر الرازي/ ٤/ ٢٧/ ١٤٨.
(٢) نظم الدرر/ ٤/ ١١١. (٣) النمل/ ٩١.
(٤) التّين/ ١-٣. (٥) قريش/ ٣-٤. (٦) إبراهيم/ ٣٥.
(٧) انظر: أخبار مكة/ ٥.
(٨) اقرأ في ذلك كتاب (مكة أم القرى.. لماذا؟) للأستاذ/ عبد الغني عبد الرحمن محمد - دار الفكر العربي.



السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه:

ولما كان الاعتبار بأحوال من سلف للنجاة مما حل بهم أهم المهم، اعترض بالحث عليه بين الغاية ومتعلقها فقال:

«أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»(١)

سبق أن الله تعالى لما قص عليهم من سيرة يوسف وإخوته، علَّمهم بالقول، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما يُنْسَى أو يقلّ الاعتبار به، نبههم في هذه الجزئية إلى النظر في الأمور الواقعة(٢).

والاستفهام في قوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ» إنكاري للتوبيخ والتقريع، فإن مجموع المتحدث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذبين(٣) والضمير في «يسيروا» عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ومن عادي الرسول من مشركي مكة وكذّبه(٤).

وقوله: «فِي الأَرْضِ» أي: في هذا الجنس الصادق بالقليل والكثير(٥)، وهذه الجملة من اللفتات الكونية في القرآن الكريم، فلم نكن نعلم في الماضي أن الأرض حولها غلاف جوي، والغلاف الجوي هو الذي يعطينا الأكسجين لنحيا، إذاً، الغلاف الجوي من ضمن تمام الأرض، فيكون منها أيضا، فأنت حين تسير على اليابسة وفوقك الجوّ، أنت سرت على الأرض أو في الأرض؟ أنت سرت فيها، لأن فوقي أرض، وهو الغلاف الجوي التابع لها، فهو من ملحقات الأرض(٦) ولذلك كان التعبير المعجز «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ» ولم يقل «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ عَلَى الأَرْضِ» ولما كان المراد سير الاعتبار سبّب عنه قوله:

«فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»

«فينظروا» أي: عقب سيرهم وبسببه، ونبه على أن ذلك أمر عظيم ينبغي الاهتمام بالسؤال عنه بذكر أداة الاستفهام فقال: «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ» أي آخر أمر «الَّذِينَ مِن

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١١٣. (٢) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف/ ٢/ ١٤٣٩.

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٨.

(٤) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٦. (٥) نظم الدرر/ ٤/ ١١٣.

(٦) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



قَبْلِهِمْ»(١) وهذه الجزئية تهديد من الله تعالى للمكذبين للرسول - ﷺ - وتعجبا من موقفهم، قال الحسن في قوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»: فينظروا كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح، والأمم التي عذّب الله(٣)...

ولقد كان أهل مكة يمرون في سفرهم في رحْلَتَي الشتاء والصيف، على ديار عاد وثمود، ويرون كيف كان عاقبة هؤلاء المكذبين، وقد قال تعالى مخاطبا لهم: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ»(٤) فأين ذهب أهل القرى المكذبة، فإن لم تخافوا من عذاب الآخرة فخافوا من عذاب الدنيا كما حدث لمن كذب قبلكم، وهذه الجملة (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ....) نظير قوله تعالى: «فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»(٥) وكقوله تعالى: «أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ»(٦)

إن السير في الأرض والبحث عن أحوال الماضيين وتعرف ما حلّ بهم، هو الذي يوصّل إلى معرفة سنن الله تعالى في خلقه والاعتبار بها كما ينبغي، ثم إن النظر في التاريخ وسماع قصص الماضين، يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة واعتباراً، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه، وصدق الله العظيم القائل: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»(٧)

---

(١) انظر: نظم الدرر/ ٤/ ١١٣. (٢) انظر: التفسير المنير/ ١٣/ ٨٨.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم/ ٧/ ٢٢١٠، والدر المنثور/ ٤/ ٧٦.

(٤) الصافات/ ١٣٧-١٣٨. (٥) آل عمران/ ١٣٧.

(٦) غافر/ ٢١-٢٢. (٧) الحج/ ٤٦.



ولما كان من الممكن أن يّدعى مطموس البصيرة أنه كان لهم نوع خير، قال على طريقة إرخاء العنان:

«وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوا...»(١)

وهذه الجزئية تتعلق بأصحاب السبيل الصحيحة الذين اتبعوا النبي ﷺ(٢) وهي حضٌّ على العمل للدار الآخرة والآخرة والاستعداد لها والاتقاء من الموبقات فيها(٣) وإضافة الدار إلى الآخرة في قوله: «وَلَدَارُ الآخِرَةِ» فيها تأويلان:

(أحدهما) قول البصريين: وهو أنه من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، والتقدير: ولَدَار الساعة الآخرة، أو لَدَار الحياة الآخرة، ومثله قولهم: حبّة الحمقاء، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى، ومكان الغربي، والتقدير: حبة البقْلة الحمقاء، ومسجد المكان الجامع، وصلاة الساعة الأولى، ومكان الجانب الغربيّ، وحسَّن ذلك أيضا في الآية، كون هذه الصفة جرت مجرى الجوامد في إيلائها العوامل كثيراً، وكذلك كل ما جاء مما تُوُهِّمَ فيه إضافة الموصوف إلى صفته، وإنما احتاجوا إلى ذلك لئلا يلزم للتعريف أو للتخصيص، والشيء لا يُعَرّفُ نفسه ولا يُخَصِّصها - وقد اختار الزمخشري والبيضاوي هذا التأويل -(٥)

و(الثاني) وهو قول الكوفيين: أنه إذا اختلف لفظ الموصوف وصفته جازت إضافته إليها، قال الفراء في قوله: «وَلَدَارُ الآخِرَةِ» أضيف الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، وهي إضافة الشيء إلى نفسه كقولك: بارحة الأولى، ويوم الخميس، وحق اليقين، وإنما يجوز عند اختلاف اللفظين، قال الشاعر:

أتَمْدَحُ فقْعَساً وَتَذُمُّ عَبْساً *** ألا للّه أمُّكَ من هَجين

ولَوْ أقْوَتْ عليك ديار عبس *** عرفت الذل عِرْفَان اليقينِ

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١١٣. (٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٦٨.

(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٩١. (٤) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٦٨.

(٥) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٧، وتفسير البيضاوي/ ١/ ٤٩٨



قال: وإنما معناه: عِرْفَاناً يَقيناً.

وجميع الأيام تضاف إلى أنْفُسِها لاختلاف لفظها، وكذلك شهر ربيع، والعرب تقوله في كلامها،

و«خير» يجوز أن يكون للتفضيل، وحُذِف المُفضّل عليه للعلم به، أي: خير من الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون لمجرد الوصف بالخيرية، كقوله تعالى:

« أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً »(١)(٢)

ونلحظ أن القرآن الكريم في هذه الآية، مرّة يأتي بما يتعلق بالأشرار الكفار، ومرة يأتي بما يتعلق بالمؤمنين المتقين، فـ(عاقبة الذين من قبلهم) من هم الذين يروْن تلك العاقبة؟ إنهم الكافرون، لكن؛ «وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ» لمن تكون هذه الدار؟ للمؤمنين، وهذا هو ما يسمونه «احتباس» انظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا، وأيضا ستقابلهم عاقبة الذين صدّقوا، ففي ناحية المجرمين، تكلم عن عذاب الدنيا، وكان السياق العقلي يقول: إذاً يجب لهم عذاب الآخرة، لأنه أشدّ وأشرّ من عذاب الدنيا، فكان يقول: عذاب الدنيا يرونه، وفي الآخرة عذاب أشد من هذا العذاب، لكنه لم يقل ذلك، بل جاء وعدل عن هذا إلى المقابل في المؤمنين فقال:

«وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ» ففي عذاب الدنيا جاء للمكذبين، وفي الآخرة جاء بنعيم المتقين، قال: والحكمة في ذلك، لأنه إذا جاء في الدنيا بالعذاب للكافرين، ثم جاء في الآخرة بالثواب للمتقين، أُخِذَ من هذا المقابل أن غير المتّقي سيكون له العقاب الشديد في الأخرة، ويؤخذ من الأول أن النصر لن يكون للكافرين، فيكون قد حذف هنا ما يدل عليه هنا، ومن هنا ما يدل عليه من هنا، وبهذا نعرف كيف يطلق النظم في القرآن(٣).

ومعنى الجملة «وَلَدَارُ الآخِرَةِ» أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، «خير للذين اتقوا» الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منَغَّصٌ مُنْكَدِرٌ منطقع،

---

(١) الفرقان / ٢٤. (٢) انظر: الدر المصون / ٤ / ٢٠٠.

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



ونعيم الآخرة تام كامل لا يغني أبدا، بل هو على الدوام في تزيّدٍ وتواصل(١) ولما كان تسليم هذا لا يحتاج فيه إلى أكثر من العقل، قال مُسَبَّبٌ عنه منكرا عليهم مُبَكّتاً لهم «فلا تعقلون»(٢) أي: أفلا تستعملون عقولكم فتتدبّروا سنن الله في الغابرين، وكيف كانت عاقبة كفرهم فتؤمنوا وتوقنوا أن الدار الآخرة خير وأبقى من الدنيا، ولا سبيل إليها إلا بالإيمان بالله الواحد واتباع رسوله محمد -ﷺ-(٣) إن الآية الكريمة توضح لنا أبعاداً ثلاثة:

الأول: امتداد أفقي، تتسع به آفاق الرؤية، ويتمثل في قول الله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ»

الثاني: امتداد طولي أو تعمّق زمني، يتمثل في قوله تعالى: «فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»

الثالث: ترابط موضوعي يتمثل في كلمة «عاقبة» وتحمل ترابط بين الأسباب والمسببات، ومكوّنات البيئات الطبيعية والبشرية التي كانوا يعيشون فيها(٤)

وأخيراً فإن ما نخرج به من نتائج ومن سنن في التاريخ، ومن حكم الله تعالى في الناس، أن العاقبة للمتقين الفائزين بثوابَي الدنيا والآخرة، لأنهم الذين نظروا في آيات الله تعالى في كونه الواسع وتدبروها واعتبروا بها، أما الذين كذبوا وكفروا، ولم يستمعوا إلى آيات الله تعالى في كتابه، ولم يتدبروا آياته في ملكه ولم يتعظوا بأخبار الأمم المكذبة من قبلهم، فلهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥١. (٢) نظم الدرر/ ٤/ ١١٣.

(٣) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٦، وتفسير البيضاوي/ ١/ ٤٩٨، وفتح البيان/ ٦/ ٤١٧، وتفسير القاسمي/ ٤/ ٤١٠.

(٤) انظر: دروس من سورة يوسف/ ٢٠٧-٢٠٨.



المضمون العام للآية الكريمة:

كان من شُبَهِ منكري نبوة محمد - ﷺ - أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث مَلَكاً، وهذه الشبهة وردت في كثير من السور، كالأعراف، وإبراهيم، والنحل، والكهف، والأنبياء والشعراء، فرد سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ فكيف عجبوا منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل، ونرسل رجالاً بشراً - لا نساء، فالله لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وَحْي تشريع - نوحي إليهم بأوامرنا وتكاليفنا، من أهل القرى (العواصم) لأنهم أهل لحمل الدعوة والقيام بها على أكمل وجه، ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول - ﷺ - فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون من كفار قريش، فينظروا ويتدبروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، فقد أهلكهم الله وحَقَّت عليهم كلمة العذاب في الدنيا قبل الآخرة، ثم رَغَّبَ في العمل للآخرة فقال: «وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ» أي إن الدار الآخرة خير للذين آمنوا بالله ورسله واتقوا الشرك، وهي خير من دار المشركين هذه، والتي لا حظّ لهم فيها سوى المتاع القليل المنغَّص الفاني، ﴿أفلا تعقلون﴾ هذا الفرق أيها المكذبون بالرسول وبالبعث بعد الموت، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم.

سابعاً من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لا يكونون إلا بشراً رجالاً، ولا يكونون من النساء، ولا من أي جنس آخر غير البشر، ويتكلمون بلسان أقوامهم.

٢ - يُبعَثُ الرسول من أهل القرى (العواصم) لا من البوادي، ليكون أقدر على تحمل أعباء الدعوة ومواجهة الرؤساء والزعماء بها في العاصمة.

٣ - الحث على السير في الأرض والنظر في آيات الله تعالى نظر اعتبار وتدبر،

رفع المسهم

والتعرف على آثار الأمم السابقة المكذبة وكيف حل بهم عذاب الله بسبب كفرهم وعنادهم.

٤ - سنة الله تعالى في نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين لا تتخلف.

٥ - الآيات لا ينتفع بها إلا العقلاء.

٦ - تقرير عقيدة البعث وما يتبعه من حشر ونشر وحساب وجزاء.

٧ - استعمال العقل فيما خلق له من تدبر وتفكر واعتبار، يورث صاحبه خيري الدنيا والآخرة.

٨ - الدار الآخرة خير وأبقى من الدار الفانية.

٩ - السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه.

«الآية العاشرة بعد المائة»

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

ثانياً - القراءات:

«أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ» مخفّفة الذّال:

قرأها حمزة وعاصم والكسائي(١)

والوجه: أنه من قولك: كذَبتُه الحديث فهو مكذوب، إذا أخبرته عنه على خلاف ما هو عليه، قال الله تعالى: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»(٢) والمعنى: ظنّ القوم الذين أرسل إليهم الرسل أن الرسل قد كذَبوهم فيما أخبروهم به من نزول العذاب بهم، وإنما ظنوا ذلك لما عهدوه من إمهال الله تعالى إياهم، والظّنّ هاهنا على أصله ولا يكون بمعنى اليقين.

وقرأ الباقون «كُذّبوا» مشدَّة الذّال (بالتّثقيل)

والوجه أنه من التكذيب، وهو نسبة المخْبِر إلى الكذب.

والمعنى: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم، وظنّ الرسل أيضا أنهم قد كُذّبوا، أي: كذّبهم قومهم، والظّن هاهنا بمعنى اليقين، أي: أيقنوا أن القوم كذبوهم(٣).

«فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء» بنون واحدة وجيم مشدّدة وياء مفتوحة:

قرأها ابن عامر وعاصم ويعقوب.

والوجه: أنه فعل ماضي لما لم يُسَمّ فاعله، وموضع (من نشاء) رَفْع؛ لأنه مفعول الفعل الذي لم يُسَمَّ فاعله، ومعنى «نُجّي من نشاء» أي: جُعِلَ نَاجياً، يقال: نجا فلان،

---

(١) وهم الكوفيون. (٢) التوبة/ ٩٠.

(٣) انظر: الموضح في وجوه القراءات وعللها/ ٢/ ٦٩١، والدر المصون/ ٦/ ٥٦٣-٥٦٤.



ونجّيته أنا، وأنْجيْتُه أيضا، وإنما بُنِيَ الفعل للمفعول به؛ لأن ما بعده كذلك وهو قوله: «ولا يردّ بأسنا» وقرأ الباقون «فَنُنْجِي» بنُونيْنِ وتخفيف الجيم وسكون الياء.

والوجه: أن الفعل مضارع أُسْند إلى ضمير المخْبرين، والمراد من المضارع حكاية الحال كما قال الله تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] وموضع «من نشاء» نَصْب على أنه مفعول به، والنون الثانية من «نُنْجي» أُخْفِيَتْ مع الجيم؛ لأنها من حروف الفم، والنون مع حروف الفم تُخْفَى ولا تظهر، وكُتبت في المصحف بنون واحدة لأنها مخفاة مع الجيم، ولا يجوز فيها البيان، فأشبهت المدغم، وقال أبو عثمان - المازني -: حُذِفَتْ إحدى النّونيْن من الخط كراهة اجتماع المِثْليْن[2].

ثالثاً - اللغة:

«حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ»[3]

والفرق بين (يئس) و(استيأس) أن (يئس) معناه قطع الأمل من الشيء، إنما (استيأس) معناه أنه يُلحّ على قطع الأمل، فالأمل لم يقطع بعد.

«وظَنّوا»

الظّن: شكّ ويقين، إلا أنه ليس بيقين عِيان، إنما هو يقين تدبّر، فأما يقين العِيان فلا يقال فيه إلا علم،

والظن - أيضا -: هو التردّد الراجح بين طَرَفَي الاعتقاد غير الجازم، والظن - أيضا: اسم لما يحصل عن أمَارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفتْ جدّا لم يتجاوز حدّ التوهم، ومتى قَوِيَ أو تَصَوَّرَ تَصَوُّرَ القَوِيّ استعمل معه (أنّ) المشدّدة، و(أنْ) المخفّفة منها، ومتى ضعف استعمل (أنّ) و(أنِ) المختصة بالمعدومين من القول والفعل، فقوله: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ»[4] فمن اليقين، وقوله: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»[5]

---

(١) النحل/ ١٢٤.

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها/ ٢/ ٦٩١-٦٩٢.

(٣) سبق بيان معنى «يئس» و«استيأس» عند الكلام على الآية رقم/ ٨٠.

(٤) البقرة/ ٤٦. (٥) الأنبياء/ ٨٧.



فقد قيل: الأولى أن يكون من الظن الذي هو التوهّم، أي: ظنّ أن لن نضيّق عليه، وقوله: «وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم»(١) أي: اعتقدوا اعتقاداً كانوا منه في حكم المتيقّن، وهذا المتصوّر تصور القوى، والظن في كثير من الأمور مذموم، قال تعالى: «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا»(٢) وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ»(٣)

والظن يكون اسما ومصدراً، وجمع الظنّ الذي هو الاسم (ظنون) وقد يوضع موضع العلم، كما قال تعالى: «وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ»(٤) أي: علموا ألا ملجأ يلجأون إليه قط إلا الله سبحانه بالتوبة والاستغفار(٥) والظِّنّة بالكسر: التّهمة، والظّنين: المتهم، وأظنّه: اتّهمه، والتّظنّي: إعمال الظنّ، وأصله التظنّن(٦)

«قد كُذِبُوا»

(كَذَب» - كَذِباً وَكِذْباً وكِذابا: أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع، و- عليه: أخبر عنه بما لم يكن فيه و- أخطأ.

يقال: كذَبَ الظّنُّ، والسمعُ، والعينُ، والرأي، والشيء: لم يتحقق ما يُنْبِئ عنه وما يُرجى منه، يقال: كَذَبَ البرْقُ والطمع.

و - فلانا: أخبره بالكذب، ويقال: كذبه الحديث، ويقال: كَذَبَتْ فلانا نفسُه: حدثته بالأماني البعيدة، ويقال: كذب نفسه، وكَذَبَتْه عينه: أرته ما لا حقيقة له، فهو كاذب (ج) كُذَّب، وهي كاذبة (ج) كواذب، وأكْذَبَهُ: وجده كاذباً و - بيّنَ كذبه، وحمله على الكذب، وكاذبت فلانا، مكاذَبَةً، وكِذاباً: كَذَّبْتُهُ وكذَّبني. وكذَّب بالأمر تكذيباً، وكذابا: أنكره، وفي التنزيل العزيز: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ»(٧) وفيه: «وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا»(٨) والكَذِب: خلاف الصدق، والكِذْبة: المرّة من الكذب،

---

(١) الحشر/ ٢. (٢) يونس/ ٣٦.
(٣) الحجرات/ ١٢. (٤) التوبة/ ١١٨. (٥) زبدة التفسير/ ٢٦٢.
(٦) انظر: المفردات (كتاب الظاء) ٣١٧، واللسان/ ١٣/ ٢٧٢، والقاموس المحيط/ ١٥٦٦.
(٧) الأنعام/ ٦٦. (٨) النبأ/ ٢٨.



والكذوب: الكذّاب، والكذّاب: كثير الكذب، وفي المثل: إن كنت كذوبا فكن ذكوراً.

وما جاء في القرآن الكريم - من الكذب - ففي تكذيب الصادق، كقوله: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ»(١)

«جَاءهُمْ نَصْرُنَا»

النّصر والنّصرة: العوْن، قال تعالى: «إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»(٢)

«فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء»

نَجَوا: أصلُ النّجاء الانفصال من الشيء، ومنه نجا فلان من فلان، وأنْجيْته ونَجَّيْتُه، قال تعالى: «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ»(٣)(٤)

«وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا»

البأس: الشّدّة في الحرْب، والحرب، والعذاب الشديد، والخوف، والبأساء: المشقة، والفقر، والحرْب، والداهية(٥).

رابعاً - الإعراب:

«حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ»

«حتى» حرف غاية، وهي متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبل إلا رجالا فتراخي نصرهم حتى إذا استيأسوا من النصر.

«وظنوا» عطف على استيأسوا، وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولَيْ ظنوا وكُذِّبوا بالبناء للمجهول، وجملة كذبوا خبر أنَّهم

«جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء»

---

(١) انظر: اللسان / ١ / ٧٠٤-٧١١، والقاموس المحيط / ١٦٦، والمعجم الوسيط / ٢ / ٧٨٠-٧٨١، والمفردات (كتاب الكاف ٤٢٦-٤٢٧

(٢) النّصر / ١. (٣) يونس / ١٠٣. (٤) المفردات (كتاب النون) ٤٨٣.

(٥) انظر: القاموس المحيط / ٦٨٤.



جملة جاءهم لا محل لها لأنها جواب إذا، وجاءهم نصرنا، فعل ومفعول به وفاعل، والفاء عاطفة، ونُجّيَ بالبناء للمجهول عطف على جاءهم، ومَنْ نائب فاعل، ونشاء صلة.

«وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»

الواو عاطفة، ولا نافية، ويُرَدّ بالبناء للمجهول، وبأسنا نائب فاعل، وعن القوم متعلقان بـ(يُرَدّ) والمجرمين صفة(١).

خامساً - الموقف من المتعارضات:

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٦٩.

رفع المسهم

سادساً - التفسير والبيان:

«البشرى بالنصر»

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

وجه المناسبة: ولما كان المعنى معلوما من هذا السياق تقديره:

فدعا الرجال المرسلون إلى الله واجتهدوا في إنذار قومهم لخلاصهم من الشقاء، وتوعّدوهم عن الله بأنواع العقوبات إن لم يتبعوهم، وطال عليهم الأمر وتراخي النصر وهم يكذّبونهم في تلك الإيعادات ويبكّتونهم ويستهزئون بهم، واستمر ذلك من حالهم وحالهم، قال تعالى مشيرا إلى ذلك:

«حتّى إذا استيأس الرّسُلُ»(١)

«حتى» للغاية، فأين البداية؟...

إن الكلام ليس فيه شيء تكون «حتى» غاية له، فمن ثَمّ اختلف أهل التفسير في تقدير شيء يصح تغْيبته بـ(حتى)

فقدره الزمخشري: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخي نصرهم حتى إذا(٢)

وقدره القرطبي: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالا لم نعاقب أممهم بالعقاب حتى إذا(٣)

وقدره ابن الجوزي: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فدعوا قومهم فكذّبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ»(٤)

واختار أبو الطيب القنوجي: أن «حتى» غاية لمحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: وما أرسلنا من قبلك يا محمد - ﷺ - إلا رجالا ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة، «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ» عن النصر بعقوبة قومهم(٥).

---

(١) نظم الدرر / ٤ / ١١٤. (٢) تفسير الكشاف / ٢ / ٣٤٧.

(٣) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٧٥. (٤) زاد المسير / ٤ / ٢٩٦.

(٥) فتح البيان / ٦ / ٤١٧، وانظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٤٧، وروح المعاني / ٧ / ٦٥.



قال السمين الحلبي: وأحسنه ما قدمّته، وهو ما قدره الزمخشري[1] ولعله الأولى، وهو ما أخذ به جلّ المفسرين، قال الشيخ عبد الله العلمي: «حتى» هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، فكأنه قيل:

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخي نصرهم (حتى إذا)[2]

معنى «استيأس»

هناك فرق بين (يئس) وبين (استيْأس)،

يئس معناه: قطع الأمل من الشيء، إنما استيأس معناه: أنه يُلِحُّ على قطع الأمل، فالأمل لم يُقْطَع، فلماذا تلحّ على قطع الأمل؟

وقاطع الأمل معناه: أنه ليس له منْفذ إلى الرجاء، والإنسان لا ينقطع منفذه إلى الرجاء إلا إن كان معتمداً على أسبابه فقط، معزولة عن مسببه الأعلى، لكن إذا كان مؤمنا بالمسبب الأعلى وهو الله تعالى، وأعطاه الله الأسباب، لكن الأسباب أكْدَت، أي: لم تعط النتيجة المطلوبة فهو يقول: إذا كانت الأسباب لم توصلني لمطلوبي، فأمامي الله الأعلى مسبّب الأسباب، والقادر وحده على تحقيق مطلوبي بلا سبب، بعد أن بذلت وُسْعِي في استعمال الأسباب، ولذلك فإنه «لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»[3] فالمنتحرون ينتحرون لأن أسبابهم انتهت، وهم غير مؤمنين بإله، لكن المؤمن يقول: لا، أنا لي رب قادر على كل شيء، وإذا أراد مَنَحَني بفضله مطلوبي، كان ما أراد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فالمؤمن يأوى إلى ركن شديد، فقوله: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ» الرسل - عليهم السلام - لم ييأسوا، ولكنْ لحرصهم على عاجلية النصر جعلهم يقولون: «مَتَى نَصْرُ اللهِ»[4]،[5]

---

(1) الدر المصون/ 6/ 562. (2) مؤتمر تفسير سورة يوسف/ 2/ 1444.

(3) يوسف/ 87. (4) آل عمران/ 141.

(5) محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.



«وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا...»

القراءات في قوله: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا» والمعاني المترتبة على كل قراءة:

القراءة الأولى: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا» بتخفيف الذال مبنيًا للمفعول.

قرأ بها أُبيّ وعلي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والأعمش والكوفيون(١)

وهذه القراءة بالتخفيف اضطربت أقوال الناس فيها، وروي إنكارها عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقد أخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة - رضي الله عنها - عن قول الله سبحانه:

«حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ» قال:

قلت: أَكُذِبوا، أم كُذِّبوا؟ يعني هذه الكلمة - «كُذِبُوا» مخفّفة، أو مشدّدة «كُذِّبوا» - فقالت - رضي الله عنها - بل «كُذّبوا» تعني بالتشديد، قلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظّن، قالت - رضي الله عنها - أجل لعمري، لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها وظنوا أنهم قد كُذِبُوا مخفّفة، قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: - رضي الله عنها - هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدّقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممّن كذّبهم من قومهم، وظنّت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك(٢)

وإنكار عائشة - رضي الله عنها - القراءة بالتخفيف ينبغي ألا يَصح عنها، لتواتر هذه القراءة(٣) ويقوي هذا الاتجاه ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - قرأ: «وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ» مخفّفة(٤)(٥)

توجيه القراءة بالتخفيف:

وقد وجهها الناس بأربعة أوجه:

---

(١) الكوفيون هم: حمزة وعاصم والكسائي. (٢) فتح الباري/٦(تفسير سورة يوسف)/٦/٤٨٢.

(٣) الدر المصون/٦/٥٦٣. (٤) أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة.

(٥) فتح البيان/٦/٤١٩.



(الأول) : وهو أجودها : أن الضمير في «وظنوا» عائد على المُرْسَلِ إليهم لتقدمهم في قوله : «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» ولأن الرسل تسْتدعي مُرسَلا إليه، والضمير في «أنّهم» و«كُذِبوا» عائد على الرسل، أي: وظنّ المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِبوا أي: كذّبهم من أرسلوا إليه بالوحْي وبنصرهم عليهم.

(الثاني) : أن الضمائر الثلاثة عائدة على الرسل، قال الزمخشري في توجيه هذا الوجه: حتى إذا استيأسوا من النصر وظنوا أنهم قد كُذِبوا، أي: كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم أنهم ينصرون، أو رجاؤهم، كقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدّة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظاراً لنصر الله وتأميله قد تطاولَت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط، وتوهموا ألا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب[١] فقد جعل الفاعل المقَدّر: إما أنفسهم وإما رجاؤهم، وجعل الظن بمعنى التوهّم، فأخرجه عن معناه الأصلي وهو تَرجُّحُ أحد الطرفيْن، وعن مجازه، وهو استعماله في المتيقّن.

(الثالث) : أن الضمائر كلها - أيضا - عائدة على الرسل، والظن على بابه من الترجيح، وإلى هذا نحا ابن عباس وابن مسعود وابن جبير، قالوا: والرسل بشر فضعفوا وساء ظنهم، وهذا ينبغي ألا يصح عن هؤلاء، فإنها عبارة غليظة على الأنبياء - عليهم السلام، وحاشى الأنبياء من ذلك، ولذلك ردت عائشة - رضي الله عنها - وجماعة كثيرة هذا التأويل، وأعظموا أن تُنْسب الأنبياء إلى شيء،

قال الزمخشري: إن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبْه الوسْوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على أحد من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم[٢]

(١) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٧.   (٢) المصدر السابق/ ٢/ ٣٤٧.



قال السمين الحلبي: ولا يجوز أيضا أن يقال: خطر ببالهم شبه الوسوسة؛ فإن الوسوسة من الشيطان وهم معصومون منه.

وقال الفارسي أيضا: إن ذهب ذاهب إلى أن المعنى: ظن الرسل الذين وعد الله أممهم على لسانهم قد كُذِبوا فيه فقد أتى عظيما، لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عباد الله، وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلِفوا، لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد، ولا مبدّل لكلماته،

(الرابع): أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسل إليهم، أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذَبوهم فيما ادعوه من النبوة، وفيما يُوعدون به من لم يؤمن بهم من العقاب قبل، وهذا هو المشهور من تأويل ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد، قالوا: ولا يجوز عوْد الضمائر على الرسل لأنهم معصومون.

ويُحكىٰ أن ابن جبير حين سئل عنها قال: نعم إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدّقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم.

فقال الضحاك بن مزاحم وكان حاضراً: لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا[١].

وخلاصة الأوجه الأربعة على هذه القراءة «كُذِبو» أن الوجه الأول هو أجودها، والرابع لا غبار عليه، أما الثاني والثالث فمعيبان كما سبق توضيح ذلك.

القراءة الثانية: قراءة التشديد «كذّبوا» مبنيا للمفعول.

قال أبو حيان: وقرأ باقي السبعة والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وأبو رجاء وابن أبي مليكة والأعرج وعائشة - رضي الله عنها - بخلاف عنها بتشديدها[٢]

قال السمين الحلبي: وأما قراءة التشديد فواضحة، وهو أن تعود الضمائر كلها على الرسل، أي: وظن الرسل أنهم قد كذبتهم أممهم فيما جاءوا به لطول البلاء عليهم، وقد سبق ذكر ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت:

---

(١) الدر المصون/٦/٥٦٤-٥٦٥. (٢) تفسير البحر/٥/٣٤٧.



هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم، وطال عليهم البلاء واستأخر النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممّن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك، قال: وبهذا يتّحد معنى القراءتيْن، والظن هنا يجوز أن يكون على بابه، وأن يكون بمعنى اليقين، وأن يكون بمعنى التوهّم حسبما تقدّم.

القراءة الثالثة: وقرأ ابن عباس والضحاك ومجاهد «كَذَبوا» بالتخفيف مبنيا للفاعل، والضمير على هذه القراءة في «ظنوا» عائد على الأمم، وفي «أنهم قد كذبوا» عائد على الرسل، أي: ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما وعدوهم به من النصر أو العقاب.

ويجوز أن يعود الضمير في «ظنوا» على الرسل، وفي «أنهم قد كذبوا» على المرسل إليهم، أي: وظن الرسل أن الأمم كذبتهم فيما وعدوهم به من أنهم يؤمنون به، والظن هنا بمعنى اليقين واضح(١)

قال الإمام الطبري: وهذه القراءة «وظنوا أنهم قد كَذَبوا» لا أستجيز القراءة بها، لإجماع الحجة من قراء الأمصار على خلافها(٢)

هذا، وتأويل عائشة - رضي الله عنها - للآية الكريمة - السابق - هو أحسن ما ورد فيها.

قال الإمام الفخر الرازي عنه: وهذا الردّ والتأويل في غاية الحسن من عائشة - رضي الله عنها -(٣)

وتأويلها للآية الكريمة هو المشهور من تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما -(٤)

قال الإمام ابن تيمية - بعد أن ذكر الأقوال المختلفة في الآية عن أهل السلف -: وهذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلها، ولا نعلم ما أراد الله عز وجل، غير أن

---

(١) الدر المصون/٦/٥٦٦.
(٢) تفسير الطبري/٨/١٣/٨٨-٨٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي/٩/١٨/٢١٣.
(٤) انظر: الدر المصون/٦/٥٦٥.



أحسنها في الظاهر وأولاها بأنبياء الله - صلوات الله عليهم - ما قالت أم المؤمنين «عائشة» - رضي الله عنها -(١)

وقال الشيخ محمد نسيب الرفاعي: والذي قالته - عائشة - رضي الله عنها -: أحسن الأقوال وأصحها وأليقها بحضرة الأنبياء والرسل - عليهم السلام -(٢)

قوله: «جَاءهُمْ نَصْرُنَا...»

أي: ولما بلغ الحال إلى الحد المذكور «جَاءهُمْ نَصْرُنَا»(٣)

وهذه الجملة جواب «إذا» والظاهر أن الضمير في «جاءهم» عائد على الرسل، أي: فجاء الرسل نصر الله، قال مجاهد: جاء الرسل نصر الله، وقيل: عائد عليهم وعلى من آمن بهم، أي: فجاء الرسل وأتباعهم نصر الله(٤)، كما قال الله تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... الآية»(٥) ومن المعلوم أن نصر الله تعالى لرسله - عليهم السلام - هو في نفس الوقت نصر لمن آمن بهم واتبعهم، كما أن مجئ هذا النصر يقتضي وقوع العذاب بالمكذبين وإهلاكهم. قال ابن عباس في قوله: «جَاءهُمْ نَصْرُنَا»: جاء قومهم العذاب(٦) وذلك بعد إبطاء النصر بعد أن يبلغ الحال ما بلغه من الاستيأس منه، وهذا الاستبطاء في النصر له مقصود في السياق، لماذا؟

لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة في الأرض إلى أن تقوم الساعة، فيجب ألا يطلع بها إلا من يُختبر اختباراً دقيقا، ويمر بمحن كثيرة، فمن صبر على المحن وخرج منها ناجحا فهو أهل لأن يحمل المنهج الإلهي، فلا بد أن يوجد أولا اختبار يُمحّص، كما قال تعالى: «وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ»(٧)

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ابن قتيبة) ٧٨. (٢) تيسير العلي القدير / ٢ / ٥٠٥.

(٣) تفسير الفخر الرازي / ٩ / ١٨ / ٢٣١.

(٤) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٤٨، وتفسير القرطبي / ٩ / ٢٧٧، وفتح البيان / ٦ / ٤١٨.

(٥) غافر / ٥١. (٦) تفسير القرطبي / ٩ / ٢٧٧.

(٧) آل عمران / ١٤١.



والحكمة في إبطاء النصر للرسل وللمؤمنين، بعد التمحيص وبيان المخلص من غيره - إضافة إلى ما سبق - هي أن النصر حينما يأتي بعد الشدّة والزلزلة واستبطائه، يكون بالنسبة للمسلمين تضعيف للفرحة، وأما بالنسبة للكافرين فيكون فيه تضعيف للحسرة، لأن إبطاء النصر أعطاهم غروراً، فإذا جاء النصر الحاسم اشتد على نفوسهم ألم الهزيمة[١]

قوله: «فنجيَ مَن نَشَاء» إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم، وإنما لم يُعَيّنوا؛ للإشارة إلى أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم ولا يشاركهم فيه غيرهم[٢] ولأنهم بحسب ما وضع الله تعالى من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم، كما قال تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا»[٣]

وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب «فَنُجِّيَ» بنون واحدة وجيم مشدّدة وياء مفتوحة، على أنه ماض مبني للمفعول، و«مَنْ» نائب الفاعل.

وقرأ مجاهد والحسن والجحدري وطلحة وابن هرمز كذلك إلا أنّهم سَكَّنوا الياء، وخُرِّجت على أن الفعل ماضٍ أيضا كما في القراءة التي قبلها، إلا أنه سُكّنت الياء على لغة من يستثقل الحركة على الياء مطلقا، ومنه قراءة من قرأ «مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ»[٤] بسكون الياء.

وقيل: الأصل «نُنْجِي» بنونين، فأدغم النون في الجيم، وردّه أبو حيان[٥] بأنها لا تدغم فيها، وتُعُقّب بأن بعضهم ذهب إلى جواز إدغامها، ورويت هذه القراءة عن الكسائي ونافع.

وقرأت فرقة كما قرأ باقي السبعة بنُونيْن مضارع «أنْجي» إلا أنهم فتحوا الياء «فَنُنجِيَ» ورواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وزعم ابن عطية أن ذلك غلط

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
(٢) روح المعاني/٧/٦٨. (٣) الشمس/٩-١٠. (٤) المائدة/٨٩.
(٥) انظر: تفسير البحر/٥/٣٤٨.



من ابن هبيرة، إذ لا وجه للفتح، وفيه أنّ الوجه ظاهر، فقد ذكروا أن الشرط والجزاء يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوبا بإضمار أنْ بعد الفاء، كقراءة من قرأ «وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ»(١) بنصب «يغفر» ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة.

وقرأ نصر بن عاصم وأبو حيوة، وابن السميفع وعيسى البصري وابن محيصن، وكذا الحسن ومجاهد في رواية «فنجا» ماضِياً مخفّفا و«مَن» فاعله، وروي عن ابن محيصن أنه قرأ كذلك إلا أنه شدّد الجيم، والفاعل حينئذ ضمير النصر و«مَن» مفعوله، وقد رجّحَت قراءة عاصم ومن معه بأن المصاحف اتفقت على رسمها بنون واحدة، وقال مكي: أكثر المصاحف عليه، فأشعر بوقوع خلاف في الرسم، وحكاية الاتفاق نقلت عن الجعبري وابن الجزري وغيرهما، وعن الجعبري أن قراءة من قرأ بنونين توافق الرسم تقديرا، لأن النون الثانية ساكنة مخفاة عند الجيم، كما هي مخفاة عند الصاد والظاء في «لننصر» و«لننظر» والإخفاء لكونه سترا يشبه الإدغام لكونه تغْييبا، فكما يحذف عند الإدغام يحذف عند الإخفاء، بل هو عنده أولى لمكان الاتصال.

وعن أبي حيوة أنه قرأ «فنُجّيَ من يشاء» بياء الغيبة، أي من يشاء الله نجاته(٢).

هذا، وقد اتفق جميع شيوخ النقل عن كُتّاب المصاحف على حذف النون الثانية في الرسم من «ننجي» في سورة الأنبياء، وفي سورة يوسف - عليه السلام - وإلى ذلك أشار صاحب المورد بقوله:

والنون من (ننجي) في الأنبياء *** كلّ وفي الصّدّيق للإخفاء(٣)

قوله: «وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»

البأس هنا: الهلاك الذي عذب الله به المجرمين، الذين كذّبوا الرسل، وهو نصر للرسل

---

(١) البقرة/ ٢٨٤.

(٢) انظر: تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨، وروح المعاني/ ٧/ ٦٨-٦٩.

(٣) المغني في توجيه القراءات العشرة المتواترة/ ٢/ ٢٨٣.



- عليهم السلام - فلا يردّ هذا العذاب إذا نزل بالمكذبين، - فنجي من نشاء - من ليسوا بمجرمين، وقرأ الحسن «بأسه» بضمير الغائب، أي: بأس الله تعالى، قال ابن عباس:

وذلك أن الله تعالى بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبرهم أن من أطاع الله نجا، ومن أعْرَضَ عُذِّب، وفيه بيان من يشاء الله نجاته، وهم من عدا المجرمين(١) وهذه الجزئية مع التي قبلها «فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» تقسّم أقوام الرسل فريقين، تبعا لموقفهم من الدعوة، إما بالتصديق، وتعينهم هذه الجزئية «فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء» أو التكذيب، وتخصهم هذه الجزئية «وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» ولا يخفى أن الجزئية الخاصة بالمصدقين «فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء» تدل على شيء كبير من رحمة المولى - عزّ وجل - بهذه الفئة وتَفَضُّله عليهم، بينما تدل الجزئية الخاصة بالمكذبين على البأس الشديد الذي ليس له حدّ ولا مردّ، وتأمّل لفظة «القوم» التي استُخدمت معرّفة بحق هؤلاء المكذبين، الذي يعرفهم بسيماهم بأسُ الله جيّداً، وتأمّل الصفة بـ«المجرمين» التي خلعها الحق تعالى عليهم، إنهم مجرمون بحق أنفسهم وبحق سواهم أيضا، إذ ضلّلوهم وصرفوهم عن طريق الهدى(٢)، وقد ضرب الله تعالى أمثله كثيرة في القرآن العظيم للأمم المكذبة الكافرة وكيف أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وذلك كالطّوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكَت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نَزَل بقرى قوم لوط وهم فيها، كما قال تعالى: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (التوبة: ٧٠).

وفي هذا تذكير لكفّار قريش بأن سنّة الله تعالى في عباده واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، وأنّهم إن لم ينيبُوا إلى ربهم حلَّ بهم من العذاب ما حلَّ بأمثالهم من أقوام الرسل، كما قال تعالى: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ» (القمر: ٤٣).

---

(١) انظر: تفسير البحر / ٥ / ٣٤٨، وروح المعاني / ٧ / ٦٩، وتفسير التحريرر والتنوير / ٧ / ١٣ / ٧٠.
(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف / ٦٩.



وإن حالك أيها الرسول - ﷺ - مع قومك لا تختلف عن أحوال هؤلاء الرسل مع أقوامهم، فاصبر على كيد قومك كما صبر إخوانك الرسل من قبل ولا تستعجل لهم، فقد وعدتُّك بالنّصر وهو آت لا محالة، وقد نصر الله تعالى نبيه محمداً - ﷺ - في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين الكافرين المعاندين من قومه، وسبحان الله القائل: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (٥٢)(١).

المضمون العام للآية الكريمة:

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه يرسل الرسل الكرام إلى أقوامهم، يدعونهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، فيكذّبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم لإعذارهم وإقامة الحجة عليهم، حتى إذا اشتدّ البلاء على الرسل ويئسوا من إيمانهم وأيقنوا أنهم قد كذَّبوهم فيما كانوا أخبروهم به من وعد الله لهم النصر عليهم، جاء نصر الله، فنُجِّيَ الرُّسُلُ ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم الذين يستحقّون النجاة دون غيرهم، وأُخِذَ القوم المجرمون بالبأس والبطش والعذاب الشديد، تلك هي سنة الله في خلقه، فاعتبروا يا كفار قريش، فإنكم إن لم تستجيبوا لدعوة رسولكم - ﷺ - سيحلّ بكم ما حلّ بأمثالكم من أقوام الرسل المكذّبين المجرمين.

سابعاً - من فيض نور الآية الكريمة:

١ - الله تعالى كتب النصر لرسوله وللمؤمنين «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(١).

٢ - من سنة الله تعالى تأخير النصر لرسله وللمؤمنين زيادة في الإعداد والتَّمحيص، وليتبين الذين صدقوا إيمانهم من المدّعين.

---

(١) غافر / ٥١.



٣ - في تأخر النصر واشتداد البلاء على الرسول - ﷺ - والمؤمنين مضاعفة الفرحة للمؤمنين، ومضاعفة العذاب والحسرة على الكافرين.

٤ - في الآية الكريمة وعد بالنصر للمؤمنين في كل عصر وجيل إذا حقّقوا شروطه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»(١) وفيها كذلك وعيد لكل جيل انحرف عن الدين وأعرض عنه بالعذاب والخسران المبين.

٥ - في الآية الكريمة تطمين للرسول - ﷺ - بالنصر وتسلية له.

٦ - على الدعاة إلى الله أن يبذلوا كل ما استطاعوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى وإرشاد الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين.

---

(١) آل عمران / ٢٠٠

رفع المسـاهم

«الآية الحادية عشر بعد المائة» (آخر السورة الكريمة)

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

ثانياً - القراءات:

«لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ» الجمهور على فتح القاف في قصصهم، وهو مصدر قولك: قصصت عليه الخبر قَصَصًا، والاسم أيضا القصَصُ بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه(١)

وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوارث، والكسائي في رواية الأنطاكي قِصَصِهِم، بكسر القاف، وهو جمع قصة، وبهذه القراءة رجح الزمخشري عود الضمير في قصصهم في القراءة المشهورة على الرسل وحدهم، وحَكَى أنه يجوز أن يعود على يوسف وإخوته(٢) وحكى غيره أنه يجوز أن يعود على الرسل وعلى يوسف وإخوته جميعاً، قال الشيخ ابن حيان(٣):

ولا تنصره - يعني هذه القراءة - إذ قصص يوسف وأبيه وإخوته مشتمل على قصص كثيرة وأنباء مختلفة(٤)

«وَلَـكِن تَصْدِيقَ»

الجمهور على نصْبِ (تصديق، وتفصيل، وهدى، ورحمة) على ولكن كان تصديق الذي بين يديه، أي: بين يدي القرآن، أي: قبله من الكتب المنزلة وتفصيل كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين، وهدى من الضلال، ورحمة من العذاب، و(تفصيل) و(هدى) و(رحمة) عطف على خبر كان المذكور(٥)

---

(١) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ١٠٦.

(٢) انظر: البحر/ ٥/ ٣٥٦، وتفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٣) البحر/ ٥/ ٣٥٦. (٤) الدر المصون/ ٦/ ٥٦٨-٥٦٩.

(٥) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ١٠٧.



وقرأ حمراء بن أعين، وعيسى الكوفي، وعيسى الثقفي برفع (تصديق) وما بعده على أنها أخبار لمبتدأ مضمر، أي: ولكن هو تصديق أي: الحديث ذو تصديقٍ، وقد سُمِعَ من العرب مثل هذا بالنصب والرفع، قال ذو الرمّة:

وما كان لي من تُراثٍ ورثتُه
ولا ولاية كانت ولا سكب مأْثَمِ
ولكن عطاء الله من كل رحلة
إلى كل محجوب السُّرَادِقِ خِضْرَمِ

يُرْوى «عَطَاءَ الله» في البيتَيْن منصوبا على (ولكن كان عطاء الله) ومرفوعا على (ولكن هو عطاءُ الله)[١]

وذكر صاحب المشكل[٢] أنها قراءة لم يقرأ بها أحد، وليس ما قاله بشيء لما ذُكِرَ آنفا[٣]

ثالثاً - اللغة:

عبرة: عظة وتذكرة[٤] والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المُشاهَد إلى ما ليس بمشاهد[٥] والعبرة: الفكرة والبصيرة المُخْلَصَةُ من الجهل والحيْرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهو العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول.

«لأُولِي الأَلْبَابِ»

لب: الُلبُّ: العقل الخالص من الشوائب، وسُمّي بذلك لكونه خالِصَ ما في الإنسان من معانيه كالُلبَاب والُلبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكل لُبٍّ عقل، وليس كل عقل لُبّاً، ولذلك علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب، نحو قوله تعالى: « وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُواْ الأَلْبَابِ»[٦] فأولوا الألباب هم ذووا العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم[٧] فينتفعون بالعبر[٨]

---

(١) الدر المصون/ ٦/ ٥٦٩-٥٧٠. (٢) المشكل/ ١/ ٤٣٩.
(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد/ ٣/ ١٠٧ (هامش).
(٤) صفوة البيان/ ٣١٧. (٥) المفردات (كتاب العين) ٣٢٠.
(٦) البقرة/ ٢٦٩. (٧) فتح القدير/ ٣/ ٦٣. (٨) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨.



«يُفْتَرَى» : يُخْتَلَق.

فري: الفَرْى: قطع الجِلْد للخَرْزِ والإصلاح، والإفْرَاء للإفساد، والافتراء فيهما وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن الكريم في الكذب والشّرك والظلم نحو: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا»(١) «انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ»(٢) وفي الكذب نحو «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ»(٣)(٤)

«بَيْنَ يَدَيْهِ»

أي: السابق له من الكتب المنزلة على الرسل - عليهم السلام -.

«وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» : تبيين كل شيء.

فصل: الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فُرْجة، ومنه قيل: المفاصل، الواحد من المفصل(٥)

«هُدًى» : أي: سبب هداية في الدنيا.

والهداية: الدلالة بلطف، ومنه الهدِيّة، وهوادي الوحش: أي متقدِّماتها الهادية لغيرها، وخصّ ما كان دلالة بهَدَيْتُ، وما كان إعطاء بأهْدَيْتُ، نحو: أهدَيْتُ الهدِيّة، وهديتُ إلى البيت(٦)

«وَرَحْمَةً» : الرحمة: إرادة إيصال الخير.

والرحمة: رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقة نحو: رحم الله فلانا، وإذا وُصِف به الباري سبحانه فليس يراد به الإحسان المجرَّد دون الرّقّة، وعلى هذا رُوِي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقّة وتعطّف(٧)

---

(١) النساء/٤٨. (٢) النساء/ ٥٠. (٣) هود/١٣.

(٤) انظر: المفردات (كتاب الفاء) ٣٧٩.

(٥) المفردات (كتاب الفاء) ٣٨١.

(٦) المفردات (كتاب الهاء) ٥٣٨.

(٧) المفردات (كتاب الراء) ١٩١.



رابعاً - الإعراب:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

اللام جواب قسم محذوف، وقد حرف تحقيق، وفي قصصهم، خبر مقدم، وعبرة مبتدأ مؤخر، ولأولي، صفة لعبرة، والألباب، مضاف إليه.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾

ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على القرآن، وحديثا خبرها، وجملة (يفترى) صفة لـ(حديثا).

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

الواو حرف عطف، ولكن مخففة مهملة، وتصديق عطف على حديثا، وهو أولى من تقدير كان، والذي مضاف إليه، والظرف - بين يديه - صلة، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة، معطوفات على تصديق، ولقوم، صفة، وجملة يؤمنون، صفة لقوم[1]

خامساً - الموقف من المتعارضات: □

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه / ٥ / ٦٩-٧٠.

سادساً - التفسير والبيان:

في قصص الرسل مع أقوامهم عبرة لأولي الألباب

أولاً - النص القرآني الكريم:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

وجه المناسبة:

ولما ذكر الله تعالى هذه القصص كما كانت، وحث على الاعتبار بها بقوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ» وأشار إلى أنه بذلك أجري سنته وإن طال المدى، أتبعه الجزم بأن في أحاديثهم أعظم عبرة، فقال حثّاً على تأمّلها والاستبصار بها:

«لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ...»(١)

هذه الآية الكريمة من ردّ العجز على الصدر، فهي مرتبطة بجملة «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمّنه معنى الإشارة في قوله: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ» من التعجيب، وما تضمنه معنى «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ» من الاستدلال على أنه وحي من الله مع دلالة الأمّية، وهي أيضا تتنزّل منزلة التّذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بالقصة، ابتداء من قوله: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» فلها ثلاثة مواقع عجيبة من النظم المعجز، ...

وتأكيد الجملة بـ(قد) واللام للتحقيق(٢)

علام يعود الضمير في قوله: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ»؟

وللعلماء في ذلك أقوال ثلاثة:

(الأول): ويرى أن الضمير في «قَصَصِهِمْ» عائد على الرسل وأممهم.

واختاره الإمام الزمخشري، قال: وينصره قراءة من قرأ «قِصَصِهِم» بكسر القاف(٣)

---

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١١٦. (٢) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٧١.

(٣) تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٧.



قال الشيخ أبو حيان الأندلسي: ولا ينصره، إذ قصص يوسف وأبيه وإخوته مشتمل على قصص كثيرة وأنباء مختلفة(١) قال الألوسي: على أنه قد يطلق الجمع على الواحد، وفيه أنه كما قيل، إلا أنه خلاف المتبادر المعتاد، فإنه يقال في مثله قِصَّة لا قَصَص(٢) والذي قرأ بكسر القاف هو أحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي، والقصبي عن عبد الوارث عن أبي عمرو(٣) وممن قال بهذا القول الإمام ابن كثير، قال:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين عبرة لأولي الألباب(٤)

وقال الإمام برهان الدين البقاعي:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي الخبر العظيم الذي تُلِيَ عليك تتبُّعاً لأخبار الرسل الذين طال بهم البلاء حتى استيأسوا من نوح إلى يوسف ومن بَعْدَه – على جميعهم أفضل الصلاة والسلام – عبرة...(٥)

وقال الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم(٦)

(الثاني): ويرى أن الضمير في «قصصهم» عائد على يوسف وأبويه وإخوته، قاله مجاهد(٧)

وممن قال بهذا القول، الإمام الطبري حيث قال:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ...﴾ لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة...(٨) وقال الإمام الماوردي بمثل ما قال به الإمام الطبري(٩) وكذلك قال الإمام البغوي(١٠) وذهب الإمام الفخر إلا أنّ الأولى أن يكون المراد قصة يوسف – عليه السلام –(١١)

---

(١) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨. (٢) روح المعاني/ ٧/ ٦٩.
(٣) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨. (٤) تفسير ابن كثير/ ٢/ ٤٩٨.
(٥) نظم الدرر/ ٤/ ١١٦. (٦) تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥٢.
(٧) الدر المنثور/ ٤/ ٧٨. (٨) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٨٩-٩٠.
(٩) تفسير الماوردي/ ٢/ ٣١٣. (١٠) تفسير البغوي/ ٤/ ٢٨٧.
(١١) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٣٢.



(الثالث): ويرى أن الضمير في «قصصهم» عائد على يوسف وإخوته وقصص الأنبياء، واختاره الإمام ابن عطية ولم يذكر غيره، قال: الضمير في «قصصهم» عامّ ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة[1] والمتدبر لهذا القول يرى أنه أقرب ما يكون إلى القول الأول الذي يرى أن الضمير في «قصصهم» لسائر الرسل، فإن يوسف - عليه السلام - رسول، ويعقوب - عليه السلام - رسول، فهما داخلان ضمن سائر الرسل، أما الإخوة فتبع لهما.

الرأي المختار:

وهو الرأي الأول القائل بأن الضمير في «قصصهم» راجع إلى الرسل المارّ ذكرهم في الآية قبلها «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ».

ومن قال بأن الضمير في «قصصهم» راجع إلى يوسف وإخوته فقد أخطأ لفظا ومعنى،

أما لفظا: فلأنه ابتعد ذكر يوسف وإخوته عن هذا المقام ابتعاداً كثيراً، وصار بينهما بوْن بعيد وفصل كثير، بحيث لا يفهم رجوعه إليه إلا الأذكياء، ولكن الرسل هو بجنبه، وإنّ الضمير إذا دار بين القريب والبعيد، فالقريب أولى،

وأما معنى:

فلأن في قصص جميع الرسل عبرة، بل عبرة لأولي الألباب، فتخصيص الكلام بقصة يوسف مع إخوته لا معنى لها،...

ثم إن القصة قصة يوسف، لا قصة يوسف وإخوته، فلا وجه لرجوع ضمير الجمع إليه، ولو قيل: إن القصة تتعلق ببيان بعض أحوال الإخوة أيضا فيصح أنها قصتهم، قلنا: قد تعلّق بها بعض أحوال السيدة، والملك، والإخوة، والفتيين أيضا، فليقال: قصة يوسف وزليخا والملك والإخوة والفتيين، وهذا بعيد، لأن ما سبق له القصة هو ذكر

(١) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٩٦.



حال يوسف - عليه السلام - فقط، وذكْر غيره بالاتباع، فهي قصته لا قصة غيره، فلا يعود إليه ضمير الجمع(١)

قوله: «عِبْرَةٌ»

العيْن والباء والراء، كلها تفيد التّعْدِيةَ من جَلِيٍّ إلى خَفِيٍّ(٢) والعبرة: مَصْدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب، وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار المذكور من إطلاق المصدر على المفعول كما هنا، ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفيّة مجازيّة، وهي ظرفية المدلول في الدليل، فهي قارّة في قصصهم سواء اعتبر بها من وُفّق للاعتبار أم لم يعتبر لها بعضُ الناس(٣) فالعبرة هي الفكرة والتذكرة والعظة(٤)

قوله: «لأُولِي الأَلْبَابِ»

الألباب جمع لُبّ، واللّب هو جوهر الشيء المطلوب، فالقشر يصون اللب، ولماذا سمّينا العقل باللب؟ لأنه الذي يعطيك جواهر الأشياء وخيرها(٥)

فالألباب: العقول الخالصة عن شوائب الحسّ والوَهم، خُلوص الُلبّ عن القشر(٦) يعبرون بها إلي ما يسعدهم(٧) وإنما خصّ أولي الألباب لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر(٨) فإن العبرة قد تمر ولكن لا ينتفع بها إلا العاقل، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بُعْد المدة بين النبي - ﷺ -، وبين الرسل الذين قَصّ حديثهم، ومنهم يوسف وأبوه - عليهما السلام - مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم، وعبارة الكرخي: وجه الاعتبار بقصصهم أنه قال في أول السورة: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» ثم قال هنا: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ

---

(١) القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٠١-٢٠٢.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) تفسير التحرير والتنوير/ ٧/ ١٣/ ٧١. (٤) تفسير القرطبي/ ٩/ ٢٧٧.

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٦) صفوة البيان/ ١٠٤.

(٧) نظم الدرر/ ٤/ ١١٦. (٨) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨.

رفع المسـاهم

عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ»، وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة(١).

فإن الذي قدر على إعزاز يوسف - عليه السلام - بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنونه عبدا لهم، وجمعه مع والديه وإخوته - وجميع أهله - على ما أحب بعد المدة الطويلة، لقادر على إعزاز محمد - ﷺ - وإعلاء كلمته(٢)

ومعنى هذه الجزئية «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ»

أي: لقد كان في قصص الأنبياء والرسل مع قومهم عبرة لأولى الألباب، يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشرّ، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم، من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضا، ما لله، من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له(٣) والقول بأن المراد من «أولي الألباب» يوسف وإخوته، كما روي ابن جريج عن مجاهد؛ قول بعيد الاحتمال، لأن الكلام ورد عقيب الخبر عن نبينا محمد - ﷺ - وعن قومه من المشركين، وعقيب تهديدهم ووعيدهم، على الكفر بالله وبرسوله محمد - ﷺ - ومنقطع خبر يوسف وإخوته، فهو خبر عام عن جميع ذوي الألباب(٤).

ولما كان من أجَلّ العبرة في ذلك القطع بحقيقة القرآن، لِمَا بيّنه من حقائق أحوالهم وخفايا أمورهم ودقائق أخبارهم، على هذه الأساليب الباهرة، والتفاصيل الظاهرة، والمناهج المعجزة القاهرة، نبّه على ذلك بتقدير سؤال فقال:

«مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى»(٥)

الحديث هنا واحد الأحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم هاهنا مدخل(٦)

---

(١) فتح البيان/ ٦/ ٤٢٠.   (٢) تفسير الفخر الرازي/ ٩/ ١٨/ ٢٣٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن/ ٢/ ٤٥٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٩٠.   (٥) نظم الدرر/ ٤/ ١١٦.

(٦) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٩٦.



والافتراء: القطع بالمعنى على خلاف ما هو عليه في الإخبار عنه، من فرَيْت الأديم[1] ويُفْتَرى: يُخْتلَق، عن قتادة (ما كان حديثا يفترى) والفرية: الكذب[2] و«ماكان» صيغة منع، وقرينة الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يُفترى، وذلك بأدلة النبوة وأدلة الإعجاز[3] وفي كان ضمير عائد على القرآن، أي: ما كان القرآن المتضمن لقصص الرسل حديثا مخْتلَقاً، وقيل: بل هو عائد على القصص، أي: ما كان القصص المذكور في قوله: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ» فيمن قرأ بالكسر - قِصَصِهم - قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثا يفترى قلت: لأنه لو عاد على «قِصَصِهم» بكسر القاف لوجب أن يكون «كانت» بالتاء لإسناد الفعل حينئذ إلى ضمير مؤنث، وإن كان مجازيا[4] قال الشيخ أبو حيان: والظاهر أن اسم (كان) مضمر يعود على القصص، أي: ما كان القصص حديثا مختلَقاً، بل هو حديث صِدْق ناطق بالحق، جاء به من لم يقرأ الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا خالط العلماء، فمحال أن يفترى هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت[5].

وهذه الجملة «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى... إلى آخرها» تعليل لجملة «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ» أي لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة، ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتّب طبيعي، فمن شأنها أن تترتب أمثالُها على أمثالِها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها ممكن، إذا الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب، فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها، لأن أمثالها لا يُعْهَد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجنّ والغُول عند العرب، وقصة رستم وأسفنديار عند العجم، فالسامع يتلقّاها تَلَقّى الفكاهات

(١) نظم الدرر/ ٤/ ١١٦. (٢) تفسير الطبري/ ٨/ ١٣/ ٩٠.
(٣) تفسير ابن عطية/ ٩/ ٣٩٦.
(٤) انظر: تفسير الكشاف/ ٢/ ٣٤٨، والدر المصون/ ٦/ ٥٦٩.
(٥) تفسير البحر/ ٥/ ٣٤٨.



والخيالات اللذيذة، ولا يتهيّأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرض والاحتمال، وذلك لا تحتفظ به النفوس(١)

قوله: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

معنى «بَيْنَ يَدَيْهِ»

يقال: مشى فلان بين يديك، يعني سَبَقَك، وخَلْفك، أي: أنت الذي تَسْبقه، فإذا كان بعض الناس يسيرون صفّاً، فالذي أمامهم يطلق عليه «بين أيدهم» والذي وراءهم يطلق عليه «مِنْ خَلْفِهم» فالمراد بـ(بين يديه»؟ يعني السابق له، يعني ماذا؟ يعني الكتب السماوية السابقة له، فالقرآن العظيم جاء ليصدق الذي يديه، أي: من الكتب السابقة، فليس «بين يديه» هي التي تصدق القرآن، بل القرآن هو المهيمن(٢) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(٣)

عن قتادة قال: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يقول: ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل، ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله. وعن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما كان قبله من الخبر عنه(٤). وما قاله قتادة هو الموافق للنص القرآن الكريم، فهو الأولى والأنسب، وإنما قال: «بَيْنَ يَدَيْهِ» لأنه قد وُجِد فكأنه حاضر له، وقيل: «بَيْنَ يَدَيْهِ» لأنه قريب منه كقرب ما كان بين يدي الإنسان(٥)...

وقرأ عيسى الثقفي «تصديق» بالرفع، وكذلك كل ما عُطِفَ عليه، وهذا على حذف المبتدأ، والتقدير: هو تصديق. وقال أبو حاتم: النصب على تقدير: ولكن كان، والرفع على: ولكن هو، وينشد بيت ذي الرمة بالوجهين: قال ذو الرمة:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير / ٧ / ١٣ / ٧٢.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٣) المائدة / ٤٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري / ٨ / ١٣ / ٩٠، وتفسير ابن أبي حاتم / ٧ / ٢٢١٣، والدر المنثور / ٤ / ٧٨.

(٥) التبيان في تفسير القرآن / ٢٠٩-٢١٠.



وما كان لِيَ من تُراثٍ ورثته *** ولا ديةَ كانت ولا كَسْب مأْثَمِ
ولكن عطاء الله من كل رحلة *** إلى كل محجوب السُّرَادق خِضْرَمِ[1]

برفع عطاء الله، والنصب أجود[2] وهو ما عليه الجمهور، على إضمار (كان) أي: ولكن تصديق، أي: كان هو، أي: الحديث ذا تصديق[3]

والمعنى: ما كان هذا القرآن الشامل لقصص الرسل - عليهم السلام - أو، ما كان هذا القصص والحديث الذي اشتمل عليه القرآن حديثا يُخْتلق ويكذب من دون الله، لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث، ورواة الأخبار مِمّن لم يطالِع الكتب ولم يخالط العلماء، «ولكن» كان تصديق «الذين بين يديه» من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة[4]

ولا يتوهم من قوله: «وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما، كلاّ، إذ لو صح هذا لما قال الله تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»[5] فقصصه قد تختلف عما عندهم وتبين لهم حقه من باطله، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة، ومخالفته لها في بعض الجزئيات، ويجوز أن يكون المراد من قوله: «وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» تصديق الحق الذي عندهم، لا كلّ الذي عندهم، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها، مما جاء القرآن الكريم لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقا لما جاء لإبطاله، فتنبَّه لذلك ولا تكن من الغافلين[6]

قوله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ»

التفصيل: التَّبيين، وهو تفريق الجملة بإعطاء كل قسم حقه[7] أو هو إعطاء

---

(1) البيتان من الطويل، ورواية الديوان ص (711) عن تفسير البحر/ 5/ 349.
(2) تفسير ابن عطية/ 9/ 396. (3) تفسير البحر/ 5/ 349.
(4) انظر: تيسير الكريم الرحمن/ 2/ 452، وتفسير المراغي/ 5/ 57.
(5) النمل/ 76. (6) تفسير القاسمي/ 4/ 412.
(7) انظر: نظم الدرر/ 4/ 116.



كل جُزْئيّة من الأمر حكمها في جزئية فـ(تفصيل) معناه أنه ليس بمجمل، حتي في أعرافنا العامة يقال: فلان عمل بدْلة تفصيل، يعني أُخِذَت مقاييسها بالتفصيل على أجزاء جسمه، فتكون محكمة إحكاما بحيث يكون كل شيء على قَدْرِه المضْبوط بالنسبة للابسها، و«تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» معناه: كل شيء تحتاجون إليه في دنياكم وأخراكم، وليس المعنى «كل شيء» على إطلاقه، مثل قوله تعالى في وصف ملكة بلقيس: «وَأُوتِيَتْ مَنْ كُلِّ شيء»(١) فليس على إطلاق شيء، ولكن من كل شيء يمكن أن يكون لها، وإلا لأوتيت مثلا ملكا مثل ملك سليمان - عليه السلام - وكذلك قوله تعالى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مَنْ شَيء»(٢) فليس على إطلاقه، ولقد سئل الشيخ محمد عبده وهو في باريس عن عدد الأرغفة في إردب القمح،

فلما سأل الخباز ليسأله قال له السائل: كتابكم يقول: «مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مَنْ شَيء» فأجابه بقوله: وفيه أيضا «فَاسْأَلُوا أَهلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون»(٣)(٤) فالمراد «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» من أمر الله تعالى ونهيه، ووعده ووعيده، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزّهه عن صفات النقص، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم، لما فيها من عبر وعظات، وسائر ما بالعباد إليه حاجة(٥) من الأحكام الاعتقادية، وأحوال العبادات، والمعاملات، وأحوال الأسرة، وغير ذلك من كل ما يتعلق بتنظيم حياة الفرد والأمة، من حيث الإدارة السياسية والاقتصادية وتدبير الأمو، وكيفية التعامل والتبادل، والحدود على الجرائم، فالقرآن الكريم نظام شامل ومبيّن لما يتعلق بجميع نواحي الحياة الفردية والاجتماعية، فهو مفصّل لكل ذلك وليس مفصل لكل شيء عموما كما سبق - وقد أسهب في موضع الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز(٦)

---

(١) النمل/ ٣٢. (٢) الأنعام/ ٣٨. (٣) الأنبياء/ ٧.

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.

(٥) تفسير المراغي/ ٥/ ٥٧.

(٦) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٠٢-٢٠٣.

رفع المسيهما

قوله: «وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

الهدى معناه: الطريق المؤدي إلى الخير، والرحمة من الله لخلقه يراد بها الإحسان المجرد، والهدى الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة، فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين، لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم، وسبب لرحمته إياهم في الآخرة، كما قال تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ»(١)(٢)

إن القرآن الكريم هدى يهتدي به المؤمنون، ورحمة تحل بهم بسبب العمل بمقتضاه،

وقد خص الله تعالى المؤمنين بالهداية والرحمة، لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك(٣) لتصديقهم بالقرآن الكريم والعمل بما جاء فيه(٤) فإنهم بسبب ما يحصل لهم من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة(٥) فالقرآن الكريم هدى ورحمة لمن يتمسكون به ويطبقونه في حياتهم، وأما من لم يؤمن به ويصدّق بكل ما جاء فيه فقد حرم هو نفسه عن هذه الهداية التي خلافها ضلالة، ومن هذه الرحمة التي عكسها شقاء في الحقيقة وإن كان ظاهره سعادة «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»(٦)....

والتاريخ يشهد بأن المسلمين حينما كانوا متمسكين بهذا القرآن العظيم ومطبقين لأحكامه، كانوا في سعادة الدنيا والدين، وأصبحوا سادة العالم وقادة الأمم كلهم، وحينما انحرفوا عن نهج القرآن الكريم خسروا هذه السعادة المرموقة والسيادة

---

(١) النحل/٩٧. (٢) تفسير التحرير والتنوير/٧/١٣/٧٢-٧٣.

(٣) تفسير البحر/٥/٣٤٩. (٤) انظر: تفسير القاسمي/٤/٤١٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن/٢/٤٥٢. (٦) النحل/١١٨.



الشاملة، وأصبحوا أذلة بعد العز، ومسُودين بعد السيادة، ومقُودين بعد القيادة، فما أحوجهم أن يتفطنوا لما هم فيه من الذل، ويغيروا ما هم عليه من الأعمال ليغيّر الله ما بهم من الأحوال «إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ»[1][2] ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هنالك يعود لهم مجدهم وعزهم وشرفهم، وترتفع راية الإسلام فوق العالمين.

هذا، والمتدبر للسورة الكريمة يجد أن هناك هدفا رئيسيا سعت إلى تحقيقه، هذا الهدف هو تسلية النبي محمد - ﷺ - الذي لقي آنذاك من المكيّين كل عنت واضطهاد، فكان بحاجة إلى تثبيت فؤاده - ﷺ - وقد حقق القسم الأول القِصَصِي من السورة الكريمة ذلك، بطريق غير مباشر في صورة النهايات السعيدة لجل شخصيات القصة، وفي صورة الإشارات المتعددة إلى أن العاقبة للمتقين،...

بينما حقّق القسم الثاني التّعقيبي من السورة الكريمة ذلك بطريق مباشر يعتبر تطورا طبيعيا للطريق الأول (القصصي) وضروريا أيضا، لأن الهدف الأكبر إسعاد البشر في الدارين[3].

فتبارك الله رب العالمين، الذي قص علينا هذا القصص ليكون عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

---

(١) الرعد/ ١١.

(٢) انظر: القول المنصف في تفسير سورة يوسف/ ٢٠٣.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف/ ٧١.



المضمون العام للآية الكريمة:

يقول الله تعالى عز ذكره وجل ثناؤه لقد كان في خبر المرسلين مع أقوامهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، «عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ» أي أصحاب العقول الواعية الصافية المتبصّرة، «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى» أي وما كان لهذا القرآن الذي أنزل فيه هذا القصص أن يُفترى ويختلق من دون الله، «وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» أي من الكتب السماوية المنزلة قبله، فيما هو الحق فيها لا كل ما فيها، «وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ» يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين، «وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فإنهم وحدهم المنتفعون بهذا القرآن، تهتدي به قلوبهم من الغيّ إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم الواحد الأحد بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أن يجعلنا جميعاً منهم في الأولى والأخرة، وفي أعلى عليين، يوم يفوز بالربح الأعلى ذو الوجوه المبيضّة النّاضرة، ويرجع ذو الوجوه المسودّة بالصفقة الخاسرة اللهم آمين.

سابعاً - المضمون العام للآية الكريمة:

١ - الآية الكريمة دعوة صريحة للاهتمام بقصص الأنبياء والمرسلين، ففي خبرهم مع أممهم وما انتهى أمرهم معهم من نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين، عظات بالغة، وعبر هادية.

٢ - ما كان لهذا القرآن العظيم المشتمل على القصص الحق، أن يفترى ويختلق من دون الله، ولكنه كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد - ﷺ - والمصدّق لما سبقه من الكتب السابقة، مما فيها من الحق.

٣ - القرآن الكريم هو المهيمن على كل الكتب المنزلة قبله، وهو الحاكم على ما فيها إن كان حقاً أم محرّفاً ومبدّلاً، وكلمته هي العليا.

٤ - القرآن الكريم مفصّل لكل ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأحكام وكل



ما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة.

٥ - القرآن الكريم هداية ورحمة من الله تعالى لعباده المؤمنين دون سواهم، لأنهم الذين يصدقون به ويعملون بما جاء فيه.

٦ - في العمل بالقرآن الكريم والسنة المطهرة سعادة الدارين، ومن تمسك بهما فلن يضل أبداً، وقد هدي إلى صراط الله المستقيم.

٧ - على الأمة الإسلامية الاهتمام بالنَّشء المسلم وتوجيهه إلى الكتاب والسنة حفظاً وعلماً وهداية ورحمة ونوراً.

تمت السورة الكريمة بتوفيق الله تعالى وهدايته، فإلى خاتمة هذا السِّفْر المتواضع، ونسأله تعالى حسن الخاتمة.

رفع
المسابهم

خاتمة

وتشتمل على ما يلي:

أولاً: مقارنة بين آيات قصة يوسف في القرآن الكريم وفي التوراة.

القرآن الكريم	التوراة
١ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.	١ - (وأتي يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم) سفر التكوين: ٣٧: ٢.
٢ - (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) (يوسف / ٨) أعني إنهم ذكروا بنيامين في مقام الغيرة من أكثرية الحب.	٢ - (فلما رآى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه) (سفر التكوين: ٣٧: ٤) فلم يذكر بنيامين وغيرتهم منه.
٣ - (إن أبانا لفي ضلال مبين) يوسف / ٨	٣ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.
٤ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.	٤ - وحلم يوسف حلماً فأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت، فها نحن حازمون حزماً في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصَبَتْ، فاحتاطت حزِمكم وسجدت لحزمتي، فقال له إخوته: ألعلَّكَ تملك علينا ملكاً؟ أم تتسلط علينا تسلطاً؟ وازدادوا أيضاً بغضاً له، من أجل أحلامه ومن أجل كلامه.
٥ - في القرآن الكريم أن حلمه الثاني لم يقصه على إخوته بل على أبيه فقط، وأبوه حذره أن يذكره لإخوته: (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك... إلخ) يوسف / ٥	٥ - في التوراة أن يوسف قص حلمه الثاني على كل من أبيه وإخوته في آن واحد إذ قالت: (فقصه على أبيه وإخوته) (سفر التكوين ٣٧: ١٠).



التوراة	القرآن الكريم
٦ - في التوراة أن أباه بعد ما سمع حلمه الثاني انتهره وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض (سفر التكوين ٣٧: ١٠).	٦ - في القرآن الكريم أن أباه بعدما سمع منه حلمه الثاني قبله منه بكل فرح وعطف عليه أن بشره ببشائر تتلاءم مع هذا المنام (يوسف / ٦)
٧ - لا يوجد له مقابل.	٧ - (لقد كان في يوسف وإخوته... إلخ) (يوسف / ٧)
٨ - لم يذكر في التوراة أنهم تفاوضوا في شيء عنه قبْلاً، ولكن صادف أن يوسف مضى إليهم في مرعاهم حيث أرسله أبوه إليهم، لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر، فذهب إليهم، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه (سفر التكوين ٣٧: ١٢-٢٠) فهم لم يذهبوا لأبيهم ليطلبوه منه ويعملوا عليه تلك الحيلة.	٨ - إخوته تآمروا على قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في الجب، وقرَّ قرارهم أخيراً على هذا الرأي الأخير، وهذا كان قبل ذهابهم لأبيهم ليطلبوه منه، ثم ذهبوا لأبيهم واحتالوا عليه بأخذه، وبعد أخذ وردّ سمح لهم فيه (يوسف / ٨: ١٤).
٩ - إنما ذكروا أولاً قتله ثم طرحه بعد القتل في إحدى الآبار، فسمع رأوبين وقال: لا نقتله، بل اطرحوه في البئر التي في البرية (سفر التكوين ٣٧: ٢٠-٢٢).	٩ - مؤامرة إخوته في شأنه كانت ثلاثية، بين قتله، أو طرحه أرضاً، أو إلقائه في الجب (يوسف / ٩-١٠)
١٠ - أشار رأوبين بطرحه في البئر لا لكي يلتقطه بعض السيارة، بل لينقذه من أيديهم ويرده فيما بعد لأبيه (سفر التكوين ٣٧: ٢٣)	١٠ - الذي أشار بإلقائه في الجب هو الذي قال: (يلتقطه بعض السيارة) (يوسف / ١٠)
١١ - لا يوجد في مقابلته شيء، لأن التوراة إنما	١١ - قالوا يا أبنا مالك لا تأمنا على يوسف -

رفع المستهمر

التوراة	القرآن الكريم
تذكر أن يوسف ذهب لإخوته في المرعى بأمر أبيه بدون أن يكون لإخوته شعور بذلك (سفر التكوين ٣٧ :١٢-٢٠)	إلى قوله - لخاسرون) (يوسف / ١١-١٤)
١٢ - خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء، وبعدما طرحوه فيها جلسوا ليأكلوا طعاماً (سفر التكوين ٣٧ :٢٣، ٢٥).	١٢ - لا يوجد في مقابلته شيء
١٣ - هم لم يجيئوا لأبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم، وأحضروه لأبيه بواسطة الرسول الذي أرسلوه (سفر التكوين ٣٧ :٣١-٣٢).	١٣ - إخوة يوسف أنفسهم جاءوا إلى أبيهم عشاءً يبكون (يوسف / ١٦)
١٤ - فمزَّق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزّوه فأبى أن يتعزَّى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (سفر التكوين ٣٧ :٣٤ و٣٥).	١٤ - لم يكن من يعقوب بعد ما أُخبر بافتراس الذئب لابنه ورآى على قميصه الدم، لم يكن منه إلا أن قال: (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) (يوسف / ١٧-١٨)
١٥ - جاءت قافلة فسحبه إخوته من البئر وباعوه للقافلة (سفر التكوين ٣٧ :٢٦-٢٨).	١٥ - وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال: (يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة... إلخ) (يوسف / ١٩) هذا هو نص القرآن فليس فيه أن الذين أخرجوه من البئر هم إخوته، وليس فيه أن إخوته باعوه للسيارة بل السيارة أخرجته وأخذته مجاناً.



التوراة	القرآن الكريم
١٦ - فيها أن رأوبين لم يكن معهم حينما باعوه، فرجع إلى البئر ولم يجد أخاه فيها فمزَّق ثيابه، ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب (سفر التكوين ٣٧: ٢٨ و٢٩)	١٦ - لا شيء في مقابلته.
١٧ - تذكر التوراة هنا في وسط سيرة يوسف ذكراً اقتضابياً لا يتطلبه ما قبله ولا ما بعده ما ملخصه: أن يهُوذا أحد الأسباط زنى بثامار كنتك التي مات عنها زوجاها، ابنه عير، ثم ابنه أونان، فقعدت مترمّلة في بيت أبيها، ثم كانت جلست في الطريق التي يمر منها يهوذا، وكانت قد غطت وجهها، فلم يعرفها أنها كنتك فزني بها بأجرة هي جدي من غنمه، يرسله إليها، فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله، فأعطاها خاتمه وعكازته وعمامته، ولما كان نحو ثلاثة أشهر، أخبر يهوذا وقيل له: قد زنت ثامار كنتك، وها هي حبلى أيضاً من الزنى، فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق، أما هي فلما أُخرجت أرسلت إلى حميها يهوذا قائلة: أنا حبلى من الرجل الذي هذه الأشياء له، وهي هذه العصابة والعصا والخاتم، فقال يهوذا، هي أبرُّ مِنّي (سفر التكوين ٣٨: ١-٢٦)	١٧ - لا يوجد شيء في مقابلته، وكأنه والله أعلم لهذا قال الله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) يشير إلى أنه لم يذكر هذه الحكاية المدرجة في التوراة أثناء قصة يوسف لأنها من أقبح القصص، فلذلك تنزه عنها القرآن الكريم أن يذكرها.

التوراة	القرآن الكريم
١٨ - لا يوجد في مقابلته شيء.	١٨ - (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً... إلى قوله: (ولنعلِّمَهُ من تأويل الأحاديث... إلخ) (يوسف / ٢١)
١٩ - لا يوجد في مقابلته شيء.	١٩ - (ولما بلغ أشده... إلخ الآية) (يوسف / ٢٢)
٢٠ - في التوراة أن امرأة العزيز قبلما دخل يوسف بيتها الخاص بها كانت رفعت عينيها إليه وقالت: اضطجع معي (سفر التكوين ٣٩: ٧ و ٨) فهذه مراودة أولى سابقة على المراودة التي وقعت منها وقتما دخل قصرها ليقوم بما كان عليه من الأعمال باعتبار أنه وكيل البيت.	٢٠ - (وراودته التي هو في بيتها... إلخ الآية) (يوسف / ٢٣)
٢١ - لا يوجد شيء في مقابلته.	٢١ - (وغلَّقت الأبواب) (يوسف / ٢٣)
٢٢ - لا يوجد لذلك ذكر ما، إلا أنه ذكر بدل (واستبقا الباب) أن يوسف هرب وحده وهي لم تلحقه، وذكر بدل (وقدت قميصه... إلخ) أنها أمسكته بثوبه، فترك ثوبه في يدها وهرب، وإنما هي لم تلحقه، وإنما قعدت ووضعت ثوبه بجانبها حتى إذا جاء سيده إلى بيته فكلمته في هذا الموضوع (سفر التكوين ٣٩: ١١-٢٠)	٢٢ - ولقد همت به وهم بها لولا أن رآى برهان ربه - إلى قوله - إنك كنت من الخاطئين) (يوسف / ٢٤-٢٨)
٢٣ - فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي	٢٣ - (قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم،



التوراة	القرآن الكريم
كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمى (سفر التكوين ٣٩:١٥).	يوسف أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) (يوسف / ٢٨-٢٩)
٢٤ - لا يوجد لذلك ذكر ما في التوراة.	٢٤ - من قوله: (وقال نسوة في المدينة - إلى قوله: السميع العليم) من الآية ٣٠-٣٤.
٢٥ - فأخذ يوسف سيدُه ووضعه في بيت السجن، وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر، فسخط فرعون على خِصْيَيْه، رئيس السقاة ورئيس الخبازين، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشّرْط، في بيت السجن، المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه (تك ٣٩، ٤٠) فهذا يفيد أن الفتَيَيْن لم يدخلا السجن مع دخول يوسف، ولكن بعد حين، فيكون يوسف قد سبقهما إليه وهما لحقاه.	٢٥ - ودخل معه السجن فتيان) آية ٣٦.
٢٦ - وحلما كلاهما حلماً... فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمَّان، فسأل... لماذا وجهاكما مكمدان اليوم؟ فقالا له: حلمنا حلماً وليس من يعبره، فقال لهما يوسف: أليس لله التَّعابير؟ قصَّا علي، (تك ٤٠:٥٠-٨) يفيد أن يوسف هو الذي بدأهما بالكلام وطلب إليهما أن يقصا	٢٦ - من قوله: (قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً) إلى قوله: (من المحسنين) آية: ٣٦



القرآن الكريم	التوراة
	عليه، وأنهما لم يُحسَّا سابقاً بمقدرته على التعبير.
٢٧ - من قوله: (قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه) إلى قوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) من الآية: ٣٧-٤٠.	٢٧ - لا يقابله شيء.
٢٨ - قوله: (أما أحدكما فيسقي ربه خمراً) آية: ٤١.	٢٨ - في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك، ويردّك إلى مقامك فتعطى كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه، (تك ٤٠ :١٣)
٢٩ - (وأما الآخر، فيصلب فتأكل الطير من رأسِه) آية: ٤١.	٢٩ - (يرفع فرعون رأسك عنك، ويعلقك على خشبة، وتأكل الطيور لحمك عنك) (تك: ٤٠ :١٩).
٣٠ - وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه) آية: ٤٢.	٣٠ - (وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلى إحساناً وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ :١٤)
٣١ - (فلبث في السجن بضع سنين، وقال الملك إني أرى... إلخ آية: ٤٢-٤٣.	٣١ - (وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رآى حلماً... إلخ) (تك ٤١ :١)
٣٢ - (وقال الملك إني أرى) آية ٤٢، لاحظ أنه في القرآن الكريم يذكر كلمة (ملك) عن حاكم مصر.	٣٢ - كبير مصر الذي كان من الرعاة الهكسوس دعي في التوراة (فرعون) لاحظ أن التوراة تذكر كلمة (فرعون) عن حاكم مصر.
٣٣ - دُعي يوسف في القرآن الكريم بـ(الصدّيق) آية: (٤٦) وبـ(العزيز) آية: ٨٨.	٣٣ - دُعي يوسف في التوراة (صفنات فعنيح) تك (٤١ :٤٤) أي (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) أو (مخلّص العالم).



التوراة	القرآن الكريم
٣٤ - في التوراة أن فرعون أرسل فأخرج يوسف من السجن، فلما صار بين يديه، قص عليه حلمه فعبره له (تك ٤١ :١٤-٣١).	٣٤ - في القرآن الكريم أن الملك أرسل رئيس السقاة إلى يوسف ليقص عليه الرؤيا، فذهب إليه رئيس السقاة وقص عليه الرؤيا، وهو في السجن، فعبر له، ثم رجع فأخبر الملك، فطلب الملك الإتيان به إليه، فامتنع يوسف من خروجه من السجن إلا بعد التحقيق عن الشيء، فأجرى التحقيق عن ذلك وظهرت براءته جلياً، فلما تأكد الملك ذلك زاد فيه حباً فطلبه ثانياً فحضر بين يديه. من آية: ٣٥-٤٥-٥٤.
٣٥ - وفي التوراة أن فرعون هو الذي جعل يوسف على كل الأرض بدون أن يكون من يوسف طلب لذلك، كما جاء في (تك ٤١ :٣٨-٤١).	٣٥ - (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) آية: ٥٥. ففيه أن يوسف هو الذي طلب من الملك جعله على خزائن الأرض.
٣٦ - (وأعطاه أسنات بنت فوطى فارغ كاهن أون زوجة له، وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سَنَة الجوع، ودعي يوسف اسم ابنه البكر (منسى) واسم الثاني (افرايم).	٣٦ - لا يوجد في مقابلته شيء في القرآن الكريم.
٣٧ - في التوراة أن يوسف صار ثاني الملك بمصر، أي كرئيس وزراء، أو كصدر أعظم، أو كوكيل عن الملك، وأن الملك سلمه خاتمه (تك ٤١ :٤٠-٤٤)	٣٧ - نعلم من القرآن الكريم أن يوسف كان على خزائن الأرض.
٣٨ - يُذكر في التوراة أن إخوة يوسف لما أتوا إليه في السَّفْرة الأولى يمتارون سجدوا له	٣٨ - (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) آية: ٥٨.



القرآن الكريم	التوراة
	بوجوههم إلى الأرض (تك ٤٢ :٦)
٣٩ - (ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزل* فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) (آية: ٥٩ و٦٠) ويفهم منه أن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيه مسلك ترغيب وتشويق لا مسلك إزعاج وإرهاب.	٣٩ - وأما في التوراة فإن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيهم مسلك إزعاج وإعنات حيث تكلم معهم بجفاء، وقال لهم: جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم بهذا تمتحنون، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا... إلخ، ويفهم من التوراة أنه عاملهم بجفاءوا تهمهم بأنهم جواسيس، وهددهم وحبسهم ثلاثة أيام ثم أخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم، حتى يحضروا أخاهم الصغير وأعطاهم القمح لمجاعتهم، (تك ٤٢ ٧- ٢٤).
٤٠ - (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردب إلينا) آية: ٦٥، فيه أنهم لم يتخوفوا من رؤيتهم الفضة مردودة في متاعهم، بل استبشروا بذلك، وجرؤا أن يكلموا أباهم ثانياً في إرسال أخيهم معهم.	٤٠ - (وإذ كانوا يفرغون عدالهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله، فلما رأوا صُرَر فضّتهم هم وأبوهم خافوا) (تك ٤٢ :٣٥) لظنهم أن ذلك وسيلة إلى تخطئتهم وسجنهم هناك متى رجعوا إلى مصر بأخيهم بنيامين (السنن القويم).
٤١ - (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون - إلى قوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) من آية: (٦٦ :٦٨)	٤١ - لا يوجد في مقابلته شيء.

التوراة	القرآن الكريم
٤٢ - (فقال لهم إسرائيل أبوهم، إن كان هكذا فافعلوا هذا: خذوا من أفخرجَنْي الأرض في أوعيتكم، وأنزلوا للرجل هديّة، قليلاً من البيلسان، وقليلاً من العسل، وكثيرآء، ولاذنا، وفستقا ولوزاً. (تك ٤٣ :١١).	٤٢ - لا يوجد في مقابلته شيء.
٤٣ - في التوراة أن إخوة يوسف الأحد عشر عندما جاءوا له في سَفْرَتهم الثانية، خرُّوا وسجدوا (تك ٤٣ :٢٨) وهذا كان تمام الحلم الأول، وهو أن حِزَمهم الإحداى عشرة سجدت لحِزْمته، (السنن القويم).	٤٣ - لا يوجد شيء ما، حيث أن القرآن لم يذكر الرؤيا الأولى فلم يذكر تأويلها.
٤٤ - (فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه، وقال: أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه؟ ثم قال: الله ينعم عليك يا ابني) (تك ٤٣ :٢٩) وعلى هذا يكون (بنيامين) لم يعرف يوسف وطبعا يكون قد وضع الصواع في رحله بدون تواطؤ بينهما وهذا ما يستبعده العقل.	٤٤ - (ولما دَخلوا على يوسف آوى إليه أخاه، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) آية: ٦٩. وعلى هذا يكون يوسف تعارف مع بنيامين ويكون طبعا تواطأ معه على وضع صواع الملك في رحلة، وهذا أقبل للعقل.
٤٥ - لا شيء في مقابله.	٤٥ - (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية - إلى قوله: - (والله أعلم بما تصفون: ٧٠-٧٧)
٤٦ - تذكر التوراة هذا عن لسان يهوذا حيث يقول ليوسف: (فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيّدي، ويصعد	٤٦ - (قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين.، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من

رفع المسابهم

القرآن الكريم	التوراة
وجدنا متاعنا عنده، إنا إذاً لظالمون) (آية: ٧٨ و٧٩)	الغلام مع إخوته، لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي، لئلا أنظر الشرّ الذي يصيب أبي) (تك ٤٤ :٣٣ و ٣٤).
٤٧ - (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً - إلى قوله - سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) (من آية: ٨٠-٩٨)	٤٧ - لا يوجد في مقابلته شيء.
٤٨ - يوجد في القرآن الكريم أن إخوة يوسف سافروا إليه ثلاث سفرات، وأنه إنما أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثالثة، وبعد أن كانوا رجعوا إلى الشام لأبيهم وأخبروه بسرقة بنيامين وقبل الختام نقول على حسب القرآن الكريم تكون سفراتهم لمصر أربع مرات.	٤٨ - المذكور في التوراة أن إخوة يوسف إنما سافروا إليه سفْرتين فقط، وأنه أظهر نفسه لهم بعد سفْرتهم الثانية على أثر تسْرِيق أخيه بنيامين وعليه فهم لم يرجعوا إلى أبيهم في الشام إلا وهم مخبروه بظهور يوسف وانكشافه لهم، وقبل الختام نقول على حسب التوراة، تكون سفراتهم لمصر ثلاث مرات فقط.
٤٩ - (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه إلى أن قال: - ورفع أبويه على العرش) (آية: ٩٩، ١٠٠)	٤٩ - لا يوجد في مقابلته شيء.
٥٠ - (وخروا له سجدا) آية/ ١٠٠ ففيه أن خرورهم له سجداً كان على أثر دخولهم مصر، وطبعاً كان قبل موت أبيهم، وفيه أن الخارِّينَ له سجداً، ليس الإخوة فقط، بل هم وأبواه.	٥٠ - قال بعد قصة موت يعقوب ودفنه: (وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه) (تك ٥٠-١٨) ففيه أن هذا السجود من إخوته له كان بعد موت أبيهم ودفْنه، وفيه أن الساجدين هم الإخوة فقط، دون الأبوين طبعاً.
٥١ - في القرآن الكريم: (وقال يا أبت هذا	٥١ - لا يقابله شيء.

رفع المستهمم

القرآن الكريم	التوراة
تأويل رؤياي من قبل - إلى قوله (إنه هو العليم الحكلم) آية: ١٠٠.	
٥٢ - (توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين) آية: ١٠١.	٥٢ - (وقال يوسف لأخوته: أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً: الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين، فحنَّطوه ووضع في تابوت في مصر) (تك ٥٠-٢٥ و٢٦).

هذا ومن المقارنة السابقة بين آيات قصة يوسف - عليه السلام - في القرآن وبين ما جاء عنها في التوراة يظهر واضحاً بينهما، سواء في المدخل إلى هذه القصة، أو في أسلوب عرض الأحداث، أو في الأحداث نفسها، وأهم هذه الفروق هي أن القرآن الكريم يَضَعُ القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحيَّة إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله تعالى القصة.

أما التوراة، فقد وضعت القصة في إطار عائلي يحمل طابع السَّرْد التاريخي المجرد، دون أن يشير كالقرآن الكريم إلى ما وراء الأحداث من عظات بالغة، إضافة إلى التناقض الصريح بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة في مواضع متعددة، ويبقى الحكم الأخير والفاصل في تلك القصة اليوسفية المباركة للقرآن العظيم، فهو المهيمن والحاكم على كل من سبقه من الكتب، لأنه محفوظ من كل تغيير أو تبديل أو تحريف، كما قال عز وجل «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر: ٩).

رفع المستهم

ثانياً: تأملات في هذه السورة الكريمة

والمتأمل في السورة الكريمة، سورة يوسف - عليه السلام - يرى عجباً، فليتأمل ما تشتمل عليه هذه السورة من آداب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ومن آداب الأخلاق والتَّمسك بالصبر والحلم وتوقع الفرج بعد حين، والتَّشَدُّد في الصبر على المعاصي واحتمال المكاره، على ما لو تأمله القارئ وتمسك بكله أو بعضه لعظم موقع ذلك في دينه ودنياه.

فليتأمل القارئ **أولاً:** رؤيا يوسف - عليه السلام - الكواكب والشمس والقمر وأن أباه يعقوب - عليه السلام - أمره كما تقدم بكتمان ذلك عن إخوته، والصبر في كتمان ذلك صعب، فاحتمله تحرزاً من حسدهم، وليتأمل **ثانياً**، كيف جَادَ به على إخوته لئلا يستوحشُوا، وظنَّ السلامة مع خوفه منهم عليه حتى أقدموا على ما أقدموا، وليتأمل **ثالثاً**، أنه بعد ظهور ذلك منهم كيف احتملهم ولم يجازهم على ما فعلوا بقطعهم وإخراجهم عن محبته وعن النظر لهم، وليتأمل **رابعاً**، صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز، وكيف تشدَّد في الاحتراز عنها، واحتمل لذلك الحبس الطويل، حتى كانت عاقبة صبره من اعتراف الكل بِصيانته ووصُوله إلى الملك والبغية، وليتأمل **خامساً**، ما دفع إليه إخوته في تلك السنين الصَّعبة من التودد إلى يوسف -عليه السلام- يطلبون من جهته القوت، واحتمالهم لما عاملهم به، وليتأمل **سادساً**، كيف صبر عليهم، وكيف احتمل في تخليص أخيه إلى حضرته واحتباسه عنده على مهل، وقد كان يمكنه التَّعْجيل، وليتأمل **سابعاً**، كيف حَسُنَتْ معاملته مع إخوته حين ظفر بهم، وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به، وليتأمل **ثامناً**، كيف توصَّل إلى إزالة الغمَّة عن قلب أبيه وصَبَرَ إلى أن ظفر بالوقت الذي أمكنه فيه إحضاره عنده على أحسن الوجوه، وليتأمل **تاسعاً**، كيف كان صبر يعقوب - عليه السلام - في بابه وفي باب غَيْبَة أخيه، وهو كالراجي لعودهما إليه واجتماعه معهما، وليتأمل **عاشراً**، كيف قبل يوسف - عليه السلام - عذر إخوته وقد اعتذروا إليه، مع تلك الجنايات العظام فكان جوابه



(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين) يوسف/ ٥٢، وليتأمل حادي عشر، كيف قَبِلَ يعقوب أيضاً عذرهم وزاد بأن قال: (سوف أستغفر لكم ربي، إنه هو الغفور الرحيم) يوسف/ ٩٨، إلى وجوه آخر من العبر في نواح مختلفة، وفيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباءاً بأمر مُغَيَّب، وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده، وتحاسد القرابة فيما بينهم، ولطف الله بمن يصطفيه من عباده، والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة والصِّدق، والتَّوبة، وسكني إسرائيل وبنيه بأرض مصر، والعبرة بِصَبْر الأنبياء مثل يعقوب، ويوسف عليهما السلام - على البلوى وكيف تكون لهم العاقبة.

ففي هذه القصة عبر وعظات، وتسلية للرسول - ﷺ - والمؤمنين، وكأن الله عزَّ وجل يقول بلسان الحال: فلا بد أن توطّد نفسك يا محمد أنت والذين آمنوا معك على تحمل البلاء والشدائد اقتداء بمن سبق، وهكذا جاءت قصة يوسف تَثْبيتاً للرسول - ﷺ - والمؤمنين وتسلية لهم، وجاءت تحمل في طياتها البِشْر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، وكيف تتحوَّل المحنة في حق الصابرين إلى منحة، وهذه سنة الله في خلقه، الاصطفاء بعد الابتلاء، وفي ذلك سلوى لكل من سار على طريق الأنبياء في كل زمان ومكان، فما أشد حاجة المسلمين إلى الاعتبار بذلك في زمن انتشرت فيه الفتن، وتوالت فيه المحن، وطال ظلام الليل حتى غمر اليأس قلوب الكثيرين إلا ما رحم ربي، ما أحوجنا إلى عدم اليأس من روح الله، فإنه قرين الكفر، ما أحوجنا إلى تدبر حكمة الله تعالى ولطفه وتمكينه لأوليائه من حيث لا يشعرون، ما أحوجنا إلى تدبر قول الله تعالى: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»(١) ما أحوج الدعاة إلى الله أن يزِنُوا الأمور بميزان الشرع لا بميزان الواقع، فالفرق بينهما كبير.

---

(١) يوسف/ ٢١.

رفع المسيهما

ثالثاً: قصة يوسف - عليه السلام - درس عظيم لكل أسرة ولكل أمة:

من المعلوم الثابت أن قصة يوسف – عليه السلام – هي قصة نبي ورسول، وقصة قوم ورسالة، وقد اشتملت على كثير من العبر والهدايات مما لا يدخل تحت حصر أو عدّ، وقد سبق ذكر شيء منها في خواتيم تفسير الآيات الشريفة...

ومع هذا فالقصة في إطارها العام تدور حول محور الأسرة وطبيعة العلاقات المختلفة بين أفرادها، لتقدم درساً إلهيّاً خالداً لكل أسرة ولكل أمة...

وقد أطلعتنا القصة الكريمة أولاً، على أسرة يعقوب – عليه السلام – وهي تحيا حياة طيبة راضية، وكيف لا، وهي تستظل بظل والد حنون ونبي كريم هو يعقوب – عليه السلام – ثم أزاحت القصة الستار عن هذه الأسرة ثانياً، بعد أن لعب الشيطان لعبته مع إخوة يوسف، حتى ظنوا ظن الجاهلية، أنه لن يصلح حالهم ولن يخلوا لهم قلب أبيهم ووجهه إلا بالخلاص من يوسف الذي يحبه الحب الأعظم،...

ومن وقت تنفيذ خطتهم الآثمة بإلقاء يوسف في الجب وتطور الأحداث حتى قرابة انتهاء القصة، رأينا أسرة يعقوب وقد احتوتها سحابة كثيفة من الهموم والآلام والأحزان، حتى فقد الأب الحنون بصره من شدة حزنه على حبيبه يوسف، ثم عمّتهم مجاعة قاتلة، اضطروا بسببها للذهاب إلى مصر للحصول على الطعام من بين يدي هذا الذي ظنوا أنه الوحيد الذي يحول بينهم وبين صلاح حالهم، ولما عادوا من رحلتهم الثانية إلى مصر دون أخيهم (بنيامين) وأخيهم الكبير، واجتمعوا وحدهم بأبيهم دون يوسف وأخيه، لم يخل لهم وجه أبيهم كما توهموا في السابق، بل كان حال أبيهم منهم كما عبّر عنه القرآن الكريم: (وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف...) هنالك أيقنوا أنه لا سعادة لآل يعقوب إلا بجمع الشمل وإحياء أواصر القربى والمودة، ولهذه فإنهم لم يعارضوا والدهم أو يتشبثوا بكذبهم السابق بأن الذئب أكل يوسف حين أمرهم بالرجوع إلى مصر في الحال للبحث عن يوسف وأخيه (يا بنيَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله...)

رفع المستهمر

وحان الحين الذي قدره الله رب العالمين، وكشفت القصة أخيراً عن يوسف - عليه السلام - نبي الله ورسوله وعزيز مصر، وهو يُعرّف نفسه لإخوته، واعترفوا بخطئهم نحوه، فغفر لهم - وتم الأمر باجتماع آل يعقوب جميعاً في أرض مصر المباركة، فعاد للأسرة الكريمة حياتها الطيبة الوارفة مُنضويَة تحت ظل الوالد النبي الرحيم يعقوب - عليه السلام - وتحت قيادة وهداية الأخ النبي الحبيب، يوسف - عليه السلام - فعلى رب كل أسرة أن يتعلم الدرس جيداً من يعقوب - عليه السلام - وليتدبر كيف قابل يعقوب - عليه السلام - أبناءه وقد واجهوه بأقسى خبر على نفسه وقلبه، «وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب» إنه لم يقف منهم موقف المحاسب المجازي بعد أن علم كذبهم في خبرهم عن يوسف، ولم يزد أن عرّض بكذبهم وصبر الصبر الجميل واستعان بالله تعالى على ما يصفون «قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون» لقد كظم غيظه وقبض على ألمه بنفسه، ستراً على أبنائه وترك الباب أمامهم مفتوحاً لعلهم يعودوا رلى الرشد والصواب، ويعيدوا إليه حبيبه يوسف... وكان هذا بعد مرور سنين طويلة حين عادوا إلى مصر أخيراً يتحسّسون من يوسف وأخيه، والتأَمَ شمل الجميع، ولو أن يعقوب - عليه السلام - وقف منهم موقفاً آخر وشدّد عليهم وكذبهم وفضحهم أمام آل يعقوب كلهم والناس لتفرقت الأسرة اليعقوبية إلى الأبد.

فعلى رب كل أسرة إذا وجد من أفراد أسرته تمرداً أو خروجاً على الشرعية، ألا يسارع بالعقاب وتوقيع الجزاء، وأن يبادر الأمر بالستر والصبر وطلب الاستعانة من الله تعالى، فهو وحده القادر على إصلاح النفوس وهدايتها...

إن القصة الكريمة الهادية تبين لنا في وضوح تام، أنه لا توجد أسرة ما محصّنة ضد وقوع المخالفات أو المشاحنات أو الخصومات فيما بينها حتى ولو كانت هذه الأسرة أسرة نبي كريم ورسول حليم كيعقوب - عليه السلام - إنها فتن وابتلاءات من نوع



شديد وقعه على النفوس لأنها بين قرابات، ومعالجتها بالحكمة والتروي مع الاستعانة بالله تعالى يكفل إصلاح الحال والبال وعودة الأمور إلى حالتها الطيبة. والقصة الكريمة الهادية درس عظيم أيضاً لكل أمة ونخص بذلك الأمة الإسلامية، التي هي في الإسلام بمثابة أسرة كبيرة، فقد جعل الله تعالى المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ»(١).

وأكّدَ القرآن الكريم أن كل مؤمن أخ لأخيه المؤمن «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»(٢) وأعلمت السّنة المطهرة أنّ كل مؤمن إنما هو بمثابة جزء مكمل ومساند لأخيه المؤمن ضمن البناء الإسلامي المتكامل (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدّ بعضُه بعضاً)(٣) هذه الأسرة المسلمة الكبيرة المتمثلة في الأمة الإسلامية التي اختارها الله تعالى واصطفاها من بين كل أمم الأرض لتكون حاملة لرسالة الإسلام ودعوة الحق إلى العالمين، ما رأيناها متحدة متآلفة متعاونة مستظلة بظل كتاب الله وسنة رسوله محمد - ﷺ - إلا وكانت أعز الأمم وأشرف الأمم وأرقى الأمم وأرحمها بخلق الله، وما رأيناها متفرّقة متناحرة ممزّقة إلا وصارت نهباً لأذل الأمم وأقذر الشعوب جزاء تخلفها عن حمل منهج السماء واستبداله بمناهج أهل الأرض الضالين، ولن يعود للأمة الإسلامية عزتها ومجدها وهيبتها وكرامتها وريادتها للأمم، ولن ينصلح حالها إلا بجمع الكلمة ولمّ الشمل على كلمة سواء، هي كلمة الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ويصْبحوا أهلاً لذلك التاج الرباني الذي اختصه الله بهم

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»(٤).

نسأل الله تعالى أن يعيد للأمة الإسلامية عزها ومجدها، إنه جواد كريم، وبالإجابة جدير، وهو على كل شيء قدير، اللهم آمين.

---

(١) التوبة / ٧١.   (٢) الحجرات / ١٠.

(٣) البخاري (١٣ / ٣٠٣) ومسلم (١٣١٩)

(٤) آل عمران / ١١٠.



والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات والحمد لله أولاً وآخراً،

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

اللهم صَلِّ وسلم على عبدك ونبيك ورسولك وخليلك محمد - ﷺ - وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وتابعيه الأبرار إلى يوم لقاء الله الواحد الغفار.

تم بحمد الله تعالى في رمضان ١٤٢٤هـ

الموافق نوفمبر ٢٠٠٣م

الفقير إلى ربه تعالى

عليش متولي بدوي البني

إمام وخطيب مسجد جمعة الحسينان

الأندلس ق١٢ (دولة الكويت)

من قرية ميت الرخاء - مركز زفتي -

محافظة الغربية (جمهورية مصر العربية)

رفع المسيهم

أهم المصادر والمراجع

أولا - من كتب التفسير:

مسلسل	المرجع
١	أبوبكر الجزائري (أيسر التفاسير) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٢	أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (دقائق التفسير) تحقيق د/ محمد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
٣	أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (الدر المصون) تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م
٤	أحمد مصطفى المراغي (تفسير المراغي) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
٥	الحسين بن مسعود البغوي (تفسير البغوي) تحقيق محمد النمر، دار طيبة، الرياض، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
٦	برهان الدين بن عمر البقاعي (نظم الدرر) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٧	جار الله محمود بن عمر الزمخشري (تفسير الكشاف) مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.
٨	جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (الدر المنثور) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٩	جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي (تفسير الجلالين) دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى (ت)
١٠	جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي (زاد المسير) المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.



مسلسل	المــرجــع
١١	حسنين محمد مخلوف (صفوة البيان) وزارة الأوقاف، دولة الكويت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م
١٢	سيد قطب (في ظلال القرآن) دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
١٣	شهاب الدين الألوسي (روح المعاني) صححه علي عبدالباري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٢م.
١٤	صديق بن حسن القنوجي البخاري (فتح البيان) راجعه عبدالله الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
١٥	عبدالحق بن غالب الأندلسي (المحرر الوجيز) مكتبة بن تيمية، القاهرة، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢م.
١٦	عبدالرحمن بن أبي حاتم التميمي (تفسير القرآن العظيم) تحقيق أسعد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
١٧	عبدالرحمن ناصر السعدي (تيسير الكريم الرحمن) عالم الكتب بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.
١٨	علي بن حبيب الماوردي، وزارة الأوقاف، دولة الكويت، ١٤٢٠هـ- ١٩٨٢م.
١٩	عماد الدين اسماعيل بن كثير (تفسير القرآن العظيم) دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م.
٢٠	محمد الأمين الشنقيطي (أضواء البيان) عالم الكتب، بيروت
٢١	محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) دار الكتاب العربي، ١٣٧٢ هـ١٩٥٢م.
٢٢	محمد بن جرير الطبري (جامع البيان) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٢٣	محمد بن علي الشوكاني (فتح القدير) تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة (ج م ع) ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٢٤	محمد بن محمد العمادي (تفسير أبي السعود) دار إحياء التراث العربي، بيروت

رفع المسهم

مسلسل	المـرجـع
٢٥	محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (تفسير البحر المحيط) تحقيق عادل عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ١٩٩٣م.
٢٦	محمد الرازي فخر الدين (تفسير الفخر الرازي) دار الفكر، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٢٧	محمد جمال الدين القاسمي (تفسير القاسمي) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٢٨	محمد رشيد رضا (تفسير المنار) دار الفكر، بيروت،
٢٩	محمد سليمان عبدالله الأشقر (زبدة التفسير) وزارة الأوقاف، دولة الكويت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م
٣٠	محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة يوسف) شرائط مسجلة.
٣١	محمد محمود حجازي (التفسير الواضح) دار التفسير للطباعة، الزقازيق (ج م ع) ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.
٣٢	محمد نسيب الرفاعي (تسير العلي القدير) مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م
٣٣	ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي (تفسير البيضاوي) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٣٤	نصر بن محمد أبوالليث السمرقندي (تفسير بحر العلوم) تحقيق محب الدين، دار الفكر، بيروت.
٣٥	وهبة الزحيلي (التفسير المنير) دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.



ثانياً - من كتب علوم القرآن الكريم:

مسلسل	المرجع
١	أبوبكر بن العربي (أحكام القرآن) راجعه محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢	ابن خالوية (الحجة في القراءات السبع) تحقيق د. عبدالعال مكرم، دار الشروق بيروت.
٣	أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ملاك التأويل) تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٤	أحمد بن محمد إسماعيل النحاس (إعراب القرآن) تحقيق د/ زهير غازي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٥	بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
٦	تقي الدين بن العباس المعروف بابن تيمية (مقدمة التفسير) دارالوطن، الرياض، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٧	جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تعليق د/ مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٨	الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
٩	سعيد بن مسعدة البلغي (معاني القرآن) تحقيق د/ محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٠	سعيد حوي (الأساس في التفسير) دار السلام - القاهرة
١١	السيد أحمد صقر (تفسير غريب القرآن) مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.



مسلسل	المـرجـع
١٢	سيد قطب (التصوير الفني في القرآن) دارالمعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة.
١٣	صبحي الصالح (مباحث في علوم القرآن) دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م.
١٤	صلاح عبدالفتاح الخالدي (التفسير والتأويل في القرآن) دار النفائس، عمان - الأردن ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
١٥	عبدالرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي (تذكرة الأريب في تفسير الغريب) تحقيق د/ علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
١٦	عبدالله بن مسلم بن قتيبة (تأويل مشكل القرآن) تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.
١٧	عبدالله الحسين العكبري (التبيان في إعراب القرآن) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٨	عماد الدين أبي الحسن عبدالجبار بن أحمد (تنزيه القرآن عن المطاعن) دار النهضة الحديثة، بيروت، الطبعة الأولى.
١٩	مجمع اللغة العربية، القاهرة (معجم ألفاظ القرآن الكريم) الإدارة العام للمجمعات وإحياء التراث ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٢٠	محمد أبو زهرة (المعجزة الكبرى القرآن) دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢١	محمد بن سلمان الكافيجي (التيسير في قواعد علم التفسير) تحقيق ناصر محمد المطرودي، دار القلم، دمشق ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٢	محمد بن محمد أبوشهبة (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير) مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ
٢٣	محمد بن محمد أبوشهبة (المدخل لدراسة القرآن) مكتبة السنة بالقاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

مسلسل	المـرجـع
٢٤	محمد حسين الذهبي (التفسير والمفسرون) دار الصحوة، القاهرة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
٢٥	محمد حسين فضل الله (الحوار في القرآن) الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى.
٢٦	محمد الراوي (حديث القرآن عن القرآن) مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٢٧	محمد عبدالهادي أبوريدة (مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوة والأخلاق والكون) مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٢٨	محمد الغزالي (كيف نتعامل مع القرآن) دار الوفاء، المنصورة (ج م ع)، ١٤١هـ- ١٩٩٢م.
٢٩	محمد الغزالي (المحاور الخمسة للقرآن) دار الصحوة، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
٣٠	محمد فؤاد عبدالباقي (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٣١	محي الدين الدرويش (إعراب القرآن الكريم وبيانه) اليمامة، دمشق ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٣٢	محمود السيد حسن مصطفى (الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية) مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨١م.
٣٣	مصطفى صادق الرافعي (إعجاز القرآن) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
٣٤	معمّر بن المثنّى التّيمي (مجاز القرآن) علق عليه محمد فؤاد سزكين (ط) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٣٥	مناع القطان (مباحث في علوم القرآن) مؤسسة الرسالة، بيرووت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٣٦	المنتَجِبْ حسين بن أبي العز الهمداني (الفريد في إعراب القرآن المجيد) تحقيق فؤاد علي مخيمر، الدوحة، دار الثقافة ( )



مسلسل	المرجع
٣٧	نخبة من العلماء والباحثين (قاموس القرآن) مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٣٨	يوسف القرضاوي (المرجعية في الإسلام للقرآن والسنة) مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

رفع المسـاهم

ثالثاً - كتب عن القصص القرآني وقصة يوسف - عليه السلام -:

مسلسل	المرجع
١	أحمد النجولي الجمل (القصة في القرآن الكريم) مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا
٢	أحمد عز الدين خلف الله (يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٣	أحمد نوفل (سورة يوسف - دراسة تحليلية) دار الفرقان، الأردن، عَمَّان ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٤	التهامي النقرة (سيكولوجية القصة في القرآن) جامعة الجزائر ١٩٧٠م.
٥	السيد عبدالمقصود عسكر (القصص القرآني إقناع وإبداع) دار التبشير - طنطا - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٦	حسن محمد باجودة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف) دار الكتب الحديثة، القاهرة (ت)
٧	زاهية الدجاني (يوسف في القرآن والتوراة) دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٨	عبدالرازق السيد عيد (وقفات مع القصة في كتاب الله) عن مجلة التوحيد، القاهرة.
٩	عبدالحميد جودة السحار (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه) دار مصر للطباعة (ت)
١٠	عبدالعزيز كامل (دروس من سورة يوسف) ذات السلاسل، الكويت (ت)
١١	عبدالكريم الخطيب (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه) دار الفكر العربي، الطبعة الأولى (ت)
١٢	عبدالله العلمي الغزّي الدّمشقي (مؤتمر تفسير سورة يوسف) دارالفكر، دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

مسلسل	المرجع
١٣	عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء) دار التراث، القاهرة (ت ط)
١٤	عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن كثير القرشي (قصص الأنبياء) دار الكتب الحديثة، الكويت ١٩٨٩م.
١٥	عماد زهير حافظ (القصص القرآني) دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
١٦	محمد أحمد جاد المولى (قصص القرآن) دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
١٧	محمد بكر إسماعيل (لطائف البيان في سورة يوسف - عليه السلام -)
١٨	محمد البهي (تفسير سورة يوسف) مكتبة وهبة، القاهرة، (ط - ت)
١٩	محمد السيد الوكيل (نظرات في أحسن القصص) الدار الشامية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٠	محمد طه الباليساني (القول المنصف في تفسير سورة يوسف) وزارة الأوقاف العراقية، ١٩٨٢م.
٢١	محمد الطيب النجار (تاريخ الأنبياء) مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٢٢	محمود شلبي (حياة يوسف) مكتبة القاهرة الحديثة، (ت)

رفع المسهم

رابعاً - من الكتب المعاونة:

مسلسل	المرجع
١	أحمد بن حجر العسقلاني (فتح الباري بشرح البخاري) دار المطبعة السلفية - القاهرة - ١٤٠٧هـ.
٢	أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام تقي الدين بن تيمية (النبَّوات) تحقيق محمد عبدالرحمن - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
٣	له أيضاً، (العبودية) مكتبة المعارف - الرياض (ط ت)
٤	السيد عبدالمقصود عسكر (بستان الدعاة) دار البشير طنطا - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٥	جلال الدين السيوطي (طبقات المفسرين) دار الكتب العلمية - بيروت (ط ت)
٦	جمال الدين محمد بن منظور المصري (لسان العرب) دار صادر - بيروت - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٧	شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (مدارج السالكين) حققه أحمد فخري الرفاعي - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٨	له أيضاً (طريق الهجرتين) دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٨٠م.
٩	له أيضاً (إغاثة اللّهاف) تحقيق خالد عبداللطيف العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
١٠	له أيضاً (الفوائد) تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٢م.
١١	عبدالرحمن بن الجوزي (صيد الخاطر) تحقيق د/ عبدالرحمن البر، دار القبلتين، الرياض ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
١٢	عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (الأخلاق الإسلامية وأسسها) دار القلم - دمشق ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٣	له أيضا (العقيدة الإسلامية وأسسها) دار القلم - دمشق ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
	مجمع اللغة العربية (المعجم الوسيط) مطابع دار المعارف - مصر - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

مسلسل	المـرجـع
١٤	محمد عبدالرؤوف المناوي (فيض القدير شرح الجامع الصغير) دار الفكر - بيروت (ط ت).
١٥	محمد متولي الشعراوي (معجزات الأنبياء والرسل) مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة، الطبعة الأولى (ت)
١٦	له أيضاً (هذا هو الإسلام) مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - الطبعة الأولى (ت)
١٧	محمود مهدي الاستنبولي (طه حسين في ميزان العلماء) المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

فهرس الآيات - الجزء الثالث

من الآية الثامنة والخمسين إلى آخر السورة الكريمة

الموضوع	رقم الصفحة
(الباب الثالث) الفصل الأول	
الآية الثامنة والخمسون (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه... الآية)	١١١٧
لحظة اللقاء الحاسمة	١١٢٣
الآية التاسعة والخمسون (ولما جهز بجهازهم قال ائتوني... الآية)	١١٢٧
الآية الستون (فإن لم تأتوني به... الآية)	١١٣٧
الآية الواحدة والستون (قالوا سنراود عنه أباه... الآية)	١١٤١
الآية الثانية والستون (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم... الآية)	١١٤٥
الآية الثالثة والستون (فلما رجعوا إلى أبيهم... الآية)	١١٥٥
الآية الرابعة والستون (قال هل آمنكم عليه... الآية)	١١٦٠
الآية الخامسة والستون (ولما فتحوا متاعهم... الآية)	١١٧١
الآية السادسة والستون (قال لن أرسله معكم حتى... الآية)	١١٨٠
الآية السابعة والستون (وقال يا بني لا تدخلوا... الآية)	١١٨٦
الآية الثامنة والستون (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم... الآية)	١٢٠٣
الفصل الثاني	
الآية التاسعة والستون (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه... الآية)	١٢١٩
الآية السبعون (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية... الآية)	١٢٢٧
الآية الواحدة والسبعون (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون)	١٢٤٣
الآية الثانية والسبعون (قالوا نفقد صواع الملك... الآية)	١٢٤٤
الآية الثالثة والسبعون (قالوا تالله لقد علمتم... الآية)	١٢٥٠



الموضوع	رقم الصفحة
الآية الرابعة والسبعون (قالوا فما جزاؤه... الآية)	١٢٥٣
الآية الخامسة والسبعون (قالوا جزاؤه من وجد في رحله... الآية)	١٢٥٤
الآية السادسة والسبعون (فبدأ بأوعيتهم... الآية)	١٢٥٦
الآية السابعة والسبعون (قالوا إن يسرق... الآية)	١٢٨٣
الآية الثامنة والسبعون (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا... الآية)	١٣٠٢
الآية التاسعة والسبعون (قال معاذ الله أن نأخذ... الآية)	١٣٠٦
الآية الثمانون (فلما استيأسوا منه... الآية)	١٣١٥
الآية الواحدة والثمانون (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا... الآية)	١٣٢٣
الآية الثانية والثمانون (واسأل القرية... الآية)	١٣٢٥
الآية الثالثة والثمانون (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا... الآية)	١٣٣١
الآية الرابعة والثمانون (وتولى عنهم وقال يا أسفى... الآية)	١٣٤١
الآية الخامسة والثمانون (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف... الآية)	١٣٥٦
الآية السادسة والثمانون (قال إنما أشكو بثي وحزني... الآية)	١٣٦٣
الآية السابعة والثمانون (يا بني اذهبوا فتحسسوا من... الآية)	١٣٦٩
الفصل الثالث	
الآية الثامنة والثمانون (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز... الآية) ...	١٣٨٧
الآية التاسعة والثمانون (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه... (الآية)	١٤٠٠
الآية التسعون (قالوا أئنك لأنت يوسف... الآية)	١٤٠٧
الآية الواحدة والتسعون (قالوا تالله لقد أثرك الله علينا... الآية)	١٤١٩
الآية الثانية والتسعون (قال لا تثريب عليكم اليوم... الآية)	١٤٢٤
الآية الثالثة والتسعون (اذهبوا بقيمصي هذا... الآية)	١٤٣٣



رقم الصفحة	الموضوع
١٤٤٧	الآية الرابعة والتسعون (ولما فصلت العير قال أبوهم... الآية) ....
١٤٥٤	الآية الخامسة والتسعون (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم)..........
١٤٥٩	الآية السادسة والتسعون (فلما أن جاء البشير... الآية) ....
١٤٦٧	الآية السابعة والتسعون (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا... الآية) ....
١٤٧١	الآية الثامنة والتسعون (قال سوف أستغفر لكم ربي... الآية) ....
١٤٧٧	الآية التاسعة والتسعون (فلما دخلوا على يوسف آوى... الآية) ....
١٤٨٨	الآية المائة (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا... الآية) ....
١٥٠٧	الآية الواحد بعد المائة (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث... الآية) ....
	الفصل الرابع
١٥٣٧	الآية الثانية بعد المائة (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك... الآية) ....
١٥٤٥	الآية الثالثة بعد المائة (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ....
١٥٥٠	الآية الرابعة بعد المائة (وما تسألهم عليه من أجر... الآية) ....
١٥٥٤	الآية الخامسة بعد المائة (وكأين من آية في السماوات والأرض... الآية)
١٥٦٣	الآية السادسة بعد المائة (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)......
١٥٧٢	الآية السابعة بعد المائة (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله... الآية)
١٥٧٧	الآية الثامنة بعد المائة (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله... الآية) ....
١٥٨٩	الآية التاسعة بعد المائة (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا... الآية) ....
١٥٠٦	الآية العاشرة بعد المائة (حتى إذا استيأس الرسل... الآية) ....
١٦٢٢	الآية الحادية عشر بعد المائة (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب... الآية)..........
١٦٣٩	(خاتمة) وتشتمل على ما يلي: ....



الموضوع	رقم الصفحة
أولاً: مقارنة بين آيات قصة يوسف في القرآن الكريم وفي التوراة	١٦٣٩
ثانياً: تأملات في هذه السورة الكريمة	١٦٥٢
ثالثاً: قصة يوسف - عليه السلام - درس عظيم لكل أسرة ولكل أمة	١٦٥٤
الفهرس	١٦٦٩

طبع بمطابع القبس التجارية

رفع المسهم